مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ السَّابِعُ والخَمسُون

سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

حكومة الشارقة Government of Sharjah
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ السَّابِعُ والخَمسُون

سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَمَاء مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشَّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2026

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والخمسون،
سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م

الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والخمسون، سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 57 ، 802 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-650-27-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 57 : المجلد السابع والخمسون، سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-650-27-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4331956 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ السَّادِسُ وَالعِشْرُونَ

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥﴾ [الحجرات: 15]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بيانُ حقيقةِ الإيمانِ لِمَن لا يعرفُها حقَّ المعرفةِ

في مناسبةِ الآيةِ لما قبلَها وجهانِ: أوَّلُهما: أنَّها إرشادٌ للأعرابِ الَّذينَ قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ إلى حقيقةِ الإيمانِ(1). وثانيهما: أنَّها وصفٌ للمؤمنينَ المخلصينَ بعدَ ذكرِ المؤمنينَ غيرِ المخلِصينَ(2)، وهذانِ الوجهانِ وجهٌ واحدٌ عند التَّأمُّلِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَمْ يَرْتَابُواْ﴾: (ريب) أصلٌ يدلُّ على شكٍّ وخوفٍ، ومن ذلكَ تقولُ: رابَني هذا الأمرُ؛ إذا أدخلَ عليكَ شَكًّا وخَوْفًا(3)، وأرابَ الرَّجلُ: صارَ مُريبًا ذا ريبةٍ(4)، واسترَبْتُ بهِ: رأيتُ منهُ ما يَريبُني(5)، والرِّيبةُ: قَلَقُ النَّفْسِ واضطرابُها، فإنَّ كونَ الأمرِ مشكوكًا فيهِ ممّا تَقلَقُ لهُ النُّفوسُ، ولا تستقرُّهُ، وكونَهُ صادقًا ممّا تطمئنُّ لهُ، ورَيْبُ الزَّمانِ: نوائبُهُ الَّتي تَقْلَقُ لها النُّفوسُ، وتَشْخَصُ فيها القُلوبُ(6)، والمَرادُ هنا: أنَّهم آمَنوا، ثُمَّ لم يَقَع في نُفوسهم شَكٌّ فيما آمنوا بهِ، ولا اتِّهامٌ لِمَن صدَّقوهُ، واعترَفوا بأنَّ الحقَّ منهُ(7).

2) ﴿وَجَٰهَدُواْ﴾: (جهد) أصلٌ يدلُّ على المَشَقَّةِ، ومن ذلكَ:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 117، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 388.
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 359، والنيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 169.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ريب).
(4) الخليل، العين: (ريب).
(5) الجوهري، الصحاح: (ريب).
(6) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ريب).
(7) الزمخشري، الكشاف: 4/ 377.

الاجتهادُ، وهو أخْذُ النَّفْسِ ببذلِ الطّاقةِ وتحمُّلِ المشقَّةِ، والجهادُ والمجاهدةُ: استفراغُ الوُسْعِ في مدافعةِ العدوِّ، والجهادُ ثلاثةُ أضربٍ: مجاهدةُ العدوِّ الظّاهرِ، ومجاهدةُ الشَّيطانِ، ومجاهدةُ النَّفسِ[1]، والمرادُ هنا: مقاتلةُ العدوِّ، أو جميعُ أنواعِ الجهادِ[2].

3) ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾: (سبل) أصلٌ يدلُّ على امتدادِ شيءٍ، ومن ذلكَ يقالُ: أسبلَ الزَّرعُ؛ إذا خرجَ سُنْبُلُه، وامتدَّ طولًا[3]، والسَّبيل: الطَّريقُ الَّذي فيهِ سُهولةٌ، ويقالُ لسالكِ السَّبيلِ: سابلٌ، ويُستعمَلُ السَّبيلُ لكلِّ ما يُتوصَّلُ بهِ إلى شيءٍ، خيرًا كانَ أو شرًّا[4]، والمرادُ بسبيلِ اللّه هنا: دينُه وطاعتُه[5].

4) ﴿ٱلصَّٰدِقُونَ﴾: (صدق) أصلٌ يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ قولًا وغيرَهُ، ومن ذلكَ: الصِّدقُ، وهو خلافُ الكذبِ، سُمّيَ بذلكَ؛ لقوَّته في نفسه، ولأنَّ الكذبَ لا قوَّةَ لهُ، فهو باطلٌ[6]، ويُستعمَلُ التَّصديقُ في كلِّ ما فيهِ تحقيقٌ[7]، والمرادُ هنا: خلافُ الكذبِ.

المَعْنى الإجْماليّ:

المؤمنونَ الكاملونَ أهلُ ثباتٍ وصدقٍ وجهادٍ في سبيلِ الله

يُخبِرُ اللّه تعالى عن حالِ المؤمنينَ الصّادقينَ في إيمانِهم، فيقولُ: إنَّما المؤمنونَ الكُمَّلُ الَّذينَ صدَّقوا اللّه ورسوله، ثمَّ لم يشكّوا، ولا تزلزلوا، بل ثبتوا على حالٍ واحدةٍ، وهي التَّصديقُ المَحْضُ، وبذلوا مُهَجَهُم ونفائسَ أموالِهم في طاعةِ اللّه ورضوانه، هؤلاءِ الَّذينَ يفعلونَ ذلكَ هم الصّادقونَ في قولِهم: (إنّا مؤمنونَ)، لا بعضُ الأعرابِ الَّذينَ ليسَ معهم مِنَ الدّينِ إلّا الكلمةُ الظّاهرةُ[8].

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جهد).
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 377، والطيبي، فتوح الغيب: 14/ 516.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبل).
(4) الراغب، المفردات: (سبل).
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 138.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).
(7) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (صدق).
(8) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 318، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 390.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾:

إيمانُ الأعرابِ المذكورينَ غيرُ مستوفٍ لشروطِ الإيمانِ الكاملِ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّهُ استئنافٌ فيه تعليلٌ لقوله: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾، فإنَّ (إنَّ) جزءٌ مِن ﴿إِنَّمَا﴾، وهي مفيدةٌ للتَّعليلِ، وقائمةٌ مقامَ فاءِ التَّفريعِ، والمعنى: إنَّما لم تكونوا مؤمنينَ؛ لأنَّ الإيمانَ ينافيهِ الارتيابُ[1]، فهو استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّه جوابُ سؤالٍ عن علَّةِ نفي أصلِ الإيمانِ عنهم، وذهَب البقاعيُّ إلى أنَّه جوابُ سؤالٍ سائلٍ، تقديرُهُ: فمنِ الَّذي آمنَ؟[2] فالفَصْلُ لشِبْه كمالِ الاتِّصالِ أيضًا.

نكتةُ توكيدِ ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾:

في التَّوكيدِ لفْتٌ إلى أهمّيَّةِ المعنَى سياقًا

أُكِّدَ قولُ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بأسلوبِ القَصْرِ بإنَّما؛ لتحقيقِ مضمونِ الكلامِ؛ لجليلِ أهمّيَّتِه في سياقِ تحريكِ الأعرابِ أصالةً وغيرِهم تبَعًا لتحقيقِ الإيمانِ، ولتنبيهِ مَن لم يستوفِ شرائطَ الإيمانِ على أنَّ إيمانَهُ غيرُ كاملٍ[3].

سرُّ إيثارِ ﴿إِنَّمَا﴾ دونَ غيرِها من أدواتِ القصر:

توبيخُ الجاهلِ بشرائطِ الإيمانِ وتجهيلُهُ

اختيرَ للقصرِ ﴿إِنَّمَا﴾ دونَ غيرِها في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ هذا الحكمَ مِن شأنه أن يُعلَمَ بأدنَى التفاتٍ؛ لأنَّ ﴿إِنَّمَا﴾ تُستعمَلُ في الأمرِ الَّذي مِن شأنه أن يكونَ معلومًا للمخاطَبِ، وفي ذلكَ توبيخٌ لهم شديدٌ[4].

دلالةُ تعريفِ: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾:

المؤمنُ الكاملُ هو المتَّصفُ بالصِّفاتِ المذكورةِ

تعريفُ المؤمنينَ بـ(أل) في قوله جلَّ مِن قائلٍ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 267.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 388.

(3) الشربيني، السراج المنير: 4/ 75.

(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 151.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ للجِنْسِ، الَّذي يتَّسِعُ لدخولِ الأعرابِ وغيرهم - مِمَّن لم يؤمنوا، ولم يدخلِ الإيمانُ في قلوبِهم - فيهِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالموصولِ في ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

مَـن رَسَـخ إيمانُه؛ كانَ معروفًا بهذه الأوصافِ في ميزانِ الله

جيءَ بالاسمِ الموصولِ في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الآية؛ للتَّنبيهِ بما في حيِّزِ الصِّلة، وما عُطِفَ عليهِ على علَّةِ استحقاقِ وصفِ الإيمانِ الكاملِ، وللتَّنْبيهِ على غايةِ فخامةِ هذه الأوصافِ الَّتي نُظِمَت صلةً للموصولِ، وشرَفِها وعِظَمِها، فإذا كانَت عُنْوانًا لهُم، يُعْرَفون، ويُشهَرون بها؛ فليجتهد هؤلاءِ الأعرابُ وغيرُهم في تحصيلِها، والتَّرقّي فيها، حتَّى يكونوا مِن المؤمنين، وللتَّمهيدِ للإخبارِ عنهم بأنَّهم الجديرونَ بأن يكونوا الصّادقينَ دونَ غيرِهم.

معنى الباءِ ودلالة التَّعبيرِ بها في ﴿بِٱللَّهِ﴾:

بقَدْرِ استحضارِ أوصافِ الله، ورسولِه في القلبِ والواقِعِ يكونُ قَدْرُ الإيمانِ

الباءُ في قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ لتعديةِ الفعلِ إلى المفعولِ، ومعنَى الإلصاقِ لا يكادُ يُفارقُها، فتدلُّ على غايةِ استحضارِ اللّه ورسولِه في النَّفْسِ والقلبِ والعقلِ وغايةِ طاعتهما، كما قال تعالى مِن قَبْلُ: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، فذلكَ هو الإيمانُ الحقيقيُّ في داخلِ الإنسانِ وخارِجِه المُتعلِّق به.

نكتةُ إيثارِ اسم الجلالةِ دونَ غيره:

المؤمنُ الكاملُ يؤمنُ بجميعِ صفاتِ الله

أوثِرَ اسمُ الجلالةِ دونَ غيره في قولِ الباري جلَّ وعزَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ لدلالته على جميعِ صفاتِ الجلالِ والكمالِ والجمالِ، فيفيدُ الكلامُ أنَّ المؤمنينَ الصّادقينَ قد آمنوا به ﷻ، وبجميعِ صفاته، وبرسوله ﷺ[1].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 389.

الإيمانُ بالرَّسولِ إيمانٌ بالله

نكتةُ الإضافةِ في ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾:

إضافةُ الرَّسولِ إلى الضَّميرِ الرّاجعِ إلى اسم الجلالةِ في قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ لتشريفه ﷺ بانتسابه إلى العظيم ﷻ، وإفادةِ أنَّ الإيمان بالرَّسولِ تابعٌ للإيمانِ باللّه، ومُؤسَّسٌ على كونه رسولَ اللّه، وهذا تعريفٌ بالرَّسولِ لِمثْلِ الأعرابِ، فرسولُ العظيمِ عظيمٌ يجبُ الإيمانُ بِهِ واتِّباعُهُ.

المذكورُ مِن الأركانِ ناظِرٌ إلى حالِ الأعرابِ

بلاغةُ الإيجازِ:

اقتُصِرَ على ذكرِ الإيمانِ باللّه ورسوله في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، ولم يُذكَرْ باقي أركانِ الإيمانِ إيجازًا؛ استغناءً بالمذكورين عن غيرِهما؛ بناءً على أنَّ الإيمانَ الكاملَ هو الشّاملُ لجميعِ أركانِ الإيمانِ؛ لأنَّ الإيمانَ بهما بِهِ يتحصَّلُ المرءُ على المعرفةِ الَّتي هيَ العِلْمُ، وغايتُها الحِكْمةُ[1]، وهذا هو الأَنْسَبُ بحالِ الأعرابِ الَّذي يقتضي الإيجازَ؛ ولأنَّ من مقاصدِ السّورةِ ذِكرَ الأدبِ معَ اللّه ورسوله، فذُكِرَ الإيمانُ بهما الَّذي هو أصلُ سائرِ الآدابِ.

الثَّباتُ على الإيمانِ شأنُهُ عظيمٌ

دلالةُ العطفِ بـ ﴿ثُمَّ﴾ في ﴿ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾:

عُطِفَ بـ﴿ثُمَّ﴾ الدّالَّةِ على التَّراخي في قوله تعالى ذكرُهُ: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾، مع أنَّ عدمَ الارتيابِ يجبُ أن يكونَ مُقارِنًا للإيمانِ؛ لأنَّ مَن وُجِدَ منهُ الإيمانُ ربَّما اعترضَهُ الشَّيطانُ أو بعضُ المضلّينَ، فشكَّكَهُ، وقذفَ في قلبه ما يثلِمُ يقينَهُ، أو نظرَ هو نظرًا غيرَ سديدٍ يُسبِّبُ لهُ الشَّكَّ، ثمَّ يستمرُّ على ذلكَ، فوُصِفَ المؤمنونَ حقًّا بالبُعْدِ عن هذهِ الموبقاتِ، ولأنَّ الإيقانَ وزوالَ الرَّيبِ لمّا كانَ مِلاكَ الإيمانِ؛ أُفرِدَ بالذِّكرِ بعدَ تقدُّمِ الإيمانِ؛ تنبيهًا على عُلوِّ شأنه، وعُطِفَ على الإيمانِ بكلمةِ التَّراخي؛ إشعارًا باستقراره في الأزمنةِ المتراخيةِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 389.

المتطاولةِ، وأنَّهُ لا يقتصرُ على وقتِ الإيمانِ[1]، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى مزيَّةِ الثَّباتِ على الإيمانِ[2].

الإيمانُ الصّادقُ لا يعتريهِ خللٌ أبدًا

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ في ﴿لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾:

عُبِّرَ بالمضارعِ المنفيِّ في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ انتفاءِ الرَّيبِ، وأنَّ المؤمنينَ الصّادقينَ لا يَعْتري إيمانَهم خللٌ في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ الكائنةِ بعدَ الإيمانِ، وهذا يَعني أنَّ الثَّباتَ على الإيمانِ يحتاجُ إلى مُجاهدةٍ مُتجدِّدةٍ، فضلًا عن التَّرقّي فيه، لا سيَّما: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أهلُ المستوَى الأدنى فيه.

حديثُ النَّفسِ معفوٌّ عنهُ

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الافتعالِ في ﴿لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ الافتعالِ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾؛ إشارةً إلى العفوِ عن حديثِ النَّفسِ الَّذي لا يستطيعُ الإنسانُ دفْعَ أصلِه، ويَكرهُهُ غايةَ الكراهةِ، ويجتهدُ في دفعِه[3].

في إيمانِ الأعرابِ ريبةٌ

بلاغةُ التَّعْريضِ في: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ تعريضٌ بالأعرابِ الَّذينَ نُفيَ عنهم الإيمانُ قبلَ ذلكَ بأنَّ نفيَهُ عنهُم؛ لكونِهم مرتابينَ في اللّٰه ورسولِه[4]، وإنَّما كانَت هذهِ الدَّلالةُ تعريضيَّةً حاصلةً عندَ اللَّفظِ لا بهِ؛ لأنَّها مِن تفصيلِ نفيِ الإيمانِ عنهم أوَّلًا، ونفيِ دخولِ الإيمانِ في قلوبِهم ثانيًا؛ والألصقُ بحالِ الأعرابِ الإيجازُ مِن جهةٍ، والإحسانُ إليهم بعدمِ مواجهتِهم بذلكَ - والارتيابُ في مِثْلِ ذلكَ ناشئٌ عن ضعفِ العقلِ - صراحةً.

المعطوفُ مِن تمامِ المعطوفِ عليه

نكتةُ عطفِ ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾:

لَمّا ذَكَرَ ﷻ الأمارةَ الباطنةَ على الإيمانِ الصّادقِ الكاملِ على

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 377، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 138، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 359.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 389.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 389.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 138، والخفاجي، عناية القاضي: 8/ 82.

وجهٍ جامعٍ لجميعِ العباداتِ الماليَّةِ والبدنيَّةِ؛ قالَ: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾[1]، فذكَر تفصيلَ ذلكَ مِن الأمارةِ الظّاهرةِ، والمعنى: وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في طاعة الله، على تكثُّرِ فنونِها، مِن العباداتِ البدنيَّةِ المَحْضةِ، والماليَّةِ الصِّرْفة، والمُشْتمِلةِ عليهما معًا كالحجِّ والجهادِ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿وَجَٰهَدُواْ﴾:

لا بُدَّ مِن المُجاهَدَةِ معَ رجاءِ إحسانِ الله وفَضْلِه

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾، على خلافِ الأصلِ والظّاهرِ الَّذي هو المضارعُ؛ للدَّلالةِ على أنَّ الوصولَ إلى درجةِ العَراقَةِ في الإيمانِ يحتاجُ إلى جهادٍ ومُجاهدةٍ - لا محالةَ - وتبشيرًا بأنَّ المستوى الأدنى من الجهادِ والمُجاهدةِ ﴿وَجَٰهَدُواْ﴾ سيوصِّلُ إلى الدُّخولِ في أهلِ المستوى الأعلى في الإيمانِ (المؤمنون) رفعًا، و(المؤمنين) نصبًا وجرًّا، وأنَّ طالبي الرُّسوخِ في الإيمانِ عليهم ألّا يعتمدوا على المُجاهدةِ فقط، بل عليهم أن يتطلَّعوا إلى توفيقِ الله وإحسانِه، بأن يَقبَلهم، ويَقبَلَ القليلَ منهم، فيُنَمّيه لهُم.

بلاغةُ الإدماجِ في الآيةِ:

حثُّ الأعرابِ على الاستعدادِ على الجهادِ

الَّذي يَقْعُد عن الجهادِ لا ينتفي عنه وصفُ الإيمانِ؛ إذ لا يُكفَّرُ المسلمُ بارتكابِ الكبائرِ عندَ أهلِ الحقِّ، فكانَ ذِكْرُ الجهادِ في بيانِ ما بهِ تتقوَّمُ حقيقةُ الإيمانِ على خلافِ الأصلِ والظّاهرِ، فهوَ من بابِ الإدماجِ، والمقصودُ من إدماجِ ذكرِ الجهادِ في قوله تعالى: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ التَّنويهُ بفضلِ المؤمنينَ المجاهدينَ، وتحريضُ الَّذينَ دخلوا في الإيمانِ على الاستعدادِ على الجهادِ[3].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 389.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 185.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 267.

معنى الباءِ ودلالة التَّعبير بها في ﴿بِأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾:

يَهونُ على المؤمنينَ بَذْلُ الأموالِ والأنفُسِ دَوْمًا

الباءُ في قوله تعالى: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ للاستعانةِ، ومعنَى الإلصاقِ الَّذي يُعبَّرُ عنه بالمُلابَسةِ لا يُفارِقُها، فتدلُّ على عِظَمِ قيمةِ الأموالِ والأنفُسِ في بابِ الجهادِ والمُجاهدةِ؛ لضرورةِ توفُّرِها على الاستمرارِ والدَّوامِ، وأنَّ عظيمَ الجهادِ والمُجاهدةِ هنا هوَ المُتلبِّسُ دومًا بالأموالِ والأنْفُسِ.

غرضُ الإضافةِ في ﴿بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾:

المؤمنُ يُقدِّمُ في سبيلِ الله أعزَّ ما يملكُ

الإضافةُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾ بمعنى اللّامِ، أي: بأموالٍ لهم وأنفُسٍ لهم، فتفيدُ أنَّ المؤمنينَ الصّادقينَ يُقدِّمونَ في سبيلِ اللّه أعزَّ ما يملكونَ، وهذا إبلاغٌ في تقريرِ نَفاسَةِ الأموالِ والأنْفُسِ في بابِ الجهادِ والمُجاهدةِ؛ لسَبْقِ دلالةِ الباءِ على ذلكَ.

بلاغةُ عطفِ الأنفُسِ على الأموالِ:

اتِّساعُ مجالاتِ المُجاهدةِ على مستوى المالِ والبدنِ

عطفُ الأنفُسِ على الأموالِ في قوله ﷻ: ﴿بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ المؤمنينَ يجاهدونَ بالعباداتِ الماليَّةِ بأسرِها، وبالعباداتِ البدنيَّةِ بأسرِها، لا ببعضِها فقط[1]، وهذا فَتحٌ لبابِ التَّسابُقِ والتَّنافُسِ والتَّسارُعِ؛ تناغيًا معَ المستوى الأعلى في مقامِ الإيمانِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

معنى ﴿فِي﴾، ودلالة التَّعبير بها في قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾:

بيانُ ضرورةِ العِلمِ بسبيلِ الله

التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ الدّالِّ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ في قوله تعالى ذكرُهُ: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ سبيلَ اللّه - وهو طاعتُهُ ودينُهُ - بمنزلةِ ظرفٍ مكانيٍّ لجهادِ المؤمنينَ، فهُم يتحرَّونَ بجهادِهم هذا السَّبيلَ، ولا يضعونَهُ في غيره، وهذا يعني أنَّهُم يكونونَ على عِلْمٍ بأفرادِ هذا السَّبيلِ، وأنَّ هذا من بابِ الجهادِ؛ لأنَّ ما لا يتمُّ الجهادُ إلّا به؛ فهو جهادٌ.

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 138، وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 151.

نكتةُ الإضافةِ في ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾:

الدُّخولُ في هذا السَّبيلِ دخولٌ في معيَّة الألوهيَّة الحقَّة

إضافةُ السَّبيلِ إلى اسم الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾؛ لتعظيمه وتشريفه، بانتسابه إلى العظيم الجليلِ ﷻ، وأنَّ الجهادَ والمُجاهدةَ في سبيلِ الملِكِ الأعظم يورِثُ عِزًّا وشرَفًا وفلاحًا في الدُّنيا والآخرة، ففيها ترغيبٌ عظيمٌ في المجاهدةِ في هذا السَّبيلِ.

علَّةُ التَّعبيرِ باسمِ الجلالةِ:

العملُ لا ينبغي أن يكونَ إلّا للعظيمِ سبحانَهُ

اختيرَ اسمُ الجلالةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾؛ لدلالته على صفاتِ العظمةِ والجلالِ الَّذي لا ينبغي أن يكونَ عملٌ إلّا لوجهه، أي: في سبيلِ المَلِكِ الأعظمِ[1]، ففيه تعليلٌ بانصبابِ المُجاهدةِ على السَّبيلِ المُضافِ إليه.

علَّةُ الفصلِ في: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾:

كأنَّ التَّعريفَ بحقيقةِ الإيمانِ تعريفٌ بالصِّدقِ في الإيمانِ، فكان توطئةً لهُ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ عمّا قبلَه، على خلافِ الأصلِ والظّاهرِ الَّذي هوَ أن يكونَ معطوفًا بالواو على مجموعِ ما سبَق من الآيةِ؛ لِما بينهما من التَّوسُّطِ بينَ الكمالَيْن، فكلٌّ منهما خبرٌ في اللَّفظِ والمعنَى، يُقرِّرُ حقيقةَ الإيمانِ الكاملِ، وفي حذفِ الواوِ الَّتي لا يبرحُها معنَى المُغايَرةِ إيهامُ أنَّ الطَّرفيْنِ كأنَّهما شيءٌ واحدٌ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾:

صِدقُ المؤمنينَ الكاملينَ حقيقةٌ ثابتةٌ

جيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ كونَهم الصّادقينَ دونَ غيرِهم حقيقةٌ ثابتةٌ، لا شكَّ فيها ولا ارتيابَ، وهذا إبلاغٌ في مدحِهم وتعظيمِ حالِهم؛ للاتِّساءِ بهم.

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

عُبِّرَ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 390، والشربيني، السراج المنير: 4/ 75.

لتعظيمِ المشارِ إليهِ - وهم المؤمنونَ المتَّصفونَ بالصِّفاتِ الجليلةِ السّابقةِ - وبيانِ عُلوِّ شأنِهم[1]، واستحضارِهم بصفاتِهم الَّتي بها استحقّوا تخصيصَ الصِّدقِ بهم.

مَن تحلَّى بالصِّفاتِ الجليلةِ؛ استحقَّ المقاماتِ الرَّفيعةَ

بلاغة القصرِ في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ قصرٌ إضافيٌّ[2]، مستفادٌ مِن تعريفِ الطَّرفينِ، أو توسيطِ ضميرِ الفصلِ بينَهما، أي: هُمُ الصّادِقونَ، لا أنتُم في قولِكم: ﴿ءَامَنَّا﴾، وهو من قصرِ الموصوفِ على الصِّفة، ووجودُ طريقَيْنِ للقَصْرِ إبلاغٌ في توكيدِ معنى التَّركيبِ؛ إبلاغًا في تقريرِه في نفوسِ الأعراب؛ نظَرًا إلى غلظتهم العنيفةِ، والمعنى: أولئكَ هم الصّادقونَ في إيمانِهم، لا الأعرابُ الَّذينَ قالوا قولًا، ولم يُخلِصوا[3]، وفي ذلكَ تعريضٌ بهم أيضًا[4].

أهلُ الصِّدقِ هم المؤمنونَ المخلِصونَ لا الأعرابُ

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشَّكُّ والرَّيبُ:

الشَّكُّ: اعتدالُ النَّقيضينِ عندَ الإنسانِ وتساويهما، وقد يكونُ ذلكَ بسببِ وجودِ أمارتينِ متساويتينِ عندَ النَّقيضينِ، أو بسببِ عدمِ الأمارة فيهما، وقد يكونُ الشَّكُّ في الشَّيءِ، هل هو موجودٌ أو غيرُ موجودٍ؟ وقد يكونُ في جنسه من أيِّ جنسٍ هو؟ وقد يكونُ في بعضِ صفاته، وقد يكونُ في الغرضِ الَّذي لأجله أوجِدَ[5].

المؤمنُ المخلِصُ لا يداخلُ إيمانَهُ قلقٌ ولا اضطرابٌ ولا تُهمةٌ

والرَّيْبُ: قريبٌ مِنَ الشَّكِّ، وفيهِ زيادةٌ، كأنَّهُ تُهمةٌ وظنُّ سَوْءٍ، تقولُ: رابَني أمرُ فلانٍ؛ إذا ظننتَ به سَوْءًا[6]، ويكونُ الرَّيْبُ شكًّا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 390، والشربيني، السراج المنير: 4/ 75.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 268.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 117، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 124، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 268.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 543.
(5) الراغب، المفردات: (شكك).
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 2/ 265.

مَعَ خوفٍ وقلقٍ واضطرابٍ أيضًا، تقولُ: رابَني هذا الأمرُ؛ إذا أدخلَ عليكَ شكًّا وخَوْفًا[1].

وقد عُبِّرَ بالرَّيبِ هنا؛ لأنَّهُ أبلغُ في مدحِ المؤمنينَ المخلصينَ؛ لِما فيهِ مِنَ الدَّلالةِ على أنَّ إيمانَهم لا يخامرُهُ شكٌّ ولا خوفٌ ولا قلقٌ ولا تُهمةٌ.

الغَزْوُ والجهادُ:

المؤمنُ يجاهدُ بجميعِ أنواعِ الجهادِ

الغَزْوُ: يكونُ في بلادِ العدوِّ، والجهادُ مُطلَقٌ، فكلُّ غازٍ مجاهدٌ دونَ العكسِ، وأيضًا: الغرضُ الأصليُّ مِنَ الغَزوِ الغنيمةُ، وتحصيلُ المالِ، وإن استلزمَ ذلكَ الحربَ والمقاتلةَ، والغرضُ مِنَ الجهادِ المحاربةُ لقَهْرِ العدوِّ، وإن استلزمَ ذلكَ تحصيلَ الغنائمِ والفوائدِ[2].

وقد اختيرَ الجهادُ هنا؛ لعمومه وصلاحيَّته لأنْ يُرادَ بِهِ جميعُ أنواعِ الجهادِ، فيكونُ أنسبَ بمقامِ مدحِ المؤمنينَ المخلِصينَ.

السَّبيلُ والطَّريقُ:

الطَّريقُ إلى الله كلُّهُ خيرٌ ويُسْرٌ

السَّبيلُ: أعمُّ مِنَ الطَّريقِ، تقولُ: سبيلُ اللّه، وطريقُ اللّه، وتقولُ: سبيلُكَ أن تفعلَ كذا، ولا تقولُ: طريقُكَ أن تفعلَ كذا، وأيضًا: السَّبيلُ يُستعمَلُ غالبًا في الخيرِ، ولا يكادُ الطَّريقُ يُستعمَلُ في الخيرِ إلّا مُقترِنًا بوصفٍ، أو إضافةٍ تُخصِّصُهُ لذلكَ، كقوله تعالى: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠﴾ [الأحقاف: 30][3]، والطَّريقُ قد يكونُ معتادَ السُّلوكِ، وقد لا يكونُ، والسَّبيلُ: يكونُ معتادَ السُّلوكِ[4].

وقد استُعمِلَ السَّبيلُ هنا؛ للدَّلالةِ على أنَّ الطَّريقَ إلى اللّه خيرٌ، ومعتادُ السُّلوكِ، وفي ذلكَ حثٌّ على السُّلوكِ فيهِ، وتركِ ما سواهُ مِنَ الطُّرُقِ.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ريب)، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 150.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 384.

(3) العسكري، الفروق، ص: 313.

(4) حقي، الفروق، ص: 143.

﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٦﴾ [الحجرات: 16]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

هذه الآيةُ كالمقصودِ لِما قبلَها الَّتي هيَ كالتَّوطئةِ لها

بعدما أخبرَ ﷻ عن صفاتِ المؤمنينَ الصّادقينَ المخلِصينَ؛ أمَرَ نبيَّهُ بتوبيخِ الأعرابِ الَّذينَ يدَّعونَ الإيمانَ[1]، وكانَ حقُّ هذا التَّوبيخِ أن يكونَ مِن بَعْدِ الرَّدِّ على قولِهم: ﴿ءَامَنَّاۖ﴾ بقوله تعالى: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ إلى آخرِ الآيةِ؛ لأنَّه ترقٍّ في الرَّدِّ عليهم، ولكنَّه أخَّرَه؛ ليجيءَ مِن بَعْدِ التَّعريفِ بالمؤمنينَ الكاملينَ الصّادقينَ؛ ليكونَ الأعرابُ قد أبصَروا خطأهُم، وتعرَّفوا على اللّٰه ربِّهم، وفقِهوا ما الإيمانُ؟ وما الصِّدْقُ فيه؟ حتَّى تتقبَّلَ نفوسُهم ذاتُ الطِّباعِ الغليظةِ هذا التَّوبيخَ والتَّعنيفَ في هذه الآيةِ: ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَتُعَلِّمُونَ﴾: (علم) أصلٌ يدلُّ على أثرٍ بالشَّيءِ يتميَّزُ به عن غيرِه، ومِنْ ذلكَ يقالُ: علَّمتُ على الشَّيءِ علامةً[2]، والعلَمُ: علَمُ الثَّوبِ، والعلَمُ: الرّايةُ[3]، وسُمّيَ العالَمونَ بذلك؛ لأنّ كلَّ جنسٍ من الخلقِ فهو في نفسه مَعْلَمٌ وعلَمٌ[4]، والعِلمُ: نقيضُ الجهلِ[5]، والعِلمُ: إدراكُ الشَّيءِ بحقيقته، وأخذُ علَمِه[6]، وذلك نوعانِ: أحدُهما:

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 154، والنيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 170، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 390.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علم).
(3) الجوهري، الصحاح: (علم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علم).
(5) الخليل، العين: (علم).
(6) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (علم).

إدراكُ ذاتِ الشَّيءِ، والثّاني: الحكمُ على الشَّيءِ بوجودِ شيءٍ هو موجودٌ لهُ، أو بنفيِ شيءٍ هو منفيٌّ عنه، فالأوَّل هو المتعدي إلى مفعولٍ واحد، نحو قوله تعالى: ﴿لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ [الأنفال: 60]، والثاني: المتعدّي إلى مفعولين، نحو قوله ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ﴾: [الممتحنة: 10]، والتَّعليمُ: إفادةُ العلمِ على التَّدريجِ والمعالجةِ[1].

2) ﴿بِدِينِكُمۡ﴾: (دين) أصلٌ يدلُّ على الانقيادِ والذُّلِّ، ومِنْ ذلكَ يقالُ: دانَ لهُ يَدينُ دَيْنًا، إذا انقادَ وأطاعَ[2]، والدّينُ: الطّاعةُ، ويُطلَقُ على الجزاءِ[3]، قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ٨٦﴾ [الواقعة: 86] أي: غيرَ مجزيّينَ، ويُطلق على الشَّريعةِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19]، وقال ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ [النساء: 125]، أي: طاعةً، وقوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: 256] أي: الطاعة؛ فإن ذلك لا يكون في الحقيقة إلا بالإخلاص، والإخلاصُ لا يتأتَّى فيه الإكراهُ[4]، والمرادُ بالدّين هنا: الطّاعةُ والمعتقَدُ.

المَعنى الإجْماليُّ:

لا يخفى على الله تعالى شيءٌ

يأمرُ اللّه تعالى نبيَّهُ أن يُخاطِبَ على سبيلِ التَّوبيخِ الأعرابَ مرَّةً أخرى، فيقول له: قل يا محمَّدُ لهؤلاء الأعراب القائلين: ﴿ءَامَنَّاۖ﴾، ولمّا يدخلِ الإيمانُ في قلوبِهم: أتُخبِرونَ اللّه بدينِكم؟ والحالُ أنَّ اللّه علّامُ جميعِ ما في السَّمواتِ السَّبعِ، والأرضينَ السَّبعِ، لا يَخفَى عليهِ منهُ شيءٌ، واللّه عليمٌ بما كانَ، وما هو كائنٌ، وبما يكونُ[5].

(1) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 170.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زجر).
(3) الخليل، العين: (دين).
(4) الراغب، المفردات: (دين).
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 319، والمراغي، تفسير المراغي: 26/ 147.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ: ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾:

الإنكارُ على الأعرابِ الَّذينَ لم يُخلِصوا في إيمانِهم

المقولُ لهم: ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾ هم الأعرابُ الَّذينَ أُمِرَ أن يقولَ لهم: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ إلى آخره، فأُعيدَ فِعْلُ القولِ؛ لمّا طالَ الفصلُ بينَ القولينِ بالجملِ المتتابعةِ، فهذا متَّصلٌ بقوله: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ اتِّصالَ البيانِ بالمبيَّنِ، ولذلكَ لم تُعطَفْ جملةُ الاستفهامِ، وجملةُ ﴿قُلۡ﴾ معترضةٌ بينَ الجملتينِ المبيِّنةِ والمبيَّنةِ[1]، وعلى هذا فآية: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الآية، اعتراضٌ أيضًا، ويجوزُ أن تكونَ آيةُ: ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾ الآية، استئنافًا ابتدائيًّا، على جهةِ التَّرقّي في الرَّدِّ على الأعرابِ، ونقدِ ما كانَ منهم، فيكونَ الفَصْلُ لكمالِ الانقطاعِ بلا إيهامٍ؛ لفقدانِ المناسبةِ الخاصَّةِ بينَ هذهِ الآيةِ والتي قبلَها، والمناسبةُ العامَّةُ حاصلةٌ ظاهرةٌ لا محالة.

سرُّ إعادةِ فعلِ ﴿قُلۡ﴾:

الاحتفالُ بالقائلِ والمقولِ والمقولِ لهُ

أُعيدَ الفعلُ: ﴿قُلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ المقولَ لهم هذا هم الأعرابُ الَّذينَ أُمِرَ أن يقولَ لهم: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ إلى آخرِه[2]، وفي الإعادةِ تنبيهٌ على استقلالِ الكلامِ وأهمّيَّته، وأنَّهُ ليسَ تابعًا لغيره؛ احتفالًا بمضمونِه؛ لأنَّ فيه تعريفًا جديدًا باللّه ﷻ، ماثِلًا في الجملةِ الحاليَّةِ، وفيهِ كذلكَ إعادةُ تشريفٍ للنَّبيِّ ﷺ بالتَّكليفِ بالتَّبليغِ.

دلالةُ الأمرِ في ﴿قُلۡ﴾:

البلاغُ واجبٌ على النَّبيِّ ﷺ

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾ للوجوبِ، فيفيدُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ مُكلَّفٌ بتبليغِهم هذا الكلامَ[3]، وإفادةُ وجوبِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 268.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 268.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 390.

القولِ بصيغة الأمرِ يَعني أنَّ تحقيقَه أمرٌ مطلوبٌ ومرغوبٌ فيهِ بشدَّةٍ، ففيه تهيئة نفسيَّةٌ لتلقّي ما يأتي في حيِّزِه.

غرضُ الاستفهامِ في ﴿أَتُعَلِّمُونَ﴾ الآية:

جهلُ مَن يظنُّ أنَّهُ يُعلِّمُ العليمَ ﷻ

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ ليسَ على حقيقته، بل هو واردٌ على سبيلِ التَّجهيلِ للأعرابِ[1]، وتوبيخِهم[2]، وإنكارِ ما وقعَ منهم[3]؛ إذ ظنّوا أنَّهم بقولِهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ يُعلِّمونَ مَن لا تخفَى عليهِ خافيةٌ، وقد حاولوا إخفاءِ باطنهم عن المُطَّلِع على كلِّ شيء، فكان فيه توبيخُهُم وتعنيفُهم[4]، والاستفهامُ هنا معناهُ التَّنْبيهُ؛ لإيقاظهم مِن غفلتهم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالتَّعليمِ في ﴿أَتُعَلِّمُونَ﴾:

إبـرازُ الإخبـارِ بصورةِ التَّعليمِ المُنْكَرِ

قولُهُ تعالى: ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ معناهُ: أتُخبِرونَهُ بقولِكم: ﴿ءَامَنَّا﴾[5]، وقد عُبِّرَ بالتَّعليم؛ لأنَّ الإخبارَ لازمٌ للتَّعليم، وفي استعمالِ التَّعليمِ مزيدُ توبيخٍ لهم، وفَرْطُ تشنيعٍ عليهم[6]، كأنَّهم لمّا آمنوا؛ كانَ ذلكَ إعلامًا منهم، فلمّا قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾؛ كانَ ذلكَ تكريرًا، فكانَ في صورةِ التَّعليم، فبكَّتَهم بذلك[7].

نكتةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿أَتُعَلِّمُونَ﴾:

تعليمُ العليمِ سبحانَهُ محلُّ استغرابٍ وإنكارٍ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾؛ لحكايةِ الحالِ الماضية؛ إذ الظّاهرُ المُضيُّ بأن يقالَ: أعلَّمتم[8]، وفي هذهِ الحكايةِ تصويرٌ للتَّعليم، كأنَّهُ يقعُ الآنَ، والغرضُ مِن ذلكَ الحثُّ على استغرابه وإنكاره والتَّعجُّبِ منه.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 378.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 154.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 152.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 269.
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 359، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 124.
(6) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 152.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 391.
(8) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 152.

سرُّ صيغةِ التَّفعيلِ في ﴿أَتُعَلِّمُونَ﴾:

تكلُّفُ الأعْرابِ في الاستِدلالِ عَلَى خُلوصِ إيمانهم

التَّعليمُ في قوله ﷻ: ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾ مبالغةٌ في إيصالِ العلم إلى المعلَّم؛ لأنَّ صيغةَ التَّفعيلِ تقتضي قوَّةً في حصولِ الفعلِ، كالتَّفريقِ والتَّفسيرِ، يقالُ: أعلمَهُ وعلَّمَهُ، كما يُقالُ: أنبأَهُ، ونبَّأَهُ، وهذا يفيدُ أنَّهم تكلَّفوا، وتعسَّفوا في الاستدلالِ على خُلوصِ إيمانِهم؛ ليُقنِعوا بهِ الرَّسولَ ﷺ الَّذي أبلغَهم أنَّ اللهَ نفَى عنهُم رُسوخَ الإيمانِ[1].

علَّةُ التَّعبيرِ باسمِ الجلالةِ:

التَّعبيرُ بما يزيدُ الإنكارَ والتَّوبيخَ

أوثِرَ اسمُ الجلالةِ دونَ غيرهِ مِنَ الأسماءِ الحُسنى في قوله ﷻ: ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾؛ لزيادةِ الإنكارِ والتَّوبيخِ؛ إذ كيفَ يُعلَّمُ ذو العظمةِ والجلالِ المتَّصفُ بصفاتِ الكمالِ، ومنها العلمُ المحيطُ بكلِّ شيءٍ، والَّذي لا تخفَى عليهِ خافيةٌ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالباءِ في ﴿بِدِينِكُمۡ﴾:

احتمالُ التَّضمينِ والصِّلةِ

عُدّيَ التَّعليمُ بالباءِ في قوله تعالى: ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾؛ لأنَّهُ بمعنى الإعلامِ والإخبارِ، أو لتضمينه معنى الإحاطةِ أو الشُّعورِ، ففيهِ مبالغةٌ؛ لإجرائه مُجْرَى المحسوسِ[3]، ويَحْتَملُ أن تكونَ الباءُ صلةً؛ لتأكيدِ لصوقِ الفعلِ بمفعوله[4] - والإلصاقُ معنًى لا يُفارِقُ الباءَ - فتدلَّ على غايةِ تَشبُّثهم بدينهم وإيمانهم؛ فكانوا في غاية الاهتمام بالإقناعِ به.

غرضُ الإضافةِ في ﴿بِدِينِكُمۡ﴾:

الدِّينُ الكاملُ عندَ الله ما وافقَ فيهِ اللِّسانُ القلبَ

في إضافةِ الدِّينِ إلى الضَّميرِ الرّاجعِ إلى المخاطَبينَ في قوله تعالى ذكرُهُ: ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾ زيادةُ توبيخٍ لهم، ببيانِ أنَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 268.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 170، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 391.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 82، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 319.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 152، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 268.

الدّينَ - الَّذي لا يوافقُ فيهِ القلبُ اللِّسانَ - دينٌ غيرُ مُعتبَرٍ عندَ اللّه تعالى؛ ولذلكَ أُضيفَ إليهم لا إلى اللّه سبحانَهُ، وذهبَ بعضُ المفسِّرينَ إلى أنَّ في الإضافة نوعَ بُشْرَى لهم؛ لأنَّ اللّه أوْجَد لهم دينًا، وأضافَه إليهم(1).

دلالةُ الواوِ في ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾:

فَــرْطُ شناعةِ مَن يُعلِّمُ الله بـديـنـه، وهـو العليمُ سبحانَهُ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ للحالِ، والجملةُ حالٌ مِن مفعولِ: ﴿أَتُعَلِّمُونَ﴾(2)، أي: أتُعلِّمونَ اللّه بدينِكم، والحالُ أنَّ اللّه يعلمُ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ(3)، والغرضُ مِن هذهِ الحالِ تأكيدُ تشنيعِهم، وتوبيخهم بالاستفهام، فهي تأييدٌ له(4).

نكتةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

شـمـولُ العلـم مِن صفاتِ الإلهِ الحقِّ

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ شمولَ علمه تعالى لِما في السَّماواتِ وما في الأرضِ حقيقةٌ ثابتةٌ، لا تتبدَّلُ، ولا تتغيَّرُ؛ لأنَّ ذلكَ مِن صفاتِ الإلهِ الحقِّ.

سرُّ إظهارِ اسمِ الجلالةِ في موضعِ إضماره:

عِـــلـــمُ الـــلـــه الشّاملُ معروفٌ مُشْتَهَرٌ، فكيف يـكـون منـهـم تجاهلُ ذلكَ؟

الظّاهرُ أن يقالَ: (وهو يعلمُ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ)؛ لتقدُّمِ ذِكْرِ اسم الجلالةِ، لكن عُدِلَ عنهُ إلى إظهاره في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ لزيادةِ تشنيعِهم بالتَّصريحِ باللَّفظِ الدّالِّ على صفاتِ العظمةِ والجلالِ، ولتأكيدِ استقلالِ الجملةِ بحيثُ تجري مجرى الأمثال.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 24.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 153.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 391.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 124، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/ 319.

غرضُ تقديمِ المسندِ إليهِ على المسندِ الفعليِّ:

التَّعريفُ بالله على جهة التَّوكيدِ

قُدِّمَ المسندُ إليهِ على المسندِ الفعليِّ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ لإفادةِ الحَصرِ والقَصرِ؛ تعريفًا باللّه سبحانه في سياقِ حثِّ الأعرابِ على تحقيقِ الإيمانِ الكاملِ، فاللّه تعالى وحدَهُ الَّذي يعلمُ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ، ويجوز أن يكونَ القرآنُ نزَّلَ الأعرابَ - بسبب التَّعليم المذكورِ في قوله: ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾ - منزلةَ مَن يشكُّ، أو يُنكر مضمونَ الجملةِ، فأكَّده القرآنُ في خطابِهم.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَعۡلَمُ﴾:

متعلِّقاتُ علمِ الله تعالى مستمرَّةٌ متجدِّدةٌ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ علمه تعالى بما في السَّماواتِ وما في الأرضِ وتجدُّده؛ وذلكَ باعتبارِ تجدُّدِ متعلِّقاتِ العلم، لا باعتبارِ ذاته؛ إذ علمُهُ تعالى لا يتجدَّدُ.

علَّةُ التَّعبيرِ بـ: ﴿مَا﴾:

أفرادُ عِلْمِ الله لا تكادُ تتناهَى

عُبِّرَ بالاسم الموصولِ: ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ لأنَّهُ من ألفاظِ العموم، ففيهِ تنبيهٌ على أنَّ علمَهُ ﷻ شاملٌ لجميعِ ما يدخلُ في حيِّزِ السَّماواتِ والأرضِ على كثرته وتنوُّعه[1]، ويؤيِّد هذا، ويُحقِّقُه ما في ﴿مَا﴾ من إبهامٍ وغموضٍ أشدَّ ممّا في (الذي)، ومَدِّ الألِفِ فيها.

معنى ﴿فِي﴾ ودلالة التَّعبير بها:

أيـن يـذهـبُ المخلوقُ من عِلْمِ الله؟

يدلُّ التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ الدّالِّ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ على أنَّ السَّماواتِ والأرضَ محلٌّ لِما يستقرُّ فيهما من معلوماته تعالى، وهذا يَعني قوَّة هذا العِلْم وشدَّةَ شمولِه، وهذا إبرازٌ لكمال علمه تعالى وطلاقته وتمامِه.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 391، والشربيني، السراج المنير: 4/ 76.

الانتقالُ مِنَ الأخصِّ إلى الأعمِّ في تقريرِ شمولِ علمِ الله

دلالةُ العطفِ في ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ عاطفةٌ لِما بعدَها على جملة: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، والمعطوفُ على الحالِ حالٌ مِثلُه إعرابًا وحُكمًا، وهذه الجملةُ المعطوفةُ تذييلٌ مُقرِّرٌ ومُؤكِّدٌ لِما سبقَ مِن شمولِ علمه تعالى لجميعِ ما في السَّماواتِ، وجميعِ ما في الأرضِ؛ لأنَّ (كلّ شيءٍ) أعمُّ مِن: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1]، وقد روعيَ التَّرقّي في التَّوبيخِ؛ إذ أخبرَ أوَّلًا بأنَّه يعلمُ ما في السَّماواتِ، وما في الأرضِ، ثمَّ ترقَّى، فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ سواءٌ كانَ معدومًا ممتنعًا، أو ممكنًا، أو موجودًا واجبًا، أو ممكنًا، موجودًا الآنَ، أو فيما سيأتي[2].

شُمولُ علمِ الله تعالى حقيقةٌ مقرَّرةٌ

نكتةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾:

جيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ سَعَةَ علمه تعالى، وشموله لكلِّ شيءٍ حقيقةٌ مقرَّرةٌ ثابتةٌ، لا تتغيَّرُ، ولا يتطرَّقُ إليها شكٌّ.

مَن عَظُمَت ذاتُهُ وصفاتُهُ؛ عَظُمَ علمُهُ

سرُّ إظهارِ اسمِ الجلالةِ وتكرارِه:

لمّا كانَ المقامُ للتَّعميمِ؛ أُظهِرَ اسمُ الجلالةِ، فقيلَ: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، ولم يُضمَرْ بأن يقالَ: (وهو بكلِّ شيءٍ عليمٌ)؛ لئلّا يوهمَ الاختصاصَ بما ذُكِرَ مِنَ الخَلْقِ، فقيلَ: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، أي: والَّذي لهُ الإحاطةُ الكاملةُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ[3]، ولِما في الإظهارِ مِن تأكيدِ استقلالِ جملةِ التَّذييلِ؛ بحيثُ تجري مجرى الأمثالِ السّائرةِ.

معنى الباءِ، ودلالة التَّعبير بها في ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾:

الباءُ في قوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ للتَّعديةِ، وهي

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 124، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 269.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 153.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 391، والشربيني، السراج المنير: 4/ 76.

ومجرورها متعلِّقةٌ بـ: ﴿عَلِيمٌ﴾، ومعنَى الإلصاقِ لا يكادُ يُفارِقُها، كأنَّها تُؤكِّدُ، وتُحقِّقُ تعلُّقَ كلِّ شيءٍ بعِلْمِه تعالى؛ لأنَّ العِلْمَ بكلِّ شيء غيرُ معهودٍ البتَّةَ، فلَمّا كانَ تقريرُ ذلكَ في سياقِ التَّعريفِ باللّه في خطابِ مَنِ ادَّعى الإيمانَ، ولَمّا يدخل الإيمانُ في قلبِه؛ كانَ هذا التَّأكيدُ والتَّحقيقُ بالباءِ.

كونُ علمِ الله تعالى متعلِّقًا بكلِّ شيءٍ أمرٌ جِدُّ عجيبٍ وغريبٍ

غرضُ تقديم ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾:

قُدِّمَ قولُه: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ على قولِه: ﴿عَلِيمٌ﴾، في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ للاهتمام بالمقدَّم الَّذي يتعلَّقُ بهِ علمُ اللّه ﷻ، ووجهُ ذلكَ أنَّ المُقدَّمَ هو مناطُ أنَّ عِلمَهُ تعالى ليس كمثل علم غيره، وللمسارعةِ في إثباتِ هذا التَّعلُّقِ، ولِما في تأخيرِ: ﴿عَلِيمٌ﴾ مِن رِعايةِ تلاؤم الفواصلِ.

متعلِّقُ علمِ الله محلُّ العنايةِ

نكتةُ إضافةِ (كلّ) على ﴿شَيْءٍ﴾:

إضافةُ (كلّ) إلى ﴿شَيْءٍ﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ لتأكيدِ عموم كلمةِ ﴿شَيْءٍ﴾، وبيانِ شمولِها لِما ذُكِرَ، وما لم يُذكَرْ[1]، وهذا إبلاغٌ في تصويرِ حقيقة كمال علمه تعالى وتمامِه.

تأكيدُ سَعَةِ العِلْمِ الإلهيِّ تأكيدًا بعدَ تأكيدٍ

دلالةُ صيغة (فعيل) في ﴿عَلِيمٌ﴾:

جيءَ بصيغةِ (فعيلٍ) في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ للمبالغةِ في اتِّصافه تعالى بالعلم[2]، أي: مُبالِغٌ في العِلْم بجميعِ الأشياء، الَّتي مِن جملتها ما أَخْفَوه مِن الكُفْر عندَ إظهارِهم الإيمانَ، ففيه مزيدُ تجهيلٍ وتوبيخٍ لهم[3].

صيغة المبالغة تكشف حقيقة علم الله تقريبًا

(1) الشربيني، السراج المنير: 4/ 76.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 153.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 186.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المِلَّةُ والدّينُ:

الــدّيــنُ هنا مضافٌ لغيرِ الله تعالى

المِلَّةُ لا تُضافُ في الغالبِ إلّا إلى النَّبيِّ الَّذي تُسنَدُ إليهِ، نحوُ: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾ [آل عمران: 95]، ولا تكادُ توجَدُ مُضافةً إلى اللّه، ولا إلى آحادِ أُمَّةِ النَّبيِّ، فلا يقالُ: مِلَّةُ اللّه، ولا يقالُ: مِلَّتي، ومِلَّةُ زيدٍ، ويقالُ: دينُ اللّه، ودينُ زيدٍ[1]، والمِلَّةُ لا تُستعمَلُ إلّا في جُملةِ الشَّرائعِ دونَ آحادِها، فلا يقالُ: الصَّلاةُ مِلَّةُ اللّه[2]، وقد عُبِّرَ هنا بالدّينِ؛ ليضافَ إلى غيرِ اللّه ﷻ، وهم المخاطَبونَ.

---

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ملل).

(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (ملل)، والرّاغب، المفردات: (ملل).

﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧﴾

[الحجرات: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تقريرُ توبيخِ مَن لم يكن إسلامُهُ لله

بعدَ ما أمرَ اللّه نبيَّهُ بتوبيخِ الأعرابِ، على ادِّعائِهم الإيمانَ الكاملَ؛ قرَّرَ ذلكَ في هذه الآيةِ، وبيَّنَ أنَّ إسلامَهم لم يكن للّه[1]، وفي هذهِ الآية أيضًا إشارةٌ إلى نوعٍ آخرَ مِن جفاءِ الأعرابِ مختومٍ بتوعُّدِهم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمُنُّونَ﴾: (منن) أصلٌ يدلُّ على اصطناعِ خيرٍ[3]، ومِن ذلكَ: المِنَّةُ، وهي النِّعمةُ الثَّقيلةُ، يقالُ: مَنَّ فلانٌ على فلانٍ؛ إذا أثقله بالنِّعمةِ[4]، وذلكَ قد يكونُ بالقولِ، وقد يكونُ بالفعلِ[5]، والمرادُ بمنِّهم بالإسلامِ: اعتدادُهم بهِ[6].

2) ﴿أَسۡلَمُواْۖ﴾: (سلم) أصلٌ يدلُّ على الصِّحَّةِ والعافيةِ[7]، والتَّعرّي مِنَ الآفاتِ الظّاهرةِ والباطنةِ[8]، ومِن ذلكَ: التَّسليمُ، وهو التَّحيَّةُ بالسَّلامِ، أي: الأمان والسَّلامة، ومنهُ أيضًا: الإسلامُ، وهو الانقيادُ؛ لأنَّهُ يَسلَمُ مِنَ الإباءِ والامتناعِ[9].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 117.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 545.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (منن).
(4) الراغب، المفردات: (منن).
(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (منن).
(6) الزمخشري، الكشاف: 4/ 378.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلم).
(8) الراغب، المفردات: (سلم).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلم).

3) ﴿هَدَىٰكُمْ﴾: (هدي) أصلٌ يدلُّ على التَّقدُّم للإرشاد، يُقالُ: هديتُهُ الطَّريقَ هدايةً، أي: تقدَّمتُهُ؛ لِأُرشِدَهُ[1]، والهدايةُ: دلالةٌ بلُطْفٍ، ومنهُ: هَوادي الوَحْشِ، أي: مُتقدِّماتُها الهاديةُ لغيرِها[2]، وهدايةُ اللّه تعالى للإنسانِ على أربعةِ أوجهٍ: **الأوَّلُ:** الهدايةُ الَّتي عمَّ بجنسِها كلَّ مُكلَّفٍ، مِنَ العقلِ والفِطْنةِ والمعارفِ الضَّروريَّة. **والثّاني:** الهدايةُ الَّتي جعلَ للنّاسِ بدعائه إيّاهم على ألسنةِ الأنبياءِ، وبإنزالِ القرآنِ، ونحوِ ذلكَ. **والثّالثُ:** التَّوفيقُ الَّذي يختصُّ بهِ مَنِ اهتدى. **والرّابعُ:** الهدايةُ في الآخرةِ إلى الجنَّةِ[3].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

ما أقْبَحَ المَنَّ على مَن هو نعمةٌ عظيمةٌ مِن الله!

يُخبِرُ اللّه تعالى عن قبيحةٍ أخرى مِن قبائحِ الأعرابِ المذكورينَ، فيقولُ لنبيِّه ﷺ: يَعُدّونَ إسلامَهم ومتابعتَهم لكَ ونُصرتَهم إيّاكَ مِنَّةً، قل لهم: لا تَمُنّوا عليَّ إسلامَكم، بل اللّه يَمُنُّ عليكم أن وفَّقَكم للإيمانِ بهِ وبرسوله؛ إن كنتم صادقينَ في قولِكم: ﴿ءَامَنَّا﴾، فإنَّ اللّه هو الَّذي منَّ عليكم.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ﴾:

ليسَ لمسلمٍ مِنَّةٌ على غيره بإسلامه

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ﴾؛ لأنَّهُ استئنافٌ ابتدائيٌّ، أُريدَ بِهِ إبطالُ ما أظهرَهُ بنو أسدٍ للنَّبيِّ ﷺ مِن مزيَّتِهم؛ إذ أسلموا مِن دونِ إكراهٍ بغزوٍ[4].

سرُّ التَّعبيرِ بالمنِّ:

عُبِّرَ بالمنِّ في قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ﴾؛ لأنَّ المِنَّةَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هدي).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (هدي).
(3) الراغب، المفردات: (هدي).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 269.

هي النِّعمةُ الَّتي لا يُطلَبُ الثَّوابُ والجزاءُ عليها[1]، وكأنَّهم أرَوا النَّبيَّ ﷺ أنَّهم أسلموا دونَ طلبِ ثوابٍ وجزاءٍ؛ إذ لم يُكرَهوا بالغزوِ، وإنَّما أسلموا؛ إحسانًا إليه[2].

في المَنِّ هنا قُبْحٌ وشناعةٌ شديدةٌ

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَمُنُّونَ﴾:

غرابةُ مَنِّ المسلمِ بإسلامه

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ﴾، على خلافِ الأصلِ والظّاهر؛ لأنَّ المَنَّ قد كانَ، إمّا لحكايةِ الحالِ الماضيةِ واستحضارِها؛ لغرابتِها الَّتي تستدعي الإنكارَ والعُجْبَ والتَّشْهيرَ بهِم؛ إبلاغًا في ذمِّهم، أو للدَّلالةِ على الاستمرارِ[3]، وأنَّ المَنَّ مستمرٌّ في مقالِهم وحالِهم، فيكونُ المضارعُ على ظاهرِه.

معنى (على) ودلالة التَّعْبير بها في الآية:

المَنُّ استعلاءٌ على الممنونِ عليهِ

التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ الدّالِّ على الاستعلاءِ الحِسّيِّ في الأصلِ، والمجازيِّ في قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ بني أسدٍ قد بالغوا في منِّهم بإسلامِهم، حتَّى كأنَّهم غمروا بِهِ النَّبيَّ ﷺ وهو ينهاهم عن ذلكَ، وفي التَّعبيرِ بها في قوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ فضلَ اللّه سابغٌ عليهم.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿أَسۡلَمُواْۖ﴾:

يمنّونَ بالأدنى مِن الإسلامِ على الرَّسول

جيءَ بصيغةِ الماضي في قوله تعالى: ﴿أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ﴾؛ لأنَّ زمنَ إعلانِهم الإسلامَ متقدِّمٌ على زمنِ منِّهم بهِ على النَّبيِّ ﷺ وفيه دلالةٌ على أنَّهُم مِن أهلِ المستوى الأدنى في مقامِ الإسلامِ؛ إذ يكونُ الإسلامُ فعلًا لهُم: ﴿أَسۡلَمُواْۖ﴾ لا صفةً: (أن كانوا مسلمين)، ومعَ ذلكَ يَمنّون عليه ﷺ به، فيا عجبًا لهم!

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 82.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 391.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 153.

سرُّ الفصلِ في: ﴿قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ﴾:

بيانُ الرَّدِّ على الَّذينَ يمنّونَ بإسلامِهم

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّهُ استئنافُ كلامٍ جديدٍ لبيانِ ما يردُّ بهِ النَّبيُّ ﷺ على الَّذينَ يمنّونَ عليهِ بإسلامِهم، وهو استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّه جوابُ سؤالٍ يُثيره قولُه تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ﴾، وهو: فما موقف الرَّسولِ منهم في هذه الحالِ؟.

دلالةُ الأمرِ: ﴿قُل﴾:

النَّبيُّ ﷺ مكلَّفٌ بالرَّدِّ على الَّذينَ يمنّونَ بإسلامِهم

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ﴾ للوجوبِ؛ لأنَّهُ الأصلُ، ولا مُقتضيَ للعدولِ عنهُ، بل مقامُ الرَّدِّ على الَّذينَ يمنّونَ بإسلامِهم يقتضيهِ، وإفادتُه بصيغة الأمر يَعني أنَّ تحقيقَه مطلوبٌ ومرغوبٌ فيه بشدَّةٍ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المجزومِ ﴿لَّا تَمُنُّواْ﴾:

المؤمنُ لا يمنُّ بإسلامه في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ

عُبِّرَ بالمضارعِ المجزومِ في قوله تعالى: ﴿لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ المطلوبَ منهم هو تركُ المنِّ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ؛ لئلّا يُفسِدوا إسلامَهم، فإنَّ الإسلامَ لا يُطْلَبُ جزاؤُهُ إلّا مِنَ اللهِ تعالى، فلا ينبغي عدُّهُ إحسانًا إلى أحدٍ[1].

نكتةُ الإضافةِ في ﴿إِسۡلَٰمَكُمۖ﴾:

لا يضافُ إلى اللهِ إلّا الإسلامُ الكاملُ

إضافةُ الإسلامِ إلى ضميرِ المخاطَبينَ في قوله ﷻ: ﴿لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّهُ ليسَ إسلامًا مُعْتدًّا بهِ؛ لفَقْدِ شرطِ اعتبارِه شرعًا[2]، فلهذا أُضيفَ إليهم، لا إلى اللهِ؛ لأنَّه لا يضافُ إلى اللهِ تعالى إلّا الإسلامُ الكاملُ المُستوْفي للشُّروطِ.

علَّةُ التَّعبيرِ بلفظةِ الإسلامِ دونَ الإيمانِ:

لمّا سمَّى الأعرابُ ما صدرَ عنهم إيمانًا بقولِهم: ﴿ءَامَنَّاۖ﴾، ومنّوا

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 392.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 520، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 155.

ما صدرَ عن الأعرابِ لا يرقى إلى درجةِ الإيمانِ

به؛ نفَى ﷻ أنَّهُ إيمانٌ، وسمّاهُ إسلامًا بقوله: ﴿قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُم﴾، والمعنى: يمنّون عليكم بما هو في الحقيقةِ إسلامٌ لا إيمانٌ، وليسَ بجديرٍ أن يُمَنَّ به عليكَ(1).

دلالةُ ﴿بَلِ﴾ في قوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ﴾:

اهتداءُ العبدِ مِنَّةٌ مِنَ الله

جيءَ بحرفِ: ﴿بَلِ﴾ في قوله ﷻ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾؛ لإثباتِ أنَّ ما منّوا به إن كانَ إسلامًا حقًّا موافقًا للإيمانِ؛ فالمِنَّةُ للّه؛ لأنَّهُ هداهُم إليه، فأسلَموا عن طواعيةٍ(2).

نكتةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ ﴿ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ﴾:

المِنَّةُ لله بلا ريبٍ

جيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ لبيانِ أنَّ كونَ المِنَّةِ للّه ﷻ أمرٌ ثابتٌ، لا يتغيَّرُ.

غرضُ تقديمِ المسندِ إليهِ على المسندِ الفعليِّ:

نسبةُ المِنَّةِ إلى اللهِ تعالى مؤكَّدةٌ

تقديمُ المسندِ إليهِ على المسندِ الفعليِّ في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ لإفادةِ تقوّي الحكم(3)؛ لأنَّ الجملةَ تشتملُ على نسبةِ المِنَّةِ إلى اللّه تعالى لفظًا، وفي قوله: ﴿يَمُنُّ﴾ ضميرٌ راجعٌ إلى اسمِ الجلالةِ، فيفيدُ نِسبةَ المِنَّةِ إليهِ مرَّةً أخرى، كأنَّهُ قيلَ مرَّتينِ: اللّه يمُنُّ عليكم، اللّه يمنُّ عليكم، ولأنَّ المُتلقّي يتشوَّفُ إلى معرفة الخبر عند تلقّي المسند إليه، فإذا ما تلقّاه وحالُه هذه؛ تمكَّنَ الحكمُ في نفْسِه خيرَ تمكُّنٍ، وذلك التَّوكيدُ ناظرٌ إلى أنَّ الأعرابَ الذين يمنّون على الرَّسول بإسلامهم في حُكْمِ الشّاكِّ في الحكم، أو الَّذي يُنْكِرُه.

علَّةُ التَّعبيرِ باسمِ الجلالة:

ليست المِنَّةُ إلّا لإلهِ الخالِقِ فقط

اختيرَ اسمُ الجلالةِ دونَ غيره مِنَ الأسماءِ الحُسنى في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ لدلالته على صفاتِ العظمةِ

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 138، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 270.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 270.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 270.

والجلالِ، ومنها القدرةُ والغنى والكرمُ ونحوُ ذلكَ ممّا يُحْسِنُ به إلى عباده، والمعنى: بل المَلِكُ الأعظمُ الَّذي لهُ المِنَّةُ على كلِّ موجودٍ، ولا مِنَّةَ عليهِ بوجهٍ: هو يمنُّ عليكم[1].

سرُّ نسبةِ المنِّ إلى الله:

العبدُ ينسبُ الفضلَ إلى الله لا إلى نفسه

في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ﴾ تعليمٌ لحُسْنِ الأدبِ؛ إذ لم يقُلِ النَّبيُّ ﷺ: لا تمنّوا عليَّ، بل لي المِنَّةُ عليكم؛ إذ بيَّنْتُ لكم الطَّريقَ المستقيمَ، ثمَّ في مقابلةِ هذا الأدبِ قالَ اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ [الشورى: 52][2].

بلاغةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿يَمُنُّ﴾:

المِنَّةُ عليهم بالإيمانِ ستقعُ في المستقبلِ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قوله ﷻ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ لأنَّه مَنٌّ مفروضٌ؛ لأنَّ الممنونَ بهِ لَمّا يقَعْ، وفيهِ إيذانٌ بأنَّهُ سيمنُّ عليهم بالإيمانِ[3]، فالمضارعُ معناه الاستقبالُ.

سرُّ التَّعبيرِ بالمنِّ في ﴿يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ﴾:

اللهُ تعالى غنيٌّ عن طاعةِ عباده

التَّعبيرُ بالمنِّ في قوله تعالى شأنُهُ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهُ ﷻ غيرُ محتاجٍ إلى عملِ عاملٍ، فإنَّهُ لا يلحقُهُ نفعٌ ولا ضرٌّ، وإنَّما طلبَ الأعمالَ؛ لنفعِ العاملينَ أنفُسِهم، ومَنَّ عليهم بأن أرسلَ رسولَه ﷺ فبيَّنَ لهم، فكذَّبوهُ بأجمعِهم، فلم يزلْ يُقوّيهِ؛ حتَّى أظهرَ دينَهُ على الدّينِ كلّه، ودخلَ فيهِ النّاسُ أفواجًا[4].

سرُّ المُغايَرةِ في المعنَى في قوله: ﴿أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾:

إسلامُ الأعرابِ المذكورينَ غيرُ كاملٍ

لم يقلِ اللّه تعالى: (يمنُّ عليكم أنْ أسلمتم)، بل قالَ: ﴿أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾؛ لأنَّ إسلامَهم كانَ ضلالًا؛ إذ كانَ نفاقًا، فما منَّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 392.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 118.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 270.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 392.

بِهِ عليهم(1)، وإنَّما منَّ عليهم بالهدايةِ إلى الإيمانِ، بنَصْبِ الدَّلائلِ، وإرسالِ الرَّسولِ، وإنزالِ الكتابِ، ثمَّ تمَّمَ فضله عليهم بحصولِ إيمانِهم في المستقبلِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في ﴿هَدَىٰكُمْ﴾:

بـيَّنَ تـعالى سُبُلَ الهدايةِ، ولكنَّهم لم يهتدوا، أفيزعمونها؟

التَّعبيرُ بالماضي في قوله ﷻ: ﴿هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ - معَ أنَّ الهدايةَ للإيمانِ لمّا تحْصُلْ لهم - إمّا بناءً على زعمِ المخاطَبِ، وإمّا بناءً على ما في نفسِ الأمرِ، فإنَّ الهدايةَ بمعنى الدَّلالةِ متحقِّقةٌ، لكنَّها لا تستلزمُ الاهتداءَ بمعنى الإيصالِ إلى البُغيةِ أو خلقِ الاهتداءِ(2).

معنى اللّامِ، ودلالة التَّعبير بها في ﴿لِلْإِيمَٰنِ﴾:

تعديةُ فعلِ الهدايةِ إلى مفعوله الثّاني

اللّامُ في قوله ﷻ: ﴿هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾؛ لتعديةِ فِعْلِ الهدايةِ إلى مفعوله الثّاني، وأصلُ معانيها الاختصاصُ، فتدلُّ على كمالِ شرَفِ الإيمانِ ونفاستِه، وهذا ألصقُ بسياقِ الامتنانِ عليهم به.

دلالةُ تعريفِ الإيمانِ وتركِ إضافته إليهم:

الإيمانُ الكاملُ هو المعتدُّ بهِ عندَ الله

تعريفُ الإيمانِ بـ(أل) في قوله ﷻ: ﴿لِلْإِيمَٰنِ﴾ للجنسِ؛ لأنَّه حقيقةٌ في حدِّ ذاتِه، وأنَّهم مُلابِسوها(3)، والمرادُ بهِ الإيمانُ الكاملُ المُعتدُّ بهِ عندَ اللّه، ولذلكَ لم يُضِفْهُ اللّه تعالى إليهم(4).

سِرُّ التَّعبير بـ: ﴿إِن﴾:

صِدقُ مدَّعي الإيمانِ المذكورينَ مشكوكٌ فيه

عُبِّرَ بـ ﴿إِن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ لأنَّها تُستعمَلُ في الأمرِ النّادرِ المشكوكِ فيهِ، ففيها هنا تعريضٌ بأنَّهم غيرُ صادقينَ، فيما يقولونَ، ويدَّعونَ(5)، فدلَّ التَّعبيرُ بها على أنَّ المرادَ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 118.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 138، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 154.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 270.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 520، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 320.
(5) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 170، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 320.

بقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ تجهيلُهم وتعليمُهم حقائقَ الأمورِ، لا الشَّهادةُ لهم بالهدايةِ[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بفعلِ الكونِ ماضيًا:

مَن يدَّعي الإيمانَ يجبُ أن يتحلَّى بالصِّدقِ

عُبِّرَ بفعلِ الكونِ الماضي في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ عليهم أن يكونوا عريقينَ في الصِّدقِ، راسخينَ فيهِ، حينَ يدَّعونَ أنَّهم آمنوا الإيمانَ الكاملَ المعتدَّ بهِ[2].

بلاغةُ الإيجازِ بالحذف في ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾:

حذْفُ جوابِ الشَّرطِ الَّذي يدلُّ عليهِ السّياقُ

في الآيةِ إيجازٌ بحذفِ جوابِ الشَّرطِ الذي هو قولُه تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾؛ لدلالةِ ما قبله عليهِ، والتَّقديرُ: إن كنتم صادقينَ في ادِّعائِكم الإيمانَ؛ فلله المِنَّةُ عليكم[3]، وسِرُّ الحذفِ كمالُ ظهورِ أنَّ له تعالى المِنَّةَ عليهم، ولكنَّ القومَ معَ ذلكَ يمنّون على الرَّسولِ بإسلامهم.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 241.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 393.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 378، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 525.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ [الحجرات: 18]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

عِلمُ اللهِ لا يعتريهِ ظنٌّ ولا شكٌّ

لَمّا نفَى عنهم ما هو باطنٌ، وختمَ جدالَهم سبحانَهُ بهذهِ الشَّرطيَّةِ: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، فكانَ ربَّما توهَّمَ قاصرُ النَّظرِ عدمَ العلمِ بما هو عليهِ؛ أزالَ ذلكَ على وجهٍ عامٍّ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿غَيۡبَ﴾: (غيب) أصلٌ يدلُّ على تستُّرِ الشَّيءِ عن العُيونِ[2]، ومِن ذلكَ يقالُ: غابتِ الشَّمسُ، أي: استترَت عن العينِ، وغابَ عنّي كذا، فهو غائبٌ، واستُعمِلَ في كلِّ غائبٍ عن الحاسَّةِ، وعمّا يغيبُ عن علمِ الإنسانِ[3]، والمرادُ بالغيبِ هنا: الأمرُ الخفيُّ الَّذي لا تقتضيهِ بديهةُ العقلِ، ولا يُدرِكُهُ الحسُّ[4].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

اللهُ يعلمُ الصّادقَ في إيمانهِ مِنَ الكاذبِ

يقولُ تعالى: إنَّ اللهَ لا يخفَى عليهِ شيءٌ في السَّماواتِ والأرضِ، وهو بصيرٌ بأعمالِكم الَّتي تعملونَها، فيعلمُ الصّادقَ منكم في إيمانهِ مِنَ الكاذبِ[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ الفصلِ في: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

تذييلٌ يُقرِّرُ عِلْمَ اللهِ بما عليه كلُّ إنسانٍ

فُصِلَ قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ عمّا قبلَه؛

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 393 - 394.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غيب).
(3) الراغب، المفردات: (غيب).
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 155.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 319 - 322، والمراغي، تفسير المراغي: 26/ 148.

لأنَّهُ استئنافٌ ابتدائيٌّ تذييليٌّ[1] لِما قبلَه، فقد ذُيِّل تقويمُهم على الحقِّ بهذا التَّذييل؛ ليعلموا أنَّ اللّه لا يُكْتَم، وأنَّه لا يكذبُ؛ لأنَّه يعلم كلَّ غائبةٍ في السَّماء والأرض، فإنَّهم كانوا في الجاهليَّة لا تخطُر ببالِ كثيرٍ منهم أصولُ الصِّفاتِ الإلهيَّة[2]، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾، وذلكَ ليعلموا أنَّ اللّه لا يُكتَمُ شيئًا؛ لأنَّهُ يعلمُ كلَّ غائبةٍ في السَّماءِ والأرضِ[3].

نكتةُ تأكيدِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

الـكـذبُ على رسولِ الله كذبٌ على الله

أُكِّدَ قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾، واسميَّةِ الجملةِ؛ للمبالغةِ في تحقُّقِ مضمونه، أو العنايةِ بمضمونه[4]، ولأنَّهم بحالِ مَن يُنكِرُ أنَّ اللّه يعلمُ الغيبَ، فكذبوا على النَّبيِّ ﷺ مع علمِهم أنَّهُ مُرسَلٌ منَ اللّه، فكانَ كذبُهم عليهِ مِثلَ الكذبِ على اللّه[5]، ولأنَّ قاصِرَ النَّظرِ جامِدَ الفِكْرِ ربَّما توهَّمَ عدمَ العِلْمِ بما هوَ عليهِ[6].

علَّةُ التَّعبير باسمِ الجلالة:

ذو الكمالاتِ المطلقةِ لا يُكذبُ عليه

التَّعبيرُ باسمِ الجلالةِ في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ لتربيةِ المهابةِ[7]؛ لأنَّهُ تعالى محيطٌ بكلِّ شيءٍ قدرةً وعلمًا[8]، فلا يُكذَبُ عليه.

غرضُ تقديمِ المسندِ إليهِ على المسندِ الفعليِّ:

لا يعلمُ غيبَ السَّماواتِ والأرضِ إلّا الله

تقديمُ المسندِ إليه على الخبرِ الفعليِّ في قوله تعالى شأنُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ للحَصْرِ والقَصْرِ[9]، فلا يعلمُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 320.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 271.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 271.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 155.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 271.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 242.
(7) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 155.
(8) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 394.
(9) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 155.

غيبَ السَّماواتِ والأرضِ إلّا اللّه ﷻ، وفيه توكيدُ الحُكْم، مِن جهة تكرارِ المسند إليه مرَّتيْن، وجهةِ تشوُّف المُتلقّي لمعرفة الخبر عند تلقّي المسند إليه، فيتمكَّن المعنى في نفْسِه، وهذا التَّوكيدُ ناظِرٌ إلى كونِ الأعرابِ في حكم الشّاكِّ في الحكم أو المُنكِر له.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَعۡلَمُ﴾:

كلُّ معلومٍ مشمولٌ بعلمِ الله

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قوله ﷻ: ﴿يَعۡلَمُ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ العلمِ وتجدُّده؛ باعتبارِ تجدُّدِ متعلّقاتِ العلم واستمرارِها، لا باعتبارِ ذاتِ صفةِ العلم[1]؛ إذ صفاتُ اللّه تعالى منزَّهةٌ عن التَّجدُّدِ، وفي هذا مِن التَّرهيب والتَّهديدِ ما فيه.

سرُّ التَّعبيرِ بالمصدرِ: ﴿غَيۡبَ﴾:

علمُ اللهِ بالخفايا حاصلٌ، وإنِ اشتدَّ خفاؤُها

عُبِّرَ بالمصدرِ ﴿غَيۡبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ عمّا غابَ، وخفيَ في السَّماواتِ والأرضِ؛ للمبالغةِ في تقرير العِلْم بكلِّ شيء[2]، حتَّى كأنَّ ما خَفيَ فيهما عينُ الغيبِ، ومع ذلكَ هو لا يخفَى على اللّه تعالى.

غرضُ الإضافةِ في ﴿غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

الغيبُ الَّذي يعلمُه الله عظيمٌ

الإضافةُ في قوله ﷻ: ﴿غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ لإفادةِ العُموم، فالمضافُ يكتسبُه مِن المضافِ إليه، فتفيدُ أنَّ جميعَ ما غابَ في السَّماواتِ والأرض معلومٌ للّه تعالى.

دلالةُ الواوِ في ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾:

الله عالمُ الغيبِ والشَّهادةِ

جملةُ: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ معطوفةٌ على جملةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، عطْفَ الأخصِّ على الأعمِّ؛ لأنَّهُ لمّا ذكرَ أنَّهُ يعلمُ الغيبَ، وكانَ شأنُ الغائبِ ألّا يُرى؛ عطفَ عليهِ علمَهُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 394.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 155.

بالمبصَراتِ؛ احتراسًا مِن أن يتوهَّموا أنَّ اللّه يعلمُ خفايا النُّفوسِ، ولا يعلمُ المشاهَداتِ[1].

علَّةُ التَّعبير بـ: ﴿بَصِيرُۢ﴾:

المبصَراتُ لا تخفَى على الله

أوثِرَت صفةُ: ﴿بَصِيرُۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ لمناسبته للاحتراسِ المذكورِ، وهو دفْعُ توهُّمِ كونه تعالى يعلمُ الخفايا دونَ المبصَراتِ المشاهَداتِ[2].

معنى الباءِ ودلالة التَّعبير بها في ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾:

توكيدُ معنَى الجملةِ للإبلاغ في التَّهديد

الباءُ في قولِ الباري : ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ لتعديةِ ﴿بَصِيرُۢ﴾ إلى مفعوله، والباءُ لا يكادُ يُفارِقُها معنَى الإلصاقِ، فتدلُّ على غايةِ تمكُّنِ هذه الصِّفة للّه تعالى مِن أعمالِ العبادِ، فهي تُؤكِّدُ مضمونَ الجملة، وتُحقِّقُها، فيشتدُّ بها تهديدُ الأعرابِ وغيرِهم وترهيبُهم.

نوع (ما) في ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، ودلالة التَّعبير بها:

الخفيُّ والظّاهرُ في التَّعلُّق بعِلْم الله سواءٌ

كلمةُ: (ما) في قوله : ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ إمّا موصولةٌ، أي: بالَّذي تعملونَهُ، أو مصدريَّةٌ، أي: بعملكم، وأيًّا ما كانَ؛ فالكلامُ يفيدُ شمولَ إحاطته تعالى بكلِّ أعمالِهم، والأعلى الحَملُ على الموصوليَّةِ، فكلُّ ما يكونُ من النّاس مِن أعمالٍ ظاهرةٍ أو باطنةٍ هو في حكم المعلوم الواضحِ المشهور بالنِّسبة للّه تعالى، فسواءٌ عنده مَن أسرَّ القولَ، ومَن جهَر به، وهذا هو الأبلغُ في التَّرهيب والتَّهديدِ، وحثِّ مِثلِ الأعرابِ على ما يُرْضيه سبحانه.

نكتةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

جَلَّ الله تعالى عن أن يَشغَلَه شيءٌ عن شيءٍ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ العملِ وتجدُّده، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّهُ كلَّما تجدَّدَ منهم عملٌ؛ كانَ تحتَ سلطانِ علمِ اللّه تعالى وبصره، فهو سبحانَهُ لا يشغلُهُ شيءٌ عن شيءٍ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 271.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 271.

توجيهُ القراءاتِ في قولِه: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

تنوُّعُ القراءاتِ بينَ الغيبةِ والخطابِ

قرأ ابنُ كثيرٍ قولَه تعالى بالياءِ التَّحتانيَّة: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾، وقرأ الباقونَ: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ بالتّاءِ[1]، أمّا الأولى؛ فهي التفاتٌ مِنَ الخطابِ إلى الغَيْبةِ المفيدةِ للإعراضِ عنهم، وأمّا الثّانيةُ؛ فهي على الخطابِ المناسبِ لِما سبقَ[2]، ففي الخطابِ إقامةٌ للحُجَّةِ عليهم، وفي الغَيْبة انصرافٌ عنهم وعيدًا وتهديدًا؛ ليقوموا في مقامِ الخشيةِ مِن اللّه، فذلك هو الأبرُّ بحالهم.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العلمُ والشُّعورُ:

علمُ الله تعالى يقينيٌّ

العلمُ: هو اعتقادُ الشَّيءِ على ما هو بهِ على سبيلِ الثِّقة، والشُّعورُ هو ابتداءُ العلم بالشَّيءِ مِن جهةِ المشاعرِ، وهي الحواسُّ؛ ولذلكَ لا يوصَفُ تعالى بأنَّه شاعرٌ، ولا بأنَّه يَشْعُرُ، وإنَّما يوصَفُ بأنَّه عالمٌ، وبأنَّه يعلمُ[3]، وقد اختيرَ العِلْمُ هنا؛ لأنَّ علمَهُ سبحانَهُ يقينيٌّ، لا يتطرَّقُ إليهِ احتمالٌ.

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 376.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 154.

(3) معجم الفروق اللغوية، ص: 372 - 374.

سُورَةُ قٓ

سُورَةُ ق

❁ التَّعريف العامُّ بالسّورة:

المكّي والمدنيُّ:

سورة (ق) كلُّها مكّيَّة

سورة (ق) كلُّها مكّيَّة على قول الجمهور[1]، ونقل السُّيوطيُّ قولًا باستثناء آية منها، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: 38][2]، ولعلَّه قال ذلك بسبب ما ورد في سبب نزول الآية عند الحاكم عَنِ ابنِ عَبّاسٍ رضي الله عنهما، «أنَّ اليَهودَ أتَتِ النَّبيَّ ﷺ، فَسَألَتهُ عَنْ خَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ، فَقالَ: (خَلَقَ اللَّه الأرْضَ يَوْمَ الأحَدِ والإثْنَيْنِ، وخَلَقَ اللَّه الجِبالَ يَوْمَ الثُّلاثاءِ وما فيهِنَّ مِنْ مَنافِعَ، وخَلَقَ يَوْمَ الأرْبعاءِ الشَّجَرَ والماءَ والمَدائِنَ والعُمرانَ والخَرابَ فَهَذه أرْبَعَةٌ)... فَنَزَلَت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: 38]»[3]، وعقَّب ابن عاشور على هذا الرَّأي بقوله: "وهَذا المَعْنَى وإنْ كانَ مَعْنًى دَقيقًا في الآيَةِ، فَلَيْسَ بالَّذي يَقْتَضي أنْ يَكونَ نُزولُ الآيَةِ في المَدينَة، فَإنَّ اللَّه عَلِمَ ذَلِكَ، فَأوْحَى به إلَى رَسوله ﷺ، عَلَى أنَّ بَعْضَ آراءِ اليَهودِ كانَ مِمّا يَتَحَدَّثُ به أهْلُ مَكَّةَ قَبْلَ الإسْلام، يَتَلَقَّوْنَهُ تَلَقّيَ القَصَصِ والأخْبارِ، وكانوا بَعْدَ البَعْثَةِ يَسْألونَ اليَهودَ عَن أمر النُّبوءة والأنْبياءِ، عَلَى أنَّ إرادَةَ اللَّه إبْطالَ أوْهام اليَهودِ لا تَقْتَضي أنْ يُؤَخِّرَ إبْطالَها إلَى سَماعِها، بَلْ قَدْ يَجيءُ ما يُبْطِلُها قَبْلَ فُشوِّها في النّاسِ"[4].

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 155، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 274.
(2) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 65.
(3) الحاكم، المستدرك على الصّحيحين، حديث رقم: (3997)، وقد ضعّفه الذّهبيّ.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 213.

ترتيب النُّزول وترتيب المصحف وعد الآي:

جاء ترتيبها المصحفيُّ بين سورتي الحجرات والذّاريات

هذه السّورةُ هي الخمسون في التَّرتيب المصحفيِّ الشَّريف، وهو التَّرتيب الثّابت والمُعوَّل عليه عند أهل النَّظر والتَّحقيق؛ وقد جاء ترتيبها بين سورتَي الحجرات والذّاريات، وهيَ السّورة الرّابعةُ والثلاثون في ترتيبِ نُزولِ السّور، نَزلت بعد سورة المُرسلاتِ وقبلَ سورةِ البلد[1].

وأمّا عدد آياتها؛ فهي أرْبَعونَ وخمس آيات في جَميع العدَد، لَيْسَ فيها اختلاف، ولا شيءٌ مِمّا يُشبِه الفواصل[2].

فضائل السّورة:

كان النَّبيُّ ﷺ يقرأُ بها في الجُمَعِ والأعياد

هذه السّورة الكريمة من أوائلِ سوَرِ المفصَّل التي قال فيها النبيُّ ﷺ فيما رواه عنه واثلةُ بن الأسقع ﵁: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثاني، وفُضِّلْتُ بالمُفصَّلِ»[3]، ورَوَى مُسْلِمٌ عَنْ عَمرَةَ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أُخْتٍ لِعَمرَةَ، قالَت: «أَخَذْتُ - ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾- مِنْ في رَسول اللّه ﷺ، يَوْمَ الجُمُعَةِ، وهوَ يَقْرَأُ بِها عَلَى المِنْبَرِ، في كُلِّ جُمُعَةٍ»[4].

وروى مسلمٌ عن جابر بن سمرة ﵁ قال: «إنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يَقْرَأُ في الفَجْرِ بِـ ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾، وكانَ صَلاتُهُ بَعْدُ تَخْفيفًا»[5]، وعَنْ أبي واقِدٍ اللَّيْثيِّ ﵁ قال: «سَأَلَني عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ: عَمّا قَرَأَ به رَسولُ اللّه ﷺ في يَوْمِ العيدِ؟ فَقُلْتُ: بِـ: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: 1]، و﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾»[6].

(1) دروزة، التّفسير الحديث: 2/ 220، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 274.
(2) الداني، البيان في عد آي القرآن، ص: 231.
(3) أخرجه أحمد في المسند، برقم: (16982)، والطبراني في المعجم: (22/ 76) ، برقم: (187)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم: (2415).
(4) مسلم، صحيح مسلم، بابُ تخفيفِ الصّلاةِ والخُطبةِ، حديث رقم: (872).
(5) مسلم، صحيح مسلم، بابُ القِراءةِ في الصُّبح، حديث رقم: (458).
(6) مسلم، صحيح مسلم، بابُ ما يُقرأُ بِهِ في صلاةِ العِيدين، حديث رقم: (891).

سُـــورةُ (ق) اشتـهـرت بـهـذا الاســـم، ولا يُـعـرف لـهـا أسماء أخرى

اسم السّورةِ وسَبب تسميتها:

وردت تسميتها بسورة (ق) في كتب السُّنَّة والتَّفسير، فقد ذكر البخاريُّ والتِّرمذيُّ تسميتَها بذلك[1]، وذلك لورود هذه اللَّفظة في مطلعها، فهي "مِن السّور الَّتي سُمّيت بِأسماء الحروفِ الواقعة في ابتدائِها - مثلَ (طه) و(ص) و(ق) و(يس) - لانفرادِ كلِّ سورَةٍ منها بِعدد الحروفِ الواقعَةِ في أوائِلِها، بِحَيْثُ إذا دُعيَت بِها لا تَلْتَبِسُ بِسورَةٍ أُخْرَى"[2]، وقد ذكر السُّيوطيُّ تسميتها بسورة (الباسقات)[3]، ولعلَّ ذلك لانفرادها بهذه اللَّفظة، وأطبق المحقِّقون من العلماء على أنَّ هذا الحرفَ الذي سُمّيَت به سورةُ (ق) - وسائِرَ الحروف المقطَّعةِ الَّتي جاءت في (29) سورةً من سور القرآن الكريم- للتَّحدّي، وقَرعِ العصا لهم بأنْ يأتوا بمثله؛ إن استطاعوا إليه سبيلًا، فحروفُ القرآن هي حروف العَرَبِ التي ينطقون بها، ونظمه يُشبِه سائر نظومهم، ولكنَّهم مع ذلك لا يقدرون على الإتيان ولو بسورة مِن مِثلِه.

مِـحـوَرُ الـسّـورة قائمٌ على إثباتِ الإيمان بالبَعث

المحور العامُّ للسّورة:

موضوعُ هذه السّورة مثلُ موضوعات سائر السّور المكّيَّة، التي تعالج أصولَ العقيدة الإسلاميَّة: التَّوحيد، والبعث، والنُّبوَّة والرِّسالة، واعتنت سورة (ق) بالأصل الثّاني، وهو البعث، وإثباته، والرَّدُّ على منكريه، فابتدأتِ السّورة بالكلام عن إنكار مشركي العرب وقريش أمرَ البعث والنُّشور، وأمرَ النُّبوَّة ورسالة محمَّد ﷺ، وتعجُّبهم من إرسال رسول منذر منهم، ومن إعادة الحياة بعد الممات[4].

---

(1) البخاري، صحيح البخاري، باب: تفسير سورة ق: 4/ 1834، والترمذي، سنن التّرمذيّ، بابٌ: ومِن سُورةِ ق 5/ 390.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 273.

(3) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 194.

(4) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 26/ 275 - 276.

فمِحوَرُ السّورة قائمٌ على النقاط الآتية:

أوّلاً: بيان أثر القرآن المُعجز في إقامة الأدلَّة على الغيبيّات المُنكَرة، من خلال عرض سُنَنِ اللّه الكونيَّة في الأنفس والآفاق، ومن خلال عرض سنن اللّه الاجتماعيَّة في استئصال المكذِّبين المعاندين.

ثانيًا: عرضت السورة مَشاهِدَ غيبيَّةً تكشف لهم عن علم اللّه تعالى بالإنسان وبخوالج نفسه، وأنَّ كلَّ أعمال الإنسان محفوظةٌ له، وستنكشف في يوم يتخلّى فيه القرين عن قرينه، والتّابعُ عن متبوعه، وبيَّنت لهم انقسام النّاس إلى فريقَيْن يوم القيامة، مُبَيِّنةً جزاءَ كلِّ فريق.

ثالثًا: اختتمت السّورة الكريمة بعد ذلك بوصايا للنَّبيِّ ﷺ تعينه على مواجهتهم وردِّ شبهاتهم، مبتدِئةً هذه الوصايا بأمره بالصَّبر على أقوالهم، وبالابتهال إلى اللّه تعالى بالتَّسبيح له باللَّيل والنَّهار، وأنْ يذكِّرهم بيوم البعث، وأن يعلِّمهم أنَّ اللّه تعالى هو الذي اختصَّ بالإحياء والإماتة، وأنَّه ليس مسؤولًا عن هدايتهم، بل إنَّه مأمورٌ أنَّ يُذكِّر بالقرآن من يخاف وعيدَ اللّه تعالى.

موضوعات السورة وخصائصها:

مَـدارُ الـسّـورة يَدورُ حولَ تأكيدِ حقيقة البَعثِ

من موضوعاتِ سورةِ (ق) ومقاصِدِها الكلِّيَّة: التَّنْويهُ بِشَأْنِ القُرْآنِ، وتكذيبُ المشركين الرَّسولَ ﷺ؛ لِأنَّهُ من البشر، والاسْتِدلالُ عَلى إثباتِ البعثِ، وأنَّهُ لَيس بأعظَمَ من ابتداءِ خَلق السَّماواتِ وما فيها، وخلقِ الأرضِ وما عَلَيها؛ والاستدلالُ بنَشأة النَّبات والثِّمارِ من ماءِ السَّماءِ على الإحياء بَعدَ المَوت، وتَنْظيرُ المشركين في تكذيبهم بالرِّسالةِ والبَعث ببعض الأُمم الخالية المعلومَةِ لَديهم، ووَعيدُ هؤلاء أن يَحلَّ بهم ما حلَّ بأولَئِكَ، والوَعيدُ بِعَذابِ الآخِرة؛ ابتِداءً من وقت احتضار الواحِدِ، وذِكر هَول يوم الحساب، ثمَّ وعدُ المؤمنين بِنَعيم الآخرة؛ وتَسلية النَّبيِّ ﷺ عَلَى تكذيبهم إيّاهُ، وأمرُهُ بالإقبال على

طاعة رَبّه، وإرجاءِ أمر المُكَذِّبين إلَى يَوم القيامة، وأنَّ اللّه لَو شاءَ؛ لَأخذَهم من الآن، ولَكِن حِكمَةُ اللّه قضَت بإرجائِهم، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ لَم يُكَلَّف بِأن يُكرِهَهُم عَلَى الإسلام، وإنَّما أُمِر بالتَّذكيرِ بالقُرآنِ، ثمَّ الثَّناءُ على المُؤمِنين بالبَعث بِأنَّهم الَّذين يتذَكَّرون بالقرآن، وإحاطَة علم اللّه تعالى بخفيّات الأشياء وخواطر النُّفوس[1].

الخصائِصُ الموضوعيةُ لسورةِ (ق):

موضوعاتُ سورةِ (ق) تدور حولَ أصول الدّين والتَّذكير بيوم الدّين

اشتملت السورةُ على موضوعاتٍ شديدةِ الأهمّيَّة، نُظِمت بأسلوبٍ بالغِ التَّأثير، وهي:

أوّلاً: تبدأ بالثَّناء على القرآن الكريم، ثم تسْرُد دعاوى المشركين، وتردُّ عليهم بما يُخرِس ألسنتَهم، ثم توَبِّخُهم على عَدَم تفكُّرهم في أحوال الكَونِ الزّاخِر بالآيات والكائنات، الدالَّة على وحدانيَّة اللّه تعالى وقُدرَتِه، ثم تذكِّرهم أيضًا بسوء عاقبة المكذِّبين من قبلهم، كقوم نوح وعاد وثمود، وقوم فرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة، ثم تُتبِع ذلك بتذكيرهم بعلم اللّه الشامل لكلِّ شيء، وبسَكَرات الموت وما يتبعها من بعثٍ وحسابٍ، وثوابٍ وعقابٍ، ثم تُختَتَمُ السورةُ الكريمة بتسلية الرسول ﷺ عمّا أصابه من قومه، وتُرشِدُه إلى العلاج الذي يعينه على مداومة الصبر، كما تحكي له أحوالَهم يومَ القيامة؛ ليزدادَ يقينًا على يقينه، وتأمره بالمواظبة على تبليغهم بما أمره اللّه تعالى بتبليغه[2].

ثانيًا: تشتمل السورةُ على نوعٍ من الإعجاز، يتمثَّل في سَردِ الحقائقِ التي تَعِظ النّاسَ، وروايةِ الأحداث والأخبار التي تُنَبِّهُهم، وتوقِظهم من غفلتهم، وتدعوهم إلى تأمُّلِ ما حَدَث للسابقين الذين رفضوا اتِّباع المرسلين، وكفروا بربِّ العالمين؛ وهي أخبارٌ ومواقفُ لم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 275.

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 329، 330.

يكن باستطاعةِ أحدٍ الإحاطةُ بها، ولا معرفةُ شيءٍ عنها، إلّا بوحيٍ من علّامِ الغيوب.

الخصائِصُ الأسلوبيَّةُ لسورةِ (ق):

تميَّزت سورةُ (ق) بخصائِصَ أفردَتها عن غيرها من السّور

أوّلًا: تميَّزتِ السّورةُ الكريمة بقِصَر آياتِها وتقارُبِ فواصلها، وبأنَّ أغلبَ فواصلِها اختتمت بحروف القلقلة: القاف والطّاء والباء والجيم والدّال، فقد ذُيِّلت (27) فاصلةً منها بحرف الدّال، و(7) فواصلَ بحرف الباء، و(5) بحرف الجيم، أي(39) آيةً من أصل (45) آيةً اختتمت بحروف مقلقلة، وهذه القلقلة بارتجاج الصَّوت واهتزازه تتلاءم مع قوَّة عبارات السّورة وشدَّة صوتها على الكافرين المُنكرين.

ثانيًا: تميَّزت السّورة أيضًا بأنَّ حرف القاف فيها له حضوره المميَّز، بدءًا من الآية الأولى منها؛ إذ بلغت مرّاتُ تكراره - مع احتساب الحروف المُضعَّفة - (64) مرَّةً، ووَرَد ذكره في ألفاظ لها وضعها الخاصُّ في السّورة الكريمة مثل ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾، و﴿تَنقُصُ﴾، ﴿وَأَلۡقَيۡنَا﴾، و﴿بَاسِقَٰتٍ﴾، و﴿قَوۡمُ﴾، و﴿خَلۡقٍ﴾، و﴿ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ﴾ [ق: 17]، و﴿قَرِينُهُۥ﴾ [ق: 23]، و﴿سَآئِقٌ﴾ [ق: 21]، و﴿قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾ [ق: 41]، وغيرها.

ثالثًا: تميَّزت السّورة أيضًا بتكرار بعض الألفاظ في فواصلها، مثل ﴿حَفِيظُۢ﴾[1]، و﴿ٱلۡخُرُوجِ﴾[2]، و﴿مُّنِيبٍ﴾[3]، و﴿مَزِيدٖ ﴿٣٠﴾﴾[4]، و﴿عَتِيدٞ ﴿١٨﴾﴾[5]، و﴿بَعِيدٞ﴾[6]، و﴿وَعِيدِ﴾[7].

رابعًا: تميَّزت السّورة أيضًا بتكرار ضمير العظمة فيها مرّاتٍ عديدةً، منها: ﴿عَلِمۡنَا﴾، ﴿وَعِندَنَا﴾، و﴿بَنَيۡنَٰهَا﴾، ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾،

(1) الآيتان: 4، 32.
(2) الآيتان: 11، 42.
(3) الآيتان: 8، 33.
(4) الآيتان: 30، 35.
(5) الآيتان: 18، 23.
(6) الآيات: 3، 27، 31.
(7) الآيات: 14، 20، 28، 45.

و﴿مَدَدْنَـٰهَا﴾، ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾، ﴿وَأَنۢبَتْنَا﴾، ﴿وَنَزَّلْنَا﴾، ﴿وَأَحْيَيْنَا﴾، ﴿أَفَعَيِينَا﴾، و﴿خَلَقْنَا﴾ [ق: 16]، ﴿فَكَشَفْنَا﴾ [ق: 22]، و﴿نَقُولُ﴾ [ق: 30]، و﴿وَلَدَيْنَا﴾ [ق: 35]، و﴿مَسَّنَا﴾ [ق: 38]، و﴿إِنَّا﴾ [ق: 43]، و﴿نَحْنُ﴾ [ق: 43]، ﴿وَإِلَيْنَا﴾ [ق: 43]، و﴿عَلَيْنَا﴾ [ق: 44]، وكلُّ ذلك مرتبطٌ بتولّي اللّه ﷻ الرّدَّ عليهم بنفسه، وإقامةِ الأدلّة على قدرته على البعث بنفسه.

خامسًا: تميَّزت السّورة الكريمة أيضًا بأنَّها زاخرةٌ بأنساقٍ تعبيريَّةٍ خاصَّة بها، حتّى كأنَّ كلَّ تراكيبها كانت كذلك، ممّا يؤكِّد أنَّ لهذه السّورة نظمًا خاصًّا بها، وهي بهذا تشبه سورة محمَّد والفتح والحجرات اللّاتي سبقنها بخصوصيَّة تركيباتها وأنساقها التَّعبيريَّة، ومنها على سبيل التَّمثيل لا الحصر: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ﴾، ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾، ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾، ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾، ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾، ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾، ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾، ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق: 16]، ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧﴾ [ق: 17]، ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق: 19]، وهكذا هي بقيَّة آيات السّورة الكريمة.

سادسًا: تميَّزت السّورة الكريمة أيضًا بأنَّها حَوَت أبنيةً صرفيَّة لم تأتِ في غيرها من السّور، مثل: ﴿رَجْعُۢ﴾، ﴿مَّرِيجٍ﴾، ﴿ٱلْخُرُوجُ﴾، ﴿ٱلْحَصِيدِ﴾، ﴿تَبْصِرَةً﴾، ﴿ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق: 16]، ﴿قَعِيدٌ ۝١٧﴾ [ق: 17]، ﴿عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: 18]، ﴿ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ [ق: 17]، ﴿سَآئِقٌ﴾ [ق: 21]، ﴿مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾ [ق: 30]، ﴿ٱلْخُلُودِ ۝٣٤﴾ [ق: 34]، ﴿فَنَقَّبُوا۟﴾ [ق: 36]، وغيرها.

سابعًا: تميَّزت السّورة الكريمة بأنَّها حوت ألفاظًا فريدة في مادَّتها وبنائها الصَّرفيِّ، وهي: ﴿تَحِيدُ ۝١٩﴾ [ق: 19]، ﴿بَاسِقَـٰتٍ﴾، ﴿يَلْفِظُ﴾ [ق: 18].

ثامنًا: تميَّزت السّورة الكريمة أيضًا بكثرة المركَّبات الوصفيَّة فيها، مثل: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾، ﴿شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾، ﴿رَجْعُۢ بَعِيدٌ﴾، ﴿كِتَـٰبٌ حَفِيظٌ﴾، ﴿أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾، ﴿زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾، ﴿عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾، ﴿طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾، ﴿مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۝٢٥﴾ [ق: 25]، ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ۝٢٦﴾ [ق: 26]، ﴿ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٢٧﴾ [ق: 27]، ﴿أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢﴾ [ق: 32]، ﴿بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣﴾ [ق: 33]، وغيرها.

تاسعًا: تعانق مطلع السّورة مع خاتمتها بما يُسمّيه علماء البلاغة بِرَدِّ العَجُزِ على الصَّدْر، فقد استهلَّت السورةُ بقوله تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم

﴿مُّنذِرٌ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾، واختتمت بالحديث عن البعث وعن القرآن: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ٤٣ يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ٤٤ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ٤٥﴾ [ق: 43 - 45].

مناسبة سورةِ (ق) لما قبلها:

سورة (ق) متَّصلة تمامًا بسورتي الحجرات والذّاريات مضمونًا وأسلوبًا

وجه ارتباط سورةِ (ق) بسورة الحجرات المدنيَّة التي سبقَتها، فإنَّ سورةَ الحجرات قد انطوت على جملة من الألطاف التي خصَّ بها تعالى عبادَه المؤمنين، كذكره تعالى أُخوَّتهم، وأمرِهم بالتَّثبُّت عند غائلةِ معتدٍ فاسقٍ، وأمرِهم بغضِّ الأصوات عند نبيِّهم، وألّا يُقَدِّموا بين يديه، وألّا يعاملوه في الجَهْرِ بالقول كمعاملةِ بعضهم بعضًا، وأمرِهم باجتناب كثيرٍ من الظَّنِّ، ونهيهم عن التَّجسُّسِ والغيبة، وأمرِهم بالتَّواضع، وأخبرَهم تعالى أنَّ استجابتهم وامتثالَ هذه الأوامرِ ليست بحَولِهم، ولكن بفضله وإنعامه، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ﴾ [الحجرات: 7 - 8]، ثمَّ أعقب تعالى بقوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [الحجرات: 17].

وليبيِّن أنَّ ذلك كلَّه بيده ومن عنده، أراهم اللّه سبحانه في مطلع سورة (ق) حالَ من قضى عليه الكفرَ، ولم يحبِّبْ إليه الإيمانَ، ولا زيَّنه في قلبه، بل جعله في طَرَفٍ من حالِ مَنْ أُمِرَ، ونُهيَ في سورة الحجرات، مع المساواة في الخلق وتماثل الذوات، فقال تعالى: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ الآيات [ق: 1 - 5].

ثمَّ ذكر سبحانه وضوحَ الأدلَّة: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ الآيات [ق: 6 - 11]، ثمَّ ذكر حالَ غيرهم ممَّن كان على رأيهم ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ الآيات [ق: 12 - 14]؛ ليُذَكِّر مجموعُ هذا من قُدِّم ذِكرُ حالِه في سورة الحجرات، وليتأدَّب المؤمنُ بآداب اللّه، ويعلمَ أنَّ ما أصابه مِنَ الخير؛ فإنَّما هو من فضل ربِّه وإحسانه.

ثمّ التحمتِ الآيُ إلى قوله خاتمة السورة: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: 45][1].

فالحقُّ أنَّه وإنِ اختلفتِ السّورتان في مكانِ النُّزول وزمانِه، إلّا أنَّه عند إنعامِ النَّظر فيهما يتبيَّن أنَّ بينهما أواصرَ كثيرةً تجمعهما، فلئن كانت سورة الحجرات، قد ذكَّرت المؤمنين بنعمة اللّه تعالى عليهم أن هداهم للإيمان؛ فقد جاءت هذه السّورة الكريمة؛ لتبيِّن لهم حالَ من لم يخالِط قلبَه الإيمانُ، وسلَّم أمرَه لقرينه الكافر، ولئن كانت سورة الحجرات قد بيَّنت بعض أحوال المؤمنين، وعالجت بعض الأخطاء التي يُمكِن أن يقعوا فيها، فقد جاءت هذه السّورة؛ لتبيِّن عِلمَ اللّه تعالى بما توَسوِس به النُّفوس، ولتذكِّرهم بسكرات الموت، ثمَّ إنَّ سورة (ق) جاءت لتذكِّرَ المؤمنين بيوم الحساب وأحداثِه، وتخلّي القرين عن الإنسان، وجاءت لتوصيهم ببعض ما يعينهم على أداء مهمّاتهم على ما يرضي اللّه تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ [ق: 39 - 40].

(1) الغرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 314.

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾ [ق: 1]

❁ مُناسَبَةُ مُفْتَتَحِ السّورةِ لِما قبلَها:

تفصيلٌ في ذكرِ مُنكِري البعث، والردُّ عليهم

لَمّا أشار سبحانه في آخر سورة الحجرات إلى أنَّ إيمانَ أولئك الأعراب لم يكن إيمانًا حقًّا، ويتضمَّن ذلك إنكارَ النُّبوَّة، وإنكارَ البعث؛ افتتح ﷻ سورةَ (ق) بما يتعلَّق بذلك(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَجِيدِ﴾: (مجد) أصْلٌ صَحيحٌ، يَدُلُّ عَلَى بُلوغِ النِّهايَةِ، ولا يَكونُ إلّا في مَحْمودٍ، منه المَجْدُ: بُلوغُ النِّهايَةِ في الكَرَم، واللّه الماجدُ والمَجيدُ، لا كَرَمَ فَوْقَ كَرَمه(2)، وأصل المجد من قولهم: مَجَدَتِ الإبلُ؛ إذا حَصَلَت في مرعًى كثيرٍ واسعٍ، وقد أمجَدَها الرّاعي، وقولهم في صفة اللّه تعالى: المَجيدُ، أي: يُجري السَّعةَ في بذل الفضل المختصِّ به، وقوله في صفة القرآن ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾، وصفُه بذلك لكثرة ما يتضمَّن من المكارم الدُّنيويَّة والأخرويَّة، وعلى هذا وصفه بالكريم بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧﴾ [الواقعة: 77]، وعلى نحوه: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١﴾ [البروج: 21](3).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

القرآنُ صاحبُ الشَّرفِ العظيم، وهو دليلُ صدقِ الرَّسولِ الكريم

تُخبر الآية الكريمة أنَّ اللّه سبحانه أقسم بالقرآن المجيد، ذي الشأوِ البعيد، والكرم التَّليد؛ لاشتماله على مواقِفَ وقصصٍ تذكِّر النّاسَ، وتَعِظُهم بما ينفعهم في دنياهم وآخرتهم، على أنَّ الرسولَ ﷺ صادقٌ في كلِّ ما يُبَلِّغُه عن ربِّه، وأنَّ أمرَ البعث والحساب الذي

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 528، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 321.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مجد).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (مجد).

حدَّث الناسَ عنه حقٌّ لا شكَّ فيه، وصِدقٌ لا كذبَ معه، وأنَّ الرسول لم يأتِ به من عند نفسه، إنَّما هو وحيٌ أوْحى به إليه اللّٰه الذي يشملُ عِلمُه غيبَ السَّماواتِ والأرضِ وما بينهما.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائدةُ الافتتاحِ بالحَرفِ المقطَّع:

نـظـمُ الـقـرآنِ الـمـجـيـدِ مـن حروفٍ عجزَ عن نظمِ مثلِه بها أفصَحُ النّاس

افتتح النظمُ الكريمُ السورةَ بـ: ﴿قٓ﴾، وهو أحد الحروفِ المقطَّعة؛ للدَّلالة على إعجاز القرآن المجيد البيانيِّ، المُتَمثِّل في تركيبه من الحروف التي يتكلَّمون بها، والتي تحدّاهم أنْ ينسِجوا على منوالها، فذِكرُ هذا الحرفِ المقترن بالقسم بالقرآنِ المجيدِ دليلٌ على عجزِهم على أن يأتوا بكلامٍ مجيدٍ مثلِه، يتشكَّل من الحروف التي ينطقون بها نفسِها.

سرُّ الابتداءِ بحرفِ ﴿قٓ﴾:

صـفـاتُ الـقـافِ تعكِسُ معانيَ السّورة

المتأمِّل في سورةِ ﴿قٓ﴾ يجِدُها مبنيَّةً على الكلمات القافيَةِ من ذِكر القرآن، وذِكر الخلق وتكرير القول ومراجعته مرارًا، والقربِ من ابن آدم وتلقّي المَلكين قولَ العبد، وذكرِ الرَّقيب، وذكرِ السّائق والقرين، والإلقاءِ في جهنَّم، والتَّقدُّم بالوعيد، وذكر المتَّقين، وذكرِ القلب، والقرون، والتنقيب في البلاد، وذكر القيل مرَّتين، وتشقُّق الأرض، وإلقاء الرَّواسي فيها، وبسوق النَّخل، والرِّزق، وذكر القوم، وحقوق الوعيد، وسرٌّ آخرُ لابتداءِ السّورة بـ﴿قٓ﴾ هو أنَّ كلَّ معاني هذه السورة مناسِبَةٌ لما في حرف القاف من الشِّدَّة والجهر والعلوِّ والانفتاح[1].

غَرَضُ ذكرِ الحرف المقطَّعِ قبل القَسَم:

تشويقُ المتلقّي لـمـا يـأتـيـه مِـنَ الـكلامِ الرّائقِ، والمعنى الفائق

آثر النظمُ الكريمُ ذكرَ الحرفِ المقطَّع قبل القَسَم في قول اللّٰه تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾، ولم تبدأِ السورةُ بالقسم؛ ليَكونَ

(1) ابن القيم، بدائع الفوائد: 3/ 174.

السّامعُ مُقبِلًا على استماع ما يَرِدُ عليه، فلا يفوته شيءٌ من الكلام الرّائق، والمعنى الفائق[1]؛ إذِ التَّعبيرُ بالحرف المقطَّع فيه من الإثارة والتَّشويق ما يدفع المتلقّيَ إلى معرفة معناه، ويحثُّه على ترقُّبِ ما بعده، كي يَفهَمَ مدلولَ هذا الحرفِ ومبتغاه، ومن ثمَّ لا يفوته شيءٌ ممّا تريد السورة إثباتَه في العقول، واستقرارَه في القلوب.

غرضُ القَسَم في مُفتتَحِ السّورة:

تأكيد المُقْسَم عليه، والتَّنبيهُ إلى أهمّيَّة ما تضمَّنته السورة

بعدَ افتتاحِ السورة بالحرف القرآنيِّ ﴿قٓ﴾ يأتي القَسَمُ بالقرآن المجيد لتأكيد المُقسَم عليه، ولإثبات صدق الرَّسولِ فيما يُبَلِّغُه عن ربِّه، وللتَّنبيه إلى أهَمّيَّةِ ما تتضمَّنُه السّورةُ من معانٍ ومفاهيمَ، فلها عظيمُ الأثر في تحريك النفوس، وتوجيهها إلى الطّاعات، وزجرها عن المعاصي والمُخالفاتِ، التي يأتي على رأسها الكفرُ باللّٰه تعالى، ومعاداةُ نبيِّه ﷺ، وإنكارُ ما جاء به من الوحي الَّذي أنزله اللّٰه تعالى عليه.

بلاغةُ اصطفاءِ لَفظِ القُرآن:

تشريفُ القرآن وتعظيمه، ولَفتُ الانتباه إلى ضرورة الإيمان به والعملِ بما فيه

أوثر القسم بالقُرآنِ في مُفتَتَح السورة: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ تعظيمًا له، وتنويهًا بشأنه[2]، وتعريضًا بإنكار المشركين لإنزاله على الرَّسول ﷺ، ولفتًا لأنظار الكفّار وغيرِهم إلى ضرورة الإيمان به، والإقبال عليه، وفَهمِ ما فيه، والاتِّعاظِ بما يَقُصُّه من أخبار الأُمَم السّابقة، والعملِ بما يأمر به، واجتنابِ ما ينهى عنه، وجاء القسَمُ بالقرآن دون الكتاب، وذلك باعتبارِه الاسمَ العَلَم الأشهر للوحي المُعجِز، وباعتبارِه مقروءًا على القومِ، وأنَّ تاليَهُ مستحِقٌّ للمجدِ والشَّرفِ بقراءته له بغرضِ العمل به.

وكما أنَّ التَّعبيرَ بالقُرآنِ فيه التَّنبيهُ إلى ضرورة المداومة على قراءته، لشرفِه واشتمالِه على ما ينفع القارئين في دنياهم وآخرتهم،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 120.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 276.

فإنَّ فيه أيضًا تنبيهَ المخاطَبين إلى ضرورةِ الاستماع لمن يقرؤه - إن كانوا لا يقرؤون - والإنصاتِ عند قيام أحدٍ بذلك؛ لما لِلاستماع والإنصات مِنْ أثَرٍ في الفهم، المُفضي إلى العمل، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: 204].

دلالةُ وصفِ القرآنِ بالمَجيدِ:

القرآنُ المجيدُ هو المشتملُ على أعلى المعاني النّافعة والحقائِقِ الماتعة

آثر النَّظمُ الكريم وصفَ القرآن بالمَجيدِ في قول اللّه تعالى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾، ومعناه العظيم، وقيل: كثير الكرم، وعلى الوجهين فالقرآنُ جديرٌ بهذا الوصف؛ فهو عظيمُ الفائدة؛ وهو ذكر اللّه العظيم، وذكرُ العظيم عظيمٌ؛ ولم يَقدِر عليه أحدٌ من الخلق، فهو آيةُ العَظَمَة، يُقال: مَلِكٌ عظيمٌ؛ إذا لم يكن يُغلَب، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: 42]، فلأنَّه غيرُ مقدورٍ عليه هو عظيم، وأمّا على القول بأنَّ المجيدَ هو كثيرُ الكرم، فالقرآن كريم: فإنَّ كلَّ مَنْ طلب منه مقصودَه؛ وجَدَه، وإنَّه مغنٍ كلَّ مَن لاذَ به، وإغناءُ المحتاج غايةُ الكرم، ويدُلُّ عليه أنَّ المجيدَ مقرونٌ بالحميد في قولنا: إنَّك حميدٌ مجيدٌ، فالحميدُ هو المشكور، والشُّكرُ يكون على الإنعام، والمُنعِمُ كريمٌ، فالمجيدُ هو الكريمُ البالغُ في الكرم(1).

وقيل معناه: المتَّصِفُ بقوَّة المجد، الذي هو الشَّرفُ الكاملُ، وكَرَمُ النَّوع، وشرفُ القرآنِ من بين أنواع الكلام أنَّه مشتملٌ على أعلى المعاني النّافعة لصلاح النّاس، فذلك مجْدُه(2).

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغَةِ المبالغة:

جاء وصف القرآن بالمَجيدِ في قول اللّه تعالى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ بزِنَة (فَعيل) التي تُفيد المبالغة: للدَّلالة على كمال مجده،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 122.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 277.

رتـبـةُ الـقـرآنِ الــكــريــمِ في العَظَمَة والمجد لا تبلُغُها رتبةُ كلامٍ آخرَ

وبلوغه فيه مَبلَغًا لم – ولن – يصل إليه أيُّ كلامٍ آخرَ، وصيغةُ (فَعيل) تدلُّ على ثبوتِ الشَّيء وقوَّته، فالقرآن الكريم ليس مجرَّدَ كتابٍ صاحبِ مَجدٍ، بل هو صاحبُ المجدِ الثّابتِ، الذي لم يكن لكتابٍ سابقٍ ولا لاحِقٍ، فهو الكامل في المجد المُطلَق؛ إذْ إنَّه يَفوق أفضلَ ما أبلغه الله للناس من أنواع الكلام الدالِّ على مراد الله تعالى؛ لأنَّه أوجد ألفاظه وتراكيبه وصورة نظمه بِقُدرَته دون واسطة؛ أمّا أكثرُ الكلامِ الدّالِّ على مراد الله تعالى؛ فإنَّه أوجَدَه الرُّسلُ والأنبياءُ المتكلِّمون به؛ إذ عبَّروا بكلامِهم عمّا أنزله الله تعالى عليهم من الوحي.

نكتةُ حذفِ جوابِ القَسَم:

إظـهـارُ تعجُّب الـكـافـريـن من إرسال المرسَلين

اختلف أهلُ التَّفسير في جواب القسم: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾، فذهب بعضُهم إلى أنَّه مذكور في السورة بعده، وأنَّه قولُ الله تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ﴾، أو قولُه: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ [ق: 29]، أو: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ﴾ [ق: 18]، أو: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ﴾ [ق: 37]، أو: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ﴾، وذهب آخرون إلى أنَّه محذوف، ثمَّ اختلفوا في تقديره على أقوالٍ مُتَنوِّعةٍ، وإنَّما جوَّز هذا الحذفَ أنَّه عُلِم جوابُ القَسَم من السّياق، فهو يدور حولَ إثباتِ البعث والنُّبوَّة[1]، فالمعنى: (أُقسِم بالقرآن ذي المجد والشَّرف، وذي الخير الوفير، الذي يَجِد فيه كلُّ طالبٍ مقصودَه، إنَّك أيُّها الرَّسولُ الكريم لَصادقٌ فيما تبلغه عن ربِّك من أنَّ البعث حقٌّ، والحسابَ حقٌّ، والجزاءَ حقٌّ، لكنَّ الجاحدين لم يؤمنوا بذلك)[2]، ويؤيِّد هذا التَّقديرَ ابتداءُ السّورة بحرفِ ﴿قٓ﴾ المُشعِرِ بالنِّداء على عجزهم عن معارضة القرآن بعد تحدّيهم بذلك، كما يدلُّ عليه الإضرابُ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾[3].

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 17.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 332.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 277.

فأنظارُ المفسِّرين إنَّما انطلقت مِن سياق السورة لتعيين الجواب المقصود، ذِكرًا أو تقديرًا، وهذه التَّقديراتُ لجوابِ القسم تدلُّ على الثَّراء الدَّلاليِّ في جملةِ القسم، وهو ما يُنبئ عن عظمة القسم بالقرآن المجيد، وقوَّةِ النَّظم الذي جَزُل به المقام، فَمِن فوائد الحَذفِ أن تذهَبَ النَّفسُ في تقديرِه كُلَّ مَذهَب، فيكونَ المعنى أغزرَ، وبُحورُه أزخر[1]، ومن نُكَتِ الحذف كذلك: الإعراضُ عن جواب القسم إلى ما هو أجدر بالذِّكر والرد، وهو تعجُّب الكافرين من إرسال النَّبيِّ ﷺ إليهم بخبَرِ البعث والحساب، وتكذيبهم ما جاء به.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القرآنُ والكِتابُ والفُرْقان:

كان الرسولُ يُبلِغ الوحيَ بقراءته على الكافرين

القرآن والكتاب والفرقان ثلاثتُها من أسماء الذِّكر الحكيم، الذي أنزله اللّه تعالى على رسولِه الأمين؛ ليكون نذيرًا للعالمين، ولكلِّ اسم منها معنًى متحقِّقٌ فيه غايةَ التحقُّق، فما سُمّيَ (قرآنًا) إلّا لأنَّه يُقرَأُ باللِّسان، ويثبُت في الجنان، ويُحفظ في الصدور، وما سُمّيَ (كتابًا) إلّا لأنَّه مكتوبٌ بالأيادي، محفوظٌ في السطور، فلا ثقةَ لنا بقراءة قارئ حتى تتوافق قراءتُه مع المكتوب في السطور، ولا ثقةَ لنا بكتابة كاتب حتى تتوافق كتابتُه مع المحفوظ في الصدور[2]، وما سُمّيَ (فرقانًا) إلّا لأنَّ اللّه تعالى فرَّق به بين الحقِّ والباطل[3].

ولمّا كانت السورةُ مكيَّةً، تعالج إنكارَ المشركين خبرَ البعث والحساب الذي أخبرهم به النَّبيُّ فيما يقرأه لهم من القرآن؛ أوثِر التعبيرُ عن الوحي بالقُرآنِ، دون الكتاب أو الفرقان؛ مناسبةً للطريقة التي كان يسلُكُها الرسولُ ﷺ في إبلاغه لهم.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 324.

(2) دراز، النبأ العظيم، ص: 42.

(3) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 365.

﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ٢﴾ [ق: 2]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعد أنْ أقسَم اللّه في الآيةِ السابقةِ على صدقِ الرَّسول ووقوع البعث، وكان القسَمُ بأنَّ القرآن مُعجِزٌ في بيانه، ذو شرف ومجد في منزلته ومكانه؛ لاشتماله على ما يَعظ الناسَ، ويبيِّن لهم حقيقةَ الدُّنيا التي يعيشون فيها، وجزاءَ الأفعال التي يرتكبونها؛ ناسب أن ينتقل في هذه الآية إلى بيان حال الكفّار تجاه ما أنذرهم به الرسولُ الكريم، وقرأه عليهم من وحيِ اللّه المجيد، وأنَّهم تلقّوا ذلك بالتعجُّب والإنكار، وزيادة الإصرار على ما هم فيه.

بيـانُ مَـوقِـفِ الـكـافـريـن من الوحي بعد بيانِ شـأنِ الـكـتـابِ المجيد

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَجِبُوٓاْ﴾ - ﴿عَجِيبٌ﴾: (عجب) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى كِبْرٍ واستِكْبارٍ لِلشَّيءِ، ومنه العُجْبُ، وهوَ أنْ يَتَكَبَّرَ الإنْسانُ في نَفْسه، تَقولُ: هوَ مُعْجَبٌ بِنَفْسه، وتَقولُ: عَجِبَ يَعْجَبُ عَجَبًا، وأمرٌ عَجيبٌ، وذَلِكَ إذا اسْتُكْبِرَ، واستُعْظِمَ[1]، فهو حالةُ كبر أو استغرابٍ تعتري الإنسانَ بسبب حصول شيءٍ لم يعهدْه، ولم يألفْه، أو يستكبر عن تقبُّله والتَّماهي معه، قال تعالى: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢﴾ [هود: 72]، هذا فيما هو غريبٌ غيرُ معهود، وقال أيضًا: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ﴾ [يونس: 2]، وهذا فيما هو إنكارٌ واستكبار[2]، وهو المقصود في الآية.

2) ﴿مُّنذِرٞ﴾: (نذر) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى تَخْويفٍ أو تَخَوُّفٍ، ومنه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عجب).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (عجب)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (عجب).

الإنْذارُ، وهو الإبْلاغُ - ولا يَكادُ يَكونُ إلّا في التَّخْويفِ - وتَناذَروا: خَوَّفَ بَعْضُهُم بَعْضًا، ومنه النَّذْرُ، وهوَ أنَّهُ يَخافُ؛ إذا أَخْلَفَ، والنَّذيرُ: المُنْذِرُ، والجَمعُ النُّذُرُ[1]، ويقع على كلِّ شيء فيه إنذار، إنسانًا كان أو غيره، قال تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ [نوح: 2]، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ۝٨٩﴾ [الحجر: 89]، وقال أيضًا: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦﴾ [النجم: 56]، أي: من جنس ما أُنْذِرَ به الذين تقدَّموا[2].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

جـوابُ الـكفّار للإنذار أن يتلقّوه بالاستكبارِ

تُبَيِّن الآيةُ الكريمةُ موقفَ الكافرين ممّا أنذرهم به الرسولُ الأمينُ، وما قرأه عليهم من آياتِ الذِّكر الحكيم، فتَذكُر أنَّهم تلقَّوا خبَرَ البعث والحساب بخاصَّة، وجميعَ ما أنذَرَهم به القرآنُ بعامَّة، بالتعجُّب والإنكار، وأصرّوا على الكُفر والاستكبار، وكان ذلك بلسان الحال ولسانِ المقال على السَّواء.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ ﴿بَلْ﴾ ودلالتها:

الانـتـقـالُ من التَّنويه بالقرآنِ إلى ذكـرِ سببِ إعراض الكافرين عنه

﴿بَلْ﴾ في قول الله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾: للإضراب عمّا يُنْبِئُ عنه جوابُ القسم المحذوف - على القول بحذفِه - فكأنَّه قيل: (إنّا أنزلناه لِتُنذِرَ به النّاسَ، فلم يؤمنوا به، بل جعلوا كلًّا من المُنْذِرِ والمُنْذَرِ به عُرضةً للتكبُّر والتعجُّب، مع كونهما أوفقَ شيء لقضيَّة العقول، وأقربَه إلى التلقي بالقبول)، وقيل التقدير: (إنَّك جئتَهم مُنذِرًا بالبعث، فشكّوا فيه، بل لم يكتفوا بالشَّكِّ والردِّ، فجزموا بالخلاف، حتّى جعلوا ذلك من الأمور العجيبة)[3].

وَيمكن أَنْ يكونَ إضْرابَ انتِقالٍ مِنَ الشُّروعِ في التَّنْويهِ بالقُرْآنِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نذر).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (نذر).
(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 323.

المَجيدِ إلَى بَيانِ سَبَبِ إعْراضِ المُعْرِضينَ عَنْهُ؛ لأنَّ في بَيانِ ذَلِكَ السَّبَبِ تَحْقيقًا لِلتَّنْويهِ بالقُرْآنِ[1]، فهو إضرابٌ عمّا يُفهَم من وصف القرآن بالمجيد، كأنَّه قيل: (ليس سببُ امتناعِهم من الإيمان بالقرآن أنَّه لا مجدَ له، ولكن لجهلهم)، فالتعجُّبُ من الشيء يقتضي الجهلَ بسببه[2].

غرضُ الإخبارِ بتعجُّبِ الكافرين:

عجبُ الكافرين صادرٌ عن نفوسٍ مريضةٍ وعقولٍ عليلة

جاء التَّعبيرُ عن موقف الكفّار من الوحي بفعل التعجُّب، في قول اللّه تعالى: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾؛ للدَّلالة على تكبُّرهم وعدم تصديقِهم ما يقرؤه عليهم رسولُ اللّه ﷺ من القرآن المجيد، ببيانِ ما ظهر منهم من العَجَب، فإنَّ العجب الصّادرَ عنهم هو ترجمةٌ تصويريَّةٌ لواقعِ الكافرين في إنكار حقائقِ الوحي، فغرض هذا الإخبار: هو الإنكار، أي: إنكارُ عَجَبِهم البالغِ حدَّ الإحالة ممّا ليس فيه عَجَب[3].

تعيينُ مَرجِع الضَّمير:

معرفةُ الكفّارِ بصنيع الفجّار

أُسنِد فعل العجب في قول اللّه تعالى: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾، إلى ضمير الكافرين قبل ذكرهم عند تتمَّة الآية: ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾، وجاز هذا الإضمارُ للعلم بمَعاد الضَّمير، فإنَّ البيان القرآنيَّ إذا ذَكَرَ شيئًا خارجًا عن سُنَنِ الاستقامة؛ انصرف إليهم[4]؛ إذْ لا يُتوقَّعُ صُدورُه مِنْ غيرِهم، فَهُم عُرِفوا بهذا الصَّنيعِ، فكان شعارًا لهم، ودالًّا عليهم، ومُنبِّهًا على حقيقة العجبِ الصّادر عنهم، ثمَّ إنَّ السّياقَ يدلُّ عليه، فالسّورةُ افتُتِحت بحرف التَّهجّي، الذي يُشير إلى تعجيزِ الكافرين عن الإتيان بمثل هذا القرآن الذي أعرضوا عنه، وكذَّبوا به[5].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 205.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 323.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 379، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 278.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 403.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 278.

لطيفةٌ في حذفِ حرفِ الجرِّ:

من بيَّت موقفَه، وجمع رأيَه؛ فقد أوصد بابَ الحقِّ

أوثِر تعديةُ فعلِ التعجُّب إلى المصدر المؤوَّل بدون حرف الجرِّ، فقيل: ﴿عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ﴾، ولم يقل: (عَجِبوا مِن أن جاءهم)؛ تأكيدًا لحصول عجَبِهم وتكذيبهم على وجهٍ بالغٍ في الإسراع والعجَلة، فإنَّهم لم يتفكَّروا فيما قرأه عليهم رسولُ اللّه، ولم يتدبَّروا، أو يعقلوا شيئًا من معانيه، وإنَّما تعجَّبوا، وكذَّبوا الرسولَ والقرآنَ بمجرَّد سماعهم لهما، فالموقفُ مبيَّت، والرأي مجموعٌ، وفيه دليلٌ على سوءِ طويَّتِهم، وخُبثِ طبيعتِهم.

دلالة التَّعبير بمادَّة المجيء:

مشقَّةُ المجيء بالرِّسالةِ تشملُ المنذِرَ والمنذَرين

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مادَّة المجيء دون الإتيانِ في قول اللّه تعالى: ﴿عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ﴾؛ لدلالتها على الإتيان بصعوبة[1]، بخلافِ الإتيانِ، فالمفردة متَّسِقةٌ مع سياقِ الكلام؛ إذ إنَّ إرسالَ رسولٍ منهم إليهم، وإنذارَه لهم بوقوع البعث والحساب، ودعوتَه إيّاهم إلى التَّخلّي عن الكفر والعناد: أمرٌ له خطرُه وأهمّيَّتُه وصعوبته في ذاته وفي نظرهم؛ نظرًا لما يترتَّب عليه من إلزامهم الحجَّة، وإقامةِ الدليل الدامغ على عنادهم؛ لأنَّ كون المنذِر واحدًا منهم، مشهورًا فيهم بالصدق والأمانة، يُفرِضُ عليهم تصديقَه واتِّباعَ ما يأمرُ به، واجتنابَ ما ينهى عنه، وهذا في غايةِ الصُّعوبةِ بالنسبة للمعاندين، ففعلوا خلافَ ذلك.

غَرَضُ ذِكرِ المفعولِ:

تأكيدُ الإنذارِ وتقويةُ بلوغِ الفعلِ للمنذَرين

ذُكِرَ مفعولُ فعلِ المجيء، وهو ضمير الغائبِ المتَّصِلِ بفعل المجيء، في قول اللّه تعالى: ﴿عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم﴾، مع تقديمه على الفاعل ﴿مُّنذِرٌ﴾؛ وذلك لتأكيدِ بلوغ فعل المجيءِ ووصولِه المنذَرين، فقد جاءهم المنذِر، وتحقَّق الإنذارُ على وجه اليقين، وما في ذكر

(1) الراغب، مفردات القرآن: (جاء).

الضَّمير من التَّوكيد على أنَّ المجيءَ كان لهم على وجه الخصوص يُقوّي دلالةَ الإنكار في فعل ﴿عَجِبُوٓاْ﴾، فإنَّ عجبَهم يزداد نكارةً بتحقُّق مجيء النَّذير إليهم، وتأكُّد وقوعِ الحجَّة عليهم.

نكتةُ ذكر الإنذار دون البشارة:

الإنـــــذارُ لـه أثـــرُه الـفـاعـلُ في الـقـلـوبِ، وعملُه البالغُ في النفوس

آثر النَّظم الكريم ذكر الإنذار دون ذِكْر التبشير أو الإشارة إليه، في قول اللّه تعالى: ﴿عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ﴾؛ لأنَّ السّياق يتَّسق معه ذكرُ النِّذارة دون البشارة؛ فإنَّ العجب من الوحي والرسالة يستدعي إنكارَهم وتكذيبهم، وهو ما يُناسب ذكر الإنذار، فالنِّذارة لتخويفِ مَنْ أنكر البعث والحساب[1]، ولها أثرٌ فاعلٌ في القلوب، وعَمَلٌ بالغٌ في النفوس، كما أنَّ ذكر الإنذار للإيماء إلى أنَّ عجَبَهم ناشئٌ عن أنَّ الرسولَ مُخْبِرٌ بما لا يصدِّقون وقوعَه، وهو العذابُ الحاصلُ بعد الموت[2].

نكتة تنكير لفظ ﴿مُّنذِرٌ﴾:

أوثر تنكير لفظ المُنذر في قول اللّه تعالى: ﴿عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ﴾؛ لِما يفيده التنكيرُ والتنوينُ من التعظيم والتفخيم؛ "ليكون أهيبَ في النذارة، بما له من الهَيبَة والقوَّة"[3]، فإنَّ شأنَ القويِّ أنْ يُنذِرَ، وأنْ يغلِبَ إنذارُه بشارتَه.

نكتةُ تقييد الإنذار بـ﴿مِّنْهُمْ﴾:

استيلاءُ الحسدِ عـلى الـقـلـوبِ داعـيـةُ إنـكـارِ الألسُنِ وعَجَبِ العقول

جاء القَيدُ بالجارِّ والمجرور ﴿مِّنْهُمْ﴾، في قول اللّه تعالى: ﴿عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ﴾، وهو في محلِّ رفع صفة لـ ﴿مُّنذِرٌ﴾، و(مِنْ) فيه بيانيَّة، عُبِّر بها؛ لبيان أنَّ الرسولَ الذي عُني بإنذارهم وتخويفهم واحدٌ منهم، وليس غريبًا عنهم، والضَّمير المجرور فيه يعود إلى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 403.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 279.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 298.

ما عاد إليه الضمير المرفوع في ﴿عَجِبُوٓاْ﴾، وفي التعبير بهما زيادةُ إنكارٍ وعَجَب من عجبهم؛ لأنَّ العادة عندهم وعند جميع الناس أنَّه؛ إذا كان النَّذيرُ منهم؛ لم يداخلْهم في إنذاره شكٌّ بوجهٍ من الوجوه، وهؤلاء خالفوا عادةَ الناس في تعجُّبهم من كون النذير - وهو أحدهم - خُصَّ بالرِّسالة دونهم، ولم يدركوا وجهَ الخصوصيَّة لكونه مثلَهم، فأنكروا رسالتَه وفضلَ كتابه بألسنتهم حسدًا؛ لأنَّهم كانوا مُعترفين بخصائصه التي رفعه اللّه عليهم بها قبل الرسالة، فحطَّهم عجبُهم ذلك إلى الحضيض من دركات السَّفَهِ وخِفَّةِ الأحلام[1].

نوعُ الفاء ودلالتها:

الأقوالُ ترجمةُ القلوبِ

الفاء في قول اللّه تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ هي فاءُ التَّسبُّب[2]، التي تعني أنَّ قولَهم: ﴿هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ مسبَّبٌ عن عجبِهم من كَونِ الرَّسول جاء ليُنذرهم بما لا يُصَدِّقون من البعث والحساب، ولكونه واحدًا منهم، أي: بشرًا مثلَهم[3]؛ إذ كانوا يطمحون إلى أن يكون مَلَكًا، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٤﴾ [الإسراء: 94].

دلالةُ التَّعبير بفِعلِ القول مادَّةً وصيغةً:

بالغَ الكفارُ في التعجُّب، وأبلغوا القولَ به

التعبيرُ بمادَّة القول في الآية الكريمة: ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾، الموضوعةِ لإبراز ما يُتَصوَّر في النفس[4]، دالٌّ على أنَّ هذه المقولةَ تُفصِحُ عمّا هو مستقرٌّ في نفوسهم، راسخٌ في أذهانهم من تكذيب الرسول فيما جاء به بعامَّةٍ، وتكذيبِه في خبر البعث والحساب بصفة خاصَّة، فجاء ذكرُ القولِ للتَّسجيلِ عليهم بما صدر عنهم من قولٍ يُبيِّن معتقدَهم، وأوثِر التعبيرُ به ماضيًا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 404.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 404.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 279.
(4) الراغب، مفردات القرآن: (قول).

لدلالته - بمعناه وبمبناه الذي يتوسَّطُه حرفُ المدِّ - على أنَّهم بالغوا في التعجُّبِ، وأبلغوا القولَ به.

غَرَضُ إظهارِ الفاعل:

عجبُ الكفارِ وتكذيبُهم أثرٌ من آثارِ كفرِهم

عبَّر النظمُ عن فاعل القولِ بالاسم الظّاهر في قول الله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ دون أن يكون التَّعبيرُ (فقالوا)؛ للتَّشنيع بهم وتقبيح صنيعهم، ولبيان أنَّ هذه المقالةَ من آثار كفرِهم، وليكون في الاسم الظاهر تفسيرٌ للضَّميرَينِ السّابقَين[1]، وللتَّسجيل عليهم بأنَّ قولَهم كفرٌ حقيقيٌّ، لا باعتبارِ العَجَب، بل باعتبار ما يَؤول إليه العَجَبُ من الإنكارِ والتَّكذيب.

بلاغة الإسنادِ المجازيِّ:

اجتماعُ الكافرين على مضمونِ المقالة الشَّنيعة

جاء فعلُ القولِ مسندًا للجميع في قول الله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾؛ للدَّلالة على صدور هذا القولِ من الكافرين جميعًا، إمّا بلسان المقال، أو بلسان الموافقة والحال، فإنَّ صدورَ القولِ عن بعضِ الكافرين وصَمتَ البقيَّةِ؛ رضًا بما قيل، دليلُ اجتماعِهم على المضمون، فهذا من بابِ الإسناد المجازيِّ للفعلِ باعتبارِ صدوره عن بعض الكافرين، وهو إسنادٌ حقيقيٌّ باعتبارِ القوَّة الاعتقاديَّة للجميع.

نكتةُ التَّعبير بالجملة الاسميَّة:

ثباتُ العَجَبِ على الألسُنِ كثباتِ الكفرِ في القلوبِ

جاء مَقولُ القول: ﴿هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ جملةً اسميَّةً؛ لِما تمتاز به الاسميَّةُ من تأكيد المعنى وثبوته ودوامه، بخلاف الجملة الفعليَّة التي تختلف دلالتُها حسب نوع الفعل الذي بُدِئت به، فالجملةُ الاسميَّة جاءت لبيانِ أنَّ ما صدر عنهم هو قولٌ سارٍ فيهم، ثابتٌ في ألسنتهم كثبات الكفر في قلوبهم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 279.

تجسيد المعاني دليل المُكنةِ وقوَّة الانتشار

بلاغةُ استعمالِ اسمِ الإشارة القريبِ:

يرجع اسمُ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ إلى البعث بعد الموت[1] الذي بيَّنَته جملةُ: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾[2]، ودلَّ استعمالُ اسم الإشارة الموضوعِ للقريبِ على تجسيد الإنذار بالوحي الدّالِ على البعثِ، فَلانتِشارِ الحديث عن القرآنِ بين المشركين، ولوضوحِ الدَّعوة ومُكنَتِها في المحاورات بين النّاس؛ أصبح يُشار إليها لتنزيلها منزلةَ الشَّيءِ المحسوس، ففيها تشبيهُ المعنى المعقولِ بالمحسوسِ، وفي الإشارة بالقريب أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ التَّعجُّبَ والإنكارَ حصل عَقِبَ الإنذار مباشرةً من غير فِكر ولا رويَّة.

نكتةُ استعمال لفظ الشَّيء:

آثر النَّظم الكريم استعمالَ لفظِ الشَّيءِ في قول اللّه تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ -وهو لفظٌ موغَلٌ في العموم- مسندًا لتمحيضِه لصفته، وهي ﴿عَجِيبٌ﴾، أي: هو مِن بين الأَشياءِ شيءٌ عجيب، بالغٌ في العَجَب والاستغراب مَبلغًا لا نظيرَ له، ولا شبيهَ به.

اعتقاد الاستحالةِ عند الكُفّارِ خاضعٌ للموروثِ لا للمعقولِ

دلالةُ وصفِ الخَبَر:

آثر النَّظمُ الكريم وصفَ الخَبَرِ في قول اللّه تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾، على زِنة فعيل التي هي للمبالغة؛ للدّلالة على أنَّ ما أنذرهم به النبيُّ ﷺ من الإيمان بالبعث أمرٌ بالغٌ الغايةَ في العَجَب وعدم الاستساغة - في زَعمِهم - ولا مثيلَ له في ذلك؛ لأنَّه يُخالف ما يعتقدونه كابرًا عن كابر؛ إذْ كانوا يؤمنون بأنَّه لا حياةَ بعد الموت، ويؤكِّدون ذلك قائلين: ما هي إلا أرحام تدفع

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 404.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 280.

وأرض تبلع، وإنَّ مدارَ كلِّ ما يأتون، وما يذرون من أمورِ دينِهم هو التَّقليدُ والاعتيادُ، فيعدّون ما يخالفُ ما اعتادوه عجيبًا، بل مُحالًا[1]، فمعنى ﴿عَجِيبٌ﴾ هنا: بالغٌ في الخروج عن عادةِ أشكاله[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 329.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 404.

﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ٣﴾ [ق: 3]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تفصيلُ العَجَب وذكرُ الإنكارِ بعد إجمالِه

بعد أن بيَّنتِ الآيةُ السابقة عَجَبَ المشركين وإنكارَهم ما أَنْذَر به الرسولُ ﷺ من أمر البعث، وأنَّهم جعلوه شيئًا بالغًا القمَّةَ والذَّروةَ في الغرابة؛ ناسب أن يُذكَر في هذه الآية ما قالوه تفصيلًا وتوضيحًا لهذا العجب، وتسويغًا وإقناعًا بصحَّة موقِفِهم المُنْكِر والمُسْتَبْعِد لذلك الإنذار(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَجۡعُۢ﴾: (رجع) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى رَدٍّ وتَكْرارٍ، تَقولُ: رَجَعَ يَرْجِعُ رُجوعًا؛ إذا عادَ(2)، والرُّجوعُ والرَّجْعُ: العَود إلى ما كان منه البدء، ومنه: العود إلى الدُّنيا بعد المماتِ(3)، كما في هذه الآية.

المَعنى الإجماليُّ:

ما يستبعده الجاهلُ المنكِرُ مستحيلٌ في الواقعِ من جهتِه

تبيِّن الآيةُ الكريمةُ استفهامَ الكفارِ الذين حاولوا تفسيرَ عجَبِهم وتوضيحَ أسبابِ إنكارِهم ما أَنْذَرَ به الرسولُ من أمر البعث قائلين: أحين نموت، ونصير ترابًا وعظامًا، نرجع إلى الحياة مرَّةً أخرى؟ ثم جزموا بأنَّهم لن يُبعثوا، ولن يعودوا إلى الحياة ثانيةً؛ لأنَّ الرُّجوعَ إلى الحياةِ مرَّةً أخرى كلامٌ بعيدٌ عن عقولهم وأفهامهم(4)، وما كان بعيدًا عن أفهام الجهلة، فهو مستحيلٌ في الواقعِ من جِهَتِهم.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلها:

جاءت جملة ﴿أَءِذَا مِتۡنَا﴾ مفصولةً عمّا قبلها؛ لكمال الاتِّصال

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 124، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 404.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجع).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (رجع).
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 333.

الَّذي تنزَّل فيه الجملةُ الثانيةُ من الأولى منزلةَ التّابع من المتبوع؛ ذلك أنَّها بمنزلة البيان والتَّوضيح[1] لجملة: ﴿هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ التي قالها الكفّارُ تعقيبًا مُجمَلًا على ما أنذر به الرسولُ، ومن ثمَّ زادوا الجملةَ الأولى بيانًا وتوضيحًا، فأتبعوها بجملة: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا﴾، وفصَلوها عنها كما يُفصَل التّابعُ عن المتبوع.

بيانُ المجمَلاتِ تعيينٌ للمقصودِ وتحديدٌ للمطلوبِ

بلاغةُ استعمالِ أسلوبِ الاستفهامِ:

جاء النَّظم الكريمُ بما يُترجِم حقائقَ ما جال في نفوسِ الكافرين، وما صدر عن مجمل أقوالهم، وهو استفهامُهم: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ﴾، فهذا الاستفهام للتَّعجيب والإبطال، يريدون تعجيبَ السامعين من وقوعِ البعث، تعجيبَ إحالةٍ لئلّا يؤمنوا به[2]، فغَرَضُ استفهامهم في الحقيقة هو إنكارُ رجوعِهم للحياة واستبعاده بعد أن فارقت أرواحُهم الأجساد[3]، واستعمالُ الاستفهام؛ لأنَّه الأسلوبُ الأمثَل لإثارةِ أذهانِ المخاطَبين وتحريكِها للتَّفكير في الجواب عن السُّؤال المطروح، فيُفضي بهم التَّفكيرُ إلى إنكار أن يكون هناك بعثٌ وحسابٌ بعد الموت، باعتبارِه مقصودَ السّائلِ في توجيه أتباعه.

أسلوبُ المتبوعِ تحريكُ أذهانِ أتباعِه للوصولِ إلى مُرادِه

دلالة استعمالِ الظَّرف:

جاء استعمالُ الظَّرفِ (إذا) مضافةً إلى الفعل ﴿مِتۡنَا﴾، في قول اللّه تعالى حكايةً عن قول الكافرين: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ﴾؛ لبيانِ قطعيَّة الموت، وأنَّهم سيكونون ترابًا بعد ذلك؛ وللدَّلالة على أنَّهم جعلوا مناطَ التَّعجيب أوِ الإنكارِ الزَّمانَ الذي أفادته (إذا) وما أضيف إليه، أي: (زمن موتِنا وكونِنا ترابًا)[4]، والمعنى: (أحينَ

جَعَلَ المشركون زمانَ الموتِ مناطَ التَّعجيبِ والإنكارِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 405.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 280.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 380، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 405.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 280.

نموت، ونصيرُ ترابًا وعظامًا، نرجع إلى الحياة مرَّةً أخرى؟)[1]، فأساسُ إنكارهم الاعتقادُ أنَّ الموتَ إذا وقع، وتحقَّق، وأصبحوا ترابًا بعد ذلك، فإنَّ الرَّجع بعيدٌ، وهم بذلك يظنّون أنَّهم يَسرُدون الدَّليلَ المُقنِع، وهو تحقُّق الموت وتحوُّل الأبدان إلى ترابٍ.

دلالة التعبير بالماضي:

الإشـــارةُ إلى أنَّ البعـــثَ بـعـد تـحـقُّقِ الـمـوتِ أدخـلُ في الاسـتـبـعـاد وأحقُّ بالإنكار

كان مقتضى الظّاهر أن يعبِّر الكافرون عن الموت الذي سيحصل لهم في المستقبل بالمُضارع، لكنَّهم عَدَلوا عنه إلى التعبير بالماضي، فقالوا ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾: للدَّلالة على أنَّ تعجُّبَهم من البعث - بعد تحقُّقِ الموت وحصولِه حصولًا أكيدًا لا شكَّ فيه، وبعد مغادرة الرّوح للجسد - أدخلُ في الاستبعاد وأحقُّ بالإنكار، وأنَّه أمرٌ يَفوق قدراتِ العقول، ولا يُمكِن لها استيعابُه أو الإيمانُ به بأيِّ حالٍ من الأحوال.

دلالة العطف بالواو:

يـزعـمـون أنَّ تَـحَـوُّلَ الجَسَدِ إلـى تـرابٍ أدلُّ عـلى استحالة البعث

جيء بجملة: ﴿وَكُنَّا تُرَابًاۖ﴾ معطوفةً على قول الكافرين: ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ بالواو؛ ليكون أمرُ البعث بعد الموت وتفتُّتِ الجسد وصيرورتِه ترابًا أقوى في الدّلالة على استحالة البعث، وآكدَ في بُعْدِه، والتقدير: (أنرجع إلى الحياة في حين انعدام الحياة منّا بالموت، وحين تفتُّتِ الجسد وصيرورته ترابًا؟)؛ وذلك عندهم أقصى الاستبعاد[2].

دلالة التعبير بفعل الكينونة:

بـيـانُ وجـه الاستحالةِ بَعدَ ادِّعائها

جاء التعبير بفعل الكينونة في جملة: ﴿وَكُنَّا تُرَابًاۖ﴾؛ لوصف ما يحدُث بعد الموت من تَفَتُّتِ الكيان، وتَحَوُّلِه من لحم وعَظْم إلى تراب لا روحَ فيه، ولا أملَ مطلقًا في عودة الحياة إليه من وجهة نظرهم، فالمعنى: (لا فرق بيننا وبين تراب الأرض)[3]، أي: (أإذا كنّا شيئًا

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 380، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 333.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 280.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 405.

آخرَ غير الذي كنّا عليه من قبل؟)، وهذه الكينونة - في نظرهم - مرشِّحةٌ لمعنى الصَّيرورة إلى شيءٍ لا مردَّ عنه.

بلاغة استعمال مفردة ﴿تُرَابٗاۖ﴾:

إعادةُ الخلق من ترابٍ أهونُ على الله من ابتدائه

أنطق الله المشركين بأن ذكروا صيرورتهم إلى ترابٍ بعد موتِهم، حين قالوا: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ﴾، وهذا وصفٌ لما كانوا عليه قبل الخَلق والحياة، فمن رجع إلى أصلِه قبل الحياة، فهو راجعٌ إلى أصله كذلك قبل الموت، ولا شكَّ أنَّ الذي أنشأهم من التُّراب قادرٌ على أن يُخرجهم مرَّة ثانيةً من التُّراب.

وجه حذف المستفهَم عنه:

توجيهُ الأنظارِ إلى استحالةِ الإحياءِ، لا إلى الإحياءِ نفسه

المُستَفهم عنه في الآية محذوفٌ دلَّ عليه ظرفُ: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ﴾، والتقدير: (أَنُرَدُّ إلى الحياة، وتُبعث فينا الرّوحُ في حين موتنا وصيرورتنا ترابًا؟) وذلك عندهم أقصى الاستبعاد[1]، ووجه حذفه الانشغالُ والاهتمام بذكر ما يفيد استحالةَ البعث، ويؤكِّد عدمَ حصوله؛ فلو قالوا: (أنرجع إلى الحياة؟) من غير التعبير بالظرف وما أُضيف إليه؛ لَما كان للاستفهامِ الأثرُ المرجوُّ في تحريك العقول، نحوَ استبعاد حصول البعثِ وإنكارِه.

علّة فصل الجملة:

توكيدُ المعاني تقويةٌ للحقائقِ المتزعزعة في نفسِ المكذِّب

جاءت جملة: ﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾ مفصولةً عمّا قبلها لكمال الاتِّصال، الذي تُنزل فيه الجملةُ الثانيةُ من الأولى منزلةَ المبيِّن من المبيَّن؛ والتَّوكيد لونٌ من ألوان البيانِ، فالجملة بمنزلة التأكيد المعنويِّ لجملة: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ﴾ "بطريق الحقيقة والذكر، بعد أن أفيد بطريق المجاز والحذف؛ لأنَّ شأنَ التأكيد أن يكون أجلى دلالةً"[2]، ومن ثمَّ فُصِلت عنها، كما يُفصَلُ التّابعُ عن المتبوع.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 280.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 280.

غرض استعمالِ اسمِ الإشارة:

تشخيص المعاني بصورة المحسوسات لتوكيدِ الإنكارِ

اسم الإشارة في قولهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾ راجعٌ إلى مضمون الخبر بالبعث، وأوثر التعبير بما فيه دلالةٌ على البُعْد؛ للإشارة إلى عظيم استبعاد الكفّار حصولَ البعث بعد تحقُّق الموت وتحوُّل أجسادهم إلى تراب، والمعنى: (إنَّ بعثَنا وإعادةَ الأرواح إلى أجسادنا، وتمييزَ ترابنا من بقيَّة التراب، أمرٌ في غاية البُعد)[1]، والاستبعادُ ترجمةٌ لما يظنُّه الكفّارُ من استحالةِ الرَّجع بعد الموتِ، مع ما فيه من تشخيص المعاني بالإشارةِ التي حقُّها أن تُستعمل مع المحسوسات دون المعاني.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالرَّجعِ نكرةً:

نفيُ المقاصدِ أبلغ من نفي الوسائل

جاء تعبير المشركين عن خبر اسم الإشارة بالرَّجع نكرةً في الآية الكريمة: ﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾، الدالِّ على العَودِ إلى ما كانوا عليه في الدنيا[2]؛ لإفادة شدَّة عَجَبِهم واندهاشهم، وأوثِر التَّعبيرُ به دون الإحياءِ لردِّ المقصود بالمآلِ وهو الرَّجع، دون أداته، وهي الإحياء، فنفيُ المقاصدِ أبلغ من نفي الوسائل.

بلاغةُ الكنايةِ في الوصف بالبُعدِ:

الوصفُ بالبعيدِ كنايةٌ عن الاستحالةِ

جاء وصفُ الرَّجع بصفة البُعد على صيغة المبالغة في قول المكذِّبين: ﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾؛ للدَّلالة على شدَّة بُعدِه عن تصوُّرات عقولهم، ووجه بُعْدِه في نظرهم الباطل أنَّه لا يُمكِن تمييزُ ترابهم من بقيَّة التراب، ولا إعادةُ الحياة إلى الأموات[3]، ووصف الرَّجع بالبعيدِ كنايةٌ عن الاستحالةِ المفهومةِ من سياق الكلام، وليس هو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 405.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 405.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 280، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 405.

وصفٌ للواقعِ الذي يعتقدونه، فهُم لا يعتقدون بُعدَ الرَّجعِ، بل يعتقدون استحالتَه، فالتَّعبيرُ بالبعيد؛ لبيانِ ما في البُعدِ من عدمِ الإمكانِ العقليِّ، وبه جرت العادة، فالبُعدُ هاهنا هو بُعدُ الاستحالةِ، لا المقابِلُ للقريب.

﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ٤﴾

[ق: 4]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

إقامة الدليل على إمكانِ البعث بعد إيرادِ التَّكذيب

لَمّا ذكرتِ الآيتانِ السابقتانِ احتجاجَ المشركين على استبعاد البعث واستحالته، بعدم تمييز ترابهم من تراب غيرهم؛ ناسب أن تُبيِّنَ هذه الآيةُ سهولةَ حصولِه على الله، وتوضِّحَ قُدرتَه عليه، بتأكيد إحاطةِ علمه بجميع أجزاء الموتى، وأنَّه لا يشتبه عليه جزءُ أحدٍ على الآخر، وأنَّه تعالى قادرٌ على الجمعِ والتأليفِ، فالرجوعُ ليسَ منْهُ ببعيدٍ(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَنقُصُ﴾: (نقص) أصلٌ واحد خلاف الزّيادة، فنَقَصَ الشَّيءُ، ونَقَصْتُهُ أنا، وهوَ مَنْقوصٌ، والنَّقْصُ: الخُسْرانُ في الحَظِّ، والنُّقْصانُ المَصْدَرُ، ونَقَصْتُهُ فهو مَنْقوصٌ، قال تعالى: ﴿وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ﴾ [البقرة: 155]، وقال: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ١٠٩﴾ [هود: 109]، وقال: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ [التوبة: 4](2)، ومعنى ﴿تَنقُصُ﴾ هنا: ما تأكُلُه الأرضُ من أجسادهم بَعدَ المَوت(3).

2) ﴿كِتَٰبٌ﴾: (كتب) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى جَمعِ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ، مِنْ ذَلِكَ الكِتابُ والكِتابَةُ، يُقالُ: كَتَبْتُ الكِتابَ أَكْتُبُهُ كَتبًا(4)، وفي العُرْفِ: ضمُّ الحروفِ بعضِها إلى بعضٍ بالخطِّ، وقد يُقال ذلك للمضموم بعضِها إلى بعض باللَّفظ، فالأصل في الكِتابَةِ: النَّظْمُ بالخطِّ، لكن يُستعار كلُّ واحدٍ للآخر، ولهذا سُمّي كلامُ اللّه - وإن

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 125.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقص)، والرّاغب، مفردات القرآن: (نقص).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نقص).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كتب).

لم يُكْتَبْ - كِتابًا، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: 2]، وقولِه: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [مريم: 30]، والكِتاب في الأصل مصدر، ثم سمّي المكتوبُ فيه كتابًا، فصار اسمًا للصّحيفة مع المكتوب فيها(1)، والمراد بالكتاب في هذه الآية: اللّوحُ المحفوظ(2).

3) ﴿حَفِيظُۢ﴾: (حفظ) أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى مُراعاةِ الشَّيءِ، يُقالُ: حَفِظْتُ الشَّيْءَ حِفْظًا، والحِفْظُ يُقال تارةً لهيئة النَّفس التي بها يَثْبُت ما يؤدّي إليه الفهم، وتارةً لضبط الشيء في النَّفس، ويضادُّه النسيانُ، وتارةً لاستعمال تلك القوَّة، فيُقال: حَفِظْتُ كذا حِفْظًا، ثم يُستعمل في كلِّ تفقُّدٍ وتعهُّدٍ ورعاية، قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢﴾ [يوسف: 12]، وأمّا قولُه تعالى في هذه الآية: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ﴾، أي: (حافظٌ لأعمالهم)، فهو بمعنى اسم الفاعل، نحو قوله: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الشورى: 6]، أو بمعنى: (محفوظ لا يَضيع)، كما قال تعالى: ﴿عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه: 52](3).

المَعْنى الإجْماليُّ:

مَـوتَى الخلائقِ لا يَـخـرُجـون عن علـمِ الله، وأعمالُـهـم في كتابٍ عندَه

تبيِّن الآيةُ الكريمة الردَّ الذي يدفع حُجَجَ الكافرين، ويُبطِل أقوالهم التي أنكروا فيها حصولَ البعث بعد الموت، بتأكيد علم الله تعالى بما تأكله الأرض من أجسادهم، وببيان أنَّ مَنْ عَلِم ذلك لا يُعجِزُه أن يعيدَهم إلى الحياة مرَّةً أخرى، كما تُؤَكِّدُ الآيةُ وجودَ كتابٍ حافظٍ لجميع أحوال العباد، محفوظٍ من التَّغيير والنِّسيان، فيه أقوالُهم وأفعالُهم مسجَّلة(4).

(1) الراغب، مفردات القرآن: (كتب).
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 333.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حفظ)، والرّاغب، مفردات القرآن: (حفظ).
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 333.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصل الآية عمّا قبلها:

علمُ الله ناقضٌ لجهلِ المشركين وإنكارِ المكذِّبين

جاءت جملة: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ مفصولةً عمّا قبلها، إمّا لأنَّها بمنزلة ابتداءِ كلامٍ لردِّ قول المشركين بإنكار البعث، أو لأنَّها جوابُ القَسَم بالقرآن المجيد في أوَّل السورة، أو لشبه كمال الاتِّصال، تُجيب فيه الجملةُ عن سؤال أثارته جملةُ: ﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾، في نفس المتلقّي عن مدى صِدق الكفّار في القول باستحالة حصول البعث؛ بسبب عدم تمييز ترابهم من تراب غيرهم، فجاءت الآيةُ؛ لتُثبِتَ كَذِبَ كلامِهم، وتُبيِّنَ قدرةَ اللّه تعالى على إعادة تركيب أجسادِهم، وإخراجِها للحياةِ مرَّةً أخرى.

دلالةُ استعمالِ حرفِ التَّحقيقِ:

توكيدُ الإحاطةِ إثباتٌ للقدرةِ على الإحياءِ

افتُتِحت الجملةُ التي سيقت لإبطال كلام المشركين عن استحالة البعث بحرف التحقيق ﴿قَدۡ﴾، في قول اللّه تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ﴾؛ لتأكيد علم اللّه تعالى، وتحقيقِ إحاطته بما تأكلُه الأرضُ من أجسادِ خلقِه بعد موتهم وصيرورتهم ترابًا؛ ليُبيِّنَ بذلك أنَّ مَنْ أحاط علمُه بما أكلته الأرضُ قادرٌ على إعادة ما أكلت، وبثِّ الحياة فيه، وإخراجِه للوجود مِن جديد، والمعنى: (بل نحن على ذلك في غاية القدرة)[1].

بلاغةُ الكنايةِ في التَّعبير بالعِلم:

إثباتُ العلم لـــرب العالمين أقطعُ لاحتمالات المشركين

جاء استعمال مادَّة العلم في قول اللّه تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ﴾؛ كنايةً عن الإحاطة والقدرة على البعث، فذَكرَ العلمَ؛ لبيانِ أنَّ ما يَنقُص من الخلائق في هذه الأرض، إنَّما هو بعلم اللّه تعالى، فهو يُحصي النّاس؛ ليَبعثَهم يوم القيامةِ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 405.

من جديد، وأوثِر التَّعبيرُ بالعلم على التَّعبير بالقدرة ونحوها؛ لأنَّه أقطعُ لاحتمالات المشركين(1).

دلالةُ إسنادِ العلمِ إلى ضمير العظمة:

جمعُ أجزاءِ الأجسامِ أمرٌ ممكنٌ، ولا يعزبُ عن علمِ اللهِ تعالى وقدرته

أُسند فعل العلم في قول الله تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ﴾، إلى ضمير العظمة؛ لتعظيم شأنِ العلم، من الإحاطة والتَّدبير وما كان وما يكون من الأحداث الكونيَّة، وأنَّه لا يكون إلّا له تعالى، ولتفخيمِه وللإشارة إلى سهولته على الله بما له من العظمة والاقتدار، فالمعنى أنَّ جمعَ أجزاء الأجسام ممكنٌ، ولا يعزُبُ عن علم الله، فإذا كان عالمًا بتلك الأجزاء، كما هو مقتضى عموم العلم الإلهيِّ، وكان قد أراد إحياءَ أصحابها، كما أخبر به جلَّ من قائل؛ فلا يَعظُم على قدرته جمعُها وتركيبُها أجسامًا كأجسام أصحابها حين فارقوا الحياة(2).

غَرَضُ التَّعبير باسم الموصول:

علمُ الله شاملٌ لكلِّ ما يغيبُ في الأرضِ

آثر البيانُ الكريمُ التَّعبيرَ عن مفعولِ العلم باسم الموصول العامِّ ﴿مَا﴾، فقال الله تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ﴾؛ ليُتَوَصَّل من خلال الاسم وصِلَتِه إلى عموم علم الله وشمولِه كلَّ ما تنقصه الأرضُ، مِن "أجزائهم المُتَحَلِّلَة مِن أبدانهم بعد الموت وقبله"(3).

بلاغةُ استعمالِ مادَّة النَّقص:

نقصانُ الأبدانِ في الأرضِ نقصانٌ لها في أفئدةِ أهلها

آثر النظمُ الكريمُ استعمال مادَّة النَّقص في قول الله تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ﴾، دون التعبير بالإعدام أو الأكل أو الأخذ؛ لأنَّ للأجساد درجاتٍ من الاضمحلال، تدخل تحت حقيقة النَّقص، فقد يَفنى بعضُ أجزاء الجسد، ويبقى بعضُه، وقد يأتي

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 281.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 281.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 405.

الفناءُ على جميع أجزائه إلّا عَجَب الذَّنَبِ[1]، ففناءُ الأجساد نقصٌ لا انعدامٌ[2]، ويشيرُ أيضًا نَقْصُ الأبدانِ في الأرضِ إلى نقصها بين أهلِها، فيُثير الوُجدانَ لِلقائها، وهو ما يُحقِّقه الاعتقادُ بالإحياءِ مرَّةً أخرى، فكان ذكرُ النَّقصِ معينًا على إشباع الاحتياجِ لرؤية من نقصت أبدانُهم في الأرض في حياةٍ جديدة.

المــوتُ متجدِّدٌ بتجدُّدِ الحياةِ سُنَّةً باقية

دلالة التعبير بصيغة المضارع:

جيء بفعل النَّقص مضارعًا في قول اللّه تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾؛ لِما يفيده من الاستمرار التَّجدُّديِّ، الدّالِّ على أنَّ علمَ اللّه تعالى محيطٌ بما يتجَدَّد نقصُه من أجسادِ خلقه؛ كلَّما حصل، ويتفرَّع عن هذا العلم أنَّ اللّه تعالى دائمٌ في إيجادِ تلك الأجزاء وإعدامِها، كلُّ جزءٍ في وقته الذي كان نقصُه فيه، قلَّ ذلك الجزءُ أو جلَّ[3].

تنبيهُ الأذهــانِ إلى مكان البعثِ بــعــد ذهـــابِ الأبدان

بلاغةُ المجاز في الإسنادِ إلى الأرض:

في إسناد فعل الإنقاص إلى الأرض، في قول اللّه تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾، مجازٌ عقليٌّ علاقتُه المكانيَّةُ أو السببيَّةُ؛ إذِ الإنقاصُ لا يتمُّ في الواقع إلّا بأمرِ اللّه وقدرته، ففاعلُه الحقيقيُّ هو اللّه ، ولكنْ لمّا كان الناسُ يُدفَنون في التراب، والنَّقص يحصل لهم أثناءَ وجودهم فيه، وبسبب وجودهم فيه، أُسنِد الفعل إلى مكان حصوله أو إلى سبب وقوعه؛ لإبراز علم اللّه بما خَفيَ على الأحياء من فناء الأجساد، ممّا عجَز الناسُ عن الإحاطة به، ولإثبات قدرته سبحانه على إعادة تركيب أجسادهم بعد أن تآكلت، وصارت ترابًا مُختلطًا، ولا يستطيعُ الناسُ نسبةَ شيءٍ منها لأصحابها بأيِّ حالٍ من الأحوال.

(1) البخاري، الحديث رقم: (4935)، ومسلم، الحديث رقم: (2955).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 282، 283.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 405.

التعبيرُ بالضَّمير أدخلُ في إنذار المشركين، وأشدُّ في إفحامِهم

تعيينُ مَرجِعِ الضَّمير:

يَرجِعِ الضَّميرُ في قول الله تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ﴾، إلى أجسادِ الناس بصفةٍ عامَّة، وأجسادِ الكافرين بصفة خاصَّة، والمعنى: (قد عَلِمنا ما تنقص الأرضُ من لحومهم وعظامهم وآثارهم)[1]، وعبَّر عنهم بالضَّمير؛ جريًا على الظاهر في التعبير عن الاسم الذي سَبقَ ذكره قريبًا بالضمير، ولما يفيده من تعيين المُتَحَدَّث عنه بما يحول دون صرف الكلام عنه إلى أحدٍ آخر؛ لأنَّ ذلك أدخلُ في الرَّدِّ المُفحِم، وفي التَّخويف المُرهِب.

الجملةُ الثّانية بمنزلةِ الدَّليل على الدَّعوى في الجملة الأولى

نوعُ الواوِ ودلالتُها السياقيَّة:

الواو في قول الله تعالى: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ﴾ للعطفِ على جملة: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ﴾، وهو من باب عطفِ العامِّ على الخاصِّ؛ لتأكيد عِلمِ الله تعالى بما تَنقُص الأرض من أجساد الكفّار بذِكرِه مرَّتين: إحداهما على وجه الخصوص، والأخرى على وجه العموم، والمعنى: (وعندنا علمٌ ثابتٌ بكلِّ شيء، ومنه العلم بما تنقص الأرضُ منهم)[2]، وفي العطف تأكيدٌ أيضًا من جهةِ أنَّه لَمّا كانت العادةُ جاريةً عند جميع الناس بأنَّ ما كُتِبَ حُفِظَ؛ أجرى الأمرَ على ما جرت به عوائدُهم، فقال: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ﴾[3]؛ لدفع شبهة أنَّ ما يتلاشى من أجسادهم وصفاتها بعوامل الفناء في الأرض يجعل إعادتهم إلى ما كانوا عليه أمرًا غيرَ ممكنٍ للجهل به، فجاء البيانُ مثبتًا علم الله بكلِّ حركة تغييرٍ تَحدُث في أجساد الموتى، ومؤكِّدًا بأنَّ ذلك مسجَّلٌ في كتابٍ يَحفَظ كلَّ صغيرة، فلا يضِلُّ عن علم الله وعن كتابه الحفيظ شيء[4]، وتحتمل الواو أن

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 530.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 283.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 406.

(4) حسن، البلاغة العربية: 2/ 327.

تكون للحالِ[1]، أي: والحالُ أنَّه عندنا كتابٌ يَحفظُ أعمالَ النّاس، ويرجع الأمرُ إلى أنَّ الجملةَ الثانية هي بمنزلة الدَّليل من الدعوى في الجملة الأولى.

تقديمُ العنديَّةِ دليـلُ الحفظ والصيانة

غرضُ تقديم الخبر:

قُدِّم ذكرُ الخبر على المبتدأ في قول اللّه تعالى: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾؛ لتقوية حفظ الكتاب الجامع كلَّ ما يخصُّ أعمال الناس وأجسادهم، وتأكيدِ صيانته من الزيادة أوِ النقصان أوِ التغيير والتحريف بأيِّ صورة من الصّوَر، وبأيِّ شكل من الأشكال؛ لأنَّ اللّه تعالى هو الذي تولّى ذلك الأمرَ بنفسه، ولم يأذن لأحد بالتصرُّف فيه؛ فتقديمُ العنديَّة مضافةً إلى ضمير العظمة دليلُ الحفظِ والصّيانةِ، وبرهانُ الضَّبطِ والرعاية.

دلالةُ التَّعبير بالظَّرف:

التَّعبيرُ بالعنديَّة في قول اللّه تعالى: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾، فيه دليلٌ على الحياطة والحفظ مِن أنْ يتطرَّق إليه ما يُغيِّر ما فيه أو مَنْ يُبْطِل ما عُيِّن له[2]، فإنَّ شأنَ ما عندَ اللّه أن يُحفَظ.

دلالة إضافة الظرف للضَّمير:

جيء بالظَّرف مضافًا إلى ضمير الحقِّ سبحانه، في قول اللّه تعالى: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾؛ لِما تفيده الإضافة من تأكيدِ الحفظ والحياطة، وللدَّلالة على سهولة ذلك على اللّه، والمعنى: (وَعِندَنا على ما لنا من الجلال الغنيِّ عن كل شيء كتابٌ حفيظ)[3].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالكِتاب:

الكتابُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ هو المكتوب،

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 26/ 283.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 283.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 406.

يجمع الكتاب بين كونه دليلَ إثباتٍ وكنايةً عن علم الله تعالى

ويُطلق على مجموع الصحائف، فاللّه جعله كُتُبًا، وأودعها إلى ملائكةٍ يُسَجِّلون فيها الناس حين وفياتهم، ومواضعَ أجسادهم، ومقارَّ أرواحهم، وانتسابَ كلِّ روح إلى جسدها المُعَيَّن الذي كانت حالَّةً فيه حالَ الحياة الدنيا، صادقًا بكُتُبٍ عديدة، لكلِّ إنسانٍ كتابُه، وتكون مثلَ صحائفِ الأعمال التي جاء فيها قولُه تعالى: ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾ [ق: 17 - 18]، وقولُه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ [الإسراء: 13 - 14][1]، وفي الإخبار بوجود الكتاب تأكيدٌ لشموليَّة عِلمِ اللّه تعالى، ولحفظِه من التَّغيير، وتقويةٌ لأثره في نفوس المخاطَبين؛ جَريًا على ما أَلِفَه البشرُ من أنَّ ما دوِّن في الكُتُب أجمَعُ وأشدُّ حفظًا.

غرضُ تنكيرِ الكتاب:

أوثر التعبيرُ بالمبتدأ نكرةً في قول اللّه تعالى: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ﴾؛ للدلالة على تعظيم الكتاب وتفخيمه؛ للإشارة إلى أنَّ كلَّ ما يُقال في وصفه وشموليَّته ودقَّة جمعه وعمومه حقٌّ وصدقٌ، فهو كتابٌ جامعٌ لكلِّ شيءٍ[2]، ومُثبَتٌ فيه كلُّ شيءٍ.

نكتة الوصفِ بالحفيظ:

تأكيد قدرة الله على البعث والحساب والمجازاة

وُصِف الكتاب بالحفيظ - على وزن (فعيل) - في قول اللّه تعالى: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ﴾، وهذه الصِّفةُ إمّا بمعنى (فاعل)، أي: (حافظٌ لِما جُعل لإحصائه) مِن أسماء الذَّوات ومصائرها، وتعيينِ جميع الأرواح لذواتها التي كانت مودَعَةً فيها، بحيث لا يفوت واحدٌ منها عن الملائكة الموكَّلين بالبعث، وإعادة الأجساد، وبث الأرواح

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 283.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 406.

فيها، وإمّا بمعنى (مفعول)، أي: (محفوظٌ ما فيه) ممّا قد يعتري الكُتُبَ المألوفة من المَحْوِ والتغيير والزيادة والتشطيب ونحو ذلك[1].

ففي هذا الوصفِ زيادةُ تأكيدٍ لقدرة اللّه على تمييز الأتربة من بعضها، وإعادة جمع أعضاء الأجساد وتركيبها، وبعثها للحياة، ثمَّ سؤالِها وحسابها على ما اقترفت من آثام، وارتكبت من سيّئات، أو كسبت من حسنات، ثم مجازاتِها الجزاءَ الأوفى، فالمعنى أنَّه بالغٌ في الحفظ، لا يشذُّ عنه شيء من الأشياء دقَّ أو جلَّ، فكيف يستبعدون على عظمتنا ألّا نقدر على تمييز ترابهم من تراب الأرض، ولم يختلِطْ في علمنا شيء من جزء منه بشيء من جزء آخر، فضلًا أن يختلط شيء منه بشيء آخر من تراب الأرض أو غيرها؟[2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 283.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 406.

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ [ق: 5]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانـتـقـالُ من فـظـاعـةِ إنـكـارِ خصوصِ البعثِ إلى إنكارِ جملة الحقِّ

بعد أن ذكرت الآيات السابقة تعجُّبَ المشركين من خبر البعث الذي جاءهم به الرسولُ ﷺ؛ ناسب أن يُذكر ما هو أفظع من تَعَجُّبِهم، وهو التَّكذيب بالحقِّ - الذي هو القرآن - في أوَّل وهلةٍ، من غير تفكُّر ولا تدبُّر[1].

وفي الآية السابقة دحضُ فريةِ الكفّار بإنكار البعث، ببيان إحاطة علم الله تعالى بما تنقص الأرض من أجسادهم، وإثبات ذلك في كتاب حفيظ، فناسب أن ينتقل النظم إلى بيان أمرٍ هو أشنع وأفظع من إنكارهم البعث، وفي الوقت نفسه هو السبب الباعث لهم على رفض الإيمان بالبعث وإنكاره، ألا وهو: تكذيبهم للقرآن ولنبوَّة محمَّد ﷺ، الثابتةِ بالمعجزات الباهرات[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: (حقق) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى إِحْكامِ الشَّيْءِ وصِحَّته، وهو نَقيضُ الباطِلِ[3]، ويُقال: الحقُّ للفعل والقول بحسب ما يجب، وبقدر ما يجب، وفي الوقت الذي يجب، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [يونس: 33]، وقال: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [المؤمنون: 71][4]، والمراد به هنا: القرآن الذي أُنزِل على محمَّدٍ ﷺ خاتم الأنبياء، والذي فيه خبرُ البعث والجزاء.

2) ﴿مَّرِيجٍ﴾: (مرج) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى مَجيءٍ وذَهابٍ واضْطِرابٍ،

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 380.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 126، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 333.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (حق).

يُقال: مَرِجَ الخاتَمُ في الإصْبَع، أي: قَلِقَ، ومَرِجَت أماناتُ القَوم وعُهودُهُم، أي: اضطَرَبَت، واختَلَطَت، وقياسُ البابِ كُلّه مِنهُ، قال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ١٩﴾ [الرحمن: 19]، وقال: ﴿فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ﴾[1]، أي: مضطربٍ لا قرارَ له[2].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

المكذِّبُ بالقرآن في قلقٍ دائمٍ واضطرابٍ مستمرٍّ

تبيِّنُ الآيةُ الكريمةُ أنَّ الكافرين لم يكتَفوا بإنكارهم للبعث، بل جاؤوا بما هو أشنعُ وأفظع منه، وهو تكذيبهم لنبوَّة الرَّسول، الثابتةِ بالمعجزات الناصعة، ومن مظاهرِ هذا التكذيب: أنَّهم تارةً يصفونه بالسّاحر، وتارةً بالكاهن، وتارةً بالجنون، فهُم مضطربون، مختلطون، لا يثبتون على حال واحد، ولا يستقرّون على تهمةٍ واحدة[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى ﴿بَلۡ﴾ ودلالتُها:

لفت الانتباه إلى الأفظع في التَّكذيب بعد ذكر تكذيب البعث

آثر النظم الكريم استعمال حرف الإضراب، في قول اللّه تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ﴾؛ ليلفت النظر، ويجذب الانتباه إلى السَّبب الحقيقيِّ الذي دفع الكافرين إلى التعجُّب من خبر البعث، الذي أنذرهم به رسول اللّه ﷺ، فهو "إضرابٌ ثانٍ تابعٌ للإضراب الذي في قوله: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾، على طريقة تكرير الجملة في مقام التنديد والإبطال، أو بدلٌ من جملة: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾؛ لأنَّ ذلك العجَبَ مشتمِلٌ على التكذيب، والمقصد من هذه الجملة لَفْتُ الانتباه إلى أنَّهم أتوا بأفظعَ من إحالتهم البعث، وهو التكذيبُ بالحقِّ"[4].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مرج).
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 126.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 380، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 334.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 284.

دلالة التَّعبيرِ بصيغة التكذيب:

إبلاغُ المشركين في تكذيبِ الحقِّ

جاء التَّعبير بصيغة التَّكذيب في قول الله تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ﴾؛ للدلالة على إبلاغهم في التكذيب، ورفضِهمُ العدولَ عنه، على الرغمِ من أنَّ النبي ﷺ جاءهم بالمُعجِزات القاطعات بصدق رسالته، وأُسند إلى ضمير الجمع؛ للدَّلالة على أنَّهم فعلوا ذلك جميعًا، بلسان المقال أو بلسان الحال.

معنى تعريفِ الحقِّ:

تكذيبُهم الحقَّ يدلُّ على خُبثِ نيّاتِ أهلِ الباطلِ

التَّعريفُ بـ(أل) في لفظ الحَقِّ من قول الله تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ﴾ هو للعهد، فهو الحقُّ الذي جاءهم به الرسول ﷺ من القرآن والبعث والرسالة والدين[1]، وعلى الرغم من معرفتهم أنَّه حقٌّ لا شبهةَ فيه، وأنَّه أمرٌ ثابت لا أثبتَ منه[2]، وصوابٌ لا خطأ معه: إلّا أنَّهم كذَّبوا به.

دلالةُ التَّقييد بالظَّرفيَّة:

بمجرَّدِ مجيءِ الحقِّ تقعُ المسارعةُ إلى التكذيبِ

﴿لَمَّا﴾ في قول الله تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ حينيَّةٌ ظرفيَّةٌ، دالَّةٌ على حصول التَّكذيب بمجرَّد الإعلام بالرِّسالة، والإنذار بالبعث، والمعنى أنَّهم بادروا بالتكذيب دون تأمُّلٍ ولا نظرٍ فيما حواه من الحقِّ، بل كذَّبوا به من أوَّل وهلةٍ[3].

بلاغة استعمال الفعلِ ﴿جَآءَهُمۡ﴾:

مجيءُ النَّبيِّ بالقرآن تهديدٌ لكيانِ كلِّ مشركٍ

جاء استعمال فعل المجيء الموضوع؛ للإتيان بصعوبة في قول الله تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه مجيءٌ له خَطَرُه وشأنُه؛ نظرًا لِما يترتَّب عليه من إلزامهمُ الحُجَّة، وإقامةِ الدليل الدامغ على كفرهم وتكذيبهم، وأوثِر التعبيرُ به ماضيًا؛ للدَّلالة على حصوله حصولًا أكيدًا لا شكَّ فيه، ولا ريبَ معه، وفي

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 530.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 406.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 284.

وصل ضمير الكُفّار به دلالةٌ على أنَّ اختصاصَهم بإرسال الرسول، وإنذارِه لهم بالبعث: فيه خوفٌ شديدٌ عليهم، وحرصٌ كبيرٌ على نجاتهم من العذاب المترتِّب على غفلتهم وكفرهم.

معنى الفاءِ ودلالتُها:

اضطرابُ كلامِ المشركين فرعٌ عن التَّكذيب

الفاء في أوَّل قول اللّه تعالى: ﴿فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ﴾ للتفريع، فمبادرتُهم إلى التكذيب من غيرِ فكرٍ ولا إنعامِ نظرٍ ولا رويَّةٍ نشأ عنها اضطرابُ حالِهم[1]، وتذبذبُ كلامِهم في الرسول، وعدمُ إجماعهم على تهمةٍ يتَّهمونه بها، فكان لكلِّ تهمةٍ يتَّهمه بها بعضُهم مَنْ يرفُضُها منهم، ويُنكر وجودَها فيه، فلَزِم من نفسِ مُروجِهم ذلك براءتُه ﷺ من التُّهَم كُلِّها، وثبوتُ صدقه وصدق رسالته.

نكتةُ مجيءِ المُسنَدِ إليه ضميرًا:

اجتماعُ المشركين في كونِهم في أمرٍ مريج

عبَّر النَّظم عن المسند إليه في الجملة المفرَّعَةِ: ﴿فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ﴾ بالضَّمير الغائب (هُم)؛ قاصدًا به الكافرين الذين سبق ذكرُهم في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾؛ جريًا على الأصل في التَّعبير عن الاسم الظّاهر الذي سبق ذكرُه بالضَّمير، من أجْلِ تعيين المقصود بما يحول دون صرف الكلام عنه إلى أحدٍ آخر، والمعنى: فالذين كفروا في أمرٍ مريج، يُزاد على ذلك أنَّ التعبير بضمير الغياب أكثرُ اتِّساقًا مع ما يستحقّونه من الإهانة والازدراء، والدَّعوة إلى عدم الاكتراث بكلامهم.

بلاغةُ الاستعارةِ في الظَّرفيَّة:

الاضطرابُ يحيطُ بالمشركين إحاطةَ الظَّرفِ بالمظروف

التعبير في قول اللّه تعالى: ﴿فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ﴾ بلفظِ الأمر مسبوقًا بالحرف المفيد للظرفيَّة، فيه استعارةٌ تبعيَّة، شُبِّهت فيها حالُ المَرَجِ والاضطرابِ التي يعيشها المشركون، ويتلبَّسون بها في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 284.

شأن الرسول، وما أنذرهم به، بحال المظروف داخلَ الظرف[1]، بجامع الإحاطة، ثمَّ استُعير المشبَّهُ به للمشبَّه بعد تناسي التشبيه، وادِّعاءِ أنَّ المشبَّهَ فردٌ من أفراد المشبَّهِ به؛ لتصوير مدى وُلوجِهم في الاضطراب، وإبرازِ مدى سَيطَرَتِه عليهم.

بلاغةُ الاستعارةِ في الوَصفِ بالمَرُوج:

تـصـويـرُ حـالِ المشركين إزاءَ ما بُعث به الرسولُ وأنذَرَهم به

جاء وصفُ أمرِ الكافرين في قول اللّه تعالى: ﴿فَهُمْ فِيٓ أَمْرٖ مَّرِيجٍ﴾ بالمُروج، الموضوعِ لاختلاطِ الدَّوابِّ في الأرض الواسعة ذات النَّبات[2]، للدَّلالة على اختلاف رأي الكفّار واضطرابه في الرَّسول والوحيِ المنزَّل عليه، وهذا التَّعبيرُ فيه استعارةٌ تصريحيَّة، شُبِّه فيها اضطرابُ الرأي باختلاط الدوابِّ، بجامعِ التخبُّط وفقدان الاتِّجاه، ثمَّ استُعير المشبَّهُ به للمشبَّه بعد تناسي التشبيه؛ لتصوير حال التَّذَبذُبِ والتّيهِ التي يعيشها المشركون إزاءَ ما بُعث به الرسولُ من الوحي والإنذار.

دلالةُ وصفِ المبُالَغة:

اضـطـرابُ أمـرِ المشـركين دليـلُ براءةِ الرَّسول

أوثِر وصف الأمر بالمَريج في قول اللّه تعالى: ﴿فَهُمْ فِيٓ أَمْرٖ مَّرِيجٍ﴾ بصيغة المبالغة؛ للدلالة على شِدَّة اضطرابهم، وقوَّة اختلافهم، فَهُم تارةً يقولون: سحر، وتارةً: كهانة، وتارةً: شعر، وتارةً: كَذِب، وتارةً: غير ذلك، والقصد من وصفِ أمرهم به: بيانُ أنَّ الاضطرابَ موجِبٌ للاختلاف، وذلك أدلُّ دليلٍ على الإبطال، كما أنَّ الثبات والخلوص موجبٌ للاتِّفاق، وهو أدلُّ دليلٍ على الحقّيَّة، فما ترك قومٌ الحقَّ إلّا مرج أمرُهم، والتبس عليهم دينُهم[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 284.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (مرج).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 406.

﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ۝٦﴾ [ق: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الـشُّـروعُ في إثبـاتِ دلائـل اليـقين بـعدَ وصفِ اضطرابِ الجاهلين

بعد أن بيَّنت الآياتُ السابقةُ إنكارَ الكفّار ما أنذرهم به الرسولُ ﷺ من البعث، وإعادةِ الأرواح إلى الأجساد بعد الموت والاختلاطِ بالتراب؛ ناسب أن تَشرَعَ السورةُ في بيان الأدِلَّة على قدرة اللّٰه تعالى، وعلى أنَّ البعث حقٌّ، وعلى أنَّ استبعادهم له إنَّما هو لونٌ من جهالاتهم وانطماسِ بصائرهم؛ وذلك بِلَفْتِ أنظارهم إلى ما في كون اللّٰه الفسيحِ من آياتٍ دالَّةٍ على كمالِ قدرته، وبالغ عَظَمَته، كالسماوات والأرض والنجوم؛ لأنَّ خلقَها من عَدَم، وإيجادَها على النحو الذي ألِفوه: دالٌّ على أنَّ إعادةَ الإنسانِ بعد العَدَمِ في حَيِّز الإمكان[1]؛ لأنَّه أصغرُ من هذه المخلوقات وأهوَن.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾: (سمو) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى العُلوِّ، يُقالُ: سَمَوْتُ؛ إذا عَلَوْتَ، والعَرَبُ تُسَمّي السَّحابَ سَماءً، والمَطَرَ سَماءً[2]، والسماءُ المقابِل للأرض مؤنَّثة، وقد تُذَكَّر، ويُستَعمل للواحد والجمع، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ [البقرة: 29]، ويقال في جمعها: سَماواتٍ، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [البقرة: 164]، وقال: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [المؤمنون: 86][3]، والمرادُ بالسَّماء في الآية هي ما يُحيط بالأرض من الفضاء الواسع.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 127، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 285، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 334.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمو).

(3) الراغب، مفردات القرآن: (سما).

2) ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾: (زين) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى حُسْنِ الشَّيءِ وتَحْسينه، فالزَّيْنُ نَقيضُ الشَّيْنِ، يُقالُ: زَيَّنْتُ الشَّيْءَ تَزْيينًا، وأزْيَنَتِ الأرْضُ، وازَّيَّنَت، وازْدانَت؛ إذا حَسَّنَها عُشْبُها[1]، وأمّا قول اللّه تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [فصلت: 12]، وقوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ [الصافات: 6]، ﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦﴾ [الحجر: 16]، وما جاء في هذه الآية: فإشارةٌ إلى الزّينة التي تُدرَك بالبصر، التي يعرفها الخاصَّة والعامَّة، وإلى الزّينة المعقولة التي يختصُّ بمعرفتها الخاصَّة، وذلك إحكامها وسيرها[2].

3) ﴿فُرُوجٍ﴾: (فرج) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى انفتاحٍ أو متَّسَعٍ في أثناءِ جرم كثيف أو بين أجرام[3]، ومِنه الفُرْجَةُ في الحائِطِ وغَيْرِه، فهي الشَّقُّ، ويُقالُ: فَرَجْتُهُ، وفَرَّجْتُه، والفُروجُ: الثُّغورُ الَّتي بَيْنَ مَواضِعِ المَخافَةِ، وسُمّيَت فُروجًا؛ لأنَّها مُحتاجَةٌ إلَى تَفَقُّدٍ وحِفظٍ[4]، فمِنَ الشَّقِ والانفتاح قولُ اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩﴾ [المرسلات: 9]، وقوله هنا: ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

بـنـاءُ السـمـاء ورفعُها وتزيينُها دليلٌ دامغٌ على قـدرةِ الله على البعث

تُبيِّن الآية الكريمة الآياتِ الدالَّةَ على سهولة أمر البعث والإحياء بعد الموت على اللّه تعالى، وأوَّلُ هذه المعجزات هو السماء، التي تستنكر الآية الكريمة على المشركين غفلتَهم عن النظر فيها، والتفكُّرِ في طريقة بناء اللّه تعالى لها بدقَّةٍ وإحكام، وكيف أنَّه رفعها بلا عمد، وأمسكها من الوقوع، وزيَّنها بالنجوم والكواكب للناظرين، وجعلها خاليةً من الشقوق والعيوب.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زين).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (زين).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (زين).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زين).

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ الجملة من السّابق:

ترابطُ الجملِ بتفريعِ الأدلَّةِ لدحض التَّكذيب

قول اللّه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ﴾ تفريعٌ على قوله تعالى: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ﴾، إلى قوله: ﴿مَّرِيجٍ﴾؛ لأنَّ أهمَّ ما ذُكِرَ من تكذيبهم أنَّهم كذَّبوا بالبعث، وخلقُ السماوات والنجوم والأرض دالٌّ على أنَّ إعادة الإنسان بعد العَدَم في حيِّز الإمكان، فتلك العوالم وُجِدت عن عدم، وهي بلا ريب أكبرُ وأعظمُ خلقًا من الإنسان، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ﴾[1] [يس: 81]، وقال تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ﴾ [النازعات: 27].

ويحتمل أن تكون الفاءُ في ﴿أَفَلَمۡ﴾ لعطف ما بعدها على محذوفٍ مقدَّرٍ من السياقِ، وهو يُطيحُ بكلِّ ما قالوه؛ افتِئاتًا على الحقِّ وإنكارًا له، والمعنى: (أغَفلوا، وعَموا، فلم ينظروا إلى السماء فوقَهم، كيف بنيناها هذا البناءَ العجيبَ، بأن رفعناها بدون عمد، وزيناها بالكواكب، وحفظناها من أيِّ تصدُّعٍ أو تشقُّقٍ أو تَفَتُّقٍ؟)[2].

دلالةُ أسلوب الاستفهام:

الأدلَّة المنصوبة على البعثِ ظاهرةٌ وإنَّما عَمي عنها عقلُ المعاندين

الهمزة في أوَّل قول اللّه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ﴾؛ للاستفهام القاصد إلى الإنكار وتوبيخ الكفّار على عدم التأمُّل والتدبُّر في خلق السماء، وما فيها من إحكامٍ وزينة؛ ليهتدوا من خلال ذلك إلى أنَّ أمر البعث سهلٌ يسيرٌ على اللّه، الذي أبدعها، وأحكمها على النحو الذي يشاهدونه ليلًا ونهارًا.

ويمكن أن يكون الاستفهامُ لتقريرهم ونزع اعترافهم بقدرة اللّه تعالى على البعث والإحياء، بجعل النَّظر للمشاهدة لا للتَّفكُّر،

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 285.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 282، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 334.

فإنَّهم وجدوا آثارَ قدرته باديةً ظاهرة، بمجرَّد النظرِ في السماء وما هي عليه من بناءٍ وزينةٍ، والتقرير على نفيِ الشيء الذي يُراد منه الإقرارُ بإثباته هو طريقةٌ قرآنيَّة، غرضُها إفساحُ المجال للمقَرَّر إن كان يروم إنكارَ ما قُرِّر عليه؛ ثقةً من المقرِّر بأنَّ المقرَّر لا يُقدِم على الجحود بما قُرِّر عليه لظهوره، وهذا الوجه أشدُّ في النَّعي عليهم؛ لاقتضائه أنَّ دلالة المخلوقات المذكورة على إمكان البعث يكفي فيها مجرَّدُ النَّظرِ بالعين[1].

دلالة النفي بِ(لَم):

غـايـةُ المُـنـكِـر طلبُ الرِّزق من الحقِّ، لا التَّفكُّر المـوصِـلُ إلى الحقِّ

(لَم) حرفُ نفيٍ وجزم، وهو من خواصِّ المضارع، ويصرف معناه إلى المضيِّ[2]، وعلى جَعلِ الاستفهام للإنكار، فإنَّ النَّفيَ به في قول الله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ﴾ يدلُّ على أنَّ الكفّار لم يحصُل منهم نظرٌ في السماء مطلقًا باعتبارِ التَّفكُّر الموصِل إلى الحقِّ، ولم يُلفِتِ انتباهَهم بناؤُها المحكمُ، ولا زينتُها المعجِزة الآخذةُ بألباب عقول الحكماء، بل هم غارقون في الغفلة واللّهو عمّا يملأ كونَ الله الفسيحَ من آياتٍ باهراتٍ، ومعجزاتٍ خارقاتٍ، تدلُّ دلالةً قاطعةً على يُسر البعث وسهولته على الله جلَّ في علاه، فالذي أتقن هذا الصُّنع، هو القادر على الإعادة والإحياء.

بلاغةُ استعمالِ مادَّةِ النَّظَر:

مِـنَ الـعَـجَـبِ تَـعَـجُّـبُـهم ممّا يُدرَك بأدنى نظر

آثر النَّظم الكريمُ استعمالَ مادَّة النظر، في قول الله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ﴾، ولم يَجِئِ التَّعبيرُ بالرُّؤية، كما جاء في آياتٍ عديدة؛ لأنَّ النَّظَر دون الرؤية، فالنّاظر يُدرك المبصرات، وأمّا الرؤية؛ فهي تحتاج إلى مزيد فكر وتأمُّل، والله طلب منهم أن ينظروا، فإنَّ مُجَرَّد النَّظر موصِلٌ إلى معرفة أدِلَّة القدرة على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 285، 286.

(2) المرادي، الجنى الداني، ص: 267.

البعث، ولا حاجةَ إلى الرؤية، فلمّا صدر منهم استبعادُ البعث في قولهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾، جاء التَّعبير بأدنى الفِعلَين وهو النَّظر؛ ليقع الاستبعادُ في مقابلة الاستبعاد[1].

دلالة التَّعبير بصيغة المضارع:

المنكرون أحدثوا إعراضًا ثابتًا، وكان يجب عليهم نظرٌ مُتجدِّد

أوثِر التَّعبير بفعل النَّظر مضارعًا في قول اللّه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ﴾؛ لأنَّه يدلُّ على تجدُّدِ نفي النَّظر في الماضي، فيستنكر الاستفهامُ عدمَ تأمُّلِهم خلقَ السَّماوات، مع تجدُّدِ دواعي ذلك، من تتابُعِ الوحي وإنكار البعث، والفرق واضح بين ما جاء عليه البيانُ، وبين أن يُعبَّر بالماضي، فيُقال: (أما نظروا إلى السَّماء فوقهم؟)؛ فالإنكار عليهم باعتبار أنَّهم قد أحدثوا إعراضًا ثابتًا، وقد كان يجب عليهم أن يكون منهم نظرٌ متجدِّد.

نكتةُ الإسنادِ إلى ضمير الجمع:

جاء إسناد فعل النَّظر إلى ضمير الجماعة، في قول اللّه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الإنكار متَّجِهٌ لجملةِ الذين أنكروا البعث من المشركين، وأنَّ الغفلة إذا استولت على المجموعِ؛ أصابت الجميعَ باللومِ والتَّوبيخ.

نكتة التَّعديَة بـ﴿إِلَى﴾:

مجرَّدُ النَّظر إلى السماءِ مرشدٌ ومعينٌ على إدراك عظمةِ الله وقدرتِه

﴿إِلَى﴾ حرفُ جرٍّ يفيد انتهاءَ الغاية، وأوثر تعدية فعل النظر به في قول اللّه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ﴾ دون (في)؛ لأنَّ النَّظر في الشيء يُنبئ عن التَّأمُّل والمبالغة، والنَّظرَ إلى الشَّيء ينبئ عن إدراكه مبصَرًا؛ لأنَّ ﴿إِلَى﴾ للغاية، فينتهي النظرُ عنده في الدخول في معنى الظرف، فإذا انتهى النظر إليه؛ ينبغي أن ينفذ فيه حتّى يصحَّ معنى الظرفية[2]، فمجرَّد النظر إلى السماء مرشدٌ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 128.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 128.

ومعينٌ على إدراك عظمة اللّه وقدرته؛ لظهور ذلك في بنائها وزينتها بشدَّةٍ ووضوحٍ، وهذا التَّعبيرُ أبلغ في استنكارِ إنكارِهم والتَّعجُّب من تَعَجُّبِهم، مثلَما أفاده إيثارُ مادَّة النَّظر على مادَّة الرؤية.

براعةُ البدء بذكر ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

عظمةُ السماء في إثباتِ البعث حـــاضـــرةٌ عند أدنى تأمُّل

أوثر تقييدُ فعل النظر بكونه ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لسهولة النظر إليها؛ بسبب ظهورها وشدة بروزها، ولسرعة إدراك ما فيها من معجزاتٍ باهراتٍ، وقُدِّم ذكر السماء على الأرض وغيرها من الأدلَّة التي ساقتها السورةُ الكريمةُ على إمكان البعث لعظمتها، وكثرة أدلَّتها، وكونِ كلِّ شيءٍ فيها يصلح أن يكون برهانًا مستقلًّا على عظمة اللّه وقدرته على أمر الإحياء، الذي يُعَدُّ هيِّنًا؛ إذا قورِنَ بشيء ممّا في السَّماء، كالشمس، أو القمر، أو النجوم، أو الليل، أو النهار، أو غير ذلك.

سِرُّ التقييد بالظَّرف:

الـــنَّـــظـــرُ إلى السماء ميسورٌ لكلِّ مريد

ظرفُ الفوقيَّة حالٌ من السَّماءِ في قول اللّه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ﴾، والتقييدُ بالحال تنديدٌ على المشركين لإهمالهم التأمُّلَ في السماء معَ المُكْنة منه؛ إذ هي فوقهم مباشرةً، قريبةٌ غيرُ بعيدة، لا يكلِّفُهم النَّظرُ إليها إلّا رفعَ رؤوسِهم[1]، ففي التَّعبير بالظَّرف تأكيدٌ ليُسْرِ النظر إلى السَّماء، والاستدلال بما فيها على البعث.

مَوقِعُ ﴿كَيۡفَ﴾ ودلالتُها:

تنبيهُ المُتلقّين ولفتُ أنظارِهم إلـــى فـخـامـةِ المُسْتَفهَم عنه وعظمةِ بنائِه

﴿كَيۡفَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا﴾ اسمُ استفهام في محلِّ نصب حال، معناه: (أفلم ينظروا إلى السماء فوقَهم هيئَةَ بُنياننا إيّاها)[2]، والغرضُ من التعبير به هو لفتُ أنظار المشركين بخاصَّة - والناس بعامَّة - إلى فخامة هيئة المستفهَم عنه بها، وبلوغه في عظمة الصَّنعة ودِقَّة البناء والإحكام

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 286.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 286، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 128.

المَنزِلةَ التي لا يُمكِن أن يقترب منها شيء، أو يَصِلَ إلى مثلها بناءٌ، مهما حُشِدَ له من إمكانات وتجهيزات.

دلالةُ جملةِ البناء:

التأمُّلُ في دِقَّةِ بناء السماء مُرشِدٌ إلى قدرة الله على البعثِ والإحياءِ

جملة فعلِ البناء ﴿بَنَيۡنَـٰهَا﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَـٰهَا﴾ مكوَّنةٌ من فعل وفاعل ومفعول، وهي إمّا أن تكونَ في محلِّ جرٍّ بدل اشتمالٍ من السماء[1]، فتدلَّ على أنَّ النظرَ إلى السماء يجب أن يكون تأمُّلًا فيما اشتملت عليه من بنائها المُحكَم، وزينتها الفريدة؛ ليتوصَّلَ النّاظرُ إلى أنَّ مَنْ بناها، وزيَّنها، قادرٌ على إحياء الإنسان وبعثِه، وإمّا أن تكونَ في محلِّ نصب مبيِّنة لـ ﴿كَيۡفَ﴾[2]، فتدلَّ على أنَّ حال الناظر إلى السماء يجب أن يكون تَفكُّرًا في الكيفيَّة التي بُنِيَت عليها السَّماء من غير عَمَدٍ أو رافعات، وأنَّ مَنْ يُمسكها من الوقوع على الناس قادرٌ على البعث والإحياء، ولا يُعجِزه ذلك الأمرُ الذي يُعَدُّ سهلًا هيِّنًا؛ إذا قورِن بحالِ بناءِ السماء.

دلالة الإسناد إلى ضَميرِ العَظَمة:

تفخيم بناءِ السماء، وإشارتُه العظمةَ الربانية

أسْنَد البيانُ فعلَ بناء السماء إلى ضمير الحقِّ سبحانه بصيغة التعظيم ﴿بَنَيۡنَـٰهَا﴾؛ لتفخيم الفعل والإشارة إلى يُسْرِه على اللّه بما له من العظمة والاقتدار، والدلالةِ على عدم قدرةِ أحدٍ على أن يفعل مِثلَ بناء السماء أو قريبًا منه، والمعنى: (أوجدناها على ما لنا من المجد والعِزَّة مَبنيَّةً كالخَيمة إلّا أنّها من غير عَمَد)[3].

نكتةُ عَطفِ فِعلِ التَّزيين بالواو:

أوثِر عطف فعل التزيين على فعل البناء بالواو التي تفيد المصاحبةَ في قول اللّه تعالى: ﴿كَيۡفَ بَنَيۡنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا﴾؛ للدلالة على

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 282.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 286.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 408.

أنَّ النظر إلى السماء والتأمُّلَ فيها لا يصِحُّ أن يقتصر على كيفيَّة البناء فقط، بل يجب أن يكون مصحوبًا بالتأمُّل فيما زيَّنها اللّه به من الكواكب الصِّغار والكبار، السَّيّارة والثابتة[1]، وكيفيَّة حركتها من غير تعارُضٍ ولا تصادُم، وكيف يترتَّب على ذلك انتظامُ الكَون، وقضاءُ حاجات الناس ومصالحهم.

التأمُّلُ في زينة السماء هادٍ إلى يُسرِ البعث على الله

دلالةُ الإسناد إلى ضمير العظمة:

في إسناد فِعلِ التَّزيين إلى ضمير العظمة، في قول اللّه تعالى: ﴿كَيْفَ بَنَيْنَهَا وَزَيَّنَّهَا﴾ تفخيمٌ للفعل، ودلالةٌ على أنَّ أمر البعث بالنسبة إليه سبحانه سهلٌ يسيرٌ، وأنَّ فعلَ التَّزيين كان مقصودًا؛ ليستدلَّ به النّاس على كمال الصَّنعة وتمامِ الخَلق.

بلاغةُ ذِكرِ الزّينة:

خَصَّ النظم الكريم تزيين السماء بالذكرِ، في قول اللّه تعالى: ﴿كَيْفَ بَنَيْنَهَا وَزَيَّنَّهَا﴾؛ للجمع بين الاستدلال والامتنان بنعمة التمكين من مُشاهدة المَرائي الحسنة، ولأنَّ التَّزيينَ يشترك في إدراكه جميعُ الذين يشاهدونه، ثم النّاس يتفاوتون في إدراك ما في خلق الكواكب والشمس والقمر ونظامها من دلائلَ على مقدار تفاوت علومهم وعقولهم، فالآيةُ صالحةٌ لإفهام جميع الطبقات[2].

الجمعُ بين الاستدلال والامتنان من بديعِ نَظْم القرآن

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

الواوُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ عاطفةٌ على جملتَي ﴿كَيْفَ بَنَيْنَهَا وَزَيَّنَّهَا﴾، فهي حال ثالثة في المعنى[3]، وفي التعبير بها دلالةٌ على أنَّ النظرة المتأمِّلةَ إلى السماء يجب أن تَمتدَّ؛ لتنظر في سلامتها من الفُروج والفُتوق والخَلَل[4]، على الرَّغم من اتِّساعها

تتابُعُ الأحوال تقويةٌ للاستدلال، وتمتينٌ للنَّظر في المآل

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 408.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 286، 287.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 287.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 531.

وتغطيتها الكونَ كلَّه، ومن عَدَم وجود أعمدةٍ رافعةٍ لها على امتداد الزمان، وهو أمرٌ لا يحصل في أيِّ بناءٍ.

نوعُ (ما) ودلالتُها:

نـفـيُ وجـودِ الـنَّـقـصِ في الـسَّـمـاءِ نفيًا عامًّا قاطعًا

(ما) في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ هي النافية العاملة عملَ (ليس)، وأوثِر النَّفي بها؛ لأنَّ من خصائصها نفيَ الجُمَل الاسميَّة والفعليَّة، وهي آكدُ في النفي من (ليس)، وأوسعُ استعمالًا منها أيضًا؛ لأنَّ (ليس) مختصَّةٌ بنفي الجُمَل الاسمية فحسب[1]، والنَّفي بـ(ما) أنسبُ هنا؛ لأنَّها تُفيد - بمعناها ومبناها المختوم بألف المدِّ - نفيَ وجود فروج أو شقوق في أيِّ مكانٍ من السماء نفيًا قاطعًا لا حدودَ لهُ، وهو المكتسَبُ من دلالتها على العموم، أي: نفيٌ يعمُّ السماءَ كلَّها، ممّا علمه النّاظرُ بالعين المجرَّدة، أو بالأدوات المتقدِّمة، أو بالعلوم القطعيَّة، فإنَّ النَّظر والعلم لن يصلا إلى خللٍ فيها، أو نقْصٍ يعتريها.

دلالةُ التعبيرِ بالجملة الاسميَّة:

كـمـالُ الـسَّـمـاءِ وتـمـامُ خلقِها ينفي كلَّ نظريَّةٍ مــن شـأنِـهـا الانـتـقـاص من السَّماءِ

جاء التَّعبير في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ بالجملة الاسميَّة؛ لِما تمتاز به من إفادة الثبوت والدَّوام؛ فتفيد الجملةُ انتفاءَ وجود الفروج في الماضي والحاضر واللاحق، وذلك ثابتٌ لها على مرِّ العصور والأزمان، وليس في وقتٍ دون وقتٍ، أو حالٍ دون حالٍ، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ بديع صُنع السماءِ وثباتَها على ذلك مستمرٌّ إلى يوم الدّين، ففيه ردٌّ على جميع النَّظريّات القائلة بمرور السماء بمرحلة نقص، أو زمان عدم اكتمالٍ، وما إلى ذلك من نظريّات خرجت من رَحِم الإلحاد.

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرور:

قُدِّم ذكرُ الخبر على المبتدأ في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن

(1) السامرائي، معاني النحو: 4/ 191.

﴿فُرُوجٍ﴾، ممّا يفيد تقويةَ المعنى وتأكيدَه؛ لبيانِ أهمّيَّة العناية بإبراز ما للسماءِ من مزايا هي محل النَّظر.

نكتةُ جمع لفظ ﴿فُرُوجٍ﴾:

انتفاءُ جميعِ أنواعِ النَّقص في بديعِ صُنعِ الله

جاء جمع لفظ الفَرْج في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾؛ ليَعُمَّ كلَّ الفُروج، أيًّا كان نوعُها وحجمُها وزمانُها، فتعمَّ كلَّ ما يتصوَّرُه الذِّهنُ البشريُّ على مدى الأيّام، ففيه إيماءٌ إلى عموم العلم الإلهيِّ لِما يَصِلُه الإنسان، فيَسبِقُه بنفيِ النَّقص، وإثباتِ الكمال.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ٧﴾ [ق: 7]

الانتقالُ من الأدلَّة السماويَّة إلى الأدلَّة الأرضيَّة

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قبلَها:

لمّا دلَّ سبحانه على تمام قدرته وكمال علمه بآية السماء؛ أتبع ذلك بالدلالة على آية الأرض، وأخَّرها؛ لأنَّ السَّماءَ أدلُّ على المجد الذي هذا سياقه، فهي أعجبُ صُنعًا وأعلى علوًّا وأجلُّ مقدارًا وأعظم أثرًا، والأرضُ لكثرة الملابسة لها والاجتناء من ثمارها يغفل الإنسانُ عن دلالتها، بما له في ذلك من الصنائع والمنافع(1).

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿مَدَدۡنَٰهَا﴾: (مدد) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى جَرِّ شَيْءٍ في طولٍ، واتِّصالِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ في اسْتِطالَةٍ، تَقولُ: مَدَدْتُ الشَّيْءَ أَمُدُّهُ مَدًّا، ومَدَّ النَّهْرُ، ومَدَّهُ نَهْرٌ آخَرُ، أيْ: زادَ فيهِ وواصَله فَأطالَ مُدَّتَهُ(2)، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: 45]، وأغلب ما جاء الإمدادُ في المحبوب نحو: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢٢﴾ [الطور: 22]، والمدُّ في المكروه نحو: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥﴾ [المؤمنون: 55]، وقال أيضًا: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا ٧٩﴾ [مريم: 79]، وقال: ﴿وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥﴾ [البقرة: 15]، ومعنى ﴿مَدَدۡنَٰهَا﴾: جعلناها مبسوطةً لا مُسَنَّمَة(3).

2) ﴿وَأَلۡقَيۡنَا﴾: (لقي) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى طَرْحِ شَيْءٍ، ومنه الإلقاءُ: طرح الشيء حيث تَلقاه، أي: تراه، ثمَّ صار في التَّعارُف اسمًا لكلِّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 410.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مدّ).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 410.

طرح، قال تعالى: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ٨٧﴾ [طه: 87]، وقال: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ١١٥ قَالَ أَلْقُواْۖ﴾ [الأعراف: 115 - 116][1]، وهو هنا: تَمثيلٌ لِتَكْوينِ أَجْسامٍ بارِزَةٍ عَلَى الأَرْضِ مُتَباعِدٌ بَعْضُها عَنْ بَعْضٍ[2].

3) ﴿رَوَٰسِيَ﴾: (رسو) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى ثَباتٍ، تَقولُ: رَسا الشَّيْءُ يَرْسو؛ إذا ثَبَتَ، واللّٰه جَلَّ ثَناؤُهُ أَرْسَى الجِبالَ، أي: أَثْبَتَها، وجَبَلٌ راسٍ: ثابِتٌ، يُقال: رَسا الجَبَلُ؛ إذا ثَبَت أصلُه في الأرض، قال تعالى: ﴿رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ [المرسلات: 27]، أي: جبالًا ثابتات[3]، وقال هنا: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾، أي: جبالًا ثَوابِتَ كُنَّ سببًا لثبات الأرض[4].

4) ﴿زَوْجِۭ﴾: (زوج) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى مُقارَنَةِ شَيءٍ لِشَيءٍ، مِنْ ذَلِكَ: الزَّوْجُ زَوْجُ المَرْأَةِ، والمَرْأَةُ زَوْجُ بَعْلِها[5]، ويُقال لكلِّ واحد من القرينين من الذَّكر والأنثى في الحيوانات المُتَزاوِجَة: زَوْجٌ، ولكلِّ قرينَين فيها، وفي غيرها: زوج، كالخُفِّ والنَّعل، ولكلِّ ما يقترن بآخر مُماثِلٍ له أو مُضادٍّ، قالَ تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35]، وقال: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: 49][6]، فَأمّا قَوْلُه جَلَّ وعَزَّ هنا في ذِكْرِ النَّباتِ: ﴿مِن كُلِّ زَوْجِۭ بَهِيجٍ﴾، فَأرادَ به اللَّوْنَ، كَأَنَّهُ قالَ: مِنْ كُلِّ لَوْنٍ بَهيجٍ، أي: من كل نوع من الحَبِّ أو الثَّمَر، وهَذا لا يَبْعُدُ أَنْ يَكونَ مِنَ الَّذي ذَكَرْناهُ؛ لِأَنَّهُ يُزَوَّجُ غَيْرَهُ مِمّا يُقارِبُهُ[7].

5) ﴿بَهِيجٍ﴾: (بهج) أَصْلٌ يدلُّ على السُّرور والنَّضْرَة، يُقالُ: نَباتٌ بَهيجٌ، أَيْ: ناضِرٌ حَسَنٌ، قالَ تَعالَى: ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: 60]، وقال هنا: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجِۭ بَهِيجٍ﴾، والابتِهاجُ: السُّرورُ مِنْ ذَلِكَ أَيْضًا[8].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبَيِّنُ الآية مظاهِرَ قدرةِ اللّٰه تعالى في بَسطِ الأرض، بعدَ بيانِ مظاهِرِ قدرته في رفع

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي)، والرّاغب، مفردات القرآن: (لقى).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 288.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رسى)، والرّاغب، مفردات القرآن: (رسو)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (رسو).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 410.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زوج).
(6) الراغب، مفردات القرآن: (زوج).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زوج)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (زوج).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بهج).

مــــدُّ الأرضِ وتثبيتُها بالجبال وتزيينُها بالنبات أدلَّةٌ دامغةٌ على الإحياء

السماء، وتدعو الكفّار إلى أن يتأمَّلوا كَيفَ بَسَطَ اللّه الأرضَ، وكوَّرها، وألقى فيها رواسيَ شامخاتٍ، وأنْبَتَ فيها نباتًا حسنًا من كلِّ صنفٍ يأخذ الألباب، ويستهوي القلوب، ويسرُّ الناظرين، وأنَّه سبحانه فعل ذلك كُلَّه لأجل أنْ يبصِّر عبادَه بدلائلِ قدرتِه، ويذكِّرَهم بما يجبُ عليهم نحوَ خالقهم من شكرٍ وطاعةٍ(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتُها:

عطفُ الدَّليلِ الأرضي على السَّماويِّ استتباعٌ لمحيط النَّظر

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ لِعَطف ما بعدَها على قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ﴾، وهو من عطف الخبر على الاستفهام الإنكاريِّ، فهو في معنى الإخبار، والتقدير: (ومددنا الأرض)(2)، وعطفُ ذِكرِ الأرضِ على السماء؛ لأنَّ الأرضَ وما فيها تُعدُّ دليلًا ظاهرًا على قدرة اللّه تعالى على البعث والإحياء، شأنُها شأنُ السماء، ووجه كونها دليلًا: أنَّهم قالوا: الإنسانُ إذا مات، وفارقَته القوَّة الغاذية والنامية؛ لا تعود إليه تلك القوَّة، فنقول: الأرض أشدُّ جمودًا وأكثرُ خمودًا، واللّه تعالى يُنبِت فيها أنواعَ النَّبات، فينمو، ويزيد، فكذلك الإنسان تعود إليه الحياة(3).

غرضُ تقديمِ المفعول به:

توجيهُ الأنظارِ إلى تأمُّلِ الأرضِ ابتداءً ثم إلى مَدِّها ثانيًا

لفظُ الأرض في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ مفعولٌ به لفعل محذوف يفسِّره المذكور، والتقدير: (ومَدَدْنا الأرضَ مَدَدْناها)، وقُدِّم ذِكرُها على فعل المدِّ؛ لأنَّ قصدَ البيانِ منصبٌّ إليها، واهتمامَه موَجَّهٌ إلى لفت الأنظار إلى أنَّ الأرض بما فيها تُعدُّ دليلًا دامغًا على أنَّ اللّه الذي بَسَطَها، وألقى فيها الجبالَ الرَّواسي،

(1) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 519، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 334، 335.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 287.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 128.

وأنبت فيها من كلِّ زوجٍ بهيجٍ: قادرٌ على إحياء الناس بعد موتهم وتَحَوُّلِهم إلى تُرابٍ، فهو توجيه الأنظارِ إلى الأرضِ ابتداءً، ثم إلى كونِها ممدودةً ثانيًا.

دلالةُ مفردة المدِّ:

الله بَسَطَ سَطْحَ الأرضِ للنّاظرين

معنى فعلِ المَدِّ في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾، أي: بَسَطَ سطحَ الأرضِ[1]، وهو دالٌّ على البَسْطِ الذي يراه النّاسُ محيطًا بهم، فليس المرادُ بسْطَ الأرض كلِّها، بل بَسطُ ما يراه الإنسان، ويتمكَّن من الانتفاع به، فهذا مقصودُ الاستدلال والامتنان، وليس المرادُ وصفَ حَجم الأرض؛ لأنَّ ذلك لا تُدرِكه المشاهدةُ، ولم يَنظُر فيه المخاطَبون نظَرَ التأمُّل، فيُستَدلُّ عليهم بما لا يعلمونه، فلا يعتبر في سياق الاستدلال على القدرة على خلق الأمور العظيمة، ولا في سياق الامتنان بما في ذلك الدليلُ من نعمة، فلا علاقةَ لهذه الآية بقضيَّة كُرَويَّة الأرض[2].

دلالة التَّعبير بصيغة الماضي:

جاء فعلُ المدِّ في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾ ماضيًا؛ للدَّلالة على تمام المدِّ وكماله، كما يظهر بسطُ الأرضِ للمخاطَبين إلى قيام السّاعة، ولبيانِ أنَّه مدٌّ قد تحقَّق، وتأكَّد، ولن يطرأ على النِّظام الكَونيِّ تغييرٌ حتّى يأتيَ أمرُ اللّه.

دلالةُ الإسنادِ إلى ضميرِ العَظَمة:

أفعالُ العظيمِ مُنبِئةٌ عن العَظَمةِ والقصديَّة

جاء فعل المدِّ في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾ مُسْنَدًا إلى ضمير الحقِّ سبحانه بصيغة التعظيم؛ للدَّلالة على يُسْرِه وسهولته على اللّه تعالى، على الرَّغم من أنَّه عملٌ عظيمٌ باعتبارِ ما يراه البشر، ويُفهَم من ذلك سهولةُ ما دونه من تمييز التراب، وإعادةِ أصحابه إلى قَيدِ الحياة، بلا خَلطٍ لأتربَتِهم، أو خَلَلٍ في أعضائهم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 288.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 288.

دلالةُ العَطفِ بالواو:

إلـقـاءُ الجبال الرواسي وظيفةٌ راسـيَـةٌ وأداةٌ ثابتةٌ

جاء فعل الإلقاء معطوفًا بالواو على المَدِّ، في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾؛ للتَّنبيه إلى أنَّ إلقاءَ الجبال الرَّواسي على الأرض؛ لتثبيتها أمرٌ يستحقُّ النَّظرَ والتأمُّلَ، لما فيه من دلالةٍ على قدرة اللّه تعالى على كلِّ شيء، كما أنَّ المدَّ يستحقُّ ذلك، ولأنَّ المدَّ وحدَه قد تكون به الأرضُ غيرَ صالحة، ولأنَّ الممدود يمكن أن يتكفَّأ(1)، فكان ذكرُ إلقاء الرَّواسي لبيانِ وظيفتها في مدِّ الأرض، وأثرِها في استقرار الأرض.

بلاغةُ الاستعارةِ في مادَّة الإلقاء:

تـصويرُ تكوينِ الـجـبـالِ لـبـيانِ يُـسْـرِ الإيـجـادِ وسهولته

فِعلُ الإلقاء في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ تمثيلٌ لتكوينِ أجسامٍ بارزَةٍ على الأرض متباعِدٍ بعضُها عن بعضٍ، فالإلقاء هو رَميُ أشياءَ من اليَدِ إلى الأرض(2)، أو هو تشبيهُ تكوينِ الجبال في الأرض بإلقاءِ شيءٍ فيها، على سبيل الاستعارة التصريحيَّة التبعيَّة، التي تُبرِز كيفيَّةَ وضع هذه الرواسي، وتوَضِّحُ أنَّه لا يختلف عن إلقاءِ أشياءَ كانت في الأيدي؛ وذلك لبيان سهولةِ تكوين هذه الجبالِ وإيجادِها، ليَستَقِرَّ حالُ الأرض في الحركة والسَّير.

سِرُّ التَّقييدِ بالجارِّ والمجرور:

رسوُّ الجبالِ في باطن الأرض بما يُحقِّق وظيفَتَها الكَونيَّة

قُيِّد فعلُ الإلقاءِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ بشِبهِ الجملة ﴿فِيهَا﴾ الدّالِّ على الظرفيَّة؛ للإشارة إلى تَوَغُّلِ الجبالِ في باطنِ الأرض، وإحاطتِها بها إحاطةَ الظَّرف بالمظروف، وهو ما عبَّر عنه البيانُ في موضعٍ آخرَ بقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ٧﴾ [النبأ: 6 - 7]، وعبَّر عن المجرور بالضمير العائد إلى الأرضِ جريًا على الظّاهر في التعبير عن الاسم الذي سبق ذكرُه

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 381، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 410.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 288.

بالضمير، ولتأكيد توغُّل الجبال في باطن الأرض على الرغم من ضخامتها وثِقَلِها.

بلاغة استعمال مادَّةِ الرَّسوِّ:

الجبالُ تحقِّق وظيفةَ الاتِّزان والثَّبات

جاء استعمال مادَّةِ الرُّسوِّ في قول الله تعالى: ﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ مفعولًا للإلقاء؛ زيادةً في التنبيه إلى بديع خلق الله؛ إذْ جُعِلَتِ الجبالُ متداخلةً مع الأرض، ولم تكن موضوعةً عليها وضعًا كما توضَع الخَيمَة؛ لأنَّها لو كانت كذلك؛ لتزَلْزَلَت، وسقطت، وأهلكت ما حوالَيها[1]، فالرّاسي هو الذي يَرسُب إلى أسفلَ حتى يستقرَّ، ويأتي بالاستقرار لِما هو مرتبطٌ به، فدلَّ استعمالُ هذه المادَّة على رُسوِّ حالِ الأرض وعدم اضطرابها، كما تَرسو السَّفينةُ في البحر.

نكتةُ جمعِ الرَّواسي نكرةً:

جيء بلفظ الرَّواسي جمعًا في قول الله تعالى: ﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾؛ للدلالة على كثرةِ الجبال وتنوُّعِها وتوزُّعِها وانتِشارِها حَسْبَما يحقِّقُ اتِّزانَ الأرضِ وثباتَها، وجاءت الكلمةُ نكرةً؛ لأنَّ المقصود ذِكرُ وظيفتِها، لا ذكرُ ماهيَّتِها.

فائدةُ عطفِ الإنباتِ:

بيانُ تكميلِ مدِّ الأرضِ وتثبيتِها بإنباتِ الزَّرعِ لصلاحيَّةِ الحياةِ

عَطفَ النَّظمُ الكريم فِعلَ الإنبات على مدِّ الأرضِ وتثبيتِها، في قول الله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾، وفائدةُ العطفِ بيانُ صلاحيَّتِها لحياةِ النّاس وعَيْشِهم فيها؛ إذْ يحتاجون بعدَ مَدِّها وتثبيتِها بالجبال الرَّواسي إلى ما يُقيمُ حياتَهم عليها، ويساعدُهم في إصلاحِها وإعمارِها، ويُلَبّي ما لا غنًى لهم عنه من أرزاقهم وأرزاقِ مَنْ يعولونهم[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 288.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 410.

توجيه تخصيص الإنباتِ بالذكر:

خصَّ النَّظم الكريمُ الإنباتَ بالذِّكر - من بين سائرِ مظاهرِ الحياة على الأرض - في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾؛ للإشارة إلى جَدارَتِه بالتَّأمُّل، ودلالتِه على قدرة اللّه تعالى على ما هو دونه، وتدخلُ فيه القدرةُ على إحياءِ الموتى وبعثِهم دخولًا أوّليًّا بُرهانيًّا.

غَرَضُ الإسناد إلى ضَميرِ العَظَمَة:

إنباتُ الزرعِ لا يقدرُ عليه إلّا الله جلَّ في علاه

أسندَ البيانُ الكريمُ فعلَ الإنبات إلى ضمير الحقِّ سبحانه بصيغة التعظيم، فقال اللّه تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾؛ للإشارة إلى ما في عمليَّةِ الإنبات من أوجُهِ العَظَمَة والإعجاز، التي لا يَقدِر عليها إلا اللّه جلَّ في علاه، على الرَّغم مِن أنَّها قد تبدو سهلةً مُعْتادةً في أعيُنِ النّاظرين، ولِكَونِها تماثلُ البعثَ والإحياءَ بعد الموت، الذي يأتي البيانُ في سياقِ الإنكار على المشركين عدمَ الإيمانِ بقُدرةِ اللّه تعالى عليه.

دلالةُ التَّقييدِ بشِبهِ الجُملة:

دقّةُ الاستعمال القرآنيِّ في مطابقةِ الواقعِ دليلُ الإعجازِ العلميِّ

قُيِّد فِعلُ الإنباتِ بالجارِّ والمجرور، في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾؛ للإشارة إلى ما يحدثُ مِن شقِّ اللّه الأرضَ؛ ليخرجَ النَّباتُ من باطِنِها، كما ورد في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧﴾ [عبس: 24 - 27][1]، فإنَّ الإنباتَ يكون في الأرض لا عليها، ولا يَتِمُّ النِّتاج ما لم يكن فيها، وهذه الدِّقَّة في التعبير تُنبئُ عن دقّة الاستعمال المطابِق للواقع، كما أنَّ فيه زيادةَ تنبيهٍ إلى ما في شَقِّ الأرض لإخراج النَّبات من إعجازٍ دالٍّ على قُدرة اللّه على إحياءِ مَن في الأرض من الأموات، وبعثِهم من قبورهم.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 128.

معنى ﴿مِن﴾:

توكيدُ اليقينيّات لِـتَـنـزيـلِ المخاطَبين منزلةَ المُنكِر للحقائق

﴿مِن﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ مؤكِّدةٌ، فكلُّ ما يخرجُ من باطن الأرض من زروعٍ وحشائشَ وثمارٍ وأزهارٍ تسرُّ الناظرين وتبهجُهم، إنَّما هو من آثارِ قدرةِ اللّه تعالى العظيمة، التي لا يُعجِزُها شيءٌ أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ، فالمقصود من التوكيد بالحرف ﴿مِن﴾: تنزيلُ المخاطَبين ممَّن يُنكِر البعثَ منزلةَ من يُنكِر أنَّ اللّه أنبت ما على الأرض من أنواعٍ؛ إذ ادَّعَوا استحالةَ إخراج النّاس من الأرض[1].

فائدةُ الإضافةِ في ﴿كُلِّ زَوۡجِۭ﴾:

الـتـعـريـضُ بالمشركين لعدمِ تنبُّههم للدلائلِ الكثيرةِ المُحيطةِ بهم

جيء بالاسم المجرور ﴿كُلِّ﴾ مُضافًا إلى ﴿زَوۡجِۭ﴾ بمعنى نوع، في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾؛ للدلالة على عموم الإنباتِ وشمولِه كلَّ الأصنافِ التي يَشُقُّ اللّه الأرضَ لأجلِ إخراجِها، وللإشارة إلى كثرة هذه الأصناف وتعدُّدها، وفائدةُ التكثير هنا: التعريضُ بالمشركين لقلَّةِ تدبيرِهم؛ إذ عَموا عن دلائلَ كثيرةٍ واضحةٍ بين أيديهم[2].

سِرُّ الوصف بصفةِ ﴿بَهِيجٖ﴾:

الـنَّـبـاتُ بـهـجـةٌ في ذاتـه، مُبهِجٌ لغيره

يحتمل أن يكون لفظُ ﴿بَهِيجٖ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ صفةً مُشبَّهة، يُقال: بهُج بضم الهاء؛ إذا حَسُنَ في أعيُنِ الناظرين، فالبهيج بمعنى الفاعل، ويجوز أن يكون فعيلًا بمعنى مفعول، أي: مُنْبَهَجٌ به، بمعنى: يُسَرُّ به النّاظرُ، يقال: بَهَجَهُ؛ إذا سرَّه، ومنه: الابتهاج وهو المَسَرَّة[3]، وعلى الاحتمالَين فإنَّ وصف النَّبات به يدلُّ على أنَّه يجمع بين النَّفع والبهجة، فهو في غاية الرَّونَق والإعجاب، وكان - مع كونه رزقًا - مُتَنَزَّهًا[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 289.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 289.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 289.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 410.

الإدماجُ بغَرَضِ الاستـدلالِ من مقاصدِ البيان

بلاغةُ فنِّ الإدماج:

في وصف النَّبات بالبهجة من قول اللّه تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ تقويةٌ للاستدلال على دِقَّة صُنع اللّه تعالى، وإدماجٌ للامتنانِ عليهم بذلك، بجمع بهجة المنظر إلى منفعة المأكَل والمَرعى، كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦﴾ [النحل: 5 - 6][1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 289.

﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨﴾ [ق: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

التَّبصرةُ علَّة ذكرِ الأدلَّة المنصوبة للأذهانِ الكاشفة

بعد أن ذكر البيانُ الكريمُ في الآيتين السّابقتَينِ بعضًا من النِّعَم الدّالَّةِ على قُدرة اللّه تعالى على إحياءِ الموتى وبعثهم؛ ناسب أن يوَضِّح في هذه الآية أنَّه جلَّ شأنُه أنعمَ على خلقه بهذه النِّعم لأجْلِ أن ينظروها بأبصارهم، ثمَّ يتفكَّروا ببصائرهم، فيعْبُروا منها إلى صانِعِها، وليعرفوا عجزَهم أمامَ عظيمِ قدرتِه، فيؤمنوا به، ويعبدوه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَبۡصِرَةٗ﴾: (بصر) أصْلٌ يدلُّ على العِلْم بالشَّيْءِ، يُقالُ: هوَ بَصيرٌ به[2]، والبَصَر يُقال للجارحة الناظرة، وللقوَّة التي فيها، وأمّا لقوَّة القلب المدركة؛ فيُقال: بَصيرَة وبَصَر، قال تعالى: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: 108]، أي: على معرفةٍ وبيِّنةٍ ويقينٍ، وقال تعالى: ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ١٤﴾ [القيامة: 14]، أي: هو البصير، كما تقول: أنت حُجَّةٌ على نفسك، وقوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٧ تَبۡصِرَةٗ﴾، يعني: جعلنا ذلك تبصرةً؛ لِنَدُلَّ به على كمال قدرتنا، أي: (تبصيرًا وتنبيهًا)[3].

2) ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾: (ذكر) أصْل يدلُّ على قوَّة الشَّيء وصلابة مادَّته، ومنه الذِّكرُ خِلافُ النِّسيان؛ إذْ هو بقاءُ الشَّيء قويًّا في الذِّهن واضحًا[4]، والذِّكْرُ تارةً يُقال اعتبارًا باستحضاره، وتارةً يقال لحضور الشيء القلبَ أو القول، ولذلك قيل: الذِّكر ذكران:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 410.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بصر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (بصر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ذكر).

ذكرٌ بالقلب، وذكرٌ باللِّسان، وكلُّ قول يُقال له: ذكر، والذِّكْرَى في هذه الآية: كثرة الذِّكر، وهو أبلغ من الذِّكر، كما قال تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٤٣﴾ [ص: 43]، وقال: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات: 55][1].

3) ﴿عَبۡدٖ﴾: (عبد) يَدُلُّ عَلَى لينٍ وذُلٍّ، ومنه العَبْدُ، وهوَ المَملوكُ، والجَماعَةُ العَبيدُ[2]، والعُبوديَّةُ: إظهار التَّذلُّل، والعِبادَةُ أبلغُ منها؛ لأنَّها غايةُ التَّذلُّل، ولا يستحقُّها إلّا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى، والناس كلُّهم عِبادُ الله، بل الأشياء كلُّها كذلك، لكنَّ بعضها بالتَّسخير، وبعضها بالاختيار[3].

4) ﴿مُّنِيبٖ﴾: (نوب) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى اعتيادِ مَكانٍ ورُجوعٍ إلَيْهِ، يُقال: نابَ يَنوبُ، والنَّوَبُ: النَّحْلُ، سُمِّيَت به لِرَعْيِها ونَوْبِها إلَى مَكانِها[4]، والإنابة إلى الله: الرُّجوع إليه بالتَّوبة وإخلاص العمل، قال تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ۩ ۝٢٤﴾ [ص: 24]، وقال: ﴿وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا﴾ [الممتحنة: 4]، و﴿مُّنِيبٖ﴾ معناه: راجع إلى الحقِّ[5].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

التعريفُ بقدرة الله والتذكيرُ بحقوقه من مقاصِدِ سياق السّورة

توَضِّح الآيةُ الكريمةُ أنَّ الأسبابَ الدّافعةَ لِذِكر مَدِّ الأرض، وتثبيتِها بالجِبالِ الرَّواسي، وإنباتِ كلِّ صِنفٍ حسنٍ من النَّبات فيها هي أن يُبصِرَ العبادُ بصفة عامَّة - والمنيبون منهم بصفة خاصَّة - دلائلَ وحدانيةِ الله تعالى وقدرته، وأنْ يتذكَّروا ما يَجب عليهم فعلُه والقيامُ به نحوَ خالِقِهم ورازقهم من الشكر العميم، والعبادةِ الخاشعةِ[6].

(1) الراغب، مفردات القرآن: (ذكر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبد).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (عبد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نوب).
(5) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 5/ 132.
(6) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 335.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ إعرابِ ﴿تَبۡصِرَةٗ﴾:

الإنعامُ بأدَوات الاستدلال يَظهَرُ في التَّبصير والذِّكرى

قولُ اللّه تعالى: ﴿تَبۡصِرَةٗ﴾ - والمعطوفُ عليه ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾ - يحتمل أن يكون منصوبًا على أنَّه مفعولٌ لأجله[1]، ويحتمل أن يكون منصوبًا على أنَّه مفعولٌ مُطلَق لفعلٍ محذوفٍ، تقديرُه: (بَصَّرهم تبصرةً، وذَكَّرَهم تذكرةً)، وفيه تأكيدٌ لكون بيانِ النِّعَم وسيلةً فاعلةً للتَّعريف بالمُنعِم والتَّذكيرِ بما يجب على الخلق تجاهَ مَنْ تفضَّل بها عليهم، وقيل: هما حالٌ من الفاعل، والمعنى: (مبصِّرين ومذكِّرين)، أو حال من المفعول، والمعنى: أنَّ كلًّا من السماء والأرض ذاتُ تبصرةٍ وذاتُ تذكرة[2]، وهي أوجهٌ من الإعرابِ يُعطي كلٌّ منها دلالةً من المعنى تتساق مع النَّظم، وتتلاءم مع السياق.

نكتةُ عَطفِ الذِّكرى:

إذا تحقَّقتِ التَّبصرةُ؛ تَبِعتها الذِّكرى

عُطف لفظ الذِّكرَى على التَّبصرة في قول اللّه تعالى: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ النظر في السماء والتأمُّلَ في الأرض ينتج عنه البصرُ والذكرى مُقترنَين، أي: إنَّهما يحصلان معًا، ولا يتخلَّف أحدهما عن الآخر، عندما يكون الإنسان ذا قلبٍ حيٍّ منيب، وعقلٍ واعٍ رشيدٍ، وفي العطف بينهما دلالةٌ على أنَّ السماء والأرض فيهما آياتٌ مستمِرَّةٌ منصوبةٌ في مقابلة البصائرِ، وآياتٌ متجدِّدَةٌ مذكِّرةٌ عند النِّسيان أو التَّناسي[3]، وجاء تقديمُ التَّبصرة على الذِّكرى؛ لبيانِ أنَّها الأصل في ذلك، فإذا تحقَّقتِ التَّبصرةُ؛ تَبِعتها الذِّكرى، فالذِّكرى تجديدٌ للتَّبصير، وحفظٌ للمُبَصَّرِ من النِّسيان.

---

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 335.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 129، والسمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 20.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 129.

نكتة تنكيرِ المَعطوفَين:

النظرُ في السماءِ والأرضِ أمرٌ له عظيمُ الأثرِ على قلبِ العبدِ المُنِيبِ

أوثِر تنكيرُ ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ﴾؛ لِما يفيدُه التنكيرُ والتنوينُ من التعظيم والتفخيم، الدالِّ على عظيم أثَرِ النظرِ في السماواتِ وما فيها من زينةٍ، والتأمُّلِ في الأرض وما فيها من جبالٍ ونباتٍ بهيج على قلبِ الإنسانِ السَّويِّ المُنيبِ، والمعنى: (لِتَنظُروا بأبصاركم، ثمَّ تتفكَّروا ببصائركم، ثمَّ تتذكَّروا بهذه الآيات، تبصُّرًا بليغًا، وتذكُّرًا عظيمًا، بما لكم من القوَى والقدرة، فتعلموا بعجزكم عن كلِّ شيء من ذلك أنَّ صانعَها لا يُعجِزُه شيءٌ، وأنَّه محيطٌ بجميع صفات الكمال؛ إذْ لو أنَّه ألَمَّ بجنابِه شائبةٌ من شوائبِ النَّقص؛ لما فاضَ عنه هذا الصُّنعُ الغريبُ البديعُ)[1].

معنى اللّامِ ودلالتُها:

تشريفُ المؤمنين بإحرازِ سَجايا الفضائل

اللامُ في قول الله تعالى: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ حرفُ جرٍّ، يفيد حصرَ التَّبَصُّر والتَّذَكُّر في العبد المنيب، وإنَّما خُصَّ العبدُ المنيبُ بهما، - وإن كان فيما ذُكِر من أحوال الأرض إفادةُ التَّبصرة والذكرى لكلِّ أحد - لأنَّه الذي ينتفع بذلك؛ فكأنَّه هو المقصود من حكمة تلك الأفعال، وهذا تشريفٌ للمؤمنين، وتعريضٌ بإهمال الكافرين التبصُّرَ والتذكُّرَ[2].

غرضُ الإضافةِ في ﴿لِكُلِّ عَبۡدٖ﴾:

عمومُ التبصُّرِ والتذكُّرِ وشمولُه كلَّ العبادِ التَّوّابين الرجاعين إلى ربهم

جيء بالاسم المجرور (كُلِّ) مُضافًا إلى ﴿عَبۡدٖ﴾، في قول الله تعالى: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾؛ للدَّلالة على عموم التبصُّر والتذكُّر، وشمولِه كلَّ العبادِ التَّوّابين الرّجّاعين إلى ربهم، فالمعنى أنَّ تلك الأفعالَ قُصد منها التبصرة والذكرى لجميع العباد المُتَّبِعين للحقِّ؛ إذْ لا يَخلون من تبصُّر وتذكُّر بتلك الأفعال، على تفاوُتٍ بينهم في ذلك[3].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 411.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 291.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 291.

سِرُّ اختيارِ لفظ العَبد:

أوثر التعبير بالعبد في قول اللّه تعالى: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾؛ لِما يَدلُّ عليه من النَّقص، فإذا رأى ما دلَّ عليه هذا الصُّنْعُ من كمال خالقِه؛ تذكَّر أنَّه عبدٌ مربوبٌ لصانِعه[1].

دلالة وصف العبد بـ ﴿مُّنِيبٖ﴾:

العبدُ المنيبُ هو الحقيق بالبصرِ والتَّذكُّر

خصَّ النَّظم الكريم وصف العبد بالإنابة، في قول اللّه تعالى: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ العبيد لا ينتفعون كلُّهم بالنَّظر في السَّماء، ولا يتذكَّرون اللّه تعالى عند تعاطيهم نعمَه والاستفادةِ بها، فإنَّما الذي يحصل منه ذلك، هو العبدُ المنيبُ، أي: (الرّاجعُ إلى الحقِّ بطاعة اللّه)، فإذا انحرف، أو شَغَله شاغلٌ؛ ابتدر الرجوعَ إلى ما كان فيه من الاستقامة والامتثال، فلا يفارقه حالُ الطّاعة، وإذا فارقه قليلًا؛ آبَ إليه، وأنابَ[2]، ويمكن أن يكون معناه: (الرّاجع إلى التَّفَكُّرِ والتَّذكُّرِ والنَّظرِ في الدلائلِ)[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 411.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 291.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 129.

﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۝١٠﴾ [ق: 9 - 10]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلهما:

الانتقالُ من بيانِ المظاهِرِ الخاصَّة إلى بيان الأدلَّـة المشتَرَكة

بعد أن بيَّنت الآياتُ السابقةُ مظاهِرَ قدرة الله في السماء والأرض؛ ناسب بيانُ مظاهرِ قدرتِه تعالى فيما بينهما، بإنزال المطر من السماء من فوق، وإخراج النبات من الأرض من تحت[1]، وهذا الإنزالُ والإنباتُ إنَّما هما آثارٌ من آثارِ تلك المصنوعات العظيمة - السَّماءِ المبنيَّة والأرضِ الممدودة - وفيهما آياتٌ جليلة، تَتَجَدَّدُ على مرور الدَّهر، تحيا، ثم تموتُ، ثمَّ تحيا دأبًا[2]، وفي ذكر المطر والنَّبات شروعٌ في بيان كيفيَّة ما ذُكِر من إنباتِ كلِّ زوجٍ بهيج[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّبَٰرَكٗا﴾: (برك) أصلٌ يدلُّ على ثباتِ الشيء[4]، والبرك: صدر البعير، وإن استعمل في غيره، ويقال له: بركة، وبرَكَ البعير: ألقى بركه، والبَرَكةُ: ثبوت الخير الإلهيِّ في الشيء، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: 96]، وسُمّي بذلك لثبوت الخير فيه ثبوتَ الماء في البِرْكة، والمُبارك: ما فيه ذلك الخير، وعلى ذلك قوله تعالى هنا: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا﴾، وبَرَكة ماءِ السماء هي ما نبَّهَ عليه قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ [الزمر: 21][5].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 129.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 291.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 326.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برك).
(5) الراغب، مفردات القرآن: (برك).

2) ﴿جَنَّٰتٍ﴾: (جنن) أصلٌ يدلُّ على السَّترِ والتَّستُّر، فالجَنَّةُ ما يَصيرُ إلَيهِ المُؤمنون في الآخِرَة، وهوَ ثَوابٌ مَستورٌ عَنْهُمُ اليَوْمَ[1]، والجنَّة في الأصل: كلُّ بستانٍ ذي شَجَرٍ يَسْتُرُ بأشجارِه الأرض، والجمع: جنّات، قال ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ﴾ [سبأ: 15]، وقال: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سبأ: 16]، وقال أيضًا: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ [الكهف: 39][2]، وهو المقصود هنا.

3) ﴿وَحَبَّ﴾: (حبب) أصلٌ يدلُّ على تجمُّع الدَّقيق أو اللَّطيف مكتنِزًا معه[3]، كالحَبَّة مِنَ الشَّيءِ ذي الحَبِّ، فالحَبُّ مَعْروفٌ مِنَ الحِنْطَةِ والشَّعيرِ، وكُلُّ شَيْءٍ له حَبٌّ فاسْمُ الحَبِّ منه: الحِبَّةُ، فَأمّا الحِنْطَةُ والشَّعيرُ؛ فَحَبٌّ لا غَيْرَ، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ﴾ [البقرة: 261]، وقال: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 59]، وقوله هنا: ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾، معناه: الحِنطة وما يجري مجراها ممّا يُحْصَدُ[4].

4) ﴿ٱلْحَصِيدِ﴾: (حصد) أصلٌ يدلُّ على قَطْعِ الشَّيْءِ، يُقال: حَصَدْتُ الزَّرْعَ وغَيْرَهُ حَصْدًا، وهَذا زَمَنُ الحَصادِ والحِصادِ[5]، والحَصد: جَزُّك البُرَّ ونحوَه من النَّبات، والحَصيد والحَصَد محرَّكة: الزرعُ والبُرُّ المحصود بعدما يُحْصَد، قال تعالى: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ [يوسف: 47]، وقال: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ﴾ [الأنعام: 141]، أي: يوم حَصْدِه وجزازِه، وقوله هنا: ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ ممّا أضيف إلى نفسِه[6].

5) ﴿وَٱلنَّخْلَ﴾: (نخل) أصلٌ يدُلُّ عَلَى انتِقاءِ الشَّيْءِ واختياره، يُقال: انْتَخَلْتُهُ؛ إذا اسْتَقْصَيْتُ حَتَّى أَخَذْتُ أفْضَله، والنَّخْلُ واحدَتُه النَّخلَة، وهو شجر التَّمر المعروف، سُمّيَ به؛ لأنَّه أشْرَفُ كُلِّ شَجَرٍ ذي ساقٍ[7]، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ [الأنعام: 99]، وقال هنا: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنّ).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (جنّ).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حبب - حبحب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حبّ)، والرّاغب، مفردات القرآن: (حبّ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حصد).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حصد).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نخل).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نخل).

6) ﴿بَاسِقَٰتٍ﴾: (بسق) أَصْلٌ يدلُّ على ارْتِفاعِ الشَّيْءِ وعُلوِّه، يُقالُ: بَسَقَتِ النَّخْلَةُ بُسوقًا؛ إذا طالَت، وكَمُلَت، قال تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾، أيْ: طَويلاتٍ[1].

7) ﴿طَلْعٌ﴾: (طلع) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى ظُهورٍ وبُروزٍ، يُقالُ: طَلَعَتِ الشَّمسُ طُلوعًا ومَطْلَعًا، وطَلْعُ النَّخْلَةِ هوَ نَورُ النخلة ما دام في الكافور، قال تعالى: ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾[2].

8) ﴿نَّضِيدٌ﴾: (نضد) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى ضَمِّ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ في اتِّساقٍ وجَمعٍ، مُنْتَصِبًا أو عَريضًا، يُقال: نَضَدْتُ الشَّيْءَ بَعْضَهُ إِلَى بَعْضٍ مُتَّسِقًا أو مِنْ فَوْقٍ[3]، والمعنى المحوري: رَكْم الأشياء بعضِها فوق بعض مع امتساكها طبقاتٍ على أوضاع معيَّنة أو منتظِمة، كأنضاد الجبال والسحاب، وكالحَشيَّة ونَضْدِ الطوب على الميِّت، قال تعالى: ﴿وَطَلْحٖ مَّنضُودٖ ۝٢٩﴾ [الواقعة: 29]، فقوله تعالى: ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ معناه: مُنتَظِم في عثاكيلَ، ثمَّ في عراجين[4].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

إنبات الحَبِّ والنَّخل من المظاهِرِ الدّالَّةِ على البعث

تُلْفِتُ الآيتان أنظارَ النّاسِ بصفةٍ عامَّةٍ - وأنظارَ المشركين بصفةٍ خاصَّةٍ - إلى أنَّ اللّه تعالى هو الذي أنزل من السماء ماءً كثيرَ الخَيرِ والبركة، وافِرَ النَّفعِ والعطاء، فأنبت منه جنّاتٍ وعيونًا، وزروعًا وكرومًا، وأخرج به حبَّ الزَّرعِ الذي يُحصَد، كالبُرِّ والأرز والشعير وغيره، وتَخُصُّ بالذِّكر والتَّنبيه النَّخلَ الباسقة ذاتِ الأطوال الفارعة، والطلعَ المنضود الذي صُفَّ بعضُه فوقَ بعض

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بسق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طلع)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (طلع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نضد).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نضد).

بنظام دقيق[1]، كلُّ ذلك ليوقِنوا بأنَّ مَنْ سَهُلَ عليه ذلك كلُّه؛ يَسهُلُ عليه إحياءُ الموتى وبعثُهم؛ ليذوقوا جزاءَ أعمالهم.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الواو وارتباطُها السّياقيُّ:

تنزيلُ الماءِ من السماءِ آيةٌ باهرةٌ ودلالةٌ قاهرة

الواو في قول اللّٰه سبحانه: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا﴾؛ لعطف ما بعدها على جملةِ: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾، جيء بها للتَّنبيه على أنَّ إنزالَ الماء من أبهَرِ الآيات وأدلِّها على أنَّ مُنزِلَها أجلُّ من أن يُشَكَّ في قُدرتِه على إحياء الإنسان بعدَ موته متى شاء.

بلاغة التعبير بصيغة (نَزَّلنا):

إنزالُ الماء شيئًا فشيئًا تحقيقٌ للمنفعة ودفعٌ للمضرَّة

جاء التَّعبير بفعل التَّنزيل مُضَعَّفًا في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا﴾، ولم يقل: (أنزلنا)؛ للدَّلالة على أنَّ إنزالَ المطر يَحدُث شيئًا فشيئًا في أوقاتٍ مختلفة على سبيل التَّقاطر بما يُناسب المصلحة، بما له من النقل والنبوع والنفوذ، ولو نَزَل دُفعةً واحدة؛ لأهلك ما نَزَل عليه، فزالت المسرَّةُ، وعادت المَنفَعةُ مَضرَّة[2]، وجيء به مُسنَدًا إلى ضمير العظمة لما فيه من الدلالة على عظيم قدرة اللّٰه على كلِّ شيءٍ، بما في ذلك الإحياءُ والبعثُ، ففي الفعل بيانٌ لما يكون عليه الواقعُ، وما يستتبعه من المنَّة العظيمة، الدّالَّةِ على الحكمة الرَّبّانيَّة في الخلقِ.

وجهُ العدولِ إلى الخَبَر:

الانتقال بين الأساليب مُرونةٌ في الخطاب، وتَمَكُّنٌ في الإقناع

غيَّر النظمُ الكريم طريقةَ الكلام من أسلوب الاستفهام - الذي من جنسِ الإنشاء في قول اللّٰه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ﴾ - إلى أسلوبِ الإخبار بقوله سبحانه: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا﴾؛ إيذانًا بتبديل المراد؛ ليَكونَ منه تخلُّصٌ إلى الدَّلالة

(1) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 519.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 411.

على إمكان البعث في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾[1]، بأجمل تعبيرٍ وآنَقِ أسلوبٍ، كما أنَّ الانتقالَ من أسلوبِ الاستفهامِ إلى الإخبار هو انتقالٌ من تحريك الذهن للتَّفكُّر، إلى سَردِ الأخبار التي هي آلة التَّفكُّر ممّا يُشاهده النّاس.

معنى ﴿مِنَ﴾ ودلالتُها:

حرف ﴿مِنَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ مُتَعلِّق بفعل التنزيل، وهي لابتداءِ الغايةِ، أي: إنَّ اللّه نزَّل ماءً، ابتداءً من السَّماء، مُنتَهيًا إلى الأرضِ.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور:

لفتُ الأنظارِ إلى مصدرِ الماءِ لاستحضارِ صفةِ القاهريَّة

قُدِّم ذكر الجارِّ والمجرور ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على المفعول ﴿مَآءً﴾، في قول اللّه تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾؛ لِلَفتِ الأنظار إلى ما في نزول الماء مبتدئًا من السماء من إعجازٍ دالٍّ على عظيم قدرة اللّه؛ إذ السَّماءُ هي "المحلُّ العالي الذي لا يُمسَك فيه الماءُ عن دوام التقاطُر إلّا بقاهرٍ"[2]، وفيه دعوةٌ للتَّأمُّل في السَّماءِ وما يأتي منها من رزقٍ سماويٍّ، فلا يكون إلّا بقدرةِ صاحب العلوِّ، القاهرِ فوقَ عبادِه.

غَرَضُ تنكيرِ الماء:

الماءُ النازلُ من السماءِ كثيرٌ يعمُّ الأرضَ كلَّها

جيء بالمفعول به نكرةً في قول اللّه تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾؛ لِما يفيده التنكيرُ من التكثير والتعميم، أي: (ماءً كثيرًا يعمُّ الأرض كلَّها)، فكلُّ الماء النازلِ من السماء إلى الأرض في جميع الأماكن والأزمان، لا يُمسِكُه إلّا اللّه، ولا يَسمح بنزوله حسب المنفعة والمصلحة إلّا اللّه تعالى؛ ومَنْ يفعل ذلك، ويقدر عليه؛ فإنَّه يقدر على البعث والحساب من باب أولى.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 291.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 411.

فائدةُ وصف المفعول:

وَصَفَ النظمُ الكريمُ المفعولَ به بالبركة في قول اللّه تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا﴾؛ للدّلالة على أنَّه ليس مجرَّدَ ماءٍ، بل هو ماءٌ عظيمُ البركات، كثيرُ الخيرات، جمُّ المنافع؛ لما يترتَّب عليه من إنبات الحبوب والأعناب والنخيل، وفي هذا استدلالٌ بتفصيل الإنبات الذي سبق إجمالُه في قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾؛ لما فيه من سَوقِ العقول إلى التأمُّل في دقيق الصُّنع لذلك الإنبات، وأنَّ حصولَه بهذا السَّبَبِ وعلى ذلك التَّطَوُّرِ أعظمُ دلالةً على حكمة اللّه وسعة علمه ممّا لو كان إنباتُ الأزواج بالطَّفرة؛ إذ تكون حينئذٍ أسبابُ تكوينها خفيَّةً؛ فإذا كان خلقُ السماوات وما فيها، ومدُّ الأرض، وإلقاءُ الجبال فيها دلائلَ على عظيم القدرة الرَّبانيَّة لخفاء كيفيّات تكوينها، فإنَّ ظهورَ كيفيّات التكوين في إنزال الماء، وحصول الإنبات والإثمار، دلالةٌ على عظيم علم اللّه تعالى وقدرته[1].

المـاءُ الـنـازلُ من السماءِ عظيمُ الـبركـاتِ، كثيرُ الـخـيراتِ، جمُّ المنافعِ

نوع الفاء ودلالتها:

الفاء في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ﴾ حرفُ عطفٍ يفيد التسبُّبَ والتعقيب، أي: إنَّ نزول الماء من السماء يترتَّبُ عليه إنباتُ الجنّاتِ وحبِّ الحصيد على وجهٍ من الوكادة والسُّرعة، الدالَّةِ على عظيمِ إرادةِ اللّه تعالى.

غَرَض الإسنادِ إلى ضَمِيرِ العَظَمة:

جيء بفعل الإنبات مُسْنَدًا إلى ضمير العظمة، في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ﴾؛ ليَلفِتَ الأنظارَ إلى ما في إخراج النَّبات من باطن الأرض من إعجازٍ يُثير العَجَبَ والدَّهشةَ[2]، كما أنَّه صورةٌ من

إسـنـادُ الإنبات إلـــى ضـمـير العظمة كإسناد الإحـيـاء سـواء بسواء

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 292.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 412.

صوَرِ الإحياء الذي لا يَقدِر عليه إلّا اللّه، والتي تؤكِّد قدرتَه تعالى على بعث الإنسان بعد أن يَصيرَ ترابًا، فإسنادُ الإنبات إلى ضمير العظمة يومئ إلى إسناد الإحياء إلى صاحب العظمة كذلك، فهذا كهذا في اعتبار العقلاء.

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرور:

بيانُ مظهريَّة بركة الماء في الجنّات

قُدِّم ذكر الجارِّ والمجرور - المُعَبَّرِ فيه بباء السببيَّة - على المفعول به في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ﴾؛ لبيان مَظهَرِ بركة الماء، وتوضيح عظيم نفعه، وبيانِ كونه سببًا في إحياء الأرض الميتة، التي لا حياةَ فيها؛ لتقوية دلالة إحياءِ مَنْ مات من النّاسِ وبعثِه.

نكتةُ تنكيرِ المفعول وجَمعِه:

تعظيمُ خيراتِ الماء، والدلالة على كثرتها وتنوُّعِها

عبَّر النظمُ عن مفعول فعل الإنبات بالجَنّات نكرةً منوَّنًا مجموعًا، في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ﴾؛ لما يفيده الجمع والتنكير والتنوين من التفخيم والتكثير، الذي يؤكِّد بركةَ الماء وتعدُّدَ خيراته وتنوُّعَها، والمعنى: (حدائقَ عظيمةً من الثَّمَر والشَّجَرِ والزَّرْعِ وغيره ممّا تجمعه البساتينُ فتجِنُّ - أي: تَستُرُ - الداخلَ فيها)[1]، وهذا الجمع المنكَّر دليلُ الانتشار والكثرة الوفيرة من الخيرات النابتة في الأرضِ؛ بسبب الماء المبارك النازل من السماءِ.

معنى الواو ودلالتُها:

الجنّاتُ ذات منافع عامَّة والحب ذو منفعةٍ خاصَّة دائمة

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾؛ لعطف ما بعدها على ﴿جَنَّٰتٖ﴾، على أنَّ كليهما من آثار إنزال اللّه تعالى الماءَ من السماء، وفي العطف بها دلالةٌ على أنَّ بركة الماء تشمل الجنّات الكثيرات، باعتبارِ تنوُّعِ منافعها، وتعدُّدِ أغراضها، وتشمل أيضًا حبَّ الحصيد الذي ينتفع منه الإنسان باعتبارِه قوتًا مقصودًا؛ فإنَّ حب الحصيد يقصده الإنسان لما فيه من خيرٍ عميم، ولا يكون في الجنّات.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 412.

دلالةُ إضافةِ الحَبِّ إلى الحَصيدِ:

جيء بالمعطوفِ مُضافًا في قولِ اللّه: ﴿وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ - والإضافة بمعنى (مِن)، أي: وحَبٍّ مِنَ الحصيد - للإشارة إلى اختلاف أحوال استحصال ما ينفع الناس من أنواع النَّبات، فإنَّ الجنّاتِ تُستَثمَرُ وأصولُها باقية، وأمّا الحبوبُ؛ فتُستَثمَرُ بعد حَصْدِ أصولها، وتَبقَى في ذلك الحصيد منافعُ للأنعام تأكله بعد أَخْذِ حبِّه، كما قال تعالى: ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٣﴾ [النازعات: 33][1].

الحَبُّ يُستخرج مـن الحصيد بعد تمامه

توجيه عطف الخاصِّ على العامِّ:

الواو في جملة: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ﴾ لعطف ما بعدها على ما قبلها عطفَ الخاصِّ على العامِّ؛ إذ يُعَدُّ النَّخلُ مما يندرج في الجنّات، وخُصَّ بالذكر مع تناول الجنّات له؛ لأنَّه أهمُّ الأشجارِ وأفضلُها عند العرب، وثمرُه أكثرُ أقواتهم، ولإتباعه بالأوصاف له، ولِطَلعِه ممّا يثير تَذَكُّرَ بديع قوامِه، وأنيقِ جماله[2]، فالنَّخلُ أعجبُ النَّبات، وله من المنافع ما لا يساويه فيها شجرٌ، وفي ذكرِ بعض أفرادِ العامِّ بيانُ أنَّ الماء يكون سببًا في إنبات الزَّرع القصير والطويل، والذي يعدُّ قوتًا للإنسان والحيوان[3].

النخلُ أفضلُ الأشجار وأعجبُها، وأغلبُ قوتِ العَرَبِ منه

سِرُّ التَّقييد بالحالِ المُفْرَدة:

قولُهُ: ﴿بَاسِقَٰتٖ﴾ حالٌ من النَّخل، في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ﴾، ومعناه: (الطويلات المرتفعات)، وأوثِر التَّقييدُ به للإيماء إلى ما فيه من بديع الخِلقَة، وجمالِ الطَّلعة؛ امتنانًا عليهم واستدلالًا[4] على عظيم قدرة اللّه على الإحياء والبعث، وهو الغرض الذي أُقيمت السورة لإثبات خطأِ المشركين في رفض حصوله،

طولُ النخيلِ دليلٌ على بديعِ الخِلقةِ وجمالِ الطلعةِ وعظيمِ القدرة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 292.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 327، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 292.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 412.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 292.

وتكذيب مَنْ أنذرهم بوقوعِه، فإنَّ طولَ النخيل دليلُ التَّعمير، والعنايةِ من العليمِ القدير.

دلالة التعبير بالحال المُرَكَّبة:

شجرُ النخيلِ جميلُ الشَّكلِ عظيمُ النَّفعِ

قولُ اللّه تعالى: ﴿لَّهَا طَلۡعٌ نَّضِيدٌ﴾ جملةٌ في محلِّ نصب حال من النَّخْل بطريق الترادف، أو من الضمير في ﴿بَاسِقَٰتٍ﴾ على طريق التداخل[1]، وفي التعبير بها بعدَ الحال الأولى - ﴿بَاسِقَٰتٍ﴾ - دلالة على أنَّ النخلَ يَجمَع بين حُسْنِ المنظر، وعظيمِ النفع، "فزيادة هذه الحال للازدياد من الصفات الناشئة عن بديع الصنعة، ومن المِنَّة بمحاسنِ منظر ما أوتوه"[2].

غرض تقديم الخبر في الجملة الحالية:

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿لَّهَا﴾ الواقعُ خبرًا في جملة: ﴿لَّهَا طَلۡعٌ نَّضِيدٌ﴾ على المبتدأ ﴿طَلۡعٌ﴾؛ للاهتمام ببيان ما يمتاز به النخيل من الجمع بين طول السّاق، واصطفاف الثمر، وهو ما لا يتحقَّق في أنواع النبات الأخرى.

نكتة تنكير المبتدأ:

أوثر تنكيرُ المبتدأ ﴿طَلۡعٌ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿لَّهَا طَلۡعٌ نَّضِيدٌ﴾؛ لما يفيده من تعظيم التَّمر وتفخيمه، وللدَّلالة على عمومه وشموله كلَّ أنواع طلع النَّخل وأصنافه.

فائدةُ الوصف بنَضيد:

إخـراجُ طـلعِ النـخـيلِ من العدم إيماءٌ إلى إخـراجِ الـنّـاس من الأرض

وَصَفَ النظمُ الكريم الطَّلعَ بأنَّه ﴿نَّضِيدٌ﴾ على وزن (فَعيل) بمعنى (مفعول)، في قول اللّه تعالى: ﴿لَّهَا طَلۡعٌ نَّضِيدٌ﴾؛ للدلالة على أنَّ طلع النخيل مُصَفَّفٌ بعضه فوق بعض ما دام في الكُفُرَّى، وهو القشر الذي يغطي الطلع على أحكَمِ ما يكون وأوثَق، والمعنى:

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 285.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 293.

(منضودٌ بعضُها فوقَ بعض في أكمامها)، كما في سنبله الزرع[1]، وطلعُ النَّخل مخالِفٌ لعادة أكثر الأشجار، فإنَّ ثمارَها مفردةٌ، كلٌّ حبَّة منفردةٌ عن أختها[2]، فمن أغراض ذكر الطَّلع ووصفه بالنَّضْد التَّعجيب من جمال الشَّكل، وبديعِ المَنظَر الذي يكون عليه طلع النخيل عند خروجه؛ للإيماء إلى أنَّ من أخرج هذا الطلع من العدم على وجه يشبه خلق الإنسان، وجعله على هذا الشكل الأنيق؛ قادرٌ على إحياء مَنْ مات من الناس بعد أن صاروا ترابًا.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 129.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 412، 413.

﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ١١﴾ [ق: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقال من سرد الأدلَّة إلى بيان الغاية

بعد أن بَيَّنتِ الآيتان السابقتان ما في إنزال المطر وإنبات الزرع بعامَّة، وما في إنبات النخيل بخاصَّة من أوجُهِ النِّعمة ودلائلِ القدرة؛ ناسب أن تُبَيِّنَ هذه الآيةُ حكمةَ الله تعالى من وراء إنزال المطر وإنباتِ الزَّرع[1]، من كونهما رزقًا للعبادِ، به إحياء البلدة الميتة، وفي هذا تمثيلٌ لمقصودِ السياق من إثبات البعث.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رِّزۡقٗا﴾: (رزق) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى عَطاءٍ لِوَقْتٍ، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْهِ غَيْرُ المَوْقوتِ، فالرِّزْقُ: عَطاءُ اللهِ جَلَّ ثَناؤُهُ، يُقالُ: رَزَقَهُ الله رِزْقًا، والاسْمُ الرِّزْقُ[2]، ويقال للعطاء الجاري تارة، وللنَّصيب تارة، ولما يَصِل إلى الجَوفِ، ويُتغذّى به تارة، قال تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة: 172]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ١٠ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ﴾ عُني به الأغذية، ويمكن أن يُحمَل على العموم فيما يُؤكَلُ، ويُلْبَسُ، ويُستَعمَلُ، وكلُّ ذلك ممّا يخرج من الأرض؛ نتيجةَ الماء الذي ينزل من السماء[3].

2) ﴿وَأَحۡيَيۡنَا﴾: (حيي) أصلٌ يدلُّ على خِلافِ المَوْتِ[4]، والحياة تُستعمَل على أوجهٍ، منها القوَّة النّامية الموجودة في النَّبات والحيوان، فيُقال: نباتٌ حَيٌّ، قال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 336.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رزق).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (رزق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حيّ).

[الحديد: 17]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: 30]، وقال هنا: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾[1].

3) ﴿بَلْدَةً﴾: (بلد) أَصْلٌ يدلُّ على صَدْرِ الشَّيء، يُقالُ: وضَعَتِ النّاقةُ بَلْدَتَها بالأَرْضِ؛ إذا بَرَكَت، والبَلَدُ: صَدْرُ القُرَى[2]، والمكان المحيط المحدود المتأثّر باجتماع قطّانه وإقامتهم فيه، وجمعه: بِلاد وبُلْدان، قال تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾ [البلد: 1]، وقال: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ [سبأ: 15]، وقال: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ [الزخرف: 11][3]، والمراد بالبلدة هنا: الأرض.

4) ﴿مَّيْتًا﴾: (ميت) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى ذَهابِ القوَّةِ مِنَ الشَّيْءِ، ومنه المَوْتُ: خِلافُ الحَياةِ، وأنواع الموت بحسب أنواع الحياة، فمنها: ذهابُ القوَّة النامية الموجودة في الإنسان والحيوانات والنَّبات، نحو قوله تعالى: ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: 19]، وقوله هنا: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾[4].

5) ﴿ٱلْخُرُوجُ﴾: (خرج) يَدُلُّ على النَّفاذ عَنِ الشَّيْءِ، يُقالُ: خَرَجَ يَخْرُجُ خُروجًا[5]، أي: بَرَز من مقرِّه أو حاله، سواء كان مَقَرُّه دارًا، أم بلدًا، أم ثوبًا، وسواء كان حالُه حالةً في نفسه، أم في أسبابه الخارجة، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: 21]، وقال: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ﴾ [الأعراف: 13][6]، والمراد به هنا: البعث والنشور.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

مقصود إنزال الماء رزقُ العبادِ، وإحياءُ الأرض، والتمثيلُ للبعث

تُبيِّن الآيةُ الكريمةُ أنَّ الله تعالى أنزل الماءَ من السماء، فأنبتَ به ما أنبت من الجنّات والنخيل؛ ليكون رزقًا نافعًا للعباد، وليُحْيِيَ

(1) الراغب، مفردات القرآن: (حيي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلد).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (بلد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (موت)، والرّاغب، مفردات القرآن: (موت).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خرج).
(6) الراغب، مفردات القرآن: (خرج).

به البلادَ المُجدِبةَ، والأراضيَ الخاليةَ من الزروع والثمار، وليدلِّلَ به على قدرته سبحانه على إحياء الأمواتِ وبعثهم؛ لأنَّ إحياءَ مَن مات وبعثَه يماثِلُ إخراجَ الزرعِ من باطنِ الأرضِ تمامًا بتمام(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع ﴿رِّزْقًا﴾ الإعرابي ودلالاته:

إنـــزالُ المـــاءِ بـمـقـاصِـدَ ومصالِحَ عاجلةٍ وآجلة

قولُ اللَّه تعالى: ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِۖ﴾ يحتمل نصبُه على أنَّه مفعولٌ لأجله، والمعنى: (فعلنا ما فعلنا من إنبات الجنّات وحبِّ الحصيد والنخلِ ذاتِ الطلعِ النضيدِ؛ ليكون ذلك رزقًا يقتاتُ عليه العباد، ويستعينون به للقيام بمَهامِّهم وأعمالِهم)، ويحتمل أن يكون منصوبًا على أنَّه مفعولٌ مطلقٌ لفعل محذوفٍ تقديرُه: (أنبتنا رزقًا)، وفيه تأكيدٌ؛ لأنَّ إنبات الرزق وإحياءَ البلاد الميتة والأراضي المُجدِبَةِ هدفٌ رئيسٌ من وراء إنزال اللَّه تعالى المطر على دفعات من السَّماء، وأنَّ إمساكَه وتنزيلَه لا يكون خَبطَ عشواء، وإنَّما يحصلُ بمقاديرَ لمقاصدَ تَصُبُّ في مصلحة النّاس، ويمكن أن يكون منصوبًا على الحاليَّة، أي: (مرزوقًا) أو (ذا رزقٍ للعباد)، فالمعنى: أنَّ هذه الحالَ ثابتةٌ لنزول المطر، ولا ينفكُّ عنه في الأغلبِ الأعمِّ.

نكتةُ تقديم ذكرِ الرِّزق:

مراعاةُ مصالح المـخـاطَـبـين حكمةُ القرآن في سياسة الخطابِ

آثر النظم الكريم ذكرَ الرِّزق على ذِكرِ البعث، في قول اللَّه تعالى: ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ باعتبارِه مقصدًا لنزول الماء من السَّماء؛ لكونه أكثرَ منافعهما وأعظمَها في الامتنان على الخلق(2)، فإنَّ الخلقَ إنَّما يتَّجهون صوبَ أرزاقهم ومنافعهم ومصالحهم، فإذا اطمأنّوا بها؛ انتلقوا للمصالح الأخرويَّة، فكان

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 366.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 413.

تقديمُ الرزق على ذكر الخروج من الحكمة المُعينَة على استدراج النّاس للحقِّ بسياسة الخطاب، وحُسنِ التَّجاوُب.

نكتةُ صيغةِ الجمع:

آثر النَّظم الكريم جمع العبد على صيغة (العِبادِ)، في قول اللّٰه تعالى: ﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ﴾؛ ليشمل هذا الاسم جميعَ النّاس، بخلاف الجمع (العبيد) الذي يُطلق على المملوكين في الأغلب الأعمِّ[1].

معنى الواوِ ودلالتُها:

الواو في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾؛ لعطف فعل الإحياء على الاسم المُشتَقِّ الذي هو بمعنى الفعل، والمعنى: (رَزَقْنا العبادَ وأحْيَيْنا)، ووجه إيثار فعل الإحياء بالعطف كونُه أعظمَ مذكِّرٍ للبُصراء بالبعث ولجميع صفات الكمال[2].

بلاغة العدول إلى الفعل:

الـرِّزق شامـلٌ للعبادِ بخلاف إحياءِ الأرض

آثر النَّظم الكريم أن يكونَ المعطوفُ فعلًا لا مصدرًا، في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾، فلم يقل: (وإحياءً)؛ وذلك لبيان أنَّ إحياءَ البلدات الميتة يكون في أماكنَ دون أخرى، ويقع في بلداتٍ دون أخريات، بخلاف الرِّزق، فهو شاملٌ للعبادِ جميعًا، فكان المجيء بالمصدرِ موحيًا بالشمول، والتَّعبيرُ بالفعل الماضي موحيًا بالإحياء الذي يكون تابعًا للحكمة الإلهيَّة.

بلاغةُ الاستعارة في الإحياء:

التَّصريحيَّة تنطقُ بالمشبَّه به حتى يُعامَلَ معاملةَ الأصل

في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾ استعارةٌ تصريحيَّة، شُبِّه فيها إخراجُ النبات من الأرض الجَدباءِ بالإحياء بجامعِ الإثمارِ وظهورِ الآثار في كلٍّ، ثمَّ استُعير الإحياء لإخراج النَّبات من الأرض بعد تناسي التشبيه، وادِّعاءِ أنَّ المشبَّه فردٌ من أفراد المشبَّه به على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 293.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 413.

سبيل الاستعارة التصريحيَّة التبعيَّة، التي تُبرز أثرَ الماء في الأرض، وتهيِّئُ المتلقّيَ؛ للاقتناع بقدرة اللّه تعالى على إحياءِ الموتى وبعثِهم.

بلاغةُ التَّعبير بصيغة الماضي:

آثر النظم الكريم التَّعبيرَ بفعل الإحياء ماضيًا، في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾؛ إشارةً إلى سهولته وتحقُّقه، بدليل اعتياد الناس على حصوله، ورؤيتِهم ذلك كثيرًا في أماكِنَ لا حَصرَ لها.

غرضُ صيغةِ المفعول:

آثر النَّظمُ الكريم تأنيثَ المفعول وتنكيرَه، من قول اللّه تعالى: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾ دون أن يُقال (بَلَدًا)؛ وذلك للدَّلالة على أنَّ هذه الأرضَ في غاية الحقارةِ والضَّعفِ والحاجةِ إلى الماء والخُلوِّ عنه(1).

بلاغة الاستعارة في الصِّفَة:

تـقـريـرُ صـورِ مشاهدَةٍ لإحياء الميت

في وصف البلدة بالموت من قول اللّه تعالى: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾ استعارةٌ تصريحيَّة؛ إذ شُبِّه فيه جدبُ الأرض وعدمُ إنباتِها بالموت بجامع انعدام ظهور الآثار(2)، ثمَّ استُعير الموتُ للجدبِ بعد تناسي التشبيه وادِّعاء أنَّ المشبَّه فردٌ من أفراد المشبَّه به على سبيل الاستعارة التصريحيَّة التي تؤكِّد بركةَ الماء وعظيمَ نفعه، وتهيِّئُ المتلقّيَ كذلك للاقتناع بقدرة اللّه تعالى على إحياءِ الموتى وبعثِهم.

علَّة فصل الجملة:

إحـيــاءُ المـوتى في قـــدرة الـلـه كإحياءِ المَوَات

جملة ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ تحتمل أن تكونَ مستأنفةً؛ لتقرير قدرة اللّه على إحياء الموتى وإخراجهم، وسهولةِ ذلك عليه سبحانه، كما سهُل عليه إنزالُ الماء من السماء وإخراج النبات به بصورةٍ يألفها الناس، ويَعهَدونها، وتحتمل أن تكونَ اعتراضًا - على رأي من يجيز

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 413.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 294.

الاعتراضَ في آخر الكلام - لِلَفْتِ الأنظار إلى أنَّ إحياءَ الموتى يماثلُ في حقيقته إخراجَ النَّبات من باطن الأرض[1].

بلاغة التَّشبيه في الجملة:

إحـيـاءُ المَـوتَى كإخراجِ النَّباتِ من الأرضِ

الكاف في قول اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ حرفُ تشبيهٍ يأتي بعده المشبَّهُ به، وهو هنا ما يعود إليه اسمُ الإشارة (ذَلِكَ)، فالبيانُ الكريمُ شبَّه إحياءَ النّاس بعد مَوتِهم وبَلائِهم بإحياء الأرض بعد مَوتِها وجَدبِها، ووَجهُ الشَّبَهِ هو أنَّ كِلَيهِما حصل بعد عدم، كما أنَّ كليهما سهلٌ على اللّه تعالى وهيِّن، فكما يسهل عليه سبحانه إخراجُ النبات من الأرضِ الجدباءِ يسهل عليه إحياءُ الموتى بعد أن صاروا ترابًا، سواء بسواء.

نكتة استعمال اسم الإشارة للبعيد:

إخراجُ الموتى مثلُ إحـيـاءِ الأرضِ العظيمِ الإبداعِ

آثر النظمُ الكريم استعمالَ اسم الإشارة (ذَلِكَ) الموضوع للبعيد، في قول اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾؛ لتعظيم المُشار إليه وتفخيمه، والإشارةِ إلى علوِّ رتبته في الإبداع وعدم قدرة أحد على فعله، على الرَّغم من كونه أمرًا مألوفًا معتادًا، فهذا المثلُ المشاهدُ من عظيم قدرته بالحسِّ أعظمُ ممّا أنكره الجاحدون للبعث[2]، والمعنى: (إخراجُ الموتى مثلُ إحياءِ الأرضِ العظيمِ الإبداع)[3].

معنى تعريفِ ﴿ٱلۡخُرُوجُ﴾:

التعريف في قول اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ للعهد، أي: (خروجُ الناس من الأرض)، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا﴾ [المعارج: 43]، فالخروج صار كالعَلَم بالغَلَبة على البعث[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 294.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 336.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 294.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 294.

بلاغةُ ذكرِ الخروج:

الأنسبُ لسياقِ الـسـورةِ لفظُ الإخراجِ لارتباطِه بإخراجِ النبات

الخروجُ في الأصل هو النَّفاذ عَنِ الشَّيءِ، يقال: خَرَجَ يَخْرُجُ خُروجًا، أي: برز من مقرِّه أو حاله، سواء كان مقرُّه دارًا، أم بلدًا، أم ثوبًا، وسواء كان حالُه حالةً في نفسه، أم في أسبابه الخارجة، والمراد به في قول اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾: البعث والنشور، وأصل البَعْث إثارةُ الشيء وتوجيهه، يقال: بَعَثْتُهُ فانْبَعَثَ، ويختلف بحسب اختلاف ما عُلِّق به، فَبَعَثْتُ البعير: أثرته، وسيَّرته، وبعثُ الموتى يعني: إخراجهم وحشرهم إلى القيامة[1].

ولما كان قصدُ السورة إقامةَ الأدلَّة على قدرة اللّه على بعث الموتى وإعادتهم للحياة؛ أوثِر التعبيرُ بكلمة ﴿ٱلْخُرُوجُ﴾؛ لمناسبتها الدليلَ الذي وردت في سياقه، وهو دليلُ إخراج النبات من باطن الأرض الجدباء، ذلك أنَّ كِلا الإحياءين يُعَدُّ إخراجًا لِما في باطن الأرض وخروجًا منها.

(1) الراغب، مفردات القرآن: (بعث).

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ١٢ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ١٣ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ١٤﴾ [ق: 12 - 14]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من ذكر التَّكذيب المعاصِر بالبعث إلى التَّذكير بتكذيب السّابقين

لَمّا ذكرت الآياتُ السّابقةُ تكذيبَ المشركين لرسولِ اللّه ﷺ؛ ناسب ذكرُ تكذيب الأقوام السّابقين؛ لتُسَلّيَه عمّا أصابه من تكذيب قومه، وللتنبيه بأنَّ حالَه كحالِ مَنْ تقدَّمه من المرسَلين، كُذِّبوا، وصَبَروا، فأهلك اللّه مكذِّبيهم، ونصرَهم[1].

فلمّا ذكرت الآياتُ السابقةُ أنَّ المشركين؛ كذَّبوا الرسولَ الذي اختاره اللّه مِن بينهم، وأرسلَه إليهم؛ لينذرَهم بالبعث والحساب، ويحَذِّرَهم من العقاب والعذاب؛ ناسب أن تُبَيِّنَ هذه الآياتُ أنَّهم ليسوا بدعًا في الضلال والتكذيب، فهُم يَسيرون على نهجِ مَنْ سبقوهم مِن المشركين، وأشهرُهم عند العرب وفي العالمين قومُ نوحٍ؛ لأنَّهم أوَّلُ قوم كذَّبوا رسولهم، وفرعونُ الذي كذَّب موسى، وقومُ لوط كذَّبوه، وهؤلاء معروفون عند أهل الكتاب؛ أمّا أصحابُ الرسِّ وعادٌ وثمودُ وأصحابُ الأيكة وقَوْمُ تُبَّعٍ؛ فهُم من العرب[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلرَّسِّ﴾: (رسس) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى ثَباتٍ، يُقالُ: رَسَّ الشَّيْءُ: ثَبَتَ، والرَّسيسُ: الثّابِتُ، وأصل الرَّسِّ: الأثر القليل الموجود في الشيء، يقال: سمعت رَسًّا من خبر، ورَسَّ الحديثُ في نفسي، ووجد رَسًّا من حُمّى، ورُسَّ الميِّتُ: دُفن وجُعل أثرًا بعد عين[3]، والمعنى المحوريّ:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 132.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 295.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رسّ)، والرّاغب، مفردات القرآن: (رسّ).

النَّفاذُ إلى عُمقِ الشيء أو أثنائه بقوَّة ودِقَّة، يقال: رَسَسْتُ رَسًّا: حفرت بئرًا، ورَسّوه في بئر: دَسّوه فيها، والرَّسُّ هو: كلُّ حَفْر احْتُفِرَ، كالقبر والمعدِن والبئر، والمرادُ بأصحاب الرَّسِّ في الآية: قومٌ رَسّوا داعيَهم إلى الله في بئْر[1]، وقيل: هم أصحاب الأخدود[2].

2) ﴿ٱلۡأَيۡكَةِ﴾: (أيك) أصْلٌ يدلُّ على اجْتماعِ شَجَرٍ[3]، فالأيْكَةُ غَيْضَةٌ تُنْبِتُ السِّدْرَ والأراكَ، ويُقالُ: أيْكَةٌ أيِّكَةٌ، أي: مُثمِرة[4]، وتَكونُ مِنْ ناعِمِ الشَّجَرِ، فالمعنى المحوريُّ: هو التفاف الشجر بعضه على بعض مع نعومة وخِفَّة، كالأيكة الموصوفة، ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾ في الآية قومُ شعيب، فقد كانوا أصْحابَ شَجَرٍ مُلْتَفٍّ[5].

3) ﴿تُبَّعٖ﴾: (تبع) أصْلٌ يدلُّ على التُّلوِّ والقَفْو، يُقالُ: تَبِعْتُ فُلانًا: إذا تَلَوْتَه، واتَّبَعْتَهُ، وأتبَعْتُهُ: إذا لَحِقْتَهُ[6]، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨﴾ [البقرة: 38]، وقوله: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ [الكهف: 66]، وتُبَّعٌ كانوا رؤساء، سُمّوا بذلك لاتِّباع بعضهم بعضًا في الرياسة والسياسة، وقيل: تُبَّعٌ ملك يتبعه قومُه، والجمع التَّبابِعَة.

4) ﴿فَحَقَّ﴾: (حقق) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى إِحْكامِ الشَّيْءِ وصِحَّته، وهو نَقيضُ الباطِلِ[7]، ويقال للفعل والقول بحسب ما يجب، وبقدر ما يجب، وفي الوقت الذي يجب، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [يونس: 33]، وقال: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [المؤمنون: 71][8]، والمراد به هنا الوجوب.

5) ﴿وَعِيدِ﴾: (وعد) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى تَرْجِيَةٍ بِقَوْلٍ، يُقالُ: وعَدْتُهُ أعِدُهُ وعْدًا، ويَكونُ ذَلِكَ بِخَيْرٍ وشَرٍّ، فَأمّا الوَعيدُ؛ فَلا يَكونُ إلّا بِشَرٍّ، يُقالُ: أوْعَدْتُهُ بِكَذا[9]، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: 14]، والمراد به هنا ما وعَد الله من نصرة الرُّسُل عليهم وإهلاكِهم[10].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رسس).
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 132.
(3) الخليل، العين: (أيك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أيك).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أيك).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(8) الراغب، مفردات القرآن: (حق).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعد) جبل، المعجم الاشتقاقي: (وعد).
(10) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 132.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

تحذير المخاطَبين بـذكـر أخـبـار الـسّـابـقـين للاعتبارِ

تهدِّد الآياتُ مشركي مكَّة ومَنْ حولها، وتحذِّرهم[1] من السَّيرِ على خُطا السابقين الذين كذَّبوا رُسُلَهم، وردّوا ما جاؤوهم به من التوحيد وإثبات البعث، حتّى لا ينزلَ بهم مثلُ ما نزل بسابقيهم من العذاب والعقاب، وتضربُ المثلَ بقوم نوح، وأصحابِ البئر المعروفة، وثمود، وعاد، وفرعونَ وقومه، وقوم لوط الذين كانوا إخوانَه، وقوم تُبَّع الحِميَريِّ، وتؤكِّد الآيةُ أنَّ كلَّ هؤلاء كذَّبوا الرُّسلَ فيما أُرسلوا به، وبخاصَّة أمر البعث، فنزل بهم عقابُ اللّه، وحقَّت عليهم كلمةُ العذاب[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ:

التَّكذيبُ طريقُ المـعـانـديـن ومَسلَكُ المناوئين للحقِّ

جملة: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ ناشئٌ عن قول اللّه تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾؛ إذ عقَّبَ بها النظمُ الكريم؛ لبيان أنَّ كفّارَ مكَّةَ ليسوا ببِدْعٍ في الضلال، وأنَّهم كذَّبوا كما كذَّبت أُمَمٌ مِن قَبلِهم[3]؛ تسليةً للنبيِّ ﷺ، وتحذيرًا مِن أن يَنزِلَ بهم من العذاب مثلُ ما نَزَل بسابقيهم.

غَرَضُ تقديمِ الظَّرف:

تسليةُ النَّبيِّ بـذكـر الـسنن الاجتماعيَّة بيانٌ للواقع وطَمأنَةٌ للمَآلِ

جيء بالظرف ﴿قَبۡلَهُمۡ﴾ مُقَدَّمًا على الفاعل: ﴿قَوۡمُ نُوحٖ﴾ اتِّساقًا مع قصد الآيات إلى تسلية الرَّسول ﷺ، وتخفيفِ ما أصابه بسبب تكذيب قومه، ببيان أنَّ أقوامَ الرسل الذين كانوا قبله فعلوا مع رسلهم مثلَ ما فعل قومُه من التكذيب والتشكيك، ولِلَفتِ الانتباه إلى الزمان السابقِ باستغراقه، بأن وقع فيه ما وقع في هذا الزَّمان من التَّكذيب والكفر.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 382، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 414.

(2) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 516.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 295.

الزمان كلُّه قبل المشركين وقع فيه التَّكذيب

نكتةُ إهمال حرفِ الجَرِّ:

أوثِر التَّعبير بالظَّرف غير مسبوق بحرف الجرِّ في قول اللّه تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾، ولم يقل (مِن قبلِهم): لأنَّ هؤلاءِ الأحزابَ المذكورين كانوا لقوَّتهم وكثرتهم كأنَّهم أهلُ المجد قاطبةً، وكأنَّهم قد استغرقوا الزمان المتقدِّم كلَّه كما استغرقوا المكان[1]، ففيه تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ بأنَّه لم يكن أوَّلَ من كُذِّب.

كـفّـارُ مكَّة سائرون على خُطا المكذِّبين، صائرون إلى مصيرهم

دلالةُ الإضمار:

الضميرُ المجرورُ في قول اللّه تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ راجعٌ إلى الكفّار الذين سبَقَ ذكرُهم في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾، وأوثِر التعبير عنهم بالضَّمير دون الظاهر جريًا على الأصل في التعبير عن الاسم الذي سبق ذكره بالضمير، ولِما يفيده الضمير هنا من تحقير شأنهم والدعوة إلى عدم الاكتراث بتكذيبهم؛ لأنَّهم سائرون فيه على منوال من سبقهم ممن حقَّت عليهم كلمة العذاب، كما أنَّه لا توجد نكتة يقتضيها السياق والنظم للإظهارِ.

نكتةُ التَّعبير بالقَوم:

عبَّر النظمُ الكريم عن فاعل التكذيب بالقوم، في قول اللّه تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾؛ للإشارة إلى أنَّهم كانوا من القوَّة بحيث يُمكِنُهم القيام بما يريدون، وكانوا من الكثرة بحيث لا يسع الأفهامَ جميعُ أوصافهم[2].

غَرَضُ الإضافةِ إلى ﴿نُوحٖ﴾:

جاءت إضافةُ القوم إلى اسم نوحٍ عليه السلام، في قول اللّه تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾؛ لأنَّ هؤلاء المكذِّبين لم تكن لهم شهرةٌ يُعرَفون بها، على الرغم من قوَّتهم وكثرتهم[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 414.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 132، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 415.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 415.

نكتةُ تقديمِ ﴿قَوۡمُ نُوحٖ﴾:

بدأ النَّظمُ الكريمُ بقوم نوح في قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾؛ لأنَّهم كانوا أوَّلَ قومٍ كذَّبوا رسولَهم[1]، ثمَّ سار على منهجهم أغلبُ الذين جاؤوا مِن بعدِهم.

قـومُ نـوحٍ أوَّلُ المكذِّبين، وعلى نهجهم سار من بعدهم

سِرُّ عطفِ (أصْحابِ الرَّسِّ):

الواوُ في قول الله تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾؛ لعطف ما بعدها على ﴿قَوۡمُ نُوحٖ﴾، ووجه العطف بينهما اشتراكُهما في تكذيب النَّبيِّ المُرسَلِ إليهم، وتضادُّهما في نوع العذاب الذي أُخذوا به؛ إذ أُخِذَ قومُ نوح بالغرَق، بينما أُخِذ أصحابُ الرَّسِّ بالخَسْف[2].

التَّقابل في نوع العـذابِ بين الغرقِ والخَسْفِ

سِرُّ التَّعبيرِ بأصْحابِ الرَّسِّ:

جاء التَّعبيرُ بأصْحاب الرَّسِّ باعتبارِ اشتهارهم بهذا اللَّقب؛ لأنَّه ممّا قيل فيهم: إنَّهم رَسّوا من دعاهم إلى الله تعالى في بئرٍ، فأصبح لقبًا عليهم، وقيل نسبةً للموضع الذي كانوا يعيشون فيه، أو البئرِ التي حفروها، ورَسّوها[3]، فذُكِر الاسمُ الأشهر لهم، كما أنَّ قوم نوحٍ عُرِفوا بنسبتهم إلى رسولهم.

لا يُخلَّدُ ذكرُ المجرمين إلّا مقترنًا بشنيعِ فَعيلِهم

نكتةُ ذكرِ اسمِ قومِ صالح:

جاء عطفُ ثمودَ على ما سبق في قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ﴾، واختار النَّظمُ اسم القبيلة دون نسبتها إلى رسولها الذي أُرسل إليها - فلم يقل: (قوم صالح) - باعتبار الاسم الأشهر في عصر التنزيل، فإنَّ شهرة الاسم هي الدّاعية إلى استحضار ما نزل بهم من عذاب، فهم يشتركون مع مَنْ ذُكِروا قبلَهم في تكذيب الأنبياء الذين أُرسِلوا إليهم، والتَّشكيك فيما أنذروهم به من البعث والحساب، ولأنَّ آيةَ رسولهم صالحٍ كانت

الاسمُ الأشهَرُ هو المنادي على استحضار عذابِ أصحابه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 414.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 414، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 295.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 132.

من أعظمِ الدلالات على قدرة اللّه تعالى على البعث، ولأنَّ إهلاكهم كان مناسبًا لإهلاك مَنْ كانوا قبلهم[1].

وجهُ عطفِ عادٍ:

عــادٌ أقــربُ الأقــوام لثمودَ في قــوَّة البـدن وسَعة الملك

جاء عطفُ عادٍ على ثَمود في قول اللّه تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ﴾، ووجه العطف بينهما اشتراكُهما في تكذيب الأنبياء الذين أُرسِلوا إليهم، ولأنَّهم كانوا أقربَ الناس إلى ثمودَ في قوَّة البدن وسعَةِ المُلك، ولأنَّ إهلاكهم كان أدلَّ دليلٍ على القدرة، وأقربَ شَبَهًا بهلاك ثمود[2].

وجهُ عطفِ فرعونَ:

جاء عطف فرعون على عادٍ بالواو، في قول اللّه تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرۡعَوۡنُ﴾؛ لاشتراكه معهم في التكذيب، ولأنَّه كان الأقربَ إليهم في ضخامة الملك وسعة السلطان، والأقربَ إلى قوم نوح في الإهلاك بالغرق[3].

دلالة ذكر فِرْعَوْنَ دونَ قومِه:

فرعونُ نموذجٌ للطّاغيةِ المُسْتَكْبِرِ الذي أصابه العذابُ ومن معه

عبَّر النظمُ الكريم بفِرعونَ دون قومه، في قول اللّه تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرۡعَوۡنُ﴾؛ لأنَّه كان المُغْتَرَّ المُسْتَخِفَّ بقومه، المُسْتَبِدَّ بأمره، وكان قومُه تَبَعًا له في كلِّ ما يراه، ويأمرُ به، فجُعِلَ الاعتبار له، ولم يقل: (قوم فرعون)، كما أنَّ العذاب لم ينل قومَه جميعًا، بل نال من كان معه في البحر حين ملاحقته لموسى عليه السلام، أمّا مصر؛ فلم يُصِبها عذابُ اللّه تعالى كما أصاب قومَ نوحٍ وأصحابَ الرَّسِّ وثمودَ وعادًا، ولذلك ذكَرَ من وقع عليه العذاب وحدَه دون قومه، ولم يَذكُرْ جندَه باعتبارِ اللزوم، فيلزم عن ذكره ذكرُ من كان معه.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 415.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 415.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 132، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 415.

دلالةُ التَّعبير بإخوانِ لوطٍ:

أهلُ سَدومَ كنعانيّون، ونبيُّ الله لوطٌ عبرانيٌّ

عبَّر النظمُ عن قوم لوط بإخوانه، في قول اللّه تعالى: ﴿وَعَادٌ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ﴾، ولم يكونوا من قبيلِه؛ للإشارة إلى أنَّهم ملازمون، وهم أهل سَدوم وعَمورة وقراهما، وكان لوطٌ عليه السلام ساكنًا في سَدوم، ولم يكن من أهل نسبهم؛ لأنَّ أهل سَدوم كنعانيّون، ولوطٌ عبرانيٌّ[1]، ويمكن أن يكون التَّعبير بالأخوَّة دون القوم؛ لأنَّ السياق لتكذيب من هو منهم؛ لأنَّه أدخل في التَّسلية، فقال: ﴿وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ﴾، أي: أصهاره الذين جبروا بينهم وبينه مع المصاهرة بالمناصرة لملوكهم ورعاياهم على من ساواهم بنفسه وعمِّه إبراهيم عليهما السلام ما صار كالأخوة، ومع ذلك عاملوه بما اشتقَّ من لفظ هذا الجمع من الجناية له ولأنفسهم وغيرهم[2].

وَجهُ عَطفِ أصحابِ الأيْكَة:

رسولا الله لوطٌ وشعيبٌ لم يكونا مِن قبيلِ مَن أُرسِلا إليهم

جيءَ بأصحابِ الأيكَة معطوفين على إخْوانِ لوطٍ بالواو، في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ١٣ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾؛ لاشتراكِهما في تكذيب الرَّسولَين اللَّذَين أُرسِلا إليهما، ولتقاربهما في طريقة العذاب بالنّار - فأولئك بحجارةِ الكبريت النازلة من العلوِّ، وهؤلاءِ بالنّار النازلة من ظلمة السحاب[3] - وللتَّشابُهِ في أنَّ الرسولَين المُرسلَين إليهما لم يكونا مِنْ قبيلِهما.

نكتةُ الإضافةِ إلى ﴿ٱلۡأَيۡكَةِ﴾:

القرآن يُسَمّي كلَّ أمَّةٍ بما امتازت به عن غيرها

عبَّر النظمُ الكريمُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾، عن قوم شعيب عليه السلام بالأصحابِ مُضافين إلى الأيكَة، التي تعني الشجرَ النّاعم المُلتفَّ؛ لتفرُّدهم بهذه النَّوع من الشجر دون غيرهم من

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 295.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 416.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 416.

الأمم التي ورد ذكرُها؛ إذ لم يكن يَنبُتُ في أرضٍ غيرِ أرضهم، وفي التعبير عنهم به دون (قوم شعيب) إشارةٌ إلى أنَّ شعيبًا لم يكن منهم، وإنَّما أرسله الله تعالى إليهم، وهذا ما يوَضِّحُه التعبيرُ في سورة الأعراف بقوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧﴾ [الشعراء: 176 - 177]، معبِّرًا باسمه دون (أخوهم)، كما قيل عن غيره من الأنبياء والمرسَلين[1].

لطيفةُ التَّعبيرِ بالأيكة مُفرَدًا:

جاء التَّعبير ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾ بإفراد الأيكة؛ إشارةً إلى أنَّها من شدَّة التفافِها كالشجرةِ الواحدةِ، ففيه تصويرٌ لحال الغابات الكثيفة، المنبئة عن الخير الوفير، والمطر الغزير، لكنَّ كُفرانَ النِّعم دَيدَنُ أهلِ النِّقم.

وجه عطف قَومِ تُبَّعٍ:

التَّـكـذيـبُ بـالـحـقّ يكون للمستضعفين ولـلـمُـلـوك الثّابتين

جيء بذكر قَوم تُبَّع معطوفين على مَنْ قبلهم بالواو، مع أنَّ تُبَّع لم يكن نبيًّا، وإنَّما كان ملِكًا من ملوك اليمن، أسلم، ودعا قومه للإسلام، فكذَّبوه، وفيه دلالة على أنَّ التَّكذيب لم يكن دائمًا من الأقوياء للمستضعفين، بل حصل أيضًا للملوك القاهرين[2]، وفيه من التسلية والتخفيف عن الرسول ما لا يخفى.

دلالة الإضافة إلى ﴿تُبَّعٖ﴾:

أضاف النَّظم الكريم لفظ (قوم) إلى ﴿تُبَّعٖ﴾ لمكانته فيهم، وسلطانه الذي يفرض عليهم طاعته واتِّباعه، إلّا أنَّهم كذَّبوه، فهُم قومه الذين ينتسبون إليه، ومع ذلك وقع التَّكذيب.

سِرُّ فَصلِ الجملة:

جاءت جملةُ: ﴿كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ مفصولةً عن جملة: ﴿كَذَّبَتۡ

---

(1) السيوطي، معترك الأقران: 2/ 310.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 417.

تأكيدُ تكذيبِ الأقوامِ المذكورين لرسلهم

﴿قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾؛ لأنَّها تنزل منها منزلة التوكيد من المُؤَكَّد، ومن ثمَّ فُصِلت عنها، كما يُفصل التابع عن المتبوع فيما يُعرف بكمال الاتِّصال، الذي تقوى فيه العلاقاتُ والصِّلاتُ بين الجُمَلِ لدرجةٍ تغنيها عن الواصلِ اللفظيِّ.

دلالة استعمالِ ﴿كُلّٞ﴾ منونًا:

جميعُ المذكورين اشتركوا في التَّكذيبِ الشنيع

عبَّر النظمُ الكريمُ بلفظ الكُلِّ في قول الله تعالى: ﴿كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾؛ لِما يفيده من عموم المعنى وشمولِه جميعَ الأقوام السابقِ ذكرُهم، وليؤكِّد اشتراكَهم قاطبةً في تكذيب الرسل، وجيء به منوَّنًا للتعويض عن المُضافِ إليه المحذوف، والتقدير: (كلُّ أولئك كذَّبوا رُسُلَهم فيما جاؤوهم به).

غرض تكرار فِعلِ التَّكذيب:

أعاد النظمُ التعبيرَ بفعل التكذيب ماضيًا، بعد قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾، فقال تعالى: ﴿كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾؛ لتأكيد حصوله من كلِّ الأقوام على وجهٍ بالغِ الشَّناعة والنَّكارة[1].

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلرُّسُلَ﴾:

(أل) في ﴿كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ قد تكون للعهد، فكلُّ قومٍ مذكورٍ كذَّب رسولَه الذي أُرسِل إليهم خاصَّة، فهم كذَّبوا الرسل، وقد تكون للجنس، فكلُّ قومٍ منهم بتكذيب رسولهم كذَّبوا جميعَ الرسل، بل كانوا منكرين للرِّسالة والحشر بالكلِّيَّة[2].

دلالةُ فاءِ ﴿فَحَقَّ﴾:

الفاء في قول الله تعالى: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ حرفُ عطف يفيد التَّسبُّبَ والتعقيب، فعقابُ الله تعالى حقَّ عليهم، ونزل بهم؛

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 382.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 132.

بسبب تكذيبهم الأنبياءَ والمرسلين الذين دعوهم إلى التوحيد، وأنذروهم بالبعث[1].

دلالة التعبير بالفعل (حَقَّ):

تعذيبُ الله تعالى المكذبين وقع يقينًا لا ارتيابَ فيه

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن جزاء التكذيب بالفعل (حَقَّ)، في قول اللّه تعالى: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ الذي هو نقيضُ الباطلِ؛ للدلالة على أنَّ اللّه تعالى توعَّدَهم به، فلم يعبؤوا، بل كذَّبوا وقوعَه، فحقَّ، وصدَقَ، أي: (فحقَّ عليهم ما أوعدهم اللّه تعالى على التكذيب من العذاب والنكال[2]، وجيء به ماضيًا؛ للدلالة على أنَّه نزل نزولًا أكيدًا، ووقع وقوعًا لا يتطرَّق إليه شكٌّ ولا ريبٌ.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿وَعِيدِ﴾:

تفخيم العذاب لتسلية للرسول، ورَدْع للمكذِّبين

جيء بالفاعل مضافًا إلى ضمير المُتكلِّم العائدِ إلى ربِّ العزة سبحانه، في قول اللّه تعالى: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ تفخيمًا للعقاب، وتهويلًا من شأنه، وليكون التهديدُ بإمكان وقوعه لِمَنْ سار على منوالهم مؤثِّرًا في المكذِّبين برسول اللّه، ورادعًا لهم عن الإصرار على إنكار البعث والحساب.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 417.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 297، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 339.

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٥﴾

[ق: 15]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانـتـقـال من الـوعـيـد بـذِكـر مَصيرِ المكذِّبين إلى تقرير البعث وتأكيده

بعد أن ذكرتِ الآياتُ السابقةُ أدلَّةَ البعث للمكذِّبين في زمنِ التَّنزيل، ثمَّ استحقاقَ المُكَذِّبين العذابَ؛ بسبب كفرهم وعنادِهم؛ ناسب أن يعود السياقُ إلى تقرير حقيقة البعث التي كفر بها الجاهلون، وأنكرها الجاحدون[1]؛ ليكون بعد سَوقِ مآل المكذِّبين من السّابقين؛ تقويةً للتَّحذير والتَّهديد والوعيدِ الأكيد.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَفَعَيِينَا﴾: (عيي) أصلٌ يدلُّ على ضعفٍ يَلحَقُ الشيءَ رغمَ تماسُكه في الظّاهر[2]، ومنه الإعْياءُ، وهو عَجْزٌ يلحقُ البدنَ من المشي، والعيُّ عَجْزٌ يلحق مَنْ تولَّى الأمرَ والكلامَ، قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِ﴾، وقال: ﴿وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: 33][3].

2) ﴿بِٱلۡخَلۡقِ﴾: (خلق) أصلٌ يدلُّ على تقدير الشَّيء[4]، فالخَلْقُ أصله: التقدير المستقيم، ويُستعمَل في إبداع الشَّيء من غير أصل ولا احتذاء، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 1]، أي: أبدعهما، بدلالة قوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة: 117]، ويُستعمَل أيضًا في إيجاد الشيء من الشيء نحو: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النساء: 1][5]، والمراد بالخلق الأوَّل هنا: إنشاءُ الإنسانِ مِنْ نُطْفَةٍ عَلَى

---

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 339.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عيي).

(3) الراغب، مفردات القرآن: (عيي).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلق).

(5) الراغب، مفردات القرآن: (خلق).

التَّدْرِيجِ[1]، وبالخلق الجديد: البعث والإحياء بعد الموت، الذي نزلت السورة للرَّدِّ على مُنكِريه.

3) ﴿لَبۡسٍ﴾: (لبس) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى مُخالَطَةٍ ومُداخَلَةٍ، مِنْ ذَلِكَ لَبِسْتُ الثَّوْبَ أَلْبَسُهُ، واللَّبْسُ: اخْتِلاطُ الأمرِ، يُقالُ: لَبَسْتُ عَلَيْهِ الأمرَ أَلْبِسُهُ بِكَسْرِها، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ٩﴾ [الأنعام: 9][2]، ومعناه هنا: حَيرَة وشك وخَلط لا داعيَ له؛ لأنَّ الإعادة أهوَنُ من الابتداء بداهةً[3].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

مَنْ قَدَرَ على الخَلْقِ الأوَّلِ قادرٌ على الإحياءِ والبعثِ بداهَةً

تُبيِّنُ الآيةُ الكريمةُ أنَّ مَنْ قَدَرَ على خلق النّاس من عدم؛ قادرٌ على بعثِهم وإعادتِهم للحياة بعد موتهم وصيرورتهم ترابًا مختَلِطًا؛ لأنَّ الإعادة أسهلُ من الابتداء، كما تبيِّن أنَّ هؤلاء الكافرين صاروا في لَبسٍ وخَلطٍ من أمرهم؛ بسبب انطماس بصائرهم واستيلاء الشيطان عليهم، بدليل أنَّهم يُقرّون بأنَّ اللّه هو الذي خلقهم أوَّل مرَّة، ثمَّ ينكرون قدرتَه على إعادتهم للحياة من جديد[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مَوقِعُ الجُملَةِ مِنَ السّابق:

تقرير حقيقة البعث الذي كذَّبت به القرونُ السّابقُ ذكرُها

جملة: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ﴾ يمكن أن تكون مستأنفةً لتقرير صحَّةِ البعثِ الذي حُكيَت أحوالُ المنكرينَ له من الأمم المُهْلَكةِ[5]، الفاءُ للعطف على مُقَدَّر يُنبئُ عنه السياق من القصد والمباشرة، كأنَّه قيل: (أَقَصَدْنا الخلقَ الأوَّلَ، فَعَجَزْنا عنه، حتى يُتَوَهَّمَ عجزُنا

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 532.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لبس).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 419، والهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 16/ 140.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 339.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 128.

عن الإعادة؟)[1]، وأوثر حذفُ المعطوف عليه قبل الفاء؛ لكونه مفهومًا معلومًا، ولأنَّ الاهتمامَ موجَّهٌ إلى إنكار عجز اللّه تعالى عن خلق الناس من عدم ونفيه بالكلّيَّة؛ ليدلفَ البيانُ منه إلى إثبات قدرته سبحانه على البعث الذي يُعَدُّ أيسرَ منه وأسهل.

ويمكن أن تكون الجملةُ مُفَرَّعةً عَلَى قول اللّه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ﴾، وقَوْله: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ المُعَرِّض بِأَنَّهُم لَم يَتَبَصَّروا به، ولَم يَتَذَكَّروا، وقَوْله: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾، ويَجوزُ أَنْ يُجْعَلَ تَفْريعًا عَلَى قَوْله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾[2]؛ لتأكيد قدرة اللّه تعالى عليه من خِلالِ الاستدلال بقُدرته على خَلقِ النّاس وإيجادِهم أوَّلَ مَرَّةٍ مِنَ العَدَم.

مَن غَفَلَ عن الحقِّ استحقَّ التَّوبيخَ بالحقِّ

غَرَضُ الاستفهام وبلاغتُهُ:

الهمزة في قول اللّه تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ﴾؛ للاستفهام الإنكاريِّ والتوبيخيِّ، والتغليظِ على المشركين؛ لأنَّهم تغافلوا إلى ما في الخلق الأوَّل بصفة عامَّة، وما في إيجادهم من عَدمٍ بصفة خاصَّة، من دلائلَ وبراهينَ على قدرة اللّه على إحياء الناس بعد موتهم، وإعادتهم للحياة من جديد؛ لأنَّ من يتفكَّر في ذلك لا يسعه إلّا الاعترافُ بأنَّ اللّه لم يعْيَ بالخلق الأول؛ إذْ لا يُنكِر عاقلٌ كمالَ قدرةِ الخالق وعدمَ عَجزِه[3].

الخَلقُ التّامُّ والصنعة الكاملة دليلُ نفي النقائص عن صاحب الكمال المُطْلَق

دلالة الإسناد إلى ضمير العظمة:

جاء الفعل في قول اللّه تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ﴾؛ مسندًا إلى ضمير العظمة؛ لتأكيد نفيه عن اللّه وتقويته؛ لأنَّ إسناده إلى اللّه ممّا ترفضه العقولُ القويمةُ والفطرُ السليمةُ، ولإقامةِ الحجَّة

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 128.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 297.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 297.

على مدَّعي العقولِ الكاملة في الوصول إلى الحقائق التامَّة، بأنَّ الخالق ﷻ هو القادر على البعثِ، كما قدر على الخلقِ سواء بسواء، كما هو مشاهَدٌ في مظاهرِ الحياة.

كمالُ الخلقِ دليلُ تمامِ القُدرة

نوع الباء ودلالتُها:

الباء في قول اللّه تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ﴾ حرفُ جرٍّ يفيد السببيَّة، والمعنى: (أحصَل لنا - على ما لنا من العظمة - الإعياءُ والعَجْزُ؛ بسبب الخلق في شيء من إيجاده وإعدامه؟)[1]، ويمكن أن تكون الباء بمعنى (عن)، والتقدير: (أعجزنا عن الخلق الأوَّل حتى نعجزَ عن الخلق الثاني؟)[2].

الإبداعُ الأوَّل دليلُ الإحياءِ ثانيًا

دلالةُ التَّعبير بالخَلقِ مُعَرَّفًا:

آثر البيانُ الكريمُ التَّعبيرَ عن الإيجاد الأوَّل بالخَلقِ، في قول اللّه تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ﴾؛ ليَلفِتَ الأنظارَ إلى ما فيه من إبداع وإعجاز ودلائلَ على قدرة اللّه عليه، وعدمِ عجزه عنه، على الرَّغم من كونه إيجادًا من عدم، وإنشاءً من غير أصل ولا احتذاء، وهذا فيه برهانٌ على قدرة اللّه على البعث الذي هو أيسرُ منه وأسهل؛ لأنَّه إعادةٌ، والإعادةُ أسهلُ من الإنشاءِ بداهةً، وجيء به معرَّفًا ليشمل خلقَ السماوات والأرض وخلقَ الإنسان وسائر المخلوقات.

خلقُ السماواتِ والأرضِ وما بينهما أكبرُ من بعثِ الناس وإعادتِهم

دلالةُ وصفِ الخَلقِ بالأوَّل:

وُصِفَ الخَلقُ بالأوَّلِ في قول اللّه تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ﴾؛ لتمييزه عن البعث، ولتقوية ما فيه من دلائلَ وبراهينَ على قدرة اللّه على البعث وتأكيده، الذي يُعَدُّ أيسرَ من خلق السماوات والأرض وما بينهما بصفة عامَّة، وأسهلَ من إيجاد الإنسان من عدم وإنشائه من غير أصلٍ أو احتذاء بصفة خاصَّة، والمعنى: (هل عَيينا بخلق

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 418.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 533.

السماوات والأرض وما بينهما حين ابتدأه اختراعًا من العدم، وخلق الإنسان وسائرِ الحيوان مجدَّدًا، ثمَّ في كلِّ أوانٍ من الأطوار المشاهَدة على هذه التدريجات المعتادة بعد أن خلق أصلَه على ذلك الوجه ممّا ليس له أصل في الحياة، وفي إعدامه بعد خلقه جملةً كهذه الأمم المذكورة، أو تدريجًا كغيرهم، حتّى يظنّوا؛ بسبب العجز بالخلق الأوَّل - الذي هو أصعب في مجاري العادات من الإعادة - أن نعجز عن الإعادة ثانيًا؟)[1].

نوعُ ﴿بَلۡ﴾ ودلالتُها:

تَمكُّن اللَّبسِ الشديد من الكافرين أغشى إدراكَهم، وأعمى أبصارَهم

﴿بَلۡ﴾ في قول الله تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾؛ للإضراب الإبطاليِّ عن المستفهَم عنه، أي: (بل ما عيينا بالخلق الأوَّل)، فهُم يعلمون ذلك، ويعلمون أنَّ الخلق الأوَّلَ للأشياء أعظمُ من إعادة خلق الأموات، ولكن تمكَّن منهم اللَّبسُ الشديد، فأغْشى إدراكَهم عن دلائلِ الإمكان، فأحالوه، فالإضراب على أصله من الإبطال[2].

دلالة مجيءِ المُسنَدِ إليه ضميرًا مُقدَّمًا:

الضمير معرفةٌ ظاهرةٌ لمن عُلِم منه الفعلُ المخصوص

جاء التَّعبير عن الكفّار في قول الله تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ بالضَّمير ﴿هُمۡ﴾؛ جَريًا على الأصل في التعبير به عن الاسم الذي سبق ذكرُه؛ لما يفيده من تعيين المتحدَّث عنه تعيينًا يَحول دون صرف الكلام عنه إلى أحدٍ آخر، والتقدير: (بل الذين كفروا في لَبسٍ من خلقٍ جديدٍ)، وجوَّز التعبيرَ بالضميرِ أنَّ المشركين قد عُرفوا بإنكار البعث، فأصبحوا المقصودين عند الإطلاق، مع ما يستحقُّه المقامُ من التحقير والذَّمِّ وعدم استحقاق المُتَحدَّث عنه لأيِّ نوع من أنواع الذكر، وجيء بالضمير المسندِ إليه مُقدَّمًا على الخبر؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 418.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 298.

لتقوية تلَبُّسِ المشركين - لا غيرِهم - بالخلط والشكِّ والحَيرة من أن يكون هناك خلقٌ جديدٌ مُستأنَفٌ لهم بعد موتِهم[1].

بلاغة الجملةِ الاسميَّة:

الالتباسُ كنايةٌ عن الضَّلال المبين

جاء قول اللّه تعالى: ﴿هُمۡ فِي لَبۡسٖ﴾ جملةً اسميَّةً؛ للدلالة على ثبات الحكم لهم، وأنَّه متمكِّن من نفوسهم، لا يفارقهم البتَّة إلّا أن يُحدِثوا إيمانًا باللّه وبالبعث بعد الموت، ففيه إيماءٌ إلى خطورةِ حالهم التي قد تنتهي بهم إلى النّار، فإنَّ من التَبسَ عليه الأمرُ، واختلط، فلم يُميِّز بين الحقِّ والباطل، كان في ضَحْضاح العذابِ، وفي قَعرِ الجهالة، فالجملة الاسميَّةُ كنايةٌ عن الضلال الشديد، والكفر الأكيد، الذي لا مُنقذَ منه إلّا الإيمان والإقبال على اللّه تعالى.

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة:

جاء في قول اللّه تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ استعمالُ حرفِ الظرفيَّة ﴿فِي﴾؛ ليشير إلى انغماسِ المشركين في هذا اللَّبس وإحاطتِه بهم إحاطةَ الظَّرفِ بالمظروف[2]، فهُم غارقون فيه، وحالُ الغارقِ المكنة في الموت.

بلاغة استعارة ﴿فِي لَبۡسٖ﴾:

اللبسُ متمكِّنٌ من نفوسِ الكُفّار، ولا يفارقُهم البتَّة

في قول اللّه تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ﴾ استعارةٌ مكنيَّة، شُبِّه فيها اللَّبسُ الذي هو الخَلطُ والشَّكُّ بالبئر العميق التي ألقَى الكفارُ فيها بأنفسهم، فأحاطت بهم كما يحيطُ الظَّرفُ بما فيه، وصاروا لا يستطيعون الخروجَ منها، ثمَّ حُذِف المُشَبَّهُ به، ورُمِز إليه بشيء من لوازمه، وهو الظرفيَّة، على سبيل الاستعارة المكنيَّة، التي تُبرزُ تمكُّنَ الشَّكِّ والخلطِ من الكافرين، بحيث لا يُمكِنُهم تصديقُ أمرِ البعث على الرَّغمِ من وضوح دلائلِ قدرة اللّه تعالى عليه، وكونِه أسهلَ من الخلق الأوَّل.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 339.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 298.

نكتةُ تنكيرِ ﴿لَبۡسٍ﴾:

نُكِّر لفظ اللَّبس في قول اللّه تعالى: ﴿هُمۡ فِي لَبۡسٍ﴾ إمّا للنوعيَّة[1]، أو لتفخيم اللَّبس وتهويله، فكأنَّه خلطٌ لا يُقادَر قدره، ولا تحيط العبارة بكنهه، والمعنى: (خلط شديد، وشبهة موجِبة للتكلُّم بكلام مختلط لا يعقل له معنى، بل السكوت عنه أجمل)[2].

نوعُ ﴿مِّنۡ﴾ ودلالتُها:

﴿مِّنۡ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ حرفُ جرٍّ يُفيد الابتداءَ، والمعنى: (لبسٌ انجرَّ إليهم عن أمر الخلق الجديد).

بلاغة التَّعبير بقوله: ﴿خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾:

البعثُ خلقٌ جديدٌ؛ لأنَّه يكونُ على وجهٍ يجهل النّاسُ تفاصيلَه

جاء في قول اللّه تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ التعبيرُ عن البعث والإحياء بالخَلْق الجَديد؛ للإيماء إلى أنَّه إعادةٌ بعد عدمِ الأجزاء، لا جمعٌ لمتفرِّقها، وتنكيرُ الخلق وتابعِه للنوعيَّة، أي: (ما هو إلّا خلقٌ من جملة ما يقع من خلق اللّه الأشياءَ)[3].

ويمكن أن يكون التنكير والوصف بالجديد؛ تنبيهًا على مكان شبهتهم واستبعادهم الخلقَ العاديَّ، وأنَّه خلق عظيم، يجب أن يُهتَمَّ بشأنه، فله نبأ أيُّ نبأ، والتعظيم ليس راجعًا إلى الخلق من حيث هو هو، حتى يُقال: إنَّه أهونُ من الخلق الأوَّل، بل إلى ما يتعلَّق بشأن المكلَّف، وما يُلاقيه بعده، وقيل: نُكِّر؛ لأنَّه لاستبعاده عندهم كان أمرًا عظيمًا، ويجوز أن يكون التنكيرُ للإبهام؛ إشارةً إلى أنَّه خلقٌ على وجهٍ، لا يعرفُه الناسُ[4].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 298.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 419.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 298.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 328.

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦﴾ [ق: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

صِفَتا العلمِ والقدرة عليهما مـدارُ الإيمان بالبعث

لمّا بيَّنت الآية السّابقة حال المنكرين من البعث، وأنَّهم في لَبسٍ منه؛ ناسب الانتقال إلى الخلقِ الأوَّلِ، مع ذكر علم اللّه تعالى لما يجول في النفس البشريَّة من وساوسَ تحول بينه وبين الإيمان بالحقِّ، وأنَّ اللّه تعالى أقربُ إليه من حبل الوريد؛ ليكون ذلك إعلامًا بيُسر البعث والإحياء على اللّه تعالى، فإنَّ العلم بما يكون في هذه النَّفسِ من أفكارٍ ووساوسَ يدلُّ على القدرة التّامة لإعادة الخلق كما كان، فإنَّ مدارَ الأمر على العلم والقدرة، ومن المناسبة أيضًا أنَّه لمّا ذكر خلقَ الخافقين؛ أتبعه خلقَ ما هو جامعٌ لجميع ما هو فيها، وهو الإنسان[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُوَسۡوِسُ﴾: (وسوس) أصلٌ يدلُّ على صوتٍ غير رفيع[2]، فهو همسُ صوتٍ جِدٍّ رقيق ولطيف، كالوَسْواس الصوت الذي يُسْمَع من احتكاك الصفائح الذهبيَّة المتدلية من الحِلْية، وكذا همس الصائد الكلام الذي يخفيه حتّى لا يسمعه الصيد، فينفِر، ويفرَّ، قال تعالى: ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [طه: 120]، والوَسْواس بالفتح هو الشيطان؛ لأنَّ هذه هي وسيلته في إيصال ما يريد، وقد وسْوس في صدره ووَسْوس إليه، قال تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥﴾ [الناس: 4 - 5]، ومنه الوَسوسة بالفتح، والوِسواس

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 419.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وس).

بالكسر: حديث النفس والأفكار، قال تعالى: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾، أي: ما يختلج في سرِّه وقلبه وضميره[1].

2) ﴿ٱلْوَرِيدِ﴾: (ورد) يدلُّ على الموافاةِ إلَى الشَّيءِ، يقال: ورَدَتِ الإبلُ الماءَ تَرِدُهُ وِرْدًا، والوَريدانِ: عِرْقانِ مُكْتَنِفا صَفْقَي العُنُقِ ممّا يَلي مُقَدَّمَهُ غَليظانِ، ويُسَمّيانِ مِنَ الوُرودِ أيْضًا، كَأنَّهُما توافيا في ذَلِكَ المَكانِ[2]، تحت الوَدَجَينِ عن يمين ثغرة النحر، ويسارها، وينبضان أبدًا من الإنسان[3]، ومفردُهما الوريد: وهو العرق الذي يجري فيه الدم، ويصل منه إلى كلِّ جزء من أجزاء البدن[4].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

من براهين القدرة على البعث العِلمُ بخفيّات الصدور

تؤكِّد الآيةُ الكريمةُ أنَّ اللّه تعالى خلق الإنسان، وأبدعَ صورتَه، وأكملَ خِلقَتَه، وأنَّه على علم تامٍّ بما توَسوِسُ به نفسُه، وما يستكنُّ في ضميره من الخواطرِ والأفكارِ، أيًّا كانت وكيفما كانت؛ ولا غرابةَ في ذلك؛ لأنَّ اللّه تعالى أقربُ إليه من عروقه التي تجري فيها دماؤه، ومن الأنفاس التي تدلُّ على بقائه على قيد الحياة[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتُها:

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ استئنافية[6]، جيء بها للتنبيه إلى ما تتضمَّنه الجملة من أدلَّةٍ وبراهينَ جديدةٍ على كمال قدرة اللّه تعالى على إحياء الناس، وبعثِهم بعثًا جديدًا للسُّؤال والحساب.

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (وسوس).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ورد).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ورد).
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 134.
(5) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 523، بتصرف.
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 287.

فائدة تتابُعِ المؤكِّدات:

المنكرون للبعثِ يُنكرون علمَ اللهِ بخفيّاتِ نفوسِهم

جاء قولُ اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ﴾ مُؤَكَّدًا بالقَسَم واللام و(قَدۡ)؛ للإبلاغ في تأكيد علم اللّه تعالى وإحاطته بما لا يمكن لأحدٍ الاطِّلاعُ عليه أو الإحاطةُ به؛ لكون ذلك من الصعوبة والاستحالة بمكان، ولأنَّهم وإن كانوا يعلمون أنَّ اللّه خلق الناس؛ فإنَّهم لا يعلمون أنَّه عالم بأحوالهم[1]، أو لأنَّهم يُنكرون ذلك، وهو ما يستدعي الإبلاغَ في التأكيد.

دلالةُ التَّعبير بالفِعلِ ﴿خَلَقۡنَا﴾:

جاء التعبير بفعل الخلق في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ ماضيًا؛ للإخبارِ بما هو محقَّقُ الوقوع، ومُسنَدًا لضمير العظمة؛ لتفخيم الفعل والإشارة إلى سهولته على اللّه جلَّ في علاه، والمعنى: (أوجدناه بما لنا من العظمة والاقتدار)[2].

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

الإنسانُ الكافرُ هو المنكِرُ للبعثِ، فذِكرُه تعريضٌ بإنذارِه في السياق

(أل) في المفعول به من قول اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ لتعريف الجنس، أي: (خلقنا جنس الإنسان)، ويدخل فيه المشركون المنكِرون للبعث دخولًا برهانيًّا؛ لأنَّ هذا الخبر مسوقٌ إليهم بالدَّرجة الأولى، وهو تعريضٌ بالإنذار، كما يدلُّ عليه قوله بعده: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾، وقوله: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾[3].

توجيهُ تخصيصِ الإنسان بالذِّكر:

غالب الاستعمال القرآنيّ لكلمةِ الإنسان في سياقِ الذَّمِّ

خصَّ النَّظم الكريم الإنسانَ بالذِّكر، في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ دون غيره من المخلوقات؛ لكونه أعجب خلقًا، وأجمعَ من كلِّ ما ذكر، بما فيه من الأُنس والطغيان، والذكر والنسيان،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 299.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 419.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 299.

والجهل والعرفان، والطاعة والعصيان، وغير ذلك من عجيب الشأن، ولِما وُكِّل به من جنودٍ لحفظه وضبط حركاته وسكناته وكلِّ أحواله[1]، وباعتبارِه المقصودَ من سياق الكلام، فإنَّ الإنسانَ مُطالَبٌ باعتقادِ وجودِ البعث والحساب، وهو الذي يُسارِع إلى التَّكذيب والإنكار، فكان ذكره باعتبارِ ما نشأ عنه من تكذيب، كما شاع في غالب القرآن استعمالُ لفظ الإنسان في سياق الذَّمِّ.

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

علمُ الله تعالى بما توَسوِسِ به الصدور أعجبُ مـن علـمـه ما تـنـقـصُ الأرضُ منهم

تحتمل الواو في قول الله تعالى: ﴿وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ﴾ أن تكون استئنافيَّة، عُبِّرَ بها؛ للتنبيه إلى ما في العلم والإحاطة بما توسوسُ به النفسُ من إعجازٍ يشابه عمليَّةَ الخلق والإيجاد، وللتنبيه إلى سعة علم الله بأحوالهم، وأنَّه إذا كان يعلم حديثَ النفس؛ فلا عجبَ أن يعلمَ ما تنقصُ الأرضُ منهم، فهو يؤكِّد في الوقت نفسه قدرةَ الله تعالى على البعث والإحياء[2]، وتحتمل أن تكون الواو للحال الدالَّةِ على أنَّ علمَ الله بما توسوس به نفسُ الإنسان وقربَه الشديد منه هو حالُ الله التي لا تتغيَّر، ولا تتبدَّل، وجملة الحال مكوَّنة من المبتدأ المحذوف - وتقديره (نحن) - والخبرِ (نعلم).

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع:

جاء التعبير عن علم الله في قول الله تعالى: ﴿وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ﴾ بصيغة الفعل المضارع؛ للدَّلالة على أنَّ تَعَلُّقَ علمِه بالوسوسة متجدِّدٌ غيرُ مُنْقَضٍ ولا محدودٌ؛ لإثبات عموم علمه تعالى، والتحذيرِ من إضمار ما لا يُرضيه[3] من الأقوال والأفعال والاعتقادات.

نوعُ ﴿مَا﴾ ودلالتُها:

﴿مَا﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ﴾ تحتمل

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 419.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 299.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 299.

احتمالُ الموصوليَّة والمصدريَّة الدّالَّتينِ على شمول العلم الإلهيِّ

أن تكونَ موصولةً، والجملة بعدها صلة، والمعنى: (ونعلم الأمورَ التي تُحَدِّثُه بها نفسُه)، وتحتمل أن تكون مصدريَّة، بمعنى: (ونعلم وسوسةَ نفسه له)، وأيًّا كانت؛ فإنَّها تدلُّ - بمعناها ومبناها المختومِ بحرف المدِّ - على شمول علم اللّه كلَّ الخواطر والأفكار التي تدور في نفس الإنسان، وبواعثِ الخير والشرِّ التي تدفع للتفكير فيها، ويدخل فيها بواعثُ الكفر بالبعث وأسبابُ إنكاره دخولًا أوليًّا.

بلاغة الاستعارة في التَّعبير بالوَسوَسة:

تصوير ما يعتملُ داخلَ نفسِ الإنسانِ، ويتردَّدُ فيها بصوتِ الحليِّ

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مادَّةِ الوَسوَسَة، في قول اللّه تعالى: ﴿وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ﴾؛ لبيان ما يجول في نفس الإنسان، والوسوسة هي الكلام الخفيُّ، وهي مأخوذةٌ في أصلها من صوت الحُليِّ؛ لما بينهما من جامعِ الخفاءِ الصوتيِّ، وتحريك الشهوات للسّامع؛ إذ شُبِّه ما يجول في نفس الإنسان من الخواطر والتقديرات والعزائم بالوسوسة، التي استُعيرت له بعد تناسي التشبيه وادِّعاء أنَّ المشبَّهَ فردٌ من أفراد المشبَّهِ به، ثم اشتُقَّ منه ﴿تُوَسۡوِسُ﴾ بمعنى: (تتكلَّم كلامًا همسًا لا يسمعه غيرُها) على سبيل الاستعارة التصريحيَّة التَّبعيَّة، التي تصوِّر ما يعتمل داخل النفس، ويتردَّد فيها، وتُبرِز اطِّلاعَ اللّه تعالى عليه.

وأوثرت مادَّة الوسوسة دون غيرها؛ لأنَّها أقربُ شيء يُشَبَّه به تلك الخواطرُ، وأحسنُ ما يُستعار لها؛ إذْ تجمع مختلفَ أحوال ما يجول في العقل من التقادير، أمّا غيرها من ألفاظ التوهُّم والتفكُّر؛ فإنَّه يدلُّ على بعض أحوال الخواطر دون بعض[1].

دلالة التعبير بصيغة المضارع:

جاء التَّعبير بفعل الوسوسة في قول اللّه تعالى: ﴿وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 300.

﴿بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ﴾ مضارعًا؛ للدَّلالة على أنَّ علمَ اللّه تعالى لا ينفكُّ عمّا يتجدَّد خَطَرُه في بال الإنسان، وما يهجِسُ في ضميره من حديث النفس[1] - وإن بالغ في إخفائه، واجتهد في كتمانه، فعلمه ﷻ دائمٌ لا يتوقَّفُ، ومستمرٌّ، لا ينقطعُ، وفيه من ترهيب الكافرين وتهديدهم ما لا يخفى؛ إذِ الإعلامُ بعلمه لما يُخفونه كشفٌ لما سيُحاسَبون عليه في يوم البعث الذي يُنكرونه، واجتمع إخفاءُ الوسوسة بإنكار البعث، فكانت الوسوسة المخفيَّةُ نطقًا إيمائيًّا بالبعث المنكَرِ وقوعُه، وهو إقامةٌ للحجَّة عليهم بأنَّهم يَنطِقون بخلاف ما يعتقدون، فكانت الوسوسة هي صوت الباطل المنادي على وأد صوت الحق في فطرة الإنسان الكافر.

صوتُ الوسوسة يُحارب صوتَ الحقِّ في بقايا الفطرة لدى الإنسان المنكر

نوعُ الباء وتعيين مرجعِ الضَّمير:

الباء مع الضَّمير في قول اللّه تعالى: ﴿وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ﴾ جارٌّ ومجرور متعلّقان بفعل الوسوسة، والضَّمير المجرور فيه عائد إلى اسم الموصول ﴿مَا﴾ أو إلى الصِّلة، والباءُ فيه للملابسة، أو للتعدية، أي: (ونعلم ما تدفعه إليه نفسه من الوسوسة)[2]، وأيًّا كان معنى الباء؛ ففي التعبير بهما تأكيدٌ لإحاطة علم اللّه وتَجَدُّد معرفته بما يدور في النفس، مهما اجتهدَت في إخفائه، أو تحرَّجَت من إبدائه، أو سَعَت للكيد به.

علمُ الله محيطٌ بما يدور في النفس مهما اجتهدَت في إخفائه

غرضُ تقديم ﴿بِهِۦ﴾:

جيء بالجارّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ مُقَدَّمًا على الفاعل ﴿نَفۡسُهُۥۖ﴾، في قول اللّه تعالى: ﴿وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ﴾؛ للإبلاغ في تقوية علم اللّه بما توسوسُه نفسُ الإنسان، وتأكيدِ إحاطته به؛ لأنَّه مظنَّةُ الإنكار وعدم التصديق أو الاستيعاب؛ بسبب شدَّة خفائِه وعدم

علمُ الله بما توسوسُ به النفسُ مَظِنَّةُ الإنكارِ وعدمِ الاستيعابِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 383.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 328، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 341.

اطِّلاع أحدٍ عليه، وعدم قدرة الإنسان على دفعه أو كَبحِه، فكان بمنزلة التَّنبيه إلى ما قد يقع فيه التَّكذيب، ويحوم حوله الإنكار.

نكتة إضافة النَّفْس إلى الضَّمير:

﴿نَفْسُهُۥۖ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥۖ﴾ فاعلُ الوسوسة، والهاء فيه ضميرٌ يعود إلى الإنسان، وإضافةُ النفس إلى الضمير تُؤذن بأنَّ القصدَ من مجيء التركيب على هذه الطريقة هو الإبلاغُ في تنبيه الكفّار وتحذيرِهم من التمادي في إنكار قدرة اللّه تعالى على البعث؛ لدلالته على أنَّه تعالى يعلمُ البواعثَ الحقيقيَّة التي تدفعهم إلى ذلك، وإن بالغوا في إخفائها وعدمِ الإفصاح عنها؛ إذِ المعنى: (نعلم الخواطرَ التي تعترض للإنسان، ولو عجز عن ضبطها؛ فنحن نعلم أنَّ قلوبهم عالمة بقدرتنا على أكملِ ما نريد وبصحَّة القرآن وإعجازه وصدق الرسول به وامتيازه، وإنَّما حملهم الحسدُ والنفاسةُ والكبرُ وحبُّ الرِّئاسةِ على الإنكار باللسان، حتّى صار ذلك لهم خُلُقًا، وتمادَوا فيه حتّى غطَّى عقولَهم، فصاروا في لَبسٍ محيطٍ بهم من جميع الجوانب)[1].

الــذي يحمـلُ الـكـفّـارَ على التكذيب والإنكارِ هو الكِبرُ

دلالةُ واوِ ﴿وَنَحْنُ﴾:

جملةُ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ يمكن أن تكون استئنافيَّةً، جيء بها لتقرير وتأكيد علم اللّه بما يدور في نفس الإنسان[2]، ويمكن أن تكون في موضع الحال الدالَّة على أنَّ اللّه تعالى مطَّلِعٌ على ما يدور في نفس الإنسان دائمًا وأبدًا اطِّلاعَ القريبِ جِدًّا[3]، وتحتمل أن تكون الواو عاطفةً[4].

اطِّــلاعُ اللـه تعالى على خفايا النَّفْسِ دائمٌ لا ينقطع

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 419، 420.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 341.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 300.
(4) درويش، إعراب القرآن: 9/ 287.

قربُ العالِمِ بالشيءِ دليلُ الثباتِ والمُكنةِ

دلالةُ استعمال ضميرِ العظمةِ:

أوثر التعبير بضمير المتكلِّم المُعَظِّم نفسَه في جملة: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ﴾، وهو مسندٌ إليه، وهو العائد إلى المسند إليه في جملتي: ﴿خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ﴾، وهو اللّه جلَّ شأنه؛ زيادةً في تقرير المعنى وتأكيده؛ لأنَّ العالمَ بالشيء كلَّما كان قريبًا منه؛ كان علمُه به أثبتَ وأمكنَ، وهذا الكمالُ في العلم من مظاهرِ عظمةِ اللّه ﷻ.

تصويرُ علمِ اللّه بما يدورُ في نفسِ الإنسانِ وتأكيدُه بما لا يدعُ مجالًا للشّكِّ

بلاغةُ الاستعارةِ في اسم التفضيل:

في التَّعبير باسم التفضيل من القُرب في قول اللّه تعالى: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ استعارة، شُبِّه فيها إحاطة علم اللّه تعالى من الإنسان - الذي يتعلَّق بمعلومه منه ومن أحواله تعلُّقًا لا يخفى عليه شيء من خفيّاته - بالقرب الذي يستلزم الاطِّلاع[1]، ثمَّ استعير القرب المكانيُّ لقرب العلم على سبيل الاستعارة التصريحيَّة التبعيَّة؛ لتصوير إحاطة اللّه تعالى بما توسوس به نفس الإنسان وتأكيده بما لا يدع مجالًا للشَّكِّ.

فالقرب في الآية ليس على حقيقته، بل هو كنايةٌ عن صفةِ الإحاطةِ البالغةِ، والاطِّلاعِ الواسعِ، والعلم الدقيقِ الذي لا يمكن لأحدٍ غيرِ اللّه تعالى أن يتَّصفَ به، أو يتمكَّنَ منه، فالمعنى: (إنَّ علمَ اللّه تعالى بأحوالِ الإنسانِ أقربُ إلى هذا الإنسان من أعضائه ومن دمائه التي تسري في تلك الأعضاء)[2].

وجهُ الإضافة في ﴿حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾:

استعمل النَّظم الكريم لفظَ الحَبلِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ وهو واحدُ الحِبال، والمراد به في الآية:

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 383.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 341.

ثَمَّ شَبَهٌ كبيرٌ بين العِرْق والحَبْل في الشَّكل والفائدة

العِرْقُ[1]؛ للشَّبَهِ الكبير بينهما في الشكل والفائدة، والوَريدُ واحدٌ من الشرايين، وهو ثاني شريانين يخرجان من التجويف الأيسر من القلب يكتنفان صفحتي العنق في مقدِّمهما متَّصلان بالوتين، يَرِدان من الرَّأس إليه، وسمّي وريدًا؛ لأنَّ الروحَ ترده، وفي إضافة ﴿حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ وجهان، أحدهما: أن تكون الإضافة للبيان، كقولهم: شجر الآراك، والثاني: أن يُراد حبل العاتق، فيُضاف إلى الوريد، كما يُضاف إلى العاتق؛ لاجتماعهما في عضوٍ واحدٍ[2].

لطيفةُ التَّصوير بـ ﴿حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾:

التشبيهاتُ القرآنيَّةُ خفيَّةٌ كحبلِ الوريدِ؛ لأنَّها صادرةٌ عن علم الله

من لطائف التمثيل بحبل الوريد في قول الله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ أنَّه مع قربه لا يشعر الإنسانُ بذلك لخفائه، وكذلك قربُ الله من الإنسان بعلمه قربٌ لا يشعر به الإنسانُ، كما أنَّ من وجوه الشَّبه بينهما أن يُقال: (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد بتفرُّد قدرتنا فيه، يجري فيه أمرنا كما يجري الدم في عروقه).

وممّا يقال في وجه التَّفضيل بين القُربين: إنَّ العرق تحجبه أجزاءُ اللحم، ويخفى عنه، وعلم الله لا يُحجَب عنه شيء، وبهذه الاعتبارات وغيرها فاق هذا التشبيه لحالة القُرْب كلَّ تشبيه من نوعه ورد في كلام البلغاء[3].

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 383.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 383، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 300.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 134، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 300.

﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾ [ق: 17 - 18]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلهما:

الانتقالُ من ذكرِ العلمِ بالأعمالِ إلى وصفِ الجزاءِ عليها

لمّا ذكرت الآيةُ السابقةُ علمَ الله تعالى وإحاطتَه بما توسوس به نفسُ الإنسان، ووضَّحت قربَه الشديد منه كنايةً عن العلم الشامل والمحيط بأعمالِ الإنسان في الدنيا؛ ناسب أن يذكر في هاتين الآيتين وما بعدهما الأحوالَ التي تُصَدِّقُ هذا الخبرَ، وتُعَيِّن ورودَه عند السامع، ومنها: إذ يتلقّى المتلقّيان، ومجيء سكرة الموت، والنفخ في الصور، ومجيء كلِّ نفس معها سائق وشهيد[1]، وكلُّ ذلك لبيانِ أنَّ الإحاطة بالأعمالِ ليس لمجرَّد الإخبار بالعلم، بل لمعرفة أنَّ ما بعد العلم حسابٌ وجزاء، فهو تخلُّصٌ إلى الموعظة والتهديد بالجزاء يوم البعث على جميع الأعمال خيرِها وشرِّها، المعلومة من آيات كثيرة في القرآن[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ﴾: (لقي) أَصْلٌ يدلُّ على تَوافي شَيئَيْنِ مُتَقابِلَيْنِ[3]، فهو تحصيلٌ بالمقابلة مواجهةً أو تماسًّا بقوَّة، وكلُّ شيء استقبل شيئًا، أو صادفه، فقد لَقِيَه، يُقال: لَقيتُه لُقيًا ولُقيانًا، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ [البقرة: 76]، وكلُّ (لَقي) و(التقى) ومضارعهما، فهي بمعنى المقابلة أو الوجود القويِّ، وكلُّ (تَلَقِّية) فهي إيصال الشيء بقوَّة إلى من يستقبله، قال تعالى:

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 533، 534.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 301.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).

﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ١١﴾ [الإنسان: 11]، والتلقّي: استقبالُ ما يُلْقَى، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ﴾ [البقرة: 37]، وقال هنا: ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ﴾[1]، أي: (يستقبلان كلَّ ما يفعله الإنسان، ويسجِّلانه)، والمُتَلَقّيانِ هما الملَكان الموكَّلان بكلِّ إنسان، ملَكُ اليمين يستقبل الحسناتِ، ويكتبها، وملَكُ الشمال يستقبل السَّيِّئات، ويكتبها[2].

2) ﴿قَعِيدٞ﴾: (قعد) أصلٌ يدلُّ عَلَى ما يُضاهي الجُلوسَ ويقابل القيام، وإنْ كانَ يُتَكَلَّمُ به في مَواضِعَ لا يُتَكَلَّمُ فيها بالجُلوسِ، يُقالُ: قَعَدَ الرَّجُلُ يَقْعُدُ قُعودًا[3]، والقُعودُ جمع قاعد، قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا﴾ [النساء: 103]، وقوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ﴾، أي: ملَكٌ يترصَّده، ويكتب ما له وما عليه، ويُقال للواحد والجمع[4].

4) ﴿يَلۡفِظُ﴾: (لفظ) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى طَرْحِ الشَّيْءِ، وغالِبُ ذَلِكَ أَنْ يَكونَ مِنَ الفَمِ، تَقولُ: لَفَظَ بالكَلامِ يَلْفِظُ لَفْظًا، ولَفَظْتُ الشَّيْءَ مِن فَمي[5]، واللَّفْظُ بالكلام مستعارٌ من لَفْظِ الشيء من الفم، ولَفْظِ الرَّحى الدَّقيق، قال تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾[6].

4) ﴿رَقِيبٌ﴾: (رقب) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى انتِصابٍ لِمُراعاةِ شَيْءٍ، يُقالُ: رَقَبْتُ أَرْقُبُ رِقْبَةً ورِقْبانًا، ومِنْ ذَلِكَ الرَّقيبُ، وهوَ الحافِظُ[7] والحارس الذي يترقَّب، والله ﷻ رَقيبٌ، أي: حافظٌ لا يغيب عنه شيء، قال تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾، أي: المتتبع للأمور، الحافظ الشاهد، والمراد: أنَّه مشاهِد وسامع، ويعلم كلَّ ما يجري، ويسجله[8].

6) ﴿عَتِيدٞ﴾: (عتد) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى حُضورٍ وقُرْبٍ، تَقولُ: عَتُدَ الشَّيْءُ، وهوَ يَعْتُدُ عَتادًا، فَهوَ عَتيدٌ، أي: حاضِرٌ، والعَتادُ: ادِّخار الشيء قبل الحاجة إليه كالإعداد، والعَتيدُ: المُعِدُّ والمُعَدُّ، قال تعالى: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾، وقال هنا: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾، أي: حاضر لا يغيب، أو مُهَيَّأ مُعَدٌّ للحِفْظ أو الشهادة[9].

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (لقي).
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 534، بتصرف.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قعد).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (قعد).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لفظ).
(6) الراغب، مفردات القرآن: (لفظ).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رقب).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رقب).
(9) الخليل، العين: (عتد)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عتد)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (عتد).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

لكلِّ إنسانٍ ملَكان موَكَّلان بكتابةِ حسناتِه وسيّئاتِه

تُبيِّن الآيةُ الأولى أنَّ اللّه سبحانه وكَّل بكلِّ إنسانٍ ملَكَين عن يمينه وشماله، يكتب أوَّلُهما حسناته، ويكتب الآخرُ سيِّئاته؛ مع أنَّه ﷻ مستغنٍ عمّا يكتبانه، إلّا أنَّه قضى بذلك لحِكَم متعدِّدةٍ، وفوائدَ كثيرةٍ، وتبيِّنُ الثانيةُ أنَّ هذَين الملَكَينِ لا يتركانِ قولًا للإنسان ولا فعلًا إلّا قاما بكتابته؛ لأنَّهما مُفَرَّغانِ لذلك ومُعَدّان له(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

متعلّق ﴿إِذۡ﴾ ودلالتُه:

مدارُ الأمر على تلقّي الملَكين لتسجيلِ الأعمالِ

﴿إِذۡ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ﴾ ظرفُ زمان متعلّق بقوله تعالى: ﴿أَقۡرَبُ﴾، والمعنى: (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد في الوقت الذي يتلقّى فيه الملكان كلَّ ما يصدر عن هذا الإنسان من أقوالٍ وأفعالٍ)(2)، والكلامُ تخلُّصٌ للموعظة والتهديد بالجزاء يوم البعث والجزاء من إحصاء الأعمال خيرِها وشرِها، وهذا التخلُّصُ بكلمة ﴿إِذۡ﴾ الدالَّة على الزمان من ألطفِ التَّخَلُّص وأحسنِه(3).

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّلَقّي:

تصويرُ الغيبيّات لتقريبِها من ذهنِ المخاطَبين

التَّلَقّي في الأصل: أخذُ الشيء من يَدِ مُعْطيه، واستُعير في قول اللّه تعالى: ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ﴾؛ لتسجيل الأقوال والأعمال حين صدورها من الإنسان، وذلك بعد تناسي التشبيه، وادِّعاءِ أنَّ المشبَّهَ فردٌ من أفراد المشبَّهِ به، على سبيل الاستعارة التصريحيَّة التبعيَّة، التي توضِّح كيف يعمل المَلَكان المَوَكَّلان بكتابة أقوال الإنسان وأعماله، ومن فوائدِ الاستعارةِ: تصويرُ أمرٍ غيبيٍّ لتقريبِه من ذهن المخاطَب.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 384، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 343.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 343.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 301.

تلقّي الأعمالِ دائمٌ لا يتوقَّفُ، ومستمرٌّ لا ينقطع

دلالة التَّعبير بصيغة المضارع:

أوثر التعبير بفعل التلَقّي مضارعًا في قول اللّه تعالى: ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ﴾؛ لدلالةِ المضارع - بجانب استشعار الحالة واستحضارها - على أنَّ تلقّي الملكين أعمالَ الإنسان من حسنات وسيّئات دائمٌ لا يتوقَّف، ومستمرٌّ لا ينقطع في ليل ولا نهار، وأنَّه يحصل بغاية الاجتهاد والمراقبة والمراعاة من كلِّ إنسانٍ خلقه اللّه، وأبرزه إلى هذا الوجود[1].

الملائكةُ المتلقّون يتعاقبون في الناسِ اثنين اثنين

معنى تعريف ﴿ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ﴾ لتعريف العهد، والمراد: الحَفَظةُ المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: 61]، وقوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: 11]، وقد تكون لتعريف الجنس.

فائدةُ تَثنيَةِ ﴿ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ﴾:

ثُنّيَ ذكر الملَكين دون جمعهما في قول اللّه تعالى: ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ هذا الجنسَ مُقَسَّمٌ اثنين اثنين[2]، قال الحسن: الحفظة أربعة، اثنانِ بالنَّهار، واثنانِ باللَّيل[3]، والعبرة في ذلك أنَّهم حالَ الاجتماع يكونان اثنين لا أكثر.

الإيماء التَّهديديُّ للمشركين أن يقترفوا الباطل أو يقربوه

غرض حذف المفعول:

حُذِف مفعولُ فعلِ التلَقّي في قول اللّه تعالى: ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ﴾ لمعرفةِ المقصودِ من السّياقِ، وهو مفهومٌ من قوله تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾، والتقدير: (إذ يتلقّى المتلقّيانِ أقوالَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 421.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 301.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 534.

الإنسان وأفعالَه)، وأوثِر حذف المفعول على ذكرِه لإثارة المُخاطَب إلى معرفته والتطلُّع إليه، حتّى إذا ورد ما يدلُّ عليه ثبت في النفس، وتمكَّن منها أفضلَ تمكُّن، فإنَّ للحذفِ شأنًا في الكلام البليغ، مع ما في الحذفِ من الإيماء التَّهديديِّ للإنسانِ أن يلفظَ الباطل، أو يأتيَ المُنكَر.

نوع الجناس وبلاغته:

عملُ المَلَكيْن المُتَلقِّيَيْن ينحصرُ في تسجيلِ الأعمالِ

بَينَ الفعل والفاعل في قول الله تعالى: ﴿يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ﴾ ما يُسَمَّى جناس الاشتقاق؛ إذ اجتمع اللفظان في أصل الاشتقاق، وفي التَّعبير عن الملكَينِ بـ ﴿ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ﴾ المجانس للفعل ﴿يَتَلَقَّى﴾ دلالةٌ على أنَّهما فُرِّغا لهذا العمل، وخُصِّصا له، فلا عملَ لهما غيرُه، ويلازمانِ الإنسانَ من وقت تكليفِه إلى أن يموت[1].

نكتةُ تقديم الخبر:

الإحاطةُ بأعمالِ الإنسان وتسجيلُها وعيدٌ للمكذِّبين

جملة: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ في محلِّ نصب حال من ﴿ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ﴾، جاءت بيانًا لكيفيَّة قيام المَلَكينِ بتلقّي أعمال الإنسان وأقواله، بذكر أنَّهما يقعُدانِ عن يمينه وشماله بصفة دائمة؛ ليَتَلَقَّيا كلَّ ما يصدُرُ منه في أيِّ زمانٍ ومكانٍ، وقُدِّم الجارُّ والمجرورُ الواقع خبرًا ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ على المبتدأ[2] ﴿قَعِيدٌ﴾، مع ما عُطِفَ على الخبر بإعادة الخافض ﴿وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾؛ للاهتمام بما دلَّ عليه المعطوفان من إحاطة الملكين التامَّة بجانِبَيِ الإنسان، واطِّلاعِهما الكامل على كلِّ أقوالِه وأفعالِه، وتأكيد قيامِهما بتسجيلها دون تقصير أو تفريط.

علَّةُ تقديم ﴿ٱلۡيَمِينِ﴾:

قُدِّم ذكرُ اليمين على الشمال في قول الله تعالى: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ باعتبارِ الغالب في الاستعمال، فإنَّ القرآن عادةً

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 302.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 288.

ما يقدِّم ذكرَ اليمين على الشمال، كما في شأنِ الأزواج الثلاثة في سورة الواقعة.

لا يفوت عملٌ ولا قولٌ على الملَكين

فائدةُ إعادة الخافض:

أُعيد الخافض في قول اللّه تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾، ولم يقل: (عن اليمين والشمال)؛ لبيان استقلاليَّة كلٍّ من الملَكَين عن اليمين والشمال بتسجيل الأعمال، ممّا يُؤكِّد الإحاطة التامَّة بكلِّ الأعمال التي يقومُ بها الإنسان.

معنى تعريف ﴿ٱلْيَمِينِ﴾ و﴿ٱلشِّمَالِ﴾:

(أل) في قول اللّه تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ لتعريف العهد؛ إذِ المقصود بهما: اليمين والشمال المعروفان لكلِّ إنسان، وتحتمل أن توجَّه على أنَّها لام العوض عن المضاف إليه المحذوف، والتقدير: (عن يمين الإنسان وعن شماله)[1].

الاكتفاءُ اللفظيُّ لـدلالـةِ اللـفظ على إرادةِ الملَكَين

بلاغةُ إفرادِ ﴿قَعِيدٌ﴾ وتنكيرِه:

جيء بالمبتدأ في الجملة الحاليَّة: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ مفردًا؛ للدلالة على أنَّ القعيدَ المتلقّي واحدٌ في كلِّ جانب، والمعنى: (عن يمينِ الإنسان قعيدٌ لكتابة الحسنات، وعن شماله قعيدٌ آخَرُ لكتابة السيِّئات)، وحُذف الأوَّل لدلالة الثاني عليه[2]، فهو اكتفاءٌ لفظيٌّ للإيجاز، وقيل: ما يُعبَّر عنه بصيغة (فَعيل) يُطلَق على المفرد والمتعدِّد، ونُكِّرَ ونوِّنَ للتعظيم والتفخيم، فهما ملكان عظيمان[3].

نكتةُ استعمالِ صيغة فَعيل:

أوثر التعبير عن المبتدأ ﴿قَعِيدٌ﴾ بصيغة (فَعيل)، ومعناه: المُقاعِد، مثل الشريب للمشارب، وعَدَل البيان من (فاعل) إلى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 302.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 129.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 421.

(فعيل)؛ للمبالغة[1] الدالَّة على قيام الملكين بالعمل الموكَل إليهما على الوجه الأكمل الأبلغ.

بلاغة الاستعارة في القُعود:

المتلقّيان ملازِمان لـلإنـسـان لا يُفارِقانِه

القعيد في قول الله تعالى: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ﴾ مستعارٌ للملازِم الذي لا ينفكُّ عنه، كما أطلقوا القعيد على الحافظ؛ لأنَّه يلازم الشيءَ الموكل بحفظه[2]، وقد شُبِّهت الملازمة بالقعود، ثم استُعير لها القعود بعد تناسي التشبيه وادِّعاء أنَّ المشبه فردٌ من أفراد المشبَّه به، على سبيل الاستعارة التصريحيَّة، الموضِّحة ملازمةَ المتلقّيين يمينَ الإنسان وشمالَه، وحرصَهما على تسجيل أعماله، وعدمَ انصرافِهما عن ذلك إلى أيِّ عملٍ آخر، والمعنى: (عن يمين الإنسان ملَكٌ ملازِم له لكتابة الحسنات، وعن الشمال كذلك ملَكٌ آخر ملازِم له لكتابة السَّيِّئات)[3].

علَّةُ فصل الجملة:

من كمال الإنذار بيانُ الخطاب

جاء قولُ الله تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ مفصولةً عن جملة: ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ﴾؛ لأنَّها كالبيان لها[4]، فهي مفصولةٌ عنها لكمال الاتِّصال الذي تُنزل فيه الجملةُ الثانيةُ من الأولى منزلةَ التابع من متبوعه، فتُفصَل عنها كما يُفصل التابعُ عن المتبوع، فالجملةُ الثانيةُ تُجيب عن سؤال أثارته الجملةُ الأولى في نفسِ المتلقّي، تقديره: (ما يفعل المتَلَقّيان؟)، فتأتي الجملة الثانية لتجيب عنه، وتُفصَل عنها كما يُفصَل الجواب عن السؤال[5].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 534.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 302.
(3) طنطاوي، التفسير الواضح: 13/ 343.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 302.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 421.

نوعُ ﴿مَّا﴾ ودلالتُها:

تسجيلُ عمومِ الأقوال الصّادرة عن الإنسان عمومًا مطلقًا

﴿مَّا﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ هي النافية العاملة عملَ (ليس)، أوثر النفيُ بها؛ لأنَّ من خصائصها نفيَ الجمل الاسميَّة والفعلية، فهي أوسع استعمالًا من (ليس)؛ لأنَّ (ليس) مختصَّةٌ بنفي الجمل الاسميَّة فحسب[1]، والنفي بـ ﴿مَّا﴾ أنسب هنا؛ لأنَّها آكدُ في النفي من (ليس)؛ إذ تفيد - بمعناها ومبناها المختومِ بألف المدِّ - نفيَ استثناءِ أيِّ قولٍ يصدر عن الإنسان من الكتابة والتسجيل نفيًا قاطعًا لا حدودَ له.

دلالة مُضارعَةِ فعل التلَفُّظ:

أوثر التعبير بفعل التَّلَفُّظ في قول اللّه تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ مضارعًا؛ للدلالة على قيام الملَكَين بتسجيل كلِّ لفظ يتجدَّد قولُه من الإنسان، متى وأين وكيف كان، وفيه من الترهيب ما لا يغيب.

دلالةُ قولِه: ﴿مِن قَوۡلٍ﴾:

تأكيد عمومِ المعنى وشمولِه كلَّ قولٍ يصدُر عن الإنسان

دلَّ حرفُ الجرِّ ﴿مِن﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ على تقوية النفي وتأكيدِه، وجي بالاسم المجرور به نكرةً؛ لما يفيده التنكيرُ الواقع في سياق النفي من عموم المعنى وشموله كلَّ قولٍ يصدر من الإنسان، سواء أكان مفيدًا أم غيرَ مفيد، وسواء أكان كلامًا في الخير، أم كلامًا ممّا نهى عنه الشَّرع، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾ [الحجرات: 11]، أو غير ذلك ممّا دقَّ أو جلَّ[2].

---

(1) السامرائي، معاني النحو: 4/ 191.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 421.

وَجهُ تخصيصِ القَولِ بالذِّكر:

التَّنبيه بذكر الأدنى على الأعلى مرتبة عليا في الإيجاز اللفظيِّ

اقتصر البيانُ القرآنيُّ على إيراد تسجيل الأقوال دون الأفعال في قول اللّه تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾؛ لأنَّه إذا كان على اللفظ رقيبٌ عتيدٌ، فأحرى على العمل[1]، فهو من باب التَّنبيه بالأدنى على الأعلى، وهذا من بديعِ الإيجازِ الدّالِّ بفحوى الخطابِ على مقاصدِ الكلام، وفيه من الإيماء التحذيريِّ ما لا يَخفى.

وربَّما كانت فيه إشارةٌ إلى ما للقول من أثرٍ بالغ في النفسِ وأفعالِها، فلمّا "كانت الأفعالُ اللِّسانيَّةُ والقلبيَّةُ والبدنيَّةُ ناشئةً عن كلام النفس، فكان الكلامُ جامعًا، خُصَّ القولُ بالذكر؛ للدَّلالة على إحاطة علمه بإحاطة مَن أقامه لحفظ هذا الخَلْقِ الجامع"[2].

نوعُ القصرِ وبلاغتُه:

توكيد المعاني الغيبيَّة تثبيتٌ للحقائق العقديَّة وتحقيقٌ للدَّلالاتِ الإيمانيَّة

في قول اللّه تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ قَصْرُ موصوفٍ على صفة بطريق النفي والاستثناء، قَصَر فيه النظمُ الأقوالَ الملفوظةَ التي تصدُر من الإنسان على كونها مشهودةً محضورةً من رقيبٍ عتيدٍ لديها، قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا؛ ليُفيدَ تأكيدَ تسجيل المَلَكَين اللذين عن يمين الإنسان وشماله الأقوالَ التي يلفظها، والأفعالَ التي يفعلها، وعدم استثناء أيِّ شيء منها، وأوثر النفي والاستثناء طريقًا للقصر؛ لما يمتاز به من الحسم والتأكيد الذي يناسب المُخاطَبَ المُنكِرَ قُدرةَ اللّه تعالى على البعث بصفةٍ عامةٍ، وقدرتَه على معرفة ما توَسْوِسُ به نفسُ الإنسانِ بصفةٍ خاصةٍ، والشاكَّ أو المترددَ في قبول كونه تعالى أقربَ إليه من حبل الوريد، من خلال تأكيد إحصائه ﷻ أقوالَ الإنسان وأفعالَه بواسطة ملكين مُراقِبَيْن حاضِرَيْن للكتابة لا ينشغلان عنها أبدًا.

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 534.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 421.

نكتةُ استعمال (لَدَى):

حقيقةُ حضورِ الملَكَين لِتَلَقّي أفعالِ الإنسان وأقوالِه

تُستعمل (لَدَى) بمعنى (عِنْد) مُطلقًا، نَحْو قوله تعالى: ﴿لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ [غافر: 18]، و﴿لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف: 25]، و﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: 44]، لكنَّها أخصُّ من (عند) وأبلغ هنا؛ لأنَّ (عند) تكون ظرفيَّةً للأعيان والمعاني معًا، بخلاف (لَدَى)، و(عند) تُستعمل في الحاضر والغائب، ولا تُستعمل (لَدَى) إلّا في الحاضر[1].

فلمّا كان السياق في قول اللّه تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾؛ للتَّأكيد على دوام حضور المتلَقّيَين وعدم غيابهما عن المراقبة والوجود؛ ناسب التعبيرُ بالمفردة (لَدَى) التي لا تُستَعمل إلّا فيما يكون حاضرًا موجودًا، بخلاف (عِنْد) الذي يمكن استعماله فيما هو غير موجود، كقولك: عندي مال، ولكنَّه ليس حاضرًا بين يديَّ.

غَرَضُ تقديم الظَّرف:

تقويةُ مراقبة الملَكَين للإنسان في كلِّ أقوالِه وأفعالِه

قُدِّم الظَّرف ﴿لَدَيْهِ﴾ - وهو متعلِّقٌ بمحذوف في محلِّ رفع خبر - على المبتدأ ﴿رَقِيبٌ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾؛ لتقويةِ حضورِ الملكين وتأكيده، ومراقبتِهما أقوالَ الإنسان وأعمالَه وعدم انشغالِهما عن ذلك بأيِّ شيء آخر، فلا يصدر قولٌ عن أحدٍ، أو فعلٌ في ليلٍ أو نهارٍ، إلّا وهما مطَّلعان حاضران للكتابة والإثبات والتسجيل، مع ما في التَّقديم من التشويق لمعرفةِ الأمر المتعلِّق بالظَّرف.

بلاغة استعمال لفظِ الرَّقيب مُنَكَّرًا:

الرَّقابةُ الملَكيَّة تحذيرٌ وتهديدٌ بليغٌ لمن وعَى الحقَّ

آثر النظمُ الكريمُ التعبير عن كلِّ واحدٍ من الملكين بوصف الرَّقيبِ في قول اللّه تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه لا يكتب إلّا عن مُراقبةٍ واطِّلاع وحضورٍ ومعرفةٍ بالسياق

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 209.

الذي أُلقيَ فيه القولُ، وفي لفظ الرَّقابة من التَّحذير والتَّهديد والوعيدِ ما لا يخفى؛ لعدمِ غيابِ شيءٍ ممّا يصدر عن الإنسان، فقد أوتيا القدرةَ على التَّمييز بين الخير والشَّرِّ من الأقوالِ والأفعالِ، وجيء به نكرةً منوَّنًا للتَّعظيم، وعلى وزن (فَعيل) للمبالغة؛ إشارةً إلى قيام المَلَك بمُهِمَّته على خيرِ وجهٍ وأحسنِه، والمعنى: (رقيبٌ مِنْ حَفَظَتِنا، شديدُ المُراعاة له في كلِّ أحوالِه)[1].

نكتةُ الوصفِ بالعَتيد:

المَلَكان مراقِبان الأعـــمـــال، وحـــاضـــران لا يغفلان

آثر البيانُ القرآنيُّ وصفَ الرَّقيب بصفةِ العَتيد، في قول اللّه تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾؛ وذلك للدَّلالة على الإعداد والتَّهيئة والحضور والقرب، فهو ملَكٌ مُعَدٌّ للتَّسجيل والكتابة، مُهَيَّأٌ للقيام به، وجيء به نكرةً منوَّنًا للتَّعظيم والتَّفخيم، وعُبِّر عنه بصيغة (فَعيل) للمبالغة؛ إشارةً إلى عدم غفلته عن عمله بأيِّ حالٍ من الأحوال، والمعنى: (حاضرٌ مراقِبٌ غيرُ غافلٍ بأيِّ وجهٍ من الوجوه)[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 421.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 421.

﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩﴾

[ق: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بـعـد مـرحـلـةِ تسجيل الأعمالِ تـبـدأُ المـرحـلـة الأخــرى بـذكـرِ سكرةِ الموتِ

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة عملَ الملَكَين من تسجيل الأعمالِ على الإنسانِ لأجل الحساب يوم الحساب؛ ناسب ذكرُ الموتِ الذي هو الفاصِل بين تسجيل الأقوال والأعمال والمحاسبة عليها، فإنَّ عمل الملَكَين هو وسيلةٌ موصلة إلى غاية الحساب، كما أنَّ تسجيل الأعمال يُمثِّل السِّجِلَّ التدوينيَّ الذي يجمع الأدلَّة على حساب الإنسان يوم القيامة، ولن يكون الجزاء على الأعمال إلّا بعد الموت، "فهذا تنقُّلٌ في مراحلِ الأمور العارضة للإنسان، التي تُسْلِمُه من حالٍ إلى آخر، حتّى يقعَ في الجزاء على أعمالِه الّتي أحصاها عليه الحفيظان"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَكۡرَةُ﴾: (سكر) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى حَيْرَةٍ، مِن ذَلِكَ السُّكْر مِنَ الشَّراب، يُقالُ: سَكِرَ سُكْرًا، ورَجُلٌ سِكّيرٌ، أيْ: كَثيرُ السُّكْرِ[2]، والسُّكْرُ: حالةٌ تعرض بين المرء وعقله، وأكثر ما يُستعمَل ذلك في الشَّراب، وقد يعتريه من الغضب والعشق وغيرِهما، ومنه سَكَراتُ الموت، قال تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾[3].

2) ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: (حقق) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى إحْكام الشَّيْءِ وصِحَّته، وهو نَقيضُ الباطِلِ[4]، يُقال الحقُّ للشَّيء الثّابت الرّاسخ المتمكّن بشريعةٍ صحيحة أو عُرفٍ عامٍّ مُسَلَّم، ويُقالُ: حَقَّ الشَّيْءُ: وجَبَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 305.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سكر).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (سكر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق)، وابن منظور، لسان العرب: (حق).

وثبت، قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ [يونس: 32]، وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ [القصص: 63]، أي: ثَبَت، وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾، يعني: الذي حَقَّ، وثبت، فلا يتخلَّف[1].

3) ﴿تَحِيدُ﴾: (حيد) أَصْلٌ يَدُلُّ على المَيْلِ والعُدولِ عَنْ طَريقِ الاسْتِواءِ، يُقالُ: حادَ عَنِ الشَّيْءِ يَحيدُ حَيْدَةً وحُيودًا، والحَيودُ: الَّذي يَحيدُ كَثيرًا، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾، أي: تعدِل عنه، وتنفِر منه[2].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

المــوتُ حقيقةٌ ظـاهـرةٌ يحاول الإنسانُ الهروبَ من ذِكرِها

تبيِّنُ الآيةُ أنَّ الموتَ هو الحقيقةُ الأكيدةُ، والنِّهايةُ الثّابتةُ المحتومةُ لكلِّ إنسان، وأنَّه برهانٌ واضحٌ على قدرة اللّه على البعث، وأنَّ الإنسانَ مَهما عاش من السِّنين، ومهما طال به العمرُ؛ يفرُّ منه، ويهربُ، ويخاف، ويرتعدُ مِنْ سيرتِه ومن مجرَّد ذكرِه، وفي الوقتِ ذاته لا يستطيع إنكارَه أو التَّغاضي عن حقيقته.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

احــتــمــال الاسـتـئـنـاف والـعـطـف باعتبارِ ارتباطِ المعاني اللّاحقة بالسّابقة

تحتمل الواوُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ أن تكون استئنافيَّة، وما بعدها كلامٌ مستأنَف مسوقٌ؛ لبيان ما يلاقونه من الموت والبعث وما يترتَّب عليهما من الأهوال[3]، وتحتمل أن تكون عاطفة، إمّا على قوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾، بقصد التَّنبيه على الجزاء على الأعمال، والتنقُّل في مراحلِ الأمور

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حيد)، والرّاغب، مفردات القرآن: (حيد).
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 288.

العارِضة للإنسان التي تُسَلِّمه من حال إلى آخر، حتّى يقع في الجزاء على أعماله التي أحصاها له الحفيظان[1]، وإمّا على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾، باعتبار كلٍّ منهما دليلًا على قدرة الله تعالى على البعث، الذي نزلت السورةُ الكريمةُ؛ لدحض إنكار الكفّار له، وإبطال رفضهم الإيمانَ به.

بلاغةُ الاستعارةِ في المجيء:

تهويل حالة الاحتضار وإبراز تعلُّق الإنسان بالدنيا

في التعبير عن حصول الموت واعترائه الإنسانَ بفعل المجيء، في قول الله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، شُبِّهَ فيه وقوعُ السَّكَرات واعتراؤُها الإنسان بالمجيء، ثمّ تُنوسيَ التشبيه، وادُّعيَ أنَّ المشبَّه من أفراد المشبَّه به، ثمَّ استعير المجيء للحصول، تهويلًا لحالة احتضار الإنسان وشعوره بأنَّه مفارقٌ الحياةَ التي أَلِفها، وتعلَّق بها قلبُه[2].

بلاغة الاستعارة في الفعل المضارع:

موتُ الإنسانِ حكمٌ كونيٌّ لا محيدَ عنه

جاء التَّعبيرُ عن المجيء الذي سيَحدُث في المستقبل بصيغة الماضي، في قول الله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾؛ للدلالة على تأكُّد وقوعه، وأنَّه نظرًا لذلك صار بمنزلة ما قد حصل؛ قصدًا لإدخال الرَّوعِ في نفوس المشركين[3]، فهو تشبيه ما سيقع في المستقبل بما وقع في الماضي، على سبيل الاستعارة التَّبعيَّة؛ لتحقيق وقوع الموتِ، وأنَّه أمرٌ حتميٌّ، وحكمُ الإنسانِ أنَّه ميِّتٌ لا محالةَ كونًا وواقعًا، وما هو إلّا وقتٌ يمضي.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمجيء:

الموتُ يجيءُ مصاحبًا للأهوال والشَّدائد

آثر النَّظمُ التعبير بفعل المجيء الدالِّ على الإتيان بصعوبة، في قول الله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾، دون فعل الإتيان

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 305.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 306.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 129، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 306.

الدالِّ على المجيء بسهولة[1]؛ للإشارة إلى ما يصاحب سكراتِ الموت من شدائدَ وأهوالٍ تصيبُ الإنسان بالحَيرة والاضطراب وفقدان التركيز، إلّا من ثبَّته اللّه تعالى، وأنعَمَ عليه بالسكينة والاطمئنان.

بلاغة المجازِ العقليِّ:

تـصويرُ مشهد الموتِ عند النَّزعِ

إسناد فعل المجيء إلى سكرة الموت، في قول اللّه تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ مجازٌ عقليٌّ علاقتُه المفعوليَّة؛ إذِ السَّكرةُ ناتجةٌ عن مجيء الملائكة لقبض الرّوح، لكنْ لّما كانتِ السَّكرةُ المُتَرَتِّبة على المجيء شديدةً، مُسكِرةً لعقل الإنسان، مصيبةً له بالخلل وعدم الاتِّزان؛ أُسند فعل المجيء إليها لإبراز ما يسبِّبه مجيء ملَكِ المَوت للإنسان، فتظهر فائدةُ المجاز العقليِّ في تصوير مَشهَد الموتِ عند النَّزع، والفرق واضح بين ما جاء عليه التعبير وبين أن يُقال: (وجاء ملَكُ الموت بالحقِّ).

بلاغة استعمال مادَّةِ السُّكْر:

عند الموت تخرجُ أقـوالُ الإنـسانِ وأفـعـالُـه عـن قانون الاعتدال

أوثر التعبير عن فاعل المجيء بالسَّكْرَة، في قول اللّه تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾؛ للدلالة على ما يترتَّب على الموت من شدَّةٍ تُذهِب العقولَ، وتذهلُ الفطنَ، وتجعل الإنسانَ بصفة عامَّة - ومنكرَ البعثِ ورافضَه بصفةٍ خاصَّة - في حالةٍ يصيرُ فيها كالسكران، لا يعي شيئًا، وتخرجُ بها أحوالُه وأفعالُه وأقوالُه عن قانون الاعتدال[2]، فالسُّكْر هو إغلاقٌ يعتري الإنسانَ عن القيام بالأعمالِ، أو التلفُّظ بالأقوال، وما بعد حال السكرة التي يُحدثها الموت تختلف عمّا قبله؛ لأنَّه لا اعتبار بما يصدر عن الإنسانِ بعدها من إيمانٍ أو عمل صالح، كما لم يُقبل من فرعون إيمانه، وهو في سكرة موته حين الغرق في البحر.

(1) الراغب، مفردات القرآن: (جاء).

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 422.

بلاغة الاستعارة في فاعِلِ المجيء:

شُبِّهت سكرةُ الموتِ بشخصٍ في قول اللّه تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾، وحُذِف المشبَّه به، ورُمز له بالمجيء على سبيل الاستعارة المكنيَّة، وفائدة ذلك تصوير المشهد بالتَّخييل، فإنَّ الخيالَ يُشخِّص سكرةَ الموت.

نكتةُ إفراد ﴿سَكۡرَةُ﴾:

السَّكرةُ اللاحقةُ تُنسي السكرةَ السّابقة

ما يُصيبُ الإنسانِ عند موته سكرات متتالية، لكنَّ النَّظم عبَّر عن ذلك بالإفراد، فقال: ﴿سَكۡرَةُ﴾ دون (سكرات)؛ وذلك للتهويل والتفخيم، فإنَّ السَّكرةَ الواحدة شديدةٌ على الإنسانِ، فكانت السَّكرة الواحدة لشدَّتها يُنسي لاحقُها سابقَها.

دلالةُ إضافةِ السَّكرةِ للموت:

يختصُّ الموتُ بسكرةٍ غيرِ معهودةٍ للأنام

في إضافة السَّكرَة إلى الموتِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ - بجانب التفخيم والتهويل - دلالةٌ على الارتباط الوثيق بينهما، وأنَّ الموتَ لا بُدَّ أن يكون مصحوبًا بها، فهي سكرةٌ من الموتِ آتيةٌ، وتختصُّ السكرة بكونها من الموتِ عن باقي السَّكرات التي يعهدها الإنسان في حياته، وفيه تحذيرٌ للجميع من إنكار البعث، وحثٌّ على الاستعداد للموت وما بعده، ممّا ذكره القرآن في كثير من المواضع.

نوعُ الباء ودلالتُها:

تأتي سكرةُ الموتِ ملتبسةً بالحقِّ الواقعِ صدقًا وعدلًا

جاءت شِبهُ الجملة ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ في محلِّ نصب حال من السَّكرة، في قول اللّه تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾، والباء فيه للملابسة، والمعنى: (جاءت السكرةُ ملتبسةً بالحقِّ الثابت الذي لا يتخلَّف)، أي: إنَّها السَّكرة التي لا طمَعَ في امتداد الحياة بعدها، ويمكن أن يكون الجارُّ والمجرور حالًا من ﴿ٱلۡمَوۡتِ﴾، والباء أيضًا للملابسة، والمعنى: (جاء الموتُ ملتبسًا بأنَّه الحقُّ)، أي: الموت هو

المفروضُ المكتوب على الناس، فهم محقوقون به، أو الذي هو الجِدُّ المضاد للعَبَث، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [التغابن: 3][1]، وقيل: الباء للتعدية، أي: (أَحْضَرَتِ السَّكرةُ حقيقةَ الأمر الذي أنطق اللّه به كتبَه، وبعث به رسلَه، أو حقيقةَ الأمر وجليَّة الحال من سعادة الميت أو شقاوته[2].

موقعُ جملة المقَول:

المـــوتُ أصـــدقُ الحقائقِ وأكثر مـا يـغـفـلُ عنه الإنسانُ

قول اللّه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ جملةٌ في محلِّ نصبٍ مقولٌ لقولٍ محذوفٍ معطوفٍ على الاستئناف[3]، تقديره: (وجاءت سكرة الموت بالحقِّ، وعندها يُقال للإنسان: هذه هي الحقيقةُ التي كنت تهربُ منها، وتفرُّ من ذكرها، وتتلهَّى عنها بملذّات الدنيا وشهواتها، فلم ينفعك الآنَ الهربُ منها، ولا أنجاك الفرارُ).

فائدة الإشارة للبعيدِ:

تـفـخـيـمُ المــوتِ وتـنـزيـلُـه منزلةَ الـشَّيءِ الحاصل المُشاهَد

﴿ذَٰلِكَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ مبتدأٌ، خبرُه اسم الموصول وصلته: ﴿مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾، والإشارة به قد تكون إلى ﴿ٱلۡمَوۡتِ﴾، أو إلى (الحَقِّ)، وجاء استعمال اسمُ الإشارة؛ تنزيلًا لقرب حصول الموت وتأكيدِ وقوعه منزلةَ الشيء الحاصل المُشاهَد[4]، واختيرَ اسمُ الإشارة المستعمَلِ للبعيد لتفخيم الموت وتعظيمه؛ كي يَنزِل من المتلقّي المنزلةَ اللّائقة، والمعنى: (هذا هو الأمر العظيم العالي الرُّتبة، الذي يحقُّ لكلِّ أحدٍ الاعتدادُ له بغاية الجدِّ والاجتهاد)[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 306.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 385.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 309.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 306.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 423.

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

جملةُ الصِّلة تحملُ معانيَ تفصيليَّةً لا يُؤدّيها الاسمُ الظّاهر

استعمل النَّظم الكريم الاسم الموصول ﴿مَا﴾، في قول اللّه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾؛ لما يفيده من زيادةِ تفخيم الموت والتهويل من شأنه، فتنبيهُ المخاطَبين بجملة الصِّلة يختلف عن الاسم الظاهر، وليعمل التفخيمُ والتهويل عملَهما في نفوس المشركين الذين ينكرون البعث بصفة خاصَّة، وفي نفوس الناس بصفة عامَّة، وليتوصَّل من خلال جملة الصِّلة إلى أنَّ الأمر الذي حاد الناسُ عن ذكره، وغفلوا عن الاستعداد له في حياتهم قد صار حقيقةً واقعةً لا يستطيعون ردَّها أو الفرارَ منها، وفيه من التبكيت والتأنيب ما يدفع إلى ترك الإنكار، ويَحُثُّ على حُسنِ الاستعداد.

دلالةُ استعمالِ فعل الكينونة:

كراهيةُ وقوعِ الموتِ ثابتٌ لجميعِ الناسِ بدرجاتٍ متفاوتةٍ

آثر النظم الكريم استعمالَ فعل الكينونة في خطابِ الإنسان من قول اللّه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الحَيْدَ عن ذكر الموت والفرارَ منه وكراهيةَ وقوعه من الأمور الثابتِ حصولُها للنّاس أجمعين، ولكنْ بدرجاتٍ متفاوتةٍ، تصل عند بعضهم إلى درجة الاقتناع المُخالِط للكينونة والجبلة، "فالخطاب للمقصود من الإنسان، وبالمقصود الأوّل منه وهم المشركون؛ لأنَّهم أشدُّ كراهيَةً للموت؛ لأنَّ حياتَهم مادّيَّةٌ مَحضَة، فهم يريدون طول الحياة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [البَقَرَة: 96]؛ إذ لا أملَ لهم في حياة أخرى، ولا أملَ لهم في تحصيل نعيمها، فأمّا المؤمنون؛ فإنَّ كراهتهم للموت المرتكِزةَ في الجِبِلَّة بمقدار الإلف، لا تَبلُغ بهم إلى حدِّ الجَزَعِ منه"[1].

بلاغةُ الالتفات:

التفت النَّظم في قول اللّه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 306.

وكان مقتضى الظاهر أن يُقال: (ذلك ما كان منه يحيد)؛ اتِّساقًا مع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾، فعدلتِ الآية من الغيبة إلى الخطاب؛ لما يفيده الالتفاتُ بصفة عامَّة من إيقاظ المتلقّي وتنبيهه وتطريَتِه؛ بسبب عدم جرَيان الكلام على أسلوبٍ واحدٍ، ولما يفيده طريقُ الخطاب بصفةٍ خاصَّةٍ من إشعار المتلقّي بأنَّ الكلامَ موجَّهٌ إليه، وأنَّه المَعْنيُّ بما يريد البيانُ لَفتَ نظره إليه من حقّية الموتِ الداعيةِ إلى ضرورة الاستعداد له.

لفتُ نظرِ المُتلقّي إلى حقّيةِ الموتِ الداعيةِ إلى ضرورةِ الاستعدادِ له

غرضُ تقديم الجارِّ والمجرور:

قُدِّم ذكرُ الجارِّ والمجرور ﴿مِنۡهُ﴾ على الفعلِ ﴿تَحِيدُ﴾، في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾؛ للاهتمام بما منه الحياد، ولرعاية الفاصلة[1]، وقد يكون التقديم لإفادة التخصيص، وقصْرِ حَيْدِ الإنسانِ وهروبِه في الدُّنيا على ذكرِ الموتِ ووقوعِه بعد نفيه عن أيِّ شيءٍ آخرَ، والمعنى أنَّه لمّا كانت نفرتُه منه وهرَبُه من وقوعه بحفظِ الصِّحةِ ودواءِ الأدواءِ في الغاية؛ كان كأنَّه لا ينفر إلّا منه[2].

أعظمُ مَهروبٍ منه في الحياةِ الدُّنيا هو الموتُ

دلالةُ المغايَرةِ بين الماضي والمضارع:

عبَّر البيانُ الكريمُ في أوَّل الآية بالفعل الماضي: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾؛ حتّى لا يَدَع الخاطرَ يحوم في أُفُق الانتظار، وإنَّما يلِجُ به قلبَ الحقيقة التي شملته، وأحاطت به، ثم عبَّر في آخرها بالمضارع: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾؛ ليبلُغَ الغاية في الدِّقَّة وتصويرِ حال النفس التي لا تستطيع أن تحدِّقَ في الحقائقِ القاسية[3]؛ إذِ الفعل المضارع ﴿تَحِيدُ﴾ يصوِّر - بمعناه وزمانه - حالةَ الهروب المتجدِّدة التي تعتري الإنسان وتُسَيطِر عليه كلَّما جال بخاطره ذكْرُ الموتِ، أو ذكَّره أحدٌ به.

تصويرُ حالةِ الهروب المتجدِّدَة التي تعتري الإنسانَ بسبب ذكرِ الموتِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 306.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 423.
(3) أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 269.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١﴾ [ق: 20 - 21]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلهما:

الانتقالُ من ذكرِ الموتِ إلى ما بعدَ الموت

لَمّا تحدَّثتِ الآيةُ السّابقةُ عن الموت وسَكْرَته، وهروبِ الإنسان من ذكره وسيرته؛ ناسب أن تتحدَّث هذه الآيةُ عن المرحلة الَّتي تليه من مراحلِ الآخرة، وهي البعث الذي يُنكِره الكافرون، ويتعجَّبون من مجيء رسولٍ منهم؛ ليُنذِرَهم بوقوعه، ويُحَذِّرَهم من الغَفْلة عن الاستعداد له[1]، فهو انتقالٌ من ذكرِ الموتِ إلى ذكر البعث، ومن ذكر ما يُنكِره الإنسانُ بالغفلةِ، ويعترف به باللِّسان، إلى ذكر ما يُنكِره الإنسان بالغفلةِ واللِّسان.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلصُّورِۚ﴾: (صور) أصلٌ يدلُّ على تحديدٍ يبيِّن هيئةَ الشيء بالانعطاف عليه وضمِّه وتمييزه عن غيره، كشطَّي النهر، وكجانِبَي الفم، والقطيع من البقر، تُجمع بانضمام هذه إلى تلك[2]، ومنه قَوْلُهُم: صَوِرَ يَصْوَرُ؛ إذا مالَ، وصُرْتُ الشَّيْءَ أصورُهُ، وأصَرْتُهُ؛ إذا أَمَلْتَهُ إليك، ويَجيءُ قياسُهُ: تَصَوَّرَ؛ لما ضُرِبَ، كَأنَّهُ مالَ، وسَقَطَ[3]، ومنه ﴿ٱلصُّورِۚ﴾ بالضَّمِّ: القَرْن؛ لأنَّه مُعْوَجٌّ عادةً، وهو المقصود في الآية.

2) ﴿نَفۡسٖ﴾: (نفس) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى خُروجِ النَّسيم كَيْفَ كانَ، مِنْ ريحٍ أو غَيْرِها[4]، وعليه سُمّيتِ النَّفْسُ نفسًا لتولُّد النَّفَسِ منها واتِّصاله بها، وكذلك سُمّي الدَّمُ نفْسًا؛ لأنَّ النَّفْسَ تخرج بخروجه،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 135.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (صور).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صور).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفس).

ولأنَّ النفْس هي حقيقة الحيِّ - وهو دونها - استُعْمِلَت في حقيقة الشيء وذاته، فاستعملت في القرآن بمعنى الذات، أي: الفَرد من الناس، كما في قول الله تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 233]، وقوله: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ [الزمر: 56][1]، وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ معناه: كلُّ واحدٍ من النّاسِ بصفةٍ عامَّةٍ، والمشركين بصفةٍ خاصَّةٍ[2].

3) ﴿سَآئِقٌ﴾: (سوق) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ حَدْوُ الشَّيءِ، يُقالُ: ساقَهُ يَسوقُهُ سَوْقًا، والسَّيِّقَةُ: ما استيقَ مِنَ الدَّوابِّ[3]، وسُقْتُ المَهْرَ إلى المرأة، وذلك أنَّ مهورَهم كانت الإبلَ، قال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة: 30]، وقال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: 73]، وقوله: ﴿سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، معناه: مَلَك يَسوقُهُ[4].

4) ﴿وَشَهِيدٌ﴾: (شهد) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى حُضورٍ وعِلْمٍ وإعْلام، يُقالُ: شَهِدَ يَشْهَدُ شَهادَةً[5]، فالشُّهودُ والشَّهادَةُ: الحضور مع المشاهدة، إمّا بالبصر، أو بالبصيرة، وقد يُقال للحضور مفردًا، قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [السجدة: 6]، لكنَّ الشهود بالحضور أولى، والشَّهادة مع المشاهدة أولى، أمّا الشهيد؛ فيُقال للشّاهد والمشاهِد للشيء، كقوله تعالى: ﴿مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، أي: مَنْ يشهد له وعليه[6].

المَعنى الإجْماليُّ:

يومُ البعثِ يومُ الجزاءِ الذي يُساقُ إليه الناسُ

تتحدّث الآيتان عن البعث الذي يُنكِره الكافرون، ببيان أنَّه يقع عندما تُنفخ النفخةُ الثانيةُ في الصور، وأنَّ الكفار عند وقوعه يَلْقَوْن

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نفس).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 307.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوق).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (ساق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سشهد).
(6) الراغب، مفردات القرآن: (شهد)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (شهد).

المصيرَ السيِّئَ الذي توعَّدهم اللّه به، بينما يلقى المؤمنون المصير الحسن الذي يستحقّونه؛ وببيان أنَّ كلَّ نفسٍ تُبعثُ مصحوبةً بسائقٍ يسوقُها إلى نتيجةِ عملِها، وشاهدٍ يشهدُ لها أو عليها[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتُها:

عطفُ الحدثِ العامِّ في وقتٍ واحدٍ على الحدثِ التدريجيِّ

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ﴾؛ لعطف ما بعدها على جملة: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾، باعتبار أنَّ كلًّا منهما مرحلةٌ من مراحل الدار الآخرة، وأنَّ النفخَ في الصور الذي يُبعث الناسُ بعده هو ما يلي الموتَ الذي يحيدُ الإنسانُ منه، فهو من عطفِ حدثٍ يَعُمُّ جميعَ البشر في زمنٍ واحدٍ يومَ القيامةِ، على حدثٍ يعمُّ البشرَ واحدًا واحدًا عبر الزمن المُمتَدِّ في الدُّنيا.

نكتة التعبير بالفعل (نُفِخَ):

النَّفخُ في الصّور هو الحدثُ البارز يوم القيامة

جاء التَّعبير القرآنيُّ بصيغة الماضي لفعل النَّفخ، من قول اللّه تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه مُحَقَّقُ الوقوع، وأنَّ على المتلقّي المنكِرِ للبعث وغيرِه أن يَعُدَّ النَّفخَ واقعًا، وأن يعيش حياتَه الدُّنيا مستحضِرًا وقوعه وأحداثَه المُخيفة المفزِعة؛ إذ لا صعوبة في حصوله متى أراده اللّه تعالى[2]، كما أنَّه جيء بالفعل (نُفِخَ) مبنيًّا لِما لم يُسَمَّ فاعلُه؛ لأنَّ القصدَ موَجَّهٌ إلى الإعلامِ بأنَّ حصولَ النَّفخ فيه إيذانٌ بعودة الحياة إلى الموتى، وبعثِهم للحساب والجزاء الذي يُنكِره الكافرون، بقطع النَّظر عن المَلَك الموَكَّلِ بهذا الفعل.

دلالة التعبير بحرف الظرفيَّة:

في التعبير بحرف الظرف في قول اللّه تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ دلالةٌ على أنَّ النَّفخَ يكون في الصّورِ واقعًا حقيقيًّا، وأنَّ

(1) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 523، 524.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 307، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 423.

النَّفخ له أثره الحقيقيُّ في ذلك اليوم، فهو ليس رمزًا لحدَثٍ، بل هو حدثٌ حقيقيٌّ.

معنى تعريفِ ﴿ٱلصُّورِۚ﴾:

اللام في قول اللّه تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ لتعريف العهد، فالمقصود به هو القَرْن الذي ينفخُ فيه إسرافيلُ عليه السلام للموت العامِّ والبعث العامِّ عند التكامل، وانقطاعِ أوان التعامل، والذي ذكره القرآنُ الكريمُ في مواضعَ كثيرةٍ منه.

علَّة فصل الجملة:

التَّعريفُ بالنَّفخِ في الـصّـورِ بأنَّه يومُ الوعيد

فُصِل قولُ اللّه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾ عمّا قبله إمّا على اعتبارها معترِضة[1]، وإمّا لأنَّها كالبيان لها، فيكون لكمال الاتِّصال الذي بينها وبين الجملة السابقة، ويحتمل أن يكون لشبه كمال الاتِّصال الذي تجيب فيه الجملةُ الثانية عن سؤال أثارته الجملة الأولى في ذهن المتلقّي عن سبب النفخ في الصور، فتجيب الجملةُ الثانيةُ بأنَّ النفخ إيذانٌ بالبعث والنشور، وتُفصَل عنها، كما يُفصل الجواب عن السؤال.

دلالةُ استعمال ﴿ذَٰلِكَ﴾:

جاء التَّعبيرُ في قول اللّه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾ باسم الإشارة الموضوع للبعيد؛ لتفخيم المُشارِ إليه، والدلالةِ على علوِّ شأن يوم الوعيد وارتفاعِه في المَخاوِفِ والأهوال، والمعنى: (ذلك الوقت الكبير العظيمُ الأهوالِ والزلازل والأوجال)[2].

دلالةُ الخَبَرِ المُضاف:

النَّفخُ في الصورِ بدايةُ يوم البعثِ المَوعود

﴿يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾ خبرٌ لاسم الإشارة، وفي التعبير به دلالة على أنَّ النفخَ في الصّور هو بدايةُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 307.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 424.

يوم الوعيد، بتقدير مضاف، أي: (ذلك حلولُ يومِ الوعيد)، وإضافة اليَومِ إلى ﴿ٱلۡوَعِيدِ﴾ من إضافة الشيء إلى ما يقع فيه، أي: (حصولُ الوعيد الذي كانوا قد تُوُعِّدوا به في ذلك اليوم).

بلاغة الاكتفاء بذكر ﴿ٱلۡوَعِيدِ﴾:

اقْتُصِر على ذكر ﴿ٱلۡوَعِيدِ﴾ دون (الوعد) في قول اللّه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾ للتهويل؛ لأنَّ المقصود الأوَّل من هذه الآية هم المشركون، وفي الكلام اكتفاءٌ، تقديره: (ويومُ الوعد)[1].

نوعُ الواو ودلالتُها:

يــومُ الـبـعـثِ شديدُ الأهوالِ، مــتــلاحــقُ الأحداثِ

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾؛ لعطف ما بعدها على جملة: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ﴾؛ ودلَّ العطفُ بالواو على سرعة الشَّدائدِ وتلاحُقِ الأهوال، ولبيان أنَّ النفوسَ ستُبعث مصحوبةً بالسّائقِ والشهيدِ من أجْلِ العَرض والحساب، فلمّا كان من تلك النَّفخة صيحةٌ هائلةٌ ورجَّةٌ شاملةٌ، وقام الناسُ عامَّةً من قبورهم، وحُصِّل ما في صدورهم؛ جاء هذا العطفُ بيانًا لإحاطة العرض[2].

بلاغةُ اختيارِ مادَّة المجيء:

أهـــوالُ يــومِ البـعـثِ تصيبُ النفوسَ بالفزَعِ والذُّعر

آثر النظمُ التعبيرَ بفعل المجيء الدالِّ على الإتيان بصعوبة دون فعل الإتيان الدالِّ على المجيء بسهولة، في قول اللّه تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾؛ لدلالته بمعناه ومبناه على ما يصاحب بعثَ النفوس من قبورها من شدائدَ وأهوالٍ تصيبها بالفزَعِ والذُّعْر، لا سيَّما بعد أن ترى معها سائقًا يسوقُها، وآخرَ مُخَصَّصًا للشهادة عليها، فالمجيءُ يدلُّ على صعوبةِ المَشهَد، وما فيه من أحداثٍ جِسامٍ.

فائدةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ﴾:

جاء استعمال لفظِ العموم ﴿كُلُّ﴾ مضافًا إلى النَّكرة ﴿نَفۡسٖ﴾

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 130، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 307.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 424.

نكرةً، في قول اللّه تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾؛ لإفادة العموم الشموليِّ لجميع النفوس، البَرَّةِ والفاجرةِ والمؤمنة والكافرة[1] - ويدخل في ذلك نفوسُ المشركين المنكِرين للبعث دخولًا أوَّليًّا برهانيًّا - لبيانِ أنَّ المجيءَ لا يقتصر على نوعٍ دون آخر، أو نفسٍ دون أخرى، بل هو شاملٌ الجميعَ، وعدالة اللّه تعالى ستصيب الجميع، ولن يُفلت مجرمٌ من عقابٍ، ولا مطيع سيفوته الثواب.

كلُّ النُّفوسِ البرَّةِ والفاجرةِ ستُبعثُ مصحوبةً بالسّائقِ والشَّهيدِ

بلاغة استعمال مُفرَدةِ النَّفْس:

آثر النظمُ الكريم استعمالَ مفردة النَّفْس دون (ذات) أو غيرها، في قول اللّه تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾؛ تأكيدًا لما سبق ذكرُه في السورة الكريمة من أنَّ النفسَ هي التي توسوس للإنسان، وهي التي تدفعه إلى عمل الخير أو اقتراف الشَّرِّ، ومن ثمَّ كان السَّوْقُ لها، وكانت الشهادةُ عليها، ولا يخفى ما فيه من دعوةٍ إلى إصلاحها ورياضتها، فالنَّفس إمّا أن تكون سببَ المهالك، أو سببَ النَّجاة، ففيه تنبيهٌ على أهَمّيَّةِ العناية بالنَّفس، وتربيتِها على طاعة اللّه تعالى وتوحيده.

النَّفس أصل الصَّلاح أو الفساد، ورُكنُ النَّجاة أو الهلاك

مَوقِعُ الجملةِ الإعرابيِّ ودلالتُه:

قولُ اللّه تعالى: ﴿مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾ جملةٌ مكوَّنةٌ من خبرٍ مقدَّمٍ ومبتدأٍ مؤخَّر، يمكن أن تكون في محلِّ نصبٍ حالًا من ﴿كُلُّ﴾ - وهو الأرجح - ويمكن أن تكونَ في محلِّ رفع صفة منه، أو في محلِّ جرٍّ صفةً لـ ﴿نَفۡسٖ﴾، وأيًّا كان موقِعُها؛ ففي التعبيرِ بها دلالةٌ على أنَّ بعثَ النفوسِ من قبورها سيكون مصحوبًا بسائقٍ يسوقُها إلى أرض المَحشَر، وشاهدٍ يَشهَد لها أو عليها؛ تأكيدًا لما سبق بيانُه في قوله تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾.

تُساقُ كلُّ نفسٍ إلى حسابها، معها شاهدٌ لا يفارقها، يشهد لها أو عليها

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 130، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 344.

غَرَض الإضافة في ﴿مَّعَهَا﴾:

مَعيَّةُ السائقِ والشهيدِ تضيفُ للنفسِ ألمًا معنويًّا بجانبِ الألمِ الحِسّي

(مَع) ظرفُ مكان، جيء به مضافًا إلى ضمير النفس، في قول الله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ السائقَ والشهيدَ سيلازمان النَّفسَ في كلِّ مكانٍ تكون فيه، ولن يفارقاها مُنذُ بَعثِها من قبرها إلى أن تلْقَى جزاءها، والتعبيرُ به يزيد من رُعبِ النفوس، ويُضيف إلى ألمها الحسّيِّ المتمثِّلِ في البعثِ ومَشَقّاتِه ألمًا نفسيًّا يتمثَّل في الاضطراب والقلَق من عَجزِها عن إخفاء الأقوال والأعمال أو الكَذِب في تسويغها.

بلاغةُ استعمال لفظِ السّائِق:

تـهـويـلُ الأمـر وتعظيمُ المَشهَد يوجِّه السّامعَ للانزجار والاتِّعاظ

عبَّر البيانُ الكريم عن أحد المُصاحِبَين للنَّفس عند بعثِها باسم الفاعل من السَّوق، في قول الله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾؛ للإشارة إلى أنَّه يكون خلفَ المبعوث، ويجعلُه أمامَه يُزجيه في السير، ليكون بمرأى منه، فلا ينفلت، وذلك من شأن المشي به إلى ما يسوء، قال تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنفال: 6][(1)]، ففيه إيماءٌ إلى التَّنكيل بالمشركين في ذلك اليوم، والسَّوقُ لن يكون على درجةٍ واحدة، فلكلِّ صنفٍ سَوقُه، لكنَّ سوقَ الفجّار ليس كسَوْقِ الأبرار.

نكتةُ تنكيرِ لَفظِ السّائِق:

السّائقُ يوم المَحشَرِ مَبدأُ الوعيد، ودليلُ التَّهديد

نُكِّر لفظ السّائق في قول الله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾؛ لما يفيده التنكيرُ من تعظيم أمرِه وتفخيم شأنه، ولِكَيّ تَذهبَ نفسُ المتلقّي فيه كلَّ مذهب، ولِتَظُنَّ به كلَّ ظنٍّ رادعٍ لها عن التَّمادي في إنكار البعث، وتكذيبِ الرسولِ الذي أرسله الله؛ لينذرَ به.

دلالةُ الواو:

الواو في قول الله تعالى: ﴿مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾؛ لعطف لفظ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 308.

تعدُّدُ الذواتِ أو تنزيلُ تعدُّد الصِّفات منزلةَ تعدُّدِ الذَّوات

الشَّهيد على السّائِق، والعطف بينهما يحتمل أن يكون من عطف ذاتٍ على ذاتٍ، والمعنى المراد: مَلَكان، أحدُهما يَسوق النَّفس إلى المحشر، والآخر يشهد عليها بما حَوَته صحائفُ أعمالها، ويحتمل أن يكون من عطف الصِّفات لتنزيل تعدُّدِ الصفات منزلةَ تعدُّدِ الذَّوات، مثل قولهم: إلى الملك القَرْم وابنِ الهُمام، فهو مَلَكٌ واحدٌ(1).

وسواءٌ أكانا مَلَكَيْن أم مَلَكًا واحدًا، فالتعبير بالشَّهيد يدفع المتلقّين بصفة عامَّة - والكفّارَ الذين يُنكِرون البعثَ بصفةٍ خاصَّةٍ - إلى العدول عن إنكاره، والانصراف عن معاداة الرَّسول المُنذِرِ إلى الإيمان به، واتِّباع الحقِّ الذي جاء معه، وإلى إصلاح النَّفس بعمل الصّالحات وترك السيِّئات؛ لأنَّ هناك شهيدًا سَيَشهَد عليهم يومَ البعث بكلِّ ما فعلوا من خير أو شرٍّ.

لطيفة الصَّوغ بِزِنَةِ (فَعيل):

جيءَ بلفظ الشَّهيد على وزن (فَعيل) للمبالغة، دون (فاعل) في قول اللّه تعالى: ﴿مَّعَهَا سَآيِقٌ وَشَهِيدٌ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ شهادتَه لن تَترُكَ شيئًا من أقوالِ أصحابِ النُّفوس وأفعالِهم مَهما كان صغيرًا، أو تافِهًا حقيرًا من وِجهة نظرهم إلّا شَهِدَت به، وأخبَرَت عنه.

نكتةُ تنكيرِ لفظِ الشَّهيد:

لن يَترُكَ الشَّهيدُ شيئًا من أقوالِ النّاسِ وأفعالِهم إلّا أخبرَ به

أوثِر تنكيرُ لفظ الشَّهيد في قول اللّه تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآيِقٌ وَشَهِيدٌ﴾؛ لتذهبَ نفوسُ المتلقّين في طريقة الشَّهادة ومضمونِها كلَّ مذهب، وليشمل كلَّ ما من شأنِه أن يَشهَدَ على الإنسان بالخير والشَّرِّ؛ إذ قيل: الشهيد هو المَلَك، وقيل: الجوارح، وقيل: البِقاع، وقيل غير ذلك(2).

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 386، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 308.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 535.

﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢﴾ [ق: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لمّا تحدَّثَتِ الآيتانِ السّابقتان عن يومِ البعثِ وحالِ النُّفوسِ فيه؛ ناسب أن تُبَيِّنَ هذه الآيةُ ما يُقال للكافرين في ذلك اليومِ العصيبِ(1)، فهو انتقالٌ من ذكرِ سَوقِ النفوس والشَّهادةِ عليها إلى ذِكرِ خطابِها ومُكاشَفَتِها بالحقِّ.

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿غَفۡلَةٖ﴾: (غفل) أصلٌ يدلُّ على تَرك الشَّيءِ سَهْوًا، وربَّما كان عن عمدٍ، من ذلك: غَفَلْتُ عن الشيءِ غَفلةً وغُفولًا؛ إذا تركتَه ساهيًا، وأغفلتَه؛ إذا تركتَه على ذكْرٍ منك له(2)، فالغَفْلَةُ: سهوٌ يعتري الإنسانَ من قلَّة التَّحفُّظ والتَّيقُّظ، وقيل: فَقْدُ الشُّعورِ بما حَقُّه أن يُشعَرَ به، وقيل: الذُّهولُ عن الشيءِ، وقيل: متابَعةُ النَّفْسِ على ما تشتهيه(3).

2) ﴿فَكَشَفۡنَا﴾: (كشف) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى سَرْوِ الشَّيْءِ عَنِ الشَّيْءِ، كالثَّوْبِ يُسْرَى عَنِ البدنِ، يُقالُ: كَشَفْتُ الثَّوْبَ أَكْشِفُهُ، ويُقال: كُشِفَ غمُّه، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾ [الأنعام: 17]، وقال: ﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ﴾ [الأنعام: 41]، وقال هنا: ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾(4)، والمرادُ به رؤيةُ ما يكون يومَ القيامة ممّا أخبر القرآنُ عنه في الدُّنيا.

3) ﴿غِطَآءَكَ﴾: (غطو) أصلٌ يدلُّ على الغِشاء والسِّتر(5)، والغِطاءُ: ما يُجعل فوق الشيءِ من طبقٍ ونحوه، كما أنَّ الغِشاء ما يُجعل فوق الشيءِ من لباسٍ ونحوه، وقد استُعير الغِطاء للجهالة في هذه الآية، كما في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾ [الكهف: 101](6).

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 386، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 308.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفل).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (غفل)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (غفل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كشف)، والرّاغب، مفردات القرآن: (كشف).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غطو).
(6) الراغب، مفردات القرآن: (غطا)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (غطو).

4) ﴿فَبَصَرُكَ﴾: (بصر) أصلٌ يدلُّ على العِلْمِ بالشَّيءِ، يُقالُ: هوَ بَصيرٌ به، والبَصَر يُقال للجارحة النّاظرة، نحو قوله تعالى: ﴿كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ [النحل: 77]، وقوله: ﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الأحزاب: 10]، وللقوَّة التي فيها، ويُقال لقوَّة القلب المُدرِكة: بَصيرَة وبَصَر، نحو قوله تعالى: ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾[1].

5) ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾: (يوم) أصلٌ يدلُّ على مدَّةٍ من الزَّمن ممتدَّة متَّصلة[2]، فاليَوْمُ: الواحِدُ مِنَ الأيّامِ، ثُمَّ يَستَعيرونَهُ في الأمرِ العَظيمِ[3]، ويُعبَّر به غالبًا عن وقتِ طلوع الشمس إلى غروبها، وقد يُعبَّر به عن مدَّةٍ من الزمان أيَّ مدَّة كانت، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ [آل عمران: 155]، وقال: ﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ﴾ [النحل: 87]، وقال أيضًا: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ﴾ [البقرة: 254][4]، والمراد به هنا: يوم البعث.

6) ﴿حَدِيدٞ﴾: (حدد) أصلٌ يدلُّ على مَنْعِ الشَّيءِ وإيقافِ امتدادِه، ومنه الحَدُّ: الحاجِزُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، وفُلانٌ مَحْدودٌ؛ إذا كانَ مَمنوعًا، وإنَّهُ لَمُحارَفٌ مَحْدودٌ، كَأنَّهُ قَدْ مُنِعَ الرِّزْقَ، ويُقالُ لِلبَوّابِ: حَدّادٌ؛ لِمَنْعِه النّاسَ مِنَ الدُّخولِ، ومن هذا قولُ اللّه تعالى: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: 19]، أي: تؤذي، فتمنع التواصُل، وفُسِّرَت المحادَّة بأنها مفاعلة من الحَدِّ، كأنَّ كلَّ واحد منهما يجاوِزُ حَدَّه إلى الآخر، فهي معاداة ومخالفة ومنازعة، ويُلحَق به نفاذُ الحادِّ في الأشياء، واختراقُه إيّاها، الذي هو من صوَرِ قطعِ امتدادها، فمعنى وصفِ البصرِ به في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾[5]: الغاية في الحِدَّة والنَّفاذِ[6].

المَعنى الإجْماليُّ:

تبيِّنُ الآيةُ الكريمةُ أنَّ الإنسانَ الكافرَ[7] يُقال له يومَ البعث: لقد كنت في غفلةٍ تامَّة من هذا الذي تعانيه اليومَ، وتشاهده، فأزال اللّه عنك في هذا اليوم تلك الغفلةَ التي كانت

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بصر)، والرّاغب، مفردات القرآن: (بصر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (يوم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يوم).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (يوم).
(5) الراغب، مفردات القرآن: (حدّ)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (حدد).
(6) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 425.
(7) اختُلف في تعيينِ المرادِ بالخطابِ في الآيةِ، يُنظر ذكرُ الأقوال عند ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 352.

يرى الإنسانُ يوم القيامة الحقائقَ التي أنكرها في الدُّنيا

تحجُبُك عن الاستعدادِ له بالإيمانِ والعملِ الصالحِ، فصار بصرُك في هذا اليوم نافذًا قويًّا، تستطيعُ أن تُبصِرَ به ما كنتَ تُنكِرُه في الدُّنيا من حقائقِ البعث والحساب والثواب والعقاب[1]، فهي كنايةٌ عن شديد التبكيت والتَّوبيخ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصلِ الجُملة:

أوَّلُ خطابِ المنكِرين يومَ القيامة تبكيتٌ وتقريع

قولُ اللّٰه تعالى: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ مقولُ قولٍ محذوفٍ دلَّ عليه تَعَيُّنُه من الخطاب، أي: يُقال هذا الكلام لكلِّ نفسٍ من نفوس المشركين، فهو خطابُ التهكمِ التوبيخيِّ للنفسِ الكافرة؛ لأنَّ المؤمنَ لم يكن في غفلةٍ عن الحشر والجزاء، وجملةُ القول ومقولُه في موضع الحال من ﴿كُلُّ نَفۡسٖ﴾، أو في موقع الصِّفة[2]، وتحتمل أن يكون استئنافًا بيانيًّا مبنيًّا على سؤالٍ نشأ ممّا قبله، كأنَّه قيل: (فماذا يُفعَلُ به؟)، فقيل: (يُقال له: لقد كنتَ في غفلة)[3].

غَرَضُ تتابُعِ المؤكِّدات:

التَّوكيد بعد تحقُّق الحدث تهكُّم تقريعي للمنكر

جاء قولُ اللّٰه تعالى: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ مؤكَّدًا باللام وبـ (قَدْ)، وبفعلِ الكينونة الماضي؛ زيادةً في تبكيتِ الكافرِ وتأنيبه، بتأكيدِ أنَّه كان يعيشُ في غفلةٍ عظيمةٍ عن البعث، ويبالغُ مبالغةً شديدةً في الحَيْد عن الموتِ وسيرتِه، ويَتَعَمَّدُ التفريطَ في كلِّ ما مِنْ شأنِه الاستعدادُ له، فإنَّ التوكيد في مقام التَّقريع يزيد من تبكيت المخاطَب؛ لاستصحاب الأصل الذي كان عليه في الدنيا من الإنكار، فخطابُ المنكِر بالتَّوكيد بعد تحقُّقِ الحدثِ فيه رائحةُ التَّهكُّمِ التقريعيِّ على ما كان في سابق الأوان.

---

(1) طنطاوي، التفسير الواضح: 13/ 344.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 308، 309.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 130.

فائدةُ ذكرِ فعلِ الكينونة:

ذُكِرَ فعل الكينونةِ الماضي في قول الله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾؛ للإشارة إلى أنَّ الكافر اعتاد التغافلَ عن العمل للموت وما بعده حتّى صارت الغفلةُ كالجِبِلَّة له، والطبيعةِ التي لا يمكنه التَّخَلُّصُ منها[1].

بلاغةُ استعمالِ لفظ الغَفلَة منكَّرة:

الغفلةُ داءٌ تصيب النَّفسَ عند تركِها الحقَّ

جاء في قول الله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ التعبيرُ عن الحال التي يعيشها مُنكِرُ البعثِ في الدُّنيا بمادَّةِ الغَفلَة، التي تعني فقدانَ الشعور بما حقُّه أن يُشعَر به؛ لتأكيد أنَّ تلك الحالةَ نابعةٌ من نفسه، وأنَّه يتعمَّد الانصرافَ عمّا ينبغي أن يَستعِدَّ له، وجيء به مُنَكَّرًا؛ لتأكيد أنَّها غفلةٌ لا يُقادَرُ قدرُها، ولا تحيطُ العبارةُ بوصفِها، لفرَط عَظَمتِها، وفخامةِ أمرِها[2].

بلاغةُ استعارةِ الظَّرفيَّة:

إذا تمكَّنتِ الغفلةُ من صاحبِها أقفلت عليه حُفرَتَها

في الجارِّ والمجرور من قول الله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ، شُبِّهَت فيها حالةُ الغفلةِ - التي يعيشها الإنسان عن الاستعداد للموت وما بعده من بعثٍ وحساب وجزاء - بِحُفرةٍ عميقةٍ وقع فيها بإرادته، وأحاطت به إحاطةَ الظَّرف بالمظروف، حتّى صار لا يستطيعُ الخروجَ منها، ثمَّ حُذف المشبَّهُ به، ورُمز إليه بشيءٍ من لوازمه - وهو الظرفيَّة - على سبيل الاستعارة المكنيَّة، التي تنقُل الغفلة من دائرة المعقول إلى دائرة الشيء المحسوس الذي يُحكِم قبضَتَه على الإنسان، ويُمسِكُ به بشدَّة؛ كي لا يَنفَلِتَ، ويَتَخَلَّصَ من سيطرتِه عليه.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 424.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 424.

نوعُ ﴿مِّنْ﴾ ودلالتها:

مدارُ عِنادِ المُنكِر نفيُ البعث ورَفضُ كلِّ طريقٍ موصِلٍ له

حرفُ ﴿مِّنْ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ بمعنى (عن)، أي: (كنتَ في غفلة عن يوم البعث وما فيه من حشرٍ وحسابٍ وعقابٍ).

بلاغة استعمالِ اسمِ الإشارة:

المباغتةُ في السؤال عند تجليةِ الحقائق تقريعٌ وتبكيت مَشوبٌ بالتَّهكُّم

اسم الإشارة في قول اللّه تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ هو الموضوعُ للقريب، ويُراد به: يوم القيامة وما فيه من بعثٍ وحشرٍ وحسابٍ وجزاءٍ، وأوثِر التعبيرُ به للدَّلالة على أنَّ الكافرَ وغيرَه ممن يتَّبعون شهَواتِهم يَعيشون في غفلةٍ عنه على الرَّغم من شِدَّةِ وضوحه[1] وعظيم جلائِه، وتوفُّرِ الأدلَّة الساطعة التي تؤكِّد قدرةَ اللّه عليه، ومشاكلةً لتعبيرِهم عنه في الحياةِ الدنيا؛ مع ما في استعمال اسم الإشارةِ من المباغتةِ في السؤال عن أمرٍ محسوسٍ مشاهَدٍ متحقِّقِ الوقوع كان منكرًا في الدنيا من قِبَل المشركين، من التبكيت والتَّقريع المَشوبِ بالتَّهكُّمِ الشَّديد.

نوع الفاء ودلالتُها:

الموتُ قريبٌ من الإنسانِ، والقيامةُ أقربُ منه بعد موته

الفاء في قول اللّه تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ عاطفةٌ ما بعدها على قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾؛ للدلالة على أنَّ كشفَ الغِطاء عن الإنسان - ليُدرِكَ حَقِّيَّةَ البعث، ويعيشَ أهوالها، ويتحسَّرَ على التفريط في الاستعداد لها - أمرٌ حاصلٌ على وجهٍ أقربَ وأسرعَ ممّا يتصوَّرُه المنكِرُ أو الغافلُ، فإنَّ كشف الغطاءِ لرؤية الحقيقة العُظمَى إنَّما يكون بعد الموت، فالمُنكِر في غفلةٍ وإنكارٍ للبعث، فإذا مات؛ بُعِث بعد موته، وكُشِفَ الغِطاءُ عن الواقع، فمجيءُ الفاء؛ لبيان سرعةِ وقوع كشف الغطاء بعد حالِ الغفلة، وأنَّه ليس ببعيدٍ عن الإنسان.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 424.

بلاغةُ الاستعارة في كَشفِ الغِطاء:

تصويرُ حقيقةِ البعثِ ويقينيَّته بـالشَّيءِ المحسوس

جاء في قول اللّه تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ التَّعبيرُ عن حصولِ اليقينِ بالبعثِ بعد إنكار وقوعه بكَشفِ الغطاء، وهو استعارةٌ تمثيليَّةٌ، شُبِّه فيها حصولُ اليقين بالشيء والتأكُّدُ من وقوعه بعد الإنكار والجدال فيه بكشف الغطاء عن العين[1]؛ لترى الأشياءَ بجِدَّةٍ ووضوحٍ، ثمَّ استُعيرَ المشبَّهُ به للمشبَّه بعد تناسي التشبيه وادِّعاء أنَّ المشبَّهَ فردٌ من أفراد المشبَّه به، على سبيل الاستعارة التصريحيَّة التَّمثيليَّة التي تصوِّر تأكُّدَ الإنسان من حقّيَّة البعث وإيمانَه به يومَ رُؤيَةِ أحداثِه، لكنَّه إدراكٌ متأخِّرٌ وإيمانٌ لا يَنْفع.

دلالةُ الفعلِ ﴿فَكَشَفْنَا﴾:

جيء بفعل الكشف ماضيًا في قول اللّه تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾، باعتبار ما سيُقال، فهو حكايةٌ عمّا سيُقال للإنسانِ يوم القيامة، وأُسند إلى ضمير التعظيم؛ لأنَّ اللّه هو الذي يُظْهِر - بعظيم قدرته - أسبابَ حصول اليقين بشواهدِ عينِ اليقين[2].

دلالةُ التعبير بحَرفِ المُجاوَزَة:

سيُرفعُ غطاءُ الغفلَة؛ ليُرى اليقينُ جَليًّا

(عَنْ) في قول اللّه تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ حرفُ جرٍّ يفيد المجاوزة، وهو أصلُ معانيه[3]، وفي التعبير به هنا دلالةٌ على أنَّ اللّه تعالى سيرفع الغطاءَ الذي حال بين الكافر وبين حقيقةِ يومِ البعث، ويزيله بالكُلّيَّة؛ لتظهر أمامَه واضحةً جليَّةً، لا يستطيع إنكارَها أو الفرارَ منها بأيِّ حالٍ من الأحوال.

نكتةُ تقديم ﴿عَنكَ﴾:

قُدِّم ذِكرُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَنكَ﴾ على المفعول، في قول اللّه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 309.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 309.
(3) المرادي، الجنى الداني، ص: 245.

تعالى: ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾؛ لأنَّ الاهتمامَ موجَّهٌ إلى تبكيت ذلك المنكِرِ وإراءَتِه حقيقةَ البعثِ التي كان يعيش في غفلة عنها، فلمّا كان منكِرًا للبعث؛ ناسب أن يُبدَأ به باعتباره المقصودَ بالتقريع.

بلاغة الاستعارة في الغِطاء:

تشخيصُ المعنويّاتِ بالمحسوساتِ أدنى للإفهام، وأقربُ من الأفهام

عدل النَّظم الكريم عن ذكر الغفلة إلى ذكر الغطاء، في قول اللّه تعالى: ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾؛ إذْ مقتضى الظاهر أن يُقال: (فكشفنا عنك غَفلَتَك)؛ لأنَّ الغطاء أمرٌ حسّيٌّ مستعارٌ للغفلةِ المعنويَّة؛ لما في الغطاء من استحضار مَشهَدِ التَّغطية بستار الجهل والعناد، فشُبِّهت الغفلةُ بالغطاءِ الذي يَحول بين الإنسان وبين رؤية الأشياء على حقيقتِها، ثم استُعير الغطاءُ لها بعد تناسي التشبيه، وادِّعاءِ أنَّ المُشَبَّهَ فردٌ من أفراد المشبَّه به؛ لإبراز أثرِ الغفلة وعظيم فاعليَّتِها في إضلالِ الإنسانِ وجعلِه من الكافرين المنكِرين للحقائقِ الواضحةِ الجليَّةِ، على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة.

دلالةُ إضافةِ الغطاءِ:

جيء بلفظ الغطاء مضافًا إلى ضمير المُخاطَب، في قول اللّه تعالى: ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾؛ للدَّلالة على اختصاصه به، وأنَّه ممّا يُعرفُ به[1]، فهو الغطاء الذي لازَمَه في الدُّنيا حتّى أعماه عن الإيمانِ بالحقِّ، إلى أن كُشِف بعد البعث، ولاتَ حينَ مَندَم.

نوعُ الفاء ودلالتُها:

كشفُ الغطاءِ سببٌ في حِدَّة الأبصارِ

الفاء في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ حرفُ عطفٍ يفيد تسبُّبَ الجملةِ بعده عن كشف الغطاء، الذي كان يحول بين الإنسان وبين إدراك حقّيَّةِ يوم البعث، ودلائلِ وقوعِه؛ إذْ لمّا تسبَّبَ عن هذا الكشفِ الانكشافُ التامُّ؛ عَبَّر عنه بقوله تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 309.

﴿ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾[1]، فحدَّةُ البصرِ ناشئةٌ عن كشفِ الغطاءِ ورؤيةِ ما أنكره الكافر.

لطيفةٌ في استعمالِ لفظِ (البَصَر):

آثر النَّظم الكريم ذكر مفردة البصر في قوله تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ دون النَّظر؛ لأنَّ البصرَ يُطلَق على الجارحة النّاظرة، كما يُطلَق على القوَّة الَّتي فيها، ففيه بيانٌ لشدَّة الأمر في العين الباصرة، بتصوير شكل العين وهي شاخصة جاحظة.

نوعُ تعريفِ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾:

التـعـريـضُ بالكافرِ وتوبيخُه على إنكارِه يومَ البعثِ من قَبل

(أل) في قولِ الله تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ لتعريف العهد، ونوعُ العهد هو الحضوريُّ؛ لأنَّ المرادَ به يومُ البعث الذي يقع فيه خطابُ الكافر بهذه الجملة، فإنَّه حاضرٌ لذلك اليوم، وهو الذي تحدَّثَت عنه السورةُ بدءًا من قوله تعالى في أوَّلها: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ٣﴾ [ق: 2 - 3] إلى آخرها، فإنَّ سياقَ السورة في إثبات البعث، وسوقِ الأدلَّة عليه.

نكتةُ تقديمِ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾:

قُدِّم الظَّرفُ على الخبر في قولِ الله تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾؛ للاهتمام بالتوبيخ على سبيل التَّعريض، أي: (ليس حالك اليوم كحالك قبل اليوم؛ إذْ كنتَ في الدُّنيا منكرًا للبعث)[2]، وللتَّهكُّمِ بالمخاطَب، أي: (هذا اليومُ الذي أنكرتَه في الدُّنيا قد جاء).

لطيفةُ صيغةِ ﴿حَدِيدٞ﴾ وتنكيرِه:

جيء بالخبر مُنَكَّرًا بِزِنَة (فعيل)، في قولِ الله تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 425.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 309.

سيبلغُ بصرُ الإنسانِ يومَ البعثِ درجةً من الحدَّةِ لا نظيرَ لها

﴿ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾؛ للتعظيم والمبالغة، الدّالَّينِ على بلوغِ بَصَرِ الإنسان في الحِدَّة والنَّفاذِ درجةً لا نظيرَ لها يومَ القيامة، والمعنى: (فبَصرُكَ اليومَ في غاية الحِدَّة والنفوذ؛ فلذا تُقِرُّ بما كنتَ تُنكِر من قبل)[1]، فلا تزيغ عيناه، بل يَرى بهما ما كان يُنكِرُه من أمر البعث والحشر والحساب والجزاء في حياته الدُّنيا، فالتَّعبيرُ عن البصر جاء في هذه الآيةِ على أشدِّ أنواع المبالغةِ، التي لا يتصوَّرها العقلُ إلّا على وجه التَّقريب، فإنَّ المشهدَ أعظمُ من أن يُحاطَ به تصوُّرًا واستحضارًا لحقيقته.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 425.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ٢٣﴾ [ق: 23]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانـتـقـال من التَّوبيخ الكُلّيِّ إلى التَّقريع التَّفصيليِّ

لما تكلَّمت الآيةُ السابقةُ عمّا يُقال للإنسان يومَ القيامة تحسيرًا وتوبيخًا وتقريعًا؛ بسبب إنكاره البعث وغفلته عنه؛ ناسب أن تُبَيِّنَ هذه الآيةُ ما يقوله القرينُ الذي قيَّضَه اللّٰه تعالى له، ووكَّله بكتابة أعماله، حتّى يَشهَدَ عليه بها يومَ الدين[1]، فهو انتقالٌ من التَّبكيت الكُلّيِّ، إلى إقامة الدَّليل على ما سيكون له من وقع العذابِ بما كُتب له في صحيفته في الدُّنيا.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَرِينُهُۥ﴾: (قرن) يَدُلُّ عَلَى جَمعِ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ، يُقالُ: قارَنْتُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، والقِرانُ: الحَبَلُ يُقْرَنُ به شَيْئانِ، والاقترانُ كالازدواج في كونه اجتماعَ شيئين، أو أشياءَ في معنًى من المعاني، قال تعالى هنا: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾، أي: شهيده[2].

2) ﴿عَتِيدٌ﴾: (عتد) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى حُضورٍ وقُرْبٍ، تَقولُ: عَتُدَ الشَّيْءُ، وهوَ يَعْتُدُ عَتادًا، فَهوَ عَتيدٌ: حاضِرٌ، والعَتادُ: ادِّخارُ الشيء قبل الحاجة إليه، كالإعداد، والعَتيدُ: المُعِدُّ والمُعَدُّ، قال تعالى هنا: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾، أي: مُهَيَّأٌ مُعَدٌّ للحِفْظ أو الشَّهادة[3].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

تصويرُ إحضارِ الـكـافـر إلى العذابِ المُعَدِّ له

يذكر اللّٰه ﷻ في هذه الآية مشهَدًا آخَرَ من مشاهدِ البعث المُرعِبة؛ ليحُثَّ النّاسَ على الإيمان والعَمَل، قبلَ ألّا ينفَعَهم إيمانٌ ولا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 425.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرن)، والرّاغب، مفردات القرآن: (قرن).
(3) الخليل، العين: (عتد)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عتد)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (عتد).

نَدَم، وليَجعل كلُّ إنسانٍ حقيقةَ ذلك اليومِ نَصْبَ عينِه، قبل أن يراها عينَ اليقين، وهذا المَشهَدُ المُخيفُ هو قول المَلَكِ المَوَكَّلِ بكتابة أعمال الإنسان في الدُّنيا، أو الموكَّلِ بسَوقِه إلى المَحشَر، والشَّهادة عليه عند الحساب: هذا كتابُ أعماله مُعَدٌّ وحاضِرٌ لديَّ، وهذا الإنسانُ الذي وُكِّلتُ به لديَّ، أحضرتُه للسُّؤال والعذاب، أو هو قولُ المَلَك من زبانية جهنَّم: هذا العذابُ للَّذي وُكِّلتُ به مُهَيَّأٌ ومُعَدٌّ له، أو هو قولُ قرينِ الكافرِ من الشَّياطين، الَّذي كان يُزَيِّن له الكفرَ في الدُّنيا، أو قرينِه من الإنسِ، الَّذي كان يُؤانِسه في الإشراك والغَفلة: هذا العذابُ الذي لَدَيَّ مُعَدٌّ ومُهَيَّأٌ، أو هذا الإنسانُ الَّذي معي مُعَدٌّ ومُهَيَّأٌ للعذاب، يقول القرينُ ذلك القولَ متَحَسِّرًا ومُشفِقًا على نفسِه؛ لِعلمِه عند مشاهدة سَوقِ قرينه للعذاب أنَّه يُلحَقُ به في هذا العذابِ الحاضرِ المتَوَقِّدِ المَسْجورِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتُها:

توبيخُ القرينِ للمُنكِرِ عند احتِدامِ المَوقِفِ واشتدادِه

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾؛ لعطف ما بعدها على جملة: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، أو على جملة مَقولِ القَولِ المُقَدَّرِ في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾، باعتبار كلِّ جملةٍ منها تَحكي مَشهَدًا من المشاهدِ التي ستحدُث لِمَنْ كفر بالبعث، وأنكَرَ إنذارَ الرسول به، ودعوتَه النّاسَ إلى الاستعداد له، وقد تكون الواوُ للحال، والجملةُ بعدها حالٌ من تاء الخطاب في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾، والمعنى أنَّه يوَبَّخُ الكافرُ عند مشاهدة العذاب بأن يُقالَ له: (لقد كنتَ في غفلةٍ من هذا، في حال قول قرينِه: هذا ما لديَّ عتيد)[2].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 136، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 311.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 309، 310.

دلالة التعبيرِ بالماضي:

جاء التَّعبير عن فعلِ القول بصيغةِ الماضي، في قول اللّه تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ وإن كان حكايةً لحدَثٍ سيكون في المستقبل؛ جريًا على عادة السورة في التعبير عن كلِّ ما يتَّصِل بالبعث بصيغة الماضي؛ لدلالته على تأكُّد وقوع العذابِ وتحقُّقِ حصوله من غير شكٍّ أو ريبٍ، ولتأكيد ما سبق بيانُه من أنَّ القرين مُفَرَّغٌ لكتابة ما يقوله وتجهيزه في شهادته على الإنسان بصفة عامَّة، وشهادته على مُنكِري البعث بصفة خاصَّة.

التعبيرُ عن المستقبل بصيغة الماضي يدلُّ على يَقينيَّةِ الحصول

بلاغةُ استعمالِ مُفردَةِ القَرِين:

آثر النظم الكريم استعمالَ مفردة القرين في قول اللّه تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ - ويحتمل أن يُرادَ به المَلَكُ الشهيد، أو قرينُه من الإنس، أو الشيطانُ الذي قُيِّض له[1] - لوجود معنى الاقتران في كلٍّ منها، وعلى القول بأنَّه ملَك، دلَّ لفظُ القرينِ على أنَّه لا سبيلَ أمامَ هذا الإنسانِ لإنكار ذلك القولِ أو تكذيبِه؛ لصدوره من ملازِمٍ قعيدٍ لم يفارقْه على الإطلاق، ولم يغفلْ عن إثبات ما كان يقوم به من أعمال، وعلى القول بأنَّ القرينَ هو الشيطانُ الذي سُلِّط على إغوائِه واستدراجِه إلى ما يريد[2]، ففي التعبير به قَصْدٌ إلى زيادةِ تحسيرِ الإنسان وتأنيبه لسماعِه قولَ القرين واستجابتِه لوَسوَسَتِه.

أعظمُ الشَّهادةِ هي الَّتي تأتي مِنَ القرين المُلازم

دلالةُ التعبيرِ بالجُملةِ الاسميَّة:

قولُ القرينِ: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ جملةٌ في محلِّ نصب، مقولٌ لفعل القول المُسْنَد إلى القرين ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾؛ وأوثر أن تكونَ جملةً اسميَّةً؛ لِما تُفيدُه من ثبوت المعنى ودوامه.

(1) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 350.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 136، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 425.

نكتةُ استعمالِ اسمِ الإشارة:

جاء التَّعبيرُ باسم الإشارة الموضوع للقريب في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾؛ للدلالة على تمييز المُشارِ إليه، وبيانِ جَدارَتِه واختصاصِه بما يُقالُ عنه، أي: (هذا سِجِلُّ الأعمالِ عَتيد)، أو: (هذا العذابُ عتيدٌ للكافر) أو: (هذا الإنسانُ الذي قُرِنتُ به عتيدٌ للعذاب)؛ بسبب أعماله التي أُحْصيَت عليه، وعلى رأسها كفرُه بالبعث، وغفلتُه عن الاستعدادِ له[1].

تمييزُ المشارِ إليه، وبيانُ جدارتِه بما يُقالُ عنه

تعيينُ مرجعِ اسم الإشارة:

القرينُ في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ يحتمل أن يكونَ المَلَك الشهيد، ويحتمل أن يكونَ الشيطانَ الذي يسعى لإضلال الإنسان، فإن كان القرينُ المَلَكَ؛ كانت الإشارةُ بـ﴿هَٰذَا﴾ إلى العذابِ الموكَّلِ به ذلك المَلَك، أو إلى سِجِلِّ أعمال الإنسان، الَّتي تلقّاها المتلقّيانِ في الدُّنيا، وإن كان القرينُ شيطانًا أو إنسانًا - والمرادُ به: قرينُ الشِّرك المماثِل؛ إذْ لا يخلو أحدٌ من صاحِبٍ يَأنَسُ بمحادثته - كانتِ الإشارةُ محتمِلةً لأَنْ تعودَ إلى العذاب - كما في الوجه الأوَّل - أو أن تعودَ إلى مرجِعِ الضَّمير في قوله: ﴿قَرِينُهُۥ﴾، وهو نَفْسُ الكافر، أي: (هذا الذي معي)، فيكون ﴿لَدَيَّ﴾ على الأخير بمعنى (معي)[2].

مَرجِعُ الإشارةِ يختلفُ بحسب تَفسيرِ القرين

موقع ﴿مَا﴾ الإعرابيِّ ودلالتُه:

﴿مَا﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ يجوز أن تكون نكرةً موصوفةً، و﴿عَتِيدٌ﴾ صفتها، و﴿لَدَيَّ﴾ ظرفٌ متعلِّقٌ بـ﴿عَتِيدٌ﴾، أي: (هذا شيءٌ عتيدٌ لديَّ)، أي: حاضرٌ عندي، ويجوز أيضًا على هذا أن يكون ﴿لَدَيَّ﴾ وصفًا لـ﴿مَا﴾، و﴿عَتِيدٌ﴾ صفةً ثانية

احتمالُ الموصوليَّةِ والنكرةِ الموصوفةِ اتِّساعٌ في المعنى المرادِ وصفُه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 425.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 310، 311.

أو خبرًا لمبتدأ محذوف، أي: (هو عتيد)، ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ موصولةً بمعنى الذي، و﴿لَدَيَّ﴾ صلتها، و﴿عَتِيدٌ﴾ خبر الموصول، والموصول وصلته خبر اسم الإشارة، ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ بدلًا من ﴿هَٰذَا﴾ - موصولةً أو موصوفةً بـ ﴿لَدَيَّ﴾ - و﴿عَتِيدٌ﴾ خبر ﴿هَٰذَا﴾[1].

وسواء أكان التقدير: (هذا شيءٌ عتيدٌ لديَّ) أم: (هذا الذي عندي شيءٌ عتيد)، فالتعبير بـ ﴿مَا﴾ فيه تحقيرٌ للإنسان، وازدراءٌ لعمله، وصَونٌ لِلِّسان عن ذكر اسمه، ما يؤكِّد استحقاقَه عذابَ جهنَّم الذي أخذَت ملامِحُه في الظهور والوضوح.

دلالة تنكير ﴿عَتِيدٌ﴾:

أخبر البيانُ عن المُشارِ إليه في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾، بأنَّه ﴿عَتِيدٌ﴾، وجاء الخبَرُ نكرةً مُنَوَّنًا؛ لإفادة التفخيم والتعظيم، الدّالَّين على أنّه حاضرٌ تمامَ الحضور، ومهيًّأ بشكلٍ كاملٍ لِما يُرادُ به[2].

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 290.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 426.

﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ٢٤ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ٢٥ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ٢٦﴾

[ق: 24 - 26]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بعد إقامة الشَّهادةِ يقع الجزاءُ العادل

لمّا ذكرتِ الآيةُ السابقةُ ما يشهد به الملَكُ القرينُ على الإنسان يوم البعث، ويُقيم الحجَّةَ عليه بما يستحقُّ من الجزاء، أو ما يُشاهدُه القرينُ الكافرُ من هذا الجزاء؛ ناسب بعد ذلك ذكرُ ما الذي يكون للإنسانِ بعد الشَّهادة ممّا لا علمَ لنا به، فذكرتِ الآياتُ ما يُؤمَر به الملَكانِ الموكَّلانِ به، بعد تأكيد القرين في شهادته استحقاقَ ذلك الإنسانِ ما يُعَدُّ له من العذابِ والعقابِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَلۡقِيَا﴾: (لقي) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى طَرْحِ شَيْءٍ، ومنه الإلقاءُ: طرح الشيء حيث تَلْقاه، أي: تراه، ثمَّ صار في التَّعارُف اسمًا لكلِّ طرح، قال تعالى: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ٨٧﴾ [طه: 87]، وقال: ﴿وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ١٢٠﴾ [الأعراف: 120][1]، ومعناه هنا: اطْرَحاه دفعًا من غير شَفَقَة[2].

2) ﴿كَفَّارٍ﴾: (كفر) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى واحِدٍ، وهوَ السَّتْرُ والتَّغْطيَةُ، يُقالُ لِمَنْ غطَّى دِرْعَهُ بِثَوْبٍ: قَدْ كَفَرَ دِرْعَهُ، والكُفْرُ: ضِدُّ الإيمانِ، سُمّيَ لِأَنَّهُ تَغْطِيَةُ الحَقِّ، والكافِرُ على الإطلاق متعارَفٌ فيمن يَجحَدُ الوحدانيَّة، أو النُّبوَّة، أو الشَّريعَة أو ثلاثتَها، والكَفورُ: المُبالِغ في كفران النعمة، قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ﴾ [الزخرف: 15]، والكَفّارُ أبلغ منه، كما في هذه الآية[3].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، مفردات القرآن: (لقى).

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 426.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، مفردات القرآن: (كفر).

3) ﴿عَنِيدٍ﴾: (عند) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى مُجاوَزَةٍ وتَرْكِ طَرِيقِ الاستِقامَةِ، يُقالُ: عَنَدَ الرَّجُلُ، وهوَ عانِدٌ، يَعْنُدُ عُنودًا؛ إذا عَتا، وطَغَى، وجاوَزَ قَدْرَهُ، ومنه المُعانَدَةُ، وهيَ أَنْ يَعْرِفَ الرَّجُلُ الشَّيءَ، ويَأْبَى أَنْ يَقْبَله، يُقالُ: عَنَدَ فُلانٌ عَنِ الأمرِ؛ إذا حادَ عَنْهُ، والعَنيدُ: المُعْجَب بما عنده - كما في هذه الآية - وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِأَيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾ [المدثر: 16][1].

4) ﴿مَّنَّاعٍ﴾: (منع) أَصْلٌ يدلُّ على خِلافِ الإِعْطاءِ، يُقالُ: مَنَعْتُه الشَّيْءَ مَنْعًا، وهوَ مانِعٌ ومَنّاعٌ، أي: ضَنين مُمسِك[2]، والمنعُ: أن تحولَ بينَ الرَّجُلِ وبينَ الشَّيءِ الَّذي يُريدُهُ، يقالُ: مَنَعْتُهُ فامتنعَ، ورجل مَنيع: لا يُخلَصُ إليه، ورجل مَنوعٌ ومنّاعٌ؛ إذا كانَ بَخيلًا مُمسِكًا[3]، وامتنعَ منَ الأمر: كفَّ عنه[4]، والمرادُ به في الآيةِ: البخيلُ أوِ الصّادُّ عن سبيل اللّه، فيمنعُ وصولَ الدَّعوة الَّتي هي خيرٌ مَحْضٌ إلى النّاس.

5) ﴿مُعْتَدٍ﴾: (عدو) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى تَجاوُزٍ في الشَّيْءِ وتَقَدُّمٍ؛ لِما يَنْبَغي أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَيْهِ، منه التَّعَدّي: تَجاوُزُ ما يَنْبَغي أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَيْهِ، يُقالُ: عَدا فُلانٌ طَوْرَهُ، ومِنهُ العُدْوانُ والعَداءُ والاعْتِداءُ، يُقال: عَدا عَدْوًا، فهو عادٍ، وتَعَدَّى واعْتَدَى فهو مُعْتَدٍ - كما في هذه الآية - قال تعالى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ [الأعراف: 163]، وقال: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 194]، وقال: ﴿إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾ [المطففين: 12][5].

6) ﴿مُّرِيبٍ﴾: (ريب) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى شَكٍّ، يُقال: رابَني كذا، وأرابَني، فالرَّيْبُ: أن تتوهَّم بالشيء أمرًا ما، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾ [هود: 110]، وقال هنا: ﴿مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾[6].

7) ﴿جَعَلَ﴾: (جعل) أصلٌ يدلُّ على تحويل الشَّيءِ إلى وضعٍ أو هيئةٍ معيَّنَة، وهو لفظٌ عامٌّ في الأفعال كلِّها، أعمُّ من (فعل) و(صنع) وسائرِ أخواتها، ومن معانيه: الحكم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، مفردات القرآن: (عند).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، مفردات القرآن: (منع).
(3) الخليل، العين: (منع).
(4) الفيوميّ، المصباح المنير: (منع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (عدو).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، مفردات القرآن: (ريب).

بالشيء على الشيء، حقًّا كان أو باطلًا، فأمّا الحقُّ؛ فنحو قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص: 7]، وأمّا الباطل؛ فنحو قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: 136]، وقوله: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ﴾ [النحل: 57]، وهذه الآية.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

جزاء الكافرِ العنيدِ هو العذابُ الشَّديدُ

تُبيِّن الآياتُ الكريمةُ أنَّه بعد قولِ القَرينِ: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾، يُقالُ للمَلَكين الموكَّلَين بالإنسان، السّائقِ والشهيد، أو لخازنِ النّار بلفظ التَّثنية: اقْذِفا في جهنَّم باحتقارٍ وغضب كلَّ مبالِغٍ في الجُحود والكفر، معانِدٍ للحقّ مع عِلمِه بأنَّه حقٌّ، مبالغ في المنع لكلِّ ما هو خير، كثيرِ الاعتداء، كثيرِ الشَّكِّ فيما هو حقٌّ وبرٌّ، يجعل مع اللّٰه إلهًا آخرَ في العبادة والطاعة، فألقياه أيُّها الملَكانِ في العذاب الذي يُذِلُّه، ويُهينُه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فَصلِ الجُملَة:

الانتقال من خطاب الإنسان إلى خطاب المَلَكين المَوكَّلين به

جملة: ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ مستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ للانتقال من خطاب الإنسان الكافر أو الغافل إلى خطاب المَلَكَين الموَكَّلَين به، فإنَّه لمّا كانتِ العادةُ جارِيةً بأنَّ مَن أُحْضِر إليه شيءٌ؛ بادَرَ إلى أمره بقولٍ أو فعلٍ، وصَلَ بذلك ما هو نتيجتُه[2].

نكتةُ حذفِ القول:

جملةُ: ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ مقولُ قولٍ محذوفٍ، تقديرُه: (يُقالُ للملَكَينِ: ألقيا في جهنَّم)، ونكتة الحذفِ: تصويرُ مَشهَد المباغتة في إصدار الأمر الإلهيِّ بإلقاء المنكِر للبعثِ في جهنَّم.

---

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 346.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 426.

بلاغة استعمال مادَّةِ الإلقاء:

إهانـةُ مُنكِرِ البعث وإذلالُه

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مادَّة الإلقاء بصيغة فِعلِ الأمر في قول اللّه تعالى: ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه طَرحٌ ودفعٌ في جهنَّمَ ليس فيه هوادَةٌ ولا إكرامٌ، وإنَّما هو إلقاءٌ مشفوعٌ بالقوَّة والإهانة والإذلال، فالمعنى: (اطْرَحا، واقْذِفا دفعًا من غيرِ شفقة)[1].

توجيه تثنية المخاطَب:

تـقـويـةُ أمـرِ الإلقاء والمبالغةُ في شِدَّتِه

أُسند فعلُ الإلقاء إلى ألف الاثنين في قول اللّه تعالى: ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ﴾؛ لأنَّ الخطابَ للملَكَين: السّائقِ والشهيد، هذا ما يقتضيه الظّاهر، ويجوز أن يكون الإسنادُ إليه جريًا على طريقة العرب التي اعتادوا فيها خطابَ الرفيق والصديق، كما يكثُر في كلامِ الشعراء: يا صاحِبَيَّ، ويا خليلَيَّ، والغرَضُ من خطاب الواحد بلفظ الاثنين: إفهامُه أنْ يأتيَ منه الفعلُ بجِدٍّ عظيم، بحيث تكون قوَّتُه فيه معادِلةً لقوَّة اثنين، ويجوز أن تكون تثنيةُ الفاعل نُزِّلت منزلةَ تثنيةِ الفعل لاتِّحادهما، كأنَّه قيل: (ألقِ ألقِ) للتَّأكيد[2].

دلالةُ استعمال حرفِ الظَّرفيَّة:

الإلـقـاء مُتَّصِفٌ بالقوَّة الموصِلةِ إلى جوفِ جَهَنَّم

التعبيرُ بحرف الظرفيَّة في قول اللّه تعالى: ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ تأكيدٌ لضرورة الشِّدَّة في الإلقاء، وتوجيهٌ إلى أهمّيَّة خُلوِّه من أيِّ نوعٍ من أنواع الشفقة، بأن يكون الإلقاء موصِلًا إلى جَوف جهنَّم، وهذا لا يكون إلّا إذا كان قويًّا بدون مبالاةٍ بالمُلقَى، بحيث تُحيط النّار بالكافر الغافل إحاطةَ الظَّرفِ بالمظروف، وفيه من التَّخويف والتَّحذير ما تَنخَلِعُ له القلوبُ، وما يدفع إلى التوبة من إنكار البعث، والتَّراجُعِ عن الكفرِ به.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 426.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 387، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 426، 427، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 311.

غرض تقديم الجارِّ والمجرور:

تقديمُ المكانِ يَقتَضي شديدَ الوعيد

جيء بالجارِّ والمجرور مُقَدَّمًا على المفعول به، في قول اللّه تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ﴾؛ لتعجيل ما يُزعِجُ الكفّارَ، ويَسوؤُهم، ويُهَدِّدُهم؛ بسبب إصرارهم على الكفر بالبعث ومعانَدَتِهم الرَّسولَ المُنْذِرَ به، عَلَّهم يتراجعون عن كفرهم وعِنادِهم، ويؤمنون، مع ما في التَّقديم من التَّهويل والتفظيع؛ لِما سيُلقَون فيه، فإنَّ ذِكرَ مكانِ الوعيد والعذاب أشدُّ ألمًا في نفسيَّة المخاطَب من ذكرِه؛ لأنَّ تقديمَ المفعول يقتضي التشويقَ للمكان، وتقديمَ المكان يقتضي بيانَ أهمّيَّته، وما يحويه من شديد الوعيد، وهو ما يُحقِّقُ مقصودَ السّياق.

دلالةُ إضافةِ ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾:

تعميمُ الجزاءِ على الكفّار، بلا استثناءٍ مُطمِعٍ، ولا رجاءٍ مُشفِعٍ

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن المفعول في قول اللّه تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ بلفظ الكُلِّ؛ ليشملَ الأمرُ بالإلقاء في النار كلَّ مَنْ يستحقُّ العذابَ بها من غير استثناءٍ لأحدٍ أو شفقةٍ عليه، وأُضيف إلى ﴿كَفَّارٍ﴾ للتَّخصيص، وللتعليل المؤكِّد ضرورةَ أن يكونَ الإلقاء على الوجه المأمور به من الشدَّةِ والإهانة؛ لكَون المُلْقَى كان مُصِرًّا على الكفر مبالِغًا في العناد.

دلالة التعبير بصيغة المبالغة:

شــــدَّةُ الكفر والمبالغة في العناد والبُخل سببُ الإلقاء في جهنَّم

جاء في قول اللّه تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ٢٤ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ كلٌّ من ﴿كَفَّارٍ﴾ و﴿عَنِيدٍ﴾ و﴿مَّنَّاعٍ﴾ - وهما صفتانِ لـ﴿كَفَّارٍ﴾ - بصيغة المبالغة، مع التَّنكير المفيدِ للتَّعظيم؛ للدَّلالة على شدَّة إصرار ذلك الإنسان الذي أُمِر الملكان بإلقائه في جهنَّم على الكفر باللّه تعالى وكفرانِ نِعَمِه، ووصولِه في ذلك حَدًّا لا نظيرَ له، وعلى مبالغته في العناد وعدمِ الإيمان بالبعث والرِّسالة مع يقينه أنَّه حقٌّ، وأنَّ الرسولَ صادقٌ، ولم يفترِ الكذبَ في شيءٍ منه، وعلى مبالغتِه في التصدّي وشِدَّة حرصِه على منعِ أيِّ عملٍ من أعمالِ

الخير، بِشَتَّى الطرائقِ، ومختلفِ الوسائل، والمعنى: (ألقيا في جهنَّمَ كلَّ مبالغٍ في ستر الحقِّ، والمعاداةِ لأهلِه من غير حجَّة، بل حَميَّةً وأنَفةً؛ نظرًا إلى استحسانِ ما عنده، والثَّباتِ عليه تجبُّرًا وتكبُّرًا على ما عند غيره، وازدراءً له، كائنًا مَنْ كان، كثير المنع من المال وغيره، من كلِّ معروفٍ يتعلَّق بالمال والقال والفعال)[1].

معنى تعريفِ (الخير):

الكافرُ يمنعُ الخيرَ بكلِّ أنواعِه

(أل) في قول اللّه تعالى: ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ﴾ قد تكون لتعريف العهد، والمرادُ به: (الإيمان)؛ إذ كانوا يمنعون أبناءَهم وذَويهم من الإسلام، ويحتمل أن يرادَ به: (المال)؛ لأنَّهم كانوا يُطلِقون الخيرَ عليه، وكان أهل الجاهلية يمنعونه الفقراء، ويُعطونه لأكابرهم تقرُّبًا وتلطُّفًا[2]، ويمكن أن تكون اللام لتعريف الجنس، فيدخل فيه الإيمانُ والمالُ وغيرُهما من أنواع الخير، وهو الأعمُّ والأحسنُ[3] والأكثرُ توافقًا مع واقع الكفّار وأفعالهم.

فائدةُ الوصفِ بـ﴿مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ﴾:

الكَفّار يَبلُغُ في الاعتداءِ والارتيابِ مَبلَغًا لا تحيطُ به العبارةُ

قولُ اللّه تعالى: ﴿مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ﴾ صفةٌ ثالثة ورابعةٌ لـ ﴿كَفَّارٍ﴾، أوثِر تنكيرُهما؛ لما يفيده التنكيرُ من التعظيم الدّالِّ على بلوغه في الظلم والاعتداء على المسلمين بالأذى، وعلى الرسول ﷺ بالتكذيب والقول الباطل مَبلَغًا لا يُقادَرُ قدرُه، ولا تُحيط العبارةُ بوصفه، مع ما في الارتياب من الشَّكِّ والتشكيك، وبلوغه في ذلك مبلغًا لا نظيرَ له، من خلال ما يُلقيه إلى الناس من صنوف المغالطة، ليُشَكِّكَهم في صدق الرسول ﷺ وصِحَّةِ الإيمان والتوحيد[4]، فالمعنى: (داخِلٌ في الرَّيب والتُّهمَة في أمر الدين، موقِعٌ غيرَه فيه)[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 427.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 131، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 312.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 537.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 312.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 427.

نكتةُ ترتيبِ الأوصاف:

الكفرُ رأسُ الشَّرِّ

جاء ترتيبُ صفاتِ من يستحِقُّ الإلقاء في جهنَّم، في قول اللّه تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٤ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾، بتصدير الكفرِ المضادِّ للإيمان لأهمّيَّتِه ولكونه الأساس، وبالتثنية بالعناد؛ لبيان أنَّه بالِغ في الكفر والكفران، متعمِّدٌ عدمَ التجاوب مع ما يُخرجه منه إلى دائرة الإيمان والإسلام، ثمَّ أُتبع بصفةِ منع الخير؛ للدَّلالة على أنَّه لم يتوقَّف على الكفر والعناد، بل عمل على منع الخير مِن أن يدخُلَ في قلوب العباد، فهدَّدهم من فعل ذلك أو التأثُّر به، فهذا المُلْقَى في جهنَّم كفَرَ باللّه، ولم يقتنع بكفره حتّى منع الخيرَ من الآخر، ثمَّ لم يقتنع بالكفر والمنع من الإيمان والزَّكاةِ وسائرِ أنواع الخير، بل تعدّى ذلك، وتجاوزَه، فاعتدى على أهل الإيمان، وأخذ المالَ الحرام بالأذى والسَّرقة، وكان سبب ذلك كلِّه - من الكُفر والعنادِ والمنعِ والاعتداء - أنَّه في رَيبٍ وشكٍّ من البعث والجزاء(1).

وجملةُ الأمر، أنَّه بدأ بالكفرِ باعتبارِه أصلَ الضلالة، ثمَّ العنادِ باعتبارِ أثره الذّاتي، ثمَّ منعِ الخير باعتبار أثرِه المتعدّي، ثمَّ الاعتداءِ على الآخرين، ثمَّ الارتياب في كلِّ خير.

بيان حال الكفّارِ معَ الله ورسوله واليومِ الآخِر

وهناك وجهٌ آخرُ لترتيب هذه الصِّفات، وهو أن يُقال: هذا بيانٌ لأحوالِ الإنسانِ الكَفّار بالنسبة إلى اللّه، وإلى رسول اللّه، وإلى اليوم الآخر، فقولُه: ﴿كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ إشارةٌ إلى حاله مع اللّه، يكفر به، ويعاند آياته، وقولُه: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ﴾ إشارةٌ إلى حاله مع رسول اللّه، فيمنع الناسَ من اتِّباعه، ومن الإنفاق على من عنده، ويتعدّى بالإيذاء وكثرة الهُذاء، وقولُه: ﴿مُّرِيبٍ﴾ إشارةٌ إلى حاله بالنسبة إلى اليوم الآخر، يريب فيه، ويرتاب، ولا يظنُّ أنَّ الساعةَ قائمةً(2).

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 136، 137.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 137.

الموقعُ الإعرابيُّ للاسمِ الموصول ودلالتُه:

تعليلُ إلقائه في قَعرِ جهنَّم، وتأكيدُ استحقاقِه أشدَّ العذاب

الاسم الموصول في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ يجوز أن يكون منصوبًا على أنَّه بدلٌ من ﴿كُلَّ﴾، وأن يكونَ مجرورًا على أنَّه بدلٌ من ﴿كَفَّارٍ﴾، كما يجوز أن يكونَ مبتدأً مُضَمَّنًا معنى الشرط، وخبرُه ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾، بتأويل: (فيُقال في حقِّه: ألقياه)، أو لكونه في معنى جواب الشرط، لا يحتاج للتَّأويل[1].

وأيًّا كان الموقعُ الإعرابيُّ للاسم الموصول؛ فالقصد من التعبير به وبصلته هو بيان العلَّة التي لأجلها اتَّصف المنكرُ بالكفر والعناد والاعتداء والارتياب، وهي الشِّرك بالله تعالى، فالشرك هو ركنُ إبليس، وأصلُ كلِّ ظلم، ومنبعُ كلِّ شرٍّ، ففي التَّعبيرِ به تأكيدُ استحقاقِ كلِّ مَنِ اتصفَ بالصفاتِ السابقِ ذكرُها الإلقاءَ في قَعْرِ جهنَّم، على وجهٍ بالغٍ في الشِّدَّة والإهانة، بذكر السَّبَبِ الرئيسِ في ذلك.

دلالة استعمال مادَّةِ الجَعْل:

الإيمـاءُ إلى معاندةِ الفطرةِ ومكابَرةِ الحقِّ

جاء التَّعبير في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، بفعل الجَعْلِ الدّالِّ على التصيير والتحويل؛ للدَّلالة على أنَّ هذا الكَفّارَ أشرك بالله مخالِفًا الفطرة التي فُطِرَ عليها، ومختَلِقًا ذلك من عند نفسه، ومُصِرًّا عليه بوازعٍ داخليٍّ، فالمعنى: (فَعلَ ذلك كُفرًا مُضاعَفًا، وعِنادًا ومنعًا للخير الذي فُطِر عليه في قلبه ولسانه وبدنه، وتجاوُزًا للحدود، ودخولًا في الشَّكِّ، وإدخالًا لغيره فيه)[2].

فائدةُ التَّعبير بصيغة الماضي:

جيء بفعل الجعْل في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ ماضيًا؛ للدلالة على حصول الشِّرك منه حصولًا أكيدًا لا ريبَ فيه، فبه استحقَّ الإلقاءَ في جوفِ جهنَّم؛ ليَأخُذَ جزاءَه الأوفى.

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 537، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 336.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 427.

غرض تقديم الظَّرف:

قُدِّم الظَّرفُ على المفعولِ في قول اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾؛ للتشنيع على شِرك الكافر، وتقبيحِ صنيعه، وتأكيدِ استحقاقه الإلقاءَ في عُمق النّار، فالإشراك باللّه موضعُ التَّقريع والتَّوبيخ واستحقاق العذاب لِعِظَمِ مَن تعلَّق به الاعتداء.

نكتةُ تنكيرِ المفعول:

مــدارُ الإنـكـارِ عـلى المشـركين في اتِّخاذِ أيِّ إلهٍ سِوى الله تعالى

نُكِّر المفعول في قول اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ للإبهامِ والعموم، فموضِعُ الإنكار على شِركِهم لم يكن باعتبارِ أنَّ المشركين اتَّخذوا إلهًا بعينِه، أو مجموعةَ آلهة، بل في كونهم أشركوا مع اللّه تعالى سِواه، فمَدارُ الإنكار في جَعلِ إلهٍ مع اللّه تعالى، بقطع النَّظَر عن صفاته وماهيَّته، ويُفيد التنكير أيضًا التحقيرَ، الدالَّ على سُخْفِ عقول المشركين، وسوءِ أدبهم مع اللّه جلَّ في علاه؛ إذ ساوَوا باللّه الذي يَنطِق الكونُ بعَظَمَته، ويُقِرُّ الجميعُ بقدرته، إلهًا مجهولًا لا يعرفُه أحدٌ، ولا يستطيعُ أن يجلب لنفسه أو لهم نفعًا، ولا أن يدفع عنها ولا عنهم ضُرًّا.

دلالة التَّقييد بالصِّفة:

جاء وصفُ المفعول من جملة الصِّلة: ﴿جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ بـ ﴿ءَاخَرَ﴾؛ تأكيدًا لدلالة العموم والإبهام، وزيادةً في تحقير الإلهِ الذي اتَّخذه الكفّارُ من دون اللّه؛ لاشتقاق صفتِه من التأخُّر، الناظرِ إلى الرداءةِ والسقوطِ عن عين الاعتبار بالكُلّيَّة[1].

معنى الفاءِ ودلالتها:

الفاء في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ هي فاء التفريع أو التسبُّب، الدالَّةِ على أنَّ أمرَ المَلَكَينِ بإلقاء الكفّار في النّار مُسَبَّبٌ عن جعله مع اللّه تعالى إلهًا لا يستحِقُّ شيئًا من خصائصِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 428.

اللّه تعالى، ولا يقترب منه في وصفٍ من الأوصاف؛ إذ "لمّا كان هذا الكَفّارُ قد جحد الحقَّ الواجبَ للّه لذاته مع قطع النظر عن كلِّ شيء، ثمَّ جحد ما يجب له من جهة ربوبيَّتِه وإنعامه على كلِّ موجود، ثمَّ جحد ما يجب من جهة إدامة إحسانه مع المعصية بالحِلم، وعاند في ذلك، وفي إثباته للآخر ما لا يصحُّ له بوجهٍ من الوجوه؛ سبَّب عن وصفه ذلك قولَه: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾"[1].

إلـقـاءُ المشركين في النار مُسَبَّبٌ عن جعلهم مع الله تعالى إلهًا آخر

نكتة تَكرار الأمرِ بالإلقاء:

تأكيدُ العـذابِ المادّيِّ عذابٌ آخرُ نفسيٌّ

أُعيد أمرُ الملَكَينِ بفعل الإلقاء متعدّيًا إلى ضمير الكَفّار، في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾؛ لتأكيد الإلقاء السّابقِ ذكرُه في قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ﴾، ولتقوية كونِه على وجهٍ بالغٍ في القوَّة والشدَّة والإهانة والمذلَّة، التي يستحقُّها كلُّ مَنْ جَعَلَ مع اللّه تعالى إلهًا آخرَ كائنًا مَنْ كان، وليَحصُلَ بذلك للكافرين نوعانِ من العذاب: أحدُهما: نفسيٌّ بالإهانة والإذلال، والآخرُ حسّيٌّ بعذاب النار، فيبلغ عقابُهم قمَّتَه وذروتَه.

نكتة استعمال حرف الظَّرفيَّة:

جاء التعبير بحرف الظرفيَّة في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾؛ لتأكيد ضرورة كَونِ الإلقاء في قلب جهنَّم، حتّى يُحيطَ العذابُ بالكُفّار الغافلين إحاطةَ الوعاءِ بما فيه؛ تخويفًا من الكفر، وتحذيرًا من العناد.

دلالة تعريف ﴿ٱلْعَذَابِ﴾:

ترهيب الكفّارِ المُـفـضي إلى انـصـرافـهـم عـن مـوجـبـاتِ العذاب

(أل) في ﴿ٱلْعَذَابِ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ لتعريف العهد، والمقصودُ به: عذابُ جهنَّم الذي سبق ذكرُه في السورة في قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾، والذي ذَكَرَه القرآنُ في مواطنَ عديدة، سُمّيت فيها النارُ بأسماءٍ كثيرةٍ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 428.

تدلُّ على أنَّ نارَ الدنيا لا تساوي بجانبها شيئًا؛ ليكونَ للترهيب بها والتخويف من عذابها أثرُه في صَرفِ النّاس عن موجباته، التي يأتي على رأسِها الكفرُ باللّه تعالى، وجعلُ آلهةٍ أخرى معه.

فائدةُ الوصف بـ ﴿ٱلشَّدِيدِ﴾:

العـــــذاب في جـهـنَّـم قـطـعـةٌ واحـدة، لا تقبل الـتَّـقـسـيـمَ أو التَّجْزيء

وُصِفَ العَذابُ بالشَّديدِ في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾؛ لبيانِ تماسُكِ العذابِ، وأنَّه قطعةٌ واحدةٌ في التَّعذيب المُخيف، الذي لا يُرجَى فيه طلبُ الرّاحة أو التَّوقُّفِ عن التَّعذيب، بل هو مستمِرٌّ كقطعةٍ واحدةٍ لا أجزاءَ لها ولا تقسيمَ لزمانها، فهو وصفٌ من أوصاف عذاب جهنَّم، يُترجِم أهوالَه يوم الدّين، وشدَّته واقعةٌ على الأبدان والنفوس، فأمر الملكين بإلقائه فيه دليلٌ على استحقاق الكَفّار أشدَّ أنواعِ العذاب؛ لفداحة جُرمِه وشناعة فعله، وفيه مبالغةٌ في تحذير الكافرين، وإبلاغٌ في حثِّهم على التراجُع والإيمان.

﴿۞قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ٢٧﴾

[ق: 27]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لمّا ذكرتِ الآياتُ السابقةُ شأنَ الكَفّار العنيد الذي أشرك بالله تعالى ما لم يُنزلْ به سلطانًا، وجاء الأمر بإلقائه في جوفِ جهنَّم؛ ناسب بيانُ ما يقوله قرينُه ردًّا على زعمه بأنَّ القرينَ هو الذي أضلَّه[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾: (طغي) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى مُجاوَزَةِ الحَدِّ في العِصْيانِ، يُقالُ: طَغَوْتُ وطَغَيْتُ طَغَوانًا وطُغْيانًا، وأَطْغاهُ كذا: حمله على الطُّغْيانِ، قال تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧﴾ [النازعات: 17]، وقال هنا: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾، أي: (ما أَضْلَلْتُه، ولا حملتُه على التمرُّدِ وشِدَّة الظلم لنفسه ولغيره)[2].

2) ﴿ضَلَٰلِۭ﴾: (ضلل) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى ضَياعِ الشَّيْءِ وذَهابه في غَيْرِ حَقّه، يُقالُ: ضَلَّ يَضِلُّ ويَضَلُّ، لُغتانِ، وكُلُّ جائِرٍ عَنِ القَصْدِ ضالٌّ، والضَّلالُ هو: العدولُ عن الطَّريق المستقيم عمدًا كان أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا، ويضادُّه الهداية[3]، والمراد به هنا: الحَيرَةُ الشَّديدة، أو الحَيرةُ البعيدةُ دواؤها وتلافيها[4].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا سلطانَ للشيطان على الإنسان

تُبَيِّنُ الآيةُ أنَّ الشيطان المُقَيَّضَ لإضلال الإنسان سيقول في رَدِّه

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 387.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طغى)، والعسكري، الوجوه والنظائر، ص: 315.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، مفردات القرآن: (ضل).

(4) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 302.

على الكافر الزاعم بأنَّ القرين هو الذي أضلَّه: يا ربَّنا إنَّني ما أطغيتُه، ولا أجبرتُه على الكفر والعصيان، ولكِنْ هو الذي كانَ في ضَلالٍ بَعيدٍ دون أن أكرَهَه أنا على هذا الضلال والكفر[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصلِ الجملة:

ترك الواو للدَّلالة على قولٍ محذوف

جاءت جملة: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾ بدون الواو؛ لأنَّها استُؤنِفت، كما تُستَأنَفُ الجملُ الواقعةُ في حكاية التقاوُل؛ إذْ لمّا قال قرينُه: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾، وتبِعَه قولُه تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾، وتلاه قولُه تعالى: ﴿لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾؛ فُهِمَ أنَّ ثَمَّ مقاولةً من الكافر، لكنَّها طُرحت لوجود ما يدلُّ عليها، كأنَّه قال: (ربِّ هو أطغاني)، فقال قرينُه: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾[2].

فائدةُ ذِكر فِعل القَولِ ماضيًا:

كثُر في القرآن ذكر فعل القول قبل مقولِه، كما في هذه الآية: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾؛ لبيان ما يصدر عن القائل ممّا ينطِق به لسانُه، ويجول في نفسه، مع تصوير المَشهَد بجميع حيثيّاته، ومجيئُه ماضيًا باعتبارِ الحكاية لِما سيقع كأنّما وقع.

بلاغةُ استعمالِ مُفرَدَةِ القَرين:

كلُّ نفسٍ محاسَبةٌ على أعمالِها، وليس للقرينِ قوَّة جَبريَّة لإغواء النّاس

المراد بالقرين في قول اللّه تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾ هو الشيطانُ الذي قُيِّض للكافرِ المنكِر للبعثِ، والتعبير عنه بالقرين جاء لبيانِ وجه الملازمة في الدُّنيا، فإنَّ غالِبَ الناس لهم قرناءُ من الإنس أو الجنِّ أو من كِلَيهما، وللقرناء أثرٌ في تسويغ مرادِ النَّفس للحقِّ أو الباطل، والمراد هنا قرناءُ الشَّرِّ، ففيه إيماءٌ إلى الأثر الذي يتركه القرينُ في قرينِه، مع فائدةٍ عزيزة، وهي أنَّ أثَرَ القرين ليس

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 346.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 387.

بأمرٍ لازم، بل تسويغٌ وإغواءٌ لما تَرغَبه النَّفس من الأعمال والأقوال، وأنَّ التَّذرُّع بالقرين ما هو إلّا أمرٌ باطل، يدَّعيه الكافرُ يوم القيامةِ؛ لعلَّه ينال مَهرَبًا ممّا هو فيه.

علَّة النداء بعنوان الربوبيَّة:

التَّوسُّل بالرُّبوبيَّةِ لما تحويه من دلائلِ الرَّحمة

جاء النِّداءُ بوصف الربوبية دون غيره من أوصاف الحقِّ ﷻ في قول اللّه تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾؛ جريًا على عادة المتوسِّلين في ندائهم اللّه بهذا الوصف؛ لِما فيه من بالغِ الرغبة في إجابة توسُّلاتهم وتحقيقِ آمالهم وحاجاتهم التي يتضرَّعون من أجلها، التي تتمثَّل هنا في إلقاء الوزرِ كلِّه على الإنسان، وإعفاءِ الشيطان منه بالكُلّيَّة[1]؛ لِما تحويه الرُّبوبيَّةُ من آثار الرَّحمة، فهُم يتوسَّلون للّه تعالى برحمته التي وسِعَت كلَّ شيءٍ.

علَّةُ الإضافةِ في ﴿رَبَّنَا﴾:

تعظيمُ المُنادَى طلبًا للنَّجاة

أُضيف لفظ الربوبيَّة إلى ضمير الجمع، في قول اللّه تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾، ولم يقل: (رَبِّ)، مَعَ كَوْنِ القائلِ واحِدًا، كَما في قَوْلِ خليل اللّه: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: 143]، وقَوْلِ نوح ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾ [نوح: 28]؛ لِما في الإضافة إلى ضمير الجماعة من تعظيم المُنادَى، والإقرارِ بأنَّه ربُّ الجميع[2]، وهو الأوفَقُ بهذا المقام من الدُّعاءِ باستجلابِ الرَّحَمات، فإنَّ إفرادَ المنادَى لا يتَّسِق في مثل هذا المَقام.

دلالةُ النَّفيِ بـ ﴿مَآ﴾:

التَّبرُّؤ من جميع أنواع الإغواء، وإثباتها لصاحبِه

﴿مَآ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾ هي النافيةُ العاملةُ عملَ (ليس)، وقد أوثِر النفي بها؛ لأنَّ من خصائصِها نفيَ الجُمَلِ الاسميَّة والفعليَّة، فهي آكدُ في النَّفي من (ليس)، وأوسعُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 428.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 138.

استعمالًا منها؛ لأنَّ (ليس) مختصَّةٌ بنفي الجُمَل الاسميَّة فحَسْب[1]، والنَّفي بها أنسبُ هنا؛ لأنَّها تُفيد - بمعناها ومبناها المختوم بألف المدِّ - نفيَ أيِّ دَورٍ أو أثرٍ للقرين في طغيان الإنسان وانحرافه عن طريق الإيمان نفيًا قاطعًا عامًّا، وهو ما أراده القرينُ من دفع التُّهمة عنه، فهو ينفي أدنى درجاتِ الطغيان عن نفسِه؛ ليُثبِتَها لقرينه.

دلالةُ المذكورِ على الحذفِ البَليغ:

طـغـاةُ الـكـفـرِ سريعو الـبراءة من قرنائهم لما يشاهدونه من أشكالِ العذاب

آثر النَّظم الكريم إسنادَ فِعلِ الطغيان المنفيِّ ماضيًا إلى الضمير العائد على القرين في قول اللّه تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾؛ لتأكيد نفي الإطغاء، وتحقيقِ عدم حصول شيء منه بالكُلِّيَّة، وإثباتِه للكافرِ المنكِر للبعثِ، وهو ردٌّ على قولٍ محذوفٍ نطق به الكافر يُثبت فيه الإغواء للقرين، وسوَّغَ حَذْفَه كونُه معلومًا من الرَّدِّ، وكان الحذفُ لبيان سرعة تبرُّؤِ قرناء السوء بعضِهم من بعضٍ يوم القيامة، وقريبٌ من هذا: الحوارُ الذي جرى بين المستكبرين والمستضعفين، فكان ردُّ المستكبرين: ﴿أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ٣٢﴾ [سبأ: 32]، فإنَّ كلًّا من طرفَي الغواية يوم القيامة سيلجأ إلى البراءة من الطَّرَف الآخر، ومن نكت الحذف كذلك: إهمالُ ما يصدر عن المنكِر في ذلك اليوم العَصيب إذلالًا وتحقيرًا لشأنه.

بلاغةُ المجاز المُرسَل:

نفي المُسَبَّب يدلُّ على نفي السَّبَبِ بداهةً

في تعبير القرين بفعل الطغيان المنفيِّ مجازٌ مرسَلٌ علاقتُه المسبَّبيَّة؛ إذ عبَّر في قوله: ﴿مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾ بالمسبَّب - وهو الطغيان - وأراد السَّبَب - وهو الأمر به، فالمعنى: (ما أمرتُه بالطغيان، ولا زيَّنتُه له بحالٍ من الأحوال)[2]، ونفي المسبَّب أقوى وأبلغ هنا؛ لدلالته على نفي السَّبب بداهة.

(1) السامرائي، معاني النحو: 4/ 191.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 314.

دلالةُ العَطْفِ والاستِدراك:

تَمَسُّكُ القرينِ بأصلِ سلوكِ الإنسانِ؛ سعيًا لتَبرِئة نفسِه

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ بَعِيدٖ﴾؛ لعطف ما بعدها على جملة ﴿مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾ الواقعةِ جوابًا للنِّداء، فالقرين لم يكتفِ بنفي كلِّ أثرٍ نسبه الكافرُ له في إغوائه وإطغائه، بل أثبت له الضلالَ البعيد، وجاء بحرف الاستدراك (لَكِنْ)؛ لتأكيد نفي ما يسبقه، وإثباتِ ما يأتي بعدَه؛ لأنَّه الغاية من قوله، والهدف الرئيس من كلامه، "فالاستدراك لدفع توَهُّم أن المقارنة بينهما تقتضي أن يكون ما به من الطغيان بتلقين القرين، فهو ينفي ذلك عن نفسه، ولذلك أتبع الاستدراكَ بجملة: ﴿كَانَ فِي ضَلَٰلٖ بَعِيدٖ﴾، فأخبر القرين بأنَّ صاحبَه ضالٌّ من قَبلُ، فلم يكن اقترانُه معه في التقييض، أو في الصحبة بزائدٍ إيّاه إضلالًا"[1].

نكتة استعمالِ الكَينونة:

ضلالُ الكافرِ المُعانِدِ طبعٌ له وسَجيَّة

آثر النَّظم الكريم ذكرَ فعلِ الكينونة الماضي في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ بَعِيدٖ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ الكافر كان في ضلالٍ بعيدٍ على الدَّوام، فهو ضالٌّ في أصالة سلوكه واعتقادِه، وهو ما يُرَشِّح في احتجاجِ القرين أنَّه لم يكن صاحبَ التأثير الإجباريِّ في سلوك الكافر في الدُّنيا، وبدأ بفعل الكينونة؛ للدَّلالة على أنَّ إكثارَه من الضَّلالِ جعله ضالًّا، كالجِبِلَّة التي يُجبَل عليها الإنسان؛ فإنَّ كثرةَ سلوكِ الإنسان لفعلٍ من الأفعال يجعله له كالطَّبع والختم له.

بلاغة استعارة ﴿فِي ضَلَٰلٖ﴾:

الضلالُ يحيطُ بالإنسانِ الكَفّارِ إحاطةَ الظرف بالمظروف

في استعمال حَرفِ الظَّرفيَّة مع لفظ الضَّلال من قول اللّه تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ بَعِيدٖ﴾ استعارةٌ مكنيَّة؛ إذ شُبِّه الضلالُ بحفرةٍ عميقةٍ وبئرٍ سَحيق أُلقي فيه الإنسانُ بنفسه، وغاص في أعماقه، حتّى أحاط به إحاطةَ الظَّرف بالمظروف، ثمَّ حُذف المشبَّهُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 314.

به، ورُمِز إليه بشيء من لوازمه، وهو حرف الظرفيَّة، على سبيل الاستعارة المكنيَّة، التي تُصوِّر تمكُّنَ الضلال من الإنسان دون حاجة إلى إغواء الشيطان.

غرض التَّنكير:

جيء بالاسم المجرور بحرف الظرفيَّة في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ﴾ نكرةً منوَّنًا؛ لما يفيده التنكيرُ والتنوينُ من التعظيم والتفخيم معنًى وجرَسًا، وفيه دلالة على أنَّ الإنسانَ الكَفّار يعيش في ضلالٍ لا يُقادر قدرُه، ولا تفي العبارةُ بحقيقته ولا بوصفه.

بلاغةُ وصفِ الضَّلالِ بالبُعْد:

الإنسانُ الكَفّارُ متمكِّنٌ في الضَّلال حدًّا بعيدًا

التعبير في صفة الضَّلال بالبُعد - ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ﴾ - قد يكون استعارةً تصريحيَّة، شُبِّه فيها الضَّلالُ البالغُ في قوَّة النَّوع حدًّا لا يبلغ إليه إدراكُ العاقلِ بسهولةٍ بالطَّريق إلى المكان البعيد، لا يبلغُه سالِكه إلّا بمشقَّة، ولا يَعود منه إلّا بمشقَّة، ولا يُرجى له الاهتداء عادة، أو هو تشبيهٌ للضَّلال المَكين ببَعيد الزمان، أي: (في ضلالٍ قديم أصيل)، فالاستعارةُ لتأكيد مُفادِ فِعلِ الكينونة، والمعنى أنَّ تمكُّنَ الضلال منه يدُلُّ على أنَّه ليس فيه بتابع لما يُمليه غيرُه عليه؛ لأنَّ شأن التابع في شيءٍ ألّا يكونَ مَكينًا فيه[1]، والكَفّار متمكِّنٌ من الضَّلالِ، فالضلالُ محيطٌ به من جميع جوانبه، لا يُمكِن رجوعه معه، ومن ثمَّ كان يبادر إلى كلِّ ما يُغضِب اللّٰه، وإن حرَّكَتَه إليه؛ فإنَّه لا يحتاج إلى أدنى تحريك، فيثور له ثورةَ مَنْ هو مَجبولٌ مركوز في طباعه[2].

الكَفّار يُسابقُ الشَّيطانَ في ضلالِه ووسوسته

وقد يكون في وصف الضلال بالبعيد مجازٌ عقليٌّ علاقته السَّببيَّة؛ إذ أُسنِد وصفُ البُعد إلى ضمير الضلال، والأصل أن يُسنَد إلى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 314.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 428.

الكَفّار أو إلى ما يدلُّ عليه؛ لأنَّ البعد وصفٌ للضّالِّ لا لمعنى الضَّلال، أي: (ضلالًا بعُدوا به عن الحقِّ)، فأُسند البُعدُ إلى سببه[1]، وما جاء عليه النَّظم الكريم يُبيِّن لنا أنَّ الضلالَ قد استبدَّ بذلك الكَفّار، ووَصَل به إلى أبعدِ الغايات، وأقصى الدرجات التي لا مَزيدَ عليها، والتي لا تجعله في حاجة إلى إغواء الشيطان أو إضلاله؛ لأنَّه يفعل ما لا يخطر ببال الشيطان، ونظيرُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: 22].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/ 148.

﴿قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ٢٨ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٢٩﴾ [ق: 28 - 29]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهما:

حكمُ الله تعالى في الخصومةِ بين الإنسانِ وقرينِه هو الفَيصَلُ المبين

لمّا ذكرتِ الآيةُ السابقةُ نفيَ القرين زَعْمَ الإنسان أنَّ شيطانَه هو الذي أضلَّه، وأغواه، وأمسى الأمرُ واضحًا ومنكشفًا لهذا الإنسانِ الكفّار، وبات حالُ نزولِ العذابِ حقيقًا به، فلا مهربَ ولا منجا ولا ملجأ؛ ناسب أن يأتيَ البيانُ لموقِف الحقِّ وحُكمِه ﷻ للفصل بينهما في هذه الخصومة، التي يريد كلُّ واحدٍ منهما التنَصُّلَ من وِزرِها وعقابِها، وإلقاءَ تَبِعَتِها على الطَّرَف الآخَر(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَخۡتَصِمُواْ﴾: (خصم) أَصْلٌ يدلُّ على المُنازَعَة، ومنه الخَصْمُ: الَّذي يُخاصِمُ، والذَّكَرُ والأُنْثَى فيه سَواءٌ، والخِصامُ: مَصْدَرُ خاصَمتُهُ مُخاصَمَةً وخِصامًا(2)، وأصل المُخاصَمَة: أن يتعلَّق كلُّ واحدٍ بخَصم الآخر، أي: جانبه، وأن يجذب كلُّ واحدٍ خصمَ الجوالق من جانب، قال تعالى: ﴿۞هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ﴾ [الحج: 19]، أي: (فريقان)، وقال هنا: ﴿لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾(3)، أي: (لا توقِعوا الخصومة بهذا الجدِّ والاجتهاد)(4).

2) ﴿قَدَّمۡتُ﴾: (قدم) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى سَبْقٍ، ثُمَّ يُفَرَّعُ منه ما يُقارِبُهُ، يَقولونَ: القِدَمُ: خِلافُ الحُدوثِ، ويُقالُ: شَيْءٌ قَديمٌ؛ إذا كانَ زَمانُهُ سالِفًا، وأكثرُ ما يُستعمل القديم باعتبار الزمان، نحو:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 139.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خصم).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (خصم).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 429.

﴿كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ۝٣٩﴾ [يس: 39]، ومعنى التَّقديم بالوعيد هنا: الإعلام قبل وقت الحاجة إلى أن يَعمَله[1].

3) ﴿يُبَدَّلُ﴾: (بدل) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى قيامِ الشَّيْءِ مَقامَ الشَّيْءِ الذّاهِبِ، يُقالُ: هَذا بَدَلُ الشَّيْءِ وبَديلُهُ[2]، والإبدال والتَّبديل والتَّبَدُّل والاستبدال: جعْلُ شيء مكانَ آخر، ويَقولونَ: بَدَّلْتُ الشَّيْءَ؛ إذا غَيَّرْتُهُ، وإنْ لَم تَأْتِ له ببَدَلٍ، وأبْدَلْتُهُ؛ إذا أتَيْتُ له ببَدَلٍ، قالَ تَعالَى: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾ [يونس: 15]، وقوله هنا: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ﴾، معناه: (لا يُغَيَّرُ ما سبق في اللَّوحِ المحفوظ)؛ تنبيهًا على أنَّ ما عَلِمَه أن سيكون يكون على ما قدْ عَلِمَه لا يتغيَّر[3].

4) ﴿بِظَلَّٰمٖ﴾: (ظلم) أَصْلٌ يدلُّ على وضْعِ الشَّيْءِ في غيرِ مَوْضِعه بزيادَةٍ أو بنَقْصٍ تَعَدّيًا، يقال: ظَلَمَهُ يَظْلِمُهُ ظُلْمًا، ويُقالُ: ظَلَّمْتُ فُلانًا: نَسَبْتُهُ إِلَى الظُّلْمِ، وظَلَمتُ فُلانًا، فاظَّلَمَ، وانْظَلَمَ؛ إذا احْتَمَلَ الظُّلْمَ[4]، أو هو حَجبُ ما ينبغي، أو ما يُسْتَحَقُّ، أي: منعُه أو انتقاصُه، قال تعالى: ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [الكهف: 33]، أي: (لم تمنع أو تُنقص)، وقال: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا﴾ [طه: 112]، أي: (نقصًا)، ومنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾ [النساء: 40]، أي: (لا ينقص، ولا يمنع)[5].

5) ﴿لِّلۡعَبِيدِ﴾: (عبد) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى لينٍ وذُلٍّ، ومنه العَبْدُ، وهوَ المَملوكُ، والجَماعَةُ العَبيدُ[6]، والعُبوديَّةُ: إظهار التَّذلُّل، والعبد أبلغ من العابِدِ، والناس كلُّهم عِبادُ اللّه، بل الأشياء كلُّها كذلك، لكنَّ بعضَها بالتَّسخير، وبعضَها بالاختيار، فلفظُ العَبيدِ؛ إذا أُضيف إلى اللّه أعمُّ من العِبادِ، ولهذا قال هنا: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾، فَنَبَّه إلى أنَّه لا يظلم مَن يختصُّ بِعِبادَته، ولا من انتسب إلى غيره، مِنَ الَّذين تسمَّوا بِعَبْدِ الشمس وعَبْدِ اللّات ونحوِ ذلك[7].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدم)، والرّاغب، مفردات القرآن: (قدم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدل).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (بدل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم)، والرّاغب، مفردات القرآن: (ظلم).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ظلم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبد).
(7) الراغب، مفردات القرآن: (عبد).

المَعْنى الإجْماليُّ:

الانـتـقـالُ من الـحـوارِ اليائس إلى حكم العدلِ فــي الإنــســانِ البائس

تُبَيِّن الآيتانِ حُكمَ اللّه تعالى في نهي الإنسان وقرينِه عن التخاصُم في حَضرَته سبحانه؛ لأنَّه قدَّم إليهم بالوعيد في القرآنِ، وأنذرهم على ألسنة الرُّسُل، وحذَّرهم من سوءِ العاقبة مرارًا، ودعاهم إلى الخير جهارًا، ومن ثَمَّ فلا فائدةَ في محاولة كلِّ واحد إلقاءَ التَّبِعَةِ على الآخَر، وتبيَّن كذلك أنَّه لن يتغيَّر أمرُه تعالى، ولن يتبدَّل حُكمُه بتخليد الكافر في النّار، وتعذيب العاصي بها على حسَب عمله، وأنَّه ﷻ قاضٍ بين عبيده جميعًا - أيًّا كانوا - بالعدل الذي لا تَشوبُه شائبةٌ من الظلم[1]، فهو انتقالٌ من حوارٍ يائس، نطق به الإنسانُ البائس، إلى حكم العدلِ بين المتخاصمين من أهلِ النّار.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصلِ الآية عمّا قبلها:

الحكمُ القاطع ينطقُ بسلطانِ العدلِ

جاءت جملة: ﴿قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾ مفصولةً عمّا قبلها لشِبهِ كمال الاتِّصال، الذي تُجيبُ فيه الجملةُ الثانيةُ عن سؤالٍ أثارتهُ الجملةُ الأولى في نفس المتلقّي، فكأنَّه قيل: (فماذا قيل حينئذٍ؟) فأجابت عن ذلك الجملةُ الثانيةُ، وفُصِلت عن السّابقة، كما يُفصل الجوابُ عن السؤال، وقد جاءت الجملةُ ناطقةً بالحقِّ بقوَّة الحُكم، وسلطان الجَبَروت، وأمرِ القهّار سبحانه، غيرَ معطوفةٍ على كلامٍ سابق.

فائدةُ إضمار الفاعل:

تـهـويـلُ الموقـف وتفخيمُ المشهدِ وتعظيمُ الحكم

أُسنِد فِعلُ القَول إلى ضمير الحقِّ سبحانه في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾، وهو حكايةُ كلامٍ يصدر يومئذٍ عنه ﷻ للفريقَين: الذين اتَّبَعوا، والذين اتُّبِعوا؛ فالضمير عائدٌ على غير مذكور في الكلام، يدلُّ عليه قولُه: ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾، ولا يصدر ما جاء

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13: 346، 347، بتصرف.

عليه النَّظم إلّا عن اللّه تعالى، فهو الذي يصدُر عنه النَّهي الحاكم على العبادِ بالتزام الصَّمت، ونكتةُ عدم التَّصريح بالفاعل: تهويلُ الموقف، وتفخيمُ المَشهَد، وتعظيمُ الحُكْم.

بلاغة أسلوب النهي وغرضه:

كـفُّ الـنُّـفـوسِ الـكـافـرة عـن الـخـصـومـةِ؛ تَيئيسًا لهم مِن النَّجاة

جاء أسلوبُ النَّهي في قول اللّه تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾؛ لكَفِّ الإنسانِ وقرينِه عن التَّخاصُم الحاصل بينهما في حضرة اللّه تعالى، الذي لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء، والتعبيرُ به يدلُّ على أنَّ النفوسَ الكافرةَ ادَّعت أنَّ قرناءَها أطغَوْها، وأنَّ القرناءَ تنصَّلوا من ذلك، وأنَّ النفوس أعادت رميَ قرنائها به، فصار خصامًا، وطويَ ذكرُه لدلالة النَّهي عليه؛ إيثارًا لحقِّ الإيجاز في الكلام.

والنَّهي عن الاختصام بعد وقوعه بتأويل النهي عن الدوام عليه، والمعنى: (كُفّوا عن الخصام[1]، وداوِموا على عدم الرجوع إليه)، وسبب النهي: أنَّ الخصام في ذلك لا جدوى له؛ لأنَّ استواء الفريقين في الكفر كافٍ في مؤاخذة كِلَيهما على السواء، فلمّا تقرَّر عليهم حُكمُ اللّه؛ لم يُفِدهم التخاصُم لإلقاءِ التبعةِ على أحد الفريقين[2].

فائدةُ تقييد النَّهيِ بالظَّرف:

كنايةٌ عن فَقدِ الأمَل في النَّجاة مـن الـعـذابِ الشَّديد

الظرفُ في قول اللّه تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾ متعلِّقٌ بفعل الاختصام المنهيِّ عنه، قُيِّد به النَّهيُ؛ للإشارة إلى عدم جدواه يوم البعث، فالاختصام كان ينبغي قبل الحضور والوقوف بين يدي اللّه جلَّ في علاه[3].

يُزاد على ذلك ما يشعُّ به التَّعبير بالظرف من التبكيت

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 314.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 314.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 139.

والتحسير؛ لدلالته على إدراكهما حقيَّةَ البعث والحساب، والمعنى: (لا تختصموا في دار الجزاء بهذه الحضرة، التي هي فوق ما كنتم تُدرِكونه من الأخبار عنها بكثير، وأعجبُ بما يدرك حقَّ الإدراك، فقد انكشف ما كان يستغربه الخاصَّة، وفات بانكشافها نفعُ إيمانٍ جديدٍ)[1]. فاستُعمل هذا الظَّرف كنايةً عن فَقدِ الأمَل بعد وصول هذا الموقفِ العظيم، الذي لا جدوى بعده في الخَلاص.

نوعُ الواو ودلالتها:

الجملة الحاليَّة تعليلٌ للنَّهي عن الاختصام

الواو في جملة: ﴿وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ﴾ هي واو الحال، والجملة بعدها حالٌ من الضمير في ﴿لَا تَخۡتَصِمُواْ﴾، جيء بها؛ لبيان السَّبب في النَّهي عن الاختصام في حضرة العليِّ القدير يوم البعث والنشور، والمعنى: (لا تَطْمَعوا في أنَّ تَدافُعَكم في إلقاء التَّبِعة يُنجيكم من العقاب بعد حال إنذاركم بالوعيد من وقت حياتكم، فما اكترثتم بالوعيد، فلا تلوموا إلّا أنفسكم؛ لأنَّ مَنْ أنذر؛ فقد أعذر)[2].

دلالة استعمالِ حرفِ التَّحقيق:

استعمل النَّظمُ الكريم حرفَ التحقيق (قد)، في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ﴾؛ للإبلاغ في تأكيد وقوع الإنذار، وتقويَةِ حصوله بأكثرَ من وسيلة، قبلَ أن يَلقَى الإنسانُ وقرينُه ربَّهم، ويقفوا بين يديه هذا المَوقف.

معنى التقديم:

التقديم: جعل الشيء قدّام غيره، ويُراد به في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ﴾ كونه سابقًا على المؤاخذة بالشِّرك؛ لأنَّ اللّٰه توعَّدهم بواسطة الرسول ﷺ[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 429.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 315، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 336.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 316.

دلالةُ استعمال حرفِ الانتهاء:

إقامـة الحجَّة وبـلـوغ الـدَّعـوة لـجـمـيـع المخاطَبين

عُدّيَ فعل التقديم إلى ضمير الجميع بحرف الانتهاء (إلى)، في قول اللّه تعالى: ﴿وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ﴾؛ للدلالةِ على وصول الإنذار لكُلِّ النّاس، ويدخل فيهم دخولًا أوليًّا - إذْ هو المراد بالخطابِ - الكافر وقرينه؛ لبيان قيام الحجَّة به عليهم، ففي هذا التَّعبير تعليلٌ للنهي الحازم عن التخاصم، وأنَّه لا اعتدادَ به في هذا الموقفِ، ولن يُصْغيَ إليه أحدٌ، فدلَّ الحرف (إلى) على بلوغ الدَّعوة لهم، وإقامة الحجَّة عليهم.

دلالةُ استعمال ضَميرِ الجمع:

الجارُّ (إلى) ومجرورُه في قول اللّه تعالى: ﴿وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ﴾ متعلّقٌ بفعل التقديم، والضمير فيه عائدٌ إلى الإنسانِ وقرينِه، وعبَّر به جمعًا؛ ليَشملَ جِنْسَ المُتخاصِمين يومَ البعث والحساب، وجريًا على طريقة العرب في جعل المُثَنَّى داخلًا في الجمع.

نوعُ الباء ودلالتُها:

الباء في قول اللّه تعالى: ﴿وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ﴾؛ لتأكيد وصول التخويف من الكفر إلى النّاس بعامَّة، وإلى الكفّار بخاصَّة، قبل وُرودِهم على اللّه جلَّ في عُلاه، ويحتمل المصاحبةَ، أي: (قدمت إليكم ما يجب، مع الوعيد على تركه بالإنذار)[1].

معنى تعريفِ لَفظِ الوَعيدِ:

الـوعـيـدُ اسـمٌ جـامـعٌ لـكـلِّ ما حـذَّر الـلـه بـه الكفّار

(أل) في قول اللّه تعالى: ﴿وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ﴾ لتعريف العهد، فهو الوعيد بالنّار والعقاب الشَّديد على ارتكاب الكُفر والعِصيان، الذي قدَّمه اللّه في كُتُبه، وعلى لسان رُسُله.

نكتةُ الاقتصار على الوَعيدِ:

قُيِّد فعلُ التقديم ﴿بِٱلۡوَعِيدِ﴾ دون (الوعد)، في قول اللّه تعالى: ﴿وَقَدۡ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 139.

مناسبةُ السّياقِ في خطابِ المشركين

﴿قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ﴾، مع أنَّ الرسولَ ﷺ قَدَّم بهما؛ إذ بعثه اللّه تعالى مُبَشِّرًا ونذيرًا؛ لمناسبته العذابَ الذي ينتظرهم؛ بسبب الضلال الذي كانوا فيه، والعناد الذي عاشوا عليه، على الرَّغم من التهديد الشديد، والتحذير العظيم ممّا كانوا يرتكبونه من كفران وعدوان[1].

موقع جملة النَّفي ممّا قبلها:

حكمُ اللّه وقضاؤه ثابتٌ لا يقبلُ التَّبديل

قول اللّه تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ لتقوية النَّهي عن الاختصام في هذا الوقت، وتأكيدِ عدم جدواه؛ لدلالتها على أنَّ ما قَضاه اللّه تعالى، وأخبر به على لسان رسله، وأثبته في كتبه لن يتبدَّل، أو يتغيَّر، ولعِلْم اللّه المحيط بحقيقة كلِّ واحدٍ من المُتجادِلين المُتخاصِمين، فالمعنى: (قد قدَّمت بالوعيد أنّي أُعَذِّب الكفّارَ في ناري، فلا يُبَدَّلُ قولي، ولا يُنقَضُ ما أبرمه كلامي)[2].

دلالةُ النَّفي بـ ﴿مَا﴾:

نفيُ تبديلِ كلامِ الله نفيًا قاطعًا عامًّا

﴿مَا﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ﴾ هي النافية التي بمعنى (ليس)، أوثِر النَّفي بها؛ لأنَّ من خصائصها نفيَ الجمل الاسميَّة والفعليَّة، فهي آكدُ في النفي من (ليس)، وأوسعُ استعمالًا منها؛ لأنَّ (ليس) مختصَّةٌ بنفي الجُمَل الاسميَّة فحَسْب[3]، والنفي بها أنسبُ هنا؛ لأنَّها تفيد - بمعناها ومبناها المختوم بألف المدِّ - نفيَ تغيير قولِ اللّه نفيًا قاطعًا، وهو يعُمُّ كلَّ قولٍ صدر عن اللّه تعالى.

فائدةُ البناءِ لِلمفعولِ:

لا يستطيع أحدٌ كائنًا مَن كان أن يغيِّرَ شيئًا ممّا كان

جيء بالمضارع المنفيِّ من فعل التَّبديل مبنيًّا للمفعول في قول اللّه تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ﴾؛ لأنَّ القصدَ هو نفيُ حصول التبديل، أيًّا كان فاعلُه أو القائمُ به، والمعنى: (ما يُغَيِّر قولي شيءٌ بوجهٍ من

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 429.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 164.
(3) السامرائي، معاني النحو: 4/ 191.

الوجوه)[1]، فلن يكون يومَ الجزاء في دار الجزاء إلّا ما ذكره ﷻ في كتابه، وأوعَدَ به عبادَه.

معنى تعريف ﴿ٱلْقَوْلُ﴾:

الـقـولُ عَـلِـمـه الـنّـاس في الدُّنيا، فتجاهلَه الكفَرَة، وعمِلَ به المؤمنون

(أل) في قول الله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ لتعريف العهد، والمقصود به: (القولُ الواصل من الله تعالى إلى الناس بعامَّة والمشركين بخاصَّة، من خلال كتبه وعلى ألسنة رسله، بأنّه لا يَغفِر أن يُشرَك به، ويَغفِر ما دون ذلك لمن يشاء)[2]، أو: (القولُ بأنَّ كلَّ نفسٍ تُجزى الجنَّةَ؛ إذا عملت خيرًا، وتُعاقَب بالنار؛ إذا عملت شرًّا)، ويجوز أن يكون المراد: (ما أثبته الملَكانِ من أفعال العباد، وما شهِدا به عليهم يوم الميعاد)، ممّا يستلزم نفيَ الكذب في هذا اليوم لعلم الله بجميع الأمور)[3]، ويحتمل أن تكون (أل) لتعريف الجنس، فيعمَّ المرادُ بالقَولِ كلَّ ما ذُكر وغيره، ولا مانعَ من ذلك.

فائدةُ التَّقييدِ بالظَّرفِ:

(لَدَى) في قول الله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ ظرفٌ قُيِّد به فعلُ التبديل المنفيُّ؛ لتأكيد انتفائه، وتقوية استحالة حدوثه مِن الله تعالى، أو مِن أيِّ أحدٍ كائنًا مَنْ كان بين يدَيِ الله ﷻ؛ لعلم الله تعالى بحقائقِ الخلق، واطِّلاعه على أقوالهم وأفعالهم.

دلالةُ العطفِ بين الجُمَل:

تـبـديـلُ الـقـولِ ظـلـمٌ مُـنـزَّهٌ عنه ذو العدلِ المُطلَق

الواو في قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾؛ لعطف ما بعدها على قوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾، أي: إنَّ كِلتا الجُملَتَينِ من كلام الله الفاصل بين الإنسان والشيطان، وعُبِّر بها لتقرير النهي عن الاختصام، وتأكيد عدم جدواه، ولتقوية عدم تبديل القول بين

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 430.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 429، 430.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 165.

يديِّ اللّه؛ لأنَّ تبديلَ القولِ سيترتَّب عليه ظلمٌ، واللّه تعالى منزَّه عن الظلم، فالجملةُ واردةٌ لتحقيق الحقِّ على الوجه الكُلّيِّ، ولبيان أنَّ عدم تبديل القول وتحقيقَ موجب الوعيد ليس ظلمًا، بل بما صدر عنهم من الجنايات الموجِبَةِ له[1].

غرضُ النَّفي بـ(ما):

لـن يـلـحـقَ أيَّ عبدٍ من العبيدِ ظـلـمٌ مهما قلَّ أو دقَّ

(ما) في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ هي النافية العاملة عملَ (ليس)، والتي تمتاز عن (ليس) بدخولها على الجملتين الفعليَّة والاسميَّة، بخلاف (ليس) التي تختَصُّ بالجملة الاسميَّة، والنفي بـ(ما) أنسب هنا؛ لأنَّها تدُلُّ - بمعناها ومبناها المختوم بألف المدِّ - على نفي الظلم عن اللّه تعالى نفيًا قاطعًا، يعمُّ كلَّ عبدٍ من النّاس، وجميعَ صوَرِ الظُّلم.

دلالة التعبيرِ بالجُملة الاسميَّة:

أوثِر التعبير في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ بالجملة الاسميَّة لدلالتها على ثبوت انتفاء الظلم عن اللّه تعالى، ودوام ذلك في كلِّ الأوقات والأحوال، ومع جميع الخلق، فاللّه سبحانه لا يَظْلِمُ أحدًا مثقالَ ذرَّة.

وجهُ التعبير بالضَّمير:

تـعـظـيـمُ الـلـه تـعـالى وإكـبـارُه عن الظُّلم

عبَّر المولى سبحانه عن نفسه المقَدَّسة بضمير المتكلِّم المنفصل، فقال ﷻ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾؛ لكونه دليلًا على الذّات، ولأنَّ الضمير أعرفُ المعارف، ولدلالته في هذا السياق على عَظَمة اللّه تعالى وكِبريائه وترفُّعِه جلَّ شأنُه وعَظُمَ سلطانُه عن الظلم؛ تأكيدًا لعدم جدوى التَّخاصُم لديه، وتقريرًا لنفي تبديل القول بين يديه.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 132.

معنى الباء ودلالتُها:

الباءُ الجارَّة ومجرورُها في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ في محلِّ نصب خبر (ما)؛ أوثِر البيانُ فيه بحرف الباء - مع إمكان التعبير بدونه - لتأكيد نفي الظلم عن اللّه تعالى، وتقويةِ عدم حصوله منه جلَّ شأنُه.

نكتة صيغةِ المبالغة:

الإبـلاغُ في نفي الظُّلم، لا نفيُ المبالغة فيه

جاء التَّعبير بصيغة (فعّال) في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾؛ للإبلاغ في نفي الظلم بكلِّ أنواعه، وليس لنفي المبالغة فيه، وثمَّ دلالةٌ تتوافق مع السياق، وهي أنَّ تبديل القول يُعَدُّ ظلمًا مُفْرِطًا بالغًا، ومِنْ ثمَّ نفاه اللّه تعالى عن نفسه[1]، كما نفى عنها أقلَّ الظلم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾ [النساء: 40].

معنى اللام ودلالتُها:

اللّامُ الجارَّةُ ومجرورها في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ متعلّقٌ بـِ (ظَلّامٍ)، واللامُ فيه حرفُ جرٍّ يفيد اختصاصَ العبيدِ بعدم الظلم، وليس معنى ذلك جواز إيقاع الظلم على غيرهم، بل السبب في تخصيصهم ما قد يُظَنُّ بأنّهم عُرضَةٌ له أكثرَ من غيرهم[2].

وَجهُ التَّعبير بالعَبيد:

اللـه تـعالى لا يَظْلِمُ مَن عَبَدَ غيرَه، كما لا يَظْلِمُ مَن أخلَصَ في عبادتِه

آثر النَّظم الكريم استعمالَ مفردة (العَبيدِ) دون (النّاس)، في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾؛ لأنَّ لفظ (العَبيد) إذا أُضيف إلى اللّه؛ كان أعمَّ من العِبادِ، فاللّه تعالى نَبَّه من خلال التعبير بالعبيد إلى أنَّه لا يَظلِم مَن اختصَّ بِعبادَته، ولا يَظلِم كذلك

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 388.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 142.

مَن انتسب إلى غيره من الذين تسمَّوا بِعَبْدِ الشمس وعَبْدِ اللّات[1] ونحوِ ذلك، كما أنَّ البيان به فيه زيادةُ تقريرِ معنى الظلم في نفوس الخَلق؛ إذِ المعنى: (لا أظلمُ ولو كان المظلوم عبدي)، فإذا كان الله الذي خلق العبادَ قد جعل مؤاخذة مَنْ لم يسبق له تشريعٌ ظلمًا، فكيف بمؤاخذة الناس بعضِهم بعضًا بالتَّبِعات دون تَقَدُّم إليهم بالنَّهي من قبل؟ ولذلك يُقال: لا عقوبةَ إلّا على عمل فيه قانونٌ سابِقٌ قبلَ فعله[2].

(1) الراغب، مفردات القرآن: (عبد).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 317.

﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ٣٠﴾ [ق: 30]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

مـــآلُ الحكم العدلِ تطبيقُه باستحقاقِ أصحابِه ما صدر بحقِّهم

بعدَ أن بيَّنتِ الآيتانِ السّابقتانِ عَدمَ جدوى التخاصُم بين يدَيِ اللّه، ونفَتا تبديلَ القول في حضرته، كما نفتا الظلم عنه سبحانه بأيِّ شكل من الأشكال؛ ناسب أن تتحدَّث هذه الآية عن جهنَّم ومدى اتِّساعها واستعدادها لاستيعاب أعدادٍ كبيرة ممَّن يستحقّون العذاب والعقوبة؛ لبيانِ أنَّ القول الحقَّ والحُكمَ العدل مآلُه إمّا جهنَّم، وإمّا الجنَّة؛ فهو انتقالٌ من بيانِ الحكم العدل إلى بيانِ وقوعه وتنفيذه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱمۡتَلَأۡتِ﴾: (ملأ) أصلٌ يدلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيءِ في ظَرفٍ حتّى لا يَبقَى فيه فَراغٌ، يُقال: مَلَأْتُ الشَّيْءَ أملَؤُهُ مَلْئًا، والمِلْءُ: الاسْمُ لِلْمِقْدارِ الَّذي يُملَأُ، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾[1].

2) ﴿مَّزِيدٖ﴾: (زيد) أصلٌ يدلُّ على الفَضْل[2]، فالزّيادَةُ: أن ينضمَّ إلى ما عليه الشيء في نفسه شيءٌ آخر، يقال: زِدْتُه، فازدادَ، ويقال: ازدَدْتُ فضلًا، أي: ازداد فضلي، والزيادة قد تكون مذمومةً كالزّيادة على الكفاية، مثل: زيادة الأصابع، والزَّوائد في قوائم الدّابَّة، وقد تكون محمودةً، نحو قوله تعالى: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: 26]، أمّا قوله تعالى هنا: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾؛ فيجوز أن يكون استدعاءً للزّيادة، ويجوز أن يكون تنبيهًا إلى أنَّها قد

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملى)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (ملأ).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زيد).

امتلأت، وأنَّه حصل فيها ما ذُكِر في قوله تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [السجدة: 13][1].

المَعنى الإجْماليُّ:

بيانُ غيظِ جهنَّم وسَعَتِها لأهلِ النّارِ

يخبر اللّه تعالى في هذه الآية بما سيقول لجهنَّم يوم القيامة من السُّؤال عن الامتلاء؛ إذ إنَّه وعَدَها بالامتلاء من الجنَّة والناس أجمعين، فهو سبحانه يأمر بمَنْ يأمرُ به إليها، ويُلقيه فيها، وهي تقول: هل من مزيد؟ أي: هل بقي شيءٌ تزيدوني[2]؟ فالآيةُ بيانٌ لسَعةِ جهنَّم، وغرض ذلك التَّهديد الشَّديد، والتَّخويف من عاقبةِ أهل النّار.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ مَوقِع ﴿يَوۡمَ﴾ الإعرابيِّ:

الإخبارُ بما يُقال يومَ القيامةِ يُقصد به ترويعُ الكافرين وتعليمُ المؤمنين

الظرفُ ﴿يَوۡمَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾ إمّا أن يكونَ متعلِّقًا بمحذوف، تقديره: (اذكُر)، أو أن يكون متعلِّقًا بـ(ظَلّام)؛ لأنَّه إذا لم يظلم في هذا اليوم، فنَفْيُ الظلم عنه في غيره أولى[3]، أو أن يكون متعلِّقًا بفعل القول السّابق: ﴿قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾، ومناسبة تعليقه به أنَّ هذا القول لجهنَّم مقصود به ترويع المدفوعين إلى جهنَّم ألّا يطمعوا في أنَّ كثرتَهم يضيق بها سعةُ جهنم، فيطمعَ بعضُهم أن يكون ممَّن لا يوجد له مكان فيها، وحكاه اللّه في القرآن عِبرةً لمن يسمعه من المشركين وتعليمًا لأهل القرآن المؤمنين[4].

غَرَضُ التَّعبيرِ بالمضارِع:

استحضارُ الحالةِ المُتَحَدَّثِ عنها كأنَّها حاضرةٌ ماثلةٌ

جملةُ: ﴿نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾ في محلِّ جرٍّ بالإضافة إلى ﴿يَوۡمَ﴾، أوثر التَّعبير فيها بفعل القول مضارعًا جريًا على الأصل في

(1) الراغب، مفردات القرآن: (زاد).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 377.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 292.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 317.

التعبير عن الأحداث المستقبَلة بالفعل المضارع؛ إذا أُريد استحضارُ الحالة المُتَحَدَّثِ عنها، كأنَّها حاضرةٌ ماثلةٌ يعيشها المخاطَب، ويرى مَوقِعَه منها، فتُؤتي الحكايةُ أُكلَها، وتترك الصورةُ أثرَها في القلوب والعقول.

توجيهُ القراءاتِ في قوله ﴿نَقُولُ﴾:

قــراءةُ اليـاءِ جــاءت على الأصـل وقـراءة النـون جـاءت على الالتفات

فعل القول في الآية الكريمة: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾ قرأه نافع وشعبة بالياء: ﴿يَقُولُ﴾، وقرأه الجمهور بالنون ﴿نَقُولُ﴾[1]، والأولى جاءت جريًا على مقتضى ظاهر ما سبق من قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾، أي: (قال الله لا تختصموا لديَّ، يومَ يقول)، وقراءة الجمهور بالنون على الالتفات من الغَيبة إلى التَّكلُّم[2]؛ لما يُفيده الالتفاتُ من إيقاظِ المُتَلَقّي وتنبيهِه وتطريَتِه؛ بسبب عدم جريان الكلام على أسلوبٍ واحد، ولما يفيده طريقُ التكلُّم هنا من دعوة المتلقّي إلى ضرورة التفكُّر في خطاب الله بعَظَمَتِه النّارَ، وسؤالها: (هل امتلأت؟)، وقولها: (هل من مزيد؟)، مع أنَّ الله تعالى لا يخفى عليه شيءٌ مِنْ أمر النّار، أو مِنْ أمرِ غيرِها مِنَ الخلائق[3].

غرضُ تقديم الجارِّ والمجرور:

تـشـويـقُ السّامعين بما ينطوي عليه الكلام من التَّخويف

قُدِّم الجارُّ والمجرور المتعلِّق بفعل القول على مقوله في الآية الكريمة: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾؛ لبيانِ توجُّه العناية في توجيه القولِ للنّارِ، ولأنَّ الاهتمام مُنصَبٌّ على التنبيه إلى سؤالها وجوابها؛ اتِّساقًا مع قصد الآية إلى ترويع الكُفّار المنكِرين للبعث، العازفين عن العمل الصالح؛ كما أنَّ في تقديم ما وُجِّه القول له

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 376.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 317.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 430.

تشويقًا للقولِ الذي سيُقال، والتشويقُ في هذا السّياق ينطوي على عنصر التَّخويف والترويع.

علَّة اختيار الاسمِ (جَهَنَّم):

جهنَّم يصلَونها فبئسَ المَصير

أوثر التعبير بـ(جَهَنَّمَ) دون غيره من أسماء النار، في قول اللّه تعالى: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾؛ لدلالته على دار العذاب مع الكراهة والعُبوسة والتجهُّم، وإظهارًا للهول بتصوير الأمر المهدَّد به، وتقريع الكفّار، وتنبيه مَنْ يسمع هذا الخبر عن هذا السؤال من الغفلة والإعراض، والتَّمادي في العناد[1]، فجهنَّم هي الاسم العَلَم للنّار التي أعدَّها اللّه تعالى للكافرين المعذَّبين فيها، وذِكرُ الاسمِ العَلَمِ يزيد من التخويف والتهديد الذي هو أحدُ مقاصدِ الآيةِ.

غرضُ التَّعبيرِ بأسلوب الاستفهام:

ذكرُ تقريرِ النّار بحصول الامتلاءِ وعيدٌ وتهديد

قول اللّه تعالى: ﴿هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾ جملةٌ في محل نصب مَقولِ القول، و(هَلۡ) فيه للاستفهام القاصد إلى تقرير النار بأنَّها امتلأت، كما وعد اللّه تعالى في قوله سبحانه: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٣﴾ [السجدة: 13]؛ تعريضًا بالكافرين، وتحذيرًا من التَّمادي في الغفلة والإعراض عن الإيمان بالبعث، ودعوةً إلى الاستعداد له بالعمل الصالح.

بلاغةُ استعمالِ مفردة الامتلاء:

حشرُ النّاس في مكانٍ واسعٍ تفظيعٌ للمشهدِ وتقريعٌ لأهل النّار

عبَّر النظم عن المستفهَم عنه بفعل الامتلاء، في قول اللّه تعالى: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾؛ للدَّلالة على اكتظاظ النار بالمعذَّبين، وعدم وجود فراغٍ فيها، فاللّه تعالى سيُلقي فيها من الخلائقِ ما لا يُحيط به الوصف[2]، وهو ما يدلُّ على أنَّ المعذَّبين في النّار سيملؤونها حتى تستوعِبَهم جميعًا، وفيه زيادةٌ في الترهيب والتَّخويف، فإنَّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 431.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 431.

امتلاءَ جهنَّم مع سَعَتها دليلُ حَشرِ أهلِها فيها، فحشر النّاس في مكان واسعٍ تفظيعٌ للمشهدِ، وتقريعٌ لمن لم يُعطِه حقَّه من التأمُّل الرّادعِ عن الاستمرارِ في الغيِّ.

نوعُ الواو ودلالتُها:

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٍ﴾؛ لعطف ما بعدها على جملة: ﴿نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾، فاجتمع في ذلك اليوم السؤال والجواب، وعطف جواب جهنَّم على سؤالها؛ لبيانِ تسلسُل الأحداث وترتُّبِ بعضها على بعض.

دلالةُ التَّعبير بصيغة المضارِع:

جاء فعل القول مضارِعًا في قول اللّه تعالى: ﴿وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٍ﴾؛ لبيانِ أنَّ هذا القولَ متجدِّدٌ مستمرٌّ، وهو ما يورِّث مقصودَ الآيةِ من التَّخويف من النّار التي تتهدَّد أهلَها، وتنتظر المزيدَ منهم.

حقيقةُ السُّؤال والجواب:

العَمَلُ بظاهر النَّصِّ هو المعتبَر في الغَيبيّات

سؤالُ اللّه جهنَّمَ ﴿هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾، وجوابُها ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٍ﴾، من باب الحقيقة؛ إذْ ليس هناك ما يمنع وقوعَه، لا سيَّما وأنَّ السنَّة النبويَّةَ قد أيَّدت شِكايةَ النّار إلى ربِّها، وبيَّنت إذْنَ اللّه تعالى لها بنَفَسَيْن[1]، فالأمور الغيبيَّة مقتضى الحكمة فيها التَّسليم لظاهر النَّظم، فهو مقتضى الحكمةِ في فهْمِ كلام اللّه تعالى؛ إذْ تأويلُها على غير ظاهرها صَرفٌ للمعنى من غير دليل، ولا اعتبارَ لما يُقال فيها قياسًا على عالم الشَّهادةِ، وفيه معنيان، أحدهما: أنَّها تمتلئ مع اتِّساعها وتباعُد أطرافِها حتّى لا يسعَها شيء، ولا يزاد على امتلائها. والثاني: أنَّها من السَّعة بحيث يدخلها مَن يدخلها وفيها موضعٌ للمزيد[2].

(1) الإسكندري، الانتصاف على الكشاف: 4/ 388، والطيبي، حاشية الطيبي على الكشاف: 14/ 459.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 388.

الاشتياق إلى الكفّار وتمنّيهم من خصائص جهنّم

غَرَضُ الاستفهامِ وبلاغتُه:

جملة: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدِ﴾ هي كلامُ النّار الذي يحكيه القرآن، و﴿هَلِ﴾ فيها للاستفهام القاصد إلى إظهار شدَّة اشتياق جهنَّم إلى مزيدٍ من العُصاة، على الرَّغم من امتلائِها، فهو دليلٌ على كبير غَيظها، وعظيم حنَقها على الكفّار المنكِرين، والعصاة الغافلين، والاستفهامُ "مستعملٌ للتشويق والتمنّي، وفيه دلالة على أنَّ الموجودات مشوَّقة إلى الإيفاء بما خُلِقَت له، كما قال الشيطان: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦﴾ [الأعراف: 16]، وفيه دلالةٌ على إظهار الامتثال لما خلقها اللّه لأجله، ولأنَّها لا تتلكَّأ، ولا تتعلَّل في أدائه على أكملِ حال في بابه"[1].

وظيفةُ حرفِ ﴿مِن﴾ ودلالتُه:

حرفُ ﴿مِن﴾ في قول جهنَّم: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدِ﴾ حرف جرٍّ يفيد تأكيدَ رغبة جهنَّم وتقويَةَ اشتياقها إلى إلقاء مزيدٍ من العصاة فيها، ففي استعماله تأكيدُ شدَّة حرصِها على امتثال أمر اللّه، وعلى أن تقوم بوظيفتها على خير وجهٍ وأحسنِه.

غرضُ تنكيرِ ﴿مَّزِيدِ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿مَّزِيدِ﴾ في قول جهنَّم: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدِ﴾؛ لما يفيده التنكيرُ من عموم طَلَب النار وشمولِه جميعَ العُصاة المُعَذَّبين، والكفّار المُنكِرين.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 318.

﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ٣٢﴾ [ق: 31 - 32]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلهما:

الانتقالُ من الحديثِ عن أهل الجحيم إلى أهل النَّعيم

لَمّا ذكرتِ الآيةُ السابقةُ جوابَ جهنَّم وتشوُّقها لاستيعاب أهل النّار من العصاة والكافرين، فكان ذلك بيانًا لحال أهل النّار، وجزاءً لما اقترفوه في الدُّنيا؛ ناسب بيانُ جزاءِ المتَّقين، وبعضِ ما يتَّصفون به؛ جريًا على عادة البيان القرآنيِّ في قَرْن الحديث عن المعذَّبين بالحديث عن المُنَعَّمين؛ لتُحْدِثَ المقابلةُ بينهما عملَها في عقول المتلقّين وقلوبهم[1]، فهو انتقالٌ من الحديثِ عن أهل الجحيم إلى الحديث عن أهل النَّعيم.

❁ شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿وَأُزۡلِفَتِ﴾: (زلف) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى انْدِفاعٍ وتَقَدُّمٍ في قُرْبٍ إِلَى شَيْءٍ، يُقالُ مِنْ ذَلِكَ: ازْدَلَفَ الرَّجُلُ: تَقَدَّمَ، وسُمّيَتْ مُزْدَلِفَةَ بِمَكَّةَ لاقترابِ النّاسِ إِلَى مِنًى بَعْدَ الإفاضَةِ مِنْ عَرَفاتٍ[2]، والمعنى المحوريُّ: انحدارُ ما حَولَ المكان بكثافةٍ منتقلًا إليه حتّى يتجمَّع فيه، ويمتلِئَ به لهبوط المكان، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةً﴾ [الملك: 27]، أي: (قريبًا)، وقوله هنا: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، يعني: (قُرِّبت إليهم أو لدخولهم)[3].

2) ﴿أَوَّابٍ﴾: (أوب) أَصْلٌ واحِدٌ هوَ الرُّجوعُ، يُقالُ: آبَ فُلانٌ إِلَى سَيْفِه، أَيْ: رَدَّ يَدَهُ؛ ليَسْتَلَّهُ، والأَوْبُ: تَرْجيعُ الأَيْدي والقَوائِمِ في

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 348، بتصرف.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زلف).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (زلف).

السَّيْر[1]، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥﴾ [الغاشية: 25]، وقال: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ٣٩﴾ [النبأ: 39]، والأوّاب كالتوّاب، وهو: الراجع إلى الله بترك المعاصي وفعل الطاعات، قال تعالى هنا عن أهل الجنَّة: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾، وقال عن عبدِه سليمانَ عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ٣٠﴾ [ص: 30][2].

3) ﴿حَفِيظٍ﴾: (حفظ) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى مُراعاةِ الشَّيءِ، يُقالُ: حَفِظْتُ الشَّيْءَ حِفْظًا[3]، والحِفظ يُستعمَل في كلِّ تفقُّدٍ وتعهُّدٍ ورعاية، والحفيظ: الموكَّل بالشيء يحفظه، قال تعالى: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ٤﴾ [ق: 4]، أي: (حافظٌ لأعمالهم)، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩﴾ [المؤمنون: 9]، فيه تنبيهٌ إلى أنَّهم يحفظون الصَّلاة بمراعاة أوقاتها ومراعاة أركانها[4]، وقوله تعالى هنا: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ معناه: (يبالغ في حفظ الحدود وسائرِ العهود، بدوام الاستقامة والرجوع بعد الزَّلَّة)[5].

المَعنى الإجْماليُّ:

جَنَّةُ الله تعالى أُعِدَّت وقرِّبت من كلِّ أوّابٍ حفيظٍ

تُخبِرنا الآيةُ الأولى بأنَّ الله تعالى سيُقَرِّب الجنَّةَ للمتَّقين يومَ البعث، فتكون قريبةً جدًّا، بحيث يشاهدونها في المَوقِف، وينظرون ما فيها ممّا لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خطرَ على قلب بشر، وتخبرنا الآية الثانية بأنَّ أهل الجنَّة سيُقال لهم عند دخولها: هذا الذي تَرَونَه من نعيم، هو ما سبق أنْ وعَدَ الله به كلَّ رجّاع إليه بالتوبة، حافظٍ لحدوده بحيث لا يتجاوزها، وإنَّما ينفِّذها، ويقفُ عندها[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أوب).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (أوب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حفظ).
(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 481.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 432.
(6) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 92، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 348.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتُها:

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ لعطف ما بعدها على قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾، والتقدير: (ويومَ أُزلِفت)، وهو عطفٌ يجمع الصّورتَينِ المتقابلتين في قَرن واحد؛ ليمتاز من خلاله الحَسَنُ من القبيح، فبضدِّها تتبيَّن الأشياء، "فهذه الجملة متَّصلةٌ في المعنى بجملة: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾، ولو اعتبرت معطوفة عليها؛ لصحَّ ذلك، إلّا أنَّ عطفَها على جملة: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾ غنيَّة عن ذلك، ولا سيما مع طول الكلام"[1].

التَّقابل بين المتناقِضات إعمالٌ للعقلِ في الموازنةِ بينها

دلالة استعمال مادَّة الإزلاف:

آثر النَّظم الكريم استعمالَ مادَّة الإزلاف في قول اللّه تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾؛ لبيانِ أنَّ الجنَّة تُقرَّب لأهلها مرحلةً تِلوَ الأخرى، فالإزلاف يُلاحظ فيه الوصول إلى المقصود تدريجيًّا.

دلالة التعبير بالمبنيِّ للمفعولِ:

جاء فعل الإزلاف مبنيًّا لِما لم يسمَّ فاعلُه، في قول اللّه تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾؛ لأنَّ فاعله معروفٌ للجميع - وهو اللّه جلَّ في علاه؛ إذْ لا يَقدِر على ذلك غيرُه، ولا يستطيع فعلَه من دون إذنه أو أمرِه أحدٌ كائنًا مَنْ كان - ولأنَّ البيانَ قاصدٌ إلى الإخبار بحصول تقريب الجنَّة ووقوعه من غير شكٍّ؛ تعجيلًا بالبُشرى للمتَّقين، وتطمينًا لقلوبهم، ورَفعًا للكلفة والمشقَّة عنهم؛ ليجمعَ اللّه لهم بذلك بين النعيم النفسيِّ والنعيم الحسّيِّ، وبه يبلُغ نعيمُهم قمَّته، ويصل إلى ذروته.

مِن أعظمِ ما يَبَشَّر به المؤمنُ اقترابُ الجنَّة إليه يوم القيامة

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 318.

فائدة تعريفِ ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾:

(أل) في قول اللّه تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾؛ لتعريف العهد الذهنيِّ؛ إذِ المقصودُ بها: (الجنَّة التي ذَكَرها اللّه تعالى في مواضِعَ كثيرةٍ من كتابه، والتي بيَّن النبيُّ ﷺ ما فيها من النعيم، ممّا لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، والتي يثير ذِكرُها القلوبَ الحيَّةَ، ويُلهِبُ العقولَ اليقظةَ إلى تَتَبُّع الحديث عن مستحِقّيها، والتَّطَلُّعِ إلى الأفعال والأقوال التي جعلتهم أهلًا لها.

ذكـــرُ الـجـنـةِ يـثـيرُ الـنـفـوسَ والـعـقـولَ إلى معـرفةِ أحـوالِ مستحِقّيها

نوعُ اللّامِ ودلالتُها:

اللامُ الجارَّةُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ تفيد الاختصاص، فاللّه تعالى خصَّ المتَّقين دون غيرهم من الخلائق بتقريب الجنَّة منهم، تقريبًا لا يعلَمُه أحدٌ غيرُه، كرامةً لهم عن كُلفة المَسير إليها النفسيَّة والبدنيَّة.

نوعُ تعريفِ (المتَّقين):

تعريف المتَّقين في قول اللّه تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يحتمل أن يكون للعهد الذِّهنيِّ، والمراد بهم المتَّقون الذين تحدَّث عنهم القرآنُ في أكثرَ من موضع، وبيَّن أقوالَهم وأفعالَهم وصفاتِهم في العديد من سوَرِه وآياته، ويحتمل أن يكون للجنس، ويكون المراد بهم كلَّ مَنْ جعل بينه وبين النّار وقايةً أو حاجزًا بالإيمان والعمل الصالح، والمتَّقون هم المعهودون في لسانِ الشَّرع، وسيدخل الجنَّة كلُّ تقيٍّ للّه تعالى، فيجتمع بذلك معنى العهد الذِّهنيِّ واستغراقِ الأفراد.

كلُّ تقيٍّ معلومٌ مـــن لـــســـانِ الشَّرعِ فهو من أهلِ الجنَّة

فائدةُ القَيدِ ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾:

قولُ اللّه تعالى: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ منصوبٌ على الظرفيَّة؛ لقيامه مقامَ الظرف؛ لأنَّه صفته، أي: (مكانًا غير بعيد)، أو على حذف المصدر الموصوف، أي: (إزلافًا غيرَ بعيد)، ومعناه التوكيد، كما

تقول: هو قريبٌ غيرُ بعيد، وعزيزٌ غيرُ ذليل[1]، والأولى أن تكون وصفًا لموصوفٍ محذوفٍ تقديره: (إزلافًا غير بعيد)[2].

توكيدُ المعاني في سياقِ الوعدِ طَمأنَةٌ للنفوسِ، وراحةٌ للقلوبِ

وقد أوثِر التعبير به - مع دلالة فعل الإزلاف الماضي على قُربِ الجنَّة - لتأكيد كَونِها قريبةً جدًّا من المتَّقين، بحيث يرَونها، ويطَّلِعون على ما فيها من نعيمٍ قبل دخولها، فتطمئنُّ نفوسُهم، وترتاح قلوبُهم بتحقيق وعدِ اللّه لهم.

علَّةُ مجيءِ ﴿بَعِيدٍ﴾ مذكَّرًا مُنَكَّرًا:

انتفاءُ البُعدِ بين المتَّقين وثوابِهم غايةٌ في إكرامِهم

جيء بالمُضاف إليه ﴿بَعِيدٍ﴾، في قول اللّه تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ﴾ مُذَكَّرًا، وهو بيانٌ لقربِ الجنَّة، وهي مؤنَّثة: لكونه بزِنَةِ المصدر كالزئير، والمصادر يستوي في الوصف بها المذكَّر والمؤنَّث، ويجوز أن يكون التذكير؛ لأنَّه نعتٌ لمحذوفٍ مُذكَّر، والمعنى: (مكانًا غيرَ بعيدٍ)، أو (إزلافًا غير بعيد)[3]، وأوثِر تنكيرُه؛ ليعمَّ النفيُ أيَّ مقدارٍ من البعد، ولو كان قليلًا.

مَوقِعُ جملةِ الإشارة وفائدتُها:

إعرابُ الجملِ تابعٌ لمعنى السّوابق واللّواحق وقوَّةِ الربط بينها

قول اللّه تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ يحتمل أن يكون جملةً معترضةً بين البدل - ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ - والمُبدلِ منه - ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾[4] - جيء بها؛ لتنبيه المخاطَبين إلى أنَّ ما يَعِدُ اللّه به من الثواب واقعٌ لا محالة، وحاصلٌ من غير شكٍّ أو ريب، وتحتمل الجملة أن تكون منصوبةً بقولٍ مُضمَرٍ، ذلك القولُ منصوبٌ على الحالِ، أي: (مقولًا لهم[5] عند دخول الجنَّة: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾)، والأقوى أن تكون جملةً اعتراضيَّة، فكونُها مقولَ قولٍ محذوفٍ إنَّما هو تحصيلُ

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 389.
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 31.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 389.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 296.
(5) السمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 31.

حاصلٍ على الإعرابَينِ من حيث المعنى، لكنَّ مجيئَها لتأكيد المعنى المرادِ أقوى من كونها حالًا يُقال لأهل الجنَّة وقتَ الإزلاف.

غرض التعبير باسم الإشارة:

رؤيةُ الجنة أوَّلُ منازل البشرى، ومبدأُ النَّجاةِ من النّار

﴿هَٰذَا﴾ قول اللّه تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ يمكن أن يكون إشارةً إلى الثواب الذي أعدَّه اللّه تعالى للمتَّقين في الجنَّة، أو إلى مصدرِ فعل الإزلاف، ويمكن أن يكون إشارة إليهما، والمعنى: (هذا الإزلاف وما ترَونَه من كلِّ ما يسرُّكم)[1]، وأيًّا كان المشارُ إليه؛ فالتعبير باسم الإشارة الموضوعِ للقريب يؤكِّد شِدَّة قُرْبِ الجنَّة من المتَّقين، بحيث يرون ما يُشار إليه منها، ويستطيعون تمييزَه من غيره.

نكتةُ التعبير بالاسم الموصول:

نعيمُ المتَّقين لا يدانيه نعيمٌ، ولا يَقرَبُه كفرُ لئيم

جيء بالخبر اسمًا موصولًا قول اللّه تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾؛ ليُتَوَصَّل من خلاله إلى تفخيم ما وعَدَ اللّه تعالى به المتَّقين وتعظيمه، والدلالةِ على أنَّه لا يُدانيه، أو يَصِل إلى درجته في النعيم النفسيِّ ولا الحسيِّ أيُّ شيءٍ آخر، بجانب ما في التعبير من إثارةٍ وتشويق، وجيء بالاسم الموصول ﴿مَا﴾؛ ليَعُمَّ كلَّ ما وُعِد به المتَّقون.

بلاغة التَّعبير بصيغةِ ﴿تُوعَدُونَ﴾:

تذكيرٌ بالوعد السّابق، وتفخيمٌ للموعود الزّالِف

جيء بفعل الصلة قول اللّه تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ مضارعًا، وهو خبرٌ لِما وُعِد به المتَّقون في الدنيا؛ لحكاية الحال الماضية، واستحضارها كأنَّها ماثلةٌ شاهدةٌ[2]، وأوثِر بناؤُه لما لم يُسَمَّ فاعلُه؛ لأنَّ الفاعلَ معروفٌ - وهو اللّه الذي لا يتخلَّف وعدُه، ولا يحيطُ بقولِه وأمره أيُّ قدْرٍ من الشكِّ أو الاحتمال - وللعنايةِ بأمر الوعدِ، فهو محلُّ العنايةِ؛ إذِ الوعدُ كنايةٌ عن دخولِ الجنَّة.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 432، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 92.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 432.

توجيهُ القراءات في قولِه ﴿تُوعَدُونَ﴾:

براعة السياق بين الغيبة والخطاب

قَرَأ ابْنُ كَثِيرٍ بالغَيْب: ﴿يُوعَدُونَ﴾، وقَرَأ الباقونَ بالخِطاب: ﴿تُوعَدُونَ﴾[1]. فحجة من قرأ بالتاء أن المعنى: (أيها المتقون) على الرجوع من الغيبة إلى الخطاب أو على: (قل لهم هذا ما توعدون)، وحجة الياء أنه على إخبار النبي ﷺ بما وعدوا، كأنه: (هذا ما يوعدون أيها النبي ﷺ)[2].

موقع الجارِّ والمجرورِ ودلالتُه:

قولُ اللّه تعالى: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ هو بدلٌ مبيِّنٌ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، واللام فيه لتوكيد استحقاقهم ما وُعِدوا به من تقريب الجنَّة والفوز بنعيمها؛ لأنَّهم يتَّصفون بالأوبَة ودوامِ الرجوع إلى اللّه.

دلالة التعبير بـ ﴿أَوَّابٍ﴾:

الإنسانُ التقيُّ كثيرُ التوبةِ دائمُ الأوبةِ

أوثر التعبير بـ﴿أَوَّابٍ﴾ نكرةً على وزن (فَعّال) الدالِّ على المبالغة؛ لبيان أنَّ أولَى صفاتِ الإنسان التَّقيِّ الموعودِ بالجنَّة هي كثرةُ التَّوبة من ذنوب الخلَوات، ودوامُ الرجوع إلى اللّه تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وفيه ما لا يخفى من بيان رحمة اللّه بخلقه؛ إذْ لم يشترطْ سبحانه في صِحَّة التقوى دوامَ الاستقامة[3]، بجانبِ ما فيه من ترغيب الكافرين وتبشيرهم بالقَبول إن هم تابوا، وآبوا.

نكتة الوصف بـ ﴿حَفِيظٍ﴾:

التقيُّ مبالغٌ في حفظِ الحدودِ رجّاعٌ بعد الزَّلّة

قول اللّه تعالى: ﴿حَفِيظٍ﴾ صفةٌ لـ ﴿أَوَّابٍ﴾، أوثر مجيئُها نكرةً على وزن (فَعيل)؛ للدلالة على أنَّ المتَّقيَ الموعودَ بالجنَّة شديدُ المحافظة، مبالِغٌ في التزام الحدود، وسائر العهود، فهو محافظٌ على الطّاعة، وإذا صدَرت منه فَلتة؛ أعقبها بتوبة[4].

---

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 376.
(2) أبو علي الفارسي، الحجة: 6/ 77.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 432.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 432، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 319.

نكتةُ تقديم ﴿أَوَّابٍ﴾:

التخلية مقدَّمة على التَّحلية

قُدِّم الوصفُ بـ﴿أَوَّابٍ﴾ على ﴿حَفِيظٍ﴾ من باب تقديم التَّخليَة على التَّحليَة؛ فإنَّ الأوّابَ يرجع إلى الله تعالى مستغفرًا، فإذا تاب، واستغفر، وأناب؛ اجتهد في الحفظ والتِزامِ أوامر الله تعالى.

﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ٣٣ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ٣٥﴾

[ق: 33 - 35]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

تفصيلٌ لصفات المتَّقين، وتصريحٌ بتبوئتهم جنّاتِ النَّعيم

لمّا تناولتِ الآيتان السابقتان تقريبَ اللّه تعالى الجنَّةَ للمتَّقين، وبيَّنتا أنَّهم كَثيرو الأوبَة، مبالغون في المحافظة، فكان ذكرُ الصفتين كالتَّعليل للتَّقوى، وبيانِ سبب إزلاف الجنَّة الذي هو كنايةٌ عن دخولِها؛ ناسب أن تستكمل هذه الآياتُ التعريفَ بهم، وأنْ تُبَيِّن ما أعدَّه اللّه تعالى في الجنَّة لهم؛ فذكرتِ الخشيةَ من الرحمن بالغيب، التي كانت سبب حفظهم لحدود اللّه، وأكَّدت صفة الأوّاب بذكر القلب المنيب، وأتت على ذكر دخولِها لبيانِ ما فيها من نعيمٍ مُقيم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَشِيَ﴾: (خشي) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى خَوْفٍ وذُعْرٍ، فالخَشْيَةُ: خوفٌ يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخشى منه، ولذلك خُصَّ العلماء بها في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ٩﴾ [عبس: 8 - 9]، وقوله هنا: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾[1].

2) ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾: (غيب) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى تَسَتُّرِ الشَّيْءِ عَنِ العُيونِ، مِنْ ذَلِكَ: الغَيْبُ، وهو ما غابَ مِمّا لا يَعْلَمُهُ إلّا اللّه[2]، وأمّا الغيب في قوله تعالى: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: 3]، وقوله هنا: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾؛ فمعناه: ما لا يقع تحت الحواسِّ، ولا تقتضيه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خشي)، والرّاغب، مفردات القرآن: (خشي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غيب).

العقول، وإنَّما يُعلم بخبر الأنبياء، وبدفعه يُطلَق على الإنسان اسمُ الإلحاد، وقيل: معناه يؤمنون؛ إذا غابوا عنكم، وليسوا كالمنافقين، الذين نزَل فيهم: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤﴾ [البقرة: 14][1].

3) ﴿مُّنِيبٍ﴾: (نوب) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى اعْتِيادِ مَكانٍ ورُجوعٍ إِلَيْه، يقال: نابَ يَنوبُ، والنّوْبُ: النَّحْلُ، سُمّيَت به لِرَعْيِها ونَوْبِها إِلَى مَكانِها[2]، والإنابة إلى الله: الرُّجوع إليه بالتَّوبة وإخلاص العمل، قال تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ۩ ٢٤﴾ [ص: 24]، وقال: ﴿وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا﴾ [الممتحنة: 4]، فصفة ﴿مُّنِيبٍ﴾ هنا معناها الرُّجوع إلى الحقِّ[3].

4) ﴿بِسَلَٰمٖۖ﴾: (سلم) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى الصِّحَّةِ والعافيَةِ، فالسَّلامَةُ: أنْ يَسْلَمَ الإِنْسانُ مِنَ العاهَةِ والأذَى، أو هي التَّعرّي من الآفات الظاهرة والباطنة، قال تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ﴾، أي: سلامة[4].

5) ﴿ٱلۡخُلُودِ﴾: (خلد) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى الثَّباتِ والمُلازَمَة، فَيُقالُ: خَلَدَ: أقامَ، وأَخْلَدَ أَيْضًا، ومنه جَنَّةُ الخُلْدِ، وقَوْلُهُ تعالَى: ﴿۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الإنسان: 19]، مَعناهُ البَقاءُ، أي: لا يَموتونَ[5]، فهو بقاءُ الشَّيءِ لازمًا مَوضِعَه أو حالَه أمدًا طويلًا رَغمَ زوالِ نظيره أو قرينه، وكلُّ ما في القرآن من التركيب هو من هذا، أي: البقاء الدائم[6].

6) ﴿مَزِيدٞ﴾: (زيد) أصلٌ يدلُّ على الفَضْل[7]، فالزّيادَةُ: أن ينضمَّ إلى ما عليه الشيء في نفسه شيءٌ آخر، يقال: زِدْتُه، فازْداد، ويقال: ازْدَدْتُ فضلًا، أي: ازداد فضلي، والزيادة قد تكون مذمومةً كالزّيادة على الكفاية، مثل: زيادة الأصابع، والزَّوائد في قوائم الدّابَّة، وقد تكون محمودةً، نحو قوله تعالى: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: 26]، ونحو: ﴿وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾[8].

---

(1) الراغب، مفردات القرآن: (غيب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نوب).
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 5/ 132.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، مفردات القرآن: (سلم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلد).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (خلد).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زيد).
(8) الراغب، مفردات القرآن: (زاد).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

وصفُ أحوال المتَّقين المتقلِّبين في جنّاتِ النَّعيم

تبيِّن الآيةُ الأولى أنَّ الإنسان التَّقيَّ الذي سيُقَرِّب اللّه تعالى له الجنَّةَ في الآخرة هو الذي يخشى ربَّه، وهو غائب عنه، لا يراه، ولا يشاهده، وهو الذي يأتي ربَّه يوم القيامة بقلبٍ راجعٍ إليه، مُخلِصٍ في طاعته، مقبلٍ على عبادته، ثمَّ تُبَيِّن الآيةُ الثانيةُ أنَّ الذين يفعلون ذلك في دنياهم، يُقال لهم يومَ الحساب على سبيل التبشير والتكريم: ادخُلوا الجنَّةَ التي وعدكم اللّه بسلامٍ وأمانٍ واطمئنان، فذلك اليوم هو يوم الخلود الذي لا انتهاءَ له، ولا موتَ بعدَه، وتبيِّن الآيةُ الثالثةُ أنَّ لهؤلاء المتَّقين ما يشاؤون، ويشتهون في الجنَّة، وعند اللّه لهم بالإضافة إلى كلِّ هذا النَّعيم الذي يرفلون فيه المزيدُ ممّا لم يخطرْ لهم على بالٍ، ولم تَرَهُ أعينُهم قبل ذلك[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مَوقِعُ الاسمِ الموصول ودلالتُه:

خشيةُ الله من أسبابِ استحقاق الجنَّة ونعيمها

﴿مَّنۡ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ بدَلٌ من (كُلِّ عبدٍ منيب)، بعدَ كون (كُلِّ) بدلًا من (المُتَّقين)، ويجوز أن يكون خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ تقديرُه: (هُم مَنْ خَشيَ)، أو مبتدأً خبرُه جملة: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ﴾؛ لأنَّ ﴿مَّنۡ﴾ في معنى الجمع، وأيًّا كان موقعُه الإعرابيُّ؛ فقد أوثِر التعبير به لتفخيم المُعَبَّر به عنهم وتعظيمِه، وليُتَوَصَّل من خلال جملة الصِّلة إلى تَتِمَّة التعريف بالمتَّقين؛ لبيانِ أنَّ من صفاتِهم خشيتَهم للّه معَ أنَّهم لم يَرَوه، ولم يُشاهِدوه، وأنَّ ذلك من أسبابِ استحقاق الجنَّة ونعيمِها.

بلاغةُ التَّعبير بالفعلِ ﴿خَشِيَ﴾:

آثر النَّظم الكريم استعمالَ مادَّة الخشية في قول اللّه تعالى:

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 348، 349.

﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ باعتبارِ العلم المتحقِّق لدى المتَّقين، وعبَّر به ماضيًا؛ للدلالة على تحقُّق خشيةِ المتَّقين ربَّهم وثبوتِها لهم في جميع الأحوال من غير شكٍّ أو ريب.

براعة انتقاء اسمِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾:

خشيةُ المتَّقين مقرونةٌ بالإيمان والرَّجاء

آثر النَّظم الكريم التعبير باسم الرَّحمن، في قول اللّه تعالى: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾، دون اسم الجلالة أو الربوبيَّة أو غيرها من الأسماء الحسنى؛ لبيانِ أنَّهم يخشَون اللّه مع علمِهم أنَّه رَحمَن، ففيه دلالة على كثرة خشية المتَّقين للّه، وعظيم تقديرهم له؛ لأنَّهم إذا خافوه مع استحضار الرحمة العامَّة للمطيع والعاصي؛ كان خوفُهم مع استحضار غيرها أولى، كما أنَّها خشيةٌ مقرونة بالأنس والرجاء، كما هو المشروع، ولذلك لم يقل: (الجبّار) أو (القهّار)، وفي التعبير ثناءٌ على المتَّقين وتعريضٌ بالمشركين الذين أنكروا اسم الرحمن، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: 60]، والمعنى: أنتم لا حظَّ لكم في الجنَّة؛ لأنَّكم تُنكِرون أنَّ اللّه رحمن، بَلَهَ أن تخشوه[1].

سرُّ التَّقييد بالجارِّ والمجرور:

من بليغ خشية المتَّقين أنَّهم لم يَـــرَوا الـلـه ولا عذابَه

قُيِّد فعل الخشية في قول اللّه تعالى: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ بالجارِّ والمجرور، وهو في محلِّ نصب حال من فاعل فعل الخشية، والباءُ للمصاحبة[2]، أي: يخشون ربَّهم من غير أن يطلبوا عيانًا، بخلاف الذين قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [النساء: 153]، والذين قالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾ [الفرقان: 21]، بل من قوَّة إيمانهم ومن بليغ خشيتهم أنَّهم يَقنعون بما أودَع اللّه في الآفاق وفي أنفسهم من الآيات الباهرة، والبراهينِ القاطعة، فيؤمنون باللّه، وهم لم يروه،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 432، 433، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 320.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 433.

ويسألون اللّه جنَّته، وهم لم يروها، ويستعيذون باللّه من النّار، وهم لم يروها، فكيف لو رأوا ذلك كلَّه[1]؟ ويجوز أن تكون الباءُ للسببيَّة، أي: خَشْيةً بسببِ الغَيب الذي أَوْعَدَه مِنْ عذابِه[2].

معنى الواو ودلالتُها:

مـن مـات على الـخـشـيـة في الدُّنيا جاء يوم القيامة مصاحِبًا لها

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾؛ لعطف ما بعدها على جملة: ﴿خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾، وأوثر العطف بالواو مع أنَّ المعطوف غيرُ مصاحبٍ للمعطوف عليه - إذِ المعنى: (من خشيَ الرحمن بالغيب في الدنيا، وجاء ربَّه يومَ القيامة بقلب منيب) - للدَّلالة على أنَّه دام على خشيته للّه تعالى وخوفِه منه إلى أن مات، فبُعِث على ذلك، وحُشِر إلى ربِّه به[3]، وفيه دلالة على أنَّ من عاش على شيء؛ مات عليه، ومن مات على شيء؛ بُعِث عليه.

دلالة التعبير بالفعل (جاء):

صاحبُ القلبِ المنيبِ له ثوابُه الـذي يليقُ به، ونـعـيـمُـه الـذي يَبقى له

عبَّر البيان الكريم بفعل المجيء، في قول اللّه تعالى: ﴿وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ فاعلَه مُقَدَّرٌ عند اللّه تعالى، وأنَّ بعثَه على هذه الحالة من الإنابة والخشية له ثوابه الذي يليق به، ونعيمُه الذي يُمَيِّزه، وجيء به ماضيًا - مع أنَّه سيَحدُث يومَ البعث - لتأكيد وقوعه، وتحقيقِ حصوله على النحو الموضَّح في الآية الكريمة.

نوعُ الباء ودلالتُها:

الباء في قول اللّه تعالى: ﴿وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾ متعلّق بفعل المجيء، والباء فيه للمصاحبة، والمعنى: (حضر يوم الحشر مصاحبًا قلبَه المنيبَ إلى اللّه تعالى).

(1) البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (6408)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2689).
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 33.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 433، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 320.

نكتةُ استعمال مادَّةِ القَلْب:

لا يثبُت على صلاحِ القلبِ المُعَرَّض للتَّقلُّب إلّا التَّقيُّ النَّقيُّ

آثر النظم الكريم في قول الله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾ استعمالَ مفردة القَلْب دون النَّفس مثلًا؛ للدلالة على العناية والاهتمام بالقلب، والحرص على إصلاحه وتهذيبه بكلِّ الوسائل؛ لعلمه أنَّ من سماته التَّقَلُّبَ وعدمَ الاستقرار، ففيه تحذيرٌ للعبادِ من الانقلاب عن الحقِّ، مع بيان أنَّ من ثَبَتَ على الحقِّ جاء منيبًا إلى ربِّه.

غَرَضُ تنكيرِ لَفظِ القَلب:

نُكِّر لفظ القَلب في قول الله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾؛ لتفخيمه وتعظيمه، فالقلب عليه مدارُ العمل، فإنْ صلُح، وسلِم؛ صلُح سائرُ العمل، وإن فسد؛ فسد بقيَّة العمل، فالقلب أمره عظيم وخطير، والثبات عليه لا يكون إلّا لموفَّق أعظم توفيق.

بلاغةُ المجاز في صفةِ ﴿مُّنِيبٍ﴾:

إبـرازُ أثَـرِ القلب في ثبات الإنسان عـلى الخشية والإنابة

وَصْفُ القلبِ باسم الفاعل من الإنابة، في قول الله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾ من باب المجاز العقليِّ لعلاقة السببيَّة؛ إذْ من المعلوم أنَّ الفاعل الحقيقيَّ للإنابة هو الإنسان، فالتقدير: (جاء بقلبٍ منيبٍ صاحبُه)، والتَّعبيرُ بهذه الحقيقة العقليَّة لا يعدو أن يكون مجرَّدَ إخبارٍ باتِّصاف الإنسان بالإنابة والرجوع إلى الله؛ أمّا التعبير المجازيُّ الذي جاء عليه القرآن، والذي جُعِلت الإنابةُ فيه عملَ القلب، ففيه إبرازٌ لأثر القلب الكبير، ودورِه العظيم في بقاء الإنسان على الخشية والإنابة، فهو سببٌ فاعل في الاتِّصاف بها والثبات عليها إلى وقت مجيءِ الأجل وحصولِ قبض الرّوح.

علَّة فصل جملةِ الأمر:

قول الله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ﴾ مقولٌ لقولٍ محذوف، تقديرُه: (هؤلاء يُقال لهم بعد البعث: ادخلوها بسلام)[1]، وجيء به مفصولًا

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 93.

عمّا قبله لشِبْهِ كمال الاتِّصال، الذي تُجيب فيه الجملةُ الثانية عمّا تثيره الجمل السابقة في نفوس المتلقّين حولَ ما يُقال لذوي القلوب المُنيبة عندما يُبعَثون للقاء اللّه، وتُزلَف الجنَّةُ إليهم غيرَ بعيد، فتُجيب عن ذلك هذه الجملة، وتُفصَل عمّا قبلها، كما يُفصل الجواب عن السؤال.

ما بعد الأوصاف الـكـامـلـة إلّا الجزاءُ الكامل

بلاغةُ الأمرِ للجماعة:

قول اللّه تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوهَا﴾ جملةٌ مكوَّنة من فعلِ أمرٍ وفاعل ومفعول، والغرضُ من الأمر فيها هو الإذن بدخول الجنَّة وإباحتُه، بقصد إكرامِ المتَّقين، وإظهار الحفاوة بهم، وتعجيلِ البشارة لهم، وإدخال السرور عليهم[1]، وفي الأمرِ بالدُّخول أيضًا تأكيدٌ لشدَّة قُربِها بعدَ ما أُزلِفت إليهم، وأنَّها مُفَتَّحةُ الأبوابِ لهم، جاهزةٌ لاستقبالهم، مهيَّأةٌ لدخولهم، وفي إسناد فعل الأمر إلى ضمير الجماعة إشارةٌ إلى أنَّ الإذنَ بالدُّخول شاملٌ كلَّ المتَّقين بلا استثناء، وفي الجمع بين ضمير الجماعة فاعلًا وضمير الجنَّة مفعولًا إيحاءٌ بِسَعَتِها، فهي جنَّةٌ ﴿عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران: 133].

الجنَّةُ جاهزةٌ لاستقبال المتَّقين، مُهَيَّأةٌ لدخولهم

نوعُ الباء ودلالتُها:

الجارُّ والمجرور في قول اللّه تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ﴾ متعلِّق بفعل الأمر، وهو حالٌ من فاعلِه واوِ الجماعة، والباء للمصاحبة، والمعنى: (ادخلوها مصحوبين بالسلامة من كلِّ مخوفة وأذى).

نكتةُ تنكيرِ المجرور:

جيءَ بالاسم المجرور نكرةً في قول اللّه تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ﴾؛ لما يفيده التنكير من عموم السَّلامة من كلِّ أنواع الأذى وصنوفه، سواء أكان أذًى بدنيًّا أم نفسيًّا، فدخولهم الجنَّة سيكون مصحوبًا بالفرح والسرور والإكرام، فيجتمع لهم بذلك نوعان من النَّعيم:

دخـولُ المتَّقين الجنَّةَ مصحوبٌ بالسَّعادة الغامرة، والسَّلامةِ الكاملة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 320.

الحِسَّيُّ والنَّفسيُّ، فيبلغ نعيمُهم قمَّتَه وذروته، ولو خلا البيان من هذا القَيد؛ لكان مجرَّدَ إخبارٍ بدخولهم الجنَّة دون توضيحٍ لما يصحبه من مشاعرَ نفسيَّةٍ وفَرَحٍ وطُمَأْنينة.

علَّةُ فصلِ جملةِ الإشارة:

نعيمُ المتَّقين في الجنَّة دائمٌ لا ينقطع، باقٍ لا يَزول

قولُ اللّٰه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ من جملة الكلام الذي يُقال للمتَّقين يومَ البعث، وهو مستأنَفٌ؛ للتنبيه إلى أنَّ النعيم الذي سيُجزَوْنَه في الجنَّة دائمٌ لا ينقطع، باقٍ لا يزول، خالدٌ لا يفنى، وفيه من التطمين ما لا يخفى، وفُصِلت عمّا قبلها لكمال الانقطاع؛ إذْ تختلف الجملتانِ إنشاءً وخبرًا، أو لِشِبه كمال الاتِّصال؛ إذ إنَّها تُجيب عن سؤالٍ يدور في نفوس المتلقّين، تقديرُه: (هل لهذا الدخول مُدَّةٌ مُحَدَّدةٌ؟ أو هل لهذا النعيم انقطاعٌ أو توقُّفٌ؟).

علَّة الإشارة للبَعيد:

تعظيمُ يومِ القيامة راجعٌ إلى عِظَمِ ما يحصلُ فيه للفريقَين

آثر النَّظم الكريم استعمالَ اسم الإشارةِ للبعيدِ، في قول اللّٰه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ أثناءَ خطابِ المتَّقين وأمرِهم بدخول الجنَّة؛ ليُشار به إلى اليوم الذي هم فيه، والتعبير بالاسم الموضوع للبعيد مع حضوره لتعظيم يوم البعث وتفخيم شأنه، ويجوز أن يكون الكلامُ اعتراضًا موجَّهًا إلى المتَّقين يومَ القيامة أو إلى السّامعين في الدُّنيا، وتكون الإشارة إلى اليوم المذكور في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾، فإنَّه بعدَ أن ذكرَ ما يُلاقيه أهلُ جهنَّم وأهل الجنَّة؛ أعقبه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ بالإشارة للبعيد ترهيبًا وترغيبًا[1].

دلالةُ إضافةِ اليومِ للخُلود:

أُضيف الخَبر إلى المصدر في قول اللّٰه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾؛ للدلالة على أنَّه يومٌ خاصٌّ لا يُشبِه الأيّامَ المعروفةَ المعهودة، وإنَّما هو

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 321.

اليوم الذي لا نهايةَ له، والذي يتوقَّف عنده الزمان، فهو يوم الإقامة التي لا آخرَ لها، ولا نفادَ لشيء من لذّاتها[1]، وهو اليوم الذي يحصل فيه الخلود، يُنادى: يا أهلَ الجنَّة! خلودٌ فلا موت، ويا أهلَ النّار! خلودٌ فلا موت[2]، واليوم هنا بمعنى الزَّمن المطلَق، فهو زمانُ الخلود الدّائم.

يـومُ القيامة زمـانُ الخلود المُطلَق

غرضُ تقديم الخبر:

قُدِّم الخبر على ﴿مَّا﴾ في قول الله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾؛ ليدلَّ تقديمُه على قَصْر تحقيق ما يُطلَبُ من ألوان النَّعيم على المتَّقين، بحيث لا يشاركهم في تلك المَزيَّة أحدٌ غيرُهم، وهو ما ينسابُ مع ذكر النَّعيم المحيط بأصحابِ الجنَّة.

نكتةُ استعمالِ ﴿مَّا﴾:

جيء بالمبتدأ اسمَ موصول عامٌّ في قول الله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾؛ ليَشمَل كلَّ ما يخطر على بال المتَّقين، ويرغبون في حصوله أو التَّلذُّذِ به.

دلالة التَّعبير بصيغةِ المضارع:

عبَّر النظم الكريم في جملة الصِّلة من قول الله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾، بفعل المشيئة مضارِعًا؛ لدلالته على التجدُّدِ الدّائم، فالله تعالى يجزي المتَّقين بتحقيق كلِّ نعيمٍ تتجدَّد رغبتُهم في حصوله والتنعُّم به، أي: (لهم ما يشاؤون من فنون المطالب كائنًا ما كان)[3].

مع تجدُّدِ رغبةِ المتَّقين يتجدَّد حصولُ المطلوبِ

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة:

الجارُّ والمجرور في قول الله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ متعلِّق بفعل المشيئة، ويجوز أن يكون حالًا من الاسم الموصول، والضمير

المتَّقون مُنَعَّمون فـي الـجـنَّـةِ مستقرّون فيها

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 433.
(2) البخاري، الحديث رقم: (4730)، ومسلم، الحديث رقم: (2849).
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 133.

المجرور فيه يعود إلى الجنَّة، والتعبير بهما فيه تأكيدٌ لدخول المتَّقين الجنَّة، واستقرارِهم فيها استقرارَ المظروف في الظرف، فالمتَّقون في الجنَّة، لا حولَها، ولا في أطرافها، وهي وسطٌ يتنعَّم به أهلها.

معنى الواو ودلالتها:

للمتَّقين في الجنَّة نعيمٌ لم يَخطُرْ لهم على بال، ولا مرَّ بهم في خَيال

الواو في جملة: ﴿وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾؛ لعطف ما بعدها على جملة: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾، أوثِر العطف بها؛ للدَّلالة على أنَّ نعيم المتَّقين في الجنَّة لا يقتصر على تحقيق ما يرغبون وتلبيةِ ما يطلبون، بل يكون مقرونًا بنعيم لم يخطر على بالهم، ولا رأته عيونُهم، فيُجزَون فوقَ ما يطلبون، والمعنى: (في الجنَّة ما تشتهي أنفسُهم، وتَلَذُّ أعينُهم من فنون النِّعَم وأنواع الخير، ولدينا مزيدٌ من النِّعَمِ التي لم تخطر لهم على بال، ولا مرَّت بهم في خَيال)[1].

غَرَضُ ذكرِ الظَّرف وتقديمِه:

في الجنَّةِ نعيمٌ معنويٌّ لا يعدلُه النعيم الحسيُّ

الظرف (لَدى) المضافُ إلى ضميرِ العَظَمة، في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ خبرٍ مقدَّم، وذُكِر في الآيةِ لتشريفِهم، وتأكيدِ رعايةِ اللّه تعالى لهم، بتحقيقِ ما خطر على بالهم، وإسباغِ أنواعٍ أُخرى من النعيم الذي لم تَرَهُ عيونُهم، ولا جال في خواطرهم، ولو قيل: (وفيها مزيد) من دون (لَدَيْنا)؛ لفُقِد نوعٌ من النعيم المعنويِّ، لا يعدلُه أيُّ نعيمٍ حسّيٍّ مهما بلغ، وهو التشريف باطِّلاع اللّه على أحوالهم، ومتابعته بنفسه أمورَهم، يُقوّي ذلك، ويؤكِّده مجيء (لَدَيْنا) مقدَّمًا على المبتدأ ﴿مَزِيدٞ﴾.

غرضُ تنكير المبتدأ:

جيء بالمبتدأ نكرةً في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾؛ لما يفيده التنكير من التفخيم والتعظيم، ولما فيه من دلالةٍ على أنَّه نعيمٌ لا

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 93.

يُقادَر قدرُه، ولا تُحيط العبارةُ بحدِّه ولا بوصفِه، فهو نعيمٌ لا يتناهى، ولا تحدُّه حدودٌ، والمعنى: (ولهم زيادةٌ على ما يشاؤون ممّا لم يخطُر ببالهم، زيادةً في كرامتهم عند الله)، ومن المزيد: النَّظرُ إلى وجه الله الكريم، كما فُسِّر به قولُ الله تعالى: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: 26][1]، ومنه أيضًا: مفاجأتهم بالخيرات؛ إذ المفاجأة بالإنعام ضربٌ من التلطُّف والإكرام، كما أنَّ الإنعام يجيئهم في صورٍ معجبة[2].

المفاجأةُ بالإنعام ضربٌ من التلطُّف والإكرام

بلاغة ترتيب الجملِ في الآيات:

جاء ترتيبُ الآيات في منتهى الدِّقَّة والإعجاز، فبدأت بذكر إكرامهم بقوله تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، ثمَّ بذكر أنَّ الجنَّة جزاؤهم الذي وُعِدوا به، فهي حقٌّ لهم، في جملة: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾، ثمَّ أومأت إلى أنَّ ذلك لأجل أعمالهم بقوله: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ٣٢ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾، ثم ذكرتِ المبالغةَ في إكرامهم بعد ذلك كلِّه بقوله: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ﴾، ثم طَمأنَهم بأنَّ ذلك نعيمٌ خالد، فقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾، ثمَّ زيد في إكرامهم بأنَّ لهم ما يشاؤون ممّا لم يَرَوه حين الدخول ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾، ثمَّ زيد فوق ذلك أنَّ الله وعَدهم بالمزيد من لدنه: ﴿وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾[3].

نعيمُ الجنةِ لا يُنالُ إلّا بالأعمالِ وحدَها بل بأعمالِ القلوبِ والأبدان

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 407.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 321.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 321، 322.

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ٣٦﴾ [ق: 36]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من التَّرهيب الأخروي إلى التَّذكير بسنن التَّرهيب الدُّنيوي

بعدَ أن أنذرتِ السورةُ الكافرين فيما سبق من آيات بما بين أيديهم من اليوم العظيم والعذاب الأليم؛ ناسب أن تُنذِرَهم، وتُحَذِّرَهم بما يُمكِن أن يُعجَّل لهم من العذاب المُهلِك، والإهلاك المُدرِك، ببيان ما حصَل للأمم الكافرةِ قبلَهم[1]، فهو انتقالٌ من التَّرهيبِ والتَّرغيب بما سيكون في عالَم الغيب، إلى التَّرهيب بما كان في عالَم الشَّهادة في الزمن الماضي.

الانتقالُ من ذكر بعضِ الأُمَم إلى ما هو أعَمُّ وأشمل

ومن المناسبة كذلك: أنَّه لمّا ذكر سبحانه في أوَّل السورة تكذيبَهم بالقدرة على اعترافهم بما يُكَذِّبُهم في ذلك التكذيب، ثم سلّى، وهدَّد بتكذيب الأمم السابقة، وذكر قدرتَه عليهم، وأتبَعَه الدلالةَ على كمال قدرته، إلى أنْ خَتَم بالإشارة إلى أنَّ قدرته لا نهايةَ لها، ولا تُحصر بحدٍّ، ولا تُحصى بعدٍّ؛ ردًّا على أهل العناد وبدعة الاتِّحاد؛ عطف على قُدرَتِه في إهلاك تلك الأمم ما هو أعمُّ منه بشموله جميعَ الزمان الماضي، وأدلُّ على واسع القدرة وتحقُّقِ الإرادة[2].

الانتقالُ إلى الموعظة، وبيانُ ما أجملته السورةُ من الوعيد

وفي الحديث عن إهلاك الأمم السابقة انتقالٌ أيضًا إلى الموعظة بعد الاستدلال على إمكان البعث، بقوله: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ﴾ [ق: 4]، وما فُرِّع عليه من قوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ﴾ [ق: 15]، وفي هذا العطفِ الوعيدُ الذي أُجمل في قوله: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 149.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 434.

﴿نُوحٍ﴾ [ق: 12]، إلى قوله: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ ١٤﴾ [ق: 14]، فالوعيد الذي حقَّ عليهم هو ما بيَّنه قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَهْلَكْنَا﴾: (هلك) أصْلٌ يدلُّ على كَسْرٍ وسُقوطٍ، فيُقالُ لِلْمَيِّت: هَلَكَ، قال تعالى: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ﴾ [النساء: 176]، وقال مخبرًا عن الكفّار: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: 24]، ويُقال للعذاب والخوف والفقر: الهَلاكُ، وعلى هذا قوله: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ٢٦﴾ [الأنعام: 26]، وقوله هنا: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾[2].

2) ﴿قَرْنٍ﴾: (قرن) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى جَمعِ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ، ومنه القَرْنُ: وهم القَوْمُ المُقْتَرِنونَ في زمنٍ واحد، والجَمعُ قُرونٌ، قالَ تعالى: ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ٣٨﴾ [الفرقان: 38]، وقال هنا: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾[3].

3) ﴿بَطْشًا﴾: (بطش) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى أَخْذِ الشَّيْءِ بِقَهْرٍ وغَلَبَةٍ وقوَّةٍ، وعَلَى تناولِ الشَّيءِ بِصَولَة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ١٣٠﴾ [الشعراء: 130]، وقال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢﴾ [البروج: 12][4]، فقوله هنا: ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾، أي: أشدُّ منهم قوَّةً وقُدرَة.

4) ﴿فَنَقَّبُوا۟﴾: (نقب) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى فَتحٍ في شَيءٍ، ومنه: نَقَبَ الحائِطَ يَنْقُبُهُ نَقْبًا، والنَّقْبُ والمَنْقَبَةُ: الطَّريقُ في الجَبَلِ، وقوله تعالى: ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾، أي: ساروا في النُّقوبِ، وهي الطُّرُقُ[5].

5) ﴿ٱلْبِلَٰدِ﴾: (بلد) أَصْلٌ يدلُّ على صَدْرِ الشَّيء، يُقالُ: وضَعَتِ النّاقَةُ بَلْدَتَها بالأرْضِ؛ إذا بَرَكَت، والبَلَدُ: صَدْرُ القُرَى[6]، والمكان المحيطُ المحدودُ المتأثِّر باجتماع قطّانه وإقامتهم فيه، وجمعه: بِلاد وبُلْدان، قال تعالى: ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾.

6) ﴿مَّحِيصٍ﴾: (حيص) أَصْلٌ يَدُلُّ على مَيْلٍ في جَوْرٍ وتَلَدُّدٍ، يُقالُ: حاصَ عَنِ الحَقِّ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 322.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هلك)، والرّاغب، مفردات القرآن: (هلك).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرن)، والرّاغب، مفردات القرآن: (قرن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بطش)، والرّاغب، مفردات القرآن: (بطش).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقب)، والرّاغب، مفردات القرآن: (نقب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلد).

يَحيصُ حَيْصًا؛ إذا جارَ، ومِنَ البابِ قَولُهُم: وقَعوا في حَيْصَ بَيْصَ، أي: شِدَّةٍ، والمحيص: المَنْجَى وموضع الروغان، يقال: حاص؛ إذا راغ، وكلٌّ ﴿مَّحِيصٍ﴾ في القرآن، فهو بهذا المعنى[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

في الحديث عن مصائرِ السّابقين تهديدٌ للمنكِرين المعاصرين

تُبَيِّن الآيةُ أنَّ اللّه تعالى أهلك كثيرًا من الأمم السابقة، والقرونِ الماضية بعذابٍ شديدٍ عاجلٍ؛ لمّا كذَّبوا الرُّسُلَ، وكفروا بالبعث، مع أنَّهم كانوا أشدَّ من مشركي قريشٍ قوَّةً وأكثرَ جمعًا، وكانوا أكثرَ ضربًا في الأرض وسَيرًا فيها، لكن حينَ نزل بهم بأسُنا؛ حاولوا الفرار، فلم يجدوا مكانًا يهربون إليه، بل نزل بهم عذابُنا، فدمَّرَهم تدميرًا[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتها:

احتمال الاستئناف والعطف بحسب الرَّبط بين الجُمَل

تحتمل الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أن تكون استئنافيَّة، عُبِّر بها؛ للتنبيه إلى ما في الكلام بعدها من عِظَةٍ تنفع الكافرين، وتهديدٍ بإمكان إهلاكهم - كما أهلك اللّه تعالى مَنْ كانوا أشدَّ منهم بطشًا - إن لم يتَّعظوا، ويتوبوا[3]، وتحتمل أن تكون الواو لعطف ما بعدها من العِظَة على ما سبقها من الاستدلال على قدرة اللّه تعالى على البعث، وهذا العطفُ بمنزلة انتقالٍ من الاستدلال إلى الموعظة[4].

نوع (كَم) ودلالتُها:

ما أكثرَ الأممَ المُهلَكة بسبب الكُفر والعناد!

التعبير بـ(كَم) الخبريَّة في قول اللّه تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾، يدلُّ على كثرة الأمم والقرون التي أهلكها اللّه من قبل،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حيص)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (حيص).
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 351.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 297.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 322.

ممّا يؤكِّد قدرتَه على إهلاكِ مَنْ هم دونهم في القوَّة والبطش، مِن أمثال كفّار مكَّة الذين يُصِرّون على إنكار البعث، ويَكفُرون بما جاء به الرسول ﷺ، ويعاندونه.

نكتةُ التعبير بالإهلاك ماضيًا:

عبَّر النظمُ الكريمُ بفعل الإهلاك ماضيًا في الآية: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾؛ لتأكيد حصولِه وتحقيق وقوعِه من غير شكٍّ أو ريب، ونكتة استعمال مادَّة الإهلاك؛ لبيانِ أنَّه إهلاكٌ ماحِقٌ، لا أثرَ لتلك القرون الخالية والأممِ البائدة من بعد ما وقع.

دلالةُ الإسنادِ لضمير العَظَمَة:

الإيـــمـــاءُ إلى أنَّ مـن أهلك الـسّـابـقـين هو الـــقـــادر على إهلاك اللّاحقين

أُسنِد فعلُ الإهلاكِ إلى ضمير العَظَمَة في قول اللّه تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾؛ للإشارة إلى شدَّته وقوَّته، وبيانًا لمدى سهولته على اللّه تعالى بما له من العظمة والاقتدار، مع ما فيه من الإيماءِ إلى الغضب الإلهيِّ على كلِّ من اقتفى أثرَ السّابقين وطريقتَهم في الموقِفِ من الدَّعوة بالعناد والكفر، ففي الفعل إيماءٌ إلى أنَّ من أهلك السّابقين؛ بسببِ كفرِهم وعنادِهم هو القادر على إهلاك اللّاحقين بسبب كفرِهم وعنادِهم.

نكتة التَّعبيرِ بالقَبليَّة المُضافَة:

الإهــلاك طال أمـمًـا وقـرونًـا يعرفها الكافرون وغـيـرهـا ممَّـن يجهلونها

الظَّرف في قول اللّه تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾ متعلِّق بمحذوف حال، والضمير فيه يعود على كفّار مكَّة وما حولَها؛ جريًا على منهج السورة في التعبير عنهم بضمير الغائب؛ لدلالة المقام عليهم، وجيء به غيرَ مسبوقٍ بـ(مِنْ)، فقيل: ﴿قَبۡلَهُم﴾، ولم يقل: (مِن قبلهم)؛ ليشملَ الإهلاكُ المُتَحَدَّث عنه والمُعَرَّض بحدوثه لهم جميعَ الأزمان السابقة، ففيه إلماحٌ إلى أنَّ الإهلاك طال أممًا وقرونًا يعرفونها، وطال أممًا وقرونًا لا علمَ لهم بها، فليسوا بمعزلٍ عنه، ولا في مأمَنٍ منه.

دلالةُ حرف الجرّ (من) ودخوله على نكرة في ﴿مِّن قَرۡنٍ﴾:

القــرونُ التي أهلـكـهـا اللـه تــعــالى قبـل كفار مكة تفوق الحصرَ والعدَّ

﴿مِّن﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾ حرفُ جرٍّ يفيد تأكيدَ وقوعِ الإهلاك، وتقويَةَ حصوله لقرونٍ سابقة، ويدلُّ تنكيرُ ﴿قَرۡنٍ﴾ وتنوينُه على كثرةِ الأمم التي أهلكها اللّه كثرةً بالغةً تفوق الحصر والعَدَّ؛ ولذلك أثرُه الكبيرُ في الموعظة والتهديد.

فائدةُ استعمالِ ضميرِ الفَصْل:

تـأكـيـدُ كــونِ الكفّار السّابقين أشدَّ وأقوى من كفّارِ مكّة

جملةُ: ﴿هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾ في محلِّ نصبٍ صفةً لـ (كَم)، ويجوز أن تكون في محل جرٍّ صفة لـ ﴿قَرۡنٍ﴾، و﴿هُمۡ﴾ فيها مبتدأ[1]، وقد أوثر التعبيرُ بالضميرِ لتأكيد أنَّ القرونَ التي أهلكها اللّه سبحانه قبل كفّار مكّة وما حَولَها كانت أشدَّ قوَّةً وبطشًا من كفّار مكّة، ومع ذلك أهلكهم اللّه، وأنزل بهم أشدَّ العذابِ وأسرعَه.

وجه التعبير بـ ﴿أَشَدُّ﴾:

لـم تَـحُـلْ قـوّةُ الكفّارِ السّابقين ولا بـطـشُـهـم دون إهلاكهم

جاء الخبر في قول اللّه تعالى: ﴿هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾ اسمَ تفضيلٍ من الشِّدَّة؛ دالًّا بمعناه وصيغته على تفوُّق الكفّار الهالكين على كفّار مكّة وما حولها في أسباب البطش الظاهرة والباطنة، ما يجعل إهلاكَهم من الصعوبة بمكان، ومع ذلك لم يستعصوا على اللّه، ولم تَحُلْ أسبابُ القوّةِ والبطشِ التي تميَّزوا بها دون عذابِهم وهلاكِهم، فكيف بمن هو دونهم؟ فهو تلويحٌ بيُسر الإهلاك وسرعة نزوله؛ إذا حلَّ بهم، والكلُّ على العزيزِ هيِّن.

نوعُ (مِنْ) ودلالتُها:

(مِنْ) في قول اللّه تعالى: ﴿هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾ هي الابتدائيَّة، المؤكِّدةُ تفوُّقَ الكفّار السابقين على كفّار مكَّةَ في أسباب القوَّة والبطش على اختلافها، والضمير المجرور فيه يعود إلى مُشركي مكَّةَ وما حولها.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 297.

نكتةُ تقديم شبهِ الجُملة:

إهلاكُ الكفّار السابقين أشدُّ إدهاشًا وتعجيبًا، وأكثرُ إفزاعًا وتخويفًا

قُدِّم ذكرُ الجارِّ والمجرور في قول الله تعالى: ﴿هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾؛ لأنَّ الاهتمام موجَّهٌ إلى بيان تميُّزِ الكفّار الذين أهلكهم الله في الأسباب الظاهرة والباطنة، بأن جعل قوَّتهم مُضاعفةً، فكان إهلاكُهم أشدَّ إدهاشًا وتعجيبًا، وأكثرَ إفزاعًا وتخويفًا.

دلالة تنكير ﴿بَطۡشٗا﴾:

لفظ البَطش في قول الله تعالى: ﴿هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾ تمييز، أوثر تنكيره وتنوينه لإفادة التعظيم والتفخيم، وللدَّلالة على كثرة أنواع البطش التي كانوا يمارسونها، والمعنى: كانوا أكثرَ قوَّة وأخذًا لما يريدونه بالعُنف والسطوة والشدَّة[1].

نوع الفاء ودلالتُها:

شدَّةُ السابقين سببُ غرورهم، فأقدرتهم على التنقيب

الفاء في قول الله تعالى: ﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ هي فاء السببيَّة الدالَّةُ على ترتُّب ما بعدها على ما قبلها، أي: إنَّ شِدَّةَ بطشِهم أقدَرَتهم على التنقيب، فببطشهم وقوَّتهم خرَّقوا في البلاد، وتصرَّفوا في أقطارها، أو جالوا في أكناف الأرض كلَّ مجال حذار الموت، وظنًّا أنَّ بإمكانهم النجاة منه، وممّا ينزل بهم من العذاب أو الهلاك، ويمكن أن تكون عاطفةً في المعنى، كأنَّه قيل: (اشتد بطشُهم، فنقَّبوا)[2].

بلاغةُ الاستعارة في فعل التَّنقيب:

إبـرازُ قـوَّةِ السابقين، وبيان قـدرتـهـم على اختراق الأرض وتطويعِها

جاء في قول الله تعالى: ﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ التعبير بفعل التنقيب، الموضوع لثَقْبِ الأرض وخَرقِها، وفيه استعارةٌ تصريحيَّة، شُبِّه فيها التصرُّفُ في الأرض بالبناء والإعمار وإقامة السدود والقلاع في كلِّ مكان بما فيها الجبال بالتنقيب[3]، ثمَّ استعير الثاني للأوَّل استعارةً

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 435.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 390، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 133.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 323.

تصريحيَّةً تبعيَّة تُبرز قوَّةَ السابقين، وتبيِّن قدرتَهم على اختراق الأرض وتطويعها لِما أرادوا.

دلالةُ صيغةِ الفِعل (نَقَّبوا):

بالَغَ السابقون في بناء الدنيا وعمارتها كأنَّهم خالدون فيها

عبَّر النظم بفعل النقب ماضيًا في قول الله تعالى: ﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾؛ بناءً على الأصل في وقوعه وحصوله، وضُعِّفت عينُه؛ للإشارة إلى مبالغتهم في القيام به، وللدَّلالة على أنَّهم فتحوا في البلاد الأبواب الحِسّيَّةَ والمعنويَّة، وخرَّقوا في أرجائها ما لم يَقدِرْ غيرُهم عليه، وبالغوا السَّيرَ في طُرُق الجبال والطرق الضَّيِّقَة، فضلًا عن الواسعة والسهول، بعقولهم الواسعة وآرائهم النافذة وطبائعهم القويَّة، وبحثوا مع ذلك عن الأخبار، وأخبروا غيرهم بما لم يصل إليهم، وكان كلٌّ منهم نَقّابًا في ذلك، أي: علامة فيه، فصارت له به مناقبُ أو مفاخر[1]، وأُسند إلى ضمير الجمع؛ للدَّلالة على قيام أفرادِ هذه الأمم باستغلال قدرتهم وقوَّتهم واجتماعِهم في النقب.

بلاغةُ حرف الظرفيَّة:

التعبير بحرف الجرِّ المفيدِ للظرفيَّة في قول الله تعالى: ﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ دالٌّ على أنَّهم توَغَّلوا في البلاد، وقَدَروا عليها، فساروا فيها، وطافوا أقاصيَها[2]، وتمكَّنوا منها تَمَكُّنَ المظروفِ من الظرف.

نوعُ تَعريفِ ﴿ٱلۡبِلَٰدِ﴾ ودلالتُه:

كلُّ البلادِ كان بها كفّارٌ أشدّاءُ، فنالوا حَظَّهم مِنَ العقاب

(أل) في قول الله تعالى: ﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ لتعريف الجنس[3]، فكلُّ البلاد - سواء التي يعرفها كفّار مكَّة أمِ التي لا يعرفونها - كان بها كفّارٌ أكثر شدَّةً من كفّار مكَّة، حريصين على بناء الحصون والقلاع وغيرها مما يظنّون به امتناعَهم من مخاطر الموت والهلاك،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 435.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 460.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 323.

أو أنَّهم نُزِّلوا - حين تمكَّنت الغفلةُ منهم - منزلةَ الخالدين الذين لا يطرَأ عليهم موتٌ، وما تلك الغفلة إلّا من بقايا الجحود والكفران، ويؤيِّد أنَّها للجنس قولُه ﷺ: «إنَّ الله نَظَرَ إلَى أهْلِ الأرْضِ، فَمَقَتَهُم عَرَبَهُم وعَجَمَهُم، إلّا بَقايا مِنْ أهْلِ الكِتابِ»[1].

بلاغة الاستفهامِ وغرضُه:

بيانُ قوَّة السّابقين لدرْءِ كُفْرِ اللّاحقين

جملة ﴿هَلۡ مِن مَّحِيصٍ﴾ تحتمل أن تكون في محلِّ نصبٍ مفعولًا لفعل النَّقْب، أي: (بحثوا عن المحيص قائلين: هل من محيص؟)[2] وتحتمل أن تكون استفهامًا بمعنى الإنكار، أي: (لم يكن لهم محيص)، وتحتمل أن تكون كلامًا مُستَأنَفًا، كأنَّه تعالى يقول لكفّار مكَّة: (هم أُهلكوا مع قوَّة بطشهم، فهل من محيص لكم تعتمدون عليه؟)[3] وأيًّا كان التَّقديرُ؛ ففي التعبير بحرف الاستفهام في أوَّلها تنبيهٌ للمخاطَبين والمتلقّين، ولفتٌ لأنظارهم إلى أنَّ القوَّةَ التي تمتَّع بها السابقون - بما فيها الحصون والقلاع والسدود التي أقاموها، ونقَّبوا لأجلها - لم تُغْنِ عنهم شيئًا عندما نزَل بهم عذابُ اللّه وعقابه؛ بسبب كفرهم وعنادهم وإنكارِهمُ البعث، وفيه عِظَةٌ لكفّار مكَّة، وتهديد من حصول الإهلاك لهم وتحذيرهم، كما حصل لكثيرين أشدَّ منهم[4].

نوعُ ﴿مِن﴾ ودلالتُها:

تأكيد خلوِّ الأرضِ من مكانٍ يحتمي فيه الكفّار من العذاب

﴿مِن﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿هَلۡ مِن مَّحِيصٍ﴾ حرفُ جرٍّ يفيد التأكيدَ، أي: تأكيدَ بحث الكفّار السابقين عن مكان يحتمون فيه من الموت أو الهلاك؛ إذا كانت الجملة مفعولًا لفعل النقْب، أو تأكيدَ نفي وجود مكانٍ يحتمون فيه من الموت أو العذاب؛ إذا كانت الجملة استفهاميَّة للإنكار؛ إذِ المعنى عليه: (ما من محيص)[5].

(1) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2865).
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 297.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 150.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 95.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 323.

نكتةُ تنكيرِ ﴿مَّحِيصٍ﴾:

جيء بالاسم المجرور في قول الله تعالى: ﴿هَلۡ مِن مَّحِيصٍ﴾ نكرةً؛ لما يفيده التنكيرُ من عموم اللفظ وشمولِه، أي: (هل من مكانٍ يلجؤون إليه من قضاء الله وعذابه، حتّى ولو كان دقيقًا صغيرًا؟)[1]، ففيه زيادةُ تخويفِ مشركي مكّة، وتقويةُ ذُعرِهم من التَّعرُّض لذات المصير.

لا محيصَ من عـــذاب الـلـه، مَـهْـما دقَّ أو صغُر

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

البَطْش والقوّة والسَّطوة:

البطشُ: أخذ الشيء بقهر وغلبة وقوَّة[2]، وأمّا القوَّةُ؛ فأصلها التعاون، وقد تُطلق على الجِدِّ في الأمر، والعُدَّة، والبطش، والسلاح، والشدَّة[3]، وأمّا السَّطْوَة؛ فهي البطش برفع اليد[4]، ولمّا كان السياق لبيان مدى شدَّة الكفّار السابقين، وإبرازِ الفروق الكبيرة بينهم وبين كفّار مكة في أسباب القوَّة الظاهرة والباطنة، وأنَّ هذه القوَّةَ لم تَحُلْ بينهم وبين قَدَرِ الله، فأخذوا يبحثون عن مكانٍ يُنجيهم، ويمتنعون به من الهلاك؛ كان التعبير بمادَّة (البطش) أنسبَ للسياق؛ لدلالته على القدرة والقوَّة والشدَّة، وعلى القهر والاعتداء والظُّلم، بخلاف القوَّة التي قد لا تشمل تلك المعاني مجتمعة، وأمّا السطوة؛ فهي أخصُّ من البطش تخصيصًا غيرَ مقصودٍ هنا.

التعبير بالبطش دالٌّ على اجتماع الـقـوَّة والـقـهـر والغلَبَة

النَّقْب والبحْث:

النَّقْبُ في الحائط والجِلد كالثَّقب في الخشَب، وقد يُطلق على السَّير، كما في الآية التي معنا[5]، والبحثُ في الأصل: طلبُك شيئًا

النَّقب دالٌّ على الـقـوَّة البدنيَّة بخلاف البحث

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 435.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بطش).
(3) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 391.
(4) الراغب، مفردات القرآن: (سطا).
(5) الراغب، مفردات القرآن: (نقب).

في التراب، وقد يُقصد به أن تسأل عن شيء، وتستخبر[1]، ولمّا كان السياقُ لإبراز قوَّة السّابقين وبيان أنَّ شدَّتهم تفوق شدَّةَ أهل مكَّة وبطشَهم؛ ناسب التعبيرُ بمادَّة النقْب، فقيل: (نَقَّبوا)؛ لدلالته على توفُّر القوَّتين البدنيَّة والعقليَّة؛ بخلاف مادَّة البحث التي يلزمها القوَّة العقليَّة، ولا تحتاج إلى القوَّة البدنيَّة باطِّراد.

المَحيص والمَحيد والمَهْرَب:

المَحيصُ جامعٌ بـين الـخـوف والتخبُّط، وهما لا يجتمعان في المحيد والمهرَب

المَحيصُ كالمحيد، غيرَ أنَّ المحيصَ معدلٌ ومهربٌ عن الشدَّة؛ يدلُّك عليه قولهم: وقعوا في حَيْص بيص، أي: في شدَّة وضيق، أمّا المحيد؛ فهو المعدل، وإن كان بالاختيار، يُقال: حاد عن الطريق نظرًا، ولا يُقال: حاص عن الأمر نظرًا[2]، وأمّا المَهرَب؛ فهو المكان الذي يلجأ إليه الإنسان في حالة الفرار، سواء أكان مذعورًا أم غيرَ مذعور[3]، ولمّا كان القصدُ تخويفَ كفّار مكَّة مما آل إليه حالُ الكفّار السابقين من ذعرٍ وتخبُّطٍ؛ ناسب التعبير بمادَّة (الحيص)، فقيل: ﴿هَلۡ مِن مَّحِيصٍ﴾؛ لدلالتها على أنَّ بحثهم كان مقرونًا بالخوف والتخبط، وكان فرارًا من شدَّةٍ وضيق؛ بخلاف (المَحيد) و(المهرب) اللَّذَينِ يقلِّل التعبير بأيٍّ منهما من تأثير العذاب وشدَّته.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بحث).

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 150.

(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (هرب).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ٣٧﴾ [ق: 37]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعد سَرد قصصِ السابقين يأتي ذِكرُ المقصدِ منه

بعد أن بيَّنتِ الآيةُ السابقة قدرةَ الله تعالى على إهلاك مَنْ هُم أشدُّ بطشًا من كفّار مكَّة؛ ناسب أن توضِّحَ هذه الآيةُ أنَّ الغرضَ من ذكر هذا الإهلاك بصفة خاصَّة، وذِكرِ ما سبقه من استدلالٍ وتهديدٍ وتحذيرٍ من يوم الجزاء بصفة عامَّة[1]، هو تذكيرُ القلوب الغافلة، وموعظةُ النفوس الراغبة؛ تسليةً للرسول وتعريضًا بالكافرين، فهو انتقالٌ من ذِكرِ عقابِ الأمم السّابقة، والإخبارِ بالأهوال اللّاحقة، إلى بيانِ المقصد من ذلك التَّذكير والتَّخويف، وهو الاتِّعاظُ والاعتبار.

❁ شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿قَلْبٌ﴾: (قلب) أصْلٌ يَدُلُّ عَلَى خالِصِ شَيءٍ وشَريفه، فمنه: قَلْبُ الإنسانِ وغَيْره؛ سُمّيَ بذلك لِأَنَّهُ أَخْلَصُ شَيْءٍ فيهِ وأرْفَعُهُ[2]، وهو: المُضغَة المعروفة المعلَّقة بالنياط[3]، وهو أهمُّ ما في الباطن وأقواه، ويجوز إطلاقُ القلب على القوَّة الباطنة - العقل - كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179]، وقوله هنا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾، ويحتمل أن يكونَ كلُّ ما في القرآن الكريم من كلمة (قلب) وجمعها متعلَّق الكلام فيها هو ما أسنده القرآنُ إلى القلب من وظائفِ الفقه والتدبُّر والإيمان وضدِّه وما إلى ذلك[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 323.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قلب).
(3) الصاحب بن عباد، المحيط في اللغة: (قلب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (قلب).

2) ﴿أَلۡقَى﴾: (لقي) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى طَرْحِ شَيْءٍ[1]، يقال: لَقيَهُ يَلقاهُ لِقاءً ولُقيًّا ولُقْيَةً، والإلقاءُ: طرح الشيء حيث تلقاه، أي: تراه، ثمَّ صار في التَّعارُفِ اسمًا لكلِّ طرح[2]، فقولُه: ﴿أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ﴾ معناه: الاستماعُ والإصغاء[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لن يَتَّعِظَ بآيات الله إلّا ذو قلبٍ واعٍ وعقلٍ يَقِظٍ

تبيِّن الآيةُ أنَّ القصد ممّا ذكرته السورةُ الكريمةُ - من إهلاك الله للأمم المُكَذِّبة، ومن سَوْق البراهينِ التي تؤكِّد قدرةَ الله تعالى على البعث والإحياء - هو التذكرة والعِبرة لمن كان له قلبٌ يَعي الحقائق، ويُصغي إلى ما يُلقَى إليه من إرشادات، وهو حاضرُ الفهم، صادقُ العزيمة على العمل بمقتضى هذا التوجيه الحكيم[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فَصلِ الآية:

علائق الجملِ قائمةٌ على الرَّبط المعنويِّ

جاءت جملة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ﴾ مفصولةً عمّا قبلها لكمال الانقطاع؛ إذْ تختلف الجملتان خبرًا وإنشاءً، فالسابقة إنشائيَّة واللاحقة خبريَّة، ويمكن أن يكون الفصل لشبه كمال الاتِّصال؛ إذ تُجيب الجملةُ المفصولةُ عن سؤالٍ أثارته الجملة السابقة في نفس القارئ حول الحكمة من الحديث عن قُدرة اللّه تعالى على البعث والإحياء والحكمةِ من بيان إهلاكه الأممَ السّابقة، فجاءت الجملة الثانية؛ لتُبيِّن الحكمة من ذلك، وفُصلت عمّا قبلها، كما يُفصل الجوابُ عن السؤال.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (لقي).
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 4/ 441، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (لقي).
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 95، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 3/ 351.

بلاغةُ تتابُع المؤكِّدات:

الـرجـاء في إيمان الكافرين بـالـبـعـث، والاستعدادِ له بالعمل الصّالح

جاءت جملة: ﴿إِنَّ فِي ذَالِكَ لَذِكۡرَىٰ﴾ مؤكَّدةً بـ ﴿إِنَّ﴾، والجملةِ الاسميَّة، والخبرِ المُقَدَّم، واللّامِ المزحلقة إلى اسم ﴿إِنَّ﴾؛ وذلك للإبلاغ في تأكيد الغرض الذي من أجله سيقت الأدلَّةُ والبراهينُ التي تؤكِّد قدرةَ اللّه على البعث والإحياء، وبسببه ذُكِرَ إهلاكُ المنكرين الغابرين، وأنَّه هو الذكرى والموعظة التي يُرَجَى منها أن يعودَ الكفّار إلى رُشدِهم، ويتَّعظوا بما حدث لمَنْ كانوا قبلهم، فيؤمنوا بالبعث، ويستعدّوا له بتصديق الرسول والعملِ الصالح.

بلاغةُ حرفِ الظَّرفيَّة:

مـا أوردتـه السـورةُ كـافٍ لتحريك القلوب الغـافـلـة وردِّ العقول الشاردة

حرف الجرِّ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَالِكَ لَذِكۡرَىٰ﴾ يفيد الظرفيَّة، وهي هنا لتأكيد تغَلغُل الذِّكرى والموعظة فيما ذُكِر سابقًا ممّا أُشير إليه، فالذِّكرى هي فيما ذكرته الآياتُ من السُّنَن الإلهيَّة في إنزال العذابِ في القرون الكفريَّة، ومجازاةِ أهل النّار بالنّار، وأهلِ الجنَّة بالجنَّة، وما ذُكر كافٍ في تحريك القلوب الغافلة، وردِّ العقول الشاردة إلى حديقة الإيمان وواحة الإسلام.

فائدة التعبير باسم الإشارة:

تـشـخـيـصُ المواعظِ الجليلة، وتجسيدُ العِبَرِ العظيمة

اسم الإشارة في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَالِكَ لَذِكۡرَىٰ﴾ يعود إلى الإهلاك، ويجوز أن يكون إشارةً إلى إزلاف الجنَّة وملء جهنَّم[1]، ويجوز أن يكون إلى جميع ما تقدَّم من استدلالٍ وتهديدٍ وتحذيرٍ من يوم الجزاء[2]، والتعبير به - مع كونه للبعيد - دالٌّ على عظيم ما تضمَّنته السورةُ من مواعظَ جليلة، وعِبَرٍ بالغة؛ تنزيلًا للبُعد المعنويِّ منزلةَ البُعد المكانيِّ، فإنَّ تجسيدَ المعاني وتشخيصَ الدَّلالات أوقعُ في النَّفس، وأوضحُ في الذِّهن.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 150.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 323.

دلالة استعمال لفظِ (ذِكرَى):

آثر النَّظم الكريم استعمالَ مادَّة الذِّكرى في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ﴾، الموضوعِ للتفكُّر والتدبُّر؛ للدلالة على أنَّ ما بيَّنته الآيات السّابقة دافعٌ قويٌّ ومحرِّكٌ فاعلٌ في إثارة المتلقّين بصفة عامَّة - وكفّار مكَّة بصفة خاصَّة - إلى تدبُّرِ الأحوال التي قضَت على السابقين بالإهلاك؛ ليَقيسوا عليها أحوالَهم، فيعلموا أنّ سينالُهم ما نال أولئك؛ وهذا قياسٌ عقليٌّ يُدركه اللبيبُ من تلقاءِ نفسه دون احتياجٍ إلى منبِّه[1]، وجيء بلفظ (ذِكرى) نكرةً؛ للدَّلالة على عظيمِ الذِّكرى[2] وجليلِ العِبرة التي ينتجها ما ذُكر في السورة الكريمة.

ما ذكرته السورةُ دافـعٌ قـويٌّ ومحرِّكٌ فاعلٌ في إثارة المتلقّين إلى التفكُّر والتدبُّر

نوعُ اللّام ودلالتُها:

اللام المكسورةُ في قول اللّه تعالى: ﴿لِذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ حرفُ جرٍّ يفيد اختصاصَ مَنْ تَلَقَّى الوحيَ بقلبٍ واعٍ وعقلٍ يَقِظٍ بالذِّكرى والفهم المؤثِّرَيْنِ في توجيهه إلى التسليم بالبعث، والإيمانِ بما جاء به الرسول، وتَرْكِ العناد والاستكبار بكُلِّ صوَرِه وأشكاله، أمّا مَنْ تَلَقَّى الوحي بغير ذلك؛ فلن يكون من المؤمنين، ولن ينتفعَ بأيِّ موعظة مهما كانت، ولا يخفى ما فيه من تسليةِ الرسول، وتعريضٍ بالمشركين، وحكم عليهم بالغفلة وقَسوة القلب.

تـلـقّـي الـوحـي بقلبٍ واعٍ وعقلٍ يـقـظٍ شـرطُ التَّذَكُّرِ والاتِّعاظِ

نكتةُ التَّعبير بالاسم الموصول:

جاء التَّعبير في قول اللّه تعالى: ﴿لِذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ عن المجرور بلام الاختصاص بـ(مَنْ)، وهو اسم موصول عامٌّ؛ ليُتَوَصَّل به وبصلته ﴿كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ إلى شرطِ الذِّكرى والاتِّعاظ، وأنَّه لا يحصُل إلّا لمن أتى به؛ فكلُّ مَنْ كان ذا قلب واعٍ وعقلٍ يَقِظٍ سيتذكَّر

كـلُّ مَـنْ غفل قلبُه؛ فهو من الـتـذكُّـر على مراحل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 323.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 436.

لا محالة، وكلُّ مَنْ كان في لَهْوٍ وغفلة، فإنَّ بينَه وبين التذكُّر والعِظَة أمدًا بعيدًا.

بلاغةُ ذكر الفعل ﴿كَانَ﴾:

القلبُ الواعي هو القلبُ المعتبر وجودًا وأثَرًا

ذكر النظم الكريم في جملة الصِّلة من قول اللّٰه تعالى: ﴿لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ فعلَ الكينونة ماضيًا؛ للإشارة إلى ضرورة وجود القلب الواعي في كينونة الإنسان حتّى تتحقَّق له الذِّكرى والموعظة، أمّا القلب الغافل اللاهي؛ فإنَّ كيانَه لن يتأثَّر بالموعظة مهما كانت، فكأنَّه قيل: (إنَّ في ذلك لذكرى لمن يصِحُّ أن يُقال فيه: له قلب)، وأمّا من لا يتذكَّر؛ فلا قلبَ له أصلًا، كما قال تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ﴾ [البقرة: 18]؛ إذ لم تكن آذانهم وألسنتهم وأعينهم مفيدةً لِما يطلب منها، كذلك مَنْ لا يتذكَّر كأنَّه لا قلب له[1].

فائدة تقديم المسنَد:

حقيقةُ وجودِ القلبِ بعمله تفكُّرًا وتذكُّرًا

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾ على المُسند إليه، في قول اللّٰه تعالى: ﴿لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾؛ لِما يفيده التقديمُ من تأكيد اختصاص حقيقةِ القلب الواعي لمن هو موصوفٌ بالانتفاع بالذِّكرى، فعدم التذكُّرِ علامةٌ على فقدان عمل القلب، حتّى كأن لا وجودَ له، فهو قلب مقفولٌ مختومٌ عليه، ﴿لَهُمۡ قُلُوبٌ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179]، وفيه زيادةُ تسليةٍ للرسول، وزيادةُ تعريضٍ بالكفّار وتوبيخٍ لهم.

بلاغة استعمال مفردة القَلب:

القلبُ المعتبر هو السليم من آفاتِ الشَّهوات والشُّبهات

آثر البيانُ الكريمُ استعمالَ مفردة القلب في قول اللّٰه تعالى: ﴿لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ دون الفؤاد، وذلك باعتبار أنَّ المقصود ذكرُه هو الاسم العلَم، والقلبُ لفظٌ جامعٌ؛ لِما يكتنزه القلب من المعاني، والمراد هنا معاني الخير والحقِّ، وذكر القلبِ في هذا

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 150.

السياق يُراد منه بيان الوظيفة المطلوبة منه، وهي وظيفةُ سلامة القلبِ، الموصِلةِ إلى سلامة الاعتقاد والسلوك، ومن لم يكن سليمَ القلبِ؛ فقد أركسه بغيرِ مادَّته، ففقَدَ اسمَه العَلَم، واكتسب وصفًا زائدًا من غير مادَّته.

نكتة تنكيرِ لَفظِ القَلْب:

تعظيمُ القلبِ السَّليم، وتفخيمُ الفِكرِ السَّديد

نُكِّر لفظُ القَلْب في قول اللّه تعالى: ﴿لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾؛ لما فيه من معنى التَّعظيم الدّالّ على كَونِ القلب سليمًا كاملًا[1]، والمعنى: (قلبٌ سليمٌ خالٍ من الغفلة يُدرِك كُنْهَ ما يشاهده من الأمور، ويتفكَّر فيها كما ينبغي، فإنَّ من كان له ذلك يعلم أنَّ مدار دمارِ المَذكورين هو الكفر، فيرتدع عنه بمجرَّد مشاهدة الآثار من غير تذكير)[2].

دلالةُ العطف بـ ﴿أَوْ﴾:

وسائلُ الذِّكرى متعدِّدةٌ متنوِّعةٌ في التَّفكُّر والاستماع

﴿أَوْ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ حرفُ عَطفٍ يفيد التَّنويعَ والتَّقسيم؛ لأنَّ المُتَذَكِّرَ إمّا أن يتذكَّر بما دلَّت عليه الدَّلائلُ العقليَّة من فَهمِ أدلَّة القرآن، ومن الاعتبار بأدلَّة آثار الأمم على أصحابها - كديار ثمود، قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ [النمل: 52] - وإمّا أن يتذكَّر بما يَبلُغُه من الأخبار عن الأمم، كأحاديثِ القرون الخالية[3]، فالعطف بـ ﴿أَوْ﴾ يفيدُ تنوُّعَ وسائلِ الذِّكرى والاعتبار، وعدمَ حَصرِها في وسيلة واحدة، وأنَّ مَنْ لم يتَّعظْ بقلبِه؛ فعليه أن يتَّعظ بسَمعِه.

بلاغة الاستعارة في الإلقاء:

سماعُ الذِّكرِ المطلوبُ ما كان بعنايةِ الفِكرِ والعزيمة

في التعبير بفعل الإلقاء في قول اللّه تعالى: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ استعارةٌ تصريحيَّة؛ إذ شُبِّه فيها توجيهُ السَّمع إلى القرآن ومواعظِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 150.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 134.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 324.

الرسول ﷺ والأخبارِ التي تلقى دون اشتغال بغيرها بإلقاء الشيء لمن أخذه، ثمَّ استُعير الإلقاء لتوجيه السمع، ثم اشتُقَّ منه الفعل ﴿أَلۡقَى﴾ بمعنى: (استمع) على سبيل الاستعارة التصريحيَّة التبعيَّة، التي تُبرِز أثرَ الاستماع في الذِّكرى والموعظة وحياةِ القلب.

نكتةُ إيثار الإطناب:

إلقاءُ السَّمع أبلَغُ من مُجَرَّد الاستماع

أوثر التعبير بفعل الإلقاء مع مفعولِه في قول الله تعالى: ﴿كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ﴾ دون (استمع) - مع وجازَتِها لفظًا - لأنَّ إلقاءَ السمع هو تمثيلٌ للاهتمام بالمسموعِ والعناية بالمذكور، فمن يُلقي السَّمع؛ يصل إلى الحقِّ، ففيه بيان أنَّ إلقاءَ السمع يوصِل صاحبَه إلى الحقِّ، كما أنَّ من كان له قلبٌ فِطريٌّ غيرُ متأثِّرٍ بشُبُهات الباطل يصل إلى الحقِّ؛ لما فيه من إرسال السَّمع وعدم إمساكه وإن لم يَقْصِد السماع، فتحصل الذكرى لِمَنْ له سمعٌ مطلقًا، وهو تعريضٌ بتمثيل المشركين بمَنْ ليس له قلب، وبمَنْ لا يُلقي سَمعَه[1]، كما جاء التَّصريح به في وصف الله لهم: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٌ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٌ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٌ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ﴾ [الأعراف: 179]، وعلى لسانهم ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ [فصلت: 5].

دلالة تعريف ﴿ٱلسَّمۡعَ﴾:

كمالُ الاستماع وسيلةٌ إلى الذِّكرى والاعتبار

﴿ٱلسَّمۡعَ﴾ في قول الله تعالى: ﴿كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ﴾ مفعول به لفعل الإلقاء، جيء به معرَّفًا للجنس؛ لِما يدلُّ عليه التعريف من كمال الاستماع، وعدمِ الانشغال أثناءَه بشاغلٍ يُفقد المستمعَ الفهم والتذكُّر، والمعنى: (لمن ألقى السَّمعَ الكامل الذي جرَّده عن الشواغلِ والحظوظ وغيرِها؛ إذا سَمِعَ ما غاب عنه)[2]، ويمكن أن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 324.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 436.

يكون التعريف للعهد، والمعنى: (لِمَن استمع إلى ما يُلقَى إليه من قرآن أو سنَّة أو أخبار السابقين)[1].

بلاغةُ تقديم القلب:

القلب هو أصل الاتِّعاظ، وما بعده إنَّما هو فرعٌ عنه

جيء بجملة: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ مُقَدَّمةً على جملة: ﴿أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ﴾؛ لِما للقلب من أثرٍ بالغ ودَورٍ فاعل في سائر أعضاء البدن، فهو خالِص كُل شَيءٍ وشريفه، وهو باطنُ الشيء ولُبُّه، وهو أهم ما في الباطن وأقواه[2]، فالقلب له أثرٌ كبيرٌ في كون السمع حاصلًا على الوجه المُحَقِّقِ للذكرى، وهو الأصل في الهدايةِ، فإن كان على نقاءِ فِطرَته؛ فإنَّه قادرٌ على الوصولِ إلى الحقِّ، وإن تأثَّر بالشبهات والشهوات؛ فإنَّ ذلك مؤثِّر على السَّمع عند إلقائه.

نوعُ الواو ودلالتها:

بيانُ الحال المطلوب تحقُّقُها عند إلقاءِ الإنسانِ سمعَه

الواو في جملة: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ هي واو الحال، والجملة بعدها حاليَّة، جيء بها؛ لبيان الحال المطلوب تحقُّقها عند إلقاءِ الإنسان سمعَه إلى القرآن أو الحديث أو أخبار الغابرين، وهي: أن يكون حاضرًا بكلِّيَّته، بأن يكون في الغاية من تصويب الفكر وجمع الخاطر، فلا يغيب عنه شيء مما تُلِيَ عليه، وأُلقي إليه[3]؛ لأنَّ إلقاء السمع مع المشاهدة يوقِظُ العقلَ للذِّكرى والاعتبار إن كان للعقل غفلةٌ[4].

فائدة استعمال الضمير:

عبَّر النَّظم عن المسند إليه في جملة الحال بالضمير الراجع إلى الاسم الموصول، فقال: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾؛ ليدلَّ على عموم الحكم وشمولِه كلَّ مَن يلقي سمعه، فعمَّ الضميرُ بعودته للاسم الموصول كلَّ متَّصفٍ بهذا الوصف.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 151.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قلب)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (قلب).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 346.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 324.

تفاعُلُ الحواسّ دلالةُ استجابةِ البواطن

بلاغةُ استعمالِ لفظِ ﴿شَهِيدٌ﴾:

الشهيد في قول اللّه تعالى: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ هو المُشاهِد، وفي التعبير به دلالةٌ على أنَّ حضورَ القلب وتفاعلَه مع ما يُلقَى إليه عاملٌ أساسٌ في كون الاستماع مُعينًا على الذِّكرى وصلاح الحال، وصيغة المبالغة فيه للدَّلالة على قوَّة المشاهَدَة للمُذَكِّر، أي: تحديق العين إليه للحِرص على فَهْم مراده ممّا يقارن كلامَه من إشارة أو سحنة، فإنَّ النظر يعين على الفهم(1).

التَّنويه بشأن المؤمنين، والتَّعريضُ بالمشركين

فائدة التعبير بالجملة الحاليَّة:

جيء بالجملة الحاليَّة ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾؛ للإشارة إلى اقتران مضمونها بمضمون عاملها، بحيث يكون صاحبُ الحال مُلقيًا سمعَه مشاهدًا، وهذه حالة المؤمن، ففي الكلام تنويهٌ بالمؤمنين، وتعريضٌ بالمشركين بأنَّهم بُعَداءُ عن الانتفاع بالذِّكرى والعِبَر(2).

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الإلقاءُ طرحٌ غيرُ بعيد، أمّا الطرح؛ فهو إلقاءٌ بقوَّة مع إبعادٍ عظيم

الإلقاء والطَّرح:

الإلْقاءُ: طرحُ الشيء حيث تلقاه، أي: تراه، ثمَّ صار في التَّعارُف اسمًا لكلِّ طرح(3)، ومعناه المحوريُّ: تحصيلٌ بالمقابلة مواجَهَةً أو تماسًّا، أي: بقوة، ومعناه هنا: الاستماع والإصغاء(4)، أمّا الطَّرْح؛ فهو ابتعاد الشيء أو إبعادُه مسافةً عظيمةً بدفع أو قوَّة، فالطَّرَح هو المكان البعيد(5)، ولمّا كان المراد إلقاءَ الإنسان سمعَه من غير إمساكٍ أو تحوُّلٍ عن المتكلِّم؛ ناسب التعبيرُ بالفعل ﴿أَلْقَى﴾، بخلاف (الطَّرْح) الذي قد ينتج عنه دفعُ المطروح وإبعادُه عن الغاية التي طُرِح لأجلها، وهو ما لا يفيد في تحقيق حصول الذكرى.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 324.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 324.
(3) الراغب، مفردات القرآن: (لقى).
(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 4/ 441، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (لقى).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (طرح).

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ٣٨﴾ [ق: 38]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانـتـقـال من تكذيب المشركين إلى تـكـذيـب الـيـهـود ممَّن نسب إلى الله ما لا يليق به

بعد أن تحدَّثت السورة عن تمام علم اللّه وشمول قدرته بخلق الإنسان إثرَ ما ذكره من جميع الأكوان، ثمَّ بإعدامه لأصناف الإنسان في كلِّ زمان؛ ناسب التذكير بخلق ما هو أكبر منه في المقدار(1)، وهو خلق السماوات والأرض وما بينهما، كما أنَّه لمّا نزل قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا﴾ [ق: 6]، إلى قوله: ﴿لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ١٠﴾ [ق: 10]، ثم نزل قوله بعد ذلك: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ﴾ [ق: 15]؛ كان بعض اليهود بمكَّة يقولون: إنَّ اللّه خلق السماوات والأرض في ستَّة أيام، واستراح في اليوم السابع، والاستراحة تُؤْذِن بالنصب والإعياء، فلمّا فرَغتِ الآيةُ من تكذيب المشركين في أقوالهم؛ ناسب تكذيب اليهود الذين كانوا يتحدَّثون بحديث الاستراحة(2).

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لُّغُوبٖ﴾: (لغب) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى ضَعْفٍ وتَعَبٍ، ومنه اللُّغوبُ: وهو: التَّعب والفتور، يُقالُ: أتانا ساغِبًا لاغِبًا، أي: جائعًا تَعِبًا(3).

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تبيِّن الآية الكريمة أنَّ اللّه تعالى قد خلق بقدرته السماواتِ والأرض وما بينهما من كائناتٍ لا يعلمها أحدٌ غيره في ستَّة أوقات،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 437.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 325.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لغب)، والرّاغب، مفردات القرآن: (لغب)، والزمخشري، الكشاف: 3/ 614.

وما مسَّه سبحانه - بسبب هذا الخلق العظيم - أيُّ شيء من النَّصَب أو التَّعب أو الإعياء[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الواو ودلالتُها:

تعاضد المعاني الكلّيَّة في تقويةِ نسيج السورةِ المكيَّة

تحتمل الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾، أن تكون لعطف ما جاء بعدها على ما قبلها، من باب عطف القصَّة على القصَّة[2]، بقصد نفي أيِّ شيء من التعب والإعياء عن اللّه تعالى؛ بسبب خلقه السماوات والأرض وما بينهما من مخلوقات لا يعلمه أحدٌ غيرُه، كما زعم ذلك اليهودُ، وردَّدوه، وفي ذلك أعظم دليل على كمال القوَّة وتمام القدرة، فهو سبحانه القادر على إهلاك المكذِّبين، وهو القادر على إعادة خلق الإنسان وبعثه.

وتحتمل الواوُ أن تكون استئنافيَّة، والكلامُ بعدها مستأنَفٌ مَسوقٌ للردِّ على اليهود الذين قالوا: إنَّ اللّه خلق السماوات والأرض في ستَّة أيام، ثم استراح، واستلقى على العرش يومَ السبت، فلذلك تركوا العمل فيه[3].

غرضُ تتابع المؤكدات:

تقريعُ محرِّفي الحقِّ وتبكيتُهم بالخبرِ اليقين

جاء قول اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ مؤكَّدًا بالقسَم المحذوف المدلولِ عليه باللام، وبـ (قَدۡ)، وبالفعل الماضي المسنَد إلى ضمير العظَمة؛ تنبيهًا لمنكري البعث وتبكيتًا، والتقدير: (واللّه لقد خلقنا بقدرتنا السماواتِ والأرضَ وما بينهما من كائنات لا يعلمها إلّا اللّه)[4].

---

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 351.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 437، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 325.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 299.

(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 351.

دلالة الفعلِ ﴿خَلَقۡنَا﴾:

عظمةُ خلقِ السماواتِ والأرضِ من عظمة خالقِها

عبَّر البيانُ عن إيجاد السماوات والأرض وما بينهما بفعل الخلق، فقال اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾؛ لكونه إيجادًا من غير أصلٍ ولا احتذاءٍ[1]، وجيء به ماضيًا مسندًا إلى ضمير العظمة تعظيمًا للفعل وتفخيمًا للحدثِ، ولبيان سهولته على اللّه بما له من العظمة والقدرة التي لا يُعجزها شيء، والمعنى: (خلقنا بما لنا من العظمة التي لا يُقادرُ قدرُها، ولا يُطاقُ حصرُها)[2].

دلالةُ (ما):

أوثِر التعبير بالاسم الموصول العامِّ، في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾؛ لدلالته على فخامة ما يدلُّ عليه، وبروز وجه العظمة والإعجاز فيه، وشمولِ ذلك كلَّ ما يقع بين السماوات والأرض.

فائدةُ التَّقييدِ بالظَّرف المُضاف:

ما بين السماء والأرض متغيِّراتٌ تجلُب الخيرَ والشَّرَّ بحسبِ صنيعِ الإنسان

عبَّر البيانُ الكريمُ في جملة الصلة بالظرف المضاف إلى ضمير السَّماوات والأرض، فقال: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾: ليُلفِتَ الأنظارَ إلى ما بين السَّماء والأرض من الأمور المعجِزة، من الغيث والسحاب والهواء - وهي من أسباب الرزق وجلب الخير - ومن نزول الصواعق والصيحة والريح المهلِكة - وهي من أسباب الشرِّ والعقاب؛ فتأمُّلُ ما بين السماوات والأرض من الاتِّساع الذي يكون بينهما فيه ترغيبٌ وترهيبٌ داعٍ إلى الحقِّ.

وجهُ التَّقييدِ بالزَّمن:

قولُ اللّه تعالى: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ متعلّق بالفعل ﴿خَلَقۡنَا﴾؛ أوثر التعبير فيه بحرف الجرِّ المفيد للظرفيَّة؛ لبيان المدَّة الزمنيَّة التي

(1) الراغب، مفردات القرآن: (خلق).

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 437.

ما كان خلقُ السَّماواتِ والأرضِ إلّا بسُنَنٍ زمانيَّة

استغرقها خلقُ السماوات والأرض وما بينهما، وأنَّها ستَّة أيّام؛ إشارةً إلى تعظيم هذا الخَلق، مع قدرته تعالى على خلقها في لمحِ البصر، ولكنه سنَّ بذلك التَّثبُّتَ والتَّأنّيَ لخَلقِه[1]، ففيه بيان أنَّه لم يستغرقها لعجز اللّه عن خلقه في لمح البصر، وإنَّما استغرقها؛ ليُعلِّمَنا اللّه الأناةَ والإتقان، وإخراجَ كلِّ شيء على الوجه الذي يضمَن استمراره وبقاءه، وصلاحه لحياة الناس، فهو لم يُخلق اعتباطًا ولا خَبطَ عشواء، بل خُلق كلُّ شيء فيه لوظيفةٍ تُعدُّ في حدِّ ذاتها معجزةً، متناغمةً مع وظائفِ غيرها من المخلوقات، وفي ذلك أعظم دليل على حكمة الباري جلَّ شأنُه.

دلالة الواو:

خلْقُ الله كاملٌ في إيجادِه وإتمامه، جَلَّ سبحانه عن النَّقص واللُّغوب

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ تحتمل أن تكون لعطف ما بعدها على جملة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا﴾، والقصد من عطفها بيان أنَّ خلق هذا الكون العظيم لم يحدُث معه أيُّ نوعٍ من التعب، وتحتمل أن تكون الواو للحال؛ لأنَّ لِمعنى الحال هنا مَوقِعًا عظيمًا من تقييد ذلك الخلق العظيم في تلك المدَّة القصيرة بأنَّه لا ينصب خالقه؛ لأنَّ الغرَضَ من مُعظَم هذه السورة بيانُ إمكان البعث؛ إذْ أحاله المشركون جهلًا وأخذًا عن اليهودِ بما يرجع إلى ضيق القدرة الإلهيَّة عن إيقاعه، فكانت هذه الآياتُ كلُّها مشتملةً على إبراز معنى سَعَة القدرة الإلهيَّة[2].

سرُّ النفي بـ(ما):

نفي حصول أيِّ قدرٍ من التعب نفيًا عامًّا

(ما) في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ بمعنى (ليس)، أوثر النفي بها؛ لأنَّ مِن خصائصها نفيَ الجمل الاسميَّة والفعليَّة، وهي آكدُ في النفي من (ليس)، وأوسع استعمالًا منها؛ لأنَّ (ليس) مختصَّةٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 437.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 325.

بنفي الجُمَل الاسميَّة فحسب[1]، والنفي بـ(ما) أنسبُ هنا؛ لأنَّها تفيد نفيَ حصول أيِّ قَدرٍ من التعب؛ بسبب خلق السماوات والأرض وما بينهما نفيًا عامًّا، أي: (ما مسنا أيُّ لغوبٍ كان، قليلًا أو كثيرًا).

نكتة التَّعبير بالفعل ﴿مَسَّنَا﴾:

التَّنبيه بنفي الأدنى على نفي الأعلى

آثر النَّظم الكريم في الآية الكريمة: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ استعمالَ فعل المسِّ الدّالِّ على نفي أقلِّ الإصابة، كما في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ [المجادلة: 3]، ويترتَّب عليه نفيُ قوَّة الإصابة وتمكُّنها[2]، وجيء به ماضيًا؛ للدَّلالة على تحقُّق نفيه بصورةٍ قاطعة غيرِ قابلة للشكِّ، وأُسند إلى ضمير العظمة؛ للدلالة على استحالته في حقِّ اللّٰه تعالى بما له من العظمة والقدرة التي لا يليق معها التعب أوِ الفُتور.

دلالةُ الحرفِ ﴿مِن﴾:

أفاد الحرفُ ﴿مِن﴾ في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ تأكيدَ نفي الإصابة بأيِّ قدرٍ من اللغوب؛ لاستحالة أن يُصابَ خالق هذا الكونِ العظيم في تلك المدَّة اليسيرة بشيء من التعب أو النَّصَب.

دلالة اللَّفظِ ﴿لُّغُوبٍ﴾:

نفي الـلُّـغـوب يقتضي نفيَ ما هو أعلى منه في درجات التَّعب

اللُّغوب معناه: الإعياء والفتور[3]، ونفيه بالنسبة للمخلوقِ باعتبارِ مجيئه بعد التَّعب، أمّا بالنسبة للخالق؛ فباعتبار أنَّه أدنى درجات التَّعب، فإذا نُفيَ في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾؛ كان نفي ما هو أعلى منه ضرورةً عقليَّة، وجيء به نكرةً؛ لما يفيده التنكير من عموم النفي وشموله أيَّ قدر منه؛ لأنَّه لو حصل؛ لاقتضى ضعفًا، والضعفُ يقتضي فسادًا، فكان من ذلك شيء على غير ما أراده اللّٰه ﷻ، ممّا ينافي نفوذَ الأمر وتمامَ التَّصرُّف، فتبارك اللّٰه أحسنُ الخالقين[4].

---

(1) السامرائي، معاني النحو: 4/ 191.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 325.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 614.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 326.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المَسُّ والإصابة:

أصلُ المسِّ: جسُّ الشيء باليد أو الحَجَر أو غيرهما، ومن معانيه: الإصابة، وهو يدلُّ على قِصَر مدة الشِّدَّة أو الضُّرِّ[1]، والإصابة: النزول بالشيء واللَّحاق به، خيرًا كان النازل أو شرًّا، ويكثر استعماله في الشرِّ[2] الذي تطول مدَّتُه، ولمّا كان البيان قاصدًا إلى نفي حصول أيِّ قدر من التعب أو الإعياء؛ بسبب خلق السماوات والأرض وما بينهما؛ ناسب التعبير بفعل (المَسّ)؛ لدلالته على قِصَرِ المدَّة المنفيَّة، التي تستلزم نفي أيِّ قدر من الإصابة بالفتور أو الإعياء، وهو ما لا يتحقَّق مع مفردة الإصابة.

نفيُ المسِّ يستلزم نفيَ الإصابة

اللُّغوب والنَّصَب:

اللُّغوب ما يلحق الإنسانَ من الفتور والإعياء بسبب النَّصَب، والنَّصَبُ: التعبُ والمشقَّةُ التي تصيب المنتصِبَ للأمر المزاوِلِ له، فالنصَبُ: نفسُ المشقَّة والكُلفة، واللغوب: نتيجته وما يحدُث منه من الكلال والفترة[3]، ولمّا كان القصدُ نفيَ الإصابة بأيِّ شيءٍ يوحي بالتعب والمشقَّة الحاصلة؛ بسبب خلق الله السماوات والأرض وما بينهما؛ عَمَد النظم الكريم إلى نفي (اللُّغوب) الذي يعني مجرَّدَ الفتور، وليس المرادُ باللغوبِ هاهنا اللغوبَ الناشئَ عن تعبٍ، بل اللُّغوب بمعنى الفتور مطلقًا، فإنَّ الخلق يُصيبهم التَّعب، فيَلحَقُهُ اللغوب، أمّا الخالق؛ فلا يقرَبُه الفتور أصلًا، ونفيه باعتبارِ أنَّه الأدنى درجة من التَّعب، لا باعتبار أنَّه آتٍ بعد التَّعب.

نفي اللغوب باعتبارِ أنَّها أدنى درجات التَّعب لا باعتبارِ مرحليَّته

(1) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 435.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (وصب).
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 614، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 34.

﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ٣٩ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ٤٠﴾ [ق: 39 - 40]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلهما:

بعد أن أكَّدتِ الآياتُ السابقةُ قُدرَةَ الله تعالى على الإحياء والبعث، ببيان إهلاكه كثيرًا من القرون المُكذِّبة، وخلقِه السماوات والأرض وما بينهما في ستَّة أيام؛ قصدًا إلى تسلية الرسول ﷺ والتعريض بالكافرين، وتقويةِ النبيِّ ﷺ بهذه المعاني العظيمة، والمعتقدات الجَسيمة، التي من آمن بها؛ استقرَّ قلبُه، ولو كان واقفًا بين أركان البهتان، ومنافحًا عن الحقِّ وتنزيل القرآن؛ ناسب بعد هذا كلِّه أن يُؤمَر الرسول ﷺ في هاتين الآيتين بالصبر على كفرهم وإنكارهم، مع قَرنِ ذلك بالتقرُّب إلى الله بمزيد من الطاعات، والتضرُّع إليه في أفضل الأوقات.

بعد تثبيت القلوب والعقول يُؤمَر صاحبُهما بالصبر والاقتراب

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طُلُوعِ﴾: (طلع) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى ظُهورٍ وبُروزٍ، يُقالُ: طَلَعَتِ الشَّمسُ طُلوعًا ومَطْلَعًا، والمَطْلِعُ: مَوْضِعُ طُلوعِها، قالَ تعالَى: ﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ٥﴾ [القدر: 5]، وقال هنا: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾[1].

2) ﴿ٱلۡغُرُوبِ﴾: (غرب) أصلٌ يدلُّ على الانصباب أو الانحدار إلى مقرٍّ أو مَغارٍ عَبْرَ مسافة ما بِثِقَلٍ أو قوَّةٍ، ومنه: غروب الشمس بانصبابها من الأفق وغيابها في أدناه، وكل فعل (غَرَبَ) ومضارعه ومصدره الغروب، فهو للشمس[2]، يُقال: غَرَبَت تَغْرُبُ غَرْبًا وغُروبًا[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طلع)، والرّاغب، مفردات القرآن: (طلع).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (غرب).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (غرب).

3) ﴿وَأَدۡبَٰرَ﴾: (دبر) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى آخِرِ الشَّيْءِ وخلْفه، وهوَ خِلافُ قُبُله، وجمعه أدْبار، قال تعالى: ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ [الأنفال: 50]، أي: قدّامَهم وخلفَهم، وقال هنا: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾، أي: أواخِرَ الصلوات[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الصبرُ أصلُ الأمرِ، وجناحاهُ التَّسبيحُ والتَّحميد

تأمر الآيةُ الأولى رسولَ الله ﷺ بالصبر على أقوال الكافرين، وتدعوه أن يُنَزِّهَ ربَّه تعالى عن كلِّ ما لا يليق به، وأن يتقرَّب إليه بالعبادات والطاعات قبلَ طلوع الشمس وقبل الغروب، وهما وقتا الفجر والعصر، وتأمرُه الآيةُ الثانيةُ أن يسبِّحَ اللّه تعالى بالليل، وأن يُنَزِّهَه عن كلِّ ما لا يليق به، وأن يفعل ذلك أيضًا في أعقاب الصلوات التي يصلّيها[2]، فإنَّ الصبرَ أصل العمل، والطّاعات غذاء الصابرين.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الفاء ودلالتُها:

لا أنفعَ من الصبرِ في معاملةِ المُنكِرين للحقِّ

الفاء في قول اللّه تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾؛ لتفريع الأمر بالصَّبر على ما سبق ذكرُه في السورة، من أوَّل قولِه تعالى: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ [ق: 2]، ومناسبة مجيئه هنا: ما تضمَّنه قولُه تعالى ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾، من تسلية النبيِّ والتعريض بالمشركين؛ إذ ناسب أمره بالصبر على أقوال الكفّار بعد تهديدهم وإنذارهم بالإهلاك كما حصل لمن كان قبلهم، والمعنى: (فاصبر على ما يقولون من التكذيب بما أخبرتَهم من البعث وبالرِّسالة[3] إلى أن يأتيَ أمرُ اللّه)[4].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، مفردات القرآن: (غرب).
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 352.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 326.
(4) الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 3/ 227.

غَرَضُ الأمرِ بالصَّبر:

الأمر في قول اللّه تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾؛ لمواساة النبي ﷺ ونصحه وإرشادِه إلى التحلّي بالصبر الذي هو خيرُ وسيلة يواجه بها كلامَ الكفّارِ الذين ينكرون البعث، ويكفرون بما جاءهم به من وحي اللّه، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حميد، ويواجه به أيضًا كلامَ اليهود الذين يفترون على اللّه تعالى ما ليس فيه، والأمر في حقّه ﷺ واجبٌ لا مَحيدَ عنه.

الــصــبرُ خــيرُ وسيلةٍ تـواجَهُ بها الافتراءاتُ

دلالةُ حرفِ الاستعلاءِ:

جاء التَّعبير بحرف الاستعلاء في قول اللّه تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على نصح الرسول ﷺ بأن يترفَّعَ عن المشركين، وأن يتجاوزهم باستعلاءِ الإيمانِ والصَّبر على مقالاتهم السّافِلَة، وأن يوَفِّرَ وقتَه وجُهدَه إلى ما هو أجدَى وأنفعُ من جدالِهم والردِّ على كلامهم، مِنَ الطّاعةِ والتَّسبيح والتَّحميد.

الإيـمـانُ يعلو بصاحبِه على كلِّ باطلٍ، ولا يعلو عليه أيُّ باطلٍ

نوعُ ﴿مَا﴾ ودلالتُها:

تحتمل ﴿مَا﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أن تكون موصولة، والمعنى: (فاصبر على الذي يقولونه)، وتحتمل أن تكون مصدريَّة، والمعنى: (فاصبر على قَولِهم)، والفرق بين الموصوليَّة والمصدريَّة: أنَّ الموصوليَّة تومِئُ إلى قولهم المعهود من إنكار البعث، فهو أشهر ما قالوه في الصَّدِّ عن الرسالة، والمصدريَّة تومِئُ إلى عموم قولهم وخَوضِهم في الباطل، وأيًّا كانت؛ فهي تدلُّ على عموم المعنى وشموله كلَّ ما يقولُه الكافرون في حقِّ اللّه تعالى، وفي حق رسوله المُكَرَّم ﷺ، وفي حقِّ الرسالة التي جاءهم بها، وفي حقِّ البعث الذي أنذرهم به، من الأقاويلِ الباطلة المردودة.

شـمـولُ الأمـرِ بالـصبرِ كـلَّ ما يُقال من الباطل

دلالة التعبير بالفعل ﴿يَقُولُونَ﴾:

عبَّر البيان الكريم في قول اللّه تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾

الأمـــر بـالـصبر يشمل كـلَّ ما يتجدَّد افتراؤه

بفعل القول مضارعًا؛ لأنَّ الأمرَ بالصَّبر موجَّهٌ إلى ما يُقال في الحاضر والمستقبل، ممّا يتجدَّد تقاوُله وافتراؤه، وأُسند إلى ضمير الجماعة؛ ليشمل المشركين - وهم المقصودون بالخطاب ابتداءً - وغيرَهم كاليهود، ممَّن يتقوَّلون على اللّه تعالى كذبًا، وعلى رسوله ﷺ زورًا.

غرض حذف مفعول القول:

تـأكـيـدُ شمول الأمـــر بـالـصبر كلَّ ما يُقال من الأباطيل

أوثر حذف مفعول فعل القولِ في قول اللّه تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾؛ تأكيدًا لعموم المعنى، وشمولِ الأمر بالصبر كلَّ ما يتجدَّد من قول المشركين وغيرهم له في أيِّ أمر من الأمور، ويدخل فيها قولُهم بإنكار البعث دخولًا أوَّليًا، والمعنى: (فاصبر على ما تُلقيه أفواهُهم من فُحشِ القول، وزورِ الحديث، في شأنِ اللّه تعالى، وفي شأن الرسول ﷺ، وفي آيات اللّه التي يتلوها عليهم، وفي شأن البعث، من الأباطيل المبنيَّة على الاستبعاد والإنكار، فإنَّ مَن قدَرَ على خلق العالَم في تلك المدَّة اليسيرة بلا إعياءٍ قادرٌ على بعثهم والانتقام منهم)[1].

بلاغة التعريض في الآية:

تهديدُ المشركين بـالأخـذ بوعيد الـلـه تـعـالى بوساطة الأمر بـالـصـبرِ على أذاهم

في أمر النبيِّ ﷺ بالصبر على أقوال المشركين وسوءِ استقبالهم ما أنذرَهم به، بعد الحديث عن إهلاك اللّه كثيرًا من الأمم والقرون؛ تعريضٌ بالمشركين، وإنذارٌ بإمكان أنْ يَنزِل بهم من الهلاك مثلُ ما نَزَل بمن كانوا أشدَّ منهم، والقصد هو مواساة النبيِّ الكريم ﷺ فيما يَلقَى من أذى قومه، وما تُلقي به أفواههم من فحش القول وزور الحديث، ثم هو تهديدٌ لهؤلاء المشركين، وأنَّهم مأخوذون بوعيد اللّه لهم، وأنَّهم لن يَفلِتوا من بأس اللّه؛ إذا جاءهم[2].

---

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 494، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 342.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 494.

نكتةُ الأمر بالصبر:

عمقُ أثر أقوالِ المشركين في نفس الرسول يُداويه الأمر بالصبرِ

ورد أمرُ النبي ﷺ بالصبر على أقوال الكفّار في أربعة مواضِعَ من كتاب اللّه، هي قولُ اللّه تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: 130]، وقوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص: 17]، وقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ١٠﴾ [المزمل: 10]، بالإضافة إلى قوله هنا: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، والسرُّ في إفراد ما يقول الكافرون بالأمر بالصبر عليه هو الإشارة إلى أنَّ أقوالهم وافتراءاتهم كانت عميقةَ الأثر في نفس النَّبيِّ ﷺ، وكانت تؤذيه أشدَّ الإيذاء، ويمكن تصوُّرُ عمق الجرح الذي يُصاب به إنسان يدعو أهله وقومه إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم، ثمَّ لا يكون منهم إلّا أن يتَّهموه بالجنون والسحر والافتراء والكهانة وغير ذلك.

فمن هنا أُمِر الرسولُ بالصبر على ما يقولون، ونُهِيَ معه عن الحزن؛ بسبب أقوالهم في غير موضع، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ٦٥﴾ [يونس: 65]، وقال: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ٧٦﴾ [يس: 76]؛ لئلّا يكونَ الصبر على أقوال الكفّار مَشوبًا بحُزن، يؤثِّر على دعوته ﷺ، أو يقلِّل من أجره(1).

دلالة عطف الأمر بالتَّسبيح:

تنزيه الله تعالى بعد الإيماء إلى افتراء المشركين واليهود

جاء الأمر بالتسبيح في قول اللّه تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ معطوفًا على الأمر بالصبر بالواو التي تفيد المشاركةَ؛ للدلالة على ضرورة أن يكون الصبر على الأقوال مقرونًا بالتسبيح والطاعة؛ لأنَّ التَّسبيح بمعناه العامِّ فيه دلالةٌ على إصرار الرسول على تنزيه اللّه

(1) المليجي، من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول وتوقيره (رسالة دكتوراه - مخطوطة)، ص: 122.

تعالى بعد قول اليهود والكفار في حقِّه ما لا يليق بعظمته[1]، ولأنَّ التسبيح الذي يُطلَق على العبادة إطلاقَ الجزء على الكلِّ ممّا يُعين على الصبر، ويُحَفِّز الإنسان إلى المداومة عليه، واستمرار التسلُّحِ به في هذه المواجهة التي قد يطول أمدُها، وتكثُر أقوالُ المشركين وافتراءاتُهم فيها[2].

علَّة تقديمِ الصَّبر:

الصبر مهادُ التسبيح، والتَّسبيحُ غِذاء الصبر

قُدِّم الأمر بالصبر على أقوال المشركين على الأمر بتسبيحه تعالى وطاعته في قول اللّه تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾؛ لأنَّ الصبر بمعناه الواسع حافزٌ إلى أن يستعليَ الإنسانُ على أذى الخلق مهما بلغ، وألّا تشغلَه أقوالُهم فيه، ومُعينٌ على أن يتطلَّع إلى تقوية علاقته بربِّه؛ لأنَّه القادرُ على أن يُقَلِّب قلوبَهم، ويهديَهم إلى الحقِّ والإيمان بالبعث، ويوفِّقَهم إلى الاستعداد له، فالصبر مهادٌ للتسبيح، فإذا صبَر الإنسانُ؛ كان تسبيحُه موصِلًا إلى المراد، وما نفع التَّسبيح بدون صبرٍ على البلاء.

نوع الباء ودلالتُها:

التسبيح مصحوبٌ بالرضا والحمدِ على كلِّ ما يحدُث ويُقال

الباء الجارَّةُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ تفيد الملابسة، والمعنى: (نزِّه اللّه عمّا لا يليق بجنابه العالي، تسبيحًا متلبسًا بحمده، مصحوبًا بالرضا والحمد على كلِّ ما يحدث ويُقال)[3]، وفي استعمال الباء إشارة إلى أنَّ المراد بالتسبيح الصلاة؛ لأنَّ الصلاة تُقرأ في كلِّ ركعة منها الفاتحةُ، وهي حمدٌ للّه[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 438.

(2) المليجي، من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول وتوقيره (رسالة دكتوراه - مخطوطة)، ص: 121.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 153، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 95.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 327.

دلالة إضافة الحمد إلى الربِّ:

النِّعَم التي اختُصَّ بها الرسولُ سببُ حَنَقِ الكافرين وحَسَدهم

أضيف الحمد إلى وصف الربوبيَّة الدالِّ على العناية والتعهُّد بالنِّعَم والخيرات في قول الله تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾؛ للتذكير بما اختُصَّ به الرسول من الفضائل والنعم التي امتاز بها عن غيره، التي هي سببٌ في حَنَق الكافرين وحَسَدهم، والمعنى: (أَوْقِع التنزيهَ عن كلِّ شائبةِ نقص، متلبِّسًا بحمد ربِّك، بإثبات الإحاطة بجميع صفات الكمال للسيِّد المدبِّر المحسِن إليك بجميع هذه البراهين التي خصَّك بها، تفضيلًا لك على جميع الخلق في كلِّ الأوقات)[1]، أو المعنى المُقَدَّر: (نزِّهْهُ عن كلِّ نقص، ومنه ما ذكر، حامدًا له تعالى على ما أنعم به عليك من نعمة إصابة الحقِّ وغيرها)[2].

دلالةُ إضافةِ ﴿رَبِّكَ﴾:

الإيماء إلى استمرار الرعاية الربانيَّة لمن شرَّفه الله بالرسالة

ضمير الخطاب (الكاف) في قول الله تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ يعود إلى النَّبيِّ ﷺ، وفي إضافة الاسم الجليل إليه إشارةٌ تؤكِّد اختصاصَ الله تعالى له بالنِّعَم، ومساندتَه المستمرَّةَ في كلِّ ما يواجهه من صعوبات، ورعايتَه الدائمة بالتوجيه إلى ما يقوّي عَزمَه، ويَشحذُ هِمَّته في مواجهة افتراءات الكفّار وأكاذيبهم، وغير ذلك ممّا يستحقُّ مزيدًا من الصبر، ومزيدًا من التنزيه والطاعة، فدلَّتِ الإضافة على تشريف النبيِّ ﷺ وتكريمه، وبيان أنَّ الله تعالى خصَّه بالتربية والرعاية، فإنَّ الربوبيَّة في هذا المقام وعدٌ باستمرارِ الرِّعاية من الخالق سبحانه.

دلالة التَّقييد بالظَّرف:

جاء أمرُ النَّبيِّ ﷺ بتسبيحِ الله تعالى مقيَّدًا بالظرف المضاف، في قول الله تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾ - والمرادُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 438.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 342.

مطلعُ النهار وقتُ استعداد للعمل الدنيوي، ووقتُ تجدُّد النعم، وتوزيعِ الأرزاق

به المدَّة من بعدِ طلوع الفجر إلى شروق الشمس وارتفاعها - ليُرشد الرسول وأتباعَه إلى ضرورة اغتنام هذا الوقت من مَطلَع النهار في تنزيه المولى وتسبيحِه تسبيحًا مقرونًا بالحمد؛ لأنَّه وقتُ غَفلَةِ الناس وانشغالهم بالاستعداد للعمل الدنيويِّ، ولأنَّه وقتٌ تتجدَّد فيه نِعَمُ اللّٰه على عباده، وتوَزَّع فيه أرزاقهم، ولأنَّ التَّسبيح فيه هو السِّلاح الذي يتسلَّح به الساعي إلى العمل والجهاد، فيكون له من اللّٰه القوَّة التي تعينه في عمله وجهاده[1].

معنى تعريف ﴿ٱلشَّمۡسِ﴾:

الإحياءُ والبعثُ أيسرُ من حركة الشمس شروقًا وغروبًا

(أل) في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾؛ لتعريف العهد، فالشمس هي الكوكب الذي يعرفه الناس، ويعهدون حركته اليوميَّة، وقد أوثر التعبير به؛ لما فيه من الإعجاز، وفي ذكر طلوع الشمس في سياق السّورة إشارةٌ إلى عظيم قدرة اللّٰه على كلِّ شيء بما في ذلك الإحياء والبعث، الذي يُعدُّ أمرًا يسيرًا؛ إذا قورن بحركة الشمس وانتظامها شروقًا وغروبًا.

دلالة العطف بالواو:

مدخلُ اللَّيل وقتُ شكرٍ لله على ما كان من عون وتوفيق

الواو في قول اللّٰه تعالى ﴿وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾ لعطف ما بعدها على قوله تعالى: ﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾، ودلَّ العطفُ على التنبيه إلى ضرورة اغتنام الوقت الذي يبدأ من زوال الشمس عن كَبِد السماء، وينتهي بغروبها في مزيدٍ من تسبيح اللّٰه تعالى وتنزيهه؛ لأنَّه يُشارك مَطلَعَ النَّهار في كونه وقتَ انشغال؛ إذ يَؤوب الناسُ من أعمالهم، راغبين إلى الراحة في بيوتهم، كما أنَّه الوقت الذي يجب أن يمتلئَ بحمد اللّٰه وشكره على ما كان منه من عون وتوفيق، ثمَّ هو استغفارٌ لما وقع من إهمال أو تقصير[2].

---

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 31/ 494.

(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 31/ 494.

غَرَض تَكرارِ الظَّرف:

مدخل الليل يبدأ من زوال الشمس عن كبد السماء

أعاد البيان القرآنيُّ ظرفَ القَبليَّة مع المعطوف، فقال تعالى: ﴿وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾؛ حرصًا على الدِّقَّة في تحديد الوقت المأمور بالتسبيح فيه، وتأكيدًا لاتِّساعه، فهو وقت يبدأ من زوال الشمس عن كبد السماء - لأنَّ زوالَها يُؤذِن بغروبها - وينتهي بالغروب، فيتَّسع؛ ليشمل صلاتَيِ الظُّهر والعصر معًا[1].

نوع الطِّباق وبلاغتُه:

جُمِعَتِ الأوقاتُ المترامية في تقابُلٍ لطيفٍ وتناظُرٍ بديع

بين قول اللّه تعالى: ﴿طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾، وقوله: ﴿ٱلۡغُرُوبِ﴾ طِباقٌ معنويٌّ، جَمع فيه البيانُ بين اللَّفظ وضِدِّه في المعنى، فطلوع الشمس شروقُها، وضِدُّه الغروب، والطِّباق بينهما دالٌّ على فضيلة تسبيح اللّه وحمده فيهما؛ لأنَّ كِلَيهما وقتُ غَفلة وانشغال، ومن ثَمَّ كان للصلاة والتسبيح فيهما مزيَّةٌ ودلالةٌ على حِرص الفاعل على إحسان صِلَتِه بربِّه، والتَّرَفُّع والاستعلاء على أقوال الناس وأذاهم؛ ليشملَه اللّه بالعناية والرعاية، ودفعِ الأذى والمضرَّة.

غَرَضُ العَطفِ ودلالتُه:

استكمالُ ذكر أوقات الطّاعة حَضًّا على اغتنامِها

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾؛ لعطف ما بعدها على ما قبلها؛ استكمالًا لبيان الأوقات التي يجب اغتنامها لغفلة الناس ولهوهم فيها، ممّا هو أدلُّ على محبَّة العبد ربَّه، فبعد أن ذكر وقتَ الانتشار إلى الأمور الضروريَّة التي بها القِوام، والرجوع لقصد الراحة الجسديَّة بالأكل والشرب واللعِب والاجتماع بعد الانتشار والانضمام - مع ما في الوقتين من الدلالة الظاهرة على طَيِّ الخلق ثمَّ نشرهم - أتبعه ما يكون وقتَ السكون المراد به الراحةُ بلذيذ الاضطجاع والمنام[2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 327.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 438، 439.

نوعُ (مِن) ودلالتُه:

اللَّـيـلُ وقـتُ الخَلوات، وهو ألذُّ المناجاة

حرفُ (مِن) في قول اللّه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ للتبعيض، وفيه دلالةٌ على أنَّ المرادَ توجيهُ النبي ﷺ وأتباعِه إلى اغتنام الأوقات الفاضلة من اللَّيل في الصلاة والتسبيح المقرونِ بالحمد؛ لأنَّ الليلَ وقتُ الخلوات، وهي ألذُّ المناجاة، ويمكن أن تكون (مِن) هنا ابتدائيَّةً، والمعنى: (سبِّح في أيِّ جزءٍ بدايةً من أوَّل الليل)(1).

دلالة تعريفِ ﴿ٱلَّيۡلِ﴾:

التَّسبيح والصَّلاة في اللَّيل أدلُّ على رَغبةِ العابدِ

(أل) في قول اللّه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ لتعريف العهد الذهنيِّ، فالمقصود به الليل المعروف، الذي هو وقت الراحة والسكون، وأوثر التعبير به؛ لأنَّ التَّسبيح والصلاة فيه أكثرُ رِقَّةً وخشوعًا، وأدلُّ على رغبة الإنسان في الاتِّصال بربِّه، والترفُّعِ عمّا يلقاه في يومه.

نوعُ الفاء ودلالتُها:

توكيد التَّسبيح في اللَّيل الذي هو محلُّ السكون والانقطاع

الفاء في قول اللّه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ للجزاء؛ إذ قُدِّم الجارُّ والمجرورُ المتعلِّق بفعل التَّسبيح عليه؛ اهتمامًا به وتحريضًا عليه، فاكتسب بتقديمه معنى الشَّرط والجزاء، فجُعل متعلِّقُه بمنزلة الجزاء وأدخل عليه الفاء، كما في قول اللّه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾ [الإسراء: 79]، وقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾ [المطففين: 26](2).

ففي التَّعبير بالفاء فائدةُ تأكيدِ الأمر بالتسبيح من الليل؛ لتضمُّنه معنى الشرط، كأنَّه قيل: (وأمّا من الليل؛ فسبِّحه)، وذلك لأنَّ الشرط يفيد وجوبَ الجزاء بوجودِ الشَّرط، فكأنَّه قيل: (النَّهار محلُّ الاشتغال وكثرةِ الأعمال، وأمّا اللَّيل؛ فمحلُّ السكون والانقطاع،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 439، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 154.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 184.

فهو وقت التسبيح)، أو قيل: (الليل محلُّ النوم والثبات والغفلة، وأمّا الليل؛ فلا تجعله للغفلة، بلِ اذكر فيه ربَّك ونزِّهْه)[1].

ويجوز أن تكون الفاء للتَّفريع على قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾؛ اعتراضًا بين الظُّروف المتعاطفة؛ للتَّأكيد على الأمر بالتَّسبيح، كأنَّه قيل: (وسبح بحمد ربِّك قبلَ طُلوع الشَّمس وقبلَ الغُروب ومن اللَّيل وأدبارَ السُّجود، فسبِّحه)[2].

لطيفة تَكرارِ الأمرِ بالتَّسبيح:

إعــــادةُ الأمــرِ بالفعل تأكيدٌ لضرورةِ الازدياد منه

أعاد البيان الكريم الأمرَ بالتسبيح، في قول اللّه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾، وكان من الممكن أن يأتيَ التعبير بدونه، فيُقال: (وسبِّح بحمد ربِّك قبلَ طلوع الشمس وقبلَ الغروب ومِنَ اللَّيلِ وأدبارَ السجود)، لكنَّ النظم أعاد الأمر به بين ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾؛ تأكيدًا لضرورة اغتنام بعض الليل في مزيد من التسبيح والتقرُّب إلى اللّه، وفيه أيضًا - إذا جُعل قوله: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ معطوفًا على محلِّ ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ - تأكيدُ ضرورةِ اغتنام ما بعد الصلوات في التَّسبيح؛ لتكون حياةُ الإنسان كلُّها تنزيهًا وتعظيمًا للّه[3]، وأمّا إذا كان قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡهُ﴾ معترضًا بين الظُّروف المتعاطفة[4]؛ ففيه تأكيدُ مُطلق الأمر بالتَّسبيح في جميع الأوقات المذكورة.

بلاغة فنِّ الاكتفاء:

عـبَّر بالتسبيح منفردًا؛ اكتفاءً بذكر الحمد أوَّلًا

جاء الأمر بالتسبيح بغير ذكر الحمد، في قول اللّه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾؛ لدلالة الأمر في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ على ضرورة قَرنِ التسبيح بالحمد، فعبَّر بالتسبيح منفردًا؛ اكتفاءً بذكر الحمد أوَّلًا، والتقدير: (ومن الليل فسبِّح بحمده وأدبارَ السجود)[5].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 154.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 328.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 153.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 328.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 153.

دلالة العطف:

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ للعطف، إمّا لعطف ما بعدها على ﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾، كأنَّه قيل: (وسبِّح بحمد ربِّك قبلَ طلوع الشمس وقبلَ الغروب وأدبارَ السجود)، وذكر بينهما قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾، ففيه الأمر بالمداومة على التسبيح في كلِّ الأوقات، كأنَّه قيل: (سبِّحْ قبل طلوع الشمس، وإذا جاء وقت الفراغ من السجود قبل الطلوع؛ فسبِّحْ، وسبِّحْ قبل الغروب، وبعد الفراغ من السجود قبل الغروب سبِّحْه)، فيكون ذلك إشارة إلى صرف الليل إلى التَّسبيح، وإمّا أن يكون عطفًا على ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾، وعلى هذا يكون عطفًا على الجارِّ والمجرور جميعًا، وتقديرُه: (وبعض الليل، فسبِّحه، وأدبارَ السُّجود)[1].

الـدعـــوةُ إلى تـسـبـيـحِ الـلـه وتـعـظـيـمِـه في جميع الأوقات

سرُّ التعبير بالأدبار:

الأدبار في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ ظرف زمان، أوثر التعبير به؛ للدَّلالة على امتداد وقت التسبيح من بعد الصلاة إلى أن يأتيَ وقت الصلاة التي تليها، فيظلَّ الإنسانُ معظِّمًا ربَّه مسبِّحًا بحمدِه في أغلب أوقات الليل والنهار، ولا يتحقَّق هذا المعنى إذا جاء التعبير بالأعقاب الدالِّ على ضرورة أن يكون التسبيح بعد انتهاء الصلاة مباشرة، وعُبِّر بالأدبار جمعًا؛ ليشمل الصَّلواتِ المفروضةَ وغيرَها من النَّوافل.

وقـتُ التسبيح ممتدٌّ من الصَّلاةِ إلى الصَّلاة

بلاغة المجاز في ﴿ٱلسُّجُودِ﴾:

في التعبير عن الصَّلاة بالسُّجودِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ مجازٌ مرسل علاقتُه الجزئيَّة؛ إذ عبَّر البيانُ عن الصلاة بأحد أركانها وهو السجود، وفي إيثار التعبير به دون بقيَّة الأركان إشعارٌ بأهمّيَّتِه ومدى حاجة الإنسان إليه، لا سيما في مثل هذا السياق الداعي إلى الصبر على أقوال المشركين وأذاهم؛ إذ يشعر الساجدُ فيه

أقـربُ ما يكون الـعـبـدُ مـن ربِّـه وهو ساجد

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 154.

بالقرب من ربِّه، ويتخلّى عن حَولِه وقوَّته، ويعترف بضعفه وعجزه، وبه يلجأ إلى ربِّه القادِرِ المقتَدِر على حمايته وحفظه من الأقوال والمكائد.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الطُّلوع والشُّروق:

طُلوعُ الشمسِ مرحلةٌ تَسبِق شروقَها

الطُّلوعُ نفاذٌ إلى أعلى من أثناءِ حاجزٍ رقيق، وهذا الحاجز في طلوع الشمس مُتَوَهَّم؛ بسبب غيابها في الأفق، أو هو استعمالٌ في جزء المعنى[1]، أمّا الشروق؛ فهو وقتُ بزوغِ الشمس[2] وظهورِها مُشِعَّةً مُنيرَةً، ولمّا كان قصدُ الآيةِ الإرشادَ إلى الأوقات التي يجب أن يتفرَّد الإنسانُ فيها بتقوية الصِّلة بربِّه القادر على كفايته أذى الناس وأقوالَهم؛ ناسب التعبير بالطلوع تَوَخّيًا للدِّقَّة في تحديد هذا الوقت، وأنَّه ينتهي قبلَ أن تأخُذَ الشمسُ في الخروج ممّا كان يَستُرُها عن الناس، مُعلِنَةً انتهاءَ الليل وبدايةَ النهار؛ أمّا الشروق؛ فهو الوقت الذي اتَّضح فيه النهارُ، وانتشر الناسُ في الأعمال.

الأدبار والأعقاب:

الأدبــــار فيـه تـوسيـعٌ لـوقت الـتـسـبـيـح، والأعـقـابُ دونه في ذلك

الدُّبُر آخِرُ الشَّيءِ وخَلْفُهُ، وهوَ خِلافُ قُبُلِه، وجمعه أدْبار، قال تعالى: ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ [الأنفال: 50]، أي: قدّامَهم وخلفَهم[3]، والعَقِبُ مُؤَخَّرُ الرِّجْل، وجمعه: أعقاب، واستُعير للولد ووَلَدِ الولد، ومنه: رجع على عقبه؛ إذا انثنى راجعًا، وانقلب على عقبيه، نحو رجع على حافرته[4]، فالتعبير بالأدبار يدلُّ على اتِّساع المدَّة التي يُؤمَر فيها بالتسبيح بعد الصلاة، أمّا التعبير بالأعقاب؛ ففيه تضييقٌ لهذه المدَّة، ولمّا كان من مقاصدِ التعبير أن يبقى المخاطَب على صِلَةٍ دائمةٍ بربِّه؛ ناسب التعبيرُ بأدْبارِ السُّجود، لتحقيقه المقصود.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (طلع).
(2) السيوطي، معترك الأقران: 2/ 492.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (غرب).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (عقب).

﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ٤١ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ٤٢﴾ [ق: 41 - 42]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلهما:

إتباعُ التَّسليةِ بالبشرى بالنَّصر في الدُّنيا والآخرة

لمّا دَعَت الآيتان السابقتان رسولَ الله ﷺ إلى الصبر ومزيدٍ من الطاعة في مواجهة أقوال الكفّار وأذاهم، وسلّاه الله تعالى عمّا يسمع منهم من التكذيب وغيره من الأذى بالإقبال على حضرته والانتظار لنصرته؛ أتبعه تعزيةَ الإشارةُ فيها أظهرُ، بما صوَّره يوم مصيبتهم، وقرَّبه حتّى أنَّه يسمع في وقت نزول هذه الآية ما فيه لهم من المَثُلات وقوارعِ المصيبات؛ تحذيرًا لهم، وبشرى لأوليائه بتمام تأييده عليهم ونصره لهم في الدنيا والآخرة(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُنَادِ﴾: النِّداءُ: رفْعُ الصَّوت وظُهورُهُ، يُقال للصَّوت المجرَّد، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ﴾ [البقرة: 171]، أي: لا يعرف إلّا الصَّوت المجرَّد دون المعنى الذي يقتضيه تركيبُ الكلام، ويُقال للمركَّب الذي يُفْهَم منه المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ [الشعراء: 10]، وقوله: ﴿وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: 58]، أي: دَعَوْتُم، أمّا قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٤٤﴾ [فصلت: 44] وقوله: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾؛ فاستعمال النداء فيهم للتنبيه على بُعدهم عن الحقِّ(2).

2) ﴿ٱلصَّيۡحَةَ﴾: (صيح) أصلٌ يدلُّ على الصَّوتِ العالي، منه الصّياحُ، والواحِدَةُ: صَيْحَةٌ، وهيَ رَفْعُ الصَّوتِ، قال تعالى: ﴿إِن

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 440.
(2) الراغب، مفردات القرآن: (ندا).

كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [يس: 29]، وقال هنا: ﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾، أي: النَّفخَ في الصّور[1].

3) ﴿ٱلۡخُرُوجِ﴾: (خرج) يدلُّ على النَّفاذِ عَنِ الشَّيءِ، يُقالُ: خَرَجَ يَخرُجُ خُروجًا، أي: بَرَزَ من مَقرِّه أو حاله، سواء كان مَقرُّه دارًا، أو بلدًا، أو ثوبًا، وسواء كان حالُه حالةً في نفسه، أو في أسبابه الخارجة، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ﴾ [القصص: 21]، وقال تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ﴾ [الأعراف: 13]، وقال: ﴿وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا﴾ [فصلت: 47][2]، والمراد به هنا: الخروج من القبور[3].

المَعنى الإجماليُّ:

ستَظهَر الحقائقُ يومَ تُخرِج الصَّيحَةُ الناسَ من قبورهم

في الآية الأولى يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يستمع استماعَ تَنَبُّهٍ وتَيَقُّظٍ يوم ينادي المنادي - وهو إسرافيل عليه السلام - من مكان قريب، بحيث يسمع نداءَه الناسُ جميعًا، وتُبَيِّن الآيةُ الثانيةُ أنَّ ذلك اليوم الذي يُنادي فيه إسرافيل هو يوم الصيحة التي يسمعها الناس سماعًا ملتبسًا بالحقِّ الذي لا يَحوم حولَه باطلٌ، وعندها يَخرجون من الأجداث كأنَّهم جرادٌ منتشرٌ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

الواو في قول الله تعالى: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾؛ لعطف ما بعدها على جملة: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾؛ لأنَّه لاحِقٌ بتسليةِ النبي ﷺ؛ إذ لا يكون المسموعُ إلّا من نوعِ ما فيه عنايةٌ به، وعقوبةٌ لمكذِّبيه[4].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صيح)، والرّاغب، مفردات القرآن: (صاح).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خرج)، والرّاغب، مفردات القرآن: (خرج).

(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 441.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 329.

بلاغة الأمرِ بالاستماع:

تعظيمُ شأنِ المُخبَرِ به وتهويلُ أمرِه

آثر النَّظم الكريم الأمرَ بالاستماع، في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾؛ لتعظيم شأن المُخبَرِ به وتهويلِ أمره[1]، وللتَّشويق إلى ما يَرِد بعده[2]، ودعوة المخاطَب به إلى أن يكون استماعُه باهتمام؛ نظرًا لخطورة ما يُقال فيه، وإثباته صحَّةَ كلام الرسول[3]، وشأن القيامةِ أن يُستمع لأخبارِها وأحوالها، فتُعطى بالغ الأهمية، ويُستمعَ لها، حتّى يطغى الاستماعُ لها على أيِّ سماعٍ.

بلاغة الاستعارةِ في الاستماع:

تصوير الصيحة بالشَّيءِ الحاصل الذي يُؤمر المُخاطَبُ بالإصغاء إليه

إذا أريد بالاستماع في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾ الانتظارُ والترقُّب، كما قال تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ٢٧﴾ [القمر: 47]، وكما قال: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ١٠﴾ [الدخان: 10]؛ ففيه استعارةٌ تصريحيَّة، شُبِّه فيها الانتظار والترقُّب بالاستماع، ثم استُعير الاستماع؛ للانتظار على سبيل الاستعارة التصريحيَّة، التي تدعو المخاطَبَ إلى تخيُّل الصَّيحَةِ في صورة الشيء الحاصل الذي يُؤمر بالإصغاء إليها في الحال[4]، وإذا أُريد بالاستماع ظاهره وحقيقته؛ فهو على حقيقته، وذلك بأمر النبي ﷺ أن يستمع يوم ينادي المنادي من مكانٍ قريب، باعتبار قربِ النداء.

وجه مخاطبة النَّبيِّ بالأمر:

تطمين الرسول المنذِر بالبعث، وترويعُ الكفّار المنكِرين له

في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾ توجيهُ الأمر بالاستماع إلى النَّبيِّ ﷺ مباشرةً، وفي هذا دلالة على خطورة المسموع وأهمّيَّته، وأنَّ الكلَّ مدعوٌّ إلى استماعه، وأوَّلُهم رسول اللّه؛ بجانب ما فيه من تأنيس الرسول وتبشيره وتطمينه في سياق

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 393.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 329.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 542، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 440.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 329.

أمره بالصبر على أكاذيب الكفّار، ومن تهديدِ الكافرين المنكرين وترويعهم وتخويفهم من الاستمرار على ما هم فيه.

دلالة حذفِ المفعولِ:

شأنُ القيامةِ يعلو كلَّ شأنٍ، ويُنادي على عَظَمَتِه شديدُ أمره

على القول بحمل الاستماع في قول الله تعالى: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾ على الحقيقة، فإنَّه حُذِفَ مفعولُ فعل الأمر به؛ لأنَّ اليوم لا يصلُح أن يكونَ مسموعًا، وهذا الحذف يحتمل وجوهًا، منها أن يُترك مفعوله رأسًا، ويُنزَّل فعلُ الاستماع منزلةَ اللّازم، والمعنى: (كن مستمعًا، ولا تكنْ مثلَ هؤلاء المُعرِضين الغافلين)؛ ومنها أن يكون الاستماع لما يوحى من شأن أهوال القيامة، ومنها أن يكون الاستماع لنداء المنادي[1].

دلالة الظَّرفِ المُضاف:

النداءُ سيكونُ بما أنكره الكفّارُ مِن قبل، وتعجَّبوا مِن الإنذارِ به

الظرف في قول الله تعالى: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾ متعلِّقٌ بفعل الاستماع، ذُكِر تشويقًا إلى المضاف إليه الذي يوضِّحه، حتّى إذا ورد؛ ثبت في النفس، واستقرَّ فيها أنَّ المأمورَ بالاستماع إليه هو النداء الذي يُنادي فيه المنادي على الناس بالخروج من قبورهم في ذلك اليوم، وأنَّ بدايته ستكون بالصَّيحة التي تُؤذِن بإحياء الناس وبعثهم من قبورهم وحشرهم إلى ربِّهم، بعد أن بَلِيَت أجسادُهم، وصارت ترابًا، واختلطت عظامُهم ببعضها، فهو اليوم الذي سيتحقَّق فيه ما أنكره المشركون، وتعجَّبوا من الإنذار به.

نكتةُ التعبير بصيغة المضارع:

جاء التَّعبير بفعل النداء مضارعًا، في قول الله تعالى: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾؛ لاستحضار صورة المنادي الذي يُنادي يوم البعث؛ ليَخرُج النّاسُ من قبورِهم، وهي حالةٌ غيبيَّة فريدةٌ، تحدث بصورةٍ عجيبة، فكان تصوير مَشهدِها بديعًا.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 154.

المنادي هو إسرافيلُ الذي التَقم القرنَ، وينتظر الأمرَ

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡمُنَادِ﴾:

(أل) في قول الله تعالى: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾ لتعريف العهد؛ إذِ المقصود به إسرافيل، الذي أخبر الرسول ﷺ بالتِقامه القرن، وانتظارِه الأمرَ بالنفخ فيه، وقد ورد في السُّنَّة ما يفيد أنَّه التَقم القرن، وينتظر الأمر بالنفخ أو الصَّيحة في الخلق؛ ليُبعَثوا من قبورهم، ويُحشَروا إلى ربِّهم، فعَن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ، قالَ: «قالَ رَسولُ اللّه ﷺ: كَيْفَ أنْعَمُ، وقَدِ التَقَمَ صاحِبُ القَرْنِ القَرْنَ، وحَنَى جَبْهَتَهُ، وأصْغَى سَمعَهُ، يَنْتَظِرُ أنْ يُؤْمَرَ أنْ يَنْفُخَ، فيَنْفُخُ؟ قالَ المُسْلِمونَ: فكَيْفَ نَقولُ يا رَسولَ اللّه؟ قالَ: قولوا حَسْبُنا اللّه، ونِعْمَ الوَكيلُ، تَوَكَّلْنا عَلَى اللّه رَبِّنا»[1].

وقيل بلِ اللّامُ لتعريف الجنس، أي: (يوم ينادي منادٍ)، أي: من الملائكة، وهو المَلَك الذي ينفخ النفخة الثانية، فتتكوَّن الأجساد، وتحلُّ فيها أرواح الناس للحشر، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨﴾ [الزمر: 68][2].

بلاغةُ الجِناس:

بين الفعل والفاعل في قول الله تعالى: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾ جناسُ اشتقاق؛ إذ اجتمع اللفظان في أصل الاشتقاق، وفي مجيء الفاعل من مادَّة الفعل دلالةٌ على أنَّه مُفرَّغ لهذه المهمَّة، ولا عملَ له غيرُها.

دلالةُ ﴿مِن﴾:

﴿مِن﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾ لابتداءِ الغاية، أي: (ينادي المنادي ابتداءً من مكانٍ قريب)، فأفادت تقريبَ المكان، كما أفاد قوله: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ﴾ تقريبَ الزمان.

(1) الترمذي، سنن الترمذي، الحديث رقم: (3243).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 330.

نكتةُ التَّنكير والوَصف:

جيء بالمجرور بـ﴿مِن﴾ في قول الله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾ نكرةً للنَّوعية؛ إذْ لا يتعلَّق الغرض بتعيينه، والمعنى: (أيّ مكان)، ووصفُه بالقُرب يكسر إبهامَه، ويُعطيه شيئًا من البيانِ، فهو مكانٌ قريبٌ من كلِّ مستمعٍ يوم القيامةِ، ممّا يدلُّ على أنَّ الصوت سيُسمَع منه، كما يُسمَع من المكان القريب، وأنَّ حضور الناس إليه سيكون على وجهٍ بالغٍ في السُّرعة[1].

سيسمعُ الناسُ جميعًا النداءَ من مكانٍ شديدِ القُربِ

موقع الظَّرفِ ودلالتُه:

كلمة اليَومِ في قول الله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ بدلٌ من قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾، وفي إعادة التعبير به مضافًا إلى ما بعده توضيحٌ وبيانٌ، يزيد الظَّرفَ الأوَّل تفخيمًا وتعظيمًا؛ لأنَّ إجمالَه أوَّلًا أثار النفوسَ إلى معرفة كُنْهِ ذلك اليوم، ودعاها إلى ترقُّب ما سيُسمَع فيه، وبماذا يُنادى عليهم، فجاءت جملةُ البدل لتوضِّح ذلك، ولتقرِّرَ في النفوس حقيقةَ حصول الصَّيحة التي ستُخرجهم من قبورهم.

في البيانِ بعد الإجمالِ تفخيمٌ للمجمَل، وتعظيمٌ لشأنِه

نكتةُ التعبير بصيغة المضارع:

جاء التَّعبير بالفعل في قول الله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ مضارعًا؛ لاستحضار صورة السامعين الصَّيحة، واستجابتِهم لها بالخروج من القبور، كأنَّها ماثلةٌ حاضرة، تعمل عملها في النفوس المنكِرة، وتدعوها إلى الإيمان والتَّسليم.

فائدة الإسنادِ إلى الجماعة:

جيء بالفعل في قول الله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ مسندًا إلى ضمير الجماعة؛ للدَّلالة على أنَّ كلَّ النّاس سيسمعون

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 440، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 330.

الصيحة، وستحصُل استجابتُهم لها، ويدخل فيهم مُنكِرو البعث دخولًا أوَّليًّا.

نكتة العدول إلى السماع:

اختيارُ صيَغِ الألفاظ مقرونٌ بمقاصدِ الآيات

جاء التَّعبيرُ بالاستماع أوَّلًا في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾، ثمّ اختير هنا السماع، فقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ﴾؛ وذلك أنَّه لمّا كان قصد الآية تسلية الرسول، وتبشيرَه بإثبات حقّية ما أنذَر به؛ ناسب أمرُه بصيغة الاستماع في ﴿وَٱسۡتَمِعۡ﴾؛ ليتجهَّز بانتظار الصيحة المؤذِنة بصِدقه فيما أنذر به، وكَذِبِ الكافرين فيما أنكروه، أمّا عندما كان الحديث عن وصول صَوتِ الصَّيحة إلى أسماع الناس وخروجِهم على إثرها من قبورهم؛ ناسب التعبير بفعل السَّمع الدالِّ على ذلك.

دلالة تعريف ﴿ٱلصَّيۡحَةَ﴾:

الصيحةُ هي النَّفخةُ الثّانيةُ التي يُحشَر الناسُ بعدها

(أل) في قول اللّه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ﴾ لتعريف العهد الذهنيِّ؛ إذ يُراد بها النفخةُ الثانيةُ، التي ذكرها البيانُ القرآنيُّ في أكثرَ من موضع، ومن بينها قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨﴾ [الزمر: 68]، وقولُه: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [يس: 29].

نوعُ الباء ودلالتها:

الباء في قول اللّه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ للملابسة، "أي: (يَوْمَ يَسْمَعونَ الصَّيْحَةَ مُلْتَبِسَةً بالحَقِّ)، الَّذي هو البَعْثُ"[(1)].

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ (الحَقِّ):

التعبيرُ بالحقِّ فيه إبطالٌ لزعم الكفّار بأنَّ البعثَ اختلاق

المرادُ بلفظِ الحَقِّ في قول اللّه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّ﴾: البعثُ والحشر الذي أنذَر به رسولُ اللّه ﷺ المشركين، والذي تحدَّثتِ السورةُ في مطلعها عن إنكارهم له وتعجُّبهم منه،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 135.

وفي التعبير عنه بالحقِّ الذي هو نقيض الباطل إبطالٌ لزعم الكفّار أنَّه اختلاق، وتأكيدٌ لبطلانِ تعجُّبِهم منه، وإنكارِهم لوقوعِه[1].

نكتةُ التَّعبير باسم الإشارة:

تعظيمُ شأنِ يومِ سماعِ الصَّيحَة، وتهويلُ أمره

استعمل النَّظم الكريم اسمَ الإشارةِ في الآية الكريمة: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾؛ لتهويل شأنِ المُشار إليه، وهو يومُ سماعِ الصَّيحةِ بالحقِّ، فأريد كمال العناية بتمييزه لاختصاصه بهذا الخبر العظيم، وكان مقتضى الظاهر أن يُقال: (هو يومُ الخروج)، لكنَّ النظمَ الكريمَ عدل عن التعبير بالضمير إلى التعبير باسم الإشارة تعظيمًا وتفخيمًا لأمره[2].

دلالة إضافة الخَبَر:

(اليوم) في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾ خبرٌ لاسم الإشارة، وفي إضافته إلى ﴿ٱلۡخُرُوجِ﴾ تأكيدٌ لكون البعث والخروج من القبور سيحصل في اليوم الذي سيسمع الناسُ فيه صيحةَ الحقِّ، فيومُ الخروج هو يوم سماع الصيحة بالحقِّ، وهو عَلَمٌ بالغلبةِ[3].

دلالة تعريف ﴿ٱلۡخُرُوجِ﴾:

لا خروجَ أعظمُ مِن خروجِ الناسِ إلى دار الآخرة

(أل) في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾ لتعريف العهد الذِّكريِّ؛ إذ يُراد به: البعث المذكور في السورة، والتي قصدت السورةُ إبطالَ إنكارِ الكفّار له، وفي تعريفه باللام إشارةٌ إلى أنَّه الخروج الذي لا خروجَ أعظمُ منه؛ لأنَّه خروج الناس من قبورهم من الأرض التي خُلقوا منها إلى أماكنهم في الآخرة.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النِّداء والصّياح والصُّراخ:

النِّداءُ رفْعُ الصَّوت وظُهورُهُ، ويُقال للمركَّب الذي يُفْهَم منه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 331.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 331.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 331.

النِّداء للمركَّب الذي يُفْهَم منه معنًى، والصياحُ رفع الصَّوْت بِما لا معنى له

المعنى، وأمّا الصّياحُ؛ فرفع الصَّوْت بِما لا معنى له[1]، وأمّا الصُّراخُ؛ فهو الصّياحُ الشديدُ عند الفَزَع أو المصيبة[2]، ولمّا كانتِ الصيحةُ التي أُمر النبيُّ بالاستماع إليها فيها الإعلان عن البعث والخروج من القبور للحشر والحساب والمجازاة على الأعمال؛ ناسب التعبير بلفظ النداء، فقيل: ﴿يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾؛ لما فيه من معنى الإيذان بالبعث والخروج من القبور، وعندما كان القصدُ بيانَ شدَّة الصَّوتِ وقوَّته؛ ناسب التعبير بالصَّيحَة، لما يترتَّب على شدَّتها من إعادة الرّوح وسماعِ الموتى وبعثهم للحشر والمجازاة.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 38.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (صرخ).

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ۝٤٣ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝٤٤﴾ [ق: 43 - 44]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلهما:

الانتقال من ذكر الصيحة إلى تفاصيل البعث وخروج الناس من قبورهم

بعد أن أُمِرَ النبيُّ ﷺ بانتظار الصيحة، التي تُعلن بعثَ الناس، وتُؤذِن بخروجهم من القبور للحشر والجزاء؛ ناسب بيانُ أنَّ الإحياء والإماتة والبعث بيد الله تعالى وحدَه؛ ليَعلمَ النّاسُ أنَّ أمرَ بعثهم كأمر إحيائهم وإماتتهم، فهو انتقالٌ من بيان لحظة البعث الأولى، وخروج الناس من قبورهم، إلى ذكر الإماتة والإحياء والبعث، مع بيان تفاصيلِ الخروج من ذِكرِ تشقُّق الأرض عن الناس وقتَ الإحياء.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: (صير) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى المَآلِ والمَرْجِع، مِنْ ذَلِكَ صارَ يَصيرُ صَيْرًا وصَيْرورَةً[1]، وكلُّ ما في القرآن من التركيب - عدا كلمة واحدة - هو كلمة المَصير بمعنى المآل والمنتهى، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٤٢﴾ [النور: 42]، وقال هنا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾[2].

2) ﴿تَشَقَّقُ﴾: (شقق) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى انْصِداعٍ في الشَّيْءِ، ومنه الشَّقُّ: الخَرْمُ الواقع في الشيء، يُقال: شَقَقْتُهُ نصفين، قال تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦﴾ [عبس: 26]، وقال هنا: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ﴾[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صير).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (صير).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شق)، والرّاغب، مفردات القرآن: (شق).

3) ﴿سِرَاعًاۚ﴾: (سرع) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى خِلافِ البُطْءِ، فالسَّريعُ: خِلافُ البَطيءِ، وسَرَعانُ النّاسِ: أوائِلُهُمُ الَّذينَ يَتَقَدَّمونَ سِراعًا، يقال: سَرُعَ، فهو سَريعٌ، وأَسْرَعَ فهو مُسْرِعٌ، وأَسْرَعوا: صارت إبِلُهم سِراعًا، قال تعالى هنا: ﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ﴾، وقال أيضًا: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا﴾ [المعارج: 43][1].

4) ﴿حَشۡرٌ﴾: (حشر) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى السَّوقِ والبَعْثِ والانبعاث، ومنه الحَشْرُ: الجَمْعُ مَعَ سَوْقٍ، وقيل هو: إخراجُ الجماعة عن مَقَرِّهم وإزعاجُهم عنه إلى الحَربِ ونحوها، ولا يقال إلّا في الجماعة، قال تعالى: ﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦﴾ [الشعراء: 36]، وقال: ﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ﴾ [ص: 19]، وقال: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ٤٧﴾ [الكهف: 47]، وقال هنا: ﴿ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾، وسمّيَ يومُ القيامة يومَ الحَشر كما سُمّي يومَ البعث والنَّشر[2].

المَعنى الإجماليُّ:

تقريرُ سهولةِ الإحياءِ والإماتةِ والبَعث والحَشر على الله تعالى

في الآية الأولى يبيِّن اللّه تعالى أنَّه يحيي مَنْ يشاء، ويميتُ مَنْ يشاء، بقدرته وإرادته، وأنَّ إليه وحده مَرجِعَ العباد ومَصيرَهم، ويبيِّن في الآية الثانية أنَّ تشقُّقَ الأرض عن أجساد الموتى، وما يترتَّب عليه من بعثٍ وجمعٍ وحشر أمرٌ يسيرٌ هيّنٌ على اللّه تعالى؛ لأنَّ قُدرَتَه لا يُعجِزُها شيءٌ من ذلك ولا من غيرِه.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

غَرَضُ تتابُعِ المُؤَكِّدات:

الإبلاغ في الردِّ على منكري البعث، وإثباتُ اليقينيّات القَطعيَّة

جاء قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾ مؤكَّدًا بإنَّ، والجملةِ الاسميَّة، وضمير الفصل، مع ضمائِرَ أربعةٍ للمتكلِّم المُعَظِّمِ نفسَه:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (سرع).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (حشر).

للإبلاغ في إثبات اختصاص اللّه تعالى بالإحياء والإماتة ونفيهما عن غيره، بعد هذه الجَولة الطويلة التي قطعتها السورة الكريمة في إبراز دلائلِ قدرته وإبراز براهينِ عظمته؛ لأجْلِ ردِّ هؤلاء الكافرين المكذِّبين إلى حديقة الإيمان، فبعد أن بيَّنت السورةُ دعائمَ القدرة، ودقَّت بشائرَ النصرة، وختم بما يصدق على البعث - الذي هو الإحياء الأعظم - دالًّا بما هو مُشاهَدٌ من أفعاله سبحانه؛ أكَّده لإنكارهم البعث، فقال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾[1].

بلاغةُ التَّذييلِ بالآية:

تأكيدُ البعثِ تذييلٌ لمقصدِ السّورة

مجيء قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ﴾ في خاتمة السورة الكريمة، بعد الأشواط التي قطعَتها في الحديث عن دلائلِ قدرة اللّه تعالى وبراهينِ عظمته؛ يجعل الآية بمنزلة التذييل المؤكِّد لما سبق ذكرُه، بتأكيد كَونِ الإحياءِ بعد الإماتة من شؤون اللّه ﷻ، ومن يسيرِ أعماله، فهو يحييهم، ويحيي غيرهم، ويميتهم، ويميت سواهم[2].

دلالةُ الجمعِ بين ضمائرِ العَظَمَة:

تعظيمُ الله تعالى وتأكيدُ اختصاصه بالإحياء والإماتة

جمعت الآيةُ الكريمةُ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ﴾ بين عددٍ من الضَّمائر للمتكلِّم المعَظِّم نفسَه - اسمُ (إنَّ)، وضميرُ الفصل، والفِعلانِ، والمجرورُ بـ(إلى) - لتعظيم المسنَدِ إليه، وهو اللّه تعالى، وتأكيدِ ما له سبحانه من سلطانٍ مُطلَقٍ في مُلكِه، وأنَّه يفعل فيه ما يشاء، وأنَّه بهذا السلطانِ وتلك الخصوصيَّةِ يُحيي كلَّ مَيِّت، ويُميت كلَّ حيٍّ، وبهذا السلطان يَصيرُ كلُّ ما في الوجود إليه، يقبِضُه، ويبسُطُه كيف يشاء، فالبعث الذي يُنكره المشركون هو أمرٌ واقع في سلطان اللّه واختصاصه، فكما مَلَكَ سبحانه الحياةَ يملِكُ الموت، وكما مَلَكَ الموتَ يملكُ البعثَ[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 441.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 331.

(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 497.

فائدةُ التعبير بالفِعلَين ﴿نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾:

مَشاهِدُ الإحياءِ والإماتة سنَّةٌ مستقرَّةٌ وعادةٌ مستمرَّةٌ

جاء التَّعبير بفعل الإحياء وفعل الإماتة مضارِعَين في قول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾؛ لما تُفيده المضارعةُ من الدلالة على تجدُّد مَشاهِدِ الإحياء والإماتة، وكونِهما سُنَّةً مستقرَّةً وعادةً مستمرَّةً ألِفَها الناسُ، ودَرَجوا على مُشاهدة آثارها، وفي إسنادهما إلى ضمير الحقِّ بصيغة التعظيم دلالةٌ على سهولته على الله تعالى، بما له من العَظَمة والاقتدار[1].

بلاغةُ الجِناسِ النّاقِص:

الإحياء خِصّيصَةٌ من خصائصِ الربوبيَّة

بين ضمير المتكلِّم والفعل المضارع، من قول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ﴾ جناسٌ ناقصٌ؛ إذ اتَّفقت الكلمتان في حرفين - هما النون والحاء - واختلفتا في بقيَّة الحروف، وفي هذا الاتِّفاق الجُزئيِّ تأثيرُه على النَّفس؛ ليترسَّخَ فيها أنَّ الإحياء جزءٌ من اختصاصات الله الواسعة، التي لا يستطيعها غيرُه، ولا يقدر عليها أحدٌ سواه.

دلالةُ العطفِ:

جاء فعل الإماتة معطوفًا على فعل الإحياء، في قول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾؛ للدلالة على العلاقة بين الإحياء والإماتة، وأنَّ الموت هو نتيجة الحياة في عالم المشاهدة، وهو مقدِّمة لما سيكون في عالم الغيب.

بلاغة الطباق وغرضه:

الله تعالى قادرٌ على الجمع بين الشيءِ وضِدِّه في آنٍ واحدٍ

جمعت الآيةُ بين فعلين متضادَّين، وأسندت كلَّ واحد منهما إلى ضمير الحق بصيغة التعظيم، في قول الله تعالى: ﴿نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾؛ للدلالة على عظيم قدرة الله، وأنَّه صاحب القدرة المطلقةِ في الجمع بين الشيء وضِدِّه في آنٍ واحدٍ، وأنَّ كِلا الأمرين سهلٌ عليه، ولا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 441.

يُعجِزه شيءٌ منهما ولا من غيرهما، وأنَّ مدارَ الخلقِ بين الإحياء والإماتة، فالأمر بيده وحده تعالى.

نكتةُ تقديمِ الإحياء:

قُدِّم ذكر الإحياء على الإماتة في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾؛ لكونه حاصلًا في الواقع قبل الإماتة، ولأنَّ الآية تأتي في سياق تأكيد وقوع البعث، وإبطالِ إنكار الكافرين له، ودَحضِ كُفرِهم به.

توجيه العطف بالواو:

سُلطانُ اللّهِ يشملُ عالَمَي الغيب والشَّهادة

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ لعطف ما بعدها على ما قبلها، وأوثِر العطف بها؛ للدلالة على أنَّ قُدرةَ اللّه وسلطانَه لا يقتصر على الإحياء والإماتة في الدنيا، ولكنَّه مُتَّسِعٌ ليشمل البعث والحشر في الآخرة؛ ليُثيبَ المؤمنَ على إيمانه وعمله، ويُجازيَ الكافرَ على إنكاره وكفره؛ اتِّساقًا مع قصد السورة إلى مؤانسةِ النبيِّ ﷺ وبشارتِه بصِدقِ ما هو عليه وحقّيته، وتهديدِ المشركين وتحذيرهم من الاستمرار على ما هم فيه.

دلالةُ حرفِ الانتهاءِ المُضاف:

مصائِرُ الناس تنتهي في الآخرة إلى المَلِكِ الذي لا مُلك لأحدٍ غيره

(إلى) في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ﴾ حرفُ جرٍّ يفيد الانتهاء، وفي إدخاله على ضمير الجلالة بصيغة التعظيم؛ دلالة على أنَّ الناس يَصيرون إلى اللّه تعالى بعد بعثهم في الآخرة؛ ليَجزيَ المُحسِنَ على إحسانه، ويُعاقِبَ المُنكِرَ على إنكاره، وفي إيثار التعبير بضمير العظمة نوع من التفخيم والتعظيم الذي تَنْخَلِع منه القلوب، وتَرتَجِف له النفوس، لعلمها بأنَّها صائرةٌ إلى المَلِكِ الذي لا مُلْكَ في ذلك اليوم لأحدٍ إلّا له.

غَرَضُ تقديمِ شِبهِ الجُملة:

قُدِّم الجارُّ والمجرور المتعلِّق بالخَبَر على المبتدأ، في قول اللّه تعالى:

﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ للعناية والاهتمام[1]، ولِقَصرِ المصير في الآخرة على كونه إلى الله تعالى وحدَه، قصرَ موصوفٍ على صفةٍ قصرًا حقيقيًّا، والمعنى: (إلينا المصيرُ بعد الحياة والموت لا إلى أحدٍ غيرنا).

دلالة تعريف ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾:

كلُّ شيء صائرٌ إلى ما قدَّره له الله يوم البعثِ

(أل) في قول الله تعالى: ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ تحتمل أن تكون لتعريف الجنس، أي: (كلُّ شيء صائرٌ إلى ما قدَّرناه له)، وأكبر ذلك هو ناموس الفناء المكتوب على جميع الأحياء، ويحتمل أن يكون لتعريف العهد، أي: (المصير المتحدَّث عنه)، وهو الموت؛ لأنَّ المصيرَ بعد الموت إلى حكم الله[2]، والمصيرُ بهذا التركيب لا يكون إلّا على يوم البعثِ.

بلاغةُ فنِّ التَّوجيه البديعيِّ:

وعيدٌ من عذاب الدُّنيا، ووعيدٌ من عذاب الآخرة

يرى ابن عاشور أنَّ الآياتِ من قول الله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ - مع ما تفيده من تسلية الرسول ﷺ - تُشير بطريقة التوجيه البديعيِّ إلى تهديد المشركين بعذابٍ يحُلُّ بهم في الدنيا عَقِبَ نداءٍ يَفزَعُهم، فيلقون إثرَه حَتفَهم، وهو عذاب يومِ بدر، فخوطب النبيُّ ﷺ بترقُّب يوم يناديهم فيه منادٍ إلى الخروج، وهو نداء الصريخ الذي صرخ بأبي جهل ومن معه بمكَّة بأنَّ عيرَ قريشٍ - وفيها أبو سفيان - قد لقيها المسلمون ببدر، وكان المنادي ضَمضَم بن عمرو الغفاري، جاء على بعيره، فصرخ ببطن الوادي: يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه، فتجهَّز الناس سراعًا، وخرجوا إلى بدر.

فالمكان القريب هو بطن الوادي، فإنَّه قريب من مكَّة، والخروج

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 331.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 331.

خروجهم لبدر، وتعريف اليوم بالإضافة إلى الخروج لتهويل أمر ذلك الخروج الذي كان استئصال سادتهم عَقِبَه، وتكون جملة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ وعيدًا بأنَّ اللّه يميت سادتهم، وأنَّه يُبقي من قدَّر إسلامَه فيما بعدُ، فهو يحييه إلى يوم أجَلِه[1].

موقع ﴿يَوۡمَ﴾ ودلالتُه:

إثبات البعث، وتفخيمُ يومِ وقوعه

الظَّرف في قول اللّه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ﴾ متعلِّق بالمَصير في الآية السّابقة، والمعنى: (وإلينا مصيرُ الخلق جميعًا يومَ تتشقَّق الأرضُ عنهم، ويخرجون من قبورهم سِراعًا إلينا)[2]، وفيه إثباتٌ للبعث، وتهديدٌ ووعيدٌ بالمجازاة على إنكاره، ووجهُ تعليق الظَّرف بما قبله: أنَّه لمّا تحقَّق أمرُ البعث غايةَ التحقُّق؛ صوَّر خروجَهم فيه، فقال معلِّقًا بما ختم به الابتداءَ ممّا قبله، زيادةً في تفخيمه وتعظيمه وتبجيله[3].

دلالة الإضافة:

الجملة الفِعليَّةُ في قول اللّه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ﴾ في محلِّ جرٍّ بإضافةِ الظَّرف إليها؛ لتهويل أمر هذا اليوم، وتعظيم شأنه، بتصوير ما يحصل للأرض في ذلك اليوم، ممّا يساعد في حصول البعث والحشر إلى اللّه تعالى بيُسرٍ وسهولة.

بلاغةُ التَّعبير بالمُضارِع:

استحضار صورة تشقُّقِ الأرض كأنَّها حاضرةٌ ماثِلة

أوثر التعبير بفعل التَّشقُّق - الموضوعِ لانشقاق الأرض وتصدُّعِها - مضارعًا في قول اللّه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ﴾؛ لما يفيده من استحضار الصورة المتحدَّثِ عنها، كأنَّها حاضرةٌ ماثِلة، تبدو فيها الأرضُ، وهي تنفرج، وتتشقَّق؛ لِتَخرُجَ منها جثامينُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 331 - 332.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 497.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 442.

الناس، بعد أن عادت إليها الأرواحُ؛ لتُحشَرَ بعد ذلك إلى اللّه، فيوفي كلَّ نفس ما كسبت بعدله وقدرته.

توجيه قراءاتِ ﴿تَشَقَّقُ﴾:

قراءةٌ تدلُّ على سُرعةِ الفعل، وأخرى تُبرز صورتَها القويّة

اختلف القرّاء في قراءة فعل التشقُّق، من قول اللّه تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ﴾: فقرأ أبو عمرو والكوفيّون بحذف تاء التَّفَعُّلِ - التاء الثّانية من (تَتَشَقَّقُ) - وتخفيف الشين ﴿تَشَقَّقُ﴾، وقرأ الباقون بتشديد الشّين - بِقَلب التّاء الثّانية شينًا وإدغامِها في فاء الفِعلِ: ﴿تَشَّقَّقُ﴾[1]، وقراءة التخفيف تدلُّ على حصول التشقُّق على وجهٍ بالغ في السهولة والإسراع، بينَما تُبرِزُ قراءةُ التضعيف انصداعَ الأرض وانفراجَها، ليَخرُجَ الأمواتُ سِراعًا من تحت أنقاضها.

فائدةُ تعريفِ ﴿ٱلْأَرْضُ﴾:

ستُصاب الأرضُ من هَولِ يوم البعث بما يُجبِرها على التصدُّع والتشقُّق

(أل) في قول اللّه تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ﴾؛ لتعريف العهد الذهنيِّ أو الذِّكريِّ؛ إذ يُراد بها الأرض المعروفة التي يطؤها الناس بأقدامهم، ويوارون فيها موتاهم، فتختلط لحومهم وعظامهم بترابها، وهو ما سبق ذكرُ عجَبِهم من البعث منه، في قول اللّه تعالى من مَطلَع السورة: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًاۖ ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٞ ٣﴾ [ق: 3]، فهذه الأرضُ ستستجيب لأمر اللّه تعالى يوم القيامة، وسيصيبها من هَولِ ذلك اليوم ما يُجبِرها على الانصياع بالتصدُّعِ والانشقاق، وفيه من تهويل هذا اليوم وتعظيمه ما يقذف الرُّعبَ في القلوب، ويَبُثُّ الخوفَ في النفوس.

دلالةُ ﴿عَنْهُمْ﴾:

الأرضُ غطاءٌ يُكشَف عن النّاسِ

الجارُّ والمجرور في قول اللّه تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ﴾ متعلّق بفعل التشقُّق، و(عَنْ) فيه حرف جرٍّ يفيد المجاوزة، والضمير فيه يرجع إلى منكري البعث بخاصَّة، وإلى الناس بصفة

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 334.

عامَّة، فالمعنى: (تتشقَّق الأرضُ عنهم مجاوزةً لهم بعد أن كانوا في بطنها، فيخرجون منها أحياء، كما كانوا على ظهرها أحياء)[1]، وأفاد حرفُ المجاوَزةِ تشبيهَ الأرض بالغطاء الذي يُكشَف عن الناس.

إذا كُشِف الغطاءُ؛ أسرعَ النّاس إلى جزائهم

دلالةُ الحال:

جاء الحال ﴿سِرَاعٗاۚ﴾ من الضمير المجرور بـ(عَنْ)، في قول اللّه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ﴾، وهو جمعُ (سَريع)؛ للدلالة على كونهم سراعًا في الخروج، أو في المشي الذي يعقبه إلى محلِّ الحساب[2]، فالمنكرون لن يملكوا من أمرهم شيئًا في ذلك اليوم، وسيكون شأنهم شأن الآخرين في الاستجابة لنداء ربِّ العالمين على وجهٍ بالغ في الإسراع، ولن يستطيعوا التخلُّفَ عن الخروج أو البقاءَ في قبورهم.

دلالةُ اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

تفخيمُ أمر البعث بإنزال بُعدِه المعنويِّ منزلةَ البُعدِ الحِسّيِّ

اسمُ الإشارة في قول اللّه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾ يحتمل أن يكون إشارةً إلى التشقُّق، ويحتمل أن يكون إشارةً إلى الإخراج المدلولِ عليه بقوله ﴿سِرَاعٗاۚ﴾، ويحتمل أن يكون معناه: (ذلك الحشرُ حشرٌ يسير)؛ لأنَّ الحشرَ عُلِم مما تقدَّم من الألفاظ[3]، وفي التعبير باسم الإشارة الموضوعِ للبعيد تعظيمٌ للمشار إليه، وتفخيمٌ لشأنه، بإنزال ما فيه مِنْ بُعد معنويٍّ منزلةَ البُعد الحسّيِّ، والمعنى: (ذلك الإخراج العظيم جدًّا يسيرٌ علينا)[4].

نكتة تنكيرِ الخَبَر:

لا يحيطُ بحقيقة الحشر ولا يعرف صفاتِه على التَّحقيق أحدٌ إلّا الله

لفظ الحَشْر في قول اللّه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾ خبرٌ لاسم الإشارة، والحَشْرُ هو جَمعٌ مع سَوق[5]، فمعناه جَمعُ الأجزاء

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 442.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 333.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 157.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 442.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حشر).

بعضِها إلى بعض، وجمعُ الأرواح مع الأشباح، أي: يُجمَع بين كلِّ روح وجسدِها، وجمع الأمم المتفرِّقة، والرمم المتمزِّقة، والكلُّ واحدٌ في الجمع[1]، وأوثِر التعبيرُ به نكرةً منوَّنًا؛ لما يفيده التنكير والتنوين من التعظيم والتفخيم معنًى وجرسًا، فهو حشرٌ لا يحيط أحدٌ بِكُنهِه، ولا يَعرِف طريقةَ حصوله إلّا الله، الذي بيده الإحياءُ والإماتة.

دلالةُ تقديم ﴿عَلَيۡنَا﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرور على النَّعت في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾ لإفادة التخصيص، والمعنى: (هو حشرٌ علينا هيِّنٌ يسيرٌ، لا على غيرنا)، وفيه جوابٌ على قول المشركين أوَّلَ السورة: ﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ٣﴾ [ق: 3][2].

بلاغةُ النَّعتِ ﴿يَسِيرٞ﴾:

الحشرُ أمرٌ بالغُ السرعةِ، شديدُ السهولةِ على الله

وُصِف الحَشْرُ باليُسْرِ في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾، ويحتمل أن يكون خبرًا ثانيًا لاسم الإشارة، واختير التعبير به - دون (هيِّن) أو (سَهل) - لأنَّه يدلُّ بمعناه ووَزْنِه للمبالغة (فَعيل) على حصول الخروج والحشر بوجهٍ بالغٍ في السهولة والإسراع، ممّا لا يتحقَّق إذا جاء التعبير بغيره، وفي تنكيره دلالةٌ على أنَّ العبارةَ لا يُسعِفُها أن تَصِف يُسْرَه وشِدَّةَ سهولتِه.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التشقُّق والانفطار والتصدُّع:

الخروج مع التشقُّق يحصل بسهولة، ومع الانفطار يكون بصعوبة

الشَّقُّ: الصَّدْعُ البائنُ، ومعناه: صَدْعُ الشيءِ الشديدِ صدعًا نافذًا إلى عُمقِه[3]، والانفطارُ هو خروج الشيء أو نفاذُه أوَّلَ أمره، شاقًّا ما فوقه بضغط أو بما له معناه[4]، أمّا الصَّدْعُ؛ فهو الشقُّ الدَّقيقُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 157.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 157.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (شقق).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (فطر).

الذي يفصل الشَّيءَ الصُّلبَ أوِ الملتحمَ، ويخترقه[1]، ولمّا كان قصدُ الآية بيانَ الطريقة التي يحصل بها خروجُ الناس بيُسرٍ وطواعيةٍ من قبورهم للبعث والحشر والحساب؛ كان التعبيرُ بالفعل ﴿تَشَقَّقُ﴾ أنسبَ؛ لدلالته على اتِّساعِ الشَّقِّ ووصولِه إلى أبعدِ مدًى في باطنِ الأرض؛ ليَسهُلَ خروجُ الناس مِن أيِّ مستوًى كانوا فيه لِلقاء الله، بخلاف (الصدع) الذي يكون الشقُّ معه في الطبقة العليا من سطح الأرض، و(الانفطار) الذي يعني الخروجَ من الشقِّ بصعوبة.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (صدع).

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ٤٥﴾ [ق: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

توجيه الرَّسولِ والمسلمين إلى الانشغال بما هو أجدى من تكذيب الكافرين

بعدَ أن تحدَّثتِ السورةُ عن تمام قدرة اللّه وشمول علمه، وبيَّنت سهولةَ البعث والحشر عليه واختصاصَه به؛ ناسب أن تنتهيَ بتهديد الكافرين على تكذيبهم، بالعلم الذي هو أعظم التهديد، وأن تُختَم بتوجيه النبي ﷺ والمؤمنين معه إلى عدم الانشغال أو التأثُّرِ بأقوال المشركين، وتَأمُرَهم أن ينشغلوا بتذكير مَن يخافون يومَ الوعيد.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِجَبَّارٖۖ﴾: (جبر) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى جِنْسٍ مِنَ العَظَمَةِ والعُلُوِّ والاستِقامَةِ[1]، وأصل الجَبْر: إصلاح الشيء بضَربٍ من القهر، يقال: جَبَرْتُهُ فانْجَبَرَ واجْتَبَرَ، وقد يقال: الجَبْرُ تارةً في الإصلاح المجرَّد، وتارةً في القهر المجرَّد، والجبّار في صفة الإنسان يقال لمن يجبر نقيصتَه بادِّعاءِ منزلةٍ من التعالي لا يستحقُّها، وهذا لا يُقال إلّا على طريق الذَّمِّ، كقول اللّه ﷻ: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ١٥﴾ [إبراهيم: 15]، وقوله: ﴿وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢﴾ [مريم: 32]، ويقال للقاهرِ غيرِه أيضًا: جَبّار، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ﴾[2].

2) ﴿وَعِيدِ﴾: (وعد) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى تَرْجِيَةٍ بِقَوْلٍ، يُقالُ: وَعَدْتُه أَعِدُهُ وَعْدًا، ويَكونُ ذَلِكَ بِخَيْرٍ وشَرٍّ، فَأمّا الوَعيدُ؛ فَلا يَكونُ إلّا بِشَرٍّ، يَقولونَ: أَوْعَدْتُهُ بِكَذا[3]، قال تعالى: ﴿وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جبر).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (جبر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعد).

﴿يَتَّقُونَ﴾ [طه: 113]، والوعيد هنا معناه: ما حصل من الإيعاد والتهديد في الدُّنيا، ومنه ما جاء في سورة (ق)[1].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

فِقهُ الأولويّات ميزانٌ أصيل في دعوةِ النّاس

ختم الله السورةَ الكريمةَ بهذه الآية التي فيها تسليةٌ للرَّسول ﷺ وتحديدٌ دقيقٌ لوظيفتِه؛ إذ بيَّنت له أنَّ الله أعلمُ بما يقوله المشركون في شأنه وفي شأن دعوته، وسيَجزيهم على ذلك العقابَ الذي يستحقّونه؛ وأمَرَته بالصبرِ على أقوالهم، والانشغالِ بتبليغ رسالة ربِّه دون أنْ يخشى أحدًا سواه، وأعلمته أنَّه ليس بمُسَلَّطٍ عليهم؛ ليُجبِرَهم على اتِّباعه، ويَقهَرَهم على الدخول في الإسلام، وأنَّ وظيفتَه هي أنْ يذكِّرَ بالقرآنِ مَنْ يخشى عذابَ الله، ويخافُ وعيدَه.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصل الآية:

توضيح غايةِ الأمر بالصَّبر والتَّسبيح

جاءت جملة: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ﴾ مفصولةً عمّا قبلها لِشِبهِ كمال الاتِّصال، الذي تُجيب فيه الجملةُ المفصولة عن سؤالٍ أثاره الكلامُ السابق - لا سيَّما قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ - عن الغاية من الأمر بالصبر والتسبيح، فتأتي هذه الجملة؛ لتشير إلى أنَّ الله تعالى سيعاقِب أعداءَ النبيِّ على ما يقولون في حقِّه، وفي حقِّ النور الذي أنزل إليه[2]، ففُصلت عمّا قبلها كما يُفصل الجوابُ عن السؤال.

دلالة الافتتاح بضمير التعظيم:

بثُّ الطمأنينةِ في قلوب المؤمنين، وبثُّ الرعبِ في نفوس المشركين

افتتَحَت الآيةُ ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ﴾ تسليتَها للرسول والمؤمنين وتهديدَها للكافرين المنكِرين، بضمير العظمة العائدِ إلى ربِّ العالمين، الذي بيده الإحياء والإماتة؛ لِما للتعبير به من أثرٍ شديد في

---
(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 424.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 333.

بثِّ الطمأنينة في نفوس الرسول وأصحابِه، وبثِّ الفزَع والرُّعبِ في نفوس المشركين المنكِرين، ففيه تأكيد أنَّ اللّه تعالى سيتولى محاسَبةَ الكافرين ومجازاتهم على أقوالهم بنفسه، ولن يَكِلَ ذلك، أو يُفَوِّضَه لأحدٍ غيره، والمعنى: (اشتغل بما قلناه، ولا تَشغَلْك الشكوى، فإنّا نعلم قولَهم، ونَرى عملهم)[1].

نوع القصرِ وبلاغتُه:

ذِكرُ عِلمِ الله بما يقوله المنكِرون تهديدٌ لهم بأشدِّ العذاب

تقديمُ المسنَد إليه على الخبر، في قول اللّه تعالى: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ﴾ يفيد قصرَ فاضِليَّةِ العِلم بكلام المشركين والدوافع التي تقف وراء ما يقولونه - في حقِّ اللّه تعالى، وفي حقِّ رسوله ﷺ، وفي حقِّ القرآن - على اللّه تعالى وحدَه، لا يتعدّاه العلمُ بذلك إلى أحدٍ سواه، وهو قصر صفةٍ على موصوف، قصرًا حقيقيًّا، وهذا الأسلوب يزيد من تطمين الرسول، ويدعوه إلى عدم التأثُّر بكلامهم أوِ الانشغال بآثار إنكارهم؛ لأنَّ ما قالوه لا يَخرُج عن علم اللّه تعالى، وفيه تهديد للمشركين بأنَّهم إن أضمروا شيئًا، فإنَّ ما أضمروه لا يخفى على اللّه، وإن خفي على كلِّ أحدٍ سواه.

سِرُّ التَّعبير بصيغةِ التَّفضيل:

جميعُ الخَلق مسلوبٌ منهم العِلم على التَّحقيق

اسمُ التفضيل في قول اللّه تعالى ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ﴾ إمّا أن يكون مسلوبَ المفاضلة؛ لعدم وجود مَنْ لديه القدرة على أن يحيط بما يعلمه اللّه من دقائقِ أقوال المشركين، وأغراضِهم التي يُضمِرونها، أو المرادُ: (نحن أعلمُ بحقيقةِ قولهم)؛ إذْ يقولون: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ٣﴾ [ق: 3]، أي: (نحن نعلم الأجزاءَ التي يقولون فيها: إنَّها ضالَّة وخفيَّة)، فصيغة (أفعَل) هنا لا تقتضي الاشتراكَ في أصل الفعل، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ [الأحزاب:

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 157.

37]، وإمّا أن يكون معنى المفاضلة موجودًا فيه، ويكون المعنى: (نحن أعلم بما يقولون من كلِّ عالمٍ بما يعلمه)[1].

نوعُ الباءِ ودلالتُها:

علمُ اللهِ ملازمٌ لجميع ما يقوله الكفّارُ، وهم مع ذلك لا يتَّقون عذابَ النّار

الباء في قول الله تعالى: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ﴾ حرفُ جرٍّ يفيد الإلصاق، وفي التعبير به دلالةٌ على أنَّ علم الله تعالى غيرُ مُنفَكٍّ عن شيءٍ من الأشياء، ولا عن حدَثٍ من الأحداثِ على وجه العموم، ولا ينفكُّ عن أقوالِ الكافرين المنكِرين على وجه الخصوص، ففي استعمال الباء دليلٌ على إحاطة عِلمِ الله بدقائقِ المعلومات، كعلم المُصاحِب بصاحبه الذي لا يُفارِقه، كما في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٧﴾ [المجادلة: 7]، وفيه تهديدٌ واضِح لمن يُخفي ما لا يرضاه الله من الأقوال، فضلًا عمَّن يُجاهِر به.

دلالة (ما):

وعيدٌ مِنَ الله بالعذاب على قولِهمُ الأفّاك

(ما) في قول الله تعالى: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ﴾ تحتمل أن تكون موصولةً بمعنى (الذي)، أي: (نحن أعلم بالذي يقولونه)، وتحتمل أن تكون مصدريَّة، والتقدير: (نحن أعلم بقولِهم عن البعث، الذي حَكَته السورة في مَطلَعِها: ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ٣﴾ [ق: 2 - 3].

دلالةُ الفِعلِ ﴿يَقُولُونَۖ﴾:

علمُ الله محيطٌ بأقوال جميع النّاس في مُطلَق الزَّمان

جاء التَّعبير بصيغة المضارع في قول الله تعالى: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ﴾؛ للدلالة على إحاطة علم الله بما يتجدَّد مِنْ قول الكافرين عن البعث أو غيره في الحاضر والمستقبل[2]، وفي إسناد الفعل إلى

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 157، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 442.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 442.

ضمير الجمع دلالةٌ على شمول علم اللّه تعالى كلَّ ما يتجدَّد قولُهم له بلا استثناءٍ لأحد منهم، كائنًا من كان، ففي استعمال هذه الصّيغة تهديدٌ للمكذِّبين ورَدْعٌ لهم وتخويفُهم من متابعة تكذيبِهم.

دلالةُ العطف بين الجمل:

وظيفةُ الرَّسولِ تنحصر في البلاغ، والحسابُ على الله تعالى وحدَه

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ﴾؛ لعطف ما بعدها على قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ﴾، أوثِر عطفُه لإعلامِ الرَّسول ﷺ وتطمينِه أنَّه غيرُ مسؤول عن عدم اهتداء الكافرين، وأنَّ عمله معَهم ومعَ غيرهم يقتصر على الإنذار والتبليغ، وليس عليه أن يُجبِرَ أحدًا على الإيمان، أو يَضطَرَّه إليه، "فلمّا كان التقديرُ: (فنحن قادرون على ردِّهم عنه بما لنا من العلم المحيط، وأنتَ لهم منذرٌ تنذرهم وبالَ ذلك)، عطف عليه قولَه": ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ﴾[1]، فالعطف جَمَعَ بين معنَيَيِّ قصرِ العلم والحسابِ على اللّه تعالى، وقصرِ الإنذار على النبيِّ عليه السلام؛ لبيان حجم التَّكليف الإلهيِّ، وأنَّ له حدًّا، ونظيرُ الآية قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ٤٠﴾ [الرعد: 40].

سِرُّ إيثار (ما) النافية:

نفيُ إجبارِ المشركين وغيرِهم على الإيمان نفيًا عامًّا

(ما) في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ﴾ هي النافية العاملة عمل (ليس)، والتي تمتاز عن (ليس) بدخولها على الجملتين الفعليَّة والاسميَّة، بخلاف (ليس) التي تختَصُّ بالجملة الاسميَّة، والنفي بـ(ما) أنسب هنا؛ لأنَّها تدلُّ على نفي مسؤوليَّة النَّبيِّ عن عدم اهتداء المشركين، ونفيِ كونه جبّارًا متسَلِّطًا على أحد منهم أو من غيرِهم نفيًا عامًّا.

دلالة ضَميرِ الخِطاب:

ضميرُ الخطاب في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ﴾

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 442، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 333.

يُقصد به الرسولُ ﷺ، وفي تسليط النفي عليه مؤانَسةٌ للنبي، وتخفيفٌ عنه، وإذهابٌ لِما يعتمل في صدره؛ بسبب تكذيب الكفّار له، وإنكارِهم ما جاء به، وفيه كذلك تأكيدٌ لكونه غيرَ مَلوم؛ بسبب عدم إيمانهم بالبعث؛ لأنَّ عملَه الرئيسَ هو التذكيرُ والبلاغ، وليس الإجبارَ أو الإكراهَ على الدخول في دين اللّه تعالى، وتخصيص الخطابِ برسول اللّه ﷺ؛ ليكون قدوةً لأمَّته، وأسوةً لهم ليعرفوا ما عليهم من واجبات.

لِلدُّعاة واجباتٌ لا يتجاوزونها، وضابط ذلك الاقتداء بسيِّد الخلق

بلاغةُ حرف الاستعلاء:

الجارُّ والمجرور في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم﴾ متعلِّقٌ بقوله بعدَه: (جَبّارٍ)، والضمير فيه يرجع إلى المشركين، و(عَلَى) حرفُ جرٍّ يفيد الاستعلاء والغلَبة، والتعبير بحرف الاستعلاء فيه تأكيدٌ لعدم تسلُّطِه على الكافرين، وعدم قدرته على إكراههم ولا إجبارِهم على الدخول في الإسلام، وعلى الإيمانِ بما جاءهم به الرسول ﷺ، أي: (ما كان لك أن تُجبِرَهم - بأيِّ وسيلةٍ كانت - على الهداية، فإنَّ الهدايةَ للّه تعالى وحدَه، يهدي من يشاء من عباده لدينه.

ليس لأحدٍ القدرة على هدايةِ الخلق إلّا بمشيئة الله

غرَضُ تقديم ﴿عَلَيۡهِم﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرور على الخبر في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖ﴾؛ للاهتمام بنفي الاستعلاء، ولتأكيد نفي كون الرسول مُتَسَلِّطًا عليهم مُكْرِهًا لهم وتقويته، وهو ما يومئ إلى شِدَّة حِرصه عليه السلام على هدايتهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [الشعراء: 3].

دلالةُ الخبَر:

الباءُ الجارَّةُ ومجرورُها في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖ﴾ في محل نصب خبر (ما)، والباء فيه يفيد تأكيدَ نفيِ الخبر وتقويتَه؛ إذ لمّا أفاد حرفُ الاستعلاء القهرَ والغلبةَ؛ صرَّح به مؤكِّدًا

لا إكراهَ في الدّين، ولا إجبارَ على الإسلام

في النفي بالباء[1]، وجيء بالخبر نكرةً على وزن (فَعّال)؛ ليعمَّ النفيُ أيَّ قَدْرٍ من القهر أو الغلبة، فقليلُه وكثيرُه منفيٌّ نفيًا قاطعًا، قال تعالى نافيًا لجنسِ الإجبار: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: 256]، والمعنى: (ما أنتَ بمتكبِّرٍ قهّارٍ عاتٍ تردُّهم قهرًا عمّا تَكرَه منهم من الأقوال والأفعال، إنَّما أنت مُنذِر)[2].

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

إثباتُ الإنذار بعد نفي الإجبار

الفاء في قول اللّه تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾ هي فاء التفريع، الدّالَّةُ على أنَّ الأمرَ بالتذكير ناشئٌ عن نفي كون الرَّسولِ جبّارًا عليهم؛ إذ لمّا نَفَى عنه الجَبَروت؛ أثبتَ له ما أَفْهَمه العطفُ من النِّذارة[3].

غرض الأمر بالتذكير:

المُداوَمةُ على التَّذكير، ومؤانسةُ النبيِّ، ودعوتُه إلى عدم الحُزن

الأمر بالتذكير في قول اللّه تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ محمولٌ على أصله، وهو توجيهُ النبيِّ ﷺ إلى ما يجب عليه أن يُداوِمَ عليه، ويستمرَّ في القيام به، وألّا تَشغَلَه عنه الأقاويلُ ولا المؤامراتُ، وهو وعظ الناس وتذكيرهم بما زوَّده اللّه تعالى به في القرآن الكريم.

وفيه مؤانسةٌ للنبيِّ ﷺ، وتطييبٌ لخاطره، وحثٌّ له على مداومة العمل على الرَّغْم من عدم تجاوُب كثيرٍ من المخاطَبين مع ما يدعوهم إليه؛ لما فيه من إشارة إلى أنَّ ما يقوله يمكن أن يكون عُرضةً للتجاهل أو النسيان، وعرضةً كذلك للنَّبذِ وعدم الاهتمام، وفي الأمر بالتذكير الذي يكون عن نسيان إشارةٌ أيضًا إلى أنَّ كلَّ ما في القرآن من وعْظٍ إذا تأمَّله الإنسان؛ وجده شاهدًا في نفسه، أو فيما يعرفه من الآفاق[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 442.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 442.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 443.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 443.

نوع الباء ودلالتُها:

الباء في قول اللّه تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾ للمصاحبة، والمعنى: (لِتَكن دعوتُك للناس مصحوبةً بما ورد في القرآن من ذكرى وموعظة، أنزلها اللّه؛ لتكون عونًا لك على سبيل إبلاغ الرسالة، وأداء الأمانة).

بلاغة التَّعبيرِ بلَفظِ القُرآن:

التعريف في قول اللّه تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ للعهد؛ إذ يُراد به: (الوحيُ النازلُ على رسول اللّه ﷺ، الجامعُ بمجده لكلِّ خير، المُحيط بكلِّ صلاح)[1]، بما فيه من قوارِعَ وزواجرَ وعواصمَ وقواصم، وفي التعبير عنه بالقُرآنِ دون (الكتاب) أو (الوحي) دلالةٌ على أنَّ التذكير بما فيه عن طريق قراءته على الناس هو أسهلُ وسائلِ الذِّكرى، وأكثرُها انتشارًا، وأسرعُها تأثيرًا في القلوب والنفوس، وأنَّ قراءةَ القرآنِ هي الأصل الأصيل في الدَّعوة للّه ربِّ العالمين.

بلاغة التعبير بالفعل ﴿يَخَافُ﴾:

عبَّر البيان الكريم بفعل الخوف في قول اللّه تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾، في جملة الصِّلة التي توضِّح المقصودَ بمفعول التذكير؛ للدلالة على أنَّ الذين يخافون عذابَ اللّه هم الأولى بالموعظة والتذكير؛ لأنَّ خوفهم سيحملهم على الانتفاع بما يُتلى عليهم بمزيدٍ من الإيمان والعمل[2]، فالخوف من وعيد اللّه أصلُ كلِّ خير، بخلاف غيرهم ممَّن لا يخافون، فإنَّ إيمانَهم وانتفاعَهم أمرٌ مشكوكٌ فيه، ولم يذكُرِ الخشيةَ؛ لأنَّها المرحلة الأعلى من الخوف، فلا تكون إلّا بعد الإيمان.

دعوة الناس يجب أن تكون مصحوبةً بما ورد في القرآن من ذكرى وموعظة

قراءةُ القرآنِ هي الأسلوب الأنجَعُ، لاحتوائها التأمُّلَ والتدبُّر

الخوف هو المرحلة الأولى للإيمانِ، فمن حقَّقه؛ وقف على باب الهداية

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 443.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 333.

وعبَّر بفعل الخوف مضارعًا لما يدلُّ عليه مِن أنَّ خوفه المتجدِّدَ يُثير فيه الحماسة والرغبة إلى تلَقّي مزيدٍ من نور الوحي الواعظ المذكِّر؛ للاستضاءة به في دروب السَّير إلى الله، وهو ما يجعل مِثلَه حريًّا بالتعهُّدِ بالتوجيه والذِّكرى.

بلاغة التعبير بالمفعول ﴿وَعِيدِ﴾:

هو وعيد مَهولٌ لا يُحيط بكنهه إلّا الله

جيء في قول الله تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ بمفعول فعل الخوف نكرةً مضافًا إلى ضمير المتكلِّم المحذوفِ تخفيفًا؛ لِما يفيده التنكير والإضافة من تعظيم الوعيد وتهويله، وللدلالة على أنَّه وعيد لا يعلم حقيقته إلّا الله الذي توعَّد به المكذِّبين المنكِرين، بعد ما أقام عليهم الحجَّة، وساق لهم الأدلَّة والبراهين التي لا يملك معها العاقلُ إلّا الإيمان بالبعث وتصديق المنذِر به، فشأن هذا التَّعبير أن يزيد الرعب في نفوس المنكرين، ويُسَلّيَ المؤمنين بعدالة الله ربِّ العالمين، كما أنَّ الإضافة إلى ضمير المتكلِّم فيه إشارة إلى الوحدانية؛ فالمتكلِّم أعرف المعارف، وأبعَدُ عن الإشراك به، وقبولِ الاشتراك فيه(1).

بلاغة فن التَّصدير:

الافتتاح بالقرآن المجيد، والختم بالقرآن ذي الذِّكر

افتُتِحت السورة الكريمة بالقسَم بالقرآن، في قول الله تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١﴾ [ق: 1]، واختُتِمت بقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾، وفيه تأكيدٌ على أنَّ القرآن الذي أقسم الله تعالى به كتابٌ مجيدٌ، رفيعُ الشرف والأوصاف، كريمٌ بما فيه من مواعظَ وتذكرة، وأنَّ على مَنْ نُزِّل إليهم أن ينتفعوا به، ويتَّعظوا بما فيه؛ ليهتدوا في الدنيا، ويَسعدوا، وينعموا في الآخرة.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 158.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخوف والخشية:

الخوفُ يتعلَّق بالمكروه، والخشية تتعلَّق بمُنزِل المكروه

الخوفُ يتعلَّق بالمكروه وبترك المكروه، تقول: خفت زيدًا، كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: 50]، وتقول: خِفتُ المرض، كما قال تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرعد: 21]، والخشية تتعلَّق بمُنزِل المكروه، ولا يُسمّى الخوف من نفس المكروه خشية، ولهذا قال: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرعد: 21][1]، ولمّا كان قصد الآية أمرَ الرسول أن ينشغل بالتذكير بما في القرآن من مواعظَ وزواجرَ وحديثٍ عن وعيد الله وعذابه؛ ناسب التعبير بالفعل ﴿يَخَافُ﴾ الدالِّ على رغبتهم في تحاشي الوعيد والنجاة منه؛ لكونه مُخيفًا لا طاقةَ لهم به.

الوعيد والتَّهديد والإنذار:

تأثير الوعيد أقوى من التهديد والإنذار؛ لأنَّه مؤكَّدُ الوقوع بخلافهما

الوَعيدُ لا يَكونُ إلّا بِشَرّ، يَقولونَ: أَوْعَدْتُهُ بِكَذا، قال تعالى: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [طه: 113]، ومعناه: ما يقع من الإيعاد والتهديد في الدنيا، والتهديد: وعيد وتخويف يُقصد به إرعابُ الخصم حتى يتسيَّب، وينهار[2]، أمّا الإنْذار؛ فهو تخويفٌ مَعَ إعْلام بمَوضِع المخافة[3]، ولمّا كان البيان قاصدًا إلى أمر النبيِّ بتوجيه الذِّكرى إلى مَنْ يتأكَّد انتفاعه بها؛ ناسب تعديةُ فعل الخوف المضارِع إلى الوعيد لعموميَّته، ولأنَّ تأثيرَه أكبر من التهديد والإنذار، فوقوع التَّأثير بالوعيد أكثر توقُّعًا من (التهديد) الذي يمكن أن يكون غرضُ فاعلِه هو التهديد فقط، ومن (الإنذار) الذي يمكن أن يكون مجرَّدَ إعلامٍ بما يُخيف لا أكثر.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 241.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (هدد).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 242.

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

التَّعريف العامُّ بالسّورة

المكّيُّ والمدنيُّ:

سورة الذّاريات كلُّها مكّيَّةٌ بالاتّفاق[1]، قال ابن عاشور: "هي مكّيَّة بالاتِّفاق"[2].

سورة الذّاريات كلُّها مكّيَّة

ترتيب النُّزول وترتيب المصحف وعدُّ الآي:

هذه السّورة هي الواحدة والخمسون في التَّرتيب المصحفيِّ الشَّريف، وهو التَّرتيب الثّابت، والمُعوَّل عليه عند أهل النَّظر والتَّحقيق، وقد جاء ترتيبها بين سورتي (ق) و(الطّور)، وهيَ السّورَةُ السّادسة والسُّتّون في تَرْتيبِ نُزولِ السّوَرِ، نزلَت بَعدَ سورَة الأحقاف وقَبلَ سورَةِ الغاشية[3].

وأمّا عدد آياتها؛ فهي ستّون آية اتِّفاقًا[4].

التَّرتيبُ المصحفيُّ لسورة الذّاريات بين سورتي (ق) و(الطّور)

فضائل السّورة:

هذه السّورة الكريمة من سور المفصَّل الَّتي قال فيها النَّبيُّ ﷺ فيما رواه عنه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»[5].

سورة الذّاريات من سور المفصَّل الَّتي فُضِّلَ بها النَّبيُّ ﷺ

اسمُ السّورة وسبب تسميتها:

وردت تسميتُها بسورة "والذّاريات" في كتب السُّنَّة والتَّفسير،

سورةُ الذّاريات اشتهرت بهذا الاسم، ولا يُعرف لها أسماء أخرى

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 171.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 334.
(3) دروزة، التّفسير الحديث: 5/ 33، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 335.
(4) الداني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 232.
(5) أخرجه أحمد في المسند، رقم: (16982)، والطبراني في المعجم الكبير، رقم: (187)، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم: (2192).

فقد ذكر البخاريُّ والتِّرمذيُّ تسميتَها بذلك[1]، قال ابن عاشور: "تسمَّى هذه السّورة (والذّارياتِ) بإثباتِ الواوِ تسميَةً لها بحكايَةِ الكلمَتَينِ الواقعتينِ في أوَّلها... وتُسمَّى أيضًا (سورَةُ الذّارياتِ) بدونِ الواوِ"[2]، وقد ذكر كثيرٌ من أهل العلم أنَّ تسميتَها بذلك إنَّما كان لورود هذه اللَّفظة في مطلعها، والحقُّ أنَّ التَّعليل بهذا السَّبب والاقتصار عليه ليس دقيقًا، فكم من سورة قد انفردت بلفظةٍ خاصَّةٍ، ولم تُسمَّ بها، وكم من سورة قد تكرَّرت فيها لفظةٌ ما، ولم تُسمَّ بها أيضًا، على أنَّه يُمكِنُ الجواب عَن هذا بأن يُقال: إنَّ القاعدةَ المتقرِّرة عند العلماء: أنَّ علَّةَ التَّسميةِ لا توجِبُ التَّسميةَ.

ويجوزُ الرَّبط بين اسمِها ومقصودها في "الدَّلالة على صِدق ما أنذرت به سورة (ق) تصريحًا، وبشَّرت به تلويحًا، ولا سيَّما من مصائب الدُّنيا، وعذاب الآخرة، واسمها "الذّاريات" ظاهرٌ في ذلك، بملاحظة جوابِ القسم، فإنَّه - لشدَّة الارتباط - بمنزلةِ الآية الواحدة، وللتَّعبير عن الرّياح بالذّاريات أتمُّ إشارة إلى ذلك، فإنَّ تكذيبَهُم بالوعيد؛ لكونهم لا يشعرون بشيء من أسبابه، وإن كانت موجودة معهم، كما أنَّه يأتي من السَّحاب الرَّحمة والنِّقمة، والرّيح من شأنها الذَّرُّ، وهو التَّفريق، فإذا أراد الله؛ جمعت، فكان ما أراد، فإنَّها تفرِّق الأبخرة، فإذا أراد سبحانه جمعتها؛ فحمَّلها سبحانه ما أوجد فيها، فأوقرها به، فأجراها إجراءً سهلًا، فقسَّم منها ما أراد، تارة برقًا، وأخرى رعدًا، فتكون مرَّة سرورًا ورضوانًا، وأخرى غمومًا وأحزانًا، وغبنًا وخسرانًا"[3].

فهذه السّورة قام محورها على تحقيق البشرى للمؤمنين بنصرة هذا الدّين وتمكينه، ووعيد الكافرين وتحقيقه، وأكَّدت على تولّي الله تعالى للأرزاق والآجال، وتغيير قانون الأسباب الَّذي وضعه ﷻ بناموسه، ويغيِّره بناموسه وفق مشيئته وإرادته، فالتَّدبير له وحده سبحانه في هذا الكون؛ لذا فإنَّ تسميتها بهذا الاسم الَّذي يحمل في طيّاته معاني التَّفرقة والتَّجزئة، متبوعًا بالإشارة إلى النِّعم المتحقِّقة من ذلك التَّفريق والجمع، ومن تقسيم الأمور وغيرها، فكلُّ ذلك مرتبطٌ بمِحْورها في تولّي الله تعالى لسائر الأحوال الخاصَّة بنصرة دينه وتحقيق وعده ووعيده.

(1) البخاري، صحيح البخاري، باب تفسير سورة الذاريات: 4/ 1837، والترمذي، جامع التّرمذيّ، بابٌ: ومِن سورةِ الذّارياتِ: 5/ 391.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 335.
(3) البقاعي، مصاعد النّظر: 3/ 24 - 25.

المحورُ العام للسّورة:

محورُ السّورة يقوم على إثبات الإيمان بالبعث واليوم الآخر

إنَّ محورَ السّورة يقوم على تبشير المؤمنين بأنَّ وعد الله تعالى مُحقَّقٌ لنصرة دينه لا محالة، وأنَّه هو الَّذي يتولّى نصرة المتَّقين إن أخذوا بأسباب ذلك؛ فالتزموا بشعائر دينهم الرّوحيَّة والعقليَّة والماليَّة والبدنيَّةِ حتّى يكونوا من المحسنين، وأنَّ وعيده بحقِّ المكذِّبين مُحقَّقٌ أيضًا لا محالة[1].

وقد ظهر هذا المحور جليًّا من خلال ما يأتي:

أوّلاً: تَكرار القسم في السّورة الكريمة بدْءًا من الآيات الأولى فيها، سواءٌ أكان القسمُ فيها متعلِّقًا بالملائكة، أو بأحوال الرّياح، إلّا أنَّ هذه الأمور المُقسم بها وجواب القسم بها تتَّفق جميعًا على أنَّ اللّه تعالى قد تكفَّل بتدبير أمور العباد وعلى نصرة دينه، ثمَّ في تبشير المؤمنين بعد ذلك بهلاك الخرّاصين المُشكِّكين بوقوع يوم الدّين.

ثانيًا: بيان أسباب فلاح المتَّقين وعاقبة أمرهم، وفي أسباب الكفر وعاقبة أمره.

ثالثًا: اقتضى هذا المحور أن يعرض لبعض آيات الله تعالى في الأنفس والآفاق في أثنائها بما يدلِّل على كمال قدرته في تحقيق إرادته.

رابعًا: يُقرِّر هذا المحور للمتَّقين وغيرهم أنَّ الأرزاق والآجال بيد صاحبها الَّذي يتولّاها، فلا يعبؤوا بها، وما عليهم سوى أن يؤدّوا مهمَّتهم في دعوة غيرهم[2].

موضوعات السّورة ومقاصدُها:

مَدارُ السّورةِ يتركَّزُ حولَ تحقيق وعد الله بنصرة دينه

إنَّ موضوع السّورة العامَّ هو إنذار المشركين بعذابي الدُّنيا والآخرة، وقد أخذوا في هذه السّورة بالدَّليل مرَّة، ومرَّة بالتَّرهيب،

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 6/ 27.
(2) عبد المتعال الصعيدي، النظم الفني في القرآن، ص: 294.

كما أخذوا بذلك في السّورة السّابقة، ولهذا جمع بينهما في الذِّكر، وجاء ترتيب هذه السّورة بعد سابقتها.

الخصائص الموضوعيّة لسورة الذّاريات:

وجاءت موضوعاتها مقسَّمة، كما يأتي:

أوّلاً: افتُتحت هذه السّورة ببيان أدلَّةِ البعث ووقوع المعاد من عجائب الكون، بالقَسَم على وقوعه على وجهِ القَطْعِ والحَتم؛ وذلك بأربعة أمور، وهي الرّياح الَّتي تحرِّكُ الأشياءَ، والسُّحب الَّتي تحمل الأمطار، والسُّفن الَّتي تجري بيُسْرٍ في البحار والأنهار الكبرى، والملائكة الَّتي تقسِّم المقدَّرات الرَّبّانيَّة، وتدبِّر أمر الخلق بإذن اللّه تعالى.

تميَّزت سورة الذّاريات بخصائصَ موضوعيَّةٍ أفردتها عن غيرها من السّور

ثانيًا: ذكرتِ السّورةُ أحوال كفّار مكَّة وغيرهم الَّذين كذَّبوا بالقرآن وبالآخرة وما يلقونه من العذاب الشَّديد في نار جهنَّم، كما ذكرت أحوال المؤمنين المتَّقين وما أُعدَّ لهم من جنّات ونعيم في اليوم الآخر؛ ليُدْرِك العاقل الفرق بينهما، ويقترن التَّرهيب بالتَّرغيب للعظة والعبرة.

ثالثًا: أشارت الآياتُ إلى أدلَّة القدرة الإلهيَّة والوحدانيَّة في الأرض والسَّماء والأنفس، وضمان الأرزاق للعباد، وأوردت أخبارَ الأمم السّالفة الَّتي كذَّبت رُسُلَها، فكان مصيرُهم الدَّمارَ والهلاك، وهم قومُ إبراهيمَ ولوطٍ وموسى وعادٍ وثمودَ، وقومُ نوح، وكان في الحديث عن قصص هؤلاء الرُّسل مع أقوامهم تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ عمّا يلقاه من أذى قومه.

رابعًا: خُتِمت السّورة ببيان الهدف من خلق الجنِّ والإنس، وهو معرفة اللّه تعالى وعبادته والإخلاص له، وأخبرت بكفالة الرِّزق لكلِّ مخلوق، وأوعدت الكفّار والمشركين الظّالمي أنفسهم بعذاب شديد يوم القيامة، وهدَّدتهم بعذاب في الدُّنيا مماثل لعذاب أمثالهم ونظرائهم من المكذِّبين السّابقين(1).

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 6/ 27.

تميَّزت سورة الذّاريات بأنساق تعبيريَّة وأساليب وألفاظ فريدة

الخصائص الأسلوبيَّة لسورة الذّاريات:

أوّلاً: تميَّزت السّورة الكريمة بقِصَر آياتها وتقارُب فواصلها، وبأنَّ أغلب فواصلها اختُتمت بحرف النّون، فقد ذُيِّلت اثنتانِ وأربعون (42) فاصلةً منها بحرف النّون، وتسعُ (9) فواصلَ بحرف الميم، ممّا أعطاها إيقاعًا خاصًّا بها، وجرسًا صوتيًّا عذبًا، ولا سيَّما مع تذييل معظم آياتها بالمدِّ العارضِ للسُّكون.

ثانيًا: تميَّزت السّورة الكريمة بكثرة أسلوب القسَمِ فيها، فقد استُهلَّت بأسلوب القسم.

ثالثًا: تميَّزت السّورة الكريمة كذلك بتزاحم الصِّفات المشتقَّة فيها، ولا سيَّما اسم الفاعل واسم المفعول، والشّواهد في ذلك أكثر من أن تُعدَّ، وكذلك تزاحمت فيها الأفعال المضارعة المبنيَّة للفاعل أو المفعول بوجهٍ لافتٍ للنَّظر، ممّا يؤكِّد خصوصيَّة أنماطِها وأساليبها وسبائكها التَّعبيريَّة.

رابعًا: امتازتِ السّورة الكريمة بأنَّها كانت زاخرة بأنساق تعبيريَّة خاصَّة بها، حتّى كأنَّ كلَّ تراكيبها كانت كذلك، ممّا يؤكِّد أنَّ لهذه السّورة نظمًا خاصًّا بها، وهي بهذا تشبه السّور اللّاتي سبقنَها بخصوصيَّة تركيباتها وأنساقها التَّعبيريَّة، ومنها على سبيل التَّمثيل لا الحصر: آيات القسم في مطلعها.

خامسًا: تميَّزت السّورة الكريمة أيضًا بأنَّها حوت أبنيةً صرفيَّة لم تأتِ مجموعةً في غيرها من السّور، مثل: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾، ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ﴾، ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ﴾، ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ﴾، ﴿وِقۡرٗا﴾، ﴿ٱلۡخَرَّٰصُونَ ١٠﴾ [الذاريات: 10]، ﴿ءَاخِذِينَ﴾ [الذاريات: 16]، ﴿سَمِينٖ ٢٦﴾ [الذاريات: 26]، ﴿صَرَّةٖ﴾ [الذاريات: 29]، ﴿ٱلۡمَٰهِدُونَ ٤٨﴾ [الذاريات: 48]، ﴿ذَنُوبٗا﴾ [الذاريات: 59]، وغيرها.

سادسًا: تميَّزت السّورة الكريمة بأنَّها حوت ألفاظًا فريدة في مادَّتها وبنائها الصَّرفيِّ، وهي: ﴿ٱلۡحُبُكِ ٧﴾ [الذاريات: 7]، ﴿يَهۡجَعُونَ ١٧﴾ [الذاريات: 17]، ﴿فَصَكَّتۡ﴾ [الذاريات: 29].

مناسبةُ سورة الذّاريات لما قبلها:

سورةُ الذّاريات متّصلة اتِّصالًا وثيقًا بسورة (ق) مضمونًا وأسلوبًا

وجهُ ارتباط سورة الذّاريات بسورة (ق): أنَّ سورة (ق) "لمّا خُتِمت بذِكر البعث، واشتملت على ذِكْر الجزاء والجنَّة والنّار وغير ذلك؛ افتُتحت هذه بالإقسام على أنَّ ما وُعِدوا من ذلك لصادقٌ، وأنَّ الجزاء لواقع، وأنَّه قد ذُكِر هناك إهلاكُ كثير من القرون على وجه الإجمال، وذُكِرَ هنا إهلاكُ بعضهم على سبيل التَّفصيل إلى غير ذلك ممّا يظهر للمتأمِّل"(1).

ومن أوجه التَّناسُبِ أيضًا: أنَّ اللّه تعالى لمّا ذكر المواعدَ الأُخْراويَّة في سورة (ق) وعظيم تلك الأحوال من لدن قوله: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [ق: 19] إلى آخر السّورة؛ أتبع سبحانه ذلك بالقسَم على صحَّة وقوعه وصِدقه، فقال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾، إلى قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ﴾، والدّين: الجزاء، أي: إنَّهم سَيُجازون على ما كان منهم، ويوفون قسطَ أعمالهم: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ [إبراهيم: 42]، ﴿إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ﴾ [آل عمران: 178]، ولمّا أقسم تعالى على صِدقِ وعده ووقوع الجزاء؛ أعقب ذلك بتكذيبهم بالجزاء وازدرائهم، فقال: ﴿يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٢﴾ [الذاريات: 12](2).

والحقُّ أنَّ سورة الذّاريات متمِّمة لما تقدَّمها في سورة (ق)، بل لا يصلح أن يتقدَّم هذه السّورة سوى تلك، فكلاهما قائمٌ على إثبات النُّبوَّة وردِّ الشُّبهات حولها وحول البعث، وكلاهما عرضَ للأدلَّة الكونيَّة على إقامة الحجَّة على إمكانيَّة البعث، ولكنَّ هذه السّورة عرضت مزيدًا من التَّفصيلات لِما لَحِقَ الأقوام السّابقة المكذِّبة، وجاءت تحمل في طيّاتها المبشِّرات للمؤمنين.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 3.

(2) ابن الزبير الغرناطي، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 315.

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ٦﴾ [الذاريات: 1 - 6]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

القرآن الكريم متحقِّقٌ ما أخبرَ عنه، واقعٌ ما وعدَ به

لمّا تقدَّم في أواخر سورة (ق) ذِكرُ اليوم الآخر في قوله سُبحانَهُ: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ٤١﴾، وبيانُ الحَشْر بأدلَّته في قوله: ﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ٤٤﴾، وبيانُ أنَّه ﷺ لا يُجْبِرُهُم، ولا يُلْجِئُهم إلى الإيمان في قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ﴾، إشارة إلى إصرارهم على الكفر بعد إقامةِ البرهان وتلاوة القرآن عليهم، فلم يبقَ إلّا اليمينُ، فأقسَم هنا في أوَّل الذّاريات بصنوفٍ من عظائم مخلوقاته - الدّالَّة على عظيم قُدْرَتِه - على تحقُّقِ ذلك البعثِ والنَّشر والحساب، وحصول المُجازاةِ، ووُقوع المداينة فيه لكلِّ مكذِّب(1).

ثمَّ إنَّ سورة (ق) لمّا خُتِمت آيتُها الأخيرة بجملة: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ٤٥﴾؛ أقسم في سورة الذّاريات بصنوف من عظائم مخلوقاته بصدق القرآن في إخباره، وأنَّ ما جاء به من وعيد متحقِّقٍ واقع، قال البقاعيُّ: "لمّا ختَمَ سبحانه (ق) بالتَّذكير بالوعيد؛ افْتَتَحَ هذه بالقسَم البالغ على صِدْقِه، فقال مناسبًا بين القَسَمِ والمُقْسَم عليه: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾"(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾: (ذرو) أصلٌ يدُلُّ على تَساقُطِ الشَّيءِ مُتفَرِّقًا،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 159.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 7/ 270.

يُقالُ: ذَرا نابُ الجَمَلِ؛ إذا انكسَرَ حَدُّهُ[1]، ومن الباب: ذَرَتِ الرّيحُ التُّرابَ وغيرَه ذَرْوًا وأَذْرَته: أطارَته، وأذهبَتْهُ، وقيلَ: حَمَلَته، فأثارَته، وأَذْرَته؛ إذا ذَرَتِ التُّرابَ، وقَد ذَرا هوَ نفسُه[2]، والذَّرا والذَّراوَةُ: ما ذَرا من الشَّيء، والذُّراوَة: ما سقط من الطَّعام عند التَّذَرّي، وخَصَّ اللَّحيانيُّ به الحنطة، قال حميد ابن ثور الهلالي:

وَعاد خُبّازٌ يُسَقّيه النَّدَى *** ذُراوَةً تَنْسِجُهُ الهوجُ الدُّرَّجُ[3]

والمُرادُ بالذّارياتِ هنا: الرّياح الَّتي تذرو الشَّيءَ، أي: تَسوقُه، وتحرِّكه، وتنقلُه من مكانه[4].

2) ﴿فَٱلۡحَـٰمِلَـٰتِ﴾: (حمل) أصلٌ يدُلُّ على إقلالِ الشَّيءِ، يُقالُ: حَمَلْتُ الشَّيءَ أَحْمِلُهُ حَملًا[5]، والحَملُ: ما كانَ في بَطْنٍ أو على رأس شجرةٍ، وجمعُه أَحْمالٌ، والحِملُ ما كانَ على ظَهْرٍ أو على رأسٍ[6]، وخُصَّ الضَّأْن الصَّغير بالحَمَلِ بذلك؛ لكونه محمولًا لعجزه، أو لِقُربه من حَمل أُمِّه إيّاه، وجمعه أحمال وحُملان، وبها شُبِّه السَّحاب، فقال تعالى: ﴿فَٱلۡحَـٰمِلَـٰتِ وِقۡرࣰا﴾، والحَميل: السَّحابُ الكثير الماءِ؛ لكونه حاملًا للماءِ، والحَميل أيَضًا: ما يحمله السَّيلُ[7]، والحاملات في الآية: السَّحابُ الَّذي يَحمِلُ ثِقلًا مِنَ الماءِ[8].

3) ﴿وِقۡرࣰا﴾: (وقر) أصلٌ يدلُّ على ثِقَلٍ في الشَّيءِ، يُقالُ: وقَرَ الشَّيءُ يَقِرُ وقْرًا، أي: ثَقُلَ[9]، ومنه الوَقْر، وهو الثِّقَلُ في الأُذُن، والوِقْرُ: الثِّقل يُحمَل على رأسٍ أو على ظهرٍ، قال اللّٰه تعالى: ﴿فَٱلۡحَـٰمِلَـٰتِ وِقۡرࣰا﴾، والمرادُ: السَّحابُ تَحمِل الماءَ الَّذي أوقَرها[10]، ويُقالُ: هذه امرأةٌ موقَرَةٌ، وموقِرَةٌ؛ إذا حملت حملًا ثقيلًا، وقد وقَرَ الرَّجُلُ من الوَقار، فهو وقورٌ[11]، والوِقْرُ في الآية مراد به: الماءُ، وقد شُبِّه بالشَّيءِ الثَّقيلِ؛ لأنَّ من شأنِ الشَّيءِ الثَّقيلِ أن يَحمله الحاملُ[12].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذرو).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ذرا).
(3) البيت من الرجز، وهو في ديوانه، ص: 63، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (ذرو).
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 9.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حمل).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حمل).
(7) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: 2/ 502.
(8) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 425، وابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 171.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقر).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة: (وقر).
(11) ابن السكيت، إصلاح المنطق، ص: 12.
(12) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 338.

4) ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ﴾: (جري) أصلٌ يدلُّ على انسياح الشَّيء، يُقالُ: جَرى الماءُ يجري جَرْيَةً وجَرْيًا وجَرَيانًا[1]. فالجَرْيُ حقيقَتُه: "السَّير السَّريع، وهو لذواتِ الأرْجُلِ، وأُطلِقَ مَجازًا على تنقُّلِ الجسم من مكانٍ إلى مكانٍ تنقُّلًا سريعًا بالنِّسبةِ لتنقُّلِ أمثالِ ذلك الجِسْم"[2]، ونقل الأزهريُّ عن اللَّيْث أنَّ "الخَيل تَجْري، والرّياح تجْري، والشَّمس تجْري جَرْيًا، إلّا الماء، فإنَّهُ يَجْري جِرْيَةً، والجِراءُ: للخيل خاصَّة"[3]، والمراد بـ ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾ في الآية: الرّياحُ تَجْري بالسَّحابِ بَعْدَ تَراكُمِه، وقد صارَ ثقيلًا بماء المَطرِ[4]، ويجوزُ أن يُحْمَلَ على كلِّ ما يَجْري، فيدخُلَ فيه الكواكبُ السَّيّاراتُ وغيرُها.

5) ﴿يُسۡرٗا﴾: (يسر) أصلٌ يَدُلُّ على انفِتاح شَيءٍ وخفَّتِه، فاليُسْرُ ضدُّ العُسْرِ، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: 185]، وقال سُبحانَه: ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ۝٧﴾ [الطلاق: 7]، وقال ﷻ: ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾، وتَيَسَّرَ كذا، واستَيسَرَ، أي: تسهَّل، قال سُبحانَهُ: ﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ﴾ [البقرة: 196]، وقال: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ [المزمل: 20]، أي: تسهَّل، وتهيَّأ، واليُسْرَى: السَّهل، وقوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: 7][5]، أي: فسَنُهَيِّئُه للخَلَّة الَّتي تُؤَدّي إلى يُسْرٍ وراحَةٍ، كدخولِ الجنَّة[6]، ومعنى اليُسْرِ هنا: اللّينُ والهَوْنُ، أي: الجاريات جَرْيًا ليِّنًا هيِّنًا شأنَ السَّيْرِ بالثِّقَلِ، كما قال الأعشى:

كأنَّ مِشْيَتَها مِنْ بَيْتِ جارَتِها *** مَوْرُ السَّحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ[7]

6) ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ﴾: (قسم) أصلٌ يدُلُّ على تجزئةِ شَيءٍ[8]، مَصْدَرُ قَسَمَهُ يَقْسِمُهُ قَسْمًا، وقَسَّمَهُ تَقْسيمًا: جَزَّأَهُ، فانْقَسَمَ[9]، القِسْم والمِقْسَم والقَسيم: نَصيبُ الإنسان مِنَ الشَّيءِ، يُقالُ: قَسَمتُ الشَّيءَ بَيْنَ الشُّرَكاءِ، وأعطيتُ كُلَّ شَريكٍ مِقْسَمه وقِسْمه وقَسيمه،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: 1/ 448.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 19.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (جري).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 338.
(5) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (يسر).
(6) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (يسر).
(7) البيت يروى: مور السحابة، ومر السحابة، وهو من البسيط، ينظر: ديوان الأعشى، ص: 105، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 338.
(8) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (يسر).
(9) الزبيدي، تاج العروس: (قسم).

والقَسَمُ: الغَيْثُ والمَطَرُ، واسقِني قَسَمًا، أي: ماءً[1]، والمُقَسِّمات: الملائِكةُ الَّتي تُقَسِّمُ أمرَ اللّه في خَلْقِه[2]، أو هي الرّياحُ الَّتي تنتهي بالسَّحابِ إلى المَوضعِ، الَّذي يَبلُغُ عندهُ نُزولُ ما في السَّحابِ من الماءِ، أو هي السُّحُبُ الَّتي تُنزِلُ ما فيها مِنَ المَطَرِ على مَواضِعَ مُختلِفةٍ[3]، وهو الأوفق للسّياق.

7) ﴿أَمۡرًا﴾: (أمر) أصلُ ضِدُّ النَّهي[4]، والأمرُ: الشَّأنُ، وجمعه أُمور، ومصدر أمرته؛ إذا كلَّفته أن يفعل شيئًا، وهو لفظ عامٌّ للأفعال والأقوال كلِّها، والأمرُ أيضًا: التَّقدُّم بالشَّيء، سواءٌ أكان ذلك بقولهم: افعل، وليَفعَلْ، أم كان ذلك بلفظِ خبرٍ، نحو: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ [البقرة: 228]، أم كان بإشارة أم غير ذلك[5]، ومِن هذا الباب: الإمرَةُ والإمارَةُ، وصاحِبُها: أميرٌ ومُؤَمَّرٌ[6]، والأمر في قول اللّه تعالى: ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ مفعولٌ به للوصف الَّذي هو المُقسِّمات، وهو مُفرد أريد به الجمع، أي: المقسِّمات لما تحملُهُ بِأمر اللّه تعالى وإرادته[7].

8) ﴿لَصَادِقٞ﴾: (صدق) أصلٌ يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ قَولًا كان أو غيره، ومنه: الصِّدْقُ، سُمّيَ به؛ لِقوَّته في نَفْسِه، ولأنَّ الكَذِبَ لا قوَّة له[8]، وحقيقته: اعتِبارُ الكلامِ صحيحًا لا كَذِبَ فيه، فهو نَقيضُه[9]، يُقال: صَدَّقْتُ فلانًا، أي: نسبته إلى الصِّدق، وأصدَقْتُهُ: وجدته صادقًا[10]، والصّادق والصَّدوق واحِد، وهو الَّذي لا يكذب، يُقال: هذا مِصْداق الأمر، أي: حَقيقَته[11]، وصدَقَت النُّبوءةُ: تحقَّقت، وثبتَت، والصِّدق في الوعد والوعيد: إنفاذُهُ[12]، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [الفتح: 27]، والإخبار في قول اللّه تعالى:

(1) ابن عباد، المحيط في اللغة: (قسم).
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 426، وابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 171، والزبيدي، تاج العروس: (قسم).
(3) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (يسر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمر).
(5) الراغب، المفردات: (أمر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمر).
(7) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 10.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (صدق).
(10) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (صدق).
(11) ابن دريد، جمهرة اللغة: (صدق).
(12) ابن القطاع، كتاب الأفعال: 2/ 236.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ عن وعيدهم بأنَّه ﴿لَصَادِقٌ﴾، معناهُ: محقَّق منفَّذ غيرُ مخلوفٍ، والمُرادُ: إثباتُ البَعْثِ الَّذي أنكروه[1].

9) ﴿ٱلدِّينَ﴾: (دين) أصلٌ تدلُّ تصريفاتُه على جِنْسٍ مِنَ الانقيادِ والذُّلِّ، فالدّينُ: الطّاعَةُ، يُقالُ: دانَ له يَدينُ دينًا؛ إذا أصحَبَ، وانقادَ، وطاعَ، وقَوْمٌ دينٌ، أي: مُطيعونَ مُنقادونَ[2]، والدّينُ يُقالُ للطّاعة والجزاء والمُكافأة، ودِنْتُه بفعلِه دَيْنًا: جَزَيته[3]، والدَّيّانُ: المُجازي، ويُقالُ: كما تَدينُ تُدان، أي: كَما تَجْزي تُجْزَى، وقال ﷻ: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ٨٦﴾ [الواقِعَة: 86]، أي: غير مجْزيّينَ، واستُعير للشَّريعة، والدّينُ كالمِلَّة، لكنَّه يُقال اعتبارًا بالطّاعة والانقياد للشَّريعة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: 19][4]، والدّينُ في قولِ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ مُرادٌ به الجَزاء، أي: إنَّ الجَزاء بالأعمالِ والقِصاصَ لحاصِلٌ، والمداينةَ محقَّقةٌ.

10) ﴿لَوَٰقِعٌ﴾: (وقع) أصلٌ يدلُّ على سُقوطِ شيءٍ[5]، ويُقالُ: سمعت وقْع المطر، وهو شِدَّة ضَرْبه الأرضَ؛ إذا وبَلَ[6]، والوُقوع: مصدر وقَعَ الشَّيءُ يَقَعُ وُقوعًا، أي: هويًّا، والوَقْعُ: وقْعةُ الضَّرْبِ بالشَّيءِ، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾، أي: واجبٌ على الكفّار، ومنه قوله تعالى: ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ [النمل: 82]، أي: وجب، وثَبَتَت الحُجَّة عليهم[7]، فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾، أي: حاصِلٌ حقيقةً[8].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبين هذه الآياتِ قُدْرَةَ الله وعَظَمَتَه، وذلك بأقسام عظيمة، فهو سُبحانَهُ يُقْسِمُ بالرّياح الَّتي تُثيرُ التُّراب، وتَذروهُ ذرْوًا، وبالسُّحُب الَّتي تحمل ثِقْلًا عظيمًا مِنَ الماءِ، وبالرّياحِ تَجْري بالسَّحابِ بَعْدَ تَراكُمه، وقد صارَ ثقيلًا بماء المَطرِ أو بالسُّفُنِ، الَّتي تجري في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 340.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دين).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (دين).
(4) الراغب، المفردات: (دين).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقع).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وقع).
(7) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: (بصيرة في وقع).
(8) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (صدق).

البحرِ بسُهولَةٍ ويُسر، وتحمِلُ النّاس، وتَنْقُل المحاصيلَ بين الأقطار، وأقسَمَ بالمَلائكةِ الَّذين يُقَسِّمون أمر اللّه تَعالى بينَ خلقهِ حسب ما يشاءُ، أقسَمَ بذلكَ كُلّه على أنَّ ما يوعَدُ به النّاسُ مِن البعثِ والنُّشور والحِسابِ لحقٌّ صادِقٌ لا مرية فيه، وإنَّ الدّين وهوَ الحسابُ والجزاء على الأعمالِ - لا محالة - واقعٌ لا بُدَّ منهُ[1].

مِن رحمة الله تعالى أن يلفت عبادَه إلى صِدق الوعدِ بالمجازاة

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ واو القسَم[2] المؤذن بأهمّيَّة المقسَم به وخطورة المقسَم عليه معًا؛ وممّا يزيد ذاك وذلك أهمّيَّةً وخطورةً أنَّ المُقسِم هو اللّه العزيز القهّار ﷻ، فاجتمَعَت أسبابُ التَّنبيهِ إلى جلال المَقام.

قَسَمُ الله تعالى تنبيهٌ إلى خطورة الأمر المقسَم عليهِ

غرضُ القسَم في قوله: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾:

في قسَم اللّه تعالى بالرّياحِ وما ذُكر مَعها بيانٌ "لِكثرة ما فيها من المَنافع، والمشاهد الواقعة بين النّاس؛ بحيث لا ينكرُها أحدٌ، ولِما تتضمَّنه من الدَّلالة على وحدانيَّة اللّه تعالى وتَناهي قُدرته، وبدائع صَنْعَتِه"[3].

قَسَمُ الله تعالى بمخلوق تنبيهٌ لِما فيه من منافعَ، ودليلٌ على وحدانيَّته وقُدرته وبديع صَنْعَتِه

وهذا القسَم "في المعنى قسَمٌ بقدرته وحكمته، ومتضمِّنٌ تشريفَ تلك المخلوقات بما في أحوالها مِن نِعَم، ودلالة على الهُدى والصَّلاح، وفي ضِمنِ ذلك تذكيرٌ بنعمة اللّه فيما أوجَد فيها"[4]، وفيهِ "دلالةٌ على الاعتبار فيها حتّى يصير النّاظر فيها إلى توحيدِ اللّه تعالى"[5]، فـ "القادر على تأليفِ السَّحاب المتفرِّق بالرّياح الذّارية والمرسَلة؛

---

(1) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 520.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 159.
(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1088.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 336.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 171.

قادرٌ على تأليف الأجزاء المتفرِّقة بطريقٍ من الطُّرق الَّتي يختارها بمشيئتِه تعالى"(1).

معنى (أل) في ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾، ودلالةُ جَمعِها:

في الرِّياح منافِعُ عظيمةٌ للعبادِ

(أل) في ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ لتعريف العهد؛ إذْ هذا الوصفُ أخصُّ بالرِّياح، وفي تعريف وصفها (الذاريات) دلالة على كمالها وقوَّتها، وأنَّها الذّاريات الكاملة في خصائصِها، العظيمَةُ في منافِعها.

ومجرَّد قسَم الله تعالى بها لافتٌ وداعٍ إلى النَّظر في آثارها في حياة العباد، ناطقٌ بعظمة منافعها، الَّتي أودعها الله تعالى فيها، وساقها بها، ففي "الرِّياح معتَبَرٌ من شدَّتها حينًا ولينِها حينًا، وكونِها مرَّةً رحمةً ومرَّة عذابًا"(2)، فقد أهلك الله تعالى بها أقوامًا، وبها استأصلهم، وبها تُلَقَّح الأشجارُ المثمِرَةُ وغيرُها، وبها يُساق السَّحاب في الآفاق للإمطار، وبها تجري السُّفن في البحار.

وبها سببُ حياة الحيوانات بالتَّنفُّس، وفيها آياتٌ، منها أنَّ الرّيح جِسم لَطيف لا يُرى، ويُدرَك ليُعلَم أنَّ الرُّؤية لا توجب الإحاطة والإدراك، وغيرُ ذلك من جهة الآياتِ(3).

لطيفةُ إيثار التَّعبير بـ (الذاريات) دون (الرّياح):

التَّنبيهُ إلى أبرَزِ منافِعِ الرّياح

في قسَم الله تعالى بالوصف (الذّاريات) دون الموصوف (الرِّياح) تنبيهٌ إلى أبرز ما فيها من جوانب الخير العميم العظيم؛ إذ تُنبِّه مادَّتها اللُّغويَّة (ذرو) إلى أجلِّ منافعها، وهو ذَرْو اللُّقاحات، ونقلها مِن ذكور النَّباتات والأشجار إلى إناثها، فتَغْزُر حبوبُها، ويَعظُم نِتاجها، ويَكمل نموُّ ثمارِها.

وفي مادَّة (ذرو) إشارةٌ إلى ما تقوم به الرِّياحُ من ذرْوِ المُضِرّات

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 161.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 171.

(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 373.

وكنْسِها بعيدًا عن مجتمعِ النّاس، وتطهير وجه الأرض وتعقيمه من التَّلوُّثات، إلى غير ذلك من منافعَ لا يعلمها إلّا اللّه تعالى.

وفي اصطفاء وصفِ (الذّاريات) والاكتفاء بهِ عن الموصوف (الرّياح) لَفْتٌ إلى تلك الصِّفة بالذّات من بين صفات (الرّياح)، فالرّياح ذارياتُ ما يُذْرَى، وسائقاتُ السُّفن، وحاملاتُ السُّحُب، وما إلى ذلك.

ففي القَسَم بصفة (الذّاريات) على وجهِ الخصوصِ إيذانٌ بأنَّ مهمَّة الذَّرْو فيها من أبلغ منافِعِها، ومن أخصِّ مهامِّها الَّتي خلقها اللّه تعالى، وأجراها من أجلِها.

نكتةُ صوغ (الذّاريات) اسمَ فاعل:

مـهـامُّ الـرّيـاح لا تـكـونُ إلّا بانتِقالِها

في صَوْغِ لفظِ (الذّاريات) اسمَ فاعل دلالةٌ على أنَّها دائمةُ الذَّرْو، متَّصلة النَّفْع، متواصلة الحركةِ والانتقال من مكانٍ في الأرض إلى آخرَ، فتختلف الأماكن طقسًا ومناخًا بحسب فصول العام، وبحسب حاجة كلِّ مكان في كل فصلٍ إلى الذّاريات - وهي الرّياحُ - ضعفًا وقوَّة، سُرعة وبُطئًا، كما تدلُّ صيغة (ذارٍ) على الشِّدَّة فيها، والقوَّة والعظمة.

لطيفةُ تقييد (الذاريات) بالقيد ﴿ذَرۡوٗا﴾:

للقيد في سياقه أهمّيَّةٌ في التّنبيه إلـى الـجـانـبِ المقصود في المقيَّد

في تقييد (الذّاريات) بالمفعول المطلق ﴿ذَرۡوٗا﴾ تأكيدٌ لبيان هذا اللَّمح اللّامِع في وصف (الذاريات)، وهو خصيصة الذَّرْو، وكَنْس الأتربة والحصباء ورَكْمُها؛ لتتكوَّن التُّربة الخصيبة في الوديان، ثُمَّ نقلها اللَّقاحَ بين الأشجار والنَّباتات، ثُمَّ ذرو قِطَع السُّحب وإفراغ مائها العذب النَّمير، فتُنبِت الخير العَميم بإذن اللّه تعالى، وتنقل الحبوبَ إلى سفوح الجبالِ، فتنزلُ عليها الأمطار، فيَخضرُّ وجه الأرض، وتُشرِق بالبهجة الحياة، وبه تنتقل الحبوبُ إلى البحار والأنهار، فتنمو طحالبها، وعليها تتغذّى أحياؤُها، إلى آخر ما لا يعلمه إلّا خالقُ الذّارياتِ ﷻ.

فأكَّد القيدُ ﴿ذَرۡوٗا﴾ تلك الخصيصة، ونبَّه إلى عظيم قدرة اللّه تعالى فيها، ولفت إلى استيجاب الحمد والشُّكر لخالقِ (الذّاريات)، ومانحها صفةَ الذَّرو جلَّ في عُلاه، وفي نصب ﴿ذَرۡوٗا﴾ على المفعولِ المطلَقِ لإرادَةِ تفخيمه بالتَّنكيرِ[1].

بلاغةُ جِناس الاشتقاقِ في ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾:

الجناسُ عنصرُ تنبيهٍ ومخادعَةٍ

في تقييد (الذّاريات) بالقيد ﴿ذَرۡوٗا﴾ المشتقّ من لفظها تحقيقٌ للجناس البديع، وهو جناسُ الاشتقاقِ، الذي يدعَم التَّنبيه إلى أهمّيَّة صفةِ الذَّرو بالذّات في إقامة الحياة، وذلك بما يحقِّقه من عنصر المخادعة عن المعنى؛ إذ يُعيد عليك اللَّفظةَ، كأنَّه يخدعُك عن الفائدة، وقد أعطاها، ويوهِمك كأنَّه لم يَزِدْك، وقد أحسن الزّيادة، ووفّاها، كما أفادَهُ عبد القاهر الجرجانيُّ في بيان أثَرِ الجناس[2].

وجهُ مناسبة القسَم بـ (الحاملات وقرًا) لِما قبلها وما بعدها:

تتآزر المذكوراتُ في سياق القسم على بيان قدرة اللّه تعالى في خلقه

من المعلوم أنَّ "كلَّ معطوف عليه يُسبِّب ذِكرَ المعطوف؛ لالتقائهما في الجامع الخياليِّ، فالرّياح تذكِّر بالسَّحاب، وحملُ السَّحاب وِقْرَ الماء يُذَكِّر بحمل السُّفن، والكلُّ يذكِّر بالملائكة"[3]؛ وبذلك تتلازم المذكورات في سياق القسم، وتتآزر على بيانِ قدرة اللّه تعالى في خلقِه من جِهَة، كما تقرَّر كون هذا الكلام منزلًا من عند اللّه تعالى.

معنى (الفاء) في جملة: ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾:

هبوبُ الرّياح الذّاريات ملزومٌ لِلسُّحُب الحاملات وِقْرَ الأمطار

(الفاء) في قول اللّه تعالى: ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾ فاءُ العطف، المؤذنةُ باستِلْزام المُقسَم به الثّاني (الحاملات) للمقسَم به الأوَّل (الذّاريات)، وتعاضُدهما وتآزرهما في أداء مهامِّ الثّاني، فلا بُدَّ للسُّحُب الحاملاتِ وِقْرَ الأمطار من هبوب الرّياح الذّاريات؛ لترفع

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 338.

(2) الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 8.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 337.

إليها أبخرة الماء، فتتكوَّن قطرات الأمطار، وكلُّ معطوفٍ عليه في هذا السّياق يسبِّب ذِكْر المعطوف؛ لالتقائهما في الجامع الخياليِّ، ومعنى التَّعقيب في (الفاء) - على تنويع المقسَم به إلى رياحٍ وسُحبٍ وسُفن وملائكةٍ كرام - أنَّه تعالى أقسَم بالرّياح، فبِالسَّحاب الَّذي تَسوقُه، فَبِالفُلك الَّتي تُجريها بِهُبوبها، فبالملائكة الَّتي تقسِّم الأرزاق بإذن اللّه من الأمطار وتِجارات البحار ومنافعه.

أحوال الرّياح من النَّفْخ، فالتَّكوين، فالإحياء يشابِهُ البعثَ في أحوالِه

وأمّا على وحدة المُقْسَم به، وأنَّه الرّياحُ في المواضع الأربعة؛ فلأنَّها تَبتدئ بالهبوب، فتَذْرو التُّراب والحصباء، فتنقل السَّحاب، فتجري في الجوِّ باسطةً له، فتقسِّم المطر[1]، فالفاءُ حينئِذٍ لترتُّب الأفعال[2].

قال ابن عاشور: "ومن رشاقة هذا التَّفسير أنَّ فيه مناسبةً بينَ المقسَم به والمُقْسَم عليه، وهو قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾، فإنَّ أحوالَ الرّياح المذكورةَ هنا مبدؤُها: نَفْخٌ، فتكوينٌ، فإحياءٌ، وكذلك البعث مبدؤه: نفخٌ في الصّور، فالتئامُ أجسادِ النّاس الَّتي كانت معدومةً أو متفرِّقة، فبثُّ الأرواح فيها، فإذا هم قيام ينظرون، وقد يكون قولهُ تعالى: ﴿أَمْرًا﴾ إشارةً إلى ما يُقابِلُه في المثال من أسباب الحياةِ، وهو الرّوح؛ لِقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: 85]"[3].

وقد وصف الشَّوكانيُّ هذا القولَ - وهو اتِّحاد المقسَم به - بأنَّه ضعيفٌ جدًّا[4]، ومرجِعُ ضَعْفه - على هذا - أنَّ لَفْت المخاطَبين إلى أنواعٍ مِن عظائم المخلوقات متعدِّدة المنافع، أولى مِن لَفْتِهم إلى نوعٍ واحد؛ مهما تعدَّدت منافعُه.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 395.
(2) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 7.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 339.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 98.

معنى (أل) في ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ﴾، ودلالةُ جمعِها:

أنواع الحوامل في مخلوقات الله تعالى تدلُّ على وحدانيَّته وكمال قُدرته

(أل) في ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ﴾ يجوزُ أن تكونَ للجنسِ، وهي ذاهبةٌ بالأذهان نحوَ كلِّ حامل، مثل الرّياحِ الحاملات السُّحُب، والسُّحُبِ الحاملاتِ الأمطارَ، والأمَّهات الحاملات الأجنَّةَ، والمحيطات والبحار والأنهار الحاملاتِ السُّفنَ، وغير ذلك ممّا يَحمل ثِقْلًا ووِقْرًا وعِبْئًا يدلُّ على الوحدانيَّة وكمال القدرة الإلهيَّة.

والقسَمُ بتلك الأصناف لافتٌ بقوَّة إلى أهمّيَّتها في قيام الحياة أصلًا، وتحقُّق منافع الخلق، وإن ذهب أكثر المفسِّرين إلى أنَّ (الحاملات) هي "السَّحابُ الَّتي تحملُ وِقْرَها مِن الماءِ"[1]، و"التَّظليل في الحَرِّ، ونحو ذلك مع ما فيه من الآيات؛ إذ هو يُمسكه في الهواء حيث لا يَقع بِسَوْق الرّياح مع ما فيه من الحمل والوقر، ثُمّ يرسِل المطر حيث أمر؛ إذ قد يوجد السَّحاب ولا مطرَ؛ فدلَّ أنَّه لم يرسل بنَفْسِه، بل بالأمر يرفع، ويمسك، ويرسل، وهو في نفسه مُسَخَّر لا بُدَّ له من مُسَخِّر؛ إذ لو كان عمله بالطَّبع؛ لم يختلف باختلاف الأحوال، وفيه آيات البعث؛ إذ خَلْقُ مثلِه لا يكونُ إلّا لعاقِبَة"[2].

ويَحتَمِل أن تكون (أل) في ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ﴾ للعهدِ العلميِّ، والمرادُ بها: "الرّياح، يحملن وِقْرًا بالسَّحابِ، فتكون الرّيح الأولى مقدَّمة السَّحاب؛ لأنَّ أمام كلِّ سحابة ريحًا، والرّيحُ الثّانية حاملةُ السَّحاب؛ لأنَّ السَّحاب لا يَستقلُّ، ولا يسير إلّا بِريح، وتكون الرّيح الثّانيةُ تابعةً للرّيح الأولى من غير توسُّط"[3].

ويجوزُ أن تكون (الحاملات) "السُّفنَ الموقرة بالنّاس وأمتاعهم، أو جميع الحيوان الحامل، وفي جميع ذلك معتبَرٌ"[4].

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 482.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 373.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 361.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 171.

لطيفةُ صوغ (الحاملات) اسمَ فاعلٍ:

في صوغ (الحاملات) اسمَ فاعل دلالةٌ على قوَّة رسوخها في بابها، وظهورها في صورة الثّابت، الَّذي لا يهتزُّ، ولا يتذبذب، مثل قوَّة الرّياح في قيامها بحمل تلك السُّحب الَّتي تمرُّ بثبات، على الرُّغم مِمّا تحملُه مِن مقاديرِ الأمطار الثَّقيلة، وعبورها بها البقاعَ والفيافيَ والبِحار؛ إذ تُفرغ ما يشاءُ اللّه تعالى أنْ تُفْرِغَه حيث شاءَ.

الحاملات راسخاتٌ في بابها ثابتاتٌ لا تهتزُّ

لطيفةُ حذفِ الموصوفِ والاكتفاء بصفة (الحاملات):

في حذف الموصوفِ في جملة: ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾ إفادةٌ للعموم؛ إذ يَذهب الذِّهْنُ في تقدير الموصوفِ مذاهبَ شَتّى، فتَتَربّى عنده عقيدةُ التَّوحيد، ويتعاظم في نفسه إجلالُ اللّه تعالى، الَّذي خلق كلَّ هذه الأصنافِ وأفرادِها من أنواع (الحاملات)، الَّتي سبق بيانُ احتمالِها مِنَ الأصنافِ.

الاستغناء عن ذكر الموصوف بالحاملاتِ، يعظِّم في النَّفس إجلال الله تعالى

وإلى ذلك فحذْفُ الموصوفِ - العامِّ - والاكتفاءُ بالصِّفة يُؤْذِن بأنَّ العِبرة والشَّأن تتعلَّق بها لا بالموصوف المحذوف، وأنَّه لا أهمّيَّة له دونَها.

دلالة التَّعبير بـ ﴿وِقۡرٗا﴾:

في مخالفة النَّظم الكريم هنا في توكيد (الحاملات) بالمفعول المطلق المشتقِّ من لفظها (حملًا)، فيطَّرِدُ النَّظم على نسق ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾، تنبيهٌ على عظيم خَلْق اللّه تعالى في إقْداره سبحانه تلك (الحاملات) على حَملِ هذا الثِّقْل الثَّقيل، فهذه الرّياح تحملُ سُحُبًا فيها من مياه الأمطار ما يَثْقُلُ جدًّا، والدَّليل على ذلك أنَّ سيلًا واحدًا يسيل منها يُزيل بلادًا بأكملها، فسبحانه خالقُها بهذا الاستعدادِ لحَملِ الأثقال!

حملُ الرّياح والسُّحب تلك الأثقالَ تنبيهٌ على عظيم القدرة الإلهيَّة

وقد جاء من الآيات القرآنيَّة ما يؤيِّد وصفَ السَّحاب بحمل الأمطار الثَّقيلة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا

بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ [الأعراف: 57]، وقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ١٢﴾ [الرعد: 12][1]، وهكذا يلفت المفعول به ﴿وِقْرًا﴾ إلى تلك العظمة الإلهيَّة في خلق (الحاملات).

دلالةُ تنكير ﴿وِقْرًا﴾:

في التَّنكيرِ إيجازُ تفاصيلَ كثيرةٍ، ولفت لها بقوَّة

يدلُّ تنكير ﴿وِقْرًا﴾ على ثِقَلِه وضخامته، فالبحار تحمل السُّفن العظيمةَ الَّتي شبَّهها اللّه تعالى بالجبال في قولِه الكريم: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ٢٤﴾ [الرحمن: 24]، كذلك في تنكير ﴿وِقْرًا﴾ تنبيهٌ على كونه وقرًا عجيبًا؛ إذ بالماء يحيا العبادُ والبلادُ.

وعلى القول بتوسيعِ مَعْنى الوِقر إلى غيرِ الماء ممّا يُحْمَلُ، فإنَّ مِمّا يُحمَلُ: الطِّفْلُ المكتمل يكونُ في بطن أمِّه، تحمِلُه، وتتحرَّك به يقظةً ومنامًا، وعملًا وسكونًا، وهكذا يحكي تنكيرُ ﴿وِقْرًا﴾ قصصًا عظيمةً عجيبةً بإيجازٍ.

معنى (الفاء) في جملة ﴿فَٱلْجَـٰرِيَـٰتِ يُسْرًا﴾:

بيانُ التَّقاربِ بين المهامِّ المنوطةِ بكلٍّ مِنَ المتعاطفَيْن

(الفاء) في قول اللّه تعالى: ﴿فَٱلْجَـٰرِيَـٰتِ يُسْرًا﴾ عاطفة، ومؤذِنَةٌ كذلك بتقارُب المهامِّ المنوطة بالمعطوف والمهامِّ المنوطة بالمعطوف عليه، فالسُّحب الحاملاتُ مياهَ الأمطار تُفْرِغ مياهها، فتجتمع، وتكوِّن الأنهارَ، وتغذّي البحار، فتجري السُّفن بإذن ربِّها ﷻ بكلِّ يُسر وليونة، حاملةً أرزاقَ العباد من بلادٍ إلى أُخرى، ممّا لا يمكن نقله بَرًّا ولا جوًّا، فسفينة واحدةٌ تحمِلُ أثقالًا عظيمةً، وتجري بها آلافَ الأميالِ بإذن اللّه تعالى، فسبحان مَن أذِن في ذلك! وله الحمد كلُّه والشُّكر كلُّه.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 10.

معنى (أل) في ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ﴾، ودلالَةُ جَمعِها:

الجاريـاتُ في كون الله تعالى المعلومةُ للبشر أعمُّ وأشملُ من ساكناتِه

(أل) في ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ﴾ لتعريف الجنسِ، فتفيدُ مَعْنى الاستغراقِ؛ إذ يدخُلُ فيها الفُلك في البحر، والسّيّارات في البرِّ، والطّائرات في الجوِّ، والدَّوابُّ كلُّها، وكلُّ ما يخلقه الله تعالى من (الجاريات)، وإن كانت قبل هذه المخترعات الحديثة تأخذ بالأذهانِ إلى الجاريات في البحر، والإبل والأحصنة في البرِّ، وقديمًا وصفَها الشّاعر بالسِّباحة؛ إذ يقول:

أعَزُّ مَكانٍ في الدُّنَى سَرْجُ سابِحٍ *** وخَيْرُ جَليْسٍ في الزَّمانِ كِتابُ[1]

ومن جنس (الجاريات) كواكبُ الكون وأنجمُه ومجرّاته، الَّتي لا يحيط بها علمًا إلّا الله تعالى، والله تعالى يقول: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ [يس: 38]، ممّا يدلُّ على أنَّ تلك (الجاريات) الفلكيَّة أعظمُ خلقًا، وأسرع جريًا بيُسر ولطفٍ لا يكاد يُحسُّ، بل الأرض نفسُها جارية لا تتوقَّف تبعًا لجَرْيِ الشَّمس، فإنَّها من توابعها، كما أثبت العلمُ، وعلى ذلك فالجاريات في كون اللّه تعالى ممّا يقع تحت إدراك البَشر أعمُّ وأشمَلُ من ساكِناته.

لطيفةُ صوغ (الجاريات) اسمَ فاعلٍ:

صيغةُ اسمِ الفاعل تُصوِّر التَّمكُّنَ في الجَرْيِ

في صوغ (الجاريات) اسمَ فاعلٍ دلالةٌ على الثُّبوت، بخلاف الفعلِ الَّذي يُشْعِرُ بالتَّجدُّدِ، وقد يُفيدُ الانقطاعَ، فكانت صيغةُ اسم الفاعلِ (الجاريات)؛ لتصويرِ حالِ الرّياحِ والسُّفُنِ في البحرِ تصويرًا ثابتًا مطَّردًا، وذلك يوحي بالتَّمكُّنِ والانسيابِ الهادئ، وهذا المعنى يُقوّيه القَيْدُ بعدُ في ﴿يُسۡرٗا﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿يُسۡرٗا﴾:

في إلحاقِ (الجاريات) بالحال ﴿يُسۡرٗا﴾ - أي: جريًا ذا يُسْرٍ

(1) المعري، معجز أحمد، ص: 403.

يُسْرُ جريانِ الجاريات في الكون مِن أعظم آيات الله تعالى

وسهولة[1] - دقَّة عالية؛ بحيث لا يصلح لذلك الموضع إلّا ﴿يُسۡرٗا﴾، ففي مادَّته أجمعُ خصائص الجاريات وأدقُّها، وأكثرها لَفْتًا للإنسان، وفي تقييد الجارياتِ باليُسْرِ احتراسٌ بديعٌ؛ إذ الجَرْيُ عادةً ما يرتبطُ بالجُهْدِ، فجاءَ لفظُ ﴿يُسۡرٗا﴾ يُضْفي على المَعْنى خفَّةً، وذلك يُعزِّزُ جمالَ التَّصويرِ القرآنيِّ ويجعَلُهُ أنسبَ لمقامِ الامتنانِ.

نُكْتةُ تنكيرِ ﴿يُسۡرٗا﴾:

في تنكير ﴿يُسۡرٗا﴾ من قول الله تعالى: ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾ تنويهٌ بتلك النِّعمة، نعمةِ يُسر جريانِ الجارياتِ على كثرتها وسُرْعَتِها.

موقع ﴿يُسۡرٗا﴾ من التَّركيب:

يُسْرُ جري الجاريات يُحقِّق اليقينَ بعظمَةِ الخالقِ سُبحانَه

جاء لفظُ ﴿يُسۡرٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾ نعتًا لمصدرٍ محذوف، وصفاتُ المصادرِ المحذوفة تعودُ أحوالًا[2]، فانتصب ﴿يُسۡرٗا﴾ على المصدريَّة أو على الحالِ[3]، أي: ميسَّرةً[4]، أو صفةً لمصدرٍ محذوفٍ، أي: جريًا ذا يُسرٍ[5].

وعلى كون ﴿يُسۡرٗا﴾ وصفًا لمصدر محذوفٍ، يكون في الاستغناءِ به عن الموصوف توفيرُ العناية لهذا الوصفِ، ودعوة المتلقّي إلى إنعام نظَرِه في استِكناهِ أسرار تلك العظمةِ، فإن فعلَ؛ رجعَ بإيمانٍ كاملٍ ويقين عميقٍ بعظمة الخالق ﷻ.

معنى (الفاء) في جملة: ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾:

تدرُّج المعاني القرآنيَّة يتَّسق مع تدرُّج الدَّورة الكونيَّة

(الفاء) في قول الله تعالى: ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ عاطفة، وهي مؤذنةٌ بقوَّة التَّرابط بين متعاطِفَيها، فقد سُبقت بذكر أسباب الأرزاق من (الذّاريات)، وما يتعلَّق بمهامِّها، و(الحاملات) وما تَلْفِتُ إليه مِن أثقالها، و(الجاريات) وما تَجْري به من أثْقالِها.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 395.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 171.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 98.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 5.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 136.

وكلُّ ذلك يحتاج إلى ضبطِ توزيعِ تلك الأرزاق والعطاءات الرَّحمانيَّة وفْقَ حكمته تعالى المطلقة، فيجيء ذِكْرُ الملائكة الكرام الموكَّلين بتقسيم تلك الأرزاق، الَّتي تمَّت دَوْرَتُها، واكتملت على أبدع ما يكونُ مِنَ الكمال، فيصيب كلَّ مرزوقٍ رزقُهُ بقِسمة تلائمُ كلَّ واحدٍ بحسَب الحِكْمَةِ الإلهيَّة؛ فسبحان مَن هذا كونُه، وهذا كلامُهُ وبلاغَتُه!

معنى (أل) في ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ﴾، ودلالة جمعه:

أعدادُ الملائكةِ الكرامِ كثيرةٌ، ومنافعُهم ومهامُّهم عظيمةٌ

(أل) في ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ﴾ للعَهْدِ العلميِّ؛ لتعريف نوعٍ أو قِسْم من ملائكة اللّه تعالى الكرام وتحديدهم، من الملائكةِ الَّتي تُقَسِّمُ أمرَ اللّه تعالى في خلقِه[1]، الَّتي تسوق السُّحب وتقودُها إلى حيث قُدِّر لها أن تُفْرِغ ماءَها، وتنفخ في الجنين الرّوح... إلى غيرِ ذلكَ.

وذهب بعضُ أهل التَّفسير إلى أنَّهم جبريل، وهو صاحب الوحي، وميكائيل وهو صاحبُ الرِّزق والرَّحمة، وإسرافيل وهو صاحب الصّور، وملك الموتِ وهو قابض الأرواح[2]، فيكون المرادُ: الملائكة تأتي بأمرٍ مختلف بالغلظة والرَّحمة والموت، وبالخصْب والجَدْب، والمطر والموت والحوادثِ، وعلى هذا فاللّام في ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ﴾ عهديَّةٌ أيضًا، يُرادُ بها كبارُ الملائكةِ وعُظماؤُهم.

ويرى آخرونَ أنَّ (المقسِّمات) هي السَّحاب، أقسَمَ اللّه به الحظوظَ بين النّاس[3].

وفي جمع (المقسِّمات) دلالةٌ على كثرتهم، وتنوُّع مهامِّهم، ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [المدثر:31]، ويُؤخذ من جمع (المقسِّمات) أنَّ "الملائكةَ منافعُهم عظيمة ظاهرَةٌ، وعِظَمُ قَدْرِهم وجلالة خطَرهم واضحٌ"[4].

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 482.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 361.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 361.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 374.

نكتةُ حذفِ الموصوف والاكتفاء بالصِّفة (المقسِّمات):

مـردُّ الـرِّزق إلى تقدير الله تعالى وفقَ حِكْمَتِه

في حذف الموصوف (الملائكة) والاكتفاء بالصِّفة (المقسِّمات) تصفية للذِّهنِ وتوفير لعنايتِه على تدبُّر الوصف لا الموصوف، ففي مادَّة (المقسِّمات) تنبيه قويٌّ إلى خروج قضيَّة الرِّزق عن طوق البشر إلى تقدير اللّه تعالى ومطلق حكمته؛ إذ تُقَسِّم الملائكةُ الموكَّلون بالتَّقسيم وفْقَ تقدير العزيز العليم، ولا يتبقّى للإنسان إلّا الأخذ بأسبابه في الحياة، حامدًا ربَّه شاكرًا فضله، مستريحًا ومرُيحًا بالَه، دون تطلُّع إلى ما لم يأته مِن الرِّزق.

نكتةُ صوغِ (المقسِّماتِ) اسمَ فاعلٍ، ولطيفةُ إيثاره على (القاسمات):

استقرارُ القِسْمَةِ وكثرتُها وتَكرارُها

في صوغ (المقسِّمات) اسمَ فاعلٍ إشارة إلى استقرار تلك القسمة، والفراغ من ضَبْطِها، وأنَّ الملائكة الكرام الموكَّلين بالتَّنفيذ قائمون على هذه المهمَّة دون زيادةٍ أو نقصان، أو إحداثِ اجتهادٍ منهم، فإنَّهم يَفْعَلون ما يُؤمرون.

وجاءت الصّيغة (المقسِّمات) - وهو من الفِعْلِ (قسَّمَ) المضعَّفِ العَيْنِ - دون (القاسماتِ)؛ للدَّلالةِ على التَّكرار والتَّكثيرِ في القِسمَةِ، فهو أبلَغُ من (القاسماتِ) الَّذي يَصْدُقُ بالمرَّةِ الواحدةِ، فكان التَّشديدُ مفيدًا التَّكثيرَ والتَّعظيمَ وتوكيدَ المَعْنى.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَمۡرٗا﴾:

تـقـاديـرُ الـلـه تـعـالى وشـؤون خَلْقِه الموكَّلة بها الملائكة، كلُّها أوامرُ نافذَةٌ

﴿أَمۡرٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ مفردُ أمور، وهو وإن كان مفردًا إلّا أنَّه يُرادُ به الجِنْسُ، فيندرج تحتَه كلُّ شأن من الشُّؤون والأحداث، وفي التَّعبير بـ ﴿أَمۡرٗا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ تحقُّقَهُ حتمٌ لازم، كما تُشْعِرُ بذلك الدَّلالة اللُّغويَّة للأمرِ، الَّذي هو طلبُ الفِعْلِ، وهو دالٌّ في الأصلِ على لزوم الفِعْلِ وتحتُّمه.

وبذلك يراد بـ ﴿أَمۡرٗا﴾ الأمور، مِنَ الأرزاق والآجال وأمر الرّياح

والجِبال وغير ذلك؛ لأنَّ كلَّ هذا وُكِّلَت به الملائكةُ[1]، ولَم يُعَبَّر بالجَمعِ (أمورًا)؛ لأنَّ الفَرْدَ أنسَبُ لتناسُبِ رُؤوسِ الآيِ مع ظهور الأمر[2].

دلالةُ تنكيرِ ﴿أَمۡرًا﴾، وموقعُهُ من الجملة:

تنكير ﴿أَمۡرًا﴾ يتّسق مع دِلالته على عُموم الأمور والأشياء، عِظَمًا ودقَّة، ووُضوحًا وخفاء، ممّا تقوم به الملائكة الكرام من تنفيذِ أمر الله تعالى في تقسيمه وإمضائه، و﴿أَمۡرًا﴾ مفعولٌ به لـ (المقسِّمات)، وذهبَ بعضُ أهل العلمِ إلى أنَّه حالٌ، "أي: فالمقسِّمات مأمورة، والمفعول به - حينئذٍ - محذوف، أو الوصف منزَّلٌ منزلة اللّازم، أي: تفعل التَّقسيم مأمورةً[3]، وله وِجهةٌ بلاغيَّة داعمةٌ، هي "أنَّ الكلمات: ﴿ذَرۡوٗا﴾، و﴿وِقۡرٗا﴾، و﴿يُسۡرٗا﴾، و﴿أَمۡرًا﴾ كلُّها أحوالٌ متلبِّسة بهذه الأشياء، الَّتي أقسم الله ﷻ بها، وأنَّ الله ﷻ أقسم بها في تلك الحالِ المتلبِّسة بها لا في غيرها، وأنَّ هذه الحال هي الَّتي تجعل لهذه الأشياء شأنًا وقدرًا، ولو أنَّها تجرَّدت من هذه الحال، أو لَبِسَت حالًا أخرى؛ لَما كان لها هذا الشَّرف العظيم بأن أقسَمَ الله بها؛ فإنَّ في قَسَم الله ﷻ بالشَّيء تكريمًا له، ورفعًا لقدره، وتنويهًا لِمَقامه بين الأشياء، والتَّقدير: فالرّياح ذاريةً، والسُّحب موقرةً، والسُّفن ميسَّرًا لها الجريُ، فالملائكة مأمورة بما تقسِّمه في النّاس من أرزاق وأرزاء.

فالرّياح والسُّحب والسُّفن والملائكةُ هيَ في أحوالٍ لها فيها وجودُ عامل مؤثِّر في حياة النّاس، وفي قسَمِ الله ﷻ بها، وهي متلبِّسة بأحوالها تلك دعوةٌ إلى النّاس أن يَلتَفِتوا إليها، وأن يَرَوا آثارَ رحمة الله بهم فيها، فلو شاء الله؛ لسَكَنَت الرّيح، فلم تَتَخَلَّق السُّحب، ولم تَجْرِ السُّفن، ولَما كان للملائكة عملٌ على هذه الأرض؛ إذ لا حياة فيها

تنكير (أمرا) يدعَم دلالةَ عمومِ أمورِ الكَوْنِ وشُؤونه كلِّها

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 171.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 5.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 5.

مع فُقْدانِ الماء الَّذي يقولُ ﷻ فيه: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾ [الأنبياء: 30]، وهذا هو السِّرُّ في هذا التَّرتيب المتعاقب بين هذه الأشياءِ"[1].

علّةُ فصلِ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ﴾ عمّا قبله:

المناسباتُ بين المقسَم به والمقسَم عليه في الذِّكر الحكيم بديعَةٌ

فُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه جوابُه؛ إذ إنَّ الجُمل الأربع السّابقة ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ كلُّها قسَمٌ متتابعُ التَّفاصيل متلاحقُ العناصر، يلحُّ على توكيدِ حصول المقسَم عليه، ويُهَيِّئُ له؛ فإذا جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ﴾ جوابًا لذلك القسَم؛ تجلَّى الاتِّساق البديع بينهما.

معنى (إنَّ) في جملة: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ﴾:

أحوالُ الكافرين تقتضي توكيدَ وعيدِهم، كما تقتضي أحوالُ المؤمنين توكيدَ وعْدهم

(إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّوكيد، اقتضاها تمرُّد المتمرِّدين على الرَّسول ﷺ والقرآنِ الكريم، وإنكارِ المنكرين للبعث والجزاءِ والحساب في الآخرة، واقتضاها أيضًا تطمينُ المؤمنين ودعم صبرهِم في حمل عِبء الدَّعوة، ومعاناتهم في جهاد المشركين، وكأنَّه ظاهرُ حالهِم يستبطِئُ النَّصر والتَّمكين، فجاء الوعدُ بذلك مؤكَّدًا بـ (إنَّ) تطمينًا وتثبيتًا لقلوبهم، ودعمًا لصَبْرِهم، ولو شاء اللّه تعالى؛ لحَقَّق النَّصر بلا جهدٍ منهُم ولا جهاد، ولكنَّها سنَّة اللّه تعالى في الدَّفع، وفي إسعادِ العباد بقطف ثمارِ الجِهاد وذوق لذيذِ ثمارِها.

معنى (ما) في ﴿إِنَّمَا﴾:

من خصائص النَّظم الكريم اصطفاؤُهُ لتعبيراتِه أغزرَ الأدواتِ دلالةً

(ما) في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ﴾ تحتَمِلُ الموصوليَّة، ويكون المعنى: إنَّ الَّذي توعَدونَهُ أيُّها الكافرون - والموعودُ: البعثُ[2] والحساب والانتقامُ من الظّالمين - لآتٍ لا محالة، وما توعدونه أيُّها المؤمنون من النَّصر والتَّمكين، وظهور الدّين؛ لحاصِلٌ ومحقَّق كذلك، فلا تَبْتَئِسوا، واعمَلوا على ذلك واثقين مُطمئنّين.

---

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 502 - 503. (بتصرّف).

(2) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 371.

وتحتَمِل (ما) المصدريَّة، فيكون المعنى: إنَّ وعيدَ اللّه تعالى إيّاكم أيُّها الكافرون، ووعدَ اللّه تعالى لكُم أيُّها المؤمنون محقَّق لا محالة، فالَّذي أذْرى الذّاريات ذروًا، وحمَّل الحاملاتِ وقرًا، وأجرى الجاريات يُسرًا، وكلَّف المقسِّمات أمرًا، وهيَّأ لكم ذلك كُلَّهُ في كونه العظيم، قادرٌ على تحقيقِ وعيدِه، والوفاء بوعده، ضامن هَذا وذاكَ.

وهكذا يُثري التَّعبير بـ (ما) دلالاتِ السّياق، ويعظِّم الفائدة، ويحلِّق بجناحَي المعنى في سماء النَّصِّ الشَّريف.

وإذا كانت (ما) موصولةً؛ فالعائد محذوف، أي: إنَّ الَّذي توعدونه، أو توعدون به، وعلى كونِها مصدريَّة، يكون التَّقديرُ: إنَّ وعدكم أو وعيدكم؛ لأنَّ الفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾ يحتَمِلُ أن يكون مضارعَ (وَعَد)، وأن يكون مضارعَ (أوْعَد)، والثّاني أنسَبُ لقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ٤٥﴾ [ق: 45]؛ ولأنَّ المقصودَ التَّخويف والتَّهويل، وورِدَ عن مجاهدٍ: أنَّ الآية في الكفّار، وهو يُؤيِّد الوعيد[1].

على أنَّه لا تنافيَ بين حملِ الفِعْلِ على الوعيدِ وحملِه على الوَعْدِ، فيُحْمَلُ عليهِما معًا، من باب حمل المشترَكِ على معنَيَيْهِ، وهو جائزٌ في قول الجمهورِ.

نكتةُ إيثارِ التَّعبير بالمصدر المؤوَّل (ما توعدون):

الإشارَةُ إلى زَمَنِ تحقُّق الوعدِ والوَعيد

فائدة التَّعبير بالمصدر المؤوَّل الدَّالة على زمن تحقُّقِ الوعد أو الوعيدِ، وهو المستقبل؛ لأنَّ المصدر الصَّريح لا يدلُّ بنفسِه على زمنٍ، وفيه أيضًا الدَّلالة على أنَّ الحكم مقصورٌ على المعنى المجرَّد للفعلِ، وهو الوعد أو الوعيدُ بقطعِ النَّظر عَن أيِّ وصفٍ آخرَ يُلابِسُه مِن كيفيّاتٍ وهيئاتٍ لتَحَقُّقه.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 5.

وعيدُ الكافرين قريبٌ كأنَّه حاضر، ووعدُ المؤمنين لائح ينتظِرُ منهم أسبابَه

دلالةُ المُضارَعَة في الفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾:

فائدة صوغ فعل الوعد أو الوعيد في ﴿تُوعَدُونَ﴾ مضارعًا استحضارُ وعيدِ الكافرين، وتقريبُه، والتَّهديد به كأنَّه حاضِر ماثِلٌ أمام أعينهم، كما في مُضارعة الفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾ تجديدُ الوعدِ بالنَّصر والتَّمكين، وتطمينٌ باستمراره لائحًا بالنِّسبة للمؤمنين، وأنَّه وعد حيٌّ لا يذبُل، ولا يَفتُر، ولا يموت، وأنَّه باقٍ مستمرٌّ متجدِّدٌ يرقب أخذهم بتمام أسبابه، فيحينُ.

العنايةُ بالفِعْلِ مع قطعِ النَّظر عن الفاعلِ

نكتةُ إسنادِ الفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾ إلى ضمير المخاطَبين مبنيًّا للمَفعول:

في بناء الفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾ للمفعول دلالةٌ على علمهم بالمُتوعِّد للكافرين، والواعِد للمؤمنين وهو اللّٰه ﷻ، وما دام معلومًا لديهم؛ ففي طيِّ ذِكره عنايةٌ بالوعيد والوعد في ذاتهما بقطعِ النَّظر عن المتوعِّدِ والواعِدِ.

ثُمَّ في إسنادِ الفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾ إلى ضمير المخاطَبين هنا إشارات بليغة الأثر فيهم - كافرين ومؤمنين - فإسنادُهُ إن كان وعيدًا إلى ضمير المخاطَبين الكافرين يوحي بأنَّهم باختيارِهم الكفرَ موافقون على الوعيد، حتّى كأنَّهم هم المتوعِّدون لأنفُسِهم، وفي إسناده لضمير جماعة المخاطَبين المؤمنين إشادةٌ بعدَم شكِّهم في وفاء فاعل الوعد ﷻ، كأنَّهم هم الواعدونَ أنفسَهم، ولا أَحدَ أوفى بعهد اللّٰه تعالى مِن وعد الواعِدِ نفسَه؛ إن ضَمِنَ بقاءَه، والأوفى بالوعدِ على الإطلاق اللّٰه ﷻ، كما قال سُبحانَهُ: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ [التوبة: 111].

بيانُ مرجِع ضمير المخاطَبين في ﴿تُوعَدُونَ﴾:

خطابُ القرآن الكريم رحمةٌ بالمؤمنين، عذابٌ على الكافرين

ذهب جماعةٌ من أهل التَّفسير إلى أنَّ الآية خطابٌ "للمشركين، كما هو مقتضى التَّأكيد بالقسَم، وكما يَقْتَضيه تعقيبُه بقوله: ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ٨﴾ [الذاريات: 8]"[1]، ووجهُ هذا التَّرجيح:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 339.

أنَّ "اليمين مع المُنْكِر بوعيدٍ لا بوعدٍ"[1]، والآية "وعيدٌ محضٌ بيوم القيامة"[2]، ويجوز أن يكون الخطاب للمؤمنين؛ وذلك بناءً على احتمالِ كونِ الفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾ من (وعد) ومن (أوعد)، وعلى هذا التَّوجيه يكون الخطابُ القرآنيُّ الكريم رحمةً بالمؤمنين، وعذابًا على الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢﴾ [الإسراء: 82].

لطيفةُ حذفِ متعلّق الفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾:

حـذفُ المتعلّق مشعِرٌ بالعمومِ

حُذِفَ متعلّق الفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾ مع احتمالِهِ الوعدَ والوعيد، ممّا يُقرِّر احتمالَه مخاطبةَ المؤمنين والكافرين جميعًا، ويبقى لكلِّ فريق تقديرُ ما يناسبه من هذين - الوعدِ والوعيد - ولذلك عمَّم إمامُ المفسِّرين قائلًا: "إنَّ الَّذي توعدون أيُّها النّاسُ من قيام السّاعة، وبَعْثِ الموتى مِن قبورِهم"[3]، فإن كان خطابًا للكافرين؛ فيكون المتعلَّق المحذوف ﴿تُوعَدُونَ﴾ من "عذاب الآخرة، وعذاب الدُّنيا، مثل الجوع في سِني القَحْطِ السَّبْع، الَّذي هو دعوةُ النَّبيِّ ﷺ عليهم بقوله: «اللّهمَّ اجْعَلْها عَلَيْهِم سِنينَ كَسِني يوسُفَ»[4]، وهو الذي أشار إليه قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١﴾ [الدخان: 10 - 11]، ومثل عذاب السَّيف، والأسر يوم بدر الَّذي توعَّدهم الله به في قوله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦﴾ [الدخان: 16]"[5]، وإن كان خطابًا للمؤمنينَ، فيكون المتعلِّق المحذوفُ ﴿تُوعَدُونَ﴾ من سعادتي الدُّنيا والآخرة.

معنى (اللّام) في قوله: ﴿لَصَادِقٌ﴾:

اللّامُ في الخبر ﴿لَصَادِقٌ﴾ لامُ التَّوكيد، الدّاعمة لصِدْقِ خبرِ

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 162.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 172.

(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 484.

(4) رواه البخاري في صحيحه، رقم: (6200).

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 339.

تحقيقِ الوعيد للكافرين، والوفاء بالوعد للمؤمنين، وإنَّهم وإن كانوا لا يشكّون في صِدق وعده سبحانه إلّا أنَّ خالقَ الإنسان العالمَ بِما توَسْوِسُ به نفسُه؛ يعلَمُ أثرَ التَّوكيد بهذه المؤكِّدات (إنَّ) و(اللّام) واسميَّة الجملةِ في تطييب النُّفوس، وتثبيتها على الدّين القويم، فله الحمدُ والشُّكْرُ.

توكيدُ الله تَعالى الخَبَرَ لِلمُؤمنين تطييبٌ لنفوسهم وتثبيتٌ لها

دلالةُ التَّعبيرِ بمفردة الصّدق في الخبر (صادق):

في اصطفاء النَّظم الكريم مفردة الصِّدق خبرًا عن الوعد بالنَّصر والتَّمكين براعةٌ لا يوفّي المقامَ حقَّه غيرُها، ولو أدَرْنا كلماتِ اللُّغة كلَّها على هذا الموضع، فإنَّها أشدُّها صراحة ومباشرةً، وأقواها تهديدًا للكافرين، وأقربُها تطمينًا للمؤمنين، وأوفاها بالغرَضِ على كلِّ حال، فالمعنى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ "لكائنٌ، حقٌّ، يقينٌ"[1]، و"الصِّدق إنَّما يُستعمَل في الخبر، فكأنَّه قال: إنَّ ما أَخْبَرَكُم الرَّسول بالبعث، أو وعدكم به؛ لصادق في خبرِه ووعده؛ إذِ الوعدُ في الجُملَةِ ممّا قد يكون صِدقًا أو كَذِبًا، فأكَّد هذا الوعدَ مِنَ الرَّسول بالقسَم، إنَّه لصادِقٌ فيما وعَدَ مِنَ البَعْثِ وغيره"[2].

تهديدُ الكافرين وتبشيرُ المؤمنين يقتضي لفظًا صريحًا

دلالةُ صوغ (صادق) اسمَ فاعل:

صيغ الخبر (صادق) اسمَ فاعلٍ، "والمعنى: لَصِدْقٌ، فوُضِعَ الاسمُ مكانَ المصدر"[3]، وهو دليلُ ثبوتهِ والقطعِ به، وتحقُّقه لا محالة؛ لمطابقة الإخبار به للواقع، وسَيَرَونَ مطابقتَه له؛ إذا وقع، ويعلمون أنَّ ذلك الواقعَ حقٌّ ثابت لا خيال لمطابقتهِ للخَبر[4]؛ إذ تَلْتَقي مادَّة (الصِّدق) مع صيغة (فاعل)، فتتآزرانِ على تحقيق غرض الخبرِ، وقَد كان، فقد تهيَّب كثيرٌ من المشركين، ودخلوا في دين اللّٰه تعالى

المُبالَغة في وصْفِ الوعدِ والوعيد بالصِّدق

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 484.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 374.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 485.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 18/.448.

أفواجًا، كما ثبت المؤمنون، وجاهدوا مع الرَّسول الكريم ﷺ حقَّ الجِهاد، حتّى رأوا وفاءَ الوعدِ بشارةً، وصِدق الخبَر واقِعًا، وقَطْف الثَّمرة لذيذة.

وهكذا يَبْقى الوعدُ لائحًا لكلِّ المؤمنين في كلِّ زمانٍ ومكان ينتظر منهم الأخذَ بأسبابه؛ ليمدَّهم اللّه تعالى بما أمدَّ به الأوائل السّابقين، ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر، ينصر من يشاءُ، وهو العزيز الرَّحيم.

والوصف باسم الفاعل بدلَ المصدر هُنا يفيد أيضًا المبالغةَ، فكما أنَّ من قال: فلان لطفٌ محضٌ، يجب أن يكون قد بالغ، كذلك من قال: كلام صادِقٌ، وبرهان قاهِر للخَصْم، أو غير ذلك يكون قد بالَغَ[1].

بلاغةُ المَجاز في قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾:

وعيدُ الله تعالى ووعــدُه صـادقٌ محقَّقٌ

في إسناد الصِّدق إلى الوعد أو الوعيدِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ مجاز عقليٌّ[2]؛ إذ "وعْدٌ صادقٌ كـ ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١﴾ [الحاقة: 21]"[3]، وإنَّما الصّادقُ المتوعِّدُ أو الواعدُ، وفي نقل الصِّدق منه إلى الوعيد أو الوعد نفسِه مبالغةٌ في تحقيقِ الموعودِ به أو المتوعَّدِ بهِ، وأنَّه حاصل لا محالة.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾:

الـجـمـعُ بين الوَعدَينِ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ عاطفة، تجمَعُ وعدَين وتؤلِّف بينهما؛ تهديدًا وتخويفًا بالوعيدِ الخطير للكافرين، ومنحةً وكرامة بالوعد الطَّيِّب للمؤمنين العاملين، وعُطِفَت هذه الجملةُ على ما قبلَها؛ لِما بينَهما من التَّوسُّط بين الكمالين؛ لاتِّحادهما في الخبريَّةِ، وبينَهما تناسبٌ لفظيٌّ ومعنويٌّ، فأمّا اللَّفْظيُّ؛ فاشتراكُهما

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 162.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 340.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 395.

في الاسميَّةِ، وتأكيدُ الخبرِ فيهما باللّامِ، وأمّا المعنويُّ؛ فاتِّفاقُهما في إثباتِ أمرٍ وتحقُّق وقوعه.

معنى (إنَّ) في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾:

من أمارات العنايةِ إفرادُ الوعيدِ المخيف للكفّار، والوعدِ المبشِّر للمؤمنين

(إنَّ) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّوكيدِ، تجري مع قرينتها في جملةِ: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ في نسقٍ متناغم، وعطاءٍ متآزر، وكان ظاهر الإيجاز يقتضي الاقتصارَ على (إنّ) واحدةً للجملتين مُشرَكَتَين بالواو، فيُقال في غير القرآن الكريم: إنَّما توعدون لصادِقٌ، والدّينَ لواقع، غير أنَّ تكرار (إنّ) يَلْفِتُ النَّظَرَ إلى كونِ كلِّ خبرٍ من الخبرين مستقلًّا بالإفادَة، جديرًا بأن يُفرَد اهتمامًا بشأنهِ واحتفاءً بِقَدْره، فتعديدُ الأخبار على الاستقلالِ يَقْضي بتعديد جهاتِ الوعيد المُخيف للكفّار، وتعديدِ جهاتِ الوعد المبشِّر لأهل الدّين وسدنة حرَمِه السّاكن في القلوب.

دلالة (أل) في ﴿ٱلدِّينَ﴾:

قَرْنُ متعلِّق الكافرين بمتعلِّق المؤمنين منهجٌ قرآنيٌّ كريم يحقِّق أغراضه

(أل) في ﴿ٱلدِّينَ﴾ هنا للعَهْدِ العلميِّ، والمرادُ به الجزاء والحسابُ في الآخرةِ، وفي التَّعبيرِ بالدّينِ لَمْحٌ للأصلِ الَّذي أُخِذَ مِنهُ، وهو المعنى اللُّغويُّ الَّذي هوَ المجازاة والمُحاسبَة، والمرادُ: "يوم يَدينُ اللّه العبادَ بأعمالهم"[1]، ومنه قولهم: "كما تدين تُدان" ومنه ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: 4][2].

وفيه دلالةٌ على أنَّ يومَ الحساب قادمٌ، ومحاسبة كلِّ إنسان حتمٌ واقع لا مفرَّ منه، وأنَّ "الحسابَ والثَّوابَ والعقابَ لواجبٌ، واللّه تعالى مجازٍ عبادَه بأعمالِهم، وذلك يومَ القيامةِ، يومَ يُدانُ النّاسُ فيه بأعمالِهم[3].

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 35.
(2) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 530.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 485.

كما أنَّ لفظَ ﴿ٱلدِّينَ﴾ قد يوسَّعُ معناهُ إلى أن يشمَلَ الشَّرْعَ المنزَّلَ الَّذي يدينُ به النّاسُ لربِّ العالمينَ، كما أشار إلى هذا المَعنى البقاعيُّ بقوله: "ولمّا كان أجَلُ وعيدِهم وما يتعلَّق بالجزاء يوم القيامة، وكانوا يُنكرونه، قال: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ﴾، أي: المجازاة لكلِّ أحد بما كسب يوم البعث، والشَّرع الَّذي أرسلتُ بِه هذا النَّبيَّ الكريم ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ لا بُدَّ منه، وإن أنكَرْتُم ذلك، فيَظْهَرُ دينُه على الدّين كلِّه، كما وعد بذلك، ثُمَّ نُقيم النّاس كلَّهم للحسابِ"[1].

معنى (اللّام) في ﴿لَوَٰقِعٌ﴾:

تقريبُ صِدقِ الوعدِ بالنَّصْرِ

(اللّام) في الخبر ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّوكيدِ، وفيه تقريرُ وقوعِ المُداينة في الآخرَةِ، وذلك يتَّسِق مع أُخْتِها في الخبرِ السّابق ﴿لَصَادِقٌ﴾، فيتناغَمُ المعنيان.

ولاقتِضاء الخبر لها بقوَّة، جاءت متَّصلة به بعدَ (إنَّ) المؤكِّدة في أوَّل الجملة؛ لدفع تصوُّر استبعادِ النَّصر ومجازاة الظّالمين، وتقريب صِدق الوعد بالنَّصر وتثبيت الأمل في القلوب.

دلالة صوغِ (واقع) اسمَ فاعلٍ:

التَّعبيرُ بصيغة (فاعل) عنصرُ توكيدٍ بما فيها مِن ثباتِ الاسميَّة

معنى ﴿لَوَٰقِعٌ﴾، أي: حاصلٌ "في المستقبل، بقرينة جعلهِ مرتَّبًا في الذِّكر على ما يوعدون، وإنَّما يكون حصولُ الموعودِ به في الزَّمن المستقبل"[2].

وفي صَوْغِ الخبر (واقعٌ) اسمَ فاعل تأكيدٌ لمضمونه من الوقوع والحصول، أي: لا بدَّ من وقوعه وإن أنكرتُم ذلك، وهذا فيه تآزُرٌ مَعَ المُؤكِّدات الأخرى؛ لتَرْسيخ وُقوع المداينة، ومعاقبة الكافرين، ومجازاة كلِّ مَن بغى على الدّين وأهله، وناهضَ الرَّسول الكريم ﷺ، وعادى الحقَّ وأهله.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 448 - 449.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 340.

نكتةُ ضمّ ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ إلى ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾:

حسابُ الكافرِ في الآخرة يُستوفى، وعقابهُ يوَفَّى

ذكر الرّازي في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ أنَّ معناهُ: إنَّ الجزاء كائِنٌ حاصلٌ، وعلى هذا، فالإيعادُ بالحَشْرِ في الموعدِ هو الحساب، والجزاءُ هو العقاب، فكأنَّه تعالى بيَّن بقوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ أنَّ الحسابَ يُستوفى، والعقابَ يوَفَّى(1)، فلمّا ذكر اللّه سُبحانَهُ صِدْقَ ما يوعَدونَهُ وتحقُّقَهُ؛ أتبعَهُ ببيانِ بعضِ ذلك، وهو وقوع المجازاة والحسابِ في الآخرةِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الذَّرْو والنَّشْر:

الــذَّرْوُ مظهرٌ لِلقُدرة القاهرة، والـنَّـشـر مظهر لِلرَّحمة والإحياء

الذَّرْوُ يدلُّ على التَّفريق العنيف المتناثر، ففيه حركةٌ سريعة مشتَّتة تُزيل، وتُبعثر، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾، ففي الآية دلالة على القُدرة الإلهيَّة المُبدِّدة لكلِّ متماسك؛ تمهيدًا للبعث والخَلْق والتَّقدير، وقد تضمَّن الفعلُ معانيَ الانسلاخ والتَّلاشي، والرّياح هنا تُشبِه أدواتِ القضاء والتَّهيئة.

أمّا النَّشر؛ فيدلُّ على البسط الهادئ المُنظَّم، وفيه توسعةٌ وتَجْلِيَة، كمَن ينشُر كتابًا، أو ينشر جسدًا للحياة، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣﴾ [المرسلات: 3]، فالرّيح تنشر السَّحاب أو المطر أو الرَّحمة، أي: تبسُطُها بانتظامٍ.

ولهذا كان الذَّرْوُ مَظْهَرًا من مظاهر القُدْرَة القاهرة، أمّا النَّشر؛ فمَظْهَرٌ من مظاهر الرَّحمة والإحياء(2).

الوقوع والحصول:

أصل مادَّة (وقع) تدلُّ على السُّقوط والانحدار، ومن هذا الأصل

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 159.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ذرو/ نشر).

في الوقوع معنى الانحدارِ والمُباغتَة، وفي الحصولِ معنى الجَمعِ والتَّدريج

المادّيِّ انتقل المعنى إلى الدَّلالة المعنويَّة، فصار يُستخدم للتَّعبير عن حدوث الأمر أو وقوعه بصورة مفاجئة، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾ [الواقعة: 1]، ويدلُّ غالبًا على بداية الحدوث، ويحمِل في طيّاته دلالاتِ الانفجار والانحدارِ والمباغتة، وكأنَّ الأمرَ سقَط من عل بلا إنذارٍ، فيُثير بذلك الرَّهبة والفزَع.

أمّا أصلُ مادَّة (حصل)؛ فتدلُّ على الجمع والتَّجميع، وهذا الفعل يُستخدم للتَّعبير عن تحقُّق أمرٍ بعد انتظار، أو نتيجة بعد سعيٍ أو سبب، كما يدلُّ على تمام الحدوث، فيحمل في طيّاته معنى التَّحصيل المُتدرِّج أو النَّتيجة المُتوقَّعة[1].

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (وقع/ حصل).

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ۝٨ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ ۝٩﴾ [الذاريات: 7 - 9]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

قِــوامُ معتقد الكُفّار الاختلافُ والتَّـنـاقـض، وعـدم التَّوفيق إلى الـسَّـداد في القولِ

سُبقت الآيات بالقسَم لتأكيدِ صِدق وعدِ الله تعالى للمؤمنين ووعيدِه للكافرين بالبعثِ والجزاءِ والمداينة، ثُمَّ جاءت الآياتُ هُنا بالقسَمِ؛ لتَأكيد عدَمِ صدقِ أقوالِ الكافرين ومعتقداتِهم، وأنَّها مبنيَّة على الاختلافِ والتَّناقض القاطع بكَذِبهم، وعدم توفيقِهم إلى السَّداد في القول، فالمناسبَة جَليَّة في هذا السّياق المتَّصل؛ إذْ "لمّا أخبر سُبْحانَه عن ثباتِ خَبَرِه؛ أتبَعَهُ الإخبار عن وهْيِ كلامِهم، فقال مُقسمًا عليه - لِمُبالَغَتِهم في تأكيد مضامينِه مع التَّناقض - بفِعْلِه الجميل وصُنعه الجليل؛ إشارةً إلى أنَّهم لم يتخلَّقوا من أخلاقه الحسنى بقولٍ ولا فعلٍ"[1]، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡحُبُكِ﴾: أصلُ (حبك) يدُلُّ على إحكام شَيءٍ في امتدادٍ واطِّرادٍ[2]، والحُبُك: جمع، واحدتُها: حبيكة أو حباك، وهي: الطَّريق، ومنه حُبُك السَّماء، وهي: طرائق النُّجوم، وقيل الحُبُك: تكسُّرُ كلِّ شيءٍ، كتكسُّر الماء والرَّمل والزَّرع؛ إذا ضربته الرّيح، فإنَّه يصير فيه طرائق[3]، وقد استقصى ابنُ جريرٍ أقوالَ العلماءِ في معنى ﴿ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾، وحصرها في أنَّها ذاتُ الطَّرائقِ، وذات

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 450.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حبك).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حبك).

الخَلْقِ الحَسَنِ، وأنَّ حُبُكَها: حُسْنُها واستواؤُها، وأنها ذاتُ الزّينةِ، وذات البُنيانِ المتقَنِ، وأنَّها حُبِكت، أي: شُدَّت[1].

ويقال للحائك؛ إذا أحسن النَّسْج، وأحكمه: حَبَك الثَّوبَ[2]، و"كلُّ شيءٍ أحكمتَه، وأحسنتَ عمله؛ فقد حبكتَه، واحتبكتَه"[3]، و"الفرسُ المحبوك: الشَّديد الخِلقةِ، الَّذي له حُبُك في مواضعَ من منابت شعره، وذلك دليلٌ على حسن بنيته"[4]، وقالوا: "حُبُكُها: نجومُها"[5]، والمُرادُ بحُبُكِ السَّماءِ في الآية: "نُجومُها؛ لأنَّها تُشبِهُ الطَّرائقَ الموشّاةَ في الثَّوبِ المحبوكِ المُتقَنِ"[6].

2) ﴿مُّخۡتَلِفٖ﴾: أصلُ (خلف) يدلُّ على مجيءِ شَيءٍ بَعدَ شَيءٍ يَقومُ مَقامَهُ[7]، فالخَلَفُ: المُتأخِّرُ، سواء كان تأخُّره في الزَّمَنِ أو في الرُّتبة[8]، وأمّا قولهُم: اختلَفَ النّاسُ في كذا، والنّاسُ خِلْفَةٌ، أي: مُختلِفونَ؛ فَمِن هذا الباب؛ لأنَّ كُلَّ واحِدٍ منهُم يُنَحّي قول صاحبه، ويُقيمُ نَفْسَهُ مُقامَ الَّذي نَحّاهُ[9]، ولمّا كان الاختلاف بين النّاس في القول قد يقتضي التَّنازع؛ استُعير ذلك للمُنازعة والمُجادلة، قال تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ [مريم: 37]، وقال سُبحانَهُ: ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ﴾[10]، والقَوْلُ المُختَلِفُ هنا: المُتناقِضُ الَّذي يُخالِفُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فمنهم من يقول عن القرآن الكريم: إنَّه أساطير الأوَّلين، ومنهم من يقول عن الرَّسول ﷺ: إنَّه ساحرٌ أو مجنون[11].

3) ﴿يُؤۡفَكُ﴾: أصلُ (أفك) يدُلُّ على قَلْبِ الشَّيءِ وصَرفه عَن جِهَتِه، يُقالُ: أُفِكَ الشَّيءُ، وأفِكَ الرَّجُلُ؛ إذا كذَبَ، والإفكُ: الكَذِبُ[12]؛ لأنَّ الكذِبَ مَصروفٌ عن الوَجْهِ الحَقِّ، وكُلُّ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 486 وما بعدها.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 375.
(3) القِنّوجيّ، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 191.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 173.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 396.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 341.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).
(8) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).
(10) الراغب، المفردات: (خلف).
(11) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 341، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 12.
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أفك).

قَوْلٍ مَصْروفٍ عن الحَقِّ؛ فهو إفْكٌ، والأفّاكُ: الذي يَأفِكُ النّاسَ، أي: يَصرِفُهُم عن الحَقِّ بباطِله[1]، ويُؤْفَكُ: يُصرَفُ، والأفْكُ: الصَّرفُ، وأكثَر ما يُستعمَلُ في الصَّرفِ عن أمرٍ حَسَنٍ[2]، فالمقصود بقوله تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾، أي: يُصرف عن القول المختلفِ، أي: بسبَبه مِن صَرْفٍ عن الإيمان[3].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

سنَّةُ الله تعالى في عموم النّاسِ الاختلافُ، وطبيعة الكفّار في التّفكير التّناقض

وأقسم بِخالق السَّماء أو: وأقسم بالسَّماء[4]، ذات الطُّرق المتعدِّدة، وذات الهيئة البديعة المُحْكَمَة الجميلة المُتقَنَة البِناء، الشَّديدة الحبك، الحسَنَة الصّورة، ذات الإبداع في تخطيط طرائقها وزينة كواكبِها على أنَّكُم - أيُّها النّاس - مختلفو المشارب، متباينو الاعتقادات، فمنكم المؤمنُ الموفَّق، والكافر المخذول المخفِق، وأنَّكم - أيُّها الكفّار المخذولون - متناقضو الأقوال الدّالَّة على اختلال عقائِدِكُم.

فبينَما تقولون: محمَّدٌ صاحبُ الغلبة عليكم بقوَّة حُجَّته؛ تَرْمونه بالكذب والجنون والسِّحر والكهانة، وبينما تَستَخفون لِتَستَرِقوا استماعَ القرآن الكريم من محمَّدٍ ليلًا، تتَّهمون القرآن الكريم بأنَّه سحر وكهانة، وأنَّه أكاذيب، وأساطير الأوَّلين، وبينما تعتقدون أنَّ الله تعالى خالق السَّماوات والأرض ومَن فيهن، تكفُرون به، وتشركون به، وتَعْبُدون غيره، وفي أحسن أحوالِكُم وأقوالكم - وكلُّها قبيحةٌ - تقولون في معبوداتكم: ما نعبدهم إلّا ليقرِّبونا إلى الله زُلْفى، فأيُّ غفلة تلفُّكم؟ وأيُّ تناقضٍ يسفِّه أحلامكم؟ وأين عقولكم الّتي تحسبونها رزينةَ الفكر قويمةَ الفهمِ؟ ومن هنا فإنَّه لا يُصرف

(1) الجوهري، الصحاح، وابن الأثير، النهاية، وابن منظور، لسان العرب: (أفك)، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 81.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 342.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 26/ 174.
(4) "القسم بعين السماء، أو رب السماء"، يُنظر: الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 375.

عن الإيمان بهذا القرآن الكريم، الَّذي جاء به الرَّسول ﷺ إلّا مَن صرفَهُ اللّه تعالى عنه؛ بسبب إيثاره الغيَّ على الرُّشد، والضَّلالة على الهداية، والكفرَ على الإيمان[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ القسَم بالواوِ في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾:

(الواو) في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ واو القسَم، وقد كُرِّرت هنا بعد القسَم بها في أوّل السّورة الكريمة؛ للانتقالِ بالقسَمِ من القسَم بعظائم المخلوقاتِ في الأرض إلى عظائمِ المخلوقات في السَّماء؛ ليطَّرد السّياقُ على تحرير قضيَّة الدّين.

اللّه تعالى يُقْسِم بما يشاء على ما شاء، أمّا العباد؛ فلا يُقْسِمون إلّا به سُبحانه

والقولُ في القسَم بـ (السَّماء) كالقول في القسَم بـ (الذاريات)؛ جيء به لتحقيق اضطراب أقوال الكافرين في الطَّعن في الدّين، وهو بمنزلةِ التَّذييل للَّذي قبله؛ لأنَّ ما قبله خاصٌّ بإثبات الجزاء، وهذا يعمُّ إبطالَ أقوالِهم الضّالَّة، فالقَسَمُ لتأكيد المُقسَم عليه؛ إذ إنَّ أصحابَ الرَّأي المختلف من الكفّار غير شاعرين بحالهم المُقسَم على وقوعه، ومُتَهالِكون على الاستزادة منه، فهم مُنْكِرون لما في أقوالهم من اختلافٍ واضطراب، جاهلون به جهلًا مركَّبًا، والجهلُ المركَّب إنكارٌ للعلمِ الصَّحيح[2].

القسَمُ لإبطالِ أقوالِ الكافرين واعتقاداتهم الضّالَّة، وبيان اضطِرابهم

دلالةُ تعريف ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾:

(أل) في ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ للعهد العلميِّ، أي: وربِّ السَّماء الَّتي تعرفونها، وترونها من فوقِكم، وقال ابن عُمَر: إنَّها السَّماء السّابعة[3]؛ وذلك لِما فيها من عظائم المخلوقاتِ، وفي القسَم بها إشارةٌ إلى عظمة خَلْقِها، وإحكام بنائها، وعجيب ما فيها، ممّا يَلفت اللّه تعالى

يجدرُ بالمؤمن العنايةُ بتدبُّر ما يقسم الله تعالى به من مخلوقاته

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 12.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 340.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 362.

إليه بهذا القسَم، ويدلُّ على وحدانيَّته وعظيم قُدرته، الَّتي أبدعت تلك السَّماء المتينة البنيان المَحْبوكة الصُّنعة.

وجهُ التَّعبيرِ بالموصول ﴿ذَاتِ﴾:

حُسنُ خَلقِ السَّماء، وإحكامُ بنائها صفةٌ لازمةٌ راسخةٌ فيها

لفظة ﴿ذَاتِ﴾ مؤنَّث (ذو)، الَّذي هو بمعنى: صاحب، فتكون أِلفُها مُبْدَلةً من الواوِ، ووقع في كلامِهم مضافًا إلى الجِهات وإلى الأزمانِ وإلى غيرهما، وتَجْري مَجْرى الصِّفة لموصوفٍ يدلُّ عليه السّياق[1]، وتدلُّ على شدَّة اتِّصال السَّماء بصفة ﴿ٱلۡحُبُكِ﴾ بوصفها صفةً جوهريَّة فيها، ملازمةً لها من أوَّل بدءِ خَلْقِها؛ لأنَّ لفظ (ذو) يفيد مبادئ الشَّيء وأوائلَه[2].

نكتةُ وصف (السَّماء) بـ ﴿ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾:

وصف الحُبُك أجمَعُ أوصافِ السَّماء هندسةً ومتانة وزينَةً

في وصفِ (السَّماء) بـ ﴿ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾ خاصَّةً من بين سائرِ أوصافِها تهيئةٌ للمقسَم عليه من تفرُّق المُخاطَبين من النّاس، أو مِنَ الكُفّار إلى طرائقَ شتَّى في قَبول الدّين ورَفْضِه.

و"الحُبُك جمع: حبيكة، بمعنى: محبوكة، أي: مربوطة فمعنى ﴿ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾: ذاتُ المجاميع من الكواكب المربوطِ بعضِها ببعضٍ بحبال من الجاذبيَّة، فإنَّ كلَّ حبيكةٍ مجموعةٌ مِنَ الكواكب المتجاذبة، فالآية الشَّريفَةُ نصٌّ على تعدُّد المجاميع، وعلى الجاذبيَّة الَّتي يزعم الإفرنج أنَّهم مكتشفوها، وعليه فهي إحدى معجزات القرآن العلميَّة"[3].

وعلى هذا؛ فقد اصطفى النَّظم الكريم أجمعَ صِفاتِ السَّماء في مفردة ﴿ٱلۡحُبُكِ﴾، من حيثُ هندسَةُ الشَّكل، ومتانة البناء، وزينة المنظَر.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 253.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 179.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 36.

وجهُ المناسبةِ بين المُقسَم به والمُقسَم عليه:

من إبداع الذِّكر الحكيم مراعاةُ المناسبة بين المقسَم به والمقسمِ عليه

نكتةُ القسَمِ بالسَّماء في هذا الموضع "تشبيهُ أقوالهم في اختلافها وتنافي أغراضِها بِطرائق السَّماوات في تباعُدِها واختلاف غاياتِها"[1]، فكلامُكم يا معشرَ الكفّار متدافع، وإن كنتُم تجتهدون في تزيينه وتقريبه للأفهام وتحسينه؛ فإنّه لا يكاد إذا عَرَضه النّاقد على الفكر النّافذ؛ يَنضبط بضابطٍ، ولا يرتبط برابط[2]، وإلى ذلك فَإجراءُ هذا الوصفِ ﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ على السَّماء إدماجٌ، أُدْمِج به الاستدلالُ على قدرة الله تعالى مع الامتنانِ بحُسْنِ المَرْأى[3].

دلالةُ تعريف ﴿ٱلْحُبُكِ﴾:

خَلْقُ السَّماءِ المحكمِ المتين بزينتها وحُسْنِها، دليلُ عظمَةِ الخالق سُبحانه

(أل) في ﴿ٱلْحُبُكِ﴾ لتعريف العهد العلميِّ، أي: الحُبُك المعلومة لدَيْكم - أيُّها المُخاطَبون - في كلامِكم.

فالمعنى: وأقسِمُ بالسَّماء ذات الطُّرق المتداخلة المتقاطعة، الباديةِ بين أنجُمها ومجرّاتِها، وذات الخَلْق المستوى البديع، المحكم المتين المَشْدود، وذات الزّينة المنتثرة في نواحيها.

بلاغةُ التَّوكيد بـ (إنَّ) واللّام:

الكفرُ يطمِس البصائر، فلا يرى الكافرُ عيوبَه، بل يُنْكِرُ وجودَها

التَّوكيد في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ بذلك التَّكاثف لافتٌ بقوَّة إلى أنَّ اختلافهم مثارُ تعجيبٍ؛ لأنَّ اختلاف آرائهم ومواقفهم قد بلغ حدَّ التَّناقض البيِّن، ومع ذلك لا يزالون مُجدّين في هذا الطَّريق.

فالتَّوكيد يحقِّق عليهم ذلك التَّناقض، ويوقِفُهم على زراية التَّناقض بهم وخِزيه عليهم؛ لعلَّهم يرتدعون، ويخجلون، وفيه دليلٌ على أنَّهم غارقون في الغفلةِ وفي اضطرابِ أقوالهم إلى حدِّ أنَّهم لا ينتبهون لذلك أصلًا.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 5/ 146.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 451.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 341.

بيانُ مرجِع الضَّمير المخاطَب في ﴿إِنَّكُمۡ﴾:

تنبيهُ المُخطِئ ليَرْجِعَ إلى الطَّريق المُسْتَقيمِ

ضمير الخطاب في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ﴾ يرجعُ إلى كفّار قريش الَّذين ثارت ثَوْرَتُهم حينما بُعث إليهم النَّبيُّ ﷺ، فذهبوا تلك المذاهب الشَّتيتة إزاءَ الرَّسول ﷺ والقرآنِ، والمعنى: إنَّكُم يا أهلَ مكَّة[1]، ويجوز أن يكون الخطابُ للنّاس جميعًا، أي: إنَّكم أيُّها النّاسُ لَفي قولٍ مختلفٍ في هذا القرآنِ، فمِن مُصدِّقٍ به ومُكذِّبٍ[2]، ومؤمن وكافر[3]، فيكون الخطابُ خرجَ عَن أصله من إرادَةِ المُعيَّن قَصْدًا إلى العُموم.

وفي هذا الخِطاب المُباشر، وبِهذا التَّوكيد الكثيفِ تنبيهٌ للمُخطئين؛ ليَثوبوا إلى السَّبيل القويم.

دلالةُ الجمع في ﴿إِنَّكُمۡ﴾:

جرت حكمةُ الله تعالى بأن يظلَّ النّاس مختلفين

في جمع المخاطَبين في ﴿إِنَّكُمۡ﴾ إدخالُ أهل الكفر منذ البعثةِ إلى يوم القيامَةِ، وأنَّهم في كلِّ جيل وقبيلٍ متناقضو المواقف والآراء، تُجاهَ أنبيائهم عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وخاصَّة كفّار قريشٍ، فإنَّهم اضطربوا غاية الاضطرابِ فيما يتعلَّق بالقرآن الكريم والرَّسول الخاتم ﷺ.

معنى (اللّام) في المتعلّق ﴿لَفِي قَوۡلٖ﴾:

من شدَّة غفلة الكافرين لا يُجدي فيهم تقريعٌ ولا تخويفٌ

(اللّام) في متعلّق الخبر ﴿لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ﴾ لام التَّوكيد، المتآزرة مع (إنَّ) قُبَيلها في ﴿إِنَّكُمۡ﴾، ومع اسميَّة الجملة؛ إلحاحًا على إيقاظ المخذولين منهم من غفلتهم؛ لأنَّهم غافلون عن الحقِّ، والمعضلة أنَّهم لا يدرون أنَّهم غافلون، فيتخبَّطون، وتتناقض أقوالُهم في سوق حُججهم لإثبات صحَّة كُفْرهم وخطأ الحقِّ وأهله.

---

(1) القِنّوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 191.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 490.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 173.

وهذا مِن مُقْتَضيات تكثيفِ التَّوكيد، وتنويع أدواته الَّتي تقرعُ أسماعَهُم، وتتآزر على إفاقتهم من غفلة التَّناقض، والغالب أنَّها مع كثافَتِها تلك لا تُجدي فيهم نفعًا؛ دليلًا على شدَّة ما يلفُّهم من لفائف الضَّلال.

معنى (في) في قوله: ﴿لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾:

الكُفّارُ غارقونَ فـي مستنقع الآراء الفاسدةِ الحاجبةِ لهم عَن رُؤْيَةِ الحقِّ

(في) من قول الله تعالى: ﴿لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ حرفٌ دالٌّ على الظَّرفيَّة، مستعمل هنا في "الظَّرفيَّة المجازيَّة، وهي شدَّة الملابسة الشَّبيهة بملابسة الظَّرف للمظروف، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة: 15]"(1).

وتلك الظَّرفيَّة داعمَةٌ لبيانِ استغراقهم في الغفلةِ، وتورُّطهم في التَّناقض، مصوِّرة قولَهم المتباعد عن الحقيقة المجافيَ للمنطق والصَّوابِ بمستنقع آسنٍ، وهم قد سقطوا في وحْلِه.

دلالةُ لفظِ القول:

وَهـــيَ حُـجَـجِ المُبْطِلين

عبَّر الذِّكر الحكيم عن الظَّرف الَّذي يحيط بهم، ويستحوذ عليهم بـ ﴿قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ دونَ الكفر والضَّلال، فلم يَرِدِ البيانُ القرآنيُّ: (لفي كفر أو ضلالٍ)، وفي ذلك رُقيٌّ في الخطابِ من شأنه أن يُخْجِلَ المخاطَبَ به في مقابلةِ سفالة تكذيبِهم وانحطاط تسفيههم للرَّسول الكريم ﷺ وللكتاب العزيز.

وفي التَّعبير بلفظ القولِ أيضًا إشعارٌ بأنَّه لا يعدو حدودَ القول، ولا يرقى إلى أن يكون حقيقةً ثابتةً، وكأنَّه يقول لهم: إنَّكم "وإن كنتُم تجتَهِدون في تَزْيينه وتقريبه للأفهام وتحسينه؛ فإنَّه لا يكاد إذا عَرَضه النّاقد على الفِكْر النّافذ؛ ينضبط بضابطٍ، ولا يرتبط برابط، بل تارة تقولون: هذا شعرٌ، فيلزمكم وصفُه بما تصفون به الشِّعر من الاتِّساق بالوزن المجرَّد والرَّوي المتَّحِد، والعذوبة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 342.

والرَّشاقة، وتارة تقولون: هذا سحرٌ، فيلزمكم مع الإقرار بالعجز عنه أنَّه لا حقائقَ له، والواقع أنَّه لا يتأمَّله ذو فهْمٍ إلّا رأى حقائقَهُ أثبَتَ مِنَ الجبال، وتارة تقولون: أضغاث أحلامٍ، فيلزمكم أنَّه لا ينضبط بضابط، ولا يكون له مفهوم يحصل، ولا يعجز أحدٌ عن تلفيقِ مِثْلِه، فقد أبطلتُم قولكم: إنَّه شعر، وإنَّه سحر"[1].

نكتةُ تنكيرِ ﴿قَوْلٍ﴾:

كـلامُ الكافرين في الرَّسول ﷺ والقرآن لا يصدر عــن الـعـقـلاء مثلُه

في تنكيرِ لفظِ ﴿قَوْلٍ﴾ من قول اللّٰه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ إيماءٌ إلى أنَّه قول مُنْكَر، لم يُعهد مِن العقلاء مثلُه، وما كان ينبغي أن يَصْدُرَ منهم ذلكَ، وليس الرَّسول ﷺ، ولا القرآن الكريم بمنزلةِ مَن يُقال فيهما قولٌ مِن التَّناقض والاختلاف والتَّهافُت مثله.

دلالةُ الوصف ﴿مُّخْتَلِفٍ﴾:

من لا يثبتُ على قـولٍ؛ لا يتيقَّن اعتقاده

الوصف بمختلف يعني أنَّهم "غير ثابتين على أمرٍ، ومَن لا يثبت على قولٍ لا يكون مُتَيَقِّنًا في اعتقادِه، فيكون كأنَّه قال تعالى: (والسَّماء إنَّكم غير جازمين في اعتقادكم، وإنَّما تظهرون الجزم لشدَّة عنادكم)، وعلى هذا القول فيه فائدة، وهي أنَّهم لمّا قالوا للنَّبيِّ ﷺ: إنَّك تعلَمُ أنَّك غيرُ صادق في قولك، وإنَّما تجادل، ونحنُ نعجز عن الجدلِ؛ قال: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١﴾، أي: إنَّك صادق، ولستَ معانِدًا، ثُمَّ قال تعالى: بل أنتُم - واللّٰه - جازمون بأنّي صادق، فعكس الأمر عليهم"[2].

ويجوز أن يكون معنى ﴿مُّخْتَلِفٍ﴾، أي: متناقض، قال الإمام الرازي موضّحًا وجوه وقوعهم في التناقض: "أمّا في الحشر؛

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 451.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 163، وذهب الرازي إلى وصف القول بمختلف قيل في حقِّ محمّد ﷺ، إذ تارة يقولون: إنّه أمين، وأخرى إنّه كاذب، وتارة ينسبونه إلى الجنون، وتارة يقولون: إنّه كاهن وشاعر وساحر، وذكر أنّ هذا - مع احتماله - ضعيف، إذ لا حاجة إلى اليمين على هذا، لأنّهم كانوا يقولون ذلك من غير إنكار حتى يؤكّد بيمين.

فلأنَّكم تقولون: لا حشر ولا حياة بعد الموت، ثمَّ تقولون: إنّا وجدنا آباءنا على أمَّة، فإذا كان لا حياةَ بعد الموتِ، ولا شعور للميِّت، فماذا يُصيب آباءَكم؛ إذا خالفتُموهُم؟ ... وأمّا في التَّوحيد؛ فتقولون: خالق السَّماوات والأرض هو الله تعالى لا غيره، ثُمَّ تقولون: هو إله الآلهةِ، وتَرْجِعون إلى الشِّرك، وأمّا في قول النَّبيِّ ﷺ، فتقولون: إنَّه مجنونٌ، ثُمَّ تقولون له: إنَّك تغلبنا بقوَّة جدلك، والمجنون كيف يقدِر على الكلام المنتظم المعجز، إلى غير ذلك من الأمور المتناقضة"[1].

لطيفةُ حذفِ متعلّق اختلافِهم:

القرآنُ الكريم والرَّسول ﷺ، فوقَ الشُّبهات لدى مَن يَعْقِل

متعلِّق اختلافهم هو القرآن؛ إذ يقولون: إنَّه سحر، وكهانة، ورجز، وما سطَّره الأولون، أو هو محمَّد ﷺ، فبعضكم يقول: إنَّه شاعر، وبعضكم يقول: مجنون[2].

ومن لطائف حذف المتعلّق: تَرْكُهم يبحثون بعُقولهم ليُدْرِكوه، فيَرْتَدِعوا؛ لأنَّ اختلافهم في كلٍّ مِنَ القرآن الكريم والرَّسول ﷺ دليلُ ضعفِ عقولهم، فمِن جِهَةٍ قَد بلغَ اختلافُهم حدَّ التَّناقض، ومن جهةٍ ليسَ الصّادق الأمين، ولا القرآنُ الَّذي وصفه كبيركم بأنَّ له لحلاوةً؛ ليس ذاك ولا ذلكَ بمنزلَةِ أن يُختلف فيه، فكلاهما فوقَ الشُّبهات لدى مَن يَعْقِلُ.

دلالةُ صَوْغِ ﴿مُّخْتَلِفِ﴾ اسمَ فاعِلٍ:

القولُ المتناقض وصمةُ عارٍ لازمةٌ صاحِبَها

في صَوْغِ الوَصْفِ ﴿مُّخْتَلِفِ﴾ اسمَ فاعل إشارةٌ إلى رُسوخِ ذلك القولِ في التَّناقض، وأنَّ الحُكم باختلالِه واختلافه وتناقُضه ثابتٌ مقرَّر، لا سبيل إلى التَّبرُّؤ منه، وأنَّه وصمةُ عارٍ لاطَت بهم.

بلاغةُ الكنايةِ في لفظ ﴿مُّخْتَلِفِ﴾:

في وصف قول هؤلاء المتناقِضين بـ ﴿مُّخْتَلِفِ﴾ كناية عن لازمِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 163.

(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 174.

اختلافُ القول وتناقضُه دليلُ الاضطرابِ في الاعتقادِ

الاختِلاف، وهو التَّردُّد في الاعتقادِ، ويَلْزَمُه بُطلان قولِهم، وذلك مَصَبُّ التَّأكيد بالقسَم[1]، أي: ما دام القولُ مختلِفًا - وهو صدَى اعتقادٍ سبقَه - فلا بُدَّ أن يكون ذلك الاعتقادُ متناقِضًا، فكان في الكلامِ دليلُ اختلالِه، والشَّأنُ في الكناية عن المعنى أنَّك "زِدْتَ في ذاته، بل المعنى: أنَّك زِدْتَ في إثباته"[2].

علَّةُ فصلِ قوله: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ عمّا قبله:

الكلامُ المُتناقِضُ باعثٌ على الإضلال

فُصِلَ قول الله تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لشدَّة ارتباطه به؛ لأنَّ "جملة ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ يجوز أن تكون في محلِّ صفة ثانية لـ ﴿قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾، ويجوز أن تكون مستأنَفة استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾ [الذاريات: 6]، فتكون جملة: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ معترِضةً بين الجملة البيانيَّة والجملة المبيَّن عنها"[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالإفك في الفعل ﴿يُؤْفَكُ﴾:

مِن براعة النَّظم الكريم اصطفاءُ المفردات الأغزر دلالةً ووفاءً بحقِّ السّياق

من معاني الإفكِ: الكذبُ، والإثمُ، والأفَنُ، وضَعف العقل، والصَّرفُ عن الحقِّ إلى الباطل، وكلُّ هذه الدَّلالات تفوح من التَّعبير بالإفك في الفعل ﴿يُؤْفَكُ﴾[4]، وهؤلاء المتناقضون قَد صُرِفوا عن الحقِّ، ودُفِعوا عنه، وضلّوا، وكُذب عليهم، وسُلِّط عليهم الأفَنُ وضَعْفُ العقل وسفاهة الأحلام، ولا توجد مادَّة لغويَّة تعظُم دلالتُها، وتتآزر بها التُّهم كمادَّة الإفك لهذا المقامِ الخطير.

دلالةُ المُضارعةِ في الفعل ﴿يُؤْفَكُ﴾:

لا تزال آثار الضَّلال تُرْهِق صاحبَه، وتُجَدِّد عليه التَّبعات وتُنَوِّعها

ممّا يدعم الإزراء على أصحابِ القولِ المُختلِّ في هذا المقام صوغُ الفعل ﴿يُؤْفَكُ﴾ مضارعًا؛ وذلك لِما فيه من خاصيَّة التَّجدُّد، فيُفيدُ الفعلُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 342.
(2) الجرجاني، دلائل الإعجاز: 1/ 71.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 341.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 363.

تجدُّدَ الإفكِ والإثم، والكذِب، والأفَن، والصَّرْف -وما إليها- عليهم، وتنوُّعَها، وتعاظُمَها، ممّا يُلجئ العقلاءَ إلى التَّبرُّؤ من ذلك القول.

لطيفةُ بناءِ الفعل ﴿يُؤْفَكُ﴾ للمفعول:

جهاتُ صرفِ النّاس عن الحقِّ كثيرة، لا تكاد تنحصِرُ

فاعل فعل الإفك في قوله تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ هم المشركون الصّارفون لقومهم عن الإيمان"[1]، وبُنيَ الفعلُ ﴿يُؤْفَكُ﴾ لغير فاعله تَنَزُّهًا عن ذكر الفاعل، وإهمالًا لِقَدْره؛ لأنَّه أفّاك يَصدُّ عن الحقِّ، ويَصرف عنه النّاس.

وفي حذف فاعل ﴿يُؤْفَكُ﴾ أيضًا توفيرُ العناية على خطر الإفك على المأفوك المصروف، وتحذيرٌ له من إفك الأفّاكين، دون تعليق ذلك على آفكٍ معيَّن، وفيه أيضًا إشارةٌ إلى كَثرة فاعلي الإفك، وتعدُّد جهاته، ممّا ينبِّه النّاس، ويلفتهم إلى الحذر من كلِّ أحد، ومن كلِّ شيء يأفك، مثل فتنة الأموال والأولاد، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: 28]، وقوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد: 20]، إلى غير ذلك ممّا حذَّر منه الوَحيانِ الشَّريفان؛ تأكيدًا لتعدُّد جهاتِ الصَّرف والإفك، ومِن هنا فحَذْفُ فاعلِ ﴿يُؤْفَكُ﴾ وإبْهام مفعولِه بالموصوليَّة للاستيعاب مع الإيجاز[2]، فأنواعُ الآفكين لا تكادُ تَنْحَصِرُ مِن فِتَنِ هذه الحياة الدُّنيا، فكان في حذْفِ الفعلِ إيجازٌ بليغ.

معنى (عن) في القيد ﴿عَنْهُ﴾:

مُجاوزَةُ أهلِ الكُفْرِ للاعتِقادِ الصَّحيح إلى الباطِل

(عن) في جُملَة: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ حرفٌ دالٌّ على المُجاوزة[3]، وفيه دلالةٌ على تجاوُزِهم الحقَّ في الاعتقاد إلى الباطل، والصِّدق في المقالِ إلى الكذب، والجميل في الفِعْلِ إلى القَبيح[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 343.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 343.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 343.
(4) الراغب، المفردات: (أفك).

وعُدّيَ الفعلُ ﴿يُؤۡفَكُ﴾ بـ (عن) لتُضَمِّنه معنى الفعل (يخدع)، فالمأفوك المأفون يُصرف بخديعةٍ وتضليل، لا بأدلَّة وحُجج صحيحة؛ لذلك فهو مأفوكٌ مأفون، يُؤفك، ويخدع، وفي ذلك إزراءٌ له ووقْعٌ شديد عليهِ؛ لعلَّه يستفيق.

ويجوزُ أن تكونَ (عن) "للتَّعليل، كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ﴾ [هود: 53]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: 114]"[1].

بيانُ مرجِعِ الضَّمير في ﴿عَنۡهُ﴾:

الأفّــاكــون لا يَــأْفِـكــون، ولا يَصْرِفون إلّا عن خيرٍ

مِن الاتّساق البديع في هذا السّياق الَّذي يُعالِج المأفوكينَ طيُّ المأفوك عنه في ضمير المجرور ﴿عَنۡهُ﴾؛ وذلك لِتعدُّده، وهو خيرٌ على كلِّ حال؛ لأنَّ الآفك عنه مذموم ملعون في الفعل ﴿قُتِلَ﴾، والمأفوك عنه كتابُ اللّه[2] تعالى - القرآن الكريم - أو إلى الرَّسول ﷺ، أو إلى الدّين الحقِّ الَّذي يدعو إليه الرَّسولُ ﷺ، أو إلى ﴿قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ﴾[3]، أو إلى الحشر، والبعث والتَّوحيد[4].

وفي ذلك مدحٌ للمؤمنين؛ لأنَّهم أُرشدوا إلى القولِ المُستَوي، ولَم يُؤفَكوا، أو يُصرَفوا عن القول المُختَلِف[5].

علَّةُ التَّعبير بالموصولِ ﴿مَنۡ﴾:

الإفكُ مِن أخطر صوَرِ الإضلالِ

المقصود بـ ﴿مَنۡ أُفِكَ﴾ مَن حَرَمَه اللّه تعالى الإيمانَ بمحمَّد ﷺ والقرآن الكريم[6]، مِنَ المشركين المَصروفين عن التَّصديق، والمراد بالَّذي فَعل الإفكَ المُشْرِكون الصّارفون لقومِهم عن الإيمان، وهُما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 342.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 491.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 396.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 163، والقِنّوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 192.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 163.
(6) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 174.

الفريقان اللَّذان تضمَّنهما قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصلت: 26][1].

وفي إيثار النَّظْم الكريم التَّعبيرَ عن المأفوكين - وما أكثرَهم - بالاسم المَوْصول ﴿مَنۡ﴾ في جملة: ﴿يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ﴾ إتاحةٌ لتَكْرار مفردَةِ (الإفك) في جملة الصِّلة: ﴿أُفِكَ﴾، وفي تكرارها تنبيهٌ إلى مَخاطِرها، وإمعانٌ في تقريعِ المَأْفوكِ المَخْدوع الخاسر.

دلالةُ المُضيّ في الفعل ﴿أُفِكَ﴾:

حِرْمانُ التَّوحيد ولوازِمِه هو الحِرْمانُ كُلُّه

المأفوكُ عنهُ هنا: كلُّ خير وسعادةٍ[2]، وفي العدولِ عن صيغةِ المُضارعة في ﴿يُؤۡفَكُ﴾ إلى صيغة المُضيِّ في ﴿أُفِكَ﴾ دعمٌ لقَرْعِ المأفوك، وتنبيههُ إلى أنَّ صَرْفه عن الحقِّ تَمَّ مرَّةً، وانتهت، لكنَّ آثارها الخطيرة ستظلُّ تتجدَّد عليه إلى أبد الآبدين؛ لما في قوله تعالى: ﴿مَنۡ أُفِكَ﴾ من مُبالغةٍ؛ إذِ المعنى: أنَّ مَن أُفك؛ فَقَد صُرِف الصَّرْف الَّذي لا صَرف أشدَّ منه، ولا أعظم، كقوله: لا يَهلك على اللّه إلّا هالك[3]، فكأنَّه لا مأفوكَ سواه؛ لشِدَّة إفكِه وعجيبِ أمره[4].

وذلك أنَّ قولك: "يُصرَف عنه، يُغني عن قولك: مَن صُرِف؛ لأنَّه بِمجرَّده بمنزلةِ التَّكرار للأوَّل، لولا ما يُستَشعَرُ فيه من فائدةٍ تأبَى جَعْلَه تَكرارًا، وتلك الفائدة: أنَّك لمّا خصَّصت هذا بأنَّه هو الَّذي صُرِف؛ أفهَمَ أنَّ غيرَه لَم يُصرَف، فكأنَّك قلت: لا يَثبُت الصَّرْفُ في الحقيقة إلّا لِهذا، وكلُّ صرفٍ دونه فَكَلا صرفٍ بالنِّسبة إليه"[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 343.
(2) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 9.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 396.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 453.
(5) ابن المنيّر، الانتصاف: 4/ 396.

ويجوز أن يكون المعنى: يُصرَف عنه مَن صُرِف في سابقِ عِلْمِ اللّٰه تعالى، أي: عَلِمَ فيما لَم يَزَلْ أنَّه مأفوك عن الحقِّ لا يَرْعَوي[1].

لطيفةُ بناء الفعل ﴿أُفِكَ﴾ للمفعولِ:

أهلُ الإضلالِ يَحملون أوزارَهُم وأوزارَ مَن اغتَرَّ بضَلالهم

في بناء الفعل ﴿أُفِكَ﴾ للمفعولِ استيعابٌ لِكثرة المأفوكين مَعَ إيجازِ العِبارة، وقد حمَّلهم اللّٰه تعالى بقوله: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ تبِعةَ أنفُسِهم وتبِعةَ المَغْرورين بأقوالهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت: 13][2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإفك والصّرف:

الإفْكُ هو الكَذِبُ والصَّدُّ، والصَّرف هو الرَّدُّ والإرجاع

الجذر (أفك) فيه مَعْنى العُدولِ عن الشَّيء والانحرافِ عنهُ، وأصلُهُ يَدُلُّ على الكذب والصَّرف عن الشَّيء، أمّا دلالته؛ فهي الكذبُ بالباطل، وقد يُطلق على أعظم أنواعه، كالكذب على اللّٰه سبحانه، أو قَلْب الحقائق، ومن ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ [النور: 11]، أي: بالكَذِبِ المُفترى[3].

أمّا الجذرُ (صرف)؛ فيدلُّ على التَّغيير والتَّحويل عن أصل الشَّيء إلى غيره، ودلالته التَّحويل من شيءٍ إلى آخر، أو الإبعاد والانصراف[4]، ومنه قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ [يوسف: 24].

فالجامِعُ بين اللَّفظين هو الانحراف عن الأصل، لكنْ في (الإفك) يكون الانحراف كذبًا وافتراءً، أي: قَلْبًا مُتعمَّدًا للحقِّ إلى

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 396.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 343.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (أفك).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صرف).

باطل، وأمّا في (الصَّرف)؛ فالانحراف تحويليٌّ قد يكون بقصد الهداية أو الإضلال، أو بتدبير من الله ﷻ.

فكلا اللّفظين يشتركان في "العُدول"، لكنّ يفترِقانِ في جهة الفِعل وطبيعَةِ العُدولِ.

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ١١ يَسْـَٔلُونَ
أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ١٣ ذُوقُوا۟
فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ١٤﴾ [الذاريات: 10 - 14]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

تحقيرُ حالِ أهلِ الكُفْرِ وتعجيبٌ مِن سوءِ حالِهم

لمّا ذكر اللّه ﷻ في الآيات السّابقة اختلافَ أقوال المشركين اختلافًا كبيرًا، بلغ حدَّ التّناقُضِ فيما يتعلّق بصِدْقِ بَعْثه ﷺ، وإنزال القرآن الكريم من عند اللّه تعالى؛ أخبر هنا بطَرْدهم مِن رحمته ﷻ، فهو دعاءٌ بالهلاك على أصحابِ ذلك القول المختلِف، أُجْري مُجْرى اللّعن والتّحقير والتّعجيب من سوء أحوالهم، فالمقصودُ بقَتلهم: أنَّ اللّه تعالى يُهلكهم؛ إذ يَكثُر أن يُقال: قاتله اللّه[1].

ولمّا كان الكذِبُ هو الإخبارَ بما لا حقيقة له وتعمُّد الافتراء، وكان الخَرْص يتضمَّن الكذبَ والافتراء والاختلافَ وكلَّ قول بالظَّنِّ؛ كان مناسبًا أن يُرَسِّخ الوصفَ الَّذي استحقّوه بقولهم، فبين وصفِهم بالإفكِ وبينَ الدُّعاء عليهم بوصف الخرصِ غايةُ التَّناسُبِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾: أصْلُ (خرص) يدلُّ على حَزْرِ الشَّيءِ وتَقْديره[3]، تقولُ: خَرَصْتُ النَّخْلَ أخْرِصُهُ خَرْصًا؛ إذا حَزَرْتَ ثَمَرَهُ، وقَدَّرْتَهُ[4]، وباعَهُ خَرْصًا، أي: تقديرًا من غيرِ وزنٍ[5]، والخَرْصُ: الكذِب، وهوَ مِن هَذا؛ لأنَّهُ يَقولُ ما لا يَعْلَمُ، ولا يَحُقُّ، يقال: خَرَصَ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 343.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 453.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (خرص/ حزر).
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خرص).
(5) الخليل، العين: (خرص).

وتَخَرَّص، واختَرَص، أي: افترى الكذب[1]، والخَرْصُ: الظَّنُّ الَّذي لا حُجَّةَ لصاحِبه على ظنِّه، والخَرّاصونَ في الآية هم أصحابُ القَوْلِ المُختَلِف، والمُرادُ هنا: الخَرْصُ بالقَوْلِ في ذاتِ اللّه تعالى وصِفاتِه[2]؛ ظنًّا وحدسًا ما لا يعلمون، وكلُّ مَن قال بالظَّنِّ؛ فهو خارص[3].

2) ﴿غَمْرَةٍ﴾: أصلُ (غمر) يدُلُّ على تَغطيةٍ وسَترٍ في بَعْض الشِّدَّة، مِن ذلك الغَمرُ: الماءُ الكثيرُ، وسُمّيَ بذلكَ؛ لأنَّهُ يَغْمُرُ ما تَحْتَهُ، وجُعل مثلًا للجهالة الَّتي تَغْمُرُ صاحبها[4]، وهو أيضًا: الَّذي لم يُجَرِّبِ الأمورَ، والغَمرةُ: حَيْرةُ الكُفّارِ، قالَ اللَّيْثُ: الغَمرةُ مُنْهَمَك الباطِل، ومُرْتَكضُ الهولِ غَمرةُ الحَرْب، ويُقالُ: هو يَضْرِبُ في غَمرَةِ اللّهْو، ويَتسكَّع في غَمرَةِ الفِتنة، وغَمرةُ المَوْتِ: شدَّةُ همومِه[5]، والمقصود بالغمرةِ هُنا: ما يغشى الإنسان، ويُغطّيه من جهالةٍ وضلالة[6].

3) ﴿سَاهُونَ﴾: أصلُ (سهو) يدلُّ على الغَفْلَةِ والسُّكون، فالسَّهْوُ: الغَفْلَةُ، يُقالُ: سَهَوْتُ في الصَّلاةِ أسهو سَهْوًا[7]، ويأتي بمعنى السُّكونِ واللّين، والجَمعُ سِهاءٌ مثلُ دَلْوٍ ودِلاءٍ، والسَّهْوُ في الشَّيءِ: تَرْكُه عَن غيرِ عِلْم، والسَّهْوُ عَنهُ: تَرْكُه مَعَ العِلْم[8]، والسَّهْوُ في الآية معناه: الغَفْلَةُ، والمُرادُ أنَّهم مُعرضون إعراضًا كإعراضِ الغافل وما هُم بغافلينَ[9].

4) ﴿يُفْتَنُونَ﴾: أصل الفَتن: إدخال الذَّهب النّارَ؛ لتظهر جودتُه من رداءته، واستُعمل في إدخال الإنسان النّار، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾، وقال سُبحانَهُ: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾، أي: عذابكم[10]، ويُسَمَّى الصّائغُ: الفتّانَ، وكَذلكَ الشَّيطانُ[11]، والفِتنَةُ: الابتلاءُ والامتِحانُ والاختِبارُ، تقول: فَتَنْتُه، أَفْتَنْتُه، فَتنًا وفُتونًا؛ إذا امتَحَنْتَهُ[12]، والفَتنُ في الآية معناه: التَّعذيبُ والتَّحريقُ، أي: يومَ هم يُعذَّبونَ على نارِ جهنَّم[13].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خرص).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 343.
(3) الهروي، كتاب الغريبين في القرآن والحديث: (خرص).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (غمر).
(5) الراغب، المفردات: (غمر).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (غمر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سهو).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (سهو).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 334.
(10) الراغب، المفردات: (فتن).
(11) ابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فتن).
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فتن).
(13) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 335.

5) ﴿تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾: أصلُ التَّعْجيل: الإسْراعُ، يُقال: تَعَجَّلَ الشَّخْصُ، أي: أسرعَ، وفَعَلَ الشَّيءَ قَبْلَ أوانه، وهو الاندفاعُ وطَلَبُ العَجَلَةِ[1]، ويأتي التَّعْجيلُ بمعنى السِّباق إلى الشَّيء، تقول: تَعَجَّلْتُ الشَّيءَ، أي: سَبَقْتُهُ[2]، والعَجَلَةُ: خِلافُ البُطْءِ والتَّأخُّر، والتَّأْجيلِ والإمهالِ، ومعناها: السُّرْعَةُ، والاستِعجال والإعجال والتَّعَجُّل واحِدٌ، بِمَعْنَى الاستِحثاث وطَلَبِ العَجَلة[3]، والمُراد بالاستعجال في الآية: طلَبُ حصول الشَّيء قبل حُلول وقته، ومعناه: كُنتُم في الدُّنيا تسألون تعجيلَه، وهو طلبٌ يُريدونَ به أنَّ ذلكَ مُحالٌ غيرُ واقعٍ[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بـيـانُ عـاقـبـةِ الاسـتـهـزاءِ بالدّين وتكذيب المُرسلينَ

لُعِن الكذّابون لعنًا شديدًا، كأنَّه القتلُ الفاتِك، المتقوِّلون في الدّين بالظَّنِّ، الجازمون به عن جهلٍ لا يَستند على حقيقة، الَّذين هُم في شُبُهات تَلُفُّهم، وكُفرٍ يُعميهم عن الهُدى والحقِّ، وضلالاتٍ تَغمُرهم غَمرَ الماء مَن يدخُل فيه.

ذلك الغمر الَّذي جعلهم يستهزئون بالدّين، ويُنْكِرون البعثَ والحساب، فيُطلقون في النّاس سؤالَ استهزاءٍ وإنكارٍ وتكذيب، فيُرَدِّدون قولهم الآثم: متى يكون يوم المداينةِ والمجازاةِ، وأين؟.

فسَيَأْتيهم يوم الدّين في موعدِه الَّذي حدَّده الله تعالى له، وفيه سيُحرقون، ويُعذَّبون في نار جهنَّم حرقًا شديدًا؛ بسبَبِ تكذيبهم وما أشاعوا في النّاس من الفتن، سَيُحْرَقون حَرْقَ المعادنِ؛ إذا أُدخِلت النّار لاختبار جَوْدَتِها.

وسيُقَرَّعون حينئذٍ، ويُبَكَّتون بأن يُقال لهُم ضِمنَ ما يُقال: ذوقوا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عجل).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عجل).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (عجل).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 346.

ثمرةَ تكذيبِكم وفِتنَتِكم النّاسَ عن دينِهم، واصطَلوا باستِهزائكم بالدّين، واستعجالِكم هذا العذابَ الَّذي كنتم تنكرونه.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصل قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ﴾ عمّا قبله:

الاختـــراضُ في الـدّيـن مـوجِـبٌ اللَّعْنَ والعذابَ

فُصِلَت جملة: ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ﴾ عمّا قبلها؛ لِمَا بينَهُما مِن كمالِ الاتِّصال، فهذه جملةُ دعاءٍ وتهديدٍ اقتضاها اختلافُهم الشَّديد في أمر الرَّسول ﷺ، والقرآن الكريم، وخبرِ البَعْثِ والمُداينة.

وشدَّة اتِّصالِها بما قبلَها أوجبَ لهم وصفَ ﴿ٱلۡخَرَّٰصُونَ﴾؛ وهو داعٍ لِدُخولِهم في هذا الدُّعاء، كما كان تعقيبُ الجُمل الَّتي قبلها بها إيماءً إلى أنَّ ما قبلها سببٌ للدُّعاء عليهم، وهذا مِن بديعِ الإيجازِ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل القتل:

اللّعنةُ من الله تـعـالى أشـدُّ خـطـورة مـن القتل

المَقْصودُ بفِعْلِ القَتلِ في قول اللّه تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ﴾ هو اللّعن والطَّرد من رحمة اللّه تعالى، وأنَّه بالقَتلِ يكون الإنسانُ قَد خَرج مِن أن يكون منتفعًا به، وكذلك اللَّعنُ هو الطَّرد عن رحمة اللّه تعالى، الَّتي بها تَقَعُ، وتَتَحَقَّق المنافعُ في الآخرة[2]، أو أنَّ المقصود بقَتلهم أنَّ اللّه تعالى يُهْلِكُهم[3]، وبذلك تَبْقى ظلال القتل باقيةً في هذا الفعل، تخلَعُ على هذا الوعيد تهديدًا شديدًا، فـ"القتل إذا أُخْبِر عن اللّه به كان بمعنى اللَّعنة؛ لأنَّ مَن لعنَهُ اللّه تعالى؛ كان بمنزلة المقتول الهالك"[4]، وهو "دعاء أو خبرٌ؛ لأنَّه مجاب"[5].

دلالةُ صوغ ﴿قُتِلَ﴾ ماضيًا مبنيًّا للمفعول:

وعيدُ الله تعالى الكافرين واقعٌ لا محالة، وحصولهُ مُتحقِّق بأيسر الأسبابِ

في صَوْغِ فعلِ القتل ﴿قُتِلَ﴾ ماضيًا إيحاءٌ بتحقُّق وقوعه لهم،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 343.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 377.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 343.
(4) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 174.
(5) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 453.

وأنَّهم لن ينجوا منه إلّا بالفرار من الكفر إلى الإيمان، وفي بنائه للمفعولِ مزيدُ ترهيبٍ لهم؛ لأنَّه يَتَهَدَّدُهُم بأنَّ جهاتِ القتل الحقيقيِّ أو المعنويِّ عديدة، وأنَّها كلَّها تتربَّص بهم مِن كلِّ مكان، كما قال تعالى: ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ [إبراهيم: 17].

ففي حذف الفاعلِ توفيرُ العناية على تدبُّر الفعلِ بغضِّ النَّظر عن فاعله مَن يكون؛ إذ فِعْلُ القتل مناطُ التَّرهيب ومَكْمَنُ العقوبة مِن أيِّ أحدٍ حصل.

وكذا البناءُ للمفعولِ في ﴿قُتِلَ﴾ دلالةٌ على أنَّه "حصل بأيسَرِ أمرٍ قَتلُ الكذّابين ولا محالةَ مِن كلِّ قاتل"[1]، أي: يأتيهم القتل والتَّعذيب من كلِّ جهة، ومِن كلِّ أحد يتأتّى منه ذلك الفعلُ، سواءٌ أقُصِد به القتلُ الحقيقيُّ أو اللَّعْنُ، ففي ذلك العمومِ مزيدُ ترهيبٍ يوحي بمزيدِ الغضَبِ الإلهيِّ عليهم.

الخَرص والتَّخمين في أمور الدّين خطيرٌ محظورٌ

معنى (أل) في ﴿ٱلۡخَرَّٰصُونَ﴾، ولطيفة جمعه:

(أل) في ﴿ٱلۡخَرَّٰصُونَ﴾ "للعهد الخارجيِّ التَّقديريِّ؛ لِما يُعرَف من قوله: ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ﴾ جماعةٌ كذّابون خرّاصون"[2]، فهُم "الآخذون بالتَّخمين، مع ترك دلائل اليقين"[3]، فقد تلبَّس هؤلاء ﴿ٱلۡخَرَّٰصُونَ﴾ بأفحش أنواع الكذب، وهو الاختراص والاختلاق في الدّين، وذلك بالكذبِ على الرَّسول ﷺ، وعلى القرآن الكريم، والتَّقوُّل في أمور الغيب بالتَّخمين، وتلك أمور جليلة لا يصحُّ فيها الخَرص.

والخرّاص "هو الَّذي يخرص الأشياءَ، أي: يُقَدِّرُها بحَدْسِه وظَنِّه، دون أن يستَنِدَ في ذلك إلى علم محقَّق"[4]، فذلك "الخرصُ في المعاملات بين النّاس، لا يُذَمُّ هذا الذَّمَّ، وبعضُه مذموم؛ إذا أدَّى

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 453.
(2) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 12.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 36.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 505.

إلى المخاطرة والمقامرة، وقد أُذِن في بعض الخَرص للحاجة[1]، فهذا لا يدخُل تحت هذا التَّهديد، أمّا الخرْص في محلِّ المعرفة واليقين؛ فهو مذمومٌ[2].

دلالةُ صيغةِ المبالغَة:

جـزاءُ الـجـراءةِ عـلـى الـتَّـخـرُّص في الدّين الوعيدُ الشَّديدُ

ممّا يَزيد في وعيد هؤلاء الخرّاصين مبالَغتُهم في الخَرص في الدّين؛ إذ عُبِّر عنهم بصيغة المبالغة (فعّال)، فقال سُبحانَهُ: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾، فقد جمعوا بين دوام الجريمة في صيغةِ الاسم، والمبالغة فيها بدلالةِ الصّيغة؛ ممّا هيَّأهم لوعيد القتل واللَّعن والهلاك، وأن يتهدَّدهم كلُّ ذلك من كلِّ جهة، فيُثير فيهم التَّوجُّس من كلِّ أحدٍ ومن كلِّ شيءٍ، كما تُشيرُ إليه صيغة بناء ﴿قُتِلَ﴾ للمفعولِ.

وفي ذلك إشارة إلى أنَّ من تجرَّأ على الخرص والقول بالظَّنِّ في الدّين والبناء على ذلك؛ فإنَّه سيُدمِنه، ويَوْحَلُ فيه، ويوغِل، ويبالغ؛ فيلحقه هذا الوعيد الشَّديد.

بلاغَةُ الكِنايَةِ في لفظِ ﴿ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾:

ضلالُ المُتخرِّص في الدّين عامدًا كان أو متساهلًا

إذا كانَ الخَرْصُ هو الظَّنَّ الَّذي لا حُجَّة لصاحبِه على ظنِّه، وأنَّه معرَّض للخطأ في ظنِّه، ففي التَّعبير به في قوله: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ كنايةٌ عن الضَّلال عمدًا أو تساهُلًا، والخرّاصون هنا هم أصحابُ القول المختلِف، فأفاد أنَّ قولَهم المختلِف ناشئٌ عن خواطرَ لا دليلَ عَلَيْها[3].

نكتَةُ حذفِ متعلِّق الخَرْصِ في ﴿ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾:

اللَّـفظُ الـقـرآنيُّ أسـوةٌ عمليَّة في تطهيرِ القولِ مِن الهُجر

حُذِف متعلّق الخَرْص من قول اللّه تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾، والخَرْصُ هنا متعلِّقٌ بتكذيب القرآن الكريم فيما جاء به من عند اللّه تعالى، و"تكذيب الرَّسول ﷺ، والتَّكذيب بالبعث"[4]، ومن لطائف

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 343.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 164.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 343.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 364.

حذف تلك المتعلِّقات تنزيهُها عن نسبتِها إلى الكذِب، أو تنزيهُ إيقاع الخَرص عليها لفظًا، كوجوبِ تنزيهِ إيقاعِه عليها فعلًا، فكانَ اللَّفظ القرآنيُّ أسوة عمليَّة، يُرشد إلى تطهير القولِ مِن الهُجر[1].

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الانغماسُ في الضَّلالة أصلٌ للإفك والخَرْص

في وصف ﴿ٱلۡخَرَّٰصُونَ﴾ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ﴾ استثارةٌ إلى معرفة المزيدِ من تلك الجرائم المستوجبةِ اللَّعْنَ والإهلاكَ، ومبعثُ التَّشويقِ هو ما في الموصول مِن الإبهام، المحوِج إلى ما يُزيل ذلك، ويخصِّص مَقصوده، مع ما في الموصول مِنَ الإيحاء بأنَّ الكَذِبَ والاختلاقَ في الدّين مِن أفْظَعِ الجَرائم، والتَّعبير بالموصولِ أيضًا فيه زيادةُ تقريرِ أنَّهُم المقصودونَ بالإفْكِ والخرَص، ولِما في الموصول مِنَ الإيماء إلى سبَبِ خَرْصِهم، وهو انغِماسُهُم في الضَّلالة، وللنِّداء على قُبْحِ ما هُم متَّصفونَ بهِ.

دلالةُ بناءِ الجملة على تقديم الضَّمير ﴿هُمۡ﴾:

تخصيصُ الضَّالّين بالخَرص أمارةٌ تحذيرٍ مِن خطَرِهم

في بناء جُملة الصِّلة: ﴿هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ﴾، على تقديم الضَّمير ﴿هُمۡ﴾ والقذف به في أوَّلها، مزيدُ تهديدٍ لهم، ومزيدُ تحذيرٍ من خطرهم، وكأنَّهم هم بخاصَّةٍ الغارقون في غِشاوةٍ تُعْميهم عن طريقِ الصَّواب والحقِّ والنَّجاة، وأنَّ ذلك مقصورٌ عليهم.

معنى ﴿فِي﴾:

الخرصُ في الدّين نتيجةٌ لجَهْلٍ عريضٍ

﴿فِي﴾ من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ﴾ حرفٌ دالٌّ على الظَّرفيَّةِ، وفيه تصويرٌ لتِلْكَ الغَفْلَة الَّتي شَمِلَتْهُم بلُجَّةٍ خطيرة قد سَقَطوا فيها، فلا يستطيعون منها خلاصًا، ودخولُهم في الغفلةِ، وانغماسُهم فيها، مجازٌ عَن كونِهم في جهلٍ مُطْبِقٍ يُعمي عن سبيلِ الخروج.

---

(1) الهُجر: الإفحاش في المنطِق والخنا، ينظر: الأزهري، تهذيب اللغة: (هجر).

دلالةُ التَّعبير بمادَّة الغَمر في ﴿غَمۡرَةٖ﴾:

مـــن غـــرق فـــي الـشُّـبَـه والـضَّـلال؛ استوجبَ غضبَ ذي الجلالِ

مادَّة (الغمر) مصوِّرةٌ بأصلِها اللُّغويِّ المجرَّد عن التَّصوير البيانيِّ، فكأنَّ الخرّاصين قد غَرقوا في غَمرةٍ من ماءٍ، تَغْشاهُم ظُلمته، وتُطبِق عليهم لُجَّتُه، والمقصود هنا "غمرةُ الضَّلالة وغلبتُها، أو الشُّبهةُ وحيرتُها، أو "الجهلُ الَّذي يَغمر صاحبَهُ، ويُغَطّي على عقله وسمعه وبصَره[1]، ممّا غيَّب عقولَهم في "عمايةٍ عن أمرِ الآخرة"[2]، وذلك دليل على أنَّ مَن يورَّط في الشُّبهة؛ قد أوْحَل في الضَّلال، واجترأ على أن يَخْتَرِص في الدّين ما يُؤدّي به إلى غضب الجبّار ﷻ.

نكتةُ تنكيرِ ﴿غَمۡرَةٖ﴾ وإفرادِها:

غفلةُ العبد في الدِّين خطيرة، وتبعاتُها أثيمة

في تنكير ﴿غَمۡرَةٖ﴾ وإفرادِها تهويلٌ لخَطَرها، فهي ﴿غَمۡرَةٖ﴾ عظيمةٌ مُنْكَرة، وهي ﴿غَمۡرَةٖ﴾ متفرِّدة في خصائص الغَمر والتَّغطية والتَّجهيل، فمَن دخل في لُجَّة ضلالها؛ غطَّت على عقلِه تغطيةً تامَّة، فَأنسَتهُ نَفسَه فيها، فلم يَستَطِعِ الرُّجوع عنها[3].

نكتَةُ تقديمِ القَيْدِ ﴿فِي غَمۡرَةٖ﴾ على ﴿سَاهُونَ﴾:

التَّقديمُ عنصرُ تـنـبـيـهٍ وقـرعٍ للأذهانِ الغافِلَةِ

في تَقديمِ القَيْدِ، وهو الجارُّ والمجرور ﴿فِي غَمۡرَةٖ﴾ على الخبر ﴿سَاهُونَ﴾ تخصيصٌ للسَّهو في هذا الضَّلال والجهل، وفي ذلكَ تنبيهٌ لافِت قارعٌ لأذهانِهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بمفردة السَّهو، ولطيفة صوغها اسمَ فاعل:

اجـتَـمَـعـت لـلـخـارِص في الـدِّين أسبابُ الـيـقَـظَـةِ، ولَـم يَـرْعَـوِ؛ فـاسـتـوجَـب الوعيدَ

السَّهو هو "الغفلة عن الشَّيء، وذهابُ القلب عنه"[4]، والمراد هنا أنَّهم مُعْرِضون إعراضًا كإعراض الغافل وما هم بغافلين، فإنَّ دعوة القرآن تقرَعُ أسماعهم كلَّ حين، واستعمالُ مادَّة السَّهو في هذا المعنى: نظيرُ استعمالِها في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 506.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 377.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 164.
(4) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 174.

سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون: 5][1]، أي: إنَّ الأذان يقرع سمعَهُ السّاهيَ اللّاهي عن الصَّلاة عند كلِّ صلاةٍ، وكذلك ضميرُه يَنْزغه، ولا يَرْعَوي، فالخَرْصُ في محلِّ المعرفة واليقين صفةُ ذمٍّ، أمّا الَّذي لا سبيل إليه إلّا بالظَّنِّ؛ فإنَّ الخارِصَ إذا خرَصَ فيه؛ لا يكونُ ذلك مُفيدًا للنَّقصِ، وقولُه تعالى: ﴿سَاهُونَ﴾ بعدَ قوله: ﴿فِي غَمْرَةٍ﴾ يفيد أنَّهم وقعوا في جهلٍ وباطل، ونسوا أنفُسَهم فيه، فلم يَرْجِعوا عنه[2]؛ لِتَراكُم الغِشاوات عليهم، واستسلامِهم لذلك، فهو سهوٌ مترسِّخٌ معبَّرٌ عنه بالاسم ﴿سَاهُونَ﴾ الدّالِّ على الثُّبوت والرُّسوخ، وصيغةُ اسم الفاعل دالَّةٌ على أنَّهم "عريقون في السَّهو"[3]؛ ممّا استوجب إيقاظَهم بالوعيد الخطير في قوله: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾، فإن أفاقوا، وانتَبَهوا، وإلّا تحقَّق عليهم الوعيدُ.

نكتةُ حذفِ متعلّق السَّهو في قولِهِ: ﴿سَاهُونَ﴾:

النَّظم الكريم يعلِّم بالقُدْوَة

سكت النَّظم الكريم عن ذكر متعلِّق السَّهو في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾، والتَّقدير: الَّذين هم في غمرةٍ ساهون عن الحقِّ، وعمّا دُعوا إليه غافلون لاهونَ عن التَّوحيد، تاركو الإيمان[4]، أو: ساهونَ عن كونِهم في غَمرَةٍ، وساهون عن غيرِ ذلك من وُجوه النَّظر الصَّحيح[5].

وفي هذا الحَذْفِ لطيفةٌ بارعةٌ، وهي التَّنبيه بالقُدوة إلى أنَّ ذلك المحذوف ليس بمنزلة أن يُغفَل عنه، وأن يُسهى عنه، ويُترَك؛ ذلك أنَّ النَّظم الكريم تحاشَى إيقاع السَّهو على شيءٍ من ذلك المسكوتِ عنه ممّا لا يجوز السَّهو عنه؛ فنبَّه بعدم تعليقهِ بالسَّهو لفظًا عن عدمِ جواز تعليقهِ بالسَّهو فعلًا، وذلك من باب التَّعليم بالقدوة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 343.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 164.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 453.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 377.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 173.

علَّةُ فَصْلِ قولِهِ تَعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ﴾ عمّا قبله:

مِنَ الخَرْصِ في الدّين السُّؤالُ عنهُ على وجهِ التَّعنُّت

فُصِلَ قول الله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ عن جملة: ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ﴾؛ لكونه استئنافًا بيانيًّا؛ إذ تُثير الأولى سؤالًا فحواه: ولِمَ قُتِلوا؟ فيجيء الجوابُ في قول الله سُبحانَهُ: ﴿يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾، أي: لأنَّهم يسألون مُتَعَنِّتين، لا مسترشدين عن يوم القيامة متى وأينَ يكون؟ أو فُصِلت جملة: ﴿يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾؛ لكونها جاءت حالًا من ضمير ﴿ٱلۡخَرَّٰصُونَ﴾[1]، وشأنُ الحالِ أن يُفصلَ عن صاحبه؛ لكونه بمنزلةِ الخبرِ عنه في المَعْنى.

دلالةُ التَّعبير بالسُّؤال في ﴿يَسۡـَٔلُونَ﴾:

سؤالُ الاسترشادِ في الدّين مرغوبٌ، وسُؤالُ الاستهزاءِ فيه محظورٌ

في التَّعبير بمُفْرَدَةِ السُّؤال في قول الله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ دليلُ تعنُّتهم، وتبجُّحهم بالأسئلة المباشرة الوَقِحة؛ لأنَّهم يتَّخذونها أداةَ تعجيزٍ، مثل قولهم القبيح: ﴿أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾، وكأنَّ لهذا السُّؤال جوابًا يمتَلِكُه مخلوقٌ، والله تعالى يقول: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأنعام: 59]، ويقول: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ۝٤٣﴾ [النازعات: 42 - 43].

ودليلُ تعنُّتهم واستهزائهم في هذا السُّؤال وعيد الله تعالى إيّاهم: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾، ولو كان سُؤالُهُم سؤالَ استرشادٍ؛ لكان لا يأتيهم ذلك الوعيد، ألا تَرى أنَّ جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ، وسأله عن الإيمان والإسلام في حديثٍ طويل، وسأله عن السّاعة[2]، فلم يأته الوعيدُ، فلا ذَمَّ في سؤاله ذلك؛ لأنَّ سؤاله يُرادُ به تعليمُ غيره من الحاضرينَ[3].

دلالةُ المضارعة في ﴿يَسۡـَٔلُونَ﴾:

أهلُ الباطل لا يَفْتُرون عن نشر الاستهزاء بالحقِّ

في صوغ الفعل ﴿يَسۡـَٔلُونَ﴾ مضارعًا دلالة على تعنُّتهم وسوء أدَبِهم؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 344.
(2) رواه مسلم في صحيحه، رقم: (8).
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 377.

إذ يُكَرِّرون هذا السُّؤال الذَّميم "حينًا بعد حينٍ على سبيلِ الاستمرار"[1]، ويُلِحّون فيه مُشَكِّكين في قضيَّة البعث، يَستَثيرون الفتنةَ في النّاس، ويضعون العراقيل أمام دعوة التَّوحيد، ولا يَرعَوون عن ذلك، ولا يكفّون أذاهُم.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَيَّانَ﴾:

الخرّاصون يُنْكِرون القيامةَ زمانًا ومكانًا

﴿أَيَّانَ﴾ اسمُ استفهام، وهو "من المركَّبات، رُكِّب من (أيّ) الَّتي يقع بها الاستفهامُ و(آن) الَّتي هي الزَّمان، أو من (أيّ) و(أوان)، فكأنَّه قال: أيُّ أوانٍ، فلمّا رُكِّب بُني، وهذا من الخَرّاصين جوابٌ لِقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ٦﴾، فكأنَّهم قالوا: أيّان يقع؟ استهزاءً"[2]، وقد عُبِّر بالاستفهامِ عن الزَّمان بأداةِ المَكان ﴿أَيَّانَ﴾؛ للإشارة إلى أنَّهم يُنكرون وقوع هذا الأمر زمانًا ومكانًا، فلا يقع في مكانٍ أو في زمانٍ، وهذه مبالغةٌ منهم في الإنكار والجحود، وكأنَّهم يقولون: أينَ هذا اليوم؟ إنَّه لا وجودَ له[3].

غرضُ الاستفهام في قوله: ﴿أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾:

أسئلةُ الخرّاصين في الدّين مبنيَّةٌ على المُغالطة والتَّعجيز والإعنات

غرضُ الخرّاصين من سُؤالهم: ﴿أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ التَّعنُّت والإعنات، ومحاولة تعجيزِ الرَّسول ﷺ وإعيائه بالجواب، فهو "سؤال المُنْكِر له، المستبعِد لوقوعه، المكذِّب به"[4]، وربَّما أغراهُم بِهَذا السُّؤال أنَّه ﷺ لا يُمكِنُه تحديدُ وقتٍ للقيامة، فهُم يتَّخذون مِن عدَمِ الإمكان هذا ذريعَةً لتكذيبِهِ في دعوته وحاشاهُ ﷺ، وكأنَّ أحدًا من الأنبياء والرُّسل السّابقين أمكنَهُ تحديدُ يوم الدّين.

فأسئلة الخرّاصين في الدّين مَبْناها على المُكابرة والمغالطَة والتَّعجيز والإعنات، مما عَرَّضهم لِلَّعْن والوعد بالقتلِ في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ﴾.

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 453.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 164.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 506.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 506.

نكتةُ حَذْفِ المَسْؤولِ في جُملة: ﴿يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾:

في حَذْف المَسْؤول في جملة: ﴿يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾، وإطلاقِ السُّؤال وعدم تقييدهِ بمَسْؤول معلوم، فلَم يَقُل: (يسألون مَنْ)؛ يدلُّ على أنَّ غرضَهُم ليس الجوابَ، وإنَّما يسألون استهزاءً[1]، وفيه دلالةٌ على أنَّ منهج الخرّاصين في الدّين في أسئلتهم عدمُ اختصاصِ العُلماء بها؛ لأنَّ العلماء سيُفْحِمونَهُم بجوابٍ ملزِمٍ ويُلقِمونهم الحُجَّة القاطعة، وأنَّ مِن مَنهَجِهم إطلاقَ أسئلتِهم في صورة إشاعاتٍ يُشيعونها في غوغاءِ النّاس، فيلبِّسون عليهم أمورَ دينِهم.

منهجُ الخرّاصين بثُّ الإشاعاتِ لا بحثُ الحقائقِ

نكتةُ إيثارِ التَّعبير بـ ﴿يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾:

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بـ ﴿يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ دون (يوم القيامة) في هذا الموضع؛ لأنَّه موضعُ وعيد، والوعيد يقتضي التَّهديد بالمداينة والمجازاة والمحاسبة، و﴿يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ صريح في المداينة؛ بخلاف (يوم القيامة) الَّذي يُعبَّر به عن يوم بعثِ اللّه تعالى النّاسَ جميعًا للحساب مؤمنِهم وكافِرهم، فلا ذِكْرَ للمداينة والمؤاخذة فيه[2].

(يوم الدّين) تركيبٌ دالٌّ على الحساب والجزاءِ

موقعُ جملة: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾:

جملة: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾ يجوزُ أن تكون جوابًا عن قولهم: أيّان يقَعُ؟ فكما أنَّهم لَم يسألوا سؤال مستفهمٍ طالبٍ لحصول العلم، كذلك لم يُجابوا جوابَ مجيبٍ معلِّمٍ مبيِّنٍ؛ إذ قال: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾، وجهلُهم بالثّاني أقوى من جهلِهم بالأوَّل، ولا يجوز أن يكون الجوابُ بالأخفى، ويجوزُ أن يكونَ ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾ ابتداءَ كلام، وتمامُه في قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾[3].

القرآنُ يعلّمنا أنَّ لكلِّ سؤالٍ جوابَه اللّائقَ به

سرُّ تكرار الظَّرف ﴿يَوۡمَ﴾:

في تكرار ﴿يَوۡمَ﴾ مضافًا مرَّةً أخرى إلحاحٌ على التَّخويف من

ليوم الدّين رهبةٌ شديدةٌ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 164.

(2) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 372.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 164.

شرِّ ذلك اليوم، والتَّحذير من مغبَّة ما ينتظرهم فيه، وما ينتظرهم مِن عرضِهم على النّار، وقذْفِهم فيها، ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾، وفي تكرار لفظِ ﴿يَوۡمَ﴾ مناسبٌ لِذِكْرِهم له في سُؤالهم: ﴿أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾، وتهديدٌ لهم بأنَّ ما يتطلَّعون إليه تكذيبًا واستهزاءً آتيهم لا محالة، وأنَّهم سيعرفونه ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾[1].

دلالةُ تقديم الضَّمير ﴿هُمۡ﴾ على الخبر الفعليِّ ﴿يُفۡتَنُونَ﴾:

كلُّ مخلَّدٍ في النّار مخترِصٌ في الدّين ضرورةً

في تقديم الضَّمير ﴿هُمۡ﴾ على الخبر الفعليِّ في جملة: ﴿هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾ تهديد شديد يؤدّيه معنى القصر؛ إذ يوحي بأنَّ الخرّاصين هم فقط مَن يفتنون على النّار، ويُحرَّقون فيها تحريقًا أبديًّا؛ لذلك قد يكون القَصْر هنا حقيقيًا؛ فكلُّ مَن يُخلَّد في النّار يكون ضرورةً مكذِّبًا، مخترِصًا في الدّين، وفي شُعَب الإيمان ومتعلّقات التَّوحيد الخالص.

وفي تقديمه أيضًا تأكيدٌ لمضمونِ الجملةِ، ووجه ذلك أنَّ الإسنادَ كُرِّر مرَّتين، إحداهما: إسناد الفعل ﴿يُفۡتَنُونَ﴾ إلى الضَّمير المنفصلِ ﴿هُمۡ﴾، والآخر: إسنادُهُ إلى الضَّمير المتَّصل، وهو واوُ الجماعَةِ.

معنى ﴿عَلَى﴾ في القيد ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾، ودلالته على التَّضمين:

التَّضمين القرآنيُّ عاملُ إيجازٍ واقتصادٍ لغويٍّ بديع

﴿عَلَى﴾ في القيد ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾ موصِّلةٌ إلى معنى (في)[2]، أي: يُفتنون، ويُحرَّقون في النّار، ففي ﴿عَلَى﴾ إتاحة لتضمين الفعل المعدَّى بها ﴿يُفۡتَنُونَ﴾ معنى الفعل (يُعرضون)[3]، ومعنى الفعل (يُشوَون)، وحرفُ الاستعلاءِ هو الَّذي دلَّ على ذلك التَّضمين وألَمَحَ إليه، فكانت التَّعدية بِـ (على) عنصرَ إيجازٍ في التَّعبير عن أكثرَ مِن فعلٍ بفعلٍ واحد، وذلك مِنَ الثَّراءِ القرآنيِّ الفريد.

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 507.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 174.
(3) القِنّوجيّ، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 193.

معنى (أل) في ﴿ٱلنَّارِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلنَّارِ﴾ لتعريف العهد العلميِّ، وتمييزها بأنَّها نار جهنَّم[1] الَّتي لا تُطاق، فهي النّار الكاملة في خصائصِ الإحراق، بل وفي إذابة صُلب المعادن، كما جاء وصفها في الحديث الَّذي يُروى عن أبي هريرة ﵁ مرفوعًا: «أوقِدَ عَلَى النّارِ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى احمَرَّت، ثُمَّ أوقِدَ عَلَيْها أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى ابيَضَّت، ثُمَّ أوقِدَ عَلَيْها أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّت، فَهِيَ سَوْداءُ مُظْلِمَةٌ»[2]، فهي تلك النّار الجديرة بالتَّعريف.

نارُ جهنَّم هي النّارُ الكاملةُ الخصائصِ النّاريَّةِ

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الفتنة، مبنيًّا للمفعول:

للفَتن بالنّار في الفعل ﴿يُفۡتَنُونَ﴾ جملة معانٍ منها: يُعَذَّبون بالإحراق بالنّار، فالذَّهب إذا أُلقي في النّار؛ قيل فيه: فُتِن، ومنها: يُنْضَجونَ بالنّار، ويُطْبَخون، كما يُفْتَن الذَّهب بالنّار[3]، ومن معانيه: الابتلاء والامتحان بالشِّدَّة والعذاب[4].

الخرّاصون يُعَذَّبون بالإحراق الشَّديد جزاءً وفاقًا

وفي التَّعبير بفعل الفتنة دلالة على شدَّة إحراقهم بالنّار، كأنَّما يُفْعَل بهم ذلك؛ لتَظْهَر جودةُ مَعادِنهم، كالذَّهب الَّذي يُفْتَن، أي: يُخْتَبَرُ بشدَّة الإحراق في النّار؛ لتَظْهَرَ درجَةُ جَوْدَتِه، فهو إحراقٌ خاصٌّ شديد، وأنّى لهم الصَّبر أو الاحتمال على ما هو أدنى من ذلك بكثير من درجات الإحراق؟ ولمّا كان الذَّهب لا يُحرَق إلّا لمعنى الاختبار؛ قيل لكلِّ اختبارٍ: فتنةٌ[5].

وفي بناء الفعل ﴿يُفۡتَنُونَ﴾ للمفعول مزيدُ ترهيب؛ لأنَّه يَدَع الأذهانَ تذهب في تقدير الفاتنين الفاعلين بالخرّاصين الحارقين إيّاهم كلَّ مذهبٍ، فهنالك الملائكةُ الغلاظ الشِّداد، وهناك ما يعلمه الله تعالى من أسبابٍ.

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 495.

(2) رواه الترمذي في جامعه، رقم: (2591)، وذكر أنّ الأصحّ وقفُهُ على أبي هريرة، وضعّفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير وزيادته، رقم: (2125).

(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 495 وما بعدها.

(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 378.

(5) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 174.

بلاغةُ الكنايةِ في الفعل ﴿يُفۡتَنُونَ﴾:

شدّة إحراقِ الخَرّاصين

في التَّعبير بالفَتن في الفعل ﴿يُفۡتَنُونَ﴾ هنا كنايةٌ عن الإحراق الشَّديد؛ وذلك لأنَّ الفتنَ: هو التَّعذيب والتَّحريقُ، وأصلُه: الاختبار، وشاع إطلاقُه على معانٍ، منها: إذابة الذَّهب على النّار في البَوْتَقة لاختبار ما فيه من معدنٍ غيرِ الذَّهب، ولا يُذاب إلّا بحرارةِ نارٍ شديدةٍ، فدلَّ ذلك على تعذيبهم بالإحراقِ الشَّديد[1].

بلاغةُ أسلوب الحكيم في جملة: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾:

القرآنُ الكريم يتلقّى المُستَهزِئين بالتَّقويم

جاء قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾ جوابًا جادًّا عَن سُؤالهم الواقعِ استهزاءً: ﴿أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾؛ وجاء ذلك جريًا على الأسلوب الحكيمِ، من تلقّي السّائل بغير ما يتطلَّب؛ إذ إنَّهم أرادوا التَّهكُّم والإحالة، فتُلُقّيَ كلامُهم بغير مرادهم؛ لأنَّ في الجوابِ ما يَشفي وقْع تَهَكُّمهم على طريقةِ قولِه تعالى: ﴿۞يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: 189]، والمعنى: يوم الدّين يقع يوم تُصلَون النّار، ويقال لكم: ذوقوا فِتنَتَكُم[2].

موقعُ جملة ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾ من التَّركيب:

يُجمَعُ على الخرّاصين في الآخرة العذابُ الحِسّيُّ والمعنويُّ جميعًا

تقع جملةُ: ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾ من قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾ مقولًا لقولٍ محذوف، والتَّقدير: يوم هم على النّار يُفتنون، فيقال لهم أو مقولًا لهم: ذوقوا فتنتكم، "وتُرِك (يقال لهم) لدِلالةِ الكَلام عليها"[3]، "أي: تقول لهم خزنَةُ النّار: ذوقوا عذابَكُم وإحراقَكُم بالنّار"[4].

ولطيفةُ حذف القول هنا: الدَّلالة على ارتباط القولِ بالفَتن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 345.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 345.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 499.
(4) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 373.

والتَّعذيب اتِّصالًا وثيقًا، ومصاحبة العذابِ الحسّيِّ العذابَ المعنويَّ، والعياذ بالله تعالى منهما جميعًا.

دلالةُ التَّعبير بمفردة الذَّوق مادَّةً وصيغةً:

اجتماعُ ألَمِ الظّاهر والباطِنِ في عَذاب أهلِ الكُفْرِ

وفي اصطفاء مادَّة (الذَّوق) في الفعلِ ﴿ذُوقُواْ﴾ تصويرٌ لإحساسهم الجلديِّ الخارجيِّ في صورة الذَّوق باللِّسان، وهوَ آلةُ الذَّوق، وكأنَّ أجسامهم صارت كلُّها ألسنةً تُعالِج ألمَ المَذوقِ وتُعانيه، فيجتمع عليهم إيلامُ الظّاهر والباطن، وكلاهما في أقْصى درجاتِ الإيلام.

التَّنكيلُ بالمُسْتَهْزِئِينَ

من أغراض الأمر في الفعل ﴿ذُوقُواْ﴾ معاقبةُ استهزاءِ الخرّاصين وتهكُّمهم باستهزاء وتهكُّم؛ جزاءً وفاقًا، ولا يُفتنون على النّار في صمتٍ، بل يَصحب إحراقَهم ما يؤجِّج ألم نفوسهم، فيجتمع عليهم احتراق الرّوح واحتراق الجسَد، كلٌّ بما يُلائمه؛ وذلك كفاءَ استكبارِهم واستهزائهم بالدّين الحنيف والرَّسول الكريم ﷺ والقرآن الكريم، وإنكارهم اليومَ الآخر استهزاءً، فـ"الأمرُ في قوله: ﴿ذُوقُواْ﴾ مستعمل في التَّنكيل بهم"[1].

بلاغةُ المجاز في قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾:

الجزاءُ من جنس العمل

في قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ مجازٌ في كلمة (فتنة)؛ إذ عُبِّر بالسَّبب - وهو الفتنة - أي: فتنتهم النّاسَ في الدُّنيا بصدِّهم عن الدّين، وإثارة الشُّبهات حوله - عُبِّر به في المسبَّب عنه - وهو الاحتراقُ وتجرُّع العذاب، بوصفه "أثرَ ما افتَتنوا به، من الابتلاء الذي صيَّرهم إلى الكفر والضَّلال"[2]، فعُبِّر عن المُسَبَّب بسببه مجازًا مرسلًا، علاقتُه السَّببيَّة.

فـ"يقوم من هذا الوجهِ أن يُجعل الكلامُ موجَّهًا بتذكير المخاطَبين في ذلك اليوم ما كانوا يَفتِنون به المؤمنين من التَّعذيب، مثل ما فَتَنوا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 345. (بتصرف).
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 808.

بِلالًا وخبّابًا وعمّارًا وسُمَيَّةَ وغيرَهم، أي: هذا جزاءُ فتنَتِكم، وجُعِل المذوقُ فتنَتَهم إظهارًا لكونهِ جزاءً عن فِتنَتِهم المؤمنين؛ ليزدادوا ندامةً، قال تعالى موعِدًا إيّاهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠﴾ [البروج: 10]، وإطلاقُ اسم العمَلِ على جزائه واردٌ في القرآن كثيرًا، كقوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾ [الواقعة: 82]، أي: تجعلون جزاءَ رزقِ اللّه تعالى إيّاكم أنَّكُم تُكذِّبون وحدانيَّتَهُ"[1].

دلالةُ الإضافة في ﴿فِتْنَتَكُمْ﴾:

للخرّاصين في الآخرة نوعٌ من التَّعذيب يُعرف بهم، ويُعْرَفون به

في إضافةِ الفِتنَةِ إلى ضمير المخاطَبين الخرّاصين في قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ دليلٌ على اختِصاصهم بنوعٍ معيَّن مِنَ الحَرْقِ والعذابِ، بحيثُ يصير معروفًا بهم، ويصيرون هُم أهلَه؛ لأنَّهم استحقّوها بكفرهم[2]، وكفى بذلك إهانة وتحقيرًا.

ففي قوله: ﴿فِتْنَتَكُمْ﴾ تذكيرٌ بما أحدثوه من فِتنَةِ النّاس عن دين اللّه تعالى في الدُّنيا، والتَّذكير به يُضاعف حسرةَ مَن لم يوفَّق، وذلك ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧﴾ [الفرقان: 27].

مرجِعُ ضَمير الخِطاب في ﴿فِتْنَتَكُمْ﴾:

في تبكيتِ الخرّاصين في نار جهنَّم شفاءٌ لقلوبِ أهلِ الإيمانِ

ضميرُ الخِطاب المُضاف إليه في ﴿فِتْنَتَكُمْ﴾ يرجع إلى الخرّاصين المتقدِّم ذِكْرُهم في جملة ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾، وهذا خطابُ مواجهةٍ لهم بالعذاب، ولقاء لهم بما يَسوؤُهم، أي: يُقال في هذا اليوم: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾[3]، وفي مواجهتهم يومئذٍ ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ إخزاءٌ لهم، واشتفاءٌ للمؤمنين منهم، ومعاقبةٌ لهم على ما كادوا، وتربَّصوا بالدّين الحنيف وبالرَّسول ﷺ وبالقرآن الكريم.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 346.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 346.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 507.

بلاغةُ الجناسِ في ﴿يُفۡتَنُونَ﴾ - ﴿فِتۡنَتَكُمۡ﴾:

جـــنـــاس الاشتقاق عنصرُ لَفْت وتنبيهٍ

بإيثار ذِكْرِ (فتنة) في ﴿فِتۡنَتَكُمۡ﴾ دون (عقوبتكم) أو (جزاءكم) أو ما هو منهما بسبيلٍ، ينعَقِدُ جناسُ الاشتقاقِ مع فعلِ الفِتنَةِ في جملة: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾؛ إذِ اتَّفق اللَّفظان في كثيرٍ مِن جهاتِ التَّركيب، واختلف معناهما، ممّا يحقِّق عنصرَ المُخادعَةِ المَنوطَةِ بالجِناس، فيتوفَّر للمتلقّي نشاطُ الذِّهن وحركة العقل، وذلك مِن خصائصِ الكلام الفاخِر.

بلاغة الاستعارة في ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾:

الـكـفـار أهـلٌ لـلـتَّـهـكُّـم والتَّبكيت يومَ القيامة

في الفعل ﴿ذُوقُواْ﴾ هنا استعارة بليغة؛ إذ شُبِّه العذابُ بطعام يُؤكَل، ثُمَّ حُذِف المشبَّه به، واستُعير له شيءٌ مِن لوازمه، وهو الذَّوق[1]، فهي استعارةٌ مكنيَّة، أو أنَّ "الذَّوق مستعارٌ للإحساسِ القويِّ؛ لأنَّ اللِّسان أشدُّ الأعضاء إحساسًا"[2]، فهي استعارة تبعيَّة، والمعنى: "تمتَّعوا بأنواع العقاب والنَّكال والسَّلاسل والأغلال، والسُّخط والوبال"[3]، فهي استعارة تهكُّميَّة تَمليحيَّة.

علَّةُ فصلِ قولِهِ تعالى: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ﴾:

تعديدُ جرائمِ أهلِ الكُفرِ

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ عن قوله: ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾؛ لِما بينهما مِن كمالِ الانقطاع؛ لاختلافهما خبرًا وإنشاءً، فالأولى أمرٌ، والثّانية خبرٌ، وإن كانت كلتاهما داخِلَتَيْن في حيِّز القولِ المحذوف، والتَّقدير: يومَ هم على النّار يُفْتَنون، فيُقال لهم: ذوقوا فِتنَتَكُم، هذا الَّذي كنتُم به تستعجلونَ، أو أنَّ جملة: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ "استئنافٌ في مقام التَّوبيخ وتعديد المجارم، كما يُقال للمجرمِ: فعلْتَ كَذا، وهيَ مِن مَقول القولِ"[4].

---

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 326.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 343.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 808.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 346.

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الإشارةِ للقَريب ﴿هَٰذَا﴾:

عذابُ الخرّاصين قريبٌ وإن رأوهُ بَعيدًا

التَّعبيرُ بإشارةِ القَريب في قول اللّه تعالى: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ يتّسق مع المعنى مِن جهتين، إحداهما: أنَّهم صاروا في العذاب نفسِه، وباشَروه، أي: "هذا العذاب الَّذي توَفَّونه اليوم، هو العذاب الَّذي كنتُم به تستعجلون في الدُّنيا"[1]، فما أقربَه منهُم الآن! فاسمُ إشارةِ القريب ﴿هَٰذَا﴾ يُفاقم عليهم معاناتِهم بتَقريب العذابِ منهم لفظًا كقُربه منهم واقعًا.

والأخرى: تعظيمُ التَّبكيت والتَّقريع بتقريب ما كانوا يستعجلونه استبعادًا له وإنكارًا بالكلّيَّة، فها قد طويت حِقَب الدُّهور والأزمان منذ أن كانوا به يستعجلون، وصاروا إلى العذاب، فما أقصر الزَّمان مهما طال! وإلى ذلك فحين يسمع المتلقّي إشارة البُعْدِ هنا في الدُّنيا، يورِثُهُ ذلك الخَوْفَ، وكأنَّ عذاب الخرّاصين قريبٌ هنا في الدُّنيا، وإن رأوه بعيدًا.

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصول ﴿ٱلَّذِى﴾:

الموصولُ يَفسَحُ التَّركيب لعناصرَ تـوَفّي السّـياق حقَّهُ

في التَّعبير بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ إتاحةٌ لذِكْرِ جُملَةِ الصِّلة: ﴿كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ بِما فيها من خصائصَ تعبيريَّةٍ ذاتِ أثَرٍ عظيمٍ في إثراءِ السّياق بالدَّلالات والإشاراتِ، وذلك ما لا يُتيحه التَّعبير بالاسم الصَّريح، كما لو قيل في غير القرآن الكريم: ذوقوا فِتنَتَكُم، هذا جزاؤكُم أو عقابكم، فحينئذٍ يَغيبُ ذِكْرُ استعجالهم، وكونه في الماضي السَّحيق، وما إلى ذلك ممّا هيَّأ لذِكْرِه التَّعبيرُ بالاسم الموصول.

دلالةُ التَّعبيرِ بالكونِ الماضي في جملة ﴿كُنتُم بِهِۦ﴾:

في التَّعبير بالكون الماضي مسندًا إلى ضمير المخاطَبين الخرّاصين

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 500.

في قوله تعالى: ﴿كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ إمعانٌ في التَّبكيت والتَّقريع؛ وذلك لأنَّهم كانوا يستبعدونه، فيَستَعجِلونه، كناية عن ثِقَتِهم أنَّه لن يأتيَ، ولن يكونَ، فآثر النَّظم الكريم ذِكْرَ الكون الماضي مسندًا إليهم في ﴿كُنتُم﴾، وكان يُمكِن صوغُ الصِّلة دونَهُ، مثل: هذا الَّذي استعجلتُم به، وحينئذٍ تفوت دلالةُ المُضارَعَة في تستعجلونَ معَ أهمّيَّتِها.

تذكيرُ الخرّاصين يومَ القيامة بِخَرْصِهِم يُفاقِم المعاناةَ عَلَيْهِم

معنى الباءِ في القيد ﴿بِهِۦ﴾:

(الباء) في القيد بالجارِّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ في جملة: ﴿كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ باءُ السَّببيَّة، أي: كنتُم - بسببِهِ أو بسببِ إنكاركم له واستبعادكم مجيئَهُ - تستعجلونَ، وفي تعديةِ فِعْلِ الاستعجال بها تضمينٌ له معنى فعل التَّكذيب وفعل الاستهزاء، أي: كنتُم به تكذِّبون مستهزئين، ذلك أنَّ فِعْلَ الاستعجالِ يتعَدّى بنَفْسِه، كما قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل: 1].

التَّضمينُ القرآنيُّ غنيٌّ بالإشارات غزيرُ الدَّلالات

فدلَّت الباءُ على أنَّهم بإنكارهم إيّاه كانوا يستعجلونَهُ تحدّيًا، ويُكَذِّبون به، ويستهينون بشأنِه، واثِقين أنَّه لن يكون، لكنَّه قد كان، وهَذا هو الَّذي تُعالجونه واقعًا.

ويُستشفُّ مِنَ الباءِ هنا أيضًا معنى الغايةِ، أي: كنتم إليهِ تَستَعجِلون، أي: تستحثّون الرَّسول ﷺ أن يوقِعه بكم، ويَجْلِبه لكم؛ إمعانًا في التَّحدّي والصَّلف.

نكتةُ تقديم القيد ﴿بِهِۦ﴾ على متعلّقه:

في تقديم القيد ﴿بِهِۦ﴾ على متعلّقه في جملة: ﴿كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ دلالةٌ على أنَّه الشَّأنُ الأهمُّ عندهم، وأنَّ غايتهم كانت في استعجالهم متعلِّقة به، وكأنَّه الغايةُ الَّتي يَعيشونَ لها، ففي تقديم القيد ﴿بِهِۦ﴾ كنايةٌ عن شِدَّة كَيْدهم للدّين وإغاظَتِهم للمؤمنين؛ إذ كانوا يسألونَهُم متهكِّمين: أيّان يوم الدّين، فها هم بِهِ يُعاقَبون كما كانوا بِهِ يَستَعجِلون.

الخرّاصون يَتخابَثون في إنكار الدّين بإشاعَةِ سؤالاتِ الاستهزاءِ

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ مضارعًا:

تعنُّتُ أهلِ الكُفْرِ وإيغالُهم في الباطلِ

في التَّعبير بفعل الاستعجالِ دونَ فِعْلِ الإعجالِ في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ دلالةٌ على أنَّهم كانوا يطلبون تعجيلَه، فالسّين والتّاء للطَّلب، أي: كنتُم في الدُّنيا تسألون تعجيله، وهو طلبٌ يُريدون به أنَّ ذلك محالٌ غيرُ واقع[1]، فهذا التَّعنُّت في الاستعجال، والتَّكلُّف في التَّكذيب به؛ بناءً على ثِقَتِهم في أنَّه لن يكونَ، ولن يجيء، فجاء قول اللّه تعالى: ﴿كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ مفعَمًا بإشاراتِ التَّقريع والتَّبكيت والإهانة، إلى حدِّ بُلوغِها في تعذيبهم النَّفسي مبلغَ النّار في تعذيبهم الحسّيِّ، والعياذ باللّه مِن حالِهم.

الخرّاصون لا يزالون يكرّرون أسئلة الاستهزاء بالدّين والإنكار لتفاصيله

وفي صوغ فِعْلِ الاستعجال مضارعًا دلالةٌ على إمعانهم في التَّعنُّت والتَّكذيب بيوم الدّين، وذلك بما يَنْطِق به المضارعُ من تجديدِهم الاستعجالَ المتهكِّم بالدّين الحنيف والقرآن الكريم والرَّسول الكريم ﷺ حين أخبرهم بمُداينة اللّه تعالى العبادَ يوم الدين، وأنَّه لا بدَّ لذلك مِن بَعْثٍ وإحياء، وكأنَّهم اتَّخذوا من ذلك سببًا للتَّندُّر وأداةً للتَّفكُّه مبالغةً في الإعنات، فجاء الفعلُ المضارعُ ليُصَوِّر ذلك، ويُذَكِّرهم به، ويصبُّه عليهم تقريعًا وتعذيبًا.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السَّهو والغفلة والخطأ والنِّسيان:

السَّهو ما يُتَنَبَّه لهُ بأدنى تنبيه، والخطأ لا يُتَنَبَّه لـه، والغَفلة عدمُ حضور الشَّيء في البال بالفعلِ

السَّهو: عدم التَّفطُّن للشَّيء مع بقاء صورته أو معناه في الخَيال أو الذِّكر بسبب اشتغال النَّفس والتفاتها إلى بعضِ مُهِمّاتها، والغفلة: عدمُ حُضور الشَّيء في البال بالفعل، فهي أعمُّ من السَّهو[2]، والسَّهو: ما يَتَنَبَّه صاحبُه بأدنى تَنبيه، والخطأ لا يُتنبَّه له[3]، وقالَ القُشيريُّ: يَبْعُد الفرق بين النِّسيان والسَّهو في استِعمال اللُّغَة، وكَأنَّهُ يَلوح من

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 346.
(2) أبو هلال العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 388.
(3) الكرماني، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري: 2/ 136.

اللَّفْظ على أنَّ النِّسيان: عدمُ الذِّكر لأمر لا يتَعَلَّق بالفِعْلِ الَّذي طرأ فيه، والسَّهو: عدمُ الذِّكر لا لأجل الإعْراض(1)، والنِّسيان طبيعةٌ بشريَّة لا تستلزم نقصًا في البشر(2).

الدّين والجزاء:

الدّينُ يحتَمِلُ الخُضوعَ والمكافأةَ، والجزاءُ يقتصر على المكافأةِ

الدّين أعمُّ مِنَ الجزاء، فالدّين: الخضوعُ والاستسلام، يُقال: دانه دَيْنًا، أي: أذلَّه، واستعبده، كما يُروى في الحديث: «الكَيِّسُ مَنْ دانَ نَفْسَهُ، وعَمِلَ لِما بَعْدَ المَوتِ»(3)، وكذلك الدّينُ: الجزاءُ والمكافأةُ، يقال: كما تَدينُ تُدانُ، أي: كما تُجازي تُجازَى، أي: تُجازَى بِفعلك وبحسب ما عملتَ، وقوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣﴾ [الصافات: 53]، أي: مَجْزيّون محاسَبون، ومنه (الدَّيّانُ) في صفةِ اللّه تعالى(4).

الفتن والتَّعذيب والتَّحريق:

الفَتنُ إدخالُ الإنسانِ النّارَ، والتَّعذيب الإيجاع، والتَّحريق إشعالُ النّار في المحرَّق

الفَتْنُ: إدخال الذَّهبِ النّارَ؛ لتَظْهَر جودَتُه مِن رداءَتِه، واستعمل في إدخال الإنسان النّارَ، والحَرْقُ: إيقاعُ حرارة في الشَّيء من غير لَهيب، كحرق الثَّوب بالدَّقِّ(5)، والعَذابُ: هو الإيجاع الشَّديد، وقد عَذَّبَهُ تَعْذيبًا: أكثر حَبْسَهُ في العَذابِ، قال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [النمل: 21]، وأصلُ التَّعْذيب إكثارُ الضَّرب بِعَذَبَةِ السَّوطِ، أي: طرفها، وقد قال بعضُ أهلِ اللُّغة: التَّعْذيبُ هو الضَّربُ(6)، والإحْراق: الإهْلاكُ، وهوَ مِن إحراق النّارِ(7)، يُقال: حرَّق الشَّيءَ؛ إذا أشعل فيه النّارَ، وبالغ في ذلك، قال اللّه تعالى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ [الأنبياء: 68](8).

(1) العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري: 4/ 139.
(2) ابن السبكي، رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب: 2/ 102.
(3) رواه الترمذي في جامعه، رقم: (2459)، وابن ماجه في سننه، رقم: (4260)، وضعّفه الألباني في ضيعف الجامع الصّغير وزيادته، رقم: (4305).
(4) الجوهري، الصحاح: (دين).
(5) المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف: (حرق).
(6) الراغب، المفردات: (عذب).
(7) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (حرق).
(8) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (حرق).

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ١٦ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾ [الذاريات: 15 - 19]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

مِن منهجِ القُرآن الكريم إلحاقُ النِّذارة بالبِشارة؛ ترغيبًا في التَّوبة

انتقلت الآياتُ – بعد شرح أحوال المشركين، وعرضِ ما يستحقّون من العذاب، وما أُعِدَّ لهم من سوء الجزاء – إلى وصفِ أحوال المُتَّقين وما ينتظِرُهم مِن نعيمِ لقاءِ ما أخذوا به أنفسَهم في الدُّنيا من الإحسان، والانهماك في العبادة وبذل الصَّدقات في سبيل اللّٰه عن رضًا وسخاء[1]؛ وذلك ليُبَيِّن الفرقَ، ويتَّبعَ النّاسُ طريق الهدى[2]، فالجملة "اعتراضٌ قابَل به حال المؤمنين في يوم الدّين، جرى على عادةِ القُرآن في اتِّباع النِّذارة بالبِشارة، والتَّرهيب بالتَّرغيب"[3]، وبيان حالِ المحقِّ المتَّقي بعد بيانِ حالِ المغترِّ المجرم[4].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعُيُونٍ﴾: أصلُ (عين) يدلُّ على عُضوٍ، به يُبْصَرُ، ويُنْظَرُ، ثُمَّ يُشْتَقُّ منه، والأصلُ في جَميعه ما ذُكِرَ[5]، وعَينُ الشَّيءِ نَفسُهُ، وتأتي بمعنى المالِ العَتيدِ الحاضِرِ، يُقال: اشتَرَيتُ عَينًا بِعَينٍ، أي: حاضِرًا بِحاضِرٍ[6]، ويُستعار العَينُ لمعانٍ هي موجودةٌ في الجارحة بنَظرات مختلفة، فاستُعير للثُّقب في المزادة تشبيهًا بها في الهَيْئَة،

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1092.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 174.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/ 252.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 165.
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عين).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عين).

وفي سيَلانِ الماء مِنها، ويُقالُ لمنبع الماء: عَيْنٌ تشبيهًا بها لِما فيها من الماء، ومن عَيْنِ الماء اشتُقَّ: ماء مَعينٌ، أي: ظاهر للعيون[1]، ومِن معانيها: الجاسوس، وما ضُرِبَ مِن الدَّنانيرِ والدَّراهِمِ، وغير ذلك[2]، والمقصودُ بالعيون في الآيةِ: جَمعُ عَيْنٍ، وهو اسمٌ لثُقْبٍ أرضيٍّ يَخرجُ منه الماءُ مِن الأرضِ، أي: أنهار جارية.

2) ﴿يَهْجَعُونَ﴾: أصلُ (هجع) يدُلُّ على نَومٍ[3]، ومنه الهُجوعُ: نومُ اللَّيل دون النَّهار[4]، والهجعة: النَّومة الخفيفة، يُقال: أتيتُ فلانًا بعد هَجْعة، أي: بعد نومَة خَفيفَة مِن أوَّل اللَّيل[5]، والمُرادُ بالهُجوعِ هنا: النَّومُ الخَفيفُ، وهو الغِرارُ[6].

3) ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ﴾: أصلُ (سحر) يدلُّ على وقتٍ مِنَ الأوقاتِ[7]، ومنه السَّحَرُ: آخِرُ اللَّيْلِ قُبَيْلَ الصُّبْحِ، وقيل: هو مِن ثُلُثِ اللَّيْلِ الآخِرِ إلى طُلوعِ الفَجْرِ، وقيل: هو اختِلاطُ ظَلام آخِرِ اللَّيْلِ بِضياءِ النَّهارِ، ثُمَّ سُمّيَ به الوَقْتُ[8]، يُقال: أَسْحَرَ الشَّخْصُ، يُسحِرُ إسحارًا، أي: صارَ في وقْتِ السَّحَرِ، ومِنهُ السَّحورُ، وهو: طَعامُ وقْتِ السَّحَرِ وشَرابُهُ[9]، ومِن مَعاني السَّحَرِ: البَياضُ في السَّوادِ، وطَرَفُ الشَّيءِ، وجَمعُه: أسحارٌ[10]، والأسحارُ في الآية معناها: جَمعُ سَحَرٍ، وهو آخِرُ اللَّيْلِ[11]، ومقدِّمة الصُّبحِ[12].

4) ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾: أصْلُ (سأل) كلمة واحدة معناها: الاستِدعاءُ والطَّلَبُ، يُقالُ: سَألَ يَسألُ سُؤالًا ومَسألَةً، ورَجُلٌ سُؤَلَةٌ: كَثيرُ السُّؤالِ[13]، ومِن مَعانيهِ: الاستِفهامُ، والاستِخْبارُ،

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عين).

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (عين).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هجع).

(4) الخليل، العين: (هجع).

(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (هجع).

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 349.

(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سحر).

(8) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (سحر).

(9) الجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم: (سحر).

(10) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سحر).

(11) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 350.

(12) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: 3/ 200.

(13) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، ولسان العرب: (سأل).

والاستِعْلامُ والاستِفْسارُ[1]، يُقالُ: سَأَلْتُهُ عَن عِلْمٍ سُؤالًا ومَسأَلَةً، أي: طَلَبْتُ مَعْرِفَتَهُ، وسَأَلْتُهُ الصَّدَقَةَ، أي: طَلَبْتُ مِنهُ أن يَتَصَدَّقَ عَلَيَّ[2]؛ إذ يُعبَّر عن الفقير؛ إذا كان مستدعيًا لشيءٍ بالسّائل، نحو: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ١٠﴾ [الضحى: 10][3]، وهو المرادُ بالسّائل في الآية، أي: هو الفقير المُستجدي الطّالبُ العطاءَ[4].

5) ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾: أصلُ (حرم) أصلٌ واحِدٌ، وهو المَنْعُ والتَّشديدُ[5]، منه الحُرْمُ، وهو المَنْعُ[6]، والمَحرومُ: الَّذي حُرِمَ الخَيْرَ حِرْمانًا[7]، وهو أيضًا مَن لا يَنمي له مالٌ، وقيل: إنَّه المُحارَفُ، أي: صاحب الحرفة الَّذي لا يكاد يَكتَسِبُ[8]، والمراد به في الآية: الَّذي تبعد عنه ممكنات الرِّزق بعد قُرْبِها منه، فيناله حرمان وفاقَةٌ، وهو مع ذلك لا يَسْأل[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

جنّاتُ الله تعالى في الآخــرة لِمَن أحسَنوا العمَل في الدُّنيا

فوزُ المتَّقين الَّذين اتَّقَوا الشِّركَ، وتجنَّبوا كلَّ ما يُغضب الله تعالى محقَّقٌ مؤكَّدٌ، بجنّاتٍ كثيرة ومنوَّعة، غنّاءَ بصنوفِ النَّعيم والخيرات، والتَّمتُّع بها وبما فيها من عيون الماء الفرات وغيره من العسَلِ المصفّى، واللَّبن الَّذي لم يتغيَّر طعمه، والخمر الَّذي هو لذَّة للشّاربين.

وهؤلاء المتَّقون يَتلقَّون هذا النَّعيم وغيره من كرامات ربِّهم ﷻ عليهم، ويغتَبِطون به، بعد رحلة حياتهم الدُّنيويَّة، العامرة بالعطاء والإحسان؛ قبولًا وتنفيذًا لِما شرَعَهُ الله تعالى لهم، ومِن ذلك قيامُ

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سأل).
(2) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (سأل).
(3) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (سأل).
(4) المراغي، تفسير القرآن: 26/ 177، والراغب، المفردات في غريب القرآن: (سأل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حرم).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (حرم).
(7) الخليل، العين: (حرم).
(8) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حرم).
(9) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 175.

اللَّيالي، فيقومونَه بلا نوم ولا هُجوع إلّا أوقاتًا قليلةً مِن تلك اللَّيالي، وكانوا يؤخِّرون عبادةَ الاستغفار إلى أوقات السَّحَر قُبَيل الفجر من كلِّ ليلة؛ إذ يَرْغَبون إلى ربِّهم ﷻ أن يغفِر لهم التَّقصير؛ لأنَّهم كانوا يرجون أن يقوموا بعبادة ربِّهم والاجتهاد بين يديه أكثرَ ممّا فعلوه.

وكانوا يُخَصِّصون من صُنوف أموالهم وأرزاقهم قدْرًا يَختصّون به أهلَ العوز والحاجة ممَّن تعرَّض لهم بالسُّؤال، فسألهم العطاءَ، وممَّن تعفَّفوا عن المسألة من أهل الحرمان، فلم يسألوهُم مع شدَّة فاقَتهم وشدَّة حاجتهم، فيفطنون إليهم، ويَخُصّونهم بما تيَسَّر لهم من مالٍ يواسونَهُم بهِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصل قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ﴾ عمّا قبله:

اخـتـلافُ الجُملَتَيْن غرضًا وأسلوبًا

فُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ عن قوله: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾؛ لِما بينَهُما من كمال الانقطاع؛ إذِ الجملتان اختلفتا خبرًا وإنشاءً، فالجملةُ الأولى: ﴿ذُوقُواْ﴾ إنشائيَّةٌ؛ لكونِها أمرًا، والجملةُ الثّانية: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ﴾ خبريَّة، والغالبُ ألّا يُعطفَ الخبَرُ على الإنشاء.

ثُمَّ إنَّ الكلام السّابق في وعيد الكفّار، والكلامُ هُنا في وعْدِ المُتَّقين؛ فلمّا تبايَنا؛ كان الفَصْلُ بينَهما ملائمًا، فلا يَجْمَعُهما قَرن واحدٌ.

بلاغة التَّوكيد بـ ﴿إِنَّ﴾:

قد يُؤَكَّد الخبرُ اهتمامًا به بقطعِ النَّظر عن حال المُخاطَب

﴿إِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّوكيدِ، ومن مقتضياتها لتوكيد هذا الخبرِ بيانُ الاحتفاءِ بأخبار المتَّقين، "وقَد يَكونُ التَّأكيدُ مِن جهَةِ أنَّ القَضيَّةَ في نَفْسِها مِمّا يُهتَمُّ به، وإن لَم يَكُنْ هُناكَ مُنْكِرٌ"[1]، فالمتَّقون هنا لا يَشُكّون

(1) ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري: 1/ 74.

في إخباره ﷻ بأنَّ لهم جنّاتٍ وعيونًا، فكان في توكيده لهم احتفاءً بالخبر وتنبيهًا لغير المتَّقين بكرامتهم على الله تعالى.

كما اقتضى ذِكْرَ ﴿إِنَّ﴾ حالُ الخرّاصين المنكِرين للبعث، فهُم يُسَفِّهون إيمان المتَّقين، ولا يصدِّقون أنَّ لهم جنّاتِ النَّعيم في الآخرة، فجاء التَّوكيد مراعيًا تكريمَ المتَّقين من جهةٍ، معالجًا إنكارَ الكافرين من جهةٍ أخرى.

وممّا يدعَم ذلك من أغراض التَّوكيد سوْقُ هذا الخبر بِعَقِب وعيدِ الكافرين ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ٦﴾، والإزراء بأقوالهم المتناقضة في الرَّسول ﷺ وفي القرآن الكريم.

معنى (أل) في ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾، ولطيفةُ جمعه:

التَّقوى درجاتٌ ومراتِبُ

(أل) في ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ للاستغراقِ، أي: كلُّ من يتَّقي ما حرَّم الله تعالى، ومن ذلك "تجنُّب القول بالخَرَص والتَّخمين في الأمور الاعتقاديَّة"(1)، فـ "المتَّقي مطلق في اتِّقاء الكفر والمعاصي"(2)، وله مقاماتٌ يتفاوَتُ أهلُها في درجاتِ التَّقوى، و"ما من مكلَّف اجتَنَب الكفر؛ إلّا ويدخل الجنَّة، فيُرْزَق نعيمَها"(3)، إمّا ابتداءً، وإمّا مآلًا.

و(أل) في ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فيها مَعْنى الكمال أيضًا، وأنَّهم كاملون في باب التَّقوى، فلا يَخرم تقواهم مُناقَضَةٌ لتَّوحيد الله تعالى، فهؤلاء هم الجديرون بهذا الخبر المؤكَّد، والوعد المحقَّق: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾.

سرُّ إيثارِ وصف ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ على غيره من أوصافهم:

التَّقوى امتثال الأمر واجتناب النَّهي، فهي أجمعُ الأوصاف المطلوبةِ مِنَ العبدِ

في اصطفاء صفة التَّقوى في ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ دون غيرها من مثل المسلمين، والمؤمنين، والمخبتين وغيرها: اكتفاءٌ، فاكتُفي بوصف

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 37.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 174.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 165.

التَّقوى عنها جميعِها؛ لأنَّ كلَّ مُتَّقٍ للّه تعالى مسلمٌ له، مؤمِنٌ به، مُخْبت إليه، صادقٌ في سَيْرِه إلى اللّه تعالى، وهوَ من أهل الصَّلاة والزَّكاة، والصّيام والقيام، وعلى الجملةِ؛ فإنَّ المُتَّقي من يلتزم "امتثالَ الأمر واجتنابَ النَّهي"[1].

لطيفةُ التَّعبير بـ ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ اسمَ فاعل:

المـتَّـقـون مَـن صـارتِ التَّقوى شـعـارَهـم، وطـاعـةُ اللـه تعالى دِثارَهم

في التَّعبير عن ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ اسمَ فاعلٍ دون الفعل، فلم يرِدِ النَّظم القرآنيُّ: (إنَّ الذين اتَّقوا) مثلًا؛ وذلك للإشارة إلى رسوخِ وصف التَّقوى فيهم، ودوامهم عليه، وعدم تذبذبه فيهم، وأنَّهم هم "الذين كانت التَّقوى شعارَهم، وطاعة اللّه تعالى دِثارَهم"[2].

نكتةُ حذفِ متعلِّق التَّقوى:

كُلَّما زاد امتثالُ المُتَّقي؛ ارتَقَت درجَةُ تقواهُ

حَذَفَ النَّظم الكريمُ متعلِّق التَّقوى، ولم ينصَّ على أيِّ شيءٍ كانوا يتَّقون؛ لأنَّه من المعلوم بالضَّرورة أنَّهم "الَّذين اتَّقوا الشِّرك والكفر، أو اتَّقوا مخالفة اللّه على الإطلاق، عملًا وقولًا وفعلًا واعتقادًا[3].

ولطيفة ذلك الحذف - إضافةً إلى العلم بالمحذوف - إفادةُ العموم والشُّمول لكلِّ ما يُخالف تعاليم الدّين الحقِّ من العقائد النَّقيَّة، والأخلاق السّامية، والآداب الرَّفيعة؛ ترغيبًا في التَّحلّي بما يُمكِن من كلِّ ذلك؛ عملًا بقوله ﷺ: «ما نَهيتُكُم عَنهُ، فاجتنِبوهُ، وما أمَرتُكُم به، فافعَلوا مِنهُ ما استَطَعتُم»[4]، وكلَّما زاد امتثالُ المتَّقي؛ ارتقت درجةُ تَقْواهُ.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ نكرةً:

وفـرةُ أسـبـابِ النَّعيم وصنوفِ الـتَّـكـريـم في الجنان

لفظُ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ معناه: "بساتينُ فيها عيونٌ جارية، لا يَبلغ وصفَها الواصفون"[5]، وفي اصطفاء مفردة ﴿جَنَّٰتٍ﴾ دون (حدائق) أو

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 87.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 809.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 379.
(4) رواه مسلم في صحيحه، رقم: (1337).
(5) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 100.

(بساتين) وغيرهما: تنويهٌ بكثافة خُضرتها، وكثرة أشجارها وثمارها؛ حتّى إنَّها لتُجِنُّ مَن يدخلها وتُخفيه، و"لا تسمّى جَنَّة حَتَّى يُجِنَّها الشَّجرُ، أي: يَسْتُرها هَكَذا"[1]، فإذا كان «كُلُّ مَن يَدخُلُ الجَنَّةَ عَلَى صورَةِ آدَمَ عليه السلام»[2]، وكانت تلك الـ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ تُجِنُّه وتُخفيه، فكم يكون ارتفاعُ أشجارِها؟ وكثافة خُضرتها، وعلوُّ قُصورها؟ وذلك كنايَةٌ عمّا هنالك من وفرة أسبابِ النَّعيم، وصنوف التَّكريم.

ونُكِّرَ لفظُ ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ لإرادةِ التَّعظيم، يُقال: فلان رجلٌ، أي: عظيمٌ في الرُّجوليَّة[3]، وكذلك لتفخيم شأنِها، وفيه إشارةٌ إلى أنَّها فوق تصوُّر العقول، «قالَ اللّه تعالى: أعدَدْتُ لِعِبادي الصّالِحينَ، ما لا عَيْنٌ رَأت، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فاقرؤوا؛ إن شِئتُم: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ [السجدة: 17]»[4]، فـ "لا يُبلَغ كُنهُها، ولا يقادر قدرها"[5].

لطيفةُ جمع ﴿جَنَّٰتٍ﴾:

جنَّةُ الخُلدِ جنّاتٌ لا يَحصرها عددٌ

جُمِعَ لفظُ ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ للدَّلالةِ على كثرتِها وتعدُّدها؛ إذ إنَّ الجنَّة مشتملةٌ على جنانٍ كثيرةٍ، فهي جنّاتٌ لا يَحصرها عدد، ثمَّ إنَّ الجنَّة عند الوَعد، وعند الشِّراء توحَّد، كقوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [التوبة: 111]، وعند الإعطاء تُجمَع؛ إشارةً إلى أنَّ الزّيادة في الوعد موجودة[6]، والجمعُ على ﴿جَنَّٰتٍ﴾ يُنَبِّه على تنوُّع متاعها ونعيمها، فإنَّ الشَّجرة الواحدة بل الثَّمرة الواحدة فيها، تتنوَّعُ الألوانُ فيها، وتتعدَّد الطُّعوم، فتُعَدُّ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ وحدَها.

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة: (جنن).
(2) رواه البخاري في صحيحه، رقم: (3326)، ومسلم في صحيحه، رقم: (2841).
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 165.
(4) رواه البخاري في صحيحه، رقم: (3244)، ومسلم في صحيحه، رقم: (2824).
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 138.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 166 بتصرف.

معنى ﴿فِي﴾ في متعلّق الخبر ﴿فِي جَنَّٰتٖ﴾:

المتَّقون مكرَّمون في الجنّات بمنزلةِ الشَّيء الثَّمين يُحْفَظ في ظرفٍ يصونُه

حرف الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾ يُصَوِّر الجنّات في صورة ظرفٍ يحفَظُ المتَّقين، ويصونُهم، وأنَّهم يتقلَّبون ﴿فِي﴾ تلك الجنّات، ويتنزَّهون بين أشجارها، ويَقْطَفون مِن داني ثِمارها، وينزلون في غُرُفاتِها، فقد صارت لهم كالظَّرف المحيط بمظروفه الَّذي يصونه، ويحفظه، ويُؤْذِنُ بكونه شيئًا ثمينًا، يُضَنُّ به، فيُحفَظ، ويُصان، فقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٖ﴾ معناه: (بين جنّات وفي خلالها)؛ لأنَّ في الجنَّة أشجارًا، وإنَّما يكون المتَّقونَ بينها[1].

معنى (الواو) في قوله: ﴿جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾:

اجتماعُ صُنوفِ النَّعيم لأهل التَّقوى

(الواو) في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾ عاطفةٌ، تجمَعُ لِلمتَّقين إلى الجنّاتِ العيونَ، فـ "يكونون في الجنَّة، وينتفعون بالعيون"[2]، المفعمَةِ بالماء والعَسَل والخمر، وغيرها ممّا يعلمه اللّٰه تعالى من أنواعِ المَشْروب المعدِّ للمتَّقين هنالك ممّا لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلبِ بشَرٍ أيضًا.

فيجتَمِعُ للمتَّقين أنواعُ المأكولات والفواكهِ، وكذلك كلُّ أنواعِ المَشْروبات ممّا كان حلالًا في الدُّنيا بطُعومه المختلفة، وممّا كان حرامًا فأحلَّه اللّٰه تعالى هنالك بمواصفات الطُّهر والنَّعيم اللّائق بـ ﴿جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾.

دلالةُ التَّعبير بـ (عيون)، ولطيفةُ تنكيرها:

فخامةُ عيون الجنَّة وعظمةُ خصائصها

في التَّعبير بـ (عيون) دلالة على صفاء ما فيها من أنواع المشروبات، وأنَّها تفور من أعماق الجنَّة، ولا تَنضب، وقد جاء وصفُ بعضِها في سورة الرَّحمن، كما قال اللّٰه تعالى في الجنَّتين الأوليَين: ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ٥٠﴾ [الرحمن: 50]، وجريانُهُما دليلُ سَعَتِهما، وجمال منظرِهما، وانبعاث أسبابِ الحياة منهُما.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 165.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 379.

كما جاء في وصفِ عَيْنَي الجنَّتين الأُخْرَيَيْن: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ۝٦٦﴾ [الرحمن: 66]، فدلَّ على أنَّهما ينضخان الرّوائح العطِرَةَ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّه قال: "تنضخان بالمِسك والعنبر، كما يَنْضَخ طيرُ الماء على بيوت أهل الدُّنيا"[1]، وتنضخان وتفوران بالخير، فيتقلَّب ماؤُهما وعسَلُهما وخمرهما فورانًا بديعًا يُسْعِد النّاظرين.

وتنكيرُ (عيون) يُضْفي عليها تفخيمًا في خصائِصِها، وأنَّها عيونٌ "سارِحةٌ، تَشرب منها تلك البساتين، ويَشرب بها عبادُ اللّه، يفجِّرونها تفجيرًا"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالأخذ في قوله: ﴿ءَاخِذِينَ﴾، ولطيفة صوغهِ اسمَ فاعل:

الله تعالى يُمَلِّك المتَّقين الجنّات تـمـلُّـكًـا غير مـسـتردٍّ، فهو تملُّك الخلودِ

التَّعبير بالأخذ في ﴿ءَاخِذِينَ﴾ يدلُّ على التَّملُّك؛ ولذا يقال: أخذ بلادَ كذا، وقلعةَ كذا؛ إذا دخلها مُتَمَلِّكًا لها، وفائدتُه: بيانُ أنَّ دخولَهم فيها ليس دخولَ مستعيرٍ أو ضعفٍ يُسْتَرَدُّ منه ذلك، بل هو مِلكُه الَّذي اشتراه بماله ونفسِه من اللّه تعالى[3]، والسّياق يدلُّ على أنَّ هذا الأخذ والقبول يكون في الآخرة في جنّات النَّعيم، وأنَّهم هنالك "يتقبَّلون من ربِّهم ما يُساق إليهم من ألطافٍ، وما يُقدَّم إليهم من ألوانِ النَّعيم، ممّا لم يكن يخطُر لهُم على بالٍ، أو يقَع لهم في أحلام، وفي مدِّ اللّه سبحانه وتعالى لهم يده الكريمة بهذا الإحسانِ، وفي تناوُلهم هذا الإحسانَ من رَبِّهم ما فيه مِن تكريمٍ لا يناله إلّا المقرَّبون، الَّذين رضي الله عنهم[4].

وهذا خلاف ما ذكره الطَّبريُّ مِن أنَّ المقصود بـ ﴿ءَاخِذِينَ﴾: عاملين ما أمرَهُم به ربُّهم مؤدّين فرائِضَه[5]، وهو ما ضعَّفه ابنُ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 483.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 809.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 165.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 508.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 14/ 500.

كثير؛ لأنَّ ﴿ءَاخِذِينَ﴾ "حالٌ من قوله: ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾، فالمُتَّقون في حال كونهم في الجنّات والعيون آخِذون ما آتاهم ربُّهم، أي: من النَّعيم والسُّرور والغبطة"[1]، والأصل في الحالِ أن تكون مقارنةً لعاملِها زمنًا، وتأديةُ فرائض اللّه تعالى سابقةُ النَّعيمَ في الجنَّةِ.

وفي القيد بالحالِ دلالةٌ على دوام العطايا من الرَّبِّ الرَّحيم ﷻ لهم، ودوام الأخذ والاستبشار منهم، فهُم دائمًا آخذون، وأبدًا راضون، فإنَّها الجنّاتُ ونعيمُها، وإنَّه اللّه الكريم الغنيُّ، وإنَّها عطاياه، فاللّهمَّ لا تَحرمنا إيّاها يا كريمُ.

المؤمِنُ الحقُّ يَستعمِل عطايا ربّه في وُجوهِ طاعَتِه

ومِن معاني ﴿ءَاخِذِينَ﴾، أي: قابلين ما آتاهُم ربُّهم في الدُّنيا من القُدرة والقوَّة والمال بحقِّ اللّه تعالى، والقيام بشُكْره والعبادة له والاستعمال في طاعته؛ لذلك قال: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ﴾، أي: قبِلوا ذلك بِحَقِّ الإحسان، فاستعملوها في حقِّ اللّه تعالى والقيام بطاعته؛ وهذا التَّأويل على التَّقديم والتَّأخير، والتَّقدير: إنَّ المتَّقين في جنّات وعيون، إنَّهم كانوا قبل ذلك مُحْسِنين، آخذين ما آتاهم ربُّهم، أي: إنَّما نالوا الجنَّة؛ لِما أنَّهم كانوا في الدُّنيا كذلك[2].

دلالةُ جمع ﴿ءَاخِذِينَ﴾، ولطيفة صوغهِ اسمَ فاعلٍ:

المتَّقون في الجنَّة يَـهْـنَـؤون بين الأحبَّة، فتكتمِلُ السَّعادة باجتماعِهم

في جمع ﴿ءَاخِذِينَ﴾ إشارةٌ إلى هناءَة ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ بين الجماعةِ، جماعةِ الأهل والأرحام، وجماعةِ الأصدقاء والأقرباءِ، فهَكذا السَّعادة لا تَكتمِل إلّا بجَمعِ الأحبَّة، وفي صوغه اسمَ فاعلٍ دلالَةٌ على الدَّوام والاستمرارِ[3].

بلاغةُ الكناية في ﴿ءَاخِذِينَ﴾:

يقول الطّيبي: "فُسِّر الأخذُ بالقبول والرِّضا؛ لأنَّ لفظَ الأخذِ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 416.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 379.
(3) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 14.

ما يُؤتاه المتَّقون من أنواع الكرامات هو الأكملُ في جِنْسِه

فيه دلالة على أنَّ المطلوب مرغوبٌ فيه، وفيه تلويحٌ إلى ما ورد عن الصّادق المصدوق أنَّ الله ﷻ يقول لأهل الجنَّة: «يا أهلَ الجنَّة، فيقولون: لبَّيْكَ ربَّنا وسَعدَيك، والخيرُ في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربَّنا، وقد أعطيتَنا ما لم تُعْطِ أحدًا مِن خَلْقِكَ؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضلَ من ذلك؟ فيقولون: وأيُّ شيء أفضل؟ فيقول: أُحلُّ عليكم رضواني، فلا أسخطُ عليكم بعده أبدًا»(1).

شُبِّه حُلول الرِّضوان على السُّعداء وقابليَّتُهم إيّاه - وهو معقول - بإعطاء ما يَتناولون باليد - وهو محسوس - مبالغةً في الحصول، وتصويرًا لحالة الأخذ والإعطاء"(2)، فكنايتُه رمزيَّةٌ عن كون ما يُؤتَونَه أكملَ في جنسه؛ لأنَّ مدارك الجماعات تختلف في الاستجادة، حتّى تَبْلُغ نهاية الجودة، فيستوي النّاس في استجادته، وهي كنايةٌ تلويحيَّة، ويحتمل أن يكون استعمالُ الأخذ في حقيقَته؛ لأنَّ بعضَ ما يُؤْتيهم الله ممّا يُتناول باليدِ، كالفواكه والشَّراب والرَّياحين، ويحتمل المجازَ من حيثُ إنَّ بعض المُعْطى لا يُتناول باليدِ، كالمناظِر الجميلة، والأصوات الرَّقيقة، والكرامة والرِّضوان، وذلك أكثرُ من الأوَّل، فاجتمع في لفظ ﴿ءَاخِذِينَ﴾ كِنايَتان ومجازٌ(3).

علَّةُ التَّعبير بالموصول ﴿مَآ﴾:

عطايا الله تعالى في الجنَّة لا عدَّ لها ولا وصفَ يوفّيها

في التَّعبير بالموصول ﴿مَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ﴾ - أي: "ما أعطاهم ربُّهم من الخير والكرامة"(4) - دلالة على كثرة ما آتاهم ربُّهم الكريم سبحانه، ممّا لا يتَّسع المقامُ لتَعْديده، كما لا تطيق اللُّغة، ولا يطيق تصوُّر المُتَلَقّي تفصيلَه، فلا يصلح

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، رقم: (6549)، ومسلم في صحيحه، رقم: (2829).
(2) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 13.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 347.
(4) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 175.

الاسمُ الصَّريح، بل لا يوجد اسمٌ صريح يَحتمل ما تحتمله ﴿مَآ﴾ هنا، وعلى ذلك فهي أداةُ تهويلٍ وتفخيمٍ وتعظيمٍ.

سرُّ إيثار فعل الإيتاء في ﴿ءَاتَىٰهُمۡ﴾:

كـرامـات الـلـه تعالى في الآخرة لا تكلُّفَ فيها ولا معاناة

في التَّعبير بفعل الإيتاء في جملة: ﴿ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ﴾ دليلُ الإكرام والحَفاوة؛ "لأنَّ أخْذَهُم ذلك لم يكن عنوةً وفتوحًا، وإنَّما كان بإعطاء اللّه تعالى"[1]، فلم يَدَعْهُم تعالى يتكبَّدون عناء الذَّهاب إلى حيث تلك المكرُمات؛ ليَتَسَلَّموها، بل هو سبحانه الَّذي آتاهم إيّاها، وأوصلها إلَيْهم بأمره (كنْ)، أو بتكليفِ الملائكة الكرام، أو بوسائلَ خاصَّةٍ هنالك ممّا يدخُلُ تحت قوله: «ما لا عين رأت...»، فالإيتاء يعني الإعطاءَ وزيادة، وهو توصيلُ المعطَى إلى المعطَى له، وتمليكه إيّاه، وثباته عنده، وعدم انتقالهِ عنه، و"الإيتاء: أقوى من الإعْطاء... لأنَّ الإيتاء في أكثر مَواضِع القُرآن فيما له ثبات وقرار، كالحكمة والسَّبع المثاني، والملك الَّذي لا يُؤْتى إلّا لذي قوَّة"[2].

سرُّ صوغ فعل الإيتاء ماضيًا:

تحقُّقُ وعدِ الله تعالى للمتَّقين

المناسب في الظّاهر لقوله تعالى: ﴿ءَاخِذِينَ﴾ أن يُقال: آخذين ما يُؤْتيهم؛ لأنَّ ﴿ءَاخِذِينَ﴾ حالٌ، وهو في معنى قول القائل: (يأخذون)، لكنَّه قال: ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمۡ﴾ دون: ما يؤتيهم؛ لأنَّ المقصودَ أنَّهم يتملَّكون ما أعطاهم، وقد يوجد الإعطاء أمسِ، ويُتَمَلَّك اليومَ، أو أنَّ اللّه تعالى أعطى المؤمن الجنَّة، وهو في الدُّنيا، غير أنَّه لم يَكُن جَنَى ثمارَها، فهو يَدْخُلها على هيئةِ الآخذ، وربَّما يأخذُ خيرًا ممّا آتاه، ولا ينافي ذلك كونه داخلًا على تلك الهيئة، كقول القائل: جئتُك خائفًا؛ فإذا أنا آمن[3]، ففي المُضيِّ إشارةٌ إلى تحقّق الوقوع، فإنَّه سيُؤتيهم

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 166.

(2) أبو البقاء، الكليات، ص: 212.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 166.

حين يُدخلهم الجنّات في الآخرة قطعًا، ويَزيد المُتَّقين طمأنينةً إلى أنَّ تلك المكرُمات في علم اللّه تعالى قد أوتوها.

دلالةُ التَّعبيرِ بعنوان الرُّبوبيَّة:

إيمـانُ المؤمنين بربوبيَّته ﷻ أورَثَ اختِصاصَهُم بكراماتِه

في إيثار التَّعبير عن اللّه سُبحانَهُ بوصف الرُّبوبيَّة مضافًا إلى ضمير ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ الإشارةُ إلى اختصاصِهم بالكرامة، والإيماء إلى أنَّ سبب ما آتاهم هو إيمانهم بربوبيَّته المختصَّة بهم، وهي المطابقة لصِفات اللّه تعالى في نفس الأمر[1]، فإيتاءُ ربِّهم سُبحانه إيّاهم ما آتاهم، عطاءٌ كريم، ورحمةٌ عظيمة، اقتضت إسناد إيتائها إلى عنوان الرُّبوبيَّة، وأنَّهُ عطاء جزيلٌ ورحمةٌ كبيرة، لا تكون إلّا من ربِّهم الكريم ﷻ.

حِرمانُ أهلِ الكُفرِ مِن إحسانِ الله تعالى في الآخرَةِ

وإضافةُ لفظِ (ربّ) إلى ضمير المتَّقين في ﴿رَبُّهُمۡۚ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه تعالى هو المحسِنُ إليهم في الآخرة وحدَهُم، أمّا الكافرون الَّذين كانوا يشاركونهم في الدُّنيا في ربوبيَّته ﷻ؛ فقد حُرِموا يومها من آثارِ تلك الرُّبوبيَّة، ربوبيَّةِ الرَّحمة والرِّضوان والإكرام، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [الأعراف: 32]، والحاصل أنَّ في الإضافةِ في ﴿رَبُّهُمۡۚ﴾ مزيدَ تكريم وتشريفٍ، وتطمينٍ للمُتَّقين.

علَّة فصلِ قوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ﴾ عمّا قبله:

مـآلُ الإحسان في الدُّنيا نيلُ الكرامات في الآخِرَةِ

فُصل قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه تعليلٌ له[2]، وبيان للأسباب والوسائل الَّتي توسَّل بها هؤلاء المُكَرَّمون من عباد اللّه، إلى هذا النَّعيم العظيم الَّذي هم فيه[3]، فكونهم في الدُّنيا محسنين سببٌ في إكرامهم بجنّات وعيون آخذين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 348.

(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 100.

(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 508.

ما آتاهم ربُّهم، وهكذا هي الرَّوابط القرآنيَّة بين الجمل والتَّراكيب متينةٌ، ممّا يجعل القرآنَ الكريمَ كلَّه سياقًا متَّصلًا وثيقًا.

معنى (إنَّ) في قوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ﴾:

مِن مقتضيات (لا إله إلا الله) العملُ الصّالح، ومجانبة نواقِضها

(إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّوكيدِ، وهي تقرِّر أنَّ العمل الصالح مُهِمٌّ في بناء المستقبل الآمن والعطاء العظيم والجزاء الجزيل عليه؛ وذلك حتّى لا يتواكل المسلم، ويتوهَّم صفاء عقيدته وتَطامُن قلبه إلى (لا إله إلا اللّه)، وهو لا يعمل، فإنَّ مِن مقتضياتها العملَ الصّالح، ومجانبة نواقضها من تضييع الحقوق، وإهدار الأعمار فيما لا ينفع.

وفي (إنَّ) معنى التَّعليل، وأنَّ ما نالوه مِن الكرامة في الآخرة إنَّما كان بسبب أعمالهم الصّالحةِ الجليلةِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الكون، ودلالةُ صوغه ماضيًا مسندًا إلى واو الجماعةِ:

المعصيةُ تذهبُ لـذَّتُها، ويبقى وِزْرُها، والطّاعة تَذْهَب مشقَّتها، ويبقى ثوابُها

في التَّعبير بفعل الكون الماضي في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى انصرام الدُّنيا وذهاب التَّعب وبقاء الأجر، كما أنَّ دنيا الكفّار قد انصرمت، وذهبت راحتها، وبقي الوزر، كما قال العلماء: "تصوَّر دائمًا ذهابَ لذَّة المعصية وبقاءَ عقابِها، وذهابَ ألَمِ الصَّبر عنها وبقاءَ الثَّواب عليه"[1].

فَفِعْلُ الكون في قوله: ﴿كَانُواْ﴾ "يدلُّ على أنَّ خبرها سنَّة متقرِّرة"[2]، وهكذا يطوي فعلُ الكون إشاراتٍ جليلةً.

وفي إسنادِ فعل الكَوْنِ إلى واو الجماعَةِ إيماءٌ إلى أنَّ هذا صنيعُ جميعِ المتَّقينَ؛ إذ لفظُ ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ جمعٌ، والواو دالَّةٌ على الجَمعِ، والقاعدةُ المتقرِّرة عند أهل العلم: أنَّ مقابلةَ الجمع بالجمعِ تقتضي القِسمَةَ آحادًا، أي: إنَّ هذا المذكور شأنُ كلِّ مُتَّقٍ للّه تعالى.

(1) الطنطاوي، مع الناس، ص: 228.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 349.

فائدةُ التَّعبيرِ بظرف القَبْليَّة في قوله: ﴿قَبۡلَ ذَٰلِكَ﴾:

تحصيلُ الجِنان في الآخرة يكونُ بتَقْديمِ العمل الصّالح في الدُّنيا

مِن براعة التَّركيب هنا ذِكْرُ ظرف القبليَّة في القيد ﴿قَبۡلَ ذَٰلِكَ﴾؛ لأنَّه يَدْعَمُ عطاء المُضيِّ في فعل الكون ﴿كَانُواْ﴾، ويقرِّر أنَّ ذلك المذكورَ في القيد - قبل ذلك الإيتاءِ والإكرام في الدّار الدُّنيا، كقوله: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ٢٤﴾ [الحاقة: 24][1] - متوقِّفٌ على إحسانِهم قبلُ، وأنَّه دون كون إحسانهم قبل ذلك، لا يكون الجزاءُ العظيمُ أصلًا.

ومِن "فائدة الظَّرف في قوله: ﴿قَبۡلَ ذَٰلِكَ﴾ أن يُؤتى بالإشارة إلى ما ذُكِر من الجنّات والعيون، وما آتاهم ربُّهم ممّا لا عين رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيحصل بسببِ تلك الإشارة تعظيمُ شأن المُشار إليه، ثُمَّ يُفاد بقوله: ﴿قَبۡلَ ذَٰلِكَ﴾ أي: قبل التَّنعُّم به أنَّهُم كانوا محسنين، أي: عاملين الحسناتِ، كما فسَّره قولُه: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ الآياتِ، فالمعنى: أنَّهم كانوا في الدُّنيا مطيعين للّٰه تعالى، واثقين بوعده، ولم يَرَوْه"[2]، وفيه إشارة إلى أنَّهم أخذوا الجنَّة، ومُلِّكوها بالإحسان، كما قال تعالى: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [يونس: 26] بِلام المِلك، وهي الجنَّة[3].

بيانُ مرجِع الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾، ولطيفةُ البُعد فيها:

أصولُ الأتقياءِ مبنيَّة على النَّقاءِ

الإشارةُ في قوله تعالى: ﴿قَبۡلَ ذَٰلِكَ﴾ تعود إلى ظفَرهم بالجنّات والعيون، أي: كانوا "قبلَ دخولِ الجنَّة، وهُم في دارِ الدُّنيا"[4]، أو قبلَ أن يُفرض عليهم الفرائض، كانوا للّٰه قبل ذلك مُطيعين[5]، محسنين

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 416.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 348.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 166.
(4) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 373.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 14/ 501.

في أعمالِهم[1] مِن فِعْل ما أُمِروا به، وتَرْك ما نُهوا عنه[2]، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ طبائعَ أصولِ الأتقياءِ النَّقاءُ، وأنَّهم مستعدّون بالفِطرة لعمل الخير قبل التَّكليف.

والتَّعبير عن النَّعيم القريب الَّذي آتاهم ربُّهم بإشارة البعيدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ صريح في بيان بُعده في مراقي الشَّرف والعزَّة في الجنَّة والتَّنبيه على ذلك الرُّقيِّ؛ لكونه عطاءَ الرَّبِّ الرَّحيم الغنيِّ الكريم الموسوم ببُعْدِ المنزلة وسُموِّ الشَّرَف والتَّشريف.

نكتةُ تقديم القيد ﴿قَبۡلَ ذَٰلِكَ﴾ على الخبر ﴿مُحۡسِنِينَ﴾:

نَيلُ الإحسانِ في الآخرة مُرَتَّب على فِعْله في الدُّنيا

في تقديم شِبه الجملة من الظَّرف والمُضاف إليه ﴿قَبۡلَ ذَٰلِكَ﴾ على الخبر ﴿مُحۡسِنِينَ﴾ تنبيهٌ واضح على دَوْر تلك القَبْليَّة - قبليَّة الإحسان - في نوال ذلكَ التَّكريم، وأنَّ مناط الظَّفَر به معلَّق على تقديمِ الإحسان، وفِعله في دار العمل لِنَيْله في دار الجزاء.

دلالةُ التَّعبير بالإحسان، ولطيفةُ صوغه اسمَ فاعل:

الإحسانُ درجةٌ في سُلَّم الارتقاء إلى درجة التَّقوى

في الإخبار عن المتَّقين بالإحسانِ خاصَّة بيانٌ لمنزلةِ الإحسان في الوصول إلى درجة التَّقوى، التي هي سُلَّم الرُّقيِّ إلى نعيم الجنان.

والإحسان ما جاءت بتفاصيله الآياتُ الثَّلاث: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾، وما جاء في حديث جبريل عليه السلام: «أنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأنَّكَ تَراهُ، فَإنْ لَم تَكُنْ تَراهُ؛ فَإنَّهُ يَراكَ»[3]، فهذا يُمَثِّل الإحسانَ فيما يخصُّ علاقة العبدِ باللّه سبحانه وتعالى، أمّا ما يُمَثِّل الإحسانَ فيما يخصُّ العلاقةَ بالنّاس، فيوَضِّحه قول اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران: 134]، وفي صوغ الخبر ﴿مُحۡسِنِينَ﴾ اسمَ فاعلٍ دلالَةٌ على

(1) الواحدي التفسير، الوسيط: 4/ 175.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 100.
(3) رواه مسلم في صحيحه، رقم: (8).

أنَّ المتَّقين كانوا مقيمين على ذلك الإحسان دائبين عليه خُلُقًا دائمًا لهم، ووصفًا ثابتًا لا يتذبذب، ولا ينقطع فيهم؛ إذ ترسَّخ فيهم خُلُقًا أصيلًا ثابتًا، متينًا مكينًا.

نكتةُ حذْف متعلِّق الإحسان في الخبر ﴿مُحۡسِنِينَ﴾:

عمومُ إحْسانِ المتَّقين

سكت النَّظم الكريم عن متعلِّق الإحسان، والمعنى: أنَّهم كانوا مُحّسنينَ "لأعمالِهم الصّالحةِ، آتينَ بها عَلى ما ينبغي؛ فلذلكَ نالوا ما نالوا مِنَ الفوزِ العظيم"[1]، ومن لطائف حذف هذا المتعلِّق إفادةُ العموم - عموم إحسانهم - جوانبَ حياتِهم كافَّةً، مِن عباداتٍ ومعاملات، وأخلاقٍ، وآدابٍ، وغير ذلك.

علَّة فصل قوله: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا﴾ عمّا قبلهُ:

في قيام اللَّيل تزكية النَّفس، وفي الاستغفار تزكيةُ الظّاهر بالأقوال الطَّيِّبة

فُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ عن قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ﴾ قبله؛ لكمالِ الاتِّصال بينَهُما؛ إذ فُسِّر إحسانُهُم المذكورُ قبلُ بقوله: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا﴾[2]، أو هوَ "بدلُ بعضٍ مِن كلٍّ منه؛ لأنَّ هذه الخصال الثَّلاث هي بَعضٌ من الإحسان في العمل، وهذا كالمثال لأعظم إحسانهم، فإنَّ ما ذُكر من أعمالهم دالٌّ على شدَّة طاعتهم للّه تعالى ابتغاء مرضاته ببذل أشدِّ ما يبذل على النَّفس، وهو شيئان، أوَّلهما: راحةُ النَّفس في وقت اشتداد حاجتها إلى الرّاحة، وهو اللَّيل كلُّه، وخاصَّةً آخره؛ إذ يكون فيه قائمُ اللَّيل قد تعبَ، واشتدَّ طلبهُ للرّاحة. وثانيهما: المالُ الَّذي تَشِحُّ به النُّفوس غالبًا، وقد تضمَّنت هذه الأعمالُ الأربعة أصلَ إصلاح النَّفس وإصلاح النّاس، وذلك جِماع ما يَرْمي إليه التَّكليف من الأعمال، فإنَّ صلاح النَّفس تزكيةُ الباطن والظّاهر، ففي قيام اللَّيل إشارة إلى تزكية النَّفس باستجلاب رضا اللّه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 138.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 398.

تعالى، وفي الاستغفار تزكية الظّاهر بالأقوال الطَّيِّبة الجالبة لمرضاةِ اللّه ﷻ"[1].

سرُّ تكرار فعل الكونِ الماضي في ﴿كَانُواْ قَلِيلًا﴾:

أثرُ أفعال الدُّنيا في تحديدِ جزاء الآخرة

في تَكرار فعل الكونِ الماضي في قوله تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ إلحاح على التَّنبيه إلى أثر أفعالِ الدُّنيا في تحديد جزاءِ الآخرة، فهؤلاء المُتَّقون كانوا، وكانوا... ممّا هيَّأهم لذلك الَّذي هُم فيه الآنَ من ﴿جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ﴾، وفي تَكرار فعل الكون الماضي كذلك لَفْتٌ إلى ذهاب تعَبِ الطّاعة وبقاء أجْرِها.

دلالةُ التَّعبير بالظَّرف ﴿قَلِيلًا﴾، ولطيفة تنكيره:

الصَّلاة والاستغفار باللَّيل مِن صفاتِ المُحسنين

وَصف اللّه ﷻ المتَّقين بأنَّهم كانوا قليلًا من اللَّيل ما يَهْجعون؛ مَدْحًا لهم، وثناءً عليهم به؛ لما اتَّسموا به من كثرة العمل، وسَهَرِ اللَّيل، ومكابدته فيما يُقَرِّبُهم منه، ويُرضيه عنهم[2]، فـ ﴿قَلِيلًا﴾ في جملة: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ وصفٌ لجُزْء زمن محذوف، أي: كانوا يهجعون وقتًا أو جزءًا قليلًا من اللَّيل؛ إذ "يكابدون العبادة في أوقات الرّاحة وسكون النَّفس، ولا يستريحون من مشاقِّ النّهار إلّا قليلًا"[3]، و"المراد: من كلِّ ليلة"[4]، فصار ﴿قَلِيلًا﴾ في محلِّ الظَّرف، وأخَذَ حُكْمَه، والزَّمن - في الأصل - يوصف بالقِصر والطّول لا بالقلَّة والكثرة، وعلى ذلك فوصفُ ﴿قَلِيلًا﴾ هنا يُلمح إلى قلَّة هجوع المحسنين، وقلَّة ركونهم إلى الرّاحة.

وفي "تقييد الهجوع بالقليل إشارةٌ إلى أنَّهم لا يستكملون منتهى حقيقة الهجوع، بل يأخذون منه قليلًا، وهذه الخصوصيَّة فاتت أبا قيس بن الأسلت في قوله:

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 348.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 14/ 509.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 9.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 174.

قد حَصَّتِ البَيْضَةُ رَأسي فَما *** أَطْعَمُ غُمضًا غَيْرَ تَهْجاعِ[1]

ففي الآية مبالغةٌ في تقليل هجوعهم؛ لإفادة أنَّه أقلُّ ما يَهْجَعه الهاجع"[2].

القليلُ قد يُعبَّر به عن النَّفي

وكما يصحُّ أن يكون المعنى: كان هُجوعُهم قليلًا من أوْقات اللَّيل، فيجوز أن يكون معناه: لم يكونوا يَهْجَعون، فالقليل قد يُعبَّر به عن النَّفْي والمُشارِفِ لِنَفْيه[3]، كما يُقال: فلانٌ قليلُ الحياء، أي: لا حياءَ له[4].

معنى ﴿مِّنَ﴾ في القيد ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾:

ركون المحسنين إلى الرّاحة والاسترخاء قصيرٌ لا يطولُ

﴿مِّنَ﴾ في القيد ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ تبعيضيَّة، تدلُّ على أنَّ هُجوعهم وركونهم للرّاحة والاسترخاء لا يعدو كونَه جزءًا يسيرًا قصيرًا من اللّيل، كما قال تعالى يصف عبادةَ خاتم المُرسلين ﷺ: ﴿۞إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾ [المزمِّل: 20].

ويفيد ذلك - بمفهوم المُخالفة - أنَّ قيامهم من اللَّيل في العبادة كان بَيْنَ يَدَي اللّه تعالى طويلًا، وكثيرًا من العبادة كانت تشغلهم، وتعمر أوقاتَهم الطَّويلة.

معنى (أل) في ﴿ٱلَّيۡلِ﴾:

ليالي المحسنين كلُّها عامرة بالطّاعات

(أل) في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ جنسيَّة استغراقيَّة، تستوعب كلَّ ليل المحسنين، فتعني اللّيالي كلَّها، فظاهر الآية يُفصح عن أنَّهم كانوا يقومون الأكثر من لَيْلِهم، أي: من كلِّ ليلة[5]، فكلُّ ليلهم مباركٌ بالطّاعات، عامرٌ بالقربات، ليلٌ جدير بوصف اللَّيليَّة الهادئة، الخالية من شَغَب الحياةِ وصخبِها.

---

(1) ديوان صيفي بن الأسلت، ص: 78، ط، دار التراث.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 350.

(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: (بصيرة في هجع).

(4) الجاحظ، الحيوان: 2/ 371.

(5) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 174.

بلاغةُ الكناية بذِكْرِ ﴿ٱلَّيۡلِ﴾:

اللّيل أصفى للعبادة

في تخصيص ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ بالذِّكر هنا كنايةٌ عن عمارة النَّهار بالعمل الصّالح، المتعدّي خيرُه مِن باب أولى؛ لأنَّهم إذا كانوا يَعمُرون اللَّيل بالعبادة ولا ينامون - و"اللَّيل وقت السُّبات والرّاحة"[1]، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ۝١٠﴾ [النبأ: 10] - فعمارتُهم النَّهار بذلك أولى وأحْرى.

ثُمَّ إنَّ اللَّيلَ أسترُ على العُبّاد، وأصفى للعبادة، وأنزل للرَّحمات والبركات، واللّه تعالى يقول: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزمل: 6]، فـ "تركوا النّوم في الوقت الَّذي من شأنه استدعاء النُّفوس للنَّوم فيه؛ زيادةً في تصوير جلال قيامهم اللَّيل، وإلّا فإنَّ قوله: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ يفيد أنَّه من اللَّيل"[2].

دلالة ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا يَهۡجَعُونَ﴾:

في اصطفاء (ما) إشارة إلى عظيمِ خَشْيَتِهم وعدمِ اغتِرارهم بعبادتهم

﴿مَا﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ تحتمل ثلاثةَ توجيهاتٍ، ولكلٍّ منها عطاؤها الدَّلالي البارع، فتحتمل المصدريَّة، ويكون المعنى: كانوا قليلًا من اللَّيل هجوعهم، وتحتمل الموصوليَّة، ويكون المعنى: كانوا قليلًا الوقت الذي يَهْجَعونَه، ويهجعونَ فيه، وتحتمل أن تكون صلةً للتَّأكيد، فيكون المعنى: كانوا قليلًا من اللَّيل يهجعون على وجهِ القَطْعِ والجَزْمِ؛ وذلك لأنَّ (ما) شاع زيادَتُها بعد اسم (قليل) و(كثير)، وبعد فعل (قلَّ) و(كثُر) و(طال)، فأفادت ﴿مَا﴾ تلك الدَّلالات، ولا مانعَ من اجتماعِ هذه الدَّلالاتِ، فتكون ﴿مَا﴾ مفيدَتَها دَفعةً، ولخصَّتها في لفظٍ يسير، وفيه "إشارةٌ إلى مزيد خَشْيَتِهم وعدم اغتِرارهم بعبادتهم"[3].

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 398.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 349.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 10.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ وجه النَّفي في ﴿مَا﴾ ممتنع ههنا على معنى: أنَّهم لا يهجعون من اللَّيل قليلًا، ويُحْيونه كلَّه؛ لأنَّ ما النّافية لا يعمل ما بعدَها فيما قبلها، تقول: زيدًا لم أضرب، ولا تقول: زيدًا ما ضربتُ[1]، فضلًا عن أنَّ المعنى يأباه؛ إذ يتَنافى مع الدَّوام على القيامِ الَّذي اشتُهروا به، فذلك ممّا لا يستطيعهُ بشر.

نكتةُ العدولِ عن ذِكْرِ قيام اللّيل إلى قِلَّة الهجوع باللَّيل:

النَّظم الكريم يــغـــوص عـلى مكامنِ النُّفوس في المعالجة

عدَلَ النَّظم الكريم عن التَّعبير بقيام المُحْسِنين اللَّيل - فلَم يقُل: كانوا يقومون اللَّيل، أو كانوا يُصلّون في جوف اللَّيل - إلى التَّعبير بقلَّة هُجوعهم، فقال: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾، وذلك "لأنَّ في ذِكْرِ الهُجوع تذكيرًا بالحالِ الَّتي تَميل إليها النُّفوس، فتغلبها، وتَصْرِفها عن ذِكْرِ اللّه تعالى، وهو من قبيل قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: 16]، فكان في الآية إطنابٌ اقتضاه تصويرُ تلك الحالِ، والبليغ قد يوردُ في كلامه ما لا تتوقَّف عليه استفادة المعنى؛ إذا كان يَرْمي بذلك إلى تحصيلِ صوَرِ الألفاظ المزيدة"[2].

سرُّ التَّعبيرِ بمفردة الهجوع، ودلالةُ صَوْغِها فعلًا مضارعًا:

نــومُ المحسنين يحتسبونَهُ عند الله تعالى

مَدَحَ اللّه تعالى المحسنين بِقِلَّة الهجوع، ولم يَمدَحْهُم بكثرة السَّهر، فما قال: كانوا كثيرًا من اللَّيل ما يَسهرون، مع أنَّ السَّهر هو الكُلْفة والاجتهاد لا الهجوع؛ وذلك للإشارة إلى أنَّ نومَهُم يحتسبونَ فيه الأجرَ والثَّوابَ؛ إذ مَدَحَهُم اللّه تعالى بكونهم هاجعين قليلًا، وذلك الهُجوع أورثهم الاشتغالُ بِعبادة أخرى هي الاستغفار في وُجوه الأسحار، ومنعهم مِنَ الإعجاب بأنفُسِهم والاستكبار[3].

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 399.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 349.

(3) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 38.

ففي التَّعبير بقلَّة الهجوع دلالةٌ على أنَّه كان من إحسانهم أنَّهم يذكرون ربَّهم لا يكادون يَغفُلون عن ذكره، ولا يعطون أنفُسَهُم حظَّها من النَّوم[1].

لطيفةُ تقديمِ الخبر ﴿قَلِيلٗا﴾ والقيد ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ على بدل اسم كان:

تنويهُ الله تعالى بأعمالِ المحسنين وإكرامُهُ إيّاهم باجتِهادهم

قُدِّم الظَّرف والجارُّ والمجرور ﴿قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ على بدل اسم كان؛ إذ إنَّ تقدير الجملة بعد التَّأويل وإعادة التَّرتيب بحسب القواعد: كانوا هجوعُهم - أو الوقتُ الَّذي يهجعونه - قليلًا من اللَّيل.

وفي ذلك التَّصرُّف بالتَّقديم إشادةٌ باجتهادهم في العبادة؛ إذ ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ وقت النَّوم، والسُّكون والرّاحة بعد نهارٍ مليءٍ بأعباءِ العمل: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧﴾ [المزمل: 7]، فهذا اللَّيل كذلك عَمَروه بالاجتهاد من القيام والتَّهجُّد والذِّكر والاستغفار وتحصيل العلم، والتَّدبُّر في قرآنه الكريم، ونحو ذلك من صنوفِ الطّاعاتِ وضروبِ العباداتِ.

ففي تقديم ﴿قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ تسجيلٌ للرِّضوان، وإشادة بالجهود، وتعريفٌ بسبيل المتَّقين، وتبيينٌ لمنهج حياتهم الَّذي بلغ بهم مرحلة التَّقوى والإحسان.

وبتقديم قوله: ﴿قَلِيلٗا﴾ يكون السّابق إلى الفهم قلَّة الهجوع؛ لأنَّ الغرض بيان قلَّة الهجوع، لا بيان الهجوع بوصفِ القلَّة أو الكثرة، وهذه الفائدةُ مَن يُراعيها يقول: فلان قليلُ الهجوع، ولا يقولُ: هجوعُه قليل[2].

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾:

طاعاتُ المحسنين كثيرةٌ ومنوَّعة

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ عاطفة؛ إذ تجمَع للمحسنين هذين الخَيرين: ﴿قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾، (بالأسحار هم يستغفرون)، وتُبيِّن نَوع العبادة الَّتي كانوا يَختصّون

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 508.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 167.

بها أواخر اللَّيل، ويختمون بها عباداتِهم قُبَيل طلوع الفجر، وأنَّها كانت عبادةَ الاستغفار.

المحسنون يستعينون بصفاء الأسحارِ على العبادةِ والاستغفار

معنى (الباء) في قوله: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ﴾:

(الباء) في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ بمعنى (في)، أي: وفي وقت الأسحارِ هُم يستغفرون، ومِن لطائف إيثار (الباء) على حرف الظَّرفيَّة الصَّريح (في) التَّنبيهُ إلى أثر صفاءِ الأسحار، وخلوص النُّفوس المؤمنة فيها في ميدان التَّقوى، والمعنى: أنَّهم كانوا مستعينين بالأسحار على طلَبِ الغفران، ففيها معنى الاستعانة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾ [الإسراء: 79].

كما أنَّ في (الباء) هنا معنى الملابَسَة، أي: إنَّهم مُتَلَبِّسون بالاستغفار في هذا الوقت الصّافي، وعلى ذلك؛ فالباءُ هنا تَضْمينيَّة، تُضمِّن فعلَ ﴿يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ معانيَ الأفعالِ: يستعينون، ويتلبَّسون، إلى غير ذلك.

عبادةُ آخِر اللَّيل أفضلُ مِن العبادة أوَّلَه

معنى (أل) في ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ﴾:

(أل) في ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ لتعريف الجِنْسِ والاستغراق، أي: إنَّ المُحْسِنين في جميع الأسحارِ يَنْشَطون بالعبادة وطلبِ الغفران، ولا يركنون إلى الرّاحة والخُلود إلى النَّوم مثل عامَّة النّاس.

أوقات المحسنين متفرِّدة متميِّزة عن أوقات غيرهم

دلالةُ جمع (الأسحار) جمعَ قلَّة:

(الأسحار) جمعُ: السَّحَر، و"السَّحر هو السُّدس الآخر من اللَّيل"[1]، و"جُمِع (الأسحار) باعتبار تَكرُّر قيامِهم في كلِّ سَحَر"، أي: إنَّهم كانوا يستغفرون في الأسحار كلِّها[2]، وفي جَمعِها جمعَ قلَّة تنويهٌ بأسحارهم هُم بخاصَّة، وتميُّزها، وتفرُّدها من بين أسحار الخلقِ جميعًا.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 14/ 511.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 350.

نكتةُ تقديم القيد (بالأسحار) على ﴿يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾:

يعظُمُ قدرُ العبادةِ مِن متعلّقاتِها

كلُّ الموحِّدين يشتركون في استغفارهم اللّه تعالى، ويتعلَّقون بهذا الرَّجاء، ولكنَّ الشَّأن فيمن يفكِّر في ذلك في أوقات راحةِ النّاس وهَجعتهم، وأولئك هم المتَّقون المحسنون، ففي تقديم القيد بالجارِّ والمجرور (بالأسحار) على جملة: ﴿هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ تنويهٌ بشأن مَن يَعمرون هذا الوقت بالعبادة، فقد قال رسول اللّه ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّماءِ الدُّنْيا حينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يَقولُ: مَنْ يَدْعوني؛ فَأَسْتَجيبَ له، مَنْ يَسْأَلُني؛ فَأُعْطيَهُ، مَن يَستَغْفِرُني؛ فَأَغْفِرَ له»[1]، ففي "تقديم (بالأسحار) على ﴿يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ اهتمام به"[2] لذلك.

نكتةُ تقييدِ استغفار المحسنين بالأسحار:

المحسنون يرون أنَّ عباداتِهم - مع كثرتها وتنوُّعها - تحتاج إلى استغفارٍ

في تقييد استغفار المحسنين بـ (الأسحار) تنبيهٌ على متعلِّق الإحسان في هذا الاستغفار؛ لأنَّ "أرجى وقتِ الاستغفار وقتُ السَّحر"[3]، وإلّا فعامَّةُ المسلمين يستغفرون اللّه ﷻ، ولأنَّ (الأسحار) "مظنَّةُ الاستغفار، ويُروى أنَّ أبواب الجنَّة تُفتح سحَر كلِّ يوم، وفي قصَّة يعقوب عليه السلام في قوله: ﴿سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ﴾ [يوسف: 98]، قال: أخَّر الاستغفار لهم إلى السَّحر"[4].

وتقديم (الأسحار) يوحي - أيضًا - بأنَّهم بلغوا من التَّقوى مبلغًا يرون فيه عبادتهم اللَّيل كلَّه تقصيرًا يستوجب الاستغفار، وأنَّهم "مع قلَّةِ هُجوعِهم وكثرةِ تهجُّدِهم يداومونَ على الاستغفارِ في الأسحارِ، كأنَّهم أسلفوا ليلهم باقترافِ الجرائم"[5]، "فإذا آذَنَ اللَّيل

(1) رواه البخاري في صحيحه، رقم: (1145)، ومسلم في صحيحه، رقم: (758).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 350.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 379.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 175.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 138.

بالانصرام؛ سألوا الله أن يغفر لهم بعد أن قَدَّموا من التَّهجُّد ما يرجون أن يُزْلِفَهم إلى رضا الله تعالى، ودلَّ هذا على أنَّ هُجوعَهُم الَّذي يكون أثناء اللَّيل قبل السَّحر، فأمّا في السَّحر؛ فهُم يتَهجَّدون، ولذلك فسَّر ابن عمر ومجاهد الاستغفارَ بالصَّلاة في السَّحر.

وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ۝١٧﴾ [آل عمران: 17]، وليس المقصودُ طلبَ الغفران بمجرَّد اللِّسان، ولو كان المستغفرُ في مَضْجَعِه؛ إذ لا تظهر حينئذٍ مزيَّةٌ؛ لتقييد الاستغفار بالكون في الأسحارِ"[1].

بلاغةُ تقديم الضَّمير ﴿هُمْ﴾ على الخبر الفعليِّ:

المحسنون هم الأحِقّاء باستغفار الأسحار المكْرَمون به دون المصرّين

في بناء جملة: ﴿هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ على تقديم الضَّمير ﴿هُمْ﴾ على الخبر الفعليِّ ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قَصْرُ تلك الفضيلة عليهم؛ إذ هم بِخاصَّة مَن وفَّقهم الله تعالى إلى قيام اللَّيل حتّى أدركهم السَّحر، فختموها بالاستغفار.

و"فيه أنَّهم هم المستغفرون الأحِقّاء بالاستغفار دون المُصرّين، فكأنَّهم المختصّون به؛ لاستدامتهم له وإطنابهم فيه"[2]، وفيه كذلك "إظهارُ الاعتناء بهم، وليَقع الإخبار عن المسند إليه بالمسند الفعليِّ، فيُفيد تَقَوّي الخبر؛ لأنَّه من النُّدْرة بحيث يقتضي التَّقوية؛ لأنَّ الاستغفار في السَّحَر يَشُقُّ على مَن يقوم اللَّيل؛ لأنَّ ذلك وقت إعيائه"[3].

ووجه تقويةِ الخَبَرِ ما في الجملةِ مِن تكرار الإسناد، فإنَّ الاستغفارَ مُسنَدٌ إلى الضَّمير المنفصلِ ﴿هُمْ﴾، ومسنَدٌ أيضًا إلى الضَّمير المتَّصل، وهو واوُ الجماعةِ، وتكرارُ الإسنادِ مِن مقوّياتِ الجُمَلِ ومؤكِّداتها.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 350.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 399.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 350.

دلالةُ التَّعبير بالاستغفار في قوله: ﴿هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾:

الاستغفارُ جزءُ الصَّلاة المُهِمُّ في التَّهجُّد

الاستغفارُ: طلب الغفران من الغفّار ﷻ، وطَلَبُ هؤلاء المتَّقين المحسنين المغفرةَ في أسحارهم بعد قيام اللّيالي الطَّويلة العامرة بصُنوف العبادةِ دليلُ رقَّة قُلوبِهم ونَقاء نفوسِهم وصِدْقِ يَقينِهم، وتمام خشيتهم من اللّه تعالى، و"الاستغفارُ يَحْتَمِل طلبَ المغفرة بالذِّكر، بِقَولِهم: ربَّنا اغفر لنا، وطلبَ المغفرةِ بالفعل، أي: بالأسحارِ يأتونَ بفعلٍ آخرَ طلبًا للغُفران، وهو الصَّلاة، والأوَّل أظهَرُ، والثّاني عند المُفَسِّرين أشهر"[1].

فإن أُريد به الصَّلاة؛ فيكون "سِرُّ التَّعبير عن الصَّلاة بالاستغفار الإشارةَ إلى أنَّه رُكْنُها المُهِمُّ في التَّهجُّد، بل وفي غيره، فيكون من إطلاق الجُزء على الكلِّ، وقد ذُكِر في أذكار الصَّلاة الاستغفارُ في مواضعَ منها، كالرُّكوع والسُّجود وبين السَّجدتين وآخر الصَّلاة، كما أخرجه الشَّيخان وأهلُ السُّنن، وكان ﷺ يُطيل الرُّكوع والسُّجود والتَّهجُّد لذلك"[2].

وإن أُريد به طلبُ الغفران؛ فيوحي بأنَّهم يقومون، فيُصَلّون، أو أنَّهم يؤخِّرون الاستغفارَ مِن ذُنوبِهم إلى السَّحر، أي: إنَّهم "مَدّوا في الصَّلاة، ونشطوا، حتّى كان الاستغفارُ بسحر"[3].

دلالةُ صوغِ الفِعْلِ ﴿يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ مضارعًا:

الكريمُ يأتي بأبلغ وجوه الكرم، ويستقلُّه، فيعتذر منه، واللَّئيم يأتي بالقليل، فيستكثرُه

في صوغ الفعل ﴿يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ مضارعًا دلالةٌ على فَرْطِ نشاطهم، وقوَّة تعلُّقهم بربِّهم ﷻ، وتجديدهم استغفارًا بعد استغفارٍ مِن غير مَلَل ولا كَلَل، فهكذا يفعلُ الإيمان بصاحِبه، يَمُدُّه بالهِمَّة، ويعمُر روحَهُ بحُبِّ الخالق ﷻ، فكلَّما اقترب؛ ازداد نشاطًا، وأصبح أكثر تَوْقًا وشَغَفًا.

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 38.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 39.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 14/ 509 بتصرف.

وفيه "إشارةٌ إلى أنَّهم كانوا يتَهَجَّدون، ويَجْتَهِدون، يريدون أن يكون عَمَلُهم أكثرَ مِن ذلك، وأخلصَ منه، ويستغفرون من التَّقصير، وهذه سيرةُ الكريم، يأتي بأبلغ وجوهِ الكرَم، ويستقلُّه، ويعتذرُ مِنَ التَّقصير، واللَّئيم يأتي بالقليلِ، ويستكْثِرُهُ، ويَمُنُّ به"[1].

إشارة إسناد فعل الاستغفار إلى ضمير الجماعة:

الجماعة الصّالحة تجتمع على الخيرِ والبرِّ

في إسناد فعلِ الاستغفار إلى ضمير الجماعةِ في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ إشارة إلى أنَّ الجماعةَ الصّالحة تُعين أفرادَها على التَّقوى، وأنَّ الاستغفارَ صنيعُ جماعة المتَّقين؛ إذ تَجْمَعُهم صنوفُ الخيرِ، وأعمالُ البرِّ.

دلالةُ السّين والتّاء في الفعل ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾:

المُحسنون متعلِّقون بطلَبِ المَغْفِرَةِ حريصونَ عليه

السّين والتّاء في الفعل ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ تُلمِحان إلى قوَّة اجتهادِ المُتَّقين المُحْسِنين في طلَبِ المغفرة، وشدَّة تعلُّقهم بهذا الرَّجاء، وتكلُّفهم له التَّكاليف التَّعبُّديَّة، فالظَّفَر بالمغفرة غايةٌ يُبذَل لها الغالي والثَّمين من الوقت والجهد والمال، والمُتَّقون المحسنون بنَيْلها أولى النّاس.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾:

المتَّقون المحسنون يجمعون بين عبادة البدنِ وعبادةِ المال

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ﴾ عاطفة، تجمَعُ لهؤلاء المتَّقين بين عبادة الجسَدِ وعبادة المال، وبين النَّفع اللّازم والنَّفع المتعدّي، وهكذا المسلم النّافع لغيرِه خيرٌ عند اللّه تعالى من المسلم القاصِرِ خيرَه على نفسِه، فمِن صفات المتَّقين التَّجلّي بالعبادتين جميعًا، وأنَّهم يبذلون من عُمُرهم وجُهْدهم ومِن أموالهم وفَضلِ اللّه تعالى الَّذي آتاهُم، فَمَنْ فعَلَ ذلك؛ دخلَ تحتَ هذا الشَّرف العَظيمِ، وطهَّر ماله مِن شَوائبِ الحَرامِ.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 168.

المتّقون المحسنون يؤثرون على أنفسِهم ولو كان بهم خصاصةٌ

دلالةُ التَّعبيرِ بمُفْرَدَة المالِ في ﴿أَمْوَٰلِهِمْ﴾:

التَّعبيرُ بالمال في قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ إشارة إلى أنَّهم يَقْتَطعون هذا القدر ممّا يُتَموَّل به، ويُستعان به على أعباء الحياة، فهم يحتاجونه لأنفُسِهم وعيالهم، ومع ذلك تجودُ به أنفسُهم، وتسخو قُرْبةً إلى اللّه تعالى، وثِقَةً فيما عنده ﷻ.

طيبُ أموالِ المتَّقين المحسنين

لطيفةُ الإضافة في ﴿أَمْوَٰلِهِمْ﴾:

في إضافة الأموال إلى ضمير الجماعة في ﴿أَمْوَٰلِهِمْ﴾ ما يُفْصِح عن حِلِّ تلك الأموال، وأنَّها مِلك لهم على سبيلِ الحقيقة، لا أنَّها تحت سَطْوَتِهم بالاستغلال والانتهاب، إنَّها أموالهم هُم، والحاكم في ذلك هو عِلْمُ اللّه ﷻ الَّذي لا تغيبُ عنه غائبة، وهذا داعٍ للعبد إلى تحرّي حِلِّ أمواله الَّتي سَيُنْفِق منها في سبيل اللّه ﷻ، فيجبُ أن تكون حلالًا كلُّها؛ لتُقبَل، ويُبارَك له في أجرِها، ويتحقَّق فيها الثَّواب الموعود؛ لأنَّ قليلَ الحرام يفسِدُ المالَ كلَّه، ويعرِّضه للرَّفض وعدم القبول، كما يُروى في الحديث: «ما خالَطَتِ الصَّدَقَةُ مالًا قَطُّ إلّا أَهْلَكَتْه»[1]، وجاء في مسندِ الحُميديِّ بعد روايته هذا الحديث: "قَد يَكونُ قَد وجَبَ عَلَيكَ في مالِكَ صَدَقَةٌ، فَلا تُخْرِجُها، فَيُهْلِكَ الحَرامُ الحَلالَ"[2].

المحسنون يَسْتَوْجِبون على أنفُسِهم للسّائل والمحروم حقًّا غير الزَّكاة

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿حَقٌّ﴾، ونكتة تنكيره:

في التَّعبير بـ ﴿حَقٌّ﴾ هنا إشادة بفعل المتَّقين المحسنين في هذا العطاء الزّائد عن الزَّكاة الواجبة الَّذي أفرزوه[3]، وعيَّنوه من أموالهم، و"صاروا يَرَوْنَهُ حقًّا لهؤلاء الضُّعفاء المحتاجين، لا يشعرون

---

(1) رواه البخاري في التاريخ الكبير، رقم: (549)، وضعّفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير وزياداته، رقم: (5057).

(2) الحميدي، مسند الحميدي، أحادِيثُ عائِشة أُمِّ المُؤمِنين رضي الله عنها عن رسُولِ اللّهِ ﷺ: 1/ 275 برقم: (239).

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 418.

فيه بمنَّةٍ ولا علوٍّ ولا فَخار[1]، وعن ابن عباس رضي اللّه تعالى عنه أنَّه حقٌّ سوى الزَّكاة، تَصِلُ له رحمًا، أو تَقري به ضيفًا، أو تَحمل به كلًّا، أو تُغني به محرومًا[2].

ويوحي تنكيرُ ﴿حَقٌّ﴾ بأنَّه "نصيب وافر، يَستَوجبونه على أنفُسِهم؛ تقرُّبًا إلى اللّه ﷻ، وإشفاقًا على النّاس"[3]، و"أُطْلِق عليه لفظُ الحقِّ؛ إمّا لأنَّ اللّه أوجب على المسلمين الصَّدقة بما تيسَّر قبل أن يَفرض عليهم الزَّكاة، فإنَّ الزَّكاة فُرِضت بعد الهجرة، فصارت الصَّدقة حقًّا للسّائل والمحروم، أو لأنَّهم ألزموا ذلك أنفسَهُم حتّى صار كالحقِّ للسّائل والمحروم، وبذلك يُتَأوَّلُ قولُ مَن قال: إنَّ هذا الحقَّ هو الزَّكاة"[4].

نكتةُ تقديمِ القيد (في أموالهم) على ﴿حَقٌّ﴾:

تـركُ المحسنين التَّطلُّعَ إلى أموال غيرهم

في تقديم المتعلِّق (في أموالهم) على المبتدأ ﴿حَقٌّ﴾ تنبيهٌ على أنَّ المحسنين لا يتطلَّعون إلى أموال غيرهم، ولا يتصرَّفون فيها، ولا يَقْضون فيها بقضاء، وإنَّما يَقْضون في أموالهم هُم بتَعْيين هذا الحقِّ للسّائل والمحروم، وفي تقديمه كذلك إشارةٌ إلى أنَّهم مُتَيَقِّظون لِما يفعلون، عالمون بما يُخرِجون.

معنى (اللّام) في القيد ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾:

عطاءُ المُحْسِنين للسّائل والمحروم يكون على وجه التَّمليك بلا مِنَّةٍ

(اللّام) في القيد ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ لامُ الاختِصاص والتَّمليك، فالمتَّقون المحسنون يختَصّون السّائلَ والمحروم بهذا الحقِّ على جهة تمليكهم إيّاه، وخروجه من ملكيَّتهم، وبذلك لا يَبْقى لهم سلطانٌ عليه، فلا وجهَ لِفَخْرٍ بعطاء، ولا مجال لِمِنَّةٍ؛ عملًا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: 264]، وفي هذا الاختصاص

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 138.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 366.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 10.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 351.

والتَّمليك إشعارٌ للسّائل والمحروم بالتَّكريم، وأنَّ هذا الحقَّ إنَّما هو لهما، ويَخُصُّهما، ولا دخلَ لأحدٍ بهِ، ولا تصرُّف لأحدٍ فيهِ.

معنى (أل) في (السّائل):

المحسنون يُعطون كلَّ سائل يسألهم دونَ النَّظر إلى حالِهِ

السّائل هو المُستَجدي[1]، و(أل) في (السّائل) جنسيَّة تفيد الاستغراق، تدلُّ على أنَّ كلَّ سائل يسأل المتَّقين المحسنين يُعطونه، ولا يمنعونه، وليس من شيَم المُتَّقين المُحسِنين رَدُّ السّائل ما دام المسؤول يملك العطاء.

ويحتَمِلُ أن تكون (أل) في (السّائل) للعهْدِ العلميِّ، فهي تُلمح إلى نوعٍ معيَّن من السّائلين وهم السّائلون المحتاجون لا المتزيِّدون المستكثرون، فهؤلاء قد يتَّخذون المسألة حِرْفَةً، وقد حذَّرهم الرَّسول ﷺ، فقال: «ما يَزالُ الرَّجُلُ يَسألُ النّاسَ، حَتَّى يَأتيَ يومَ القيامَةِ لَيسَ في وجهه مُزْعَةُ لَحْمٍ»[2].

دلالة صوغ (سائل) اسمَ فاعلٍ:

المحسنون لا يتضجَّرون من دوام سؤال السّائلين

وفي صوغ (السّائل) اسمَ فاعل كنايةٌ عن كرَمِ أخلاق المُحسِنين المسؤولين؛ لِما في اسميَّة (السّائل) مِن دوامِ سُؤاله وتَكراره حتّى يصير السُّؤال دَيْدَنًا له معروفًا به، ومع ذلك لا يتضجَّر المتَّقي، بل يَظلُّ يَهَشُّ له، ويبشُّ، ويعطيه ما دام قادرًا على العطاء، وفي ذلك المنهج بيانُ خطأ مَن يَصدّون النّاسَ عن العطاء بِحُجَّة أنَّ المسألة صارت مِهنة يَمتهِنها السّائلون، ومن جميل ما قيل في هذا المعنى قولُ الشّاعر:

تَراهُ إذا ما جئتَهُ مُتَهَلِّلًا *** كَأنَّكَ مُعطيهِ الَّذي أنتَ سائِلُه[3]

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 138.

(2) رواه البخاري في صحيحه، رقم: (1474)، ومسلم في صحيحه، رقم: (1040).

(3) البيت لزهير، كما في ديوانه، ص: 92، ط، دار الكتب العلمية.

معنى (الواو) في قوله: ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ واو العطف، المفيدةُ المغايرةَ بين (السّائل) و(المحروم)، الجامعة بينهما في عطيَّة المتَّقين المحسنين.

المحسنون ينوِّعون جهات العطاء، ويعدِّدون أفراد المعطين

وفيها معنى التَّنويع في العطيَّة، وألّا يَقف المتَّقي عطيَّته على أحدٍ بعينه، بل يُنوِّع جهات العطاء، ويعدِّد أفراد المعطَيْنَ، فذلك يُربّي سماحة النَّفس، ويُرَسِّخ فيها معانيَ الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥﴾ [البقرة: 265]، و"الفقراء ثلاثةٌ: السّائل الَّذي يطوف، ويسأل النّاس، والمعتَرُّ: الذي يعتَرُّ النّاس، ويُظهر حاجتَه للنّاس، ويتعرَّض للسُّؤال، ولا يسأل صَريحًا، والمحروم: هو الَّذي يستُر فقرَه وحاجتَه عن النّاس، لا يسألهم، ولا يعتَرُّ لذلك"[1].

معنى (أل) في ﴿وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾:

كلُّ محروم أهلٌ لأن يُعطَى

المحروم هو "المتعفِّفُ الَّذي يحسبُهُ النّاسُ غنيًّا، فيُحرم الصَّدقةَ"[2]، و(أل) في (المحروم) جنسيَّة استغراقيَّة، أي: إنَّ المتَّقين المحسنين يُعطون الحقَّ - الَّذي حدَّدوه، وعيَّنوه - لأيِّ محروم يصادفهم، ولا يختصّون به محرومًا دون آخرَ، بل كلُّ محرومٍ من جنس المحرومين أهلٌ لأن يُعطَى، وهكذا يفعل المتَّقون.

دلالةُ صوغِ (المحروم) اسمَ مفعولٍ:

لكلٍّ مِنَ الوَصفَيْن خَصيصَتُه الدّلاليَّة

خولِفت صيغة (السّائل) إلى صيغة (المحروم) هنا؛ للتَّنبيه في الأوَّل على خَصيصَةِ الفاعِلين المعبَّر عنهم بـ (السّائل)، والتَّنبيه في

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 380.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 138. (بتصرّف).

الثّاني على خَصيصة المفعوليَّة المعبَّر عنهم بـ (المحروم)، الواقع عليه الحرمان، فلكُلٍّ وصفٍ منهُما إشاراتُه.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ ﴿وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾:

المَحرومُ مِن المَواضع الَّتي يُحِبُّ الله تعالى أن توضع فيها الصَّدقة

جاءَ عن ابنِ عباس رضي اللّه تعالى عنهما أنَّ السّائل الَّذي يسأل النّاس بِكَفِّه، والمحرومَ الَّذي ليس له في الإسلام سهمٌ، وهوَ المحارَف الَّذي لا يكون له مالٌ إلّا ذَهَب، قضَى اللّه ﷻ له ذلك، الَّذي ليس له أحدٌ يَعْطِف عليه، أو يعطيه شيئًا[1].

و"إطلاقُ اسم المحروم ليس حقيقةً؛ لأنَّه لم يسأل النّاس، ويحرموه، ولكن لمّا كان مآل أمره إلى ما يؤول إليه أمر المحروم؛ أُطْلِق عليه لفظُ المحروم؛ تشبيهًا به في أنَّه لا تصل إليه ممكِّنات الرِّزق بعد قُربها منه، فكأنَّه ناله حرمان، والمقصود من هذه الاستعارة ترقيقُ النُّفوس عليه، وحثُّ النّاس على البحث عنه؛ ليضعوا صدقاتِهم في موضعٍ يُحِبُّ اللّه تعالى وضعَها فيه"[2].

نكتةُ تقديم (السّائل) على (المحروم):

للسّائل أولويّةٌ في العطاء؛ للضَّرورة التي ألجأته لمذلَّة السُّؤال

في تقديم (السّائل) على (المحروم) تنبيهٌ على صاحب الأولويَّة في العطاء؛ إذ لا يُقبِلُ على السُّؤال، ويتجرَّع مذلَّة المسألة غالبًا إلّا محتاج، مأزوم في أكلٍ أو علاج أو غيرهما من ضروريّات الحياة.

فالسّؤال يَكسر النَّفس، ويُريق ماء الوجه، ويُفترض في كلِّ من يسأل أن يكون مضطرًّا للسُّؤال؛ لذا ينبغي على المسؤول المبادرة بتوفير كرامته، وتخليصه من أزمته، أمّا المحروم؛ فقد لا يكون محتاجًا وقت العطاء، وإن كان فقيرًا محرومًا على الدَّوام.

توجيهُ المتشابه اللَّفظي في الآية الكريمة:

قال اللّه تعالى في سورة المعارج: ﴿حَقٌّ مَّعۡلُومٌ ٢٤﴾ [المعارج: 24]، وفي

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 14/ 511.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 351.

الزَّكاة حقٌّ معلوم، والصَّدقات بحسبِ ما تيسَّر

الذّاريات: ﴿حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ بإسقاط (معلوم)؛ لأنَّ المراد بآية الذّاريات: الصَّدقات النّوافل؛ لِقرينة تقدُّم النَّوافل، وبآية المعارج: الزَّكاةُ؛ لِتقدُّم ذِكر الصَّلاة؛ لأنَّها معلومةٌ مقدَّرة[1].

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الأخذ والقبض:

الأخذ التّناول، والقبض ضمُّ الأيدي على الشَّيء

الأَخْذ: التَّناوُلُ، تقولُ: أخذتُ الشَّيءَ آخُذُه أخذًا، أي: تَناوَلْتُهُ، وأخَذَه يأْخُذه أَخْذًا[2]، والقبضُ خلاف البَسْطِ، ويُقال: قبَضَ عليه بيَدِه؛ إذا ضَمَّ عليه أصابعه، ومنهُ مِقْبَضُ السَّيف، وقبْضُ الشَّيء: أَخْذُه[3]، فالقبضُ أخصُّ مِنَ الأخذِ مُطلقًا.

الهجع والنَّوم:

الهجوع هو النَّوم القليل الخفيف ليلًا، والنَّوم هو النُّعاس التّامُّ ليلًا أو نهارًا

الهَجْعُ: هوَ النَّوْمُ القليل الخفيف، ولا يكون إلّا ليلًا، والنَّومُ: النُّعاسُ[4]، وهو جُمودُ الحركةِ وسُكونها[5]، فالنَّوْمُ أعمُّ والهجوعُ أخصُّ منه.

(1) ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: 364.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (أخذ).
(3) المطرزي، المغرب في ترتيب المعرب: (قبض).
(4) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (نوم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نوم).

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ٢٣﴾ [الذاريات: 20 - 23]

مُناسَبَةُ الآياتِ لما قبلَها:

مخلوقاتُ الله تعالى العلويَّةُ والأرضيَّة تشهَدُ بوحدانيَّته وقُدرَتِه على البعث

لمّا دلَّ إقسامُه ﷻ بالسَّماء وما قَبْلَها من الذّاريات على ما له في العُلويّات من الآيات، إلى أن خَتَم بالأموال الَّتي تُنبتها الأرض، فكان التَّقدير: ففي السَّماوات آيات للمؤمنين دالّات على عظمته واستحقاقه للعبادة بغاية الخضوع رغبًا ورهبًا؛ عطف عليه قوله: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ من الاختلاف بالمعادن الكثيرة المُتباينة مع اتِّحاد أصلها والنَّبات والحيوان والجماد والبَرِّ والبحر، وغير ذلك من الأسرار الدّالَّة على الفاعلِ المُختار[1]، فأشار تعالى إلى أنَّه لا حاجة إلى الخَرْص والتَّخمين في باب الاعتقادات؛ لِكثرة الآيات الواضحَة، بقوله سبحانه: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾: أصلُ (يقن) يدُلُّ على السُّكون والظُّهور، أو الثُّبوت والاستقرار والدَّوام، ومنه: أمر يقين، أي: ثابت مستقرٌّ[3]، واليَقَنُ واليَقينُ: زَوالُ الشَّكِّ، يُقالُ: يَقِنْتُ، واستيقَنتُ، وأيقَنتُ[4]، وهو التَّحقُّق والعِلْم الَّذي لا شكَّ معه، يُقالُ: يقن الأمرُ يقنًا، وأيقنه، وأيقن به، وتيقَّنه؛ إذا عَلِمه، وتحقَّقه كلَّه[5]، وضِدُّه: الشَّكُّ

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 456.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 39.
(3) الراغب، المفردات: (يقن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يقن).
(5) الجرجاني، التعريفات، ص: 259، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 68.

والرَّيب، ويأتي اليقين بمعنى التَّأكُّد، يُقال: أيقن الخبَر، أي: تأكَّد منه، ومن معانيه أيضًا: الاطمئنانُ، والوضوحُ[1]، والمُرادُ بالإيقانِ في الآية: العِلْمُ الَّذي لا يتردَّد فيه صاحبُه[2]، والمقصود بهم الموحِّدونَ الَّذين سلكوا الطَّريق الموصل إلى معرفة اللّه تعالى، فهم نظّارون بعيونٍ باصرةٍ، وأفهامٍ نافذةٍ[3].

2) ﴿تُبۡصِرُونَ﴾: أصلُ (بصر) يدلُّ على وضوحِ الشَّيءِ، يُقال: بَصُرَ الطَّريقُ، أي: استبانَ ووَضُحَ، والبَصيرَةُ: البُرْهانُ[4]، والبَصيرُ والمُبْصِرُ: الناظِرُ لِغَيْرِه، وضِدُّهُ الأعْمى، ويَأْتي البَصَرُ أيضًا بِمَعنى: العِلْمِ والإدْراك، وهيَ الرُّؤْيَةُ بالقَلْب، كَقَوْلِكَ: بَصُرْتُ بالشَّيءِ؛ إذا عَلِمتَهُ، وأدْرَكْتَهُ، والبَصيرَةُ: قوَّةُ الإدْراكِ والفِطْنَةُ والعِلْمُ، والجَمعُ: بَصائِرُ[5]، والإبْصارُ في الآية مُستَعارٌ للتَّدَبُّرِ والتَّفكُّرِ، أي: كيف تَتركونَ النَّظرَ في آياتٍ كائنةٍ في أنفُسِكم[6].

3) ﴿رِزۡقُكُمۡ﴾: أصلُ (رزق) يدُلُّ على عَطاءٍ لِوَقْتٍ، ثُمَّ يُحمَلُ عليهِ غَيرُ المَوْقوتِ[7]، والرِّزقُ: هو كلُّ ما يُنْتَفع به من مالٍ ونحوه، والجَمعُ: أرزاقٌ[8]، والرِّزْق المذكورُ في الكتاب والآثارِ: ما مَنحَه اللّه من حَلالٍ أو حرامٍ عند أهلِ السُّنَّة، وغيرُهم يخصُّه بالحَلالِ، واللُّغةُ لا تَقتَضيه[9]. والرّازِقُ: اسم من أسماء اللّه الحسنى، ومعناه: المُفيض على عباده، والمُنعم عليهم بإيصال حاجَتِهم إليهم، قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾ [الذاريات: 58][10]، والرِّزق في الآية: اسمٌ لِما يُنتَفعُ به، والمُرادُ به: المَطَرُ الَّذي تَحمِلُهُ السُّحُبُ[11].

4) ﴿تُوعَدُونَ﴾: أصلُ (وعد) يدُلُّ على تَرْجيَةٍ بقولٍ، يُقالُ: وَعَدْتُه أَعِدُهُ وَعْدًا، ويكونُ

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (يقن).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 351.
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (يقن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بصر).
(5) ابن منظور، لسان العرب، وإبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط: (بصر).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 353.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رزق).
(8) ابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح: (رزق).
(9) القاضي عياض، مشارق الأنوار على صحاح الآثار: (رزق).
(10) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (رزق).
(11) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 354.

ذلك بخيرٍ وشرٍّ، فأمّا الوعيدُ؛ فلا يكونُ إلّا بِشَرٍّ[1]، والوَعْدُ: هو الإخبارُ بأمرٍ مُستَقبَلٍ[2]، والموعِدُ: مَوضِعُ التَّواعُدِ، وهو الميعادُ[3]، والوَعْدُ في الآية معناه: الإخبارُ بالتِزام المُخْبِرِ للمُخبَرِ بشيءٍ في المُستقبَلِ، أي: ما توعدونه من خيرٍ أو شَرٍّ[4].

5) ﴿تَنطِقُونَ﴾: أصلُ (نطق) يدلُّ على كلامٍ أو ما أشبَهَه[5]، ومنه النُّطْقُ، وهو التَّكَلُّمُ بصوتٍ، يُقالُ: نطَقَ ينطِقُ نُطقًا ونَطْقًا، فهو ناطِقٌ، أي: تكلَّم بصوتٍ وحرفٍ، وضِدُّ النُّطْقِ: الصَّمتُ والسُّكوتُ، والمَنْطِقُ: الكَلامُ[6]، والنُّطق في هذه الآية: الكلام بالحروف والأصوات في ترتيب المعاني[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الأرض الّتي نعيش عليها مُفعَمَةٌ بالعِبَر والعظات المُصَدِّقةِ للرَّسول والقرآنِ

لا مجال للخَرص والتَّخمين، وأمام أعينهم في الأرض - الَّتي يَسكُنونها، ويَطْعَمون خيرها - عِبرٌ وعظاتٌ أودَعها اللّه تعالى فيها، مثل البِحار والأنهار، والجبال والسُّهول، والمعادن، وسائر المخلوقات، الَّتي يُبصرها الموقِنون خصوصًا، فيستدلّون بها على أدلَّةِ وحدانيَّته وقدرته ﷻ على كلِّ شيء، ويرون في آيات الأرض وفي عِبَر الأنفس تصديقَ نبيِّنا ﷺ، وكتابنا المجيد.

بل وفي أنفسكم - أيُّها المشركون - وأبدانِكم وأرواحكم أدلَّةٌ بيِّنة على عظمة الخالق وقُدرته على كلِّ شيء، فهلّا تدَبَّرْتُموها بأعينِ قُلوبِكُم؛ إذ لم تصدِّقوا برَسولِنا ﷺ وبقرآننا الكريم؟.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعد).
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة: (وعد).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (وعد).
(4) المراغي، تفسير المراغي: 26/ 178، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/ 255.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نطق).
(6) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (نطق).
(7) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 176.

واعلموا أنَّ في السَّماء تقديرَ رِزْقِكُم، وتحديدَه وأسبابَه، وفي السَّحاب الغيثُ المتسبِّبُ في إنبات الزُّروع والثِّمار، فليس الرِّزق موقوفًا على شيءٍ يتعلَّق بالكون الأرضي فقط، بل الأمرُ كلُّه للّه تعالى، واللّه سبحانه يَبسط الرِّزق لمن يشاء ويقدر، وفي السَّماء ما توعدونهُ مِن خير أو شرٍّ، فمَن طلبَ أمرًا؛ فليَطْلُبْه بعزَّة مع العمل، فإنَّ الأمور تَجْري بالمقادير، فورَبِّ السَّماء والأرض إنَّ تقدير الرِّزق وتحديدَه في السَّماء لحقٌّ لا شكَّ فيه، مثل نُطْقِكُم أنتم، فلا تشكّوا في ذلك(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في قوله: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾:

ذِكْــــرُ أدلَّـــة وحـدانـيَّـة الله تـعـالى وتـمـام قُدْرَته

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ استئنافيَّة؛ إذ يعود السّياق بعد ذِكْرِ مصير الخرّاصين ومصير المتَّقين إلى ذِكْرِ آيات اللّه تعالى الدّالَّة على وحدانيَّته وقُدْرَته على البعث والإحياء، ويجوز أن تكون (الواو) هنا عاطفةً على جملة جوابِ القسَمِ، وهي قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ٥﴾ [الذاريات: 5](2).

معنى (في) في قوله: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ﴾:

كلُّ ما هو داخل الغِلاف الجويِّ للأرض هوَ مِن لواحِق ما فيها

(في) الواردة في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ ظرفيَّة، تَلْفِت إلى ما أودعه اللّه ﷻ من آياته وأدلَّةِ وحدانيَّته وقُدْرَته في الأرض، ودلالة الظَّرفيَّة في الحرف (في) هنا أعمُّ من دلالة الظَّرفيَّة الحسّيَّة، فلا تدلُّ على ما في باطن الأرض، بل تدلُّ على ذلك وعلى ما فوقها، وما في جوِّ غِلافِها وداخله، فكلُّ ذلك من الأرض وتوابِعها.

فيدخل تحت ما (في الأرض) جميعُ المخلوقات المستبطِنة باطنَ

---

(1) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 534.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 352.

الأرض، والمستعلية عليها من بِحارٍ وأنهار وجبال وأشجار، وأناسٍ وحيوانات وجمادات، إلى آخر ما لا يُحيط به علمًا إلّا اللّه تعالى.

دلالةُ تعريف ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

التَّنبيهُ على الآياتِ الأرضيَّة المُبْصَرَة

معنى (أل) في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ تعريفيَّة للعهد الحضوريِّ، فالأرض حاضرةٌ تحت أعين المخاطَبين، يُقلِّبون فيها أبصارهم، والمطلوبُ أن يُقَلِّبوا فيها بصائرهم أيضًا، فالبصائر هي الَّتي تَقِفُهُم على أسرار آيات اللّه تعالى، فتُفعِمُهم يقينًا بوجود اللّه ﷻ، وبوحدانيَّته، وبقدرته على كلِّ شيء، ومن ذلك قُدْرَتُه على الإحياء بعد الإماتة.

ومن آياتِ الأرض آياتُ التَّوحيد، وآياتُ البعث، وآياتُ القدرة، وغير ذلك، أو في خلقِها هي آياتٌ، وهو أن خَلَقَها، وكانت تَميدُ بأهلها، ثُمَّ أرساها بالجِبال حتّى استقرَّت[1].

وعلى القول بعهديَّةِ (أل) عهدًا حضوريًّا، يكون ما عدا المُبْصَرَ من أجزاءِ الأرضِ مُلْحقًا بها في الحُكْم؛ لكونِه من توابِعِها.

سرُّ تقييد الآيات بالجارِّ والمجرور (في الأرض):

النّاس بما على الأرض أعرفُ منهم بما في غيرها مِن أجرامِ الكَوْنِ العُظْمى

في تقييد الآيات بالجارِّ والمجرور (في الأرض) تنبيهٌ إلى اختياره تعالى من أدلَّةِ الآفاق ما (في الأرض)؛ لظهورها لمَنْ على ظُهورها، فإنَّ في أطرافِها وأكْنافِها ما لا يُمكِنُ عدُّ أصنافِهِ[2]، ممّا نَصَبَه اللّه تعالى من الأدلَّة على توحيده، وصِدْقِ وعدِهِ ووعيده[3].

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿ءَايَٰتٞ﴾، ونكتةُ تَنْكيرها وجَمعِها:

﴿ءَايَٰتٞ﴾ جمعُ آيةٍ، وهي العَلامةُ والدَّليل، وفي الأرض عِبَرٌ وعظاتٌ لأهل اليقين بحقيقةِ ما عاينوا، ورأوا؛ إذا ساروا فيها[4]،

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 381.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 172.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 101.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 518.

في أطراف الأرض وأكنافِها من الآيات ما لا يُمكن حصْرُهُ

وهي آياتٌ وأدلَّةٌ على الخالقِ وقُدْرَتِه وحِكْمَته وتدبيره؛ إذ هيَ مَدْحوَّة كالبِساط لِما فوقَها، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: 53]، "وفيها المسالكُ والفِجاج للمُتَقَلِّبين فيها والماشين في مناكبها، وهي مجزَّأة، فمن سَهْلٍ وجبَلٍ وبرٍّ وبحر، وقِطَع متجاوراتٍ مِن صَلْبَة ورِخوَة... إلخ"(1).

وفي تنكير ﴿ءَايَٰتٌ﴾ دلالةٌ على عَظَمَتِها، وما تتضمَّنه من أدلَّةِ القُدْرَة، وجَمعُ الآيات يدلُّ على كثرَتِها، وتَنَوُّعِها، وتغازُر العِبَر الَّتي فيها - لمن أراد الاعتبارَ - وأنَّها لا تَتناهى، ففي آحادِها تناسبٌ لِقناعات آحادِ النّاس؛ إن لم تكن كلُّها مقنعة لِكلِّهم، وأنَّ كلًّا يَقْبِسُ مِن أنوارها بقدر إيمانه إن كان قابلًا للإيمان؛ وذلك من شأنه إعانةُ الشّاكّين على ترسيخ يقينِهم وتثبيته، فمنها "آيات الوحدانيَّة والرُّبوبيَّة، وآيات البعث، وآية وجوب الشُّكر والعبادة والامتحان"(2)، وفيها آثارُ الهلاك للأمم الكافرة المكذِّبة لِما جاءت به رسلُ اللّه، ودَعَتهُم إليه(3).

كذلك "ذَكَر سُبحانه الآياتِ بلفظ الجمع؛ لأنَّ الموقن لا يغفل عن اللّه تعالى في حالٍ، ويرى في كلِّ شيء آياتٍ دالَّةً، أمّا الغافلُ؛ فلا يَتَنَبَّه إلّا بأمور كثيرة، فيكون الكلُّ له كالآية الواحدة"(4)، ومع ذلك لا ينتفع بها؛ لأنَّ الآية على انفِرادِها كافية في تنبيهِ الغافل؛ إن حقَّق النَّظر.

نكتةُ حذف متعلِّق الـ ﴿ءَايَٰتٌ﴾:

خَلْقُ الأرض وما فيها مِن آيات يدلُّ على الخالقِ وقُدْرَته وحِكْمَتِه وتدبيره

سكتَ النَّظم الكريم عن ذِكْرِ متعلِّق الآيات الَّتي في الأرض، وفي حَذْفِها دلالةٌ على عموم "كلِّ ما تصلحُ الآيات الَّتي في الأرض أن تدلَّ عليه"(5)، مِن الدَّلالة على الخالقِ وقُدْرَتِه وحِكْمَتِه وتَدْبيره(6).

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 399.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 381.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 101.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 171.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 352.
(6) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 373.

سرُّ تقديم شبه الجملة (في الأرض) على المبتدأ ﴿ءَايَٰتٌ﴾:

من عطاءات التَّقديم التَّشويقُ لِلمُؤَخَّر

في تقديمِ متعلِّق الخبر (في الأرض) على المبتدأ ﴿ءَايَٰتٌ﴾ تنبيهٌ لافِت على ما في الأرض مِن آياتٍ، والتَّقديمُ هنا لا يُفيد القَصْرَ؛ لأنَّ آيات الله تعالى للموقنين ليست في الأرضِ وحدها، بل في السَّماء وفي الأنفُسِ، وفي كلِّ شيءٍ، كما قال أبو العتاهيةِ:

وَفي كُلِّ شَيءٍ له آيَةٌ *** تَدُلُّ عَلَى أنَّهُ الواحِدُ[1]

فالتَّقديم هنا للاهتمام والتَّنبيه إلى أهمّيَّة المقدَّم "والتَّشويق إلى ذِكْرِ المبتدأ"[2]، وفيه حَضُّ الموقنين على إعمال فِكْرِهم، وتقليب أبصارهم وبصائرهم في آيات الله تعالى المودَعَة في الأرض.

معنى (اللام) في القيد ﴿لِّلۡمُوقِنِينَ﴾:

الموقنون هم الَّذين يَتَلَقَّون من آيات الأرض رسائلَ الإيمان وأدلَّة القدرة

و(اللّام) في القيد ﴿لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ لامُ الاختصاص، أي: إنَّ الموقنين وحدَهُم هُم مَن يَلْتَفِتون إلى ما في الأرض مِن آياتٍ، ويَتَلَقَّون ما فيها من رسائلِ الإيمان وأدلَّةِ القُدْرَة، وهُم وحدَهُم مَن يُقَدِّرونها، ويُكْبِرونها إجلالًا لِخالقها ﷻ، و"هم الَّذين انتفعوا بدِلالَتِها، فأكسَبَتْهُم الإيقان بوقوع البَعْثِ"[3]، و"سلكوا الطَّريق السّويَّ البرهانيَّ الموصِّل إلى المعرفة، فهُم نظّارون بِعُيون باصرة وأفهام نافذة، كلَّما رأوا آيةً عرفوا وجه تأمُّلها، فازدادوا إيقانًا على إيقانِهم"[4].

أمّا غير الموقنين؛ فلا يَلْتَفِتون إلى أسرار تلك الآياتِ، ولا يَنْتَفِعون بها، بل لا يعلمون بها أصلًا، فلا يَدْرون بأنَّها لله تعالى خلقًا وتقديرًا، كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ١٠٥﴾ [يوسف: 105].

(1) ديوان أبي العتاهية، ص: 122، طبعة دار بيروت، 1406.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 352.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 352.
(4) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 374.

وجهُ التَّعبيرِ بلفظ (الموقنين) مادَّةً وصيغةً:

إيمانُ الموقنين يَحصُل بالعلم والاستدلالِ، فلا يضعُفُ

في التَّعبير بمفردة الإيقان في القيد ﴿لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ دلالةٌ على بلوغ العلم والإيمان عندهم مبلغًا عظيمًا، فلم يَعد ذلك عندهم معلومًا مسلَّمًا فحسبُ، بل ترسَّخ في قلوبهم عقيدةً متينة متغلغِلة في سويداء قلوبهم؛ وذلك لأنَّ "اليَقينَ: هو العِلْمُ الحاصِلُ عَن نَظَرٍ واستِدْلالٍ"(1)، فثَبَتَ على أساس قويٍّ راسخ.

وفي صوغ (الموقنين) اسمَ فاعلٍ تأكيدٌ لِرُسوخ يقينِهم بعظمة اللّه تعالى ووَحْدانيَّته، وعدم تَذَبْذُبِه مطلقًا، وعمق إيمانهم بقدرته سبحانه المطلقة، القادرة على إعادة جمع شَتات الأبدان وإعادة الرّوح فيها، وإقامة القيامة للمداينة والمُجازاة، فـ "صار الإيقان لهم غريزةً ثابتة"(2).

وكذلك "أوثر وصف (الموقنين) هنا دون (الذين أيقنوا)؛ لإفادة أنَّهم عُرفوا بالإيقانِ، وهذا الوصف يَقْتضي مَدْحَهم بِثُقوب الفهم؛ لأنَّ الإيقان لا يكون إلّا عن دليلٍ، ودلائل هذا الأمر نظريَّة، ومدَحَهم أيضًا بالإنصاف وترك المكابرة؛ لأنَّ أكثر المنكرين لِلحقِّ تَحمِلُهم المكابرة أو الحسَدُ على إنكارِ حقٍّ من يتَوَجَّسون منهُ أن يَقضي على منافِعِهم"(3).

نكتةُ تخصيص الآيات بـ (الموقنين):

أهلُ اليقينِ لا يتَّبعون الأهواء، ولا يُتابِعون أهل الضَّلال

خُصَّ وصف (الموقنين) هنا: "لأنَّهم الَّذين يعترفون بذلك، ويتدبَّرون فيه، فينتفعون"(4)، وفيه "إشارة إلى أنَّه لا ينتفع بتلك الآيات الكونيَّة، ولا يقع على مواقع الهُدى منها إلّا أهلُ اليقين، الَّذين يطلبون العلم والمعرفة بالبحث الجادِّ والنَّظر المتفحِّص، فإذا

(1) الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: (يقن).
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 457.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 352 - 353.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 101.

وقع لهم من ذلك عِلمٌ؛ كان علمُهم عن برهانٍ وحُجَّة، فيقع منهم ذلك العلم موقعَ التَّثبُّت واليقين، فهُم - والحال كذلك - لا يتَّبعون الأهواء، ولا يتابعون أهل الضَّلال"(1).

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

لا يغفل الموقِن عن الله تعالى وآياتهِ وأدلَّةِ قدرته بِحالٍ

قال تعالى هنا: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾ بجمع (الآيات)، وقال في سورة يس: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [يس: 33]، فأفردَ، وذلك "لمّا جَعَل الآية لِلموقنينَ؛ ذَكر بلفظ الجمع؛ لأنَّ الموقن لا يغفل عن الله تعالى في حالٍ، ويرى في كلِّ شيء آياتٍ دالَّةً، وأمّا الغافل؛ فلا يتَنَبَّه إلّا بأمور كثيرةٍ، فيكون الكلُّ له كالآية الواحدة"(2).

توجيهُ العطف بالواو في قوله: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾:

آياتُ الله تعالى ليست في الكون مِن حولِ الإنسانِ فحسبُ، بل في نفسِه الَّتي بين جنبيهِ كذلكَ

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ عاطفةٌ على جملة: (في الأرض آيات للموقنين)، والتَّقدير: وكذلك في أنفسكم آيات للموقنين، فالمؤمن الموقِن يَرى عظمة اللّه تعالى في كلِّ شيء بدءًا مِن نفسِه ومُرورًا بِمن حوله وما حوله (في الأرض)، وصُعودًا في الأفلاك والأجرام العُظمى.

وفي قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ إحالةٌ على النَّظر في شخص الإنسان، فإنَّه أكثر المخلوقات عِبرةً؛ لما جعل اللّه تعالى فيه - مع كونه مِن ترابٍ - مِن لطائف الحواسِّ، ومن أمر النَّفس وجِهاتِها ونُطْقها، واتِّصالِ هذا الجزء منها بالعقل، ومِن هيئة الأعضاء، واستعدادها لِتَنْفع، أو تُجَمِّل، أو تُعين"(3)، وكذلك في النَّفس من "الآيات الَّتي شاركتم بها الجماد، ثُمَّ فارقتموه بالنُّموِّ، ثُمَّ بالحِسِّ، ثمَّ فارقتم الحيوانَ الخسيس بالعقل الموصِّل إلى بدائع العلوم ودقائق الفهوم"(4).

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 511.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 171.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 175.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 457.

القرآنُ الكريم يَدْعو الإنسانَ إلى التَّفكُّر في أعماق نفسِه ودَخائِلها الدَّقيقة

معنى (في) في قوله: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾:

(في) الواردة في قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ ظرفيَّة، تدعو الإنسانَ إلى التَّفكُّر في أعماق نفسِه ودخائلها الدَّقيقة، فذلك أقربُ إليه ممّا في الأرضِ عمومًا، والإنسانُ بنَفْسِه أدرَى، وعلى الإحساسِ بها والوقوف على أسرارها أقدَرُ، فلعلَّ ذلك ينفَعُه في تربيَةِ يَقينِه وترسيخ عَقيدَتِه.

آياتُ الله تعالى في الأنفس أقوى من آياته في غَيْرِها

لطيفة تقديم ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾:

في تأخير دعوة العبادِ إلى تدبُّر آيات اللّه تعالى في أنفسهم بعد دعوته إيّاهم إلى تدبُّر آياته سبحانه في الأرض - على الرُّغم من دخولها فيها - تَرَقٍّ وتَصَعُّدٌ في التَّوجيه إلى المتدبَّر؛ إذ إنَّ التَّدبُّر في النَّفس أقطعُ بالدَّليل على عظمة اللّه تعالى؛ لأنَّ نفس العبد أنفعُ له، وأخصُّ به وأمسُّ، وهو أكثر انشغالًا لاكتشاف عوالِمها والبصر بأسرارها.

وفي دعوة العبادِ إلى تدبُّر آيات اللّه تعالى في أنفسهم بعد دعوته إيّاهم إلى تدبُّر آياته سبحانه في الأرض ذِكْرٌ للخاصِّ بعد العامِّ؛ تمييزًا له وعنايةً به، "فآياتهُ تعالى في الأنفس أقوى من آياتهِ في غيرها"[1].

التـارِكُ للتَّفكُّر في نفسه أجهلُ وأسوأُ حالًا من التّارك للفِكْرَة في غيره

دلالة التَّعبير بالنَّفس في قوله: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ "يحتمل أن يكون المراد (وفيكم)، يُقال: الحجارةُ في نَفْسِها صلبَةٌ، ولا يُراد بها النَّفس الَّتي هي منبع الحياةِ والحسُّ والحركات، ويحتَمِلُ أن يكون المراد: وفي نفوسِكُم الَّتي بها حياتُكم"[2]، فالنَّفس هنا أشمَلُ من الرّوح؛ لأنَّ حكمة اللّه تعالى في خلق البدن على هذه الهيئة وآياته أوضحُ للإنسان من حكمته وآياته في خلق الرّوح؛ وذلك لخفائها كما قال اللّه تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ

(1) رضا، تفسير المنار: 8/ 241.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 172.

﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: 85]، فأسرار الرّوح تَخفى على النّاس على الرُّغم مِن كونِها أرواحَهم الَّتي في أبدانهم، على أنَّ ذلك الخفاءَ أيضًا مِن أعظم الآيات؛ إذ يحيا الإنسانُ، ولا يدري لتفاصيل حياته أسبابًا.

أمّا آياتُ اللّه تعالى في تركيب الجسد على هذه الهيئة الَّتي امتنَّ اللّه تعالى بها في نَحْوِ قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: 4]؛ فأبينُ وأقرب دلالةً على وضوح الحكمة والقدرة وحُسن الخَلْق ودِقَّة التَّقدير.

فـ "سوَّى أنفسَكُم على أحسَنِ الصّور، وأحسن التَّقويم بعد أن كان أصلُها وجوهرُها من ماء، وكذلك أصلُ جواهر الأنعام والبهائم من نُطْفَة أيضًا، ثُمَّ ركَّبَكُم على صوَر صالحةٍ لِمَنافِعِكم، وركَّبكم على أحسنِ الصّور، ثُمَّ جعل فيكم من العقلِ والسَّمع والبصر ما يدرك بها حقائق الأشياء المحسوسة والمعاني الحكيمة؛ لتتأمَّلوا في ذلك كلِّه، فتكون آيةُ الوحدانيَّةِ آيةَ إلزامِ الشُّكر والعبادة له"[1].

وقد ذكر بعضُ أهل العلم أنَّ المقصود بالآيات الَّتي في أنفسنا "سبيل الغائط والبول، أو تسوية مفاصل أيديكم وأرجلكم وجَوارِحكم، وأنَّها دليلٌ على أنَّكم خُلِقْتُم لعبادته، أو في خلقكم من تراب، ثمَّ إذا أنتم بشر تنتشرون، أو في حياتكم وموتكم، وفيما يَدخل، ويَخرج من طعامكم، أو في الكِبَر بعد الشَّباب، والضَّعف بعد القوَّة، والشَّيب بعد السَّواد، أو نُجْح العاجز وحِرمان الحازم"[2]، وفي ذِكْرِ الأنفُس هنا دلالةٌ على أنَّ التّارك للتَّفكُّر في نفسه أجهلُ وأسوأُ حالًا من التّارك للفكرة في غيره[3].

بيانُ مرجع ضَمير الخطاب في ﴿أَنفُسِكُمْ﴾:

انتقل السّياق الكريم من وصف أحوال المتَّقين في الآخرة إلى مخاطبة مشركي مكَّةَ[4]، فالمخاطَبون هم الخرّاصون السّابقُ ذِكْرُهم قبلُ، ويرجِّح ذلك أنَّ الموحِّدين المتَّقين الموقنين يرون آياتِ اللّه تعالى، ويؤمنون بها، ويتلمَّسونها في كلِّ شيء، فلا يحتاجون إلى

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 382.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 367.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 4/ 224.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 40.

الحثِّ على التَّدبُّر الوارد في قوله تعالى بعدُ: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ إلّا على سبيلِ التَّذكيرِ وإرادةِ الدَّوام، وتكون الحكمةُ في هذا التَّنبيه إلى أنَّ تدبُّر الآيات فيه إقامةُ الحجَّة على أولئكَ الخرّاصين، وسَوْقُ الأدلَّة على صحَّة ذلك كلِّه من خلال تدبُّرهم آيات اللّه تعالى في الأرض وفي أنفسهم.

الموقنون يرون آياتِ اللّه تعالى، ويؤمنون بها، ويتلمَّسونها في كلِّ شيء

دلالةُ الإضافة في ﴿أَنفُسِكُمۡۚ﴾:

الإضافة في ﴿أَنفُسِكُمۡۚ﴾ تَلْفِت إلى كونهم بمعرفتها والوقوف على ما يُمكِنُهم من آيات اللّه تعالى فيها أخصُّ، وأنَّهم على البصر بما فيها أقدر، وأنَّها إليهم أقرب، وبدعوة العباد إلى تدبُّر آيات اللّه تعالى في أنفُسِهم - فضلًا عن دعوتهم إلى تدبُّر آياته تعالى في الأرض - دلالةٌ على وفْرَةِ آياته سبحانه في كلِّ شيءٍ - داخلَ النَّفس وخارجَها، إجمالًا وتفصيلًا - لمن أراد التَّدبُّر وسعى نحوَ تحصيل اليقينِ.

آياتُ اللّه تعالى في كلِّ شيءٍ وفيرة لمن أراد التَّدبُّر، وسعى نحو تحصيل اليقين

لطيفةُ الالتفات في قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾:

التفتَ النَّظم الكريم من أسلوب الغَيبة في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾، إلى أسلوب الخطاب في قوله: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾؛ تحقيقًا وتأكيدًا لقيام الدَّليل عليهم مِن أنفُسِهم خصوصًا بعد قيامه عليهم في الأرضِ عمومًا.

والمعنى: إن كان قد فاتَكُم النَّظر في آيات الأرض على كَثْرَتها وتنوُّعها؛ فهل يفوتكم النَّظر في آيات أحوالكم أنتم، وآياتِه تعالى في خَلْقِكُم، وتطوُّر مَراحِلِ نَشْأتِكُم؟.

مَن فاته النَّظرُ والاعتبار بما في الأرض؛ لا ينبغي أن يفوتَهُ الاعتبار بما في نفسِهِ

بلاغة الحذف في قوله: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾:

في قول اللّه تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ حَذْفٌ اكْتُفيَ به عن ذِكر عُمد الجملة وأُسُس بنائها؛ إذ التَّقديرُ: وفي الأرض آياتٌ للموقنين وفي أنفُسِكُم آياتٌ لكم، وعلى ذلك يكون تدبُّر الموقنينَ أعمَّ وأشمل

وأعظم من تدبُّر غيرهم؛ إذ غيرهم يتدبَّر ما في نفسِه، والموقن يتدبَّر ما في الأرض على الإجْمالِ والتَّفصيل.

حـذْفُ بعض عناصر التَّركيب يُفسِح ميدان التَّدبُّر للمذكور فيها

ولا يصحُّ عطف ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ على (في الأرض)، بل لا بُدَّ من انتماء كلٍّ منهما إلى جملة مستقلَّة، والقاضي بذلك غَيْبَة الموقنين هنا، وحُضور المخاطَبين المدعوّين إلى التَّفكُّر في الأَنْفُس، فيتوزَّع المتعلِّقان: (في الأرض)، و(في أنفسكم) على الصِّنْفين.

نكتةُ تقديم القيد ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ على عامله:

ليسَ في العالَمِ شيءٌ إلّا وفي الأنفُس له نظيرٌ يَدُلُّ دلالَتَه

وفي تقديم ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ على متعلِّقه ﴿تُبۡصِرُونَ﴾ اهتمام بالنَّظر في خلق أنفسهم، ويحقِّق تقديمُه كذلك تأخيرَ متعلِّقه ﴿تُبۡصِرُونَ﴾، فتتحقَّق إلى ذلك رعايةُ الفاصلة وتناسُبها، والمعنى: ألا تتفكَّرون في خلق أنفُسِكم: كيف أنشأكم اللّه تعالى مِن ماء؟ وكيف خلقكم أطوارًا؟.

وهذا التَّكوين العجيب كما يدلُّ على إمكان الإيجاد بعد الموت، يدلُّ على تَفَرُّد مكوِّنه تعالى بالإلهيَّة[1]، ففي هذا التَّقديم تنبيهٌ على أنَّه "ليسَ في العالَم شيءٌ إلّا وفي الأنفُسِ له نظيرٌ يَدُلُّ دلالَتَه على ما انفرد بهِ من الهيئاتِ النّافعةِ، والمناظرِ البهيَّةِ، والتَّركيباتِ العجيبةِ، والتَّمكُّنِ من الأفعالِ البديعةِ، واستنباطِ الصَّنائعِ المختلفةِ، واستجماعِ الكمالاتِ المتنوِّعة"[2].

علَّة فصل قوله: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ عمّا قبله:

تبايُنُ الأسلوبيْن يقتضي تركَ العَطْفِ في الأكثر

فُصلَ قوله: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ عن قوله: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾؛ لِما بينَهما من كمال الانقطاع؛ إذ الجملتانِ مختلفتان خبرًا وإنشاءً، فالأولى خبريَّة، والثّانية إنشائيَّة؛ لكونها استفهامًا، ولا يُعْطف الإنشاء على الخبرِ غالبًا.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 353 بتصرُّف.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 139.

بلاغة الاستفهام في قوله: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾:

مَن غفل عن تدبُّر آيات الله تعالى في نفسه وفي خارجها؛ فهو أهلٌ للتَّوبيخ

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ يتضمَّن جملةً من الدَّلالات المهمَّة، فهو "استفهامٌ إنكاريٌّ، أنكر عليهم عدمَ الإبصار للآيات"[1]، وفيه توقيفٌ وتوبيخ[2]، وفيه "تعنيفٌ على ترك النَّظر في الآيات الأرضيَّة والنَّفسيَّة"[3]، فالخطاب إذًا للكافرين لا للموقنين، وفيه إشارة إلى ظهورها[4].

وفي الاستفهام كذلك معنى الأمر، أي: أبْصِروا، وتدبَّروا، واتَّعِظوا بآيات الله تعالى المتاحةِ لكم، واستدِلّوا بها على كمال عظمته وطلاقة قدرته في خلقه، واتَّخِذوا منها شواهد تَدُلُّكم على قدرته على إحيائكم بعد الموت، ومُدايَنَتِكم ومحاسبتكم، ففي تلك الآيات كفايةٌ لِمَنْ أقبل على النَّظر فيها بتجرُّد الهوى.

وفي هذا الاستفهام أيضًا معاني التَّخصيص والإغراءِ على التَّبصُّر، والتَّرغيب في تدبُّر آياته تعالى، وتدبُّر حِكَم الله تعالى فيها، كذلك في هذا الاستفهامِ مِن التَّعجيب ما فيه.

معنى (الفاء) و(لا) في قوله: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾:

حضُّ المخاطَبين على التَّدبُّر في كمال الصِّفات الإلهيَّة

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ عاطفة على جملةٍ مقدَّرةٍ، والمعنى: أشُغِلتُم عن تلك الآياتِ، فَلا تُبْصِرونَها؟.

و(لا) في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ نافيةٌ، وهذه الجملة الإنشائيَّةُ - ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ - اعتراضيَّةٌ بين الأخبارِ المُتعاطِفَةِ (﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٌ﴾، ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾)، ومن مُهِمَّتِها تَحْضيض المخاطَبين على استثمار ما يقع تحت حسِّهم من الآيات الإلهيَّة في الاستدلال على كمالِ القُدرة، وعظمة الألوهيَّة الحَقَّة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 353.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 175.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 11.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 172.

سرُّ التَّعبير بالفعل ﴿تُبۡصِرُونَ﴾ مضارعًا مُسندًا إلى واو الجماعَةِ:

العبدُ مطالب بتقليب البصر في نَفْسه وفي الأرضِ؛ لاستنطاق الآيات واستنباط الحِكَم

معنى ﴿تُبۡصِرُونَ﴾ هنا يعني: نَظَر الاعتبارِ[1]، أي: "أفلا تَنْظُرون في ذلك، فتَتَفَكَّروا فيه، فتعلموا حقيقةَ وحدانيَّة خالقكم؟"[2]؛ لذلك فـ "الإبصار مستعارٌ للتَّدبُّر والتَّفكُّر، أي: كيف تتركون النَّظر في آياتٍ كائنة في أنفُسِكم؟"[3].

ومن لطائف التَّعبير بِفِعل الإبصار هنا دلالتُهُ على أنَّ مجرَّد الإبصار بالعين الباصرة يقود إلى تبيُّن الآيات، ويوقِف المُبْصِر على شيء من أسرارها، وإلّا لقيل - في غير القرآن الكريم -: أفلا تتفكَّرون، أفلا تتدبَّرون؟ ومعنى ذلك: أنَّهم يُبصرون، فَيَعْلَمون، لكنَّهم للحقِّ يَجْحَدون.

قال الشِّهاب: "وفي قوله: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ - من غير تمييز بين الإبصار المتعلِّق بالأنفس، والمتعلّق بما يقابلها - إشارةٌ إلى شِدَّة ظهورها؛ إذْ سَوَّى بين المحسوس وغيره، حتّى كأنَّ الجميعَ محسوس"[4].

وفي صَوْغِ الفِعْلِ ﴿تُبۡصِرُونَ﴾ مضارعًا دلالةٌ على مُطالَبَتهم بتَجْديدِ الإبصار، وتقليبِ البَصَر في النَّفْس وفي الأرض؛ لاستنطاقِ الآيات واستنباطِ الحِكَم؛ وذلك مِن عَمَلِ العُقول والقلوب.

وفي إسناد الفعل إلى واو الجماعَةِ ﴿تُبۡصِرُونَ﴾ إيماءٌ إلى أنْ يتدبَّر كلُّ إنسانٍ في نفسه؛ لأنَّ الواوَ تدلُّ على الجَمع، والأنفس في قوله: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ جمعٌ، ومِنَ المتقرَّر: أنَّ مقابلةَ الجمع بالجَمعِ تقتضي القسمَةَ آحادًا.

لطيفة حذف مفعول ﴿تُبۡصِرُونَ﴾:

امتلاكُ حاسَّة الإبصار كافٍ في الاستدلال على آيات الله تعالى

أمسَك النَّظمُ الكريم عن ذِكر مفعولِ الفعل ﴿تُبۡصِرُونَ﴾، والتَّقدير: أفلا تُبْصِرونَها، أي: الآيات الَّتي في أنْفُسِكُم وفي الأرض.

---

(1) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 374.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 520.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 353.
(4) الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 1/ 94.

وفي حذف هذا المفعولِ إشارةٌ لطيفة، هي أنَّ مجرَّد امتلاكِ الإنسان حاسَّة الإبصار وقدرته على البصَر كافيانِ في الوقوف على تلك الآيات، وإدراك أدلَّتها على قدرة اللّٰه تعالى، أي: إنَّ توفُّر الأبصارِ يقود قطعًا إلى إبصار تلك الآيات.

سرُّ الدَّعوة إلى التَّفكُّر في آيات النَّفس دون آيات الأرض:

قال ابن عاشور: "وفي ما يشاهَد من أحوال الأرض آياتٌ للموقنين، وهي الأحوال الدَّالَّة على إيجاد موجوداتٍ بعد إعدام أمثالِها وأصولها، مثل إنبات الزَّرعِ الجديد بعد أن بادَ الَّذي قبلَه، وصار هشيمًا، وهذه دلائلُ واضحة متكرِّرة، لا تحتاج إلى غَوْص الفِكر؛ فلذلك لم تُقْرَن هذه الآياتُ بما يدعو إلى التَّفكُّر، كما قُرِن قولُه: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾"[1].

الوقوفُ على آيات النَّفس أحوجُ إلى التَّفكُّر والتَّدبُّر من الوقوف على آيات الأرض

وفي ذلك الملمح دلالةٌ على أنَّ الوقوف على آيات اللّٰه تعالى في النَّفس أحوجُ إلى التَّفكُّر والتَّدبُّر من الوقوف على آياته تعالى في الأرض؛ وذلك لِما في النَّفس مِن ثباتٍ، وما في الأرض من تَبَدُّل، وإلّا ففي النَّفسِ أيضًا تبدُّلٌ حسّيٌّ ومعنويٌّ؛ إذ يتبدَّل الشَّعر والأظفار، والجلود، وغيرها ممّا يظهر للعبد، وكذا تتبدَّل أحوال النَّفس من السُّرور والحزن، والانشراح والضّيق، وما إلى ذلك.

معنى الواو في قوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾:

توالي الأخبارِ مِن مُقْتَضيات العطفِ

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ عاطفة، فقد عطَفَت الخبر بعدها (في السَّماء رزقكم) على الخبر قبلها: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾، أي: وفي أنفُسِكم آياتٌ، وفي السَّماءِ أسبابُ الأرزاقِ.

معنى (في) في قوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾:

رزقُ الإنسان مضمون؛ لأنَّه في حِرز من الآفاتِ

(في) في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ ظرفيَّة، تُسْهِم في دعم يقين المتلقّي فيما يَتعلَّق بقضيَّة الرِّزق، وأنَّ رزقهم مضمون؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 352.

لأنَّه مكنونٌ محفوظ في السَّماء، والمكنونُ المحفوظُ في شيءٍ مضمونُ السَّلامةِ من الآفات والسَّرِقات، فما الظَّنُّ إن كان ذلك الحِرزُ هو السَّماءَ؟ فلا شكَّ أنَّه في حرز عظيمٍ.

معنى (أل) في ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

تنوُّع المعاني باختلافِ دَلالاتِ الحُروف

(أل) في ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ للعهد العلميِّ، فالمقصودُ سماءٌ معيَّنة هي السَّحاب، والعَرب تعبِّر بالسَّماء عن السَّحاب، يقول الشاعر:

إذا نَزَلَ السَّماءُ بأرضِ قومٍ *** رَعَيْناهُ وإنْ كانوا غِضابا[1]

وذلك من التَّعريف اللُّغويِّ للسَّماء، فـ "العرب تسمّي كلَّ ما علا سماءً"[2].

ويجوزُ أن تكونَ (أل) في ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لتعريف العهد العلميِّ، مرادًا بها السَّماء السّابعة؛ إذ يوجد اللَّوح المحفوظ، وفيه تقادير الأقدار، وتقاسيم الأرزاق والأعمار، وغير ذلك.

دلالةُ التَّعبير بالرِّزق، ونُكْتَةُ صوغِهِ مصدرًا:

أسبابُ الأرزاقِ ومقاديرها عند الله تعالى

المقصود بالرِّزق في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ سببُه، وهو المطر، أي: إنَّ "سببه من السَّماء؛ لذلك أُضيفَ إليها"[3]، وعُدِل عن ذِكر المطر إلى الرِّزق إدماجًا؛ للامتنان في الاستدلال، وهذا قياسُ تمثيلٍ للنَّبْت، أي: في السَّماء المطرُ الَّذي تُرزقون بسببه، فالرِّزق: هو المطر الَّذي تحمله السُّحب[4]، ففيه "تجوُّزٌ بِجَعْل وجود الأسباب فيها كوجودِ المسبَّب"[5].

---

(1) قال العبّاسي في معاهد التنصيص 2/ 260: "نسب غالب شارحي التّلخيص هذا البيت لجرير، وهُو من قصيدة من الوافر أوّلها: (أقلي اللوم عاذِل والعتابا)، ونسبه المفضّل في اختياراته لمعاوية بن مالك بن جعفر معود الحُكماء"، والبيت ليس في ديوان جرير ضمن القصيدة المذكورة، يُنظر: ديوان جرير، ص: 58 - 65.

(2) القاسمي، محاسن التأويل: 4/ 445.

(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 382.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 354.

(5) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 96.

أو المقصود بالرِّزق هنا: "تقديرُ رزقكم، وما قَسَمَه لكم مكتوبٌ في أمِّ الكتاب"[1]، أو "القضاء والقدر، أي: الرِّزق عند الله يأتي به كيف يشاء، لا ربَّ غيرُه"[2].

وصَوْغُ الرِّزق في قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ مَصْدَرًا يدلُّ على ثُبوته وتحقُّقه وعدم تبدُّله، فلا ينال العبدُ إلّا ما كتبَهُ اللّه تعالى وما قدَّره له.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿رِزْقُكُمْ﴾:

ما قُدِّر للعبد الانتفاعُ به؛ لا يناله غيرُه، ولا ينالُ هو غيرَه

في إضافةِ الرِّزق إلى ضمير المُخاطَبين في قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ دلالةٌ على أنَّ أرزاقهم محدَّدةٌ لهم معروفة بهم، مقدَّرٌ لهم الانتفاع بها، فلا ينالها غيرُهم، ولا ينالون هم غيرَها، وأنَّ ما كُتب لهم مضافٌ إليهم، مخصوصٌ بهم، فلا موجبَ للقلق، ولا مقتضى للاحتراب على الظَّفر بما ليس لكم.

بلاغةُ تقديمِ متعلّقِ الخبر في قوله: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾:

الانشغال بالرِّزق عن مسبِّب الرِّزق جحودٌ ونكرانٌ للفضل

في تقديم متعلِّق الخبر ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ﴾ على المبتدأ ﴿رِزْقُكُمْ﴾ قصرٌ حقيقيٌّ، مبنيٌّ على التَّوسُّع؛ إذ إنَّ ما في السَّماء مِن الأرزاق إنَّما هو سببها، أمّا نفْسُ الأرزاق؛ فقد أودِعَت في الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت: 10]، ففي ذلك التَّقديم إشارة إلى أنَّ الله تعالى يملِك أسباب الأرزاق، فلا تُلهيَنَّكم الأرزاقُ عن طاعة مصرِّف أسبابِها.

كذلك في هذا التَّقديم تحقيقُ التَّشويق إلى المبتدأ المؤخَّر، والاهتمامُ به، ورعايةُ تناسُبِ الفاصلةِ[3].

(1) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 368.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 176.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 354 بتصرف.

معنى الواو في قوله: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾:

ضَمِنَ الله تعالى للعبد الموقن رِزْقَي الدُّنيا والآخرة

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ عاطفة؛ إذ تجمَعُ في الضَّمانِ بين الرِّزق الدُّنيويِّ والوعد الأخرويِّ - أي: الجنَّة - وذلك الخيرُ كلُّه، فماذا ينقص العبدَ ليستقيم، ويُحسِن التَّوكُّلَ على الخالق العظيم الرّازق الكريم ﷻ، وقد ضمِن له الضَّمانَين من خيرَي الدُّنيا العاجلة والآخرة الآجلة إلى غير نهاية؟.

وعَطْفُ قوله تعالى: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ "إدماجٌ بين أدلَّة إثبات البعث؛ لقصد الموعظة الشّاملة للوعيد على الإشراكِ، والوعد على الإيمان إن آمنوا؛ تعجيلًا بالموعظةِ عندَ سُنوح فُرْصَتِها"(1).

علَّة التَّعبيرِ بالموصول (ما):

تفخيمُ الموعودِ وتعميمُهُ

في التَّعبير بالموصول (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ تفخيمٌ لِمَوْعودِهم وتهويلٌ له؛ لِما في الموصول مِنَ الإبهام، فالموصول (ما) هيَّأ لذِكْرِ الوعد بإيحاءاتِهِ الطَّيِّبة، والوعد يَغيب بالتَّعبير بالاسم العَلَم الصَّريح (الجنَّة) لو قيل في غيرِ القرآن الكريم: وفي السَّماء رِزْقُكُم والجنَّة؛ فالتَّهيئة لذِكْرِ بعضِ العناصر من فضائل (ما)، ومِن دلالتها تعميمُ الموعود بهِ، فقد يكون الجنَّة، أو مِن العذاب؛ فيكون الإيعادُ عامًّا(2).

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

وعْدُ الله تعالى متحقِّقٌ قطعًا

في التَّعبير بمفردة الوعد في الفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾ تبشير بالوفاء به، فالوعد غالبًا ما يُنجَز، وبخاصَّة إذا صدر مِن القادر عليه الصّادق فيه، ولا أقدر عليه، ولا أصدق فيه من مالك الملك ﷻ، والتَّعبير بالفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾ "يحتمل أن يكون من الوعد، ويحتمل أن يكون من الوعيد"(3).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 354.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 172.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 176.

والمضارعَة في الفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾ تكشف حيويَّة ذلك الوعد، وبقاءَهُ لائحًا مُبشِّرًا، باعثًا الهِمَّةَ، مجدِّدًا العزم في اتِّخاذ السَّبيل إلى تحقيقه من إخلاصٍ واجتهاد واشتياق، وفي المضارعة كذلك استحضارٌ لهذا الوعد، وتذكير بحصوله؛ ممّا يجدِّد إيمان العبد، ويَمدُّه بالقوَّة على احتمال مشاقِّ الحياةِ.

وفي المضارعة أيضًا إيماءٌ بتحقُّق وعيدِ اللّه تعالى للخَرّاصين والكافرين جميعًا، وكذلك تستحضر المضارعةُ وعيدَهم؛ لعلَّهم ينتهون عن تَخَرُّصهم وكُفرهم.

من وجوه الإعجاز القرآنيّ في صيغة ﴿تُوعَدُونَ﴾:

من خصائص إعجاز القرآن اصطفاءُ الصّيغة الدّالَّة على المعنى وضدِّه من غير تعارُضٍ

في إيثار صيغة ﴿تُوعَدُونَ﴾ خصوصيَّةٌ من خصائص إعجاز القرآن، فإنَّ هذه الصّيغة صالحة لأن تكون مصوغة من (الوعد)، وصالحة لأن تكون من (الإيعاد)؛ وبذلك صار الفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾ محتملًا البشارةَ والإنذار[1]، وهذا من الإيجازِ والإعجازِ.

نكتة حذف متعلِّق الوعد:

كلُّ ما وُعِد به النّاس من أمر الآخرة واقعٌ لا محالة

سكت النَّظم الكريم عن تحديد موعودٍ به معيَّنٍ، وفي ذلك إفادةُ عموم ما وُعِدوا به من الخير والشَّرِّ[2]، وغير ذلك، وقد ذكر الطَّبريُّ أنَّ الصَّواب في الآيةِ أنَّهُ كلُّ ما وُعِدْنا به من خير أو شرٍّ، ولم يُخَصَّ أمرٌ دون آخرَ، فهو على عمومِه، كما عمَّه اللّه جلَّ ثناؤه[3].

لطيفةُ بناء الفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾ للمفعول:

ثقةُ الموقنين في وعْدِ الله تعالى

في بناء الفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾ للمفعولِ - من غير تصريح بالفاعِلِ - إشارةٌ إلى علم الموقنينَ جميعًا بالواعدِ الموَفّي بالوعد ﷻ، وثقتهم في تحقُّقه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 354.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 520.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 523.

بلاغةُ ترتيبِ الآياتِ الثّلاث:

ترتيبُ الآياتِ الثلاث: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ "ترتيبٌ حَسَنٌ؛ وذلك لأنَّ الإنسان له أمور يَحتاج إليها، لا بُدَّ من سَبْقها حتّى يوجد هو في نَفْسِه، وأمورٌ تُقارنه في الوجود، وأمور تَلحقه، وتوجَدُ بعدَهُ؛ ليَبْقى بها.

ترتيبُ العبارات القرآنيَّة يُراعى فيها واقِعُ الحالِ

فالأرض هي المكان، وإليه يحتاج الإنسان، ولا بُدَّ من سبقها؛ فقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ﴾، ثمَّ في نَفس الإنسان أمورٌ من الأجسام والأعراض، فقال: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾، ثمَّ بقاؤه بالرِّزق، فقال: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾، ولولا السَّماء؛ لَمَا كان للنّاس البقاء"(1).

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَوَرَبِّ﴾:

(الفاء) في قول الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾ تفريعيَّة، فما دام وعدًا من الله تعالى؛ فهو محقَّق لا محالة، وفيها إيحاءٌ بِقُرب حصوله، فإنَّ ما هو آتٍ قريبٌ، والدُّنيا معبَرٌ إلى دار القرار، فطولُها قصيرٌ.

الوعدُ من الله ﷻ محقَّق الوقوعِ

و"الفاء تستدعي تعقيبَ أمرٍ لأمر، كأنَّه تعالى يقول: إنَّ ما توعدون لحقٌّ بالبرهان المبين، ثُمَّ بالقسم واليمين، أو كأنَّه تعالى يقول: والذّاريات، ثُمَّ فوربِّ السَّماء والأرض، وعلى هذا يكون (الفاءُ) حرفَ عطفٍ أُعيد معه حرف القسَم، كما يُعاد الفعل؛ إذ يصحُّ أن يُقال: ومرَرْتُ بِعَمرٍو، فقوله: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ٢﴾ [الذاريات: 1 - 2]، عُطِف من غير إعادة حرف القسَم، وقوله: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ مع إعادة حرفه، والسَّبب فيه وقوعُ الفَصْلِ بين القَسَمَين.

ويحتمل أن يقال: الأمر المتقدِّم هو بيان الثَّواب في قوله: ﴿يَوۡمَ هُم

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 172.

﴿عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ﴾، وفيه فائدة هي أنَّ الفاء تكون تنبيهًا على أنَّه لا حاجة إلى اليمين مع ما تَقَدَّمَ مِن الكشف المبين، فكأنَّه يقول: وربِّ السَّماء والأرض إنَّه لحقٌّ، كما يقول القائل بعد ما يُظهر دعواه: هذا واللّه إنَّ الأمر كما ذكرتُ، فيؤكِّد قوله باليمين، ويشير إلى ثبوته من غير يمينٍ"[1].

معنى الواو في قوله: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ﴾:

الرِّزق في الدُّنيا والجزاءُ في الآخرة مضمونانِ؛ لأنَّهما بيَد الله تعالى

(الواو) في قوله: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ واوُ القسم، الباعثَةُ على مزيدٍ مِن الطُّمأنينة في نفوس المخاطَبين في الأرض جميعًا ضمانَ أمرِ الرِّزق في الدُّنيا، والقطع بأنَّ أسبابه بيَد اللّه تعالى في السَّماء، لا في يد أحدٍ سواه، وأنَّ أمرَ الجنَّة والسَّعادة الأبديَّة في الآخرة في مقعد صِدق عند مليك مقتدر، مضمونٌ للموقنين، وأنَّ أمر العذاب الأبديِّ في الآخرة كذلك محتوم للكافرين.

بلاغةُ التَّرقِّي من القَسَم بالمخلوقات إلى القسَم بخالقها سبحانه:

التَّدبُّر في المحسوسات المشهودات يُرَقِّي إلى اليقين بأعلى الكمالات

أقسَم اللّه تعالى قبلَ هذه الآيات بالمخلوقاتِ الأرضيَّة، وهي الرِّياح والسَّماء في قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ١﴾ [الذاريات: 1]، وقوله سُبحانَهُ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾، ولم يُقْسِم بِرَبِّها، وهاهنا أقسم بِرَبِّها، فكذلك التَّرتيب؛ إذ يقسم المتكلِّم أوَّلًا بالأدنى، فإن لم يُصدَّق؛ ارتقى إلى الأعلى[2]، فـ "تَوَّج هذه الأقسامَ جميعَها بالقَسَم بذاته العليَّة جلَّ شأنه، واصفًا ذاته الكريمة بأنَّه ربُّ السَّماوات والأرض ومُدَبِّرُ أمرهما"[3].

فأقسم سبحانه بما له من المخلوقات لِمَن وقف مع المحسوسات المشهودات، ثُم تَرقَّى إلى أعلى الدَّرجات، فانكشف ما له من الكمال

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 173.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 173.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 512.

انكشافًا تامًّا، وعلم أنَّ في خزائنه سبحانه كلَّ ما أخبرَت عنه به الرُّسلُ مِن وعد ووعيد، فأقسم بنفسِهِ الأقدس لكن بصفةٍ مألوفةٍ، فقال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾(1).

لطيفةُ القسَم بعنوان الرُّبوبيَّة:

الـرَّبُّ سبحانه هـو المُعطي والمُجازي

التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة في جملة القسم: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ داعم لأمرَين: أمرِ الرِّزق في الدُّنيا، وأمرِ المُجازاةِ والمُداينة في الآخرة، فالرَّبُّ هو المعطي والمانح والمُرَبّي، والسّياق له اتّساق بارعٌ مع المَعْنى، داعمٌ للغرضِ.

قَسَمُ الله تعالى رحمةٌ منه سبحانه بعباده

والقسَم في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ يعالج ضَعْفَ النُّفوس غير الموقنة، ويُثَبِّتها على طريق الثِّقة في تحقيق الموعود، ويزيد النُّفوس الموقنة يقينًا واستبشارًا، والنُّفوس المهزوزة تثبيتًا، وخاصَّة في لحظاتِ ضَعْفها البشريِّ إزاء مُلِمّاتِ الحياة وحدثان الأزمان، فَقَسَمُ اللّه تعالى رحمةٌ منه سبحانه بعباده، ومراعاةٌ لبشريَّتهم.

دلالةُ الإضافة في ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ﴾:

الـرَّبُّ الرَّحيم سبحانه هو الَّذي أفعم الأرض والسَّماء بالخيرات والبركات

في إضافة (ربّ) إلى ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ دعمٌ لقضيَّة الوفاء بالوعد، فالسَّماء والأرض خزائن الخيرات، ومنبَعُ البركات؛ إذِ السّماء مسكَنُ الملأ الأعلى، وفيها الجِنان، والأرض مستودَعُ الأرزاق هنا في الدُّنيا، والمخاطَبون منها أكلوا، وشربوا، ورأوا صنوفَ المتاع من طعامٍ وفواكِهَ، ومن أنهار وبحارٍ، ولآلئَ وأصداف... إلى غير ذلك.

بلاغةُ حشدِ التَّوكيدات في التَّركيب:

لام التَّوكيد في الخبر ﴿لَحَقٌّ﴾ يتناغَمُ عطاؤُها مع عطاء القَسَم

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 459.

يجب ألّا يَبقى في النُّفوس شكٌّ يتعلّق بقضيَّة الأرزاق والآجال، وأنّها لله وحده

﴿فَوَرَبِّ﴾ والتَّوكيدِ بـ (إنَّ) في ﴿إِنَّهُۥ﴾، واسميَّة الجملة، والتَّشبيه المُبين بعد الخبر وصفًا له، كلُّ ذلك يتآزر على دَعْم هذه الحقيقة الرَّبّانيَّة في النُّفوس البشريَّة، دعْمًا لا يُبقي لِشَكٍّ في القلوب مكانًا، ففي حشد ذلك العددِ المتنوِّع من عوامل التَّوكيد قَطْعٌ وبَتٌّ في قضيَّتَي الرِّزق الدُّنيويِّ والأخرويِّ قطعًا وبتًّا حازمَيْن، لا مجال معهما لاهتزاز النَّفس، ولا لتعويلها فيهما جميعًا على غير الله تعالى، فلا أحد يملك لأحدٍ ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

بيانُ مرجعِ الضَّمير المنصوب في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾:

تعدُّدُ مرجع الضَّمائر القرآنيَّة يمنح الأسلوب غزارةً في الدَّلالة

الضَّمير المنصوب في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ يرجع إلى أقرب مذكور، أي: قضيَّة الرِّزق بِشِقَّيْه: الدُّنيويِّ والأخرويِّ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾، وقد طويا هنا في الضَّمير لتوفير العناية على الخبر ﴿لَحَقٌّ﴾ وداعمه من التَّشبيه وتوكيداته، ويحتَمِلُ أن يعودَ الضَّمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ إلى ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾، فيكون فيه رَدُّ العجز على الصَّدر؛ لأنَّه ردٌّ على قوله أوَّلَ السّورة: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥﴾ [الذاريات: 5]، وانتهى الغرض[1].

ويجوزُ أن يرجعَ الضَّمير إلى القرآن الكريم، أي: إنَّ القرآن حقٌّ، وعلى هذا فقوله: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾، أو يرجِعَ إلى الدّين، الواردِ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾ [الذاريات: 6].

ويحتَمِلُ أن يعودَ إلى اليوم المذكور في قوله: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾، يدلُّ عليه وصفُ الله تعالى اليومَ بالحقِّ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ [النبأ: 39]، أو هوَ راجع إلى القول الَّذي يقالُ: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾[2]، وهكذا يَمنح تعدُّدُ مرجع الضَّمائر القُرآنيَّة سياقَه وأسلوبَه غزارةً في الدَّلالة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 355 بتصرف.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 172 بتصرف.

دلالةُ الإخبار بـ﴿لَحَقٌّ﴾، ولطيفة تنكيره:

كلُّ ما أخبر الله تعالى به حقٌّ لا يتخلَّف

في الإخبار بمفردة الحقِّ دون غيره في قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ مُؤازرةٌ لِعناصر التَّوكيد الكثيفة في ثبوت مراجع الضَّمير كلِّها؛ لأنَّ "الحقَّ هو الشَّيء الثّابت الَّذي لا يتغيَّر"[1]، فالرِّزق حقٌّ، وموعود الله تعالى في الآخِرَةِ حقٌّ، والقرآن حقٌّ... إلى غير ذلكَ.

وفي تنكيرِهِ إشارةٌ إلى تعظيمِه وتفخيمِه، وأنَّه ثابتٌ غاية الثَّبات لا يَحْتَمِلُ التَّخلُّف بحالٍ.

دلالةُ التَّعبير بلفظ المُماثلة في ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ﴾:

عَقْدُ التَّشبيه بمادَّة المُماثلة الاسميَّة يواكب السّياقات المُمتلئة

﴿مِّثْلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ اسمٌ يدلُّ على التَّشبيه، وتتَّسق دلالة المماثلة به مع القَسَم، ومع أدوات التَّوكيد، ومع الإخبار بلفظِ (حق)؛ لأنَّه يدلُّ على تمام المماثلة، لا مجرَّد الإلحاق والتَّشبيه.

فزَخَمُ معنى ﴿مِّثْلَ﴾ وقوَّةُ فحواه يواكِبان هذا الأسلوب العامر والتَّركيب القويَّ؛ لذلك لا تصلُح الكافُ ولا مشتقّات المُشابهة بدلًا منه هنا، كما لو قيل في غير القرآن الكريم: فوربِّ السَّماء والأرض إنَّه لحقٌّ كما أنَّكم - أو شِبه ما أنَّكم - تنطقون.

دلالة الحاليَّة في ﴿مِّثْلَ﴾:

في النُّطق من الخفَّة والهِمَّة والحيويَّة ما ليس في السُّكوت

دلالة الحاليَّة في قوله تعالى: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾، أي: مثل نُطْقِكُم، تَعْقِدُ المماثلة على حالِ النُّطق لا السُّكوت؛ لِما في حالِ النُّطق من حيويَّةٍ ونشاط، وهِمَّة وخِفَّة تؤهِّلها لقياس هذا المعنى الخطير بها، أمّا حالُ السُّكون؛ فشبيهة بحالِ الموتِ وفُقدان الحياة، فهي خاليةٌ مِن ضجيج النُّطق ونشاطه وحيويَّته.

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 1/ 321.

توجيهُ القراءات القرآنيّة في ﴿مِّثۡلَ﴾:

التّكاملُ الدّلاليُّ بين القراءاتِ

قُرِئَ ﴿مِّثۡلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ بالرَّفع والنَّصب، فقرأها الجمهور بالنَّصب: ﴿مِّثۡلَ﴾، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ العاشرُ وشعبةُ عن عاصم بالرَّفۡع: ﴿مِّثۡلُ﴾[1]، فمن قرأ بالرَّفع؛ فهو صِفَةٌ لـ (حقّ)، والمعنى: إنَّه لحقٌّ مِثۡلُ نطقِكم، ومن نَصَب؛ جعَل: ﴿مِّثۡلَ﴾ مع ﴿مَآ﴾ بمنزلة شيءٍ واحد.

وقال الفرّاء: مَن نَصَب ﴿مِّثۡلَ﴾ مع ﴿مَآ﴾ جعله في مذهبه مصدرًا[2]؛ ليُفيدَ التَّوكيدَ، على معنى: (إنَّه لحقٌّ حَقًّا مثلَ نُطۡقِكُم)[3].

دلالة ﴿مَآ﴾ في قوله: ﴿مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾:

البـلاء مـوكَّـلٌ بالمنطق

﴿مَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ مصدريَّة، أي: مثل نُطقكم، أو مثل حالِ نُطقكم، وفي إيثارها على المصدر الصَّريح إتاحةٌ لدلالاتِ جُملَة الصِّلة ﴿أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ ممّا سيأتي.

ويجوزُ أن تكون ﴿مَآ﴾ موصولَةً، ويكون المعنى: إنَّه لحقٌّ مثل الَّذي تنطقونه، أو تنطقون به، أي: مثل كلامكم في الرِّزق وظنِّكم فيه، وارتقابِكُم له كثرةً وقِلَّة، ووجودًا وعَدَمًا، فـ "إنَّ البلاء موكَّل بالمَنۡطِق"[4]، فيكون ذلك دعوةً لإحسانِ القول والظَّنِّ واليقين في إكرام اللّه تعالى، والتَّحدُّث بالبشائر، وارتقاب الخير العميم.

معنى (أنَّ) في قوله تعالى: ﴿مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾:

(أنَّ) في قوله تعالى: ﴿مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ مصدريَّة، تُؤَوَّل مع الفعل بعدها بمصدر، والتَّقدير: إنَّه لحقٌّ مثل نُطقكم، وهي من ثمرات إيثار التَّعبير بـ ﴿مَآ﴾ دون المصدر الصَّريح.

---

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 377.

(2) الفراء، معاني القرآن: 3/ 85، والواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 176.

(3) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 54.

(4) السجستاني، المعمرون والوصايا، ص: 53، قاله عبيد بن شرابة الجرهمي لمعاوية بن أبي سفيان تعليقًا على قصّة حكاها له شرابة.

بلاغةُ التَّشبيه بالنُّطق:

في التَّشبيه زيادةُ تقريرٍ لوُقوع الوعيد

في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ يُشبِّه اللّه تعالى تَحَقُّقَ ما أخبر عنه، بتحقيق نُطق الآدميِّ ووجوده، وهذا كما يقول: إنَّه لحقٌّ كما أنَّك تقول ههنا، وإنَّه لحقٌّ كما أنَّك تتكلَّم، والمعنى: أنَّه في صِدقه ووجوده كالَّذي تعرِفُه ضرورةً[1]، فكما أنَّكم لا تَشُكّون فيما تَنْطِقون؛ فعلى ذلك لا تَشُكّون في أمر السّاعة وقيامها وكونِها، كما يُقال: هذا ظاهر بيِّنٌ كالنَّهار.

ويحتمل أن يقول: إنَّ مَن قَدر على إنطاق هذه الألسُن وتكليمها حتّى تُفهم منها حاجَتُهم - وهي قطعة، وليس فيها شيءٌ من آثار النُّطق والكلام؛ إذ يكون مثلهُ للبَهائم، ثُمَّ لا يُفهم منه ذلك، ولا يكون منه النُّطق - قادرٌ على البَعْثِ والإعادة؛ إذ هذا في الأعجوبةِ أكثَرُ وأعظمُ من ذاك[2].

ولطيفة التَّشبيه بالنُّطق أنَّه "عنده في غاية الوضوح، ولا يُمكِنُ أن يقع فيه من اللَّبْسِ ما يقع في الرُّؤية والسَّمع، بل النُّطق أشَدُّ تخلُّصًا من هذه"[3]، ففيه "زيادةُ تقرير لوُقوع ما أوْعَدوه، بأن شُبِّه بشيء معلوم كالضَّرورة لا امتراء في وقوعه، وهو كونُ المخاطَبين يَنْطِقون"[4]، و"كما أنَّ كلَّ إنسان ينطِقُ بلسان نفسِه، ولا يُمكِنُه أن ينطِق بلسان غيره؛ فكذلك كلُّ إنسان يأكُلُ رِزْقَ نفسِه، الَّذي قسم لَه، ولا يمكنه أن يأكل رزقَ غيره"[5].

دلالة صوغ ﴿تَنطِقُونَ﴾ مضارعًا:

تجدُّدُ المضارَعة يواكب تجدُّد فاعلِها وحيويَّته

في صوغ فعل النُّطق ﴿تَنطِقُونَ﴾ مضارعًا براعةُ تَطْمينٍ، أي:

---

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 177.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 383.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 176.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 355.

(5) الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن: 24/ 537.

"تنطقون نطقًا مجدَّدًا في كلِّ وقت مستمرًّا، ليس هو بخيالٍ ولا سحر"[1]، ففي النُّطق حركةٌ بخلاف السُّكوت، والحركة تقتضي الحيويَّة والتَّجدُّد والنَّشاط الَّذي يلائم تجدُّد النُّطق المتكرِّر.

والمضارَعَة مِن ثمرات المصدر المُؤَوَّل - كما سبقَت الإشارة - ولو عُبِّر بالمصدر الصَّريح: مثل (نُطقكم)؛ لانطفأ زخَم التَّشبيه؛ لأنَّ المصدر في (نطقكم) سَيَدُلُّ حينئذٍ على نُطْق واحد، ولو مرَّة، فيموت به المعنى، أمّا المضارَعة في ﴿تَنطِقُونَ﴾؛ فتُضْفي على المعنى حياةً وجدَّةً وتجدُّدًا يليق بالمقام، وقد يَنْعَكِسُ على الرِّزق في المُشَبَّه بدلالةِ التَّجدُّد والتَّنوُّع والزَّخم الكثير، فـ"اجتُلب المضارع في ﴿تَنطِقُونَ﴾ دون أن يقال: نُطقُكم؛ ليفيد التَّشبيهَ بِنُطقهم المتجدِّد، وهو أقوى في الوقوعِ؛ لأنَّه محسوس"[2].

نكتةُ إيثارِ النُّطق دون غيره من حالات الإنسان:

مِـن أخَصِّ صفاتِ الإنسانِ النُّطقُ؛ لدلالتِهِ على الإدراكِ

اختارَ النَّظمُ الكريم التَّشبيهَ بالنُّطْقِ في قوله تعالى: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾؛ لأنَّه "صفة دالَّة على وجود الإنسان؛ لأنَّ المنطق هو الصِّفة المميِّزة للإنسان عن عالم الحيوان، ولأنَّ النُّطق كذلك يدلُّ على أنَّ وراءه إنسانًا ذا حسٍّ وإدراك، وأنَّه إذا غابت عنه المُحَسّات والمُدْرَكات؛ فلن يغيبَ عنه الإحساس بوجودِه، وإدراك أنَّه موجود"[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإبصار والنَّظر والمشاهدة:

البَصَرُ حِسُّ العينِ، والنَّظر إدراك الشَّيء، والمُشاهَدَةُ المُعايَنَةُ والحُضور

البَصَر: حِسُّ العَيْنِ[4]، والنَّظَر: تأمُّل الشَّيء بالعين، وإدراكه بواسطة القدرة البصريَّة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 459.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 356.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 513.
(4) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (بصر).

﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ١٦﴾ [الحجر: 16][1]، والمشاهدة: المعاينة والحضور، يُقال: شهِده شُهودًا، أي: حَضَرَه، فهو شاهدٌ، وقومٌ شُهودٌ، أي: حُضورٌ[2].

والعلاقة الدَّلاليَّة بين الإبصار والنَّظر والمشاهدة تقوم على اشتراكها في دلالة الرُّؤية بالحاسَّة البصريَّة، لكنَّها تختلف في الدِّقَّة والاستعمال بحسَبِ السّياق والمقامِ.

النُّطق والتَّكلُّم والتَّحدُّث:

النُّطْقُ إخـراجُ الأصـوات، فَهو أعـمُّ، والتَّكلُّم التَّحدُّث مطلقًا، والتَّحدُّث الكلام إلى آخرَ

النُّطْقُ: الأصواتُ المُقَطَّعة الَّتي يُظْهِرُها اللِّسانُ، وتَعيها الآذانُ، وهو خاصٌّ بالإنسان[3]، والتَّكلُّم: التَّحدُّث، يُقال: تكلَّم الشَّخصُ، أي: تحدَّث[4]، والتَّحدُّث: إخبار غيركَ والتَّكلُّم معه، يقال: حدَّثه الشَّخصُ بكذا، وحدَّثه عن كذا، أخبره، وتكلَّم إليه[5].

وأمّا العلاقة الدَّلاليَّة بين النُّطق والتَّكلُّم والتَّحدُّث؛ فتقوم على اشتراكِها في دلالة إخراج الألفاظ والأصوات للتَّعبير عن المعاني، لكنَّها تختلف في الدِّقَّة والمجال الاستعماليِّ.

فالتَّرتيب الدَّلاليُّ يكونُ النُّطق أعمَّ وأوَّل مراحل التَّعبير الصَّوتيِّ، والتَّكلُّم إنتاج كلام مفهوم، وأمّا التَّحدُّث؛ فنقلُ الكلام والتَّخاطُب بقَصْدِ الإفهام والمشاركةِ.

(1) عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (نظر).
(2) الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (شهد).
(3) الراغب، المفردات: (نطق).
(4) عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (نظر).
(5) عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (حدث).

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ
فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ
بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ
خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٢٨ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي
صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ٢٩ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ
رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٠﴾ [الذاريات: 24 - 30]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام رأسُ المحسنين

في هذه الآيات "انتقالٌ من الإنذار والموعظة والاستدلالِ، إلى الاعتبار بأحوال الأُمَم الماضية، المماثلة للمخاطَبين المشركين في الكُفْر وتكذيبِ الرُّسل"[1]، فـ "لمّا بيّن سبحانه بما مَضَى من القَسَم، وما أتبَعه من أنَّه أودع في السَّماوات والأرض وما بينَهُما أسبابًا صالحة للإتيان بما وعدناه من الخير، وما توعَّدنا به من الشَّرِّ؛ دلَّ عليه، وصوَّره بما شوهِد من أحوال الأمم"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾: أصلُ الكَرَم: شَرَفُ الشَّيءِ، يُقالُ: كَرُمَ الشَّيءُ يَكْرُمُ كَرَمًا، أي: شَرُفَ، ورَجُلٌ كريمٌ، أي: شَريفٌ ذو فَضائِلَ[3]، والإكرامُ والتَّكريمُ: أن يوصل إلى الإنسان إكرامٌ، أي: نَفْعٌ لا يلحُقه فيه غَضاضَة، أو أن يجعل ما يوصل إليه شيئًا كريمًا، أي: شريفًا[4]، والمُكْرَمُ: الرَّجُلُ الكَريمُ على كلِّ أحَدٍ، ويُقالُ: كَرُمَ الشَّيءُ الكريمُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 356.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 7/ 278.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ضيف).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ضيف).

كَرَمًا، وكَرُمَ فُلان علينا كَرامة[1]، وسمّاهم الله سبحانه هنا بـ ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾؛ لأنَّ إبراهيم عليه السلام كان يخدمهم[2]، وهم جماعة الملائكة الَّذين قَدِموا عليه، وعلى رأسهم جبريل عليه السلام.

2) ﴿مُّنكَرُونَ﴾: أصلُ (نكر) يدُلُّ على الجَهْلِ بالشَّيءِ، والمُنكر: المَجهولُ، والجَمعُ: مناكيرُ، يُقالُ: أنكرتُ الخَبَرَ ونَكِرتُهُ؛ إذا جَهلته، ولم تَعرِفْه[3]، والنَّكِرَةُ: خِلافُ المَعرفةِ، ويُطلَقُ المُنْكَرُ على المَنْفي، والإنكارُ: نفيُ الشَّيءِ وجَحْدُهُ وردُّهُ، يُقالُ: أنكرْتُ حَقَّهُ، أي: جَحَدْتُهُ، ونَفَيْتُهُ، وكلُّ ما جهله النّاسُ، وجَحَدوهُ؛ فهو مُنْكَرٌ[4]، والمُرادُ بالمُنكَر في الآية: الَّذي يُنْكِرُهُ غيرُه، أي: لا يَعْرِفُهُ[5].

3) ﴿فَرَاغَ﴾: أصلُ (روغ) يدُلُّ على مَيْلٍ وقِلَّةِ استقرارٍ، يُقالُ: راغَ الثَّعلبُ وغيرُه يَروغُ، وطريقٌ رائغٌ: مائلٌ[6]، وراغَ فلان إلى فلان؛ مال نحوَهُ لأمر يريده منه بالاحتيال، قال تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ۝٩٣﴾ [الصافات: 93]، أي: مالَ، وحقيقتُه: طلبُ بِضرْبٍ من الرَّوَغانِ[7]، والمقصود بالرَّوغ في الآية: المَيْلُ في خفيةٍ، والمُرادُ: ذهب إليهم خِفية من ضيفه دون أن يحسّوا بخروجه.

4) ﴿سَمِينٍ﴾: أصلُ (سمن) يدُلُّ على خِلافِ الضُّمرِ والهُزالِ[8]، ومن ذلك السِّمَنُ: نَقيضُ الهُزال، سَمِنَ يَسمَنُ، ورجلٌ مُسْمِنٌ: سمين، وأسمَنَ الرَّجُلُ: اشترى سَمينًا، أو أَعْطاه، أو ملَّكه، والسُّمنةُ: دواءٌ تُسَمَّنُ به النِّساء[9]، وسمُن الحيوانُ بالعلف: كَثُرَ لحمُه وشحمُه، نقيض هزل[10]، والمُرادُ بالسَّمين في الآية: المُمتلئ بالشَّحم واللَّحم.

5) ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ﴾: أصلُ (قرب) يدُلُّ على خِلافِ البُعْدِ، يُقالُ: قَرُبْتُ منه أقْرُبُ، وقَرَّبْتُهُ

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (كرم).
(2) أبو منصور الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 383.
(3) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نكر).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (نكر).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 358.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (روغ).
(7) الراغب، المفردات: (روغ).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمن).
(9) الخليل بن أحمد، العين: (سمن).
(10) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (سمن).

أُقَرِّبُهُ قُرْبًا وقُرْبانًا[1]، والتَّقَرُّبُ: التَّدَنّي إلى شَيءٍ، والتَّوَصُّلُ إلى إنسان بقُرْبةٍ أو بحقٍّ، والإقرابُ: الدُّنوُّ، والتَّقريب: الإدناء، وتَقارَبَ الزَّرعُ؛ إذا دَنا إدراكُه[2]، ومعنى ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ﴾ في الآية: أدناه إليهم، ووضَعَهُ قريبًا منهُم، أي: لم يَنقُلْهُم من مَجلِسهم إلى مَوْضِعٍ آخَرَ، بل جَعَلَ الطَّعامَ بين أيديهم[3].

6) ﴿فَأَوْجَسَ﴾: أصلُ (وجس) كلمةٌ تدُلُّ على إحساسٍ بشيءٍ وتَسَمُّعٍ له[4]، والوَجسُ: الفزَع يقعُ في القَلْب، أو في السَّمعِ من صوتٍ وغيره، والوَجسُ: الصَّوتُ الخَفيُّ، أَوْجَسَ القلبُ فَزَعًا: أَحَسَّ به[5]، والتَّوَجُّس: التَّسَمُّع إلى الصَّوتِ الخفيِّ، وأَوْجَسَ: أَحَسَّ في نَفْسه، ولم يُظهِرْ، وهو المُراد في الآية[6].

7) ﴿خِيفَةً﴾: أصلُ (خوف) يدُلُّ على الذُّعْرِ والفَزَعِ، يُقالُ: خِفْتُ الشَّيءَ خَوْفًا وخيفَةً، والياءُ مُبدَلَةٌ من واوٍ لمكانِ الكَسرَةِ[7]، والخَوْفُ: الفَزَعُ[8]، والخيفَةُ: الحالُ الَّتي عليها الإنسان من الخوف[9]، والجَمعُ خيفٌ[10]، فالخيفة هنا معناها: حالُ الخوف والخشية[11].

8) ﴿صَرَّةٍ﴾: أصلُ (صرّ) يدل على الصَّوْتِ، من ذلك الصَّرَّةُ: شِدَّةُ الصّياحَةِ[12]، يُقالُ: صَرَّ العُصفور يَصِرُّ؛ إذا صاحَ، وصَرَّ الجُنْدُب يَصِرُّ صَريرًا، وصَرَّ البابُ يَصِرُّ، وكُلُّ صَوْتٍ شِبْهُ ذلِكَ؛ فَهوَ صَريرٌ؛ إذا امتدَّ، فإذا كانَ فيه تَخْفيفٌ وترجيع في إعادَةٍ؛ ضوعِف، كقولِكَ: صَرْصَرَ الأَخْطَبُ صَرْصَرَةً، فالصَّرَّة أشدُّ الصّياحِ تكونُ في الطّائِرِ والإنسان وغَيرِهما[13]، والصَّرَّةُ: الشِّدَّةُ من كرْبٍ وغيره[14]، والمُرادُ بها في الآية: الضَّجَّة،

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرب).
(2) الخليل، العين، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قرب).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 359.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وجس).
(5) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (وجس).
(6) لسان العرب، لسان العرب: (وجس).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خوف).
(8) ابن عباد، المحيط في اللغة: (خوف).
(9) الراغب، المفردات: (خوف).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (خوف).
(11) المراغي، تفسير المراغي: 9/ 124.
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صرّ).
(13) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (صرر).
(14) الجوهري، الصحاح: (صرر).

وشِدَّةُ الصّياحِ، وفي صيحة وكرب من الصَّرير قد أحاط بها[1]، ويحتمل أن تكون امرأة الخليل عليه السلام قد أقبلت "في جماعةِ نِسوةٍ يَتَبادَرْنَ نظرًا إلى الملائكة"[2]، وهذا المعنى مأخوذ من الصَّرَّة، بمعنى: الجماعة المُنْضَمِّ بعضُهم إلى بعض، كأنَّهم صُرّوا، أي: جُمِعوا في وعاءٍ[3].

9) ﴿عَقِيمٌ﴾: أصلُ (عقم) يدُلُّ على غُموضٍ وضيقٍ وشِدَّةٍ، يُقال: عُقِمَتِ المَرأةُ عَقْمًا، وهي مَعْقومَةٌ وعَقيمٌ، وفي الرَّجُلِ أيضًا: عُقِمَ، فهو عَقيمٌ ومَعْقومٌ[4]، والرّيحُ العقيمُ الَّتي لا يَكونُ معها لَقَحٌ، أي: لا تأتي بمَطَرٍ إنَّما هي ريحُ الإهلاك[5]، والعقيم ما لا خير فيه ولا طائل، قال تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥﴾ [الحج: 55]، أي: لا هواء فيه[6]، والمقصود بالعقيم هنا: الَّتي لا تلدُ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

مبالغةُ إبراهيمَ عليه السلام في إكــرام ضَيْفِه

قد آتاك يا رسولَ اللّه حديثُ ضيف إبراهيم، فحاجِجْ به أولَئِكَ، وخاصِمهم به، أو: لم يأتِك بعدُ حديث ضيف إبراهيم، ولكن سيأتيك، فإذا أتاك؛ فحاجِجْ على أولَئِكَ الكفرة به[7].

وذلك أنَّهُ حين دخل ذلك الضَّيف الكريم على إبراهيم عليه السلام ألقوا تحيَّة الإسلام قائلين: نُسَلِّم عليك سلامًا تَطمئِنُّ به نفسُك، فردَّ عليهم بأفضل من تحيَّتهم، فقال: سلامٌ عليكم أيُّها الضَّيف الكريم، الَّذين شرَّفتُمونا بالنُّزول علينا، مع أنَّنا لا نعرفكم مِن قَبل، فتسلَّل بتلطُّفٍ غير لافت إلى أهله - بعدَ تقديم التَّحايا والمؤانسة للضَّيف

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 464.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 178.
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: (صدى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقم).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (عقم).
(6) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (عقم).
(7) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 104.

الكرام - فذَبح عجلًا بَدينًا طيِّب اللَّحم وفير الشَّحم، فشواه، وأقبل به إليهِم، وهو يظنُّهم أضيافًا من بني آدم، فأدناهُ منهم؛ ليأكلوا منهُ مبالغةً في الإكرام والحفاوة، ولم يُكلِّفْهُم الانتقالَ هُم إليه، وعزم عليهم، وحضَّهم على أن يأكلوا، لكنَّهم امتنعوا عن الأكلِ، ومعلومٌ في أعراف النّاس أنَّ الامتناع عن أكلِ المُضيف بادرةُ نيَّةِ السّوء، وأنَّ الأكل من طعامه يبعث الطُّمأنينة في نفسه، فلمّا امتنعوا عن الأكْلِ من العجل؛ أثار امتناعُهم توجُّسَه وخوفَه ممّا عساه قد يكون السَّببَ في ذلك الامتناع.

وحينئذٍ تَدارَكوهُ مِن الخوف، فكشَفوا عن حقيقَتِهم، وأنَّهم ملائكةُ اللّه تعالى، وأنَّهم جاؤوه ببشارة الولدِ الثّاني، وهو إسحاقُ ﵇، وبشَّروه كذلك أنَّ هذا الغلام سيكون عليمًا، وحينئذٍ هرولت زوجُه سارة في جلَبَةٍ، وضربَت وجهها فِعلَ المتعجِّب الدَّهِش، مُبْدِيةً أسباب عجَبِها من أنَّها في الأصل عاقرٌ لا تحمل، ولا تلد، ومع ذلك فَهيَ عجوزٌ قد بلغت سنَّ اليأس، فكيف يكونانِ في امرأةٍ، وتحبلُ، وتَلِدُ؟.

فجاءه ردُّ الضَّيف المكرَمين يذكِّرها بقدرة اللّه تعالى المُطْلَقَة، قائلين لها بأنَّ ذلك هو تقديرُ اللّه تعالى وأمرُه، وهو الحكيم في تقاديره، العليم بوجوه الخير لعباده.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علّة فصل هذه الآيات عمّا قبلها:

تـــداركُ اللـه تـعالى عـبادَهُ المؤمنين بأسبابِ الاستبشارِ

فُصِل قول اللّه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ عمّا قبلهُ؛ لأنَّه مستأنَفٌ استئنافًا ابتدائيًّا[1]؛ للانتقالِ بالنَّبيِّ ﷺ من هذا الجوِّ الخانق مع قومه إلى شَذا هذه الرّيح الطَّيِّبة، الَّتي تَهبُّ عليه من ذِكرى نبيٍّ كريم هو إبراهيم ﵇، وما كان له عند اللّه من فضلٍ وإحسان.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 356.

ففي مجيء هذا الحديث - منقطعًا عمّا قبله غيرَ معطوف عليه- عزلٌ تامٌّ له عن الحديثِ السّابق؛ حتّى لا يَدخل عليه شيءٌ منه، وحتّى لا يَطلَّ عليه وجهٌ من تلك الوجوه المنكَرة، الّتي كان يراها النَّبيُّ الكريم من قومه[1].

بلاغةُ الاستفهام في قوله: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ﴾:

لا سبيل إلى العِلم بأخبار المرسَلين إلّا الوحيُ

الاستفهام في قوله: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ مليءٌ بالإشارات البليغة، فهو أوّلًا يُثير الشَّوق إلى معرفة تفاصيل هذا الحديث الفخم، ويوحي بأنَّه حديثٌ ذو تفاصيلَ مهيبةٍ عجيبة، دالَّة على القدرة الإلهيَّة والعظمة الرَّبّانيَّة، فإنَّ مَطلع هذه القصَّة يدلُّ على "فضل إبراهيم الخليل ﵇؛ إذ ابتدأ البيان القرآني قِصَّته بما يدُلُّ على الاهتمام بشَأنِها، والاعتناء بها"[2]، وخلاصةُ الحديثِ: هبةُ اللّه تعالى لزوجين كبيرَيْنِ الولدَ المبارَكَ الميمون، و"هو إسحاق؛ لأنَّه هو ابن سارة، وهو الَّذي وقعت البِشارة به في هذه القصَّة في التَّوراة"[3]، وفي هذا الاستفهام ثانيًا "تسليتُه ﷺ على ما لَقيَه من تكذيب قومه، ويَتبَعُ ذلك تعريضٌ بالسّامعين من قومه حين يُقرأ عليهم القرآنُ، أو يبلِّغهم بأنَّهم صائرون إلى مثل ذلك العذاب؛ لاتِّحادِ الأسباب، ومثلُه قوله تعالى: ﴿۞وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ [ص: 21]، وهذا الأسلوب تُفتتَح به الأخبار الفَخْمَةُ المُهِمَّة"[4].

وفي هذا الاستفهام ثالثًا "تقريرٌ؛ لِتجتمع نفسُ المخاطَب، وهذا كما تبدأ المرءَ إذا أردتَ أن تُحدِّثه بعجيبٍ، فتقرِّره هل سَمِعَ منك أم لا؟ فكأنَّك تقتضي منه أن يقول: لا، ويَستَطعِمُك الحديثَ"[5]، و"تنبيهٌ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 515.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 810.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 360.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 357.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 177.

على أنَّه ليس مِن علم رسول اللّه ﷺ، وإنَّما عرفه بالوحي"[1]، وبيانُ ذلك "أنَّه أُهلِك بسبب التَّكذيب مَن أُهلِك"[2].

وكونُ الاستفهامِ للتَّقريرِ يقتضي في هذا المقام أن تكونَ ﴿هَلْ﴾ "بمعنى (قد)، كما في قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ [الإنسان: 1]"[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿أَتَىٰكَ﴾ دون (جاءك):

حصول الموفَّقين على عِلم الدّين وقصص الأنبياء عليهم السلام من القرآن الكريم يسيرٌ

عبَّر النَّظم الكريم بفعل الإتيان في ﴿أَتَىٰكَ﴾ دون فعل المجيء (جاءك)؛ لأنَّ "الإتيان: مَجيءٌ بسهولة"[4]، فهو أخصُّ من المجيء، وقد كان إتيانُ حديث ضيف إبراهيم عليه السلام رسولَ اللّه ﷺ يسيرًا، لم يتكَّلف فيه رسولُ اللّه ﷺ مشقَّةً، وفي ذلك إشارة إلى يُسر الحصول على عِلْم الدّين وقصص الأنبياء عليهم السلام من القرآن الكريم.

كذلك لمّا لَم يكن قد وصَل حديثُ ضيفِ إبراهيم رسولَ اللّه ﷺ حتّى تلك اللَّحظة، وإنَّما كان سيُلقى إليه بُعيد هذا التَّشويق؛ عُبِّر بالإتيان، وقد غَلَب استعمال فِعل الإتيان لما بَدَأ، ولمّا يتحقَّق بعدُ، كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: 1]، وقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: 93]، ويغلب استعمال فِعل المجيء؛ لما قد تحقَّق فعلًا، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: 61]، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ [الأنعام: 91]، وقوله: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ [الأعراف: 113].

دلالةُ التَّعبير بلفظ ﴿حَدِيثُ﴾:

لا تـزال قصص الأنبياء جديدةَ الـعِبر، جديـرةً بالتَّحديث بها

المقصود بحديثِ ضيف إبراهيم عليه السلام، أي: "نَبؤُهم الغريب

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 401.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 104.
(3) القِنّوجيّ، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 199.
(4) أبو البقاء، الكليات، ص: 34.

العجيبُ، وهم: الملائكةُ الَّذين أرسلهم اللّه تعالى لإهلاك قوم لوط، وأمَرَهم بالمرور على إبراهيم، فَجاؤوه في صورة أضيافٍ"[1].

وفي التَّعبير عن خبرهم بوصف الـ ﴿حَدِيثُ﴾ إشارةٌ إلى جِدَّته، وأنَّه لِغرابته سيظلُّ حديثًا لا يَبلى، ولا يُملُّ مِن تَرداده؛ لما فيه من عجائبِ قدرة اللّه تعالى، فالحَديثُ من الأشياءِ هو المُحْدَثُ[2]، وهو ضِدُّ القَديمِ[3].

ففي التَّعبير بالحديث في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ إيحاءٌ بأهمّيَّته، وعَظَمَتِه، وجَدارته بتجديد الإخبار به والتَّحديث بعجائبه.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿ضَيۡفِ﴾:

الكريم يحتفي بِنُزَلائه، ويَراهُم ضيوفًا أعزَّة

يقع اسمُ الضَّيف على الواحِدِ والجماعة[4]، "وسُمّي الضَّيف ضيفًا؛ لإضافتِه إليك وإنزالِه عليك"[5]، وفي إطلاق القرآن الكريم عليهم وصفَ ﴿ضَيۡفِ﴾ هوَ باعتبار ظاهرِ حالِهم عند الخليل ﷺ، وفيه إيحاءٌ باهتمامه ﷺ بإكرامهم، وتوفيتِهم حقوقَ الضّيفان، وهُم نفرٌ من الملائكة الكرام، دخلوا على إبراهيم ﷺ يُبَشِّرونه بإسحاقَ ﷺ، ويُهيِّئون الخليلَ ﷺ لِتَلقّي إهلاك قوم لوطٍ ﷺ فلا يفزع، وكانوا جماعةً - ثلاثةً أو أكثر - ورويَ أنَّهم "جبريل وميكائيل وإسرافيل، وأتباعٌ لهم من الملائكة"[6].

فَفي التَّعبير بوصف الـ ﴿ضَيۡفِ﴾ هنا إيحاءٌ بحفاوة إبراهيم ﷺ بهم، وذلك جليٌّ في رَوَغانِه وتلطُّفه في التَّسلُّل إلى أهله لإعداده

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 810.
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللغة: (حدث).
(3) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: 1/ 350.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 383.
(5) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 369.
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 177.

واجبَ الضّيافة، وتقديمه إليهم إكرامًا لنزولهم به ضيوفًا - بحسب ظاهر حالهم - مكرَّمين، وهذا الكرم خَصلة فيه ﷺ، فقد كان يُكنَّى بأبي الضّيفان، وعُرف عنه أنَّه إذا أراد أن يتغدّى، أو يتعشّى؛ خرج الميل والميلين والثَّلاثة، يَطْلُب مَن يأكل معه[1].

نكتةُ إضافة ﴿ضَيۡفِ﴾ إلى ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾:

المُضيف الكريم يرى نفسه المسؤولَ عن حقِّ الأضياف مهما كثُروا

في إضافة ﴿ضَيۡفِ﴾ إلى الخليلِ ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ ﷺ تأكيدٌ لعنايته بهم، واعتباره ﷺ إيّاهم ضيوفًا أعزَّة، على الرُّغم مِن عدم معرفتهِ بهم؛ فرأى لهم حقَّ الضّيافة؛ لأنَّهم ضيفُه هو، وهو في نفسِه المعنيُّ بهم المسؤول عنهم دون سواه؛ ففي الإضافة معنى الاختصاصِ اللُّغوي لا الاصطلاحيِّ.

لطيفةُ التَّصريح بالاسم العلم:

ذِكْرُ الله تعالى أسماءَ أوليائِه في القرآن الكريم تكريمٌ لهم وتشريف

في التَّصريح باسم الخليلِ ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ ﷺ في قوله تعالى: ﴿ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ تَشريفٌ له وتكريم؛ وذلك لِشرف ذِكْرِه ﷻ إيّاه وكريم عطائه له، و"اختار إبراهيم؛ لكونهِ شيخَ المُرْسَلين، كون النَّبيِّ ﷺ على سُنَّته في بعض الأشياء، وإنذار لقومه بما جرى من الضَّيف، ومِن إنزال الحجارة على المُذْنبين المضلّين قوم عاد"[2].

نكتة وصف الضَّيف بـ ﴿ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾:

الملائكة عند الله تعالى مُكَرَّمون، ومِن قِيَم الإيمان إكرامُ الضَّيف، ولو جُهِل

في وصف ﴿ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ بـ ﴿ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ تنويهٌ بمكانة الملائكة الكرام من اللّه تعالى، وأنَّهم كانوا عنده سبحانه "أهلَ كرم وشرَف"[3]، فـ "الملائكة مقرَّبون عند اللّه تعالى، كما قال: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦﴾ [الأنبياء: 26]، وقال: ﴿كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١﴾ [الانفطار: 11]"[4].

وفيه كذلك تنويهٌ بمكانة الأضياف عمومًا عند إبراهيمَ ﷺ، وأنَّ

---

(1) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 369.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 173.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 384.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 358.

ضيوفه يكونون محلَّ تكريمه؛ كناية عن كرمه ﷺ، وهو ما تقرَّر في صنيعه الكريم معهم، فـ "إبراهيم ﷺ وسارة خَدَماهُم بأنفسهما"[1]؛ ذلك أنَّه «مَن كانَ يُؤْمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ؛ فَلْيُكْرِمِ ضَيْفَهُ»[2].

معنى (أل) في ﴿ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾، ودلالةُ جمعه:

من أدَبِ الضّيافة إشعارُ الضُّيوف أنَّهُم ذو منزلةٍ عاليةٍ عندَ مُضيفهم

(أل) في ﴿ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ لبيانِ الكمالِ، فـ (أل) توحي بِتمام كرامتهم، ووفرة شرافتهم وعزَّتهم، وكأنَّهم دون سواهم هم المُكرَمون، وكأنَّ وصف المكرمين إذا أُطْلِقَ؛ لا ينصرف إلّا إليهم، ممّا يُبينُ عن منزلتهم عند الله تعالى، ثُمَّ عند إبراهيم ﷺ؛ إذْ بالَغ في إكرامهم حتّى أشعرَهُم بتفرُّدهم في نيْل هذه المنزلة عنده ﷺ.

نكتةُ المخالفة بينَ المؤصوف ووصفه:

من قيم الضّيافة إبداءُ المضيف اهتمامَه بكلِّ ضيفٍ على وجهِ الاستقلالِ

أُفْرِدَ ﴿ضَيۡفِ﴾ في اللَّفْظِ مع أنَّهم جماعةٌ؛ "إشارة إلى اتِّحاد كلمتهم"[3]، وإن كان لفظُ الضَّيْفِ يُطْلَقُ على المفردِ والجَمعِ، وفي مخالفة النَّظم الكريم بين الموصوف المفردِ لفظًا ﴿ضَيۡفِ﴾ ووصفه الجمع ﴿ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ بيانٌ لاجتماعهم في الضّيافة، وإفراد كلٍّ في الاحتفاءِ والإكرام، وهكذا يَفْعَل المُضيف الكريم، يخُصُّ كلَّ واحد من أضيافه بحفاوةٍ كبيرة؛ حتّى يُشْعِرَه بأنَّه كأنَّه الضَّيف الوحيد في المجلس، وهكذا يَفعل مع الجميع، فيَدور عليهم مُرحِّبًا ومبجِّلًا ومُحَيّيًا، ولا يُهمل واحدًا منهم انشغالًا بغيره.

نكتة البَدْء بقصَّة إبراهيم ثُمَّ لوط ﷺ:

البداءَةُ في سَرْد القَصص يكونُ بسَوْق الأنسَبِ فالأنسبِ للسّياق والمقام

بُدِئت قصصُ هذه السّورة الكريمة بقصَّة إبراهيم ﷺ، وإن كانت متأخِّرة عن قصَّة عادٍ؛ لأنَّها أقوى في غرض التَّسلية[4]، ولأنَّ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 525.
(2) رواه البخاري في صحيحه برقم: (6018)، ومسلم في صحيحه، برقم: (47).
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 461.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 12.

السّياق هنا للمحسنين، فبَدأ برأس المُحْسِنين مِن أهل هذه الأنباء، الَّذي أخبرته الملائكة ﷺ بما سَببُه معهُ، وإن كان على غير العادَةِ.

وأتبع قصَّتَه قصَّةَ لوطٍ ابنِ أخيه ﷺ؛ لاتِّصال ما بين قصَّتيهما في الزَّمان، ولمناسبة عذابِهم لِما أقسم به في أوَّل السّورة، فإنَّه سبحانه أمَرَ الذّاريات - وهي الرّياحُ - فاقتلعَتهم بِقُراهُم، وحَملَتها، كما تَحمل السَّحابَ، ثُمَّ كبَّتهم فرجَمَتهم[1].

تَهْيِئَةُ المُخاطَب لِـذِكْـرِ تَفاصيل الحدَثِ

وجه التَّعبير بـ ﴿إِذۡ﴾ الظَّرفيَّة:

﴿إِذۡ﴾ ظرفٌ يَستَحضر في الخيال صورةَ أحداث المشهدِ المطويِّ في الزَّمن الماضي، ويُهَيِّئ لِذكر تفاصيله، أي: اذكُر يا أيُّها الرَّسولُ "حين دخلَ ضيفُ إبراهيمَ عليه"[2].

و﴿إِذۡ﴾ هنا "ظرفٌ مقيِّدٌ لهذا الحديثِ أو الخبر، الَّذي كان مِنَ الملائكة مع إبراهيم، والمراد بالخبر الَّذي يورده الله ﷻ على النَّبيِّ ﷺ فيما كان بين الملائكة وبين إبراهيم ﷺ، هو هذا الخبر، الَّذي كان في هذا الوقت الَّذي دخلوا عليه فيه"[3].

للملائكة نواميسُهم وقوانينُهم وللبشر نواميسهم وقوانينُهم

دلالةُ التَّعبير بالدُّخول، ولطيفةُ صوغِه ماضيًا مجموعًا:

في التَّعبير بمفردة الدُّخول في قوله: ﴿دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾ إيحاءٌ بأنَّه تفاجأ بهم؛ وأنَّ لدخولِ الملائكة نواميسَ وقوانينَ تَختلف عن نواميسِ البشَرِ وقوانينِهم؛ وذلك كان من أسبابِ إنكارِه ﷺ في نفسِه إيّاهم، حين قال: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾، فدُخولهم على إبراهيمَ دونَ استئذانٍ دليلٌ على كرمِه، فقَد "كان بيته ﷺ مأوًى للطّارقين والأضياف؛ لأنَّهم دخلوا عليه مِن غير استئذانٍ"[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 460.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 525.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 515.
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 810.

وفي صوغ ﴿دَخَلُواْ﴾ ماضيًا إشارةٌ إلى أنَّ دخولهم كان فوريًّا ومباشرًا، وأنَّه طويَ سريعًا؛ دلالةً على جِدّيَّتهم في مباشرة المهمَّة الَّتي دخلوا عليه لتَنْفيذِها بلا إبطاءٍ.

وفي الجمع إيحاءٌ باستوائِهم في الدُّخول والجِدّيَّة في التَّنفيذ، واجتماعهم على ذلك، ويُستَأنس لذلك بما ذكرهُ البقاعيُّ في التَّعليل لإفراد ﴿ضَيۡفِ﴾ مع أنَّهم جماعة: "عُبِّر عنهم بلفظ الواحد؛ إشارةً إلى اتِّحاد كلمتهم"[1].

نكتةُ تقييدِ دخول الضَّيف بـ ﴿عَلَيۡهِ﴾:

في تقييد دخول ﴿ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ بالجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِ﴾ مزيدُ تشريفٍ له عليه السلام، فإنَّ دخولهم كان عليهِ من بين النّاس.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ﴾:

من آداب دخولِ البيوت المبادرةُ إلى إلقاء السَّلام؛ تطمينًا لأهل الدّار، والتماسًا لِبَرَكَتِهِ

(الفاء) في جملة: ﴿فَقَالُواْ﴾ فاء التَّعقيب، أي: بُعَيْدَ أن دخلوا؛ ألقَوا تحيَّة الإسلام، ولم يُبْطِئوا بها، هذا ظاهِرُ اللَّفظ، وبه قال بعضُ المفسِّرين[2]، ويمكن أن يكونوا قالوها قبل الدُّخول أصلًا، على حَذو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [النور: 61]، أي: إذا أرَدْتُم دُخولَها؛ "فابدؤوا بالسَّلام على أهلها"[3]، وذلك لأنَّ الآية قبلَها تقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾ [النور: 27]، فيكون معنى الآية: إذ قالوا: سلامًا، فدخلوا، ومثله قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ﴾ [المائدة: 6]، أي: "إذا أردتُم أن تقوموا إلى الصَّلاة؛ لأنَّه إذا قام إلى الصَّلاة؛ لم يَقْدِر على الغسل"[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 461.

(2) قال الماتريدي: "إنّما أمر بالسّلام بعد الدخول، فعلى ذلك هذا يستأذن للدخول، فإذا أذن له، فدخل، فبعد الدخول يسلّم عليهم، لأنّه لو سلّم أوّلًا، ثمّ استأذن، احتاج إلى أن يسلّم ثانيًا إذا دخل، فهذا الّذي ذكرنا أشبه بعمل النّاس وظاهر الآية، واللّه أعلم"، يُنظر: الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 540.

(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 258.

(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 2/ 339.

وعلى كلٍّ؛ ففي هذه (الفاء) دعوةُ الدّاخلين إلى المبادرة إلى إلقاء السَّلام؛ تطميناً لأهل الدّار، وإحياءً لتعاليم الدّين، والتماسًا لبركتها على الدّاخل والمدخول فيهِ والمدخول عليهِ.

دلالةُ صَوْغِ القول ماضيًا مجموعًا:

على الدّاخل بيتًا التّسليم عند الدُّخول أو قُبيله؛ لِطَمأنة أهلهِ ونَفْي توجُّسهم

في صوغِ فعل القولِ (قالوا) ماضيًا إشارة إلى تحقُّق قولِ الضَّيف المكرمين: ﴿سَلَٰمٗاۖ﴾، وتأكيدًا لتَسْليمِهم لحظةَ الدُّخول أو قُبيلها مباشرة؛ لأنَّ البَدْءَ بالسَّلام يوفِّر طُمأنينةَ النَّفس، ويَنفي التَّوجُّس؛ لذلك ندب إليه الدّينُ، ورغَّب.

نكتة تنكيرِ ﴿سَلَٰمٗاۖ﴾، وتوجيهُ نَصْبِه:

سلامُ أهل الإيمان عظيمٌ فخيم

في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٗاۖ﴾، أي: إنَّ الملائكةَ الكرام سلَّموا سلامًا[1]، أو دخلوا "مسالمين غيرَ مُحاربين؛ لِتَسْكُن نفسُه عليه السلام، أو أنَّه دعاءٌ بالسَّلامة له؛ لأنَّ التَّحيَّة بالسَّلام تقتضي السُّكون والأمان"[2]، قال الشاعر:

أظُلَيْمُ إنَّ مُصابَكم رَجُلًا *** أهْدَى السّلامَ تحيَّةً ظُلْمُ[3]

وفي السَّلام "يُؤْذِنونه عليه السلام بأنَّهم لا يريدون به سوءًا - بعد أن وقعَ في نفسِه ما وقع من دخولهم عليه هذا الدُّخولَ المفاجئ، من مشاعر الرّيبة، والخوف، وتوقُّع الأذى! كما يشير إلى ذلك ما جاء في قوله تعالى حكايةً عن إبراهيم عليه السلام في آية أخرى أنَّه قال: ﴿إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ٥٢﴾ [الحجر: 52]"[4].

وفي تنكير قول: ﴿ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾: ﴿سَلَٰمٗاۖ﴾ إيذانٌ بتفخيم سلامهم عليه وتعظيمه، وأنَّه (سلام)، والتَّقدير: نسلِّم عليك سلامًا مطمئنًّا.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 526.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 369.
(3) البيتُ للحارث المخزومي، يُنظر: يحيى الجبوري، شعر الحارث بن خالد المخزومي، ص: 28.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 516.

دلالةُ التَّعبير بفعل القول ماضيًا:

من القيم الّتي أرشد إليها القرآن ردُّ تحيّة المُحَيّي باهتمامٍ مُماثلٍ

واضِحٌ أنَّ ردَّ إبراهيم ﷺ على ضَيْفه "ردٌّ مقتضَبٌ موجَز في مقابل تحيَّتهم الموجَزة الخاطفة، وهو يَدُلُّ على ما وقع في نفس إبراهيم ﷺ مِن توجُّسٍ وريبة منهم"[1].

وفي التَّعبير بالقول الماضي في جملة: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ دلالةٌ على أنَّ ردَّه ﷺ جاء أيضًا باللِّسان قولًا مسموعًا، وأنَّهم تحقَّقوا سماعَه، وفي صوغه ماضيًا ﴿قَالَ﴾ دلالةٌ على الفوريَّة في الرَّدِّ، وأنَّه قال قولًا خاطفًا طوي محقَّقًا بقولٍ منهم خاطفٍ محقَّقٍ.

نكتةُ تنكيرِ ﴿سَلَٰمٌ﴾ ورفعِه:

المبالغةُ في التَّحيَّة نوعٌ من كرم الخليلِ ﷺ، وينبغي التَّأسّي به

في رَفْعه ﷺ كلمةَ التَّحيَّة ﴿سَلَٰمٌ﴾ امتثال لأفضل التَّحيَّتَيْن المأمور بهما المؤمنون، كما قال اللّه تعالى: ﴿فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾ [النساء: 86]، فحيّاهم بأحسنَ مِن تحيَّتهم من حيث كونُه سلامًا مستمرًّا دائمًا؛ إذ بَنى تحيَّتَهُ على جملةٍ اسميَّةٍ ثابتةِ الدَّلالة دائمة العطاء، لا على كونِها مفعولًا لجملةٍ فعليَّة متعلِّقة بزمنٍ يفوتُ[2].

فنصْبُ ﴿سَلَٰمٗاۖ﴾ في تحيَّتهم يُؤْذِنُ بأنَّه مفعولٌ به لفعل محذوفٍ - على وجه -، ورفْعُه ﴿سَلَٰمٌ﴾ في تحيَّته يُؤذِن بأنَّه ركنٌ من جملةٍ اسميَّة، والاسميَّةُ أبلغ من حيث ثبوتُها ودوامُها، لا انقضاؤُها وفواتُها كالفعليَّة؛ لذلك كانت تحيَّتُه أبلغَ التَّحيَّتَيْن وأفضلَهما.

وتنكير ﴿سَلَٰمٌ﴾ يؤذِنُ بعظمة هذا السَّلامِ في باب التَّحايا وفخامته وكماله، "كأنَّه قَصَد أن يُحَيّيهم بأحسن ممّا حَيَّوْه به أخذًا بأدب اللّه تعالى، وهذا أيضًا من إكرامه لهم"[3]؛ "لهذا قال أهل

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 516.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 125.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 401.

المعاني: إنَّ سلام إبراهيم أبلغُ من سلام الملائكة"[1]، وهذا أيضًا مظهَرٌ من مظاهر كَرَمِه عليه السلام.

توجيهُ إعراب ﴿سَلَٰمٗاۖ﴾ و﴿سَلَٰمٞۖ﴾:

ردُّ التَّحيَّة بأحسَنَ منها مِنَ المُبالغة في الأخْذِ بالأدَبِ والإكرام

أفاض العلماءُ في توجيه نَصْب الملائكة الكرام كلمةَ ﴿سَلَٰمٗاۖ﴾، ورأوا أنَّه نُصِب على المصدر، والتَّقدير: نُسَلِّمُ سلامًا، أو أنَّهم قالوا كلامًا سلامًا؛ سَلِمَ به المتكلِّم مِن أن يَلْغو أو يأثَم، فكأنَّهم لمّا دخلوا عليه؛ فقالوا حُسْنًا؛ سَلِموا مِن الإثم، وحينئذٍ يكون مفعولًا للقول؛ لأنَّ مفعولَ القولِ هو الكلام.

أو أنَّ ﴿سَلَٰمٗاۖ﴾ مفعولُ فعلٍ محذوفٍ تقديرُه: نبلِّغك سلامًا، ولمّا قالوا: نُبَلِّغُك سلامًا، ولم يَعلم إبراهيمُ عليه السلام أنَّه مِمَّن؟ قال: سلامٌ، أي: إن كان مِن اللّه تعالى؛ فإنَّ هذا منه قد ازدادَ به شَرَفي، وإلّا فقد بَلغني منه سلامٌ وبه شَرَفي، ولا أتشرَّف بِسلامِ غيره[2].

أمّا رفْع ﴿سَلَٰمٞۖ﴾؛ فعلى أنَّ المعنى: عليكم سلامٌ، فعَدَلَ به إلى الرَّفع بالابتداء لِقَصْد الثَّبات؛ حتّى تكون تحيَّتُه أحسنَ من تحيَّتهم؛ أخذًا بِمَزيد الأدب والإكرام، وقيل: ﴿سَلَٰمٞۖ﴾ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: أمري سَلامٌ[3].

توجيهُ القراءات في قولِه ﴿سَلَٰمٞۖ﴾:

ثراء المعاني بتعدد القراءات

قَرَأ حَمزَةُ والكِسائيُّ ﴿سِلْمٌ﴾ بِكَسْرِ السّينِ، وإسْكانِ اللّامِ مِنْ غَيْرِ ألِفٍ فيهما، وقَرَأ الباقونَ بِفَتحِ السّينِ واللّامِ وألِفٍ بَعْدَها"[4]. فالحجة لمن أثبت وفتح: أنه جعله من التحية والسلام، ومعناه: تسلما منكم تسلمًا. أو يريد: تركناكم تركًا، فكأنه قال: قالوا: تركًا. فردّ عليهم: ترك. ومنه قولهم: لا تكن من فلان إلا سلاما تسلم.

(1) القِنّوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 200.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 173 بتصرف.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 12.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/ 290.

معناه: إلا مباينا له متاركًا. فالأول: منصوب على المصدر. والثاني: مرفوع بالابتداء. والحجة لمن حذف الألف، وكسر السين: أنه جعله من الصلح والمسالمة؛ يريد قالوا: نحن سلم[1].

نكتةُ تنكير لفظ ﴿قَوۡمٌ﴾:

تصاريفُ المفردات القرآنيَّة يراعي دلالات جاراتها في السّياق

تنكير كلمة ﴿قَوۡمٌ﴾ في رَدِّ إبراهيم عليه السلام: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ يتَّسق مع الجهل بهم، ويلائم وصفَهم بـ ﴿مُّنكَرُونَ﴾؛ إذ لا يتأتَّى تعريفُهم مع الجهل بهم، فيقال مثلًا: سلامٌ أيُّها القوم المنكرون، فيكون في الكلامِ تناقُضٌ، و"رُفِع ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ بإضمار: أَنْتُم"[2].

نكتة وصف ﴿قَوۡمٌ﴾ بـ ﴿مُّنكَرُونَ﴾:

قصّةُ ضيف إبراهيم تُعَلِّمُ المُضيفَ التَّلويحَ لأضيافه بطلب التَّعارُف

وَصْفُ إبراهيمَ عليه السلام الـ ﴿قَوۡمٌ﴾ بـ ﴿مُّنكَرُونَ﴾ في ردِّه سلامَ الملائكة، يُشْعِرُ بِصدق واقعيَّته عليه السلام، وقوَّته في التَّعبير عمّا في نفسه، ومثل هذا يُقال في التَّرحيب بالضُّيوف، فيقال لهم: كأنّي بكُم لستُم من أهل هذه البلاد، ونحن نَجْهَلُكُم ونتطلَّع للتَّشرُّف بمعرفتكم، فـ "أُحِبُّ أن تُعَرِّفوني بأنفُسِكم"[3].

فـ "هو كالسُّؤال منه عن أحوالهم؛ ليَعرِفهم، فإنَّ قولك لمن لَقيتَه: أنا لا أعرفك! في قوَّة قولك: عرِّف لي نفسَك، وصِفْها"[4]، وهذا لا يقدح في كرم المُضيف، ولا يَغضُّ من أريحيَّة الضَّيف، بل هذا من بَسْط التَّحيَّة وملاطفة الضَّيف، وهو من لَباقَةِ المُضيف، وحُسْن أدَبه مع الأضيافِ.

وإنَّما نَكِرهم إبراهيم عليه السلام؛ لأنَّه رآهم على غير صورة البَشَر المعهودة، وعلى غير صورةِ الملائكة الَّذين كان يَعْرِفُهم، و﴿مُّنكَرُونَ﴾، أي: لا يُعْرَفون، أو يُخافون، يقال: أنكرتُه؛ إذا خفته[5].

(1) ابن خالويه، الحجة، ص: 189.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 526.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 810.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 41.
(5) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 370.

توجيه المتشابه اللَّفظيِّ:

تقريب الطَّعام من الضَّيف حصل بعد إنكاره لهم

قال الله تعالى في سورة هود: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ﴾ [هود: 70]، وذلك دالٌّ على أنَّ إنكارَهُ إيّاهم كان حاصلًا بعد تقريبِهِ العجلَ منهم، وقال هاهنا: ﴿قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥ فَرَاغَ﴾ بفاءِ التَّعقيب؛ وذلك يقتضي أنَّ تقريب الطَّعام منهم بعدَ حصولِ إنكارهم، ويجوز أن يحصُلَ أوَّلًا عنده منهم نُكْر، ثُمَّ زاد عند إمساكهم عن الأكلِ، والَّذي يدلُّ على هذا هو أنَّهم كانوا على شكلٍ وهيئةٍ غيرِ ما يكون عليه النّاس في العادةِ، وكانوا في أنفُسِهم عند كلِّ أحد مُنْكَرين، واشترَكَ إبراهيمُ عليه السلام وغيرُه فيه.

معنى (الفاء) في قول ﴿فَرَاغَ﴾:

من أدب القِرى المـبـادرةُ إلى تقديمه

(الفاء) في قول الله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ فاء التَّعقيب، القاطعةُ بكمال كرمه عليه السلام، وأنَّه مِن صنف الكُرماءِ البالغِ كرمُهم مبلغَ التَّمام؛ إذ لَم يُبْطِئ بالضّيافة، بل أسرع بها، وعجَّل، وعظَّمَها، ولم يحقِّرْها، فكانت عجلًا سمينًا مشويًّا، فالفاء تُشْعِر بأنَّه عليه السلام بادَر بالذَّهاب، ولم يُمهِل، وقد ذكروا أنَّ مِن أدبِ المُضيف أن يبادر بالقِرى من غير أن يَشْعُر به الضَّيْف؛ حذَرًا من أن يَمنَعَهُ الضَّيف، أو يَصيرَ منتظرًا[1].

سرُّ إيثارِ الفعل (راغ) دون غيره:

من أدبِ الضّيافة التَّسلُّل إلى إحضار القِرى في خِفية وخِفَّة

فاعِلُ الفعلِ (راغ) هوَ إبراهيم عليه السلام، والمعنى: أنَّهُ "ذهب في خِفْية وخِفَّة ومواضع سُترة عن أعيُنِهم، كما هو من آداب الضّيافة؛ خوفًا من أن يمنعوه، أو يكدِّر عليهم الانتظار"[2]، و"عن الفرّاء أنَّه لا ينطق بالفعلِ "راغ" حتّى يكون صاحبُه مُخْفيًا لِذهابه أو مجيئِه"[3]،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 13.

(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 463.

(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 526.

فهو ميلٌ إلى أمرٍ على وجهِ السِّرِّ، و"غَيْبَةُ المُضيف لحظةً عن الضَّيف مستحسَنٌ؛ ليستريح، ويأتي بدَفْعِ ما يحتاج إليه ممّا يَمنَعُه الحياءُ منه"[1].

وفي اصطفاء الفعل (راغ) هنا اتِّساقٌ عجيب مع (فاء) التَّعقيب؛ إذ لا يُتصوَّر خروج المُضيف فور دخولِ الضَّيف خروجًا مكشوفًا صريحًا، والقوم هنا قد دَخلوا قريبًا، وهو ﷺ يَجْهلهم، فالمجالُ للتَّعارف والتَّلاطُف وبسطِ القول، وما إلى ذلك ممّا يلائم المقام.

فجاء فعل الرَّوَغان مُنْبِئًا عن لُطْف تَسَلله من بينهم دون أن يَفطِنوا إلى خروجه، ولا يَتَحَرَّجوا من تكلُّفه لهم، وبذلك اتَّسقت دلالة الفعل (راغ) مع دلالة التَّعقيب للفاء في تصويرِ المَشهد الحريص على عدم إشعارهم بالكُلْفة، وعدم الإبطاء بالكرم في الوقت ذاتِه.

معنى ﴿إِلَىٰٓ﴾ في قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾:

ينبغي أن يتوفَّر المُضيف على إكرام ضَيْفِه عندَ نُزولِهِ به

﴿إِلَىٰٓ﴾ في قول الله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾؛ لانتهاء الغاية المَكانيَّة، وهي تُبَيِّن أنَّ غايته كانت التماسَ ما لدى أهلِه مِن ضيافة تليقُ بالضَّيف المكرمين، وهكذا المُضيف يلجَأُ إلى أهله؛ ليَتَدبَّر معهم الأمر، ويُحقِّق التَّعاون على توفير ما يُمكِنُ توفيرُه من قِرى الأضياف، وهكذا فَعَل إبراهيمُ ﷺ.

دلالةُ التَّعبير بالأهل في قوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾:

المــرأةُ لـزوجـهـا كالأهلِ جميعًا

الأهل في قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ يُرادُ به: زوجُه سارة؛ إذ كانت هاجَرُ وإسماعيلُ ﷺ قد أُسْكِنا مكَّة المكرَّمة، وأُطلق على الزَّوجة "أهل"؛ لأنَّها تقوم بالنِّسبة للرَّجل مقام صنوف الأهل جميعًا، في إعداد متطَلَّباته والقيام على شُؤونه، وكأنَّها صارت جمعًا من الأهل، وتمثِّلهم جميعًا، وقد يُراد بـ ﴿أَهۡلِهِۦ﴾: خدَمُه، كالرِّعاء"[2].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 177.

(2) القِنّوجيّ، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 200. "والرعاء جمع: راع"، يُنظر: ابن دُريد، جمهرة اللغة: (رعي).

دلالةُ الإضافة في ﴿أَهۡلِهِۦ﴾:

في إضافة (أهل) إلى ضميرِ إبراهيم ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ تنويهٌ بِدور أهلِ الرَّجل في تدبير أمر أضْيافِه، وإيحاءٌ بأنَّ الرَّجل دون أهله لا يوفَّق غالبًا إلى الكمال في إكرامِ أضيافه والقيامِ بشؤونِهم.

القرآنُ الكريم يُنَوِّه بدور أهل الرَّجل في تدبير أمر أضْيافِه

معنى (الفاء) في جملة: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٍ﴾:

(الفاء) في قول اللّه تعالى: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٍ سَمِينٍ﴾ دالَّةٌ على العطفِ مع التَّرتيبِ والتَّعقيبِ، وهي عاطفةٌ ما بعدها على ما قبلها مع طيٍّ ما بين رَوْغِه ﷺ إلى أهله وما بين مجيئه بعجل سمين، مِن تفاصيلِ الذَّبح، والسَّلخ، والشَّوي، ونحو ذلك؛ قَفْزًا إلى الحَدَث الأهمِّ لديه ﷺ، وهوَ مباشرة الإكرام: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٍ سَمِينٍ﴾.

من قيم الضّيافة سرعة تهيئتها، وإن كانت ذبحًا وسَلْخًا وشَيًّا

وهذه (الفاء) توحي بسرعة الخليل ﷺ في معالجة الذَّبح والسَّلخ والشَّوي سرعة يعرفها أهل الكرم الأصلاء من الحرص على عدم إشعار الضَّيف بالعبء والكُلْفة، وكلُّ ذلك ممّا تطويه (الفاء) في جملة: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٍ سَمِينٍ﴾.

دلالةُ التَّعبير بالفعل (جاء) دون (أتى):

عُبِّر بالفعل (جاء) في قول اللّه تعالى: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٍ سَمِينٍ﴾؛ إذ تحقَّق مجيئُه بالضّيافة، ونُفِّذت فعلًا لا قولًا، مع عِظَم ما بُذِل من جُهد، وما قُدِّم من تضحية، وكلتا الدَّلالتين من التَّحقُّق والبذل إنَّما يُلائِمُهما التَّعبير بفعل المجيء، لا فعل الإتيان.

المجيءُ يكون لما تحقَّق بالفعل

معنى (الباء) في قوله: ﴿بِعِجۡلٍ﴾:

(الباء) في قوله تعالى: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٍ سَمِينٍ﴾ باء التَّعدية، فقوله: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٍ﴾، أي: جَلَبَه، ومضى به، وتحتمل المعيَّة والمُصاحبَة، أي: جاءَ، وفي معيَّته عجلٌ سمينٌ؛ وذلك يَعْكِسُ سُرعة توالي أحداثِ الذَّبح وما تلاها، سُرعةً لا تكاد تُتصوَّر؛ إذ الذَّبح والسَّلخ والشَّيُّ وما

الكريم لا يَدْخُل على ضيفِه فارغًا

يتبعُ ذلك، يَستغرق جهدًا ووقتًا ليس بالقصير، ومع ذلك حين جاء عليه السلام؛ جاء بعجلٍ سمينٍ.

دلالةُ التَّعبير بـ (عجل)، ولطيفة تنكيرِه:

كرمُ المؤمنِ طبعٌ أصيلٌ فيه، تتجلّى أصالتُه في سُرْعَة البذل وعِظَمه

في اختيار الضّيافة عجلًا دلالةٌ على الكرم الوافر؛ إذ لم تكن عنزةً ولا شاةً مثلًا، فـ "مِن إكرام الضيف أن يُقَدَّم له أكثرُ مِمّا يأكل"[1]؛ وفي ذلك كنايةٌ عن حبِّه عليه السلام الكرمَ، وعن أصالتهِ فيه، وفِعْلِه إيّاه بِرغبةٍ صادقة، وإخلاصِ مُحِبٍّ، وفي تنكير (عجل) دليلٌ على استوائهِ واكتِماله وفخامته.

دلالة وصف (عجل) بـ ﴿سَمِينٍ﴾:

مَـن طُـبـع على الـكـرم؛ عـظَّـمَ ضيافتَهُ

مع أنَّ اختيار إبراهيم عليه السلام عجلًا لضيافة ضيفِه المكرمين، قد انتقى العجل السَّمين، أي: "ممتلئَ لحمًا وشحمًا"[2]، فصوغ ﴿سَمِينٍ﴾ صفةً مشبَّهةً يفيد المبالغة، وهذا صنيعُ مَن طُبِعَ على الكرم، وجُبل على حبِّ الضّيافة، لا مَن يُؤَدّيها واجبًا محضًا، وإلّا لاكتَفَى عليه السلام بما دون العجل، وبِغَيْرِ السَّمين، لكنَّه خليل اللّه تعالى، فيُنْفِقُ، ولا يخشى من ذي العرش إقلالًا.

و"وُصِفَ العجلُ هنا بـ ﴿سَمِينٍ﴾، ووُصِفَ في سورة هود بـ ﴿حَنِيذٍ ٦٩﴾ [هود: 69]، أي: مشويّ، فهو عجلٌ سمين شَواهُ، وقرَّبه إليهم، وكان الشِّواءُ أسرعَ طَبْخِ أهل البادية، وقام امرؤ القيس يذكر الصَّيد:

فظلَّ طُهاةُ اللَّحْم من بَين مُنْضِجٍ *** صَفيفَ شِواءٍ أو قديرٍ معجَّلِ[3]

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ﴾:

الكريم يُسعِده إكرامُه ضيفَه

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ فاء التَّرتيب والتَّعقيب، المؤذنة بسعادته عليه السلام بإكرامه ضيفَه الكرام، واصطفاء فعل التَّقريب

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 13.

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 20.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 359، والبيت من معلّقته، يُنظر: ديوان امرئ القيس، ص: 22، وفيه: "وظلّ" بالواوِ بدل الفاء.

يَدعم تلك الدَّلالة، ويقرِّر بلوغَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ في الكرم والجود مبلغًا لا مطمح وراءَهُ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل (قرَّب) ماضيًا مضعَّفًا:

من قيَم الضّيافة في الإسلام تقريبُها إلى الضَّيف حيث هو، لا انتدابهُ هو إليها

معنى ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾: أدناه منهم، ولم يَنتَدِبْهُم هُم إليه، ولم يَنْقُلْهم من مجلسِهم إلى موضعٍ آخرَ، بل جعل الطَّعام بين أيديهم، وهذا مِن تمامِ الإكرام للضَّيف، بخلاف ما يُطْعَمُه العافي والسّائل، فإنَّه يُدعَى إلى مكان الطَّعام.

ففي التَّعبير بفعل التَّقريب (قرَّب) في قوله: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ دلالةٌ على صِدْقِ كَرَمِه عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنَّه فعل ذلك الكرم والتَّقريب بدافعٍ ذاتيٍّ قويٍّ، ونيَّة مُحِبَّة لدعم الغُرباء وأبناء السَّبيل.

وفي صَوغ الفعل (قرَّب) ماضيًا إشارةٌ إلى صِدْقِ الفعل أيضًا؛ إذ بادَرَ بالتَّقريب، وحقَّقه، وصار التَّقريب في حيِّز المَقْطوعِ به النّافذ.

وفي تضعيف عين الفعل (قرَّب) مبالغةٌ في التَّقريب، وكأنَّه وضَعَهُ مُلْتَصِقًا بهم، فلا يتكلَّفون مَدَّ الأيادي طويلًا، وتلك أماراتُ الكرم منه عَلَيْهِ السَّلَامُ.

معنى (إلى) في قوله: ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾:

إطعامُ الضَّيف وتلذيذُه بالطَّعام غاية الكُرماءِ

(إلى) في قوله: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾؛ لانتهاء الغاية المكانيَّة، فقد كانت غايتُه عَلَيْهِ السَّلَامُ توصيلَ الكرَم ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾، وإطعامهم إيّاه، وتَلْذيذهم به، وسدَّ فاقَتهم، وهم عنده أبناءُ سبيل يحتاجون ذلك، ولم يكُن يَدري أنَّهم ملائكة كرامٌ لا يأكلون، ولا يشربون.

علَّةُ فصل قوله: ﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ عمّا قبله:

فُصِلَ قول الله تعالى: ﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ عن قوله: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ للاستئناف البيانيِّ، فيكون بين الجملتين شبهُ كمال الاتِّصال، فكان كأنَّه قيل: فماذا قال لهم حين لم يأكلوا؟ فجاء

مِـن أدب الاستضافة حضُّ الضَّيف على الطَّعام دون العزْم عليه فيه

الجواب: ﴿قَالَ﴾، أي: مُتأدِّبًا غاية التَّأدُّب ملوِّحًا بالاستغرابِ: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾، أي: منه؟[1]، فـ "في الكلام متروكٌ اكتُفي بدلالة الظّاهر عليه منه، وهو: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾، فأمسكوا عن أكله، فقال: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾؟"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالقول ماضيًا:

مِـن آداب الاستضافة إبداءُ الاهتمام بالضَّيف

جملة: ﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ بدلُ اشتمالٍ من قوله: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾[3]، وفَصْلُها عنه يُشعر بتَزامُنِهما وعدم الفَصْلِ بينهما؛ كرمًا منه عليه السلام.

وفي التَّعبير بفعل القول في جملة: ﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ إفصاحٌ منه عليه السلام عن شدَّة رغبته في أن يأكلوا، وحثِّه إيّاهم على الأكل من ذلك العجل السَّمين الحنيذ، وهذا مِن منهج الكرماء حين يقرِّبون الطَّعام إلى ضُيوفهم، يتعهَّدونهم بالتَّحيَّة والحفاوة، ويُبْدون الحِرْصَ على تناوُلِ الضَّيف مزيدًا من الطَّعام، وكلَّما استزاد من أكلِ الكريم؛ أشعرَهُ بالسَّعادة.

فالمُضيف هنا - وهو إبراهيمُ عليه السلام - مسرورٌ بأكلهم، غيرُ مسرور بتركهم الطَّعامَ، كما هي عادة بعضُ البخلاء المتكلِّفين، الَّذين يُحضرون طعامًا كثيرًا، ويكون نظرُه ونظر أهل بيته في الطَّعام متى يُمسِك الضَّيْفُ يدَهُ عنهُ[4].

معنى ﴿أَلَا﴾ في قوله: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾:

مـجـرَّد وجـود مـائـدة طعامٍ لا يُعدُّ إذنًا بالأكل، بل لا بُدَّ مِن العَرْض والحَضِّ

﴿أَلَا﴾ في قوله عليه السلام للضَّيف المكرمين: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ كلمةٌ واحدة استفهاميَّة، يُرادُ بها العرضُ والتَّحضيض[5]، أي: رغبةً في

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 26/ 360.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 527.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 359.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 177.
(5) القِنّوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 201.

حصول الفعل الَّذي تدخُل عليه، وهي هنا متعيِّنة للعَرْض؛ لوقوع فِعل (القول) بدلًا من فعل ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾، والعَرْضُ على الضَّيف عقِب وضْع الطَّعام بين يديه زيادةٌ في الإكرام بإظهار الحِرص على ما ينفع الضَّيف، وإنْ كان وضْعُ الطَّعام بين يديه كافيًا في تمكينه منه[1].

فقد "حضَّهم على الأكل شأنَ المُضيف الكريم، فقال لهم على سبيل التَّلطُّف وحُسْن العَرْض: ألا تأكلون من طَعامي؟"[2]، و"رَوَى مكحولٌ أنَّهم قالوا: لا نأكله إلّا بثمَن، قال: كلوا، فإنَّ له ثمنًا، قالوا: وما ثمنُه؟ قال: إذا وضَعْتُم أيديَكُم؛ أن تقولوا: بسم الله، وإذا فرَغْتُم؛ أن تقولوا: الحمد لله، قالوا: بهذا اختارك الله يا إبراهيمُ"[3].

دلالةُ التَّعبير بالأكل في قوله: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾:

الإفصاحُ عن غايةِ ما صنَعَ لهم

في التَّعبير بِمُفْرَدة الأكل الصَّريح في قوله: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ إفصاحٌ عن الغاية الَّتي لأجلها ذَبَح عليه السلام، وسلَخ، وشَوَى، وقرَّب الشِّواء، ودعاه إلى التَّصريح بالجميع أنَّهم "امتنعوا عنه، فخاف أن يكونوا سُرّاقًا؛ إذ لا يَمتنع عن التَّناول إلّا السُّرّاق"[4].

دلالةُ صوغ الفعل ﴿تَأۡكُلُونَ﴾ مضارعًا:

من كرم المُضيف عنايته بأكل الضَّيف وحضُّه عليه حتَّى يشبع

صوغ الفعل ﴿تَأۡكُلُونَ﴾ مضارعًا يدلُّ على رغبته عليه السلام في أن يأكل الضَّيف المكرمون، وأن يُجَدِّدوا الأكل حتّى يَشبعوا، وألّا يَخْتَصِروا الأكل في لُقَيْمات قليلةٍ، بل يَظَلّون يأكلون حتّى يَشْعُر هو بِشِبَعهم، وهكذا هُم الكرماء، يَشبعون؛ إذا شَبِعَ ضيفُهم، ويَسعدون؛ إذا سعد، ويَغتَمّون؛ إن رابَه شيء، أو أحزنه.

يقول ابن كثير: "وهذه الآيات انتظمت آدابَ الضّيافة، فإنَّه جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتَنَّ عليهم أوَّلًا،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 359.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 21.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 370.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 384.

فقال: نأتيكم بطعام؟ بل جاء به بسُرْعَةٍ وخفاء، وأتى بأفضل ما وجَدَ من ماله، وهو عجلٌ سمينٌ مشويٌّ، ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾، لَم يَضَعْهُ، وقال: اقتربوا، بل وضعَه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرًا يَشقُّ على سامعه بِصيغة الجزم، بل قال: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ على سبيل العرض والتَّلطُّف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيتَ أن تتفضَّل، وتُحسِنَ، وتتصدَّق، فافعل"[1]، فـ "العَرْضُ للأكل لا الأمر؛ إذ قال: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾، ولم يقل: كُلوا"[2].

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَأَوۡجَسَ﴾:

تَوفيرُ العِناية على العُنْصُر المذكور الأهَمِّ

(الفاء) في قوله: ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ﴾ فاءُ العَطْف، وهي عاطفةٌ على محذوفٍ من الكلام، والتَّقدير: ﴿فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٩١﴾، فلم يأكلوا، وظلّوا ممتنعين عن تناول الطَّعام، فأوجس منهم خيفة، وعلى ذلك فهذه الفاءُ عنصرُ إيجازٍ لغويٍّ فاعلٍ في الكلام؛ إذ يُختصَر بها كلامٌ كثير حيثُ يُقصَد توفيرُ عناية المتلقّي على تدبُّر المذكور؛ لأنَّه المطلوب الأهمُّ، ويبقى غيرهُ ملحوظًا لا يُعْيي إدراكُه.

دلالةُ التَّعبير بالفعل (أوجس) ماضيًا:

الطَّعامُ بين النّاس حُرْمة وذِمام، والامتناعُ منه وحْشَة وخِصام

التَّعبير بالفعل (أوجس) يُفيدُ أنَّ الخليل عليه السلام "أحسَّ في نفسه خوفًا منهم؛ لمّا لم يأكلوا ممّا قرَّبه إليهم"[3]؛ وذلك أنَّ مَن أكل؛ "حَفِظ حَقَّ المُؤاكلة"[4]، فـ "أكْلُ الضَّيف أَمَنَةٌ، ودليلٌ على انبساط نفسه، والطَّعامُ حُرْمة وذِمام، والامتناع منه وحْشَة، فخشي إبراهيم عليه السلام أنَّ امتناعهم من أكل طعامه إنَّما هو لِشَرٍّ يُريدونه"[5]، فالتَّعبير بالفعل (أوجس) هنا يترجم بدقَّةٍ ما حصل له عليه السلام في هذه اللَّحظات.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 34.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 177.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 105.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 177.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 178.

وفي صوغ الفِعْلِ ماضيًا دلالة على سكون الخوف على نفسِه عليه السلام وحصوله فيه، وانعقاد قلبه عليه فعلًا مقطوعًا به.

معنى (مِن) في قوله: ﴿مِنۡهُمۡ﴾:

بيانُ سببِ الخوفِ

(مِن) في قوله: ﴿مِنۡهُمۡ﴾ سببيَّة؛ لأنَّ الخوف إنَّما حصل له عليه السلام بسبب عدم أكلهم، أي: بسببهم، والدَّليل أنَّهم تداركوه بالتَّطمين، ومَحْوِ سبب الخوف، فقالوا: لا تخف، نحن ملائكة الله تعالى، جئنا نُبَشِّرك بغلام عليم.

لطيفةُ تقديم ﴿مِنۡهُمۡ﴾ على المفعول ﴿خِيفَةٗۖ﴾:

انحصارُ سببِ الخوفِ في امتناعِهم عن الأكلِ

في تقديم الجارِّ والمجرور ﴿مِنۡهُمۡ﴾ على المفعول ﴿خِيفَةٗۖ﴾، في قوله تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ﴾، قصرُ سببِ إيجاسه خيفةً على كونه منهم، قَصْرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا؛ إذ لا مقتضي لإيجاسه خيفةً مِن أيِّ شيءٍ آخرَ حينئذٍ؛ لأنَّه كان حينئذٍ منبسطَ النَّفس، سعيدَ القلب نشيطًا في إكرامه ضيفَه حتّى رابه امتناعُهم عن الأكل.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿خِيفَةٗۖ﴾ دون (خوفًا)، ونكتة تنكيره:

التَّعبيرُ القرآنيُّ يدلُّ على أنَّ الخيفة أشدُّ من الخوف

عبَّر النَّظم الكريم في هذا السّياق بـ ﴿خِيفَةٗۖ﴾ لا (خوفًا)؛ لأنَّ "الخيفة: الخوفُ الشَّديد، الَّذي يَظْهَرُ في الهيئة"[(1)]، وهو عليه السلام قد "خاف، وأخذته الرِّعدة"[(2)]، بل و"بَيَّنَ لهم أنَّه خائفٌ منهم، فـ ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ٥٢﴾ [الحجر: 52]"[(3)]، بل خاف ﴿خِيفَةٗۖ﴾ "عظيمة؛ لِما رأى مِن أحوالهم، وشاهَد من جلالهم"[(4)].

أمّا التَّعبير بالخوف؛ فلا يبلُغ ذلك المبلغ من الرِّعدة؛ ولذلك لَمّا نفى الله تعالى عن أهل الجنَّة الخوفَ؛ نفى الأدنى منه؛ تنبيهًا على نفي الأعلى بطَريق الأولى، وذلك في مثل قولهِ تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/ 3730.

(2) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 4/ 130.

(3) الشنقيطي، العذب النمير: 3/ 333.

(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 9/ 330.

هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨﴾ [البقرة: 38]، وقوله تعالى: ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٩﴾ [المائدة: 69].

علَّةُ فصل جملة: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ﴾ عمّا قبلها:

أثرُ الاستِئنافِ البَيانيِّ في مُتابعة شَوقِ المُتَلَقّي

فُصِلت جملة: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ﴾ عمّا قبلها؛ لكونِها استئنافًا بيانيًّا، فيكون بين الجملتين شبهُ كمال الاتِّصالِ؛ إذ مِن شأن ما قبلها أن يُثير سؤالًا يقول: وماذا كان ردُّ فعلهم، وقد رأوه خائفًا خوفًا شديدًا بلغ به حدَّ الرِّعدة؟ فجاءت جملة: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ﴾ مُجيبةً عن هذا السُّؤال المتوقَّعِ من المخاطَبين.

دلالةُ فعلِ القول الماضي:

من المقامات ما يقتضي المعالجة بالقول الصَّريح الفوريِّ

في التَّعبير بفعل القول في جملة: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ﴾ تصريحٌ بأنَّهم تداركوا الأمر إفصاحًا، ونَطَقوا بهذا القول ﴿لَا تَخَفۡۖ﴾، فمِن شأن الإفصاحِ بالقول والجهر به حينئذٍ أن يُسَكِّن النَّفْس، وينتزع منها الخوفُ، وذلك ما كان من الضَّيف المُكْرَمين فعلًا.

وصوغُ فعلِ القَوْلِ ماضيًا يوحي بسرعة معالجتهم الموقفَ، وقولهم: ﴿لَا تَخَفۡۖ﴾ قولًا فوريًّا محقَّقًا، كأنَّه مَضى قبل أن يَقولوهُ.

معنى ﴿لَا﴾ في قوله: ﴿لَا تَخَفۡۖ﴾:

المُبادرَةُ إلى تَطْمين الخائفِ

﴿لَا﴾ في قول الضَّيف المكرمين ﴿لَا تَخَفۡۖ﴾ ناهيَةٌ، غرضُها تسكينُ نَفْسِه، وتهدِئَةُ إيجاسِه عليه السلام، وليس غرضُها الإلزامَ والقهرَ على سبيل النَّهي الحقيقيِّ؛ لأنَّ المقام لعَكْسِه أصلًا، وقولهم: ﴿لَا تَخَفۡۖ﴾ يَدُلُّ على أنَّهم لَمَحوا آثارَ الإيجاس على وجهه، فبادروا بتطمينه بتلك الصّيغة القويَّة: ﴿لَا تَخَفۡۖ﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الخوف مضارعًا:

في النَّهي عن الخوف الصَّريح استلالٌ له من نَفْسِه عليه السلام،

التّطمينُ من مقدِّمات التّبشير

وتطمين بأنَّه لا داعيَ للخوفِ، ولا مجال له؛ لأنَّنا رسلُ ربِّك، وهي مِن لوازم التَّبشير.

وكما تسلَّطت أداةُ النَّهي ﴿لَا﴾ على مادَّة الخوف؛ كذلك تسلَّطت على صيغة المضارعة في الفعل ﴿تَخَفۖ﴾، فأحالت الدَّلالتين إلى ضدَّيهما، فالخوفُ استَحالَ طُمأنينةً، وتَجَدُّدُه صار دوامًا وثباتًا لهذه الطُّمأنينة في نفسه، وكذلك تفعل (لا) النّافية مع المضارع.

وفي قولهم له: ﴿لَا تَخَفۖ﴾ "إظهارُ العُذْرِ عند الإمساك عن الطَّعام، وتحسين العبارة في العُذر"[1].

معنى الواو في قوله: ﴿وَبَشَّرُوهُ﴾:

التّناسُب بين المعاني القرآنيَّة سِمَةٌ جليَّة

(الواو) في قوله: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ عاطفة، تجمَعُ بين القولِ: ﴿لَا تَخَفۖ﴾ والبِشارة بِغُلام عليم، فجمَعَت فِعْلَين صادرَيْنِ من الملائكة الكرام إلى إبراهيم عليه السلام جَمعًا سلبَ الخوفَ بالبِشارة، وهما مطلبانِ مُرْتَبِطان ارتباطًا وثيقًا؛ لأنَّ تهدئة النَّفس وإزالة الخوف منها شرطٌ لإلقاء الخبر الثَّقيل، والتَّناسُب بين الفعلين واضح والجامع متين، فكلاهما لإبراهيم عليه السلام خيرٌ، خيرٌ عاجلٌ تَحقَّق في الحالِ، وخيرٌ عاجل أيضًا يتحقَّق بعد مُدَّة الحَملِ المعتادِ، "ويُرْوى أنَّه إنَّما عرف كونَهم ملائكةً استدلالًا من بشارتهم إيّاه بِغَيْبٍ"[2].

دلالةُ فعلِ البِشارة ماضيًا مضعَّفًا:

من أدب الاعتذارِ عن تناولِ طَعام المُضيفِ نسبَةُ المانعِ إلى المعتذِر

في التَّعبير بفعل التَّبشير في قوله: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ دلالةٌ على أثَر الخبر على انبساط أسارير الوجه، ونُضرة البَشْرَة، وانفراجة السَّعادة، وتضعيف عين الفعل في جملة (بَشَّروه)، يوحي بقوَّة أثر فعل التَّبشير في نفسه عليه السلام، ويلائم عظمة البِشارة، فإنَّها

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 177.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 178.

بغلام "ذَكَرٍ؛ لأنَّه أسرُّ للنَّفس وأبهج"[1]، وفيه فضلًا عن ذلك أهمُّ الصِّفات النّافعة، وهي كونُه عليمًا.

ويُلْحَظ أنَّ الملائكة الكرام "فهَّموه عليه السلام أنَّهم ليسوا ممَّن يأكلون، ولم يقولوا: لا يصلح لنا الطَّعام والشَّراب"[2]، وأنَّ المانع عندهم وبسبَبٍ منهم، لا بسبب نوع الأكلِ أو جَوْدَته.

فائدةُ تقديم البِشارة على الإخبار عن إهلاكِهم قومَ لوط:

دَرْءُ المفاسِدِ مقدَّم على جَلْبِ المَصالحِ

قَدَّم الضَّيفُ المكرمون البشارةَ بالولد على الإخبار بإهلاك قوم لوطٍ؛ "ليُعْلم أنَّ اللّه تعالى يُهلكهم إلى خَلَفٍ، ويأتي بِبَدَلهم خيرًا منهم"[3]، وهكذا يراعي النَّظم الكريم ترتيب المعاني بحسب ترتيب الأغراض من الكلام، و"في وقوع البشارة بعد التَّأنيس إشارةٌ إلى أنَّ دَرْءِ المفسدة أهمُّ مِن جلب المصلحة"[4]، و"اللّه تعالى لمّا قدَّر أن يُهلك قومًا كثيرًا وجمًّا غفيرًا، وكان ذلك ممّا يُحزن إبراهيمَ عليه السلام شفقةً منه على عباده، قال لهم: بشِّروه بِغُلام يُخرَج مِن صُلبه أضعافَ ما يُهلَك، ويكون من صلبه خروج الأنبياء عليهم السلام"[5].

معنى الباء في قوله: ﴿بِغُلَٰمٍ﴾:

كـرامـاتُ اللـه تـعـالى تُفاجئ عـبـادَهُ المؤمنين فوق ما يتخيَّلون وقـتـمـا لا يحتسبون

(الباء) في قيد التَّبشير ﴿بِغُلَٰمٍ﴾ باء السَّببيَّة، أي: بشَّروه بسبب هِبَةِ اللّه تعالى إيّاه غلامًا متميِّزًا بالعلم وفِقه الدّين والشَّريعة، وأكرِم بها من بِشارة لشَيْخٍ كبيرٍ! ابتُلي في ابنهِ الآخر إسماعيل بالذَّبح، فأجاب، فكوفِئَ بحياته، وإن كان هنالك بعيدًا في مكَّة، فها هو يُبَشَّرُ بِغلامٍ آخرَ هو إسحاقُ عليه السلام جميعًا.

وفي تلك البِشارة تنبيهٌ إلى أنَّ كراماتِ اللّه تعالى لعباده المؤمنين تأتيهم فوق ما يتخيَّلون، ووقتما لا يَحْتَسِبون.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 13.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 177.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 177.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 14.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 174.

البِشارَةُ بالولَدِ الذَّكر رفيعِ القَدْرِ

دلالةُ التَّعبير بـ (غلام) دون (ولد)، ونكتةُ تنكيره:

المقصودُ بالبِشارة هنا إسحاقُ؛ لأنَّ البشارةَ كانت بالولدِ مِن سارةَ، وإسماعيلُ لهاجَرَ لا لِسارةَ[1]، وقد "بيَّن في آية أخرى، فيمَن كانت البِشارة؛ حيث قال: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ﴾ [هود: 71]؛ فدلَّ أنَّ البِشارة إنَّما كانت بإسحاق"[2].

والغلام: يُطلق على الصَّبيِّ مِن "حين يولد إلى أن يشبَّ، أو حين يقارِب سِنَّ البلوغ، ويُطلق على الرَّجُل مجازًا"[3]، وتسميةً لهُ "باسم ما كان عليه، كما يقال للصَّغير: شيخٌ مجازًا، باسم ما يؤولُ إليه"[4].

وفي التَّعبير بالغلامِ دون الولدِ دلالةٌ على أنَّه ولدٌ ذكرٌ، بخلافِ لفظ الولدِ؛ فيُطلق على الذَّكر والأُنْثى، وفي تنكيره إيماءٌ إلى رفعةِ شأنه وجلالةِ قدره.

العلمُ رأسُ الأوصاف ورئيسُ النُّعوت

نكتةُ وصف (غلام) بـ ﴿عَلِيمٖ﴾ على زنة (فعيل):

في وصف (غلام) بـ ﴿عَلِيمٖ﴾ مبالغةٌ في اتِّصافه بالعِلم، وأنَّ العِلمَ يكونُ "صفةً بارزة من صفات إسحاق، كما كان الحِلم الصِّفةَ البارزة في إسماعيل، كما يقول سبحانه: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١﴾ [الصافات: 101]"[5]، فجمَع للخليلِ بين بشارتين في واحدةٍ هُما (غلام) و﴿عَلِيمٖ﴾، وذلك من شأنه أن يُفعِمَهُ عليه السلام بالسَّعادة والحبور بدلًا ممّا كان مِن خيفةٍ ورعدة، والأصل فيمَن يولَدُ ألّا يكونَ ذا علم، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [النحل: 78]، فيكون وصفُ العليم باعتبار ما يكونُ.

ويجوزُ أن "يولد عليمًا، يؤتيه اللّه تعالى علمًا في بطن أمِّه،

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 527.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 385.
(3) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (غلم).
(4) الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: (غلم).
(5) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 517.

وإذا وُلِدَ في صِغَرِه، ولله تعالى أن يُؤْتيَ العلم من يشاء في حالِ الصِّغر والكبر، ألا ترى أنَّه قال ﷻ في عيسى عليه السلام: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢﴾ [مريم: 12]"(1).

وفيه بِشارة أنَّ الغلام يبلُغ، ويَعلم(2)، وقد "تركوا سائر الأوصاف من الحُسن والجمال والقوَّة والسَّلامة، واختاروا العلمَ إشارةً إلى أنَّ العلمَ رأسُ الأوصاف ورئيسُ النُّعوت"(3)، و"لأنَّها الصِّفة الَّتي يَختصُّ بها الإنسان الكامل لا الصّورة الجميلة والقوَّة ونحوهما"(4)، و"في صيغةِ المُبالغَة مع حَذْفِ المعمولِ ما لا يَخْفى ممّا يوجِب السُّرور"(5).

توجيهُ المُتشابِه اللَّفظيِّ:

بسطُ الحديث مَظِنَّةُ التَّفصيل وتعديدِ النِّكات

لم يُبيِّن هاهنا المبشَّر به، وفي قوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ [هود: 71] ذُكِر باسمه، وهو إسحاق، ولم يقل هاهنا: إنَّ القومَ قَوْمُ مَن؟ فقال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٣٢﴾ [الذاريات: 32]، وفي سورة هودٍ قال الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠﴾ [هود: 70]، وفي الجملة مَن يتأمَّل السّورتين يَعلم أنَّ الحكاية محكيَّة في سورة هودٍ على وجهِ البَسْطِ، فذُكِرَ فيها النُّكتة الزّائدة، ولم يُذْكَر هاهنا(6).

تبشيرُ أحد الزَّوجين بشارةٌ لِكِلَيْهِما

وجاء في سورة هودٍ عليه السلام أنَّ البشارة كانت لامرأته؛ إذ قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ [هود: 71]، وذكر في هذه السّورة أنَّ البشارة كانت لإبراهيم عليه السلام، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾؛ لأنَّه إذا بُشِّر أحدُهما بالولد مِن الآخر؛ كانت البشارةُ لهما جميعًا(7).

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 385.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 402.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 177.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 13.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 14.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 176.
(7) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 385.

نكتةُ تركِ الملائكة إبراهيمَ عليه السلام حتّى أتى بالعجل مشويًّا:

كرمُ الضّيافة، والمبالغةُ فيه من شيَمِ الصّالحين

من المعلوم أنَّ الوقت الَّذي يتَّسع لذبح عجلٍ سمين، وسَلْخِه، وشيِّه، قد يمتدُّ إلى نَحوِ رُبعِ النَّهار، والنَّظم الكريم لم يَذْكُر أنَّ الضَّيف المكرمين استعجلوا الخليل خلال هذه المدَّة، وإنَّما تركوه يجهِّز القِرى، وفي ذلك قصدُ تعليم النّاس كرمَ الأضياف عَمَليًّا، وبيان جواز المبالغة فيه، وضرورة توفُّر الرَّغبة لدى المضيف الكريم في أن يَتناول ضيوفُه أكلَه.

ثمَّ إنَّ إبراهيم عليه السلام كان قد تسلَّل بلُطْفٍ دون استئذانٍ، بل دون إشعارهم، وغاب عنهم طَويلًا؛ ممّا يجعل انتظارَهم إيّاه كلَّ تلك المُدَّةِ لافِتًا، ويدعَم قَصْدَ تعليم النّاس وجوبَ كرَمِ الضّيافة، ووجوب صبْرِ الضّيوف على المضيف.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَأَقۡبَلَتِ﴾:

تَلَقّي ما ظاهرُه إنكارُ الحقِّ بالبيان اللَّطيف خُلُقٌ كريم

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ﴾ فاء التَّفريع، فإنَّ سارةَ امرأةَ إبراهيمَ "كانت تقِفُ قريبًا من إبراهيمَ وضَيْفِه؛ بحيث تسمَعُهم ولا يرونها، فلمّا سَمِعَت البشارة؛ دُهِشَت، ونَسيَت ما ينبغي منها"[1]، وحصل منها ما حصل من صكِّ الوجهِ وضربه، وإبداء العجب والخجلِ، كما قال الله تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ﴾ [هود: 72].

ولم تُخطِّئْها الملائكة مجابَهةً، بل أزالت عجَبَها بالحكمة، وقوَّت عزيمتَها على مواجهة النّاس بالحَملِ والولادة بأنَّه أمرُ الحكيم العليم، وأنَّها رحمتُه وبركاته على أهل بيتِ النُّبوَّة؛ وذلك يُعَلِّمُ الخُلُق الكريم، ويربّي السُّلوك القويم على تلقّي أثر الخبر الثَّقيل بهدوءٍ وبيان وتقويمٍ.

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1098.

دلالةُ التَّعبيرِ بِفِعْلِ الإقبال ماضيًا:

عِظَمُ خَبَرِ البِشارة يستحقُّ العُجبَ والاندهاشَ

التَّعبيرُ بفِعْلِ الإقبالِ في قوله: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ يحتَمِلُ أن تكون (أقبلت) بجَسَدِها نحوَهم، و"كانت تَقِفُ قريبًا من إبراهيمَ وضَيْفه بحيث تسمَعُهُم، ولا يرونَها"(1)، "قال الحسَن: أقبلت إلى بَيْتِها، وكانت في زاوية تَنْظُر إليهم؛ لأنَّها وجدت حرارةَ الدَّم، فلطَمَت وجهها من الحياء"(2)، فهو إقبالٌ حسّيٌّ حقيقيٌّ.

ويحتَمِل أن تكونَ أَقْبَلَت باهْتِمامها، وهي باقيَةٌ في مَكانِها، قال ابنُ جريرٍ: "وليس ذلك إقبالَ نُقْلَةٍ مِن موضعٍ إلى موضعٍ، ولا تَحوُّلٍ مِن مكانٍ إلى مكانٍ، وإنَّما هو كقولِ القائلِ: أقبَلَ يَشْتُمُني، بمعنى: أخَذ في شتمي"(3)، فهو إقبال معنويٌّ مجازيٌّ، وفي الحالَيْن يدلُّ فعلُ الإقبال على تمام العِنايَةِ بالخبَرِ المبشَّر به، وعلى شدَّة عجبها منه.

ويحتَمل أنَّها "أقبلت على أهلِها، وذلك لأنَّها كانت في خِدْمَتِهم، فلمّا تكلَّموا مع زوجها بِولادتها؛ استحيَت، وأعرضت عنهم، فذكر الله تعالى ذلك بلفظ الإقبال على الأهل، ولم يَقُل بلفظ الإدبار عنِ الملائكة"(4).

وفي صَوغ فعل الإقبال (أقبلت) ماضيًا دلالَةٌ على شِدَّة تأثير البِشارة عليها، وسرعة إقبالها؛ إذ "لمّا سمِعت البِشارة؛ دهشت، ونسيت ما ينبغي منها"(5)، وهكذا عطاءُ الكريم ﷻ يُسعِد، ويُدهِشُ.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿ٱمْرَأَتُهُۥ﴾ دون (زوجته):

الزَّوجةُ في القرآنِ مَن تتكامَلُ لحياتها الزَّوجيَّة أسبابُ السَّعادة

في التَّعبير بـ ﴿ٱمْرَأَتُهُۥ﴾ دون (زوجته) إشارة إلى ما كانت عليه من العُقم وعدم الاستعداد للحَملِ والإنجاب حتّى تلك اللَّحظة، فقد

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1098.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 402.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 528.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 177.
(5) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1098.

جرى تسمية الزَّوجة بالمرأة حين تَفْتَقِر حياتُها الزَّوجيَّة إلى بعض أسباب السَّعادة، كأنْ تكون عاقرًا لا تلد، أو تكون علاقتها بزوجها قائمةً على غير الحُبِّ والودِّ، أو يختلف ديناهُما.

ويُعبَّر بالزَّوجة حين تتكامل بين الزَّوجين أسباب السَّعادة، مثل الحُبِّ، والودِّ، والإنجاب، ونحو ذلك[1].

دلالةُ الإضافةِ في ﴿ٱمۡرَأَتُهُۥ﴾:

اختصاصُ سارة بشأنِ الحَملِ والإنجابِ

الإضافة في ﴿ٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ تفيد اختصاصَ سارة بإبراهيمَ عليه السلام، وأنَّها هي المعنيَّة الأولى بأمر الحَمل والإنجاب دون سواها، فهي المتوجِّسة من كلام النّاس في حملها في تلك السِّنِّ المتأخِّرة.

معنى ﴿فِي﴾ في القيد ﴿فِي صَرَّةٖ﴾:

البشائرُ العظيمة تلفُّ من يتلقّاها من أصحابها في دهشة كبيرة

حرف الظَّرفية ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي صَرَّةٖ﴾ مصوِّر معبِّر، فهو "للظَّرفيَّة المجازيَّة، وهي الملابسة"[2]؛ إذ يصوِّر زوجةَ الخليل عليه السلام بأنَّها قد أقبلت على حالٍ من الدَّهشة، كأنَّها مغمورةٌ غارقةٌ فيها، على أيِّ تأويل من تأويلاتِ تلك الصَّرَّة العجيبة.

وهكذا تَلفُّ الأخبارُ العجيبة والبشائر العظيمة من يتلقّاها غالبًا مِن أصحابها في حالٍ مِنَ الدَّهشة، فلا يكادون يضبِطون سُلوكَهُم وأقوالهم وردود أفعالِهم.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿صَرَّةٖ﴾، ولطيفة تنكيرها:

آثارُ البشائر الكبيرة تتكاثر على أصحابها - وخاصَّةً النِّساء - فينبغي مراعاتُها

قوله تعالى: ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ﴾ يحتمل أن تكون امرأة الخليلِ عليه السلام قد أقبلت متعجِّبة في جماعةٍ مِن صوَيْحِباتٍ لها، جِئْنَ معها يُشاركْنَها تَعجُّبها ببشارتها، أو أن تكون هي قد أقبلت في صَيْحَةٍ ورَنَّةٍ[3] وضَجَّة[4] وتأوُّهٍ[5]، وولولةٍ؛ إذ قالت: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠

(1) محمد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 278 - 280.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 360.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 528.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 386.
(5) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 371.

عَجُوزٌ﴾ [هود: 72]، وكذا أقبلَت في ضجيجٍ وجَلَبةٍ وثورةِ نَفْسٍ، حملتها عليها شدَّةُ وقْع البشارة، واستحضارُ الخَجَل مِن مواجهة المجتمع بالحَبَل والولادة، ويفيد التَّنكير هنا شدَّةَ الصّياح، وعِظَم التَّأثُّر.

وهكذا تتزاحم آثارُ البشائر الكبيرة على أصحابها، وخاصَّةً إذا كُنَّ نساءً، فلتُراعَ ظُروفهنَّ حينئذٍ، وليُرفقْ بهنَّ، وذلك من عطاء النَّظم الكريم وفوائده الدَّقيقة.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا﴾:

أثر حُروفِ المعاني في بيانِ دقائِق المَعاني

(الفاء) في قوله: ﴿فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا﴾ عاطفة للتَّرتيب والتَّعقيب، وفيها مَعْنى السَّببيَّة أيضًا؛ تُسَبِّبُ صكَّها وجهَها، وتُرَتِّبُه على إقبالها بِجَسَدِها أو باهتمامها، ترتيبًا مباشرًا حتّى لكأنَّهما حدثان متلازمان مُتَداخلان؛ ولذلك قد يكون في الكلام قَلْبٌ، فيكون المعنى: فصكَّت وجهها، وأقبلت قائلة: يا ويلتى... فإذا كان "صَكُّ الوجه هو لَطْمه تِلقائيًّا عند وُرود أمرٍ عجيب غير متوقَّع"[1]، فإنَّه التَّصرُّفُ الأوَّلُ في هذه الحال، وهو المناسب لوقع مثلِ هذا الخبر حينَ يُسمَع.

دلالةُ التَّعبير بفعل الصَّكِّ ماضيًا مضعَّفًا:

الإشارَةُ إلى شِدَّة وقْعِ البِشارَة عليها

صكُّ الوجه: ضرْبُه باليد، أو لطمُه في غير قَصد، وعن ابنِ عبّاسٍ أنَّها "لَطَمَت، أو ضَرَبَت بيدِها جَبْهَتَها تعجُّبًا"[2]، "وهذا مستعملٌ في النّاس حتّى الآن"[3]، والَّذي حَمَلَها عليه "تلاشي أسبابِ الولد في عِلْمها بسبب العادة"[4]؛ حياءً من أن تَحيضَ، وتحبل، وتلد في هذه السِّنِّ الكبيرة[5].

وفي صَوْغ فِعل الصَّكِّ ماضيًا (صكَّت) دلالة على قوَّة الدَّهشة،

---

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 518.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 529.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 178.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 464.

(5) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 15.

والتَّضعيف فيه يصوِّرُ قوَّة الصَّكَّة؛ كنايةً عن شدَّة وقع البشارة على نفسها؛ حياءً من الحمل والوضع في سنِّها هذه، أو شدَّة ابتِهاجها وسعادتها بالبشارة، وتعجُّبها من عَظَمَتِها.

دلالةُ صَكِّ الوجه بالذّات:

الجمعُ بينَ شدَّة الفرَحِ بالبِشارَة، وشـدَّةِ الخجَلِ من كلامِ النّاس

في صكِّ امرأة إبراهيمَ عليه السلام وجهَها بالذّات دونَ بقيَّة جِسْمِها دلالةٌ على أنَّ ذلك الصَّكَّ كان إلى الابتهاج والسُّرور أقرب، وفيه كنايَةٌ عَن شدَّة فرَحتها وسعادتها بذلك الخبر الحبيب، وإنَّما كانت شدَّةُ وقعِه عليها في المقابل خَجَلًا مِن كلام النّاس، وإلّا فالصَّكُّ للفَضيحة يكون للخدِّ أو الفخِذ، ثمَّ إنَّ الوجه هو مقدَّم الرَّأس، وبه يواجَهُ النّاسُ[1]، فضَرَبَتْهُ بأطراف أنامِلها تعجُّبًا واستهوالًا[2].

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَقَالَتۡ عَجُوزٌ﴾:

التَّأثُّر بالبِشارة قولًا وفعلًا

(الواو) في قوله: ﴿وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ عاطفةٌ؛ إذ جمعت امرأةُ الخليل عليه السلام بين الفعل والقولِ، فـ (صكَّت) و(قالت) كلاهما دليلُ شدَّة العَجَب، وشدَّة وقْع البشارة عليها.

دلالةُ التَّعبير بالقولِ ماضيًا:

التَّصريحُ بما في القَلْبِ مِن أثَرِ البِشارَةِ

التَّعبير بالقول ماضيًا في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ دليلٌ على قوَّة البشارة وشدَّة وقْعِها على نفسِها وقلبِها وكيانها كلِّه؛ إذ إنَّها لم تتمالك نفسَها أن تحرَّكت مقبلة بكيانها كلِّه، جسمِها واهتمامِها، وقد صكَّت وجهها، وقالت ذلك بألفاظٍ صريحَةٍ، وبصَوْتٍ مسموعٍ، يحمل في نَبراته ما أُفعِمت به نفسُها، ففاض على لسانِها.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿عَجُوزٌ﴾، ونكتة تنكيره:

وصْفُ ﴿عَجُوزٌ﴾ مشتقٌّ من العَجْز، ويُطلق على كِبر السِّنِّ؛ لِملازمة العجز له غالبًا[3]، والعجوزُ: هي الَّتي بلغت سنَّ العجز والقصور،

(1) فخر الدين قباوة، المفصّل، ص: 1845.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 464، وفخر الدين قباوة، المفصّل، ص: 1845.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 361.

ووزنه: فَعول؛ مبالغةً في اسم الفاعلِ مِن مصدر (عَجَز)؛ عُبِّر به عن اسْمِ الذّات المؤنَّث لتوكيدِ المُبالغَةِ؛ إذ اجتمع فيه العجزُ المانع من الولادة، والعُقْمُ الَّذي يتعذَّر معه الحَمل[1]، وهو أَدْخَلُ الأوصافِ في الحَيْلولة دون ولادةِ المرأة، فضلًا عن أن تكون عاقرًا، وفي تنكيرهِ دعمٌ لتلك الإشارات المقصودةِ بوضوح في هذا الوصف، من إنكاره وبُغضه، واستيخامه واستيحاشه لدى النِّساء.

فهذا الوصف وإن كان ممّا تأنف المرأة الاتِّصاف به عادَةً؛ فإنَّ السَّيّدة سارة في هذا المقام توقَّعت أنَّها ستواجَهُ بكلام النّاس حولَ ولادتها في هذا السِّنِّ المتأخِّرة، فلا مجال لتزويقِ الكلام وتحاشي وصف العجوز، ولا وقْتَ للهروب من مواجهةِ الحقيقة.

نعم، هي امرأةُ نبيٍّ، لا تُنكِر قدرة اللّه ﷻ على حصولِ الأسباب متى شاء، ولا على فعل ما يشاء بلا أسبابٍ، وتَثِق في أنَّ الحمل والولادة حَتمٌ ما دام أمرًا نزل مِن عند اللّه سبحانه؛ لكنَّها بشرٌ، وقد عاشت لحظةً نفسيَّة ثقيلةً بين يَقينها بالقطع بحصول الولادة، وبين تَرَقُّبِها كلام النّاس.

وكأنَّها تريدُ أن تقول: "يا ليتكم دعوتُم دعاءً قريبًا مِن الإجابة؛ ظنًّا منها أنَّ ذلك دعاءٌ منهم لهما، كما يصدر من الضَّيف على سبيل الأخبار مِنَ الأدعية، كقول الدّاعي: اللّه يعطيك مالًا، ويرزقك ولدًا، فقالوا: هذا منّا ليس بدُعاءٍ، وإنَّما ذلك قول اللّه تعالى"[2].

نكتةُ حذفِ المبتدأ من قوله: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾:

حُذِفَ المسندُ إليه من قول اللّه تعالى حكاية عن امرأة إبراهيم عليه السلام: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾، والتَّقدير: أنا عجوز عقيم، ممّا أتاح لها بناءَ الجملة على التَّصريح بالخبر ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾، والقذفُ به في صَدْرِ

(1) فخر الدين قباوة، المفصّل، ص: 1845.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 177.

الكلام مباشرةً؛ للوفاء بِحَقِّ المقام النَّفسي لديها، وتصوير صدمة الخبرِ وغرابة البِشارة، الَّتي فعلت بنفسها الأفاعيل، فقفزت إلى الخبر الأهمِّ: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.

نكتةُ وصفِ العجوز بالعقم:

تعجُّبُ امرأةِ الخليلِ من حالِها أو تبدُّله

العقيمُ من النِّساء: الَّتي لا تلد، ومن الرّياح: الَّتي لا تُلقِح شجرًا، فهي الَّتي لا بركة فيها[1]، وليس فيها رحمة، ولا منفعة، وهي ريح الجَنوب، أو ريح الدَّبور، أو ريح الصَّبا[2]، وامرأة الخليل عليه السلام تستحضر موانعَ حملِها وولادتها، وتستدعي مانعَ العُقم، الَّذي لا يتَّسق مع البشارة.

وهي "لم تتعجَّب من قدرة اللّه أنَّه قادر على أن يَهَبَ الولدَ في كلِّ وقت، ولكنَّها تعجَّبت لمّا رأت العادة في النِّساء والرِّجال أنَّهم إذا بلغوا المبلغ الَّذي كانوا هم عليه؛ لم يلدوا، فتعجُّبُها أنَّها تلد في الحال الَّتي هي عليها، أو أن يُردّا إلى حال الشَّباب، فعند ذلك يولَدُ لهما، وكلاهما عجيبٌ"[3].

دلالةُ بناء ﴿عَقِيمٌ﴾ على (فعيل):

سعَةُ قُدْرَةِ الله تعالى وعُمومُها

في بناء وصف ﴿عَقِيمٌ﴾ على (فعيل) دلالةٌ على بُلوغِها في العُقم وعدم الاستعداد للحَملِ والإنجابِ مبلغَ الاستحالَة، فَفي بِنائِها وصفَ ﴿عَقِيمٌ﴾ على صيغة المبالغة (فعيل) كنايةٌ عن شدَّة عَجَبِها لدلالة الصّيغة على ثبوت الوصف فيها ودوامه، ولكنَّ قدرةَ اللّه تعالى عامَّةٌ.

سرُّ التَّعبير بـ ﴿عَقِيمٌ﴾ دون (عاقر):

العُقْمُ أمر ثابتٌ، والعقر عارِضٌ

توصف المرأة الَّتي لا تلد بأنَّها (عقيم)، وبأنَّها (عاقر)، ووجه الاختلاف بين اللَّفظين حاصلٌ في الصّيغة، فـ (عقيم) على وزن

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 178.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 372.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/ 157.

(فعيل)، وهو وزن للأشياءِ الثّابتة الدّائمة، وهو أنسَبُ هنا لحالِ سارةَ زوجةِ إبراهيمَ عليه السلام؛ لكون حالِها - في تقديرات البشَر - ميؤسًا منه، أمّا (عاقر)؛ فهو على وزن (فاعل)، وهو وزن قابلٌ للزَّوال عن صاحبه، ولذلك عُبِّر به تعالى عن امرأة زكريّا: ﴿وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾ [آل عمران: 40]؛ لقوله تعالى في موطنٍ آخرَ من القرآن: ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ﴾ [الأنبياء: 90]؛ إذ العاقر قابلةٌ للإصلاح والعلاج، وعدمُ إنجابِها أمرٌ عارضٌ، ويؤكِّد المعنى اللُّغويَّ للَّفظين هذا المعنى؛ إذ إنَّ "أصل (العُقْمِ): اليَبَسُ المانع من قبول الأثر"[1]، والرّيحُ العقيمُ: الَّتي لا تلقح شجرًا، ولا تُنشِئُ سَحابًا ولا مَطَرًا، وداءٌ عقام: لا يُبرأ منه[2]، أمّا (العقر)؛ فقد شُبِّه بالجُرح، وأنَّه شيءٌ ينزل بالمرأة من غيرها، وليس هو من فِعْلِها بنَفْسِها[3]، ومن هنا فهو قابلٌ للعلاج.

علَّةُ فصل قوله: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ﴾ عمّا قبله:

أثرُ الاستئنافِ البيانيِّ في مُتابعَةِ تَشَوُّق القارئ والمُتَلَقّي

فُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ﴾ عن قوله: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٞ﴾؛ لكونِه استئنافًا بيانيًّا، فيكون بين الجملتين شبه كمال الاتِّصال؛ وذلك لجَريان هذا الحوار على طريقةِ المُقاولة القرآنيَّة؛ إذ إنَّها قالت: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٞ﴾، وهذا يُثير سؤالًا حاصِلُهُ: وبِماذا ردّوا عليها؟ فجاء قول اللّه تعالى: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ﴾؛ جوابًا عن هذا السُّؤال المتوقَّع من المتلقّي.

دلالةُ التَّعبير بفعلِ القول ماضيًا:

الكلامُ الطَّيِّبُ يَشفي

في التَّعبير بفعل القول في جملة: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ﴾ إيماءٌ إلى أنَّه قد جاء قولًا فصيحًا صريحًا؛ فعالج نفسَها، وأزال عجَبَها، وسكَّن روعها.

(1) الراغب، المفردات: (عقم).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عقم).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عقر).

وصوغُ فعلِ القولِ ماضيًا في جملة: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ﴾ دلالةٌ على مباشَرة هذا القول قولَها، ومجيئه بُعَيدَه على سبيل التَّحقيق والحصول.

وفي إسناد فعل القول إلى ضمير جماعةِ الضَّيف المكرمين في جملة ﴿قَالُواْ﴾؛ إشارة إلى عِنايَتهم جميعًا بتوجيهِ هذا القول لها، وعلى "اتِّحاد كلمتهم"[1]، حتّى وإن كان قائلُه أحدَهم.

معنى (الكاف) في ﴿كَذَٰلِكِ﴾:

الملائكة الكرام لا يزيدون شيئًا، ولا ينقصون ممّا كلَّفهم الله تعالى به

(الكاف) في قول الضَّيف المكرمين لامرأة إبراهيم عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ﴾ كاف التَّشبيه، أي: مثل هذه البشارة الَّتي بشَّرناكم بها قال ربُّك: "إنَّك ستلدين غلامًا"[2]، وهو سبحانه الَّذي كلَّفَنا بإبلاغكم إيّاها، وليست هذه البشارة مِن تلقاء أنفُسِنا.

دلالةُ التَّعبير بالإشارة ﴿كَذَٰلِكِ﴾، ولطيفة البُعد فيها:

عطاء الله عظيمٌ، وخاصَّةً إذا كان ولدًا لوالِدَيْن مُسنَّيْن

الإشارةُ في قول الملائكة: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ﴾ تعود إلى التَّبشير بالغلام[3]، وعلى الحُكم به[4]، ولأنَّه من قِبَل اللّه تعالى، وهو "على علمٍ بالحالِ الَّتي أنتِ عليها، فقد بُشِّرتِ بذلكَ لا عن جهلٍ"[5].

وجاءَت الإشارةُ للبُعدِ ﴿كَذَٰلِكِ﴾؛ لإرادةِ التَّبجيل لِحُكم اللّه تعالى، والتَّعظيم لبشارته عبدَهُ إبراهيمَ عليه السلام وامرأتَه، والتَّنويه بنعمة الولدِ، وخاصَّةً في سنِّ والديه الطّاعنَيْن في السِّنِّ.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ القول ماضيًا:

أقوالُ الله تعالى أوامــرُ نـافـذةٌ محقَّقةُ الوقوعِ

القول في جملة: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ﴾، بمعنى: الأمر، أي: بهذا أمر ربُّكِ، وحَكَم، وقضى، وذلك أنَّ قوله ﷻ أمرٌ نافذ، فـ ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 461.
(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 178.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 361.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 22.
(5) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 386.

﴿أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: 82]، والمعنى: أنَّه من جهة اللّه تعالى، فلا تتعَجَّبي[1].

وصوغُ فعلِ القول ماضيًا في جملة: ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ دلالةٌ على القَطْع بتحقُّقه، وإشارة إلى أنَّه مقدَّرٌ منذ الأزل، "فإنَّها شؤون يبديها، ولا يبتديها"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بعنوان الرُّبوبيَّة في قوله: ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾:

لا تُستَعظَم بِشارةٌ مهما عظُمت من الرَّبِّ الكريم سبحانه

في التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة في جملة: ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ دعمٌ؛ لتطمين السَّيِّدة سارة بتلك البشارة بِتذكيرها بعطاءات الرَّبِّ الكريم سبحانه، وإزالةُ وجه العجب عن البشارة بالولد؛ إذ هي من عطاءات الرَّبِّ المحسنِ المربّي، المتعهِّد لِخلقه ﷻ بالرِّعايةِ.

دلالةُ الإضافة في ﴿رَبُّكِ﴾:

العبدُ أدرى النّاس بعظيم عطاءات ربِّه تعالى له

الإضافةُ في ﴿رَبُّكِ﴾ خطابًا لامرأة إبراهيم عليه السلام تَستَلُّ من نفسِها آثارَ العَجَب؛ لتَغْرِس مكانَه الطُّمأنينة والثِّقة؛ لأنَّه ربُّها الَّذي عَهِدَت منه في بيت النُّبوَّة معاني التَّربية والعطاء الكريم، فهي بذلك أدرى، ولإدراك عظيم عطاياه أبصرُ.

علَّة فصل قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ عمّا قبله:

بيانُ علَّةِ البشارةِ

فُصِل قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ عن قوله: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾؛ لوقوعه منه منزلة السَّبب من المسبَّب، فالجملة تعليل لما قبلها[3]، أي: "فأقْبَلي قولَه، ولا تتوهَّمي عليه خلاف الحكمة، ولا تتوهَّمي عليه الجهل بعدم قبولك الولادةَ"[4].

---

(1) فخر الدين قباوة، المفصّل، ص: 1845.
(2) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 18/ 327.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 106.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 42.

بيانُ مرجعِ الضَّمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾، وبلاغة تتابع التَّوكيدات:

قد يجتمع من مقتضيات التَّوكيد ظاهرُ حالِ المخاطَب، وعظمةُ الخبرِ في ذاتِه

الضَّميرُ المنصوب في قولِ الملائكة الكرام: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ يرجع إلى الرَّبِّ المضاف في قولهم: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ﴾، وقد اقتضى ذلك الحشدُ من التَّوكيدات - بـ (إنَّ)، وضمير الفصل ﴿هُوَ﴾، وتعريف جزأي الجملة، والجملة الاسميَّة - شدَّةَ تعجُّب امرأة الخليل عليه السلام من جهة؛ لأنَّها لم تكُن تُنْكِر حقيقةً، وإنَّما ظاهر تعجُّبها كانَ كأنَّه إنكارٌ، فاقتضى التَّوكيدَ، وغرابةُ الأمر في ذاته من الجهة الأخرى، وجلالُ المقام - بغضِّ النَّظر عن حال السَّيِّدة سارة - حسَّن التَّوكيد، فالبُشرى كبيرة والعطيَّة عظيمة.

دلالةُ القصْرِ، ونُكتةُ التَّعبير بضمير الفَصْلِ ﴿هُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾:

اختصاصُ الله تعالى بكمال الحكمة وكمال العلمِ

في قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أسلوبُ قصرٍ، وذلك بتعريف جزأي الجملةِ، وهو الضَّمير المتَّصلُ في ﴿إِنَّهُۥ﴾، وخبرُ إنَّ، وهو ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، وذلك يُفيدُ قصر الحكمةِ والعلم الكاملَين على الله تعالى قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا؛ إذ لا يشاركُه أحد فيهما، وهما لا تتجاوزانِه إلى غيره أصلًا، وإن اتَّصف أحدٌ من المخلوقين؛ فإنَّما هو بأصل الحكمة والعلم، لا بكمالهما، ثُمَّ إنَّه لا يصلُ إلى المخلوقين شيءٌ منهما إلّا بإمداده تعالى وبكرمه.

وضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ لا يدلُّ على القصْرِ؛ إذ القصرُ مستفادٌ من تعريف طرفَي الجملةِ، ومن المتقرِّر في القواعدِ: أنَّه لا يجتَمِعُ في الجملةِ طريقا قصرٍ، فيكون ضميرُ الفصلِ مفيدًا توكيدَ القصْرِ وتقويتَهُ.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ و﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾:

﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الَّذي يُدبِّر الأمور بحكمته، فيوقِعُ الأمرَ حيث أراد، ومتى أراد، كما أراد، و﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ الَّذي يَضبط الأمور بعلمه، ويزنها، ويُقدِّرها بِحكمته[1]، و(أل) في ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ و﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾: لاستغراق

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 518.

الأوصافِ، أي: إنَّ كلَّ حكمة وكلَّ عِلم إنَّما هو للرَّبِّ الكريم سبحانه، ومن حِكْمَته تعالى، وأنَّه تعالى هو الَّذي أفاض على عباده من حكمته حكمةً ومن علمِه علمًا.

كلُّ أفعاله تعالى مقرونةٌ بحكمته المطلقة، وكلُّ تقديراته سبحانه بعلْمه المحيط

ففي التَّعبير بالحكمة تذكيرٌ للسَّيِّدة سارة بأنَّ أفعال الحكيم سبحانه إنَّما تَصْدُر بحِكمةٍ حكيمة، وتأتي بتدبير سديدٍ لا اختلال فيه؛ لأنَّه "الحكيمُ في تدبيرِه خَلْقَه"[1]، وإنَّ أفعال العليم سبحانه تصدر بِعِلمٍ "لا يخفى عليه حالُها مِن العجْزِ والعقم"[2] وغيرهما، ولو علم العباد ذلك وعَمِلوا عليه؛ لَمَا رابَهُم، ولا أرهقَهُم شيء.

دلالةُ صوغ ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ على (فعيل):

معرفةُ العبد بحكمة الله تعالى وعِلمه يُطَمئِنُه إلى جمالِ قضائه وقدره

في صوغ اسمي اللّه تعالى ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ على صيغة (فعيل) دلالةٌ على بلوغهما بالنِّسبة إلى اللّه تعالى مبلغَ التَّمام والكمال؛ بحيثُ يَقْصُر عن بلوغ مرتبةِ كمالهما كلُّ مَن سواه، وذلك يَدعم البشارة، ويبعث بالطُّمأنينة إلى قلب السَّيِّدة سارة في هذه اللَّحظات العصيبَةِ، ويُطَمئِنُها إلى جمال قضائهِ وقدَرِه سُبْحانَه.

بلاغةُ تقديم ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ على ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾، ووجه المناسَبة بينهما:

الحكمة والعلم يلتقيان في التَّقدير والتَّدبير

تقديم الحكمة على العِلم في قول الضَّيف المكرمين: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، احتراسٌ مِن ذهاب تفكيرِ العبد مذهبَ الشُّبهة في دقَّة حكمته تعالى، ودلالةٌ على أنَّ أفعال الحكيم سبحانه منضبطة بضوابطِ الحكمة، صادرة بعِلمٍ تامٍّ.

ومن الجليِّ تمامُ التَّناسُب بين الحِكمة والعِلم؛ لأنَّ كلًّا منهما يتآزر على ضبط التَّقدير والتَّدبير، والتَّقديرُ والتَّدبير يَفتَقِران إلى العِلم المُحيط، والحكمة السَّديدة الرَّشيدة.

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 531.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 361.

توجيه المتشابه اللَّفظيّ:

المتشابه اللَّفظي يوفّي المقاماتِ والسّياقات القرآنيَّة حقَّها من المطابقة

قال الله تعالى هنا: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، وقال في سورة هود: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣﴾ [هود: 73]، وذلك لأنَّ الحكاية هناك أبسطُ، فذكَر الملائكةُ ما يَدفع الاستبعادَ بقولهم: ﴿أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ [هود: 73]، ثُمَّ لمّا صدَّقت؛ أرشدوهما إلى القيام بشُكْرِ نِعم الله تعالى، وذكَّروهما بنعمتهِ بقولهم: ﴿حَمِيدٞ﴾ [هود: 73]، فإنَّ الحميد هو الَّذي تتحقَّق منه الأفعالُ الحَسَنَة، وقولهم: ﴿مَّجِيدٞ ٧٣﴾ [هود: 73] إشارةٌ إلى أنَّ الفائق العالي الهِمَّة يحمده لنفسه ولفعله الجميل.

وهنا - في سورة الذّاريات - لمّا لم يقولوا: أتعجبين؛ أُشيرَ إلى ما يَدفع تعجُّبَها مِن التَّنبيه على حُكمه وعِلمه، وفي ذلك لطيفةٌ بديعةٌ، وهي أنَّ هذا التَّرتيب مراعًى في السّورتين، فالـ﴿حَمِيدٞ﴾ [هود: 73] يتعلَّق بالفعل، والـ﴿مَّجِيدٞ ٧٣﴾ [هود: 73] يتعلَّق بالقول، وكذلك ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ هو الَّذي فِعله، كما ينبغي لِعلمه؛ قاصدًا لذلك الوجه، بخلاف من يَتَّفق فِعلُه موافقًا للمقصود اتِّفاقًا(1).

وجهُ ذكر قصَّة إبراهيمَ والبشارةِ بالولد في هذا السّياق:

التَّنبيهُ بالأحوالِ الدُّنيويَّة على الأمور الأخرويَّة

وجه ذكر قصَّة إبراهيم والبشارة بالولد في هذا السّياق: أنَّ في قصة حضورِ الملائكة عند إبراهيمَ وزوجِه عبرةً بإمكان البعث، فقد تضمَّنت بشارتَها بمولودٍ يولد لها بعد اليأسِ مِنَ الولادة، وذلكَ مثلُ البَعث بالحياة بعدَ المماتِ(2).

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الوجس والإضمار والخاطر والهاجس:

الوجسُ خاطرٌ يحفُّهُ الخوفُ

الوجسُ: حالٌ تحصُل من النَّفس بعد الهاجس؛ لأنَّ الهاجس

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 178.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 356.

مبتدأُ التَّفكير، ثُمَّ يكون الواجِسُ الخاطر[1]، لكنَّه خاطرٌ مشوبٌ بخوف[2]، والفزع يقَعُ في القلب، أو في السَّمعِ من صوتٍ وغيره، ومعنى أوجس: وقع في نفسِه الخوفُ[3]، فهو أخصُّ من الإضمار عمومًا[4]؛ لأنَّ الإضمار: كِتمانُ الشَّيء وإخفاؤه مطلقًا، يقال: أضمر الشَّرَّ، وأضمر له الشَّرَّ؛ إذا أخفاه، وأضمَر في نفسه أمرًا، أي: عزم عليه بقلبه[5]، أمّا الخاطر؛ فهو ما يخطر في القلب من تدبيرٍ أو أمر، فالخاطِرُ: الهاجس، وقد خَطر بِباله وخطر على باله؛ إذا ذَكَرَهُ بعد نِسْيان، وذلك أنْ يمرَّ بقلبه بسرعة لا لبثَ فيها ولا بُطْء[6]، والهاجِسُ: الظَّنُّ، وما وقع في الخَلَدِ والقلبِ من همٍّ وأمر، وما يهجس في الضَّمائر، وما يدور فيها من الأحاديث والأفكار، وحديث للنَّفس في الصَّدر، مثل الوسواس[7]، ومن هنا ناسب لفظُ (أوجس) سياقَ الآية؛ لِما فيه من تخصيصٍ للمَعْنى بالخاطر المحفوفِ بالخوف، ولذلك ناسب أن يعقبَهُ لفظُ (خيفة).

(1) لسان العرب، لسان العرب: (وجس).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (وجس).
(3) الخليل، العين: (وجس).
(4) لسان العرب، لسان العرب: (وجس).
(5) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (ضمر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، وابن منظور، لسان العرب: (خطر).
(7) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، والزبيدي، تاج العروس: (هجس).

الجُزْءُ
السَّابِعُ وَالعِشْرُونَ

﴿۞قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣١ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٣٢ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ٣٤ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٦ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٣٧﴾ [الذاريات: 31 - 37]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

للأنبياءِ فِطنةٌ بها يُدرِكون ما لا يُدْرِكُه غيرُهم

لمّا حاور الملائكةُ إبراهيمَ ﵇ وامرأتَه سارةَ بِشأن البشارة، وكان ﵇ قد فَهِم بِفطْنَة النُّبوَّة، وتوقَّع أنَّ سبب نزولهم أكبرُ من مجرَّد تبشيرهما بالولد؛ سألهم عن ماهيَّة السَّبب الخفيِّ، وطبيعة الأمر الخطير الَّذي اقتضى نزولهم جمعًا هكذا، فقال: ﴿فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾؟.

وقد تنبَّهَ إبراهيمُ ﵇ إلى ما لم تَنْتَبِه إليه امرأتُه مِن خَطْب نزول الملائكة، وهذا مطَّرِدٌ في جميع مواضع ذكر القصَّة من القرآن الكريم؛ ذلك أنَّه ﵇ نبيٌّ، و"كان أعلمَ أهلِ زمانه بالأمور الإلهيَّة"[1].

شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

1) ﴿خَطۡبُكُمۡ﴾: أصلُ (خطب) يدلُّ على الكَلامِ بَينَ اثنَيْنِ، ومنه الخَطْبُ: الأمرُ يَقَعُ، وإنَّما سُمّيَ بذلكَ لِما يَقَعُ فيه مِنَ التَّخاطُبِ والمُراجَعَةِ[2]، وهو: الأمر العظيم الَّذي يكثر فيه التَّخاطب، قال تعالى: ﴿فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ٩٥﴾ [طه: 95]، وقال سُبحانَهُ هنا: ﴿فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾[3]، والخَطْبُ في الآية مرادٌ به الأمر المُهمُّ، وقَلَّ ما يُعبَّر به إلّا عن الشَّدائد والمكاره[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 465.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خطب).
(3) الراغب، المفردات: (خطب).
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 178.

2) ﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾: أصل (رسل) واحِدٌ مُطَّرِدٌ مُنقاسٌ، يدُلُّ عَلَى الانبعاثِ والامتِدادِ، فالرَّسلُ: السَّيْرُ السَّهْلُ، وناقَةٌ رَسْلَةٌ: لا تُكَلِّفُكَ سياقًا، وناقَةٌ رَسْلَةٌ أيضًا: لَيِّنَةُ المَفاصِلِ، وشَعْرٌ رَسْلٌ؛ إذا كان مُسترسِلًا[1]، وأرسلَ اللّه تعالى الرُّسلَ: بعثهم بشرع لتبليغه والعمل به، قال اللّه تعالى: ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ [التوبة: 33][2]، والمُرادُ بهم في الآية: الملائكة الكرام، الَّذين كلَّفهم اللّه تعالى بقَلْبِ قرية لوطٍ عليه السلام.

3) ﴿مُّجۡرِمِينَ﴾: أصلُ الكلِمَةِ مِنَ الجَرْم، وهو القَطْعُ[3]، وقيل أصلُه: الكَسْبُ، وفُلانٌ جَريمَةُ أهْلِه، أي: كاسِبُهُم، ومنه سُمّيَ الذَّنْبُ جُرْمًا؛ لأنَّهُ كَسْبٌ لِصاحِبه[4]، والإجرامُ: ارتِكابُ الجُرْم، وهو الإثْمُ العَظيمُ، وأعظم بالإجرام الكفر![5] يُقال: أجْرَمَ الرَّجُلُ؛ إذا ارْتَكَبَ ذَنْبًا، أو جَنَى جِناية[6]، والمُجرمُ في اصطلاحِ القُرآن هو الكافِرُ، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝٢٩﴾ [المطففين: 29]، وهو المُراد هنا.

4) ﴿مُّسَوَّمَةً﴾: أصلُ (سوم) يدُلُّ على طَلَبِ الشَّيءِ، يُقالُ: سُمتُ الشَّيءَ، أسومُه سَوْمًا، ومنه السَّومُ في الشِّراءِ والبَيعِ، وشَذَّ عنِ البابِ: السّومَةُ، وهي العَلامَةُ تُجْعَلُ في الشَّيءِ، والسّيما - مقصورٌ - مِن ذلك، فإذا مدّوهُ؛ قالوا: السّيماءُ[7]، وسَوَّمَ الفرسَ: جَعَلَ عَلَيهِ السّيمة، وقَولُهُ عز وجل: ﴿حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ۝٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ﴾، أي: مُسَوَّمة بِعَلامَةٍ يُعْلَمُ بها أنَّها لَيسَت مِن حِجارَةِ الدُّنيا، ويُعلَمُ بِسيماها أنَّها مِمّا عَذَّبَ اللّه بها[8]، والمقصود بمسوَّمة هنا: معلَّمة بعلامات.

5) ﴿لِلۡمُسۡرِفِينَ﴾: أصلُ (سرف) يدُلُّ على تعدّي الحَدِّ[9]، ومنه الإسراف: الإفراطُ في الشَّيءِ، وحقيقته: مُجاوَزَةُ الحَدِّ في كلِّ شيءٍ، وضِدُّهُ القَصْدُ والاعتِدالُ[10]، والإسرافُ أيضًا:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رسل).
(2) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (رسل).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (جرم).
(4) ابن عباد، المحيط في اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (جرم).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 210.
(6) ابن عباد، المحيط في اللغة: (جرم).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوم).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (سوم).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سرف).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (سرف).

التَّبْذيرُ، والمُسرِفُ: المُبذِّرُ[1]، ومِن مَعاني الإسرافِ في اللُّغة أيضًا: الإغفالُ، والإهمالُ، والإتلافُ، والتَّضييعُ، والإهدارُ، والإفسادُ، والغُلوُّ، والقَطْعُ[2]، والمُرادُ بالمُسرفين في الآية: المُتعدّون حُدودَ اللّٰه سبحانه، ومنهم: المشركون، فالشِّرك أسرفُ الذُّنوبِ وأعظَمُها[3].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَن تمادى في الإجرامِ؛ حلَّت به سُنَّة الهلاكِ

قال الخليل إبراهيم عليه السلام للضَّيف المكرمين، بعد تمام حِوارِهم بشأن البِشارة بالولد: "لقد أدركنا هذه البِشارة، وحمِدنا اللّٰه تعالى عليها، فما شأنُكم بعدَها"[4] أيُّها الوفد الكريم المُرْسَلُ مِن عند اللّٰه تعالى؟.

فأجابوه بأنَّنا مكلَّفون من قِبَل اللّٰه تعالى بإهلاك أهل قرية سَدومَ، الَّتي فجَرَ أهلُها، وتفاقمت فاحِشَتُهم؛ حتّى بلغت بهم حدَّ الإجرام، وأنَّ إهلاكهم محدَّد بأساليبَ، منها: إمطارُهم بِطينٍ مَحْميٍّ إلى حدَّ التَّحَجُّر، وتلك الأحجار مخلوقة لذلك أصلًا، وهي مُعَلَّمَةٌ عند اللّٰه تعالى بِعلامات لأصحابها الَّتي تستهدِفُهم.

ثُمَّ جاء تعليقهُ تعالى على هذه القصَّة إخبارًا رسوله محمَّدًا ﷺ: فأنجينا أهلَ الإيمان باللّٰه تعالى من سُكّان تلك القرية؛ وذلك بإخراجهم منها قُبيل إهلاكها، فما كان فيها إلّا أهلُ بيتٍ واحدٍ مِنَ المسلمين، وهوَ بيتُ لوطٍ عليه السلام، المكوَّن منهُ وبِنتَيْه دون امرأتهِ.

وبعد تدميرِ ملائِكَتِنا تلك القريةَ، وإهلاكِهم كفّارَها؛ خلَّفناها على صورةٍ وحالٍ صالحةٍ؛ للاتِّعاظ والاعتبار ممَّن يعتبرون، ويخافون حلول العذاب الوجيع من اللّٰه تعالى، فليَحْذَر كفّار قريش مِن التَّمادي في الكفر والمعاصي والعناد؛ لئلّا يحصل لهم هلاكٌ مثلُ

---

(1) الزبيدي، تاج العروس: (سرف).

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سرف)، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 50.

(3) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 178.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4097.

أولئك البُعَداء، فـ "هذه أمثالٌ يَضرِبها الحقُّ ﷻ للطُّغاة المتكبِّرين، والكفّار الظّالمين، لعلَّهم يثوبون لرُشْدِهم، ويكفّون عن تَكْذيبهم وكُفْرِهم بما يجِبُ الإيمانُ بِه، وخاصَّة يومَ البعث"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ قوله: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ عمّا قبله:

إكمالُ الحوارِ مع الملائكة دليلُ نباهَةٍ وبصيرةٍ

فُصل قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ عمّا قبله؛ لكونه استئنافًا بيانيًّا؛ إذِ الأصل أنَّ الجملة بقيَّةُ حوارِ إبراهيم عليه السلام مع الملائكة الكرام، وما بينَهُما من حَديثِهم مع امرأته سارة جاء استطرادًا، هيَّأ له، ودعا إليه إقبالُها في صَرَّة، وإثارتها العجَب، ومعالجة الملائكة ذلك العجب فورًا.

ثُمَّ يعود السّياق هنا لإكمال حوارِ إبراهيم معَهُم بحسب أسلوب المُقاوَلَة؛ إذ كان آخرُ كلامهم معه عليه السلام أن قالوا: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣﴾ [الحجر: 53]، ولَم يُبدِ عليه السلام تعجُّبًا، بخلاف امرأته، ثُمَّ استأنفَ هو هنا حوارَه معهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، وقد فقِه بِفِطنته أنَّ نزول هذا الوفد الكريم من الملائكة وراءه هدفٌ أكبر من مجرَّد التَّبشير بغلام؛ لأنَّه عليه السلام كان "أعلم أهل زمانه بالأمور الإلهيَّة"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل القول ماضيًا:

الكبارُ ينشغلون بكبارِ الأمور، ولا يلهيهم عنها صِغارُها

في التَّعبير بفعل القول ماضيًا في قول اللّه تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ مباشَرَةُ استئنافِ الحديث عن الخَطْبِ الأكبر الَّذي من أجله نزلوا، وفي صوغه ماضيًا إشارةٌ إلى جِدِّه عليه السلام في تناول الأمور، وسرعته في مباشرة المهامِّ، وعنايته بعظائم الأمور وجلائلها، وفي عدم انشِغالهِ عَن عظائم الأمور تعليمٌ للأمَّة، وتقديم الأسوة في هذا الموضع الدَّقيق.

---

(1) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 538.

(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 465.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾:

لَفتُ عنايةِ المُخاطَب إلى الأمر الأعظَمِ

(الفاء) في قوله ﷺ: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ فصيحَة؛ لإفصاحِها عن شرطٍ مقدَّرٍ، والتَّقدير: "إذ كنتم مرسَلين من جانب اللّه تعالى، فما خطبُكُم الَّذي أُرسِلتُم لأجله"[1]، وذلك أنَّه "استشعر أنَّهم رسل، أرسلهم اللّه لبعضِ الشُّؤون المهمَّة"[2]، وهذا "من عطف كلامٍ على كلامِ متكلِّمٍ آخرَ، ويقع كثيرًا في العطف بالواو، نحوُ قوله تعالى حكايةً عن إبراهيم: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: 124]، بعد قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: 124]، وقوله حكاية عن نوحٍ ﷺ: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الشعراء: 112]"[3].

فالفاءُ عُنصر إيجازٍ بإيذانها بهذا الحذفِ الكبير، الَّذي يوفِّر عنايةَ المخاطَب على الانشغال بالأمر الأخطر وراءَ تَنَزُّلهم، وإشراكه في جِدّيَّةِ اللَّحظة.

بلاغةُ الاستفهام في قوله: (ما خطبكم):

مِن أدبِ الضّيافة عدمُ سؤال الضَّيفِ عن سبب مجيئه ابتداءً

الاستفهام في قوله ﷺ: (ما خطبكم أيُّها المرسلون) استفهامٌ حقيقيٌّ؛ إذ لا يعلم السّائل - وهو إبراهيمُ ﷺ - الخبرَ، فيستَعْلِمُهم عنه؛ ولذلك أتى الجوابُ صريحًا ومباشرًا: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾.

وقد عرف إبراهيمُ ﷺ أنَّ هؤلاء ملائكةٌ كرام، وعلم بفِطْنَته و"عِلْمِ النُّبوءة أنَّ إرسال الملائكة إلى الأرض بتلك الصّورة لا يكون إلّا لخطبٍ"[4]، كما قال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحجر: 8]، و"أنَّ هذه البُشْرى لم تكن إلّا تطميناً له،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 5.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 810.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 5.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 6.

وإجلاءً للرَّوْع الَّذي استولى عليه، فلمّا ذهب رَوْعُه، وأنِس إلى هؤلاء الملائكة الكرام؛ سألهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾"[1].

"وإنَّما سألهم بعد أن قَراهُم جَرْيًا على سُنَّة الضّيافة ألّا يُسأل الضَّيفُ عن الغرض الَّذي أوردَهُ ذلك المنزل إلّا بعد استعدادِه للرَّحيل؛ كيلا يتوهَّم سآمة مُضيفه من نُزوله به، وليُعينَه على أمره إن كان مُسْتَطيعًا، وهُم وإن كانوا قد بشَّروه بأمر عظيمٍ إلّا أنَّه لم يعلم هل ذلك هو قُصارى ما جاؤوا لأجْله؟"[2].

دلالةُ التَّعبير بالخَطْبِ في قوله: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾:

نزولُ الملائكةِ لا يكونُ إلّا لأمرٍ عظيمٍ خطيرٍ

في تعبير الخليلِ ﷺ عن سبب نزول الملائكة بمفردة الخَطْبِ دلالةٌ على فِطْنَتِه، وعِلْمِه عن ربِّه تعالى أنَّ إنزاله هذا الوفدَ مِن الملائكة إنَّما يكون لشأنٍ خطير؛ لذلك عُبِّر بالخطب؛ لأنَّ "الخطبَ: الشَّأنُ العظيم، الَّذي يقع فيه التَّخاطُب والبحث لِغرابته أو إنكاره"[3]، "وقلَّ ما يُعَبَّر به إلّا عن الشَّدائد والمكاره حتّى قالوا: خطوب الزَّمان، ونحو هذا، فكأنَّه يقول لهم: ما هذه الطّامَّة الَّتي جِئْتُم لها؟"[4]، فـ "عِظَم الشَّأنِ يَدلُّ على عِظَم مَن على يَدِه يَنقضي"[5]، وقد كان الأمر، كما توقَّع ﷺ، فكان خطبُهم إهلاكَ قريةٍ بأكملها، وهي قرية سَدومَ.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿خَطْبُكُمْ﴾:

نـزول الملائكة إنَّما يكون لأمر جَلَلٍ

إضافته ﷺ الخطب إلى ضميرهم؛ لوجودِ المُلابسَة، والمعنى: ما الخَطْبُ الَّذي أُرسِلْتُم لأجله؛ إذ لا تَنزِلُ الملائكة إلّا بالحقِّ[6]، وفيه دلالةٌ على أنَّه خَطْبٌ من الخطورة بحيث يُعْرَف بهم، ويُضاف إليهم،

---

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/ 246.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 5.
(3) رضا، تفسير المنار: 12/ 266.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 178.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 178.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 6.

فلم يقل: فما الخطب، وذلك لأنَّهُ نبيٌّ عَلَّمه اللّه تعالى، فجاء تعريفُه خَطْبَهم بِما يَعْلَمُ منه، ويَتوقَّع.

وقد يكون المقصودُ أنَّ إبراهيمَ ﵇ "أتى بما هو مِن آداب المُضيف؛ إذ يقول لِضَيفه إذا استعجَلَ في الخروج: ما هذه العَجَلَة؟ وما شُغْلُك الَّذي يَمنعنا من التَّشرُّف بالاجتماع بك؟ ولا يسكت عند خروجِهم مخافةَ أن يكون سكوتُه يوهِم استثقالَهم، فأتَوا بِما هو من آداب الصَّديق الَّذي لا يُسِرُّ عن الصَّديق الصَّدوق، لا سيَّما وكان ذلك بإذن اللّه تعالى لهم في إطْلاع إبراهيم ﵇ على إهلاكهم قومَ لوطٍ، وجَبْر قلبه بتقديم البِشارَة بخيرِ البَدَل"(1).

بلاغةُ الإيجاز في لفظ ﴿خَطۡبُكُمۡ﴾:

الجـمـعُ بين الأمـر العظيم والإيــجــاز في التَّعبير من صوَرِ بلاغة الأنبياء

لّما كان الخطبُ هو الأمرَ العظيم؛ قال: ﴿فَمَا خَطۡبُكُمۡ﴾، والمعنى: أنَّكم لِعَظَمَتِكم لا تُرسَلون إلّا في شأنٍ عَظيم، ولو قال بلفظ مركَّب: (ما شُغْلُكم الخطير، وأمرُكم العظيم)؛ لَلَزِم التَّطويل، فالخَطْبُ أفاد التَّعظيمَ مع الإيجاز(2).

نكتةُ نداء الملائكة وخطابهم بـ ﴿أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾:

الملائكةُ ينزلونَ بـأمرٍ مِـنَ الله تعالى

خاطب الخليلُ ﵇ الملائكةَ بـ ﴿أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾؛ لأنَّه لا يعرف ما يُسمّيهم به إلّا وصف المرسلين، و﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ من صِفاتِ الملائكة، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ١﴾ [المرسلات: 1] في أحد تفسيرين(3)، وكما في قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: 1]، وفي ندائهم بـ ﴿أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ أيضًا "إشارةٌ إلى أنَّهم ليسوا مجرَّد ملائكةٍ عابرين به، بل إنَّهُم محمَّلون برسالةٍ من ربِّ العالمين"(4).

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 178.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 178.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 6.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 522.

وعَرف أنَّهم مُرْسلون مِن قولهم: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ٧٠﴾ [هود: 70]، وإنَّما لم يُذْكَر هاهنا؛ لأنَّ الحكاية بِبَسْطِها مذكورةٌ في سورة هودٍ، أو لأنَّهم لمّا قالوا لامرأته: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ﴾ [الذاريات: 30]؛ عَلِم كونَهم منزَلين من عندِ اللّه تعالى؛ إذ كانوا يَحكون قول اللّه تعالى، ويدلُّ لهذا أنَّ قولهم: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ كان جوابَ سؤالِه منهم[1].

وفي قوله: ﴿فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ حذفٌ لأداة النِّداءِ، والتَّقدير: يا أيُّها المرسلون؛ لأنَّه لا يُحذف من أدوات النِّداء إلّا (يا)، وهي موضوعةٌ في الأصلِ لنداءِ البعيدِ، إلّا أنَّ الظّاهِرَ من الخطابِ أنَّه كلَّمهم، وهم حاضرونَ عِندَهُ، فيكون قد نزَّل القريبين منزلةَ البعيدينَ؛ تفخيمًا لشأنِهم وتعظيمًا، ويكون هذا من كمال إكرامِ إبراهيم عليه السلام لضَيْفه.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾، ولطيفة جمعِه:

الملائكةُ الكرام صنف خاصٌّ من رُسل الله تعالى

(أل) في لفظ ﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ لتعريف العهد الذِّكريِّ الكِنائيِّ، فهؤلاء هم المرسلون السّابق ذكرهم قريبًا في السّياق حين ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٢٨﴾ [الذاريات: 28]، فقد أخبروه من خلال ذلك أنَّهم رُسُل ربّه سبحانه وتعالى، فخاطبهم بـ ﴿أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾، وكأنَّه يقول: أيُّها المُكْرَمون، أنتُم المُرْسَلون الجَديرون بهذا الوصفِ.

نكتةُ إيثار التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ دون (الملائكة):

تعليمُ أهلِ الإيمان الجِدَّ في الخِطابِ

في إيثار إبراهيمَ عليه السلام نداءَ الضَّيف المكرمين بـ ﴿أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ دون (أيّها الملائكة) تنويهٌ بخطابه، وتعليمٌ للمُسلِمين الجِدَّ في الخطابِ، وقد كشفوا ابتداءً عن كونهم يحملونَ رسالةً للنَّبيِّ إبراهيمَ عليه السلام، وهي البِشارَةُ، ثُمَّ إحساسُهُ أنَّ لديهم مهمَّةً أخرى، فناداهم بتَكْليفهم.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 178.

رسول الله تعالى مأمورون ملتزمون بالتّكليف

دلالةُ صَوْغِ ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ اسمَ مفعولٍ:

في صوغِ إبراهيمَ عليه السلام وصفَ المرسَلين اسمَ مفعولٍ تأكيدٌ على وضع الأمر في نصابه بذِكْرِ وظيفتِهم، فإنَّهم أُنزلوا مُرْسَلين مكلَّفين، لا نازلين زائرين، فجاء خطابُهُ إيّاهم بصيغة اسم المفعول ضبطًا للخطابِ بضابط التَّكليف الأعلى، وتضمينه أنَّ اللّه تعالى أرسلهم، وكَلَّفَهُم، كما قال اللّه تعالى عنهم في موضعٍ آخر: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ﴾ [مريم: 64].

فَصْلُ الجوابِ عَن سُؤاله من طُرقِ المُقاولَةِ

علَّةُ فصلِ قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ﴾ عمّا قبله:

فُصلَ قول اللّه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ عن قوله: ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾؛ لكونه استئنافًا بيانيًّا، وجريًا على طريقة المقاولة القرآنيَّة؛ إذ يُثير سؤالُه عليه السلام: (ما خطبكم؟) سؤالًا في ذهن المُتَلَقّي، وهو: فماذا كان ردُّهم؟ ثُمَّ إنَّ الجملتين مختلفتان خبرًا وإنشاءً؛ إذ إنَّ كلامهم جوابٌ خَبَريٌّ، وكلامه سؤالٌ إنشائيٌّ، فاقتضى ذلك الاختلافُ الفصلَ بهذا الاعتبار.

كمالُ الاحترام بينَ إبراهيمَ والمَلائِكة عليهم السلام جميعًا

دلالةُ التَّعبير بفعل القولِ ماضيًا:

في التَّعبير بفعل القولِ في جملة ﴿قَالُوٓاْ﴾ دلالةٌ على إفْصاحهم بذلك له عليه السلام، وصوغُه ماضيًا يقطَعُ بقَوْلهم ذلك فورَ سُؤالِه، وفي إفصاحِهم بهذا القول وعلى الفورِ عَقِبَ سؤالهِ دلالَةٌ على تمام التَّقدير المُتبادَلِ بينَهُم وبينه، والجدِّ في التَّعامل؛ لأنَّهم جميعًا مأمورونَ الأوامرَ الجليلةَ.

إهلاك قوم لوط واقعٌ محقَّقٌ، لا تنفع الشَّفاعَةُ فيه

وجهُ التَّوكيد بـ (إنَّ):

من مقتضى توكيدِ الضَّيف المكرمين خبرَ إرسالهم بـ (إنَّ) في جملة: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ توفيةُ ذلك الخبر الخطير في ذاته حقَّهُ من التَّوكيد، بغَضِّ النَّظر عن حالِ المُخاطَب عليه السلام من إنكاره

أو عدم إنكاره، فـ "قد يكون التَّأكيد مِن جهة أنَّ القضيَّة في نفسها ممّا يُهتَمُّ به، وإن لم يكن هناك منكِرٌ"[1].

وكذلك يُلمح في هذا التَّوكيد ابتدارُ الملائكة الكرام حِلْمَ الخليل عليه السلام ورحمتَه المتوقِّعة لهؤلاء القوم المجرمين، وكأنَّ الملائكة عليهم السلام يقولون له في هذا التَّوكيد: إنَّ إهلاك هؤلاء أمرٌ واقعٌ محقَّقٌ؛ فلا تَلْتَمِسِ العفوَ عنهم، ولا تأخيرَ العقوبة رجاءَ توبتِهم، وذلك ما جاء في آية سورة هود عليه السلام؛ إذ يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٤ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾ [هود: 74 - 75].

مناسبةُ التَّعبيرِ بالإرسال دون البَعْثِ في ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ﴾:

يُستعمل الإرسالُ حيثُ يُستعمل الرَّسول والرِّسالة

التَّعبيرُ المناسب من الملائكةِ الكرام هنا هو (الإرسال)؛ لأنَّ الإرسال إنَّما يُستعمل حيث يُستعمل الرَّسول[2]، ولا يكون إلّا فيما كان توجيهًا[3]، وقد سبق في السّياق قريبًا وصفُهم بأنَّهم مرسلونَ، وذلك في قولِه عليه السلام لهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، فجاء جوابُهم باستعمال (الإرسال)، فاتَّسق السّياق، وتكاملت الدَّلالات.

دلالةُ بناء الفعل في ﴿أُرْسِلْنَآ﴾ مبنيًّا للمفعول:

لا يتلقّى الملائكة الكرام التَّكليف إلّا من الله تعالى

بُنِيَ فعلُ الإرسال لغير فاعلِه في قول الضَّيف المكرمين: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾، والمعنى: "إنّا أُرسِلْنا، بأمر ربِّنا"[4]، وفي حذْفِ الفاعل دلالةٌ على عِلْمِه عليه السلام بالمرسِل سبحانه وتعالى، وتعيُّنه عنده، كما هو عندَهُم، وكما هو في الواقع، وأنَّه ليس لهم إلّا مرسِل واحد؛ إذ لا يُرسِل الملائكةَ الكرام إلّا اللّه سبحانه وتعالى، كما أقرّوا هم بذلك، فيما يَرْويه عنهم الذِّكْرُ الحكيمُ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: 64].

---

(1) ابن حجر، فتح الباري: 1/ 74.

(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 103.

(3) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/ 216.

(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 22.

بلاغةُ المجاز في فعل الإرسال:

الملائكةُ الكِرام يتقيَّدون بتكليفِ الله تعالى

الإرسال في أصل وضعه هو التَّوجيهُ، والله تعالى كلَّف الملائكةَ بالإهلاك، وهذا التَّكليف عُبِّرَ عنه بالإرسال، وذلك لِما لهذا التَّكليف مِن خطورةٍ، فصوِّر في صورة إرسال رسولٍ برِسالَةٍ جليلة، يحمِلُها الرَّسول؛ ليؤدّيَها إلى المرسَل إليه، وكأنَّ الملائكة تكبَّدوا مشاقَّ حَملها، وعالج بُعد السَّفر بها إلى حيثُ المرسَل إليه، و"الإرسال الَّذي في قوله: ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ﴾ مستعمَلٌ في الرَّمي مجازًا، كما يُقال: أرسَل سهمَه على الصَّيد، وهذا الإرسال يكونُ بَعد أن أصعدوا الحجارةَ إلى الجوِّ، وأرسلَتها عليهم، ولذلك سُمّيت مطرًا في بعض الآيات"[1]، وفي الإرسال أيضًا دلالةٌ على أنَّ الملائكة الكرام يتقَيَّدون بتكليف الله تعالى، كأنَّهم يوصلون رسالةً لا دَخْلَ لهم فيها.

معنى ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله: ﴿إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾:

الملائكة الكرام لا يقفون دون تنفيذ ما كلَّفهم الله تعالى به، ولا يتجاوَزونَه

﴿إِلَىٰ﴾ في تقييد إرسالِهم عليهم السلام بالقيد ﴿إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ بيانٌ لغاية الإرسالِ وانتهاء المهمَّة، وأنَّ غايتَهم الَّتي لا يَقِفون دونَها، ولا يتجاوزونها إنَّما هي إلى غايةِ قوم مجرمين؛ لِفعل كذا وكذا بهم، وفي ذلك بيانٌ محدَّد ودقيق لحدود المهامِّ، والتزامٌ تامٌّ بتفاصيلِها، دون تصرُّف أو تدخُّل فيها بتعديلٍ، كما يقول تعالى: ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ٥٠﴾ [النحل: 50].

دلالة التَّعبير بـ ﴿قَوۡمٖ﴾، ولطيفة تنكيره:

اجتماع النّاسِ على وصفٍ يُؤْذِن بأنَّه من مُقوِّمات قوميَّتِهم

المراد بـ ﴿قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ في كلام الملائكة الكرام هم "أهل سدوم وعمّوريَّة، وهم قوم لوط"[2]، وكأنَّ الملائكة الكرام يقولون لإبراهيم عليه السلام: بـ "أنَّنا لم نُرسَل إليك بما توقَّعته مِن شَرٍّ، وإنَّما أُرْسِلْنا إلى قوم مجرمين"[3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 6.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 6.

(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 522.

و"جريان وصفٍ أو خبر على لفظ القوم يُؤذِن بأنَّه مِن مقوِّمات قوميَّتهم، كما في قوله تعالى: ﴿لَأيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة: 164]"(1)، ممّا يعني أنَّ فحشاء قوم لوطٍ صارت من مُقوِّمات قوميَّتهم، وأنَّهم يجتَمِعون عليها، ويَرْضَونَها جميعًا، حتّى صاروا بها قومًا، وصاروا بها مجرمين.

على أنَّ التَّعبير بالقوم يُستَعمل في الرِّجال غالبًا، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾ [الحجرات: 11]، فالتَّعبير بـ ﴿قَوۡمٍ﴾ هنا يعكِسُ تمام توافُقهم على تلك الرَّذيلة، وقيام قوميَّتهم على أساسها، والعياذ باللّه تعالى.

دلالة إيثار التَّعبير بوصف الإجرام دون ذكر (قوم لوط):

فِعلةُ قوم لوط جريمةٌ جديرةٌ بإهلاكِ أهلِها

المجرم: فاعل الجَرائم، من كبار المعاصي، كالكفر والشِّرك ونحوهما(2)، وقد "وَصَفَهم ﷻ بالإجرام؛ لأنَّهم لم يكفروا فقط، بل أضافوا إلى الكفر فَقْدَ الطَّبيعة الإنسانيَّة، فشذّوا بفاحشةٍ ما سبَقَهُم بها أحدٌ من العالَمين، وإذا كانوا قد وصفوهُم بأنَّهم مجرمون، فمؤدَّى ذلك أنَّهم جاؤوا لإنزالِ العقوبة بهم"(3)، وفي وصف القوم بالإجْرام بيانٌ لسبب إهلاكهم بعُقوبة الاستئصالِ، وهكذا تأتي العُقوبَةُ مقرونةً بسبَبِها فتُزيل الغرابة، وتميط لثام الشَّكِّ عن جدارتها.

وفي عدم ذِكرهم باسمهم الصَّريح (قوم لوط) تنزيهٌ للسّياق عن لوثة اسمهم، وبيانٌ بأنَّ فاعل تلك المعصية قَد بَلَغ حدَّ الإجرام؛ إذ "صَرَفوا ما أنعم اللّه به عليهم من القوَّة في قَطْعِ ما يَحِقُّ وصْلُه، ووَصْلِ ما يَحِقُّ قَطْعُه"(4).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 296.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 178.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4097.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 465.

نكتةُ وصف قوم لوط بـ ﴿مُّجۡرِمِينَ﴾ دون (يجرمون):

مَن أدمن الفاحشة؛ دخل في عداد المجرمين

في صياغة إجرام قوم لوط باسم الفاعل ﴿مُّجۡرِمِينَ﴾ دون صياغته فعلًا (يجرمون)، دلالةٌ على رسوخ تلك الفاحشة فيهم، واستِمساكِهم بها، ويدلُّ ذلك على أنَّ مَن أدمَن فاحشةً؛ دخلَ في عداد المجرمين - والعياذ بالله تعالى - بخلاف مَن ضَعُفَ، فأخطأ، ثُمَّ نَدِمَ، وتابَ.

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ في ذكر الاستثناءِ:

التَّشابه اللَّفظيُّ يَفي بحقِّ السّياقات القرآنيّة

وقع التَّشابه اللَّفظيُّ بين قول الله تعالى هنا: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾، وقولِه تعالى في سورة الحجر: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥٩﴾ [الحجر: 58 - 59] "فكأنَّ الاستثناء هاهنا لم يكن مذكورًا في خبر الملائكة، وإنَّما ذُكر في الخبر الَّذي قال إبراهيمُ عليه السلام؛ إذ قال: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: 32]، فدلَّ ذِكْرُ الاستثناء منهم - بعدَ سُؤالِ إبراهيم عليه السلام وإخبارِه إيّاهم: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ﴾ [العنكبوت: 32] - أنَّ تأخيرَ البيان عن الكلامِ جائزٌ"(1).

معنى (اللام) في قوله: ﴿لِنُرۡسِلَ﴾:

عِلّةُ الإرسال إلى النّاس إمّا للعذاب وإمّا للإكرام

(اللّام) في قوله: ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ﴾ لام التَّعليل، جيء بها لتعليلِ الإرسال لا الإهلاك، فقَد سبقَ بيانُ تعليلِ الإهلاك في وصف ﴿مُّجۡرِمِينَ﴾، وبقي بيانُ تعليل الإرسالِ، وهو ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ﴾، فـ "إنَّهم أُرسِلوا إليهم؛ ليرسلوا عليهم حجارةً من طين، وكأنَّ هذه الحجارةَ هي الرُّسل الَّتي تُنزل عليهم مِن السَّماء بالدَّمار والهلاك، في حين أنَّ هناك رسلًا أخرى تَنْزِلُ على المُكرمين من عباد الله بالرَّحمة والإحسان"(2).

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 386.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 522.

دلالةُ الإرسال في قولهم: ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ﴾:

تعديةُ الإرسالِ بـ (على) للعذاب، وبـ (إلى) لغيره

معنى قوله: ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: "لِنُمطِرَ عليهم من السَّماءِ حجارةً من طينٍ"[1]، و"نَرۡجُمهم بحجارة من طين متحَجِّر"[2]، فنُهۡلِكهم بهذه الحجارة؛ لأنَّ لفظة (أرسل) اطَّرَد في استعمالها أنَّها إذا اتَّصلت بـ (على)؛ فهي بمعنى المبالغةِ في المباشَرَة والعذاب، ومتى اتَّصلت بـ (إلى)؛ فَهيَ أخفُّ[3].

بلاغةُ الجِناس بين ﴿أُرۡسِلۡنَآ﴾، و﴿لِنُرۡسِلَ﴾:

مـادَّةُ الإرسـالِ غـنيَّةٌ بـدلالات اشتقاقاتِها

بين قول الملائكة عليهم السلام: ﴿أُرۡسِلۡنَآ﴾ وبين قولهم: ﴿لِنُرۡسِلَ﴾ جناس اشتقاقٍ؛ وذلك لاختلاف معنى اللَّفۡظَين[4] وأخۡذ بَعۡضِهما من بعضٍ، فالإرسال الأوَّل تكليفٌ بالإهلاكِ، والإرسال الثّاني مباشَرَةٌ لهم بالرَّجم وغيره؛ وذلك يحقِّق غاية الجِناس من المُخادعَة عنِ المعنى، مع تأديَةِ المقصودِ وافيًا.

معنى (على) في ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

شدَّةُ إهلاكِ الله تعالى المُجۡرمين

(على) في قوله: ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ﴾ في قول الضَّيف المكرمين: ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ﴾ حرفٌ دالٌّ على الاستعلاءِ، وهو استعلاءٌ حسّيٌّ ومعنويٌّ، فالحِسّيُّ: بإسقاط الحجارة عليهم مِن جهة الأعلى، والمعنويُّ: بِقَذفهم بالحجارة مِن كلِّ جهةٍ، قذفًا قاسيًا ومدمِّرًا، فهو في قوَّته وشدَّة إهلاكِه مثل السّاقط من جهة الأعلى.

بلاغةُ تقديم ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على المفعول ﴿حِجَارَةٗ﴾:

لِفَظاعة فاحشة قـوم لـوطٍ؛ خُـصَّت بهذه العقوبة

تقديمُ القيد ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على المفعول ﴿حِجَارَةٗ﴾، من قول الله تعالى: ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ﴾، يفيد التَّخصيصَ والقَصۡر، وأنَّ هذا العذاب مختصٌّ بهم مقصورٌ عليهم؛ لأنَّهم أهلُ الفسقِ

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 532.

(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 106.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 178.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 6.

المشهورون به، المُخْتَصّون به، ولا يُعْرَف ذلك الجُرْمُ في غيرهم قبلهم؛ لذلك كانَ إرسالُ الحجارة المخصوصةِ هذه مقصورًا عليهم وحدَهُم دون غيرهم.

على أنَّ إسقاط تلك الحجارة المسوَّمة عليهم يكون "بَعدَ ما قَلَبْنا قُراهُم، وجعلنا عاليَها سافلَها، حسبَما فُصِّل في سائرِ السّورِ الكريمةِ"[1]، وذلك نهاية البَوار الحسّيِّ، والإهانة المعنويَّة.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿حِجَارَةً﴾، ونكتةُ تنكيرِها:

لِـكُـلِّ ذَنْـبٍ عقوبةٌ، ولِكلِّ أهلِ جريمةٍ نوعُ عذابٍ

في التَّعبير بالحجارةِ تغليظٌ لعقوبةِ قوم لوط، وترهيبٌ من قَسْوَته؛ وذلك لمعاقبتهم بحِجارَةٍ مَخْصوصَةٍ "لا يَعلم كُنْهَها إلّا اللّه"[2]؛ ملاءَمَةً لجريمتهم الغريبة، وفي تنكير لفظِ ﴿حِجَارَةً﴾ لَفْتٌ لتلك الغرابة، فإنَّها من طينٍ خالقُهُ اللّه تعالى، ولا يقدِرُ على مثلِهِ إلّا هو سبحانه، وعلى ذلك فبَيْنَ ﴿حِجَارَةً﴾ و﴿طِينٍ﴾ طِباقٌ لافِتٌ إلى غرابة تلك العُقوبة، كغرابة تلك الجريمَةِ.

معنى ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن طِينٍ﴾:

تـعـدُّدُ معاني الـحُـروف يُـثْـري المَعانيَ القُرآنيَّةَ

﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن طِينٍ﴾ بيانيَّة، تعيِّن مادَّة الحجارةِ الأولى قبلَ حَرْقِها وتَصْييرِها حجارةً صمّاء، مؤذيةً مُهْلِكَة، وفيها مَعْنى التَّبعيضِ؛ إذْ تُبيِّن أنَّ أصل تلك الحجارةِ أُخذ من طينٍ، وكذلك فيها معنى الابتداءِ، أي: إنَّ "أصلَها طينٌ تحجَّر بِصَهْرِ النّار، وهي حجارة بُركانيَّة مِن كِبريت، قذفتها الأرضُ من الجهة الَّتي صارت بُحيرَةً، تُدْعى اليومَ بحيرةَ لوط، وأصعَدَها ناموسٌ إلهيٌّ بِضَغْطٍ، جَعَلَه اللّه تعالى يَرفع الخارجَ من البُركان إلى الجوِّ، فنزلت على قرى قوم لوط، فأهلكتهم، وذلك بأمرِ التَّكوين بواسطة القوَى المَلَكيَّة"[3].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 141.

(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1099.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 6.

دلالةُ تقييدِ الحِجارة بكونِها ﴿مِّن طِينٍ﴾:

بيانُ حقارةِ المُهْلَكينَ عندَ الله تَعالى

في التَّعبير بلفظِ ﴿طِينٍ﴾ هنا دلالةٌ على أنَّ المخلوق قد يُعذَّب، بل يُهلَك بأصل مادَّته الَّتي خُلِقَ منها؛ إذ خُلِقَ الإنسانُ ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ١٢﴾ [المؤمنون: 12]، وها هو يُهلَكُ بحجارة مادَّتها كذلك منَ الطِّين، وفي التَّعبير بالطِّين هنا إيماءٌ إلى حقارة هؤلاء المُهْلَكين عند الله تعالى؛ إذ أهلكهم بأهونِ شيءٍ، وهو الطِّين.

وفي التَّقييد بـ ﴿طِينٍ﴾ دَفْعٌ لتوهُّم بعض النّاس أنَّ المقصود بالحجارة (البَرَد)؛ لأنَّهم يُسَمّونه حجارةً، والمختارُ: أنَّ الله ﷻ له أن يفعل ما ذُكِرَ، وله أن يَخلق الحجارةَ من طينٍ على وجهٍ آخرَ مِن غير نارٍ ولا غُبار، لكنَّ العقلَ لا طريق له إلى الجزم بطريقِ إحداثِه، وما لا يَصِلُ العقل إليه يَجِبُ أَخْذُه بالنَّقل، والنَّصُّ ورد به، فأخذنا بهِ، ولا نعلم الكيفيَّة، وإنَّما المعلوم أنَّ الحجارة الَّتي من طين، نُزولها من السَّماء أغربُ وأعجَبُ مِن غيرها؛ لأنَّها في العادة لا بُدَّ لها مِن مُكْثٍ في النّار[1]، وقد يكون المقصودُ بالطِّين هنا "السِّجّيل، وهو طينٌ طُبِخ كما يُطبَخ الآجُرَّ، حتّى صار في صلابة الحجارة"[2].

دلالةُ تنكير ﴿طِينٍ﴾:

طينُ الحجارة الَّتي أُهلِكَ بها قوم لوط يَفعل بِقُدرته تعالى فِعلَ الحجارة الصَّلْدَة

في تنكير لفظِ ﴿طِينٍ﴾ تعظيمٌ له؛ إذ إنَّه ﴿طِينٍ﴾ خطيرٌ منكور، لكنَّ "هذا الطِّين اللَّين الرَّخو يَفعل بقُدرة الله تعالى فِعل الحجارة الصَّلْدَة، فيُهْلك، ويُدَمِّر، وكأنَّه الصَّواعق المنقضَّة من السَّماء"[3]، فهي حجارة ومِن نوع مخصوصٍ مِن الطِّين الَّذي لا عَهْدَ لأحدٍ به، قد خُصِّص لهؤلاءِ وأمثالهم.

نكتةُ الوصف بـ ﴿مُّسَوَّمَةً﴾:

وَصْفُ ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ يدلُّ على اختصاصِ كُلِّ آثمٍ من أولئك

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 180.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 402.

(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 522.

اختِصاصُ كلِّ مجرمٍ بحَجَرٍ أو أكثرَ يُهْلِكُه

المجرمين بِحجرٍ أو أكثر، فَقَد وُسِمت لَه، وعُلِّمت باسمِهِ، وحُدِّدت؛ كنايةً عن شدَّة الغضب الإلهيِّ عليهم، قال ابن عباس: "يكونُ الحجرُ أبيضَ، فيه نقطةٌ سوداءُ، أو يكونُ الحجرُ أسودَ، فيه نقطةٌ بيضاءُ، فذلك تَسْويمُها"[1].

أو هي حجارةٌ "معروفة بأنَّها حجارة العذاب"[2]، "معلَّمة في أوَّل خَلقها في عِلْم اللّه تعالى، ومُعَدَّة لِلمُسْرفينَ"[3]، أو "مُرسَلة، مِن: أَسَمتُ الماشيةَ، أي: أرسلتُها"[4].

توجيهُ إعرابِ ﴿مُّسَوَّمَةً﴾:

تعدُّدُ المعاني وإثراؤُها باختِلافِ أوجُهِ الإعرابِ

لتعدُّد أوجُه نَصْب ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ إثراء دلاليٌّ هادف، فيجوزُ أن يكون نصبُ ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ على الصِّفة لِـ ﴿حِجَارَةً﴾، أو على الحال في الضَّمير المستكِنِّ في الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيْهِمْ﴾، أو من الـ ﴿حِجَارَةً﴾؛ لكونِها قد وُصِفَت بالجارِّ والمجرور[5]، ويُشْعِرُ كونُها وصفًا بلزوم هذا الوصفِ لها، وذلك يُؤيِّدُ أنَّها معلَّمةٌ في ابتداءِ خَلْقِها في علم اللّه تعالى، وكونُ ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ حالًا يومئُ إلى أنَّ تَعْليمَها طارئٌ عارضٌ؛ لِما تقرَّر من أنَّ الأصلَ في الحالِ أن تكونَ منتَقِلَةً.

دلالةُ التَّعبير بالعِنديَّة في قوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾:

بشاعَةُ جريمة قومِ لوطٍ وشناعتُها

يدلُّ القيد بالعِنْديَّة في قوله تعالى: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ على فَظاعة جُرمهم في ميزان الحقِّ تعالى؛ إذ بلغت العنايةُ بعُقوبَتِهم أن يُسَوَّم كلُّ حَجَرٍ، ويُعلَّم من عند اللّه تعالى، لا من عند الملائكة، ولا من عند زبانيَةِ العذابِ مثلًا، وفي ذلك كنايةٌ عن فظاعَةِ الجُرْمِ وهولِ المُصيبة.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 532.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 106.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 15.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 141.
(5) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 106.

دلالةُ التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة في القيد ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾:

جريمةُ قوم لوطٍ تتجاوَز في الفظاعة حدًّا لا تَشمله رحمةُ الرَّبِّ الرَّحيم

في التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة في القيد ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ دلالةٌ على بُلوغ جُرْمِهم مبلغًا لا تتداركُه رحمةُ الرَّبِّ الرَّحيم تعالى على الرُّغم مِنْ سعة رحمتِه سبحانه، فلم تَسَعْهُم تلك الرَّحمة، ولم يَشْمَلْهُم ذلك العفوُ؛ إذْ أسرفوا، وجاوزوا كلَّ الحدود، ما استحقّوا به الحرمانَ مِن رحمتِه وعفوِه ﷻ، وعوقبوا بالحجارة المسوَّمة.

دلالة الإضافة في ﴿رَبِّكَ﴾:

تأمينُ الملائكةِ خَوْفَ إبراهيمَ عليه السلام

في إضافة اسمِ الرَّبِّ سبحانه إلى ضمير الخطاب، في قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، طَرْدٌ لأمثال قوم لوطٍ عَن ساحة رحمة الرَّبِّ الرَّحيم سبحانه، وتخصيصٌ لها بِنَبيِّ اللّٰه تعالى إبراهيم عليه السلام، وأتباعه الَّذين ساروا على مِلَّته، ملَّةِ الإسلام الحنيف، دون هؤلاء المجرمين، فهي مسوَّمة عند ربِّك لا رَبِّهم.

وفي الإضافة أيضًا كنايةٌ عن سعة رحمة الرَّبِّ الرَّحمن الرَّحيم تعالى، فإنَّه ربُّك - يا إبراهيم - الَّذي علِمتَ سَعة رحمتِه وكرمه وعطائه، ومع ذلك لم يَنْتَفِعوا بها، فما أشقاهُم!

فإنَّه "لمّا كان الملائكة قد رأوا اهتمامَهُ عليه السلام بالعلم بِخَبَرِهم؛ خشيةً من أن يكونوا أُرسِلوا لِعذاب أحدٍ يَعِزُّ عليه أمرُه؛ أمَّنوا خَوْفه بوصف الإحسان، فقالوا: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، أي: المُحسن إليك بهذه البِشارة وغيرها"[1].

بيانُ مرجع الضَّمير في ﴿رَبِّكَ﴾:

شِدَّةُ جُرْمِهم أبعدَهُم عَن رحمةِ الله تعالى

ضمير الخِطاب في ﴿رَبِّكَ﴾ يعود إلى إبراهيمَ عليه السلام، وفي إيثار إضافة الرَّبِّ إليه عليه السلام دونهم في قولهم: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ لا (عند ربِّنا)، تذكيرٌ له بِسَعة رحمتِه، الَّتي يَعلم إبراهيمُ منها ما يَعْلَم، وأنَّها مع ذلك لم تَتَدارَكْهُم؛ ممّا يدلُّ على شدَّة فُحْشهم في مِقْياسِ الحقِّ ﷻ.

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 465.

معنى اللّام في قوله: ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾:

الإســـــرافُ في المَـعـاصي مِـن أعـظـمِ أسبابِ الهلاكِ

(اللام) في قوله: ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ لام الاختصاصِ، وفيها معنى التَّعليل أيضًا، فهذه الحجارةُ مُخْتَصَّةٌ بهم، وقد خُلِقَتِ ابتداءً، وسيمَت لأجلهم، وحُدِّدت بأسمائهم دون سِواهُم، وفي التَّقييد بـ (المسرفين) إشارة إلى خلاف ما يقول الطَّبَعيّون: إنَّ الحجارة إذا أصابَت واحدًا من النّاس؛ فذلك نَوْعٌ من الاتِّفاق، فإنَّها تنزل بطَبْعِها، فيتَّفق شخصٌ لها، فتُصيبه، فقوله: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾، أي: في أوَّل ما خلق، وأرسل، فإذا عُلِم هذا؛ فإنَّما كان ذلك على قَصْد إهلاكِ المُسْرفينَ[1].

معنى (أل) في ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾، ودلالةُ جَمعِه:

مُـجـاوزَةُ قـومِ لـوطٍ الـحـدَّ في الفُجورِ

(أل) في ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ لِتعريف العهد العلميِّ، أي: مسوَّمة لهؤلاء المسرفين بخاصَّة؛ إذ ليس لكلِّ مسرفٍ في الدُّنيا حجارة مسوَّمة[2]، والمقصودُ بهم: الكافرون المسرفونَ مِن قوم لوط، فـ "الشِّرك أَسْرَفُ الذُّنوب وأعظَمُها"[3]، فتلك الحجارةُ مسوَّمة "للمجاوزين الحدَّ في الفجورِ بإتيانهم الذُّكور"[4] بخاصَّة.

و"سمّاهم مسرفينَ، كما سمّاهم عادينَ؛ لإسرافهم وعُدْوانِهم في عَمَلِهم؛ إذ لم يَقْنَعوا بما أُبيح لهم"[5]، وتجاوَزوهُ إلى فاحِشَتِهم الذَّميمة.

دلالةُ صَوْغِ (المسرفين) اسمَ فاعلٍ:

المُـسـرف يُقيم على الذَّنب حتّى يتمكَّن منه، فلا يقدِرُ على التَّوبة منْه

في صوغ (المسرفين) اسمَ فاعلٍ دلالةٌ على تمكُّنهم في الإسراف؛ إذ كانوا هم السّابقين إلى تلك الرَّذيلة، قال تعالى: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨﴾ [العنكبوت: 28] أي: "لم يبلغْ مبلغكم أحدٌ"[6].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 180.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 180.
(3) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 178.
(4) القِنّوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 203.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 402.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 181.

لطيفة إظهار (المسرفين) دون إضْمارِه (لهم):

بيانُ علَّةِ التَّعذيب والإهلاكِ

قال الآلوسيُّ: "ووُضِع الظّاهر موضع الضَّمير، أي: لم يقل: (مسوَّمة عند ربِّك لهم)، بل قال: ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾؛ ذمًّا لهم بالإسراف، بعد ذمِّهم بالإجرام، وإشارة إلى عِلَّةِ الحكم"[1]، أي: علَّة الحُكم عليهم بالعذابِ والإهلاك، و"لِتَسْجيل إفراطهم في الإجرام"[2].

نكتَةُ الجمعِ بينَ ﴿مُّجۡرِمِينَ﴾ و(مسرفين):

لا صغيرةَ مع الإضْرارِ، فإنَّها معهُ تَصيرُ كبيرَةً

"المُجرم: هو الآتي بالذَّنب العظيم؛ لأنَّ الجُرم فيه دلالةٌ على العِظَم، ومنه جرم الشَّيء؛ لِعَظمة مِقداره، والمُسرِف: هو الآتي بالكبيرة، ومَن أسرف، ولوفي الصَّغائر يَصير مُجرمًا؛ لأنَّ الصَّغير إلى الصَّغير إذا انضَمَّ؛ صار كبيرًا، ومَن أجرَمَ؛ فقد أسْرَف؛ لأنَّه أتى بالكبيرةِ، ولو دَفعة واحدة، فالوصفانِ اجتمعا فيهم.

لكنَّ فيه لطيفةً معنويَّة، وهي أنَّ اللّه تعالى سوَّمها للمُسرف المصرِّ الَّذي لا يترك الجرم، والعِلْم بالأمور المستقبلة عند اللّه تعالى، ويعلم أنَّهم مسرفون، فأمَرَ الملائكةَ بإرسالِها عليهم، وأمّا الملائكةُ؛ فعِلْمُهم تعلَّق بالحاضر، وأنَّهم كانوا مُجْرِمين، فقالوا: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ﴾ نَعلمهم ﴿مُّجۡرِمِينَ﴾؛ ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ﴾ خُلقت لِمن لا يؤمن، ويُصِرُّ، ويُسرِف، ولَزِمَ مِن هذا عِلْمنا بأنَّهم لو عاشوا سنينَ؛ لتمادَوا في الإجرام"[3].

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ﴾:

طَيُّ ما لا يتعلَّق بذِكْرِه غرضٌ؛ إيجازًا واختصارًا

(الفاء) في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عاطفةٌ ما بعدها على محذوفٍ سابقٍ، والتَّقدير: "ففارق الملائكةُ إبراهيمَ ذاهبين إلى قوم لوطٍ لإهلاكهم، وجرى بينَهم وبينَ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 15.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 7.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 180.

لوطٍ ﷺ ما جرى، ثُمَّ أخذوا في تنفيذِ ما كلَّفناهم به، فأخرجْنا بفَضْلِنا ورحمتنا مَن كان في قرية لوطٍ من المؤمنين دون أن يَمَسَّهم عذابُنا"[1]، وحُذِف ما حُذِف هنا؛ اكتفاءً بِذكره في مواضع أُخَر[2].

ومن مزايا تلك الفاءِ: أنَّها تَطوي ما لا يتعلَّق بذِكْرِه غرضٌ؛ لتَقْفِزَ بالأسلوب إلى ما يتعلَّق الغرضُ بذِكْرِه، والغرضُ هنا يتعلَّق بإخراج المؤمنين مِن بين أظهُرِ الفُسّاق لإنجاء المؤمنين ممّا يَنْتَظِرُهُم مِنَ الهلاكِ.

دلالةُ التَّعبير بالإخراج في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾:

إنـجـاءُ الله تعالى الأنبياءَ وأتباعَهم مِنَ الهلاكِ

إخراجُ الشَّيءِ: إبرازه وإظهارُه، وإخراجه عن الصَّفِّ، أي: استثناؤه من الصَّفِّ[3]، والمراد بفعل الإخراج هنا: إنقاذُ لوط ﷺ ومن معه من المؤمنين من الهلاكِ الَّذي سَيَحُلُّ على قومِ لوطٍ قبل حُلوله، وإظهارهم وإبرازهم بعيدًا عن موطن العذابِ، فلا يَروعُهُم وقْعُه على الكفّار.

بلاغةُ المجاز في التَّعبير بالإخراج في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾:

التَّنبيهُ إلى نتيجةِ الأمرِ وأثَره ابتداءً

الإخراج في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مستعمَل في سبَبِه، وهو الأمر ابتداءً بالخروجِ متمثِّلًا في تبليغ الملائكةِ الكرام أمرَ ربِّهم سبحانه إلى لوطٍ ﷺ: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ [هود: 81]، فـ "اللّه تعالى أمر لوطًا بأن يَخْرُج هو ومَن معه مِنَ المؤمنين؛ لئلّا يصيبَهُم العذابُ"[4]، وعلى ذلك فالمجازُ مرسَلٌ لِعَلاقة المسبَّبيَّة؛ إذِ المذكورُ هو المُسَبَّب عن الأمر به، وتكمُنُ بلاغة ذلك المجازِ في التَّنبيه إلى نَتيجة الأمرِ وأثره، وهو الخروجُ نفسُه.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 22.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1100.
(3) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (خرج).
(4) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 178.

دلالةُ إسناد الإخراج إلى ضَمير العظمَةِ في قوله: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا﴾:

المؤمنون - دون الفاسقين - محلُّ عنايةِ الله تعالى

الَّذي باشَر إخراجَ المؤمنين من قرية قوم لوطٍ ﵇ هم الملائكة، كما صُرِّح به في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ [هود: 81]، لكنَّه لمّا كان ذلك الإخراجُ بأمرِ اللّه تعالى، وكانَ الملائكةُ لا يتصرَّفون من تلقائهم؛ أُسْنِدَ الإخراج مباشرةً إلى ضمير العظمةِ في قوله: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وهم لوطٌ وأهلُه إلّا امرأتَهُ[1]، والمعنى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا﴾ "بما لنا من العظمَةِ بعدَ أن ذهبَت رُسُلنا إليهم، ووَقَعَت بينهم وبين لوطٍ ﵇ محاولاتٌ معروفَةٌ؛ لم تَدْعُ الحالُ هُنا إلى ذِكْرِها"[2].

ففي إسنادِ هذا الإخراج إلى ضمير العظمةِ دلالةٌ على العنايةِ الرَّبّانيَّة بالمؤمنين الأطهار؛ إذْ كأنَّه تعالى قد باشَر إخراجَ المؤمنين من القرية بنفسه ﷻ؛ كرامةً لهم، ورحمةً بهم، وتشريفًا وتعزيزًا بعدما كانوا مَنْبوذينَ من الفاسقينَ.

علَّةُ التَّعبير بالموصول في المفعول ﴿مَن﴾ دون ذِكرِ لوطٍ وأهله:

ينجي الله تعالى المؤمنين لأجل إيمانهم، لا لقَرابَتهم مِنَ الأنبياءِ والصّالحين

التَّعبير بالموصول ﴿مَن﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يُفسِح لذِكْرِ جُملة الصِّلة: ﴿كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بما تَشْتَمِلُ عليه من تفاصيلَ لا يُتيحها التَّعبير بالاسم الصَّريح، وكذلك الموصول يَطوي جميعَ الأسماء، الَّتي قد يَطولُ التَّركيب بتَعدادِها، "وقيل: كان لوطٌ وأهلُ بيتِه الَّذين نَجَوا ثلاثةَ عشرَ"[3]، فتعدادُ أسمائِهم أمر يَطول، فكانَ التَّعبيرُ بالموصول عنصرَ إيجازٍ أيضًا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 7.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 466.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 402.

فَفي طَيِّ ذِكْرِ لوطٍ وأهله، والنَّصِّ على وصفهم بالمؤمنين "تنويهٌ بشأن الإيمان والإسلام، أي: إنَّ اللّه نَجّاهم من العذاب لأجل إيمانهم بما جاء به رسولُهم، لا لأجل أنَّهم أهلُ لوطٍ، وأنَّ كَوْنَهُم أهلَ بيتِ لوطٍ؛ لأنَّهم انحصر فيهم وصفُ المؤمنين في تلك القرية"(1).

دلالةُ التَّعبير بالكون الماضي:

الأنبياءُ أمانٌ لغَيْرهم ما داموا فيهم

في التَّعبير بفعل الكون الماضي ﴿كَانَ﴾ في جملة الصِّلة: ﴿كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دلالَةٌ على توطُّن هؤلاء المُؤْمنين المخرَجين تلك القرية، وأنَّ كونَهُم فيها كان حِرزًا لأهلها مِنَ الهلاك، وأنَّ الهلاك ما حلَّ بها ولا بأهلها؛ حتّى أَخْرَجَ اللّه تعالى المؤمنين منها، وحتّى لم يُبقِ فيها إلّا الأراذِلَ الأقذارَ.

معنى (في) في المتعلّق ﴿فِيهَا﴾:

وطَنُ الإنسان عزيزٌ عليه

(في) مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿مَن كَانَ فِيهَا﴾ ظرفيَّة، تدلُّ على اكْتِنانِهم فيها؛ لأنَّها قريتهم، وأنَّ لإخراجِهم منها أثرًا بالغًا في نُفوسِهم، فوطَنُ الإنسانِ عزيز عليه، كما قال الرَّسول ﷺ حين أُخْرِجَ من مكَّة: "ولَولا أنَّ أهلك أَخْرجوني مِنْك؛ ما خرجت"(2).

كما أنَّ القيد ﴿فِيهَا﴾ يدلُّ على عناية اللّه تعالى بعباده المؤمنين؛ إذ أَخْرَجَ من كان فيها من المؤمنينَ، فلم يَترُك منهم أحدًا للهلاك، وتلك عنايتُه سُبْحانه بأوليائِه وأصفيائِه.

بيانُ مرجعِ الضَّمير المجرور في القيد ﴿فِيهَا﴾:

الاكتفاءُ بالإشارَةِ عن التَّصريح إذا عُلِمَ المُراد

الضَّمير المجرور في القيد ﴿فِيهَا﴾ من قولهِ تعالى: ﴿مَن كَانَ فِيهَا﴾ يَرْجِعُ إلى "قرية سدوم - قريةِ قوم لوطٍ - وكنّى عن القرية بقوله: ﴿مَن كَانَ فِيهَا﴾، ولم يَجْرِ لَها ذكرٌ قبلَ ذلك"(3)؛ لكونها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 8.
(2) رواه الترمذي في جامعه، رقم: (3926)، وأحمد في مسنده، رقم: (18717) واللّفظ له، وصحّحه الألباني في صحيح موارد الظّمآن، رقم: (854، 855).
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 532.

معلومةً[1]، ففي الجملةِ وضعُ المضمرِ موضعَ المظهَرِ؛ اكتفاءً بِعِلْمِها من المقامِ.

معنى ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

لله تعالى عنايةٌ بكُلِّ المؤمنين به

﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بيانيَّة، أي: أخرَجَ سُبْحانه جِنس المؤمنين بالله تعالى مِنَ الَّذين كانوا فيها، وعصمَهُم مِن العذاب والهلاك.

سرُّ إيثار وصف الإيمانِ في ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

الإيمان يُحَقِّق لأهله الأمانَ

في التَّعبير بوصف الإيمان في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دلالةٌ على عُمقِ اليقينِ بالله تعالى، كما أنَّ فيهِ من معاني الأمنِ والأمان، فمَنْ آمن بالله تعالى حقَّ الإيمان؛ استشعر الأمنَ، وعاش الأمانَ، وإن كان في عَيْنِ المخاطر، كما أحسَّه، وعاشه الخليلُ عليه السلام في حفرة النّار، وكما عاشَهُ رسولُنا ﷺ، والكفّار يطوفونَ بِهِ حول الغارِ في طريقِ الهجرةِ؛ إذْ يقولُ لصاحبه - وقد قال له وهُما في الغار: يا رسول الله، لو أنَّ أحدهم رفع قدمه؛ رآنا - فقال: «ما ظَنُّكَ باثنَيْنِ اللّه ثالثُهُما»[2].

معنى (أل) في ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وإشارة جمعِه:

الأنبياء وأهلُ جيلهم من المؤمنين في مأمَنٍ مِنَ الهلاكِ

(أل) في ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هنا للعَهْدِ العلميِّ، أي: مؤمني هذه القرية بخاصَّة، وفي ذلك مزيدُ عنايةٍ بالأنبياء وأهل جيلِهم من المؤمنين، ويُفْهَم من ذلك أنَّ الأنبياء وأهلَ جيلهم من المؤمنين في مأمَنٍ مِنَ الهلاك.

أمّا غيرهم؛ فقد سُئِل الرَّسول ﷺ: يا رَسولَ اللّه أنَهْلِكُ، وفينا الصّالِحونَ؟ قالَ: «نَعَم؛ إذا كَثُرَ الخَبَثُ»[3]، أي: وسكت عنه الصّالحون.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 402.

(2) رواه البخاري في صحيحه، رقم: (4663)، ومسلم في صحيحه، رقم: (2381).

(3) رواه البخاري في صحيحه، رقم: (3346)، ومسلم في صحيحه، رقم: (2880).

ويؤخَذ من جَمع ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إخراجُ جَميعِهم منها قبلَ حلولِ العذاب.

لطيفةُ تقديمِ وصف ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ في هذا السّياق:

المُسْلِم أعمُّ من المؤمنِ

ذكَر البِقاعيُّ أنَّ القلبَ لَمّا كان "عِمادَ البدَنِ الَّذي به صلاحُه أو فسادُه، فكان عملُه أفضلَ الأعمال، وبه يكون استسلامُ الأعضاءِ أو جِماحها؛ بدأ به، فقال: ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾"[1].

فبُدِئَ بوصف الإيمانِ لكونه أشرفَ؛ إذ كلُّ مؤمنٍ مسلمٌ، وليس كلُّ مسلم مؤمنًا، ولذا قال الرّازيُّ: "والحَقُّ أنَّ المسلمَ أعمُّ مِنَ المؤمن، وإطلاقُ العامِّ على الخاصِّ لا مانع منهُ، فإذا سُمّي المُؤْمِنُ مسلمًا لا يدُلُّ على اتِّحاد مَفْهومَيْهما، فكأنَّه تعالى قال: أخرَجْنا المؤمنين؛ فما وجَدْنا الأعمَّ منهم إلّا بيتًا مِنَ المسلمين، ويلزَمُ من هذا ألّا يكونَ هناك غيرُهم مِنَ المؤمنين، وهذا كما لو قال قائلٌ لغيره: مَن في البيتِ مِنَ النّاس؟ فيقول له: ما في البيتِ مِنَ الحَيواناتِ أحدٌ غير زيدٍ، فيكون مخبِرًا له بخُلوِّ البيتِ عَن كلِّ إنسانٍ غيرِ زيدٍ"[2].

ببركة المُحْسِن قد ينجو المسيءُ

وفي إخراج المؤمنين قبلَ إنزال الهلاك بهم "بيانُ أنَّه بِبَرَكَة المُحسن يَنْجو المُسيء، فإنَّ القريةَ ما دام فيها المؤمنُ؛ لم تُهلَك"[3]، وذلك أدْعى للحِفاظ على حياة المؤمنين بالواحدِ ﷻ، على خلاف ما يرجوه الكفّار من خلوِّ بلادهم بل الكوكب كلِّه من المؤمنين، وفي ذلك هلاكُهم؛ لو كانوا يَعْلَمون.

ودليلٌ آخر على ذلك: هو أنَّ الهلاك الأخيرَ لأهل الأرض جميعًا - قُبَيْلَ يوم القيامة - لا يكون ما دام في الدُّنيا مَن يقول: اللّه اللّه، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «لا تقوم الساعة حَتَّى لا يُقالَ في الأرْضِ: اللّه،

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 466.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 181.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 181.

اللّه»[1]، فبقاء المؤمنين أمانٌ للكافرين، غير أنَّ الكُفْرَ يَطمس بصائرَ الكفّار، فلا يفقهون تلك الدَّقيقة.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَمَا وَجَدۡنَا﴾:

الإيمان عند الله تَعالى محفوظٌ، ولا يَضيع على أهله

(الفاء) في قول اللّه تعالى: ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ للتَّعْليل[2]، أي: لأنَّنا لم نجد عددَ المؤمنين فيها كثيرًا - إذ لم يكن المؤمنون إلّا أهل بيتٍ واحد - لذلك أخرجناهم، ودمَّرنا من سواهم، و"عن قتادة: لو كان فيها أكثرُ من ذلك؛ لأنجاهُمُ اللّه تعالى؛ لِتَعْلَموا أنَّ الإيمان عندَ اللّه محفوظٌ لا ضَيْعَةَ على أهله"[3]، وعلى ذلك يُعْطي التَّركيب بمفهوم المُخالفَةِ أنَّ عدد المؤمنين لو كان كثيرًا، وكانوا أغلب النّاسِ فيها؛ لَمَا أُخرجوا، ولَمَا أُهلِكت القريَةُ بأهلِها، كما حدَث.

معنى (ما) في قوله: ﴿فَمَا وَجَدۡنَا﴾:

غربَةُ أهلِ الاستِقامَةِ بينَ أهلِ الشَّرِّ والفَسادِ

(ما) في قول اللّه تعالى: ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ نافية، تُقَرِّر نَفْي وجدانِ الملائكة - في تلك القرية الآثم أهلُها - أكثرَ من أهل بيتٍ واحد من المسلمين؛ كنايةً عن عموم الفُحش أهلَ كلِّ بيوت القرية إلّا أهلَ هذا البيت اليتيم، فَهُم وحدَهُم الأطهارُ الباقون على الفِطرة السَّليمة، والخليقَةِ المستقيمة.

وهكذا أهل قُرَى الفُحش والخَنا يلوِّث بعضُهم بعضًا، ومَن يظَلُّ طاهرًا نقيًّا بينَهُم؛ فإنَّه يكابد الأمَرَّيْن في سبيل المحافظة على طُهره واستقامته، فأهل الاستقامة بين أهلِ الفُحش والخَنا غرباءُ.

دلالةُ التَّعبير بِفِعْلِ الوجدان في ﴿وَجَدۡنَا﴾ ماضيًا:

تحقُّق ما تعلَّق بالوجدانِ

الوجدان في قوله: ﴿فَمَا وَجَدۡنَا﴾ مراد به تعلُّق علم اللّه تعالى

(1) رواه مسلم في صحيحه، رقم: (148).
(2) أبو البقاء، الكليات، ص: 112.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 532.

بالمعلوم بعدَ وقوعه، ووجدانُ الشَّيء: إدراكُه وتحصيله[1]، وصيغة المُضيِّ في فعل الوجدان تدلُّ على تحقُّق ما يتعلَّق به الوجدان مِنَ الفَرْزِ والبَحْثِ عن مُؤْمنين، والقطع بذلك؛ ممّا يُقرِّر أنَّ هذا القصرَ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ.

أهلُ الإيمان أهلُ عناية الله تعالى

بلاغةُ الاستعارة في فعل الوجدان:

في التَّعبير بفعل الوجدان هنا استعارةٌ مكنيَّة، فكأنَّ عمليَّةَ بَحثٍ عن المؤمنين، وفرزٍ وتجنيب لهم عنِ الكافرين تمَّت، ولم تُسفر إلّا عن وجود أهل بيت واحدٍ؛ مبالغةً في بيان شيوعِ الفُحْشِ والفُجور وعمومِهما أهلَ تلك القرية بيوتًا وأفرادًا، ذكورًا وإناثًا، وأنَّ نِسبة المؤمنين فيها إلى الفاجِرين لا تكادُ تُذْكَرُ.

وفي ذلك إيحاءٌ بسُموِّ مكانة المؤمنين، وشرفِ إيمانهم، بحيث يُبحَثُ عنهم، ويُفرز أهلُ القرية، وتُفرَز بيوتُها تنقيبًا عنهم؛ ضمانًا لسلامتهم من تَرْويعهم بأيِّ أذًى قبل حلول الهلاكِ.

فِعلُ الملائكة الكرامِ يُنسَبُ إلى الله تعالى؛ لأنَّه بإذنه وأمره

دلالةُ إسناد الفعل في ﴿وَجَدۡنَا﴾ إلى ضمير العظمة:

في إسناد فعل الوجدان المنفيِّ إلى ضمير العظمة تجوُّزٌ؛ إذ مَن يُسند إليه هذا الفعل حقيقةً هُم الضَّيف المكرمون الَّذين باشروا المهمَّة، لكنَّ النَّظم الكريم أسنده إلى ضمير العظمة للّه ﷻ مبالغةً في التَّحقيق، وتأكيدًا على خُلوِّ القريةِ مِن مؤمنين آخرين؛ إذ لا يُقال: (ما وجدت كذا) إلّا بَعد الفحص والبحثِ والتَّفتيش[2]، وفي إسناد الأمر إليه تعالى أيضًا تشريفٌ لِرُسله؛ إعلامًا بأنَّ فعلَهم فعلُه[3] ﷻ.

تأكيدُ العُموم وتَقْويَتُه

لطيفةُ تكرار القيد ﴿فِيهَا﴾:

في تكرار القيد ﴿فِيهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 8.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 15.

(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 466.

﴿بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ بعد سَبْقِ ذِكْرِه في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ دلالةٌ على العنايَةِ بِبَحْثِ مَن فيها وما فيها، والعناية بمُؤْمِنيها؛ لإنجائِهم من الهلاكِ الوَشيك، وهذا ملمَحٌ يُقوّي العمومَ، ويؤكِّد شمولَ كلِّ قومِ لوط إلّا أهل بيته المؤمنين.

بلاغةُ الاستثناء بـ ﴿غَيۡرَ﴾ في قوله: ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ﴾:

قلّةُ أهلِ الإيمان في جانِبِ أهلِ الشَّرِّ والفسادِ

بالتَّعبير بـ ﴿غَيۡرَ﴾ في قوله: ﴿غَيۡرَ بَيۡتٖ﴾ يكتملُ أسلوبُ القَصْرِ القاطع بِقَصْر المؤمنين الَّذين كانوا في القرية قبلَ الإهلاك على أهل بيتٍ واحد، أي: منهم عددٌ قليل جدًّا، أمّا ما دون ذلك؛ فكلُّهم أقذارٌ ساقِطونَ.

وهو قَصر حقيقيٌّ تحقيقيٌّ لا تجوُّزَ فيه، يَقصر وجدان الإيمانِ على أهل بيتٍ واحد، لا يتجاوَزُهُم إلى غيرهم، وفي قَصر الإيمان في القرية على بيتٍ واحدٍ تصديقُ قول الرَّسول ﷺ: «عُرِضَت عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبيَّ ومَعَهُ الرُّهَيْطُ، والنَّبيَّ ومَعَهُ الرَّجُلُ والرَّجُلانِ، والنَّبيَّ لَيْسَ مَعَهُ أحَدٌ»[1].

دلالة التَّعبير بـ ﴿بَيۡتٖ﴾، ولطيفةُ تنكيرِه:

أهلُ الاستقامة بين أهل الفُحشِ والخَنا، غرباءُ

في التَّعبير بـ ﴿بَيۡتٖ﴾ دون (سكَنٍ) مثلًا في قوله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ دلالة على اتِّخاذهم إيّاه مبيتًا فحسبُ، دون أن يكون بينَهُم وبين أهل القرية الفاسقين أيُّ انسجامٍ وتآلُفٍ.

كذلك في تنكيرِهِ معنى الاغتراب، وأنَّ أهله كانوا في تلك القرية أهلَ غربة منكورين من أهلها، وفي تنكير ﴿بَيۡتٖ﴾ كذلك إيحاءٌ بأنَّه بيتٌ شريفٌ، أشرافٌ أهلُه.

معنى ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾:

﴿مِّنَ﴾ في القيد ﴿مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ بيانيَّة؛ تُبين عن صِفَةِ أهل هذا

(1) رواه البخاري في صحيحه، رقم: (5705)، ومسلم في صحيحه، رقم: (220) واللفظ له.

الحُكم بالهلاك أو النَّجاة لغلبة الصّالحين أو الطّالحين في البلاد

البيت الطّاهر، وأنَّهم أسْلَموا أنفُسَهُم للّه تعالى قيامًا على خدمةِ دينِه الحقِّ، "وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الكفرَ إذا غلبَ، والفسقَ إذا فشا؛ لا تنفع معه عبادَةُ المؤمنين، بخلاف ما لو كان أكثرُ الخلقِ على الطَّريقة المستقيمة، وفيهم شِرْذِمة يسيرة أهلُ شرٍّ وفسادٍ.

وقيل في مثاله: إنَّ العالَم كَبَدَنٍ، ووجودَ الصّالحين كالأغذية الباردة والحارَّة، والكفّارَ والفسّاق كالسُّموم الواردة عليه الضّارَّة، ثُمَّ إنَّ البدن إنْ خلا عن المنافع، وفيه المضارُّ؛ هلك، وإن خلا عن المضارِّ، وفيه المنافعُ؛ طاب عيشُه، ونَما، وإن وُجد فيه كلاهُما؛ فالحكم للغالبِ، فكذلك البلادُ والعباد"[1].

لطيفة الجمع بين وصفَي: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ في السّياق:

مَدحُ أهلِ بيتِ لوطٍ بوَصْفَي الإيمانِ والإسلامِ

ذكر بعضُ أهل العلم أنَّ ذِكْر ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ و﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ هاهنا لإرادَةِ المدح، وبأنَّ الثّانيَ ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ عينُ الأوَّل ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لوقوعهما مقابِلَيْن للكافرين، فقيل أوّلاً: ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾، ثمَّ ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾، والثّاني منهما عينُ الأوَّل، والمقصودُ بكونِ المسلمين عينَ المؤمنينَ إنَّما هو في الصِّدقِ والذّاتِ، لا في المفهومِ[2]، وكذا يُقال عن وصف المجرمين مع المسرفينَ.

و(الإسلام): الانقياد والاستسلام لأمر اللّه سبحانه، فكلُّ مؤمنٍ مسلمٌ، ويدلُّ لذلك قولُ اللّه تعالى: ﴿۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: 14]، وقد أوضح رسولُ اللّه ﷺ الفرق بين الإسلام والإيمان في حديث جبريلَ المشهور حين سأله عن الإسلام، فقال: «الإسلامُ: أن تَشهَدَ أن لا إلَهَ إلّا اللّه، وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللّه، وتُقيمَ الصَّلاةَ، وتُؤتيَ الزَّكاةَ، وتَصومَ رَمَضانَ، وتَحُجَّ البَيتَ؛ إنِ استَطَعْتَ إلَيهِ سَبيلًا»، وسُئِل عن الإيمان، فقال:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 181.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 10/ 28.

«أن تُؤْمِنَ باللّه، ومَلائِكَته، وكُتُبه، ورُسُله، واليَومِ الآخِرِ، وتُؤمِنَ بالقَدَرِ خَيره وشَرّه»[1].

ووصْفا الإسلام والإيمان إذا اجتمعا؛ افْتَرقا، فدلَّ الإيمانُ على أعمال الباطِنِ، والإسلامُ على أعمال الظّاهر، فكان في الجمعِ بين الوصفين مدحٌ بليغٌ وثناء عظيم لأهل بيت لوطٍ عليه السلام.

لطيفةُ صوغ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ و﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ على صيغة اسم الفاعِل:

لا ينفع الإيمانُ الطّارئ من الكافر بعدَ حُلول أسبابِ الهلاكِ

في صياغة ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ و﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ على صيغة اسمِ الفاعل؛ إشارةٌ إلى كونهم "عريقين في الإسلام الظّاهر والباطن للّه تعالى، مِن غير اعتراضٍ أصلًا".

فكان هذا البيتُ الواحد صادقًا عليه الإيمانُ الّذي هو التّصديق المستلزمُ للقبولِ والإذعان، والإسلامُ الّذي هو الانقياد، وإطلاقُ الوصفين جميعًا؛ لأنَّه ما آمنَ مؤمنٌ إلّا وهو مسلم؛ لِما بينها من التّلازُم؛ وإن اختلفَ المَفْهومانِ[2].

معنى (الواو) في جملة ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ﴾:

كلُّ الأفعال الّتي تقع في الكون هيَ بأمر الله تعالى وإذْنه وقُدْرَته

(الواو) في قول اللّه تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ عاطفة؛ إذ تَجْمَعُ تلك الأفعالَ ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾، ﴿فَمَا وَجَدْنَا﴾، ﴿وَتَرَكْنَا﴾، وكلُّها أفعالٌ للّه تعالى، سواءٌ أكانت له حقيقةً أم كانت للملائكة الكرام، وأسندها اللّه تعالى إلى نفسه تشريفًا لهم وتكريمًا، وتنويهًا بأنَّهم لا يعملون عملًا، ولا يفعلون فعلًا إلّا بإذنه وبأمرٍ منه جل جلاله.

وعُطِفَ بين الجملتينِ بالواو؛ لِما بينَهُما مِنَ التَّوسُّط بين الكمالين؛ فإنَّ الجملتين اتَّحدتا في الخبريَّة، وبينَهُما مناسبةٌ لفظيَّة ومعنويَّة،

(1) رواه مسلم في صحيحه، رقم: (8).
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 466.

فأمّا اللّفظيَّة؛ فاشتراكُهُما في الفعليَّة الماضويَّة، واتِّحاد المسند إليه فيهِما، وأمّا المعنويَّة؛ فالجُملتانِ بينَهُما جامِعٌ وهميٌّ وهو التَّضادُّ؛ إذِ الأولى فيها بيانُ نجاةِ أهل الإيمان، والثّانية فيها بيانُ هلاكِ أهلِ الكُفْرانِ.

الإيماءُ إلى القوَّة الإلهيَّة والجَبروت الرَّبّانيّ

دلالةُ التَّعبير بفعل التَّرك مسندًا إلى ضمير العظمة:

في التَّعبير بفعل التَّرك في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ دلالة على خُلود آثار الإهلاك الَّذي حلَّ بقوم لوط عليه السلام؛ لأنَّ "إبقاء آثار المهلَكين أدلُّ على قدرة مَن أهلكهم"[1] سبحانه وتعالى، وأزجَرُ لِمن يراه إلى يوم القيامةِ.

وفي إسناد فعلِ التَّرك إلى ضمير العظمة دليلُ القوَّة والجَبروت الَّذي فَعَل بهم الأفاعيل، أي: أهلكنا قُرى قوم لوط، وتركنا آثارَ الإهلاك خالدةً بعَظَمَتِنا الَّتي لا يعوقُها شيءٌ.

إهلاكُ المُجْرِمين وإبقاءُ ما يدُلُّ على هَلاكهم

بلاغةُ الصّورة المجازيَّة والكِنائيَّة في فعل التَّرك:

حقيقةُ التَّرك: مفارقة شخصٍ شيئًا حَصَل معه في مكانٍ، ففارق ذلك المكانَ، وأبقى منه ما كان معَهُ، كقول عنترةَ:

فَتَرَكْتُهُ جَزَرَ السِّباعِ يَنُشْنَهُ[2]

ويُطلق على التَّسبُّب في إيجاد حالٍ تطولُ، كقول النّابغة:

فلا تتركنِّي بالوعيدِ كأنَّني *** إلى النّاسِ مطليٌّ به القارُ أجربُ[3]

"بتشبيه إبقاء تلك الحالة فيه بالشَّيء المتروك في مكانٍ، ووجهُ الشَّبه: عدم التَّغيُّر، والتَّرك في الآية: كنايةٌ عن إبقاء الشَّيء في موضعٍ دون مفارَقة التّارك، أو هو مجاز مرسَلٌ في ذلك، فيكون نظيرَ ما في بيت النّابغة"[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 467.
(2) البيت لعنترة من معلقتهِ، يُنظر: الخطيب التبريزي، شرح ديوان عنترة بن شداد، ص: 174.
(3) ديوان النابغة الذبياني، ص: 73، طبعة دار المعارف.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 8.

بيانُ مرجع الضَّمير المجرور في ﴿فِيهَآ﴾:

الضَّمير راجع إلى القريَةِ أو القِصَّة

الضَّمير المجرور في قوله: ﴿فِيهَآ﴾ يعود على القريَة، أي: "وتركنا في هذه القرية الَّتي أخرجْنا مَن كان فيها مِن المؤمنين آيةً"[1]، أو يعود إلى "ما يُؤْخَذ من مجموع قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ على تأويل الكلام بالقصَّة، أي: تركْنا في قِصَّتهم"[2].

نكتةُ تكرار القيد ﴿فِيهَآ﴾:

إهلاكُ الظَّالمين يترك أثرَهُ البالغَ في أماكنِ هَلاكهم؛ حتى تصيرَ نفسُها عِبرةً وآيةً

في تَكرار القيد بالجارِّ والمجرور ﴿فِيهَآ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ﴾ بعد سَبْق ذِكْره مرَّتين في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا﴾؛ تأكيد على تَبَدُّل أحوال ما كان في القَرية من استقرارٍ إلى ما حلَّ فيها مِن خرابٍ، وعلى عُمقِ الأثر وخُطورته فيها وفي أهلها البائدين، وأنَّه ليس خرابًا ولا عذابًا ظاهريًّا فحسبُ، بل عذابٌ حَلَّ فيها وفي أعماقِها، كما يُشير إلى ذلك مَعْنى الظَّرفيَّةِ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ﴾ تجريد بديعيٌّ، أي: "وتركناها آيةً؛ لأنَّها هي الَّتي ائتُفِكَت بأهلها، فهي نفسُها الآية، وذلك كقول القائل يَرى الشَّيء: في هذا الشَّيء عِبرةٌ وآية، ومعناه: هذا الشَّيء عِبرة وآيةٌ، كما قال جلَّ ثناؤه: ﴿۞لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ٧﴾ [يوسف: 7]، وهم كانوا الآياتِ وفِعلُهم"[3].

دلالة التَّعبير بـ ﴿ءَايَةٗ﴾، ولطيفةُ تنكيرها:

آيـة هلاك قوم لوط من أبلغ العِبَر والعِظاتِ

الآيَة في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ﴾ هي العِظَة والعِبرة، أي: تركنا فيها "أثرًا مِن العذاب باقيًا مؤرَّخًا لا يَفْنى ذِكْرُه"[4]، و"علامةً

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 533.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 8.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 533.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 179.

تدلُّ على إهلاكهم الدُّنيويِّ الدّالِّ على الأخرويِّ"[1]، والآية المتروكة في قرية قوم لوط هي الدَّمار والهلاك الَّذي حلَّ بها وبساكِنيها؛ إذ رآه مَن كان يَمُرُّ بها بعدَ هذا العذاب الَّذي نزلَ بها، ثمَّ بَقي لها بعد ذلك ذكرٌ سيِّئٌ في صُحُف التّاريخ، وفي الكتب السَّماوية، الَّتي نزلت على رُسُلِ اللّه ﷺ بعد هذا، ففي تلك الآية سُلطانُ اللّه تعالى وقدرتُه، وأَخْذُه الأليم الشَّديد لِمَن يَخرجون عن صراطه المستقيم[2].

و"هذه الآية هي الحجارة الَّتي رُجِموا بها[3]، والقرية الَّتي بَقيت خرابًا لَم تعمر، فكان ما فيها من آثار الخراب آيةً للَّذين يخافون عذابَ اللّه"[4].

وفي تنكير ﴿ءَايَةً﴾ تهويلٌ لشأنها، وتخويفٌ مِن مثلها، فكأنَّها آيةُ الآيات، وأخطرُ المُهْلِكات؛ بحيث يتهيَّبها مَن يسمَعُ تنكيرَها أشدَّ التَّهيُّب، والواقع هكذا فعلًا، فهي من الغرابة كغرابةِ جريمة مَن حلَّت بهم، فقد "قلعْنا قُراهم كلَّها، وصَعِدَت في الجوِّ كالغمام إلى عَنان السَّماء، ولم يَشْعُر أحدٌ مِن أهلها بشيءٍ من ذلك، ثُمَّ قُلِبت، وأُتبِعَت الحجارةَ، ثُمَّ خُسِف بها، وغُمِرَت بالماء الَّذي لا يُشبِه شيئًا من مياه الأرض، كما أنَّ خباثَتَهُم لم تُشْبِه خباثةَ أحدٍ ممَّن تقدَّمهم من أهل الأرض"[5].

معنى اللّام في القيد ﴿لِّلَّذِينَ﴾:

بَقاءُ آثارِ إهلاك المجرمين للعظةِ والاعتبار

(اللّام) في القيد ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ لامُ التَّعليل، أي: تركنا فيها آيةً لأجل أن يَعْتَبر الَّذين يخافون العذابَ الأليم، حتّى يتَجَنَّبوا تلك الرَّذيلة، فلا يحلَّ بهم، ولا يَنْزِل فيهم ما حلَّ بها، ونزل فيها مِنَ الدَّمار والخراب والعذابِ.

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 42.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 524.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 107.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 8.
(5) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 467.

وهي كذلكَ مفيدةٌ الاختصاصَ، فالآيَةُ مختصَّةٌ بالَّذين يخافونَ العذاب الأليمَ.

علَّةُ التَّعبير بـ الموصول (الذين):

التَّعبير بالموصول (الذين) يُفسح العبارة، ويُهَيِّئُها لِذكر جملة الصِّلة ﴿يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾؛ ولا يُتيحُ هذه الدَّلالةَ الاسمُ الصَّريح، مع ما في الموصول من الافتقارِ إلى صلةٍ تُبيِّنُه، فيُثير الشَّوق إلى تبيينِ هؤلاء وتخصيصِهم، فكان الموصولُ بذلك عنصرَ تشويقٍ، كما هو عنصرُ تهيئةٍ لِذِكْرِ تفاصيلِ صِلَتِه.

الموصول عنصرُ تشويقٍ، كما أنَّه عنصرُ تهيئةٍ لِذِكْرِ تفاصيلِ الصِّلَة

وجيءَ بالموصول (الذين) وهو من ألفاظِ العموم المفيدَةِ للاستغراقِ، فأفادَ أنَّه حكمٌ عامٌّ يشمل مَن شَهِدَ العذاب من الأقوام القَريبة، أو مَن سَمِعَ بها حتّى قيام السّاعة، وفي جملةِ الصِّلة ما يُشْعِرُ بالمدح، وبالتَّعليل بتوجيهِ إنذاره ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ دون غيرهم؛ لأنَّ إنذارَ الَّذين يخافون العذاب الأليم إنذارٌ نافع، يُجدِّد خشيَتَهُم، ويُديم عملهم الصّالح.

دلالةُ التَّعبير بفِعلِ الخَوفِ مضارِعًا:

قول الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ هم المؤمنون، و"إنَّما خُصَّ الَّذين يخافون العذاب الأليم؛ لأنَّهم الَّذين يتَّعظون بالمواعظ، ويتفَكَّرون في الآيات دون غيرهم ممَّن لا يخاف ذلك، وهُم المُشْرِكون المُكَذِّبون بالبَعْثِ والوعد والوعيد"[1]، وتدلُّ المُضارَعَة على تجدُّد خَوْفهم مِن عذاب الله تعالى؛ لدَوام تفكُّرهم في آياته، والاعتبار بما أصابَ الأممَ السّابقة مِن صُنوف العذابِ.

المؤمنُ ينتَفِعُ بالعِبرِ والعِظات، أمّا الكافِر؛ فلا تَزيدُهُ إلّا ضلالًا

معنى (أل) في ﴿ٱلْعَذَابَ﴾:

يجوزُ أن تكون (أل) في ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ هنا للعهد الذِّكْريِّ، أي:

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 107.

المــؤمــنــون يُصَدِّقون بِوعدِ الله تعالى لأهل الإيمانِ ووعيده لأهل الكفرانِ

عذاب قوم لوط السّابق ذِكره، ويجوزُ أن تكون (أل) لتعريف الجنس، أي: يخافون جميع صنوف العذاب المعدَّة للكافرين، وهكذا شأنُ المؤمنين فعلًا، يخافون العذابَيْنِ: الخاصِّ والعامِّ؛ لأنَّهم المؤمنون المُصَدِّقون بوعد الله تعالى لأهل الإيمان وإيعادِه لأهل الكفرانِ، وتعريف ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ يُضفي عليه مِن الخُطورة ما يجعله محذورًا، فهو العذابُ البالغ في بابِهِ مَبْلَغًا لا يُتصوَّر، سواءٌ ما كان منه في الدُّنيا استئصالًا، أو ما كان منه في الآخرة نارًا وحميمًا وغسّاقًا.

دلالةُ وصف ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ بـ ﴿ٱلۡأَلِيمَ﴾، وصوغه على (فعيل):

المــؤمــنــون يُــصَــدِّقــون بوقوع العذاب على العُصاة، فيَخافونه

العذاب الأليم: هو الوجيعُ المُؤلمُ[1]، وصيغَ وصْفُ (عذاب) بـ (أليم) في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ صيغةَ مبالغةٍ، وهو بمعنى (مؤلم)، غيرَ أنَّ وصف ﴿ٱلۡأَلِيمَ﴾ أدخلُ في الدَّلالة على الإيلام والإيجاعِ، وأدلُّ على شدَّته بِحيث لا يُحْتَمَل، أمّا (مؤلم)؛ فيُطْلَقُ على كلِّ ألمٍ، سواءٌ أكان محتَمَلًا أم لا، ولن تبلُغَ صيغَةُ اسم الفاعل (مؤلم) مبلغَ صيغة المبالغةِ (أليم) في إفادةِ هول عذابِ مَن يكذِّب شَرعَ الله ﷻ.

وفي وصف ﴿ٱلۡأَلِيمَ﴾ حرفُ مدٍّ يُشعر بأنَّه عذابٌ يَتطاوَلُ إيلامُه على الكافر، ويمتدُّ عليهِ، ولا ينقَطِعُ عنه، وهذا يناسب دلالة الدَّوام والثَّبات الأصيلَتَيْن في صيغة (فعيل)، أمّا (مؤلم)؛ فاللَّفظ مقطوع قطعًا قَد يوحي بانتهاءِ إيلامه إلى أمدٍ محدَّد، وهذا يناسب دلالة التَّأقيتِ الَّذي يُعَدُّ أحد دلالاتِ صيغة (فاعل)، وهكذا تتآزرُ الصّيغةُ الصَّرفيَّة مع الإشارة الصَّوتيَّة على بيان ما سيَلْقاهُ الكافر من عذاب أليمٍ دائم متطاولٍ زَمانُه، موجِعٍ في الآخرةِ.

والمؤمنون يخافون العذابَ كلَّه، فكلُّ عذابٍ عندهم أليمٌ؛ لأنَّهم

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 160.

يؤمنون به، ويصدِّقون بوقوعِه، فيخافونه خوفًا يَحمِلُهم على الطّاعة، ويمنعهم من المعصية.

بلاغةُ المجاز العقليّ في ﴿ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾:

كلُّ عذاب الله تعالى عندَ المؤمنين أليمٌ

العذابُ في الحقيقة سببٌ للإيلام، غير أنَّ أثرَهُ مِنَ الإيلام حين يبلغُ الغاية الَّتي لا غاية وراءها يترقّى في الإيلام إلى درجةِ أن يكون العذابُ نفسُهُ أليمًا، وفي ذلك مجاز عقليٌّ، وهذا ما يستحقُّه الكافرون الَّذين وثَقوا بالشَّيطان، واتَّبَعوه، ودابروا طريقَ الرَّحمن، وعادَوه، وهذا ما يعتبِر المؤمنون بوقوعه للأمم الهالكة، ويخافونَهُ على أنفسِهم على الدَّوام.

بيانُ المتشابه مع آية سورة العنكبوت:

القصدُ في العنكبوتِ تخويفُ القومِ، والغرضُ في الذّارياتِ تسليةُ القلبِ

وقع التَّشابه اللَّفظيُّ بين قوله تعالى هنا في سورة الذّاريات: ﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾، وقولِه تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٣٥﴾ [العنكبوت: 35].

فبينَهما في اللَّفظ فرقٌ في وصف ﴿ءَايَةَۢ﴾ بـ ﴿بَيِّنَةٗ﴾ [العنكبوت: 35] في العنكبوتِ، وترك وصفِها في الذّارياتِ، وتباين الوصف بين ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٣٥﴾ [العنكبوت: 35] و﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾.

والعذاب في العنكبوت "مذكورٌ بأبلغ وجهٍ، يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ﴾ [العنكبوت: 35]؛ إذ وصفَها بالظُّهور، وكذلك ﴿مِنۡهَآ﴾ [العنكبوت: 35] هناك و﴿فِيهَآ﴾ هنا؛ فإنَّ (مِن) للتَّبعيض، فكأنَّه تعالى قال: مِن نَفْسِها لكم آية باقيَة، وكذلك قال: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٣٥﴾ [العنكبوت: 35]، فإنَّ العاقل أعمُّ من الخائف، فكانت الآيةُ هناك أظهرَ، وسببُه ما ذَكرنا أنَّ القصد هناك تخويفُ القوم، وهاهنا تسليةُ القلب؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾،

وقال هناك: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ [العنكبوت: 33] من غير بيانٍ وافٍ بِنجاةِ المسلمين والمؤمنين بأسْرِهم"(1).

توجيهُ المُتشابه اللَّفظيِّ في قصَّة إبراهيم عليه السلام:

التَّشابهُ اللَّفظي يَفي بحقِّ السّياقات القرآنيَّة

قصَّ تعالى هذه القصَّة في سورة هود على نمَطٍ، وفي الحِجْرِ على نمط آخرَ، وفي الذّاريات بأسلوبٍ مغايرٍ، فقد قال الله تعالى في الحجر: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى﴾ [الحجر: 51 - 54]، إلى قوله: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨﴾ [الحجر: 57 - 58]، وفي الذّاريات: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٢٧ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٢٨﴾ [الذاريات: 25 - 28]، إلى قوله: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣١ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾.

وذكر في سورةِ هود: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠﴾ [هود: 70]، ثمَّ ذكر البِشارة بعده، ولم يذكُرْهُ في الموضعين، فينبغي أن يُقَدَّر فيهما قبلَ البِشارة هذا المعنى، ويُقَدَّر في سورة هود بعد الفراغ من البِشارة: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣١ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾؛ لأنَّه لم يَذْكُرْهُ فيه، وذَكره في الموضعين، وزيد في سورةِ هودٍ حديثُ المُجادَلَة عن قوم لوطٍ، ولم يُذكَر في الموضعين؛ فيُقَدَّر فيهما، واختُصر في سورة الحِجْرِ بعد قولِهم: ﴿سَلَٰمًا﴾ [الحجر: 52] جوابُهم: (قالوا: سلام)، فيقدَّر ذلك مع ما يَتِمُّ به المعنى، حتّى يتَّصل بقوله: ﴿لَا تَوْجَلْ﴾ [الحجر: 53].

وهذا بابٌ من الإيجاز المختصِّ بالإعجاز، ويحتاج في التَّوفيق

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 181.

إلى قانونٍ يُرجَع إليه، وهو أن يُعمَد إلى الاقتصاصات المتفرِّقة، ويُجعل لها أصلٌ بأن يُؤْخَذ من المباني ما هو أجمع للمعاني، فما نقص فيه من تلك المعاني شيءٌ يُلحق به[1].

نكتَةُ البَدءِ في سَرْدِ المُهْلَكين بقصَّة قوم لوط عليه السلام:

قصَّةُ قومِ لوط أشبَهُ القَصَص بقصَّة مشركي قُريش

في ابتداء ذِكر هلاك الأقوام بقصَّة قوم لوط ﷺ أنَّ المشركين وُصِفوا آنفًا بأنَّهم ﴿فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ١١﴾ [الذاريات: 11]؛ فكانوا في تلك الغَمرَة أشبهَ بقوم لوطٍ؛ إذ قال الله تعالى فيهم: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٢﴾ [الحجر: 72].

ولأنَّ العذابَ الَّذي عُذِّب به قومُ لوط كان حجارةً أُنزِلت عليهم من السَّماء مشبَّهةً بالمطر، وقد سُمّيت مطرًا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ [الفرقان: 40]، وقوله: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ٧٤﴾ [الحجر: 74][2]، كما ابتُدِئَ بذكر قوم لوطٍ؛ لأنَّ قُراهُم واقعةٌ في مَمَرِّهم إلى فلسطينَ للاتِّجار[3].

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الإسراف والظُّلم:

الإسراف والظُّلم يتداخلان من جهة التَّجاوز، ويفترقان من جهة الغايَةِ والمجال

الإسْراف: هوَ صرف الشَّيء فيما لا يَنبَغي زائدًا على ما يَنبَغي، وحقيقتُهُ: تجاوزٌ في الكمّيَّة، فَهوَ جهل بمقادير الحُقوق[4]، والظُّلم: مصدر ظَلَمَ ظُلمًا ومظلمةً؛ إذا جار، وجاوَزَ الحَدَّ، ووضع الشَّيء في غير مَوْضِعه[5].

يُزادُ على ذلك أنَّ الإسرافَ فيه مجاوَزَةٌ فيما يخصُّ الإنسانُ نفسَه غالبًا، بلا اعتبارٍ لحقِّ غيره، والظُّلم فيه مجاوزةٌ لحقِّ الآخرينَ أو

(1) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 8/ 131.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 356.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 41.
(4) أبو البقاء، الكليات، ص: 113.
(5) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (ظلم).

النَّفس، ويتضمَّن اعتداءً أو حرمانًا، وقد يجتمعان في موضعٍ واحدٍ، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: 53]، فالآية جمَعَت بين معنى الإسراف - وهو تجاوزُ الحدِّ في المعصيةِ - والظُّلم للنَّفْس.

والحاصِلُ أنَّ الإسرافَ نوعٌ من الظُّلم إذا أدَّى إلى ضياع حقٍّ، والظُّلم قد يتضمَّن إسرافًا؛ إن تجاوز الحدَّ، فهما يتداخلان من جهة التَّجاوز، ويفترقان من جهة الغايةِ والمجالِ.

الخوف والخشية والحذر:

الخشيةُ خوفٌ مخصوصٌ، والخوف عامٌّ، والحذر التَّرقُّب والتَّيقُّظ

الخشيةُ أعظم من الخَوْفِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرعد: 21]، فذكر الخشيةَ في جانبه سُبْحانه، والخوفَ في جانب الحِساب، هذا وقد يُراد بالخشية: الإكرامُ والإعظام، وعليه حُمِلَت قراءة من قرأ: (إنما يخشى اللّه من عباده العلماءَ) برفع لفظ الاسم الأجل ونصب العلماء(1)، وهي قراءةٌ شاذَّةٌ.

و"الخوف: فراغٌ باطنٍ، وهو قريبٌ من الرُّعْب والفَرَق، أمّا الخشية؛ ففيها استشعارُ النَّفس حِدَّةً تقعُ لا مَهرَبَ منها؛ إذا استوجِبَت، وفيها مع ذلك استيحاشٌ وجَفْوة وخُشونة قد يُعَبَّر عنها التَّوتُّر الحادُّ"(2).

و"الحَذَر: احترازٌ مِن مُخيف، يقال: حَذِرَ حَذَرًا، وحذرته، قال: ﴿يَحْذَرُ ٱلْأٓخِرَةَ﴾ [الزمر: 9]، وقُرِئَ: (وإنّا لجميع حَذِرون)، و﴿حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الشعراء: 56]، وقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: 28]، وقال: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: 71]، أي: ما فيه الحَذَرُ مِن السِّلاح وغيره، وقوله: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْۚ﴾ [المنافقون: 4]"(3).

(1) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 217.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خشي).
(3) الراغب، المفردات: (حذر).

والحذَر: التَّرقُّب والتَّيقُّظ، وهو في القرآن الكريم على ثلاثة أوجهٍ، **الأوّل**: الخوف والخطر، كما قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: 28]، أي: يخوِّفكم. **والثّاني**: الإباء والامتناع، كما قال سُبحانَهُ: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ [المائدة: 41]، أي: امتنعوا. **والثّالث**: كِتمان السِّرِّ، ومنه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة: 64]، أي: مظهرٌ ما تكتمون"[1].

وأمّا العلاقة الدَّلاليَّة بين الخوف والخَشية والحَذَر؛ فإنَّها تقوم على اشْتِراكها في معنى الرَّهبة وتوقُّع المكروه، لكنَّها تختلف في دِقَّة السَّبب وآثاره، فالخوف عامٌّ، وهو توقُّع مكروهٍ في المُستقبل، وقد يكون حقيقيًّا أو موهومًا، والخَشية خوفٌ مع عِلْمٍ وتعظيمٍ، وله تعلُّق بجلالِ المخشيِّ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: 28]، وأمّا الحذر؛ فسُلوك عمَليٌّ ناتج عن خوف، يُعبَّر به عن الحيطةِ والتَّوقّي.

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: 2/ 441.

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ٣٩ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ٤٠﴾ [الذاريات: 38 - 40]

مُناسَبَةُ الآيَاتِ لِما قبلَها:

سُنَّةُ الله تعالى بإهلاك المجرمين ماضيةٌ، فمن اعتَبَر؛ نَجا

لمّا ساقَ اللّه تعالى قصَّة إبراهيم عليه السلام مع الملائكة المكْرَمين، وأتبعَها ما تعلَّق بها من إهلاك قوم لوط عليه السلام، وأخبر سُبحانه أنَّه تركها عِبرة لِمن يخافون الهلاك مثلهم؛ عَطَف عليها قصَّة موسى عليه السلام مع فرعون اللَّعين، وأخبر أنَّ فيها كذلك عِبرةً وعِظة لِمن يعتَبِرُ من أهل الحقِّ، فينجو مِن الهلاك الَّذي حلَّ بفرعونَ ومَلَئِه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِسُلۡطَٰنٖ﴾: (سلط) أصلٌ واحدٌ، وهو القوَّةُ والقَهْرُ[1]، ومِنهُ: السُّلطانُ، وهو الحاكِمُ والوالي، وأصْلُ الكَلِمَةِ مِن السَّلاطَةِ، يُقالُ: سَلَّطَهُ عليَهِ، أي: مَكَّنَهُ مِنهُ، وحَكَّمَهُ فيه، ويأتي بمعنى الخَليفَةِ، والإمامِ، والقاضي[2]، والسُّلْطانُ أيضًا: الوِلايَةُ والحُجَّةُ والبُرْهانُ[3]، وسُمّيَ سُلطانًا؛ لأنَّهُ يُكسِبُ المُستدِلَّ به سُلطةً على مُخالفهِ ومُجادِله[4]، والسُّلطانُ المُبينُ معناه هنا: الحُجَّةُ الواضحةُ، وهي المُعجِزاتُ الَّتي أظهرها لفرعونَ مِن انقلابِ العَصا حيَّةً، وما تلاها مِنَ الآياتِ الثَّماني[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلط).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم، والفيومي، المصباح المنير: (سلط).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سلط).
(4) الخليل، العين: (سلط).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 10.

2) ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾: أصلُ (ولي) يدُلُّ على قُرْبٍ، مِن ذلك: الوَلْيُ، وهو القُرْبُ، يُقالُ: جَلَسَ مِمّا يَلِيني، أي: يُقارِبُني[1]، والوَلايَةُ: تَوَلّي الأمرِ، فإذا عُدّي (تَوَلَّى) بنفسِه؛ اقتَضى معنى الولاية، وحُصوله في أقرب المواضِع، وإذا عُدّي بـ (عَنْ) لفظًا أو تقديرًا؛ اقتَضى معنى الإعراض وترْك قربه، فمِنَ الأوَّل قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 51]، ومِنَ الثّاني قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ۝٦٣﴾ [آل عمران: 63][2]، والمُرادُ بالتَّولّي في الآيةِ: الإعراضُ والانصرافُ عَنِ المكانِ، وهو مُستعارٌ هنا للمُكابرةِ والعِنادِ.

3) ﴿بِرُكْنِهِۦ﴾: أصلُ (ركن) يدُلُّ على قوَّةٍ[3]، فالرُّكونُ: السُّكونُ والاطمئنانُ إلى الشَّيءِ، ويأتي بمعنى المَيْلِ إلى الشَّيءِ وقَصده، ومنه الرُّكْنُ، وهو: الجانبُ الأقوى؛ لأنَّ الشَّخْصَ يَميلُ، ويسكُنُ إليه[4]، وهو أيضًا ما يُعتَمَدُ عليه مِن بناءٍ ونحوه، ويُسمَّى الجَسَدُ رُكْنًا؛ لأنَّهُ عِمادُ عَمَلِ الإنسانِ، وأمّا قولُه سبحانه: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾؛ فتمثيلٌ لهيئةِ رفضِه دعوةَ موسى بهيئةِ المُنصرفِ عن شخصٍ[5].

4) ﴿سَٰحِرٌ﴾: أصلُ (سحر) يدلُّ على خَدْعٍ وشِبْهِهِ[6]، وحقيقةُ السِّحْرِ: صَرْفُ الشَّيءِ عَن حَقيقَته إلى غَيْرِه، فكأنَّ السّاحِرَ لَمّا أرى الباطلَ في صورَةِ الحَقِّ، وخَيَّلَ الشَّيءَ على غيرِ حَقيقَته، قَد سَحَرَ الشَّيءَ عَن وجهه، أي: صَرَفَهُ[7]، والسِّحْرُ: كلُّ ما كان من الشَّيطان فيه مَعونَة، وهو الأُخْذَة الَّتي تأخُذُ العين، ويتخيَّل على غير حَقيقَته، ويجْري مَجْرى التَّمويه والخداع[8]، والجَمعُ: أسحارٌ وسُحورٌ[9]، والمقصود بـ ﴿سَٰحِرٌ﴾ في الآية: مَن يَعمل السِّحْرَ، ويُزاوله.

5) ﴿مَجْنُونٌ﴾: (جنن) أصلٌ واحدٌ، وهو السَّترُ والتَّسَتُّرُ[10]، يُقال: جَنَّ الشَّيءَ، يَجُنُّه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/ 102.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ركن).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (ركن).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 10.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سحر).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سحر).
(8) الخليل، العين: (سحر).
(9) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس، ومجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (سحر).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جن).

جَنًّا؛ إذا ستَرَه، وكلُّ شيء سُتِرَ عنك؛ فقد جُنَّ عنك[1]، والجِنُّ: نوع من العالم، سُمّوا بذلك لاجتنانهم عَن الأبصار[2]، والجِنَّة: الجُنونُ، وسُمّي الجُنونُ بذلك؛ لأنَّه يَستُرُ العقلَ، ويُغطّيه، وهو الخَلَلُ العَقْليُّ الَّذي يُصيبُ الإنسان[3]؛ لكونه حائلًا بين النَّفس والعقل[4]، وهو المُرادُ في الآية.

6) ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ﴾: أصلُ (نبذ) يدلُّ عَلى طَرْحٍ وإلقاءٍ[5]، ومنه النَّبْذُ: إلقاءُ الشَّيء، وطرْحُه لِقلَّة الاعتداد به؛ ولذلك يُقالُ: نَبَذْتُهُ نَبْذَ النَّعْل الخَلِق، قال تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ [آل عمران: 187]؛ لقلَّة اعتِدادهم به[6]، والمَنبوذُ: كلُّ ما يُلتَقَطُ كالمالِ أوِ الطِّفْل الَّذي تُلْقيهِ أُمُّهُ في الطَّريقِ، ويُطلَقُ النَّبْذُ بِمَعْنى: التَّنحيَةِ والعَزْلِ والإبعادِ، يُقالُ: نَبَذْتُهُ في مكانٍ بعيدٍ، أي: عَزَلْتُهُ، ونَحَّيتُهُ[7]، والمراد بالنَّبذِ هنا: الطَّرحُ للشَّيء دونَ اكتراثٍ أو اهتمام به[8].

7) ﴿ٱلۡيَمِّ﴾: اليَمُّ في كلامِ العَرَبِ مُرادفُ البَحْرِ، والبَحْرُ في كلامهم يُطلَقُ على الماءِ العَظيمِ المُستبحَرِ، فالنَّهرُ العظيمُ يُسمَّى بحرًا، قال تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ﴾ [فاطر: 12]، فإنَّ اليَمَّ من الأنهارِ، وقيل: لُجَّةُ البَحر، ومعظم البحر، وقيل غير ذلك[9]، وهو هُنا نهرُ النّيلِ الَّذي كان يَشُقُّ مدينَةَ فرعونَ، حيثُ منازلُ بني إسرائيلَ[10].

8) ﴿مُلِيمٞ﴾: أصلُ (لوم) يدُلُّ على العَتبِ والعَذلِ، ومنه: اللَّوْمُ، وهو العَذْلُ[11]، واللوَّمُ: جمع لائم، والرَّجُلُ مَلومٌ[12]، والمُليمُ: الَّذي يَستَحِقُّ اللَّومَ، واللَّوماءُ: المَلامَةُ، ورَجُلٌ لوَمَةٌ:

(1) الجمل، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن: (جنن).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (جنن).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (جنن).
(4) الراغب، المفردات: (جنن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نبذ).
(6) الراغب، المفردات: (نبذ).
(7) الراغب، المفردات: (نبذ).
(8) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 24.
(9) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (يمم)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: 5/ 394.
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 74.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لوم).
(12) الجوهري، الصحاح: (لوم).

يَلومُ النّاسَ(1)، والمراد بالمُليم في الآية: الَّذي يَجْعَلُ غيره لائمًا عليه، أي: وهو مُذْنِبٌ ذَنْبًا يَلومُه اللّه عليه، أي: يُؤاخِذُه به(2).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا كرامةَ على اللّه تعالى لِكافر مستبدٍّ، ولا اكتِراثَ لهلاكه

اذكر أيُّها النَّبيُّ الكريم قصَّة كليم اللّه تعالى موسى عليه السلام مع عدوِّ اللّه تعالى فرعون اللَّعين، حين أرسلنا موسى عليه السلام إلى فرعونَ، يدعوهُ إلى توحيد اللّه تعالى وعبادته، وهي آيةٌ وعِبرة لمن أراد أن يعتبِر، فقد أرسلناه إليه بالحُجَج البيِّنات، وبالآيات السّاطعات الدّالّات على صِدْقِ رسالته، وأنَّه رسولٌ من عند اللّه تعالى.

فتقوَّى فرعونُ بأسبابه، واعتزَّ بجنوده، وأعْرَضَ عن قَبول الحقِّ، وتكبَّر على موسى عليه السلام، بل تطاول عليه، فرماهُ بالسِّحر والجنون، فاستوجب الإهلاك؛ إذِ ارتكبَ أبلغ ما يُلام عليه كافرٌ، بقوله للنّاس: أنا ربُّكم الأعلى، وكانت عقوبتُه أليمةً؛ إذ أخذناهُ وجنوده أخْذ عزيزٍ مقتدر، فطرحناهُ في البحر، وأغرقناه في أعماقه، ونَبَذْناهُم جميعًا فيه نَبْذَ إهانةٍ لهم، وعدمَ تقديرٍ أو اكتراثٍ بهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾:

الآيات فيما خُلِق في الأرض من الخلائق، وفيما وقع فيها مِن أنباء السَّلف

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ عاطفة الجملةَ بعدها على جملةِ: ﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾؛ إذ تَجمع بين القصَّتَيْنِ - قصَّةِ موسى وقصَّةِ لوط عليهما السلام - في تحقيق العِبرة لِمن يَعتبر.

أو هي عاطفة الجملةَ بعدها - (في موسى)، أي: في قصَّة موسى - على جملة: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠﴾ [الذاريات: 20]،

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لوم).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 10.

أي: في كلٍّ منهما عِبَرٌ وعظاتٌ وآيات لمن كان له قلب يَعي "فيما ذُكِر من قصَّة موسى، ولوط، وقصَّة إبراهيم، وقصَّة هودٍ، وثمودَ، وهذه الأشياء تفسيرٌ لِقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠﴾، أي: الآيات فيما خُلِق في الأرض مِن الخلائق، أو فيما في الأرض مِن أنباء السَّلف وأخبارهم مِن مُكَذِّبي الرُّسل ومصدِّقيهم، أي: في هلاك من هَلك من مُكذِّبيهم، ونَجاة من نجا من مصدِّقيهم آياتٌ لِمن ذُكر"[1].

رســـول اللـه مُـنَجَّـى مكـرَّمٌ بالاصطفاء مثلُ أبـيـه إبـراهـيـمَ صـلـوات الـلـه عليهما

وعلى عطفِ قصَّة موسى على جملة: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠﴾، تكون قصَّة الخليلِ ولوطٍ عليهما السلام معترِضة للتَّسليةِ؛ بإبعاد مكذِّبيه ﷺ، وأنَّه مرحومٌ مُنَجًّى مكرَّمٌ بالاصطفاء مثل أبيه إبراهيم صلوات اللّٰه تعالى وسلامه عليه وعليهم"[2].

سرُّ تقديمِ قصَّة موسى عليه السلام على ما بعدَها:

عـقـابُ أعـداء الـلـه تـعـالى واقــعٌ، أرضـيًّا كان العذابُ أو سماويًّا

البدءُ بقصَّة موسى قبل قصص عادٍ وثمودَ ونوحٍ عليهم السلام لكثرة عبرها، وتَكرار ذكرها في كثيرٍ من سوَر القرآن الكريم؛ تسليةً لأوليائه سبحانه، وتهديدًا لأعدائه؛ فسُنَنُه تعالى في الخلق ماضيةٌ.

وَأعْقَبَ قصَّةَ قوم لوطٍ بقصَّة موسى وفرعون؛ لِشُهرة أمر موسى وشريعته، ولِما بينَهما من التَّناسُب في أنَّ العذاب الَّذي عُذِّبت به الأُمَّتان عذابٌ أرضيٌّ؛ إذ عُذِّب قوم لوطٍ بالحجارة الَّتي هي مِن طين، وعُذِّب قومُ فرعون بالغَرَق في البحر، ثُمَّ ذُكر عادٌ وثمودُ، وكان عذابهما سماويًّا؛ إذ عُذِّبَت عادٌ بالرّيح وثمودُ بالصّاعقة[3].

دلالةُ الحذف في قولِه: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾:

وقَع في قوله: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 387.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 12.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 9.

حذْفٌ؛ إذ التَّقدير: "وتركنا في قصَّة موسى بإهلاك أعدائه آيةً وحُجَّةً تُبَيِّن لِمَن رآها حَقّيَّةَ دعواه"[1]، فهذا "مِن عطْف جُملةٍ على جملةٍ؛ لِتقدير فِعْل: (تركنا) بعدَ واو العطف، والكلام على حذفِ مُضافٍ، أي: تركنا في قصَّة موسى حين أرسلناهُ إلى فرعون بسُلْطانٍ مُبينٍ، فتولّى ... إلخ، فيكون التَّرك المقدَّر في حرف العطف مرادًا به جَعْلُ الدَّلالة باقية، فكأنَّها متروكة في الموضع لا تنقل منه"[2].

توفيرُ عنايةِ المُتَلقّي على التِقاط إشاراتِ العناصر المذكورةِ مِنَ الجُملَة

وفي ذلك الحذفِ توفيرُ عناية المتلقّي على التِقاط العِبرة من جهادِ كليم اللّه تعالى موسى عليه السلام، وصبره على كَيْدِ عدوِّ اللّه تعالى فرعون - عليهِ اللَّعنةُ - ففي ذلك التَّضادِّ يبدو وجهُ المفارقةِ الدّاعمُ لِهمَّة الرَّسول صلى الله عليه وسلم وأتباعه المؤمنين إزاء كَيْدِ كفّار قريش لهم ولدينِهم الحنيفِ.

معنى (في) في قوله: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾:

قِصَّةُ موسى مع فرعون تَنْطَوي على كثيرٍ من العِبَرِ والعِظات

الحرف (في) يُفيد الظَّرفيَّة المجازيَّة، والتَّعبير بها في قوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ يحثُّ على التَّنقيب والبحث في قصَّة موسى عليه السلام، واستخراج العِبَرِ الحاضرة في سياق الكلام منها، ويُلمح إلى أنَّها متضمِّنة لكثيرٍ من هذه الآيات والعِبَر، فبدأ النَّظْمُ الكريم بها في ذِكر قصص الأنبياء معَ أُممهم، وكانت أكثرَها ورودًا في القرآن الكريم.

دلالةُ التَّصريح باسم ﴿مُوسَىٰٓ﴾ عليه السلام:

في التَّصريح بأسماء الأنبياء والصّالحين تكريمٌ لهم وإشادةٌ بِسيَرهم

التَّصريح بذِكْرِ موسى عليه السلام دليلُ الرِّضا والمحبَّة، وفيه تشريفٌ له، وتنويهٌ بجهاده الكبير في سبيل الدَّعوة إلى اللّه تعالى وهدمِ صنَم الكُفْر المتمثِّل في فرعون.

نكتةُ تقديم ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ على الفعل:

في تقديم ذِكر موسى عليه السلام على الفعل في جملة: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ تقريرٌ لجهودِهِ وجهاده، وصبره وتفانيه في

---

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 42.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 9.

التَّنويهُ بمكانةِ موسى عليه السلام العليَّة

دعوته المباركة إلى توحيد اللّه تعالى، وكان يجوزُ تأخير التَّصريح باسمِه بعد الفعلِ، فيردُ - في غير القرآن الكريم -: وأرسلنا موسى إلى فرعون... لكن النَّظم الكريم بَنَى التَّركيب على تقديم ذِكره عليه السلام تنويهًا بشرفه، وتكريمًا له.

معنى ﴿إِذۡ﴾ في قوله: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ﴾:

الدَّعـوةُ إلى الاعتبار بِما في قصَّة موسى عليه السلام من العِظات

﴿إِذۡ﴾ في قوله: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ﴾ "ظرف متعلِّق بمحذوفٍ هو نعتٌ لـ ﴿ءَايَةٗ﴾، أي: كائنةً وقتَ أرسلناه"[1]، وهو بمعنى (حين)، أي: والتمس أيُّها المخاطَب الدُّروس، والتقِط العِبر والعِظات ممّا في قصَّة موسى من الآيات، الَّتي أودعناها في قصَّته وقتَ إرسالنا إيّاه إلى فرعون بسُلطان مبينٍ.

دلالةُ التَّعبير بفعل الإرسال ماضيًا دون البعث:

ليست غاية الدّاعية استثارة أعدائه واستفزازهم، بل إلانَة القول لهم لعلَّهم يستجيبونَ

عبَّر النَّظم الكريم بالإرسال دون البعثِ في قوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾؛ لأنَّ موسى عليه السلام مرسَلٌ من اللّه تعالى إلى فرعون، فهو يَحْمِلُ رسالةً فحواها الدَّعوة إلى نَبْذِ الكُفر ولزومِ التَّوحيد: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ١٩﴾ [النازعات: 18 - 19].

والإرسال يقتَضي حمل الرَّسول رسالةً وما يجري مجراها[2]، وكذلك يُستعمل الإرسالُ حيث يُستعمل الرَّسول[3]، والآية الكريمة تنصُّ على ذلك في أثناء جملة ﴿أَرۡسَلۡنَٰهُ﴾، أمّا البَعْثُ؛ فيَعني الإثارَةَ، ومنهُ: يَومُ البَعثِ، يَومَ يَبْعَثُنا اللّه تَعالى مِن القُبورِ[4]، وليس المطلوب هنا استثارةَ فرعون واستفزازَهُ، بل قال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾ [طه: 44].

---

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 108.
(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 103.
(3) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 103.
(4) المطرّزيّ، المغرب في ترتيب المعرب: (بعث).

وفي صوغ فعل الإرسال في جملة ﴿أَرۡسَلۡنَٰهُ﴾ ماضيًا دلالةٌ على تحقُّق بلوغ دعوة موسى عليه السلام فرعونَ لعنه اللّه تعالى، وتحقُّقه هو مِن صِدقها، حتّى إذا كذَّب، فحلَّ به الهلاكُ؛ انقطعت أعذارُه، وهكذا قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [الإسراء: 15].

دلالةُ إسنادِ فعل الإرسال إلى ضمير العظمَة:

في إسناد فعل الإرسال إلى ضمير العظمة، في قوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾، إيحاءٌ بسُموِّ شأن الرِّسالة، وتعظيم لشأن المُرْسَلِ عليه السلام فكان ذلك يقتضي الإيمان بها، وإكرام مَن حَمَلها؛ تعظيمًا وإكرامًا لَمَن أرسله سبحانه وتعالى، فالعظيمُ إنَّما يُرسِل بعظيم، ممّا يوجب التَّعظيم والتَّكريم.

للدُّعاة الصّادقين إلى الله تعالى حقُّ التَّوقير

معنى ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾:

﴿إِلَىٰ﴾ في قوله: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ حرفٌ دالٌّ على الغايةِ، وهي تُشيرُ إلى أنَّ غاية إرسال اللّه تعالى موسى عليه السلام كانت دعوةَ فرعون وقومِه إلى البراءةِ مِن الكفر، وتوحيدِ اللّه تعالى وعبادته.

تخصيصُ الله تعالى فرعونَ برسالةٍ دليلُ بلوغه في الطُّغيان مبلغًا عظيمًا

وفي التَّقييد بـ ﴿إِلَىٰ﴾ هنا معنى الوجهة أيضًا، أي: وجَّهْنا موسى إلى جهة فرعون لدعوته، وفي بيان هذه الغايةِ وتحديد تلك الوجهةِ دلالةٌ على بلوغ فرعون في العتوِّ والطُّغيان ما جعله غايةَ دعوةِ رسولٍ مِن أولي العزم ووجهته، وتخصيصه من قِبَل اللّه تعالى بدعوةٍ سماويَّة.

دلالةُ التَّصريح بلفظ ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾:

لَم يَذْكُر القرآن الكريم فرعونَ الَّذي أُرسِلَ إليه موسى عليه السلام باسمه العَلَم قطُّ، بل ذكره دائمًا بِلقبه هذا؛ لأنَّ الغرض يتعلَّق بظلم الفَراعنَةِ وكُفْرِهم دون أسماءِ شُخوصِهم، ومعلومٌ أنَّ كلَّ مَن حكم مصرَ كافرًا؛ لُقِّب بـ (فرعون)، فـ (فرعون) "لقبٌ، وكلُّ عاتٍ متمرِّد:

كلُّ ظالمٍ عاتٍ مستبدٍّ متكبِّرٍ، هو فرعون

فرعون، والعُتاة: الفراعنة، وقد تَفَرْعَن، وهو ذو فَرْعَنَةٍ، أي: دهاءٍ ونُكْرٍ"[1]، و"الفَرْعَنَةُ: الكِبْرُ والتَّجَبُّر، وفِرعَونُ كُلِّ نَبيّ: مَلِكُ دَهْر"[2].

وقد اجتمعت هذه الصِّفات الذَّميمة كلُّها في رجلٍ بلغت به الجُرْأة أن يقول للنّاس: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٤﴾ [النازعات: 24]، وقال: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: 38]، ففي إيثار ذِكر لقب "فرعون" دون اسمه إلماحٌ إلى ما اجتمع فيه من مفاسد الفَرْعَنة، مِنَ البَغْي والظُّلْم للنّاس ولنفسه، فما أقبحه مِن لقبٍ! وما أعظمَ النَّظمَ الكريم من كلامٍ بليغٍ!

معنى (الباء) في قوله: ﴿بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾:

يؤيّدُ الله تعالى أولياءَه الدّاعين إليه بأسباب النَّصر والتَّمكين

(الباء) في قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ ثريَّةُ الدَّلالة، فمن معانيها هنا: الاستعانَةُ، وأنَّ موسى عليه السلام استعان على دعوة فرعون، والتَّغلُّب عليهِ ﴿بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾، هو العصا واليدُ وغيرُهما، وأنَّه جاءَهُ "مؤيَّدًا منّا بسلطان مبين، وهو ما أظهرناه على يده مِن معجزاتٍ باهرة وحُجَجٍ واضحة ودلائلَ ظاهرةٍ"[3].

ومنها معنى المُصاحبة والمُلابسَة، على معنى (مع): ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾، أي: مُصْطَحِبًا معه من الآيات والمعجزات المؤيِّدة ما هو بمنزلة السُّلطان القاهر، الَّذي يَغلب، ويَقهر، ولا يعوقهُ شيء، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّه سبحانه وتعالى لا يتخلّى عن الدُّعاة إلى دينه الحنيف، بل يُؤَيِّدُ أولياءه بأسباب النَّصر والتَّمكين.

دلالةُ التَّعبير بـ (سلطان)، ونكتة تنكيره:

كلُّ سلطانٍ يمنحه الله تعالى عبدًا من عباده غالبٌ قاهرٌ

السُّلطانُ في قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ هو الحُجَّة، وهي اليد والعصا[4]، فهي "حجَّة لموسى على حقيقة ما

(1) الجوهري، الصحاح: (فرعن).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (فرعن).
(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1102.
(4) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 377.

يقول، ويدعو إليه"[1]، وهي "معجزاتٌ ظاهرة في نفسِه مُناديَة من شدَّة ظُهورِها بأنَّها معجزة، فكان فيها دلالةٌ واضحة على صِدّقِ وعيدِه، ومع ذلك فلم يَنفعهُم عِلْمُها"[2].

وفي تنكير (سلطان) مَعنى القوَّة والفخامة والعَظَمة، وفيه دلالةٌ على أنَّ كلَّ سلطانٍ يمنحه اللّه تعالى عبدًا من عباده؛ فهو غالبٌ قاهرٌ مهما كانت أسبابه في الظّاهر ضئيلَةً ضعيفة؛ لأنَّه سلطانٌ من تأييد اللّه تعالى وتسديده، فكيف لا يكون كذلكَ؟.

نكتة وصف (سلطان) بـ ﴿مُّبِينٍ﴾، وإشارة تنكيره:

إنكارُ الفراعنةِ سلطانَ الأنبياء لا يكون إلّا جحودًا وتمرُّدًا

في وصف السُّلطان بكونه مبينًا دلالة على جلاء الحُجَّة، وثبوت الدَّليل لكلِّ ذي بصيرة على صِدق رسالةِ موسى عليه السلام من عند اللّه تعالى، وأنَّ إنكار سلطانه ورفضَ قبولِ حُجَّته ما كان إلّا جحودًا وتمرُّدًا من فرعون وملَئِه على حقٍّ ثَبَتَ لَديهم؛ لذلك كانت عاقِبَتُهُم ما ذُكِر بعدُ.

وفي تنكير ﴿مُّبِينٍ﴾ دلالةٌ على قوَّة إبانته عن صِدق رسالته عليه السلام، و"المبين: الفارِقُ، ويَحتَمِلُ أنَّه ما كان معه مِنَ البراهين القاطِعَةِ الَّتي حاجَّ بها فرعون، أو المُعْجِز الفارق بين سِحر السّاحر وأمرِ المرسلين"[3].

بلاغةُ المجاز في صوغ ﴿مُّبِينٍ﴾ اسمَ فاعل:

حُجَجُ اللهِ تعالى المؤيِّدة لرُسُله راسخة في الإبانة، فلا يتأتّى إنكارُها إلّا على وجه العنادِ

الواقع أنَّ السُّلطان يكون بيِّنًا في نفسِه، واضحًا مكشوفًا لذوي البصائر النّافذة والعقول القويمة، غيرَ أنَّ بناء ﴿مُّبِينٍ﴾ على اسم الفاعلِ: مجازٌ عقليٌّ، بنسبة الإبانة إلى هذا السُّلطانِ نفسِه، وكأنَّ له إرادةً في الإبانة، أو أنَّهُ يبيِّن غيرَه، وإنَّما أبان اللّه تعالى به صِدّقَ موسى عليه السلام.

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 534.

(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 468.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 182.

ففي صيغة اسم الفاعل ﴿مُّبِينٍ﴾ إشارةٌ إلى رسوخ السُّلطان في صفة الإبانة بحيث لا يتأتّى إنكارهُ إلّا عنادًا وتَعَنُّتًا وطغيانًا، وهو ما كان مِن فرعون، فلم يُقِرَّ به إلّا عند موتهِ دون أن يَنْفَعَهُ.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ﴾:

مبادرَةُ الطُّغاة الإنكارَ على المُصْلِحين دون إعمالِ فكرٍ لتحرّي الصّواب

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ﴾ عاطفةٌ ما بعدَها على قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾، والتَّعقيب فيها يوحي بمُسارعة فِرْعون بالإنكار، وعدَمِ التَّريُّث للنَّظر في الأمر، وذلك ديدَنُ أصحاب الهوى المجرَّد مِنَ الإنصاف والبحث عن الحقيقةِ لاتِّباعها، فبِمُجَرَّد إرسال الله تعالى موسى عليه السلام؛ حصل التَّولّي من فرعون، ولا بُدَّ من تقدير جُمَلٍ هنا، ويكون التَّقدير: أرسلناه إلى فرعون بسلطانٍ مبين، فأتاه، فَدَعاهُ، فَرفض، وأنكر، وتولّى برُكْنِه.

دلالةُ التَّعبير بفعل التَّولّي ماضيًا مضعَّفًا:

رفْضُ الحقّ والإعراضُ عنه سوءُ أدبٍ مِنَ المُعرِض

في التَّعبير بفعل التَّولّي في قوله تعالى إخبارًا عن فرعونَ حين دعاهُ موسى إلى الحقّ: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ﴾ دلالة على أنَّه رفَض الدَّعوة مع التَّكبُّر والإعراض بجانبه، و"تعاظم على موسى بمُلْكِه وجنوده وقوَّته"[1]، وفي التَّولّي والإعراض صورة تشخيصيَّة لحركَةِ جَسَدِه، تَطْوي دليلًا كِنائيًّا على سوء الأدبِ وعدم المبالاة، وهما لازمان غالبًا لرَفْضِ الحقِّ والاستمساك بالباطل.

وفي صوغ الفعل (تولَّى) ماضيًا إيحاءٌ بفساد القلب والعقل والتَّفكير؛ لأنَّه أخذ قرارَ التَّولّي على وجْهِ المبادَرةِ والمسارعَةِ، وقَطَعَ بالرَّفْضِ حالًا، ولم يترَيَّث ليَنْظُرَ في الأمر.

وفي تضعيف عَيْن الفعل (تولَّى) دلالةٌ على أنَّه "كلَّف نفسَه الإعراض بعد ما دعاه عِلْمُها - أي: المعجزاتِ - إلى الإقبال إليها"[2].

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 24.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 469.

بلاغةُ المجاز في فِعْلِ التَّولّي:

إخراجُ المعاني في صور المَحْسوساتِ أعلَقُ بالذِّهْنِ وأقربُ إلى الفَهْمِ

في قول اللّه تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ﴾ "تمثيلٌ لهيئة رَفْضِه دعوةَ موسى ﷺ بهيئة المُنْصَرف عن شخص، وبإيرادِ قوله: ﴿بِرُكۡنِهِۦ﴾ تمَّ التَّمثيل، ولولاه؛ لكان قولهُ: ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ مجرَّد استعارةٍ"[1]، فصوَّرَ تكذيبُ موسى وجحودُ دعوتِه - وهي أمور معنويَّة - في صورة الاعتراضِ بعُرض الإنسان والتَّولّي الحسّيِّ، فـ "تَوَلَّى عنه، أي: أعرض، وولَّى هاربًا: أدبَرَ؟"[2].

معنى (الباء) في قوله: ﴿بِرُكۡنِهِۦ﴾:

العناصر اللُّغويَّة في النَّظم القرآنيِّ عامرَةٌ بالدَّلالات والإشاراتِ

(الباء) في قول اللّه تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ﴾ ثريَّة الدَّلالات، فتُعْطي معنى "المصاحبة، والرُّكنُ: إشارةٌ إلى القوم، كأنَّه تعالى يقول: أعرَضَ معَ قَوْمِه"[3]، وتُعْطي الباءُ أيضًا مَعْنى السَّببيَّة، أي: تولَّى؛ "بسبب ما يَرْكَنُ إليه من القوَّة في نفسه، وبأعوانِه وجنوده؛ كنايةً عن المبالغة في الإعراض"[4]، وتُعْطي معنى الاستعانة، أي: أنكر على فرعون مستعينًا ومتحصِّنًا بمَن يَرْكَنُ إليهم، ويتَّخذ منهم حصنًا ركينًا من الملأ الظّالم والجُند الغشوم، وفيها أيضًا معنى "التَّعدية، أي: ثَنَى عِطْفَه"[5].

دلالةُ التَّعبير بالرُّكن، ولطيفة الإضافةِ فيه:

الطُّغاةُ يتقوَّونَ بما لا يُغني عنهم شيئًا عند حلولِ الهلاك

الرُّكن "ما يَرْكَنُ إليه الإنسانُ في الملمّات، ويَحْمي ظهرَه به، كما يقول تعالى على لسان لوطٍ مخاطبًا قومَه: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾ [هود: 80]"[6]، فقوله تعالى هنا: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ﴾، أي:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 10.
(2) الجوهري، الصحاح: (ولي).
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 182.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 469، وقال الشهاب: "وكونها للسّببية غير وجيه"، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 97.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 24.
(6) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 525.

"بِجُموعِه، وأجناده، أو بِقوَّته، أو بِجانِبه، أو بِمَيْله عن الحقِّ، وعِناده بالكفر، أو بِماله؛ لأنَّه يُرْكَنُ إليه، ويُتَقَوَّى به"[1]، ففي التَّعبير بمفردة (الرُّكن) دلالةٌ على استقواءِ فرعون وتقوّيه، وتمنُّعه بِرُكن حصينٍ - في زَعْمِه - وقوَّة عظيمة يتوقَّع أنَّها تحميه، ولكن هيهات!

والإضافة في (ركنه) تدلُّ على اتِّخاذ فرعون من أسبابِ الرُّكون والقوَّة ما قد عُرِف به لِشِدَّة بأسه، وعلى الرُّغم مِن ذلك لم ينفَعْهُ شيئًا، بل أخذه اللّٰه تعالى وجنودَه، فنبذَهُم في اليمِّ من غيرِ اكتراثٍ.

الاعتدادُ بالقوَّةِ غيرُ نافعِ الظَّلمة

بلاغةُ الاستعارة في لفظة (رُكْن):

إذا كان الرُّكْنُ هو كلَّ ناحية قويَّةٍ من نواحي جبلٍ أو دارٍ أو قصرٍ[2]، وكان يقال لِمُلتَقى الجِداريْن: رُكْنٌ؛ لأنَّه الجانِبُ الأقوى في البناء، وكلٌّ مِنَ الجِداريْن يتقوَّى بالآخر؛ بسبَبِ هذا الالتقاء، فإنَّ الرُّكن في أصله اللُّغويِّ شيءٌ حسّيٌّ.

وعلى ذلك يكون الرُّكنُ في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ مستعارًا للقوَّة الَّتي يتحصَّن بها فرعونُ - مهما كان سببُها - استعارةً تصريحيَّة؛ إذ شُبِّهت القوَّة - الَّتي يتعزَّز بها فرعون، ويتقوَّى بها - بِرُكنِ البناء الشَّديد، ثُمَّ حُذِفَت قوَّةُ فرعون، وعُبِّر عنها بالرُّكن؛ مبالغةً في اعتقاده أنَّه يملِكُ من القوَّة ما لا يُمكِن أنْ يُؤتى بشرٌّ معها أبدًا.

جـزاءُ المُتَكبِّرِ الإهانَةُ والتَّحقير

بلاغةُ الكناية في لفظة (ركنه):

ووراء التَّعبير بـ (ركنه)، وهو جانبُ بدَنِه وعِطْفُه، والتَّولّي به كنايةٌ عن الإعراض[3]، وأنَّه فعلَ ذلكَ: "كِبْرًا وخُيَلاء وعُجبًا"[4]، فكان الأخذُ والنَّبذ في اليمِّ بعدَ ذلك أليمًا ومهينًا.

(1) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 372.
(2) ابن عباد، المحيط في اللغة: (ركن).
(3) الشهاب، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 97.
(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1102.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ﴾:

جرائمُ الفراعنةِ عديدةٌ ومتنوّعة، لازمة ومتعدّية

(الواو) في قوله: ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ﴾ عاطفةٌ؛ إذْ تجمَعُ على فرعون جريمَتَيْن: جريمةَ التَّكذيب وسوءِ الأدب، وجريمةَ تشكيكِ النّاسِ في موسى ﷺ؛ وبذلك يتحمَّل وِزْرَيْن: وزرَ ضلاله، ووزرَ إضلاله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٢ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣﴾ [العنكبوت: 12 - 13].

دلالةُ التَّعبير بفعل القول ماضيًا:

مبادرَةُ الطُّغاة لتُهْمَةِ المُصْلِحين مِن غير تثبُّتٍ لمَقالاتهم

في التَّعبير بالقول في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ﴾ مضاعَفَةٌ للجريمة؛ إذ في القول باللِّسان إشاعةٌ للافتراء، ونَشْرٌ للتَّشويه، وذلك يكون مِن القادة للعامَّة، ومن السّادة للدَّهماء محلَّ اعتبارٍ وتقليد، فتُعاني مِنهُ البلاد والعباد.

وفي صوغ (قال) ماضيًا دَعْمٌ للتَّجريم، وتفظيعٌ للخطيئة؛ ذلك أنَّه - لعنه اللّه تعالى - أشاع الإشاعاتِ حول موسى ﷺ فور دعوتهِ إيّاه، مِن غير تحقيقٍ صادق للوقوفِ على الحقِّ، وفي "هذا القول من اللَّعين مغالَطَةٌ وإيهام لِقومه، فإنَّه يعلم أنَّ ما رآه من الخوارق لا يَتَيَسَّر على يدِ ساحر، ولا يَفعله مَن بِه جنونٌ"[1].

نكتةُ الحذف في قوله: ﴿سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ﴾:

تنزيهُ المظلوم مِن التُّهَم الكاذبة لفظًا كنزاهتِهِ منها واقعًا

حَذَفَ النَّظمُ الكريم المسندَ إليه من قوله: ﴿سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ﴾؛ إذ التَّقدير: فتولّى فرعونُ برُكْنه، وقال: موسى ساحر أو مجنون، وبذلك الحذفِ يُنَزِّه النَّظمُ الكريم ساحةَ موسى ﷺ لفظًا كنزاهته واقعًا من تلك التُّهم الكاذبة المفتراة، و"لم يُذكر موسى ظاهرًا أو مضمرًا؛ حمايةً له مَن أن يُقال هذا القول المنكَر فيه"[2].

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 108.

(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 525.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿سَٰحِرٌ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

مبالغة الطُّغاةُ في تشويهِ مُخالفيهم بالتُّهَم الكاذبة مع عِلْمهم ببراءَتهم مِنْها

السّاحر في اللُّغة: هو الَّذي يبلغُ في علم الأشياء غايتَه، وسمّاه ساحرًا بما أتى من الآيات المعجزة، وقومُه إنَّما يَعْرِفون وصْف السِّحر على هذا الوجه، فسمّاه بذلك، وإن أيقَنَ هو أنَّ مثل ذلك الفعلِ لا يكون سحرًا؛ وذلك للتَّمويه على قومه[1].

أو قصدَ فرعونُ أنَّ موسى "يأتي الجنَّ بسِحْره، أو يقرُب منهم، والجنُّ يَقْرُبون منه، ويقصدونَهُ إن كان هو لا يَقْصِدُهم، فالسّاحر والمجنون كلاهما أمرُه مع الجنِّ، غير أنَّ السّاحر يأتيهم باختيارِه، والمجنونَ يأتونَهُ مِن غيرِ اختياره، فكأنَّه أراد صيانَةَ كلامه عنِ الكذِبِ، فقال: هو يسحَرُ الجنَّ، أو يُسْحَر، فإن كان ليس عندهَ منه خبر، ولا يقصد ذلك، فالجنُّ يأتونه"[2]، فـ "كأنَّه نسبَ ما ظهر على يديهِ ﷺ مِن الخوارقِ العجيبةِ إلى الجنِّ، وتردَّدَ في أنَّه حصل باختيارِه وسَعْيِه أو بغيرِهما؟"[3].

وفي تنكير ﴿سَٰحِرٌ﴾ إيهامٌ من فرعون بخطورة موسى ﷺ، وأنَّه من صنفٍ منكورٍ محذور من السَّحرة.

المبالغَةُ في وصف موسى بالسّاحر دعوةٌ لانفِضاض النّاس عن دعوتِهِ

وفي صوغ اللَّعين فرعونَ تهمتَهُ موسى ﷺ بـ ﴿سَٰحِرٌ﴾ اسمَ فاعلٍ إيحاءٌ لأتباعه - لعنه اللّه تعالى - برُسوخ موسى ﷺ - وحاشاهُ - في صَنْعَة السِّحر ودوامه عليها، واكتمال خِبْرَته فيها حتّى نبغَ، وبلغَ إلى الحدِّ الَّذي تَرَوْن، وذلك يدعَمُ خُطورتَهُ المقصودة من فرعون - لعنهُ اللّه تعالى - فيحذره النّاس، ولا يُؤْمِنون بدَعْوَته.

معنى ﴿أَوْ﴾ في قوله: ﴿سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾:

﴿أَوْ﴾ في قول فرعون - لعنه اللّه - في موسى ﷺ: ﴿سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 559.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 182.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 142.

تدلُّ على الشَّكِّ أو الإبهام[1]، والتَّمويه على الحاضرين، والتَّشويش على أذهانهم أمرَ موسى ﷺ، وكأنَّ فرعون اللَّعين يقول لِمَلَئِه: لقد بلغ موسى من الخطورة بحيث يَصعُبُ عليَّ وأنا سَيِّدكم تصنيفُه، أيَنْتَمي صنيعُه إلى السِّحر أم إلى الجنون؟ فاحذروه أن يُضِلَّكم عن ديننا، فـ"نزَّل نفسه منزلة الشّاكِّ في أمره؛ تمويهًا على قومه"[2].

الارتباك والتَّناقُض شأن أهل الضَّلال حين يَقهرهم الحقُّ، وتَسقُط منهم الحُجَّة على دَفْعِه

ثُمَّ إنَّه رَماه أوَّلًا بالسِّحر، فقال: ﴿سَٰحِرٌ﴾، ثُمَّ ناقَضَ نفسَهُ كمُناقَضَتِكُم يا كفّار قريشٍ، فقال ﴿مَجْنُونٌ﴾، أي: لاجتراء موسى عليَّ، مع ما ليَ من عظيم المُلك بِمثل هذا الَّذي يدعو إليه، ويتهدَّد عليه[3].

وفي العطف بـ﴿أَوْ﴾ "إشارة إلى أنَّ هذا القول لم يكن من فرعون عن عِلم، وإنَّما هو رميةٌ من رمياتٍ طائشةٍ، يَرمي بها من غير حساب أو تقديرٍ، فهو متردِّد في الحكم الَّذي يَحْكُم به على موسى، ولكن لا بُدَّ من أن يُصدرَ حُكْمًا، ويقولَ قولًا، وهذا شأن أهل الضَّلال حين يَقهرهم الحقُّ، وتَسقُط من بين أيديهم الحُجَّة على دفعه"[4].

وتحتمل ﴿أَوْ﴾ أن تكون بمعنى الواو؛ لأنَّه قد قال ذلك جميعًا، ولم يتردَّد، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ٢٤﴾ [الإنسان: 24][5].

دلالةُ التَّعبير بالجنون نكرةً:

من كبرياء الفراعنةِ عَدُّ مخالفيهم مجانينَ

الجنونُ هو اختلالُ العقل؛ بحيث يمنع جريانَ الأفعالِ والأقوالِ على نَهْجِه القَويم إلّا نادرًا[6]، وعلى الرُّغم مِن حِرْص فرعون على تشويهِ نبيِّ اللّه تعالى، فقد سَقَط في مستنقَع التَّناقُض الفاضح؛ إذ فضَحَهُ كذبُه وافتراؤُه؛ لأنَّ تهمة السِّحر تقتضي سلامةَ العقل،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 16.
(2) القِنّوجيّ، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 205.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 469.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 525.
(5) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 108.
(6) حقي، روح البيان: 9/ 199.

والجنون يقتضي اختلاله، فكيف يَشكُّ - لعنَهُ اللّه تعالى - في التَّمييز بين العقلِ الرّاشد والعقل المختلِّ، فيجمع بين احتمالين مُتَداخلين في شخصٍ واحد!

وقد يكون من مقصودِهِ - لعنه اللّه تعالى - تسميةُ موسى عليه السلام مجنونًا؛ "لمخاطرته بنفسِه بمُخالفته مع علمه أنَّ همَّته القتل لِمن خالفه في دينه ومُلكه"(1).

وفي تنكير ﴿مَجۡنُونٌ﴾ إيحاءٌ منه - لعنه اللّه - ببلوغ موسى عليه السلام في الجنون مبلغًا منكورًا خطيرًا؛ وذلك ليحذرَه النّاس.

سرُّ تقديمِ وصف ﴿سَٰحِرٌ﴾ على ﴿مَجۡنُونٌ﴾:

للفراعنةِ أساليبُ كثيرةٌ في التَّمويه على العامَّة وتضليلِهم

قدَّم فرعون - لعنه اللّه تعالى - احتمال تهمة موسى عليه السلام بالسِّحر على تُهمته بالجنون؛ وذلك لِشُيوع السِّحر في تلك البيئة الشَّيطانيَّة الخبيثة، ولأنَّ الإتيان بالأفعال العجيبة مِن عَمَل السَّحرة عندهم أقربُ، والسّاحر عليه أقدر من المجنونِ.

ولمّا كان الَّذي جاء به موسى من آياتٍ خوارقَ قد فاق حدودَ العَجَب إلى حدود الاستحالةِ، وعَلِم فرعونُ بِصدق موسى عليه السلام في أنَّه رسول من عند اللّه تعالى؛ بادر لعنه اللّه تعالى بتوجيه العقول إلى ما يُمكِن تصديقُه في موسى عليه السلام مِن وصفه بالبراعة في السِّحر.

ثُمَّ تدارك فرعون أنَّ براعة موسى عليه السلام في السِّحر قد تُؤَهِّله للقيادة والزَّعامة؛ لأنَّ السَّحَرَة عندهم مرفوعو المنزلةِ، فيَتبَعه النّاس أيضًا، فانْتَكَس - لعنه اللّه - إلى اتِّهامه بالجنون؛ ليُفْقِدَه إعجاب النّاس، ويُبعِده من أن يكون مظنَّة الأسوة والإمامة، وإن كان في ميدان السِّحر.

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 388.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾:

حلولُ الهلاك بالفراعنةِ يَطوي آثارَهم كأن لم تَكُن

(الفاء) في ﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ عاطفةٌ تدلُّ على التَّعقيبِ، تدلُّ على فوريَّة أَخْذِه تعالى فرعونَ وجنودَه، وعدم إمهالِهم أو إهمالهم، وإن كانت دعوة موسى عليه السلام قد استمرَّت فيهم عددَ سنين، فإنَّ حلولَ الهلاك ونَبْذَهم في اليمِّ قد طَوَى ذلك الزَّمنَ، وطوى آثارَها كأن لم تكنْ، وهذا مِن عطاء (الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾.

دلالةُ التَّعبير بفعل الأخذ ماضيًا:

حَقارَةُ الفَراعِنَة وهوانُهم على الله تعالى

الأخذ في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ هو أَخْذُ غضَبٍ من اللّه تعالى[1]، "وأَخْذُ اللّه سبحانه لا يكون إلّا حيث تَقَعُ نِقَمُهُ، ويَنزِل بلاؤه، مثل قوله تعالى لفرعون: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ٢٥﴾ [النازعات: 25]"[2].

وفي التَّعبير بأخذه جل جلاله دلالةٌ على هوانِ فرعون على اللّه تعالى، وضآلة رُكنِه الَّذي كان يَظنُّه ركينًا، فها هو وجنودُه معه شيءٌ ضعيفٌ ضئيل لا يُعجز اللّه جل جلاله.

دلالةُ إسناد الأخذِ إلى ضمير العظمة:

أخذُ الله تعالى إذا أخذَ بالغضَبِ، أليمٌ شديدٌ

في إسناد فعل الأخذ إلى ضمير العظمة في قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾ إيحاء بأنَّه "أَخْذُ غضبٍ وقهرٍ بعظمتنا، بما استدرجناه به، وأوهنّاه به من العذاب"[3]، وفي ذلك الأخذ كنايةٌ عن ضآلة حالِ فرعون - لعنه اللّه تعالى - وضآلة رُكْنِه إزاءَ قوَّةِ أَخْذةِ اللّه جل جلاله، وشدَّة انتقامه منهم، فإنَّه تعالى إذا أخذ بالغضَب؛ فإنَّ أَخْذَه أليم شديدٌ.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 536.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 526.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 469.

بيانُ مرجعِ ضَمير المفعولِ في ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ﴾:

الـفـراعِـنـةُ مَبْغوضونَ عِندَ الله تعالى

ضمير المفعول في جملة ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ﴾ يرجع إلى ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ المذكورِ قبلُ في جملة: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾، وفي طيّهِ في ضميرٍ إيحاءٌ ببُغضه، وكراهةِ سوقه باسمه، كذلك في هذا الضَّمير اتِّساق مع دلالة التَّركيب على ضآلته، وصِغَرِه، وحَقارته، وعدم الاكتراث لهلاكه، لعنهُ اللّه تعالى.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَجُنُودَهُۥ﴾:

أسـبـاب إهـلاك الطُّغاةِ على الله تعالى يسيرةٌ

(الواو) في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ عاطفة؛ إذ تجمَعُ جنودَ فرعون معه - لعنهم اللّه تعالى - في الأخذ اليَسير على الرُّغم مِن كثرة عَددهم وعُددهم إلى الإهلاك الكبير، وأنَّهم جميعًا من الضَّآلة، بحيث أخَذَهم ﷻ أخذًا يسيرًا، وأهلكهم بالإغراق إهلاكًا سريعًا؛ إذ هي عَصًا ضَرَبَت، فَشُقَّ البحر، ودَخل المشؤومُ، فأُطْبِق عليه بهذا اليُسْرِ العجيب.

دلالةُ التَّعبير بالجنود، وإشارةُ الإضافةِ فيه:

يُـغـري الـطُّـغاةَ بـالـجـرأة على الحقِّ ما أمدَّهم الـلـه تـعـالى به من أسباب القوَّة

في التَّعبير بمفردة الجنود في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ دلالةٌ على كونهم جيشًا مُنَظَّمًا، مكتمِلَ الإمكانات، ولم يكونوا حَفْنَةً مِنَ المقاتلين أو المحاربين الَّذين لا انضباطَ لصفوفهم ولا نظامَ، ممّا أغرى فرعونُ بِضَمان النَّصر على موسى عليه السلام وأهلِ الإيمان معه، فأَخْذُهُم اليسيرُ - على الرُّغم مِن تلك القوَّة المَهيبة - كناية عن عَظمته تعالى، وهولِ انتقامه حين يحينُ أَجَلُ الطُّغاة.

وتشير الإضافةُ في (جنوده) ونسبتُهم إلى فرعون إلى أنَّهم جنودُه هو، ويقاتلون عنه هو.

معنى (الفاء) في جملة ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ﴾:

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ﴾ عاطفة على ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ﴾،

سرعةُ إهلاك فرعون وجنده

وهي دالَّةٌ على فوريَّة النَّبْذ للأخذ، ففيها كنايةٌ عن السُّرعة الخاطفة الَّتي باغتت فرعون وجنوده، وهم يحسَبون أنَّهم في مأمن من الهلاك.

دلالةُ التَّعبير بفعل النَّبذ ماضيًا:

هوانُ الطُّغاةِ على الله تعالى

في التَّعبير بمفردة (النَّبذ) في جملة: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ﴾ معاني الاستهانةِ والاحتقار، وعدم الاكتراث، أي: "ألقيناهم في البحر، فغرَّقْناهم فيه"[1]، و"طرَحْناهم طرْحَ مُسْتَهين بهم مستخِفٍّ لهم، كما تُطرح الحَصَيات"[2]، ففيه "دلالة عَلى غايةِ عِظم شأنِ القدرةِ الرَّبّانيَّة، ونهايةِ قَمأة فرعون وقومه"[3].

وفيه دلالة على بُغض اللّه تعالى إيّاهم، وعلى حقارتهم وعدم كرامتهم عِنْدَهُ ﷻ، ومن ذلك المعنى بسبيل: وصف الشَّخص الكريه بالمَنْبوذ، أي: الطَّريد المقيت.

وفي صَوْغِ فعل النَّبذ ماضيًا اتِّساقٌ مع عطاءِ الفاء وسُرْعَتِها؛ إذِ الماضي يَقطع بتحقُّق الوقوع وسرعةِ الفراغ منه.

دلالةُ إسناد النَّبذ إلى ضمير العظمة في ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ﴾:

شدَّةُ ما لاقاهُ الطُّغاةُ من العذاب الحسّيِّ والنَّفْسيِّ

في إسناد فعل النَّبذ إلى ضمير العظمة في قوله تعالى: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ﴾ دلالة على شدَّة ما لاقَوْهُ مِن العذاب النَّفسيِّ إلى ما عانَوْه من العذاب الحسّيِّ؛ لأنَّ نابِذَهم ومُلقيهم في اليمِّ تلك القوَّة القاهرة، الَّتي يُعبَّر عنها بضمير العظيمِ ﷻ في قوله: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ﴾.

بيانُ مرجع ضمير المفعول في ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ﴾:

ضمير المفعول في قوله: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ﴾ يرجع إلى ﴿فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ جميعًا، وكأنَّهم طووا طيًّا، ورُميَ بهم رَميًا، منبوذين مبغوضين في مهاوي الهلاك والضَّياع.

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 536.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 469.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 142.

الهلاكُ يَطْوي الطُّغاةَ، ويلفُّهم في ظلماته حين يُنْزِلُه الله تعالى بهم

معنى ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي ٱلۡيَمِّ﴾:

﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي ٱلۡيَمِّ﴾ تُفْصِح عن أنَّهم أُغرقوا في أعماق اليمِّ، وغُيِّبوا في ظلماته، وفي ذلك تصويرٌ دقيق لِما حدَث لهم، فإنَّهم نزلوا إلى الأعماق يَمشون على الطَّريق اليَبَس الَّذي ضربه موسى بعصاه لِعُبور المؤمنين، فأطبق الماءُ على فرعون وجنوده، وغُيِّبوا فيه إلى غير رجعَةٍ، إلّا بدن فرعون؛ ليكون عبرةً، كما قال اللّه تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ﴾ [يونس: 92].

نكتةُ التَّعبير بـ ﴿ٱلۡيَمِّ﴾:

مِن جُند الله تعالى ما قد يكون نجاةً لأوليائه، هلاكًا لأعْدائه

﴿ٱلۡيَمِّ﴾ هو البَحْرُ، وقيل: لُجَّةُ البَحر، قال اللّه تعالى: ﴿فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ [القصص: 7][1]، و﴿ٱلۡيَمِّ﴾ المقصود هنا: نهرُ مصرَ، وهو النّيل[2].

وفي إيثار النَّظم الكريمِ التَّعبيرَ بـ ﴿ٱلۡيَمِّ﴾، في قوله تعالى: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾؛ لإغراقِ فِرعَون وجنودِه، تذكيرٌ باليمِّ الَّذي كان سببَ نجاةِ موسى عليه السلام رضيعًا في أضعفِ حالاته، وأنَّه هو اليمُّ الَّذي صار سببًا في هلاك فرعون - لعنه اللّه تعالى - وهو في أقوى حالاته.

على أنَّ اليمَّ الذي كان سببًا في نجاة موسى عليه السلام هو نهر النّيل، أمّا الذي كان سببًا في هلاك فرعون - لعنه اللّه تعالى - فهو بحرُ القَلْزَم - البحر الأحمر - وفي ذلك دلالة على صحَّة إطلاق اليمِّ على النَّهر والبَحْرِ معًا.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٞ﴾:

مَن عاش على شيءٍ مات عليه، ومَن مات على شيءٍ بُعث عليه

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ حاليَّة، أي: إنَّ اللّه تعالى نَبَذَهُ في اليمِّ، ملومًا آثمًا مجرمًا، وهكذا يُختم للطُّغاة بما يسوؤهم أن يُبْعَثوا عليه يوم القيامة، "فإنَّ الكريم قد أجرى عادتَه بِكَرَمِه أنَّه مَن عاش على شيءٍ؛ ماتَ عليه، ومَن مات على شيءٍ؛ بُعث عليه"[3].

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: 5/ 394.
(2) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 4/ 132.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/ 389.

دلالةُ بناء قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ على تقديم ضمير الرّفع:

يحمِلُ الطُّغاةُ من ضلال أتباعهِم أعظمَه

في بناء الجملة الحاليَّة ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ على تقديم الضمير (هو)، والقذف به في صَدْرِها تنبيهٌ مجلجِل إلى فظاعة إثْم فرعون وجُرمه، وكأنَّه هو وحده الآثم المجرِمُ المُلام، وكذلك كلُّ فرعون يَحْمِلُ من الذَّنب أعظمَه، ومن الجُرم أكثرَه؛ لأنَّه القدوة السَّيِّئة الَّتي شجَّعت على ارتكابه، وتولَّت كبره.

دلالة سرِّ التَّعبير بوصف ﴿مُلِيمٌ﴾ اسمَ فاعلٍ:

اختارَ فرعونُ لنفسه طريق الملامِ والذَّمِّ

المُليمُ هو الَّذي فعل ما يُلام عليه مِن الكفر والعناد[1]، وأشدُّ الكُفر وأوجب الملام ادِّعاءُ اللَّعين فرعونَ الألوهيَّةَ، وفي صياغتِه اسمَ فاعل إسنادُ اللَّوم إلى فرعونَ نفسِه، كأنَّه يلوم نفسَه، وذلك بتسبُّبه في لومها بارتكاب جرائمه تلك، فـ"في الإسناد تَجَوُّزٌ على حدِّ ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ٢١﴾ [الحاقة: 21]، يُقال: ألامَ الرَّجلُ: فعَلَ ما يستحِقُّ عليه اللَّوم، واللَّوم: العَذْلُ، تقول: لامه على كذا، من باب "قال"، ولَوَمَهُ أيضًا، فهو ملوم، واللّائمة: الملامة"[2].

توجيهُ جَعْل ﴿مُلِيمٌ﴾ وصفًا لفرعون الكافرِ، وليونُس النَّبيِّ:

موجِباتُ اللَّوم تختلف بحسب اختلافِ مقاديرِ اللَّوْمِ

جاء في الذِّكر الحكيم التَّعبير بـ ﴿مُلِيمٌ﴾ وصفًا لفرعونَ الكافرِ، وليونُس النَّبيِّ الصّالح ﵇، وتوجيه ذلك أنَّ "موجباتِ اللَّوم تختَلِفُ، وعلى حسب اختلافها تختلف مقاديرُ اللَّوم، فراكِبُ الكبيرة ملومٌ على مقدارها، وكذلك مقترِف الصَّغيرة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾ [هود: 59]، ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ [طه: 121]؛ لأنَّ الكبيرة والصَّغيرة يجمَعُهما اسمُ العصيان، كما يَجْمَعُهُما اسمُ القَبيح والسَّيِّئة"[3].

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 42.
(2) القِنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 206.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 403.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّولّي والانصراف والإعراض:

الإعراض التَّولّي بالجانب وعدمُ الإقبال، والتَّولي الإعراضُ مُطْلقًا

الإعراض: أن تولّيَ الشَّيء عُرضك، أي: جانبك، ولا تقبل عليه، فيدلُّ على الرَّفض القلبيِّ والابتعاد الإراديِّ، مع موقف سلبيٍّ من المُعْرَض، كقوله سبحانه: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف: 199]، أي: تجاهَلْهُم، واترُكِ الرَّدَّ عليهم.

والتَّولي: الإعراض مطلقًا، ولا يلزمه الإدبارُ، والإعراضُ: الانصراف عن الشَّيء بالقلب، قال بعضهم: المُعرِض والمتولّي يشتركان في ترك السُّلوك، إلّا أنَّ المُعرض أسوأ حالًا، وغاية الذَّمِّ: الجمعُ بينَهُما، وقال المُناويُّ: "التَّولّي: الإعراض المُتَكَلَّف بما يُفْهِمُه: التَّفَعُّل"(1).

والانصراف: مصدر انصرفَ، أي: ذهب، ومضى، وأعرض: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ﴾ [التوبة: 127]، وانصرف إليه: تحوَّل، وانصرف عنه: ابتعد، وتركَه، وتحوَّل عنه(2)، فدلالته تعني الذَّهاب والانتهاءَ من شيءٍ، دون دلالةٍ على رفضٍ أو فرارٍ، كقولنا: انصرف القومُ من الصَّلاة، فهو أعمُّ وأخفُّ دلالةً من سابقاتها.

والجامع الدَّلاليُّ بين هذه الألفاظ هو التَّرك والابتعاد عن الشَّيء بعد مواجهته، لكن تختَلِفُ درجَتُه وسبَبُه.

النَّبذ والطَّرح والرَّمي:

النَّبذ تركٌ باستهانة، والطَّرح إلقاءٌ وإبعاد، والرَّمي إلقاء بقوَّة وقصد

النَّبذ: إلقاء الشَّيء استهانةً به، وإظهارًا للاستغناء عنه، فيدلُّ بذلك على التَّرك المقرونِ بالاحتقار أو الإهمال، ويُستعمل غالبًا في السّياق المعنويِّ، كقوله: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ [آل عمران: 187]، أي: تَرَكوهُ باستِخفافٍ.

(1) إبراهيم بن سعد، معجم التوحيد: 1/ 168.
(2) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (صرف).

وأمّا الطَّرح؛ فيدلُّ على الإلقاء والإبعاد، وقد يكون عن قصدٍ أو ضرورةٍ، ولا يلزَمُ دلالته على الاحتقارِ.

وأمّا الرَّمي؛ فيدلُّ على الإلقاء بسرعة وقوَّة، ويكونُ فيه غالبًا قصدُ إصابةٍ أو توجيهٍ[1].

والجامِعُ بين هذه المفردات هو الإلقاءُ والتَّرك، ويختلف بحسَبِ القَصْدِ والحالِ.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نبذ/ طرح/ رمي)، وأبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 530.

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: 41 - 42]

السّياق القرآنيُّ وثيق التَّرابُط، ومعانيه مُتَسَلْسِلَة بدِقَّةٍ ولُطف

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلهما:

ذكر البقاعيُّ وجهَ التَّناسُبِ بين هاتين الآيتين وما قبلهما، فقال: "لمّا أتمَّ قِصَّةَ مَن جُمع له السَّحابُ والماء والنّارُ والرّيح - أي: قصَّة هلاك فرعون وجنوده - أتبعَها قصَّة مَن أتاهم بريحٍ ذاريَةٍ لم يوجد قطُّ مثلُها - أي: قصَّةَ هلاك عادٍ قوم هودٍ - وكان أصلُها موجودًا بين ظَهْرانيهم، وهم لا يشعرون، بل قاربت الوصول إليهم، وهم يَظُنّونها ممّا يَنْفَعُهُم، فقال: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾"(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْعَقِيمَ﴾: أصل العُقْمِ: اليُبس المانع من قبول الأثر، يُقالُ: عَقُمَت مفاصله، وداء عُقامٌ: لا يقبل البُرء، والعَقيمُ من النِّساء: الَّتي لا تَقبل ماء الفحل(2)، ويوم عَقيمٌ: لا فرح فيه(3)، ويوم القيامة يومٌ عَقيمٌ؛ لأنَّه لا يوم بعده(4)، والرّيحُ العَقيم: هي الخَليَّةُ من المَنافعِ الَّتي تُرجى لها الرّياحُ من إثارةِ السَّحابِ وسَوْقه، ومِن إلقاحِ الأشجار بنقلِ غُبرَةِ الذَّكَرِ من ثِمارٍ إلى الإناثِ من أشجارها، فهي الرّيحُ الَّتي لا نَفْعَ فيها، أي: هي ضارَّةٌ(5).

2) ﴿تَذَرُ﴾: أصلُ (وذر) يدلُّ على القَذْفِ والتَّرْكِ(6)، يُقالُ: فُلانٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 470.
(2) الراغب، المفردات: (عقم).
(3) الراغب، المفردات: (عقم).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عقم).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 11.
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وذر).

يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يَقذفه لِقلَّةِ اعتِداده به، ومن ذلك الوَذْرَة، وهي قِطعةٌ لحم صغيرةٍ، سُمّيت بذلك لِقلّة الاعتداد بها، والجمع: وُذَر[1]، والعَرَبُ قد أماتتِ المَصْدر من (يَذر) والفِعْل الماضي، واستَعْملته في الحاضِر والأمر، فإذا أرادوا المَصْدر؛ قالوا: ذَرْه تَرْكًا[2]، والمُراد بالفِعل ﴿تَذَرُ﴾ هنا التَّرْكُ، أي: ما تَترُكُ من شيءٍ مَرَّت عليه[3].

3) ﴿كَٱلرَّمِيمِ﴾: أصلُ (رمم) يدُلُّ على بلاءِ الشَّيءِ، يُقال: رَمَّ الشَّيءُ؛ إذا بَلِيَ[4]، والرِّمَّةُ بالكسر: العظام الباليَةُ، والجمع: رِمَمٌ ورمامٌ، تقول منه: رَمَّ العظمَ يَرِمُّ - بالكسر - رَمَّةً، أي: بَلِيَ، فهو رميم[5]، والرُّمَّةُ من الحَبل - بِضَمِّ الرّاء - ما بَقي مِنهُ بعد تَقَطُّعه، وجَمعها: رِمَم، ومن هذا يُقال: أعطيتُه الشَّيءَ بِرُمَّته، أي: بجماعَتِه[6]، والمُرادُ بالرَّميم في الآيةِ: البالي أشدَّ البِلى.

المَعنى الإجماليُّ:

الرِّيحُ الَّتي أُهلِك بها قومُ عادٍ مُفسِدَة مُبيرَةٌ؛ لا تدع شيئًا أتت عليهِ نافِعًا

كذلك تَرَكْنا، وخلَّفْنا - لِمن يخافون العذابَ الأليم - في قصَّة عادٍ قومِ هودٍ عليه السلام عِبَرًا ودروسًا وعِظاتٍ عظيمةَ التَّرهيب من الكفر والعصيان، تلك العِبر قد تحقَّقَت فيهم حين سلَّطنا عليهم الرّيح المهلكةَ، الخالية من كلِّ خير، المُتمحِّضة لكلِّ شَرٍّ، القادمة عليهم بالهلاكِ والتَّدمير.

إنَّها ريحٌ خطيرة؛ إذ لا تَمُرُّ بِشيءٍ أراد اللَّه تعالى تدميرَهُ وإهلاكه - من قوم عادٍ وما يتعلَّق بهم من حيوانٍ وأشجارٍ وزروع وغيرها - إلّا صيَّرته هشيمًا، وخلَّفَته وراءها مفتَّتًا كأنَّه العظامُ البالية، وكأنَّه النَّباتُ المتيبِّس، الَّذي ديسَ بلا اعتناءٍ، فتمزَّق، وتفتَّت.

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وذر).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (وذر).
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 25.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رمّ).
(5) الجوهري، الصحاح: (رمم).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (رمم).

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا﴾:

قصصُ الهالكينَ مِنَ الأممِ الكافرةِ مشحونَةٌ بالآياتِ والعِظاتِ

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ عاطفةٌ قصَّةَ هلاكِ عادٍ قومِ هود عليه السلام على قصَّة هلاك فرعونَ، "فهو عطفُ حدَثٍ على حدث"[1]، والمعنى: وكذلك في خبرِ عادٍ مع نبيِّهم هودٍ عليه السلام وقصَّةِ هلاكهم، آياتٌ وعِبَرٌ لِمن يعتَبِر من أهل الإيمان بالائْتِساء بهودٍ عليه السلام، وتَعَلُّم الصَّبر والثَّبات في طريق الحقِّ، وعِبَرٌ لأهل الكُفْرِ حَذَرًا من مصير الظّالمين، مثل غرقِ فرعونَ ومَلَئِه، وتدمير عادٍ ومُتَعَلَّقاتهم.

معنى (في) في قوله: ﴿وَفِي عَادٍ﴾:

انطواءُ قِصَّة عادٍ على عِبَرٍ مُتَكاثِرَةٍ

(في) في قوله: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ ظرفيَّةٌ، توحي بأنَّ قصَّة هلاك عادٍ، كأنَّها بمُسْتَوْدَعٍ أودعت فيه الحِكَمُ والعِبَرُ والعِظات، والآيات النّافعة لِمَن تدبَّرها، ونَظَرَ فيها نظَرَ مسترشِدٍ إلى الحقِّ والصَّواب.

ثُمَّ إنَّ الحرف (في) يُحرِّك الهمَّة إلى البحث في قصَّة عاد، والتِقاط دقائق العِبَر منها، ويُلمح إلى أنَّها منطويةٌ على كثير من العظات النّافعة والدُّروس النّاجعة؛ لذا كانت من أكثر القِصَصِ ورودًا في القرآن الكريم.

دلالةُ التَّصريح بالاسمِ العلَم ﴿عَادٍ﴾:

التَّذكيرُ بأسماء الطُّغاة يبغِّض سُلوكَهُم

في التَّصريح باسم ﴿عَادٍ﴾ تبغيضٌ للنّاس فيهم، وتحذيرٌ لهم من سُلوك طريق الكُفْرِ الَّذي يؤدّي إلى مثل مَصيرهم، وتخويفٌ لقُريشٍ مِن أن يَتَوارث النّاس إهلاكَ اللّه تعالى لهم؛ إن هم سلكوا مسلكَ عادٍ.

وفي التَّصريح بِذكر عاد "تسليةُ قَلْبِ النَّبيِّ ﷺ وتذكيرُه بحال

---

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 526.

الأنبياء"[1]، "ولَم يَذكر في عادٍ وثمودَ أنبياءَهم، كما ذكر إبراهيم وموسى ولوطًا عليهم الصَّلاة والسَّلامُ؛ لأنَّه ذكَر ستَّ حكايات، حكاية إبراهيم وبشارته، وحكاية قوم لوطٍ ونجاة مَن كان فيها من المؤمنين، وحكاية موسى، ففي هذه الحكايات الثَّلاث ذَكَر الرُّسل والمؤمنين؛ لأنَّ النّاجين منهم كانوا كثيرين، فأمّا في حقِّ إبراهيم وموسى؛ فظاهرٌ، وأمّا في حقِّ لوطٍ؛ فلأنَّ النّاجين، وإن كانوا أهْلَ بَيْتٍ واحد؛ لكنَّ المُهلَكين أيضًا كانوا أهل بُقْعَةٍ واحدة، وأمّا عادٌ وثمودُ وقوم نوحٍ؛ فكان عدد المُهلَكين بالنِّسبة إلى النّاجين أضعافَ المهلكين من قوم لوطٍ عليه السلام"[2].

"فذِكْر الحكايات الثَّلاث الأوَل - إبراهيمَ ولوطٍ وموسى - للتَّسلية بالنَّجاة، وذِكْرُ الثَّلاث المتأخِّرة - عادٍ وثمودَ وقوم نوحٍ - للتَّسلية بإهلاك العدوِّ، فالجميعُ مذكور للتَّسلية، بدليل قوله تعالى في آخر هذه الآيات: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢﴾ [الذاريات: 52]، إلى أن قال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات: 54 - 55]"[3].

بلاغةُ تقديم ﴿عَادٍ﴾ على الفِعل:

تبشيعُ مَصيرِ قومِ عادٍ والتَّحذير من سُلوك سَبيلهم

في تقديم ﴿عَادٍ﴾ على الفعل في قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ تبشيع لمصيرهم، وتهديدٌ بمِثْلِ هلاكهم، وتنفيرٌ من سلوكهم، وإلّا لقيل في غير القرآن الكريم: وأرسلنا على عادٍ الرِّيحَ العقيم، فتأخيرُ ذكرهم يهوِّن من أثَر الوعيد في نفوس المُتَلَقّين.

وتقديم اسم ﴿عَادٍ﴾ وبناءُ الجملةِ على ذلك، وإدخالُ حرفِ الاستعلاءِ عليه - كما جاء في قوله: ﴿وَفِي عَادٍ﴾ - يجعل قِصَّة

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 183، بتصرف.

(2) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 18/ 94.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 183، بتصرف.

هلاكِهم مستودَعًا للآيات والعِبَر، ويجعل التَّحذير من الهلاك، والمصيرَ إلى مثل مصيرهم، حاضرًا بِقوَّة لدى المخاطَب.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿إِذْ﴾ في قوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ﴾:

التَّذكيرُ بالوقت في الذِّكْر الحكيم استحضارٌ لأحداثه للنَّظر والاعتبارِ

﴿إِذْ﴾ ظرفُ زمانٍ يُعبَّرُ به عن "الوَقْت الماضي، والمستقبل في الأصَح، وتلْزم الظَّرفيَّة ما لم يُضَف لَها زمانٌ"[1]، وهي في قولهِ تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ بمعنى (حين)، أي: "حين كذَّبوا نبيَّهم هودًا عليه السلام"[2].

والمقصود بالتَّذكير بالوقت استحضارُ أحداثه، والنَّظر فيها بعين الاعتبار، والحَدَثُ هنا: إرسالُ الله تعالى على عادٍ الرّيحَ العقيمَ، الَّتي وصفَها القرآنُ الكريم بالصَّرصر، ووصفَ أيّامها بالنَّحِسات في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [فُصِّلَت: 16]، ووَصَفها بالعتوّ، وأيّامَها ولياليَها بالحُسوم في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: 6 - 7]، وفي تَطاوُل أيّام عذابهم ولياليه عليهم دليلٌ على عِظَم ظلمهم لأنفسهم وطغيان فُجورهم، وذلك واضح في قولهم: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: 15]؛ لذلك كانت قِصَّتهم مستودعًا للعِبَر والآيات الَّتي يَعْتَبِرُ بها أولو الألباب.

دلالةُ التَّعبير بفعل الإرسال مادَّةً وصيغةً:

إهلاك العُتاة يسيرٌ على الله تعالى

الإرسال في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ يعني: التَّسليطَ، والمعنى: "سلَّطنا عليهم الرّيح الشَّديدة"[3]، الَّتي استأْصَلَتهُم، ولم تُبقِ منهم باقيةً، وفي التَّعبير بالإرسال إيحاءٌ بيُسر إهلاكهم، وأنَّه كان بمجرَّد تكليفٍ لِجُند من جنود الله تعالى برسالة.

---

(1) السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع: 2/ 171.

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 811.

(3) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 346.

وفي إيثار التَّعبير بالإرسال هنا دون البعث - على الرُّغم ممّا في البعث من معنى الإثارة - معنى التَّهكُّم بـ ﴿عَادٍ﴾؛ إذِ الرَّسول يقتضي حملَ رسالة إلى المرسَل إليه، والرِّسالة هنا مُبيرةٌ مهينةٌ مذِلَّة؛ لأنَّها تكليفٌ بالعذاب والتَّدمير؛ وذلك مناسِبٌ لاستكبارهِم؛ إذ (قالوا مَنْ أشَدُّ منّا قوَّةً)، فتحَقَّق فيهم عَدْلُ اللّه تعالى بأن جاء جَزاؤُهُم مِن جنسِ عَمَلهم.

وفي صوغ الإرسال فعلًا ماضيًا إيحاءٌ بسُرْعَة استجابة الرّيح والقطع بالتَّنفيذ؛ لأنَّ تكليفها كان ممَّن إذا أراد شيئًا؛ قال له: كن فيكون، وفي ذلك تهديدٌ شديد لقريش المَعْنيَّة بالتَّعريض بالتَّعذيب والإهلاك؛ وذلك بسَوْق قصص هلاك الأمم الكافرة قبلها من أبناءِ جِلْدَتهم مِن العرَبِ وغيرهِم.

دلالةُ إسنادِ الإرسال إلى ضمير العظمة:

العظيمُ سُبْحانَه إنَّما يُرْسِلُ عظيمًا بأمرٍ عظيمٍ

إسنادُ الإرسالِ إلى ضمير العظمة في قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ أبرُّ بالمقام، وأنسبُ للسّياق، وأظهر لقوَّة العذاب الَّذي جاءت به الرّيح العقيم، وأنَّه قطعًا إرسالٌ مدمِّرٌ مُفْنٍ؛ لأنَّه تكليفٌ وإرسال على قدر المُرسِل، وبعظمة جبروتهِ ﷻ، لذلك كانت ريحًا عقيمًا، لا تدع شيئًا مرَّت به، وأتت عليه، إلّا أهلكته، وتركته رميمًا باليًا فانيًا، فالعظيمُ سبحانه إنَّما يُرْسِل عظيمًا بأمرٍ عظيمٍ.

نكتةُ تقييد الإرسال بالجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمُ﴾:

إرسالُ الرّيح عليهم كانَ إرسالَ تعذيبٍ وإهلاكٍ

يتعدّى فعلُ الإرسال غالبًا بحرف الجرِّ (إلى)، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ [الأنعام: 42]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا﴾ [النمل: 45]، إلى غير ذلك، لكنَّ الإرسال عُدّي بـ (على) في قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾.

و(على) هنا في قوله: ﴿أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ﴾ حرفٌ دالٌّ على

الاستعلاءِ، وهي تَقْضي بأنَّه "إرسالُ عُلوٍّ وأخْذٍ"[1]، وتُقرِّر قوَّة تسليطِ الرّيح عليهم، وتُلْمِحُ إلى شدَّة سَيْطَرَتِها عليهم، وعدم تمكُّنهم من الفرار منها، وأنَّها كانت طاغيةً طُغيانًا كبيرًا، كما جاء صريحًا في الآية الكريمة: ﴿فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ٦﴾ [الحاقة: 6].

معنى (أل) في ﴿ٱلرِّيحَ﴾، ولطيفةُ إيثارِه على (الرياح):

الـرّيـاحُ إذا كـثُرت؛ سبَّبت المطـر، وزكَّت الـزَّرْعَ والثَّمر، وإذا تـوحَّدت؛ وُصفت بالعُقْمِ

(أل) في ﴿ٱلرِّيحَ﴾ دالَّةٌ على الكمالِ، وهي تُفيدُ خُطورَتَها، وأنَّها كأنَّها الرّيح الَّتي لا ريحَ أعتَى منها، وأنَّها الرّيح الكاملة في خصائص الرّيحيَّة، الفاتكة بهم.

وأوثر التَّعبير بـ ﴿ٱلرِّيحَ﴾ هنا دون (الرياح)؛ جريًا على غالبِ مَهْيَعِ النَّظم الكريم في الاستعمال، فعن الخَطّابيِّ أنَّ "الرّياح إذا كثُرت؛ جلبتِ السَّحابَ، وكثُر المطر، وزكَّت الزَّرْعَ والثّمار، وإذا توحَّدت؛ تَكون عقيمة، والعرب تقول: لا تلقح السَّحاب إلّا من رياح، ومعناه أنَّه موافقٌ للتَّنزيل، فإنَّ استعماله للرّيح مطلقًا -أي: بلا قيدٍ- في العذاب، وللرّياح مطلقًا في الرَّحمة"[2].

دلالةُ وصف ﴿ٱلرِّيحَ﴾ بـ ﴿ٱلۡعَقِيمَ﴾، ولطيفةُ صوغِه على (فعيل):

إذا أراد اللـه تعالى؛ أتى بالضُّرِّ من مكمَن النَّفع

الأصل في الرّيح أنَّها تجيء محمَّلة بالخير، بل والحياة للأحياءِ كلِّها، ولكنَّ هذه النِّعمةَ قد صارت نقمةً على القوم الضّالّين[3]، فوصفها بـ ﴿ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾، أي: "الرّيح الشَّديدة الَّتي لا تُلَقِحُ شيئًا، وليس فيها رحمةٌ ولا نباتٌ، ولا تُلْقِحُ نباتًا، وفي الحديث الشَّريف: «نُصِرتُ بالصَّبا، وأُهلِكت عادٌ بالدَّبورِ»[4].

ووُصِفت بالعقم؛ لأنَّها أهلكتهم، وقطعت دابرَهم، ولم تتضمَّن خيرًا ما، من إنشاء مطرٍ، أو إلقاح شجرٍ، وهي النَّكْباء أو الدَّبور أو الجنوب"[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 480.
(2) الصديقي، مجمع بحار الأنوار: 2/ 391.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 526.
(4) رواه البخاري في صحيحه، رقم: (1035)، ومسلم في صحيحه، رقم: (900).
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 142.

وصيغَ وصف ﴿ٱلۡعَقِيمَ﴾ على وزن المبالغة (الفعيل) مبالغةً في وصفها بالخلوِّ من النَّفع، وعدم رجاء الخير منها قطُّ، وتمحُّضها للضُّرِّ والتَّدمير، فـ"أهلكهم هلاكَ الاستئصالِ"[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾:

قدرةُ الله تعالى تَجعَلُ في الشَّيء الواحد الضُّرَّ للكافرين، والنَّفع للمؤمنين

في وصف ﴿ٱلرِّيحَ﴾ بـ ﴿ٱلۡعَقِيمَ﴾ استعارة مكنيَّة؛ إذ "شُبِّه ما في الرِّيح مِن الصِّفة الَّتي تَمنع مِن إنشاء مطرٍ أو إلقاح شجرٍ بما في المرأة مِن الصِّفة المذكورة التي تَمنَعُ مِنَ الحمل"[2]، ثُمَّ حُذِف المشبَّهُ (المرأة)، وأُثبِتَت صفتُها، وهي (العُقم) لـ ﴿ٱلرِّيحَ﴾.

أو هو استعارةٌ تصريحيَّة، كأنَّه شبَّه عدمَ تضمُّنِ المنفعةِ بِعُقم المرأة، فـ (فعيل) بمعنى (فاعل) من اللّازم، وهو استعارةٌ تبعيَّة، شُبِّه إهلاكهم وقَطْع دابرِهم بِعُقْم النِّساء، وعدم حملهنَّ؛ لِما فيه مِن إذهاب النَّسْل، ثُمَّ أُطْلِق المشبَّهُ به على المشبَّه، واشتُقَّ منه العَقيم، و(فعيل) فيه بمعنى: فاعل أو مفعولٍ[3].

وعلى كلا التَّصوُّرَيْنِ في التَّعبير بـ ﴿ٱلۡعَقِيمَ﴾ مبالغةٌ في خلوِّ هذه الرّيح مِن أسباب النَّفع كلِّها بالنِّسبة للكافرين، أمّا بالنِّسبة للمؤمنين كهودٍ عليه السلام، ومَن معه من المؤمنين رضي الله عنهم؛ فكانت لهم روحًا وراحة لا عليهم[4]، فسبحان من جمع فيها الضِّدَّيْن للفريقين!

والعرب يَكرهون العُقم في مواشيهم، أي: هي ريحٌ كالنّاقة العقيم لا تُثْمِر نسلًا ولا دَرًّا، فكان في وصف الرّيح بالعُقْم تشبيهٌ بليغٌ في الشُّؤم، كما قال الله تعالى: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ٥٥﴾ [الحج: 55][5].

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 471.
(2) القِنّوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 206.
(3) الآلوسي روح المعاني: 14/ 16.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 471.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 12.

علّة فصل قوله: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ﴾ عمّا قبله:

إثباتُ الضّرر للرّيح بعد نَفْي النَّفعِ عنها

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾، عن قوله قبلُ: ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾؛ لأنَّ "جملة: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ صفةٌ ثانيةٌ لـ ﴿ٱلرِّيحَ﴾، أو حالٌ منها، فهو ارتقاءٌ في مضرَّة هذا الرّيح، فإنَّه لا ينفع، وأنّه يَضُرُّ أضرارًا عظيمة"(1).

معنى ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ﴾:

حكايَةُ الحال الماضية لاستحضار بشاعَتِها وشِدَّتها

﴿مَا﴾ في قول الله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ نافيَةٌ؛ لإفادة عُموم نفيِ الحُكم، و﴿مَا﴾ هي الَّتي هيَّأت؛ لتكوين جملة القصر وبنائها عليها، وهي تفيد النَّفي حالَ التَّكلُّم، يقال: ما يخرج زيد، أي: الآن، وإذا أردتَ المستقبل؛ تقول: لا يخرجُ، أو: لن يخرجَ، وأمّا الماضي؛ فتقولُ: ما خرج، ولَم يَخرُجِ.

والرّيح حالَ الكلام مع النَّبيِّ ﷺ كانت ما تركت شيئًا إلّا جعلته كالرَّميم، فالحكاية مقدَّرَةٌ على أنَّها محكيَّة حالَ الوقوع، ونظيرُهُ قول الله تعالى: ﴿وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ﴾ [الكهف: 18]، مع أنَّ اسم الفاعل الماضي لا يَعمل، وإنَّما يعمل ما كان منه بمعنى الحالِ والاستقبالِ(2)، فهو لحكاية الحالِ(3).

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿تَذَرُ﴾ مُضارِعًا:

جنودُ الله تعالى لإهلاكِ العُتاة لها تمييزٌ، فتَتَسلَّط على الكافرينَ ومُتَعَلِّقاتهم

معنى الفعل ﴿تَذَرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ﴾، أي: ما تدَعُ(4)، وما تترك(5)، فكأنَّ تلك الرّيحَ لها إرادةٌ وعقل، وأنَّها تبحث عن أفراد قوم عادٍ وجماعاتِهم وتَستَقصيهِم، وتُحَدِّد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 12.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 184.
(3) ابن هشام، شرح قطر الندى، ص: 270.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 540.
(5) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 346.

ما يتعلَّق بهم من منافعَ، مِثل الحيوانِ، والأشجار، والزُّروع، وغيرها لتُدَمِّرها.

وصيغَ الفعل ﴿تَذَرُ﴾ مضارِعًا "لاستحضار الحالةِ العجيبة"(1)، وتفيد المضارَعَةُ أيضًا تجدُّدَ عموم النَّفي تجدُّدًا يجعل مَن تمرُّ به تلك الرّيحُ، وتأتي عليه رميمًا باليًا، ويقرِّر أنَّ تلك الصِّفة فيها متجدِّدة مستمرَّة باستمرارِ إرسالِها عليهم، وعلى غيرهم ممَّن يقضي اللّه تعالى عليهم بذلك، ففيه تعريضٌ بالتَّهديد لقريش، وتلويحٌ بأنَّ هذه الصِّفة باقية مهيَّأة في الرّيح لهلاكهم؛ إن تمادَوا على الكفر والظُّلم، كما تمادَى قومُ عادٍ.

توجيهُ إعرابِ ﴿مَا تَذَرُ﴾:

تـنـوُّع المـعـاني وثراؤُها باختلافِ تَنَوُّع الإعرابِ

في إعراب قوله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ﴾ وجهان: أحدهما: نَصْبٌ على أنَّه صِفَةٌ للرّيح بعد صفة ﴿ٱلْعَقِيمَ﴾؛ وذلك بإعادة ﴿ٱلرِّيحَ﴾ تقديرًا، كأنَّه يقول: وأرسلنا عليهم الرّيح العقيم ريحًا ما تذَرُ، أو على أنَّ المعرَّف نكرةٌ؛ لأنَّ تلك الرّيح منكَّرة، كأنَّه يقول: وأرسلنا الرّيح الَّتي لم تكن من الرّياح الَّتي تقع، ولا وقع مثلُها، فهي لشِدَّتها منكَّرة، ولهذا أكثَرُ ما ذكَرَها في القرآن منكَّرةً، ووَصَفَها بالجملة، ومنه قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الأحقاف: 24].

والوجه الآخر - وهو الأصحُّ -: أنَّه نُصِبَ على الحال، والمرادُ به البيان بالصَّلاحيَّة، أي: أرسلناها، وهي على صلاحيةِ ألّا تذرَ شيئًا أتت عليه إلّا جعلتهُ كالرَّميم، هذا إن قلنا: إنَّه نُصِبَ، وهو المشهور.

ويَحْتَمِل أنَّه رُفِع على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، تقديره: هي ما تَذَرُ(2).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 11.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 184.

إذا حلّت أسبابُ إهلاك الاستئصالِ؛ أتت الريح على كلِّ شيء كُلِّفَت به

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن شَىْءٍ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ صِلَةٌ لتأكيد النَّفي[1]، وبيانِ عُمومه كلَّ شيء، فيكون أصلُ الجملة: ما تذر شيئًا إلّا جعلتهُ كالرَّميم.

شـدَّةُ الرّيحِ العقيم في إهلاكِ قومِ عادٍ ومُتَعَلَّقاتهم

دلالةُ التَّعبير بلفظ ﴿شَىْءٍ﴾:

التَّعبير بلفظ ﴿شَىْءٍ﴾ في قولهِ تَعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ يوغِل في الاستقصاءِ والعُموم، أي: إنَّ تلك الرّيح لا تَترُك شيئًا أيَّ شيءٍ يخصُّ هؤلاء الطُّغاة "من أنفُسِهم وأنعامهم وأموالهم إلّا أهلَكَتهُ"[2]، وتسلَّطت عليه، فرمَّته، وأفنته، والشَّيء هنا: عامٌّ مخصوص، أي: مِن شيءٍ أراد اللّه تعالى تدميرَهُ وإهلاكَه من ناسٍ، أو ديار، أو شجر، أو غير ذلك، وقد روي أنَّ الرّيح كانت تَمُرُّ بالنّاسِ فيهم الرَّجُل مِن عادٍ، فتَنْتَزِعُه مِن بينِهم، وتُهْلِكه.[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الإتيان ماضيًا دون المجيء:

حُلولُ الهلاك بالعُتاة يكون سريعًا

عبَّر النَّظمُ الكريم بمفردة الإتيان دون المجيء في قوله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾؛ "لأنَّ الإتيان مَجيءٌ بسهولة"[4]، ولا أسهل من مجيء الرّياح؛ لِخفَّة وزنها، وتخللها الأماكن، وتسللها داخلَ الأشياء، والمقصود بـ ﴿أَتَتْ عَلَيْهِ﴾، أي: جرَت عليه[5]، وأفنَتهُ، ودَمَّرته، وهكذا يوحي التَّعبير بالإتيان بأنَّ حُلولَ الهلاك بالعُتاة إنَّما يكون سريعًا وسهلًا.

وفي صَوغ فعل الإتيان ماضيًا في ﴿أَتَتْ﴾ إشارةٌ إلى سُرعة

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 11.
(2) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 378.
(3) الآلوسي روح المعاني: 14/ 17.
(4) أبو البقاء، الكليات، ص: 34.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 142.

إهلاكِ الرّيح العقيم قومَ عادٍ وإتلافها ما أتت عليه، وأنَّه حَصَل، وتحقَّق، وطوي سريعًا.

نكتةُ تقييدِ الإتيان بالجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِ﴾:

لجنودِ الهلاكِ الإلهيِّ على العُتاةِ المُهْلَكين سُلطانٌ قاهِر

في تقييد فعلِ الإتيان بالجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِ﴾، في قوله تعالى: ﴿أَتَتۡ عَلَيۡهِ﴾، دلالةٌ على أنَّ إهلاكها "إنَّما هو بالفاعل المختار، فنبَّه على ذلك بأداةِ الاستعلاء، فقال: ﴿أَتَتۡ عَلَيۡهِ﴾، أي: إتيان إرادةِ مرسِلِها استعلاءً على ظاهرِه وباطنه"(1)، وهكذا يقطع التَّقييد بـ (على) بأنَّ لجنود الهلاك الإلهيِّ على العتاة المهلَكين سلطانًا قاهرًا؛ إذا نزل بهم، فلا قوَّة بهم للمقاومة أو الهروب.

بلاغةُ الاستثناء بـ ﴿إِلَّا﴾:

حَصْرُ أثَرِ الرّيح في الإهلاكِ والإتلافِ

﴿إِلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ استثنائيَّة، وبها تتمُّ جملة القصر، ويكتمِل بناؤُها، فتفيد قصرَ تدمير تلك الرّيح على حالٍ واحدة هي جَعْلُ مأتيّها البغيض رميمًا أو كالرَّميم إتلافًا وتهشيمًا.

دلالةُ التَّعبير بفعل الجَعْلِ ماضيًا:

عواملُ إهلاكِ الطُّغاة تفعَلُ فيهم فِعلَها، وتصيِّرهم كما أُمِرت

في التَّعبير بالجعل في قوله تعالى: ﴿جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ يعني التَّصيير والتَّحويل، وأنَّ ﴿ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ تحوِّلُ كلَّ شيء جَرَت عليه، وتصَيِّرُه فَتيتًا مثلَ الرَّميم؛ كناية عن انعدام صلاحيَّته بعدَ ذلك أبدًا.

وفي التَّعبير بالجَعْلِ دلالةٌ على أنَّه جَعْلٌ مقصودٌ، مرسومةٌ حدودُه وأبعادُه وتفاصيلُه كافَّةً، وأنَّ الرّيح فعلت فيه فِعلَها، وتركت فيه أثرَها، كما أُمِرت، وكما أُذِن لها.

بلاغةُ التَّشبيه في قوله: ﴿جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾:

الصّورة التَّشبيهيَّة القرآنيَّة أدلُّ الصّوَرِ وأبينُها عن المقصودِ

التَّشبيه في قول الله تعالى: ﴿جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ كاشِفٌ عن المعنى المقصود، مُبينٌ عن الحالِ الَّتي صيَّرتهم الرّيحُ العقيمُ عليها؛ إذ

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 471.

هشَّمتهم، وأبلَتهم، وخلَّفتهم وراءَها، مثل فُتات الخشَبِ والتِّبن والتُّراب[1]، ومثل العظام الباليَة[2]، ولا أوجز من وصف الرَّميم؛ للدَّلالة على كلِّ ذلك دَفْعةً واحدةً.

معنى (أل) في ﴿كَٱلرَّمِيمِ﴾، ولطيفةُ صوغِه على (فعيل):

(أل) في ﴿كَٱلرَّمِيمِ﴾ لتعريف العهد العلميِّ، أي: الرَّميم المعلوم في الأذهان ببلوغه في التَّفتُّت والتَّحلُّل مبلغ الرِّمَّة، الَّتي لا يُرجى منها نفْعٌ قطُّ، بل هي إلى إثارة الاشمئزاز منها وإلى التَّضرُّر بها أقربُ.

عناصِرُ الصّورة التَّشبيهيَّة في الذِّكر الحكيم أجمَعُ لإيحاءاتِها

وأصل الكلمة مِن رَمَّ العظمُ؛ إذا بَلِيَ[3]، والرَّميم: التُّرابُ، أو الَّذي ديسَ من يابِس النَّبات، أو هوَ الرَّمادُ، أو الشَّيءُ البالي الهالك[4]، فاصطفاءُ مفردة (الرّميم) مشبَّهًا به هنا أدقُّ عُنصرٍ لُغويٍّ لتحرير الصّورة، الَّتي صار إليها قومُ عاد ومتعلَّقاتهم بعد فعل الرّيح العقيم فيهم فعلَها، وأبينُ عن مقصودها، وأجمعُ لإيحاءاتها الكريهة.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرَّمّ والخَلَق والتَّحلُّل والبِلى:

الرَّمُّ يدلُّ على فُتات الشَّيء بعد تكسُّره وتآكله، وغالبًا يُقالُ في العِظام البالية، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨﴾ [يس: 78]، فهو دالٌّ على التَّفتُّت بعد يَبَسٍ وطولِ زمَن.

اشتراكُ الألفاظ الأربعة في الدَّلالة على التَّغيُّر والتَّلف والانحلال، لكنَّها تختلف في جهة التَّغيُّر وزَمَنه وسَببه

وأمّا التَّحلُّل؛ فيدلُّ على الانفكاك والانفصام التَّدريجيِّ، ويُستعمل في الجسم والمواد المُركَّبة، وهو أوسع استعمالًا، فيقال: تحلَّل الجَسَدُ، وتحلَّلت المادَّةُ، ففيه معنى الذَّوبان والانفصال.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 17.

(2) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 207.

(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 108.

(4) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 373.

والخَلَق يدلُّ على الاهتراء؛ بسبب كثرة الاستعمال، كقولهم: "ثوبٌ خَلِق"، فهو تلفٌ بالاحتكاكِ والاستخدامِ المُتكرِّر.

وأمّا البِلى؛ فيدلُّ على تآكُل الشَّيء نقصانًا مع مرور الزَّمن، وهو أعمُّ من "الخَلَق"، ويشمل الأجسادَ الحيَّةَ والجماداتِ[1].

أمّا الجامع الدَّلاليُّ بينها؛ فكلُّها يدلُّ على التَّغيُّر والفناء التَّدريجيِّ للشَّيء بعد أن كان قائمًا، سواءٌ أكان ذلك بفِعل الزَّمن، أو بكثرة الاستعمال، أو بتغيُّر التَّركيب.

(1) ابن منظور، لسان العرب، ومجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (رمم/ رم - خلق/ بلي).

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ ٤٣ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٤٤ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ٤٥﴾ [الذاريات: 43 - 45]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

ثـمـودُ عـاصـرت عـادًا، وخَلَفَتها في عَظَمَةِ الأمم؛ ولـذا يَـقـتَـرِن ذِكْرُهما كثيرًا

ذكر البقاعيُّ وجه التَّناسُبِ بين هذه الآيات وما قبلها، فقال: "لمّا تمَّ ما اقتضاه سياقُ السّورة مِن قصَّة أهل الرّيح الذّارية؛ أتبعها قصَّةَ مَن أُهلِكوا بما يحمله السَّحاب مِن الرّيح، وما تحمله الرّيح من صوت الصَّيْحةِ الرّاجفة الماحقة، فقال: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ﴾"[1].

وأُتبِعت قصَّةُ ثمودَ قصَّةَ عادٍ هنا؛ لاقترانهما غالبًا في القرآن الكريم؛ لأنَّهما قبيلتانِ عربيَّتان، ولأنَّ قريشًا يمُرّون على قُراهما في أسفارهم[2].

ثُمَّ إنَّ ثمودَ عاصرت عادًا، وخَلَفَتها في عَظمَة الأمم، كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾ [الأعراف: 74]، ولاشتِهارِهما بين العرب؛ جاء تَقارُنهما غالبًا في القرآن الكريم[3].

شَرحُ المُفْرَدات:

1) ﴿تَمَتَّعُواْ﴾: أصلُ (متع) يدلُّ على مَنفعةٍ وامتِدادِ مُدَّةٍ في خيْرٍ[4]، يُقالُ: مَتَع النَّهارُ يَمتِعُ مَتعًا، أي: بَلَغ غايَةَ ارتِفاعه، والماتِعُ: الجَيِّدُ البالِغُ الجَودة[5]، وحقيقة المتاع: كلُّ شَيء يُنتفَع به، ويُتبلَّغ به، ويُتزوَّد[6]، والتَّمتيعُ: الإمهالُ والانتظار، ويأتي بمعنى: التَّعميرِ، ومنه

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 471.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير: 4/ 48.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 12.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (متع).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (متع).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (متع).

قولُه تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ٢٠٥﴾ [الشعراء: 205]، أي: أطَلْنا أعمارَهُم[1]، وأمّا الأمر بالتَّمتُّع في قَوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾؛ فمُستعمَلٌ في إباحةِ المَتاع والانتفاع به[2].

2) ﴿فَعَتَوۡاْ﴾: أصلُ العُتوّ: مُجاوَزةُ الحَدِّ، يُقالُ: عَتا الشَّيخُ، يَعْتو، عُتيًّا؛ إذا كَبِرَ، ولَيلٌ عاتٍ، أي: شَديدُ الظُّلمةِ، وكُلُّ مَن جاوَزَ الحَدَّ في كِبَرٍ أو فَسادٍ أو كُفْرٍ، فهو عاتٍ، والجَمعُ: عُتاةٌ[3]، والعُتوُّ: التَّجَبُّرُ والتَّكَبُّرُ، يُقال: عَتا، يَعْتو؛ إذا تَجَبَّرَ على غَيْرِه، والعاتي: الجَبّارُ[4]، ويأتي العُتوُّ بِمعنى العِصْيانِ، ويُطْلَق على التَّمَرُّدِ وشِدَّةِ الإفساد، وعلى عدم قبول الحَقِّ[5]، وعلى البغيِ، والطُّغيانِ، والعنادِ[6]، والمبالغة في ركوب المعاصي، فلا يقع منه الوعظ والتَّنبيه موقعًا[7]، فالعُتوُّ: النُّبوُّ عن الطّاعة[8]، وكلُّ هذه المعاني مُحْتَمَلَة ومرادَةٌ في الآية لمجاوزة ثمودَ الحدَّ في الإعراض والاستعلاءِ والطُّغيان.

3) ﴿أَمۡرِ﴾: أصلُ (أمر) ضِدُّ النَّهي، ومنه قولُكَ: افعَلْ كذا، يُقالُ: لي عليكَ أمرَةٌ مُطاعةٌ، أي: لي عليكَ أن آمُرَكَ مَرَّةً واحِدَةً، فَتُطيعَني[9]، ومعنى ﴿فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾، أي: فتكبَّروا، واستهانوا بما طلب الله تعالى مِنهم امتثاله[10].

4) ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾: أصلُ (صعق) يدُلُّ على شِدَّة الصَّوتِ، ومنه: الصّاعقة، وهي الصَّيحةُ الَّتي يموتُ مَن يَسمعُها، أو يُغشَى عليه، وقيل: كُلُّ عَذابٍ مُهلِكٍ، وقيل: الصّاعِقةُ هي الصَّوتُ الشَّديدُ مِنَ الرَّعدِ، يَسقُطُ معها قِطعةُ نارٍ[11]، والمراد بها هنا: كلُّ عذابٍ مُهلِك، مِن الصَّعق بمعنى: الإهلاك[12].

5) ﴿مُنتَصِرِينَ﴾: أصلُ (نصر) يدُلُّ على إتيانِ خَيْرٍ وإيتائه، يُقالُ: نَصَرَ اللهُ المُسلمين،

(1) الزبيدي، تاج العروس: (متع).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 13.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عتو/ عتا).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (عتا).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عتا).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (عتا).
(7) الهروي، الغريبين في القرآن والحديث: (عتا).
(8) الراغب، المفردات: (عتو).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمر).
(10) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 15.
(11) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 49، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (صعق).
(12) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 25.

أي: آتاهُمُ الظَّفرَ على عدوِّهم، يَنصُرُهُم نَصرًا، وانتصَر: انتقَم، وهو منه، والنَّصرُ: عَوْنُ المظلوم، والنُّصرة: حُسْنُ المَعونة، أي: لم ينصرهم ناصِر حَتّى يَكونوا مُنْتَصِرينَ؛ لأنَّ (انتَصَرَ) مُطاوِعُ (نَصَرَ)، أي: ما نَصَرَهُم أحد، فانتصروا[1]، والمعنى: "ما كانوا مُنتَصِرينَ بغيرهم، كما لم يتمَنَّعوا بأنفُسِهم"[2]، فيَمنَعوا نزولَ العذاب بهم، و"ما استطاعوا الهزيمةَ والهربَ"[3].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

كُفرانُ أنعُم الله تعالى وعصيانُ أوامره مَجْلَبَةٌ لِحلول الهلاك

كما تَرَكْنا في قصَّة عادٍ آيةً عظيمةً للَّذين يخافون العذاب الأليم، كذلك تركنا لهم في قصَّة ثمودَ آيةً عظيمةً أُخرى، وذلك حينَ حلَّ بهم الهلاكُ نتيجةً لتكذيبِ أهلِها نبيَّ اللّه تعالى صالحًا ﵇، ولعُتوِّهم واستكبارِهم على قبول الحقِّ الَّذي جاءَهُم به من عندِ اللّه تعالى، وقد أمدَّهم اللّه تعالى بأسبابِ المُتَع الدُّنيويَّة، وأمكَنَهُم من التَّمتُّع بها إلى انتهاءِ آجالِهم، فقابلوها بالكفر والطُّغيان، ولم يَمتَثِلوا تعاليمَ اللّه تعالى، فأحلَّ عليهم غضبَه، وأرسل عليهم صاعقةً رهيبة، هي نارٌ مسلَّطة عليهم من السَّماء، مع صيحةٍ خطيرة، فأخذتهم بالهلاك، وهم يُعاينونها بأبصارهم، بعد أن انتظروا حلولَها ثلاثةَ أيّام، كان نبيُّهم صالح ﵇ قد حدَّدَها لهم ميعادًا لهلاكهم بإخبارِ اللّه تعالى له، وتكليفه إيّاه بتحديدها لهم، فيكون في انتظارهم العذابَ عذابٌ أكبرُ، فدمَّرتهم تلك الصّاعقة، فصاروا عاجزين عن مجرَّد النُّهوض على أقدامهم، أو القيام والتَّصدّي لها، فضلًا عن العجز عن الجري والهروب منها، ولم يَنصُرهُم أحدٌ من خارجهم، فاجتمَعَ عليهم العَجْزُ مِن داخلهم والخذلانُ من خارجِهم.

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 14.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 18.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 186.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾:

في الأُمَم المُهْلَكَة كلِّها، عِبَرٌ وعِظاتٌ لِلموفَّقين من المؤمنين

(الواو) في قوله: ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ عاطفة ما بعدها على جملة: ﴿وَفِي عَادٍ﴾، أي: وفي قصَّة ثمودَ أيضًا عبرٌ وعظاتٌ لمن يخافون العذاب الأليم من المؤمنين باللّه ورسوله، فهو "عطفُ حدَثٍ على حدث، وقصَّةٍ على قصَّة"[1]، أو هي عاطفةٌ ما بعدها على جملةِ: ﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ والمعنى: "وتركنا آيةً للمؤمنين في ثمود في حالٍ قد أخذَتهُم الصّاعقة"[2].

معنى (في) في جملة: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ﴾:

قِصَّةُ ثمود تنطوي على كثيرٍ من العِبَر والعِظات

الحرف (في) يفيد الظَّرفيَّة المجازيَّة، والمعنى: "في أمرِ ثمودَ وإهلاكِهم أيضًا آيةٌ وحجَّة للمؤمنين"[3]، و"تركنا في قصَّة ثمود آية وقتَ قلنا لهم: عيشوا بالدُّنيا إلى حين وقت الهلاك"[4].

والتَّعبير بحرف الظَّرفيَّة يُحَرِّك الهمَّة إلى البحث في قصَّة ثمود، والتقاط دقائق العبر منها، ويُلمح إلى أنَّها منطَوِيَة على كثير مِن العظات النّافعة والدُّروس النّاجعة؛ لذا كانت من أكثر القِصَصِ ورودًا في القرآن الكريم.

دلالة التَّصريح بالاسم العَلَم ﴿ثَمُودَ﴾:

من أساليب الزَّجْر عن العتوِّ تذكيرُ العُتاة بمصير أمثالِهم المُهْلَكين

﴿ثَمُودَ﴾ هم قوم صالحٍ ﵇[5]، وفي التَّصريح باسم تلك القبيلة مزيدُ تهديدٍ لقريش؛ لأنَّ ثمود من قبائل العرب المهلَكين؛ فذِكْرُهم بعد عاد يلامِس نفوسَهم، ويُقارب واقِعَهُم.

---

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 527.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 12.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 389.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 108.
(5) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 471.

تقديمُ القيدِ يجعلُه مصبَّ العنايةِ ومحطَّ الاهتمامِ

نكتةُ تقديم القيد ﴿وَفِى ثَمُودَ﴾:

في تقديم الجارِّ والمجرور ﴿وَفِى ثَمُودَ﴾ وبناء العبارة عليه؛ دَعمٌ للزَّجر عن العتوِّ الَّذي كانوا يستقبلون به نِعم اللّه تعالى ومُتَعَه الَّتي أولاهم إيّاها، وذلك بخلاف ما لو قيل في غير القرآن الكريم: وتركنا آيةً مُخيفة في قصَّة إهلاك ثمود؛ لأنَّ تأخير ذِكْرِهم يُبَطِّئ من أثر الوعيد، فتقديمُ اسم القبيلة، وبناءُ العبارة عليه؛ جعلها مُسْتَوْدعًا للعِبَر والعِظات، ويجعل التَّحذيرَ من الهلاك والمصير إلى مثلِ مصيرهم حاضرًا بِقوَّة في نفس المتلقّي.

الموقَّـقون لا يَغفُلون مطلقًا عن شكر مولي النِّعَم؛ لئلّا تنقلِبَ عليهم هلاكًا

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿إِذْ﴾:

﴿إِذْ﴾ ظرفُ زمان يُعبَّر به عن "الوَقْت الماضي، وللمستقبل في الأصَحِّ، وتلزم الظَّرفيَّة ما لم يُضَف لَها زمانٌ"[1]، وهي هنا بمعنى: حين، ويَحْتَمِلُ أن يكون قوله تعالى: ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾، أنَّه قيل لهم "في أوَّل بعْثِ صالحٍ: آمِنوا، وأطيعوا؛ فتُمَتَّعوا متاعًا حسنًا إلى آجالكم، وهو الحين على هذا التَّأويل، فيجيء قوله تعالى: ﴿فَعَتَوْاْ﴾ مرتَّبًا لفظًا في الآية، ومعنًى في الوجودِ، متأخِّرًا عن القول لهم: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾، ويحتمل أن يكون المرادُ هو ما قيل لهم بعد عَقْر النّاقة: ﴿تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ﴾ [هود: 65]، وهي الحين على هذا التَّأويل، ويجيء قوله: ﴿فَعَتَوْاْ﴾ غيرَ مرتَّبِ المعنى في وجوده؛ لأنَّ عُتوَّهم كان قبل أن يُقال لهم: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾، وكأنَّ المعنى: فكان مِن أمرهم قبلَ هذه المقالة أن عَتَوا، وهو السَّبب في أن قيل لهم ذلك، وعُذِّبوا[2].

دلالةُ التَّعبير بالقول ماضيًا مبنيًّا للمفعول:

التَّعبيرُ بالقول الماضي في قول اللّه تعالى: ﴿قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ﴾ يَحتمل أن يُراد به قولُ نبيِّهم عليه السلام: ﴿تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود:

(1) السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع: 2/ 171.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 180.

65]، كما يَحْتَمِل ما قيل لهم في بداية أعمارهم حين منحَهُم الله تعالى النِّعم وأسباب المُتَع بها، فيراد بالقول على ذلك "لسان الحال؛ إذ ما سيقت إليهم هذه النِّعم إلّا ليعيشوا فيها، وليتَمَتَّعوا بها إلى أن تَحين آجالهم"[1].

من دواعي حذف الفاعلِ تعلُّق الغرض بالمفعولِ لا الفاعل

وفي حذف فاعل القول وبنائه لغير فاعله تنبيهٌ إلى أنَّ غرض الخبر يتعلَّق هنا بالمفعول لا الفاعل؛ اكتفاءً بالعِلم بالفاعل مَن يكون من آياتٍ أخرى، وتوفيرًا لعناية المتلقّي على تدبُّر ما حصل من ثَمود إزاءَ هذا القول، وما حلَّ بهم جرّاء ردِّ فعلهم؛ لأنَّ غرض ذِكْرِ قصَّتهم يتعلَّق بهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿تَمَتَّعُواْ﴾:

التَّحذيرُ مِن الغفلةِ عن شُكْرِ الله تعالى على صُنوف المُتَع

معنى فعل التَّمتيع في جملة: ﴿تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ الانتفاعُ بالحياةِ الدُّنيا[2]، وفيه مَعْنى السَّلامَةِ، فكأنَّه قيل لهم: اسلَموا حتّى ذلك الحين[3]، ففيه معنى التَّأخير إلى حلول ذلك الأجل المضروب، والمعنى: أنَّه "يبقيكم بَقاءً في عافيَة إلَى وقت وفاتكم، ولا يستأصلكم بالعَذابِ، كَما استأصل أهل القُرى الَّذين كفروا، فمَتَّع الله تعالى فلانًا، وأمتعه؛ إذا أبقاه، وأنسأه إلى أن يَنْتَهي شَبابُه"[4].

غرض الأمر في قوله: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾:

تَنْقَلِبُ النِّعَمُ نِقَمًا؛ إن قوبِلَت بالكفر والجحود

الأمر في قوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ دالٌّ على الإباحَة، أي: "إباحة المتاع، وقد جُعِل المتاع بمعنى النِّعمة في مواضع كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ٢٦﴾ [الرعد: 26]، وقوله: ﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ١١١﴾ [الأنبياء: 111]"[5]، وهذه الدَّلالة

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 528.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 14/ 28.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 25.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (متع).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 13.

للأمر بالتَّمتُّع تجري على أنَّ هذا الأمر حاصلٌ قبل عصيانِهم وتمرُّدهم، وليس هو أمرَ التَّمتيعِ المؤقَّتِ بثلاثٍ، واستظهَرُه ابن عاشورٍ.

أمّا إذا حُمِلَ الأمر بالتَّمتُّعِ في الآيةِ على أنَّه الواردُ في قول اللّه تعالى: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ﴾ [هود: 65]، فيكون الأمر للتَّهديد والوعيد، وقد نَفَذَ هذا الوعيدُ فيهم فعلًا، كما قال اللّه تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٤٤ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾.

كذلك في الأمر ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ معنى "الإنذار والتَّحذير من المداومة على الكفر"(1).

بلاغةُ حذف متعلّق التَّمتُّع:

نِعَمُ الله تعالى على الإنسان في نفسهِ وخارجِها لا تُحصى

طَوَى النَّظم الكريم متعلِّق التَّمتيع في قوله: ﴿تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ﴾، فلم يقل مثلًا: تمتَّعوا بكذا وكذا، والواقع أنَّه على معنى: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ "بِلَبَنِ النّاقة، وغيرِه ممّا مكّناكم فيه من الزَّرع، والنَّخيل، والأبنية في الجبال والسُّهول، وغير ذلك من جلائل الأمور الَّذي أمرناكم به"(2).

ولطيفة ذلك الحذفِ الإيحاءُ بِكثرة أنواع المُتَع الَّتي آتاهم اللّه تعالى إيّاها، وأنَّها تعمُّ كلَّ مناحي الحياة، وكأنَّها خارجة عن حدود العدِّ والإحصاء، لكنَّ الإنسان في غالب عُمره، يتقلَّب في النِّعَم وصنوف المتاع، ويغفل عن شُكر واهِبها سبحانه، فضلًا عن كونه يُنْكِر وحدانيَّته، ويجحد لقاءه، وهكذا يصرِّح اللّه تعالى في قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ۝٣٤﴾ [إبراهيم: 34].

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰ حِينٖ﴾:

﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ غائيَّةٌ، أي: تمتَّعوا إلى وقتٍ قادمٍ محدَّدٍ في علم اللّه تعالى، سواءٌ أُقْصد به انتهاءُ آجالهم، أو

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 25.

(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 471.

قُصِد به انتهاء الأيّام الثّلاثة المضروبة لهم موعدًا للهلاك، وفي ﴿حَتَّىٰ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ تلك المُتَع "لا تنقطع عنهم حتّى يحين أجلُهُم المقدور لهم عند اللّه"[1]، وفي ذلك استدراج بالنِّعم يَنْبَغي التَّيقُّظ له.

قد يكون دوام النِّعم على العبدِ استدراجًا له، فينبغي التَّيقُّظُ لذلك

وكان ذلك التَّهديد كفيلًا باستثارةِ الرُّعب في نفوسهم، وحَملِهم على تدارك التَّوبة، والإلحاح في طلب المغفرة، لكنَّ بصائرهم قد طُمِست، فتمادَوا في غيِّهم حتّى نزل بهم العذابُ المُسْتَأْصِل، وهُم عالمون به مُتَرَقِّبون له.

وطَمسُ بصائرهم آيةٌ أخرى من آيات اللّه تعالى في قصَّة ثمود، ولم يَنْتَفِع بها بعضُ كفّار قريش؛ وذلك كما وقع لأبي لهَبٍ وأمِّ جميل، فإنَّهم لم ينتبهوا إلى محاولة تكذيب الوعيدِ في قوله: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ [المسد: 3 - 4]، فيُهْرَعوا إلى الإيمان، ولو في الظّاهر، فثبَت فيهم صِدْقُ الرَّسول ﷺ، وتحقَّق فيهم أليمُ الوعيدِ.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿حِينٍ﴾، ولطيفةُ تَنْكيره:

في التَّعبير بـ ﴿حِينٍ﴾ دلالةٌ على أنَّه حينٌ محدَّد عند اللّه تعالى، مضروبٌ موعدًا لإهلاكهم، وقد يكون "المراد بـ ﴿حِينٍ﴾ زمنًا مبهَمًا، جُعِل نهايةً لِما مُتِّعوا به من النِّعَم، فإنَّ نِعم الدُّنيا زائلة، وذلك الأجَلُ: إمّا أن يُراد به أجلُ كلِّ واحد منهم، الَّذي تنتهي إليه حياته، وإمّا أن يُراد به أجل الأمَّة الَّذي يَنْتَهي إليه بقاؤُها، وهذا نَحْوُ قوله: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [هود: 3]، فكما قالهُ اللّه تعالى للنّاس على لسانِ محمَّد ﷺ، قاله لِثَمود على لسان صالحٍ عليه السلام"[2].

نِعَمُ الدُّنيا - مهما طال عمرُ الإنسانِ فيها - سريعةُ الزَّوالِ

وفي تنكير ﴿حِينٍ﴾ إشارةٌ إلى قِصَرِه وقُرْبه، ودُنوِّه مهما طال، وذلك التَّنبيه ممّا كان جديرًا بزجر ثمودَ عَن التَّمادي في العتوِّ، لكنَّهم عتوا، وتمادوا، وبالغوا في ذلك؛ فاستَوجَبوا الهلاك.

---

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 528.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 13.

أسوأ الذَّنب ما جاء بعدَ الوعيدِ

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَعَتَوۡاْ﴾:

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ عاطفةٌ دالَّةٌ على التَّعقيب، أي: إنَّهم واصلوا العتوَّ بعد تهديدهم بالأمر ﴿تَمَتَّعُواْ﴾، وذلك مِنَ المبالغةِ في الفُجور؛ لأنَّ أسوأ الذَّنب ما جاء بعد الوعيد؛ إذ فيه جُرأة وسوءُ أدبٍ.

وفي ترتيب قوله: ﴿فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ بالفاء "دليل على أنَّ العتوَّ كان بعد الأمر: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾، فيكونُ الظّاهر مِن (الحين) هو ما قدَّر اللّه تعالى للنّاس من الآجال، فما من أحد إلّا وهو مُمهَلٌ مدَّة الأجل، يقال له: تمتَّع إلى آخر أجلك، فإن أحسَنْتَ؛ فقد حصل لك التَّمتُّع في الدّارين، وإلّا فما لك في الآخرة من نصيب"[1].

وجوَّز بعضُ أهل العلم أن تكونَ الفاءُ للتَّفصيل، لا للتَّرتيب والتَّعقيب، قال الآلوسي: "كأنَّه قيل: وجعلنا في زمانِ قولنا ذلك لثمودَ آيةً، أو: وفي زمان قولنا ذلك لثمودَ آيَة، ثُمَّ أخَذَ في بيان كونه آيةً، فقيل: ﴿فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾، أي: فاستكبروا عن الامتثال به إلى الآخر، فالفاءُ للتَّفصيل"[2].

ويجوزُ أن يكونَ في الفاءِ معنى التَّرتيب، ولكنَّهُ "ترتيب إخباريٌّ، وإلّا ففي الحقيقة عتوُّهم إنَّما كان قبل وعيدهم بالهلاك، الَّذي هو المراد من قوله: ﴿تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ على تفسيره؛ إذ المراد به ما بقيَ من آجالِهم"[3].

إذا أجمع القومُ علـى الظُّـلـم، وبـلـغـوا فيـه غايتهُ؛ استوجبوا العقوبةَ

دلالةُ التَّعبير بفعل العتوِّ ماضيًا مسندًا إلى واو الجماعةِ:

العتوُّ في قوله تعالى: ﴿فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ هو التَّمرُّد والاستعلاء[4]، والمعنى: أنَّهم "تكبَّروا عن أمر ربِّهم، وعلوا

(1) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 30، بتصرف.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 17.
(3) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 207.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 528.

استكبارًا عن طاعة اللّه"[1]، فعقروا النّاقة[2]، وبلغوا في البأس والقساوة غايتَهما[3].

وفي التَّعبير بالعتوِّ في قوله: ﴿فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ دلالةٌ على فجورهم، ومجاوزتهم الحدَّ في ظلم أنفسِهم وغيرِهم، وصوغُه ماضيًا يدلُّ على تحقُّقه منهم، والقَطْعِ بحُصوله فعلًا.

وإسنادُ فعل العتوِّ إلى ضمير جماعتهم في جملة ﴿فَعَتَوۡاْ﴾ صريح في توافُقِهم جميعًا على ذلك العتوِّ، واشتراكهم جميعًا فيه دون اعتراض من أحد منهم، وإذا بلغ القوم في الظُّلم ذلك المبلغَ؛ حان وقتُ استئصالِهم؛ إذ لم يبقَ فيهم خيرٌ يُرْجى.

بلاغةُ التَّضمين في الفعل ﴿فَعَتَوۡاْ﴾:

العُتاةُ مستكبرون، مُتجاوِزون حدودَهُم مع اللّه تعالى

الفعل "(عتا) يُستَعمل بـ (على)، قال تعالى: ﴿أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ٦٩﴾ [مريم: 69]، وهاهنا استُعمِل مع كلمة ﴿عَنۡ﴾، ففيه معنى (الاستغناء)، فحيث قال تعالى: ﴿عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾؛ كان كقوله: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: 206]، وحيث قال (على)؛ كان كقول القائل: فلان يتكبَّر علينا"[4].

وتعديَةُ فعلِ العتوِّ بحرف المجاوزة ﴿عَنۡ﴾ يُضَمِّنُه معنى الفعل: أعرضوا، واستَغْنَوا، أي: فأعرضوا عمّا أمَرَهم اللّه تعالى به على لسان رسولِه صالحٍ عليه السلام[5]، ويُضَمِّنه كذلك معنى الفعل تجاوزوا، أي: فتخطّوا حدودَ ما شرع اللّه تعالى، وتَجاوزوها، فجمع التَّضمينُ معانيَ العتوِّ والإعراض والاستغناءِ والتَّجاوز، أي: فتَجاوزوا أمر ربِّهم عاتين معرضين مُستغنين، وهذا أقوى من إعطاءِ معنًى واحدٍ.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 541.
(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 179.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 390.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 185.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 13.

دلالةُ التَّعبير بمفردة الأمر في قوله: ﴿أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾:

مُخالفةُ ثمودَ لأمرِ الله تعالى

الأمر في قوله تعالى: ﴿فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ يحتَمِلُ الطَّلبَ، فيكون الأمرُ الَّذي هو ضدُّ النَّهي، أي: تجاوَزوا ما أُمِروا به من طاعة ربِّهم[1]، و"هو المذكور في سورة هود: ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤﴾ [هود: 64]"[2]، ويحتَمِلُ أن يكونَ الأمرُ بمعنى الشَّأن أو الدّين عمومًا.

لطيفةُ التَّعبيرِ بعنوان الرُّبوبيّة، ودلالةُ الإضافةِ في ﴿رَبِّهِمۡ﴾:

ما أحطَّ أخلاقَ مَن يُسيءُ إلى مَن يُحسن إليه!

في إيثار التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ تنبيهٌ على ما تَنْطَوي عليه أوامرُه ﷻ من الرَّحمة بالعباد، وما يحقِّقه التزام دينِ الله تعالى لأهله من الرَّحمات، فإنَّه سبحانه ربُّهم، و"مولاهم الَّذي أعظَمَ إحسانَهُ إليهم"[3]، وهوَ المربّي لهم، القائمُ على كلِّ نفسٍ سبحانه وتعالى.

وفي إضافة لفظِ (ربّ) إلى ضميرهم إخزاءٌ لهم، وفَضْحُ سوءِ أدبِهم وما هم فيه من التَّناقض؛ إذ إنَّهم عصَوا، وعتوا في حين أنَّهم ينعَمون بخيرات ربِّهم، الَّذي يُغدق عليهم، ويتعهَّدهم، ويعطيهم، فما أحطَّ أخلاقَ مَن يُسيء إلى مَن يُحسِنُ إليه!

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾:

كل آتٍ قريبٌ؛ فكلُّ متعة أُعقِبت بعذابٍ لا قيمةَ لها، فكأنَّها لم تكُن

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ عاطفةٌ ما بعدها على جملة: ﴿فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾؛ إذ تُرَتِّبُ أَخْذَ الصّاعقة إيّاهم على عُتوِّهم عن أمر ربِّهم، وتُفيدُ فوريَّة الأخذ مهما تطاوَل - على تفسير الحينِ بالآجال - وقتُ إمهالهم؛ لأنَّ كلَّ آتٍ قريب، وكلَّ متعة أُعقِبت بعذابٍ؛ لا قيمةَ لها، وكأنَّها ما كانت.

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 390.
(2) القِنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 207.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 471.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الأخذ ماضيًا:

حقارةُ العُتاة الظّالمين أمامَ الهلاكِ الإلهيّ

الأخذُ في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ يعني الهلاكَ، أي: أهلكتهم[1]، و"أصابتهم إصابةً تُشبه أخْذَ العدوِّ عدوَّه"[2]، وأخذة الصّاعقة إيّاهم من أخْذِ اللّه تعالى، وفي الذِّكر الحكيم: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هود: 102]، وفي التَّعبير بالأخذ دلالةٌ على هَوانهم وضَعْفِهم وقلَّة حيلَتِهم؛ إذ إنَّهم أُخِذوا، وكأنَّهم شيء ضئيل يُتَناول باليد، ولا يستعصي على الآخذ تناوله.

وصوغُ فعلِ الأخْذِ ماضيًا في قوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ يوحي بأنَّ أخْذَها إيّاهم كان بسرعة خاطفةٍ، وأنَّها أخذتهم فجأةً[3]، فوقعت، وتحقَّقت فيهم في لمح البَصَر، وطوي عتوُّهم في لحظةٍ مِنَ الزَّمن، وكأنَّه لم يكن.

بيانُ مرجعِ ضمير المفعول في ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ﴾:

إذا جاء عذاب الاستئصالِ؛ لم يُبْقِ من المجرمينَ باقيَةً

ضمير المفعول في ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ يرجِع إلى قوم ثمود وعُتاتِهم المذكورِ ضميرُهم قريبًا في قوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾، وذلك يشمَلُ آحادَهم وجماعتَهم، فكلُّهم قد أخذتهُ الصّاعقة، وأبادته، ولم تبقِ لهم باقيةٌ.

معنى (أل) في ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾، ودلالة التَّعبير بها:

بيانُ شِدَّةِ الصّاعقةِ وعَظَمَتِها

(أل) في ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ دالَّةٌ على الكمالِ؛ إذِ المَقْصودُ تلك الصّاعقة المُبيرَةُ، فهي "الصَّيحة العظيمة، ومنه يقال للوقعة الشَّديدة من الرَّعد: صاعقة، وهي الَّتي تكون معها النّار الَّتي يُروى في الحديث أنَّها من المخراق الَّذي بيد مَلَكٍ يسوقُ السَّحاب"[4]، فهي "الموت أو

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 17.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 13.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 541.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 180.

العذاب، أو: كلُّ عذاب مهلِك، والصَّعْقَةُ: هي الصَّوت الَّذي يكون عن الصّاعقة"[1]، وتعريفها بـ (أل) يوحي بأنَّها الصّاعقة الكاملةُ الصَّعْقِ، القاتلة للجميع، فلم تبقِ منهم أحدًا.

أيسرُ أسباب اللـه تعالى تُهلك، فتُبير، فكيف بكمالِ قُدرَتِه ﷻ

بلاغةُ المجاز في قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾:

الأخذ في الحقيقةِ هو "التَّناوُلُ لِما لَم يكن في اليد"[2]، ففي التَّعبير بالأخذ في قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ استعارة مكنيَّةٌ؛ إذ صوِّرت الصّاعقة بشخص يأخذ شيئًا، ويتناوله، والصّاعقة إنَّما صعقتهم، فأهلكَتْهُم هُم في أماكِنِهم، ولم تَأْخُذْهُم، ففي تصوير فِعلها بهم بالأخذِ مبالغةٌ في بيان ضآلتهم وضَعْفِهم، وهوانهم على اللّه تعالى.

فهذا تصويرٌ مجمَل لإهلاكهم باستهانة، وأنَّهم شيء ضعيفٌ صغير حقير، وفيه كناية عن هَوانِهم وصَغارهم تحت قُدْرَةِ جُندٍ من جنود اللّه تعالى، وهو الصّاعقة المُهْلِكَة، فكيف بقُدْرَتِه هو ﷻ؛ إذا تولَّى هو ﷻ إهلاكَ قومٍ!

مِن أشقِّ العذاب ما يُعانيهِ المعذَّب ناظرًا يَقِظًا

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ حاليَّة، فيها دلالةٌ على مُعاينتهم لَحْظة الصَّعْقِ، ومُعاناتهم رؤيتَها، وأنَّ الصّاعقة لم تَضرِبهم، وهُم نيامٌ أو سُكارى مثلًا، وإنَّما عالجوها، وعانَوْها يَقِظين، ينظُرون، يتمَلَّكُهم الرُّعب ويُحيط بهم الفزَعُ من كلِّ جانب، وذلك من أشقِّ العذاب، فـ "الجملة في محلِّ نصبٍ على الحالِ"[3].

دلالةُ التَّعبير بفعل النَّظر مضارعًا:

التَّعبير بالنَّظر في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ النَّظَرَ بالأعين، أي: "حالَ نظرِهم إلى

---

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 179.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 283.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 109.

نزولها؛ لأنَّهم لّما رأوا بوارِقَها الشَّديدة؛ عَلِموا أنَّها غير معتادةٍ، فاستَشْرَفوا يَنظُرون إلى السَّحاب، فنزلت عليهم الصّاعقة، وهم ينظرون، وذلك هولٌ عظيم؛ زيادةً في العذاب، فإنَّ النَّظَر إلى النِّقْمة يَزيد صاحبَها ألمًا، كما أنَّ النَّظر إلى النِّعمة يَزيد المنعَّم مسرَّة، قال تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ٥٠﴾ [البقرة: 50]"[1].

النَّظر إلى النِّقمة تزيدُ الألم، وانتظارُ العذابِ أشدُّ من العذاب

ويحتمل الانتظارَ، أي: وهم "ينتظرون ما وُعِدوه مِنَ العذاب"[2]، "وانتظارُ العذاب أشدُّ من العذاب"[3]، و"ذلك أنَّ ثمودَ وُعِدَتِ العذابَ قبل نُزوله بهم بثلاثة أيّام، وجُعِل لنزوله عليهم علاماتٌ في تلك الثَّلاثة، فظهرت تلكَ العلاماتُ، فأصبحوا في اليوم الرّابع موقِنين بأنَّ العذاب بهم نازِلٌ، ينتظرون حلولَه بهم"[4].

وفي صوغ الفعل ﴿يَنظُرُونَ﴾ مضارعًا تصوير مرعِبٌ لتَجدُّد نظَرِهم في تلك اللَّحظة، وكأنَّها طالت عليهم، وتجدَّدَ عليهم هولُها، كأنَّها استغرقَت وقتًا وسيعًا على الرُّغم مِن أنَّ الصَّعْقَ يكون خاطِفًا، لا يستغرق وقتًا طويلًا؛ ليَدَعَ المصعوقَ قتيلًا.

بلاغةُ الكنايةِ في فعل النَّظر:

لا يَقْدِرُ على دفعِ عذاب الله أحدٌ

في النَّصِّ على النَّظر في قول اللّه تعالى: ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ كناية عن "تسليمِهم وعَدَم قُدْرَتهم على الدَّفع، كما يقول القائل للمضروب: يَضْرِبُك فلانٌ، وأنت تنظر؟ إشارةً إلى أنَّه لا يَدْفَع"[5]، وقد كانت في غمامٍ، وكان فيها نارٌ[6]، وفي التَّعبير بفعل النَّظرِ إيماءٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 14.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 109.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 17.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 542، بتصرف.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 185.
(6) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 472.

إلى أنّها "كانت نهارًا يُعاينونَها، ورويَ أنَّ العمالقة كانوا معهم في الوادي ينظُرون إليهم، وما ضَرَّتهُم"[1].

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ﴾:

هـــولُ رؤيــة الـعـذاب يَـفْـقِدُ الـرّائي الـقـدرةَ عـلى مُـحـاولـة دَفْعِه

(الفاء) في قوله: ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ﴾ تفريعيَّة، وفيها معنى السَّببيَّة؛ إذ تنصُّ على تَفَرُّع عدم استطاعتهم القيامَ على نَظَرِهم إلى الصّاعقة حين حلَّت بهم، وأنَّ رُؤْيَتَهُم أخْذَ الصّاعقة إيّاهم أسْفَرَت عن عَجْزهم واستِسْلامهم للهلاك، فهَولُ رُؤْيَةِ العذاب يُفْقد رائيهِ القدرةَ على محاولة دفعِه فضلًا عن إفقاده القدرة عن دَفْعه فِعلًا.

معنى (ما) في قوله: ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾:

الـنَّـفـي بـ (مـا) أنسَبُ لما طوي، وانْتَهى

(ما) في قوله: ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ﴾ نافية، فهي تَنْفي قُدْرَتَهم على الاستطاعة على مجرَّد النُّهوض من أماكن سُقوطهم، والقيام منها للفِرار والهُروب، وفي إيثار التَّعبير بـ (ما) على التَّعبير بـ (لم) تهيئةٌ للتَّعبيرِ بالماضي ﴿ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾، وفي ذلك إيحاءٌ بِطَيِّ استطاعتِهم في تلافيفِ الماضي البَعيد، وعدم بقاءِ شيء منها فيهم، بخلاف (لَم)؛ فإنَّها تَقْتَضي فعلًا مضارعًا يكونُ بعدَها، وعطاءُ المُضارعَة هنا لا يتناسَبُ مع السّياق والغرض؛ لِما في المضارعة مِن الدَّلالة على التَّجدُّد والاستمرارِ.

دلالةُ التَّعبير بالاستطاعة، ولطيفةُ صوغها فعلًا ماضيًا:

نفيُ الاستطاعة أدلُّ على العَجْزِ المطلَق

في التَّعبير بالاستطاعة بيانٌ لِعجزهم عن الهَرَبِ والفرار على سبيل المُبالغة، فإنَّ مَن لا يَقدر على قيام؛ كيف يَمشي، فضلًا عن أن يهرب؟ فإنَّ الاستطاعة دونَ القدرة؛ لأنَّ في الاستطاعة دلالةَ الطَّلَب، ونفيُها يُنْبِئُ عن عدَمِ القدرة والاستقلال، فمَن استطاع

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 404.

شيئًا؛ كان دونَ مَن يَقْدِرُ عليه، فقوله: ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾ أبلغُ مِن قول القائل: ما قدروا على قيام[1]، ونفي الاستطاعة أبلغ من نَفْيِ القيام؛ لِما يُشْعِرُ به مِنَ العجز المطلق[2].

دلالةُ السّين والتّاء في الفعل ﴿ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾:

بيانُ عَجْزهم التّامِّ بعدَ حُلول العذابِ بهم

السّين والتّاءُ في فعل الاستطاعة تدلُّ على العجز مع المحاولات المبذولة، وأنَّهم كأنَّهم كابَدوا المحاولات، فباءت بالعجْزِ التّامِّ، على الرُّغم مِن أنَّهم لا يُمكِنُهم المحاولة إلّا مع الصّاعقة الَّتي إذا ضربت؛ أحرقت، بل فحَّمت المضروب وأفنَته.

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قِيَامٖ﴾:

العجز التّامُّ حليفُ من أحلَّ الله تعالى عليه الهلاكَ

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن قِيَامٖ﴾ صلةٌ لتأكيد النَّفي[3]، وهي تدلُّ على القَطْع بنَفْي استطاعتهم عن كلِّ قيامٍ.

دلالةُ التَّعبير بالقيام، ونكتةُ تنكيره:

اجتماعُ الخِزْي والصَّغار مع العذابِ الحسّيِّ عليهم

في التَّعبير بلفظ القيام في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ﴾ دلالةٌ على انطِراحهم أرضًا مَهْزومينَ يَتَمَلَّكُهُم العَجْزُ، ويَعْلوهُم الخِزْيُ والصَّغار، "فما استطاعوا أن يَهْرَبوا منه، وما قدروا على القيام بعدَ أن كانوا قاعِدين"[4]، وذلك نتيجة للعُتوِّ والتَّمادي فيه، وإذا عجَزوا عن القيام؛ كانوا عن فِعْلِ ما فوقَهُ أعجَزَ، وتنكيرهُ دليلُ انتفاءِ القدرة الكلّيَّة عَنْهُم، والعجز عن المحاولة بَلْهَ الفعلَ.

توجيهُ لفظ (القيام) بين الكنايةِ والمجاز:

أمرُ الله لا يُدفع، وقضاؤُهُ لا يُمنع

يجوز أن يكون لفظُ القيام في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ﴾ "من قولهم: ما يقومُ فلانٌ بِكَذا؛ إذا عجز عن دَفْعِه، فهو

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 185.

(2) قباوة، المفصّل، ص: 1848.

(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 472.

(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 26.

معنًى مجازيٌّ، أو كناية شاعت حتّى التَحَقَت بالحقيقةِ"[1]، فالقيامُ هُنا مجازٌ عنِ الدِّفاعِ، كما يقال: هذا أمرٌ لا يقوم له أحد، أي: لا يدفعه أحد، وفي الحديث: «غَضِبَ غضبًا لا يقوم له أحدٌ»"[2].

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾:

إذا حلَّ الهلاكُ بقومٍ؛ أطبَقَ عليهم العجزُ واليأس من كلِّ جانبٍ

(الواو) في جملة: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾ عاطفةٌ جملةَ النَّفي: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾ على الجملة المنفيَّة قبلها: ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ﴾؛ وبذلك اجتمَع عليهم نفيُ القدرة على الدَّفع بأنفسهم، مع نفي القدرة على الانتصار بمعونةٍ مِن خارجهم، وأطبَقَ عليهم العجْزُ واليأسُ مِن كلِّ جانب.

لطيفةُ تكرار (ما) في قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾:

تأكيدُ عجْزِهم عن دَفْعِ العذابِ بأنفُسِهم أو بِغَيْرِهم

في تكرار (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾ بعد تقدُّم ذكرها في قوله: ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ﴾ تأكيد على تمايُزِ العَجزَيْن: العجزِ عن مجرَّد القيام والانتصار بالنَّفس، والعجز عن الانتصارِ بغيرهِم.

دلالةُ التَّعبير بفعل الكون ماضيًا مسندًا إلى واو الجماعَةِ:

القَطع بِفَناء قومِ ثمودَ مناسِبٌ شِدَّةَ إعراضِهم

قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾ يدلُّ على قوَّة انتفاء فعل الانتصار، والتَّعبيرُ بفعل الكون ماضيًا منفيًّا يتَّسق مع دلالاتِ التَّركيب كلِّه، مِن استعمال (ما) وتكرارها، وفعل الاستطاعة الماضي المنفيِّ، فكلُّها تتَلاقى، وتتآزر على طَيِّ تلك الأحداث، والقطع بِفَناء تلك القبيلةِ العاتية، وفي إسناد فعلِ الكون الماضي في قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾ إلى ضمير الجماعة دلالةٌ على إطباق العجز التّامِّ عليهم جميعًا، وأنَّه لم يُفْلِت منه أحدٌ، وذلك يُلائم عتوَّهم جميعًا، وعدم قبول أحدٍ منهم الإيمانَ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 17.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 14.

دلالةُ التَّعبيرِ بالانتصار اسمَ فاعلٍ:

بيانُ عَجْزهم عن دفْعِ العذابِ بأنفُسهم أو بِغَيْرِهم

التَّعبيرُ بمفردة الانتصار في قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾ يَنْصَرِفُ إلى نفي نُصرة غير ثمودَ إيّاهم، ويقطع بأنَّهم ما كانوا مُنْتَصِرين "بغيْرِهم، كما لم يَمتَنِعوا بأنفُسِهم"(1)، وأنَّه "لم يَنْصُرْهم ناصرٌ حتّى يكونوا مُنْتَصِرين؛ لأنَّ (انتصر) مطاوعُ (نصر)، أي: ما نَصَرَهُم أحدٌ، فانتصَروا"(2).

ولا يُحْمَلُ النَّصرُ المنفيُّ هنا على نَفْيِ انتِصارهم هم بأنفسهم؛ لأنَّه مفهومٌ بطريق اللُّزوم الكِنائيِّ مِن النَّفْيِ الأوَّل في قوله: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ﴾، فكيف يَنفي النَّظمُ الكريم قدرتَهم على الانتصار بأنفسهم بعدَ نفي قُدْرَتِهم على مجرَّد النُّهوض للهرَب؟.

إنَّ طبيعةَ المعاني تقتضي التَّرقّي والتَّصعُّدَ في سُلَّم العجز، فيكون النَّفيُ الثّاني أدخلَ في العجز مِن النَّفي الأوَّل؛ فثبتَ أنَّ النَّفي الثّاني مُتَمَحِّضٌ لِنصر غيرهم إيّاهم، فينتج عنه أنَّهم ما استطاعوا مِن دَفْعِ العذاب عن أنفُسِهم لا بأنفُسِهم، ولا بغيرهم من الأنصارِ والأعوان(3).

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العتوّ والطُّغيان والبغي:

البغيُ الاستطالة، والطُّغيانُ مجاوزة الحدِّ مع القهر، والعتوُّ المبالغة في المكروه

الطُّغيان: مجاوزة الحدِّ في المكروه مع غلبةٍ وقهر، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: 11]، يُقال: طغى الماء؛ إذا جاوز الحدَّ في الارتفاع. والعتوُّ: المبالغة في المكروه، فهو دون الطُّغيان، ومنه قوله تعالى حكايةً عن زكريّا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾ [مريم: 8]، قالوا: كلُّ مبالغ في كِبْرٍ أو كُفْرٍ أو فسادٍ؛ فقد عتا فيه، ومنه قوله

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 142.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 14.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 390.

تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾ [الحاقة: 6]، أي: مبالغة في الشِّدَّة[1]، والبَغْيُ: التَّعدّي، وبَغى الرَّجل على الرَّجل: استطال، وبَغَتِ السَّماءُ: اشتدَّ مطرها، وبغى الجُرح: ورِم، وتَرامى إلى فسادٍ، وبَغى الوالي: ظَلَم، وكلُّ مجاوَزة في الحدِّ وإفراط على المقدار الَّذي هو حدُّ الشَّيء، فهو بغيٌ[2].

وأمّا الجامع الدَّلاليُّ بينها؛ فهو مجاوزة الحَدِّ المشروع، لكنَّها تختلف في نوع المجاوزة وجِهَتِها والدّافع، وكلُّها تدخل تحتَ ضربٍ من ضروبِ الفسادِ، لكنَّها تتنوَّع بحسب السّياق.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 337.
(2) الجوهري، الصحاح: (بغي).

﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٤٦﴾ [الذاريات: 46]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

سنَّة الله تعالى في خَلْقِه ماضية منذ الزَّمان الأوَّل

لَمّا ساق النَّظم الكريم قصصَ بعض الأمم السّابقة مع أنبيائهم، وما حلَّ بهم من هلاكٍ نتيجةَ تكذيبهم رُسُلَهم؛ تسليةً للرَّسول ﷺ ومَن آمن معه، وتحذيرًا لقُريش وكلِّ كافرٍ مِن مثل مصيرهم؛ ختمها بإشارةٍ موجزةٍ إلى قصَّة قوم نوح عليه السلام، فإنَّ عبرتها لِكِلا الفريقين أعظمُ، فإنَّ اللّه تعالى أغرق الأرضَ كلَّها بالماء من أعلاها ومِن باطنها؛ كرامةً لنبيِّه نوح عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢﴾ [القمر: 10 - 12].

وثمَّ وجهٌ آخرُ للمناسبَةِ، وهو أنَّ اللّه تعالى لَمّا ذكر قصص مَن أُهْلِكوا بما مِن شأنه الإهلاكُ، وهو الصّاعقةُ؛ أتبعَهم بذِكْرِ نبأ مَن أهلكَهم اللّه تعالى بما مِنْ شأنه الإحياءُ، وهو الماءُ(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٰسِقِينَ﴾: أصلُ (فسق) كلمةٌ واحدَةٌ، وهي الفِسْقُ، ومعناها: الخُروجُ عنِ الطّاعة(2) والعِصْيانُ، والتَّرْكُ لأمر اللّه ﷻ، والخُروجُ عَنْ طَريقِ الحَقِّ(3)، والفسوق في القُرْآن الكريم على وُجوه: يَرِدُ بِمَعْنى الكفْر، نَحْو قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ﴾ [السجدة: 18]، وبمعنى المَعْصيَة، نَحْو قوله: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥﴾ [المائدة: 25]، وبمعنى الكذب، نَحْو قوله: ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 472.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فسق).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (فسق).

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤﴾ [النور: 4]، وبمعنى الإثْم، نَحْو قوله سبحانَهُ: ﴿وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ﴾ [البقرة: 282]، وبمعنى السَّيئات، نَحْو قوله: ﴿وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: 197]، وكلُّه راجع في اللُّغَة إلى الخُروج، من قَوْلهم: فسقت الرُّطبَة عَن القشر، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ﴾ [الأنعام: 121]، أي: خُروج عَن الحقِّ، ويخْتَلف الخُروج، فَتارَة يكون الخروجُ فعلًا، وأُخْرَى يكون الخُروجُ اعتقادًا وفعلًا(1).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

قصصُ الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم كلُّها مفعمة بالعِظات والعِبَر

اذكر - أيُّها النَّبيُّ الكريمُ - لقريشٍ قصَّة قوم نبيِّنا نوحٍ عليه السلام، ففيها كذلك عِظاتٌ وعِبَرٌ لِمَن يخافون العذاب الأليم، فلقد أهلكناهم كما أهلَكْنا مَنْ سبق ذِكْرُهم من مكذِّبي رُسلنا عليهم السلام - قوم لوط، وقوم فرعون، وعادٍ، وثمودَ - وكان سببُ إهلاكِنا قومَ نوح عليه السلام أنَّهم كانوا قومًا مُتقوِّمين بالكُفر، وكانت قَوْميَّتهم الخروجَ عن توحيدِنا وطاعَتِنا على الرُّغم مِن طول دَعْوَتِه إيّاهُم، ولُبْثِهم فيهم تلك القرونَ المُتعاقِبَةَ المتطاولة.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في جملة ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ﴾:

استِكْمالُ إيراد العِبَرِ والعِظات مِن قِصَصِ الأقوامِ الماضينَ

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ﴾ عاطفةُ الجملة بعدها على جُملَةِ: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ﴾، أي: إنَّ في كلتا القِصَّتين عِبَرًا وعظاتٍ.

ويجوزُ أن تكون (الواو) استِئنافيَّة، والمعنى: واذْكُر ما حلَّ بقوم نوحٍ من قبلُ، ولا تزالُ الآيات تتوالى بسَوْقِ الأخبار المسلّيَة لِرَسولِ اللّه ﷺ، والدّاعين إلى اللّه تعالى، محذِّرةً من سبيل المجرمين، ومن مصير العُتاة السّابقين.

---

(1) أبو البقاء، الكليات، ص: 692.

بلاغةُ الحَذْفِ في الآية الكريمةِ:

الحذفُ القرآنيُّ يُتيح من الدَّلالات ما يُتيحه الذِّكر كَثْرَةً وتنوُّعًا

في قوله تعالى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ﴾ حَذْفٌ، تقديرُه: وأهلكنا قومَ نوحٍ؛ لأنَّ ما قبله يدلُّ عليه، أو التَّقدير: واذْكُر قومَ نوحٍ، أو: وفي قوم نوحٍ آيةٌ[1]، ومن فضائل هذا الحذفِ إتاحةُ تلك الأوجه المتقدِّمة، فأثرى التَّركيبَ بالدَّلالات المؤثِّرة في مقام التَّسلية للرَّسول ﷺ والمؤمنين معَهُ، والتَّهديد لقريش ومَن وراءَهم من الكفّار إلى يوم الدّين.

دلالةُ التَّعبير بلفظ (قوم):

وصفُ الكُفْرِ مِن مقوِّمات قوميَّة الكافرينَ

لفظُ (قوم) يُستَعمل في الرِّجال غالبًا، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ [الحجرات: 11]، ثُمَّ قال: ﴿وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾ [الحجرات: 11]، فدلَّ على أنَّ القوم للرِّجال، وقد تُطلَق على الجميعِ، كما في آية الذّارياتِ؛ فإنَّ الإهلاكَ غيرُ مختصٍّ بالرِّجالِ منهم، بل شَمِلَ جميعَ مَن اتَّصف بالكُفْرِ والتَّكذيب.

و"جريانُ وصفٍ أو خبرٍ على لفظِ القوم يُؤْذِن بأنَّه من مُقَوِّمات قوميَّتهم، كما في قوله تعالى: ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة: 164]"[2]، أي: "إنَّ المقصودين هم مَن أصبح الكفرُ صِفتَهُم الَّتي عليها يَجْتَمِعون، ولأجلِ هذه الصِّفة المشتركة؛ استحقّوا إطلاق (قوم) عليهِم"[3].

سرُّ التَّصريح بالاسم العَلَم ﴿نُوحٖ﴾:

التَّصريح بأسماء المُرْسَلين والصّالحين في الذِّكر الحكيم تشريفٌ لَهم وتكريمٌ

نوحٌ: اسمٌ أعجميٌّ، وقال بعضُ العلماء: إنَّهُ عربيٌّ، واشتقاقُه من النَّوْح[4]، وفي التَّصريح باسم نوح عليه السلام تشريفٌ له، وتخليدٌ لاسْمِه، وذِكْرِه، وتنويهٌ بجِهاده وهو أحدُ أولي العزم مِنَ الرُّسُل، كما أنَّ فيه مزيدَ تطييب لِخاطر الرَّسول ﷺ، وفي التَّلويح بهلاك قومِه تهديدٌ لمشركي قريش أنَّ استئصالهم واردٌ، وأنَّ عاقبةَ تكذيبِهم رسولَ اللّه ﷺ خطيرة؛ فليَحْذَروا.

(1) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 379.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 296.
(3) القدومي، سامي وديع، التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، ص: 215.
(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: 6/ 26.

توجيهُ القراءات القرآنيّة في قوله: ﴿وَقَوۡمَ﴾:

القــــراءاتُ القرآنيّة تُثري التّراكيب بالدّلالات

قرأ أبو عمرٍو وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ ﴿وَقَوۡمِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ﴾ بالجرِّ ﴿وَقَوۡمِ﴾؛ عطفًا على ﴿ثَمُودَ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ﴾، وقرأ الجمهورُ ﴿وَقَوۡمَ﴾ بالنَّصب[1]، "فمَن خفَضَ؛ فالمعنى: وفي قوم نوحٍ، ومَن نصب؛ فهو عَطْفٌ على معنى قوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾، ومعنى أخذتهم الصّاعقة: أهلكناهم، فالمعنى: فأهلكناهم، وأهلكنا قومَ نوحٍ من قبلُ، والأحسنُ أن يكون محمولًا على قولِه: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾؛ لأنَّ المعنى: فأغرقناه وجنوده، وأغرقنا قومَ نوحٍ من قبلُ"[2].

أو أنَّ النَّصب على إضمار ناصبه، أي: "واذكُر لهم قومَ نوحٍ، كما قال: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ﴾ [العنكبوت: 16]، ونحو ذلك، بمعنى: أخبِرهم، واذكر لهم"[3].

لطيفَةُ الإضافةِ في ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ﴾:

أشدُّ التّكذيب مرارةً على النَّفس تكذيبُ الدّاعي إلى الخير من أهلِه

في إضافة (قوم) إلى ﴿نُوحٖ﴾، وتعريفهُم به عليه السلام دعْمٌ لِمواساة النَّبيِّ صلّى الله تعالى عليه وسلَّم، وكأنَّ تلك الإضافةَ تقولُ له: يا نبيَّنا؛ لا تجزعْ، ولا تحزن، فقد لَقيَ نوحٌ عليه السلام من قومه - الَّذين هُم قومُه وأَوْلَى النّاسِ بِتصديقه وإكرامه - التَّكذيبَ، كما لقيتَ أنتَ من قومِك، إلى أن صَمّوا آذانَهم، واستَغْشَوا ثيابَهم، فحقَّ عليهم الهلاكُ.

وجهُ التَّعبير بـ ﴿مِّن قَبۡلُۖ﴾:

إهلاكُ الكافرينَ مع كثرتِهم وقوَّتِهم، ونُصرة المؤمنين على ضَعْفِهم وقِلَّتِهم آيةٌ من آياتِ الله تعالى

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلُۖ﴾ يُرادُ بها التَّوكيدُ، كما هو الغالبُ في دخولها على (قبل) و(بعد)، وأصل التَّركيب: وأهلكنا قومَ نوحٍ قبلَ ذلك، وزيادتُها ضرورةٌ لتأكيدِ إهْلاكهم.

---

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 377.

(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 57.

(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 1/ 544.

ثُمَّ إنَّ إهلاكهم لمّا كان في بعض الزَّمان الماضي، قال: ﴿مِّن قَبۡلُۖ﴾[1]، ومعنى ﴿مِّن قَبۡلُۖ﴾ أيضًا "أنَّهم أُهْلِكوا قبل أولئك، فهُم أوَّلُ الأمم المُكَذِّبين رسولَهم أُهْلِكوا"[2]، ويرى ابنُ عاشور أنَّ في قوله: "﴿مِّن قَبۡلُۖ﴾ تنبيهًا على وجه مخالفة عادةِ القرآن في ترتيب حكايةِ أحوال الأمم على حسَبِ تَرْتيبِهم في الوجود"[3]؛ إذ "أهلكَ اللّه قومَ نوحٍ مِن قبلِ عادٍ وثمودَ"[4].

علَّةُ فصلِ قوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ عمّا قبله:

فُصِل قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾، عن قوله: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ﴾، أي: اذكُر قومَ نوحٍ مِن قبلُ - لِما بينهما مِن كمال الانقطاعِ؛ إذ إنَّ الجملة الأولى - ومعناها: اذكر قوم نوحٍ - إنشائيَّة، والثّانيةَ - وهي قوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ - خبريَّة، ولا يُعْطَفُ الخبر على الإنشاء غالبًا، هذا على أنَّ (الواو) استئنافيَّة.

الـهـلاكُ ينـزل بـسـبـبٍ مـن الـعـبـادِ؛ فلا يظلِمُ ربُّك أحدًا

أمّا على اعتبار أنَّ (الواو) عاطفةٌ، وأنَّ المعنى: وأهلكنا قوم نوح من قبل؛ فَسَبَبُ الفَصل بينهما كمالُ الاتِّصال؛ وذلك بتنزيل الثّانية مِن الأولى منزلة السَّبب من المسبَّب، أي: أهلكناهم؛ لأنَّهم كانوا قومًا فاسقينَ.

بلاغةُ التَّوكيد بـ (إنّ):

التَّوكيد في جملة: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ تقتضيه خطورةُ قضيَّة قوم نوح عليه السلام، وخطورة خَبَرِهم في ذاته بغضِّ النَّظر عن إنكار المتلقّي أو عدم إنكاره، فإنَّ اللّه تعالى أغرق الأرض جميعًا لأجل دعوةِ عبدِه نوحٍ عليه السلام، وأهلك الكفّار كلَّهم، وأنجى المؤمنين.

مِن مواردِ تأكيدِ الخبرِ الدَّلالةُ على أهمّيَّته في ذاتِـهِ، بقَطْعِ النَّظرِ عن حال المخاطَب

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 79.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 14، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 18.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 15.
(4) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 205.

دلالةُ التَّعبير بفعل الكَوْنِ ماضيًا مسندًا إلى واو الجماعَةِ:

في التَّعبير بفعل الكَوْنِ ماضيًا في جملة: ﴿كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ دلالةٌ على أنَّ قوميَّتهم كانت بالكُفْر والفِسق والخروج عن الطّاعة، وأنَّها ترسَّخت خُلُقًا ذميمًا فيهم، وجبلَّةً لهم.

قوميَّةُ الكفّار تقومُ على الفسوق والتَّكذيب بالحقِّ، والاستهزاء بأهل الإيمانِ

ويقرِّر ضميرُ الجمعِ في ﴿كَانُواْ﴾ أنَّهم أجمعوا كلُّهم على هذا الكفر والفسوق عن الإيمان، وأنَّهم أصرّوا على عناد الحقِّ، وعلى تكذيب نوح عليه السلام، بل أجمعوا على الاستهزاءِ به على الملأ.

نكتةُ إظهار ﴿قَوْمًا﴾، ولطيفة تنكيره:

في إظهار وصف القوميَّة وتكرارِه في قوله تعالى: ﴿كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ بعد سَبْق ذكره في جملة: ﴿وَقَوْمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ﴾ إلحاحٌ على أنَّ قوميَّتهم الجامعةَ لهم الَّتي بها قوامُ حياتِهم هي الفسْقُ، والخروجُ عن حدود الحقِّ والعدل والصَّواب إلى الضَّلال والظُّلْمِ والإضلالِ والفسادِ.

مهما اتَّصف الخارجون عن الحقِّ بالقوَّة؛ فإنَّها لا تمنعُهم مِن غضبِ الله تعالى

وفي تنكير ﴿قَوْمًا﴾ إيحاءٌ بأنَّهم كانوا قومًا أقوياءَ[1]، وعلى الرُّغْم مِن ذلك؛ فقد حلَّ بهم الهلاكُ، ولم تَمنَعْهُم قوَّتُهم منه.

ويجوزُ أن يكون التَّنكير لبيانِ حقارَتِهم وهوانِهم على اللّه تعالى.

دلالةُ التَّعبير بلفظ الفُسوق اسمَ فاعل:

قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ﴾، أي: كافرين[2]، "عاصين، خارجين عن أمر اللّه"[3]، "مخالفين أمرَ اللّه، خارجين عن طاعَتِه"[4]، وهي وجوهٌ لمَعْنى الفسوقِ؛ إذ الفسوقُ في اللُّغة: الخروجُ مطلقًا، وفي الشَّرْعِ: "العِصْيانُ والتَّرْكُ لأمر اللّه ﷻ، والخُروجُ عَن طَريقِ الحَقِّ"[5].

من خرج عن طاعةِ الله تعالى؛ فهو فاسِق

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 473.
(2) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 379.
(3) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 179.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 1/ 545.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (فسق).

وصوغ ﴿فَٰسِقِينَ﴾ اسمَ فاعل دليلٌ على عَراقتهم في الفِسْق، وتَرَسُّخ الفُسوق فيهم طبعًا ملازمًا، وخُلُقًا ذميمًا، وأنَّهم قائمون به وعليه، بالِغين فيه غاياته.

نكتةُ تخصيصِ هذه الأقوامِ بالذِّكر:

قصص أولي العَزْمِ من الرُّسل تشتَمِلُ على أهَمِّ العِبَر والعِظات النّافعة للنّاس إلى آخر الزَّمان

لا شَكَّ أنَّ تاريخ البشريَّة طافحٌ بالشَّرِّ، مشحون بقصص الضَّلال والطُّغيان، وما يترتَّب عليهما من الإهلاكِ والتَّدمير، غير أنَّ الذِّكر الحكيم ساقَ هذه القصص بخاصَّة، وتمَّم تفاصيلَ جوانبها خلال تكرار ذِكْرها في كثيرٍ من سوَرِه؛ لأنَّ هذه القصص تتعلَّق بأولي العزم مِن الرُّسُل، وغيرهم ممَّن تشتَمِلُ قِصَصُهم على أهمِّ العِبَر والعِظات النّافعة للنّاس إلى آخر الزمان؛ للاعتبار بها وأخْذِ الدُّروس منها.

شأنُ المشركين في عصر النَّبيِّ ﷺ في الضَّلالات شبيهٌ بشأن أمم الشِّرك البائدة

ثُمَّ إنَّ تكذيبَ المشركين "للنَّبيِّ ﷺ، وطَعْنَهم في القرآن، ومن عبادة الأصنام، وقولهم في الملائكة، وفاسد معتقَدِهم في أمور الآخرة، وفي المتصرِّف في الدُّنيا، وكان معظمُ شأنِهم في هذه الضَّلالات شبيهًا بشأن أمم الشِّرك البائدة؛ نُقِل الكلام إلى تهديدهم بخوفِ أن يَحِلَّ بهم ما حلَّ بتلك الأمم البائدة، فذُكِر مِن تلك الأمم أشهرُها عند العرب، وهُم: عادٌ، وثمودُ، وقومُ نوحٍ، وقومُ لوطٍ"[(1)].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفسق والفجور:

الفِسْقُ الخروجُ من الطّاعة بكبيرةٍ، والفجورُ الانبعاثُ في المعاصي

الفسق: هوَ الخُروج من طاعَة اللّه بكبيرَةٍ، والفجور: الانبعاث في المعاصي والتَّوسُّع فيها، وأصله من قولك: أفجرت السَّكْرَ - بفتح السّين، وهو: حبسُ الماء وسدُّ انبِثاقه ومنفجره، وبكَسْرِها: الموضِعُ المَسْدودُ؛ إذا خرقْتَ فيه خرقًا واسِعًا، فانبعث الماء، فَلا يُقال

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 152.

لصاحب الصَّغيرَةِ: فاجر، كَما لا يُقال لِمَنْ خرَقَ في السَّكْرِ خرقًا صَغيرًا: إنَّه قد فجرَ السَّكْرَ، ثُمَّ كثر استِعْمال الفُجور حَتّى خُصَّ بالزِّنى واللِّواط وما أشبه ذَلِك[1].

وأمّا الجامع الدَّلاليُّ بين الفسْقِ والفُجور؛ فهو الخروج عن حدودِ الشَّرع والحقِّ، لكنَّ الفسقَ يُشير إلى الأصل في الانحرافِ، والفجورَ يُشير إلى قِمَّته وتجلّيه الفاضح، ومِن هنا اختير وصفًا لقومِ نوحٍ في الآية؛ لتَجاوُزِهم الحدَّ في الكفر والعصيانِ.

(1) العسكري، الفروق اللغويّة، ص: 231.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ٤٨ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٤٩﴾ [الذاريات: 47 - 49]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

إعـادةُ الأشياء الفانية بالنِّسبة إلى خلق السَّماء أمرٌ يسيرٌ

قال ابن عاشور: "لمّا كانت شُبْهَةُ نُفاة البعث قائمةً على تَوَهُّم استحالة إعادة الأجسام بعد فنائها؛ أعقَب تهديدَهم بما يُقَوِّض تَوَهُّمَهم، فَوُجِّهَ إليه الخطاب يُذكِّرُهم بأنَّ اللّه خلَقَ أعظمَ المخلوقات، ولم تكُن شيئًا، فلا تُعَدُّ إعادةُ الأشياء الفانية بالنِّسبة إليها إلّا شيئًا يسيرًا، كما قال تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [غافر: 57]"[(1)].

ومِن أوجه التَّناسُبِ أيضًا: أنَّ السّورة الكريمةَ لمّا ساقَت جانبًا من قصص الأنبياء؛ ليكون في ذلك تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ وتذكرةٌ للمُتَذكِّرين؛ جاء الحديثُ عَن مظاهِرِ قدرة اللّه تعالى، وسعَةِ رحمتِه، ووافر نِعَمِه، وحضِّ النّاس على شُكْرِه تعالى وطاعَتِه[(2)].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَنَيۡنَٰهَا﴾: أصلُ (بني) واحدٌ، وهو بِناءُ الشَّيء بضَمِّ بعضه إلى بعض[(3)]، والمعنى المحوريُّ هو: زيادة قويَّةٌ تنشأ للشَّيء، فتُقيمُه، وتَنْصِبه أو تُعَظِّمه، وتمدُّ جرمه، فالبِناء: إنشاء ونصبٌ لجدران وبيوتٍ، وإقامتها على أساس، وقد ورد بناء السَّماء في القرآن الكريم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 15.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 26.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بني).

سبع مرّات[1]، واستُعيرَ لخَلْقِ السَّماءِ في الآية بفعل البناء؛ لأنَّه منظرُ السَّماءِ فيما يبدو للأنظارِ شبيهٌ بالقُبَّةِ، ونَصْبُ القُبَّةِ يُدعى: بناءً، وهذا تشبيهٌ بما يُفهم، فالمرادُ بالبناء هنا: الخَلْقُ[2].

2) ﴿بِأَيْيْدٍ﴾: أصلُ يدٍ يُطلق على بناءِ اليَدِ للإنسانِ وغيره، ويُستعارُ في المِنَّةِ، فيُقالُ: له عليه يَدٌ، ويُجمَعُ على الأيادي واليُديِّ[3]، واليدُ: القوَّةُ، ومالي بفلان يدان، أي: طاقةٌ، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾ [غافر: 57]، أي: عن ذِلَّةٍ واستسلام، واليَدُ: النِّعمة والإحسان تَصْطَنِعُه[4]، و(أيدٍ) في الآية يُرادُ بها: القوَّة والقُدْرَة، والمعنى: بَنيناها بِقُدْرَةٍ لا يَقْدِرُ أحَدٌ مِثلَها[5].

3) ﴿لَمُوسِعُونَ﴾: أصلُ (وسع) يدُلُّ على خِلافِ الضّيقِ والعُسْرِ[6]، والسَّعَةُ تُقالُ في الأمكنة، وفي الحال، وفي الفعل، كالقُدْرة والجود ونحو ذلك، والوُسْعُ من القُدْرة: ما يَفْضُل عن قَدْرِ المُكلَّف، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: 286][7]، والموسِعُ: اسمُ فاعلٍ مِن أَوْسَعَ؛ إذا كان ذا وُسْعٍ، أي: قُدْرَةٍ، ومنه قوله هنا: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[8]، والواسِعُ: يُفيدُ كمالَ صفات الذّات، مِنَ الوُجودِ، والحَياةِ، والعِلْمِ، والقُدْرَةِ، والحِكْمَةِ، قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ١١٥﴾ [البقرة: 115].

4) ﴿فَرَشْنَٰهَا﴾: أصلُ (فرش) يدلُّ على تَمهيدِ الشَّيءِ وبَسطه[9]، يُقالُ: فَرَشَ يَدَهُ يَفْرُشُها فَرْشًا وافتراشًا، أي: بَسَطَها، ومَدَّها، والفِراشُ: البِساطُ، والافتراشُ: جَعْلُ الشَّيءِ فِراشًا والجُلوسُ عليهِ[10]، ويُطْلَقُ الفَرْشُ بِمَعنى: الشَّيءِ المفروش، أي: المُنْبَسِط

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بني).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/ 105، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 15.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يدّ).
(4) الجوهري، الصحاح: (يد).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 16.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وسع).
(7) الراغب، المفردات: (وسع).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 16.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرش).
(10) الجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم: (فرش).

المُنْتَشِر، والجَمعُ: فُروشٌ[1]، والمراد بالفَرْشِ في الآية: البَسْطُ، شُبِّهَ تكوينُ اللّه سبحانه الأرضَ على حالِ البَسْطِ بفَرشِ البِساطِ ونحوه[2].

5) ﴿ٱلۡمَـٰهِدُونَ﴾: أصلُ (مهد) يَدُلُّ على تَوْطِئَةٍ وتَسْهيلٍ للشَّيءِ[3]، ومِنهُ: المَهْدُ، وهو التَّوثير، يُقال: مَهَدتُ، أي: جَعَلتُ مَكانًا وطيئًا سهلًا[4]، والمِهادُ: الفِراشُ، والمكانُ المُمَهَّدُ: الموطَّأُ[5]، يقالُ: مَهَدْتُ الفِراشَ مَهْدًا، أي: بَسطْتُه، ووطَّأْتُه، وتمهيدُ الأمورِ: تَسويتُها وإصلاحُها[6]، والمقصود بـ ﴿ٱلۡمَـٰهِدُونَ﴾ في الآية: المُهيِّئُونَ الموَطِّئونَ.

المَعْنى الإجماليُّ:

التَّفكُّرُ في بناء السَّماء ومهادِ الأرض وخَلْقِ الأزواج مطلَبٌ دينيٌّ

ورفعنا السَّماء، وبنيناها بقوَّتنا وقدرتِنا، وأحكمنا بناءَها، ووسَّعناها، ووسَّعنا أرزاقَها، وجَعَلْناها واسعةَ الأبعاد مترامِيَةَ الأطراف، ولا نزال نوَسِّعها خيراتٍ وأطرافًا باستِمرار، ومهَّدنا الأرض لِمعيشتكم، وهيَّأناها، ووطَّأناها لِقيام الحياة فيها، وأحسنَّا تمهيدَها وتهيئتَها؛ فنِعْمَ المُهِّدون نحنُ، ونِعْم الموطِّئون نحن.

ومِن تهيئَتِنا الحياةَ لكُم أن خلَقْنا نوعينِ مِن كلِّ صنف من المخلوقات، "ذكرًا وأنثى في النَّبات والحيوان، وفي الطَّبيعة ليل ونهار، ونور وظلام، وحرٌّ وبرد، وبحر وبرٌّ، وسهْلٌ وجبَلٌ، وجنٌّ وإنس، وخيرٌ وشرٌّ ... وهكذا"[7]، فعلْنا ذلك كلَّه - من بناء السَّماء وفرش الأرض وخلْقِ الأزواج - كي تتذكَّروا، فتَعْرِفوا أنَّه ﷻ الرَّبُّ القادر الَّذي لا يُعجِزُه شيءٌ، فتَعْمَلوا بِطاعة اللّه تعالى، ولا تَعْبُدوا سواه،

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (فرش).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 17.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مهد).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (مهد).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (مهد).
(6) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 117.
(7) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 541.

وتستدلّوا على قدرة اللّه على البعث والحشر والنَّشر، وأنَّ مَن قَدر على إيجاد ذلك؛ فهو قادر على إعادةِ الأمواتِ يومَ القيامةِ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في قولهِ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا﴾:

عظائم المخلوقاتِ دالَّة على الخالقِ العظيم، ودقيق صُنْعِه

(الواو) في قولهِ تَعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ استئنافيَّة؛ إذ انتقل الحديثُ بها، وتَخَلَّص من ذِكْرِ أخبار الأمم الكافرة المهلَكة بِصنوف الهلاك والدَّعوة إلى الاعتبار بهلاكها إلى لَفْت الأنظار إلى عظائم المخلوقات، الدّالَّة على وجودِ اللّه تعالى الخالقِ العظيم، ودقيق صُنْعِه، بدءًا بذِكْر السَّماء وبنائِها، ثُمَّ الأرضِ ومهادها، إلى أزواجِ المخلوقات الَّتي بها يُمكِن الاستدلال على وحدانيَّة الخالق ﷻ، وقُدرته على البعث، وما وراءَهُ مِن حسابٍ وثواب وعذاب.

ويجوزُ أن تكونَ الواوُ عاطفةً، والآيةُ معطوفة على الآية السّابقة: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٍ﴾، أي: وقومَ نوحٍ أخذناهم بالعذابِ، والسَّماء بنيناها بأيدٍ، ومع ما يبدو من بُعْد المفارقة في الظّاهر بين أَخْذِ قوم نوح، وبين بناءِ السَّماء؛ فإنَّ هذه المفارقة تبدو موافَقَةً؛ إذا نظرنا إلى قدرة اللّه ﷻ، وقيّومَتِه جلَّ شأنه على كلِّ شيء، فهو سبحانه يحيي، ويميت، ويُغني، ويُقْني، ويَرْفع، ويضَع، وهو سبحانه الَّذي أخذ الظّالمين بالهلاك، وهو جلَّ شأنه الَّذي أقام السَّماء بقدرته[2]، فيكون بين الجملتينِ توسُّطٌ بين الكمالين؛ لاتِّحادهما في الخبريَّة، ولِما بينَهُما من التَّناسب اللَّفظيِّ؛ وهو اشتراكُهما في الفعليَّةِ، والتَّناسب المعنويِّ، وهو اتِّحاد الجُملَتَين في بيانِ عظمَةِ قُدْرَةِ اللّه تعالى.

---

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1105.

(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 529.

معنى (أل) في ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾:

(أل) في ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ لِتعريف الجنسِ المفيدةِ استغراقَ السَّماواتِ، ولذلك لم تُجمَع؛ اكتفاءً بدلالةِ (أل)، والمعنى: أنَّ اللّه تعالى بَنَى السَّماواتِ كلَّها - سماءَ الدُّنيا، وما فوقها مِن سماواتٍ مِمّا أخبرنا عنهُ الوحيان الشَّريفان - بناها بطلاقةِ قُدْرَته، وعظمة قدرته، فأحكَمَ بناءَها، وزيَّن ظاهرها وباطنها.

إحْكامُ بناءِ السَّماوات السَّبْع

نكتةُ تقديم (السَّماء) على الفعل في (بنينا):

بناءُ الجملة على تقديم ذكر (السَّماء) جارٍ على مَهْيَع السّورة الكريمة مِن تقديم ذِكر الأسماءِ، أسماءِ الأنبياء وأسماءِ أُمَمهم، وبناء التَّراكيب عليها، مثل قوله: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾، وقوله: ﴿وَفِي عَادٍ﴾، وقوله: ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾، ثُمَّ يأتي قولُهُ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ بالنَّصْبِ بِفِعْلٍ يُفَسِّره ﴿بَنَيۡنَٰهَا﴾[1].

مِن أغراض التَّقديم العنايةُ والاهتمامُ بالمقدَّم والتَّشويقُ للمؤخَّر

وفي تقديم (السَّماء) وبناء الجملة عليها إيقاظٌ للعقول وقَرْعٌ؛ لتَتَدبَّر عظيمَ بنائها، ودقيقَ صُنْعِها، وما وراءها من إشاراتٍ وما فيها من آيات، فتقديمُ (السَّماء) على عامِلِه للاهتمام به، ثُمَّ بِسُلوك طريقةِ الاشتغال زادَه تقويةً؛ ليتعلَّق المفعولُ بِفِعله مرَّتين: مرَّةً بنفسه، ومرَّة بضميره، فإنَّ الاشتغال في قوَّة تَكرار الجملة، وزيدَ تأكيدُه بالتَّذييل بقوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[2]، و"لمّا كان المقصودُ إثباتَ العلم بالصّانع؛ قَدَّم الدليلَ، فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ المُزَيَّنة الَّتي لا تَشُكّون فيها، ﴿بَنَيۡنَٰهَا﴾؛ فاعرِفونا بها؛ إن كنتُم لا تعرفوننا"[3].

دلالةُ التَّعبير بفعل (البناء) ماضيًا:

معنى البناء في جملة ﴿بَنَيۡنَٰهَا﴾، أي: خلقناها، وأتقَنّاها،

تحقُّقُ إحكام بناءِ السَّماء منذُ أمدٍ بعيدٍ

(1) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 379.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 16.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 187.

وجعلناها سقفًا للأرض وما عليها[1]، ورفعناها[2]، وفي التَّعبير بمفردة البناء دلالةٌ على إحكام تكوينها، ودقَّة خَلْقِها، وتنبيهٌ على ما يستلزم بناء هذا الجِرم العظيم مِن قوانين ومعاييرَ تليق بعِظَمه.

وفي صوغ فعل البناءِ في جملة ﴿بَنَيۡنَٰهَا﴾ ماضيًا دلالةٌ على قِدَمِ ذلك البناءِ إلى أزمانٍ غابرَةٍ، لا يعلمُ قِدمَها إلّا اللّٰه تعالى.

لطيفةُ إسناد بناء السَّماء إلى ضمير العظمة:

عظمَةُ خَلْقِ السَّماء وبنائِها

في إسناد بناء السَّماء إلى ضمير العظمة في جملة ﴿بَنَيۡنَٰهَا﴾ تنبيهٌ على عظمة هذا البناءِ الهائل الكبير؛ لأنَّ الَّذي تولّى بناءَه هو الكبيرُ العظيم ﷻ، والعظيم سُبحانه يُضْفي على بناء السَّماء وإتقانه عظمةً وجلالًا.

وقوله تعالى: ﴿بَنَيۡنَٰهَا﴾ "أدلُّ على عدم الشَّريك في التَّصرُّف والتَّدبير، بخلاف ما لو جاءَ النَّظمُ القرآنيُّ: (بنيتُها)؛ ذلك أنَّ قوله تعالى: ﴿بَنَيۡنَٰهَا﴾ لا يورِثُ إيهامًا بأنَّ الآلهة الَّتي كانوا يعبدونها، هي الَّتي يَرْجِع إليها الضَّمير في ﴿بَنَيۡنَٰهَا﴾؛ لأنَّ تلك إمّا أصنامٌ منحوتة، وإمّا كواكب جَعَلوا الأصنامَ على صوَرِها وطبائعها، فلمّا لم يُتَوَهَّم ما قالوا؛ قال (بنينا) نحن، ونحن غيرُ ما يقولون، ويَدَّعونه، فلا يَصلحون لنا شُركاء؛ لأنَّ كلَّ ما هو غير السَّماء، دون السَّماء في المرتبة، فلا يكون خالقَ السَّماء وبانيَها، فإذًا عُلِم أنَّ المرادَ جمعُ التَّعظيم، وأفاد النَّصُّ عظمتَه، فالعظمةُ أَنْفَى للشَّريك، فثبتَ أنَّ قوله: ﴿بَنَيۡنَٰهَا﴾ أدلُّ على نفي الشَّريك مِن (بنيتُها) و(بناها اللّٰه)"[3].

بلاغةُ الاستعارة في فعل البناء:

تَكْوينُ السَّماء وخلْقُها أعظمُ مِمّا يَتَصَوَّرُ العبادُ

في التَّعبير بالبناء هنا استعارة؛ إذ "استُعير لِخلق السَّماء فعلُ

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 811.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 44.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 187.

البناء؛ لأنَّ منظر السَّماء فيما يبدو للأنظارِ شبيهٌ بالقُبَّة، ونصْبُ القُبَّة يُدعى بناءً، وهذا استدلالٌ بأثر الخلق الَّذي عاينوا أثرَه، ولم يَشْهَدوا كيفيَّته؛ لأنَّ أثره يُنْبِئُ عن عظيم كيفيَّته، وأنَّها أعظمُ ممّا يُتَصَوَّرُ في كيفيَّة إعادة الأجسام الباليةِ"[1].

معنى الباء في قوله: ﴿بِأَيْيْدٍ﴾:

بـنـاءُ الـسَّـمـاء حـاصلٌ بـقُـدْرَة الـلـه تـعـالى وعظمته

(الباء) في القيد ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ من قوله تعالى: ﴿بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ باءُ السَّببيَّة، أي: بنيناها بقدرتنا، وخلقناها، وأبدَعْناها، وأنشأناها، ورفعْناها بقوَّة عظمتنا.

دلالةُ التَّعبير بلفظ (أيدٍ)، ونكتة تنكيرها:

عظَمَةُ القدرة الإلهيَّة والقوَّة الرَّبّانيَّة

(أيد) هنا مُعَبَّرٌ بها عن القوَّة، وأصلُه: جمع يَدٍ، ثُمَّ كثُر إطلاقُه حتّى صار اسمًا للقوَّة، والمعنى: بنيناها بقدرةٍ لا يَقْدِر أحدٌ مثلَها[2]، ففيها إشارةٌ إلى أنَّه "يعني: مِن فِعلنا، وعَمَلنا، مِن غير أن نَكِلَه إلى غيرِنا"[3].

وفي تنكير (أيد) دلالة على تفرُّد تلك القوَّة العظيمة والقدرة المطلقة، وأنَّها القوَّة القادرة على إنشاءِ هذا الجِرم العظيم، وإبداعه على هذا النِّظام الفريد.

لطيفةُ ترك إضافة الأيدي إليه ﷻ:

دقَّـةُ الـبـيـان القرآنيِّ في دَفْعِ تَـوَهُّـم المعاني الباطلَةِ

تُرِكت إضافة (أيد) في قوله تعالى: ﴿بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ في حين أُضيفت إليه سبحانه في مواضع أُخَر (بأيدينا)، والنُّكتة في ذلك ما قاله الرّازيُّ: "لأنَّ السَّماء لا يخطر ببال أحدٍ أنَّها مخلوقةٌ لِغير الله تعالى، والأنعام ليست كذلك، فقال هناك - أي: في خلق الأنعام -: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس: 71] تصريحًا بأنَّ الحيوان مخلوقٌ لله تعالى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 15.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 16.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 31.

مِن غير واسطَة، وكذلك في قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: 75]، وفي السَّماء ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ مِن غير إضافة؛ للاستغناء عنها.

وفيه لطيفة أخرى: هي أنَّه هناك لمّا أثبتَ الإضافة بعدَ حذف الضَّمير العائد إلى المفعول؛ لم يقُل: خلقته بيدي، ولا قال: عملتُه أيدينا، وقال هاهنا: ﴿بَنَيْنَهَا بِأَيْيْدٍ﴾؛ لأنَّ هناك لم يخطر ببال أحدٍ أنَّ الإنسانَ غيرُ مخلوقٍ، وأنَّ الحيوانَ غيرُ معمول، فلم يقُل: خلقتُه، ولا عملتُه، وأمّا السَّماء؛ فبعضُ الجهّال يَزعم أنَّها غير مجعولةٍ، فقال: ﴿بَنَيْنَهَا﴾ بعَوْد الضَّمير تصريحًا بأنَّها مخلوقة"[1].

معنى (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾:

ملكوتُ الله تعالى في تَوسُّعٍ دائم، والعلم الحديث يؤكِّد ذلك

(الواو) في قوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ حاليَّة، أي: بنيناها بقُدرَتنا والحالُ أنّا موسعون على الدَّوام، لا يتوقَّف مُلْكُنا ولا ملكوتُنا عن التَّوسُّع، إلى ما شاء اللّه تعالى مِن التَّوسُّع زمانًا ومكانًا، وهذا ما "أثبته العلم الحديث، وعُرِف بنظريَّة التَّمدُّد، الَّتي أصبحت حقيقةً علميَّة في أوائل هذا القرن، وأشار إليها القرآنُ الَّذي أُنزل على النَّبيِّ الأُميِّ محمَّد ﷺ منذ أربعة عشر قرنًا"[2].

معنى (إنَّ)، ودلالة التَّعظيم في (إنّا):

عظمةُ الخبرِ تَقتضي نسبتَه إلى عظيمٍ

(إنّ) في قوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ توكيديَّة؛ اقتضتها ضخامَةُ الخبَرِ وغرابتُه؛ إذ تُقرِّر إيساعَ اللّه تعالى ملكَه وملكوته من غير حدود، وفي ذلك التَّوكيدِ "تنزيلُ المخاطبين منزلةَ مَن يُنكر سَعة قدرةِ اللّه تعالى؛ إذ أحالوا إعادةَ المخلوقاتِ بعدَ بِلاها"[3].

وإدخالُ (إنَّ) على ضمير العظمة في (إنّا) ملائم لعظمة الخبرِ ﴿لَمُوسِعُونَ﴾؛ فناسبَ توكيدَه باللّام، واسميَّة الجملة، وصوغهِ اسمَ فاعل أيضًا.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 188.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1105 - 1106.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 16.

معنى اللّام في قوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾:

تقريرُ إيساعِ الكونِ وتوكيدُه

لَمّا كان الخبرُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ من العظمة بمكانٍ؛ ناسبَ توكيده بلام التَّوكيد، المتآزرة مع (إنَّ)، واسميَّة الجملةِ؛ تقريرًا لإيساعهِ تعالى ملكَهُ وملكوتَه، وتقريرًا لدلالة اتِّساع الكون اتِّساعًا لا يتوقَّف.

دلالة التَّعبيرِ بلفظ الإيساعِ اسمَ فاعلٍ:

دوامُ الإيساعِ واستِمرارُهُ

التَّعبير بمفردة الإيساع هنا أفسَحَ للمفسِّرين ميدان التَّأويل إفساحًا كبيرًا، وكان مِن دواعي ذلك إطلاقُ الإيساعِ عن التَّقييد بِمُتَعَلِّقٍ معيَّن، فقد أوَّلوها بجملةِ أقوالٍ، هي: إنّا لموسعون في الرِّزق بالمطَر، أو لموسعون السَّماء، أو لقادرون على الاتِّساع بأكثر من اتِّساع السَّماء، أو لموسعون بِخلق سماءٍ مثلِها، أو لَذَوو سَعةٍ لا يضيق علينا شيءٌ نُريدُه[1].

والسَّعَةُ تُقال في الأمكنة، وفي الحال، وفي الفعل، كالقدرة والجود، ونحو ذلك[2]، ومن هنا فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ تكميل لمعنى قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ إن فُسِّر الأيد بالقوَّة؛ ليَضُمَّ مع صفة القدرة صفةَ الكرم، أو تتميمٌ إن فُسِّر بالإنعام، كما فُرِّع قولُه: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾ [طه: 50] على قوله: ﴿أَعۡطَىٰ﴾ [طه: 50]؛ ألا ترى إلى قرينَتِها: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾[3].

قال ابن عاشور: "وتصاريفه، أي: الإيساع، جائيَةٌ من السَّعة، وهي امتدادُ مساحة المكان، ضدُّ الضّيق، واستُعير معناها للوفرة في أشياءَ مثلَ الإفراد، مثل عمومها في ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأعراف: 156]، ووفرةِ المال مثل: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ﴾ [الطلاق: 7]،

---

(1) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 373.
(2) الراغب، المفردات: (وسع).
(3) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 31.

وقوله: ﴿عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: 236]، وجاء في أسمائه تعالى الواسِعُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ١١٥﴾ [البقرة: 115]، وهو عند إجرائه على الذّات يُفيد كمالَ صِفاته الذّاتيَّة: الوجود، والحياة، والعلم، والقدرة، والحكمة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ١١٥﴾ [البقرة: 115]، ومنه قوله هنا: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾"[1]، ومن مجمل تلك الاجتهادات يتَقَرَّر أنَّ في التَّعبير بالإيساع دلالةً على تمدُّد الكون من جهاتِه الَّتي يريد الله ﷻ إيساعَه منها، كما أكَّده العلم الحديثُ.

وصوغ (موسعون) اسمَ فاعل دالٌّ على دوام ذلك الإيساعِ، على وجهٍ منضبطٍ مستقرٍّ لا يعتريه ارتباكٌ، ولا يطرأ عليه اختلالٌ.

نكتةُ حذف متعلّق الإيساع في قوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾:

توسيعُ الله تعالى الأقطارَ والأرزاقَ

حَذْفُ مفعول الإيساع في جملة: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ توسُّعٌ في المعنى، أفسحَ لتقديرِ مفاعيلَ عديدةٍ، منها ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ "لأرجائها وأنحائها، وإنّا لموسعون أيضًا على عبادنا بالرِّزق الَّذي ما ترك الله دابَّة في مَهامه القِفار ولُجَجِ البحار وأقطار العالَم العُلويِّ والسُّفْليِّ إلّا وأوصل إليها من الرِّزْقِ ما يَكْفيها، وساق إليها من الإحسانِ ما يُغنيها"[2].

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا﴾:

التَّناسُب اللَّفظيُّ والمعنويُّ حسّن الوصلَ

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ عاطفة، عطفت على خَلْقِ السَّماء خلقَ الأرض عطْفَ الشَّيءِ على مخالِفه؛ لاقتران المتخالِفَيْن في الجامع الخياليِّ[3]، و(الأرض) "منصوبة بفعل مضمرٍ، أي: فرشنا الأرضَ فرشناها"[4]، نظيرُ قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا﴾، فيكون بين الجملتين توسُّطٌ بين الكمالَيْنِ؛ لاتِّحاد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 16.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 812.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 15.
(4) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 379.

الجُملَتَين في الخبريَّة، ولِما بينَهُما من المناسبَةِ اللَّفظيَّة والمعنويَّة، فأمّا اللَّفظيَّة؛ فاتِّحادُهما في الفعليَّة، وبناؤُهما على أسلوبِ الاشتغالِ، وأمّا المعنويَّة؛ فما بين السَّماء والأرض من التَّقابل وضربٍ من ضروب التَّضاد.

معنى (أل) في (الأرض):

(أل) في (الأرض) هنا لتعريف العهد العلميِّ؛ فاللّٰه تعالى فرش لنا هذه الأرضَ الَّتي نَعْرِفُها، ومهَّدها للحياة، ووطَّأها للأحياءِ.

دلالة تقديم (الأرض) على ﴿فَرَشۡنَٰهَا﴾:

من أغراض التَّقديم العنايةُ والاهتمام بالمقدَّم والتَّشويق للمؤخَّر

في تقديم (الأرض) في صدر الجملة إيقاظٌ للعقول؛ لتتدبَّر عَظيم فرشِها وتوطئتها، وتنبيهٌ على أنَّه من داعي ذِكْرِها التَّدبُّر فيها والاستدلال بمِهادِها على عظيم القُدرة الإلهيَّة، ويُسر البعثِ بعدَ الموت.

وكذلك يُقال في تقديم (الأرض) هنا ما قيل في تقديم (السَّماء) في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾: إنَّه لإرادةِ الاهتمام، ثُمَّ بِسُلوك طريقةِ الاشتغال زادَه تقويةً؛ ليتعلَّق المفعول بِفعله مرَّتين: مرَّةً بنفسه، ومرَّة بضميره، فإنَّ الاشتغال في قوَّة تكرار الجملة، وزيدَ تأكيدُه بالتَّذييل بقوله: ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾[1]، وكذلك يقال في تقديم (الأرض): إنَّه "لمّا كان المقصودُ إثباتَ العلم بالصّانع؛ قَدَّم الدَّليلَ، فقال: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ الممهَّدة الَّتي تعيشون عليها، وتتقلَّبون فيها ﴿فَرَشۡنَٰهَا﴾، فاعرِفونا بها؛ إن كنتُم لا تعرفوننا[2].

نكتةُ تقديم (السماء) على (الأرض):

دحْوُ الأرضِ كان بعدَ خَلْق السماء

من دواعي تقديم ذِكْرِ بناء السَّماء على فرش الأرض هنا "أنَّ السَّماء أعظمُ مخلوقٍ يُشاهده النّاس"[3]، وفي هذا التَّرتيب دليلٌ على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 16.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 187.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 15.

أنَّ دَحْوَ الأرض كان بعدَ خَلْق السَّماء؛ لأنَّ بناءَ البيت يكون في العادةِ قبلَ الفَرْش[1].

دلالةُ التَّعبير بفعل (الفرش) ماضيًا:

هيَّأ الله تعالى الأرضَ لعَيْشِ النّاسِ عليها

الفَرْشُ في قول الله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا﴾ هو تمهيدُ الأرض، وتَوْطِئَتُها بما أودع الله تعالى عليها تهيئةً لحياة النّاس عليها، بحيثُ "يتمكّنون فيها مِن كلِّ ما تتعلّق به مصالحُهم من مساكِنَ، وغِراس، وزَرْع، وحَرْث وجلوس، وسلوك للطُّرق الموصلة إلى مقاصدهم ومآربِهم"[2].

وصَوْغُ الفَرش ماضيًا في جملة ﴿فَرَشۡنَٰهَا﴾ يُقرِّر تحقُّق إعداد الأرض للحياة، وتهيئتها لإقامة النّاس عليها، وعَيْشِهم فيها بِراحة ويُسر منذ أمدٍ بعيد.

بلاغة الكنايةِ في لفظ ﴿فَرَشۡنَٰهَا﴾:

عظيمُ رحمة الله تعالى بخَلْقِه؛ إذ هيَّأ لهم أسبابَ العَيْشِ في الأرض

لمّا كان من معاني ﴿فَرَشۡنَٰهَا﴾: "بسَطْناها، ومهَّدناها، ومدَدْناها، فالفراش كنايةٌ عن البَسْط والتَّسوية، يقال: مهَّدت الفراشَ، أي: بسَطْتُه، ووطَّأته، وتمهيدُ الأمور: تسويَتُها وإصلاحُها[3]، والبسط والتَّهيئة تقتضيانِ سهولةَ العيشِ عليها، وهذا دالٌّ على عَظيمِ رَحْمَةِ الله تعالى بالخَلْقِ أن سهَّل لهم سبُلَ العيشِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿فَرَشۡنَٰهَا﴾:

هيَّأ الله تعالى الأرضَ للحياة تهيئةَ المَهْدِ للطِّفل الرَّضيع

في التَّعبير بالفرش في جملة ﴿فَرَشۡنَٰهَا﴾ استعارة تصريحيَّة تبعيَّة؛ إذ شُبِّهت تهيئةُ الأرض للحياة بعمليَّة فرش البُسُط والأسِرَّة وأنواع الأثاث لتَوْفير الرّاحة والسَّعادة للنّاس، وحُذِفَت التَّهيئة، وعُبِّر مكانَها بالفرش، وصيغَ ماضيًا على سبيل الاستعارة التَّبعيَّة[4]؛

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 188.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 812.
(3) القنّوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 209.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 17.

مبالغة في إعداد الأرض لتسهيل حياةِ الخَلْق عليها، كما يُهيَّأ المَهْدُ للطِّفل الرَّضيع.

وفي هذا الفرش دلالةٌ على قدرة اللّه وحكمته؛ إذ جَعَل الأرضَ مبسوطَةً لِما أراد أن يجعل عليها من أنواع الحيوان، يمشي عليها، ويتوسَّدها، ويَضطجع عليها، ولو لم تكن كذلك؛ لكانت مُحدَوْدَبَةً تُؤْلِم الماشين، بَلْه المتوسِّدَ والمضطجع"[1].

دلالةُ إسناد فعل الفرش إلى ضمير العظمةِ دون التَّقييد (بأيد):

كلُّ خلقٍ على الله تعالى يسيرٌ

في إسناد فعل الفرش إلى ضمير العظمة في قوله: ﴿فَرَشْنَٰهَا﴾ دلالةٌ على كمالِ الفرش والإعداد للحياة، وضبط الكوكب الأرضيِّ بمعايير الصِّحَّة والسَّلامة والأمن والأمان الَّتي وضعَها اللّه تعالى فيه.

ولم يُقيَّد فَرْش الأرضِ بالجارِّ والمجرور (بأيد) مثلَما قُيِّد به بناءُ السَّماء لِيُسْر تهيئةِ الأرض للحياةِ عن إبداعِ خَلْقِ السَّماء في معتقدِ الكُفّار، وإلّا فهما بالنِّسبة للّه تعالى في اليُسر سواء، وقد قال بعض أهل العلم بأنَّه "استُغنيَ عن إعادة القيد (بأيدٍ)؛ لِدلالة ما قبله في جملة: ﴿بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ عليه"[2].

معنى (الفاء) في قولِه تعالى: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾:

التَّذكيرُ بِنِعْمَةِ اللهِ تعالى وعَظَمَتِه

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ تفريعيَّة؛ إذ "لمّا كان في فَرْشِها إرادةُ جعلِها مهدًا لمَنْ عليها مِنَ الإنسان؛ أُتبِع قوله تعالى: ﴿فَرَشْنَٰهَا﴾ بتفريع ثناءِ اللّه تعالى على نفسِه على إجادة تمهيدها؛ تذكيرًا بِعظمته ونعمته، أي: فنعم الماهدون نحنُ"[3]، والمعنى: أنَّه تَسبَّبَ عن فرش الأرض "أن يقال في وصْفِنا: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾، أي: نحن؛ لكمالِ قُدْرَتِنا"[4].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 17.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 17.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 17.

(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 474.

بديعُ صُنعِ الله تعالى يَستلزم مدْحَه تعالى والثَّناءَ عليه

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل (نِعْم):

(نِعْم) فعلٌ ماضٍ جامدٌ لإنشاء المدحِ[1]، فقوله تعالى: ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ ثناءٌ من اللّه ﷻ على نفسه ﷻ، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: 14]، وقوله سبحانه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١﴾ [الملك: 1]، وقوله جلَّ شأنه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١﴾ [الفرقان: 1]، والمخصوصُ بالمدحِ دلَّ عليه المَقامُ، أي: فنِعْمَ الماهدون نحنُ، أي: اللّه ﷻ[2].

و"لمّا كان الفراش، قد يكون صالحًا للانتفاع من كلِّ وجهٍ، وقد يكون من وجهٍ دونَ وجه؛ أخبر تعالى أنَّه مهَّدَها أحسنَ مِهادٍ، على أكمَلِ الوُجوه وأحسَنِها، وأثنى على نفسه بذلك، فقال: ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ الَّذي مهَّد لعباده ما اقتَضَتْهُ حِكْمَتُه ورَحمَتُه وإحسانُه"[3].

وجه التَّعبير بمفردة ﴿ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ مادَّةً وصيغة:

بيانُ رفقِ الله تعالى بالعبادِ

المَهدُ مِنْ قولهم: مهَّدْتُ الفراش، أي: بسطْته، ووطَّأته، وحسَّنته، وتمهيد الأمور: تسويتها وإصلاحُها[4]، و"الماهد: الَّذي يُهَيِّئُ الشَّيءَ، ويُمَهِّده، كما تُمهَّد الأرضُ للزَّرْع، وكما يُمَهَّد الفِراش للنَّوم، ومنه: المَهد، وهو ما يهيَّأ مِن فراشٍ لنوم الوليد"[5].

وفي التَّعبير بمفردة المَهْدِ إيحاءٌ بأنَّ اللّه تعالى رفيقٌ بالإنسان، وأنَّه أعَدَّ له ما تُعِدُّ الأمُّ الرَّؤوم لوليدها الضَّعيف من المهاد الضّامن لسلامته، من تمهيد وجه الأرض، وتعمير باطنِها بأسباب الخيراتِ، مِن زروعٍ وثمارٍ ومياهٍ وغير ذلك، فيجب على الإنسان أن يَعْرِفَ هذا

(1) الدعاس، إعراب القرآن: 3/ 266.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 530.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 812.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 109.
(5) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 531.

لربِّه ﷻ، كما يجِبُ أن يَعْرِفَ الرَّضيع - إذا شبَّ - حقوقَ أمِّه، مع فارق غِنَى اللّه تعالى عن العبدِ وحاجَةِ الأمِّ إلى ابنِها.

"وفي إيثار صيغة اسم الفاعل في ﴿ٱلْمَـٰهِدُونَ﴾ إشارة إلى أنَّ مِن الموادِّ ما تختلف صيغتُه في النَّظْمِ فعلًا واسمًا، فيكون أحدُهما أرقَّ وألطفَ وأفصحَ، فيُؤْثَر على غيره في مقام، ويؤثر عليه غيرُه في آخر، والمرجعُ في تحديدِ ذلك الذَّوقُ"[1]، و"صيغة الجَمعِ في قوله: ﴿ٱلْمَـٰهِدُونَ﴾ للتَّعظيم"[2].

لطيفةُ التَّنويعِ بين البناءِ للسَّماء والفرش للأرض:

خِطابُ القرآنِ الكريم النّاسَ بِما يَعْقِلونَ، ويُدْرِكونَ

روعي في وصف خَلْق الأرضِ ما يبدو للنّاس من سطحها - أي: الفَرْش - لأنَّه الَّذي يهمُّ النّاس في الاستدلال على قدرة اللّه تعالى، وفي الامتنان عليهم بما فيه لُطْفُهم والرِّفق بهم، وروعي في ذِكْرِ السَّماء ما يبدو من قُبَّةِ أجوائها - أي: البناء - دون بحثٍ عن تَرامي أطرافها وتَعدُّد عوالمِها؛ إذ لا يَبْلُغ النّاس إدراكَه؛ ولذلك أُتبِعَ الاعتراضُ بالتَّذييل بقوله: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ﴾، فالمراد منه تلقينُ النّاس الثَّناءَ على اللّه تعالى فيما صَنع لهم فيها من مِنَّةٍ؛ ليَشكروه بذلك الثَّناء، كما في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: 2][3].

فالبناءُ باقٍ إلى قيام القيامة، لم يَسقُط منه شيءٌ، ولم يُعدَم منه جُزء، وأمّا الأرض؛ فهي في التَّبدُّل والتَّغيُّر كالفرش الَّذي يُبسَط، ويُطْوى، ويُنقل، والسَّماء كالبناء المَبْنيِّ الثّابِت، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢﴾ [النبأ: 12]، وأمّا الأراضي؛ فكَم منها ما صار بَحْرًا، وعاد أرضًا مِن وقت حُدوثِها.

والسَّماء تُرى كالقُبَّة المَبْنيَّة فوق الرُّؤوس، والأرض مبسوطةٌ

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 44، بتصرف
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 17.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 17.

مدحوَّةٌ، والبناء بالمرفوع أليقُ، كما قال تعالى: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ [النازعات: 28]، والسَّماء مسكنُ الأرواح، والأرض موضِعُ الأعمال، والمَسْكَنُ أليقُ بكونِه بناءً(1).

معنى (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا﴾:

أجناس الحيوان قريبة للأنظار

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ عاطفةٌ على جملة: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا﴾، أي: "وفَرَشْنا الأرض، وخلقنا من كلِّ شيء زوجين"(2)، و"تَرَك (خلَقنا) الأوَّلَ؛ استغناءً بدلالةِ الكلامِ عليه"(3)، وعُطِفَ على خلقِ الأرض خَلْقُ أجناسِ الحيوان؛ لأنَّها قريبةٌ للأنظار، لا يُكَلِّفُ النَّظرُ فيها والتَّدبُّر في أحوالها ما يُرْهِق الأذهان(4).

معنى (مِن) ودلالتُها:

(مِن) في جملة: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ للابتداء، وهي متعلِّقةٌ بـ ﴿خَلَقْنَا﴾، أي: خلقنا مِن كلِّ شيءٍ زوجين، ويجوز أن تكون (مِنْ) بيانيَّةً، وتكونَ متعلِّقةً بمحذوف حال من ﴿زَوْجَيْنِ﴾؛ إذ هو في الأصل صفةٌ لهُ، والتَّقدير: خلقنا زوجينِ كائنين مِن كُلِّ شيءٍ(5).

دلالة التَّعبير بـ ﴿كُلِّ﴾:

خلقُ الله تعالى لكلِّ شيءٍ زوجًا يكمِّله

التَّعبيرُ بكلمة العموم ﴿كُلِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ يفيد استغراقَ الأشياءِ، الَّتي شاءَها الله تعالى خَلْقَها، فبِقُدْرَتِه ﷻ خلقَ من كلِّ شيءٍ زوجًا له، يُزاوجه، ويكمِّله، ويُعرف به، فيحضُر في النَّفس عندَ ذِكْرِه، مثل الرَّجل والمرأة، والخير والشَّرِّ، والكثرةِ والقلَّة... إلخ.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 187.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 531.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 547.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 15.
(5) الصافي، الجدول في إعراب القرآن: 9/ 322.

والعمومُ النّاضِح مِن كلمة ﴿كُلِّ﴾ يتآزَر مع عطاءات عناصر التَّركيب على إفادة معاني العموم والاستغراق والإحاطةِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿شَيۡءٍ﴾ نكرةً، وإضافةِ ﴿كُلِّ﴾ إليها:

تقريرُ طَلاقَةِ القُدرة الإلهيَّة

في التَّعبير بلفظ ﴿شَيۡءٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾ دلالة على عموم النَّوع مِن جِنس الحيوان[1]، وفي إضافة لفظِ العموم ﴿كُلِّ﴾ إلى ﴿شَيۡءٍ﴾ نكرةً مبهمًا إفادَةُ الاستغراقِ والشُّمول أيضًا؛ تقريرًا لطلاقَةِ قُدرته ﷻ بخلقه زوجًا مقابلًا لـ ﴿كُلِّ شَيۡءٍ﴾.

وتنكير ﴿شَيۡءٍ﴾ يدلُّ على ضآلته، كما يدلُّ على ضخامته، وذلك أيضًا من المُزاوجة بين المعاني، الَّتي هي إحدى مخلوقات اللّٰه تعالى، الَّتي وضعها للنّاس توطئةً لِتَيْسير حياتهم، وراحة نُفوسِهم.

لطيفةُ تقديم شبهِ الجملة (من كلّ شيء):

في تقديم شبه الجملة: (من كلّ شيء) على قوله: ﴿خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾ إلحاحٌ على تأكيدِ القَصْدِ إلى ذلك الاستغراقِ الشّامل.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الخَلْق:

الخلقُ إبداعٌ من غير احتذاء، وليس إلّا لله تعالى

في التَّعبير بفعل الخلق في قوله تعالى: ﴿خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾ دلالةٌ على دقَّة تقدير الخالقِ ﷻ تلك المُتزاوِجاتِ مِنَ الأشياءِ مِنَ العَدَم، ويُسْتَعْمَلُ الخلقُ في إبداع الشَّيء من غير أصل يُقاس عليه ولا احتذاء، فقوله تعالى: ﴿خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾، أي: أبدَعْنا إيجادَهُما بتقديرٍ دقيقٍ ابتداءً، بلا قياس على نموذج سابِقٍ، وقد يُستَعمَل الخلق في إيجاد الشَّيء من الشَّيء، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النساء: 1]، وليس الخلق بمعنى الإبداع إلّا للّٰه تعالى، ولهذا قال تعالى في الفصل بينه وبين غيره: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ [النحل: 17][2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 17.

(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: 2/ 566.

خلْقُ الله تعالى زوجَي الأنواعِ ضرورةٌ لإقامة حياة الإنسان على الأرض

دلالةُ إسنادِ الفعل (خلق) إلى ضمير العظمة:

في إسناد خلق الزَّوجين إلى ضمير العظمة، في قول اللّه تعالى: ﴿خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾ إيذانٌ بعظمة خَلْقهما، وجليل حكمةِ الخالق العظيم ﷻ في إيجادهما، وتوقُّف كمالِ فَرْش الأرض وتوطئتها لحياة الإنسان على وُجودِهما.

من الزَّوجين تنشأ حياةٌ جديدة؛ دليلًا على إمكان البعث وإنشاء الخلقِ بعد الفناءِ

دلالةُ التَّثنية في المفعول ﴿زَوۡجَيۡنِ﴾:

الزّوج: الذَّكر والأنثى، وتثنيةُ (زوج) هنا أُريد به ما يُزَوَّجُ بين المخلوقات، ومن لوازم الـ ﴿زَوۡجَيۡنِ﴾ كونهما "مصطحبَيْن ومتلازمَيْن"[1]، والمقصود بهما كلُّ صنفين، أو أمرين متقابلين أو نوعين من ذَكَرٍ وأنثى، وبرٍّ وبحر، وشمس وقمر، وحلوٍ ومُرٍّ، وسماء وأرضٍ، وليل ونهار، ونور وظلمة، وجنٍّ وإنس، وخير وشرٍّ، وموت وحياة، وسهل وحزَنٍ، وصيفٍ وشتاء، وإيمانٍ وكفر، وسعادة وشقاوة، وحقٍّ وباطل، وسرورٍ وغمٍّ، إلى غير ذلك ممّا لا يَنْحَصِرُ، فكلُّ اثنين منها زوجٌ، واللّه تعالى واحدٌ لا مِثْلَ له[2].

وهذا الاستدلال عليهم بخلقٍ يُشاهدون كيفيّاته وأطوارَه؛ كلَّما لَفَتوا أبصارهم، وقَدَحوا أفكارهم - وهو خَلْقُ الذَّكر والأنثى - ليكون منهما إنشاءُ خلقٍ جديد يَخْلُف ما سلَفه، وذلك أقربُ تمثيلٍ لإنشاء الخَلق بعد الفناء - وهو البعثُ الذي أنكروهُ -؛ لأنَّ الأشياء تُقَرَّبُ بما هو واضحٌ من أحوالِ أمثالِها؛ ولذلك أتبَعَهُ بقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[3].

إيجابُ المِحَن اختبارٌ يُرغَّب فيه بالمَرغوب، ويُحذَّرُ فيهِ عَنِ المَرْهوبِ

وفي خلْقِ اللّه تعالى الأشياءَ زَوْجَين ونوعين مختلفين متضادَّين دلالةٌ على "إيجاب المِحَن عليهم؛ من نَحو عُسْرٍ ويسر، وغَناء وحاجة،

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 181.

(2) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 209.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 17.

وخير وشرٍّ؛ ليمتحنَهُم على اختلاف الأحوال وتضادِّها؛ فيُرَغِّبهم في كلِّ مرغوب، ويُحَذِّرهم عن كلِّ مرهوب"[1].

القادرُ على خلق الأشياءِ المتّفقةِ والمختلفةِ يستحقُّ كمالَ المدحِ

وبالتَّذكير بخلق الزَّوجين تنبيهٌ إلى "قُدرته على خَلْق ما يشاءُ خَلْقَه من شيءٍ، وأنَّه ليس كالأشياءِ، الَّتي شأنُها فعلُ نوعٍ واحدٍ دونَ خلافِه؛ إذ كلُّ ما صفتُه فعلُ نوعٍ واحدٍ دونَ ما عداه كالنّارِ الَّتي شأنُها التَّسخينُ، ولا تصلحُ للتَّبريدِ، وكالثَّلجِ الَّذي شأنُه التَّبريدُ، ولا يصلحُ للتَّسخينِ، فلا يجوزُ أن يوصفَ بالكمالِ، وإنَّما كمالُ المدحِ للقادرِ على فعلِ كلِّ ما يشاءُ فِعْلَه من الأشياءِ المتَّفقةِ والمختلفةِ[2].

معنى (لعلَّ) في قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾:

الرَّجاء في كلام اللهِ تعالى بحَسَبِ عُرْفِ البَشَرِ؛ لأنَّه خطاب لهم

(لعلَّ) في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّعليلِ، أي: "فعلنا ذلك كلَّه، من بناء السَّماء، وفرْشِ الأرض، وخلْقِ الأزواج؛ إرادةَ أن تتذكَّروا، فتعرفوا الخالقَ، وتعبدوه"[3]، ويجوزُ أن تكون (لعلَّ) دالَّةً على الرَّجاء، ويكون ذلك بالنِّسبةِ إلى الخَلْق، أي: "بِحَسَبِ خَلْقِ البَشَر وعُرْفِها"[4].

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿تَذَكَّرُونَ﴾، وصوغِه مضارعًا:

خَلْقُ الذَّكر والأنثى مِن نطفةٍ هو النَّشأة الأولى، وهو دالٌّ على النَّشأة الآخرة

معنى التَّذكُّر في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ التَّفكُّر، أي: لعلَّكم "تتفكَّرون في الفروق بين المُمكِنات والمستحيلات، وتتفكّرون في مراتبِ الإمكان، فلا يختلط عليكم الاستبعادُ وقلَّة الاعتياد بالاستحالة، فتتوَهَّموا الغريبَ محالًا.

فالتَّذكُّر مستعمَلٌ في إعادة التَّفكُّر في الأشياء ومراجعةِ أنفُسِهم فيما أحالوه؛ ليَعْلَموا بعد إعادة النَّظر أنَّ ما أحالوه ممكنٌ، ولكنَّهم لَم يألفوه؛ فاشتبه عليهم الغريبُ بالمُحال، فأحالوهُ، فلمّا كان

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 391.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 547.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 404.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 181.

تجديدُ التَّفكُّر المغفولِ عنه شبيهًا بتذكُّر الشَّيء المنسيِّ؛ أُطْلِق عليهِ ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾.

وهذا في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦١ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ٦٢﴾ [الواقعة: 60 - 62]، فقد ذُيِّل هنالك بالحثِّ على التَّذكُّر، كما ذُيِّل هنا برجاء التَّذكُّر، فأفاد أنَّ خَلْق الذَّكر والأنثى من نطفة هو النَّشأة الأولى، وأنَّها الدَّالَّة على النَّشأة الآخرة"[1].

دلالةُ حذفِ مفعول ﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

حُذِف مفعولُ التَّذكُّر مِن جملة: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، وتقديره: "تَذكَّرون آياتِ وحدانيَّته وألوهيَّته، أو: تذكَّرون البعثَ والثَّواب والعقاب"[2]، "فتعلَّموا أيُّها المشركون بالله تعالى أنَّ ربَّكم الَّذي يَستوجب عليكم العبادة، هو الَّذي يَقدر على خَلق الشَّيءِ وخِلافه، وابتداع زَوْجَين من كلِّ شيء، لا ما لا يَقْدِرُ عَلى ذلكَ"[3].

التَّفكُّر في مُتزاوجات المخلوقاتِ يَهْدي إلى الوحدانيَّة، وإلى البعثِ بعد الموتِ

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفَرْش والبَسْط:

الكلمتان تَشْتَرِكان في اللُّغة على دلالةِ التَّمهيد والإعداد على وجه الأرض، إلَّا أنَّ القرآن الكريم يُفْرِدُ لكلٍّ منهما استعمالًا دقيقًا يخدم السّياق البلاغيَّ والمعنويَّ، وأمّا الجامع الدَّلاليُّ بينَهُما؛ فهو تهيئة الأرض وتمهيدُها للإنسان للعيش، والتَّحرُّك، والقرار، فالفَرْش يدلُّ على القرار والسُّكون والمَعاش، والبَسْط يدلُّ على الامتداد والتَّيسير والحركة[4].

الفرشُ تمهيدٌ واستقرار، والبَسْطُ امتدادٌ وتوسعةٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 18.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 391.

(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 549.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (فرش/ بسط).

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥١﴾ [الذاريات: 50 - 51]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلهما:

مآلُ الوُقوفِ على صوَرِ الضَّلالِ وعواقبِهِ الرُّجوعُ إلى الحقِّ

بعد أن بيَّن الله تعالى ضلالَ كفّارِ قريش في تكذيبِهم بالبعث بيانًا بالبرهان السّاطع، ومثَّل حالَهم بحال الأمم الَّذين سَبقوهُم في التَّكذيب بالرُّسُل، وما جاؤوا به؛ جمعًا بين الموعظة للضّالين وتسليةِ الرَّسول ﷺ والمؤمنين؛ لمّا بيَّن ذلك أعقَبَه بأن يدعوهم إلى الرُّجوع إلى الحقِّ بقوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾[1].

افتقارُ الخلقِ إلى الله ﷻ يوجِبُ الفرارَ إليه

ثُمَّ إنَّه لمّا ثبت أنَّ وراء العبادِ عذابًا يَحِقُّ لهم الفرارُ منه، وثبت أنَّ كلَّ شيءٍ غيره سبحانه محتاجٌ إلى زوجِه، ممّا يُثْبِت حاجة الجميعِ إليه ﷻ؛ وجب ألّا يُفْزَع إلّا إلى الواحد الغنيِّ، فسبَّبَ عن ذلك قوله: ﴿فَفِرُّوٓاْ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَفِرُّوٓاْ﴾: أصل (فرّ) يدلُّ على الانكشاف[3]، والفرار: الهروب، أي: سُرعةُ مُفارَقةِ المَكانِ تَجَنُّبًا لأذًى يَلحقُه فيه[4]، وفرَّ إلَيهِ: لَجأ، وهو المقصود به في الآية، أي: فالجَؤوا إليه، وسارعوا إلى طاعَتِه[5].

2) ﴿نَذِيرٞ﴾: أصلُ (نذر) كلمةٌ تدُلُّ على تَخْويفٍ أو تَخَوُّفٍ، منه الإنذارُ، وهو الإبلاغُ، ولا يكادُ يكونُ إلّا في التَّخويفِ، وتَناذَروا:

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 19.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 476.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فر).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 19.
(5) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1105.

خَوَّفَ بعضُهُم بعضًا، ومنه النَّذْرُ، وهو أنَّه يَخافُ؛ إذا أخْلَفَ، والنَّذيرُ: المُنْذِرُ، والجمعُ: النُّذُرُ، والنَّذْرُ أيضًا: ما يَجِبُ، كأنَّه نُذِرَ، أي: أوجِبُ[1]، والمراد بالنَّذيرِ في الآية: المُحَذِّرُ مِن شَيءٍ يَضُرُّ، أي: "محذِّر من الهلاك الأبديِّ بالعقوبة الَّتي لا خلاص منها؛ إن فَعَلْتُم ذلك"[2].

المَعنى الإجماليُّ:

الفرارُ ممّا سوى الله تعالى إليه فــرارٌ مـمّـا فيه التَّعاسة إلى ما فيه السَّعادة

إذا عَلِمتُم - أيُّها المشركون - ما سبق ذِكرُه في السّياق الكريم مِن قصص إهلاك المُجرمين ونجاة المؤمنين، فَعَجِّلوا بالفرار ممّا فيه هلاكُكم وتعاسَتُكم إلى ما فيه نجاتُكم وسعادتكم، واهربوا من خطَر الكفر إلى واحة الإيمان، ومن الشِّرك بالله تعالى إلى توحيدِ اللّه تعالى، واعلموا أنّي - والكلامُ للرَّسول ﷺ - مُخَوِّفٌ لكم من الخطَر قبل قدومكم عليه، أُخَوِّفكم، وأُنْذِرُكم نذارةً بَيِّنةَ الحُجَجِ والأدلَّة، وبالمعجزات على صِدْقِ دَعْوَتي وصحَّة رسالتي.

وتَوَجَّهوا بالكلِّيَّة - أيُّها الكافرون - إلى اللّه تعالى وحدَهُ، وأخلِصوا عقيدتَكُم وعبادتكم له سبحانه، ولا تُشْرِكوا في شيءٍ منهما أحدًا غيرَه، واثقين بأنَّني مأمورٌ بدَعْوَتِكم إليه تعالى منه ﷻ؛ لأُنْذِرَكُم، وأحذِّركم إنذارًا بيِّنًا وتحذيرًا واضحًا؛ لتَنْجوا مِن عِقابه، وتَسْعَدوا برِضوانه وجِنانِه.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ تفريعيَّةٌ فصيحَةٌ؛ إذ في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ [الذاريات:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نذر).

(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 478.

شِدَّةُ قَهْرِ الله ﷻ وكمال سَطْوَتِه، وصنيعُه بالأمم المكذِّبة، يوجِبُ الفرارَ إليه سبحانهُ

20 - 21]، وفي قوله: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ تعريضٌ بالمكذِّبين الخرّاصين، فكان في قصص الأنبياء وإهلاك المعاندين تخويفٌ شديد، وفي قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ تذكيرٌ بشدَّة سطوته وكمال قدرته.

فإذا ظهر لكُم شِدَّةُ قهره سبحانه وكمالُ سطوته، وما فعَل بالأمم المكذِّبة، وعرفتُم كُلَّ ذلك، ففرّوا إلى الله تعالى مِن الله تعالى، واترُكوا العنادَ، وخافوا سوءَ مغبَّة تَكْذيبِكُم، يدلُّ على ذلك قولهُ تعالى: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾[1]، فالفاء الفصيحَةُ قَد طوت كلَّ هذا، فهي لذلكَ عُنْصُر إيجازٍ بليغ.

آثارُ غضَبِ الله تعالى موجبةٌ الفرارَ منها، ورحمتُه مستدعيةٌ الفرار إليها

و(الفاء) إمّا لِترتيب الأمر على ما حُكي من آثارِ غضَبِه الموجبةِ للفرار منها، ومن أحكام رحمته المستدعية الفرارَ إليها، وإمّا للعطف على جملة مقدَّرة مترتِّبة على قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، كأنَّه قيل: قُل لهم فتَذَكَّروا، فَفِرّوا إلى الله[2].

دلالةُ العدولِ عن موعظة الله تعالى إلى موعظَةِ رَسولِه ﷺ:

لِتَعَدُّدِ الواعظين تأثيرٌ على نفوسِ المخاطَبين بالموعظة

عدل الأسلوبُ الكريم في جملة: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ عمّا سبق من توجيه الموعظة مِن الله تعالى مباشرةً، إلى أمر الرَّسول ﷺ بخِطابهم؛ إذ "قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا﴾، ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا﴾، ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا﴾، ثُمَّ جعل الكلام للنَّبيِّ ﷺ، فقال: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾، ولم يقل: فَفِرّوا إلينا؛ وذلك لأنَّ لاختلاف الكلام تأثيرًا، وكذلك لاختلافِ المتكلِّمين تأثيرًا؛ ولهذا يُكثِر الإنسانُ مِنَ النَّصائح مع ولَدِه الَّذي حادَ عنِ الجادَّة، ويجعل الكلام مختلفًا، نوعًا ترغيبًا، ونوعًا ترهيبًا، وتنبيهًا بالحكاية، ثُمَّ يقول لغيره: تكلَّم معه؛ لعلَّ كلامَكَ ينفَعُ.

(1) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 35.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 143.

وذلك لِما في أذهان النّاس من أنَّ اختلاف المتكلِّمين واختلافَ الكلام كلاهما مؤثِّرٌ، واللّه تعالى ذَكَر أنواعًا من الكلام، وكثيرًا من الاستدلالات والآيات، وذكر طَرَفًا صالحًا من الحكايات، ثُمَّ ذكر كلامًا مِن متكلِّمٍ آخرَ هو النَّبيُّ ﷺ"[1].

دلالةُ التَّعبير بأمر الفرارِ مضعَّفًا:

الفرارُ: الهروبُ مِن محذورٍ إلى مَكْمَن أمانٍ يَلجأ إليه الفارُّ، و"سَمَّى اللّه الرَّجوع إليه: فِرارًا؛ لأنَّ في الرُّجوع لِغيره أنواعَ المخاوف والمكاره، وفي الرُّجوع إليه أنواعَ المَحابِّ والأمن والسُّرور والسَّعادة والفوز، فيفِرُّ العبد من قضائه وقدره، إلى قضائه وقدره، وكلُّ مَن خِفْتَ منه، فَرَرْتَ منه إلى اللّه تعالى؛ فإنَّه بحسب الخوفِ منهُ يكون الفرارُ إليه"[2].

الـهـروبُ مِـنَ المخاوفِ إلى الله تَعالى

ومن معانيه: "فِرّوا إليه في جميع حوائجكم، ولا تَطْلُبوا شيئًا من ذلك من غيره، فإنَّه هو القادرُ عليها حقيقةً، فيكون في الآية ترغيبٌ في الرُّجوع إليه في الحوائج، وقطع الطَّمع عن غيره"[3].

والأمر بالفرار "يُنْبِئُ عن سُرعة الإهلاك، كأنَّه يقول: الإهلاك والعذابُ أسرعُ وأقربُ مِن أن يَحتمل الحالُ الإبطاءَ في الرُّجوع، فافزعوا إلى اللّه تعالى سريعًا، وفِرّوا"[4].

والتَّضعيف في الفعل (فِرّوا) يحكي الهِمَّة المطلوبة في عزيمة العبدِ المُقبل على اللّه تعالى، الفارِّ برغباته من الدُّنيا وما فيها إليه ﷻ، فينبغي أن تكون همَّة الفارِّ إلى اللّه تعالى قويَّة صادقة لا ضعيفةً مضطربةً.

نكتةُ حذفِ متعلّق الفرار في قوله: ﴿فَفِرُّوٓاْ﴾:

سكت النَّظم عن ذِكْرِ سبَبِ الفرار والحادي عليه في جملة:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 189.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 812.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 391.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 189.

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾، وإن كان السّياق يوضِّحه؛ إذ التَّقدير "ففِرّوا من الكفر والعصيان إلى الطّاعة والإيمان"[1]، وذلك لأحدِ وجهين: إمّا لكونه معلومًا، وهو هول العذاب، أو الشَّيطان الَّذي قال تعالى فيه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ [فاطر: 6]، وإمّا ليكون عامًّا، كأنَّه يقول: كلُّ ما عدا الله تعالى، وما يتعلَّق به عدوُّكم، ففرّوا إليه ﷻ من كلِّ ما عداه.

كـلُّ مـا عـداه سبحانه يُتلِف عـمـرك، والله تـعـالى يـرفـع أمرك، ويعطيك بقاءً لا فناء معه

وبيانُهُ: أنَّ كلَّ ما عداه، فإنَّه يُتلِفُ عليك رأسَ مالك الَّذي هو العُمُر، ويُفَوِّت عليك ما هو الحقُّ والخير، ومُتلِفُ رأسِ المال مُفَوِّتُ الكمالِ: عدوٌّ، وأمّا إذا فَرَرْتَ إلى الله، وأقبلتَ عليه، فهو يأخُذ عمُرَك، ولكنْ يَرْفَعُ أمرَك، ويُعْطيك بقاءً لا فناءَ معه"[2].

بيانُ مرجِع ضمير الجماعةِ في قوله: ﴿فَفِرُّوٓاْ﴾:

الـفِـرارُ مِـنَ الـنَّـقـائِـصِ إلى الأوصــــافِ الكاملةِ

المخاطَبُ بضمير الجماعة في جملة: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ "المشركون؛ لأنَّ المؤمنين قد فرّوا إلى الله تعالى مِن الشِّرك"[3]، ولا يمنع أن يُخاطَبَ العمومُ، فالمشركونَ مأمورون بالفرار من الشِّرْكِ، والمؤمنونَ مأمورون بالفرار من الجهل إلى العلم، ومِنَ المعصيةِ إلى الطّاعةِ، ومِنَ الغفلَةِ إلى ذِكْرِ الله تعالى، على أنَّه لا يلزَمُ من القول بفرارهم ممّا تقدَّم أن يكونوا متلبِّسين بتلك الأوصافِ.

معنى ﴿إِلَى﴾ في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِۖ﴾:

الله تعالى وحده ملجأ الأمـان، فمَن ركَـنَ إلى غيره عَلى خطَرٍ كبيرٍ

﴿إِلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ لانتهاء الغايَةِ، ففي تقييدِ الفِرار بكَوْنِه ﴿إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ بيانُ المهروبِ إليه[4]، وكلُّ ما سواه ﷻ حقيقٌ بالفرار منهُ، وأنَّ الله تعالى هو وحده ملجأُ الأمنِ والأمان، فكلُّ مَن ركَنَ إلى غيره، ولَم يَهْرَعْ إليه على خطَرٍ كبيرٍ.

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 180.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 189، بتصرف.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 19.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 189.

العبادةُ لا تكون خالصة إلّا إن عُلِّقَت بالذّات الإلهيّة لا لِشيءٍ آخرَ

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسم الأحسَنِ في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾:

قال البقاعيُّ: "لما درَّب عبادَه في هذه السّورة بِصفة الرُّبوبيَّة كثيرًا؛ فتأهَّلوا إلى النُّفوذ في الغيب، وكانت العبادةُ لا تكون خالصة إلّا إن عُلِّقَت بالذّات لا لِشيء آخرَ؛ ذَكَر اسمَ الذّات، فقال: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: إلى الَّذي لا مُسمّى لهُ مِن مكافِئٍ، وله الكمالُ كلُّه، فهو في غايةِ العُلوِّ.

فلا يَقِرُّ، ويَسْكُن أحدٌ إلى مُحتاجٍ مثلِه، فإنَّ المحتاج لا غِنًى عنده، ولا يقرُّ سبحانه إلّا مَن تجرَّد عن حضيض عوائقه الجسميَّة إلى أوْجِ صفاته الرّوحانيَّة، وذلك مِن وعيده إلى وعدِهِ اللَّذَين دلَّ عليهما بالزَّوجين، فتنقَّل السّياقُ بالتَّحذيرِ والاستعطافِ والاستدعاء، فهو من باب «لا ملجأ منك إلّا إليك»، «أعوذ بك منك»"[1].

نُصْحُ الرَّسول ﷺ لقومِه ومُبالَغتُه في إنذارهم

بلاغةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّة في قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾:

المرادُ من الأمر بالفرار من العقاب في قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾: الأمرُ بالإيمانِ والطّاعة؛ لأنَّه لأمنِه من العقاب بالطّاعة، كأنَّه فرَّ لِمَأْمَنِه، فهو استعارةٌ تمثيليَّة[2]، وهو "مستعارٌ للإقلاع عمّا هُم فيه من الإشراك وجُحود البَعث، استعارةً تمثيليَّةً بِتشبيه حال تورُّطهم في الضَّلالة بِحال مَن هو في مكانٍ مخوفٍ يدعو حالُه أن يَفِرَّ منه إلى مَن يُجيره، وتَشبيه حال الرَّسول ﷺ بِحال نذيرِ قوم بأنَّ ديارَهُم عُرضَةٌ لِغَزْو العدوِّ، فاستُعمِل المركَّبُ، وهو ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ في هذا التَّمثيلِ"[3].

واجبٌ على الدّاعية أن يأمرَ مَدعوّيه إلى الفرارِ إلى الله تعالى

علّةُ فصلِ قوله: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٌ﴾:

فُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ عن قوله: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ الثّاني منهما نُظِمَ عِلَّةً للأوَّل، "فإنَّ كونه ﷺ

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 476.
(2) الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 98.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 19.

منذرًا منه تعالى موجِبٌ عليه ﷺ أن يأمُرَهم بالفرار إليه تعالى، وعليهم أن يَمتَثِلوا به"(1).

معنى (إنَّ) في قوله: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ﴾:

الأمر القويُّ يستلزِمُ دَعْمًا تركيبيًّا قويًّا

(إنَّ) في قوله: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّوكيد، اقتضاها هنا ما عِندَهم من إنكارِ(2) نُبوَّته ﷺ وإنكارِ القرآن الكريم، وإنكار البعثِ والحِساب، كما تقدَّمَ ذلك صراحةً في أوَّل السّورة الكريمة: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾ [الذاريات: 5 - 6].

وتقدُّمُ الأمر ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بهذه القوَّة اللَّفظيَّة والمعنويَّة يَستَلزِم قوَّة التَّعبير الدّاعم له بعدَه، فجاء التَّوكيد في قولِه: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وافيًا بهذا الاستحقاقِ.

معنى اللّام في قوله: ﴿لَكُم﴾:

شِدَّةُ نُصحِ النَّبيِّ ﷺ

اللّام في قوله: ﴿لَكُم﴾ حرفٌ دالٌّ على الاختصاصِ، أي: إنّي لكم خاصَّةً نذيرٌ مبينٌ، وفي هذا إيماءٌ إلى شدَّة نُصح النَّبيِّ ﷺ حتّى كأنَّه لا يُنذِرُ أحدًا إلّا إيّاهُم.

ويَحْتَمِل أن تكونَ اللّام في قوله: ﴿لَكُم﴾ للتَّعْديَة، والمعنى: إنّي منه نَذيرُكم، وعلى كلٍّ؛ فلطيفة إيثار اللّام في قوله: ﴿لَكُم﴾ إشاعَةُ ما يفوح منها مِن معاني النَّفع لهم، وأنَّه لهُم لا عليهم.

بيانُ مرجِع ضمير الخِطاب في قوله: ﴿لَكُم﴾:

النِّذارةُ بالمشركين والكفّارِ أخصُّ

ضمير الخطاب في القيد ﴿لَكُم﴾ يرجع إلى مرجع ضمير الفاعل في جملة ﴿فَفِرُّوٓاْ﴾، وهم "المشركون؛ لأنَّ المؤمنين قد فرّوا إلى اللّه تعالى مِن الشِّرك"(3)، والمعنى: "إنّي نذيرٌ لِمَن عَبَدَ دونه ﷻ،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 143.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 477.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 19.

أو سَمَّى دونه إلَهًا"[1]، ولا مانعَ مِن أن يكونَ الخطاب عامًّا، وتتنوَّعُ درجاتُ الإنذارِ بحسبِ درجاتِ المُنْذَرينَ.

ثـراءُ المَعـاني ودِقّـتها بتَنوُّع معاني الحروفِ

معنى (مِنْ) في القيد ﴿مِّنۡهُ﴾:

(مِنْ) في القيد ﴿مِّنۡهُ﴾ مُنَزَّلةٌ منزلَةَ ابتداء الغايةِ[2]، فـ ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ﴾، "أي: من جهته"[3]، و﴿مِّنۡهُ﴾ صفةٌ لـ ﴿نَذِيرٞ﴾، قُدِّمَت على الموصوف، فصارت حالًا، والابتداءُ في (مِن) ابتداءٌ مجازيٌّ، أي: مأمورٌ له بأن أُبَلِّغَكُم[4]، أو المقصود: ﴿مِّنۡهُ﴾ "لا من غيره"[5]، أو "مِن عقابه تعالى المُعَدِّ لِمن لَم يَفِرَّ إليه سبحانه، ولم يوحِّدْه"[6]، أو أن تكون (مِنْ) تعليليَّةً، "بأنَّه ﷺ يُنذرهم مِن جهته تعالى لا مِن تِلقاء نفسه، وعْدٌ كريمٌ بِنَجاتهم مِن المهروب، وفوزهم بالمطلوب"[7]، ويجوز أن تكون للاستعانة بمعنى الباء[8].

بـنـو آدمَ محَلُّ عنايةِ اللهِ تعالى، فعِصْيانُهُم إيّاه جريمَةٌ كُبْرى

نكتة تقديم القيدين ﴿لَكُم﴾ و﴿مِّنۡهُ﴾ على الخبر:

في تقديم القيدين ﴿لَكُم﴾ و﴿مِّنۡهُ﴾ على الخبر ﴿نَذِيرٞ﴾ تنبيهٌ على عنايَتِه سبحانه بالمرسَل إليهم أوَّلًا؛ إذ قَدَّم القيد ﴿لَكُم﴾، ثُمَّ تنبيهٌ على خطورة عِصْيان المرسِل ﷻ؛ إذ قدَّم ﴿مِّنۡهُ﴾.

قال الرّازيُّ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ﴾: "في الرِّسالة أمورٌ ثلاثة: المرسِلُ، والرَّسولُ، والمرسَل إليه، وهاهنا ذُكِرَ الكُلُّ، فقوله: ﴿لَكُم﴾ إشارة إلى المرسَل إليهم، وقوله: ﴿مِّنۡهُ﴾ إشارةٌ إلى المرسِل، وقوله: ﴿نَذِيرٞ﴾ بيان للرَّسول.

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 392.
(2) المرادي، الجنى الداني في حروف المعاني، ص: 308.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 109.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 20.
(5) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 477.
(6) الآلوسي روح المعاني: 14/ 18.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 143.
(8) قباوة، المفصّل، ص: 1850.

وقُدِّم المرسَل إليه في الذِّكْر؛ لأنَّ المرسَل إليه أدخلُ في أمر الإرسال؛ لأنَّه عنده يتمُّ الأمر، ثُم المرسِل؛ لأنَّه متعيَّن وهو الباعثُ، وأمّا الرَّسول فبِاختياره، ولولا المرسِل المتعيَّن؛ لَما تمَّت الرِّسالة، وأمّا الرَّسول؛ فلا يَتعَيَّنُ؛ لأنَّ للمَلِك اختيارَ مَن يشاء من عباده، فقال: ﴿مِّنۡهُ﴾، ثُمَّ قال: ﴿نَذِيرٞ﴾؛ تأخيرًا للرَّسول عن المرسِل"(1).

سرُّ التَّعبيرِ بالإنذار مادَّةً وصيغة:

الإنذارُ في قوله تعالى تكليفًا لرسوله ﷺ ليدعوَ به المشركين: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾، يعني: التَّخويف، أي: "أُنذرُكم عقابَه، وأُخوِّفُكم عذابَه الَّذي أحَلَّه بهؤلاء الأممِ الَّذين قصَّ عليكم قَصَصَهم، والَّذي هو مُذيقُهم في الآخرةِ"(2)، و"مُحَذِّر من الهلاك الأبديِّ بالعُقوبة الَّتي لا خلاصَ منها؛ إن فَعَلْتُم ذلك"(3)، وجاء به على صيغة (فعيل)؛ للمُبالغَةِ في التَّعبير عن إنذارِه صلواتُ ربِّي عليه، وهي أبلغُ من صيغة اسم الفاعل (مُنذِر)، ووجهُ المبالغةِ في الإنذارِ: إظهارُه غايةَ الإظهارِ، فهو لا يُقَصِّر في التَّخويف من سوء عاقبة التَّكذيب، ولا يتهاون في النَّصيحة والإرشاد إلى ما يصلح من شؤون المُرسَل إليهم(4).

وتنكير ﴿نَذِيرٞ﴾؛ لتَعْظيم نذارَته، وتهويلها، وإذكاءِ الرَّهبة في نفوس المُرسَلِ إليهم؛ ليُناسب ما تقدَّم من سَرْدٍ لَمصير الأممِ الهالكة من قبلُ.

مِن مُهِمَّة الرَّسول تخويفُ الكفّار مِن إنزال الله تعالى الهلاكَ بهم

نكتةُ تقييد الإنذار بالوصف ﴿مُّبِينٞ﴾ اسمَ فاعلٍ:

في الوصف ﴿مُّبِينٞ﴾ "إشارة إلى ما به تُعرف الرِّسالة؛ لأنَّ كلَّ حادث له سببٌ وعلامة، فالرَّسول هو الَّذي به تتمُّ الرِّسالة، ولا بُدَّ له

الإبانةُ في الإنذارِ دلالةُ صِدْقِ الرَّسول والرِّسالة

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 189.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 549.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 478.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 5/ 445.

من علامةٍ يُعرَف به، فقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ إشارة إليها، وهي إمّا البُرْهانُ أو المُعْجِزة"[1] الّتي "تبيِّنُ للنّاس آياتِ ألوهيَّته ووحدانيَّته، أو ما يقَعُ لهم بِهِ النِّذارة والبِشارة"[2].

وهو ﷺ في ذلك كلِّه "لا يقول شيئًا مِن واضح النَّقل إلّا ودليلهُ ظاهِرٌ مِن صريح العقل"[3]، موضِّحًا إنذاره، مبالغةً في الإعذار؛ بإظهار موجِبات العذاب، ووجه الخَلاص منه[4]، فوصْفُ الإنذارِ بالمبينِ دلالةٌ على أنَّ فضيلةَ الإبانةِ في الإنذارِ أخصُّ صفاتهِ دلالةً على صِدقِ الرَّسول والرِّسالة، وذلك مطلوب لِتحقيقِ مُهِمَّته في الدَّعوة إلى اللّه تعالى.

نكتةُ تقديم جملة ﴿فَفِرُّوٓاْ﴾ على جملة: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ﴾:

التـزمَ القـرآنُ الكـريمُ تقديمَ الأمر على النَّهي في كـلِّ مقـامٍ اجتمعا فيه

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ طلب فِعْل، والنَّهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ﴾ طلب كَفٍّ عن الفعل، و"استمرارٍ على عدم الفعل، فقُدِّم الإيجادُ على العدم"[5]، و"إتيانُ المأموراتِ مقدَّم على ترك المنهيّات، ولهذا التَزَمَ القرآنُ تقديمَ الأمر على النَّهي في كلِّ مقام اجتمعا فيه، فقال تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 110]، وقال سبحانه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [لقمان: 17]"[6].

معنى (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا﴾:

إلحـاقُ الأمـر بـالنَّـهي عن ضدِّه مبالغة في التَّأكيد

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ﴾ عاطفة

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 189.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 392. (بتصرّف).
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 478. (بتصرّف).
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 5/ 231، و9/ 86.
(5) مصيلحي، جامع المسائل والقواعد في علم الأصول والمقاصد: 3/ 6.
(6) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 660.

لهذا النَّهي على الأمر في قوله: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؛ وذلك لِما بينهما مِن التَّوسُّط بين الكمالين؛ لاتِّحاد الجملتينِ في الإنشائيَّة، ولما بينَهما من التَّناسُبِ اللَّفظيِّ والمعنويِّ؛ فأمّا اللَّفْظيُّ فاتِّحادُ المُسْنَدَ إليه فيهما، وهو واو الجماعَةِ، مرادًا بها المشركونَ أو العمومُ، وأمّا التَّناسُبُ المعنويُّ؛ فلاتِّحاد الطَّلَبَينِ - طلب الفعل وطلب الكَفِّ - على تحقيق مصالِحِ العبدِ في دنياهُ وأُخراهُ، بتحقيق التَّوحيدِ ومجانبةِ الشِّرْكِ.

و"جُمِع بين الأمر والنَّهي مبالغةً في التَّأكيد بِنفي الضِّدِّ لإثبات ضدِّه، كقوله: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾ [طه: 79]"[1].

دلالة (لا) في قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ﴾:

أعظم ما يجب أن يُفَرَّ منه الشِّركُ بالله تعالى

(لا) في قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ﴾ ناهيةٌ، وفيها "تنصيصٌ على أعظم ما يَجِب أن يُفَرَّ منه، وهو الشِّرك"[2]، وهو "نهيٌ موجِبٌ للفرار من سبب العِقاب بعد الأمر بالفرار مِن نفسه، كما يُشْعِرُ به قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ﴾، أي: من الجَعْل المنهيِّ عنه ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، وفيه تأكيد لِما قبله من الأمر بالفرار مِن العقاب إليه تعالى، لكن لا بطريقِ التَّكرير بل بالنَّهي عن سببهِ"[3].

دلالةُ التَّعبير بفعل الجَعْلِ مُضارِعًا:

مَن يقبلُ التَّصييرَ والتَّحويل لا يستحقُّ أن يكون إلهًا

في التَّعبير بمادَّة الجعل هنا إشارة إلى أنَّ هذا المجعول إلهًا مِن قِبَل الكافرين لا يستحقُّ الألوهيَّة، ذلك أنَّ معنى الجَعْلِ هنا التَّصييرُ والتَّحويل، والمعنى: فتعبدوه، فمَن يقبل أن يُصيَّر، ويُجعل؛ لا يكون إلهًا.

ويحتمل أنْ يكون معنى الجَعلِ التَّسميةَ، والمعنى: "لا تُسَمّوا مع ألوهيَّة اللّه تعالى لأحدٍ دون اللّه تعالى: ألوهيَّةً، ولا تُسَمّوا دون اللّه:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 20.
(2) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 210.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 143.

إلهًا، أو يقول: لا تعبدوا دون اللّه تعالى إلهًا آخر، أي: معبودًا آخر، فإنَّه لا يستحقُّ دون اللّه أحدٌ للعبادة"[1]، ودلالةُ صوغ الفعلِ المنهيِّ عنه مضارعًا إدامَةُ ذلك النَّهْيِ، بألّا يُجْعَلَ مع اللّه تعالى إلهٌ آخرُ.

معنى ﴿مَعَ﴾ في القيد ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾:

﴿مَعَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ﴾ ظرفٌ للمُصاحبة[2]، بمعنى الشَّريك، أي: لا تشركوا معه غيره في الألوهيَّة ومتعلَّقاتها من توزيع الأرزاق، وتأجيلِ الآجال وغيرهما، ففي الحديث الشَّريف: «أنا أَغْنَى الشُّرَكاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَن عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فيه مَعي غَيْري؛ تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ»[3].

نكتةُ إظهار الاسم الأحسَنِ في قوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ﴾:

الاسمُ الأحسنُ (اللّه) لَم يُشاركه في التَّسمية به أحَدٌ

أُظْهِر الاسمُ الأحسَنُ في قوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ﴾، ولم يُضْمَر "تعيينًا للمراد؛ لأنَّه لَم يشاركه في التَّسمية به أحد، وتنبيهًا على ما له من صفات الكمالِ، وتعميمًا لوجوهِ المَقاصد"[4].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِلَٰهًا﴾، ولطيفةُ تنكيرِه:

كلُّ إلهٍ سوى اللّه تعالى ألوهيَّتُه زائفة، والفرارُ مِنها واجبٌ

التَّعبير بـ ﴿إِلَٰهًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ﴾ يعني "ولا تجعلوا أيُّها النّاسُ، مع مَعْبودِكم الَّذي خَلَقَكم معبودًا آخرَ سِواه، فإنَّه لا معبودَ تصلحُ له العبادةُ غيرُه"[5]، ولطيفة تنكيرِه تقريرُ ضآلة كلِّ إلهٍ مدَّعًى سواه ﷻ، ونُكران ألوهيَّته الزّائفة وجحودها، فهذا ما يجبُ الفرارُ مِنهُ.

دلالةُ وصف ﴿إِلَٰهًا﴾ بـ ﴿ءَاخَرَۖ﴾:

وُصِفَ ﴿إِلَٰهًا﴾ بـ ﴿ءَاخَرَۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 392.
(2) قباوة، المفصّل، ص: 1850.
(3) رواه مسلم في صحيحه، رقم: (2985).
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 477.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 549.

لم يَرِدْ وصفُ ما سوى الله تعالى بإلهٍ (ثانٍ)؛ لأنَّ التَّعدُّد منفيٌّ من أصله

﴿ءَاخَرَۖ﴾، يعني: نفيَ جنسِ الألوهيَّة عن غير اللّه تعالى مِنَ "الأصنام والشَّياطين وكلِّ مدعوٍّ من دون اللّه"[1]، ولم يَرِدْ في القرآن الكريم وصفُ ما سوى اللّه تعالى بإلهٍ (ثانٍ)؛ لأنَّ التَّعدُّد منفيٌّ من أصله، وإنَّما هي الوحدانيَّة الخالصَةُ لصاحِبِها ومستحقِّها جلَّ في عُلاه.

علَّةُ فصلِ قوله: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾:

فُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾، عن قوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ﴾؛ لِما بينهما من اتِّصال معنويٍّ وثيق؛ إذْ إنَّ جملة: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ تعليل للنَّهي[2] السّابق في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ﴾، فاتِّصالهما ذاتيٌّ، لا يُحْتاجُ معَهُ إلى واصلٍ لفظيٍّ.

بلاغة تكرارِ قوله: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾:

لا ينجو عند الله تعالى إلّا الجامعُ بين الاعتقادِ والعمَلِ

كُرِّر قوله: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ في هذه الآية بعد أن خُتِمت بها الآية السّابقة "للتَّوكيد، والإطالةُ في الوعيد أبلَغُ"[3]، وللتَّنبيه "على أنَّه لا تنفع العبادة مع الإشراك؛ إذ حكمُ المشرك حكمُ الجاحدِ المعطِّل.

أو أنَّ المأمور به في الأوَّل الطّاعةُ الموظَّفةُ بعد الإيمان، فتَوَعَّد تاركها بالوعيد المعروف دون الخلود، فيكون وعيدًا مختلفًا لا تكرارًا، فالآية من باب قوله: ﴿۞وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: 36]، بل دلَّ الأوَّل على الأمرِ بالاعتصام بالتَّوحيد، والثّاني على النَّهي عن الإشراك، كقولنا: لا إله إلّا اللّه وحده لا شريك له"[4]، فـ "اتِّصال الأوَّل بالأمر: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾، واتِّصال هذا بالنَّهي: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ﴾، والغرض مِن كلِّ ذلك الحثُّ على التَّوحيد، والمبالغةُ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 182.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 109.
(3) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 379.
(4) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 33. (بتصرّف).

في النَّصيحة"[1]، وفي هذا التَّكرار كذلك "بيانُ أنَّه لا يفوز، ولا ينجو عند اللّه إلّا الجامع بينَهُما[2]، فـ "قد يفِرُّ المرء إلى اللّه، ومعه إلهٌ أو آلهة أخرى يَحْمِلُها في كيانه، ويحتَفِظُ لها بمَكانِها من قَلْبِه، وقد لا يجعل الإنسانُ مع اللّه إلهًا آخر، ولكنْ قد يكون ذلك مجرَّد فكرة حبيسَةٍ في عقله، أو نظريَّة فلسفيَّة تُقيم بناءَ منطقِه الفلسفيِّ، ثُمَّ لا يكون لهذه الفكرة أو تلك النَّظريَّة منطلقٌ نزوعيٌّ أو سلوكيٌّ، يَرِدُ به مواردَ الهدى، ويسلك به مسالك الخيرِ"[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفرار والهروب:

الفِرارُ هَرَبٌ من الـشَّيءِ رهبةً أو إليه رغبةً، والهَرَبُ فرارٌ من الشَّيء رهبةً لا غير

الفرارُ يَحتمِل الهروب مِن الشَّيء، واللُّجوء إلى آخر، ولا يُشْتَرط فيه الخوف، والهرَب يستلزم الخوف، يقال: فرَّ منه، أي: ولّى خائفًا، ومنه: هرَبَ دمُه، أي: اشتدَّ خوفُه[4]؛ كنايةً عن الخوف، "والفرار قد يكون بدون الطَّلب، قال اللّه ﷻ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾، ولم يُرَد به الفرارُ من الطَّلب، وأمّا الهرب؛ فإنَّه لا يكون إلّا عن طلَبٍ"[5]، فالفرار والهروب يجتَمِعان في دلالة الانفلات من مكروهٍ بسَعيٍ نحو النَّجاة، لكنَّ الفرار أبلغُ وأدقُّ، ويدلُّ على قصدٍ في الاتِّجاه، بينما الهروب أعمُّ وأقلُّ ضبطًا في الجهة والمآل، ومن هنا اختير لفظ ﴿فَفِرُّوٓاْ﴾؛ ليناسب سياقَ الآية بأن يكون الفرارُ إلى اللّه تعالى عن قَصْدٍ، وبطلبٍ ورغبةٍ من العبدِ.

---

(1) الآلوسي روح المعاني: 14/ 18.
(2) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 210.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 534.
(4) أحمد المختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (هرب).
(5) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 252.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ٥٣ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ٥٤ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٥﴾ [الذاريات: 52 - 55]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

للدُّعاة إلى الله تعالى أسوةٌ في صبْرِ المرسلين على تكذيبِ أقوامهم

لمّا دعا الرَّسولُ ﷺ مشركي قريشٍ إلى الفِرارِ مِنَ الكفرِ والمعاصي إلى اللّه تعالى، وتَصَلَّبوا على عنادهم؛ واساهُ اللّه تعالى هنا بتذكيره ﷺ بأنَّ له في إخوانه من الرُّسل الصّابرين على تكذيب أقوامهم أسوةً، وأنَّ عناد هؤلاء المشركين ليس بِدْعًا من غيرهم من كفّار الأمم السّابقة، بل كان التَّكذيبُ دَيْدَنَ الكافرين في كلِّ أمَّةٍ ولكلِّ رسول؛ فاصبر يا رسول اللّه، ولا تحزَن، وجِدَّ في تذكيرك ودعوتك إلى اللّه تعالى، غيرَ مُنْشَغِلٍ بتُرَّهاتهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَتَوَاصَوۡاْ﴾: أصلُ (وصي) يدلُّ على وصْلِ شَيءٍ بشيءٍ، ومنه سُمّيَت الوصيَّةُ وصيَّةً؛ لأنَّها وصْلٌ لِما كان في الحَياةِ بعد المَوْتِ[1]، والوَصيَّة: ما أوصَيْتَ بِه، يُقالُ: أَوْصى يوصي إيصاءً، ووَصَّى يوصي تَوْصيَةً؛ إذا عَهِدَ إليه، وأوصَيْتُ إليه بمالٍ: جَعَلْتُهُ له، والوِصايةُ: فعلُ الوَصيِّ، والجَمعُ: وصايا[2]، والمرادُ بقوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ﴾: أأوصى بَعضُهم بعضًا بهذه المقالةِ، وتواطَؤوا عليها؟.

2) ﴿طَاغُونَ﴾: أصلُ (طغى) يدلُّ على مُجاوَزَةِ الحَدِّ في العِصْيانِ[3]، يُقالُ: طَغَى السَّيلُ؛ إذا جاءَ بماءٍ كثيرٍ يَتَجاوَزُ حدَّ ما

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (وصى).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (وصى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طغى).

كانَ يجْري عليه، وطَغَى البحرُ؛ إذا هاجَت أمواجُه[1]، والطُّغيانُ: تَجاوُزُ الحَدِّ في التَّعاظُمِ والظُّلْمِ والكُفْرِ[2]، والطّاغوتُ عبارةٌ عن كُلِّ مُتَعَدٍّ، وكُلِّ مَعبودٍ مِن دونِ اللّه تعالى[3]، وقومٌ طاغونَ: مُتجاوزونَ حُدودَ اللّه بالعصيان.

3) ﴿بِمَلُومٍ﴾: أصلُ (لوم) يدُلُّ على العَتبِ والعَذْلِ، فاللَّوْمُ: العَذْلُ[4]، والتَّلاوُمُ: أن يلوم بعضُهم بعضًا، قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠﴾ [القلم: 30][5]، واللّائِمَةُ: الأمر الَّذي يُلامُ عليه الإنسان، والمرادُ بالمَلومِ في الآيةِ: الَّذي يُنكَرُ عليهِ ما فَعَلَه، أي: ليس عليك في الإعراض عنهم بعدَ بَذْلِ الوُسْعِ والجهد في الدَّعوة ملامةٌ ولا عِتابٌ.

4) ﴿ٱلذِّكْرَىٰ﴾: أصل (ذكر) الحِفْظُ الَّذي تَذْكُرُه، وهو خلافُ النِّسيان[6]، ثُمَّ حُمِلَ عليه الذِّكْرُ باللِّسانِ، فالذِّكْرُ: ما ذَكَرْتَهُ بِلِسانِكَ وأظهرته، والذُّكْرُ - بضَمِّ الذّال - بالقَلْبِ، يُقالُ: ما زالَ مِنّي عَلى ذُكْرٍ، أي: لَم أنْسَه، والذِّكْرُ والذِّكْرى - بالكسر -: خلافُ النِّسْيانِ، وكذلك الذُّكْرَةُ[7]، والاستذكارُ: الدِّراسة للحِفْظِ، والتَّذَكُّر: طَلَبُ ما قد فاتَ[8]، والمُرادُ بالذِّكرى هنا: الموعِظَةُ، أي: دُم على التَّذكير والموعظة[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

كما يكذِّبك كفّارُ قومِكَ - يا أيُّها الرَّسولُ الكريمُ - كذَّب كلَّ رسولٍ كفّارُ قومه، فما أتى رسولٌ قطُّ قومًا يدعوهم إلى توحيد اللّه تعالى وعبادته إلّا اتَّهمه قومُه بالسِّحر والجنون؛ اتَّهموه بالسِّحر لِمعجزاته الخارقة للعادَةِ بدلًا من أن تحتَضِنَ عقولُهم أنوارَها، واتَّهموهُ بالجنون لجُرأته على تسفيهِ معبوداتهم الزّائفة بدلًا من أن يَغْتَنِموا ذلك النّور للخروج مِن ظُلمات أرواحهم.

---

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة: (طغي).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 314.

(3) الراغب، المفردات: (طغي).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لوم).

(5) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (لوم).

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).

(7) الجوهري، الصحاح: (ذكر).

(8) الخليل، العين: (ذكر).

(9) المراغي، تفسير المراغي: 27/ 11.

الطُّغيانُ إذا تَوطَّن النُّفوسَ؛ قادها إلى ارتكابِ جريمةِ أمثالِها

وممّا تَعجَّب له متسائلًا: أكان سببُ تواطؤ كفّار الأمم جميعًا على تكذيب الرُّسل، وعلى اتِّهامهم بالسِّحر والجنون، أن أوصَت أسلافُهم أخلافَهم بذلك التَّكذيب والاتِّهام؟.

ذلك التَّواصي لم يَحْصُل؛ لأنَّهم أُمَمٌ شتَّى وأزمانهم متباعدة، فلم يَلْتَقِ بعضُهم بعضًا قطُّ، وإنَّما هو الطُّغيان الَّذي إذا تَوطَّن نفوسًا خبيثةً؛ قادَها إلى الجريمةِ نفسِها، فوقَع الحافرُ مِنهُم على الحافرِ.

فما دام الأمرُ كذلك يا رسول اللّه؛ فلا تَكتَرِثْ لهم، ولا تحزَن عليهم، وأعرِض عن مجادلتهم واستنفاذِ طاقتك في إقناعهم، واستمرَّ في دعوتك إلى اللّه تعالى، وذكِّرْ بها المؤمنين والقابلين للهداية والإيمان ممَّن قدَّر اللّه تعالى لهم التَّوفيق، فإنَّ التَّذكيرَ يَمُدُّهم بالزّاد الرّوحيِّ المُعين على التَّقوى، المحصِّن من الشَّرِّ وأهله.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فَصْل قوله: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى﴾ عمّا قبله:

في البناء على القطع والاستئناف تنبيهٌ إلى العناية بالغرض المقصود

فُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ﴾، عن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥١﴾ [الذاريات: 51]؛ لكونه استئنافًا؛ وذلك لِما في البناء على القَطْعِ والاستئناف هنا من التَّنبيه إلى العناية والاهتمام بشأنِه ﷺ؛ إذ إنَّ قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى﴾ "تسليةٌ لِرسول اللّه ﷺ ببَيان أنَّ هذا شأنُ الأمم المتقدِّمة، وأنَّ ما وقع مِن العرَبِ من التَّكذيب لرسول اللّه، ووصْفِه بالسِّحر والجنون قد كان مِمَّن قبلهم لِرُسُلهم"(1).

وجهُ التَّعبير باسم الإشارة (ذلك):

الإشارةُ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾ ترجع إلى ما يُعانيه الرَّسول ﷺ من طُغيان مُشْركي مكَّة، مِن

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 109.

في صبر الرَّسول ﷺ على طُغيانِ الكُفّار ائتساءٌ بإخوانه الرُّسل وأسوة للدُّعاة من بعدِه

تكذيبهم إيّاهُ، ونعتِهم له بالسّاحر والمجنون، وهذا المشار إليه في الذِّهن على الإبهام، وهو (الأمر)؛ لِمجيء تفسيرِه، وهو قوله: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾[1].

و"كلمة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فصْلُ خطابٍ تدلُّ على انتهاء حديثٍ والشُّروعِ في غيره، أو الرُّجوعِ إلى حديثٍ قبلَه أتى عليه الحديثُ الأخير، والتَّقدير: الأمر كذلك، والإشارة - على ذلك - إلى ما مَضى من الحديثِ"[2].

بلاغةُ التَّشبيه في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى﴾:

في تذكير المُبْتَلى بـصـبْرِ أقرانه على مِثْلِ ابتلائه مواساةٌ وتقويةٌ له

في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ تشبيه؛ لبيان حالِ عنادِ كفّار قريشٍ وطُغيانهم، بحال عنادِ مكذّبي الرُّسُل وطغيانِهم، و"المعنى: أنَّ حال هؤلاء كحالِ الَّذين سبقوهم - ممَّن كانوا مشركين - أن يَصِفوا الرَّسول ﷺ بأنَّه ساحِرٌ، أو مجنون، فكذلك سيجيب هؤلاء عن قولك: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ﴾ [الذاريات: 50 - 51] بِمثل جواب مَن قبلهم، فلا مَطْمَعَ في ارعِوائِهم عن عِنادِهم"[3].

وفي التَّشبيه بصيغة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تقريرٌ للحكم وتوكيدٌ بتشابُه حالِ الكفّار في كلِّ جيلٍ وقَبيل؛ لِما فيه من فَصْلِ الخِطاب، و"في هذا عزاءٌ للنَّبيِّ ﷺ، ووعيد المشركين بأن يَلقَوا المصيرَ الَّذي لَقيَهُ المكذِّبون برُسُلِ الله مِن قَبْلِهم"[4].

موقعُ قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ من التَّركيب:

من فضيلة الفَصْلِ قوَّة التَّنبيه إلى المعنى المرادِ

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ "في محلِّ رفعٍ على أنَّه خبر محذوف، أي: الأمر كذلك، ثمَّ فَسَّر ما أجمله بقوله: ﴿مَآ أَتَى﴾ الآية، أو ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في محلِّ نصبٍ نعتًا لِمصدرٍ محذوف، أي: أنذركم إنذارًا كإنذار مَن

(1) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 35.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 20.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 21.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 535.

تقدَّمني من الرُّسل الَّذين أنْذَروا قومَهم، والأوَّل أوْلى"[1]، "أي: الأمرُ والشَّأن والقصَّة كذلك"[2]؛ لِما في الفصل من قوَّة التَّنبيه.

علَّةُ فصل قوله: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ﴾ عمّا قبلَهُ:

السّياقُ المحتضِنُ المفسِّرَ والمفسَّر موصولٌ بِوَشائِجَ ذاتيَّة دون عواملَ لفظيَّة خارجيَّة

فُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ﴾؛ لأنَّهُ جملة تفسيريَّة لجملة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ قبله، والمفسِّرُ عينُ المفسَّر، فلا يُعْطَفُ عليه؛ إذِ العَطْفُ يُفيد المغايرةَ بين المتعاطفَيْنِ - في الأصل - ولا مغايرةَ هنا، فالسّياق موصولٌ وثيقٌ بوَشائِجَ ذاتيَّةٍ دون عواملَ لفظيَّةٍ خارجيَّة.

معنى ﴿مَآ﴾ وعلَّة إيثارِها على (لم):

أداةُ النَّفي تُهيِّئُ لبناء جملة القَصْر مع أداة الاستثناءِ

﴿مَآ﴾ في قوله: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ نافيةٌ نفيًا عامًّا إتيانَ الرُّسل أقوامَهم إلّا على حالٍ واحدَةٍ، فهي لتَهْيِئَةِ بناءِ القَصْر على تلك الحالِ الواحدة، حالِ مُقابلَةِ الأقوام رُسُلهم بالتَّكذيب والطُّغيان.

وأوثِر التَّعبير هنا بـ ﴿مَآ﴾ دون (لم)؛ "ليُؤْذِنَ بانفصال ما صدَّر بها على ما قبله واتِّصاله بقوله: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ۝٣٩﴾ [الذاريات: 38 - 39] إلى آخر القصص.

فلمّا وسَّط بينَهما الحديث في بيان الآياتِ الدّالَّة على التَّوحيد، ونفي الشِّرك والفِرار إلى اللّه تعالى عمّا سواه؛ جيء بقوله الآمر ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فصلًا للخطاب؛ ليتخلَّص منه إلى ما سبَق له الكلام، ولو أتى بـ (لم)؛ لاختلَّ النَّظم"[3].

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 109.

(2) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 210.

(3) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 35 - 36.

الرُّسلُ عليهم السلام لم يُكَلِّفوا أقوامَهم ما لا يُطيقونَهُ

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الإتيان دون المجيء:

في إيثار النَّظم الكريم التَّعبيرَ بالإتيان في جملة: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ تنبيهٌ على أنَّ الرُّسل عليهم السلام لم يكلِّفوا أقوامَهُم شيئًا مرهِقًا؛ وذلك لأنَّ "الإتيانَ مجيءٌ بسهولة"[1]، هذا في الجانب المعنويِّ، وفي الجانب اللَّفظيِّ "(جاء) و(أتى) يستويان في الماضي، و(يأتي) أخفُّ من (يجيء) في المضارع، وكذا في الأمر (جيئوا بمثله) أثقلُ مِن (فأتوا بمثله)، ولم يَذكر اللّٰه تعالى إلّا ﴿يَأۡتِيَ﴾ [البقرة: 254] و﴿يَأۡتُونَ﴾ [التوبة: 54]، وفي الأمر ﴿فَأۡتِ﴾ [البقرة: 258]، ﴿فَأۡتِنَا﴾ [الأعراف: 70]، ﴿فَأۡتُواْ﴾ [البقرة: 23]؛ لأنَّ إسكان الهمزة ثقيلٌ لتحريكِ حروف المدِّ واللّين، تقول: (جِئْ) أثقلُ من (ائْتِ)"[2].

علّةُ التَّعبير بالموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾:

المقصود بـ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾ "قومُ فرعون، وعادٌ، وثمودُ، وقومُ نوحٍ عليه السلام"[3]، وفي التَّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ تَحاشي ذِكْرِهم بوصف الكُفر - كما لو قيل في غيرِ القرآن الكريم: (كذلك ما أتى الكافرين) - وإهمالٌ لشأنِهم تعريضًا بما سَيَكونُ بالنِّسبة لكفّار قريش، وتقريرٌ لِتَقَدُّم زمانهم، فذلك يَدْعم مواساةَ الرَّسول صلى الله عليه وسلم بِسَبْقِ أحداثٍ مشابهة وقعَت بالفِعْل.

معنى ﴿مِن﴾، ودلالة التَّعبير بالقَبْليَّة:

الطُّغاةُ يتوالدون فكرًا وسلوكًا، ويتتابعون على المنهجِ ذاتِه ما دامت الدُّنيا

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾؛ لابتداء الغاية الزَّمانيَّة[4]، فالكلام على الزَّمن السّابق لبعثةِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم.

وإثبات الجارِّ ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قَبۡلِهِم﴾ إيماءٌ إلى عدم

(1) الراغب، المفردات، ص: 60.

(2) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 80.

(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 550.

(4) قباوة، المفصّل، ص: 1850.

استغراق الزَّمن الماضي، بل كان ذلك في بعضه، فإنَّ الرُّسُلَ لمّا "كان إرسالهم في بعض الأزمان الماضية، ولم يستغرقوا جميعَها بالفعل"[1]، أُدخِل حرف الجرِّ ﴿مِن﴾؛ لإفادة ذلك.

وفي ﴿مِن﴾ أيضًا معنى التَّوكيدِ والتَّقويةِ، كما هو الغالبُ عليها عِنْدَ دخولها على (قبل) و(بعدُ).

وفي التَّعبير بالقبليَّة في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ تَطْييبٌ لخاطره - صلّى اللّه تعالى عليه وسلَّم - وتسليةٌ له؛ ببيان أنَّ هذا شأن الأمم المتقدِّمة، وأنَّ ما وقع من العرَبِ مِن التَّكذيب لرَسولِ اللّه ﷺ ووصفه بالسِّحر والجنون قد كان ممَّن قبلهم لرُسُلِهم[2]، وأنَّ الطُّغاة الأشرار يتوالَدون فكرًا وسلوكًا، ويتَتابَعون على المنهَجِ ذاته، فهَؤُلاء خَلَفٌ لأولئك السَّلف الأشرار في الطُّغيان ومضادَّةِ الحقِّ وأهله، ولن يَنقَطِعَ مِنهُم الزَّمان ما دامت هذه الدُّنيا.

بيانُ مرجعِ الضَّمير المضاف إليه في ﴿قَبْلِهِم﴾:

مقامُ المواساةِ للنَّبيِّ ﷺ اقتَضى تخصيصَ كفّار قريش بالذِّكر

الضَّمير المضاف إليه في ﴿قَبْلِهِم﴾ يرجع إلى كفّار قريشٍ، قوم الرَّسول ﷺ لأنَّ المقام لمواساته ﷺ بسبب ما لَقيَ مِنهم مِن طغيانٍ، وسوءِ أدبٍ إزاءَه وإزاءَ دعوتِه الشَّريفة إلى التَّوحيد الخالصِ.

بلاغةُ النَّفي والاستثناء في قوله: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ﴾:

التُّهمة الأكثر دورانًا على ألسِنَة الكفّار للرُّسُل الكرام عليهم السلام السِّحر والجنون

في قوله تعالى: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ قَصْرٌ اصطلاحيٌّ، والنَّفيُ فيه مبنيٌّ على المبالغة، وذلك بإطلاقِ الحُكم فيه بحسب الأغلبيَّة؛ إذ إنَّ من الأمم مَن قد آمنت برُسُلها، ومنهم مَن قال "أقوالًا غيرَ ذلك وأحوالًا أخرى، وإنَّما

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 288.
(2) القنّوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 210.

قُصِروا على هذا؛ اهتمامًا بذِكْرِ هذه الحالةِ العجيبة من البُهتان؛ إذ يَرْمون أعقلَ النّاس بالجنون، وأقومَهم بالسِّحر"[1].

غرضُ تقديم المفعول على الفاعل في قوله: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾:

من منهج النَّظم القرآنيِّ الكريم تقديمُ ما يُعالج المقامَ، ويُؤدّي الغَرَض

في تقديم المفعول ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾ على الفاعل ﴿رَّسُولٍ﴾ في قول الله تعالى: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ تركيزٌ على بيان جريمة المفعول - وهم الكفّار ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾، أي: من قبل قريش - لأنَّ مقام مواساة الرَّسول ﷺ يقتضي بيانَ ما لقي الرُّسُل الكرامُ قبلَه من ظلم أقوامهم وطغيانهم، لا ما أدّاه الرُّسل الكرام من تبليغ رسالاتِهم، فقُدِّم ما يعالج المقصود، وهذا من منهجِ النَّظم القرآنيِّ في تحقيق البلاغة القرآنيَّة الدَّقيقة.

معنى ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾:

﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ صلةٌ يُرادُ بها توكيدُ العموم والتَّنصيصُ عليه، وأصل التَّركيب: ما أتى الَّذين من قبلهم رسولٌ... فجيءَ بـ ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾، وإيرادُها ضرورةٌ؛ "للتَّنصيص على إرادة العموم، أي: إنَّ كلَّ رسول قال فيه فريقٌ من قومه: هو ساحرٌ أو مجنونٌ، أي: قال بعضهم: ساحر، وقال بعضهم: مجنون، وهذا العموم يفيد أنَّه لم يخلُ قومٌ من الأقوام المذكورين، إلّا قالوا لرَسولِهم أحدَ القولين، وما حُكيَ ذلك عن بعضهم في آيات أخرى: بلفظِه أو بمرادفه، كقول قوم هود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ﴾ [هود: 54]"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿رَّسُولٍ﴾، ولطيفةُ تنكيره:

الرَّسولُ أخصُّ من النَّبيِّ، والنَّبيُّ مَن تابع رسولًا في الدَّعوة إلى دينه

في التَّعبير بـ ﴿رَّسُولٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ استثناءُ مَن لم يُكَذَّب من الأنبياء، مثل آدمَ عليه السلام، فإنَّه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 22.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 21.

أُرسِل، ولم يُكذَّب، والرَّسول قرينُ الرِّسالة، وذلك أنسَبُ للفِعْلِ ﴿أَتَى﴾ وللتَّكذيب، والوصفِ بالسِّحر والجنون، والمتبادِر من إتيان الرَّسول قومًا مجيئُهُ إيّاهم مع عدم تبليغ غيرِهِ إيّاهم ما أتى به مِن قبله[1].

وتنكيره يفيدُ العمومَ؛ لكونه نكرةً في سياق النَّفْي، فلم ينجُ رسولٌ بُعِثَ إلى الأمم السّابقة من هذين الوَصفَين، فهي سنَّة ماضيةٌ فيهم؛ لتَشابُه أفعالِهم، ومواقفهم، وقد يُفيد تنكيرُ لفظِ ﴿رَّسُولٍ﴾ التَّهويل، أي: ما جاءَهُم مِن رسول مهما عَظُمَ شأنه إلّا وصفوهُ بالسِّحر والجنون.

معنى ﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾:

الاستثناءُ واقِعٌ مِن أحوالٍ محذوفَةٍ

﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ استثنائيَّة، تُثبِت الحُكم المنفيَّ عمَّن قبلها لِما بعدها، "والاستثناء في ﴿إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ﴾ استثناءٌ من أحوال محذوفةٍ، والمعنى: ما أتى الَّذين من قبلهم من رسولٍ في حالٍ من أحوالِ أقوالِهم إلّا في حالِ قولِهم: ساحرٌ أو مجنون"[2]، وبـ ﴿إِلَّا﴾ ومدخولِها يتمُّ حصرُ الحُكم المقصود.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ القول ماضيًا في قوله: ﴿قَالُواْ سَاحِرٌ﴾:

للتُّهَم الكاذبة خطورةٌ شديدةٌ، فعِقابُها شديدٌ

في التَّعبير بفعلِ القول ماضيًا صريحًا في قوله: ﴿قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ تأكيدٌ لجريمة الطُّغاة؛ إذ يتجاوزون بطُغْيانِهم أنفسَهم في تشويه الصّالحين، وتثبيط دعوتهم إلى تحريضِ غيرهم، وتَجْريئِهم عليهم، فخطورةُ الكلمةِ الكاذبةِ وعقابِها شديدٌ[3].

دلالةُ إسناد القول إلى ضمير الجماعة:

نسبة الأمور إلى الأقوام والقبائل تجري على اعتبار الغالب

وَجْهُ إسناد فِعل القول إلى ضمير الجماعة في قول الله تعالى: ﴿إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ أنَّه على إرادة الكثيرِ بل الأكثر، وذُكِر

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 19.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 21.

(3) قد وردت في ذلك أحاديثُ شريفة، منها ما رواه البخاري في صحيحه، رقم: (7047): «وأمّا الرَّجُلُ الّذِي أتيت عليهِ، يُشرشرُ شِدقُهُ إلى قفاهُ، ومنخِرُهُ إلى قفاهُ، وعينُهُ إلى قفاهُ، فإنّهُ الرّجُلُ يغدُو من بيتِهِ، فيكذِبُ الكذبة تبلُغُ الآفاقَ» وهو جزءٌ من حديث طويل.

المكذِّب فقط؛ لأنَّه الأوفق بغَرَضِ التَّسلية، وإلّا فإنَّ كلَّ رسول كَذَّبَ به بعضٌ مِن قومه، وصدَّق به آخرون[1].

نكتةُ التَّعبير بـ ﴿سَاحِرٌ﴾، و﴿مَجْنُونٌ﴾، ولطيفة تنكيرِهما:

قد يُتَّهم بالسِّحر مَن أتى بما عَجز النّاس عنه، وبالجنون مَن تجرَّأ على الخروجِ على الطُّغاة

السِّحرُ كلُّ أمرٍ يَخفى سَببُه، ويُتَخَيَّلُ على غير حَقيقَته، ويجْري مجْرى التَّمويه والخداع، وكذا كلُّ ما لطف مأخذُه، ودقَّ، وما كان من الشَّيطان فيه مَعونة[2]، والسّاحر - في عُرْفِهم - هو الَّذي بلَغَ في العلم غايته، والمجنونُ هو الَّذي بلغ في الجهل غايته، وقد نَسَبوهُم إلى السِّحر لِما أتى لهم من الآيات ما عَجز النّاس عن إتيان مثلها، وقد عَرف رؤساؤُهم وأئمَّتهم أنَّها آياتٌ، لكن قالوا: إنَّها سحر على إرادة التَّلبيس على الأتباع والعامَّة؛ لِما عند النّاس أنَّه ليس كلُّ أحدٍ يقدر على إتيانِ السِّحر، فقالوا للرُّسل: إنَّهم سحرَةٌ لهذا، وإنَّما نَسَبوهُم إلى الجنونِ لمّا أنَّهم خالفوا الفراعنَة والأكابر، الَّذين كانت هِمَّتُهم القتلَ وإهلاك مَن خالفهم في المذهبِ والأمر[3].

وفي تنكير ﴿سَاحِرٌ﴾ و﴿مَجْنُونٌ﴾ إيهامٌ من الكافرين بخطورة الرَّسول الَّذي يتَّهمونه بتلك التُّهمة، والإيحاءُ بأنَّه مِن صنفِ خطير من السَّحرة والمجانين، فيجِبُ الحذَرُ منه، بل هو جديرٌ بالحَبْسِ والتَّحْجيم.

معنى ﴿أَوْ﴾ في قولهم: ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾:

الطُّغاة ينوِّعون تُهَمَهم للدُّعاةِ؛ تشتيتًا لأذهان العامَّة عن البصَرِ بالحقيقة

﴿أَوْ﴾ في قولهم: ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ للتَّفصيل، أي: قال بعضُ الكافرين في حقِّ الرُّسل: هو ساحر، وقال بعضهم: هو مجنون، وقال بعضهم: هو ساحر ومجنون، فجُمِعَ القائلون في الضَّمير[4]، وتكون ﴿أَوْ﴾ بمعنى (الواو).

وتدلُّ ﴿أَوْ﴾ كذلك على التَّنويع، أي: تنويع التُّهم وتكثيرها، وإلّا

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 19.
(2) الخليل، العين، ومجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (سحر).
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 392.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 19.

لعُطِف بالواو، فقيل: ساحر ومجنون، وفي ذلك التَّنويع تشتيت لأذهان العامَّة عن تركيز التَّحقيق في تُهمةٍ واحدة، وذلك يُحَقِّق للطُّغاة مأرَبَهُم الخبيثَ.

نكتةُ تقديم تهمةِ السِّحر على تهمةِ الجنون:

الطُّغاة يبادرون بتوجيه التُّهَم الَّتي يتأتّى تَصديقُها في الدُّعاة المُصْلِحين

يُقدِّم الطُّغاةُ تُهمة الرُّسُل ﷺ بالسِّحر على تهمتهم إيّاهم بالجنون؛ لأنَّ غرابة معجزاتِهم الخارقة أقربُ إلى إبداع السَّحرة منها إلى تخليط المجانين - وحاشا الرُّسُلَ من ذلك كُلِّه - فيبادر الطُّغاة بتوجيهِ العُقول إلى ما يُمكِن تصديقُه في الرُّسل ﷺ مِن وصفهم ببراعَةِ السِّحر.

حكمَةُ الجَمعِ بين الوصفين:

يصفُ المُعْرِضون الإتيانَ بالمعجزاتِ الباهرة بأنَّه سحرٌ، وعدمَ الاكتراث بالجمِّ الغفير بكونه جنونًا

جُمِعَ بين وصفَي السِّحر والجنون، في قوله: ﴿إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾؛ لأنَّ إتيانَه بالمعجزات الَّتي بهَرَت عقولَهم، اقتَضَت تسميتَهُ ساحِرًا - بحسب زعمهم - وخروجَهُ عن عوائِدِهم وعَمّا عليه آباؤُهم، وعدم مبالاتهِ بالجمِّ الغفير؛ اقتضى تسميتَهُ مجنونًا[1].

علَّةُ فصل قوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ﴾ عمّا قبله:

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ﴾، عن قوله تعالى: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ لاختلاف الأسلوبَين؛ إذِ الأوَّل إخبارٌ، والثّاني استفهام إنشائيٌّ، ولا يتعاطفان غالبًا، فيكون بين الجملتينِ كمالُ الانقطاعِ.

أثَرُ الاستئنافِ البيانيِّ في مُتابَعَة شَوْقِ المتلقّي

ويجوزُ أن يكونَ بين الجملتين شبهُ كمال الاتِّصال؛ إذا حُمِلَ قوله: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ﴾ على أنَّه "استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ تماثُلَ هؤلاء الأمم في مَقالة التَّكذيب يُثير سؤال سائلٍ عن منشأ هذا التَّشابه"[2]، فجاء الجواب في قوله: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ﴾.

---

(1) الصاوي، حاشية على تفسير الجلالين ص: 1857.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 22.

غرضُ الاستفهام في جملة: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ﴾:

تشابُهُ أحوال الطُّغاة في كلِّ العصور يُثير العَجب، ويحمِلُ على السُّؤالِ عن سببه

الاستفهام في جملة: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ﴾ للتَّعجيب مِن تواطؤ أغلبِ الكفّار في كلِّ أمَّة على تُهمةٍ بعينها لأنبيائهم، وهي تهمة السِّحر والجنون، والمعنى: كيف أجمعوا على تلك التُّهَمة، وهم لم يَلْتَقوا قطُّ؟ "أي: عجبًا لهم في جَرْيِهم على التَّكذيب والفساد في مضمارٍ واحد"[1]، وجاء إنكار تُهَمِهم تلك "على طريقة التَّشبيه البليغ، أي: كأنَّهم أوصى بعضُهم بعضًا بأن يقولوه، فالاستفهام هنا كنايةٌ عَن لازمه، وهو التَّعجيب؛ لأنَّ شأن الأمر العجيبِ أن يُسأل عنه"[2].

وفي الاستفهامِ مَعْنى التَّقريعِ والتَّوبيخ أيضًا، "أي: هل أوصى أوَّلُهم آخرهم بالتَّكذيب، وتواطؤوا عليه"[3]، حتّى قالوه جميعًا مُتَّفقين عليه؟.

ويجوزُ أن يكون الاستفهامُ هنا "للنَّفي، أي: ما وقع منهم وصيَّةٌ بذلك؛ لأنَّهم لم يَتَلاقوا في زمان واحدٍ"[4].

دلالةُ التَّعبير بفعل التَّواصي ماضيًا:

حرص الطُّغاة في كلِّ جيل على اتِّهام الدُّعاة، يأخُذ صِفَةَ الوَصيَّة من عزيزٍ

في التَّعبير بفعل التَّواصي في قوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ﴾ تساؤلٌ عن سبب استمساكِ الكفّار الطُّغاة بتلك التُّهَم لرُسُلهم ﷺ، وإلماحٌ إلى قوَّة حرصِهم عليها، كأنَّها وصيَّةٌ غاليةٌ مِن عزيز، فلا يفرِّطون في تنفيذِها أبدًا مهما كلَّف ذلك، وفي التَّعبير بالتَّواصي أيضًا بيانُ أنَّ "هذا دأبُهم وعادَتُهم حتّى كأنَّهم تعاهَدوا عليه، وألقاهُ بعضُهم إلى بعضٍ"[5].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 450.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 22.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 110.
(4) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 210.
(5) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 449.

بيانُ مرجِع ضميرِ الفاعل في قوله: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ﴾:

اجتماعُ الأوّلين والآخرين مِنَ الكُفّار على ضربٍ واحدٍ مِنَ الباطِل

ضمير الفاعل في قوله: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ﴾ يجمعُ الآخرين من كفّارِ قُرَيش والأوّلين مِن مكذّبي الرُّسُل في الأمم السّابقة، فـ "أوصَى أولاهم أُخْراهم بالتَّكذيبِ؟ أي: كأنَّ الأوَّلَ قد أوصَى الآخِرَ بالتَّكذيبِ"[1].

معنى (الباء) في القيد ﴿بِهِۦۚ﴾:

تَشابُهُ القلوب يُثْمِر تَشابُهَ الأفعالِ والأقوالِ والسُّلوك

(الباء) في القيد ﴿بِهِۦ﴾ من قوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ﴾ للتَّعدية، والمعنى: أتَواصَوهُ جميعًا؟ وتَناقَلوه كلُّهم، واتَّخذوه ذريعةً لِرفض الرِّسالات؟ والباءُ تُشير إلى قوَّة الاحتشاد، وشدَّة التَّأهُّب والتَّوحُّد والتَّآزُر على رَمي النَّبيِّ ﷺ بالسِّحر والجنون، ففيها أنَّهم "تشابهت قلوبُهم وأعمالهم بالكُفْر والطُّغيان، فتشابهت أقوالُهم النّاشئة عن طُغْيانهم؟ وهذا هو الواقع، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [البقرة: 118].

وكذلك المؤمنون، لمّا تشابهت قلوبُهم بالإذعانِ للحقِّ وطلبه، والسَّعي فيه؛ بادَروا إلى الإيمانِ بِرُسُلِهم وتعظيمِهم، وتوقيرِهم، وخطابِهم بالخطابِ اللّائق بهم"[2].

بيانُ مرجِع الضَّمير في القيد ﴿بِهِۦۚ﴾:

دحْضُ كلِّ باطلٍ بعدم تَكراره وإشاعتِهِ، ولو على سبيل النَّفي والإنكارِ، منهَجٌ قرآنيٌّ

الضَّمير المجرور في قوله: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ﴾ يعود إلى قولهم الآثِم في كلِّ رسول أتاهم: ساحر أو مجنون، "يعني: أتَواصى الأوَّلون والآخرون بهذا القول حتّى قالوه جميعًا مُتَّفقين عليه"[3]، وفي طيِّ هذا القولِ - ساحر أو مجنون - وعدمِ الإفصاحِ به ثانيةً دعوةٌ إلى إزهاقِ كلِّ باطلٍ بعدم تَكراره وإشاعته، ولو على سبيل النَّفي والإنكار؛ تطهيرًا لساحة الرُّسُل عليهم السلام من كلِّ شائبة.

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 550.

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 812.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 405.

معنى ﴿بَلْ﴾ في قوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾:

نـفوسُ الكفّار نكِدة، وطباعهُم لئيمة؛ تُفرزُ مِن ذاتها الضَّلال الَّذي يُغرِقها

﴿بَلْ﴾ في قوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ حرفٌ دالٌّ على الإضراب، وهو يُفيد الرُّجوع عن الحُكْم السّابق، والمعنى: "ما أوصَى أوَّلُ هؤلاء المشركين آخرَهم بذلك، ولكنَّهم قومٌ طغاةٌ متعَدّون عن أمرِ ربِّهم، لا يأتَمِرون لأمرِه، ولا ينتَهون عمّا نَهاهم عنه"(1)، و"لم يتَواصوا به؛ لأنَّهم لم يتلاقوا في زمانٍ واحد، بل جَمَعَتهُم العِلَّة الواحدةُ، وهي الطُّغيان"(2)، و"النُّفوس النَّكِدة والطِّباع اللَّئيمة تُفرز من ذاتها هذا الضَّلال الَّذي يُغرِقها، ويُغْرِق مَن يأخذ طريقه معه"(3)، والطُّغيان: مجاوزة الحدِّ في الكفر(4).

نكتةُ بناءِ الجملة على تقديمِ الضَّمير ﴿هُمْ﴾:

أفظع صور الطُّغيان مواطأةُ الكفّار على اتِّهام الرُّسل زورًا وبُهتانًا

بَنَى النَّظمُ الكريم قوله تعالى: ﴿هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ على تقديم الضَّمير ﴿هُمْ﴾؛ تقريرًا لِصفة الطُّغيان في هذا الصِّنف المتوالد من الكفّار الطُّغاة إزاءَ رُسُلهم، وكأنَّهم هم وحدَهُم الطُّغاة كامِلو الطُّغيان، وكأنَّ الطُّغيان قد قُصِر عليهم، ولم يتَّصِف به أحدٌ سِواهُم، وذلك كنايةٌ عَن بشاعَةِ جُرم المتصدّين للرُّسُل ﷺ المناوِئين لهم، والمتجرِّئين على اتِّهامهم بالتُّهم الكاذبة.

نكتةُ إقحام كلمة ﴿قَوْمٌ﴾ دون الإخبارِ مباشرة بـ ﴿طَاغُونَ﴾:

الطُّغيان قِوامُ قوميَّة الطُّغاةِ، ومجمعُ شَملِهم، ورَمزُ رابطَتِهم

الخبر في جملة: ﴿هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ هو ﴿طَاغُونَ﴾، والتَّقدير: بل هم طاغون، لكنَّ النَّظم الكريم أدخَلَ ﴿قَوْمٌ﴾، وجعله الخبَر، وجعل ﴿طَاغُونَ﴾ صفتَه، ووراءَ ذلك التَّصرُّف التَّركيبيِّ لطيفةٌ دقيقة، بيَّنها ابنُ عاشور بقوله: "وفي إقحام كلمة ﴿قَوْمٌ﴾ إيذانٌ بأنَّ الطُّغيان راسخٌ في نفوسِهم، بحيثُ يكون من مُقوِّمات قوميَّتهم، كما في قوله

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 551.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 405.

(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 535.

(4) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 210.

تعالى: ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة: 164] في سورة البقرة"[1]، أي: إنَّهم تواطَؤوا على الطُّغيان حتّى صار قِوامَ قوميَّتِهم، ومجمعَ شَملِهم، ورمزَ رابِطَتِهم.

سرُّ التَّعبير بلفظ ﴿طَاغُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

أرجع اللّه تعالى تَواطُؤَ الكفّار على اتِّهام الرُّسُل عليهم السلام بتهمة السِّحر أو الجنون في قوله: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ إلى طُغْيانِهم، و"الطّاغي: المُستَعْلي في الأرض، المفسدُ العاتي على اللّه تعالى"[2]، وفي وصفِهم بالطُّغيان تنبيهٌ على "أنَّهم لا عن جهلٍ وشُبهةٍ قالوا: إنَّهم سحرة، ولكن عن طغيان وتعدّي حَدِّ اللّه جل جلاله والمجاوزة له، وأنَّ "علَّة تكذيبِهم هي الَّتي اتَّحَدَت، فاتَّحد معلولُها، والعلَّةُ طُغْيانُهُم وإظلامُ قلوبِهم بما سبَق"[3]، فـ "مصدرُ تكذيبِهم وعصيانِهم هو ما تأصَّل عندهم مِن غرائزِ الطُّغيان والظُّلم"[4]، "فمَوْرِدُ جَهالتهم مؤتَلِفٌ، ومشرع تَعَنُّتِهم متَّحِد"[5]؛ لذا عبَّر عنهم بصيغةِ اسم الفاعل المجموعِ، فهُم مُتَمالِئون على الطُّغيان مجتمعون على ترسيخِه.

جريمةُ الطُّغاة أنَّهم لا عن جهلٍ وشُبهةٍ طغَوا، بل عن وعيٍ وتعدٍّ لحدود الله تعالى

معنى الفاء في قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾:

الفاء في قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ "رابطة لجوابِ شَرْطٍ مقدَّر"[6]، والتَّقدير: فما دام الأمر كذلك؛ فتولَّ عنهم، وفيها مَعْنى التَّفريع أيضًا؛ إذ تُفرِّع الأمر بالتَّولّي عنهم - أي: عن كفّار قريش - على كونهم طغاةً مجرمين؛ "تسليةً أخرى له صلى الله عليه وسلم وذلك لأنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم كان مِن كَرَم الأخلاق يَنْسُب نفسَه إلى تقصيرٍ، ويقول: إنَّ عدم

الدّاعيةُ الصّادقُ يَهْضِمُ جُهده، ويرى نفسَهُ مقصِّرًا مع عِظَمِ اجتهاده

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 23.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 182.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 450.
(4) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 541.
(5) القاسمي محاسن التأويل: 9/ 45.
(6) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 11.

إيمانهم لتقصيري في التَّبليغ، فيجتهد في الإنذار والتَّبليغ، فقال تعالى: قد أتَيْتَ بما عليك، ولا يضرُّك التَّولّي عنهم، وكفرُهم ليس لِتقصيرٍ منك؛ فلا تَحزن، فإنَّك لست بملومٍ بِسبب التَّقصير، وإنّما هم المَلومون بالإعراضِ والعِناد"(1).

دلالةُ التَّعبير بالأمر (تولَّ):

من مناهج الدَّعوة الإعراضُ عَنِ المعاندين

المقصود بالتَّولّي في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ الإعراض والانصراف وعدم الاكتراث، أي: "أعرض عنهم، وكُفَّ عن جِدالهم ودعائهم إلى الحقِّ، فقد فعلتَ ما أمَرك اللّه به، وبلَّغت رسالتَه، فما أنت بملومٍ عند اللّه بعد هذا"(2).

و"قد كان النَّبيُّ ﷺ شديد الحرص على إيمانهم، ويَغْتَمُّ من أجل عِنادهم في كفرهم، فكان اللّه تعالى يُعاود تسليتَهُ الفَيْنَة بعدَ الفينة، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [الشعراء: 3]، وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾ [الكهف: 6]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧﴾ [النحل: 127]، وإلّا فإنَّ القرآن جاء بعد أمثالِ هذه الآية بِدعوتهم وجِدالهم غيرَ مرَّة، قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ١٧٤ وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ١٧٥﴾ في سورة الصّافات [174 - 175]"(3).

ومن معاني التَّولّي عنهم أيضًا أن "أعرِض، ولا تُكافِئْهُم بإساءَتهم إليك بقولهم: إنَّه ساحر، وإنَّه مجنون، فإنَّ اللّه تعالى سيَكفيهم عنك، ويجازيهم مجازاةَ إساءتهم"(4).

الدّاعي إلى اللّه تعالى مأمور بالتَّبليغ والتَّذكير لا باستجابة المدعوّ

الأمر في قول اللّه تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ للإرشادِ، قال البقاعيُّ: "زاد اللّه تعالى نبيَّه ﷺ أشياءَ ممّا ورد على طريقةِ تخييرهِ ﷺ في

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 191.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 110.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 23.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 393.

أمرهم مِن قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ﴾، ثمَّ أشار تعالى بقوله: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إلى أنَّ إحراز أجره ﷺ إنَّما هو في التَّذكار والدُّعاء إلى الله تعالى، ثُمَّ يَنفع الله بذلك مَن سَبَقَت له السَّعادة: ﴿۞إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ﴾ [الأنعام: 36]"[1].

بيانُ مرجعِ ضمير الخِطاب في ﴿فَتَوَلَّ﴾:

إرشادُ النَّبيِّ ﷺ إلى الإعراضِ عَنِ المُشْركين

ضمير الخطاب في قول الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ﴾ للرَّسول ﷺ، والمعنى: "فتولَّ يا محمَّدُ عن هؤلاء المشركين بالله مِن قريشٍ، يقولُ: فأعْرِض عنهم حتّى يأتيَك فيهم أمرُ الله"[2].

و"عَن مُجاهِد قالَ: خرج عَليٌّ معتجِرًا ببرد مُشْتَمِلًا بخميصةٍ، فَقالَ: لمّا نزلت: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ﴾؛ أحزننا، وقُلْنا: أُمِرَ رَسول الله ﷺ أن يتَوَلَّى عَنّا، حَتَّى نزلت: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾"[3].

معنى (عن)، وبيانُ مرجعِ مجرورها في القيد: ﴿عَنۡهُمۡ﴾:

الإرشـادُ إلى الإعـراضِ عَـنِ المُعاندينَ

(عن) في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ للمُجاوَزة، أي: تجاوَزْ يا رسول الله الإلحاحَ في دعوة "الَّذين كرَّرتَ عليهم الدَّعوة، فلم يجيبوا، وعرفتَ عنهم العنادَ واللَّجاج"[4]، ودَعْ عنكَ "الحِرْص المُفْرِط عليهم، وذهابَ النَّفس حسراتٍ، ويَحْتَمِلُ أن يُراد: فتولَّ عن التَّعب المُفْرِط في دُعائِهم وضَمِّهم إلى الإسلام، فلَسْتَ بِمُصَيْطِرٍ عليهم، ولستَ بِمَلوم؛ إذ قَد بلَّغت، فنحِّ نفسَك عن الحُزن عليهم، وذكِّر فقط، فإنَّ الذِّكرى نافعةٌ للمؤمنين، ولِمَن قُضي له أن يكون منهم في ثاني حال"[5].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 450.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 551.

(3) المحاسبي، فهم القرآن ومعانيه، ص: 427، وابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 443.

(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 405.

(5) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 182.

والضَّمير المجرور في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ يُقصَد به كفّارُ قريش، فهُم الَّذين أنفَقَ رسولُ اللّه ﷺ في دعوتهم سنينَ من عُمُرِه، فما آمن معه إلّا قليل.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَمَآ أنت﴾:

لا لـومَ على مَن أدّى واجِبَ دعوَتِه، ويبقى الإثمُ على المعانِدِ

(الفاء) في قوله: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومِ﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّفريع؛ إذ "فُرِّع على أمرِه بالتَّولّي عنهم إخبارُه بأنَّه لا لوم عليه في إعراضهم عنه"[1]، وعلى ذلك فلا تقصيرَ ولا لومَ على مَن أدّى واجبَ دعوتِه، ويبقى إثمُ الكافِرِ والعاصي عليهما بعدَ ذلك.

معنى (ما) في قوله: ﴿فَمَآ أنت﴾:

من أدّى مهامَّه؛ فقد أعذَر إلى اللّه تعالى، ولم يُسأل عنِ النَّتائج

(ما) في قوله: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومِ﴾ نافيةُ اللَّومَ والتَّقصير في دعوة كفّار قريش عن رسولِ اللّه ﷺ: "لأنَّه قد بلَّغ الرِّسالة، وما أُمِر بتَبْليغه إلى الخلق، وقامَ بأمرِه تعالى، ونَصح خَلْقَه، وخَفض جناحَهُ لهم، فكيف يُلام؟ وفيه دلالةُ الحِفْظِ والعِصْمة له عن الزَّيغ والزَّلّات؛ إذْ لو كان بالَّذي يَحْتَمِلُ الزَّيغ والزَّلَّة؛ لكان يحتَمِلُ المَلامة؛ فدلَّ أنَّه لا يحتمل الزَّيغ والعدول عن الحقِّ"[2].

نكتةُ تقديم النَّفي على المسند إليهِ في قوله: ﴿فَمَآ أَنتَ﴾:

لَقيَ الرَّسول ﷺ من قومه عنتًا كبيرًا، معَ حِرْصِه على هدايتهم طويلًا

في تقديم النَّفي على المسند إليه في قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومِ﴾ مزيدُ تطمينٍ وتكريمٍ للرَّسول ﷺ؛ إذِ التَّقديم هنا يَكادُ يَنطِقُ بدلالة القَصر، وكأنَّه ﷺ وحده النّاجي مِن الملام على التَّقصير في الدَّعوة، وفي ذلك كنايةٌ عن عِظَم ما لَقيَ ﷺ من قومِه، وطول ما دعاهُم، وحَرَصَ على هدايتهم.

وفي المجيء بضمير المخاطَبِ مُسْنَدًا إليه، وإدخالِ النَّفي عليه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 23.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 394.

في قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ "اهتمامٌ بالتَّنويه بشأن المخاطَب ﷺ وتعظيمه"[1].

غرضُ التَّعبير بالجملة الاسميَّة في قوله: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾:

التَّعبير عَن نفي اللَّوم عن الرَّسول ﷺ بالجملةِ الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ دون التَّعبير بالجملة الفعليَّة - كما لو قيل في غير القرآنِ الكريم: لا نَلومُكَ - "للدَّلالة على ثَبات مَضمونِ الجملة في النَّفي"[2]، ورسوخ الحكم بعَدَمِ اللَّوم له ﷺ؛ كنايةً عن استنفاذِهِ طاقَتَه، وبَذْلِه أسبابَه في دعوة هؤلاء الطُّغاة؛ حتّى أعذرَهُ اللّه تعالى، ومدَحَهُ بهذا التَّعبير العامر: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾.

استنفذ الرَّسول ﷺ أسبابَه في دَعْوَةِ الطُّغاة

معنى الباء في قوله: ﴿بِمَلُومٍ﴾:

الباء الدّاخلة على الخبر في قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ صلةٌ يُرادُ بها توكيدُ "نفْيِ أن يكون ملومًا"[3]، وهكذا يَحشِد النَّظْمُ الكريم ما أمكن من عوامِلِ توكيدِ مَدْحِه ﷺ بما بذَل، وبما صبَر، وبما حَرَصَ على هداية قومِه.

عظيمُ صَبْرِ النَّبيِّ ﷺ في الدَّعوة إلى الله تعالى

دلالةُ التَّعبير باللَّوم اسمَ مفعول:

معنى قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ يعني أنَّه ليس عليه ﷺ في الإعراض عن مُشْرِكي مكَّة - بَعد بذل الوُسع والجهد في الدَّعوة - ملامةٌ ولا عتابٌ، ونفيُ اللَّوم نفيٌ؛ لِما فوقَهُ مِن أنواعِ المُؤاخذَة، ففي نفي اللَّوم كنايةٌ عن الرِّضوان الكامل مِن اللّه تعالى عن الرَّسول ﷺ، وتنويهٌ بأداء الدُّعاة الجادّين في مهامِّ دعوتهم على الوجهِ الَّذي يَعْذِرهم اللّه تعالى به.

يَعذِر الله تعالى الدُّعاةَ الجادّين في مهامِّ دعوتهم، بِغضِّ النَّظر عن ثمرتها

و"جائِز أن يكون المرادُ مِن نفي الشَّيء إثباتَ مقابلِ ذلك الشَّيء

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 23.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 23.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 24.

وضدِّه، كقوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة: 16]، ذُكِرَ الرِّبحُ، والمراد: إثباتُ الخُسران، كأنَّه قال: فما ربحت تجارتهم، بل خَسِرَت، فعلى ذلك جائزٌ قولُه: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾، بل أنت محمود"(1).

معنى الواو في قوله: ﴿وَذَكِّرْ﴾:

على الدّاعي أن يواصل التَّذكير، والله تعالى هو الهادي إلى سواء السَّبيل

الواو في جملة ﴿وَذَكِّرْ﴾ عاطفةٌ على جملة: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، أي: إنَّ المطلوبَ منهُ ﷺ أن يجمَعَ بينَ تَكليفَين: الإعراض عن مُجادَلَتِهم، ومواصلة الدَّعوة والتَّذكير، وأنَّ أداءَهُ مهمَّةَ الدَّعوة مرَّةً يكفي، بل يواصل التَّذكير، واللّه تعالى هو الهادي إلى سواء السَّبيل.

دلالةُ التَّعبير بالتَّذكير على صيغة فعل أمرٍ:

الدّاعيةُ إلى الله تَعالى لا يدع التَّذكير والموعظة

التَّعبيرُ بالتَّذكير في قول اللّه تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني الوَعْظَ، أي: "وعِظْ يا محمَّدُ مَن أُرسِلْتَ إليه، فإنَّ العِظةَ تَنْفَعُ أهلَ الإيمانِ باللّه"(2)، و"لا تدع التَّذكير والموعظة بأيّام اللّه"(3)؛ إذ "لمّا أَمَرَه بالإعراض عنهم؛ أمرَه بألّا يَترُك التَّذكير والموعظة بالَّتي هي أحسن"(4).

والأمر في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ﴾ "مرادٌ به الدَّوام على التَّذكير وتجديده"(5)، فـ "أمره بألّا يترك التَّذكير والموعظة بالَّتي هي أحسَنُ"(6).

ويُفهم من كلام البقاعيِّ هنا أنَّ الأمر للتَّخيير؛ إذ يقول: وفي هذا "زاد اللّه تعالى نبيَّه ﷺ أشياءَ ممّا ورد على طريقةِ تخييره ﷺ في أمرهم مِن قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾، ثُمَّ أشار تعالى بقوله: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى أنَّ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 393، بتصرف.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 553.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 405.
(4) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 211.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 24.
(6) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 110.

إحراز أجرِه ﷺ إنَّما هو في التَّذكار والدُّعاء إلى الله تعالى، ثُمَّ يَنفع الله تعالى بذلك مَن سبقت له السَّعادةُ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: 36]"(1).

والأظهر أنَّ الأمرَ بالتَّذكير يُراد به الدَّوام على التَّذكير والزّيادة فيه، ولا ينافي هذا أن يكون أصلُ التَّذكير واجبًا؛ إذ إنَّ هذا وظيفةُ النَّبيِّ ﷺ ووظيفةُ الأنبياءِ عليهم السلام.

بلاغةُ الاحتراسِ في قولِه: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤ وَذَكِّرْ﴾:

خلوُّ الجوِّ للطُّغاةِ؛ إذا تُرِكَ التَّذكيرُ بالكلّيَّة، فيَزْعُمون بأنَّهم على الحقِّ

في الأمر ﴿وَذَكِّرْ﴾ بعد الأمر بقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ "احتراسٌ من أن يَتوهَّم أحدٌ أنَّ الإعراض إبطالٌ للتَّذكير، بل التَّذكير باقٍ، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ ذكَّر النّاس بعد أمثالِ هذه الآيات، فآمن بَعضُ مَن لم يكن آمن مِن قبل، وليكون الاستمرارُ على التَّذكير زيادةً في إقامة الحُجَّة على المُعْرضين، ولئلّا يزدادوا طُغيانًا، فيقولوا: ها نحنُ أولاء قد أفحَمناه، فكفَّ عمّا يقوله"(2).

فإن كان المعنى: "لا تُرْهِق نفسَك بالجري وراءَهُم، لكنَّ ذلك لا يمنَعُك مِن أن تقومَ على دَعْوَتِك، وأن تُؤذِّن بها في النّاس، فذلك هو شأنُكَ ودأبُك، وهو أسلوب رسالتِك الَّتي تدعو إليها، ﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥﴾ [المدثر: 54 - 55]، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ [الغاشية: 21 - 22]، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨﴾ [التكوير: 27 - 28].

فعَرْضُ الدَّعوة على النّاس، وكشْفُ معالم الهُدى لهم بما يُتلى عليهم من آيات الله تعالى - وإن لم يَلْتَفِت إليه كثيرٌ منهم، ولم يأخذوا طريقَهُم إليه - أمرٌ مطلوب من النَّبيِّ ﷺ، فإنَّ كثيرًا من

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 450.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 24، بتصرّف.

النّاس ينتفعون به، ويُقيمون وجوهَهُم عليه، كما أنَّ المؤمنين الَّذين آمنوا باللّه تعالى، واستجابوا لدعوة الحقِّ يَزيدهم هذا التَّذكيرُ إيمانًا، ويقعُ مِن قلوبِهم موقعَ النَّفع، فيُقَوّي يقينَهم، ويُثَبِّتُ أقدامَهم على طريق الحقِّ"(1).

نكتةُ حذف متعلِّق التَّذكير في الفعل ﴿وَذَكِّرۡ﴾:

حُذِفت متعلِّقات فِعل التَّذكير مِن جملة ﴿وَذَكِّرۡ﴾، فحُذِف المفعولُ، ولم يُنَصَّ على مذكَّرٍ بعينِه، وقد يكون تقديرُ المعنى: "عِظْ كفّار مكَّة، فإنَّ الذِّكرى تنفع مَن كان في علم اللّه أنَّه يُؤْمِن، وقيل: ذَكِّرهم بالعقوبةِ وأيّام اللّه"(2)، و"جائز أن يكون الأمرُ بالتَّذكير للكلِّ، ثُمَّ أخبر أنَّ الذِّكرى تنفَع المؤمنين، لا الكلَّ، وجائز: فذَكِّر المؤمنين، فإنَّ منفعة الذِّكرى لهم، ولمن أنصَفَ، دون المكابرين المعاندينَ"(3)، وحُذِف المذَكَّر به، والمعنى: "فذَكِّر بالقرآن، أو فذَكِّر بالعظة، فإنَّ الوعظ ينفَعُ المؤمنين، أو: وذكِّر بالثَّواب والعقاب، فإنَّ الرَّغبة والرَّهبة تنفَعُ المؤمنين"(4).

بـذلُ الـدّاعـيـةِ وعْـظَـهُ لـكـلِّ أحد، والهداية مِنَ الله تعالى لَمَن يشاءُ

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ﴾:

(الفاء) في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تفريعيَّة، وفيها مَعْنى التَّعليل للأمر السّابق في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ﴾(5)، وفيها بشارة للرَّسول ﷺ بأنَّ دعوتَه سَتُؤْتي ثمارَها بغَضِّ النَّظر عن جُحود هؤلاء الطُّغاة من قريش، فلا يأسَ في باب الدَّعوة أبدًا.

لا يأس في باب الـدَّعـوة أبـدًا، فلْيواصل الدُّعاة مـسـتـبـشـريـن بثمرَة دَعْوَتِهم

بلاغةُ التَّوكيد في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ﴾:

توكيد الخبرِ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يعالج

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 536.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 110.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 394.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 374.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 323.

مقام الجُحود والطُّغيان الَّذي يعانيه الرَّسول ﷺ من مشركي مكَّة، وإن كان الرَّسول ﷺ موقنًا بِصِدْقِ إخبارِ اللّه تعالى، إلّا أنَّ مقامَ التَّسليةِ يقتضي توكيدَ الأخبارِ، وإن لم تكنِ الأنفسُ تُنْكِرُها.

مقامُ التَّسليةِ يَحتاج إلى توكيدِ الأخبار، وإن لَم تَكُن النُّفوسُ تُنْكِرُها

وكأنَّ التَّوكيد يقرِّر له ﷺ دلالةَ أنَّه لا عليك من هؤلاء الكفّار يا رسول اللّه؛ فإنَّ ثمَّة مؤمنين سينتَفِعون بتَذْكيرك وعِظَتك، فاستمرَّ في تذكيرِكَ ووَعْظِكَ مستبشرًا مؤمِّلًا الخيرَ.

معنى (أل) في ﴿ٱلذِّكْرَىٰ﴾:

(أل) في ﴿ٱلذِّكْرَىٰ﴾ لتعريف العهدِ العلميِّ، أي: إنَّ التَّذكرة القويمة الَّتي كلَّف اللّه تعالى بها رُسُله تؤتي ثمارها في المؤمنين الَّذين آمنوا حقًّا، وكذا في الَّذين قدَّر اللّه تعالى لهم الهُدى والإيمانَ مِمَّن لم يؤمنوا بعدُ.

التَّذكِرة القويمَة تؤتي ثمارَها في المؤمنين ومَن قُدِّر لهم الإيمانُ

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿تَنفَعُ﴾ مضارعًا:

التَّعبيرُ بالنَّفْع في جملة: ﴿تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ صريحٌ في الإفصاح عن الثَّمرة الَّتي يرجوها الرَّسول - ﷺ من دعوته وتذكيره النّاس، ففيه معالجةٌ لِهُمومه ﷺ بمزيد تبشيرٍ.

ومعنى نَفْعِ المؤمنين هنا الزّيادة في عملهم[1]، و"رسوخ العلم بإعادة التَّذكير لِما سمِعوه، واستفادة عِلمٍ جديدٍ فيما لم يسمعوه، أو غفَلوا عنه، ولِظهور حُجَّة المؤمنين على الكافرين يومًا فيومًا، ويتكرَّر عجْز المشركين عن المعارَضة، ووفرة الكلام المعجز"[2].

التَّذكِرة تُرسِّخ علمَ ما سُمِع، وتُفيدُ عِلمًا جديدًا لَم يُسْمَع، أو غُفِل عنه

وفي صوغ الفعل ﴿تَنفَعُ﴾ مضارِعًا دلالةٌ على تجدُّد انتفاع المؤمنين بالتَّذكرة تجدُّدًا مستمرًّا لا يتوقَّف، ولا ينقطع، بل إنَّه يَمتدُّ إلى الآخرة؛ إذ هنالك الحصادُ ممتدًّا إلى غير نهايَةٍ، وليس إلّا المُضارع كفؤًا لذلك.

---

(1) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 380.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 24.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ودلالةُ صوغِهِ اسمَ فاعل:

وصفُ حال المؤمنين في رُسوخِ إيمانِهم

(أل) في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لتعريفِ العهد العلميِّ، أي: إنَّ الذِّكرى تنفع المؤمنين الَّذين آمنوا فعلًا بِشُعَب الإيمانِ المعلومة مِن دين الإسلام، وتنفَعُ المؤمنين الَّذين سبَقَ في علم اللّه تعالى أنَّهم يؤمنون، أي: "مَن عَلِم اللّه تعالى أن يؤمن منهم، ومَن آمن مِن قومك؛ فإنَّ الذِّكرى تنفعهم"[1].

وفي صوغ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ اسمَ فاعل وصفٌ دقيقٌ لحالِ رُسوخ أقدامهم في هذا الميدان الشَّريف؛ ميدانِ الإيمان الخالص واليقين الصّادق، وتغلغل الإيمانِ في قلوبهم، واليقين في اعتِقادهم.

نكتةُ تقييد نَفع الذِّكرَى بـ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

إنَّما ينتفع بالتَّذكرة والعِظة المؤمنون الثَّابتون على الإيمان

قُيِّد نَفْع الذِّكرى بالمؤمنين بالذّات في قوله تعالى: ﴿ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ "لأنَّ ما معهم مِن الإيمان والخشية والإنابة واتِّباع رضوان اللّه تعالى؛ يوجب لهم أن تنفع فيهم الذِّكرى، وتقع الموعظةُ منهم مَوْقِعَها، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ١١﴾ [الأعلى: 9 - 11]، وأمّا مَن ليس له معه إيمانٌ، ولا استعداد لقبول التَّذكير؛ فهذا لا ينفع تذكيرُه؛ فهو بمنزلة الأرضِ السَّبخة، الَّتي لا يُفيدها المطَر شيئًا، وهؤلاء الصِّنفُ، لو جاءتهم كلُّ آيةٍ لَم يؤمنوا حتّى يروا العذاب الأليمَ"[2].

وفي ذلك التَّقييد أيضًا "إظهارُ العناية بالمؤمنين في المقام الَّذي أظْهَرَت فيه قلَّة الاكتراثِ بالكافرين"[3].

وكأنَّ في تقييد التَّذكير بالمؤمنين توجيهًا إلى عدم تضييع الوقتِ معَ غيرهم، بل يَكْفي فيهم ما يُسْقِطُ التَّبِعَةَ عن الدّاعية، ولا مؤاخذةَ عليه بعدَ ذلك، وهذا ما يتَّسق مع قوله تعالى قبلُ: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾.

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 181.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 812.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 24.

❁ الفروقُ المُعْجَميَّة:

الظُّلم والطُّغيان:

الظُّلم وضع الشَّيءِ في غيرِ موضعه تعدّيًا، والطُّغيان مجاوزة الحدِّ مع القهر

الظُّلم: وضعُ الشَّيءِ في غَيرِ مَوضِعه تَعَدّيًا، والأصلُ: وضْعُ الشَّيءِ في غَيرِ مَوضِعه، ألا تَراهُم يَقولونَ: مَن أشبَهَ أباهُ؛ فَما ظَلَمَ، أي: ما وضَعَ الشَّبَهَ غَيْرَ مَوْضِعه(1)، والطُّغيان: مجاوزة الحدِّ في المكروه، مع غلبةٍ وقهر، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾ [الحاقة: 11]، يقال: طغى الماءُ؛ إذا جاوز الحدَّ في الظُّلم(2).

والظُّلم هو الانحرافُ عن ميزان العدل، مَهْما كان يسيرًا أو كبيرًا، وهو يَشْمَل الشِّرك والمعصية والعدوانَ على الآخرينَ، وأمّا الطُّغيان؛ فهو التَّمادي في الظُّلم حتَّى يبلغ حدَّ الغُلوِّ، والعُتوِّ، والجَبروت، ومِن هنا ناسَب وصف القوم بـ ﴿طَاغُونَ﴾؛ لتَماديهِم في الظُّلم والإعراض إلى حدِّ الغلوِّ.

اللَّوم والتَّثريب والعتاب والعذل:

اللَّوم عتابٌ في فعل الحسن أو القبيح، والتَّثريب توبيخٌ على فعل القبيحِ

التَّثريب: شبيهٌ بالتَّقريع والتَّوبيخ، تقول: وبَّخه، وقرَّعه، وثرَّبه بما كان منه، واللَّوم قد يكون لِما يفعله الإنسانُ في الحالِ، ولا يُقالُ لذلك تقريعٌ وتثريب وتوبيخ، واللَّوم يكون على الفعل الحسَن، ولا يكون التَّثريب إلّا على قبيح(3).

والعتب: الغضَبُ، تقول: "عتبتُ على الرَّجل عتبًا ومعتبةً؛ إذا وجدتَ عَلَيهِ مَوْجِدَة"(4)، و"لامه، وخاطبه مُخاطبَة الإدلالِ طالبًا حُسْنَ مُراجعَته، ومذكِّرًا إيّاه بما كرهه مِنهُ"(5)، والعَذْل: اللَّوم،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 337.
(3) معجم الفروق اللغوية، ص: 116.
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عتب).
(5) مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط: (عتب).

وأصلُهُ: الإحْراق، كَأَنَّ اللّائم يُحْرِق بعَذْله قلبَ المعذول[1]، والعُذَلَة: مَنْ يكثِرُ لَوْمَ النّاسِ"[2]، وهو بهذا يختلف عن اللَّوم في شدَّته.

وعليه؛ فإنَّ أنسبَ الألفاظِ لسياق خطاب النَّبيِّ ﷺ هو لفظُ تَرْكِ اللَّوم؛ لأَنَّ كلَّ أفعالهِ - صلواتُ ربّي وسلامُهُ عليه - حسنَةٌ.

(1) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب: (عذل).

(2) مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط: (عذل).

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: 56 - 58]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

كُلُّ ما عدا العبادةَ في هذه الحياة الدُّنيا تضييع للزَّمان

ذكر الرّازيُّ أنَّ تعلُّق الآية الأولى بما قبلها من وجوه: "**أحدها:** أنَّه تعالى لمّا قال: ﴿وَذَكِّرْ﴾، يعني: أقصى غايةِ التَّذكير، وهو أنَّ الخلق ليس إلّا للعبادة، فالمقصود من إيجاد الإنسان العبادةُ، فذكِّرهم به، وأعلِمهُم أنَّ كلَّ ما عداه تضييعٌ للزَّمان. **والثّاني**: أنَّ شُغْلَ الأنبياء منحصرٌ في أمرين: عبادةِ اللّه وهداية الخلق، فلمّا قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾؛ بيَّن أنَّ الهداية قد تسقط عند اليأس وعدم المهتدي، وأمّا العبادة؛ فهي لازمة، والخلق المُطْلَق لها، وليس الخلق المطلق للهداية، فما أنت بملوم؛ إذا أتيت بالعبادة الَّتي هي أصلٌ؛ إذا تركت الهداية بعد بذل الجهد فيها. والثّالث: هو أنَّه لمّا بيَّن حال من قبله من التَّكذيب؛ ذكر هذه الآية ليُبَيِّن سوء صنيعهم؛ إذ تركوا عبادة اللّه، فما كان خَلْقُهم إلّا للعبادة"[(1)]، أي: "بعد أن نظَر حالَهم بحال الأمم، الَّتي صَمَّمت على التَّكذيب من قبلهم؛ أعقبه بذكر شنيع حالهم من الانحراف عمّا خُلقوا لأجله، وغرز فيهم، فقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ خبرٌ مستعملٌ في التَّعريض بالمشركين الَّذين انحرفوا عن الفطرة، الَّتي خُلقوا عليها، فخالفوا سُنَّتها، اتِّباعًا لتضليل المُضلّين"[(2)].

وقال الطَّيبيُّ: "لمّا نزلت: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾؛ حزِن رسول اللّه ﷺ؛

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 192، بتصرّف.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 25.

فأنزل الله: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: لا تدَع التَّذكير والموعظة، فإنَّ الذِّكرى تنفع المؤمنين، وحُجَّةٌ على المعاندين، فإنَّك ما بُعِثْتَ إلَّا للدَّعوة، وما خُلِق الجنُّ والإنس إلّا لأن يُؤمروا بالعبادة؛ لأنَّهم مكلَّفون امتحانًا وابتلاءً"[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رِّزْقٍ﴾: أصلُ (رزق) يدلُّ على عَطاءٍ لوقْتٍ، ثمَّ يُحْمَلُ عليه غيرُ المَوْقوتِ[2]، فالرِّزْقُ: بالكسر اسم للمرزوق، والجمع: الأرزاق، مثل: حِمل وأحمال، ويُقال: ارتَزَق القوم؛ إذا أخذوا أرزاقهم، فهُم مرتزقة[3]، والرِّزْق المذكورُ في الكتابِ والآثارِ: ما مَنحَه الله من حَلالٍ أو حرام عند أهلِ السُّنَّة، وغيرُهم يخصُّه بالحَلالِ فقط، واللُّغةُ لا تَقتَضيه[4]، والمقصود بالرِّزْقِ هُنا: المالُ[5].

2) ﴿ٱلْقُوَّةِ﴾: أصلُ القوَّةِ: الشِّدَّةُ والصَّلابَةُ، يُقالُ: قَوِيَ يَقْوى قوَّةً، فَهوَ قَوِيٌّ، أي: اشتَدَّ، وصَلُبَ، والقوَّةُ أيضًا: المَتانَةُ، وضِدُّها: الضَّعْفُ والعَجْزُ[6]، والقوَّة كذلك: الطّاقةُ والقُدْرَةُ، تقولُ: لا قوَّةَ لي في قِتاله، أيْ: لا طاقةَ لي، والجَمعُ: قِوًى، وتارَةً تُستعمَلُ في البَدَنِ، وتارَةً في القَلْبِ، وتارَةً في النَّفْسِ، وتُطلَقُ أيضًا على سائرِ الكائناتِ، وتأتي القوَّةُ بمعنى: العَوْن، تقولُ: تَقَوَّيْتُ به؛ إذا استعَنتَ[7]، وذو القوَّةِ: صاحِبُ القُدْرَةِ، والقَويُّ: اسمٌ من أسماء الله الحسنى يدلُّ على أنَّه تعالى ذو قوَّة تامَّة، لا يدخلها عَجْزٌ في حالٍ من الأحوالِ[8].

3) ﴿ٱلْمَتِينُ﴾: أصلُ (متن) يدلُّ على صلابةٍ في الشَّيء مع امتدادٍ وطول، ومنه المَتْن، وهو ما صلُب من الأرض، وارتفع، وانقادَ، والجمع: مِتان[9]، والمَتينُ في الآية معناه: الشَّديدُ، وهو هُنا وصْفٌ لِذي القوَّةِ، أي: الشَّديدُ القوَّة[10].

(1) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 37.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رزق).
(3) الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: (رزق).
(4) القاضي عياض، مشارق الأنوار على صحاح الآثار: 1/ 571.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 28.
(6) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قوي).
(7) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (قوي).
(8) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 17/ 10.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (متن).
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 29، وعبد المحسن العباد، فتح القوي المتين، ص: 7.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

غايةُ خلق الثَّقَلَيْنِ عِبادةُ الله تعالى مع غِناه سُبحانه عنها وعَنْهُم

يُبيِّنُ اللّه تعالى أنَّ الغايةَ الأولى مِن خَلْقه الثَّقلين: الجِنِّ والإنس، وإيجادِهما في الدُّنيا: أن يعبدوهُ على الاختيارِ بالمعنى الشَّرعيِّ للعبادة طاعةً، يعود عليهم لا عليهِ نَفْعُها، لا على الإجبار المحقَّق فيهم بالمعنى اللُّغويِّ للعبادة، فمَن أطاعهُ، وحقَّق غاية خلقه وإيجاده؛ فله التَّكريمُ والإسعاد في الدّار الباقية، ومَن عصاهُ، ورفَض تحقيقَ غايةِ خلقِه وإيجاده؛ فله الإهانة والإشقاء في دار البقاءِ.

وثمرةُ طاعَةِ كلِّ واحدٍ مِن الجنِّ والإنس، وثمرةُ عبادتِه إنَّما تعود عليه هو، ولا يعودُ على اللّه تعالى شيء منها، ولا يطلُبُ تعالى لأحدٍ مِن خلقه رِزقًا، ولا يُكلِّفه له طعامًا على وجه الخُصوص؛ ذلك لأنَّهُ سُبحانَهُ صاحبُ القوَّة المحيطة، البالغُ القدرة المطلقةِ على رزقهم جميعًا، فهو الغنيُّ بذاته عن خَلْقه جميعًا.

فإنَّ "شأنه تعالى مع عِباده ليس كشَأْنِ السّادة مع عَبيدِهم؛ لأنَّهم إنَّما يَملِكونهم؛ ليَسْتَعينوا بهم في تحصيلِ معاشِهم وأرزاقهم، أو للقيام على خِدْمَتهم ورعايتهم، ففيها نَفْيُ أن يكونَ ملكُه إيّاهم لذلك، فكأنَّه ﷻ قال: ما أُريد أن أَسْتَعين بهم، كما يَسْتَعين ملّاك العبيد بعبيدهم، وما أُريد منهم تحصيلَ رزق، فأنا الرّزّاق الغنيُّ عن العالمين، وما أُريد أن يُطْعِموني؛ فأنا أُطْعِمُ، ولا أُطْعَم، غنيٌّ عنهم وعن مُرافقتهم، فليَشْتَغلوا بما يَنْفَعُهم، ويُسْعِدُهم وما خُلقوا لأجله مِن عِبادَتي وطاعَتي والخُضوع لي"(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ﴾:

(الواو) في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ﴾ عاطفةٌ الجملةَ

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1110.

تأكيدُ الأمرِ بالتَّذكير وتقريرٌ لمضْمونِ تَعْليلِه

بعدها على قوله: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ﴾، "التي هي ناشئَةٌ عن قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ﴾ [الذاريات: 50 - 51]، عَطْفَ الغرضِ على الغرض؛ لِوجود المناسبة"[1].

ويجوزُ أن تكون "استئنافًا مؤكِّدًا للأمر ﴿وَذَكِّرۡ﴾، مقرِّرًا لمضمون تعليلِهِ؛ فإنَّ كونَ خلْقهم مُغَيًّا بعبادته تعالى ممّا يدعوه ﷺ إلى تذكيرهم، ويوجِب عليهم التَّذكُّر والاتِّعاظ"[2].

معنى (ما) في قوله: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ﴾:

شأنُه تعالى مع عبيدِه لا يُقاس بـه شـأنُ عبيدِ الخَلْقِ معهم

(ما) في قوله: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ نافية نفيًا حقيقيًّا، والغرض من هذا النَّفي بيانُ "أنَّ شأنه تعالى مع عبيده لا يُقاس به شأنُ عبيدِ الخلقِ معهم؛ فإنَّ عبيدَهم مطلوبون بالخِدْمة والتَّكسُّب لِلسّادة، وبواسطة مكاسب عبيدِهم قَدْرُ أرزاقهم، واللّٰه تعالى لا يَطلب من عبادِهِ رِزْقًا ولا إطْعامًا، وإنَّما يطلب منهم عبادتَه لا غير، وفَضْلًا عن كونِهِ لا يَطْلُب منهم، فهو الَّذي يرزقهم، وهذا المعنى الشَّريف هو الَّذي تجلّى تحت رايةِ هذه الآية، وله سيقَت، وبهِ نَطَقَت"[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿خَلَقۡتُ﴾ ماضيًا:

الخَلْقُ - بِمَعْنى إيجاد الشَّيء مِنَ العَدَمِ - لا يكونُ إلّا لله تعالى

معنى الخَلْقِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ﴾، يعني: الإيجادَ بالتَّقدير، والإبداع على الصّورة الَّتي قال تعالى فيها: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤﴾ [التين: 4]، وتدلُّ مفردة الخَلْق على دقَّة تقديرِ الموجِدِ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ من العدمِ، ويُستعمل الخَلْقُ في إبداع الشَّيء من غيرِ أصل ولا احتذاء، وقد يُستَعْمَل الخلقُ في إيجاد الشَّيء من الشَّيء، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النساء: 1]، وليس

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 24.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 144، بتصرّف يسير.

(3) ابن المنيّر، حاشية الانتصاف على الكشاف: 4/ 406، بتصرّف.

الخلقُ بمعنى الإيجادِ مِن العدَمِ إلّا للّه تعالى، ولهذا قال تعالى في الفصل بينه وبين غيره: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ [النحل: 17](1).

وفي التَّعبير بفعل الخَلْقِ ماضيًا دلالةٌ على تحقُّقِ خَلْقه سُبحانَهُ للعبادِ، وذلك يقتضي مِنهُم إفرادَهُ بالعبادَةِ؛ إذ الخالقُ الرّازقُ المدبِّر، هو المستحقُّ للعبادَةِ وحدَهُ دونَ سواهُ.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ﴾:

استِغْراقُ جميع أفرادِ الجِنِّ والإنسِ

(أل) في ﴿ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ﴾ لتعريفِ الجِنْسِ المفيدةِ الاستغراقَ، فاللّه تعالى خَلَقَ الجنَّ والإنس كلَّهم، "والجنُّ: جنسٌ من المَخْلوقاتِ مُسْتَتِرٌ عَن أعْيُنِ النّاس، وهو جنسٌ شاملٌ للشَّياطين، قال تعالى عن إبليس: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [الكهف: 50]، والإنس: اسمُ جمعٍ، واحدُه: إنْسيٌّ، بياءِ النِّسبة إلى اسمِ جَمعِه.

والمقصودُ مِن هذا الإخبار هو الإنس، وإنَّما ذُكِرَ الجنُّ إدماجًا"(2)، أو أنَّ المقصود بـ ﴿ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ﴾ هنا: مؤمنوهُم، أي: "سعداءُ الجِنسَيْنِ"(3).

بلاغَةُ الإدماج في ذِكْرِ ﴿ٱلۡجِنَّ﴾:

الـجـنُّ غير خـارجـين عـن الـعـبـوديَّـة لله تعالى

أدْمَجَ النَّظمُ الكريم ذِكرَ ﴿ٱلۡجِنَّ﴾ في الحُكم بِقَصْر علَّة خلقِ الجِنِّ والإنس على العبادة؛ تنبيهًا على الإيحاء بلطيفة مهمَّة في هذا السّياق؛ أشار إليها ابن عاشور بقوله: "وما ذَكر اللّه تعالى الجنَّ هنا إلّا لِتنبيه المشركين بأنَّ الجنَّ غير خارجين عن العبوديَّة للّه تعالى، وقد حكى اللّه عن الجنِّ في سورة الجنِّ قولَ قائلهم: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا ٤﴾ [الجن: 4]"(4).

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: 2/ 566.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 25.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 144.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 28.

نكتة تقديم ﴿ٱلۡجِنَّ﴾ على (الإنس):

الجنُّ عبادٌ لله تعالى كما أنَّ الإنسَ كذلك

في تقديم ﴿ٱلۡجِنَّ﴾ على (الإنس) هنا مراعاةٌ للأقدم والأسبَقِ خَلْقًا وتكليفًا بالعبادة؛ لأنَّ الحديثَ هُنا عن أصل الخَلق والغرضِ منه يوم كان، فحادَ الجنَّ أوَّلًا، ثُمَّ حاد الإنْسَ ثانيًا، فأفاد التَّقديمُ هاتين النُّكتَتَيْنِ جميعًا.

وفي تقديمِ الجنِّ هنا في مقام ذِكْرِ العبوديَّة لله تعالى "اهتمامٌ بهَذا الخَبَرِ الغريبِ عند المُشْرِكين الَّذين كانوا يَعْبُدون الجنَّ؛ ليَعْلَموا أنَّ الجنَّ عبادٌ لله تعالى، فهو نظيرُ قولهِ تَعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦﴾ [الأنبياء: 26]"[1].

اندراجُ الملائكَة في لفظ (الجنِّ) بمعناهُ العامِّ

ثُمَّ إنَّ لفظَ الجنِّ بمعناهُ العامِّ "يتناول الملائكةَ؛ لأنَّ الجنَّ أصله من الاستتار، وهُم مستترون عن الخلق، وعلى هذا فتَقْديمُ الجنِّ؛ لدخول الملائكة فيهم، وكونهم أكثرَ عبادة وأخلصَها"[2].

بلاغةُ الطِّباق بين ﴿ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ﴾:

الجنُّ ليسوا بمنزلةِ أن يَتَعَوَّذ بهم الإنس، فالجميعُ عبيدٌ لله تعالى

بينَ ﴿ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ﴾ طباقٌ بديعٌ، يُثير الاهتمامَ، ويُحَفِّزُ النَّفس نحوَ معرفةِ الحُكم الجامع لهما مع اختلاف طبيعَتَيْهما، فإذا وصَلَ القارئُ إلى المُسْتَثْنى في قولهِ تَعالى: ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾؛ تمكَّن حُكم عبوديَّتهما معًا لله تعالى في نفس المُتَلَقّي، وأيقن النّاسُ وبخاصَّة الكفّار أنَّ الجنَّ ليسوا بمنزلةِ أن يَتَعَوَّذ بهم الإنسُ؛ فالجميعُ عبيدٌ لله تَعالى.

توجيهُ المتشابه اللَّفظيِّ في التَّقديم والتَّأخير بين ﴿ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ﴾:

التَّقديم والتَّأخير في الذِّكر الحكيم آيةٌ من آياتِ إعجازِه

يُقَدِّمُ القرآن الكريمُ ذِكْرَ (الإنس) على ذِكر (الجنِّ)؛ إذا كان للإنس مزيدُ اختصاصٍ في السّياق والمقام والغرض، وبالعكسِ، فإنَّهُ يُقَدِّم (الجنَّ) على (الإنس)؛ إذ كان للجنِّ مزيدُ اختصاص في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 28.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 192.

ذلك، فمثلًا لمّا كان التَّحدّي في مجالِ البلاغة التَّعبيريَّة، والاقتدار الفكريِّ الدَّقيق؛ قدَّم ذِكر ﴿ٱلْإِنسُ﴾ [الإسراء: 88]، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: 88]؛ لأنَّ الإنسَ أعرفُ وأبصَرُ بمسالِكِ البلاغَة.

ولمّا كان التَّحدّي في مجال الانتقالِ والخروجِ مِن أقطار السَّماء والأرضِ؛ قدَّم ذِكر ﴿ٱلْجِنّ﴾ [الرحمن: 33]، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرحمن: 33]؛ لأنَّ الجنَّ أقدَرُ على الانتقالِ، وفيهم قدرةٌ على الطَّيرانِ.

وهاتان آيتا التَّحدي العامِّ للثَّقلين مجتمعَيْن في الذِّكر الحكيم.

والأوجه النَّظميَّة الإعجازيَّة والأغراض البلاغيَّة لتَقْديم الإنسِ والجنِّ بعضهما على بعضٍ في القرآن الكريم بَلَغت ثمانيةَ أوْجُهٍ، منها ما كان في مقام التَّحدّي بِمُعارضة القرآن الكريم أو النَّفاذ من أقطارِ السَّماوات والأرض، ومنها ما ورَدَ في مَقام الإخبار عن أمورٍ ماضيَةٍ وقَعت، ومنها ما جاءَ في مقامِ الإخبار عن أمورٍ أخرويَّة لمّا تقعْ، إلى غير ذلك من أوجُه وأغراضٍ.

ولو أنَّ آياتِ الذِّكر الحكيم اطَّردت على وتيرةٍ واحدة في تقديم الإنس أو تقديم الجنِّ؛ لَمَا اتَّضح وجْهُ الإعجاز في هذه الآيات من حيثُ التَّقديم والتَّأخير، أما وقد تَصرَّف القرآنُ الكريم فيهما تقديمًا وتأخيرًا؛ فقد لاح وجهُ الإعجاز فيها[1].

نكتةُ اختصاصِ ﴿ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ﴾ بالتَّكليف بالعبادةِ:

خُصَّ ﴿ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ﴾ من بين سائرِ الخَلْق "بالذِّكر؛ إشارةً إلى أنَّهما هما المخلوقان اللَّذان لهما إرادة عامِلة، وهما بهذه الإرادة يَعملان، فيُؤمنان أو يكفران، ويُطيعان أو يَعصيان، ومن هنا وقع عليهما التَّكليف، وحُقَّ عليهما الحسابُ والجزاء بمقتضى ما يعملان مِن خير أو شرٍّ.

(1) أحمد محمد سعيد، مِن وُجوهِ الإعجازِ النّظمِيِّ في آياتِ الإنسِ والجِنّ: التّقدِيم والتّأخِير، بحثٌ منشور في مجلة القبس بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق - العدد الرابع، 2002م.

وقع الأمرُ بالعبادة للجنِّ والإنسِ؛ لاختصاصهما بالإرادةِ العاملة

وقد تكون هناك مخلوقاتٌ أخرى لها إرادةٌ، وعليها تكليف وحساب وجزاء، ولكنَّ الَّذي يقعُ في محيط الإدراك الإنسانيِّ هو ما يَعلمه الإنسان من نفسه، وما بَلَغَه من رسالات الرُّسُل، كما كان عِلمه بالجنِّ، وأنَّهم مكلَّفون، ومنهم المؤمنون، ومنهم القاسطون، كما أخْبَر بذلك رُسُل اللّه تعالى"[1].

ولم يُذكر الملائكة ﵈: "لاستغنائهم عن التَّذكير والموعظة"[2]، فهُم عبادٌ مُكْرَمون، لا يعصون اللّه ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، فالأمر فيهم كان مسلَّمًا به بين القوم، فلم يَذْكُرْهُم، وذَكَرَ المُتنازع فيه؛ إذ إنَّ عُبّاد الأصنام كانوا يقولون: إنَّ اللّه تعالى عظيمُ الشَّأن، خَلَقَ الملائكة، وجعلهم مُقَرَّبين، فهُم يعبدون اللّه، وخَلَقَهُم لعبادته، ونحن لِنُزول درجَتِنا لا نصلح لعبادةِ اللّه، فنعبد الملائكة، وهم يعبدون اللّه، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾، ولم يذكُر الملائكة كذلك؛ لأنَّ الجِنَّ - بالمعنى العامِّ - يتناول الملائكة؛ إذ أصلُ مادَّةِ الجنِّ تدلُّ على الاستتار، والملائكةُ مستترون عن الخلق[3].

بلاغةُ الاستثناء المفرَّغ في الآية:

أمرُ العبادةِ وإخلاصُها لله تعالى أهمُّ مَهامِّ المكلَّفين

﴿إِلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ استثنائيَّة، وفي اصطفاء أسلوبِ النَّفي والاستثناء لِقَصْر غاية خلق الجنِّ والإنس على العبادة تهويلٌ لهذا الحكم، وتنبيهٌ على خطره، وتأكيدٌ له؛ معالجةً لأحوال المُهْملين في العبادةِ حتّى من المسلمين.

كمالُ غِنى الله تعالى عن عِباده

وقَصْرُ عِلَّةِ خَلْقِ الجنِّ والإنس على عبادته ﷻ قَصْرُ إفرادٍ؛ لأنَّ قريشًا كانوا مشركين، يعبدون مع اللّه تعالى غيره، ويقولون: ﴿مَا

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 538.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 21.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 192.

﴿نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3]، والمعنى: ما خلقتُ الجنَّ والإنس إلّا ليعبدوني منفردًا، دون إشراكِهم غيري معي في عبادتهم، ودون عبادتِهم غيري مطلقًا، يقول الآلوسيُّ: "والَّذي ينساق إلى الذِّهن: أنَّ الحصر إضافيٌّ، أي: خَلَقَهُم للعبادة دون ضِدِّها، أو دون طلبِ الرِّزق والإطعام؛ أَخْذًا مِن تعقيب ذلك بقوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾.

فالقصر لبيان أنَّ شأنه تعالى مع عباده ليس كشأن السّادة مع عَبيدِهم؛ لأنَّهم إنَّما يَملِكونَهم؛ ليستعينوا بهم في تحصيل معايِشِهم وأرزاقهم، ومالكُ مُلّاكِ العَبيد نَفى أن يكون مُلْكُهُ إيّاهم لذلك، فكأنَّه قال سبحانه: ما أريد أن أستعين بهم، كما يستعين مُلّاكُ العبيدِ بعبيدِهم؛ فليَشْتَغِلوا بما خُلِقوا له من عبادتي"[1].

معنى اللّام في قوله: ﴿لِيَعۡبُدُونِ﴾، ووجهُ حَملِه على الاستعارَة:

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ لامُ التَّعليلِ، وهو تعليلُ حكمةٍ، والمعنى: أنَّ الحكمةَ الَّتي مِن أجلها خلقَ اللّه تعالى الجنَّ والإنسَ هو عبادَتُهم اللّه تعالى، فمنهم مَن أذعنَ، واستجابَ، ومِنهم مَن حادَ عَن ذلكَ، فاللّامُ يُرادُ بها التَّعليل الشَّرعيُّ، أي: لأجل أن يعبدوني؛ إذ آمُرُهم، فيمتثلون أمري، وليست اللّام هنا تعليلًا قدريًا؛ لأنَّه لو كان تعليلًا قدريًا؛ لَلَزِمَ أن يعبُدَهُ جميع الجنِّ والإنس، لكنَّ اللّام هنا؛ لبيان الحكمةِ الشَّرعية في خلق الجنِّ والإنسِ"[2].

ركَّب الله تعالى في الثَّقلين عقولًا، وخلَق لهم حواسَّ لو خُلّيَت ونفسَها عَرَفَت صانعَها، وانقادت له

أو المعنى: "أنَّه سبحانه ركَّب فيهم عقولًا، وخَلَق لهم حواسَّ ظاهرةً وباطنة، لو خُلّيَت ونفسَها؛ عَرَفَت صانعَها، وانقادت له، كما

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 22.

(2) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم، من الحجرات إلى الحديد، ص: 166.

في الحديث: «كُلُّ مَوْلودٍ يولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ»[1]، فشُبِّه اقتضاءُ حالهم لِما ذُكِر بِجَعْلِها غايةً له، واستُعمِل فيه ما وُضع له، وهو اللّام بطريق الاستعارةِ التَّبعيَّة"[2].

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ مضارعًا:

وجوبُ عِبادَةِ الله تعالى على الثَّقلينِ مُدَّةَ حياتِهم

عُبِّر بفعل العبادَةِ فعلًا مضارعًا في قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؛ لإفادَةِ مَعْنى الدَّوامِ والاستمرارِ؛ إذ العبادُ مأمورونَ بعبادَةِ اللّه تعالى مُدَّةَ حياتِهم، كما قال اللّه سُبحانَهُ آمرًا نبيَّه ﷺ: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: 99]، والخطاب له خطابٌ لأمَّته ﷺ.

بلاغَةُ المجازِ في لفظِ العبادة:

التَّنبيهُ إلى المقصودِ مِنَ الخلق ابتداءً

يرى الطَّيبيُّ أنَّ العبادَةَ هنا مستعمَلَةٌ في الأمرِ بها؛ تعبيرًا بالمُسَبَّب عن سببه، أي: إنَّه مجازٌ مرسل، فقد قال: "﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وحجَّةٌ على المعاندين، فإنَّك ما بُعِثتَ إلّا للدَّعوة، وما خُلق الجنُّ والإنس إلّا لأن يُؤمروا بالعبادة؛ لأنَّهم مُكَلَّفون امتحانًا وابتلاءً.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: 5]، أمّا الإرادة؛ فكما تعلَّقت بالعبادة؛ تعلَّقت بما يُخالفها، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: 179]، ويؤيِّد هذا التَّأويل ما روينا عن مُحْيي السُّنَّة عن عليٍّ ﷺ: أنَّه قال: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، إلّا لآمرهم أن يعبدوني"[3].

والنُّكتةُ في التَّعبير بالمجازِ هنا: التَّنبيهُ إلى النَّتيجةِ ابتداءً.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، رقم: (1385)، ومسلم في صحيحه، رقم: (2658)، واللفظ للبخاريِّ.

(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 99.

(3) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 37.

سرُّ إيثار التَّعبير بالعبادة دون الطّاعة والخدمة وغيرهما:

العبادةُ لله تعالى وحدَه، أمّا الطّاعة والخِدمة ونحوُهما؛ فتُطلقُ عليه وعلى غيره

وجهُ التَّعبير بالعبادة هنا دون الطّاعة، والخِدمة، والتَّعظيم؛ لأنَّ "في العبادة خصوصيَّةَ معنًى، ليس ذلك في الطّاعة والخدمة، وغير ذلك من الأفعال ... إذ لم يُجِز العبادة لغيره، وأجازَ الطّاعة والخدمة والتَّعظيم، وغير ذلك من الأفعال، كقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: 80]، فدلَّ أنَّ في العبادة معنًى ليس ذلك المعنى في غيره؛ لذلك وقعت الخصوصيَّة له؛ ولذلك خَصَّ نفسه بتسمية (الإله)، ولم يَجُز التَّسمية به لِغيره؛ إذ (الإله) عندهم معبود، فكلُّ معبودٍ عندهم يسمّونه: إلهًا، وذلك كما خَصَّ نفسه بتسمية: (الرَّحمن)، فلم يجعل ذلك لغيره، وجاز تسمية غيره: رحيمًا؛ لِما أنَّ في اسم الرَّحمن زيادةَ معنًى ليس في الرَّحيم، وكذا خَصَّ نفسه بتسميته: (خالقًا)، ولم يَجُز هذا الاسم لِغيره؛ لِما أنَّ في (الخالق) معنًى ليس ذلك المعنى في (الفاعل) وغيره، فكذلك هذا"[1].

غرضُ الخبر في الآية:

انحرافُ المشْرِكين عن فِطْرَةِ الله تعالى

قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ "خبرٌ مستعمَلٌ في التَّعريض بالمشركين الَّذين انحرفوا عن الفِطْرَة الَّتي خُلِقوا عليها، فخالفوا سُنَّتَها اتِّباعًا لِتضليل المُضِلّين"[2].

علَّةُ فَصْل جملة ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ﴾ عمّا قبلها:

تقريرُ حِكْمَةِ خَلْقِ العِباد، ودفْعُ ما لا يَنْبَغي مِنَ المعاني

فُصِلت جملة: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ﴾ عن جملة: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ لِكَمال اتِّصال مَعنَيَيهما؛ إذ إنَّها "تقريرٌ لمعنى ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ بإبطال بعض العِلَلِ والغايات، الَّتي يَقصدها الصّانعون شيئًا يَصْنَعونه، أو يتَّخذونه، فإنَّ المعروف في العرف أنَّ مَن يتَّخذ شيئًا إنَّما يتَّخذه لنفع نفسه"[3].

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 395.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 25.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 28.

فالجملةُ الثّانية "بيانٌ لكون شأنه تعالى مع عبادهِ متعاليًا عن أن يكون كشَأْنِ السّادة مع عبيدهم؛ إذ يَملكونهم؛ ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم وتهيئة أرزاقهم، أي: ما أُريد أن أصْرِفَهُم في تحصيل رِزقي ولا رزْقِهم، بل أتفضَّلُ عليهم بِرزقهم، وبما يُصْلِحُهم، ويعيِّشهم من عندي، فليَشتَغِلوا بما خُلِقوا له من عبادتي"[1].

معنى (ما) في جملتي: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ﴾، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾:

لا تعود منافعُ عبادة العِباد إلّا على أنفُسِهم

(ما) في قوله: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ نافيةٌ إرادةَ اللّه تعالى من عباده الرِّزق والإطعام، وفي هذا النَّفي كنايةٌ عن أنَّ "ما يُريده ﷻ من عبادة العابدين ومن إيمان المؤمنين هو لِذات أنفُسِهم، وللخير الَّذي يُحَصِّلونه من العِبادة والإيمان، وللجزاء الحسَن الَّذي يَنالونَهُ بطاعَتِهم للّه تعالى، وولائهم له، فليسَت هذه العبادة، وهذا الولاءُ ممّا ينتفع اللّه ﷻ بشيء منه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾ [آل عمران: 97]، ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ [الزمر: 7]"[2].

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿أُرِيدُ﴾ مضارعًا:

كـمـالُ غِـنـى اللّه تعالى عن المخلوقينَ

عُبِّر بفعلِ الإرادة مضارعًا في قوله: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾؛ لإفادَةِ معنى الدَّوام والاستمرارِ، والمقصودُ دوامُ النَّفي واستمرارُهُ، لا نفيُ الاستمرارِ، وذلك يقتضي دوامَ استغنائهِ تعالى عن عبادة عبادهِ.

معنى (مِنْ) في القيد ﴿مِنۡهُم﴾:

استغناءُ اللّه تعالى عن كلِّ ما سواه

(مِنْ) في ﴿مِنۡهُم﴾ من قوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم﴾ حرفٌ يُرادُ به ابتداءُ الغاية المكانيَّة، أي: إنَّه سبحانه لا يُريد منفعةً تنشَأُ منهم، أو تبدأ من قِبَلِهم؛ استغناءً بنفسه عن كلِّ ما سواه.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 145.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 538.

معنى ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن رِّزۡقٖ﴾:

لا يرجِعُ نَفْع عبادة الإنس والجنّ إلّا إليهم

﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن رِّزۡقٖ﴾ صِلَةٌ يُرادُ بها تأكيدُ العموم[1]؛ إذ تفيدُ التَّنصيص على عموم النَّفي، وتُقَرِّر نَفْيَ كلِّ قليل من الرِّزق، وكيف يُريد سبحانه منهم رِزقًا، وهو الغنيُّ، وهم الفقراء إليه، وهو الَّذي يَرزقهم؟ وفي إيرادِ ﴿مِّن﴾ إضافةً إلى عموم نفي إرادة الرِّزق منهم دلالةٌ على أنَّ نَفْع عبادتهم إنَّما يعود عليهم، ولا يعود عليه سبحانه منه شيءٌ.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿رِّزۡقٖ﴾ منكَّرًا:

الـرِّزق أعمُّ من الطَّعام والشَّراب

الرِّزق: ما يُنْتَفَع به، سواءٌ أكان حلالًا أم حرامًا[2]، فمعنى قوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ﴾: "ما أريد منهم أن يَرْزُقوا أنفسَهم، ولا أن يُطْعِموا أحدًا من خلقي، إنَّما عليَّ رزقهم وإطعامهم، كقوله تعالى: ﴿۞وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: 6]، ويحتمل: ما أريد منهم أن يرزقوا مَن لا يقومُ بأسباب الرِّزق، وأن يطعموهم؛ إذ ذلك عليَّ، وإنَّما أريد منهم العبادة.

أو أنَّه لم يَخْلُقْهُم لحاجة له في خَلْقِهم من الرِّزق والإطعام منهم؛ لِما أقام من دلالاتٍ تُبرِّئه عن الحوائج، وعن الرِّزق والطَّعام، وإنَّما خلقهم للأمر والنَّهي والامتحان، فرجعت منافعُ ذلك إليهم"[3].

وفي تنكير ﴿رِّزۡقٖ﴾ دلالةٌ على ضآلته وقِلَّته، فلا يُريد تعالى منهم أدنى رِزْقٍ ولا أقلَّهُ، لا لأنفُسِهم ولا لغيرهم.

بلاغةُ الكناية والمجاز في قوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ﴾:

إذا قَحَطَ النّاسُ؛ صار الطَّعام أشدَّ ما يُحْتاجُ إليه

في قول الله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ﴾: "كناية عن عدم الاحتياج إليهم؛ لأنَّ أشدَّ الحاجات في العُرف حاجةُ النّاس إلى

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 111.
(2) العراقي، الغيث الهامع شرح جمع الجوامع، ص: 758.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 396.

الطَّعام واللِّباس والسَّكن، وإنَّما تَحْصُل بالرِّزق، وهو المال؛ فلذلك ابتُدِئ بِه، ثُمَّ عُطِف عليه الإطعامُ، أي: إعطاء الطَّعام؛ لأنَّه أشدُّ ما يَحتاج إليه البشَرُ، وقد لا يَجده صاحبُ المال إذا قَحَط النّاسُ، فيحتاج إلى مَن يُسلفه الطَّعامَ، أو يُطعمه إيّاه، وفي هذا تعريضٌ بأهل الشِّرك؛ إذ يُهدون إلى الأصنام الأموالَ والطَّعام، تتلقّاه منهم سَدَنَةُ الأصنام"[1]، ونفيُ الحاجة أيضًا مجازٌ مرسلٌ علاقته المُسبَّبيَّة، من حيث ذِكْرُ المُسبَّب، وإرادَةُ السَّبب[2].

معنى (الواو) في ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾:

التَّرقّي في بيانِ كَمالِ غِنى الله سُبْحانَه

(الواو) في قوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدها على جملة: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ﴾؛ لما بينَهما من التَّوسُّط بين الكمالين؛ إذ الجملتان متَّحدتانِ في الخبريَّة، وبينَهما تناسبٌ في اللَّفْظِ والمعنى، فأمّا في اللَّفظ؛ فاتِّحادهما في الفعليَّةِ، واتِّفاقُهما في المسنَدِ والمسنَدِ إليه فيهما، وتصدُّر النَّفْي، وأمّا في المعنى؛ فلِما فيهما من بيانِ كمالِ غِنى اللّه تعالى عَن خَلْقه.

وفي هذا العطفِ ترقٍّ في الغِنى عن المخلوقين؛ لأنَّ الحاجة إلى الطَّعام خصوصًا أهمُّ من الحاجة إلى الرِّزق عمومًا، وبخاصَّة إذا قَحَط النّاس؛ لأنَّ الحياة تتوقَّف حينئذٍ على الطَّعام دون بقيَّة الرِّزق؛ مِن ملبَسٍ ومسكَنٍ ومركَبٍ وغيره، ففي نَفْيِ إرادَتِه وطلبه مِنَ المَخْلوقينَ دليلُ الصَّمديَّة، وكمالِ الغِنى.

نكتةُ إعادة الإرادة المنفيَّة في قوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ﴾:

كمالُ استِغناء الله تعالى عَن خَلقِهِ

كرَّر النَّظم الكريم نَفْيَ الإرادتين: إرادةِ الرِّزق وإرادة الطَّعام؛ "لأنَّ السَّيِّد قد يطلُب من العَبْدِ التَّكسُّبَ له - وهو طلَبُ الرِّزق - وقد لا يطلب؛ لأنَّه غنيٌّ، ولكن يطلب قضاء حوائجه من حِفْظِ المال

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 28.

(2) قباوة، المفصّل، ص: 1851.

وإحضار الطَّعام، فنفيُ الإرادة الأولى لا يستلزم نَفْيَ الإرادةِ الثّانية؛ فكرَّر النَّفيَ على معنى: لا أريد هذا، ولا أريد ذلك"[1].

نكتةُ التَّعبير بالمصدر المؤوَّل ﴿أَن يُطۡعِمُونِ﴾ بعد الصَّريح ﴿رِّزۡقٖ﴾:

اللهُ تعالى غنيٌّ عن أن يُقدِّم عبادُه له رزقًا، أو يقوموا على خِدْمَتِه

خالَفَ النَّظمُ الكريم بين صياغَتَي الخَبَرَين: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ﴾، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾، وكان السّياق يقتضي أن يقابَل ﴿يُطۡعِمُونِ﴾ بـ (يَرزُقون)، أو يقابَل ﴿رِّزۡقٖ﴾ بـ (طعام)، فيُقابَل الفعلُ بالفعل، أو الاسمُ بالاسم.

لكنَّه آثر المصدر المؤوَّل من ﴿أَن﴾ والفعل ﴿يُطۡعِمُونِ﴾؛ لأنَّ المقصود في الخبر الأوَّل نفيُ عينِ الرِّزق لا الفعل، والمقصود في الثّاني نفي الفعل نفسِه - وهو إعطاءُ الطَّعام - والمراد أنَّ اللّه تعالى غنيٌّ عن أن يُقدِّم عبادُه له رزقًا، أو يقوموا على خِدْمَتِه[2]، والمعنى: "لا أريد أن أُصَرِّفَكم في تحصيلِ رِزْقي ولا رِزْقِكُم، وأنا غنيٌّ عنكم وعن مرافقِكم، ومتفضِّلٌ عليكم بِرِزْقكم، وبما يُصلحكم، ويُعَيِّشُكم مِن عندي، فما هو إلّا أنا وحدي المَتينُ الشَّديدُ القوَّة"[3].

دلالةُ التَّعبير بالإطعام مضافًا إليه سبحانه:

الـرِّزق أعمُّ مِن الأكـل؛ إذ هو كلُّ ما يُنتفع به

في التَّعبير بالإطعام في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ "تعريضٌ بأصنامهم، فإنَّهم كانوا يعملون معها ما يَنْفَعُها، ويُحْضِرون لها الأكل، فربَّما أكلتها الكلابُ، ثمَّ بالَت على الأصنام، ثُمَّ لا يَصُدُّهم ذلك، وهذه الآية دليلٌ على أنَّ الرِّزق أعمُّ مِنَ الأكل"[4].

ومعنى ﴿يُطۡعِمُونِ﴾، أي: "أن يُطۡعِموا عبادي، وهي إضافةُ تخصيصٍ"[5]، فـ "أسند الإطعام إلى نفسِه؛ لأنَّ الخلق عيالُ اللّه

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1110.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1111.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 406.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 481.
(5) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 381.

تعالى، فمَن أطعم عيالَ اللّه؛ فهو كَمَن أطعمه، وهذا كما ورد في قوله ﷺ: «يقول اللّه: عبدي استطعمتك، فلم تطعمني»[1]، أي: لم تطعم عبادي"[2]، أو "أن يكون الإطعام هنا بمعنى النَّفع على العموم، كما تقول: أعطيتُ فلانًا كذا وكذا طُعْمَةً، وأنت قد أعطيتَه عَرَضًا أو بَلدًا يُحييه، ونحو هذا، فكأنَّه قال: ولا أريد أن يَنفعوني، فذَكر جزءًا من المنافع، وجعله دالًّا على الجميع"[3].

نكتةُ تقديمِ نفي إرادةِ الرِّزق على نفي إرادةِ الإطعام:

الطَّعامُ أهمُّ للإنسان من عمومِ الأرزاقِ

تقديم نفي إرادة الرِّزق على نفي إرادة الإطعام، "من باب التَّرقّي في بيان غِناه ﷻ، فكأنَّه سبحانه يقول: لا أريد منهم رزقًا، ولا ما هو دون ذلك من تقديم الطَّعام"[4]، ويُحقِّق هذا التَّقديم فضيلةَ إفراد الخاصِّ بالذِّكرِ بعد العامِّ؛ تنبيهًا إلى أهمّيَّة ذلك الخاصِّ المُفرَد بالذِّكر من بين أنواع العامِّ المقدَّم؛ فالإطعامُ أمسُّ مطلَبٍ للحيِّ عمومًا والإنسانِ خصوصًا، فأُفرِد بالذِّكر تطمينًا للإنسان بضَمان إطعامِه، وأنَّ طعامَهُ عند اللّه تعالى لا عندَ خَلْقه.

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ عمّا قبلهُ:

تعليلُ الأحكامِ بعَظيمِ الأوصافِ

فُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾، عن قوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾؛ لِتنزُّل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ منزلة العلَّة من قوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾؛ فَلِأنَّه سبحانه الرَّزّاق - كثيرُ الرِّزق منوَّعُه - لا يريد رزقًا مِن أحَدٍ من خلقهِ ولا إطعامًا مِنهم.

دلالةُ التَّوكيد في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾:

التَّوكيد بـ ﴿إِنَّ﴾ وضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، رقم: (2569).

(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 111.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 183.

(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1111.

ﵟٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُﵞ، يقتضيه حالُ المشركين، وشكُّهم في ذلك بموجب شِرْكِهم، كما يقتضيه جلالُ الحُكم في نفسه، فهو من المعاني الَّتي تُؤكَّد في نفسها، وإن لم يوجَد مُنكِرٌ، كما قال ابنُ حجر: "وقَد يَكونُ التَّأكيدُ مِن جِهةِ أنَّ القَضيَّةَ في نَفْسِها مِمّا يُهْتَمُّ به، وإن لَم يَكُنْ هُناكَ مُنْكِرٌ"(1).

جلالُ الحُكم في نفسِه من مقتضيات التَّوكيد

لطيفةُ إظهار الاسمِ الأحسَنِ في قوله: ﵟإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُﵞ:

آثَرَ النَّظمُ إظهارَ التَّعبير بالاسم الأحسَنِ، في قوله تعالى: ﵟإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُﵞ، "وكان الظّاهر أن يأتي السّياق الكريم: (إنّي أنا الرَّزّاق) ... لكن التُفِتَ إلى التَّصريح بالاسم الجليل؛ لبَعْثِ الهَيْبَة في النُّفوس، وأنَّه هو الرَّزّاق وحدَهُ دون سواه"(2)؛ لأنَّه في نظر بعض العُلماءِ "الاسمُ الأعظم الَّذي لم يتَّسم به غيرُه، ﵟٱللَّهَﵞ المحيط بجميع صفات الكمال المنزَّه عن شوائب النَّقص"(3).

للتَّصريح بالاسم الأحسَنِ هيبَةٌ في النُّفوس

دلالةُ التَّعبيرِ بضميرِ الفَصْلِ في جملةِ: ﵟإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُﵞ:

التَّعبير بضميرِ الفَصْلِ في قوله: ﵟإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُﵞ عنصرٌ قويٌّ من عناصر توكيد الحكم بانفراده ﷻ بالرِّزق الوفير، وأنَّه تعالى المنفرد بالقوَّة المطلقة والمتانة التّامَّة، ففي قوله: ﵟإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُﵞ أسلوبُ قصرٍ، بتعريفِ جُزأي الجملة ﵟٱللَّهَﵞ وﵟٱلرَّزَّاقُﵞ، وضميرُ الفصل ﵟهُوَﵞ يُرادُ به توكيدُ القصْرِ، والمعنى: "لا رزّاق، ولا ذا قوَّة، ولا متين إلّا الله، وهو قصر إضافيٌّ، أي: دون الأصنام الَّتي يَعْبُدونها، فالقَصْرُ قصرُ إفرادٍ بتنزيل المشركين في إشراكهم أصنامَهم بالله تعالى منزلةَ مَن يدَّعي أنَّ الأصنام شركاء لله تعالى في صفاته الَّتي منها: الإرزاق، والقوَّة، والشِّدَّة.

الله تعالى وحدَه المنفرِدُ بالإرزاق والقوَّة المطلقة والمتانة التّامَّة

(1) ابن حجر، فتح الباري: 1/ 74.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1111.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 482.

فأبطل سبحانه ذلك بهذا القصر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: 17]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ [الحج: 73]"[1].

بلاغةُ الالتفاتِ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾:

كمالُ الله ﷻ مُطلقٌ

في إظهار الاسم الأحسنِ ﴿ٱللَّهَ﴾، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ تنبيهٌ على أنَّه اللّه سبحانه الكامل الكمالَ المطلق[2]، فهو التفاتٌ من باب "إخراجِ الكلام على خلاف مقتضى الظّاهر؛ لأنَّ مُقْتَضاه: إنّي أنا الرَّزّاق، فعدل عن الإضمارِ إلى الاسم الظّاهر؛ لِتكون هذه الجملةُ مستقلَّةً بالدَّلالة؛ لأنَّها سُيِّرَت مسيرَ الكلام الجامعِ والأمثال"[3]، والأمثالُ تستقلُّ تركيبيًّا عمّا قبلها في السّياق؛ ليتأتّى للمُتَمَثِّل بها أن يورِدَها منفردةً.

معنى (أل) في ﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾، ولطيفةُ صوغه على (فعّال):

كمالُ اتِّصاف الله تعالى بالرّزق

(أل) في ﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾ لتعريف العهد العلميِّ، أي: هو الرَّزّاقُ الَّذي عهِدْتُم خيراتِه عليكم تترَى، الرَّزّاق أرزاقًا تَليق بِجلاله، الَّذي يَعْرِفُه البشر في حدود ما تُطيقه أفهامهم، وفي (أل) أيضًا معنى الكمالِ، فهو الكاملُ في اتِّصافه بالرّزق.

وصوغ ﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾ على صيغةِ المبالغة (فعّال)؛ يتّسِق مع كثرة أرزاقه على عباده، والمبالغة في ذلك بـ "تَكرار الأرزاق لكلِّ حيٍّ، وفي كلِّ وقت"[4].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 29.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 539.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 29، بتصرف يسير.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 482.

معنى ﴿ذُو﴾ في قوله: ﴿ذُو ٱلۡقُوَّةِ﴾، ودلالة تعريف ﴿ٱلۡقُوَّةِ﴾:

قوَّةُ الله تعالى كاملةٌ خَليَّةٌ من النَّقائص

﴿ذُو﴾ في قوله: ﴿ذُو ٱلۡقُوَّةِ﴾ بمعنى (صاحب)، أي: إنَّه سبحانه صاحبُ "القوَّة الَّتي لا يَملِكُها الخلق"[1]، وأنَّه مانحٌ منها ما يشاء لمن يشاء من خَلقه، ويسلب ما منح متى شاء؛ لأنَّه صاحِبُها، وفي قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلۡقُوَّةِ﴾، أي: "ذو البطش الشَّديد فيما أهلَك الأُممَ الخالية"[2]، و"من خصائص ﴿ذُو﴾ أن تضاف إلى أمرٍ مُهِمٍّ، فعُلِم أنَّ القوَّة هنا قوَّةٌ خَليَّةٌ من النَّقائص"[3]، فتكون (أل) في ﴿ٱلۡقُوَّةِ﴾ لإرادَةِ الكمالِ.

دلالةُ تعريف الوصف ﴿ٱلۡمَتِينُ﴾:

اللـه تـعـالى الكامِلُ في قوَّته، الَّذي لا يُعارَض، ولا يُدانى

﴿ٱلۡمَتِينُ﴾: الشَّديدُ، وهو هنا وصفٌ لِـ ﴿ذُو ٱلۡقُوَّةِ﴾، أي: الشَّديدُ القوَّةِ، وقد عُدَّ ﴿ٱلۡمَتِينُ﴾ في أسمائه تعالى، وذلك يرجع إلى معاني القُدرة، و﴿ٱلۡمَتِينُ﴾: كمالٌ في قوَّته، بحيث لا يُعارَض، ولا يُدانى[4].

و(أل) في ﴿ٱلۡمَتِينُ﴾ لتعريفِ العَهْدِ العلميِّ، أي: ﴿ٱلۡمَتِينُ﴾ الَّذي عهِدتم متانَةَ قُدرتِه، وعَرَفْتُموها في حدودِ ما تُطيقُه أفْهامُكُم، و﴿ٱلۡمَتِينُ﴾ متانةً تَليق بعَظَمَتِه.

بلاغةُ اللَّفِّ والنَّشر في ترتيب الأخبار:

الـتَّراكـيـب القرآنيَّة تَتَّسِم بـالالـتـئـام والوَثاقة

في ترتيب أخبار الآية الكريمة ﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾، ﴿ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ لَفٌّ ونَشْرٌ مرتَّبٌ بديعٌ؛ منح التَّركيب التئامًا ووَثاقة؛ لأنَّ "كونَ اللّٰه تعالى ﴿هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ ناظرٌ إلى عدم طلب الرِّزق؛ لأنَّ مَن يَطْلُبه يكون فقيرًا محتاجًا، وكونه ﴿ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ ناظرٌ إلى عدم طلَبِ العمَلِ المراد مِن قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾؛ لأنَّ مَن يطلبه يكون

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 397.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 397.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 29.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 29.

عاجزًا لا قوَّةَ له، فكأنَّه قيل: لا أريد منهم من رزق؛ لأنّي أنا الرَّزّاق، وما أريد منهم مِن عملٍ كالإطعام؛ لأنّي قويٌّ متينٌ"[1].

و"المتانةُ مع القوَّة كالعِزَّة مع القوَّة؛ إذ ذَكَرَ اللّٰه تعالى في مواضع ذِكر القوَّة والعِزَّة، فقال: ﴿قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٢٥﴾ [الحديد: 25]، وقال: ﴿ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ۝٦٦﴾ [هود: 66]"[2].

---

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1111.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 196.

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ٥٩ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ٦٠﴾ [الذاريات: 59 - 60]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلهما:

مَنْ عبدَ غيرَ الله تعالى؛ فقد ظَلَم نفسَه؛ بوضْعه عبادتَه في غير مَوْضِعها

لمّا بيَّن تعالى أنَّ مَن يضَعُ نفسه في موضع عبادة غير اللّه، يكونُ وضعَ الشَّيء في غير موضعه، فيكون ظالمًا، وإذا ثبت أنَّ الإنس مخلوقون للعبادة؛ فإنَّ الذين ظلموا، وحادوا عن تحقيق تلك الغاية، بعبادة غيره سبحانه، لهُم هلاكٌ مثلُ هلاك من تقدَّم، فالكافر إذا ظلَم، ووضع نفسَه في غير موضعه؛ خرج عن الانتفاع، فَحَسُنَ إخلاء المكان عنهُ، وحقَّ نزولُ الهلاك به[1]؛ فمن هنا أخبر اللّه تعالى نَبيَّه ﷺ بأنَّ الَّذين كذَّبوه، سَينالُهم قِسْطٌ ونصيبٌ ممّا نال غيرَهم ممَّن ارتكبَ مُرْتَكِبهم، وسلك مسلكهم بعد أن أقسَم سبحانه على الصِّدق في وعيدهم، ودلَّ على ذلك بجميع قصد أحوالهم على إرادتِه، وختم بقوَّته الَّتي لا حدَّ لها[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذَنُوبًا﴾: أصلُ (ذنب) يدلُّ على مُؤَخَّرِ الشَّيء، ومنه: الذَّنَبُ، وهو مُؤَخَّرُ الدَّوابِّ؛ ولذلك سُمّيَ الأتباعُ الذُّنابى، والمَذانِبُ: مَذانِبُ التِّلاعِ، وهي مَسايِلُ الماءِ فيها[3]، والذَّنوبُ: الفرس الطَّويل الذَّنَب، والدَّلو الَّتي لها ذنَب، واستعير للنَّصيب، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ﴾[4]، وهو معنى اللَّفظ في الآية، أي: نصيبًا من العذاب، وهو تمثيلٌ لهيئةِ تَساوي حظِّ الَّذين ظلموا

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 197.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 450، و18/ 482.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذنب).
(4) الراغب، المفردات: (ذنب).

مِنَ العَرَبِ بحظوظِ الَّذين ظلموا من الأُمم السّالِفَةِ؛ بهيئة الَّذين يَسْتَقون من قليبٍ واحدٍ؛ إذ يَتَساوَوْنَ في أنصِبائهم مِنَ الماءِ(1).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

سُنَّةُ الله تعالى في إهلاكِ الظّالمين المُصِرّين على كُفرهم ماضيةٌ في خلقه

إذا علمتم - يا كُفّار قريشٍ - أنَّ غاية خَلْق الجنِّ والإنسِ هي عبادة اللّه تعالى؛ فاعلموا أنَّ مَن حاد منكم عن تلك الغاية؛ فقد ظلَم نفسه، وظلَم رسولَنا ﷺ بوضعه الأمور في غير مواضِعها، فاستوجب عقوبةً مثلَ عقوبة مَن حادوا عنها، وظَلَموا أنفسَهم، وظلموا رُسُلنا - عليهم السلام - مِن الأمم السّابقة، وثِقوا أنَّ تلك العقوبة آتيةٌ لا محالة، وإنَّما هو الأجل المؤجَّل عند اللّه تعالى لنزولها بالظّالمين؛ فلا تَتَحدَّوا رسولَنا ﷺ بالاستعجالِ بإنْزالِ العذابِ بِقَوْلِكُم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [هود: 32].

واعلموا أنَّ الكافرين ينتَظِرُهم ويلٌ شديدٌ وهلاك أكيدٌ في اليوم الَّذي حدَّده اللّه تعالى لهلاكهم وإذْلالِهم هنا في الدُّنيا، أو هنالك في الآخرة، وقد كانَ في الدُّنيا يومَ بدر، وفي الآخرة العذابُ الكبيرُ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾:

مَن توجَّه بعبادته إلى غير الله تعالى؛ استوجَب العذابَ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ تفريعيَّة؛ إذ تُرَتِّبُ نَيْل ظالمي أنفسهم قِسْطًا من العذاب، كالَّذي ناله أضرابُهم من كفّار الأمم السّابقة؛ بِسبب عدم توجُّههم بعبادتهم إلى اللّه تعالى، وعدم إخلاصهم إيّاها له جل جلاله وحدَه، وصرفِهم إيّاها إلى غيره سبحانه(2).

دلالةُ التَّوكيد في قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا﴾:

التَّوكيد بـ (إنَّ) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 30.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 30.

المبالغة في التَّكذيب تقتضي العقوبة الأكيدة

﴿ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ﴾ يعكِس عِظَمَ جُرم مشركي مكَّة، ومدى تَكْذيبهم بتوعُّد الرَّسول ﷺ إيّاهم، و"لذلك فرَّع على التَّأكيد، قال: ﴿فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ﴾؛ لأنَّهم كانوا يستعجلون بالعذابِ استهزاءً وإشعارًا بأنَّه وعدٌ مَكْذوب في الواقع، يستعجلون اللّه تعالى بوعيده"[1].

علَّة التَّعبير بالموصول (الذين):

نيلُ الظّالمين نصيبَهم من العذاب مُسبَّبٌ عن تعدّيهم على الله ورسولِه

مِن خصائص التَّعبير بالاسم الموصول (الذين) أنَّه يقتضي بعدَهُ جملةَ صِلةٍ كاملة، فَيُتيح مِن الدَّلالات الَّتي تَغيب بِغيابه ما يَغْمُر السّياقَ بالإشارات البلاغيَّة الثَّريَّة، الَّتي منها في قوله تعالى هنا: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا﴾، أي: "وهم أهلُ مكَّة وأحزابهم من الكفّار"[2]، ومن هنا فالإتيانُ في ذِكْرِهم بالموصولِ، إمّا أن يكون لتعريفِ العَهْدِ مُرادًا منه القومُ المَعْهودونَ بالشِّرك وأذى النَّبيِّ ﷺ، وإمّا أن يكونَ المَوْصولُ لتَعْريفِ الجِنسِ المفيدِ الاستغراقَ.

وعَدَلَ عَن تعريفهم بالاسم الظّاهر إلى الموصول أيضًا لِما في الصِّلة مِنَ الإيماء إلى سببِ الخَبَر وعِلَّته، وأنَّها سببُ ثُبوتِ المُسْنَد للمُسْنَدِ إليه، فيُفيد أنَّ نيلهم نصيبَهم من العذاب مُسبَّبٌ عن ظُلْمهم وتعدّيهم على اللّه ورسوله بالشِّرك والصَّدِّ، والكيد؛ تمهيدًا لقوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾.

نكتةُ تقديم القيد ﴿لِلَّذِينَ﴾ على المسند إليه ﴿ذَنُوبٗا﴾:

شِدَّةُ عذاب الظّالمين، وبيانُ استحقاقهم له واختِصاصِهم به

تقديمُ الجارِّ والمجرور - المتعلِّق بالمسند المحذوفِ - ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، على المسند إليه ﴿ذَنُوبٗا﴾، يَدْعَم استحقاقَ هؤلاء المشركين ذلك الذَّنوبَ؛ استحقاقًا يكاد يختصُّ بهم؛ إذِ الاختصاصُ أحَدُ أهمِّ عطاءاتِ التَّقديم، فكأنَّه هنا يُهدِّدُهم به؛ زيادةً في التَّحذير مِمّا هم فيه مِن ظُلْمِ النَّفس والدّين والرَّسول ﷺ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 31.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1112.

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿ظَلَمُواْ﴾ ماضيًا مسندًا إلى واو الجماعَةِ:

الكُفْرُ ظلمٌ، بل أشدُّ الظُّلم

التَّعبيرُ بالظُّلم في جملة الصِّلة ﴿ظَلَمُواْ﴾، يعني: وضْعَ الشَّيء في غير موضعه[1]، وأنَّ المُشْركينَ والكفّار بعِبادَتِهم غيرَ اللّه تعالى قَد ظلَموا، فالمقصودُ بالظُّلم هنا الكفرُ، كما قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13]، والتَّعبير بالظُّلم يُسْهِمُ في بيان وجه استحقاقِهم ذلكَ العذابَ، وأنَّهُ جميعُهم، وكلُّ مَن اتَّبع طريقتهم بما يُشير إليهِ إسنادُه إلى واوِ جَماعَتهم.

نكتة حَذْف مفعول الظُّلم:

جنسُ الظُّلم مجرَّمٌ، بِغَضِّ النَّظر عن تعلُّقه بمظلوم مخصوصٍ

حُذِف مفعول الظُّلم في قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا﴾، والتَّقدير: ظلموا أنفسَهُم؛ وذلك بِتعريضها للعذابِ الخالِد بِتَكذيب الرَّسول ﷺ، والإصرارِ على الشِّرك والبَغْي والفساد[2].

ومِن لطائف حَذْفِه القصدُ إلى تعليق الحُكم بالظُّلم مطلقًا؛ لأنَّ في الظُّلم - الَّذي هو بِمَعْنى الكُفر المقصودِ هُنا - ظلمُ النَّفس، وظلمُ الدّين، وظلمُ الرَّسول ﷺ، وظلمُ عبادِ اللّه المؤمنين، ففي حَذْفِه توفيرُ عنايةِ المُتَلَقّي على كراهيَّة جنس الظُّلم، وتعليق الحكم عليه مطلقًا، بِغَضِّ النَّظر عن تعلُّقه بمظلوم مَخْصوصٍ، وتحذيره مِنَ الاتِّصاف بِه، ولَو ذُكِر له مفعولٌ؛ لتعلَّق تحريمُه، وارْتَبَط بِه.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿ذَنُوبٗا﴾، ونُكْتَةُ تنكيره:

القرآنُ الكريم يُخاطِب النّاس بما يعرفون

الذَّنوبُ في اللُّغة: هو الدَّلْوُ العظيمةُ، وهو السَّجْلُ أيضًا؛ إذا مُلِئَت، أو قارَبَت المِلْءَ، والذَّنوب: الدَّلو الَّذي له ذَنَبٌ[3]، و"يُقال: يومٌ ذَنوبٌ، أي: طويلُ الشَّرِّ لا ينقضي[4]، فعبَّر عن نصيبهم الَّذي قدَّره

(1) الجوهري، الصحاح: (ظلم).
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 47.
(3) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 213.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 111.

عليهم من ذلك بقوله: ﴿ذَنُوبًا﴾، أي: حظًّا من العذاب طويل الشَّرِّ، كأنَّه مِن طولِه صاحبُ ذنَبٍ[1]، وإنَّما أُريد بالذَّنوبِ في الآية الكريمة الحظُّ والنَّصيبُ، ومنه قولُ علقمةَ بنِ عبدةَ:

وفي كلِّ قومٍ قد خَبَطْتَ بنعمةٍ *** فحُقَّ لِشأسٍ مِن نَداك ذَنوبُ[2]

أي: نصيبٌ، وأصلُه: ما ذُكِر[3].

ومعنى الآية الكريمة: فإنَّ للذين ظلموا عذابًا مثل عذاب أصحابِهم، أو سبيلًا، أو دَلْوًا - ولا يُسَمّى الذَّنوب دَلوًا حتّى يكون فيه ماءٌ - أو نصيبًا[4]، فعبَّر عن النَّصيب بالذَّنوب لِشَبَهِه به في أنَّه يُصَبُّ عليهم العذابُ، كما يُصَبُّ الذَّنوب، قال تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ١٩﴾ [الحج: 19]، وباستعمال الذَّنوب، فإنَّ القرآن الكريم يخاطب النّاس بما يعرفون.

وجهُ مناسبة الذَّنوب لسياق الآية الكريمةِ:

المناسبات القرآنيّة دقيقةُ المنزَع

يناسب التَّعبير بالذَّنوب السّياق الشَّريفَ هنا، فكأنَّه تعالى يقول: نَصُبُّ مِن فوق رؤوسهم ذَنوبًا كذنوبٍ صُبَّ فوق رؤوس أولئك، ووجهٌ آخرُ، هو أنَّ العرب يَستَقون من الآبار على النَّوْبَة ذَنوبًا فَذَنوبًا، وذلك وقتَ عَيْشِهم الطَّيِّب، فكأنَّه تعالى قال: فإنَّ للَّذين ظلموا مِن الدُّنيا وطيِّباتها ذَنوبًا - أي: مَلْأى - ولا يكون لهم في الآخرة مِن نصيبٍ، كما كان عليهِ حالُ أصحابهم، استَقَوا ذَنوبًا، وتركوها، وعلى هذا فالذَّنوب ليس بِعذابٍ ولا هَلاك، وإنَّما هو رَغدُ العَيْش[5].

ومِن وجوه المناسبة كذلكَ: أنَّ الذَّنوب يُناسب القَليب، وقد كان مَثْواهُم يَومَ بدرٍ قَليبَ بدرٍ الَّذي رُميَت فيه أشلاءُ سادَتهم[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 483.
(2) ديوان علقمة بن عبدة الفحل، ص: 29.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 557.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 375.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 197.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 32.

عذابُ الظّالمين في الآخرة ممّا لا يُحاط به، ولا تُطيق وصفَه اللُّغة

نكتةُ حذفِ نوعِ الذَّنوب:

حُذف نَوْعُ الذَّنوب، ولم يُحدَّد في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ﴾، والتَّقدير: ﴿ذَنُوبًا﴾ من العذاب والنَّكال[1]، وفي حذفه إيحاءٌ بهَوْلِه وفظاعته، حتّى لَكأنَّه لا يُحاط به، ولا تَسَعُهُ مفرداتُ اللُّغة، ولا تُطيقه تراكيبُها.

ليس للظّالمين مأمَنٌ من الاستئصال إلّا بالتَّوبة

بلاغةُ التَّشبيه في الآية:

في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ﴾ "تمثيلٌ لِهَيْئَةِ تَساوي حظِّ الَّذين ظلموا من العرب بِحظوظ الَّذين ظلموا مِن الأمم السّالفة بِهيئةِ الَّذين يَسْتَقون مِن قَليبٍ واحد؛ إذ يَتَساوون في أنصِبائهم من الماء، وهو من تشبيهِ المعقولِ بالمحسوس.

وهذا التَّمثيل قابلٌ للتَّوزيع، بأن يُشَبَّه المشركون بِجماعةٍ وردت على الماءِ، وتُشَبَّه الأممُ الماضية بجماعةٍ سبَقَتهُم إلى الماء، ويُشَبَّه نصيبُ كلِّ جماعة بالدَّلْو الَّتي يأخذونها من الماء... وغرضُ التَّشبيه تسليةُ النَّبيِّ ﷺ، والمقصودُ: أن يَسمَعَهُ المشركون، فهو تعريضٌ"[2]، يُبين عن حال المشبَّه - حظِّ قريشٍ من العذاب - أتمَّ إبانة.

والغرضُ مِن هذا التَّشبيه أيضًا تخويفُ قريش مِن إمكان إنزالِ أيٍّ من ذلك العذاب بهم - مثل غرق فرعونَ وجُنْدِه، وغرق قومِ نوح، وريح عادٍ، وصاعقةِ ثمود - وإشعارهم بأنَّهم ليسوا في مأمَنٍ منه إلَّا بالتَّوبة والدُّخول في الإيمان، وطاعة اللّه تعالى وعبادته.

بلاغةُ الاستعارة في كلمة ﴿ذَنُوبًا﴾:

كلمة (ذنوب) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ﴾ مُستعارةٌ للحظِّ والنَّصيب، استعارةً تصريحيَّة أصليَّة؛ إذ حُذِف الحظُّ والنَّصيب، وصُرِّح مكانهما بالذَّنوب؛ ذلك أنَّهم

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 813.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 30.

كانوا "يَتَقَسَّمون الماء، فيكون لهذا ذَنوبٌ، ولهذا ذَنوب، والمعنى: فإنَّ الَّذين ظلموا رسولَ الله ﷺ بالتَّكذيب من أهل مكَّة، لهم نَصيبٌ مِن عذاب الله تعالى مثل نصيب أصحابهم ونُظَرائهم مِن القرون"[1].

النَّظمُ الكريم يَستعمِل عناصرَ بيئةِ مخاطَبيه في الإبانة عن معانيه

وفي التَّركيب كُلِّه استعارةٌ تمثيليَّة؛ إذ شُبِّهت حالُ تقسيم العذاب عليهم أنصبةً وأجزاءً بِحالِ استِقائِهم الماءَ مِن الآبار بالدِّلاء، كلٌّ بحسب دَوْرِه واحدًا بَعد واحد، ففيه "تمثيلٌ لهيئة تساوي حظِّ الَّذين ظلموا من العرب بحُظوظ الَّذين ظلموا من الأمم السّالفة بهيئة الَّذين يَستَقونَ مِن قليبٍ واحدٍ؛ إذ يتَساوَونَ في أَنْصبائهم من الماءِ"[2].

دلالَةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿أَصۡحَٰبِهِمۡ﴾:

مَن ارتَكَبَ مُرتَكَبَ الظَّالمين، وسَلَكَ مَسْلَكَهُم؛ صارَ صاحِبَهم

أصلُ مادَّة (صحب) في اللُّغة يدلُّ على مقارَنة شيءٍ ومقارَبته[3]، كما يدلُّ على الاتِّباع، والملازمة، والمعاشرة[4]، والمقصودُ بـ ﴿أَصۡحَٰبِهِمۡ﴾، في قوله تعالى: ﴿مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ﴾ "مَن ارتكب مرتَكَبَهم، وسَلَك مسلَكَهُم"[5]، مِنَ المَذْكورين في السُّورة قبْلًا للعِبْرَة، وهم قومُ نوحٍ، وفرعونُ وجندُه، وعادٌ، وثمودُ.

و"أُطْلِقَ على الأمم الماضيَةِ اسمُ وصفِ (أصحاب) الَّذين ظلموا باعتبارِ الهَيْئَةِ المشبَّهِ بها؛ إذْ هي هيئةُ جماعاتِ الوِرْدِ - أي: سُقاة الماء - يكونون مُتَصاحِبين"[6].

معنى الفاء في قوله: ﴿فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ﴾:

الــرِّزق مـا لم يَـفْـرَغْ؛ لا يأتي الأجلُ

الفاء في قوله: ﴿فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ تفريعيَّة؛ لِترتيب نَهي كفّار قريش عن استعجالِ العذاب على تأكُّد ثبوتِ الذُّنوب لهم، وقدرته

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 407.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 30.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صحب).
(4) الصاعدي، سعود بن عيد، الأحاديث الواردة في فضائل الصحابة: 1/ 56.
(5) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 450.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 30.

تعالى على إنزالِه بهم وإنفاذه فيهم، وبيان أنَّ كلَّ آتٍ قريب، والمعنى: "فلا يستعجلون، فإنَّ الرِّزق ما لم يَفْرَغْ؛ لا يأتي الأجل"(1)، وذلك على تأويلِ أنَّ الذَّنوب هو النَّصيب المحدَّد من أرزاقهم هنا في الدُّنيا.

غرضُ النَّهي في قوله: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾:

تحقُّق حلولِ العذابِ بالظّالمين وإن تأخَّر

النَّهيُ في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ مستعمَلٌ في التَّهكُّم؛ إظهارًا لِغَضَب اللّه تعالى عليهم(2)، ففيه "تهديد ووعيد لهم بأنَّ هذا الَّذي يستعجلونه من العذاب - استخفافًا به وتكذيبًا له - هو واقعٌ بهم، ويومئذٍ لا يَجدون وليًّا ولا نصيرًا"(3)، وفي نَهْيِهم عن استعجال العذاب دلالةٌ على "أنَّهم أُخِّروا إلى يوم القيامة"(4)، والمعنى: "لا يَطْلبوا منّي أن أُعَجِّل لهم العذاب، كما في قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧٠﴾ [الأعراف: 70]"(5)، "فإنَّ سُنَّة اللّه في الأمم واحدة، فكُلُّ مكذِّبٍ يَدوم على تكذيبِه من غير تَوْبة وإنابةٍ؛ فإنَّه لا بُدَّ أن يقع عليه العذابُ، ولو تأخَّر عنه مدَّةً"(6).

دلالةُ التَّعبير بالاستعجال، وأثَرُ النَّهي في المضارعة:

في استعجال الكفّار العذابَ دلالةٌ على جَهْلِهم بخُطورته

﴿يَسْتَعْجِلُونِ﴾، أي: فلا "يَطْلبوا أن آتيَهم به - أي: العذاب - قبل أوانه اللّاحق به، فإنَّ ذلك لا يفعله إلّا ناقص، وأنا متعالٍ عن ذلك، لا أخاف الفوتَ، ولا يلحقني عجزٌ، ولا أوصَف به، ولا بدَّ أن أوقِعه بهم في الوقتِ الَّذي قَضَيْتُ به في الأزل؛ لأنَّه أحقُّ الأوقات بِعِقابهم لِتَكامُل ذُنوبهم؛ فيا لَه مِن تهديدٍ ما أفظعَه! ووعيدٍ ما أعظمَه وأوجعَه! أمرًا لا يَدفعه دافع، ولا يَمنع مِن وقوعه مانع"(7).

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 197.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 31.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 539.
(4) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 182.
(5) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 111.
(6) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 813.
(7) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 483.

وفي التَّعبير بالاستعجال هنا كنايةٌ عن جَهْلِهم بِخَطَر ما يستعجلونَ به، إنَّه هلاك الاستئصالِ الَّذي حلَّ بالأمم السّابقة، غير أنَّ رحمته ﷻ بأمَّة خليله محمَّدٍ ﷺ أجَّلت عذابَهُم الدّائم الشَّديد إلى الآخرة، وأذاقَتهُم بعضَهُ في الدُّنيا، كما حدث في يوم بدر.

وكما يؤثِّر النَّهْي في مادَّةِ الاستعجال بالسَّلب؛ يؤثِّر في صيغة المضارع بالسَّلب؛ ليصير المعنى: ابقَوا مُنْتَظِرين مترقِّبين حلولَ العذاب، وهذا تهديدٌ مخيفٌ.

نكتةُ تعليقِ فعلِ الاستعجال بالضَّمير الراجِع إلى الله تعالى:

طاعةُ الرَّسول ﷺ طاعةٌ لله تعالى، وعصيانُهُ عِصْيانُه

عُلِّقَ فِعْلُ الاستعجال بالضَّمير العائدِ إلى اللّه تعالى "في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ﴾، وهم إنَّما استعجلوا النَّبيَّ ﷺ؛ لإظهار أنَّ النَّبيَّ ﷺ مخبرٌ عن اللّه تعالى؛ توبيخًا لهم وإنذارًا بالوعيد"[1].

نكتةُ حذفِ متعلّق الاستعجالِ في قوله: ﴿يَسۡتَعۡجِلُونِ﴾:

في الحذفِ توسيعٌ للمَعْنى

متعلِّقُ الاستعجال في قوله: ﴿يَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ نزولُ العذاب بهم؛ لأنَّهم قالوا: ﴿ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [الأعراف: 77]؛ فنزل بهم يومَ بدرٍ ما حقَّق اللّه تعالى به وعدَه، وعجَّل به انتقامه[2]، أو هو يومُ القيامة، الَّذي قد وُعِدوا فيه بأنواع العذاب والنَّكال والسَّلاسل والأغلال، فلا مغيثَ لهم، ولا مُنْقِذَ من عذابِ اللّه تعالى[3].

معنى الفاء في قوله: ﴿فَوَيۡلٞ﴾:

إنذارُ الكفّار بوعيدٍ آخرَ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ﴾ تفريعيَّة، يُرادُ بها ترتيب ما بعدها على ما قبلها[4]، فـ "فُرِّعَ على وعيدهم - بالنَّهي عن الاستعجال - إنذارٌ آخرُ بالويل، أو إنشاءُ زَجْر"[5].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 31.

(2) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 375.

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 813.

(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 111.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 31.

وعيدُ الكافرين بالشَّرِّ وسوءُ الحالِ في المآلِ

دلالةُ التَّعبير بالويل نكرةً:

الويل: الشَّقاء والهمُّ[1]، وهي في الأصل: كلمة تهديدٍ ووعيدٍ، وما يُذكر أنَّه وادٍ في جهنَّم لا يصحُّ[2]، والويلُ أيضًا: الشَّرُّ وسوءُ الحال، وتنكيرُه في قول الله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ للتَّعظيم، والكلامُ يَحتمل الإخبارَ بحصول ويلٍ، أي: عذابٍ وسوء حالٍ لهم يومَ أوعِدوا به، ويَحتمل إنشاءَ الزَّجْر والتَّعجيب من سوء حالهم في يوم أوعِدوه[3].

المــــوصــــول يــســتــدعــي جملةً تسُدُّ فَقْرَ دلالته، فيَغمُر السّياق، وتُثرَى التَّراكيب

علَّة التَّعبير بالموصول (الذين)، وعلَّة إظهارِه:

مِن خصائص التَّعبير بالاسم الموصول (الذين) أنَّه يستدعي جملةَ صِلةٍ بكامل أركانها؛ لتسُدَّ فقرَ دلالته، وبذلك يُتيح الموصولُ مِن الدَّلالات الَّتي تَغيب بِغيابه ما يَغمُر السّياقَ، ويُثري التَّركيب.

وَوُضِع الموصولُ موضعَ الضَّمير، فجاء النَّظم القرآنيُّ: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، بدلَ: فويلٌ لهم؛ وذلك تسجيلًا عليهم بِما في حيِّز الصِّلة مِن الكفر، وإشعارًا بِعلَّة الحُكم لهم بالويل[4]، وفي هذا الإظهار أيضًا "تأكيدُ الاسم السّابق - (الذين ظلموا) - تأكيدًا بالمُرادف - (الذين كفروا) - مع ما في صفة الكُفر من الإيماء إلى أنَّهم لَم يشكروا نعمةَ خالِقِهم[5]، وأخفَوها، وجَحَدوها.

الـظُّـلـم بَـريـدُ الكُفر

نكتةُ العدول عن التَّعبير بالظُّلم إلى الكفر:

في عدول النَّظم الكريم عن التَّعبير بالظُّلم الوارِدِ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا﴾، إلى التَّعبير بالكفر في قوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 184.
(2) رواه الترمذي في جامعه، رقم: (3164) وقال: حديث غريب، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير وزياداته، رقم: (6148)، ويُنظر: ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم، من الحجرات إلى الحديد، ص: 181.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 31.
(4) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 214.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 32.

﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إيحاءٌ بأنَّ الظُّلم قد يقود إلى الكُفر، وأنَّ الظُّلم الأكبرَ والكفرَ يستويان في الجُرم، وأنَّ الكُفرَ ظُلمٌ والظُّلمَ كُفر.

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن يَوۡمِهِمُ﴾:

يوم القيامة مبعَث الهموم والغموم والعذابِ الأبقى

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن يَوۡمِهِمُ﴾ للابتداء المجازيِّ، أي: لهم سوءُ حالٍ بِتَرَقُّبِهم عذابًا آتيًا من اليومِ الَّذي أعَدّوه[1]، ويجوزُ أن تكونَ ظرفيَّة، أي: ويلٌ لهم في يومِهم... وكذلك يَنضح من حرف الجرِّ (مِنْ) معنى السَّبَبيَّة، أي: ويلٌ لهم بِسبب حلولهِ عليهم، وبه يُجازَوْنَ، ويعاقبون.

دلالةُ اليومِ في قوله: ﴿مِن يَوۡمِهِمُ﴾:

عذابُ الظّالمين مِن آخر أُمَّة يُعجَّل بَعْضُه في الدُّنيا، ويُدَّخر لهم أعظمُه للآخرة

اليوم في قوله: ﴿مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ "يومُ بدرٍ، ورُجِّح بأنَّه الأوفَقُ لِما قبله من حيثُ إنَّه ذَنوبٌ من العذاب الدُّنيويِّ، وقيل: يوم القيامة، ورُجِّح بأنَّه الأنسب لِما في صدر السّورة الكريمة الآتية"[2]، و"أيًّا ما كان؛ فمَضمون هذه الجملة مُغاير لمضمون الَّتي قبلها"[3]، على أنَّه لا مانعَ مِن إرادةِ المعنيينِ معًا؛ لعدم تنافيهما، فيكون لهم نصيبٌ مِنَ العذاب في الدُّنيا، والنَّصيب الأكبَرُ الأعظَمُ في الآخرَة.

نكتةُ الإضافة في ﴿يَوۡمِهِمُ﴾:

للكفّار والظّالمين يومُ خِزيٍ في الدُّنيا، ويومُ خلودٍ في النّار في الآخرة

أُضيفَ اليومُ إلى ضميرِ كُفّار مكَّة في قوله تعالى: ﴿مِن يَوۡمِهِمُ﴾؛ لأنَّه خاصٌّ بهم دون المؤمنين[4]، وأنَّه مُعَيَّنٌ لِجزائهم، كما أُضيف (يوم) إلى ضمير المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ١٠٣﴾ [الأنبياء: 103]، واليوم يَصدق بيوم القيامة، ويَصدق بيوم بَدْرٍ الَّذي كسرَ اللّٰه تعالى فيهِ شَوْكَتَهُم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 31.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1112.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 32.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 18/ 483.

ولما كان المضاف إليهِ ضميرَ الكفّار المعيَّنين - وهم كُفّار مكَّة - رجَّحَ بعضُ أهل العلْمِ أن يكون المرادُ مِن هذا اليوم يومًا خاصًّا بهم، وهو يوم بَدْرٍ؛ لأنَّ يوم القيامة لا يَختصُّ بهم، بل هو عامٌّ لِكفّار الأمم كلِّهم بخلاف اليوم الَّذي في قوله تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ١٠٣﴾ [الأنبياء: 103]؛ لأنَّ ضمير الخطاب فيها عائد إلى ﴿ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: 101][1]، وعلى ذلك فلِلكُفّار والظّالمين يومُ خِزيٍ في الدُّنيا، ويومُ خلودٍ في النّار في الآخرة، وكأنَّهما بهما أعرفُ، وبهما أخصُّ.

موقع قوله: ﴿ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾:

إثـراء الصِّفـةِ السّياقَ بدلالاتٍ فاعلةٍ

يقعُ قولهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ مِن التَّركيب صفةً لـ ﴿يَوْمِهِمُ﴾، وفي ذِكْرِها مزيدُ تهديدٍ وترهيب للمتوعَّدين، وهي وإن أمكن الاستغناءُ عنها بالمَوْصوف فيما لو قيل - في غير القرآن الكريم - فويل للَّذين كفروا مِن يَوْمِهم، غير أنَّ الصِّفة الغنيَّة بالتَّفاصيل في قوله: ﴿ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ أثْرَتِ السّياق بدلالاتٍ فاعلة في التَّرهيب، وهي وإن كانت صفةً مفردةً بمقاييس الصِّناعة غير أنَّها بِتَفاريعِها جاءت إيغالًا بديعًا.

غرضُ التَّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِى﴾:

الموصولُ عنصرُ تشويقٍ بما فيه من إبهامٍ، وهوَ يهيِّئ لـدلالاتٍ لا تتأتّى بالاسم الصَّريح

الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ يَتَّسِم بإبهام الدَّلالة وخفائها، وعدمِ تميُّز المقصود به مَن هو، وما هو؟ لذلك كان الموصولُ فقيرَ الدَّلالة، محتاجًا إلى ما يَسُدُّ فَقْر دلالته، فإذا جاءت جملة الصِّلة هنا: ﴿يُوعَدُونَ﴾؛ تَوَجَّهَ الموصولُ، وتحدَّدت دلالته، وتبيَّنت وِجهة الكلام، وعلى ذلك فالموصول عُنصُر تشويقٍ فاعلٌ، وهو مِن بين عناصر التَّعريف يُفسِح لِذكر عناصرَ تركيبيَّة ذاتِ دلالاتٍ مُهِمَّةٍ في سياقه؛ تتآزر على خِدْمَةِ المعنى، وتُسْهِم في تحقيق الغرضِ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 32.

فهنا مثلًا هيَّأ الموصولُ لبناءِ الفعل ﴿يُوعَدُونَ﴾ لغير فاعله، ولِصَوْغِه مضارعًا، ولإسناده إلى ضمير جماعة الظّالمين والكفّار، ووراء كلٍّ من ذلك إشاراتٌ مهمَّة، وما كانت تلك الإشاراتُ لِتُتاح؛ لو عُبِّر بالاسم الصَّريح، كما لو قيل في غيرِ القرآن الكريمِ: فويل لِلَّذين كفَروا مِن يوم القيامةِ.

دلالةُ التَّعبير بفعل الكون ماضيًا:

سيأتي على الكفّار يومٌ يتجلَّى لهم فيه تحقُّقُ الوعيد الَّذي لَم يصدِّقوه

التَّعبير بالكون الماضي في جملة الصِّلة ﴿يُوعَدُونَ﴾ يَقضي بحصول هذا الموعود حصولًا راسخًا؛ فإنَّه سيأتي عليهم يومٌ يتجلّى لهم فيه تحقُّقه، ويتذَكَّرون أنَّ هذا الَّذي حصل كان أيّام الدُّنيا وعيدًا لم يصدِّقوه، وفي ذلك من فَرْض تَصْديقِه عليهِم - مَهْما كذَّبوا به - ما فيه.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿يُوعَدُونَ﴾، ولطيفةُ بنائِهِ لغير فاعلِهِ:

عناصرُ الكون كلُّها ناقمةٌ على الكفّار، متربِّصةٌ بهم الشَّرَّ والهلاك

الوعدُ يكون في الخير والشَّرِّ، والوعيدُ في الشَّرِّ خاصَّة، فيقال: أوعدته[1]، فإذا أسقطوا الخيرَ والشَّرَّ - أي: حذفوا مفعولَ مادَّة الوعد - قالوا في الخير: المَوْعِد والعِدة، وقالوا في الشَّرِّ: الوعيد والإيعاد[2]، فالمقصود منهما في الفعل ﴿يُوعَدُونَ﴾ هو الوعيدُ والإيعادُ؛ لأنَّه واردٌ في مقام التَّهديدِ بالوَيْلِ.

وفي بناء الفعل ﴿يُوعَدُونَ﴾ لغير فاعله إيجازٌ للعِلْم بالمُتوعِّد، وهو اللّه تعالى، وفي طيِّ ذِكر الفاعلِ إيجازٌ يوفِّر عنايةَ المتلقّي على وعْي الوعيد في نفسه بِقطع النَّظر عن فاعله، ويُبعد ما يُمكن أن يَشْغَلهم عن رهبةِ التَّوعُّد، فالبناء للمفعول يُشيرُ إلى أنَّ "المُنْكِئَ هو الإيعادُ، لا كونه مِن مُعَيَّن"[3]، وفي ذلك تضييقٌ على المتوعَّدين بالويل أيَّما تضييق.

(1) الراغب، المفردات: (وعد).

(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: 5/ 238.

(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 191.

ويُحقِّق حذفُ الفاعل كذلكَ إطلاقَ جهاتِ الوعيد، ويوحي بأنَّ عناصر الكون كلَّها ناقمةٌ على الكفّار، متربِّصة بهم الشَّرَّ والهلاك، وتَتوعَّدهم لِخروجِهم عن غاية خَلْقهم - الَّتي هي عبادةُ اللّه تعالى - ومتابعتِهم أصحابَهم من كفّار الأمم السّابقة على الكفر، ممّا يُقَرِّر مرافقتهم إيّاهم في العذابِ الخالد، وكلُّ ذلك ممّا يُراكِمُ الرُّعبَ والخوف على الكفّار.

نكتَةُ إسنادِ فعلِ الوعيد إلى ضمير الجماعةِ:

الكفّارُ جميعًا متورِّطون في الظُّلم والكُفْر مَهما تفاوَتَ جُرْمُهُم فيهما

في إسنادِ فعل الوعيد إلى ضمير الجماعةِ في الفعل ﴿يُوعَدُونَ﴾ دلالةٌ على شمول الوعيدِ عمومَ الكافرين، وقطْعٌ بتورُّطهم جميعًا في الظُّلم والكفر؛ وإن تفاوَتَ جُرمهم في ذلك.

دلالةُ المضارَعَة في الفعل ﴿يُوعَدُونَ﴾:

تجدُّدُ تَحذيرِهم وتَهديدِهم يُشير إلى عظمَةِ العذابِ

في صَوغ الفعل ﴿يُوعَدُونَ﴾ مضارِعًا ملاءمةٌ ومعاصَرَةٌ لزمان الدَّعوة، وهو الحياة الدُّنيا على امتدادها، فَدُعاةُ كلِّ جيل يجدِّدون دعوةَ جيلهم، وتحذيرَ ظالمي زمانِهم، فالمضارعة في الفعل ﴿يُوعَدُونَ﴾ حقيقةٌ مطابِقة لِزمان الدَّعوة واستمرارها المتجدِّد، والمتنوِّع الأساليب.

بلاغةُ ردِّ عجز السّورة الكريمة على صدرها:

القرآن الكريم كلُّه مُتَواثِقٌ متوافِقٌ

في قول اللّه تعالى: ﴿مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ مع قوله تعالى في أوَّل السّورة: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥﴾ [الذاريات: 5]، ردٌّ لعجز السّورة الكريمة على صدرها؛ ممّا يُقَرِّر أنَّ القرآن الكريم كلَّه سياقٌ مُتَواثِق العُرَى، رأى ذلك مَن رآه، وخفي عمَّن خفي عنه.

وفي ردِّ العجز هنا على الصَّدر إيذانٌ بانتهاءِ السّورة الكريمة، وذلك من براعة المَقْطَع والخَتم[1]؛ إذ انطبق آخِرُها على أوَّلها بصِدق الوعيد، وثَبت بالدَّليل القطعيِّ القَسَمُ الأكيدُ[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 33.

(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 483.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الدَّلو والذَّنوب:

الدَّلو تكون فارغة ومَلأى، والذَّنوب لا تكون إلّا ملأى؛ ولهذا سمّي النَّصيبُ ذَنوبًا، قال الشّاعر(1):

الـدَّلـو تـكـون فـارغـةً ومَـلأى، والذَّنوب لا تكون إلّا ملأى

إنا إذا ساجَلَنا شِرّيّبُ

لنـــا ذَنوب وله ذَنوب

فَإنْ أبَى كانَ له القَليبُ

فلولا أنَّها ملأى؛ ما كان لقوله: "لنا ذنوب وله ذنوب" معنًى(2).

---

(1) البيت من الرجز، ذكره ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن، ص: 97، والبندنيجي في التّقفية، ص: 195، والخطابي في غريب الحديث: 1/ 123.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 314.

سُورَةُ الطُّورِ

سُورَةُ الطُّورِ

التّعريف العامّ بالسّورة:

المكّي والمدنيّ:

سورة الطّور كلّها مكّيّة

سورة الطّور كلّها مكّيّة بالاتّفاق[1]؛ قال القرطبيّ: "مكّيّة في قول الجميع"[2]، يُؤكّد ذلك ما رويَ عن ابن عبّاس، قال: "نزلت سورةُ الطّور بمكّة"[3].

ترتيب النّزول، وترتيب المصحف، وعَدّ الآي:

جاء ترتيبُها المصحفيّ بين سورَتَي الذّاريات والنّجم

هذه السّورة هي الثّانية والخمسون في التّرتيب المصحفيّ الشّريف، وهو التّرتيب الثّابت، والمُعوّل عليه عند أهل النّظر والتّحقيق، وقد جاء ترتيبُها بين سورَتَي الذّاريات والنّجم. وهيَ السّورَةُ الرّابعة والسّبعون في تَرْتيبِ نُزولِ السّوَرِ، نَزَلَت بَعْدَ سورَةِ السّجدة وقَبْلَ سورَةِ الملك[4]. وقيل: إنّ ترتيبها في النّزول الخامسة والسّبعون بعد سورة نوح، وقبلَ سورة المؤمنين[5].

وأمّا عدد آياتها: فهي أرْبَعونَ وسبع آيات في المَدَنيّ والمكّيّ، وثمانٍ في البَصْريّ، وتسعٍ في الكوفيّ والشّاميّ، وسبب الاختلاف فيها هو في تحديد فواصل آيتَيْن[6].

فضائل السّورة:

هذه السّورة من سور المفصّل

سورة (الطّور) من سور المفصّل، الذي قال فيه النّبيّ ﷺ فيما رواه عنه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 185، والسّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 43.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 58.
(3) السّيوطيّ، الدّرّ المنثور: 7/ 626.
(4) دروزة، التّفسير الحديث: 5/ 359.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 35.
(6) الدّاني، البيان في عد آي القرآن، ص: 233، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 236.

الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المِئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلْتُ بالمُفصَّلِ»(1). وقد ثبت أنّ النّبيّ ﷺ كان يقرأ بها في صلاة المغرب، فعن محمَّد بن جُبير بنِ مُطْعِم، عَن أبيه رضي الله عنه قال: «سَمِعْتُ النَّبيَّ ﷺ يقرأ في المغرب بالطّور، فلمّا بلغ هذه الآية: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ٣٦ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ٣٧﴾ [الطّور: 35 - 37]؛ كاد قلبي أن يطير»(2).

اسم السّورة وسبب تسميتها:

سـورةُ الـطّـور اشـتـهـرت بـهـذا الاســم وصــار علمًا عليها

وردت تسميتُها بسورة (الطّور) في كتب السّنّة والتّفسير، فقد ذكر البخاريُّ والتّرمذيُّ تسميتَها بذلك(3)، وقد ذكر الكثيرون أنّ سبب تسميتها بذلك لاستهلالها بذِكره، فقال الزّحيليّ: "سمّيت سورةُ (الطّور) لافتتاحها بقَسَم اللّه تعالى بجبل الطّور الذي يكون فيه أشجار، كالذي كلّم اللّه عليه موسى، وأرسل منه عيسى، فنال بذلك شرفًا عظيمًا على سائر الجبال"(4).

وقد قام البقاعيّ بالرّبط بين اسمها ومقصودها خير ربطٍ فقال: "ومقصودها: تحقيق وقوع العذاب، الذي هو مضمون الوعيد المُقْسَم على وقوعه في (الذّاريات)، الذي هو مضمون الإنذار المدلول على صدقه في (ق)، فإنّ وقوعه أثبتُ وأمكنُ من الجبال التي أخبر الصّادقُ بسيرها، وجعلَ دَكَّ بعضِها آيةً على ذلك، ومن الكتاب في أثبت أوضاعه، لإمكان غسله وحَرْقه، ومن البيت الذي يمكّنُ عامرَه وغيرَه إخرابَه، والسّقف الذي يمكّن رافعَه وضْعَه،

(1) أخرجه أحمد في المسند، برقم: (16982)، والطّبرانيّ في المعجم: 22/ 76، والبيهقيّ في شعب الإيمان، برقم: (2415).
(2) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (4854).
(3) البخاريّ في صحيحه: 4/ 1838، والتّرمذيّ في سننه: 5/ 392.
(4) التّفسير المنير: 27/ 52.

والبحر الذي يمكّن مَنْ سَجَرهُ أن يرسله. وقد بان أنّ اسمها أدلُّ ما يكون على ذلك، بملاحظة القَسَم وجوابِه، حتّى بمفردات الألفاظ في خطابه"[1].

وما ذكره الإمام البِقاعيّ يتّفق مع محور السّورة العامّ؛ لأنّها قامت على ذِكر الجزاء للطّرفيْن: المؤمنين والمكذّبين، ومع ذلك فصّلت في ردّ شبهات المُكذّبين حولَ النّبوّة، وحولَ صدقِ الكتاب، وردّت أباطيلَهم، وأوصت النّبيَّ ﷺ بركائز عظيمة في كيفيّة التّعامل معهم.

ثانيًا: المحور العامّ للسورة:

يقوم على بيان الوعيد للكافرين المُـكـذّبـين في الآخرة، والوعد لـلـمـؤمـنـين بالجنّة

وبيان ذلك ظاهر من خلال الآيات التي جاءت لبيان الجزاء الأخرويّ لكلّ من المُكذّبين والمتّقين، ولإقامة الأدلّة على ثبوت وقوع وعدِ اللّه تعالى للمؤمنين، ووعيده للكافرين. لذلك اقتضى هذا المحور أنّ تتناول الأمورَ الآتية:

أوّلًا: تناولت السّورةُ في بداية الأمر القَسَم بالأُمور الخمسة التي لفتت النّظر إلى ما فيها وما يستتبعها، وكان جوابُ القَسَم بقول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾، موضِحًا أنّ العذاب لا منازع له ولن يمنعه أحدٌ.

ثانيًا: بيّنت السّورة جزاءَ المُكذّبين في يوم الدّين، وما ينتظرهم من أهوال العذاب، وذلك لتأكيد وقوع الجزاء الأخرويّ لهم، بما فيه من آيات تبيّن وعيد اللّه للكافرين.

ثالثًا: ثمّ أتبعت ذلك بذِكر جزاء المتّقين، وما سينالونه من نعيم ورضوان، وذلك لبيان الفرق بين الجزاءين، وإظهار الثّواب للمؤمنين الصّادقين.

رابعًا: ناقشت السّورةُ شبهاتِهم حولَ القضايا الرّئيسة في

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 19/ 1، ومصاعد النّظر: 3/ 28.

العقيدة، وأوّلها قضيّة النّبوّة، حيثُ وجّهوا إلى رسول اللّه ﷺ اتّهاماتٍ مردودةً، مثلَ وصْفِه بالشّعر والكهانة والجنون، وادّعَوا كَذِبَ القرآن وتَقَوَّلوا عليه، فواجَهَهم اللّه بتحدّي أن يأتوا بمثله، وهو دليلٌ على تصديقه وصدقه.

خامسًا: كما ذكرَت السّورة نسبةَ المشركين للّه تعالى من اعتقادات فاسدة، مثل قولهم: إنّ له البنات، ﷻ عمّا يصفون، ودحضت تلك الافتراءات.

سادسًا: وبالإضافة إلى ذلك، نفت السّورةُ عنهم قدرتَهم على الخَلْق أو مُلكِ خزائنِ اللّه، أو معرفتهم بالغيب، أو أن يَقْدِروا على كيد المؤمنين، ممّا يوضّح ضعفَ قوَّتِهم وخَواءَ قدراتِهم أمامَ قدرةِ اللّه المطلقة.

ثالثًا: موضوعات السّورة وخصائصها:

مَدارُ السّورة يدور حولَ تحقيق وعد الله ووعيده

تناولت موضوعاتُ السّورةِ الأمورَ الآتية: **أوّلًا:** التّحذير من وقوع العذاب يوم القيامة للمشركين والكافرين، وتأكيد كذبهم في إثبات البعث، والنّقاش في ادّعائهم أنّ القرآن سحر. **ثانيًا:** تُقابِل هذه التّحذيرات وعدَ اللّه للمتّقين من المؤمنين، حيثُ يُبيّن لهم جزاءهم وما أعدّه اللّه لهم من نعيم، مع ذِكْر تذكيرهم بصفات خشيتهم للّه ومدحهم له، بهدف ترسيخ الإيمان وطمأنة قلوب المؤمنين. **ثالثًا:** تُسلّط السّورةُ الضّوءَ على تكذيب المشركين بخصوص بعض قضايا العقيدة، ومنها: قَدْحُهم في قدرة اللّه على إعادة الخَلْق، وادِّعاؤُهم أنّ للّه بنات، مع استهزائهم بوعد اللّه. **رابعًا:** يُنصح النّبيّ ﷺ بعدم الانشغال بمَكرهم، وأن يتركهم، مع الإشارة إلى أنّ لهم جزاءً في الدّنيا والآخرة، وأهمّيّة الصّبر والثّبات، مع وعد اللّه بالتّأييد والنّصرة، وتذكيره بضرورة الشّكر للّه في جميع الأحوال(1).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 36.

تميّزت سورةُ الطّور بخصائصَ عن غيرها من السّوَر

الخصائص الموضوعيّة للسّورة:

أوّلاً: تميّزت السّورةُ الكريمة بجمعها بين هذه الأمور الخمسة المُقْسَم بها في صدر السّورة، وهذه الأمور الخمسة المُقْسَم بها أشارت إلى أصول الدّيانات السّماويّة كلّها: فقد أشارت إلى رسالة موسى عليه السلام من خلال قَسَمها بالطّور، وأشارت إلى دعوة إبراهيم عليه السلام من خلال القَسَم بالبيت المعمور الذي كان كذلك؛ لاستجابة الله لدعوة أبينا إبراهيمَ عليه السلام في أن يكون هذا البيت آمنًا مطمئنًّا يَؤمّه الحاجّون إليه، وفي ذِكْر الكتاب المسطور على أرجح أقوال العلماء إشارةٌ إلى كتاب نبيّنا محمّد ﷺ.

ثانيًا: تميّزت السّورة الكريمة بتقابل أحوال المُكذّبين والمتّقين في الآخرة، فقدِ استغرق الحديثُ عن جزاء المكذّبين نحو ستِّ آيات، وأمّا الحديثُ عن جزاء المتّقين فقدِ استغرق نحو ضعف هذا العدد.

الخصائص الأسلوبيّة للسّورة:

أوّلاً: تميّزت السّورةُ الكريمة بقِصَر آياتِها، وتقارب فواصلها، وبأنّ أوّلَ فواصلِها اختُتِمت بحرف الرّاء، وأنّ حرف النّون قد ذُيّلت به فواصلُ كثيرة، بلغ عددُها ثلاثين فاصلة، وأمّا حرفُ الميم فقد ذُيّلت به بعضُ الفواصل وعددُها ثمانيةُ فواصل، وهذا التّنوّع أعطاها إيقاعًا خاصًّا بها.

ثانيًا: تميّزت السّورة الكريمة بكثرة ورود الأفعال فيها على كافّة المستويات، حيثُ قاربت السّبعين، فمن الأفعال المضارعة الواردة فيها، والتي زادت عن ثلاثين فعلًا: ﴿تَمُورُ﴾، ﴿وَتَسِيرُ﴾، ﴿يَلْعَبُونَ﴾، ﴿يُدَعُّونَ﴾، ﴿تُكَذِّبُونَ﴾، ﴿تُبْصِرُونَ ١٥﴾ [الطور: 15]، ﴿تَصْبِرُواْ﴾ [الطور: 16]، ﴿تَعْمَلُونَ ١٦﴾ [الطور: 16]، ﴿يُشْرِكُونَ ٤٣﴾ [الطور: 43]، ﴿يَكْتُبُونَ ٤١﴾ [الطور: 41]، ﴿يُوقِنُونَ ٣٦﴾ [الطور: 36]..وغيرها. ومن الماضية التي زادت عن عشرين فعلًا: ﴿وَوَقَىٰهُمْ﴾ [الطور: 18]، ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾ [الطور: 20]، ﴿ءَامَنُواْ﴾

[الطور: 21]، ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ﴾ [الطور: 21]، ﴿أَلۡحَقۡنَا﴾ [الطور: 21]، ﴿أَلَتۡنَٰهُم﴾ [الطور: 21]، ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم﴾ [الطور: 22]، ﴿وَأَقۡبَلَ﴾ [الطور: 25]..وغيرها. ومن فعل الأمر الذي زاد عن عشرة أفعال: ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾ [الطور: 16]، ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ﴾ [الطور: 16]، ﴿كُلُواْ﴾ [الطور: 19]، ﴿وَٱشۡرَبُواْ﴾ [الطور: 19]، ﴿فَذَكِّرۡ﴾ [الطور: 29]، ﴿تَرَبَّصُواْ﴾ [الطور: 31]، ﴿فَلۡيَأۡتُواْ﴾ [الطور: 34]...وغيرها. وهذا يدلّ على تجدّد الأحوال وشدّةِ تبدّلها في هذه السّورة الكريمة، وذلك بعموم الأزمنة.

ثالثًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها كانت زاخرة بأنساق تعبيريّة خاصّة بها، حتّى كأنّ كلّ تراكيبِها كانت كذلك، ممّا يُؤكّد أنّ لهذه السّورة نظمًا خاصًّا بها، ومنها على سبيل التّمثيل لا الحصر: آياتُ القَسَم في مطلعها، ومنها كذلك قوله: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا﴾، وقوله: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾، وقوله: ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ١٥﴾ [الطور: 15]، وقوله: ﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ﴾ [الطور: 16]، وقوله: ﴿أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ﴾ [الطور: 21]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾ [الطور: 28]، وقوله: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠﴾ [الطور: 30]، إلى غير ذلك من التّراكيب.

رابعًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حوت أبنيةً صرفيّةً لم تأتِ في غيرها من السّور، مثل: ﴿ٱلۡمَعۡمُورِ﴾، ﴿ٱلۡمَسۡجُورِ﴾، ﴿يُدَعُّونَ﴾، ﴿غِلۡمَانٞ﴾ [الطور: 24]، ﴿ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ٣٧﴾ [الطور: 37]، ﴿ٱلۡمَكِيدُونَ ٤٢﴾ [الطور: 42]، ﴿مَّرۡكُومٞ ٤٤﴾ [الطور: 44]، ﴿ٱلۡبَرُّ﴾ [الطور: 28]، وغيرها.

خامسًا: تميّزت السّورةُ الكريمة بأنّها حوت لفظةً فريدة في مادَّتها وبنائها الصّرفيّ، وهي: ﴿رَقّٖ﴾.

سادسًا: تميّزت السّورةُ الكريمة بتتابع ورود حرف ﴿أَمۡ﴾ المنقطعة فيها، حيثُ وردت نحو (15) مرّة[1]، ووردت (بل) الإضرابيّة مرَّتين[2] أيضًا، وكلّ ذلك في معرض ردّ شبهاتِ المُكذّبين، ودَحْضِ أسانيدهم.

سابعًا: حَوَتِ السّورة الكريمة قاموسًا من الألفاظ الخاصّة بالتّفكّه والتّلذّذ والاستمتاع، مثل: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ [الطور: 18]، ﴿كُلُواْ﴾ [الطور: 19]، ﴿وَٱشۡرَبُواْ﴾ [الطور: 19]، ﴿هَنِيٓـَٔۢا﴾ [الطور: 19]، ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾

(1) الآيات: 30، 32، 33، 35، 36، 37، 38، 39، 40، 41، 42، 43.

(2) الآيتان: 33، 36.

[الطور: 20]، ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾ [الطور: 20]، ﴿بِحُورٍ عِينٍ ٢٠﴾ [الطور: 20]، ﴿بِفَٰكِهَةٍ﴾ [الطور: 22]، ﴿وَلَحْمٍ﴾ [الطور: 22]، ﴿كَأْسًا﴾ [الطور: 23]، ﴿غِلْمَانٌ﴾ [الطور: 24] وغيرها، وكلّ ذلك مرتبطٌ بمُحور السّورة الكريمة، في المقابلة بين حالَيِ المتّقين والمُكذّبين.

رابعًا: مناسبة سورة الطّور لما قبلها:

سورة الطّور متّصلة تمامًا بسورة الذّاريات مضمونًا وأسلوبًا

تتّضِحُ علاقةُ سورة الطّور بسورة الذّاريات من خلال التّشابه بين مطلعهما ومقطعهما، حيثُ نجد:

أوّلاً: تشابهَ سورتي الطّور والذّاريات في مطلعهما، حيثُ يُذكر فيهما حالُ المتّقين، ويُذْكَر في كلّ منهما في بداية السّورة: أنّ المتّقين في جنّات ورضوان، مع تكرار ذلك بشكل يُبْرِز مكانتَهم بين النّاس.

ثانيًا: في مقطع كلّ من السّورتَين، يُذْكَر حالُ الكافرين ووعيدُ اللّه لهم، حيثُ يُقال في سورة الذّاريات: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وفي سورة الطّور: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، مع تأكيد أنّ العذاب حتم وواقِع، بقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾.

ثالثًا: أقسم اللّه في كلٍّ من السّورَتين بآيات كونيّة، تتعلّق بالمعاش أو المعاد، ففي سورة الذّاريات أقسم بالرّياح التي تنفع الإنسان، وفي سورة الطّور أقسم بالطّور الذي نزلت فيه التّوراة، وكلٌّ منهما يُبرِز أهمّيّة هذه الآيات في تثبيت الإيمان.

رابعًا: تتطابق السّورتان في بداية كلٍّ منهما، حيثُ يُذْكَر النّبيُّ، والتّذكير بالحقّ، مع الإعراض عن قول الجاحدين، والتّأكيد على التّوحيد والرّدّ على الشّبهات.

خامسًا: يظهر الرّبطُ بين السّورتين من خلال تتابع الآيات، حيثُ إنّ نهاية سورة الذّاريات تتضمّن: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وتبدأ سورةُ الطّور بنفس المعنى، بقول اللّه: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

أيضًا، أُشير في نهاية الذّاريات إلى أنّ المُذنبين لهم ذَنوبٌ، وفي بداية الطّور يُؤكّد أنّ عذاب اللّه واقعٌ لا محالة[1].

علاقة آخرِ سورة الطّور بأوّلِها:

النّاظر في خواتيم سورة الطّور يجد ترابطًا واضحًا بين خواتيم وبدايات هذه السّورة؛ ففي أوّل السّورة تكلّمت عن مشاهدَ من عذاب الآخرة وعقابِ الكافرين، وجاءت الآياتُ الأخيرة متحدّثةً عن الصّبر وأهمّيّتِه، وعن التّسبيح ودلالتِه في مواجهة افتراءاتِ المشركين، ممّا يُشير إلى أنّ الصّبر والتّسبيح هما السّبيلُ للنّجاة من عذاب الآخرة. ومن وجوه الارتباط أيضًا: أنّ بداياتِ السّورةِ تحدّثت عنِ افتراءات المشركين واتهاماتِهم الباطلة بالسّحر والشّعر والكهانة والتّقوّل على اللّه تعالى؛ ثمّ خُتِمَت السّورةُ بدعوة النّبيّ ﷺ إلى الصّبر على أذى الكفّار والتّسبيح والتّحميد للّه تعالى، مع الوعد بالنّصر والتّأييد الإلهيّ في قوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾.

(1) الغرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 318، والسّيوطيّ، تناسق الدّرر، ص: 133، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 42.

﴿وَٱلطُّورِ ١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ٨﴾ [الطّور: 1 - 8]

مناسبةُ مطلعِ السّورةِ لِما قَبلَها:

التّهديد بالعذاب والتّأكيد على وقوعه

لمّا ختم النّظمُ الجليل سورةَ الذّاريات بتحقيق الوعيد والتّهديد بوقوع العذاب إذ قال جلّ شأنُه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾، افتُتِحَت سورةُ الطّور التّاليةُ لها بإثبات العذاب الذي هو آلة الوعيد، فقال تعالى مُقْسِمًا عليه: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ ثمّ أجاب: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ﴾[1].

شرحُ المفردات:

1) ﴿وَٱلطُّورِ﴾: (طور) أصلٌ يدلّ على الامتداد في شيء من مكان أو زمان، من ذلك طَوارُ الدّار، وهو الذي يمتد معها من فِنائها. والطّور: جبل، فيجوز أن يكون اسمًا عَلَمًا موضوعًا، ويجوز أن يكون سُمّي بذلك لما فيه من امتدادٍ طولًا وعرضًا[2]. والطّورُ في كلام العرب الجَبلُ[3]، وهو اسمُ جبلٍ مخصوصٍ، أو اسمٌ لكلّ جبلٍ[4]، والجَبَل المخصوص هو الجَبَل الموجود بسيناء، الذي كلّم اللّه تعالى موسى عليه تكليمًا[5].

2) ﴿مَّسۡطُورٖ﴾: (سطر) أصلٌ يدلّ على اصطفافِ الشّيء، كالكتاب والشّجر، وكلّ شيء اصطف[6]. يقال: سَطْرٌ من كُتُبٍ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/ 19.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طور).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (طور).
(4) الرّاغب، المفردات: (طور).
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 20/ 475، وابن منظور، لسان العرب: (طور).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سطر).

وسَطْرٌ من شَجَرٍ مَغْروس ونحوه[1]، وسَطَر يَسْطُر: إذا كَتَب؛ قال اللّه جلّ وعزّ: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١﴾ [القلم: 1]، أي: وما يَكْتُب الملائكة[2]. والسَّطْرُ: الصّفّ من الكتابة، ومن الشّجر المغروس، ومن القوم الوقوف، وسَطَّرَ فلانٌ كذا: كتب سطرًا سطرًا[3]. وهو الصّفّ من الشّيء. يقال: بَنى سَطْرًا، وغَرَسَ سَطْرًا. والسَّطْرُ: الخَطُّ والكتابة[4]. والمراد به في الآية الكريمة: الكتاب المكتوب أسطارًا[5].

3) ﴿رَقّٖ﴾: (رَقَّ، رقق) أصلٌ يدلّ على صفة مُخالِفَةٍ لِلْجَفاءِ[6]، ويدلُّ على الضّعف والسّهولة واللّين[7]. والرَّقيقُ: نَقيضُ الغَليظ والثَّخين. والرِّقَّةُ: ضِدُّ الغِلَظ؛ وأَرَقَّ الشّيءَ ورَقَّقَهُ: جَعَله رَقيقًا. واسْترقَّ الشّيءُ: نَقيضُ استغلظ. ورَقَّ جِلدُ العِنَب: لَطُفَ. وأَرَقَّ العنبُ: رَقَّ جِلْدُهُ وكَثُرَ ماؤُه[8]. والرَّقّ: جلدٌ رقيق يُكتب فيه، وأُخذ من الأصل لما فيه من السّهولة واللّين، كما في قوله تعالى: ﴿فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾[9]. والمُراد به في الآية الكريمة: الورق المُعَدّة للكَتب وهي مرقّقة، وقد غلّب الاستعمالُ على ما أُخذ من جلود الحيوان[10].

4) ﴿مَّنشُورٖ﴾: (نشر) أصْلٌ يدلّ على فَتحِ شَيْءٍ وتَشَعُّبه[11]. ونشرتُ الثَّوب والكتاب نشرًا: بسطته[12]. والنَّشْرُ: خِلافُ الطَّيِّ[13]، ونَشَرَ الثّوبَ، والصَّحيفَةَ، والسَّحابَ، والنِّعْمَةَ، والحَديثَ: بَسَطَها. قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝١٠﴾ [التّكوير: 10][14]، والمُراد به في الآية الكريمة: مفتوح، خلاف المطويّ[15].

---

(1) الخليل، العين: (سطر).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سطر).
(3) الرّاغب، المفردات: (سطر).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (سطر).
(5) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 377، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 185.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رقّ).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (رقق).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (رقق).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (رقق).
(10) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 186.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نشر).
(12) الخليل، العين: (نشر).
(13) ابن منظور، لسان العرب: (نشر).
(14) الرّاغب، المفردات: (نشر).
(15) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 186، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 382.

5) ﴿ٱلْمَعْمُورِ﴾: (عمر) أصلٌ يدلّ على بقاءٍ وامتدادِ زمان[1]، ويُقالُ: عَمَر الله بِكَ منزِلَك يَعْمُره عِمارةً، وأعْمَره جعلَه آهِلًا. ومَكانٌ عامِرٌ: ذو عِمارةٍ. وعَمَرْتُ الخَرابَ أَعْمُره عِمارةً، فَهوَ عامِرٌ، أي: مَعْمورٌ، واسْتَعْمَرَ النّاسُ الأرْضَ فَعَمَروْها عِمارَةً، وأعْمَرَها الله، أي: جَعَلَها تُعْمَرُ عُمرانًا[2]. العِمارَةُ: نقيض الخراب، يقال: عَمَرَ أرضَهُ: يَعْمُرُها عِمارَةً. وعَمَّرْتُهُ فَعَمَرَ فهو مَعْمورٌ. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [التّوبة: 18]، إمّا من العِمارَةِ التي هي حفظ البناء، أو من العُمرَةِ التي هي الزّيارة[3]. والمُراد به في الآية الكريمة: أنّه معمور بكثرة الزّائرين[4].

6) ﴿وَٱلسَّقْفِ﴾: (سقف) أَصْلٌ يدلُّ على ارْتِفاعٍ في إِطْلالٍ وانْحِناءٍ. من ذلك السَّقْفِ سَقْفِ البيت، لِأَنَّهُ عالٍ مُطِلٌّ[5]. والسَّقْفُ: غِماءُ البيتِ، والسّماء سَقفٌ فوقَ الأرض[6]، وسَقْفُ البيت، جمعه: سُقُفٌ، وجعل السّماءَ سقفًا في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾، والسَّقيفَةُ: كلّ مكان له سقف[7]. وهو: البناء الممتد على جدران البيت مغطّيًا فضاءَ البيت[8]. والمُراد به في الآية الكريمة: السّماء[9].

7) ﴿ٱلْمَسْجُورِ﴾: (سجر) أصلٌ يدلُّ على المَلْءِ، والسَّجْرُ: تهييج النّار؛ يقال: سَجرت التّنورَ، ومنه البحر المسجور، أي: المملوء[10]، والسُّجورُ: امتلاءُ البحر والعين، وكثرة مائه. والبحرُ المسجورُ: المُفْعَم المَلآن[11]، وسَجَرْتُ النّهرَ: ملأْتُه، وسُجِرَتُ الثِّماد سَجْرًا: مُلِئت من المطر، ومنه البحر المسجور[12]. والمُراد به في الآية الكريمة: البحر المملوء ماء[13].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمر).
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عمر).
(3) الرّاغب، المفردات: (عمر).
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 20/ 478.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سقف).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللُّغة: (سقف).
(7) الرّاغب، المفردات: (سقف).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 206.
(9) الواحديّ، التّفسير البسيط: 20/ 478.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سجر).
(11) الخليل، العين: (سجر).
(12) ابن منظور، لسان العرب: (سجر).
(13) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 186.

8) ﴿دَافِعٍ﴾: (دفع) أصلٌ يدلّ على تَنْحِيَةِ الشَّيْءِ[1]. والدَّفْع: الإزالة بِقوَّةٍ. واستَدْفَعْتُ اللّه تعالى الأسواء، أي: طَلَبْتُ منه أن يَدْفَعَها عَنّي[2]. دَفَعْتُ عنه كذا وكذا دفعًا، أي: مَنَعْتُ. ودافع اللّه عنك المكروهَ دفاعًا، وهو أحسنُ مَنْ دَفَع[3]. إذا عُدّي بـ (إلى) اقتضى معنى الإنالة، كقوله تعالى: ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ [النّساء: 6]، وإذا عُدّي بـ (عن) اقتضى معنى الحماية، نحو: ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ٣﴾ [المعارج: 2 - 3]، أي: حامٍ[4].

المعنى الإجماليّ:

القَسَم على تحقّق العذاب ووقوعِه

يُقسم اللّه تعالى في هذه الآيات الكريمات بهذه الأشياء العظيمة؛ تسليةً للنّبيّ ﷺ؛ فيقول له: أُقْسِم لك أيّها النّبيّ الكريم بهذا الجبل العظيم، حيثُ كلّمتُ فوقَه موسى، وأقسم بالقرآن الذي كُتِب سُطورًا مصفوفةً في صحف منشورة واضحة لكلّ قارئ، وأقسم بالكعبة المشرّفة، وبالسّماء المرفوعة كالسّقف، وبالبحر وبالسّقف المملوءِ بالمياه، يقسم تعالى بهذه الأمور العظيمة، التي تشتمل على الحِكَم الجليلة، على البعث والجزاء للمتّقين والمُكذّبين، أقسم بذلك بأنّ عذاب ربّك واقعٌ بالكفّار، لا يمنعه أحدٌ عنهم حين وقوعه؛ وذلك لأنّ قدرة اللّه تعالى لا يغالبُها مغالب، ولا يفوتها هارب[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

بلاغة القَسَم في صدر السّورة:

القَسَم يُنبّه الأذهان إلى عظيم شأن العذاب

افتتح النّظم الجليل السّورة بالقَسَم في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلطُّورِ ١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ٤ وَٱلسَّقۡفِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دفع).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (دفع).
(3) الخليل، العين: (دفع).
(4) الرّاغب، المفردات: (دفع).
(5) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 813، وجماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 523.

﴿ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾؛ وذلك لبيان أهمّيّة المُقْسَم به، وللتّنويه بشأن المُقْسَم عليه، وهو جواب القَسَم، فالمُراد: تأكيد وقوعِ العذاب[1]، فافتتح السّورةَ به موقِعًا إيّاه بجواب القَسَم.

سرّ تخصيص هذه الأمور بالقَسَم:

عظمتُها في الدّلالة على كمال القدرة وثباتها

خصّ النّظمُ الجليل الأمورَ المذكورة بالقَسَم في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾؛ وذلك لأنّها أمور عظيمة تُنْبِئُ عن عظيم قدرة اللّه تعالى وكمال علمه، وإحاطته بتفاصيل أعمال عباده وتسجيلها، ولما تحمله من معاني الثّبات في بعضها، وهذا واضح في أنّ الجبل - وهو المذكور أوّلًا - أثبتُ الأشياء في الأرض وأشدُّها وأصلبها. ولمّا كان من تلك الجبال جبل الطّور الذي نزل به كتابُ موسى ﵇ قال: ﴿وَكِتَٰبٖ﴾، والكتب السّماويّةُ أثبت الكتب، ولمّا كان ممّا يعظّمونه الكعبةُ المشرّفة؛ أقسم بالبيت المعمور، ولمّا كان البيت لا بدّ له من سقف، أقسم به فقال: ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾[2]، ثمّ أتبع ذلك بالماء الذي هو أعظم النّعم ومصدر الحياة. فهذه مخلوقات نبّه القَسَم بها على عظيم شرفها؛ لينظرَ النّاسُ فيها للاعتبار والتّفكّر الذي يَؤول إلى التّوحيد والمعرفة بحقوق اللّه تعالى[3]. كما أنّ ذِكْر هذه المخلوقات العظام يدلّ على كمال القدرة الإلهيّة[4].

مناسبة الأمور المُقْسَم بها للمُقْسَم عليه:

شدّة الارتباط بين القَسَم ووقوع جوابِه

يظهر الارتباطُ الواضح بين الأمور المُقْسَم بها في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 36.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 2، 5.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 185.
(4) القنوجيّ، فتح البيان: 13/ 220.

﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾، وبين الجواب في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾، ووجه ذلك: أنّه لمّا نفى القدرةَ على دَفْع العذاب؛ ذكر قبلَه ما من شأنه أن يكون مَلاذًا من العذاب، فإنّ من يبتغي أن يدفع عن نفسه عذابًا فإنّه قد يتحصّن بالجبال، أو يَفِرّ عبرَ البحار، فبيّن أنّه لا ينفعه ذلك، بل إنّه لن ينجوَ وإن وصل إلى السّقف المرفوع، أو لاذَ بالبيت المعمور[1]. وقيل: إنّ هذه الأقسامَ وجوابَها بينهما تلازمٌ؛ لأنّها متعلقةٌ بشؤون قصّة موسى عليه السلام؛ لأنّ الطّور هو الجبل الذي كَلّمَه اللّه عليه، والكتابُ يكون المراد به التّوراة، والبحر هو موضع غرقِ فرعونَ ومَن معه بسبب تكذيبهم لموسى، وعند ذلك لا يوجد لفرعونَ دافعٌ يدفع عنه هذا الغَرَق[2].

سرّ التّعبير بالطّور دونَ الجبل:

الـطّــور أقــلُّ ارتفاعًا وحَجمًا من الجبل، وفيه خضرةٌ وزرع

آثَر التّعبير بالطّور دونَ الجبلِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ﴾؛ وذلك لوجود فرق بينهما مع اشتراكهما في الجَبَليّة، إلّا أنّ الطّور أقلُّ ارتفاعًا وحَجمًا من الجبل، وفيه خضرةٌ وزرع بدليل قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ﴾ [المؤمنون: 20]، ولذلك تعدّدت عباراتُ القرآن عن هذا الجبلِ معَ الاتفاق على مكانه في سيناء، قال تعالى: ﴿طُورِ سَيۡنَآءَ﴾ [المؤمنون: 20]، وقال تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ [التّين: 2]، وفي كلّ منهما إشارةٌ إلى وجود الزّروع والأشجار.

دلالة تعريف الطّور:

كــلّ الـجـبـال عظيمةٌ شاهدة عــلـى جــلال القدرة الرّبّانيّة

عرّف النّظمُ الجليل الطّورّ بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلطُّورِ﴾، وهي للعهد، والمُراد به الجبلُ المعروف، وهو الذي كلّم اللّه تعالى عليه موسى عليه السلام[3]. ويجوز أن تكون للجنس، فيكون المُراد

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 201.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 291.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 198.

أنّه أقسم بكلّ الجبال[1]؛ وذلك لأنّها عظيمة الخَلْق، ولما فيها من عظيم المنافع للنّاس، وما فيها من دلائلَ على كمال القدرة للّه تعالى.

سرّ القَسَم بالطّور:

بيانٌ لشَرَفه بنزول كلام الله على موسى عليه السلام فيه

أقسم القرآن الكريم بالطور؛ لأنّه الجبل الذي ناجى فيه موسى عليه السلام ربَّهُ، وكلَّمَه فيه، وأنزل عليه الألواحَ المشتملة على أصول شريعة التّوراة؛ فيكون القَسَم به باعتبار شرفه بنزولِ كلامِ اللّه فيه، ونزولِ الألواحِ على موسى. وأيضًا من باب التّمهيد والتّوطئة للقَسَم بالكتاب، على أنّ المُراد به التّوراة[2].

دلالة الواو في قوله: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٖ﴾:

الجمع بالقَسَم بين الكتاب والطّور

الواو في قوله: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾، عاطفة لهذه الجملة على قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلطُّورِ﴾؛ للدّلالة على اشتراكهما بالقَسَم، وهي ليست واو القَسَم؛ لأنّ القَسَمَ الأوّل وهو قوله: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ لم يستكمل جوابَه، فلا يَصِحّ أن يُستَأنف بقَسَم آخر، كما أنّه ذَكر جوابًا واحدًا، فتبيّن أنّه قَسَمٌ واحد، وما بعدَه عُطِفَ عليه[3].

دلالة التّعبير بالكتاب:

التّعبير بلفظ الكتاب لإفادة العموم

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالكتاب في قوله تعالى: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٖ﴾ دونَ غيرِه لإفادة العموم، فيُطلَق على ما كتبه اللّه لموسى، وهو يسمع صريرَ القَلَم، وقيل: لِلّوح المحفوظ، وقيل: القرآن، ويجوز أن يُطْلَق على الكتاب الذي تُكْتَب فيه الأعمالُ؛ لذلك كان التّعبير بلفظ الكتاب[4].

نُكْتَةُ تنكير الكتاب:

كمال التّعريف والتّعظيم

آثَر النّظمُ الكريم تنكيرَ الكتاب في قوله جلّ شأنه: ﴿وَكِتَٰبٍ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 185.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 37.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 20/ 481، والدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 276.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 411.

﴿مَّسۡطُورٖ﴾؛ تفخيمًا له وتعظيمًا لشأنه[1]. كما أنّ التّنكير هنا دلّ على "اختصاصه من جنس الكتب بأمر يتميّز به عن سائرها، ففي التّنكير كمالُ التّعريف، والتّنبيهُ على أنّ ذلك الكتابَ لا يخفى، نُكِّرَ أو عُرِّف"[2].

نُكْتَةُ وصفِ الكتاب بأنّه ﴿مَّسۡطُورٖ﴾:

الـدّلالـة على خُلوده وعظيمِ ثوابِ قراءتِه

وصف النّظمُ الجليل الكتابَ بأنّه ﴿مَّسۡطُورٖ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ﴾؛ للدّلالة على أنّه مكتوب سُطورًا مصفوفة، صالحٌ للقراءة، مأمورٌ بتلاوته، كما أنّه يدلّ على أنّه باقٍ على وجه الخُلود؛ لأنّه مأمور بقراءته[3]. والمراد بالكتاب جنسُ الكتبِ السّماويّة أو القرآن. ويدلّ وصفُ ﴿مَّسۡطُورٖ﴾ على أنّه مرتبُ الآيات والسّور؛ لأنّ السّطر في اللّغة معناه: ترتيبُ الحروفِ المكتوبة، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ ترتيب الآيات في القرآن الكريم توقيفيٌّ وكذلك السّور.

دلالة التّعبير بحرف الظّرفيّة ﴿فِي﴾:

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ ﴿فِي﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾ وهي هنا دالّة على الظّرفيّة، وذلك لبيان مكان سطره وكتابته، فهو مكتوب في جلد مقشور مهيّأ للكتابة[4].

سرّ التّعبير بالرّق في قوله: ﴿فِي رَقّٖ﴾:

اختيار ما يُكتب عـلـيـه لـشَـرف المكتوب

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالرّقّ دونَ الجِلْد لوجود فرق بينهما؛ فالجِلْدُ لفظٌ عامٌّ؛ فيشمل الجِلْدَ الغليظ الذي فيه شدّةٌ والرّقيق، أمّا الرّق في قوله: ﴿فِي رَقّٖ﴾ فإنّه يشمل الجِلْد الرّقيق اللّيّن الذي فيه سهولة، وهذا هو المناسبُ لأمر الكتابة على العموم؛ فضلًا عن

(1) السمين الحلبي، الدّرّ المصون: 10/ 63.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 16.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 37.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 3.

كتابة الكتاب المُقَدّس؛ فأمر العناية فيها ظاهرٌ منِ اختيار ما يكتب عليه لشرف المكتوب.

نُكْتَة تنكير ﴿رَقٍّ﴾:

ما كُتب فيه الكتابُ عظيم الشّأن

عبّر النّظمُ الجليل عن الرّقّ بصيغة التّنكير في قوله جلّ شأنه: ﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾؛ للدّلالة على تعظيم مادّة ما كُتب عليه. وإذا اعتُبر المراد بالكتاب بأنّه اللّوح المحفوظ فيكون تنكيرُ الرّقّ دالًّا على أنّه عظيم الشّأن، وأنّه ليس من المتعارف فيما بين النّاس[1]، ليشملَ كلّ ما يكتب فيه من ورق وغيره.

سرّ الوصفِ: ﴿مَّنشُورٍ﴾:

الكتاب مبسوط مهيّأ للانتفاع به

وصف النّظمُ الجليل الرّقّ بأنّه منشور في قوله جلّ شأنه: ﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾، مع أنّ عظمة الكتابِ في لفظه ومعناه، وليس بخطه ورَقّه؛ وذلك للدّلالة على الوضوح والظّهور، لأنّ الكتاب المطويّ لا يُعْلَم ما فيه، فَوَصْفُه بالنّشر للدّلالة على أنّه ليس كالكتب المطوية فهو منشور للنّاس، لا يمنعهم أحدٌ من مطالعته[2]. وتخصيص وصْفِه بالنّشر لأنّها أشرف أحواله؛ إذ هي حالة تحقيق الهدى والاتّعاظ بما فيه للقارئ وللسّامع[3]، وفيه إشارةٌ إلى أنّ هذا الكتاب منشور بيد الملائكة غيرُ مهجور.

سرّ التّعبير بالنّشر في قوله: ﴿مَّنشُورٍ﴾:

الكتاب مفتوح لكلّ قارئ

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ النّشر في قوله جلّ شأنه: ﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾؛ لدلالته على الفتح[4]، فهو مفتوح، لا ختمَ عليه، وهو لائح واضح لكلّ قارئ[5]. وفيه إشارةٌ إلى نشر كتاب الأعمال في يوم البعث والنشور؛ ليقرأ كلُّ إنسان كتابَه.

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 152.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 199.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 38.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نشر).
(5) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 382.

دلالة العطف بالواو في قوله: ﴿وَٱلۡبَيۡتِ﴾:

القَسَم واقعٌ بالكتاب وبالطّور وبالبيت المعمور

عطف النّظمُ الجليل البيتَ على الطّور بالواو في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ﴾؛ وذلك لدلالتها على الاشتراك في القَسَم، وهي ليست واوَ القَسَم[1]؛ لأنّ القَسَم الأوّل وهو قوله: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ لم يستكمل جوابَه، فجاء الجوابُ جوابًا واحدًا، فتبيّن أنّه قَسَم واحد وما بعدَه عطفٌ عليه[2].

سرّ تنكير الكتاب، وتعريفِ باقي الأشياء المُقسَمِ بها:

عظَمة الكتاب وشهرته أغنت عن تعريفه، وباقي المُقْسَم به عُرِّفَ لتَلَبّسه بأمثاله

جاء لفظ الكتاب مُنكّرًا في قوله تعالى: ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ﴾، وجاءت بقيّة الأشياء المُقْسَم بها معرفةً لعظَمة الكتاب وشهرته فما احتاج إلى تعريف؛ لأنّه لا يسبق إلى أفهام السّامعين من النّبيّ ﷺ إلّا الكتاب المعروف، سواء كان المراد به القرآن أو اللّوح المحفوظ؛ أمّا بقية الأشياء المُقْسَم بها؛ فتحتاج إلى التّعريف؛ لأنّ منها ما يَحتمِل الخفاء لتلبّسه بأمثاله من الأجناس[3].

سرّ التّعبير بالبيت:

البيت أخصّ من المسجد، والمُراد به الكعبة

آثَر القرآن الكريم التّعبير بالبيت في قوله: ﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ﴾؛ لأنّ لفظ البيت مأخوذ من البيتوتة، وهو المكان الذي يأوي إليه الإنسانُ من أجل السّكن والرّاحة. ولمّا كانت الكعبةُ هي المكان الذي يستريح إليه كلّ خَلْق الله، وتهواه كلّ أفئدة النّاس، عبّر عنه بالبيت؛ بخلاف المسجد - مثلا - فإنّه أعمّ، حيثُ يطلق على موضع الصّلاة اعتبارًا بالسّجود، ولمّا كان المراد بالبيت المعمور الكعبة المشرفة، عبّر عنها بالبيت دون المسجد؛ فالمسجد أوسع مساحةً وأعمّ مكانًا.

دلالة (أل) في ﴿وَٱلۡبَيۡتِ﴾:

كلّ بيت عمّره عبادُ الله بتوحيده جديرٌ بالقَسَم

عرّف النّظمُ الجليل البيتَ بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه:

---

(1) السمين الحلبي، الدّرّ المصون: 10/ 63.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 20/ 481، والدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 276.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 500.

﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ﴾، وهي هنا دالّةٌ على تعريف الجنس، فيكون القَسَم واقع بكلّ بيت معمور[1]. ويجوز أن تكون للعهد بأن يكون المُراد بالبيت الكعبة المشرّفة[2].

نُكْتَة وصفِ البيت بأنّه معمورٌ:

بيتُ الله معمور بالزّائرين في كلّ وقت وحين

وصف النّظمُ الجليل البيتَ بأنّه معمور في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ﴾ - مع وروده منعوتا بالعتيق مواضع أخرى -؛ للدّلالة على أنّه لا يخلو من طائف به، وذلك أنّ عمران الكعبة يكون بالطّائفين من الحجاج والمعتمرين، كما قال جلّ شأنُه: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [التّوبة: 18][3]، وهذا الوصف باعتبار زوّارِه؛ أمّا وصفُه بالبيت العتيق في سورة الحَجّ؛ فذلك لِقِدَم البيت؛ فهو أوّل بيت وُضِعَ للنّاس، وبذلك يتكامل الوصفان.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾:

الجمع بين هذه الأشياء المذكورة في القَسَم

عطف النّظمُ الجليل السّقفَ على الطّور بالواو في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾؛ للدّلالة على الاشتراك بالقَسَم، وهي ليست واو القَسَم[4]؛ لأنّ القَسَم الأوّل وهو قوله: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ لم يستكمل جوابَه، فجاء الجوابُ جوابًا واحدًا، فتبيّن أنّه قَسَم واحد، وما بعدَه عطفٌ عليه[5].

سرّ تخصيص السّقفِ بالقَسَم:

خصّ القرآنُ الكريم السّقفَ المرفوع بالقَسَم؛ لأنّ السّقف يدلّ على الارتفاع والعُلو، والمراد به السّماء؛ فهي مظهرٌ من مظاهر القدرة الإلهيّة، ولأنّها مصدر الوحي كلّه.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 198.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 239.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 39.
(4) السمين الحلبي، الدّرّ المصون: 10/ 63.
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 20/ 481، والدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 276.

نُكْتَة التّعبير بالسّقف دونَ السّماء:

السّماء للأرض كالسّقف للبيت

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالسّقف دون السّماء في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾؛ وذلك لأنّه لمّا ذكر البيتَ قبلَه ناسبَ أن يذكر السّقف؛ ولأنّها للأرض كالسّقف للبيت[1]. وأطلق السّقف على السّماء من باب التّشبيه البليغ[2]، فحَذفَ الأداةَ ووجه الشّبه الذي هو العُلوّ.

دلالة الواو في ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾:

القَسَم واقعٌ بالبحر المسجور كما وقع بما قبلَه

عطف النّظمُ الجليل البحرَ على الطّور بالواو في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾؛ للدّلالة على الاشتراك بالقَسَم، والواو هنا لا تصلح أن تكون للقَسَم[3]؛ وذلك لأنّ القَسَم الأوّل لم يستكمل جوابَه، فجاء الجوابُ جوابًا واحدًا، فدلّ على أنّه قسم واحد، وما بعدَه عطف عليه[4].

سرّ القَسَم بالبحر المسجور:

في جمع البحر المسجور بين الماء والنّار، دليلٌ على عظَمة القدرة الإلهيّة

خصّ القرآنُ الكريم القَسَمَ بالبحر المسجور؛ لأنّه يختلف عن غيره من البحار، حيثُ توجَد نارٌ تحتَ الماء، والنّار من الأضداد، فجمع البحرُ المسجور بين الماء والنّار، وهذا دليلٌ على عظَمة القدرة الإلهيّة. ويجوز أن يكون وجهُ القَسَم به كونه مملوءًا ماءً كثيرًا، وإنّ ناظِرَه ليَهولُهُ رؤيةُ الماءِ مَدَّ البصرِ، فهو خَلْقٌ جليلٌ عظيم.

نُكْتَةُ وصفِ البحر بـ ﴿ٱلۡمَسۡجُورِ﴾:

الإشارة إلى وجود نارٍ تحتَ ماء البحر

وصف النّظمُ الجليل البحر بأنّه مسجور في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾، مع أنّ البحر في حَدّ ذاته يدلّ على كثرة امتلائه بالماء؛ لكنّ التّعبير بالمسجور يُضيف معنًى جديدًا، وهو الدّلالة على

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 277.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 39.
(3) السمين الحلبي، الدّرّ المصون: 10/ 63، وينظر: النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 382.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 20/ 481، والدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 276.

أنّه يُملَأ نارًا يوم القيامة، فيكون معناه الموقَد، من السّجر. وهو إيقاد النّار في التّنّور، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ [التّكوير: 6][1].

الموقع البيانيّ للجملة الاسميّة:

وقـوعُ العذاب مُـؤكّـدُ الوقـوع، بحيثُ يُقسِم عليه

أورد النّظمُ الجليل الجملة الاسميّة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ جوابًا على القَسَم المتقدّم، فالقَسَم واقع على قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾[2]. والغرض منه التّهديدُ والوعيدُ بوقوع العذاب.

دلالةُ تتابعِ المؤكِّدات في جواب القَسَم:

العـذاب يـومَ القيامة واقـعٌ عـلى وجه التّحقيق والتّأكيد

أكّد النّظمُ الجليل قولَه جلّ شأنه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ بالجملة الاسميّة، وتصديرُها بـ﴿إِنَّ﴾ التي تُفيد التّأكيد، وباللّام المُزحلقة؛ وذلك لتأكيد وقوع العذاب وتحقيقه يومَ القيامة، والمُراد إثباتُ البعث تهديدًا للكافرين بمآلهم[3].

نُكْتَةُ إضافةِ العذاب إلى الرّبوبيّة:

من لُطفِ الرّبّ أن يكون عذابُه صادرًا عن صفة الإحسان

أضاف النّظمُ الجليل العذابَ إلى لفظ الرّبوبيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾؛ لبيان عظيم إكرامه تعالى لعباده ولُطْفِه بهم، فلم يقل: (عذاب الله)؛ لأنّ اسم الجلالة يُنبئ عن العظَمة والهَيبة، فيكون المؤمنون في خوف ووَجلٍ من أن يلحقَهم ذلك؛ لأنّ الله تعالى مستَغنٍ عن العالَم بأسره، فآمَنهم بلفظ الرّبّ؛ فإنّهم حين يسمعون لفظَ الرّبِّ يَأمَنون[4].

دلالة إضافة الرّبّ إلى ضمير المخاطب:

تشريف المخاطب بنسبته للخالق المُحسِن

أضاف النّظمُ الجليل الرّبَّ إلى ضمير المخاطب العائد على النّبيّ ﷺ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ تكريمًا له

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 49.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 187.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 40.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 201.

وتشريفًا؛ وذلك للإيذان بأنّه يُريه في أمّته ما يَسُرّه، بأن لا يستأصِل قومَه بالعذاب[1]. وفيه إشارةٌ إلى طمأنة النّبيّ ﷺ وكلِّ مؤمنٍ يسمع لفظَ الرّبّ في قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ﴾ بلطف اللّه الذي لا حدّ له.

دلالة اللّام في قوله: ﴿لَوَاقِعٌ﴾:

العـذاب مُـؤكَّـدٌ محقّقُ الوقوعِ

أدخل النّظمُ الجليل اللّامَ على خبر ﴿إِنَّ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾، وهي اللّام المُزحلقة الدّالّة على التّأكيد[2]، أي: إنّ عذاب اللّه تعالى كائنٌ لا محالة، وإنّه سينال من يستحقّه على وجه اليقين[3].

دلالة التّعبير بـ ﴿لَوَاقِعٌ﴾ دون كائن:

في الوقـوع شدّة وقوّة دون كائن

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالوقوع دون الكونِ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾، فلم يقل: (لكائن)؛ لأنّ في الوقوع دلالةً على الشّدّة، فالواقع أدلّ على الشّدّة من الكائن[4]، والشّدّة في سياق العذاب أبلغ وأنسب. كما أنّ التّعبير بالوقوع يدلّ على التّحقيق، فالمعنى: إنّ عذاب ربّك لمتحقّق[5].

سرّ التّعبير باسم الفاعل (واقع)، ودلالة تنكيره:

العـذاب واقـع فـي الـحـال والاستقبال

دلّ التّعبير باسم الفاعل (واقع) على أنّ عذاب اللّه تعالى للمُكَذّبين والكافرين يقع في الحال، والمُراد في الدّنيا، كما وقع مع بعض الأمم السّابقة كعادٍ وثمودَ، ويقع في يوم القيامة لكلّ الأمم التي عصت ربَّها وخرجت عن منهجه. وجاء لفظُ الوقوع مُنكّرًا للدّلالة على التّهويل والتّعظيم من شأن الوقوع في يوم القيامة.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 6.

(2) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 278.

(3) القنوجيّ، فتح البيان: 13/ 220.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 201.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 40.

سِرُّ حذف متعلِّق ﴿لَوَاقِعٞ﴾:

دلالـة ما بعدَه عليه

حُذِفَ متعلِّق ﴿لَوَاقِعٞ﴾ لدلالة ما بعدَه عليه في قوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾، وعلى هذا يكون تقدير الكلام لواقع على المكذِّبين وبالمكذِّبين بك، والمراد رسول اللّه ﷺ، أخذًا من ضمير المخاطَب في قوله: ﴿رَبِّكَ﴾[1].

نُكْتَةُ فصل جملة ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾:

عــذاب الـلـه لا يدفعُه أحد

فصل النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾؛ لأنّها صفةٌ للوقوع الذي قبلها، فالجملة مفصولة عن سابقها لكمال الاتّصال بينهما، والتّقدير: واقعٌ غيرُ مدفوعٍ[2]. ويجوز أن تكون حالًا من العذاب، أي: ما للعذاب دافعٌ يدفعُه عنهم[3]؛أي: أنّه واقع عليهم في حال كونه غيرَ مدفوعٍ عنهم.

دلالة التّعبير بـ ﴿مَّا﴾:

انـتـفـاء الـدّافـع مــؤكّــد غــيرُ منقوض

عبّر النّظم الجليل بـ ﴿مَّا﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾، وهي هنا نافية داخلة على الجملة الاسميّة[4]، فيكون المعنى المنفيّ مُؤكّدًا ثابتًا، فانتفاءُ وجودِ دافعٍ يدفع العذابَ عنهم أمرٌ مؤكّد غيرُ منتقض.

دلالة اللّام في ﴿لَهُۥ﴾:

لا يــوجــد مَــن يـدفـع الـعـذاب عن الكافرين

عبّر النّظمُ البليغ بحرف (اللّام) في قوله جلّ شأنه: ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾ وهو هنا حرف جرّ[5]، يدلّ على المِلك، فيكون حاصلُ المعنى أنّ العذاب لا يوجد من يملك دفعه بصرفه عن الكافرين؛ لأنّها أمور لا يملكها إلّا القادر الحكيم.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 40.
(2) السمين الحلبي، الدّرّ المصون: 10/ 64.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 40.
(4) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 278.
(5) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 278.

نُكْتَةُ تقديمِ شبه الجملة ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾:

لا دافعَ لعذاب الله عند وقوعه

قدّم النّظمُ الجليل شِبهَ الجملة على الخبر[1]، في قوله جلّ شأنه: ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾؛ وذلك لإرادة التّخصيص، فالعذابُ ليس له أحدٌ مختصّ به يدفعه عنهم، ونفيُ اختصاصِه بدافع يدلّ على ثبوته عليهم وتأكيد تحقّقه.

دلالة التّعبير بـ ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن دَافِعٖ﴾:

المانع عن العذاب منفيٌّ على وجه الاستغراق والشّمول

عبّر النّظم البليغ بحرف الجرّ ﴿مِن﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾؛ لدلالتها على تحقيق عموم النّفي وشموله، فنفت جنسَ الدّافع[2]؛ أي: ليس له دافعٌ، أيُّ دافع كان.

نُكْتَةُ تنكير ﴿دَافِعٖ﴾:

ما من مانعٍ يمنعُ العذابَ عن الكافر

آثَر النّظم الكريم التّعبيرَ عن الدّافع بصيغة التّنكير في قوله جلّ شأنه: ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾؛ للدّلالة على العموم والشّمول، أي: ليس هناك أيُّ مانعٍ يمنعُه من العذاب[3]، ملكًا كان أو إنسًا أو جِنًّا.

سرّ اختلاف التّعبير بين قوله: ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾، مع سورة المعارج ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ٢﴾:

النّاظر في الآيتين يجد أنّ موضع سورة المعارج جاء بالفعليّة، وهي تدلُّ على التّجدّد والتّكرار؛ بخلاف موضع سورة الطّور؛ فجاء بالاسميّة والتّأكيد بها أقوى من الفعليّة؛ لذلك جاء الأسلوبُ في سورة الطّور بالقَسَم بهذه الأمور الخمسة، وجاء جوابُ القَسَم مُؤكَّدًا، بخلاف آية المعارج، فإنّها جاءت في سياق الذي دعا على نفسه وقومِه بالعذاب[4].

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 278.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 41.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 383.
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/ 108.

الفروق المعجميّة:

السّماء والسّقف:

السّماء أعمُّ من السّقف

السّقف: من (سَقَفَ)، وهو أصْلٌ يدلُّ على ارْتِفاعٍ في إطْلالٍ وانْحِناءٍ. من ذلك: سقفُ البيت؛ لِأَنَّهُ عالٍ مُطِلٌّ[1]. والسَّقْفُ: غِماءُ البيتِ، والسّماء سَقفٌ فوق الأرض[2]، وهو: البناء الممتد على جدران البيت، مُغَطّيًا فضاءَ البيت[3]. أمّا السّماء فهي من العُلوّ، السّماء من (سَمَوَ) وهو أصلٌ يدلّ على العُلوِّ. والسَّماءُ: سَقْفُ البَيْتِ. وكُلُّ عالٍ مُطِلٍّ سَماءٌ[4]، وسَماءُ كلّ شيء: أعلاه[5]. فالسّقف يدلّ على البناء الذي له أعمدة تحتَه يعتمد عليها، فهو من أجزاء البيت، أمّا السّماء فهي أشمل من السّقف، مأخوذة من العُلوّ. وإنّما عبّر هنا بالسّقف لمناسبة ذِكْر البيت قبلَه في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سقف).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللُّغة: (سقف).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 206.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سمو).
(5) الرّاغب، المفردات: (سما).

﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ٩ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ١٠ فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ١٢ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤﴾ [الطّور: 9 - 14]

مناسبةُ الآياتِ لما قبْلَها:

بيان زمن العذاب بعد التّأكيد على وقوعه

لمّا أقسم النّظمُ الجليل بالمذكورات آنفًا على وقوع العذاب وأكّد تحقُّقَه؛ أتبَعَهُ ببيان وقتِ وقوعه، فبعدَ إثبات العذاب تتشوّف النّفس المؤمنةُ إلى معرفة أجله وزمانه، فقال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا﴾ لبيان ذلك[1]. ومنها: لمّا ذَكَر في الآية السّابقة أنّ العذاب واقع على المُكَذّبين، وأنّهم لا يستطيعون دفْعَه؛ بيّن في هذه الآيات ما يصاحب وقوعَه في يوم القيامة من مَوْر السّماء وتسيير الجبال.

شرحُ المفردات:

1) ﴿تَمُورُ﴾: (مَوَرَ) أصلُه يدلُّ على تَرَدُّدٍ[2]. والمَوْرُ: المَوْجُ، وهو مصدر مار يمور، وهو الشّيء يَتَرَدَّدُ[3]، ومار يَمور مَوْرًا، إذا جَعل يَذهب ويَجيء ويتردَّد، وسُمّي الطَّريق: مَوْرًا، لأنّه يُذْهَب فيه ويُجاء[4]، وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا﴾، أي: تدور دورانًا، وتجيء وتذهب، من مار الدّمُ يمور: إذا جرى وتردّد على وجه الأرض. ومار الشّيءُ: اضطرب[5]. والمراد به في الآية الكريمة: "تذهب وتجيء بالرّياح متقطّعة متفتّتة"[6].

2) ﴿خَوۡضٖ﴾: (خوض) أصلٌ يدلّ على توسّط شيءٍ ودخول[7].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 9.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مور).

(3) الخليل، العين: (مور).

(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (مور).

(5) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (مور).

(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 187.

(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خوض).

وخاضَ الماءَ يَخوضه خَوْضًا: مَشَى فيهِ[1]، وأخضت في الماء دابَّتي، وأخاضَ القومُ، أي: خاضَت خيلُهم الماءَ[2]. والخَوْضُ: هو الشّروع في الماء والمرور فيه.ويُستعار في الأمور، وأكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يُذَمّ الشّروع فيه، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ﴾ [التّوبة: 65][3]. وتخاوضوا في الحديث والأمر، أي: تفاوضوا وتداخل كلامُهم[4]. والمراد به في الآية الكريمة: التّخبّط في الأباطيل[5].

3) ﴿يُدَعُّونَ﴾: (دعّ) وأصله يدلّ على حركة ودفع واضطراب[6]. والدَّعُّ: دَفع في جفوة. وفي التّنزيل العزيز: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ٢﴾ [الماعون: 2] أي: يَعْنُفُ به عُنْفًا شديدًا دَفعًا وانتهارًا، أي: يَدْفَعُه حقَّه وصِلَتَهَ[7]. ودَعَّه: دَفَعَه دَفْعًا عنيفًا[8]، فهو الدّفع الشّديد، وأصله أن يقال للعاثر: دع دع، كما يقال له: لعا، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾[9]. والمراد به في الآية الكريمة: يُدْفَعون دفعًا عنيفًا بجفوة وغلظة[10].

المعنى الإجماليُّ:

من مشاهد التّغيير في عالم الأكوان يومَ القيامة

يبيّن النّظمُ الجليل في هذه الآيات بعضَ مشاهد يومِ القيامة وقتَ وقوعِ العذاب وزمانَ حلولِه، فيقول تعالى: إنّ العذاب واقع يوم تتحرّك السّماء فتضطرب ويختلُّ نظامُها وتضطرب أجزاؤها، وتزول الجبال عن أماكنها، وتسير كسير السّحاب. فإذا وقع ذلك العذابُ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (خوض).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (خوض).
(3) الرّاغب، المفردات: (خوض).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خوض).
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 187.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دعّ).
(7) الخليل، العين: (دعّ).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (دعع).
(9) الرّاغب، المفردات: (دعّ).
(10) البقاعيّ، نظم الدرر: 19/ 10.

فالويلُ والهلاكُ للمُكذِّبين بالرّسل وباليوم الآخر، الذين ينغمسون في الأباطيل والأكاذيب، لاعبين لاهين منشغلين عن الحقّ المبين، فلا يذكرون حسابًا، ولا يخافون عقابًا، في ذلك اليوم سيُدفعون بعُنف ومهانة، ويُساقون إلى نار جهنّم بغِلْظة وجفاء، فإذا دَنَوا منها ورأوها شاخصةً أمامَهم تقول لهم خزنتُها تقريعًا وتوبيخًا: هذه النّار التي تشاهدونها هي التي كنتم بها تكذّبون في الدّنيا[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

نُكْتَةُ فصلِ الآية عن سابقتها:

وقــتُ الـعـذاب تتطلّع النّفوسُ إلى معرفة زمن وقوعه

فصل النّظمُ الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا﴾؛ لأنّها مستأنَفةٌ سيقت لبيان زمان وقوع العذاب، وكيفيّة وقوعه، فإنّ إثباتَ وقوعِ العذاب يثير النّفوسَ لمعرفة وقته؛ فكأنّ سائلًا سأل، فجيء بالجملة لبيان ذلك[2].

دلالة التّعبير بالظّرفيّة ﴿يَوۡمَ﴾:

يُعبّر به عن المدّة من الـزّمـان أيًّا كانت هذه المدّة

عبّر القرآنُ الكريم عن زمن وقوع هذه الأحداث بلفظ ﴿يَوۡمَ﴾، مع أنّه يُطلَق في الدّنيا على وقت طلوع الشّمس إلى غروبها؛ أمّا في الآخرة فالزّمن مختلف، فيُعبَّر به عن المُدّة من الزّمان أيًّا كانت هذه المُدّة دونَ نظرٍ إلى طلوع الشّمس وغروبها، لعدم وجود ذلك في أحداث يوم القيامة، والبعض يُسمّي ذلك باليوم الكونيّ؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ٤٧﴾ [الحجّ: 47].

دلالة التّعبير بـ﴿تَمُورُ﴾ مادّة وصيغة:

من مشاهد يوم القيامة اضطرابُ السّماء ودورانُها

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ (المَور) في قوله جلّ شأنه: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا﴾ دونَ غيره كالحركة، لوصف حالتها يوم القيامة، فهي في حركة اضطراب ودوران، فهي تتكفّأ تَكَفُّؤَ السّفينة، وتدور

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 51، 52، وجماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 523.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 9.

دورانَ الرّحى، وتختلف أجزاؤها ببعضها[1]، ولمّا كان لفظُ المَور يجمع هذه المعاني كلّها، فهو يدلّ على الذّهاب والمَجيء والتّردّد والدّوران والاضطراب[2] - كان هو الأنسب للتّعبير بها. وجيء به فعلًا مضارعًا تصويرًا للمشهد في تجدّده وتَكَرّرِه، واستحضارًا لهول الصّورة التي عليها السّماءُ في هذه الحالة.

سرّ التّعبير بالسّماء مفردًا:

عبّر القرآنُ الكريم بلفظ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ مفردًا في قوله: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ﴾ دون الجمع إمّا لأنّ المراد بها الجنسُ، أو يكون المرادُ السماءَ الأولى المعهودة للبشر، التي كانوا ينظرون إليها ويرونها محكمةً بديعة مرفوعة بلا عُمُد؛ إذ بها بين أعينهم تضطرب وتتحرّك، وكلّ ذلك من باب تهويل المشهد.

دلالة التّأكيد بقوله: ﴿مَوۡرٗا﴾:

مــور الـسّـمـاء ودورانُها حقيقيٌّ مؤكّد

أكّد النّظمُ الجليل المورَ بالمفعول المطلق في قوله جلّ شأنه: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا﴾؛ للإيذان بغرابته وخروجه عنِ الحدودِ المعهودةِ، أي: مورًا عجيبًا لا يُدْرَكُ كُنْهُه[3]. كما أنّه يرفع المجاز، ويُثبت الحقيقة، أي: إنّه مورٌ واضطراب حقيقيّ[4]. وفائدة التّأكيد كذلك الدّلالةُ على شدّة المَور وقوّةِ الاضطراب[5].

سرّ البَدْء بمَور السّماء قبل تسيير الجبال:

العالَمُ العُلويّ مُـقـدّم عـلى العالَم الأرضيّ؛ لـجـسـامـة الأحداث فيه

جاء التّرتيب القرآنيُّ بتقديم مور السّماء على تسيير الجبال؛ لأنّ مور السّماء يتعلّق بالعالَم العُلْويّ، وتسيير الجبال بالعالم الأرضيّ، والعالَمُ العُلْويّ مُقدّمٌ على العالَم الأرضيّ؛ لجسامة الأحداث فيه،

(1) الخازن، لباب التّأويل: 4/ 199.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 9.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 147.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 42.
(5) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 112.

ولأنّ مور السّماء من المشاهد التي تقع قبلَ الحشر؛ فالتّخويف به ظاهر وواقع.

بلاغة جناس الاشتقاق:

تأكيدُ المعنى وتوكيدُه، وإبراز ظهوره

في هاتين الآيتين: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ٩ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا﴾ جناس اشتقاق بين: ﴿تَمُورُ﴾ و﴿مَوۡرٗا﴾، و﴿وَتَسِيرُ﴾ و﴿سَيۡرٗا﴾، والغرض من ذلك تأكيدُ المعنى وتوكيدُه، وإبراز ظهوره.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَتَسِيرُ﴾:

مور السّماء وسير الجبال من مشاهد يوم القيامة

عطف النّظمُ الجليل السّيرَ على المور في قوله جلّ شأنه: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ٩ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا﴾، فبعدَ بيانِ حال السّماء يومَ القيامة، أتبعه ببيان حال الجبال، فالسّماء تتحرّك وتضطرب، والجبال تنتقل من أماكنها، فتصير هباءً منثورًا[1]، وكأنّ اللّه تعالى يقول للمُعذَّبين: هذا العذابُ ليس له من دافعٌ في ذلك اليوم الذي تمور فيه السّماء في أعينكم، والجبال تسير تحتَ أرجلكم وأمامَ أعينكم.

دلالة التّعبير بالسّير مادّةً وصيغةً:

الجبال تنتقل من أماكنها انتقالَ السّحابِ في جوّ السّماء

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ السّير في قوله جلّ شأنه: ﴿وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا﴾ دون غيره كالحركة؛ للدّلالة على حالة الجبال يومَ القيامة، فهي تتحرّك وتنتقل من أماكنها انتقالَ السّحاب حتّى تصير هباءً منثورًا، وتكون الأرض قاعًا صفصفًا[2]؛ بخلاف الحركة أو المشي فإنّهما لا يؤدّيان هذا المعنى؛ لسرعة السير وعدم توقُّفِه. ولأنّ الحركة قد تكون موقوتة وتكون بطيئة، وهذا غير مراد في المشهد. وعبّر عن ذلك بالفعل المضارع تصويرًا للحالة التي يكون عليها النّاس في إدراك سير الجبال الرّواسي، التي كانت أوتادًا للأرض، واستجلابًا للصّورة.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 147، والدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 279.
(2) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 112.

دلالة (أل) في ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾:

كلّ الجبال صغيرُها وكبيرُها تسير فتزول

عرّف النّظمُ الجليل لفظَ الجبال بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا﴾، وهي هنا لتعريف الجنس، أي: جنس الجبال، فالحُكم عامٌّ في كلّ جبل، وليس المراد جبالًا بعينها.

بلاغة المجاز في إسناد السّير إلى ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾:

طاعة الجبال وامتثالُها لأمره تعالى

تظهر بلاغةُ المجاز في إسناد السّير إلى ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾، ومن المعلوم أنّ الجبال لا تسير بنفسها، فإسنادُ السّير لها في قوله جلّ شأنه: ﴿وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا﴾ هو إسناد مجازيّ؛ إذِ المُسَيِّر لها هو اللّٰه تعالى، يُؤكّد ذلك قولُه: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ﴾ [الكهف: 47]، ويكون إسنادُ السّير إليها إيماءً إلى شدّته وقوّته، بحيثُ إنّها تسير بنفسها، كما أنّه تعبيرٌ عن طاعتها، وامتثالها للأمر.

نُكْتَةُ توكيد فعل السّير:

سير الجبال وزوالُها مؤكّد

أكّد النّظمُ الجليل السّيرَ بالمفعول المطلق في قوله جلّ شأنه: ﴿وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا﴾؛ للدّلالة على أنّه سير عجيب غريب، غيرُ مألوف، فقد تفتّتت وتلاشت أجزاؤها، ولم يبقَ من عظمتها المعهودة شيءٌ، وتصير الأرض قاعًا صَفْصَفًا[1]. وللدّلالة كذلك على أنّ المرادَ الحقيقةُ لا المجاز، فهو سير وانتقال حقيقيّ[2].

سرّ ذِكْر مورِ السّماء وسيرِ الجبال:

لا رجوعَ ولا عودَ إلى الدّنيا لخرابها

آثَر القرآنُ الكريم ذِكْرَ مورِ السّماء وسيرِ الجبال دونَ غيرهما من مشاهد أحداث القيامة؛ للإعلام والإنذار بأنّه لا رجوعَ ولا عودَ إلى الدّنيا لخرابها، وفي ذلك دعوة للمؤمنين إلى العمل لإعمار الآخرة قبل فوات الأوان[3].

---

(1) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 357.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 42.

(3) القنوجيّ، فتح البيان: 13/ 220.

دلالة الفاء في ﴿فَوَيْلٌ﴾:

وقوع العذاب مُسبِّبٌ للويل والهلاك

افتتح النّظمُ الجليل الجملة بالفاء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ وهي هنا عاطفةٌ جملةَ الويلِ على جملة: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾، وجيء بها للدّلالة على السّببيّة، فلمّا ذكر وقتَ العذاب أتبَعهُ ببيان أهله ومستحقّيه، وسبّب عنه الويلَ والهلاك لهم[1]. كما أنّها مشعِرةٌ بأن الويل يقع على الفور بعد وقوع العذاب. وأجاز بعض أئمّة التّفسير أن تكون رابطة للجواب بشرط محذوف، وتقدير الكلام: إذا وقع ما ذُكِر من مور السّماء وسير الجبال فويلٌ لهم[2]. ففي الكلام معنى الشّرط والمجازاة فلذا دخلت الفاء لربط الكلام، فويلُ الكافرين متعلّقٌ بوقوع المور وسير الجبال، فإذا وقع ذلك تحقّق الويلُ للكافرين[3].

دلالة التّعبير بالويل وتنكيره:

هلاكٌ عظيم وفاجعةٌ للمُكَذِّبينَ يومَ القيامة

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ الويل في قوله جلّ شأنه: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ للدّلالة على وقوع الكافرين في هلكة شديدة، بحيثُ يقال تفجّعًا عليهم: ويلٌ لهم، فالويل لفظةٌ تُقال لمن وقع في الهلاك، وهي تدلّ على وقوع شرّ عظيم، وتدلّ على التّفجّع[4]. وقد آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عنه بصيغة التّنكير؛ للدّلالة على التّعظيم والتّهويل، أي: ويْلٌ عظيم لهم، وعذابٌ شديد[5].

نُكْتَةُ تقديم الظّرف على المسنَد:

تقديم المقصود بالخطاب تنبيهٌ على الاستحقاق

قدّم النّظمُ الجليل الظّرفَ على المسنَد في قوله جلّ شأنه: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، فلم يقل: (فويلٌ للمكذّبين يومئذٍ)؛ لأنّ السّياق في

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 187، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 10.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 241.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 115.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 10.
(5) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 357.

بيان اليوم وشدّته، ووقتِ العذاب وزمانه، فهو المقصود الأوّل في سياق الكلام. كما أنّ تقديمه لاستحضار ما سبق ذِكْره أي: يومئذٍ يكون ما تقدّم ذِكْره من الأهوال[1]. فيدلّ على أنّ تلك الأهوالَ مصحوبةٌ بالويل، فجمعَ الأهوالَ كلَّها قبلَ أن يُبيّن مستحقّيها، وهم المُكذِّبون.

دلالة الّلام في ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾:

أهلُ التّكذيب مُستحقّون للعذاب

عبّر النّظمُ البليغ بحرف الجرّ (اللّام) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾، وهي هنا للاختصاص والاستحقاق[2]. فالويلُ خاصّ بهم ومُسْتَحَقٌّ لهم دونَ غيرهم، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ أهل التّصديق ينعمون بالجنّات، في مقابلة الويل والهلاك للمُكَذّبين.

نُكْتَةُ التّعبير بالتّكذيب:

تكذيب الصّادق والإصرار عليه من سمات الكافرين

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ التّكذيب في قوله جلّ شأنه: ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾، وذلك لدلالة التّكذيب على النّسبة إلى الكذب، فهو تكذيب للصّادق كما في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [آل عمران: 11][3]؛ فكلُّ تكذيب فيه كَذِبٌ.

دلالة التّعبير باسم الفاعل ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾:

أهل الكفر عريقون في الكَذِب والتّكذيب

جاء التّعبيرُ باسم الفاعل من التّفعيل؛ للدّلالة على عراقتهم في التّكذيب الشّديد البليغ، ولم يتوبوا منه، وماتوا وهم متلبّسون بهذه الصّفة من تكذيب الرّسل وأهلِ الصّدق، وماتوا على ذلك التّكذيب[4]. وفيه دلالةٌ على كثرة كَذِبهم، فهم قد كذّبوا بالرّسل، وبالرّسالات، وبالآخرة والحساب[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 10.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 27/ 41.
(3) الرّاغب، المفردات: (كذب).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 10.
(5) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 27/ 41.

سرّ التّعبير بالمُكذّبين دونَ الكافرين:

الـــوصـــف بالتّكذيب يجمع معه صفةَ الكفر

آثَر القرآنُ الكريم التّعبير بالمُكذّبين؛ لأنّه يجمع معه صفةَ الكفر؛ فما وُصِفَ الكافرُ بكفره إلّا لأنّه كذّب بما جاءت به الرّسل، وهناك آياتٌ كثيرة في القرآن جمعت بين الكفر والتّكذيب؛ للدّلالة على وجود تلازمٍ بينهما، ولاسيما في أمر الإيمان باللّه ورسوله.

سرّ التّعبير بـ (المُكذّبين) دون (الذين كذّبوا):

رســـوخ أهـل الكفر في صفة التّكذيب

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالمُكذّبين في قوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ دون (الذين كَذَّبوا)؛ للدّلالة على رسوخهم في صفة التّكذيب، وأنّه صار طبيعةً من طبائعهم لا تنفكّ عنهم؛ لأنّ التّعبير بالاسميّة يفيد الثّبوت والاستمرار.

سرّ حذفِ متعلّق التّكذيب:

دلالـة السّياق عـــلى عـمـوم تكذيبهم لكلّ ما جاء به الرّسول

حذف النّظمُ الجليل متعلّقَ التّكذيب في قوله جلّ شأنه: ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾؛ وذلك لدلالة السّياق عليه، أي: الذين يكذّبون بما جاءهم به النّبيُّ ﷺ من التّوحيد، والبعث، والوحي عامّة[1]. فالحذفُ يدلّ على شمول التّكذيب، فيتناول التّهديدُ والوعيدُ مكذّبَ أيّ شيءٍ من ذلكم، فمن كذّب شيئًا من تلك الدّعوة، فهو مكذّب مستحقٌّ للوعيد والويل.

دلالة التّعبير بالاسم الموصول:

تحقير المُكَذّبين بسوء ما كسبت أيديهم

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالموصول في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ﴾؛ لذمّهم بما اقترفوا، وتحقيرهم بما فعلوا[2]، وذلك بما تضمّنته صلةُ الموصولِ من وصفهم بالخوض واللّعب؛ فليس المُراد من الموصول تخصيصَ المُكذّبين وتمييزَهم، وإنّما هو للذّمّ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 42.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 27/ 42.
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 9/ 189.

دلالة التّعبير بحرف الظّرفيّة:

إيغالهم في الخوض حتّى صار محيطًا بهم

عبّر النّظمُ البليغ بحرف الجرّ ﴿فِي﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ﴾ الدّالّ على الظّرفيّة المجازيّة؛ لأنّه يدلّ على شدّة الملابسة، كملابسة الظّرف لما وقع فيه، أي: الذين تمكّن منهم الخوضُ حتّى كأنّه أحاط بهم[1]، فلم يقل: (الذين يخوضون)؛ لأنّهم لشِدّة خوضهم في الأباطيل صاروا منغمسين فيها، وكأنّ الخوض حيّزٌ قد أحاط بهم لا ينفكّون عنه.

بلاغة المجاز في التّعبير بالخوض:

وُلوجُهمُ الباطلَ واندفاعهم فيه

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ الخوض في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ﴾، وهو في الأصل أن يكون في الماء، وأُطلِق مجازًا على التّخبّط في الباطل[2]، تشبيهًا لحالهم في الاندفاع في الباطل والولوج فيه بحال من يخوض في الماء لا يعرف أين يضع رجله[3]، تعبيرًا عن جهلهم وجُرأتهم في التّعاطي مع الحقّ بدون علمٍ، والتّعجّل بتكذيب الصّادقين.

نُكْتَةُ تنكير ﴿خَوۡضٖ﴾:

كثرة كثرةُ انغماسهم في الأباطيل والأكاذيب

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن الخوض بصيغة التّنكير في قوله تعالى: ﴿فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ﴾؛ للدّلالة على التّعجُّب من شدّة اندفاعهم في الباطل، أي: هم في اندفاع وانغماس عجيبَين في الباطل والضّلال[4]. وفيه إشارةٌ إلى أنّهم لا يتركون مجالًا يمكن أن يخوضوا فيه إلّا خاضوا، فلا يَرْعَوون من سلوكهم هذا المسلكَ في آيات الله وكُتبِه، أو في أمر نبيّه ﷺ بالتّكذيب والاستهزاء، ويساعد على ذلك أنّ لفظ الخوض لفظٌ عامٌّ، فإنّه يصلح للخوض في كلّ شيء، إلّا أنّه غلب في الخوض في الباطل[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 42.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 187.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 383، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 10.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 51.
(5) القنوجيّ، فتح البيان: 13/ 221.

التّشاغل عن الحقّ دأبُ المُكذّبين الخائضين في الأباطيل

دلالة التّعبير باللّعب مادّةً وصيغةً:

عبّر النّظمُ الكريم باللّعب في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ﴾؛ لدلالة اللّعب على فعلِ ما لا فائدة فيه[1]. فعبّر به إشارةً إلى أنّهم يلهون ويتشاغلون بخوضهم وكفرهم، بما لا ينفعهم في الدّنيا والآخرة[2]، وفيه إشارةٌ إلى استهزائهم بالشّرائع السّماويّة وبمَن أُنزلت عليهم على وجه العموم. ويجوز أن يكون المراد على وجه الخصوص بفعل المشركين مع رسول اللّه ﷺ. وجاء التّعبير بالفعل المضارع للدّلالة على تجدُّد لَعِبِهم، وهو يبيّن حالهم الدّائم[3].

الدّفع العنيف إلى النّار جزءٌ من أهوال المحشر

نُكْتَةُ فصل قوله: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ﴾:

فصل النّظمُ الجليل قولَه جلّ شأنه: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ عمّا قبلَها لكمال اتّصالها بها؛ فهي بدل اشتمال[4] من قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا﴾؛ لأنّ دفعهم بعنفٍ وغِلظةٍ إلى النّار هو جُزءٌ من أهوال ذلك اليوم.

الكافر يدخل النّار بدفعٍ غليظٍ وتعنيفٍ بليغٍ

دلالة التّعبير بالدّعّ في ﴿يُدَعُّونَ﴾:

عبّر النّظمُ الجليل بالدّعّ في قوله جلّ شأنه: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾؛ للدّلالة على كيفيّة إدخالهم النّارَ، فهم يُدفعون دفعًا بعنف وغلظة، فإنّ "خزنة النّار يَغُلّون أيديَهم إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيَهم إلى أقدامهم، ويدفعونهم إلى النّار دفعًا على وجوههم"[5]. فدلّ على الزّجر والعنف المُفْرِط في الدّخول مع القيد بالسّلاسل والأغلال[6]. ومن بلاغة التّعبير بـ (الدّعّ) في قوله: ﴿يُدَعُّونَ﴾ أنّ البُنية اللّغويّة تصوّر حركةَ الدّفع بهم إلى جهنّم؛ فالتّشديد الموجود

---

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (لعب).

(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 9/ 189.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 42.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 43.

(5) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 383.

(6) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 357.

في الفعل ﴿يُدَعُّونَ﴾ يصوّر حالةَ الشِّدّة التي يكونون عليها، وهم يُدفَعون إلى جهنّم، وفيها تصوير لحالتهم وهم يحاولون التّراجع عنها، وخزنة جهنّم تدفع بهم دفعًا إليها.

نُكْتَة تعديةِ فعلِ الدّعّ بـ﴿إِلَىٰ﴾:

منتهى دفعِهم بلوغُهمُ النّارَ

عدّى النّظمُ الجليل الفعلَ بحرف الغاية في قوله جلّ شأنه: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾؛ وذلك للدّلالة على أنّ منتهى دفعهم هو النّار، أي: إنّهم مع دفعهم بجَفوة وغِلْظة فإنّهم ذاهبون بهذا الدّفع إلى النّار ومنتهون إليها[1].

دلالة تقييد الدّعّ بشِبه الجملة:

غاية الدّعّ إلقاؤهم في جهنّم

قيّد النّظمُ الجليل الدّعّ بشِبه الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ﴾؛ وذلك للتّصريح بالنّهاية للدّعّ، فينتهي الدّفعُ العنيف الغليظ بأن يدخلوا النّار، فهم ذاهبون إليها مع المهانة والجفاء، فشِبهُ الجملة تبيّن الغايةَ بعد الدّفع الغليظ.

نُكْتَةُ توكيد فعل الدّعّ بالمفعول المُطلَق:

شدّةُ دفعِهم وطرحِهم في جهنّم

أكّد النّظمُ الجليل الدّعّ بالمفعول المطلق في قوله جلّ شأنه: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾؛ للدّلالة على شدّة الطّرح والدّفع، كما أنّه يدلّ على تعظيم هذا الدّفع وتصويره، وهم يُدَفَعون إلى النّار دفعًا عنيفًا شديدًا، بعد أن غُلّت أيديهم إلى أعناقهم، وجُمِعت نواصيهم إلى أقدامهم؛ ثمّ يُدفَعون إلى جَهنَّمَ دَفْعا على وجوههم، مع تصوير صورتهم عندما تسوقهم خزنةُ جهنّم إلى النّار، وهم يحاولون البُعْدَ عنها، كما يُساق المجرمُ إلى محبسه.

بلاغة جناس الاشتقاق في ﴿يُدَعُّونَ﴾ ﴿دَعًّا﴾:

جمع النّظمُ الجليل لفظين مشتّقين من مادّة واحدة، وهي

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 10.

تكرير لفظ الإذلال تنبيهٌ على سوء المصير

(الدّعّ) في قوله جلّ شأنه: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾، على طريقة الجناس الاشتقاقيّ، وهما ﴿يُدَعُّونَ﴾ و﴿دَعًّا﴾، وذلك للتّنبيه على المعنى الذي يُؤدّيانه، وهو الدّفع العنيف، فدلّ تأكيدُه بالمفعول المطلق، مع الجمع بين الفعل والمصدر من مادّة واحدة - على شدّة التّعنيف بالدّفع. مع ما في اللّفظ من جماليّة في الصّوت، تُصَوِّر شدّةَ الدّفع من الخَلْف ومحاولةَ التّراجع إلى الوراء، فتُنْتِجُ هذه الحالةُ صوتًا يخرج من حلقه كأنّه يقول: (أع) من هول ما أصابه.

نُكْتَةُ فصلِ جملة ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ﴾:

استقبال الدّاخلين في النّار بالتّوبيخ والتّقريع

فصل النّظمُ الجليل جملةَ: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾؛ لأنّها مستأنفة لبيان ما يقال لهم أثناءَ رؤيتهم النّارَ، أي يقال لهم: هذه النّارُ التي أخبركم عنها الرّسلُ، وذلك على جهة التّوبيخ والتّقريع[1].

سرّ حذفِ القول في جملة ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ﴾:

لم يُعيَّن القائلُ لإفادة العموم

جاء التّركيب القرآنيُّ بجملة ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ﴾ دون ذِكْرٍ للقول، وهو لازم لهذه المقولة؛ فتقدير الكلام يقال لهم: (هذه النار التي كنتم بها تكذبون)، ولم يُعيَّن القائلُ لإفادة العموم؛ فكلّ من رآهم سواء من الملائكة أو من غيرهم يقول لهم هذا القول، وفي هذا مزيدُ توبيخ وتقريع لهؤلاء المُعَذّبين، وفيه إشارة إلى أنّهم ليسوا أهلًا للتّكلّم معهم.

دلالة التّعبير باسم الإشارة ﴿هَٰذِهِ﴾:

التّقريع والتّوبيخ مع رؤية النّار تغليظٌ على الكافرين

عبّر النّظمُ الجليل باسم الإشارة الدّالّ على القُرب في قوله جلّ شأنه: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾؛ للإيماء إلى أنّهم قيل لهم ذلك، وهي قريبة منهم وقد بلغوها، وأنّهم مشرفون على شفاها[2]؛ فهو ترهيب وتخويف للمُكذّبين. وفي التّعبير به دعوةٌ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 187.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 43.

للمُكذّبين إلى ورود النّار ونزولها، ليعلموا حقيقةَ أمرِها التي حُدِّثوا عنها في الدُّنيا، وكانوا يُكَذّبون بها، وفي هذا مزيدُ سخريةٍ واستهزاءٍ بهؤلاء المُكذّبين[1].

دلالة (أل) في ﴿ٱلنَّارُ﴾:

النّار التي يشاهدونها هي المعهودة، والتي حذّرهم منها الرّسلُ

عرّف النّظمُ الجليل النّار بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، وهي هنا للعهد، أي: النّار التي سبق التّخويفُ بها وهي نار جهنّم، فهي المُحَرِقةُ المُهلِكة لما ورد فيها[2].

دلالة التّعبير باسم الموصول وصلته:

تنبيهُ المخاطَبين على فساد معتقدهم

عبّر النّظم الجليل باسم الموصول وصلته في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، تنبيهًا للمخاطَبين على فساد معتقدهم، فقد كذّبوا بالعذاب واستهزؤوا به، وها هم يرونه عيانًا[3].

بلاغة الالتفات من الغَيبة إلى الخطاب:

بيان حال المخاطبة بين خزنة النّار والمُكذِّبين

التفت النّظمُ الجليل في الخطاب من الغَيبة إلى التّكلّم في قوله جلّ شأنه: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾؛ لأنّه قول يقوله لهم خزنة النّار، أي يقال لهم: هذه النّارُ التي تشاهدونها الآن هي التي كنتم تكذّبون بها في الدّنيا[4]. فحكى النّظمُ ما يقع من الخطابُ بين خزنة النّار للذين يدخلونها بسبب تكذيبهم بها وإنكارهم لها. فالالتفاتُ لحكاية حالة المخاطبة تنزيلًا لهم منزلةَ مَن دخلها على التّحقيق، وفي هذا مزيدُ سخرية واستهزاء بهؤلاء الكفّار الذين كانوا يسخرون ممّن يحدّثهم عن النّار وعذابِها ولهيبها.

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 9/ 599.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 11.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 43.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 51، 52.

دلالة التّعبير بالتّأنيث ﴿ٱلَّتِي﴾:

مراعاةُ سياق الآية بذِكْر النّار مؤنّثة

جاء التّعبير بالتّأنيث في قوله: ﴿ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، مع أنّه ورد في سورة السّجدة ﴿ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٠﴾ [السّجدة: 20]؛ فعبّر هنا بـ ﴿ٱلَّتِي﴾ مراعاةً لسياق الآية بذِكْر النّار، وهي مؤنثة؛ أمّا ما ورد في سورة السّجدة من التّذكير؛ فكان من باب التّناسب مع العذاب، وهو مُذَكّر(1).

نُكْتَةُ دخولِ فعلِ الكوْن:

الإصرار على التّكذيب دَأْبٌ راسخٌ في الكافرين

عبّر النّظم الجليل بفعل الكون في قوله جلّ شأنه: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾؛ للدّلالة على شدّة تكذيبهم واستمرارهم عليه، فهو تعبيرٌ عن رسوخهم في التّكذيب بكلّ ما جاءت به الرّسل، ولا سيما ما كان في شأن الزّجر والتّخويف بالنّار.

دلالة التّعبير بالباء في قوله: ﴿بِهَا﴾:

الكافر مُكذِّب بالنّار منكرٌ لها

عبّر النّظمُ البليغ بحرف (الباء) في قوله جلّ شأنه: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ وهي هنا للتّعدية، ويكون التّكذيب بمعنى الإنكار، فكذّب بالأمر، أي: أنكره(2)، فتكذيبُهم وقعَ على النّار إنكارًا لها.

نُكْتَةُ تقديمِ شبهِ الجملة ﴿بِهَا﴾:

شدّة إنكارهم للنّار كأنّه تكْذيبٌ مقتصِر عليها

قدّم النّظم الجليل شبهَ الجملة ﴿بِهَا﴾ على المسند في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ فلم يقل: (تكذّبون بها)؛ وذلك للدّلالة على التّخصيص، فلمّا وقع تكذيبُهم على وجه الإصرار والمبالغة، وكان تكذيبُ النّار والجزاء سببًا للتّكذيب بالعذاب وما وراءَه، صار تكذيبُهم كأنّه مخصوص بالنّار: "ولمّا كان تكذيبهم بها في أقصى درجات التّكذيب، وكان سببًا لكلّ تكذيب، كان كأنّه مقصور عليه، فقال مُقدّمًا للظّرف؛ إشارةً إلى ذلك"(3).

(1) ابن الزّبير، ملاك التّأويل، ص: 359.
(2) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (كذب).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 11.

دلالة التّعبير بالتّكذيب مادّةً وصيغةً:

أهل الكفر لا يُصدّقون ما يقولُه الرّسلُ لهم، وهم مستمرّون في تكذيبهم

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالتّكذيب دونَ غيره في قوله جلّ شأنه: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾؛ لأنّهم كانوا لا يُصَدّقون ما يقوله الرّسل لهم. وعبّر بالمضارع للدّلالة على استمرارهم في التّكذيب وعدم التّصديق كلّما أخبروهم بما ينتظرهم من العذاب إن لم يؤمنوا بهم.

❁ الفروق المعجميّة:

الدّعُّ والدّفع:

الدّعّ أخصّ من الدّفع، فهو دفع عنيف بغِلظة وجفاء

الدّفع يدلّ على تَنْحيَةِ الشَّيْءِ[1]، والإزالة بِقوَّةٍ[2]. أمّا الدَّعُّ فهو يدلّ على حركة ودفع واضطراب[3]. والدَّعُّ: دَفع في جفوة. وفي التّنزيل العزيز: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ٢﴾ [الماعون: 2]؛ أي: يَعْنُفُ به عُنْفًا شديدًا دَفعًا وانتهارًا، أي: يَدْفَعه حقَّه وصِلَتَهُ[4]. ودَعَّه: دَفَعَه دَفْعًا عنيفًا[5]، فالدّعّ هو الدّفع الشّديد[6]. وعبّر في الآية بالدّعّ للدّلالة على شدّة دفعهم وتعنيفهم، فهم يُدفعون دفعًا عنيفًا بجفوة وغِلظة[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دفع).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (دفع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دعّ).
(4) الخليل، العين: (دعّ).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (دعع).
(6) الرّاغب، المفردات: (دعّ).
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 10.

﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ١٥ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٦﴾ [الطّور: 15 - 16]

مناسبةُ الآيتين لِما قَبلَهما:

التّهكّم بالكافرين بعد ذِكْر سوء مصيرهم

لمّا ذكر النّظمُ الجليل فيما سبق شأنَ الكافرين ومآلهم في الآخرة؛ نبّه هنا على ضلالةٍ من ضلالاتهم في الدّنيا، عندما كانوا يُعْرِضون عن سماع القرآن وينسبوه إلى السّحر، فتسبّب عن ذلك توبيخُهم والتّهكّم بهم بقوله: ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾[1].

ومنها: لمّا ذكرت الآيةُ السّابقة أنّهم يُدَعّون إلى نار جهنّم دعًّا، ويقال لهم عند قذفهم فيها: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤﴾ [الطور: 14]؛ جاءت هذه الآيةُ لمزيد السّخرية منهم، والاستهزاء بهم بأن يقال لهم: ما أنتم فيه من العذاب سحرٌ كما كنتم تقولون، أم أنتم لا تبصرون.

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَفَسِحۡرٌ﴾: أصلُ (سحر) يدلُّ على الخِداعِ والتّخيلات التي لا حقيقةَ لها وشِبْهِهِ[2]، وحقيقةُ السِّحْرِ: صَرْفُ الشَّيءِ عَنْ حَقيقَتِه إلى غَيْرِه، فكأنَّ السّاحِرَ لمّا أرَى الباطلَ في صورَةِ الحَقِّ، وخَيَّلَ الشَّيءَ على غيرِ حَقيقَتِه، قَدْ سَحَرَ الشَّيءَ عَنْ وجْهِه، أي: صَرَفَهُ[3]. والمَسْحور: ذاهِبُ العَقْلِ المُفْسَدُ[4]. والسِّحْرُ: الأُخْذَةُ؛ وكلُّ ما لَطُفَ مَأْخَذُه، ودَقَّ، فَهوَ سِحْرٌ، والجَمعُ أسحارٌ وسُحورٌ، ورجلٌ ساحِرٌ مِنْ قَوْمٍ سَحَرَةٍ[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 11، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 43.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سحر).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سحر).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (سحر).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (رهق).

2) ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾: أصلُ (الصّلى) الإيقادُ بالنّار، ويقال: صَليَ بالنّار، وما أشْبَهَها مِنَ الحُمَّى، يُقال: صَلَيْتُ العودَ بالنّارِ، وصَلَيْتُ اللَّحْمَ: شَوَيْتُه، فأمّا أصْلَيْتُه، وصَلَّيْتُه؛ فَعَلَى وجْهِ الفَسادِ والإحْراق[1]. وتَصَلّاها: قاسَى حرَّها، وأصلاه النّار، وصلّاه إيّاها وفيها وعليها: أدخله إيّاها وأثْواه فيها، وقد استعمل هنا في الدُّخول مجازًا[2].

المعنى الإجماليُّ:

النّار في الآخرة حقّ

يقول تعالى على وجه الإنكار والتّهكّم بالمشركين: هل ما ترونه بأعينكم من العذاب حقّ، أو أنّكم قد سُحِرتم كما زعمتم أنّ النّبيّ ﷺ قد سحركم في الدّنيا، أو قد غُطّيت أبصاركم فلا ترى شيئًا؟ بلى إنّ ما ترونه من العذاب حقّ، ولم تُسحر أعينُكم، ولم تُغطَّ أبصارُكم. فقد ثبت لكم أنّ النّار حقّ ولم يمكنكم إنكارُها، فتحقّق أنّها ليست بسحر، ولا خلل في أبصاركم، فاصلوها، وذوقوا حرَّها، فاصبروا على ألمها، أو لا تصبروا، فلن يُخَفَّف عنكم العذابُ، ولن تخرجوا منها، ونحن لم نَظْلِمكُم، فإنّما تُجزون ما كنتم تعملون في الدّنيا[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

نُكْتَةُ فصلِ الآية عن سابقتها:

التّهكّم بالاستفهام بعد الإخبار بالتّهديد

فصل النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾؛ لأنّها جاءت بصيغة الإنشاء، وما قبلها بالخبر، فكان بينهما كمالُ الانفصال، فوجب الفصل بينهما.

بلاغة الاستفهام في قوله: ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ﴾:

التّقريع والتّهكّم بالمشركين

عبّر النّظمُ الجليل بالاستفهام في قوله جلّ شأنه: ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ﴾؛ وذلك للتّقريع والتّهكّم، وللإنكار والتّوبيخ[4]، أي: إنّكم كنتم

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلي).
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/ 425.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 27/ 20، 21، وجماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 524.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 153، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/ 193.

تقولون عن القرآن إنّه سحرٌ، وفي هذا تحسير لهم، والمعنى: أهذه النّار التي تشاهدونها الآن سحرٌ كما كنتم تقولون في الدّنيا[1].

سرّ التّعبير بالفاء في قوله: ﴿أَفَسِحۡرٌ﴾:

نسبتم الوحي للسّحر، فهل هذه النّار سحرٌ؟

عبّر النّظم الجليل بالفاء في قوله جلّ شأنه: ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾؛ لأنّ هذه الفاء تقتضي معطوفًا عليه، وهو مُقَدّر دلّ عليه مضمون ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤﴾ [الطور: 14]، وتقديره[2]: كنتم تقولون للقرآن هذا سحر، فهل هذه سحرٌ كذلك؟ وذلك أنّ المشركين كانوا ينسبون النّبيّ ﷺ إلى السّحر، وأنّه يَسْحَر العقولَ، فبَكَّتَهُم على ما قالوا، سائلًا إيّاهم: هل ما ترونه بأعينكم الآنَ من العذاب حقٌّ، أو هو سحرٌ أيضًا؟[3].

سرّ التّعبير بالسّحر مع دلالة التّنكير:

عبّر بالسّحر للتّهكّم بهم، ونَكّره لتعظيمه وتهويله

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالسّحر في قوله جلّ شأنه: ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ﴾ من باب التّهكُّم بهم على ما كانوا يقولونه في شأن القرآن ورسولِ اللّه ﷺ؛ لإبعاد النّاس عن الإيمان، ويزعمون أنّه فَرّق بين الابن وأبيه، والزّوج وزوجِه؛ فجاء القرآنُ بهذا اللّفظ ليُذَكّرَهم بما كانوا يقولون، ولأنّهم كانوا ينسبون المَرئيّات إلى السّحر؛ فكانوا يقولون بأنّ انشقاق القمر وأمثاله سحر، وفي ذلك اليوم لمّا تعلّق بهم مع البصر الألمُ المُدْرَكُ بِحِسّ؛ لم يُمكِنهم أن يقولوا هذا سحر[4]. وجاء مُنَكّرًا للدّلالة على تعظيمه وتهويله، أي: أهذا الذي ترونه سِحْرٌ[5].

دلالة التّعبير باسم الإشارة ﴿هَٰذَآ﴾:

دُنوّ النّارِ منهم حتّى كادت أن تحيط بهم

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ باسم الإشارة ﴿هَٰذَآ﴾، الدّالِّ على

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 46.
(2) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 281.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 52، 53.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 507.
(5) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الكريم: 4/ 161.

القُرب في قوله جلّ شأنه: ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾، فهو إشارةٌ إلى النّار حالَ رؤيتِهم إيّاها في الآخرة، وهي قريبة منهم يوشِكون على الحلول فيها[1].

الغرض من تقديم الخبر:

السّحر هو المقصود من التّوبيخ والإنكار

قدّم النّظمُ الجليل الخبرَ على المبتدأ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾، فلم يقل: (أهذا سحرٌ)؛ لأنّ الخبر وهو السّحر هو المقصود بالإنكار والتّوبيخ، فقُدِّم للاهتمام به[2].

سِرّ التّعبير بـ ﴿أَمۡ﴾، ودلالةُ الاستفهام بها:

الانتقال من إنكار قولهم السّحر إلى توبيخهم بعدم بصرهم للحقيقة

عبّر النّظمُ الجليل بـ ﴿أَمۡ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾، وهي هنا منقطعة، بمعنى (بل) الإضرابيّة، أي: بل أنتم عميٌ عن المُخْبَر عنه[3]، والاستفهام الذي تقتضيه مستعملٌ في التّوبيخ والتّهكّم، والتّقدير: بل أأنتم لا تبصرون[4]. ويجوز أن تكون ﴿أَمۡ﴾ معادلةً، والمعنى: هل في المرئيّ شكٌّ، أم هل في بصركم خللٌ، أي: لا واحد منهما ثابت[5].

نُكْتَةُ تقديم المسنَد إليه مُخْبَرًا عنه بخبر فعل منّفيّ:

عدم إبصارهم للحقيقة وصفٌ ثابت فيهم

قدّم النّظمُ الجليل المسندَ إليه على المسند الفعليّ المنفيّ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾، دون أن يقول: (أم لا تبصرون)؛ وذلك لإفادة تقوية الحُكم، ولأنّ مجيء الضّمير المنفصل مسندًا إليه مُقدّمًا يفيدُ تأكيدَ الحُكم وتقويتَه[6]؛ فهو لم يَنْفِ الإبصار عنهم، بل حكم عليهم بأنّهم لا يبصرون أصلًا، وهذا أبلغ من مجرّد النّفي.

---

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الكريم: 4/ 161.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 153.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 46، وينظر: الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 72.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 44.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 507.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 44، وينظر: المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الكريم: 4/ 161.

دلالة التّعبير بالإبصار مادّةً وصيغةً:

انتفاء رؤيتهم الحقّ مستمرّة ومتجدّدة

عبّر النّظمُ الجليل بالإبصار في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾ لنفي إبصارهم المرئيّات كما هي في الواقع، وذلك توبيخًا لهم على ما كانوا يقولون في الدّنيا: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾ [الحجر: 15]، فلعلّكم تزعمون أنّكم لا تبصرون العذاب الآن[1] مع وضوح سببه في الظهور، وهو النّار.

وممّا يذكر في سرّ التّعبير بنفي الإبصار دون غيره، تبكيتُهم على ما كانوا يفعلون في الدّنيا من عدم رؤيتهم للحق مع وجود بصرهم؛ فكأنّ التّعبير يُعيدُهم إلى ماضيهم في الدّنيا بأنّ عدم البصر للدّليل القرآنيّ أدى بهم إلى ما هم فيه. وفي التّعبير بالإبصار زيادةٌ في إيلامهم، بأن ينظروا في هذا العذاب، ويملؤوا عيونَهم منه قبلَ أن يذوقوه بأجسامهم[2]. وجاء التّعبير بالمضارع للدّلالة على تجدّد النّفي، أي: استمرار عدم قدرتِهم على رؤية المرئيّات.

نُكْتَةُ فصل قولِه: ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾:

رؤية النّار مسفرة عن الدّخول فيها ومباشرة حَرِّها

فصل النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ لأنّها مستأنَفَة، وهي متّصلة بما قبلَها اتّصالَ النّتيجة المُترقَّبَة من التّوبيخ والتّغليظ السّابقَيْن، أي: ادخلوها فاصطلوا بنارها[3].

سرّ التّعبير بالصّلي مع دلالة الأمر في قوله: ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾:

دخول النّار للاحتراق فيها والعذاب بها

عبّر النّظمُ الجليل بالصّلي في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾ دون الدّخول؛ لأنّه أبلغ، وذلك لدلالته على الدّخول مع مقاساة حَرّها، فهو مجاز لمباشرة النّار والدّخول فيها[4]؛ وذلك لأنّ الدّخول في النّار

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 44.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 9/ 560.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 44.
(4) الخفاجيّ، عنايه القاضي: 8/ 102.

يَلْزَم منه الصّليُ والاحتراقُ بنارها[1]. فهو تنكيلٌ بهم بسبب ما كانوا يفعلون مع عباد اللّه في الدّنيا، أي: "باشِروا حَرَّها وقاسوه وواصلوه، كما كنتم تواصلون أذى عبادي بما يُحَرِق قلوبَهم"[2]، ويساعد على هذا المعنى التّعبير بالأمر الذي يفيد التّهكّمَ بهم؛ فكأنّه يقول: اصلوها على أيّ وجهٍ شئتم.

دلالة الإضمار في قوله: ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾:

لسَبْقِ ذِكْرها والإشارة إلى تعظيمها وتهويلها

جاء التّعبير بالإضمار في قوله: ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾ دون أن يقول: (اصلوا النّار)؛ وذلك لسَبْقِ ذِكْرها في قوله: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ﴾، وللإشارة إلى تعظيمها وتهويلها.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ﴾:

صَليُ النّار يتسبّب عنه استواءُ حالتي الصّبر والجَزَع في عدم الفائدة

عبّر النّظمُ الجليل بالفاء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ﴾ وهي هنا عاطفة دالّةٌ على السّببيّة، أي: فتسبّب عن تكذيبهم الوحيَ في الدّنيا ومباشرتِهم النّارَ أن يقال لهم: اصبروا على هذا العذاب أو لا تصبروا عليه[3]، وهي دالّةٌ على التّفريع، فقد فرّعت التّسوية بين صبرهم وجَزَعهم على الأمر بِصَلي النّار[4].

دلالة الأمر في ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ﴾:

صَبْرُ الكافرِ لا فائدةَ مرجوّةَ منه

عبّر النّظمُ الجليل بفعل الأمر في قوله جلّ شأنه: ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ﴾؛ لأنّه يدلّ على الإباحة قطعًا لرجائهم، أي: اصبروا إن اردتم ذلك، بلا جزاءٍ على الصّبر، وبلا فائدة مرجوّة منه.

دلالة التّعبير بـ ﴿أَوۡ﴾:

التّخيير الذي لا فائدة منه

عبّر النّظمُ الجليل بحرف العطف ﴿أَوۡ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ﴾، وهي هنا دالّة على التّخيير، أي: اصبروا إن

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 44.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 12.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 12.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 44.

شئتم، أو لا تصبروا إن شئتم، ادخلوها فافعلوا ما شئتم من الصّبر والجَزَع، فإنّه في كِلا الحالين لا خلاصَ لكم، وذلك لقطع رجائهم[1].

دلالة النّهي في قوله: ﴿لَا تَصۡبِرُواْ﴾:

الدّلالة على إباحة الجَزَع وعدمِ فعلِ الصّبر

عبّر النّظمُ الجليل بـ ﴿لَا﴾ النّاهية في قوله جلّ شأنه: ﴿أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ﴾؛ للدّلالة على إباحة الجَزَع وعدمِ فعلِ الصّبر، أي: لا تصبروا إن شئتم[2].

سرّ التّعبير بقوله: ﴿أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ﴾ عن الجَزَع:

الجَزَع أشدّ الحُزْن، يمنع الإنسانَ ويصرفُه عمّا هو بصدده، ويقطعه عنه قهرًا

أوثر التّعبير بقوله: ﴿أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ﴾ عن الجَزَع؛ لأنّه أشَدّ الحُزْن الذي يمنع الإنسانَ ويصرفُه عمّا هو بصدده، ويقطعه عنه قهرًا، وهو نقيض الصّبر، ولمّا كان الأمر في هذا المشهد لا يترتب عليه إذا جزع فائدةٌ؛ عبّر بقوله: ﴿أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ﴾. وأيضًا من باب التّهكّم بهم؛ لأنّهم لم يصبروا على الطّاعة في الدّنيا.

نُكْتَةُ فصل قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾:

بلغ عذابُهم مرحلةً يستوي فيها الصّبرُ والجَزَعُ

فصل النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ لأنّها مؤكِّدَة للجملة التي قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ﴾، فهما بالمعنى ذاته[3]. وفائدة ذلك الدّلالةُ على تناهي العذاب في الشّدة والدّوام، بحيثُ لا ينفع معه الصّبرُ، ولا الجَزَعُ[4].

دلالةُ التّعبير بلفظ التّسوية في قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾:

الدّلالة على استواء الصّبر وعدمه

عبّر النّظم الجليل بلفظ التّسوية في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾؛ للدّلالة على استواء الصّبر من عدمه[5]، وفي ذلك ترويع وترهيب بليغ بالعذاب، حيثُ استوت

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 52.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 52.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 44.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 47.
(5) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 383.

فيه كلّ الحالات. وفيه إشارة إلى الزّيادة في التّعذيب النّفسيّ قبلَ التّعذيب البدنيّ؛ لأنّه لا مفرّ لهم ولا محيص؛ فهم في قيد العذاب.

دلالة التّعبير بحرف الاستعلاء في قوله: ﴿عَلَيۡكُمۡۖ﴾:

آثَر القرآنُ التّعبير بحرف (على) في قوله: ﴿عَلَيۡكُمۡۖ﴾؛ لأنّها تدلُّ على الاستعلاء المجازيّ، وفيه إشارةٌ إلى أنّ أمر العذاب متمكّنٌ منهم، ولا طاقةَ لهم به، ولا مَفَرّ منه جزعوا أم صبروا، وما لهم من محيص.

نُكْتَةُ فصل قوله: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ﴾:

علّة تسوية الصّبر والجَزَع هو انتفاءُ فائدتِهما

فصل النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ لأنّها مستأنَفَة استئنافًا تعليليًّا، سيقت لبيان علّة استواء الصّبر والجَزَع، أي: إنّ الجزاء بالعذاب لا بدّ من وقوعه، ولا مزيّة للصّبر على عدمه[1]. وفي ذلك يقول أبو حيّان: "فإن قلتَ: لِمَ علّل استواءَ الصّبرِ وعدمَه بقوله: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؟ قلتُ: لأنّ الصّبر إنّما يكون له مزيّةٌ على الجَزَع لنفعه في العاقبة، وبأن يُجازَى عليه الصّابرُ جزاءَ الخير. فأمّا الصّبر على العذاب، الذي هو الجزاء ولا عاقبة له ولا منفعة، فلا مزيّة له على الجَزَع"[2].

بلاغة التّعبير بأسلوب القصر ﴿إِنَّمَا﴾:

ولا يَظْلِم ربّكَ أحدًا

عبّر النّظمُ الجليل بأسلوب القصر بـ ﴿إِنَّمَا﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ والقصر هنا قَصْرُ قلبٍ؛ وذلك لأنّه نزّل المخاطَبين منزلةَ من يعتقد أن ما لَقوه من العذاب ذلك اليوم هو ظُلْمٌ لهم، وأنّهم لم يستوجبوا ذلك؛ وذلك لشدّة ما ظهر عليهم من الفَزَع يومئذٍ[3]. فلمّا أظهروا أنّهم لا يستحقّون هذا العذابَ وأنّه ظُلْمٌ عليهم، ردّ عليهم ذلك وقلب ظنّهم بحصر ما نالوه من العذاب بعملهم لا غير، وأنّهم لا يُجازَون سواه.

---

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/ 193.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 569.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 45.

دلالة التّعبير بـ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾ مادّةً وصيغةً:

عبّر النّظمُ الجليل بالجزاء في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ لدلالته على ما فيه الكفاية من المقابلة بين العمل وجزائه، إن خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ[1]. فيقع العذابُ على استحقاقهم لا ظلمًا لهم، وعبّر بصيغة الفعل المضارع للدّلالة على أنّ الجزاء يقع في الحاضر وفي المستقبل على الدّوام[2].

الجزاء مكافِئٌ لما يكسب العباد

نُكْتَةُ تعدية فعلِ الجزاء بنفسه:

عدّى النّظمُ الجليل فعلَ الجزاء بنفسه في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ دون أن يقول: (تجزون بما كنتم تعملون)؛ وذلك للدّلالة على أنّهم يُجزون ما يُكافِئُ فعلَهم، فهو مبالغة في المماثلة، أي: تُجۡزَون مثلَ عملِكم لا أكثر منه؛ فينتفي الظّلم عن مقدار الجزاء، كما انتفى الظّلم عن أصله، ولهذه الخصوصيّة لم يُعَدّى الفعلُ بالباء، بل عُدّيَ بنفسه[3].

جزاؤهم هو عينُ المعاصي والآثام عـدلًا مـن الله وقسطًا

سرّ التّعبير بـ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾:

عبّر النّظمُ الجليل بـ﴿مَا﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، وهي صالحة أن تكون اسمَ موصول، والجملةُ بعدَه صلة له[4]، وأن تكون حرفًا مصدريًّا[5]، والمعنى: أنّهم يُجزون عينَ أعمالهم؛ إظهارًا للعدل، وبيانًا للمبالغة في المماثلة بين الجزاء والعمل[6].

نُكْتَةُ دخول فعلِ الكوْن:

عبّر النّظمُ الجليل بفعل الكون في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ دون أن يقول: (تجزون ما تعملون)؛ للدّلالة

دأبـــوا عـلى المـعـاصي حتّى صـــارت صـفـةً راسخة فيهم

(1) الرّاغب، المفردات: (جزا).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 12.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 45.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 72.
(5) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 19.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 207.

على أنّهم كانوا راسخين بتلك المعاصي والآثام، فتلك الصّفة من مكوّنات وجودِهم وكينونتهم، فكأنّها ثابتةٌ فيهم كثبوت ما يُجبَل عليه الإنسانُ[1].

دلالة التّعبير بالعمل مادّةً وصيغةً:

الجزاء متعلّق بما قصد الإنسان فعلَه

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ العمل في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ لدلالته على ما فعل بقصد، وهو يشمل الأعمالَ الصّالحة والسّيّئة[2]، فلا يجازي الله تعالى إلّا على الأعمال التي عقد عليها صاحبها النّيّة. وجاء التّعبيرُ بصيغة الفعل المضارع للدّلالة على أنّ فعلهم المعاصيَ والآثامَ كان على وجه التّجدّد والدّوام.

الفُروقُ المعْجَمِيّةُ:

العمل والفعل والصّنع:

العملّ العمل أخصّ من الفعل؛ لأنّ العمل ما كان بقصد ونيّة، والفعلَ عامّ شامل

الفِعْلُ: التّأثير من جهة مؤثّر، وهو عامّ لما كان بإجادة أو غير إجادة، ولِما كان بعلم أو غير علم، وقصدٍ أو غير قصد، ولِما كان من الإنسان والحيوان والجمادات[3].

العَمَلُ: كلّ فعل يكون من الحيوان بقصد، فهو أخصّ من الفعل، لأنّ الفعل قد يُنسب إلى الحيوانات التي يقع منها فعلٌ بغير قصد، وقد يُنسب إلى الجمادات، والعَمَلُ قلّما يُنسب إلى ذلك، ولم يستعمل العَمَلُ في الحيوانات إلّا في قولهم: البقر العَوامِلُ، والعَمَلُ يُستعمل في الأعمالِ الصّالحة والسّيّئة[4].

الصّنع أخصّ من العمل؛ لأنّه يقتضي العِلْم والجَوْدَة في الفعل

والصّنع: ترتيب العمل وإحكامُه، وتقدّمُ العِلْم به وبما يوصل إلى المراد منه، ولذلك قيل للنّجّار: صانع، ولا يقال للتّاجر صانع؛ لأنّ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 12.

(2) الرّاغب، المفردات: (عمل).

(3) الرّاغب، المفردات: (كسب).

(4) الرّاغب، المفردات: (عمل).

النّجار قد سبق علمُه بما يريد عمله من سرير أو باب، ويعلم الأسباب التي توصِل إلى ذلك، والتّاجر لا يعلم إذا اتّجر أنّه يصل إلى ما يريده من الرّبح، فالعمل لا يقتضي العِلْمَ بما يعمل له. والصّنع يدلّ على الجودة[1]، فهو أخصّ من العمل، فلا يقال إلّا لما كان من الإنسان بقصد واختيار، وبعد فكر وتحرٍّ وإجادة[2].

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 135، 136.

(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 5/ 392، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/ 134.

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ١٧ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ١٨ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٢٠﴾ [الطّور: 17 - 20]

مناسبةُ الآيات لِما قَبْلَها:

الـتّرغـيـب بعد التّرهيب

بعد أن بيّن النَّظْمُ الجليل ما يلحق الكافرين من العذاب الأليم الذي لا دافع له ولا مهرب منه؛ أتبعه بذِكْر حال المؤمنين وما يتمتّعون به في ذلك اليوم من صنوف اللذّات، ليقعَ التّرهيب والتّرغيب في سياق واحد، وهذا من سُنن القرآن في ذِكْر الثّواب بعد العقاب، ليتمّ أمرُ الموعظة والدّعوة(1).

ومنها: لمّا ذَكر عقوبة المُكذّبين المادّيّة والمعنويّة، ذَكر نعيم المتّقين المادّيّ والمعنويّ؛ ليجمع بين التّرغيب والتّرهيب، لتعيش القلوبُ بين الخوف والرّجاء.

شرحُ المفردات:

1) ﴿فَٰكِهِينَ﴾: (فَكِهَ) أصلٌ يدلّ على طيبٍ واسْتِطابَةٍ. مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلُ الفَكِهُ: الطَّيِّبُ النَّفْسِ. ومِنَ البابِ: الفاكِهَةُ، لِأَنَّها تُسْتَطابُ وتُسْتَطْرَفُ(2). وفَكِهَ الرّجلُ إذا كان طيِّب النفس مَزّاحًا(3). وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ٥٥﴾ [يس: 55] أي: مسرورون بما نعَّمهم اللّه تعالى في الآخرة؛ وبما تحمّلوا من مشاقّ الصّبر على عمل الطّاعات واجتناب المعاصي. وهو مأخوذ من لفظ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 569، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 27/ 22.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فكه).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (فكه).

الفاكهة لأنّ بها يحصل التّلذّذ[1]. وفكَّهْتُ القومَ بالفاكهةِ تفكيهًا، وفاكَهْتُهم مُفاكَهَةً بمُلَحِ الكلامِ والمُزاحِ[2]. والمراد به في الآية الكريمة: متلذِّذين[3].

2) ﴿هَنِيٓـَٔۢا﴾: (هنأ) أصلٌ يدلّ على إصابة خير من غير مشقّة[4]. الهَنيءُ: كلّ ما لا يلحق فيه مشقّة، ولا يعقب وخامة. وأصلُه في الطّعام يقال: هَنِئَ الطّعامُ فهو هَنيءٌ. قال ﷻ: ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤﴾ [النّساء: 4][5]. وهَنِئَتِ الإبلُ مِن نَبْت الأرض، أي: شَبِعَت، وأكلْنا من هذا الطّعام حتّى هَنِئْنا منه، أي: شَبِعنا. ويقال: هنَأني خيرُ فُلانٍ، أي: كان هنيئًا بغير تَبِعة ولا مَشَقّة، وقد هنأنا اللّه الطّعامَ، وكان طعامًا استَهْنَأناه، أي: استَمرَأْناه[6]. والمراد به في الآية الكريمة: "ما لا تنغيصَ فيه ولا نَكَدٍ ولا كَدَر"[7].

3) ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾: (تكأ، وكَأ) المُتَّكأ: ما يُتّكأ عليه من وسادة ونحوها، وهو مكان الاتّكاء. والاتّكاء: الاعتماد[8]. وأوكأت فلانًا إيكاءً: نصبت له مُتّكَأً[9]. والمُتَّكِئ: كلُّ مَن استوى قاعدًا على وِطاء متمكّنًا، والمُتّكئ عند العامّة من مال في قعوده معتمدًا على أحد شقّيه؛ وأصلُه من الوِكاء، وهو ما يُشَدّ به الكيسُ وغيره، كأنّه أوكأ مقعدتَه وشَدّها بالقعود على الوطاء الذي تحتَه[10]. والتّاء في اتكأت أصلها واو، أي: اوتكيت، فأُدغِمت الواو في التّاء وشُدّدت، وأصل الحرف وكأ يوكئ توكئة[11].

4) ﴿سُرُرٖ﴾: (سر، سرر) أصلٌ يدلُّ على خالص الشّيء ومستقرّه، ومنه السّرير، وجمعه: سرر وأسرّة. والسّرير: الذي يُجْلَس عليه من السّرور؛ إذ كان ذلك لأولي النّعمة خفضَ العيشِ؛ لأنّ الإنسان يستقرُّ عنده وعند دَعتِه[12]. والسَّرير: مُسْتَقَرُّ العيش الذي

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (فكه).
(2) الخليل، العين: (فكه).
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 384.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هنأ).
(5) الرّاغب، المفردات: (هنأ).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فكه).
(7) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 116.
(8) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (تكأ).
(9) الخليل، العين: (وكأ).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (وكأ).
(11) الخليل، العين: (تكأ)، وابن منظور، لسان العرب: (وكأ).
(12) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سر).

اطمَأنَّ عليه خَفْضُه ودَعَتُه[1]. وجعل الرّاغب والسّمين أصلَه من السّرور، لأنّه مجلس أولي النّعمة. كقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٧﴾ [الحجر: 47]. والسُّرر: جمع سرير، وهو ما يجلس ويضطجع عليه[2].

5) ﴿مَّصْفُوفَةٍۖ﴾: (صف، صفف) أصل يدلّ على استواءٍ في الشّيء وتساوٍ بين شيئين في المَقرّ. من ذلك الصّفّ، يقال: وقفا صفًّا، إذا وقف كلّ واحدٍ إلى جنب صاحبه. والأصل في ذلك الصَّفْصَف[3]، والصّفصَفُ: هو الفَلاةُ المستَويةُ المَلْساء[4]. والصَّفُّ: السَّطْرُ المُسْتَوي مِنْ كُلِّ شَيْءٍ[5]، وهو أن تجعل الشّيءَ على خطّ مستوٍ، كالنّاس والأشجار ونحوِ ذلك، وصَفَفْتُ كذا: جعلتُه على صَفٍّ. قال تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍۖ﴾[6]، والمراد به في الآية الكريمة: أنّها مستوية موصول بعضُها ببعض[7].

6) ﴿بِحُورٍ﴾: (حوَر) أصلٌ يدلّ على لَوْنٍ[8]، فالحَوَرُ: شِدّةُ بياضِ العَيْن وشِدّةُ سَوادِها، ولا يُقال: امرأة حَوْراء إلا لبيضاءَ مع حَوَرِها، والجميعُ: حورٌ[9]. وهو ظهور قليل من البياض في العين من بين السّواد، وأحْوَرَت عينُه، وذلك نهاية الحسنُ من العين، وقيل: حَوَّرْتُ الشّيءَ: بيّضتُه ودوّرتُه، ومنه: الخبزُ الحوّارَى[10].

7) ﴿عِينٍ﴾: أصل (عين) يدلّ على عُضْوٍ به يُبْصَرُ ويُنْظَرُ[11]، يقال لبقر الوحش: أعْيَنُ وعَيْناءُ لحُسْن عينِه، وجمعها: عينٌ، وبها شُبّه النّساء. قال تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ٢٢﴾ [الواقعة: 22][12]. والعَيَن: عِظَمُ سواد العين وسَعَتُها. وهو أعين وهي عيناء، والجمع عين، قال جلّ

(1) الخليل، العين: (سرر).
(2) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (سرر)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 47.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صف).
(4) الخليل، العين: (صفف).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (صفف).
(6) الرّاغب، المفردات: (صف).
(7) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 384.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حور).
(9) الخليل، العين: (حور).
(10) الرّاغب، المفردات: (حور).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عين).
(12) الرّاغب، المفردات: (عين).

شأنه: ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ ٤٨﴾ [الصّافات: 48][1]. والمراد به في الآية الكريمة: عِظم الأعين، مع حُسْنٍ[2].

❁ المَعْنَى الإجْماليُّ:

بشارة المؤمنين بالنّعيم المقيم

يبشّر اللّه تعالى عبادَه المتّقين الذين أطاعوه واتّقَوا معاصيه في الدّنيا، بأنّهم في الآخرة سينعّمون في جنّات النّعيم، يعيشون فيها في سرور وفَرَح، ويتمتّعون بما رزقهم اللّه فيها من أنواع الطّعام والشّراب والمَلَذّات، وقد نجّاهم رَبُّهم من عذاب النّار. يُقال لهم تكريمًا: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا﴾ جزاء على أعمالكم الصّالحة، دون تعبٍ أو مرض أو خوف من نفاد. يجلسون في راحة على أسِرّة مصطفّةٍ ومتقابلة، وزوّجهم اللّه تعالى بنساء من الحور العين الجميلات، ذواتِ العيون الواسعة، في كمال النّعيم والسّرور[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاَغيُّ:

نُكْتَةُ فصلِ الآية عن سابقتها:

ذِكْرُ نعيمِ أهلِ الإيمان بعد ذِكْرِ عذابِ أهل الكفر

فصل النّظمُ الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ﴾؛ لأنّها مستأنَفَة استئنافًا بيانيًّا، فإنّه لمّا ذكر حالَ المُكذِّبين وما يقال لهم، فكأنّ سائلًا تساءل عن حال أضدادهم وهم المؤمنون، ومن عادة القرآن في التّرغيب والتّرهيب أن يُعقّب الإنذارَ بالتّبشير وعكسه[4].

دلالة تصدير الجملة بـ ﴿إِنَّ﴾:

صَدَّرَ النّظمُ الجليل الجملة بـ ﴿إِنَّ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ﴾؛ للتّأكيد، وذلك للرّدّ على تكذيب الكفّار[5].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عين).
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 384.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 55، وجماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 524.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 45.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 12.

دلالة (أل) في ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾:

كلّ تقيّ مآله بنعمة ربّه إلى جنان عظيمة

عرّف النّظمُ الجليل المتّقين بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ﴾؛ للدّلالة على جنس المتّقين، فهو يشمل جميعَ الأفراد منهم.

سرّ اختيار وصف التّقوى في قوله: ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾:

مقام التّقوى أعلى المقامات

آثَر القرآنُ الكريم وصفَ التّقوى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾؛ لأنّ مقامَ التّقوى أعلى المقامات، وذلك لأنّ أصحابَ هذا المقام أخذوا بأسباب الوقاية وبذلوا الجهد لتحقيق الوصول إلى هذا النّعيم، وفي هذا دعوةٌ للمسلمين إلى أن يترقّوا في العبادات ليصلوا إلى هذا المقام.

حَذْفُ متعلّقِ ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾:

إفادةُ عمومِ ما يُتّقى

حُذِفَ متعلّق ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ لإفادة العموم؛ فيُتّقى كلُّ ما يغضب اللّه ﷻ من الكفر والمعاصي والشّرك، وهوى النّفس.

سرّ التّعبير باسم الفاعل ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ دونَ (الذين اتقوا):

رسوخ المتّقين في صفة التّقوى

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ باسم الفاعل دون (الذين اتقوا)؛ للدّلالة على رسوخهم في صفة التّقوى وتَمكُّنِهم منها، حتى صارت عَلَمًا عليهم؛ فإذا أشرت إليهم بصفة التّقوى مُيّزوا عن غيرهم.

دلالة التّعبير بالظّرفيّة ﴿فِي﴾:

دلّ التّعبيرُ بالظّرفيّة على أنّ المتّقين ينعمون في كلّ الجنّات، وكأنّ الجنّات صارت ظرفًا لهم، وهم مظروفون فيه.

نُكْتَةُ جمع ﴿جَنَّٰتٖ﴾، وتنكيرها:

للمتّقين جنانٌ عظيمة لا جنّةٌ واحدة

جمع النّظمُ الجليل لفظَ الجنّات في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ﴾؛ للدّلالة على كثرتها، فهي ليست جنّة واحدة، بل جنّات الفردوس وعَدْن والمَأْوَى، ودارِ السّلام، وهذا أنسب في سياق الامتنان والتّرغيب. ويجوز أن يكون الجمع باعتبار جمع المتّقين،

فكلٌّ منهم يتبوّأ منها مقامًا من درجات هذه الجنّة بحسب عملهم وإخلاصهم. ويجوز أن يكون من باب مقابلة الجمع للجمع التي تقتضي القسمةَ على الآحاد. ودلّ تنكيرها على التّعظيم والتّفخيم[1] الذي يشير إلى الكمال في الصّفة.

نُكْتَةُ عطف (نعيم):

ما في تِلْكُم الجِنان سوى النّعيم

عطف النّظمُ الجليل النّعيمَ على الجنّات في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾؛ وذلك لتأكيد كونهم في نعيم محضٍ خالٍ من التّنغيص، فإنّ البساتين قد يَشْقَى داخلُها أو صاحبُها، فنفى ذلك الشّقاءَ بذِكْر النّعيم بعدها[2]. ويجوز أن يكون من باب عطف المغايرة، ويكون النّعيم من باب كمال الإكرام؛ فيشمل التّنعُّمَ المادّيَّ والمعنويّ؛ أمّا الجنّات فهي للنّعيم المادّيّ.

سرّ التّعبير بقوله: ﴿وَنَعِيمٍ﴾، ودلالةُ تنكيره:

النّعيم وصفٌ جامع لكلّ ما تشتهيه الأنفس وتلذّ به الأعين، ونُكّرَ لتفخيمه وتعظيمه

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ (النَّعيم) في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾؛ لأنّه وصفٌ جامع لما تشتهيه الأنفسُ وتَلَذُّ الأعين من الخيرات والمأكل والمَشْرب والمَلْبَس والمَسْكَن والمتاع. وتنكيره: للدّلالة على تفخيمه وتعظيمه[3].

سرّ اختلافِ التّعبير القرآنيّ في وصف جزاء المتّقين:

النّاظر في آيات القرآن الكريم يجد اختلافَ الأوصافِ في جزاء المتّقين؛ فمرّةً يأتي الحديثُ بهذا الوصف ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ١٥﴾ [الذاريات: 15]، ومرّةً أُخرى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ٥١﴾ [الدخان: 51]، ومرّةً بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ كما هنا، وأخرى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ٥٤﴾ [القمر: 54]، وكلّ هذه

(1) الخفاجيّ، عنايه القاضي: 8/ 102.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 12، 13.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 148.

الأوصاف من باب تعدّد الجزاء، وكلّها تَرْسُم صورةَ التّنعُّم للمتّقين من ناحية المكان، أو من ناحية البساتين لوصف هذا المكان، ولتكميل صورةِ الجمال فيها بالأنهار والعيون، ويكمل هذا الجمالُ بالنّعيم الذي يجمع النّعيمَ المادّيّ والمعنويّ، وكأنّي بهذه الآيات تَرسُم صورةَ الجنّة بمساكنها وأنهارها وأشجارها وغذائها.

نُكْتَةُ فصل قوله: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ﴾:

بيان زيادة النّعيم للمتّقين

فصلَ النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنّها مستأنفةٌ سيقت لبيان زيادة تنعيم المتّقين، لأنّ المُتَنَعِّم قد يكون تَنَعُّمُه ظاهرًا وحسب؛ وذلك لأنّ قلبَه مشغول؛ فلمّا قال: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ دلّ على تمام التّنعيم، وأنّه كان ظاهرًا وباطنًا[1].

دلالة التّعبير بقوله: ﴿فَٰكِهِينَ﴾:

طيبُ النّفس ومسرّةُ القلوبِ من سمات أهلِ الجِنان

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ ﴿فَٰكِهِينَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾؛ لأنّه لفظٌ يدلّ على الطّيب والاستطابة، فالرّجلُ الفَكِهُ: هو الطّيّب النّفس[2]. فعبّر بذلك للدّلالة على طيبة أنفسهم ومسرّة قلوبهم[3].

أثر تَعَدُّدِ القراءات في قوله: ﴿فَٰكِهِينَ﴾:

تعدّدت القراءاتُ في قوله: ﴿فَٰكِهِينَ﴾؛ فقرأ جمهور القُرّاء ﴿فَٰكِهِينَ﴾ بصيغة اسم الفاعل، وقرأ أبو جعفر ﴿فَكِهِينَ﴾ بدون ألف[4]؛ فَوَجْهُ مَن قرأ بالألف أنّها من التّفكّه، وقيل: بمعنى أصحاب فاكهة ومزاج، وأمّا ﴿فَكِهِينَ﴾ بمعنى (فرحين)، وقيل: هما بمعنًى[5].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 206.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فكه).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 45.
(4) السمين الحلبي، الدّرّ المصون: 10/ 727.
(5) ابن الجزري، النشر: 2/ 354.

دلالة التّعبير بالباء في قوله: ﴿بِمَآ﴾:

المَسرّة والطّيب مُسبَّبَةٌ عن عطاء الله

عبّر النّظمُ الجليل بحرف (الباء) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾؛ لأنّها دالّة على السّببيّة، فربُّهم قد أرضاهم بما يحبّون[1]، وبيان السّببيّة هنا للاحتراس من خِسّة الفكاهة؛ فبيّن أنّ ذلك بسبب عطاء ربّهم، لا لدنوّ أنفسهم[2].

دلالة التّعبير بـ (ما) المصدريّة دون الموصوليّة:

إيتاء النّعيم والوقاية من الجحيم علّة السّرور والحبور

عبّر النّظم الجليل بـ (ما) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ وهي هنا مصدريّة، أي: فكهين بإيتائهم النّعيم، وبوقايتهم من عذاب الجحيم[3]. ولا يصحّ أن تكون موصولةً هنا لفقدان العائد في صلة الموصول، قال الطّيبيّ: "لا يجوز أن تكون (ما) موصولةً، لفقدان العائد من الجملة المعطوفة، إذِ التّقدير: فاكهين بالذي آتاهمُ الله إيّاه، وبالذي وقاهم ربُّهم عذابَ الجحيم، وليس في الجملة الثّانية عائدٌ إلى الموصول؛ لأنّ (وقاهم) أخذ كِلا مفعولَيه، بخلاف ﴿ءَاتَىٰهُمۡ﴾"[4].

دلالة التّعبير بفعل الإيتاء مادّةً وصيغةً:

فخامة وعظمة هذا الثّواب

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالإيتاء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ دون الإعطاء؛ لأنّ الإيتاء أقوى من الإعطاء في إثبات المفعول، وهو الشّيء الذي يُعطى[5]، لذلك عبّر بالإيتاء لأنّ إيتاءَه تعالى لعباده المؤمنين ثابتٌ لا ينقطع، دائمٌ في كلّ حين، ولأنّ التّعبير بالإيتاء يستعمل في الأمور العظيمة مثل: نعيم الجنّات. وجاء التّعبير بصيغة الفعل الماضي للدّلالة على تحقّق العطاء وتأكيد وقوعه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 46.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 206.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 569.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 47.
(5) الزّركشيّ، البرهان: 4/ 85.

دلالة التّعبير بلفظ الرّبوبيّة ﴿رَبُّهُمْ﴾ وإضافته إلى ضميرهم:

أعظم بعطاءٍ يأتي من الله، وأكرم بقومٍ ينتسبون إليه

عبّر النّظم الجليل بلفظ الرّبوبيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾؛ للدّلالة على عظيم ما آتاهم، فإنّه صادرٌ من ربّهم المُحسن إليهم[1]، وإضافته إلى ضمير المتّقين تشريفًا لهم، وتفخيمًا لشأنهم[2]، وفيه دلالة على تقريبهم وتعظيم مكانتهم.

سرّ التّعبير بالواو في قوله: ﴿وَوَقَىٰهُمْ﴾:

بيان عظيم امتنانه على المتّقين

عبّر النّظم الجليل بحرف الواو في قوله جلّ شأنه: ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾، وهي صالحةٌ أن تكون حاليّةً، فالجملة بعدَها حالٌ من المتّقين، والتّقدير: وقد وقاهم ربّهم عذابَ الجحيم. وذِكْرُ الحال هنا يُراد منه إظهار التّباين بين حالَي المتّقين والمُكذّبين، فإنّ ذِكْر النّعمة يكون أكثرَ وقعًا عند ملاحظة ضدّها[3]. وهي صالحة أن تكون للعطف، تعطف الجملة على قوله تعالى: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ لبيان عظيم الامتنان، فإنّه قد أدخلهم جنّاتٍ ونعيمًا، وأنّه قد وقاهم عذابَ الجحيم[4]، وتكون (ما) على هذا مصدريّةً؛ أي: فاكهين بإيتاء ربِّهم، ووقايتِهم عذاب الجحيم.

دلالة التّعبير بـ(وقاهم) مادّةً وصيغةً:

الحفظ من العذاب نعمةٌ جليلة مكمِّلةٌ للتّنعيم

عبّر النّظم الجليل بلفظ الوقاية في قوله جلّ شأنه: ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ دون غيره؛ لأنّه لفظٌ يدلّ على الصّيانة والحفظ[5]، ولأنّه يُؤتَى به غالبًا في سياق الحديث عن الجزاء المُعَدّ للمؤمنين في الآخرة، بوقايتهم من العذاب، والآيات القرآنيّةُ شاهدة على ذلك، منها قوله: ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١﴾ [البقرة: 201]، وقولُه: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 46.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 148.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 46.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 206.
(5) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (وقى).

﴿ٱلۡجَحِيمِ ۝٧﴾ [غافر: 7]، وإنّما استحقّوا أن يقيَهم ذلك لأنّهم لم يقترفوا ما يوجِب العقاب[1]. فلمّا وصفهم بأنّهم مُتَّقونَ، جعل جزاءَهم أن يقيَهم ما كانوا يحذرون منه وهو عقابه. وجاء التّعبير بصيغة الماضي للدّلالة على تحقّق وقوعِ الفعل، وعلى أنّه وقع قبلَ التّنعُّم[2].

سِرّ التّعبير بالإظهار ﴿رَبُّهُمۡ﴾ دون الإضمار، مع دلالة الإضافة:

بيان عظيم امتنان الله تعالى على أهل الجنّات

أظهر النّظمُ الجليل لفظَ الرّبوبيّة دونَ الإضمار في قوله جلّ شأنه: ﴿ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ فلم يقل: (آتاهم ربُّهم ووقاهم)؛ وذلك لجعل كلِّ فعلٍ منهما مستقلٍّ باتّصافه، بأنّه صادرٌ من المولى تعالى لبيان عظيم الامتنان به، وأنّه جاء على وجه الكمال. وفي الإضافة في قوله: ﴿رَبُّهُمۡ﴾ مزيدُ تشريفِهم، بإضافتهم إليه تعالى[3].

دلالة التّعبير بلفظ العذاب:

حفظ الله المتّقين من ورود مسالك الإيلام والعذاب

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ العذاب في قوله جلّ شأنه: ﴿وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ لبيان تفضُّلِه سبحانه عليهم بأن حفظهم من الألم والوجع؛ لأنّ لفظَ العذابِ يدلُّ على الإيجاع الشّديد، والحبس في العذابِ[4]. وفيه إشارة إلى صيانتهم من الألم الذي استحقّه أهلُ الكفر.

دلالة التّعبير بالجحيم:

الحفظ من العذاب الشّديد دليلٌ على عظم الإنعام

عبّر النّظمُ الجليل بالجحيم في قوله جلّ شأنه: ﴿وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ دون غيره من أوصاف العذاب؛ لأنّ الجحيم هي نارٌ شديدةُ الحرارة، بعضُها فوقَ بعض، وكلُّ نارٍ عظيمة في مهواة يطلق عليها جحيم؛ يُؤكّد هذا ما ذكرَه القرآنُ من موقف أعداء سيّدنا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 46.

(2) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 113.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 148.

(4) الرّاغب، المفردات: (عذب).

إبراهيمَ منه بقوله: ﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ٩٧﴾ [الصّافات: 97]، وفي التّعبير به دلالةٌ على عظيم إنعامه عليهم، وذلك بأنّه قد حفظهم ووقاهم العذابَ شديدَ الإحراقِ، فالجحيم هي النّار الشّديدةُ التّوقّدِ، وعظيمةُ الإحراق[1].

نُكْتَةُ فصل الآية عن سابقتها:

بيان ما يقال للمتّقين في الجنّة بعد دخولهم فيها

فصل النّظمُ الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ لأنّها مستأنَفة سيقت لبيان حال المتّقين في الجنّة، أي يقال لهم: كلوا واشربوا، وهو قولٌ يقابل ما قيل للمكذّبين: ﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[2]. وفي عدم ذِكْر القول إشارةٌ إلى عدم تعيين القائل؛ لأنّ الغرض هو بيان أهميّة المَقول لهم.

دلالة الأمر في ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾:

أوّلُ منازل التّكريم الدّعوةُ إلى ما فيه إقامةُ البَدَن من المأكل والمشرب

عبّر النّظمُ الجليل بفعلَي الأمر في قوله جلّ شأنه: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ تكريمًا لهم، أي: يقول لهم خزنة الجنّة على وجه الدّوام: كلوا واشربوا[3]. فالأمر دالٌّ على التّكريم والتّأنيس، وذلك أنّ زمان الخوف قدِ انتهى، فمن دُعيَ للأكل عَلِم أنّه لم يبق شيءٌ بينَه وبين نيل ما يتمنّى.

نُكْتَةُ تقديمِ الأكل على الشّرب:

لشدّة الحاجة إليه، وكثرة تنوّعِه مع التّلذّذِ به

قدّم النّظمُ الجليل ذِكْر الأكل على الشّرب في قوله جلّ شأنه: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾؛ لأنّ الأكل مقدّم على الشّرب في التّنعّم، لكثرة الحاجة إليه، ولكثرة التّنعّم والتّلذّذ به، وكثرة أنواعه إزاء الأشربة.

---

(1) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 113.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 46.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 55.

فذكر أسبابَ التّنعُّم على التّرتيب[1]، ولأنّ الأكل لا يُستَغنى عنه كثيرًا؛ بخلاف الشّرب، فمُدّة الاستغناء عنه أطول، ولأنّ بعضَ المأكولات في دواخلها الماء.

سرُّ حذفِ مفعولَيْ ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾:

تعميم المباحات مــن جــزيــل الكرامات

حذفَ النّظمُ الجليل مفعولَي الأكلِ والشّرب في قوله جلّ شأنه: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ وذلك لأنّ الإطلاق والتّعميم أنسبُ في سياق الإكرام والتّنعيم، أي: كلوا كلّ ما يُؤكل، واشربوا كلَّ ما يُشرب، والمراد من هذا العمومِ الأكلُ ممّا يشتهون[2].

دلالة التّعبير بـ﴿هَنِيٓـَٔۢا﴾ مادّةً وصيغةً:

الدّلالة على أنّ أكل أهلِ الجنّة خالٍ من المفاسد المـعـهـودة في الدّنيا

عبّر النّظمُ الجليل بالوصف (هنيء) في قوله جلّ شأنه: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، وهو يدلّ على أنّ الأكل والشّراب لا مشقّة فيه، ولا يعقبُه سوءٌ[3]، وأنّه لا نقص فيه، وهو صفة على وزن (فعيل) بمعنى (مفعول) موضع المصدر، أي: هنأتم بما تأكلون وتشربون[4]. وفائدة هذا الوصفِ الإشارةُ إلى خُلوّ تلك النّعم عن المفاسد التي عهدوها في الأكل والشّراب في الدّنيا، منها: أنّ الآكل يخاف من المرض، فلا يهنأ له الطّعام، أو أنّه يخاف نفادَه لقلّته فلا يسخو بالأكل، وغيرها من المنغّصات، وكلّ ذلك منتفٍ في الجنّة فلا مرضَ ولا انقطاع، ولا تعبَ في تحصيله[5]. ولأنّ التّعبير بقوله: ﴿هَنِيٓـَٔۢا﴾ مع ما يفيده من السّلامة من المفاسد يُضيف معنى السّرور والفرح والتّلذّذ.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 206.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 46.
(3) الرّاغب، المفردات: (هنأ).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 13، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 46.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 206.

دلالة حذف الموصوف مع قوله: ﴿هَنِيٓـَٔۢا﴾:

كثرةُ مأكولِ ومشروب أهل الجنّة وتنوّعُها

حُذِفَ الموصوف لقوله: ﴿هَنِيٓـَٔۢا﴾، وتقديره: أكلًا هنيئًا، وشرابًا هنيئًا، وسِرّ ذلك الدّلالة على كثرة المأكول والمشروب وتنوّعِهما. وفيه إشارة إلى أنّ الهناءة صارت صفةً لازمة لا تنفكُّ عنهما، وذلك للتّفريق بين أكل وشُرْب الدّنيا، وأكلِ وشُرْب الآخرة.

دلالة التّعبير بالباء في قوله: ﴿بِمَا﴾:

صالح الأعمال عِلّةٌ لنَيْلِ الرّحمة

عبّر النّظم الجليل بحرف (الباء) في قوله جلّ شأنه: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ وذلك لدلالتها على السّببيّة، أي: هنأكم الأكلُ والشّرب بسبب عملكم[1]. ويجوز أن تكون للبدل، أي: بمقابلة ما عملتم[2]، فيكون الجزاء الذي نالوه إنّما ترتّب على عملهم واجتهادهم بالصّالحات.

دلالة التّعبير بـ (ما):

كلّ الأعمال الصّالحة معتبرة في الإكرام

عبّر النّظمُ الجليل بـ (ما) في قوله جلّ شأنه: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ - وهي هنا موصولةٌ - دونَ (الذي)؛ لأنّها تُفيد العموم، والمعنى: كلوا واشربوا هنيئًا، بسبب كثرة الأعمال الصّالحة التي كنتم تعملونها[3]، وفي هذا دعوةٌ إلى الإكثار من الأعمال الصّالحة؛ لأنّها تزيد في أسباب التّنعيم.

نُكْتَةُ دخولِ فعل الكوْن:

الأعمال الصّالحة طبعٌ راسخٌ في أهل التّقوى

عبّر النّظمُ الجليل بفعل الكون في قوله جلّ شأنه: ﴿هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ دون أن يقول: (بما تعملون)؛ للدّلالة على رسوخهم في قيامهم بهذه الأعمال[4]، وأنّهم يزاولونها دَأبًا سجيّةً وطبعًا، فهو تعبير عن شدّة صلاحهم، وكثرة أعمالهم.

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 48.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 148.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 47.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 13.

دلالة التّعبير بالعمل مادّةً وصيغةً:

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالعمل في قوله جلّ شأنه: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ دون الفعل؛ لأنّ العمل يتميّز بالقصد، وهذا واضح في سياق آيات القرآن الكريم التي ربطت بين الإيمان والعمل، مثلِ قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 277]، والآيات في هذا كثيرة، وعلى هذا فالعمل أخصّ من الفعل[1]. وجاء التّعبيرُ بالفعل المضارع للدّلالة على أنّهم يُؤدّون تلك الأعمالَ مجدِّدين لها على سبيل الاستمرار، حتّى كأنّها صارت طبعًا لهم[2]، وفي المقابل: فيه دلالةٌ على تجدّد النّعيم واستمراره، وعدمِ انقطاعه.

ما فُعِل بقصد من الأفعال هو المُعتَبر في الجزاء

سرّ اختلافِ التّعبير مع تنعُّم أهلِ الجنّة وعذاب أهل النّار:

النّاظرُ في هذه الآيات القرآنيّة التي تحدّثت عن نعيم أهل الجنّات يجد قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ في حقّ المؤمنين، ومع أهل الكفر جاء التّعبير: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، يجد اختلافًا في الأسلوب؛ فمع أهلِ الكفر جاء التّعبير بكلمة ﴿إِنَّمَا﴾ التي هي للحصر؛ أي: لا تُجزَون إلّا ذلك، ولم يُذْكَر هذا في حقّ المؤمنين؛ لأنّ الله يجزيهم أضعافَ ما عملوا ويزيدهم من فضله. ومن اختلاف الأسلوب أنّه قال مع أهل الإيمان: ﴿بِمَا كُنتُمۡ﴾، وقال مع أهل الكفر: ﴿مَا كُنتُمۡ﴾؛ أي: تُجْزَون عينَ أعمالِكم، إشارةً إلى المبالغة في المماثلة؛ كما تقول: (هذا عينُ ما عملتَ)؛ أمّا مع أهل الإيمان فالتّعبير يدلُّ على أنّ ذلك كأنّه أمرٌ ثابتٌ مستمرٌّ مستحَقٌّ بعملكم هذا. ومنه أنّه ذَكَر الجزاء مع أهل الكفر بقوله: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، ومع أهل الإيمان: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ لأنّ الجزاء يُنبِئ عن الانقطاع؛ فإنّ مَن أحسن إلى أحد فأتى بجزائه لا يتوقّع المُحْسِن منه شيئًا آخر[3].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (عمل).

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 13.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 509.

دلالة التّعبير بالاتّكاء:

إبرازُ حالةِ التّرف والرّفاهية في الأكل والشّرب

عبّر النّظمُ الجليل بالاتّكاء في قوله جلّ شأنه: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾ لبيان حالهم في حالة الأكل والشّراب، فهو حال من ضمير المخاطَب في فِعْلَي الأمر ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾، أي: يقال لهم كلوا واشربوا حالَ كونهم متكئين[1]. وفائدة هذا الحال التّنبيهُ على أنّهم مخدومون، وهو ما لا تتمّ النّعمةُ إلّا به، واللّفظ دالٌّ على الاستناد، فهم مستندون استنادَ راحةٍ لكونهم مخدومين، لأنّ هناك من يقوم على خدمتهم، فلا حاجةَ بهم إلى الحركة[2].

سرّ التّعبير بالسُّرُرِ دونَ الأرائك:

السُّرُرُ أعمُّ من الأرائك

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالسُّررِ في قوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ﴾ دون الأرائك؛ لأنّه أراد بيانَ مكانِ جلوسهم واستقرارهم، ولوجود فرقٍ بينهما؛ فأصلُ السّرير يدلُّ على مستقرّ الشّيء[3]، فهو مأخوذ من الاستقرار. والسّررُ: جمع سرير، وهو ما يُجْلَس ويُضطجَعُ عليه[4]. أمّا الأريكة: فهي سرير في الحَجَلة من دونه سِتر، ولا يسمَّى منفردًا أريكةً، وهو كلّ ما اتُّكِئَ عليه من سَريرٍ أو فِراش أو مِنصَّةٍ[5]. وهي سريرٌ منجَّد مزيَّنٌ في قبّةٍ أو بيت، فإذا لم يكن فيه سريرٌ فهو حَجَلَةٌ، والجمع الأرائك[6]. فالأريكة أخصّ من السّرير، وهي من الاتّكاء.

نُكْتَةُ التّعبير عن السُّرر بالجمع والتّنكير:

مواطن جلوسِهم كثيرة وفيرةٌ عظيمة الهيئة

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ السُّرُرِ نكرةً في قوله جلّ شأنه: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ﴾؛ للدّلالة على كثرتها وعَظَمتها، فهي سُررٌ غايةٌ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 47.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 13.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سر).
(4) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (سرر)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 47.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (أرك).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (أرك).

في الفخامة والتّعظيم، وذلك لبيان مزيد الإنعام. والجمع فيها يدلُّ أنّ لكلّ واحد منهم سُرُرًا كثيرةً[1]، أو أنّ جلوسهم يكون باجتماعهم.

فائدة وصفِ السُّرُر بأنّها ﴿مَّصۡفُوفَةٖۖ﴾:

اجتماع الأحبّة على ما فيه مسرّتهم أدعى لمزيد السّرور

وصف النّظمُ الجليلُ السُّرُرَ بأنّها مصفوفة في قوله جلّ شأنه: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ﴾؛ للدّلالة على حُسْن رصفها ونظامها، فهي منصوبة واحدًا إلى جنب واحد، منتظمةٌ مستويةٌ كأنّها سور، ممّا يبيّن حُسْنَ نظامِ الجنّة[2]. كما أنّه يدلّ على أنّهم يأكلون طعامهم متكئين مجتمعين، وذلك بمصاحبة إخوانهم وأحبابهم وذريّاتهم، وهذا أدعى للأُنس والسُّرور[3].

دلالة التّعبير بالواو في قوله: ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم﴾:

الاستقرار في الجنان نعمة على المتّقين، وتزويجهم بالحسان من تمام الإكرام

عطف النّظمُ الجليل الجملةَ الخبريّةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾ على الخبر شبه الجملة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ﴾، فهو عطف خبر على خبر، فيكون خبرًا آخر في المعنى[4]. وفائدة الخبر هنا التّنبيهُ على تمام السّرور بالجنّة إذ قد زوّجهم بالنّساء الحسان فيها[5].

دلالة التّعبير بالتّزويج في قوله: ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم﴾:

تمام سرور أهل الجنة التّنعّم بالنّساء

دلّ التّعبير بالتّزويج في قوله: ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم﴾ على نعمة من نعم الله على أهل الجنّات، بعد ذِكْر المسكن والمأكل والمشرب، وهي التّزويج بالحور العين، وذلك لأنّ السّرور لا يتمّ إلّا بالتّنعّم بالنّساء.

نُكْتَةُ إسنادِ تزويجهم إلى ضمير العظَمة:

الله سبحانه هو الذي يتولّى الإنعامَ على أهل الجنّة بتزويجهم

أسند النّظمُ الجليلُ فعلَ التّزويجِ إلى نون التّعظيم في قوله جلّ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 207.
(2) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 113.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 47.
(4) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 284.
(5) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 113.

شأنه: ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾؛ للدّلالة على أنّه سبحانه هو الذي يتولّى هذا الإنعامَ بتزويج الطّرفين، فيزوّج عبادَه بإمائه، وهذا دليلٌ على مزيد فضله وكرمه بتيسير ما فيه راحةُ العباد. وفيه إشارةٌ إلى أنه تزويج عظيم، أي: زوّجناهم تزويجًا عظيمًا يليق بما لنا من العظَمة[1].

دلالة تعدية الفعل ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم﴾ بالباء:

التّـزويـج بمعنى المزاوجة والإقـران، لا بمعنى النّكاح

عدّى النّظمُ الجليل فعلَ التّزويج بالباء في قوله جلّ شأنه: ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾، دون أن يقول: (وزوّجناهم حورًا)؛ وذلك لأنّ فعل التّزويج هنا ليس بمعنى: أنكحناهم، ولكنّه وارد بمعناه اللّغويّ الحقيقيّ، وهو جَعْلُ الشّيءِ المُفردِ زوجًا، وليس المراد المعنى العرفيّ الدّالّ على عقد النّكاح[2]. فالتّزويج ليس بمعنى الإنكاح بل بمعنى تصييرهم زوجين زوجين[3]. وفيه إشارةٌ إلى أنّ المنفعة في التّزويج لهم، وذلك لاستمتاعهم بالحور العين، والتّلذّذ بِهنَّ[4].

دلالة الباء في ﴿بِحُورٍ عِينٖ﴾:

الحـور العين فـي صحبة المتّقين بالإقران والملاصقة

عبّر النّظمُ الجليل بحرف (الباء) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾؛ للدّلالة على صرف الفعل (زوجناهم) عن ظاهره؛ لأنّه إذا كان بمعنى النّكاح تعدّى بنفسه كما في قوله: ﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: 37]؛ أمّا هنا فتعديتُه بالباء جَعَلَتْهُ بمعنى: (قَرَنّاهم)، أي: جعلناهم أزواجًا مقرونين بحور عين[5]. وجعلها الإمامُ ابن عاشور للمصاحبة، أي: جعلنا حورًا عينًا معهم[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 13.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 47.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 8/ 102.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 509.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 297.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 47.

سرّ التّعبير بـ(حور) مع دلالة التّنكير:

حُسْنُ العيون وحَوَرُها من العظمة في غايتها

دلّ التّعبير بوصف (حور) لنساء أهل الجنّة على شدّة بياضِ العين وشِدّة سوادِ سوادها، واستدارةِ حدقتها، ورِقّة جفونها - على كمال جمالهنّ[1]. وعبّر النّظمُ الجليل عن الحور بصيغة التّنكير في قوله جلّ شأنه: ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾؛ لتفخيم شأنهنّ وصفاتهنّ، فهنّ في غاية الحسن والجمال.

الموقع النّحويّ لقوله: ﴿عِينٖ﴾:

عينُ تلك الحورِ بلغت الكمالَ في السّعة والحُسْن

وصف النّظمُ الجليلُ الزّوجاتِ في الجنّة بصفة ثانية وهي العين في قوله جلّ شأنه: ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾؛ وذلك لتكميل وصفِ العيون، أي: هنّ واسعاتُ الأعين، مع حُسْنٍ ورَوْنق[2]. وفيه إشارةٌ إلى عدم الاقتصار في وصفهنّ بالحُسْن، بل اختار الأحسن من الأحسن؛ فإن أحسن ما في صورة الآدمي وجهه، وأحسن ما في الوجه العين؛ لذلك اختار التّعبير بقوله: ﴿بِحُورٍ عِينٖ﴾؛ لدلالته على حُسْن المزاج في الأعضاء، ووفرةِ المادّة في الأرواح[3].

۞ الفروق المعجميّة:

السُّرُر والأرائك:

السّرير مكانُ الجلوس والاضطجاع، والأريكة متّكأٌ أو سريرٌ في حَجَلةٍ

أصل السّرير يدلُّ على مستقرّ الشّيء[4]، فهو مأخوذ من الاستقرار. والسّرر: جمع سرير، وهو ما يجلس ويضطجع عليه[5]. أمّا الأريكة فهي سرير في الحَجَلة من دونه سِتر ولا يسمَّى منفردًا أريكةً، وهو كلّ ما اتُّكِئَ عليه من سَريرٍ أو فِراش أو مِنَصَّةٍ[6]. وهي

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 298.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 14.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 509.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سر).
(5) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (سرر)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 47.
(6) ابن منظور، لسان العرب: (أرك).

سريرٌ منجَّد مزيَّنٌ في قبّةٍ أو بيت، فإذا لم يكن فيه سرير فهو حَجَلَةٌ، والجمع الأرائك[1]. فالأريكة أخصّ من السّرير، وهي من الاتّكاء، وعبّر في الآية بالسّرر دون الأريكة لأنّه أراد بيانَ مكانِ جلوسهم واستقرارهم.

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (أرك).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ
أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ٢١
وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢٢ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا
لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ٢٣ ۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ
لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ٢٤﴾ [الطّور: 21 - 24]

مناسبةُ الآيات لِما قبلَها:

بيان زيادة الفضل والإكرام على أهل الجنّات

بعد أن ذَكَر تعالى في الآيات السّابقة ما يتمتّع به أهلُ الجنّة من المطاعم والمشارب والأزواج كرمًا منه وفضلًا؛ أردف ذلك بذِكْر ما زاده لهم من الفضل والإكرام في هذه الآيات، وهو أن يُلْحِق بهم ذرّيّتَهم المؤمنة في المنازل والدّرجات، وإن لم تبلغ بهم أعمالُهم ذلك، لِتَقَرَّ بهم أعينُهم إذا رأوهم في منازلهم على أحسن الأحوال"[1].

ومنها: لمّا فرغ من ذِكْر أهل الجنّة على العموم ذَكر حالَ طائفةٍ منهم على الخصوص بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم﴾.

شرحُ المفردات:

1) ﴿أَلۡحَقۡنَا﴾: (لحق) أصلٌ يدلُّ على إدراك شيء وبلوغه إلى غيره[2]. واللَّحَقُ: كُلُّ شيءٍ لَحِقَ شيئًا أو أَلْحَقْتَه به، من النَبات ومن حَمل النَخل، وذلك أن يُرطِب ويُتمِر ثمّ يخرُجُ في بَعضِه شيءٌ أخضَرُ قَلَّ ما يَرْطُبُ حتّى يُدركَه الشّتاء[3]. يقال: لحِقَهُ ولَحِقَ به لَحاقًا، أي: أدركه، وأَلْحَقَهُ به غيرُه[4]. واللّحق ما يُلْحَق بالكتاب بعد الفراغ منه،

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 27/ 25.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لحق).
(3) الخليل، العين: (لحق).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (لحق).

فتُلْحِق به ما سقط عنه[1]، وقوله تعالى: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ [يوسف: 101] أي: اجعلني من عِدادهم وداخلًا في زمرتهم[2].

2) ﴿أَلَتۡنَٰهُم﴾: (ألت) أصلٌ يدلّ على النّقصان[3]. يقال: ألَتَهُ حَقَّهُ يَأْلِتُهُ أَلْتًا، أي: نَقَصَهُ. وألَتَهُ أيضًا: حبَسَهُ عن وجهه وصرفه[4]. والأَلْتُ النَّقْص[5]، وقيل: ألاتني عن حَقّي، أي: صَرَفَني عنه[6]. والمراد به في الآية الكريمة: ما أنقَصْناهُم[7].

3) ﴿رَهِينٞ﴾: (رهن) أصل يدلّ على ثبات شيء يُمسك بحقّ أو غيره[8]. وكلّ أمرٍ يُحْتَبَسُ به شيءٌ فهو رُهْنُهُ، ومُرْتَهَنُه، كما أنّ الإنسانَ رهينُ عَمَلِه[9]. وأصل المادّة للدّلالة على الحبس، ومنه قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ أي: محتبسٌ بعمله، وقوله: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٨﴾ [المدثر: 38] أي: محبوسة، والرّهن: محبوس على الدّين المرهون به[10]. وهو ما وُضِع عند الإنسان ممّا ينوب منابَ ما أُخِذ منه[11].

4) ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم﴾: (مد) أصلٌ يدلّ على جَرِّ شيء في طول، واتّصال شيء بشيء في استطالة. ومدّ النّهرُ، ومَدّه نهرٌ آخر، أي: زاد فيه وواصله فأطال مُدّته. وأمددتُ الجيش بمَدَد. ومنه مددت الإبلَ مدًّا: أسقيتُها الماءَ بالدّقيق أو بشيء تمدّه به[12]. والمَدُّ: كَثرةُ الماء أيّامَ المُدودِ. ومَدَّ النَّهرُ، وامتَدَّ الحَبْلُ، هكذا قالتهُ العَرَب. والمَدَدُ: ما أمدَدْتَ به قومًا في الحربِ وغيره من الطّعام والأعوان[13]. يقال: مددتُ الأرضَ مدًّا إذا زِدْتَ فيها ترابًا أو سمادًا من غيرها، ليكون أعمرَ لها وأكثرَ ريعًا لزرعها[14]. وما كان من الخير يقال:

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (لحق).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (لحق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ألت).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (ألت).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ألت).
(6) الخليل، العين: (ألت).
(7) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/ 194.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رهن).
(9) الخليل، العين: (رهن).
(10) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (رهن).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (رهن).
(12) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مد).
(13) الخليل، العين: (مدد).
(14) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (مدد).

أمددتُه، وما كان من الشّرّ، فهو مددتُه، فالإمدادُ في المحبوب، والمَدُّ في المكروه نحو: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾، ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥﴾ [المؤمنون: 55][1]. والمراد به في الآية الكريمة: زدناهم[2].

5) ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾: (نزع) أصل يدلُّ على قلع شيء[3]. ونازَعْتُهُ مُنازَعَةً ونزاعًا، إذا جاذَبْتَه في الخصومة. وبينهم نِزاعَةٌ، أي: خصومةٌ في حقٍّ[4]. والمُنازَعَةُ: المُجاذَبَة[5]، ومنازعة الكأس: معاطاتُها. قال الله تعالى: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾[6]؛ أي: يَتَعاطَوْن والأصل فيه يتجاذَبون. ويُقالُ: نازَعني فلانٌ بَنانَه، أي: صافَحَني. والمُنازعةُ: المُصافَحة، والمُجاذَبةُ في الأعْيانِ والمَعاني[7]. والمراد به في الآية الكريمة: التّعاطي، أي: يتعاطَون هم وقرناؤهم[8].

6) ﴿لَغْوٌ﴾: (لغو، لغا) أصلٌ يدلّ على الشّيء لا يُعتدّ به[9]، لَغا يَلْغو لَغْوًا، أي: قال باطلًا. يقال: لَغَوْتُ باليمين[10]. وهو السَّقَط وما لا يعتدّ به من كلام وغيره، ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع[11]. وما كان من الكلام غير معقود عليه[12]. وهو الكلام الذي يورد لا عن رويّة وفكر، وقد يسمّى كلُّ كلامٍ قبيح لغوًا. قال: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۝٣٥﴾ [النّبأ: 35][13]. والمراد به في الآية الكريمة: لا يتكلّمون بلَغْوِ الحديث[14].

7) ﴿تَأْثِيمٌ﴾: (أثم) أصلٌ يدلّ على البُطء والتّأخّر. يقال: ناقة آثمة، أي: متأخِّرةٌ.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (مدد، مد).
(2) البيضاويُّ، أنوار التّنزيل: 5/ 154.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزع).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (نزع).
(5) الرّاغب، المفردات: (نزع).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نزع).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (نزع).
(8) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/ 194.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لغو).
(10) الجوهريّ، الصّحاح: (لغا).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (لغا).
(12) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (لغا).
(13) الرّاغب، المفردات: (لغا).
(14) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 154.

والإثم مشتقّ من ذلك؛ لأنّ ذا الإثم بطيء عن الخير متأخّر عنه(1). وأثَّمَهُ تأثيمًا: قالَ له أثِمتَ، قال تعالى: ﴿لَّا لَغۡوٌ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٌ﴾(2)، أي: لا مَأثمٌ فيها ولا سُكرٌ، وهذا بخلافِ خمورِ الدّنيا؛ فإنَّ فيها ما يحملُ على كلِّ إثم(3). وتَأثَّمَ، أي: تَحَرَّجَ من الإثم وكفَّ عنه(4). والمراد به في الآية الكريمة: لا يأثمون بشُرب الخمر(5).

8) ﴿مَّكۡنُونٞ﴾: (كن، كنن) أصلٌ يدلّ على ستر أو صون. يقال: كننتُ الشّيء في كِنّه، إذا جعلتَه فيه وصِنْتَه(6)، وكلّ شيء وقى شيئًا فهو كِنّه وكنانه. وكننته أكنه كنًّا: جعلته في كِنٍّ(7). يقال: كننت الشّيء: سترته وصنته من الشّمس. وأكْنَنْتُهُ في نفسي: أسررته(8). والكِنُّ: ما يحفظ فيه الشّيء. يقال: كَنَنْتُ الشّيء كَنًّا: جعلتُه في كِنٍّ، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ٤٩﴾ [الصّافات: 49]، ﴿كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ﴾(9). والمراد به في الآية الكريمة: مصونٌ بالكَنّ والغِطاء(10).

المعنى الإجماليّ:

تكريم المؤمنين بجمع ذراريهم معهم في النّعيم الدّائم

يبشّر الله تعالى المؤمنين بأنّ مَن تبعهم من ذرّيّتهم على الإيمان سيُلْحَقون بهم برتبتهم ومكانتهم في الجنّة، حتّى لو لم يبلغوا نفسَ درجتِهم في العمل، إكرامًا لهم وتسريةً لقلوب الآباء، فيجتمعون في منازل واحدة على أكمل وجه، دونَ أن يُنقص من أجر أحدٍ من آبائهم. فكلُّ إنسانٍ مسؤول عن عمله وحسب، لا يُحَمَّلُ ذنبَ غيره.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أثم).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (أثم).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (أثم).
(4) الخليل، العين: (أثم).
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 154.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كن).
(7) الخليل، العين: (كن).
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (كنن).
(9) الرّاغب، المفردات: (كن).
(10) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 383.

وإنّ الله تعالى يزيدهم من نعيم الجنّة بما لذّ وطاب ممّا يشتهون. وإنّهم يتبادلون ويتعاطَون فيما بينهم كؤوسًا من شراب لذيذ، خالٍ من الإثم واللّغو، بخلاف خَمرِ الدّنيا. ويقوم على خدمتهم غلمانٌ مخصَّصون لهم، في غاية الجمال والنّقاء، كأنّهم لؤلؤٌ مصون، يدورون بينهم لخدمتهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

إلحاق الذّرّيّة بمنازل الآباء في الجنّة

افتتح النّظمُ الجليل الجملةَ بالواو في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ وهي هنا استئنافيّة، فالجملة مستأنَفَةٌ مسوقةٌ لبيان حال طائفة من أهل الجنّة، وهم الذين اتّبَعَهم أبناؤهم وذرّيّتُهم في الإيمان[2]. وجوّزَ البعضُ أن تكون عاطفة؛ فعطف ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على قوله: ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾، ويكون المعنى: قرنّاهم بأزواج حورٍ ليتمتّعوا مَرّةً بالحور، وقرناهم أيضًا برفقاءَ مؤمنين تارةً أخرى؛ ليتمتّعوا بمُؤانسة الإخوان، وتكون استقامة المعنى بكون التّزويج مجازًا[3].

دلالة التّعبير بالاسم الموصول وصلتِه:

منقبة ذكرهم الإيمانَ الذي توارثوه

عبّر النّظم الجليل بالاسم الموصول في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ واضعًا إيّاه موضع الضّمير، وذلك للتّنويه بما في حيّز الصّلة، فهو إيماءٌ إلى أنّ الإيمان المذكور في الصّلة هو العِلّة في الحُكم الذي سيتلوه، فسببُ إلحاقِ ذرّيّة المؤمنين بهم في نعيم الجنّة هو إيمانهم السّابق، وأنّه هو المُسبّب لإيمان ذرّيّاتهم؛ لأنّ الآباء المؤمنين يُلَقّنون أبناءَهم الإيمان[4].

---

(1) جماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 524.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 148.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 246.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 48.

سرّ التّعبير بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون (المؤمنون):

الإشعار بعِلّة فضل اتِّباعِ الذّرّيّة للآباء

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون (المؤمنون)؛ للإشعار بعِلّة الفضل الوارد في الآية من اتباع الذّرّيّة للآباء، وسببُ ذلك: الإيمانُ الذي رسخ في قلوبهم وتمكّن منهم.

نُكْتَةُ التّعبير بالفعل الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾:

تحقّق إيمانهم وحصولِه ورسوخِه في قلوبهم

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالفعل الماضي في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾؛ للدّلالة على تحقّق إيمانهم وحصولِه ورسوخِه في قلوبهم.

نُكْتَةُ حَذْفِ متعلّق الإيمان:

إطلاق الإيمان يتناول كلَّ ما يجب الإيمانُ به

حذف النّظمُ الجليل متعلّقَ الإيمان في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ دون أن يقول: (آمنوا بالله ورسوله)؛ وذلك ليكون عامًّا فيتناول كلّ ما يجب الإيمان به، كالبعث والحساب والجنّة والنّار، أي: إنّهم آمنوا بكلّ ذلك.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ﴾:

إيمان الآباء ومتابعةُ الأبناء سبيلُ الجمع بينهما في الجنّة

عطف النّظمُ الجليل قولَه: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ﴾ على الفعل ﴿ءَامَنُواْ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾[1]؛ وذلك لأنّ المؤمنين إذا اتّبعتهم ذرّيتُهم في الإيمان فإنّ الله تعالى تفضّل عليهم بأن يجمع بعضَهم مع بعض، فيُلْحَق الأبناءُ بالآباء في المنزلة والمكانة تفضُّلًا منه، لِتَقَرَّ بهم أعينُهم جميعًا[2].

دلالة التّعبير بالاتّباع مادّةً وصيغةً:

الذّرّيّةُ تقفو أثرَ الآباءِ وترتسم بإيمانهم

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ الاتّباع في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾؛ للدّلالة على تتبّع الذّرّيّة لآثار آبائهم،

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 23.

(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 27/ 26.

فالاتّباع هو تقفّي الأثرِ والارتسام به[1]، فالذّرّيّة يتّبعون آباءهم في الإيمان والصّلاح، فالآباء تركوا آثارًا يسترشد بها الأبناء، وجاء التّعبير بالفعل الماضي تحقيقًا للمعنى، وتأكيدًا لحصوله.

أثرُ تعدّدِ القراءات في قوله: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم﴾:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾، جاء في مجموعه بأربعة قراءات قرآنية، فقرأ أبو عمرو ﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ﴾، بإسناد الفعل إلى ضمير العظمة، وقرأ (ذرّيّات) الموضعين بالجمع مع كسر التّاء: ﴿ذُرِّيَّٰتِهِم﴾، وقرأ الباقون ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ﴾ بالإسناد إلى الذريّة، ومنهم من قرأ (ذُرّيّات) بالجمع، ومنهم من أفرد[2].

ووجه قراءة: ﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ﴾ أنّ (أتبع) هنا فعلٌ منقول بالهمزة من (تبع)، يقال: تبع فلانٌ الشّيءَ وأتبعْتُه إيّاه؛ فهو يتعدّى إلى مفعولين لما نقل بالهمزة؛ فالمفعول الأوّل هو الضّمير المنصوب في ﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ﴾، والمفعول الثّاني قولُه: ﴿ذُرِّيَّٰتِهِم﴾، والمعنى: جعلناهم تابعين لهم في الإيمان، وأمّا من قرأ ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ﴾؛ فهو على أنّ (اتّبع - تبع) كلاهما واحد في المعنى، والفعل للذّرّيّة؛ فلذلك ألحق تاء التّأنيث الفعل، وأمّا من أفرد في (الذّرّيّة) وجمع؛ فالمعنى ظاهر؛ لأنّ الذّرّيّة قد تكون واحدة، وقد تكون جمعًا[3].

دلالة التّعبير بلفظ الذّرّيّة دون الأبناء:

من نِعَم الرّحمن جَمعُ المؤمنِ بذرّيّته وإكرامُه بهم في معيّته

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ الذّرّيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ دون الأبناء؛ لأنّ لفظ الذّرّيّةِ أعمُّ؛ فيُطلَق على نسل الرّجل وما توالد منه ومن أبنائه وبناته، وهي اسمٌ للنّسل،

(1) الرّاغب، المفردات: (تبع).
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 273، 377، والقاضي، البدور الزّاهرة: 2/ 862.
(3) ابن أبي مريم، الموضح في وجوه القراءات وعللها: 3/ 1212.

وتشمل الصّغارَ والكبار منهم، ويستعمل للواحد والجمع[1]، بخلاف الأبناء فهو أخصّ من ناحية النّوع، حيث يُطلق على كلّ ما وُلِد ذكرًا، ومنظور فيه إلى الاختصاص بالنّسب ومداومة الصّحبة، ولمّا كان المقام هنا مقامَ امتنان، كان التّعبيرُ بالذّرّيّة هو الأوفق للسّياق؛ لذلك ذكره هنا في هذه الآية لبيان أنّ اللّه تعالى أنعم عليهم بأن سَرّهم بأنواع المسرّات، ومنها: أن يجمعهم بأولادهم ونسلهم، فإنّ من طبع الإنسان التّأنّسَ بأولاده وذُرّيّته[2].

دلالة الباء في قوله: ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾:

الإيمان عِلّة الإنعام وسُلّم التّكريم

عبّر النّظمُ الجليل بحرف (الباء) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾؛ لأنها دالّة على السّببيّة، أي: بسبب إيمانٍ رفيع القَدْر، وهو إيمانُ الآباء، فإيمانُهم هو عِلّة الإلحاق بهم[3]. ويجوز أن تكون الباء للملابسة، والمُراد: كونُ الذّرّيّة متلبّسةً بإيمانٍ استقلاليٍّ أو تبعيٍّ. والمعنى على السّببيّة أولى[4].

دلالة القيد بقوله: ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾:

الإيذان بثُبوت الحُكم في الإيمان الكامل أصالةً لا إلحاقًا

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بقيد الإيمان في قوله: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾؛ للإيذان بثُبوت الحُكم في الإيمان الكامل أصالةً لا إلحاقًا، والمعنى: واتبعتهم ذُرّيّتُهم بإيمانٍ قاصر عن رُتبة إيمان الآباء؛ إمّا بنفسه بناءً على تفاوت مراتب نفس الإيمان، وإمّا باعتبار عدم انضمام أعمالٍ مثلِ أعمال الآباء إليه[5].

نُكْتَةُ تنكير (إيمان):

من لطائف المولى تعالى قَبولُه أدنى إيمانٍ من عباده

آثَر النّظمُ الكريم ذِكْر لفظِ الإيمان بالتّنكير في قوله جلّ شأنه:

(1) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (الذّرّيّة).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 49، وانظر: العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 316.

(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/ 194.

(4) القنوجيّ، فتح البيان: 13/ 224.

(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 27/ 32.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾؛ وذلك لدلالته على قَبول أدنى درجات الإيمان، فالتّنكير هنا دالٌّ على التّقليل، أي: بشيء من الإيمان[1]، كما أنّه يَحْتَمِل أن يكون مُرادًا به التّعظيم[2]، وإنّما عظّم الإيمانَ لكثرة أعمالهم الصّالحة، فتكون كثرةُ الأعمال شرطًا في إلحاقهم بآبائهم[3].

دلالة التّعبير بالإلحاق:

الإلحاق يشمل إدخالَ الجنّة بعد العقاب المستَحَقّ، وتسويةَ الدّرجات

عبّر النّظمُ الجليل بالإلحاق في قوله جلّ شأنه: ﴿أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ دون الإدخال؛ وذلك لما في الإلحاق من دلالة على أن يكون الإلحاق على الفور أو على التّأخير، إذ قد يكون بعضُ الذّرّيّة نال عقابًا في النّار على ما استحقّه بسيّئاتِه، والإلحاق يقتضي أنّ الذّرّيّات صاروا في درجات آبائهم. وهذه المعاني لا يُدَلُّ عليها لو قال: (أدخلنا معهم ذرّيّتهم)[4]، فالإلحاق أعمّ من الإدخال.

نُكْتَةُ إسناد فعلِ الإلحاق إلى ضمير العظَمة:

تعظيم نعمةِ الإلحاق

أسند النّظمُ الجليل فعلَ الإلحاق إلى نون العظَمة في قوله جلّ شأنه: ﴿أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ تعظيمًا لنعمة الإلحاق، أي: نلحقهم بآبائهم بما لنا من العظَمة.

سرّ التّعبيرِ بالاتّباع في الدّنيا والإلحاق في الآخرة:

عبّر القرآنُ الكريم بالاتّباع في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ في الدّنيا، وأمّا في الآخرة فقال: ﴿أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ﴾؛ وذلك لأنّ في الدّنيا لا يُدْرِك الصّغيرُ التّابع مساواةَ المتبوع، وإنّما يكون هو تبعًا والأبُ أصلًا لفضل السّاعي على غير السّاعي، وأمّا

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 50.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/ 194.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 48.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 50.

في الآخرة فإذا ألحق اللّه بفضله ولده به، جعل له من الدّرجة مثل ما لأبيه[1].

المقصود من الإلحاق المصاحبةُ والمعيّة في المقام والرّتبة

دلالة التّعبير بالباء في ﴿بِهِمْ﴾:

عبّر النّظمُ الجليل بحرف (الباء) في قوله جلّ شأنه: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ دونَ المعيّة؛ لأنّ التّعبير بالباء يدلّ على شدّة التّلبّس، ويكون المعنى: يُسْكنهم مع آبائهم وأمّهاتهم؛ وذلك لتقرّ بهم عيونُهم، وهو تتميم لمَسَرّتهم بجعلهم معهم في الجنّة[2].

الآباء هم المقصودون بالتّكريم

دلالة تقديم شِبه الجملة على المفعول به:

قدّم النّظمُ الجليل شبهَ الجملة ﴿بِهِمْ﴾ على المفعول به في قوله جلّ شأنه: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، دون أن يقول: (ألحقنا ذرّيّتهم بهم)؛ لأنّ الآباء الذين آمنوا هم المقصودون بالتكّريم بهذا الإلحاق، فنبَّه بالتّقديم على الغاية من الإلحاق.

إلحاقُ الذّرّيّة فضلٌ محضٌ من الله تعالى

دلالة التّعبير بالواو في قوله: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم﴾:

عطف النّظمُ الجليل قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم﴾ على قوله تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، فعطف انتفاءَ النّقصانِ على الإلحاق؛ ليُنَبِّه على أنّ إلحاق الأبناء بآبائهم لن يُحْدِث نقصًا من أجورهم، ولا من درجاتهم[3]. ويجوز أن تكون الواو حاليّةً، أي: ألحقناهم بهم في حالة انتفاء النّقصان في الأجور، والفائدة من ذلك الاحتراسُ من ظنّ وقوعِ النّقصان بسبب الإلحاق، وذلك بأن يُظنّ أنّهم أُلحِقوا بهم بعد عطائهم نصيبًا من حسنات آبائهم، ليُدْخَلوا به الجنّة، فنبّه على أنّ الإلحاق محضُ تفضّل منه تعالى[4].

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 511.

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 247.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 15.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 50.

دلالة التّعبير بـ﴿أَلَتۡنَٰهُم﴾ مادّةً وصيغةً:

لا يُنقِص الله تعالى من ثواب الآباء بعطائه للأبناء

عبّر النّظم الجليل بالفعل (ألت) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ﴾؛ للدّلالة على أنّه تعالى لا يُنقِص من ثواب الآباء بعطائه للأبناء، بل يعطيهم ثوابَ أعمالهم كاملًا من دون نقص؛ تكرّمًا منه سبحانه؛ لأنّ الإلحاق في حدّ ذاته عطاءٌ من اللّه تعالى تفضُّلًا وإحسانًا[1]. فهو احتراسٌ فائدتُه بيانُ أنّ جزاء الآباء لم يُنقص شيئًا.

دلالة التّعبير بـ ﴿مِّنۡ﴾:

لا يُنقِص الله من أجور الآباء شيئًا ولو كان يسيرًا؛ تطييبًا لقلوبهم

عبّر النّظمُ الجليل بحرف الجرّ ﴿مِّنۡ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ﴾، وهي هنا للتّبعيض، أي: ما نقصنا من أجور أعمالهم بعضًا منها[2]، أو شيئًا يسيرًا منها، وفي ذلك تطييبٌ لقلوبهم، وإزالةُ وهْم المُتوهّم أنّ ثوابَ عملِ الأبِ يوزَّع عليه وعلى ولده، بل للوالد أجرُ عملِه بفضل السّعي، ولأولاده مثلُ ذلك فضلًا من اللّه ورحمةً[3].

دلالة التّعبير بقوله: ﴿مِّنۡ عَمَلِهِم﴾ دون (من أجرهم):

آثَر القرآنُ الكريم التّعبير بقوله: ﴿مِّنۡ عَمَلِهِم﴾ ولم يقل: (من أجرهم)؛ وذلك لأنّ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم﴾ دليلٌ على بقاء عملهم كما كان، والأجر على العمل مع الزّيادة، فيكون فيه الإشارةُ إلى بقاء العمل الذي له الأجر الكبير الزّائد عليه، العظيمُ العائد إليه، ولو قال: ما ألتناهم من أجرهم، لكان ذلك حاصلًا بأدنى شيء؛ لأنّ كلّ ما يعطي اللّه عبدَه على عمله هو أجرٌ كامل[4].

---

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/ 194.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 51.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 511.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 511.

نُكْتَةُ إضافةِ العمل إلى ضميرهم:

الله لا يُضيع أجرَ من أحسن عملًا من عباده

أضاف النّظمُ الجليل لفظَ العمل إلى ضمير الغائب العائد على المؤمنين من الآباء في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ﴾؛ للدّلالة على أنّه العمل الذي نشأ منهم، وصدر عنهم، بعد هدايتهم ورَشَدهم[1]، وفي هذا حثٌّ للمؤمنين على القيام بالعمل الصّالح لنيل الجزاء عليه في الآخرة، وليكون شفيعًا لذُرّيّتِه من بعده.

غرض تقديم شبه الجملة ﴿مِّنۡ عَمَلِهِم﴾:

العمل وحفظُه أهمّ في السّياق من الشّيء الذي يُنقَصُ

قدّم النّظمُ الجليل شبه الجملة ﴿مِّنۡ عَمَلِهِم﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ﴾، دون أن يقول: (وما ألتناهم شيئًا من عملهم)؛ لأنّ العمل كلّيّة أهمُّ من الشّيء الذي يُنقَص؛ لأنّه هو المقصود بنفي النّقصان.

دلالة التّعبير بـ ﴿مِّن﴾:

نفيُ النّقصانِ مؤكّدٌ عامّ شامل لكلّ شيء

عبّر النّظمُ الجليل بحرف الجرّ ﴿مِّن﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿مِّن شَيۡءٖۚ﴾؛ لأنّه جيءَ بها في سياق النّفي لتأكيده، وللدّلالة على الإحاطة والشّمول[2]، فلا يقع نقصانٌ أيُّ نقصانٍ كان.

نُكْتَة تنكير ﴿شَيۡءٖۚ﴾:

لا يُنقِص الله تعالى من أجور المؤمنين شيئًا وإنْ قلّ

عبّر النّظم الجليل بلفظ الشّيء بصيغة التّنكير في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ﴾؛ للدّلالة على أنّه لم ينقصهم شيئًا مهما كان قليلًا، بل قد تفضّل عليهم بجزاء الكلّ مع الزّيادة عليهم، وذلك بإلحاقهم بالآباء تفضّلًا منه، وإحسانًا من لدنه[3].

دفعُ توّهمِ تعارضِ هذه الآية مع قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩﴾:

قد يَتَصوَّر البعضُ أنّ رفع درجاتِ الذّرّيّة والانتفاعَ بعمل الآباء

(1) النّخجواني، الفواتح الإلهيّة: 2/ 358.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 51.

(3) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 358.

السّعي الذي حصل به رفعُ درجاتِ الأولاد المؤمنين ليس للأولاد، إنّما لآبائهم

يتعارض مع قوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾ [النّجم: 39]، والأمر ليس كذلك؛ لأنّ الآية إنّما دلّت على نفي مُلك الإنسانِ لغير سعيه، ولم تدلّ على نفي انتفاعِه بسَعي غيره، وبينهما فرقٌ ظاهر. وممّا يُذْكَر أيضًا في هذا المقام: أنّ السّعي الذي حصل به رفعُ درجاتِ الأولاد ليس للأولاد، ولكنّه من سعي الآباء، وأيضًا: أنّ إيمانَ الذّرّيّة كان هو السّبب الأكبرُ في رفع درجاتهم؛ لأنّهم لو كانوا كفّارًا لما حصل لهم هذا الإلحاق(1).

نُكتَةُ فصلِ قوله: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾:

ارتهانُ كلِّ امرئٍ بعمله

فصل النّظمُ الجليل قولَه جلّ شأنُه: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ عمّا سبقها؛ لأنّها مستأنفةٌ استئنافًا تعليليًّا(2)، سيقت لتعليل ما قبلها، أي: لم نُنقِصهم شيئًا من عملهم لأنّ كلّ امرئٍ مقرون بما كسب(3)، ولأنّها جملةٌ معترضة بين جملة ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم﴾ وبين جملة ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ﴾، قُصِدَ منها تعليلُ الجملةِ التي قبلها(4).

دلالة التّعبير بلفظ ﴿كُلُّ﴾:

عَدْلُ الله عامٌّ شاملٌ لكلّ خَلْقِه

عبّر النّظم الجليل بلفظ ﴿كُلُّ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾؛ للدّلالة على عموم الحُكم، فهو يشمل المتّقين والمؤمنين وغيرَهم من النّاس(5). والتّعبير بالعموم يدلّ على أنّ مضمون الخطاب حكمٌ عامّ في الخلائق، وهو من عدل اللّه تعالى بين خلقه. وفي التّعبير به تحذيرٌ لكلّ من تُسَوّل له نفسُه المعصيةَ، وأنّه لا يُحاسَب عليها.

(1) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 10/ 378.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 149.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 51.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 51.
(5) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 114.

سرّ التّعبير بلفظ ﴿ٱمۡرِيِٕ﴾ مع دلالة التّنكير:

الـكـلّ أمـام موازينِ القِسْط سواءٌ

آثَر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ ﴿ٱمۡرِيِٕ﴾ في قوله: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾؛ لأنّه لفظٌ يحمل معنى المروءة؛ فهو أدعى للالتزام بالطّاعات والبُعْد عن المعاصي، وجاء مُنكّرًا ليَشملَ كلَّ أحدٍ من المؤمنين والمُتّقين وغيرهم[1]؛ وذلك لما في النّكرة من دلالةٍ على العموم، وهو أنسبُ لسياق الجملة المستأنَفَة الدّالّة على حُكْمٍ عامٍّ، ومُصَدَّرةٍ بلفظ العموم ﴿كُلُّ﴾.

سرّ التّعبير بالباء في ﴿بِمَا﴾:

المَرء لا ينفكّ عن عمله خيرًا أو شرًّا

عبّر النّظمُ الجليل بحرف (الباء) في قوله جلّ شأنه: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾؛ لأنّها دالّةٌ على المقابلة، أي: إنّه مُرتَهَنٌ بِكَسْبه، وموفًّى من الجزاء على قدر استحقاقه[2]. كما أنّها تدلّ على الإلصاق في كلّ حال، أي: أنّ كلّ شخص "مرهونٌ بعمله عند الله تعالى، إن عملَ صالحًا فكَّها، وإلّا أَهْلَكَها"[3]، فكلّ امرئٍ ملتصقٌ بعمله مُرتَهَنٌ به لا ينفكّ عنه.

سرّ التّعبير بـ (ما) في قوله: ﴿بِمَا﴾:

الإنسان مرهونٌ بكسبه

عبّر النّظمُ الجليل بـ (ما) في قوله جلّ شأنه: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾، وهي هنا صالحة أن تكون مصدريّةً، أي: ارتهنوا بكسبهم، ويجوز أن تكون موصولةً[4]، فيكون المعنى: أنّهم ارتبطوا بذات العمل الذي عملوه، وعلى كلا الاعتبارين فإنّ المراد أنّهم اقترنوا بجزاء هذا الكسب؛ لأنّ الجزاء هو ما يقترن بصاحب العمل، أمّا العمل نفسُه فقدِ انقضى في الدّنيا[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 15.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 15.
(3) الإيجيّ، جامع البيان: 4/ 202.
(4) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 287.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 51.

فائدة تقديم شبهِ الجُملة:

لا يحاسَب المَرءُ إلّا على كسبه

قدّم النّظمُ الجليل شبهَ الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ دون أن يقول: (رهينٌ بما كسب)؛ وذلك للدّلالة على الحصر، فهو لا يرتَهِنُ بشيء سوى عملِه، وهذا دلالةٌ على العدل في الحساب يوم القيامة.

دلالةُ التّعبير بالكسب مادّةً وصيغةً:

سعيُ الإنسانِ مقصودٌ به تحقيقُ المكاسبِ والمنافع

عبّر النّظم الجليل بالكسب في قوله جلّ شأنه: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾؛ لأنّه يُطلَق على الفعل العائد على فاعله بنفع أو ضُرّ، فهو لفظ عامٌّ يطلق على الأعمال التي يتحرّاها الإنسان، وهي تقتضي اجتلابَ نفعٍ، وتحصيلَ حظٍّ[1]، فالأعمالُ التي يُحاسَبُ عليها النّاسُ هي ما قصدوه وما أتوا به لطلب المنفعة، فهم يعملون تلك الأعمالَ بعِلْم وحِرْص لتحقيق المنافع[2]. وممّا يُذْكَر في سِرّ التّعبير به: أنّه يُشير إلى العمل الصّالح؛ لأنّ المراد بما كسبوا جزاء ما كسبوا؛ لأنّه الذي يقترن بصاحب العمل، أمّا نفس العمل فقدِ انقضى في الدّنيا[3].

دلالة التّعبير بـ﴿رَهِينٞ﴾ مادّةً وصيغةً:

المَرءُ محبوس مع عمله لا ينفكّ عنه

عبّر النّظم الجليل بلفظ الرّهن في قوله جلّ شأنه: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾؛ لأنّه يدلّ على ثبات شيء يمسك بحقّ أو غيره[4]. فدلّ على أنّ كلّ امرئ مرتَهَنٌ محبوس، فإمّا أن تُنجيَه أعمالُه الصّالحة، وإمّا أن تهلكَهُ أعمالُه السّيّئة[5]. وهو عبّر عنه بصيغة (فعيل) بمعنى (فاعل)، أي: ثابتة مقيمة. أو بمعنى (مفعول)، أي: كلّ أحد مقام

(1) الرّاغب، المفردات: (كسب).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 51.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 51.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رهن).
(5) ابن جزيّ، التّسهيل: 2/ 312، 313.

في جزاء ما قدّم من عمله[1]. وكونه بمعنى الفاعل "أنسبَ بالمقام فإنّ الدّوام يقتضي عدمَ المفارقةِ بين المَرء وعملِه، ومن ضرورته أن لا ينقصَ من ثواب الآباء شيء"[2].

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿رَهِينٌ﴾:

شُبّهَ المُكلّفُ بالرّهن، والعملُ الصّالح بالدّين

تظهر بلاغةُ الاستعارة في قوله: ﴿رَهِينٌ﴾، بأنّه شُبّهَ المُكلّفُ بالرّهن، والعملُ الصّالح شُبّه بالدّين؛ فإن عملَ صالحًا فكّه، كما أنّ المديون فَكّ رهنَه بأداء دَينه، وإلّا أهلكها، كما أنّ المديون أهْلَكَ رهنَه بعدم أداء دَينه[3].

دلالة الواو في قوله: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم﴾:

إلحاق الذّرّيّة متبوعٌ بزيادة ومَدَد

عطف النّظم الجليل الإمدادَ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ على الإلحاق في قوله تعالى: ﴿أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾[4]، ولطيفةُ ذلك: أنّه تعالى أخبر أنّ عدم النّقصان ليس بالاقتصار على حفظ الرُّتبة والمكانة، بل إنّه يكرمهم بالزّيادة والإمداد[5].

دلالة التّعبير بـ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم﴾ مادّةً وصيغةً:

زيادة النّعم دائمةٌ في دار السّلام والكرم

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ الإمداد في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾؛ للدّلالة على الزّيادة ممّا هو خير وقتًا بعد وقت[6]، أي: زدناهم على النّعيم والأكل والشّرب الهنيء المذكور فاكهةً ولحمًا ممّا يشتهون[7]، ولم يُعَبّر بالمَدّ لأنّه يستعمل في الشّرّ أو الإعانة عليه. وممّا يُذْكَر في دلالة التّعبير بالإمداد: أنّه لمّا قال قبل ذلك: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ ونفى النّقص، وهو يكون

(1) الرّاغب، المفردات: (رهن).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 149.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 248.
(4) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 288.
(5) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 114.
(6) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/ 194.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 52.

بحصول المُساوي؛ فأراد القرآنُ أن يقول: الأمرُ ليس كذلك، بل فيه زيادةٌ وإمداد؛ فكان التّعبير بالإمداد من باب دَفْع توهّم الذي يَرِد في الخاطر، وجاء التّعبير بصيغة الفعل المضارع للدّلالة على تجدّد الزّيادة والإمداد.

نُكْتَةُ إسنادِ فعلِ الإمداد إلى ضمير العظَمة:

إمـــدادُ الـلـه عظيم يتناسب مــع عـظـمـتـه سبحانه

أسند النّظمُ الجليل فعلَ الإمداد إلى نون العظَمة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ﴾؛ للدّلالة على عظَمة الزّيادة، أي: أمددناهم بما لنا من العظَمة[1]. وفي هذا إشارةٌ إلى كثرة المَدَد وتنوّعه كمًّا وكيفًا.

سِرّ التّعبير بالإضمار في قوله: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم﴾:

جاء التّعبيرُ بالإضمار في قوله: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم﴾ دونَ الإظهار؛ ليعودَ للآباء والأبناء، وهذا دليلٌ على تفضّله وتكرّمِه سبحانه على الآباء والأبناء؛ فلم يفرّق بينهما في الإمداد.

دلالة الباء في قوله: ﴿بِفَٰكِهَةٖ﴾:

الإنـعـام متّصلٌ دائـمٌ ملتصقٌ بأهل الجِنان

عبّر النّظمُ الجليل بحرف (الباء) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ﴾؛ لأنّها دالّةٌ هنا على الإلصاق[2]. فزيادةُ النّعمة بالفاكهة واللّحم تَصِلُهم وتلتصِقُ بهم تعبيرًا عن تمام النّعمة.

سِرّ التّعبير ﴿بِفَٰكِهَةٖ﴾ دونَ فواكه:

اسـم الجنس يـشـمـل كـلّ الفواكه

آثَر النّظمُ القرآنيّ التّعبيرَ بقوله: ﴿بِفَٰكِهَةٖ﴾ دونَ فواكِه؛ لأنّها اسمُ جنسٍ تشمل كلّ الفواكه؛ بخلاف الجمع؛ فقد يخرج منه بعضُ الأفراد، والمقامُ مقامُ امتنان؛ فناسبَ التّعبيرُ باسم الجنس (فاكهة).

نُكْتَة تنكير (فاكهة) و(لحم):

تـنـوّعُ تـنـوُّعُ النّعمةِ وكثرتها من مزيد الإكرام والامتنان

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن الفواكه واللّحم بالتّنكير في قوله

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 17.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 27/ 52.

جلّ شأنه: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ﴾؛ للدّلالة على كثرتها وتنوّعها، أي: هي نعمة كثيرة لا تنقطع[1].

فائدة تقديم الفاكهة على اللّحم:

لا جوعَ في الجنّة إنّما هي تفكُّهٌ وتنعّم

قدّم النّظمُ الجليل الفاكهةَ على اللّحم في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ﴾؛ وذلك لأنّهما إذا قُدِّما للجائع، فإنّ نفسه تميل إلى اللّحم، أمّا الشّبعانُ فتميلُ نفسُه إلى الفاكهة، وأهلُ الجنّة إنّما يأكلون لا من جوعٍ، بل للتّفكّه، فميلُهم إلى الفاكهة أكثر، فقدّم للتّنبيه على ذلك[2]، ولأنّ تقديم الفواكه هو الأصلُ في التّنعّم والتّلذّذ.

دلالة (مِنْ) في قوله: ﴿مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾:

تحقيق الرّضا بالإمداد بما رغبوا واشْتَهوا

عبّر النّظمُ الجليل بحرف (مِنْ) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾؛ لأنّها دالّةٌ على البيان، أي: فاكهة ولحم من جنس ونوع ما يشتهون من فنون النّعماء، وضروبِ الآلاء[3].

دلالة التّعبير بـ (ما) في قوله: ﴿مِّمَّا﴾:

كلّ مشتهياتهم من عموم الأطعمة وافرٌ دائم

عبّر النّظمُ الجليل بالاسم الموصول (ما) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾؛ لدلالته على العموم والشّمول، أي: لعموم أنواع الفواكه واللّحوم[4]. فكلُّ ما يشتهونه من عموم الفواكه واللّحوم وافرٌ دائم.

دلالةُ التّعبير بالاشتهاء مادّةً وصيغةً:

تحقيقُ غاية المشتهي إحسانٌ وفضل من الله تعالى

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالاشتهاء في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ دون الحُبّ؛ لأنّ الشّهوة عبارةٌ عن توقان النّفسِ وميلِ الطّباع إلى المشتهى، وفي هذا إكرامٌ

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 60.

(2) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 444.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 60، 61.

(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 61.

لهم بتلبية ما يشتهون، وللدّلالة على أنّ ما يُمَدّون به يحقّق لهم الرّضا؛ لخُلوِّه ممّا لا يعجبُهم، فهو مشتهًى لهم[1]. وفيه إشارةٌ إلى أنّ كلّ ما يشتهونه يكون أمامَ أعينهم، فيختارون منه ما يشاؤون، ولم يُعَبّر بالحُبّ؛ لأنّ الشّهوة تتعلّق بالمَلَذّات فقط؛ بخلاف الحُبّ فإنّه يتعلّق بالمَلَذّات وغيرها[2]. وعبّر بالفعل المضارع للدّلالة على دوام إكرامهم، وتلبية مشتهاهم.

نُكْتَةُ فصل قوله: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾:

التّنعّمُ بالفاكهة واللّحم واقعٌ في حالة المنادمة

فصل النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾؛ لأنّها جملةٌ حاليّة من المفعول به في: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم﴾[3]، أي: إنّهم "يشربون مُتجاذِبين مجاذبةَ المُلاعبةِ؛ لفَرْط المَحبّة والسّرورِ، وتحليَةِ المُصاحبة"[4].

دلالة التّعبير بـ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

تعاطي الكأسِ وتداولُها بين الجالسين من نعيم الصّحبة

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ التّنازع في قوله جلّ شأنه: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾؛ للدّلالة على تداولهم الكأس فيما بينهم، وتعاطيهم لها، كما ينزع الرّجلُ القويّ الدّلوَ من البئر ويناولُها لمَن حوله[5]. وممّا يُذكَر في دلالة التّعبير أنّه يُصوّر حالةَ المجاذبةَ وتنازعَ الكؤوسِ بين الجالسين في مجلس شرابها، فيتبادلونها في شوق ورغبة ونزوع أنفسِهم إليها، وممّا يؤكد ذلك: أن صيغة ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾ بهذا التّفاعل تُصوّر ذلك المشهد[6]. وجاء التّعبير بالفعل المضارع للدّلالة على دوام ذلك وتجدّده، واستحضارِ مشهدِ تعاطي الكؤوس.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 17.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 139.
(3) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 114.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 17.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 52.
(6) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 9/ 566.

نُكْتَةُ تقديمِ شبهِ الجملة ﴿فِيهَا﴾:

شرفُ مكانِ الجنّة أهمُّ ممّا يَحْدُثُ فيه

قدّم النّظمُ الجليل شبهَ الجملةِ ﴿فِيهَا﴾ على المفعول به في قوله جلّ شأنه: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا﴾، دون أن يقول: (يتنازعون كأسًا فيها)؛ لأنّ موطنَ التّنازعِ وهو الجنّة هو الأهمّ في بيان حُسْنِ ذلك الإنعام والإمداد والتّنازع. كما أنّ تأخير الكأس فيه تشويقٌ لذِكْره بجَعْلِ الأسماع تتطلّع إلى ذلك الذي وقع فيه التّنازعُ.

دلالةُ التّعبير بالظّرفيّة:

تعاطي الكؤوسِ وتجاذبُ الجُلَساءِ في الجنّة يكون في مشهدٍ ظاهر أمامَ الأعينِ

دلّ التّعبيرُ بالظّرفيّة في قوله: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا﴾ على أنّ تعاطيَ الكؤوسِ وتجاذبَ الجُلَساءِ بها يكون في مشهدٍ ظاهر في الجنّة أمامَ الأعينِ، من باب مزيد الإنعام والإكرام؛ بخلافِ التّعاطي في الدّنيا؛ فإنّه يكون خُفيَة وليس ظاهرًا.

دلالة التّعبير بقوله: ﴿كَأۡسٗا﴾ بالإفراد مع دلالة التّنكير:

الفخامة ظاهرة في هذه الكؤوس

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالكأس مفردًا مُنكّرًا في قوله جلّ شأنه: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾؛ للدّلالة على فخامة الكأس وحُسْنِها العظيم، وليس المرادُ أنّهم يتناولون من كأس واحدة، بل من كؤوس عديدة؛ لذا عبّر بالمفرد؛ لأنّ المراد جنسُ الكأس[1].

بلاغة المجاز في التّعبير عن الخمر بالكأس:

الخمر مَقرُّها الكأسُ، فسمّيت باسم مقرّها

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ الكأس في قوله جلّ شأنه: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا﴾؛ للدّلالة على الخمر، وذلك على طريقة المجاز، وذلك لعلاقة المَحلّ، فسمَّى الخمرَ باسم محلّها وهو الكأس[2]، من باب المجاز المُرْسَل، وهو من إطلاق اسم المَحلّ على الحالّ؛ لأنّ التّناول والتّعاطي ليس للكأس، بل لما حلّ فيها، ولذلك أنَّثَ الضّمير في قوله: ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا﴾.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 53.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 149.

دلالة التّعبير بقوله: ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا﴾:

عبّر النّظمُ الجليل بالجملة المنفيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾؛ لبيان صفة الكأس، أي: أنّ صفة هذه الخمرِ أنّه لا يقع بسببها لغوٌ أو تأثيم، والمعنى: أنّها لا يخالط شاربيها اللّغوُ والإثمُ بالسّباب والضّربِ ونحوِه، فهي ليست كخُمور الدّنيا[1].

خمر الجنّة مَحْضُ تلذّذٍ لا لغوَ فيها ولا باطل

سرّ نفي اللّغوِ دونَ غيره في قوله: ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا﴾:

خصّ القرآنُ الكريم نفيَ اللّغو من الكلام دون غيره؛ لأنّه يُطْلَق على ما لا يُعتدّ به؛ حيثُ يخرج من المتكلّم لا عن رويّة وفكر، بسبب السُّكْرِ الموجود في خمر الدّنيا الذي يُذْهِب العقلَ؛ فجاء بهذا النّفي ليُفرّق بين خمرِ الدّنيا وخَمرِ الآخرة.

التّفريق بين خَمر الدّنيا وخَمر الآخرة

سرّ النّفي بـ ﴿لَّا﴾:

عبّر النّظمُ الجليل بحرف النّفي ﴿لَّا﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾، دون غيره من حروف النّفي؛ لأنّها تدلُّ على المبالغة في النّفي؛ وذلك لأنّهم عَهِدوا في خمر الدّنيا الغوائلَ التي تنتاب شاربها، فنفى ذلك عن خمر الجنّة[2].

ليس في خمر الجنّة ما عُهِدَ في خمر الدّنيا من مساوئ

نُكْتَةُ تنكير ﴿لَغۡوٞ﴾ و﴿تَأۡثِيمٞ﴾:

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن نفي اللّغو والتّأثيم في قوله جلّ شأنه: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ بالتّنكير دونَ التّعريف؛ فلم يقل: لا اللّغو فيها ولا التّأثيم؛ لشمول جميع أنواعِ اللّغو والتّأثيم، فهي لا يعقبُها شيءٌ من ذلك على الإطلاق. وممّا يُذْكَر في دلالة التّنكير إفادةُ العموم؛ لأنّهما جاءا في سياق النّفي؛ فأفاد ذلك نفيَ اللّغو والتّأثيم مطلقًا، وهذا من كمال الإنعام، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنّه يلزم من نفي اللّغو والتّأثيم وجودُ القولِ الطّيب والذّكرِ الحَسَن.

جميع أنواعِ اللّغو والتّأثيم منفيٌّ عن شراب أهل الجنّة

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 53.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 17.

دلالة تكرار التّعبير بالظّرفيّة ﴿فِيهَا﴾:

اللّغو يتسبّب عن الشّرب لا عن الخمر بذاتها

تكرّر التّعبير بالظّرفيّة ﴿فِيهَا﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾؛ وذلك لاختلاف المُراد بكلٍّ منهما؛ فالأولى: المراد بها في الجنّة، والمعنى: يتعاطَون في الجنّة؛ أمّا الثّانية: فتعود إلى الكأس، ويكون المعنى: لا يتكلّمون بلغو الحديث في أثناء شربها، ولا يفعلون ما يُؤَثِّم به فاعلُه، كما هو عادة الشّاربين في الدّنيا. وهي هنا للظّرفيّة المجازيّة، فاللّغو ليس في الخمر، بل في شربها، أي: بسبب الشّرب[1].

نُكْتَةُ تقديمِ اللّغوِ على التّأثيم:

اللّغوُ قولٌ، والتّأثيم فِعْلٌ، والقول أسبق من الفعل

قدّم النّظمُ الجليل اللّغوَ على التّأثيم في قوله جلّ شأنه: ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾؛ وذلك لأنّ اللّغو هو لغو الحديث وسَقْط الكلام، وهو ما يصدر عن خلل العقل بعد تناول الخمر، أمّا التّأثيم فهو ما يُؤَثِّم فاعلُه، ويُنْسَب إلى الإثم[2]، وعليه فإنّ اللّغو قول، والتّأثيمَ فعل، فقدّم القولَ على الفعل لأنّه يأتي قبلَه.

دلالة تكرار (لا) في قوله: ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾:

نفي اللّغو والتّأثيم عن شراب أهل الجنّة في كلّ الأحوال

دلّ تكرارُ (لا) على التّأكيد واستقلال كلّ منهما؛ فنفيُ اللّغوِ أمرٌ مستقلٌّ، ونفي التّأثيم أمرٌ مستقلٌّ، وفيه إشارةٌ إلى نفيهما معًا؛ فلا لغو ولا تأثيم لا في حالة الانفراد ولا في حالة الجمع.

دلالة العطف في قوله: ﴿وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾:

الجنّة ليست دارَ تكليفٍ

عُطِفَ قولُه: ﴿وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ على قوله: ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا﴾؛ للإشارة إلى أنّ الشّاربين لا يفعلون ما يُؤَثِّم به كما كان في الدّنيا، ولا يُنْسَب فاعلُ ذلك إلى الإثم في الآخرة؛ لأنّها ليست دارَ تكليف.

---

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 8/ 104.

(2) الإيجي، جامع البيان: 4/ 202.

أثر تعدّدِ القراءات في قوله: ﴿لَّا لَغۡوٌ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٌ﴾:

في قوله تعالى: ﴿لَّا لَغۡوٌ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٌ﴾ قراءتان؛ الأولى: بالفتح فيهما من غير تنوين: ﴿لَّا لَغۡوَ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمَ﴾، قَرَأ بها ابْنُ كَثيرٍ والبَصْريّانِ، والثانية: بالرفع فيهما من غير تنوين[1]، قرأ بها الباقون. ووجه من قرأ بالفتح من غير تنوين على أن ﴿لَّا﴾ نافيةٌ للجنس تعمل عمل (إن)، والمراد النّفيُّ العامّ؛ أمّا على قراءة الرّفع والتّنوين؛ فـ ﴿لَّا﴾ تعمل عمل (ليس)، ويكون لفظ ﴿لَغۡوٌ﴾ مرفوع على أنّه اسم (ليس) وفيها خبره، وقوله: ﴿وَلَا تَأۡثِيمٌ﴾ معطوف على الاسم، واكتُفيَ عن خبر الثّاني بخبر الأوّل[2].

دلالة عدمِ ذِكْر الظّرفيّة مع قوله: ﴿وَلَا تَأۡثِيمٌ﴾:

جاء التّعبير القرآنيُّ بعدم ذِكْر الظّرفيّة مع التّأثيم ﴿فِيهَا﴾ كما ذُكِر مع اللّغو في قوله: ﴿لَّا لَغۡوٌ فِيهَا﴾؛ وذلك اكتفاء بما سبق، ولأنّ اللّغو يحدث أثناءَ شربِها؛ أمّا الإثمُ فهو بسبب شربها، هذا في الدّنيا؛ أمّا في الآخرة فلا يوجد إثمٌ؛ لأنّها ليست دارَ تكليفٍ ولا محاسبة.

دلالة الواو في ﴿وَيَطُوفُ﴾:

تنازع الكأسِ واقعٌ مع طواف الغِلمان

عطف النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ﴾ على الجملة في قوله تعالى: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾؛ وذلك لأنّه حالٌ آخر معطوف على الحال الذي قبلَه، وهو متمِّمٌ له[3]؛ وذلك لبيان أنّ الإمداد بما يشتهون من الفواكه واللّحم يكون في حالة تنازعهم الكأسَ وتعاطيهم إيّاها، وطوافِ الغِلمان عليهم لخدمتهم.

---

(1) القاضي، البدور الزّاهرة: 2/ 862.

(2) ابن أبي مريم، الموضح في وجوه القراءات: 3/ 1213.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 54.

دلالة التّعبير بالطّواف مادّةً وصيغةً:

تـردُّدُ الغِلمان على أهل الجنّة بشكلٍ متكرّر

عبّر القرآنُ الكريم بالطّواف في قوله: ﴿وَيَطُوفُ﴾؛ لأنّه يدلّ على المشي المُتكرّر ذهابًا ورجوعًا، وأكثرُ ما يكون على الاستدارة؛ لأنّ شأنَ مجالسِ الأحبّة والأصدقاء أن تكون حِلَقًا ودوائر ليستووا في مرآهم، كما أشار ذلك قولُه: ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ﴾. وجيء به في صيغة المضارع للدّلالة على التّجدُّد والتّكرّر، أي: ذلك لا ينقطع بخلاف لذّات الدّنيا فإنّها لا بدّ لها من الانقطاع بنهاياتٍ تنتهي إليها؛ فتُكَرِّه لأصحابها الزّيادةَ منها، لما تحملُه من عواقب نفسيّة وبدنيّة.

نُكْتَةُ تعديَة فعلِ الطّواف بـ(على):

نعيمُ الجنّةِ لا نـصبَ فيـه ولا تعب

عدّى النّظمُ الجليل فعلَ الطّوافِ بحرف الجَرِّ (على)، وهو دالّ على الاستعلاء في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ﴾؛ وذلك للدّلالة على تمكّن الطّواف منهم، وهذا يدلّ على كثرته. كما أنّه يُشير إلى أنّهم مخدومون تأتيهم الأطعمةُ والأشربة، وهم جالسون بلا عناء. وفي التّعبير به إشارةٌ إلى وجود سقاةٍ مخصوصين يقومون على خدمة شاربيها، كأنّها وظيفةٌ لهم يناولونهم ما فيه لَذّاتُهم.

نُكْتَةُ حَذْفِ متعلّق عالطّواف:

لدلالة السّياق عليه

حذف النّظمُ الجليل متعلِّقَ فعلِ الطّواف في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ﴾، فلم يقل: (يطوف عليهم غلمانٌ لهم بكأس)؛ وذلك اعتمادًا على ظهوره ولسبق ذِكْره في قوله: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا﴾، فلمّا تقدّم ذِكْرُ ما شأنُه أن يُطاف به هنا، تركَ ذِكْرَه بعد فعل الطّواف[1].

نُكْتَةُ تقديمِ شبهِ الجملة ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

المـقـصـودُ بالامتنان تكريمُ أهلِ الإيمان

قدّم النّظمُ الجليل شِبهَ الجملة ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على الفاعل في قوله

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 55.

جلّ شأنه: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ﴾، فلم يقل: (ويطوف غلمانٌ عليهم)، من باب تكريمهم والاهتمام بهم؛ وذلك لأنّ (هم) المقصودون بالطّواف.

سرُّ التّعبيرِ بالغِلمان دون الأولاد:

الغِلمان مناسبٌ لأداء وظيفة الجمال والقوّة

أوثِر التَّعبيرُ بالغِلمان؛ لأنّه يُطلَق على الشّباب حين بلوغِهم سِنّ النّكاح أو كاد أن يبلغها، وهو ما يتناسب مع هذه الوظيفة من القوّة وجمالِ المنظر؛ بخلاف الأولاد فإنّه يُطلَق على المولود وعلى الصّغير بالسّنّ، وهو غير مناسبٍ لأداء هذه الوظيفة التي يُرجَى فيها الجمال والقوّة.

نُكْتَةُ تنكير ﴿غِلۡمَانٞ﴾:

مخاطبة النفس بأفضل ما تحب من كثرة من يقومون على خدمتهم

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن الغِلمان بالتّنكير في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ﴾، ولم يقل: (غلمانهم)؛ لأنّ تعريفهم بالإضافة أو اللّام هنا قد يوّقِع الوَهْمَ بأنّهم الغِلمان الذين كانوا يخدمونهم، فسيُشْفق مَن كان خادمًا لأحدٍ في الدّنيا أن يكون خادِمًا له في الجنّة، فيَحْزَنُ بأنّه لا يزال تابعًا. كما أفاد التّنكيرُ أنّ كلّ مؤمنٍ دخلَ الجنّة سيجد له خَدَمًا لم يعرفْهم قبلَ ذلك[1]، فهم غِلمانٌ مخلوقون خَلْقًا جديدًا خاصًّا لخدمة أهل الجنّة.

دلالة اللّامِ في قوله: ﴿لَّهُمۡ﴾:

الاختصاص لهم دونَ غيرهم بالخِدمة

عبّر النّظمُ الجليل بحرف الجرّ (اللّام) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ﴾؛ وهي هنا دالّةٌ على الاختصاص، أي: هم مخصوصون بهم[2]. وفيه إشارةٌ إلى قدرتهم على التّصرّف فيهم بالأمر والنّهي والاستخدام، كما هو المشهور في تعاملهم في الدّنيا.

(1) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 115.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 104.

بلاغة التّشبيه في قوله: ﴿كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ﴾:

جمال الوَجه من جمال التّنعّم

شبّه النّظمُ الجليل الغِلمانَ باللّؤلؤ المكنون في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ﴾؛ وذلك للدّلالة على حُسۡن المَرأى[1]، فحُذِفَ وجهُ الشّبهِ ليَعُمّ كلّ الصّورِ التي يمكن أن تفهم من تشبيه أحدٍ باللّؤلؤ، كالنّعومة واللّطف والجمال وحُسۡن المنظر. والفائدةُ من ذلك كلّه بيانُ عِظَم الإكرام وجميلِ الإحسان. واختار اللّؤلؤ لكونه معلومًا لنا؛ وإلّا فالفَرۡق بينهما واسعٌ؛ فشتانَ ما بين لؤلؤ الدّنيا ولُؤلؤ الجنّة.

نُكۡتَةُ تنكير ﴿لُؤۡلُؤٞ﴾:

تفخيم اللّؤلؤِ وتعظيمُه

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن اللّؤلؤ بالتّنكير في قوله جلّ شأنه: ﴿كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ﴾؛ لما في التّنكير من تفخيم وتعظيم، فهم مِثلُ لؤلؤٍ عظيم في المنظر وحُسۡنِ المَرأى.

نُكۡتَةُ وصفِ اللّؤلؤ بأنّه ﴿مَّكۡنُونٞ﴾:

الدّلالة على كمال حُسۡنِه وصَونِه من العوارض

وصف النّظم الجليل اللّؤلؤَ بأنّه مكنون في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ﴾؛ وذلك للدّلالة على أنّه لؤلؤ في غاية الصّون، فهم مِثلُ لؤلؤٍ مصون في الصّدف، فإنّه لا يُخۡزَن إلّا الثّمينُ الغالي القيمة، واللّؤلؤُ المكنون نقيُّ البياض صافي اللّون[2]، فهو وصفٌ لبيان كمال الحُسۡن.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 55.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 149.

المحتويات

الجزء السادس والعشرون 7

سورة الحُجُرَات 9

- [الحجرات: 15] 10
- [الحجرات: 16] 21
- [الحجرات: 17] 31
- [الحجرات: 18] 39

سورة قٓ 45

- [ق: 1] 55
- [ق: 2] 61
- [ق: 3] 70
- [ق: 4] 76
- [ق: 5] 85
- [ق: 6] 90
- [ق: 7] 100
- [ق: 8] 109
- [ق: 9 - 10] 114
- [ق: 11] 124
- [ق: 12 - 14] 131
- [ق: 15] 141
- [ق: 16] 148
- [ق: 17 - 18] 157
- [ق: 19] 168
- [ق: 20 - 21] 176
- [ق: 22] 184
- [ق: 23] 193
- [ق: 24 - 26] 198
- [ق: 27] 209
- [ق: 28 - 29] 216
- [ق: 30] 227
- [ق: 31 - 32] 233
- [ق: 33 - 35] 241
- [ق: 36] 252
- [ق: 37] 262
- [ق: 38] 271
- [ق: 39 - 40] 277
- [ق: 41 - 42] 290
- [ق: 43 - 44] 299
- [ق: 45] 310

سورة الذَّاريَات 321

- [الذاريات: 1 - 6] 328
- [الذاريات: 7 - 9] 356
- [الذاريات: 10 - 14] 372
- [الذاريات: 15 - 19] 394
- [الذاريات: 20 - 23] 427
- [الذاريات: 24 - 30] 456

الجزء السابع والعشرون 501

- [الذاريات: 31 - 37] 502
- [الذاريات: 38 - 40] 542
- [الذاريات: 41 - 42] 566
- [الذاريات: 43 - 45] 580
- [الذاريات: 46] 599
- [الذاريات: 47 - 49] 607
- [الذاريات: 50 - 51] 627
- [الذاريات: 52 - 55] 641
- [الذاريات: 56 - 58] 667
- [الذاريات: 59 - 60] 687

سورة الطُّور 703

- [الطّور: 1 - 8] 712
- [الطّور: 9 - 14] 729
- [الطّور: 15 - 16] 745
- [الطّور: 17 - 20] 756
- [الطّور: 21 - 24] 775

